لماذا أنا مسلم؟ (١)

براهين
وجود الله

في النفس والعقل والعلم


بسم الله الرحمن الرحيم

براهين

وجود الله

في النفس والعقل والعلم

د. سامي عامري

براهين

وجود الله

في النفس والعقل والعلم

د. سامي عامري

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ/٢٠١٨م



Business center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith,
London W6 9DX, UK

www. Takween-center.com
info@Takween-center.com

تصميم الغلاف :



+966 5 03 802 799
المملكة العربية السعودية – الخبر
eyadmousa@gmail.com

الإهـــــداء..

بعد حمد الله على فضله الذي لا ينقطع، أهدي هذا الكتاب إلى..

Omar W

“May Allah’s blessing light your way, strengthen your faith & bring joy to your hear”

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

قبل البدء..

بسم الله وحده، والصَّلاة والسَّلام على من لا نبيّ بعده..

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)﴾

أَيَّامٌ من حياتي..

عليَّ أن أعترف ـ بدءًا ـ أنّني لا أُحْسِن جمع فُتات الذّكريات.. وليس في حياتي ما يستحِقُّ لَفْتَ انتباه القارئ أو استثارته.. وأُحِبُّ ـ مع ذلك ـ أنْ أبدأ هذا الكتاب بنظرة طائر على رحلة المؤلّف مع الإيمان، قد تضيء لك بعض الشُّموع وأنت تجول في ساحات هذا الكتاب ومضائقه؛ إذ قد يخطر في ذهنك وأنت تعبر سريعًا بناظريك على ورق فهرس الكتاب أنّ الفصول التي بين يديك حديثُ مسلِمٍ أسيرِ وراثة دينِ الأَجْداد وهَيْمَنةِ الثّقافة التقليديّة للبيئة العتيقة؛ فما أراد بكتَابَيْهِ في ثنائيَّة «لماذا أنا مُسْلِم؟» ـ «براهين وجود الله» و«براهين النبوّة» ـ سوى أن ينتصر لِدِينِه بحماسة الغِرِّ الذي لا يعلم أنّ وراء أسوار عالَمِهِ الصَّغير عالَمًا من أفكارٍ مَوَّارة، وصراعاتٍ حاميةٍ بين عقائدَ متنافرة، متشبّثًا بأوهامٍ مَسْطُورةٍ في زُبُر السَّاذجين..

إذا كان القارئ يعتقد أنّ المؤلّف مقلّد للموروث، واقِعٌ تحت أَسْرِ التَّفسير الرَّغْبَوِيِّ، فما يأتي من الكلام يَعْنِيهِ..

إنْ كان في حياة المؤلّف شيءٌ أَضْمَنُ لك العلم به بيقين، فهو أنّه لم

يَعِشْ في بيئةٍ تَتَعَصَّبُ للإسلام، ولا حتّى ترى أنّه حِمًى مَصُون.. بل كان غير ذلك.. أو قل: بل نقيض ذلك.. لقد نشأ في بيئةٍ تحكُمُها أعرافٌ تُقَدِّسُ الدَّبيب على الأرض، ولا ترى جواذب نور السَّماء غير بَهْرجٍ يُغْرِي مُتْرَفي الذِّهْنِ، وتلك حصيلة مشروعِ التَّشْتيتِ فالتَّجْفيفِ الذي قادَهُ رَبِيبُ الاستعمارِ الفرنسيّ بحرصٍ لم يكن الاحتلالُ الفرنسِيُّ يَطْمَعُ في مثلِهِ ولا نَصِيْفهِ..

نَشَأَ المؤلِّفُ في بيئةٍ قد يُحدّثك الناس فيها عن كلّ شيء، وقد يتحمَّسُون لكلّ فكرة، ويجتهد النُّبَهاءُ لقلب كلّ صخرةٍ بحثًا عن كَشْفٍ أو كَنْزٍ، لكن يبقى الإسلام هو المحظور الوحيد الذي يرهبه الناس لأنّه خَطَرٌ على سلامة النَّفْس من أذى جَلاوِزَةِ السُّلطان حيث الشَّمسُ مُهدَّدة كلَّ حين أنْ تَغِيْبَ عن ناظِرَيْكَ إذا رأيت في الإسلام أملًا يُحرّك الحياة فوق عالم النُّسُك الضيّق والمظاهر الموسميّة الفارغة..

تهمة الانتماء إلى الإسلام ـ في أدنى مظاهرها التي دونها الانتماء الجغرافيّ البارد ـ هي التُّهْمة التي ليس بعدها تُهمة؛ لأنّها ـ عادة ـ بدايةُ رحلةِ المعاناة في الزَّنازين، رَغْمَ أنَّ الأمر بِرُمَّتِهِ لا يعدو كونه إيمانًا بالإسلام وقناعة بفساد الواقع.. ولكنّ الأفكار مدانة حتّى لو كانت حسيسًا في الصدر..

كان من أعظم ما يستفزّ خاطري ـ تلك الأيام ـ أن أرى على القنوات التلفزيونية من يتحدّث عن غُرْبةِ الدِّين في أيِّ بَلَدٍ من بلاد المسلمين.. كنت أقول لنفسي: تبًّا لجَهْلِهِمْ ووَقَاحَتِهِمْ! هؤلاء لا يعرفون ما الغُرْبة! هؤلاء لم يُجرّبوا أنْ يُسْجَنُوا في جُلُودِهِم، ويَتَنَفَّسُوا أَطْلَالَ الرِّيح مِنْ ثَقْبِ إِبْرةٍ..!

كنت كُلَّما خرجْتُ من البيت إلى غيرِ المسجدِ القريبِ من البيتِ، أَعُودُ مُنْهكًا؛ كُسُورَ شظايا، ولا أَسْتَرِدُّ هدوء أنفاسي اللَّاهثة حتّى أَرْمِيَ أَضْلُعي على الفِراشِ وقد مَزَّقني الشُّعور بالوَحْشة، وتبعثرَتْ أجزائي إلى مزيدِ شَتَاتٍ.

كانت المكتباتُ العامَّةُ والخاصَّةُ طافِحَةً بكتب العالمانيِّين والملحِدين الدَّهْرِيِّين، وكلِّ المعطِّلين لأُصول الدِّين؛ بل انتشرَتِ الأناجيل بصورةٍ وَبَائيَّةٍ وعجيبةٍ في معارض الكتاب، في بلد ليست فيه أقليّة نصرانيّة.. باختصار، كان لِكُتُبِ كُلِّ تيَّارٍ فكريٍّ عربيّ أو غربيٍّ وجودٌ في تونسَ إلَّا التي تدعو إلى

الإسلامِ في واقِعِنا.. كان واقعًا بلا أُفُقٍ، نُحِرَ فيه الأَليق.. واقعًا أسيرًا في قَبْضةِ الظَّلام؛ فلا ضِرامَ للنُّورِ يُشعشِعُ عند الفَجْرِ..

وكان البلاءُ الأَعْظَمُ كامنًا في ظهورٍ في المنظومةِ التّعليميّةِ التي جَمَعَتْ إلى الفقرِ المعرفيِّ، تسطيحَ مداركِ الطَّلَبةِ، وصَرْفهم عن التّفكيرِ في حقيقةِ وُجودِهم، وأسئلة المعنى والغاية.. كان حِصارُ الفِكْر أعظمَ من حِصارِ الأبدانِ.. لا صَوْتَ فوق صوتِ القَحْطِ..

وقد اعتدنا ونحن في المدارسِ جُرْأَةَ بعضِ المدرّسين على سبِّ الدِّينِ، والاستهزاءِ بمقدّساتِ الإسلامِ، والدَّعوةَ جهَارًا إلى الإلحاد.. ولا تَنْسى عَيْنِي مَنْظَرَ مُدرِّسةِ «التّربية الإسلاميّةِ» ـ وهي وَقْتَها مادَّةٌ باردةٌ بلا رُوحٍ ـ، وقد دخلَتْ قاعةَ التَّدريسِ تحملُ قُبَّعةً على رأْسِها، وفي وَجْهِها انكسارٌ باكٍ بعد أَنْ مُنِعَتْ من لبْسِ غِطاءِ الرَّأْسِ؛ فما كان لها إلَّا أن تُخْفِيَ خِمارَهَا بِقُبَّعةٍ تَبْصِمُ على هيئتها بَصْمَةَ النَّشَازِ..

أعظم ما يمكن أن يَجْلِدَ نفسَك في تلك المحنة هو أنْ يجترِئَ عقلُكَ على التَّفكيرِ في الأسئلةِ الوُجُوديّةِ، فقد تَمَّ سَحْلُ الدَّعوةِ الإسلاميّةِ بالكُليّةِ؛ فَحَالُ أَهْلِها لا يكاد يخرجُ عن السّجْنِ أو الاغترابِ في أُوروبا، وكان التيّارانِ الشيوعيُّ والحداثِيُّ يتقاسمان المنابرَ المعلنةَ في الجامعةِ والإعلامِ، مُحْتَكِرَيْنِ مساحاتِ البلاغِ..

أنْ تُفَكِّرَ دون خيارٍ في أنْ تسأَلَ وتبحثَ في خيارِ الإسلامِ، مِحْنَةٌ لم تُعْرَفْ إلَّا في أُوروبا القُرونِ الوُسْطى ـ حاشَا الأندلس ـ، أو بلَادِ شُيُوعِيِّي القرنِ العشرين..

في تلك الظُّلمةِ التي مَرَّ عليها عَقْدانِ كانت سَلْوايَ في مكتبةٍ اكتشفْتُ أنَّها نَجَتْ من برنامجِ القَحْطِ المُمَنْهَجِ (لأسبابٍ ما).. كنتُ أَنْصَرِفُ عن الحضورِ للجامعةِ إلَّا ما كان واجبًا، لأرتادَ هذه المكتبةَ، وأَتَنَفَّسَ ما فيها من رُوحٍ، أَسْتَعِيدُ بذلك أَنْفاسَ الحياةِ.. وهناك انْفَتَحَتْ لي رَوْزَنةٌ إلى سَمَاءٍ أَوْسَعَ، وإنْ على ضِيْقٍ.

كنتُ أَقْرَأُ بِنَهَمٍ، وأَبْحَثُ عن الكُتُبِ بِتَوَتُّرٍ شديدٍ لَعَلِّي أَظْفَرُ بشيءٍ جادٍّ

أَفْلَتَ من أيدِي «محاكِم التَّفْتِيشِ».. ولا أزالُ أُعاني هذا الحِرْصَ الحامي في قراءةِ ما أَخْشى أنْ يَفْلِتَ من يَدَيَّ رغم مُرورِ سنينَ عَدَدًا على تلك التَّجربةِ التي تَرَكَتْ أَنْدابًا في نفسي لا تُمْحَى ولا تندَمِلُ، وكأنَّ تلك اللَّهْفةَ قد اسْتَوطَنَتِ الخلايا؛ فهي تَأْبى أنْ تخمدَ وإنْ غابَ مُحَفِّزُها..

كان القلقُ الوجوديُّ في نفسي كامنًا في سؤالٍ كبيرٍ يُشْعِلُ في نفسي لهيبَ الحَيْرَةِ ويَنْثُرُ الكِيْرَ على قلبٍ يبحث عن صفاء: كيف يعيش هؤلاء السَّائرون أمامي في الشَّوارع دون قَلَقٍ؟! كيف تَحْمِلُهم خُطاهم على الطَّريق بِرِفْقٍ، والطَّريق بعيدٌ وشاقٌّ؟! وإذا كان الإسلامُ الشَّامل ـ برؤيته الكونيَّة ورُسُومِهِ العمليّة ـ دينَ النَّاس؛ فلماذا لا يُشكّل الإسلام واقِعَهُم؟ كيف تُطيق نَفْسُ المسلم أن تختصر هذا الدّين في أشكالٍ نُسُكيَّةٍ منزوعةِ الحرارة؟ مَنِ المُخْطِئُ: عَقْلِي القَلِقُ أم هذا الوجود الصَّاخِبُ بالصَّمْتِ؟

كانت مخالطةُ النَّاسِ تزيد السُّؤال اتِّقادًا، وكانت نفسي تَجِدُ راحتها في قِلَّةٍ ممَّنْ عرفْتُ، أَغْفَلَتْهُمْ يَدُ الطُّغاة، ثم حَصَدَتْ بعضَهُم لاحقًا.. جميلٌ أن تكتشِفَ أنَّ في الدُّنيا بشرًا يَسْعَون إلى فَهْمِها، ويحرِصُون على الوفاء لذلك، ويرضون حَمْلَ هَمِّ الفَهْمِ وأوجاع السَّيْر خِلاف القَطِيع التَّائِهِ..!

كانت التيّارات الشيوعيّة والحداثيّة تستغِلُّ فوبيا ما يُسمّى بـ«الإسلام السِّياسيِّ» لِتُمَكِّنَ لِمُؤسَّساتها ورُمُوزها في البلاد، خاصَّةً أنَّ غضب الطاغية على هؤلاء كان رفيقًا ورقيقًا بسبب سلطان الرَّقيبِ الفرنسيِّ مُمثَّلًا في الدَّولةِ الفرنسيَّة ومنظَّمات ما يُعْرَفُ بحقوق الإنسان، أو «دكاكين حقوق الإنسان» بتعبيرِ بعض الصُّحفيِّين المِصْريِّين..

في مثل ذاك الجوِّ كانت نَشْأتي، وهي بيئةٌ ما كانت لِتَدْفَعَ النَّفْسَ إلى أنْ تَتَّجِهَ للإسلام رؤيةً كونيّة وحقيقة مُقدَّسةً.. وفي مواجهة التيّار كان اقتناعي بالإسلام، وعلى خلاف المزاج العام[1] كان اهتمامي بالنَّظَر في الإسلام،

(١) تغيَّرَ الحال بعد ذلك ـ بحمد الله ـ بعد انتشار القنوات الفضائية ووسائل التواصل الاجتماعي التي كسرت أسوار السِّجن الكبير. واللهَ أسأل ـ بفضله ـ أن يردّنا جميعًا إلى الحق والهدى.

الرُّؤية الكونيَّة ومنهج الحياة.. وقد قرأْتُ في تلك الفترة في العقائد الدينيّة (خاصّة النصرانيّة) والمذاهب المعاصِرة، فلم أَجِدْ فيها غيرَ برهانٍ جديدٍ يَدْعَمُ بأجوبَتِهِ المتهافِتَةِ عن أسئلة الوجود الكبرى، صِدْقَ الأَجوبة الإسلاميّة وحلولها البسيطة والعميقة..

تلك قصة البداية منذ أكثر من عشرين سنة.. وبعدها، سافرت إلى واقع آخر غير إسلاميٍّ أيضًا، لكنَّهُ مفتوحٌ للمعرفة حيث بدأتُ رحلةً أرحَبَ في طلب العلم، والبحثِ بعمقٍ أكبرَ في أسئلةِ الوجود وشواهدِ الحقّ، وليس هنا باب ذكرها.. فيكفيكَ أن تعلم أنّ حِبْرَ هذا الكتاب لم تُحَرِّكْهُ على الصحائف تجربةُ التَّلقين التّقليديّ وإنّما حصائِدُ النَّظَرِ والتَّنْقِير الهادئ..

هل يُطوى الوجود في كتاب؟

لماذا أنا مسلم؟..

أن تشرح للناس، على اختلاف ثقافاتهم، ومقدمات نظرهم، ومَلَكاتهم، لماذا أنت على الإسلام، ولِمَ على كلّ إنسان أن يكون على هذا الدّين، مشروعٌ ضخم، لا يمكن لهذه الثنائيّة أن توفّيه حقَّه، ولكنَّ واجب البلاغ في بيئة تحفُّها الشُّبُهات أَلْزَمني أنْ أدفعَ الكتابَيْنِ إلى النَّاشر ضمن سلسلة «الإلحاد في الميزان» التي ابتدأناها بكتاب «مشكلة الشرِّ ووجود الله» جوابًا عن مشكلة الجَمْع بين كمال الله ـ سبحانه ـ ووجود الشرّ في العالم، وكتاب: «فَمَنْ خلَقَ الله؟» جوابًا ـ فلسفيًّا مختلطًا بالجدل العلميّ في الكوسمولوجيا ـ على اعتراض: «إذا كان وجود كلِّ شيء يقتضي مُوجِدًا، فمن أَوْجَدَ الله؟» ـ وهو اعتراض قد فشل في فهم البرهان الكونيّ لوجود الله ـ، وكتاب: «لماذا يطلب اللهُ من البشر عبادته؟» جوابًا على دعوى اقتضاء طلب/ أمر الله البشر أن يعبدوه نقصًا في ذات الإلٰه أو عبثًا في حقيقة الطلب/ الأمر، وكتاب: «العالمانيّة، طاعون العصر، كشف المصطلح وفضح الدلالة»، وهو في تعريف أكبر تيَّارٍ إلحاديٍّ، وهو الإلحاد العالماني (أو العلماني كما يُكتب عادة) الذي قد لا يُنكِرُ وجود الربّ الخالق، لكنّه يرد بوضوح وجود الإلٰه الآمر..

وثنائيّة «لماذا أنا مسلم؟»، تهتم بجواب الاعتراض الإلحادي الذي يزعم

غياب أدلّة إيجابيّة على وجود الله ووحدانيّته وصدق النبوّة المحمّدية.. وبذلك تكون غاية هذا الكتاب، وكتاب «براهين النُّبُوَّة» دفع الدعوى التي تزعم أنّ الانتماء إلى الإسلام ميراثٌ ثقافيٌّ، سببُهُ جغرافيٌّ، لا تقوم له براهين مقنعة..

وجواب سؤال «لماذا أنا مسلم؟» محرج لأنّه مُرهِق؛ إذْ يطلب في صورته الغرَّة من الكاتب أن يجمع خيوط الآفاق وما وراءها أمام عيني القارئ؛ فيرى دقيقَ تفاصيلِها قبل عظيم ملامحها.. وذاك مُحالٌ، وإن جاوزَت هذه الثنائيّة الألف صفحة؛ فهل تُحيطُ حَدَقةُ العَيْنِ بالبحر السَّارب إلى ما وراء منتهى البصر؟!

وإنّي وإن كنت لا أسعى إلى تجميل الكتاب في ناظري القارئ، تاركًا له الحكم على ما فيه من استدلالات، وردودٍ على النقود والمعارضات، إلَّا أنّني أسمح لنفسي أن أذكر أنّ هذا البحث قد فتح أمامي أبوابًا جديدة للنَّظَر، وعَمَّق في عقلي وقلبي فهمًا أجلى للكون. وقد وجدت ـ بالخبرة الشخصية ـ أنّ أفضل سبيل للتفكير، هو «التفكير بالكتابة»؛ أي: دراسة الأسئلة من خلال الحَفْر في مجالاتِ بحثٍ ضيّقة بجدٍّ وجهد يسعيان لاستيعاب أطراف الموضوع ومراجعة جهود السابقين في تناول الأسئلة ذاتها عند تأليف الكتب؛ إذ التأليف يستغرق عقل الكاتب وروحه، وينقله إلى معايشةٍ لصيقةٍ لأبواب بحثه..

وقد عِشْتُ مع أسئلة هذا الكتاب ـ والذي يليه ـ سنوات طويلة، غير أنّ عُكُوفي على تأليف هذا الكتاب والذي يليه هذه السنة والتي قبلها قد ألزمني أن أُفَرِّغَ الذِّهْنَ إلَّا من التَّفكير فيه، وأنْ أُفرّغ الوقت إلَّا من الاستغراق في التّجوال في نواحيه. وقد خرجْتُ منه على غير الحال التي بدأتُ فيها طرق أبوابه.. فقد اقتربتُ من صغير ملامحه؛ فإذا وراء تلك «الصَّغائر» تفاصيل شائقة، وإذا وراء تلك النوافذ الضيّقة سماوات فسيحة..

ولعلّي زمن الرقود في جُبّ الألفة وغيبة العادة كُنتُ موافقًا لمن يرى في قول الشاعر:

يَا عَجَبًا كيفَ يُعصَى الإلهُ ... أمْ كيفَ يَجْحَدُهُ الجاحِدُ
ولِلَّهِ فِي كُلِّ تحرِيكَةٍ ... وفي كُلّ تَسْكِينَة شَاهِدُ

وفِــــي كُـــــلِّ شـــــيءٍ لَــــهُ آيــــةٌ   تَــــدُلُّ عــــلـــى أَنَّـــهُ الـــواحِــدُ

لغة شاعريّةً لا تليق بصرامة العقل؛ فإنّ دلائل الوجود الإلٰهي محصورة عددًا، وإن كثرت، والقول: إنّها ظاهرة في كلّ شيءٍ لغةُ شعراء تُحِبُّ الألوان الفاقعة لتثير المشاعر الخاملة لا لغة الفلاسفة وعلماء الطبيعة.. غير أنّ الخروج من النظر العجول، إلى النفس والكون، والانغماس في السؤال عن حقيقة كلّ موجودٍ، وطبيعته، وأصله، ومآله، يقود ضرورة إلى رؤية آثار الوجود الإلٰهي فيه.. في كلّ شيء.

إنّ دلائل الوجود الإلٰهي ظاهرةٌ في حقيقة النَّفْس وتمدُّد الكون، وفي الذرّة والمجرَّة، وفي جَوْعة القلب وحركة العقل، في النَّبْتة والحيوان، وفي الزَّهْرة والبستان، وفي النُّور وحالِكِ الظَّلام.. إنّ التفكير في كلّ موجودٍ ـ حقيقته وهيأته ووظيفته ـ، لا بُدَّ أن ينتهيَ إلى الإقرارِ بوجود إلٰهٍ..

والكتاب يتناول النظر في الظواهر السابقة، ويكشف أنّها تشفُّ ضرورةً عن وجود إلٰه.. وتلك هي المشكلة.. كيف للكتاب أن يفي لموضوع براهين وجود الله بالعرض والبسط، والبراهين ظاهرة في كلّ شيء؟! لا حلّ غير الاكتفاء بأوضح الدلائل أو أدناها إلى العقل والعين، والاكتفاء بالتمثيل، بذكر بعض النماذج، دون الاستيعاب؛ فالاستيعاب محال.

ويبقى ـ بعد ذلك ـ من أهداف الكتاب أن يألف القارئُ رؤية آثار وجود الله في كلّ شيء؛ إذا أحسن طرح الأسئلة الفلسفيّة والعلميّة الممهّدة للنظر..

من أُحَدِّثُ؟ وبِمَ أُحَدِّثُ؟

المشكلة الكبرى التي واجهت هذا الكتاب عند بداية نَسْجِ أبوابه ونَظْمِ براهينه، هي طبقة القُرّاء الذين يتوجّه إليهم الخطاب؛ إذ لا يمكن بحالٍ أنَ يجمع كتابٌ يتناول براهين الإيمان جميع طبقات القُرَّاء، فهم ـ إجمالًا ـ ثلاثة أصناف:

- العامَّةُ ممن يُحبّون سهولة العبارة وتبسيط الدليل واختصار الكلام،

وتزعجهم وُعورة الاستدلال، وكثرة المصطلحات، وتتالي الاستطرادات لردّ شبهة وإبطال معارضة.

• المثقفون، وهم الذين يحملون معرفةً متنوّعةً بأمورٍ مُتعدّدةٍ دون تخصُّصٍ معرفيٍّ دقيقٍ في كلّ باب. وهؤلاء يُحبُّون بسط العبارة وتنويع الاستدلالات بعيدًا عن اللُّغة التخصصيّة.

• المتخصّصون، من الأنصار والخصوم، وهم «الذين يعلمون كلّ شيء عن شيء واحد»، وهؤلاء يحفظون الاستدلالات المشهورة، والطرائق المسلوكة في إقامةِ الحُجَجِ، ويبحثون عن التَّجديد.

لا شكّ أنّ الكتابة للعامّة مُغْرية؛ إذ تفتح للكتاب أبوابًا أكبر للقرّاء، غير أنَّ آفَتَها الحاجة إلى المبالغة في التبسيط حتى يفقد الكتاب جِدَّتَهُ وجِدِّيَّتَهُ، ليصبح صورة مكررة لما كتب من قبل، بالإضافة إلى وجوب الابتعاد عن ذكر الدلائل المركّبة والإشكالات الصعبة. كما أنّ التأليف في مخاطبة أهل التخصّص له طعم خاص؛ إذ يُطلِقُ يد الكاتب على سجيّتها، فلا يتكلّف التفسير والاستدراك بما يقطع دَفْقَ الكلام، كما يُريحه من عبء المقدّمات التفسيريّة. ويبقى ـ مع ذلك ـ الخيار الأفضل هو الكتابة للقارئ المثقّف الذي يملك صبرًا على القراءة، وجلدًا في تتبّع أوجه النّظر والجدل، وحماسةً لسَبْرِ غَوْرِ المَبَاحِثِ الجديدة. . . ولذلك كان هذا الكتاب متوجّهًا في نسج الكلام وسبك الأدلة إلى العقل المثقّف الجاد.

اندهش!

إذا أردنا أن نقترب من هذا الكون ـ ونحْنُ بعضه ـ لنقتحم لُجّته، فلننظر إليه وكأننا نراه أوّل مرة؛ نظرة الطِّفْل الوليد. . ولن نملك ذلك حتّى **نندهش**، فالاندهاش مفتاح كُلِّ كَشْفٍ، والبَلادةُ تُذْهِبُ قَلَقَ العين الباحثة والعقلِ الجريء. . وقد قيل: «كَثْرَةُ المِساسِ تُمِيْتُ الإحساسَ».

إنّ الاندهاش هو الخطوة الأولى لتأسيس إدراكٍ واعٍ بالوجود، بريءٍ من سلطان التَّلْقِين. . ولذلك هو طريق الأحرار في صناعة الثّورات الفكريّة، حيث

يواجِهُ المرءُ بيئته بالاندهاش من فسادِ ما أَلِفُوه وطُبِعُوا عليه، فيبثُّ في قومه شُعورَ الدَّهْشةِ، ومن الدّهشة تبرق الفكرةُ الواعيةُ بأنّ المألوفَ ليس من بداهات العقول ولا هو من رواسخ المواقف؛ فإنّ لِجُذوره نهايةً قريبة.. **وبالدّهشة يتجدَّدُ الوَعْيُ الكَوْثَرُ وينقطِعُ الوَعْي الأَبْتر.**

والنظر في هذا الوجود ـ حتّى لمن سَلِمَتْ فِطْرتُه من لوثات البيئة ـ يزيدُ إيمانَه عُمْقًا، ويُجذّره في أُصول القلب، ولذلك قال نبيّ الإسلام ﷺ يومًا: لقد نَزَلَتْ عَلَيَّ الليلة آياتٌ وَيْلٌ لمنْ قَرَأَها ولم يَتَفَكَّرْ فيها: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]»[1].. فالتفكُّرُ في الظواهر الكونيّة سبيلٌ لتعظيم أَمْرِ الربِّ، وإكبارِ نِعْمته، وتجديد الإحساس بمعنى الحياة وغايتها.

إنّ الاندهاش «إِكْسِيرُ الفَهْم»؛ لأنّه يَضُخُّ في رئةِ الوَعْي الشّوقَ إلى تنفُّس المعاني، والفرحِ بها، والسَّعي إلى فتح آفاقٍ جديدة كلّما بلغت أفهامُ الناس حدودًا متقدّمةً لِفَكِّ السِّحْرِ عن عالم الأشياء.

الاندهاشُ زادُ المَسِيرِ.. فانْدَهِشْ لِتَصْنَعَ السُّؤالَ؛ فالسُّؤال هو الذي يصنع الحضارة!

اثبتْ على مبدَئِك!

أبرز ملمحٍ للكتابات النّقّادة للتصوّر الإيماني عدمُ ثُبوتها على نهجٍ واحد في الحكم على المناهج والظواهر والمواقف؛ إذ يجعلُ المرءُ للمواضيع التي يطرقها موازين مختلفة وإن اتّحد جِنْسها، فهو إذا بحث في الإيمان بأمورٍ لا تُدرك إلَّا من خلال آثارها، كان سهلًا ليّنًا؛ يُصدّق وجود السّبب دون تكلُّف

(١) رواه ابن حبان، كتاب الرقائق، باب التوبة (ح/٦٢٦). وصححه الألباني.

ولا تنطُّع إذا كان الأمر بعيدًا عن مجال البحث الدينيّ، غير أنّه يَنْقَلِبُ شَكَّاكًا أسير أدنى عوارِضِ الرِّيبة إذا واجَهَ سؤال «الله» و«الخالق»...

إنّ العاقل الذي لا يَمُورُ صدرُه بعوارض اضطرابِ النَّفْس وفسادِ المزاج، يُحاكِمُ أَدِلَّةَ الإيمان والكفر بما يُحاكِمُ به ما أَلِفَه من مسائل؛ إذ ليس من الإنصاف أن يسير الإنسان على سُنَّةِ النَّاس في طلبِ معارف الدُّنيا، غير أنّه إذا بحث في أمر الإيمان تبنّى شُكوكيّة مَرَضِيَّةً لا تَقْبل الشَّيء إلَّا أن تراهُ مُعاينةً، ولا تَقْبَلُ الرُّؤية حتى يُقارنها الجَسُّ.

والنّاظر في أدبيّات الإلحاد يُدرك هيمنة النُّزوع الحادّ للشُّكوكيّة التي لو التزمها صاحبها لانتهى ضرورةً إلى مذهبِ «وَحْدَةِ الأَنَا» «Solipsism»؛ حيث يَشُكُّ في وجود كُلِّ شيءٍ خارجَ ذِهْنِهِ؛ بل قد ينفي وجود كلّ شيء غير نفسه.. غير أنّك لا تكاد تجد أحدًا من الملاحدة المناضلين عن الإلحاد يلتزم هذه الشكوكيّة المرَضيّة خارج الدَّرسِ الدّينيّ؛ فدوغمائيّات الإلحاد كثيرة جدًّا، خاصّة في عصر العِلمويّين. وقد أَحْسَنَ الفيلسوف (متش ستوكس)[١] في كتابه الماتع «كيف تكون مُلحِدًا: لماذا كثير من الشُّكوكيّين ليسوا شُكوكيّين بصورة كافية»[٢] في كشف حقيقة وُثُوقيَّة صَخَّابي أعلام الإلحاد المعاصر، وأنهم ليسوا مُطَّرِدين في قواعدهم؛ إذ لو اطَّرَدُوا في ذلك لشكُّوا في إلحادهم نفسِه، ولكنّهم ينتقون من الشكّ ما يُوصِلهم إلى يقينِ انتقاضِ الإيمان بالله؛ ولذلك وصمت الفيلسوفة النبيهة (نانسي بيرسي)[٣] شكوكيّتهم أنّها «شكوكيَّةً انتقائيَّةً» «selective skepticism»[٤].

---

(١) متش ستوكس Mitch Stokes: فيلسوف أمريكيّ، من تلاميذ (ألفن بلانتنجا)، ويُدرّس في "New St. Andrews College".

(٢) Mitch Stokes, *How to Be an Atheist Why Many Skeptics Aren't Skeptical Enough* (Wheaton: Crossway, 2016).

(٣) نانسي بيرسي Nancy Pearcey (١٩٥٢م): فيلسوفة أمريكية لها عناية خاصة بالتفكيك المعرفي للطرح الإلحادي وبيان لوازمه المعرفية والقيمية.

(٤) Nancy Pearcey, *Finding Truth: 5 Principles for Unmasking Atheism, Secularism, and Other God* Substitues (David C Cook Publishing Compan, 2015), pp.194 - 197

«إذا كانت غايةُ أَمْرِكَ هي أَلَّا تكون إلَّا شَكَّاكًا؛ فلن تكتسب معرفَةً جديدة. لنْ تَتَعَلَّم أيَّ شيءٍ جديدٍ.»[1] الكوسمولوجيّ الملحِدُ (كارل ساجان)[2].

كلمات قبل تصفّح الكتاب:

موضوع الإيمان بالله وتوحيده تتداخل فيه مناهج النظر، وتتعدّد مباحِثُه على صورةٍ تُغري بعض القُرّاء بالاسترسال في القراءة وامتحان براهين المتحدِّثِ بشوقٍ دافق، وتُورِثُ غيرهم شعورًا ببطء المسير إلى المقصود، وتتداخل مسالِكُ البحث على صورة مُرْبِكة.. ولذلك يَحْسُنُ أنْ أُوجّه رسالةً إلى الذين قد يجدون في هذا الكتاب المتشّعبة مواضيعه كلمات سريعة، قبل البدء، إنصافًا للكتاب:

١ ـ كثرة مواضيع الكتاب، في باب المقدّمات، والاستدلالات، والرُّدود، لا تنفي عن هذا البحث أنّه قطعة واحدة، وما هذه الأجزاء إلَّا لَبِنات الفكرة الكليّة. ودون تقعيدٍ، وتفصيلٍ، وتعريجٍ على نقود المخالفين، لا يمكن للبحث أن يَفِيَ بغرضه، وأن يرسم بريشة المعنى الإطار الكليّ للصورة، ودقيق تفاصيلها.. ومن حقّ صاحب الدَّعوى أن يُسْتَمَعَ لمرافعته كلّها دون انتقاء أو اختزال...

٢ ـ الكتاب يتعلّق بجواب أهم إشكال وجودي: «ما حقيقة الوجود الكبرى؟»؛ ولذلك يحسن بطالب الحق أن يتعامل مع ما فيه بنفْسٍ هادئة تَزِنُ البراهين بميزانِ القسط، وتَخْضَعُ للحجّة المقنِعة إذا قامت دلائِلُها، لا أن يُقلِّبَ صفحاته طلبًا لثغرةٍ أو زَلَّة ليبقى على ما هو عليه من معتَقَدٍ مخالِفٍ لدين الإسلام.. ليكن الشِّعار: أنا مع الدَّليلِ الحقّ إلى حيث يقودُني!

٣ ـ الكتاب مبنيّ على عرض براهين الإيمان واعتراضات المخالفين؛

---

(١) Carl Sagan, *Skeptical Inquirer* Volume 12.1, Fall 1987.

(٢) كارل ساجان Carl Sagan (١٩٣٤ ـ ١٩٩٦م): عالم فلك وفيزياء نظرية أمريكيّ. اشتهر بتبسيطه العلوم للعامّة في الإعلام الأمريكيّ.

فإذا لم يكن القارئ مهتمًّا بالجدل في دقيق المساجلات الفلسفيّة والعلميّة؛ فله أن يقرأ الأدلّة التي يسوقها الكتاب لصدق الإيمان بالله، دون جدل الرُّدود؛ فقد تأخذُه الرُّدود إلى مواضيع تُثقِل متابعته لمجرى دَفْقِ الأفكار. وهذا فقط للقارئ الذي يقرأ لنفسه، وأمَّا الداعية إلى الإسلام، والمرهَق بالشُّكوك، فيحسن بهما أَلَّا يُغْفِلا مسائلَ الرُّدود إذا كانت ممّا يدخل فيما يعنيهما.

٤ ـ إذا شقّ على القارئ مبحثٌ في الكتاب فليتجاوزه إلى مبحث آخر، فإنَّ عامَّةَ المباحث غير مبنيَّةٍ بعضها على بعض؛ فلا تقطع قراءتك للكتاب بسبب عُسْرِ مبحثٍ ما، وإنَّما اقرأ ما تَطْلُبُ له جوابًا ممّا تجد يُسْرًا في فَهْمه. والكتاب ـ في ظنّي ـ قريبٌ من ثقافة القارئ المتوسّط.

٥ ـ الكتاب يبدأ من مقدمة معرفيّة محايدة؛ ولذلك فهو لا يفترض صحّة الإسلام في المقدمة، وإنما يبدأ من التَّسليم بحجيّة العَقْل والحِسّ، ويطلُبُ من العقل والواقع هدايةً لحقيقة الوجود الكبرى.

٦ ـ الجَدَلُ في الكتاب قائمٌ على مخاطبة قارئٍ مهتمٍّ بجواب الذَّائع من المعارَضات؛ ولذلك فقد يجد فيه شبهاتٍ يستغرِبُ حضورها كثيرٌ من الناس لظهور فسادها. وسبب إيرادنا لها رَواجُها اليوم في الأدبيَّاتِ الإلحاديّة الغربيّة، **والمعارضاتُ تُطْرَقُ لا لِقُوَّتها وإنّما لِشُيوعها بين النَّاس.**

٧ ـ تَعَقَّبْتُ أهمَّ اعتراضات الملاحدة، من كتابات أكبر رموز الإلحاد في القرنَيْن الأخيرَيْن، وما تركتُ من اعتراضاتهم إلَّا ما رآه الملاحدة أنفسهم ثانويًّا أو هامشيًّا أو ضعيفًا..

٨ ـ يتكرّر في الكتاب ـ دون مللٍ ـ التأكيد على حقيقة أنّ الإلحاد يبدأ من اختزال الوجود في أنّه «مادَّةٌ وطاقةٌ في حركةٍ عشوائيّةٍ/غير مُوجَّهةٍ».. وسبب هذا التكرار الحرص على ردّ الملحد إلى الأصل الأوّل لرؤيته الكونيّة، ولمصدر الحقائق والقيم عنده؛ فإنّ الملحِدَ كثيرًا ما يَغْفُل عن ذلك لأسباب يأتي لاحقًا بيانها..

٩ ـ الحديث في العلوم الطبيعية في الكتاب موثَّقٌ بردِّهِ إلى مصادره المعتبَرة، ولا يُجدِي المخالفَ نفعًا أن يَرْفُضَه لأنَّ مؤلّف الكتاب ليس فيزيائيًّا

ولا بيولوجيًّا، وإنّما على المخالف أن يَرُدَّ الوصف العلميّ ودلالاته بكلام علميٍّ من جِنْسِهِ إن كان يرغب في إقامة جَدَلٍ معرفيٍّ إيجابيّ.

١٠ ـ لا يُسمّى الله ـ سبحانه ـ إلَّا بما سَمَّى به نفسه؛ فلا يُقال ـ مثلًا ـ: إنّه «عَقْلٌ» أو «مهندس»؛ وإنّما هو «حكيم» و«خبير» و«عليم».. ونحن في مقام المناظرة قد نُخْبِرُ عن الربّ بألفاظٍ لم يأْتِ بها الشَّرْعُ؛ فباب الإخبار عنه بالاسم أَوْسَعُ من تسميته به، وتقوم هذه الحاجة خاصّة في مقام المناظرة والتعليم؛ ولذلك قال (ابن تيمية): «وَأَمَّا الْإِخْبَارُ عَنْهُ فَهُوَ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ؛ فَإِذَا احْتِيجَ فِي تَفْهِيمِ الْغَيْرِ الْمُرَادَ إِلَى أَنْ يُتَرْجَمَ أَسْمَاؤُهُ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ، أَوْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بِاسْمٍ لَهُ مَعْنًى صَحِيحٌ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُحَرَّمًا»[١]. وفي هذا التَّنْبِيه غُنْيَةٌ عن تكراره في صفحات الكتاب، وإنْ كُنْتُ قد أُنبّه على ذلك أحيانًا.

اِعْلَمْ أنّني أريد لك يقينًا مُبْصِرًا، مُفْعَمًا بالحياة، وليس يقين عجائز يتزعزع عند أوَّلِ هَبَّة شَكٍّ أو خاطرِ رِيْبةٍ... أريد لك يقينًا مُشَعْشِعًا، يقفُ صامدًا أمام سَيْلِ الشُّبُهات المتراكبة التي تَقْذِفُ وَعْيَكَ من كُلِّ حدْبٍ، وتترصَّدُ بصيرتك كُلَّ حينٍ، ولذلك سيكون برهاننا مُنوَّعًا، من النَّفْس، ومن مبادئ العقل الأَوَّلِيَّةِ، ومن الكَوْنِ، ومن حقائق العلوم الطبيعيَّة...

* * *

اللَّهُمَّ إنّي فقيرٌ إلى عَفْوِك.. فقيرٌ إلى رحمتك.. فقيرٌ إلى كَرَمِكَ.. فارزقْني من عطايا عَفْوِك ورحمتك وكرمك ما تدفع به عنّي والمسلمين كُلَّ سوءٍ في المعاش والمآل..

اللَّهُمَّ إنّي أسالك عند الموت فَرْحةً لا تنضبُ حلاوتها، وعند العرض بُشرى الفوز..!

---

(١) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تحقيق: عبد العزيز العسكر وآخرون (الرياض: دار العاصمة، ١٩٩٩م)، ٨/٧.

«اللَّهُمَّ إنّي أستغفرك مما زَعَمْتُ أَنّي أُريد به وجهك، فخالَطَ قلبي منه ما قد علمت»!

ربّ اغفر لي حَظَّ النَّفْسِ من هذا الكتاب!

وجزى الله خيرًا الإخوة الذين قرؤوا مسودّة الكتاب على ملاحظاتهم...

الباب الأول

مدخلٌ معرفيٌّ إلى سؤال الإيمان والإلحاد

تمهيد

ما شانَ البحثَ المعرفيّ في الإيمان والإلحاد أَعْظَمُ من القفز إلى الحُكْم قبل تمهيد النَّظَرِ بمقدّماتٍ تُعَرِّفُ الموضوع وأهمّيته، والحكم ومآلاته، والخطأَ ومداخله، والزَّلَلَ ومخاطِرَهُ.. فإنّه لا يَقِي عثرات الرَّجُل على مراقي الفَهْمِ مثل تَلَمُّسِ معالم الدَّرْبِ قبل الحَفْدِ في السَّيْرِ.

وعلى طالب الحقّ في مبحث وجود الله ـ قبل أن يسعى إلى مطلوبه ـ أنْ يُدرِكَ عظيمَ شأنِ ما يخوض فيه؛ فإنّه بابٌ جليلٌ من أبواب المعارف؛ بل هو أَجَلُّها على الإطلاق؛ لأَنَّ جواب أسئلته ـ مهما كانت الأجوبة ـ هو الذي يرسم معالم الرُّؤية الكونيّة الكبرى لكلّ إنسان.. ومن استخَفَّ بهذا الباب، أَوْشَكَ أنْ يتهاونَ في اختيار مواضِعِ الرِّجْل والاندفاع بلا رويّة إلى الحكم والقطع بغير الصواب؛ فلا سداد.

وعلى ناشد الحقّ أن يعرف نهايات النَّظَر؛ ليُدرِكَ الخياراتِ، وحقيقتَها، والأقوال ولوازمها[1]، والاتّجاهات وما يَدفع إليها؛ فإنَّ بعض الخَلْقِ يقولون بالقول دون أن يُحْسِنُوا تَصَوُّرَ مبدئِه ونهاياته، وما يقترن به ضرورةً من مذاهِبَ.. ولو عَلِمَ كثيرٌ من الناس ما يَحْتَفُّ بالعناوين التي يختارونها لإيمانيَّاتهم؛ لذهبوا إلى غير مذهبهم...

---

(١) لازِمُ الشَّيْءِ ما يمتنعُ انفكاكُه عنه. ودلالة اللُّزوم هي: «دلالة اللَّفظ على معنًى خارج عن مُسمَّاه لازمٍ له لزومًا ذهنيًّا بحيث يلزم من فَهْم المعنى المطابقِ فَهْمُ ذلك الخارج اللّازم»؛ كدلالة وجود السَّقْفِ على وجود الجدران؛ فإنّ السَّقْفَ لا يوجد مُعلَّقًا؛ وإنّما يقوم على جدران.

وللخلوص إلى رأيٍ في معرفة الله أو جُحُوده، على طالبِ مَنْشُودِهِ أن يعرف أدوات النَّظَرِ، وحدود مَلَكات الفَهْم؛ وهو بابٌ من البحث عميق، وتَمَثُّلُ أُصولِهِ أَعْظَمُ مُوجِّهات الباحثِ في سعيِهِ لحقيقة الصُّورة الكونيّة، ومبلغ الثقة في صدق ارتسامها في الذِّهْنِ.

ولن يكتمل وعي الإنسان بمقدّمات النظر حتّى يُدرك أهمّ ما يدّعيه المذهب الإلحادي لنفسه؛ فإنّه مذهبٌ كثير التجمّل بالعناوين، وعلى رأسها الموضوعيّة والعقلانيّة، على خلافِ ما يَنْسِبُهُ أهلُه إلى المؤلّهين من نزوعٍ ذوقيٍّ طاغٍ، وإيمانويّة طافحةٍ..

حول المعاني السابقة، وأسئلتها الشائقة، سَنُدَنْدِنُ، وفي مضائقها الشائكة سنسير بحثًا عن أرض صلبة وسهلة يقوم عليها بناء الوعي بحقيقة وجود الربّ.

الفصل الأول

الأسئلة الوجودية.. والحاجة إلى طلب جوابها

- ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠].
- «السُّؤالُ المتعلّق بوجودِ خالقٍ فوق طبيعيٍّ، إلٰهٍ، واحدٌ من أهمّ الأسئلة التي علينا أن نجيب عنها»(١).

(داوكنز)

(١) Richard Dawkins, 'God vs. Science', *Time*.
<www.time.com/time/magazine/article/0,9171,1555132-1,00.html>

المبحث الأول

الإيمان والسؤال

معرفة موقع الإنسان من الوجود ـ مهما كانت حقيقة هذا الوجود ـ واتّجاهات المسير فيه، موضوع للتَّساؤل، وبابٌ للجدل، وحافزٌ للنَّظَرِ؛ ولذلك يَشْغَلُ عقولَ كثيرٍ من النَّاس وقلوبَهم؛ فهل هو سؤالٌ جادٌّ يقتضي أن يكون الصَّدْرُ مغمومًا بتطلُّبِ جوابه، أم أَنَّ الأمر أدنى من ذلك وأهون من أن يستغرق فكر العاقل؟

المطلب الأول

وَسْواس الغيبيّات أم محاولة فهم؟

نشرَ القائمون على «الموسوعة البريطانيّة» في منتصف القرن العشرين ٥٤ مجلّدًا تضمُّ ما تمّ تَسْمِيَتُهُ «أَعْظم كتب العالم الغربيّ»[١]، وهي كتب في الفلسفة والعلم الطبيعي والقانون واللَّاهوت... وكان الحديث في الإلٰه أوسعَ موضوع في هذه الموسوعة. ولَمَّا سُئِلَ الفيلسوف (مورتمر ج. أدلر)[٢] ـ وهو أحد القائمين على هذا المشروع واختيار كتبه بدءًا من عصر قدماء اليونان ـ عن سبب اختيار الموضوع الدّينيّ ليكون الأكبر، قال: «لأنّه يترتّب عدد من العواقب المؤثرة في الحياة وأعمال الإنسان عن تأكيد وجود الله أو إنكاره أكثر من أي مسألة أساسية أخرى»[٣].

---

(١) Great Books of the Western World.

(٢) مورتمر ج. أدلر Mortimer J. Adler (١٩٠٢ ـ ٢٠٠١م): فيلسوف أمريكيٌّ مُعمَّرٌ وغزير التَّأليف. عضو "American Catholic Philosophical Association".

(٣) Ravi Zacharias, *The Real Face of Atheism* (Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2004), p.20.

إنّ الإنسان «كائنٌ متسائِلٌ»، يسأل لأنه جُبِلَ على ربط الأشياء الدَّانية بالآفاق البعيدة، وربط العِلَلِ بالمآلات والحِكَم.. يسأل لأنَّ ظواهر الأشياء لا تروي غُلَّته الدَّائمة لما بعد الظاهر.. إنه يسأل لأنّه يبحث عن الفهم.. والفَهْمُ رُوحٌ لا تَشْبَعُ وعُمْقٌ بلا قاعٍ.. والسؤال عن الوجود المادي وعلاقته بالله باب لكلّ سؤال كبير لاحق..

وقد يقول ملحدٌ أو لااكتراثيٌّ يُغْضِبُهُ اغتمار نفوس كثيرٍ من الناس باللَّهج بسؤالِ أصل الوجود، وحِكْمةِ الخَلْق، ومَرْسى المآلِ: الوجودُ كما نراه مَحْضُ مادّةٍ وطاقةٍ؛ فلِمَ علينا أن نتكلَّفَ البحث عن تفسيرٍ أوّليٍّ وغايةٍ نهائيّةٍ؟!

هو اعتراض يرفض الاندهاش، وتلك خطيئةُ العقل الأولى والكبرى، فإنّ كُلَّ انحرافٍ فكريٍّ أَوَّلُهُ مَيْلٌ خفيفٌ عن الحق بزلَّةٍ واحدة، ثم تتسّع الهُوَّة بين الخطّ المستقيم والخط المائل عنه، وليس الإلحاد استثناءً في هذا الباب. وقد نظرتُ في أدلّة الإيمان، وهي كثيرة، وتأمَّلْتُ في غفلةِ الملحد عنها، فوجدت عثرة الرَّجُل الكاسرة في الاعتقاد أنّ الكون بأشيائه ليس ممكنًا من الممكنات، وإنّما هو شيءٌ موجودٌ وكفى؛ فلا يستدعي نَظَرًا، ولا يستفِزُّ في الصَّدْرِ قلقًا.

إنّ الملحد الرافضَ للاندهاش قانعٌ بما يُبديه السَّطْحُ؛ فلا يسأل عن هذا الكون: لمَ وُجِدَ؟ ولماذا أَخَذَ هذا الشَّكْلَ والترتيب؟ ومن أين جاء التّنظيم والتّهذيب؟ ولماذا التركيب والتأليف؟ وإنّما ينطلق من سؤال: إذا كان الله موجودًا فلا بُدَّ أن يكون الكَوْنُ في منتهى الكمال الماديِّ والقِيَمِيّ؛ بلا نقصٍ ولا أَلَم، ولا غَدٍ، ولا هَدَفٍ.. كلُّ الكمالات قائمةٌ في الإنسان وما حولَهُ، وما على الإنسان إلَّا أن يَعُبَّ من النَّعيم عَبًّا؛ فما نُظِم الوجود لغير الإمتاع، لا شيء وراء ذلك ولا بعده! ومن هنا يأتي الخلل، وتُورث الزَّلَّةُ زلَّاتٍ وأوهامًا.

من أين يبدأ نظر العاقل؟ من الصِّفْر! من العَدَم! ليسأل: لِمَ كان ما كان؟ وليس من صورةٍ واهمة للإلٰه وغاياته وخطّته في الكون. يبدأ العقل من حقيقةٍ أوّليةٍ بسيطة، وهي أنّ الوجود الماديّ بأكمله مثيرٌ، يستدعي تفسيرًا..

فكيف وُجِد؟ ولماذا كان بما هو كائن عليه؟ السَّماءُ الزَّرقاء البهيّةُ، والوردةُ العَطِرة النّديّة، والبُحور الثريّةُ بأشكال الحياة المعجِبةِ، والوادي الأخضر المُفْعَم بالسَّكِينةِ.. كلٌّ ذلك مثيرٌ للعَجَبِ.. بل العجبُ الأكبر كائنٌ في ما هو دون ذلك، وهو وجودُ الوجودِ؛ نفسك، وما يُقِلُّك ويُظِلُّكَ.. لَمَ كان الوجودُ موجودًا؟ لَمَ لَمْ يكن العَدَمُ السَّاتِرُ هو القاهِرُ؟

ومن أجملِ ما قيل في «السُّؤال الأوَّلِ»، قولُ (إريك متكساس)[١] صاحب القَلَمِ الأَنِيقِ: «كُلَّما ازدادَتْ كُشُوفُ العِلْم، اتَّضَح أَكْثَر أنّه رغم أنَّنا هنا، إلَّا أنّه يجب أَلَّا نكون هنا. ونحنُ عندما نَبْدَأُ بِحِسابِ كُلِّ أَدِلَّةِ ذلك، تصبح الاحتمالاتُ العاليةُ ضِدّ إمكانِ وُجودِنا مُثيرةً للقلقِ. ما الذي علينا أن نفكر فيه أو نشعر به عندما نكتَشِفُ الهشاشةَ الكبيرةَ لإمكانِ وُجُودِنا، ونبدأُ في فَهْمِ كيف أَنَّنا ـ بكلِّ اعتبار ـ يجبُ ألّا نوجد؟ إنّ **وجودنا** لا يبدو فقط مجرّد معجزةٍ تكاد تكون مستحيلةً، وإنّما هو **أعظمُ المعجزات الصَّارخةِ التي من الممكن تصوُّرها؛ معجزةٌ تجعل المعجزاتِ المدهِشة السَّابقة تبدو كأنَّها لا شيء**»[٢].

أصلُ الإشكال ـ إذن ـ هو تجاهلُ إمكانِ الإمكانِ.. ثم تجاهلُ غَرَابةِ الإمكانِ.. ثم إغفالُ معجزةِ الإمكانِ!

وجودُنا معجزةٌ، لكنَّ العقلَ الغارق في أُلْفَةِ الصُّوَرِ والأَعْراضِ، لا يستطيع مجاوزةَ لحظةِ مُعايَشَةِ الوجودِ للنَّظَر في داعي وُجودِه.

«الطريقُ إلى الحِكْمةِ هو السُّؤالُ المستمرُّ والمتكرِّرُ». الفيلسوفُ وعالِمُ المنطِقِ (بيتر أبلار)[٣].

---

(١) إريك متكساس Eric Metaxas (١٩٦٣ـ): كاتبٌ وصحفيٌّ أمريكيٌّ مشهورٌ. أَلَّفَ عددًا من الكُتُبِ الذَّائعة في سيرة شخصيَّاتٍ مشهورةٍ مثل اللَّاهوتِيَّيْنِ (مارتن لوثر) و(بونهوفر). حاصِلٌ على ثلاثِ شهاداتِ دكتوراه فخريّةٍ.

(٢) Eric Metaxes, *Miracles: What They Are, Why They Happen, and How They Can Change Your Life* (New York: Plume, 2014), p.54.

(٣) بيتر أبلار Peter Abelard (١٠٧٩ ـ ١١٤٢م): متكلّم مدرسيّ فرنسيّ، وأحد أعلام اللاهوتيّين في عصره.

المطلب الثاني

أسئلةُ الوجودِ الكُبْرى.. وسلبيَّةُ العاقِل

من نحن؟ وماذا نريد أو ماذا يُراد منّا؟! ذاك هو أصل فهم الوجود.. إنّنا محاصرون بأسئلة المعنى والمبدأ والغاية، ولا يمكن أن نَصْدُرَ في أفعالنا عن غير تَصَوُّرٍ أَوَّليٍّ، شِئْنَا أم أَبَيْنَا، عَلِمْنَا أم لم نعلم.. هي الأسئلة التي يبدأ منها المؤمن الجادُّ والملحِدُ الباحِثُ، وهي التي طرحَهَا (نيتشه)[1] في قوله عن «السُّوبرمان» ـ المثال الأعلى للإنسان الأعظم ـ: إنّه ذاك الذي يَنْغَمِسُ في هذا الوجود، وعلى شفتَيْهِ أسئلة: لماذا نعيش؟ وحُزْمةٌ أُخرى من أسئلةِ معاني الحياة[2]. والنَّبِيهُ هو مَنْ صالَحَ بين أفعالِه وتصوُّراتِه الظّاهرة، ولم يترك دفينَ أفكارِه يُحرّكُ نفسَهُ دون وَعْيٍ ومصارحةٍ.

إنّ وجودنا الظَرْفِيَّ في هذا الكوكب الضَّخم، والكون الأَضْخم، وما يَحُفُّنا من نظامٍ وتعقيدٍ، وما يخالجنا من خوفٍ أنْ يكون قد فاتَنَا من صُورةِ الوجود الكُبْرى شيءٌ قد يكون ـ رَغْمَ ستره ـ هو الأعظم.. كُلُّ ذلك يجعل القلقَ الوجوديَّ مُلازِمًا لمن لم يَنْتَهِ إلى إمساكِ أطرافِ حقيقةِ هذه الحياة.. لا فِرارَ.. لا يملك العاقلُ أن يختار الإدبار والسلبيّة السَّادرةَ.. لا بُدَّ أن نسأل، إن لم نكن قد بلغنا الغايةَ وأَنَخْنَا عند الجواب المقنِع..

ولعلَّ أفضل مدخلٍ للجواب، التَّساؤلُ الذي عَرَضَهُ فيلسوفُ الوجوديّة (ألبير كامو)[3]: **«توجدُ مشكلةٌ فلسفيّةٌ وحيدةٌ جادّةٌ، هي الانتحارُ**. الحُكْمُ على الحياةِ أنّها جديرةٌ بأن تُعاشَ أَوْ لا، يرقى إلى أن يجيبَ عن السُّؤال

(١) فردريك نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م): فيلسوف ألمانيّ وعالم لغة. كانت كتاباته محطّة فارقة في تاريخ الفلسفة. يعتبره عدد من مؤرخي الفلسفة رائد فلسفة ما بعد الحداثة. كان له اهتمام خاص بالمباحث الوجوديّة والأخلاقية والنفسيّة. من أهم مؤلفاته: «هكذا تحدّث زرادشت».

(٢) Friedrich Nietzsche, *Untimely Meditations* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1997), p.154.

(٣) ألبير كامو Albert Camus (١٩١٣ ـ ١٩٦٠م): فيلسوفٌ وروائيٌّ ومسرحيٌّ فرنسيٌّ من مواليد الجزائر. تدور فلسفَتُه حول واقع العَبَثِ النَّاتج عن كونٍ بلا معنى وعقلٍ واعٍ. حصل على جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٥٧م. من أهمّ مؤلّفاتِه: «الطاعون».

الأساسيِّ للفلسفةِ»[1].

معنى الحياة ـ إن كان لها معنى ـ هو السُّؤالُ، والسُّؤالُ مبدأ الجوابِ، وجوهَرُهُ. ولا يمكن العبورُ إلى إدراكِ معنى الحياة أو عَبَثِيَّتِها دون تناولِ سؤالِ وجودِ الله. ولا يمكن لجوابِ السُّؤالِ عن وجود الله أنْ يَفِيَ بالغاية حتّى ندركَ إنْ كان لله حِكْمة في خَلْقِنا. ولا معنى لأنْ ندركَ هذه الحكمة إلَّا أن نبحثَ إن كانت له إلينا رسالةٌ.. وكلُّ ذلك مُضمَّنٌ في حديثنا عن الدِّين عامَّةً، والإسلامِ خاصّةً، وصِدْقِ دلائلِ الإيمانِ.

إنّ السُّؤالَ الدّينيَّ يجيبُ عن أبسطِ الأسئلةِ، أسئلةِ المبدأ..: لماذا وجود شيءٍ أَوْلى من وجودِ لا شيء؟ لماذا يوجد الكونُ ابتداءً؟ لماذا لم يكن العَدَمُ المَحْضُ؟.. هو سؤال البدء قبل تَأَمُّلِ ملامحِ الوجود، ومحاولة استكشافِ دَفِينِ النَّفْسِ..

السُّؤال الدينيُّ يبحث في أصلِ وجود الشَّيء بما هو شيءٌ.. لماذا كان وجودُه قائمًا، ولم يكن العَدَمُ حاكِمًا؟ وهو بذلك يجيب عن معنى الحياة في أَصْلِها الذَّرِّيِّ؛ أي أصلِ وجودِ الشّيء ذاتِه.

ومن ظريف هذا الباب أنّ الملاحدةَ يَتَّهِمُون المؤمنين بالله أنّهم صَنَعُوا إلٰهًا لِيَمْنَحَ هذا العالم معنًى وعاقِبَةً فيها النَّاس تُجزى، رغم أنَّ الحياةَ بلا معنًى موضوعيٍّ في رَحِمِها.. لكنّ أئمَّةَ الإلحادِ أنفسَهم انتهوا إلى التُّهمةِ نفسِها التي رَمَوْا بها المُؤَلِّهَة؛ إذْ أَنْكَرُوا أنَّ للحياة معنى، لكنَّهم انتهوا إلى وجوب صناعة معنى لها رغم أنّها بلا معنى أصيلٍ.

ومن أَعْجبِ ما تقرأ أن تكتشف أنَّ رُؤُوسَ العَدَمِيّين أكثرُ النَّاس إصرارًا على صناعةِ المعنى حتّى يملكَ الإنسانُ قُدْرةً على معايشةِ الحياة، وتمجيدِ القِيْمةِ الوُجوديّةِ والفضيلةِ الأخلاقيّةِ؛ وقد انتهى (نيتشه) ـ أحد أعلام العَدَمِيّةِ قبل الازورار عنها ـ إلى وجوبِ صناعةِ مَثَلٍ أعلى يكون رمزًا لمعاني العَظَمةِ، وقُدوة في نحتِ معاني الحياة السَّوِيّةِ والجميلة، وهو «السُّوبرمان»

---

(١) Albert Camus, *Le Mythe de Sisyphe* (Paris, 1942), p.15.

«Übermensch»، وكذلك فعل (سارتر)[1] نَصِيرُ الحريّة، و(كامو) نَصِيرُ المغالَبَةِ والثَّورةِ على عَبَثِ الوجودِ. .

إنّ المسلم يرى أنّ إيمانه قائم على وعي عاقل، وأنّه **يكتشف** معنى الحياة عندما يفكُّ حُجُبَ الجهل ويَكْسِرُ أغلال الغَيبة، فيعيش في تواؤمٍ مع مبادئ الوعي الكونيّ المحفورة حُروفُه في قلبِه وعقلِه، على خلافِ الملحدِ الذي يَكْفُر ـ في الجهة المقابلة ـ بالمعنى الذاتيّ للوجود، غير أنّه يَلْتَفُّ وراء كُفرِه ذاك ليقول: إنَّ المعنى لا يُكتشف، وإنّما **يُصْنع**، وتُصْرَفُ الحياةُ كُلُّها في شوقٍ عظيمٍ لصناعةِ أَبْهَى مَعَانِيْهِ. . ولكنْ هلْ من العقل أنْ يَبذر العَدَمُ حَبَّ الحياة في مفازةٍ قاحِلةٍ؛ ليُجتنى من الرَّمْلِ والرِّيح ثمرة عَذْبة زاهية؟! وهل يَدُرُّ ضِرْعُ السَّراب سقايةً لِرواء؟!

الحياة ـ للناظر في نسيجها ـ تشفُّ عن ثراءٍ مُعجِبٍ مثيرٍ للجذبِ والقلقِ، ولذلك كان القرآن مُفْعَمًا بالحديث عن الحياة، وغاياتها القريبة والبعيدة، وهو ما يبعث في نفس المؤمن راحةً كراحة الـمُدْلِجِ إذ يرى إشراقةَ الفَجْرِ التي تُبَدِّدُ ظلمات الطَّريق؛ فينشرحُ منه الصَّدْرُ بعد ضيقٍ وخوفٍ أنْ يكون سيرُه إلى غير غايته؛ فقد خُلِقَ الناس ليَخلُفوا بعضهم بعضًا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ولِيَعْمُروا الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ويُقِيمُوا العَدْل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ويعبُدوا الرَّبَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. . . والوجود لم يُخلق بغير حكمة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والنَّاسُ إلى مَعَادٍ بعد هذه الحياة: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥ ـ ٤٦].

---

(١) جون بول سارتر Jean-Paul Sartre (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠م): فيلسوفٌ وروائيٌّ فرنسيٌّ. الرمزُ الأَوَّلُ للوجوديّة الملحدةِ في القرنِ العشرين. أكّدَ في فسلفتِه صناعةَ الإنسانِ نفسَهُ في وجود بلا معنى. كان له حضورٌ سياسيٌّ تَقَلَّبَ فيه بين أكثر من موقف. مُنح جائزة نوبل للآداب لكنّه رفض استلامها. من أهمّ مؤلفاته: «الوجود والعدم».

ومن محفّزات البحث عن الله أنّ الملحد لو آمن بالله فلن يخسر شيئًا إذا كان هذا الإلٰه غير موجود، لكنّه سيربح سعادة المآب الباقي إذا كان موجودًا.. فليس يُجتنى من الإيمان أذى، على الأقل، ذاك الأذى المهلك..

وقبل أن يُبادر مُنكِرٌ بالاعتراض قائلًا: هذا الذي تقولُه هو ما يُعرَفُ بـ«رهان باسكال»[1]، ولم يكن (باسكال)[2] بهذا القول حكيمًا؛ إذ جعل المسألة رهينة الحظ! والإنسانُ بذلك يتلاعَبُ بعقله شراءً للوَهْم، ليكون الرِّهان رهانًا براغماتيًّا لا يبتغي الحقيقة، وإنّما يطلب الأربح.. سأقول له: النَّجاة يوم القيامة لا ينالها الذين يقامرون بالإيمان، وإنَّما هي جائزة للَّذين يُحقّقون الإيمان بيقين.. ثمّ إنّ الإيمان بالله لا يكفي وحده للنَّجاة، فلا بدّ أن يقارنه الإيمان بنبوّة محمّد ﷺ.. فما قيمة هذا «الرِّهان» إذن؟

قيمةُ «الرِّهان» ـ لا على الصورة الباسكاليّة ـ هي بيان عظيم أمر الإيمان بالله؛ فالمسألة خيار بين أَمْرَيْنِ، مآلُ أحدهما عظيمٌ، ومآل الآخر حقيرٌ.. مآلُ الإيمان بالله ـ إن كان الإلٰه موجودًا ـ أن ينجوَ المؤمنُ يومَ الحساب من عذاب لا يَفْتُر، وأن يَتَنَعَّمَ يوم القيامة بنعيم لا يَنْضُبُ، وأن يعيش في الحياة هادئ الصَّدْرِ.. وإذا لم يكن الإلٰه موجودًا، فلن يَخْسَرَ المرءُ شيئًا بشهادةِ كثيرٍ من فلاسفة الإلحاد؛ لأنَّ التَّدَيُّنَ في التَّفسير الكُونتيّ[3] وَهْمٌ يُؤَالِفُ به الإنسان بين أشتات الطبيعة، ويُفَسِّرُ به أحوالها على صُورةٍ تُصالِحُه مع مظاهرها القاسية، وفي التفسير الدوركايميّ[4] مِلاطٌ يَشُدُّه إلى بقيّة المجتمع لِيُحقّق وَحْدته، وفي التَّفسير الفرويديّ[5] وَهْمٌ يُسَكّن به قَلَقَ النَّفْسِ؛ فهو وَهْمٌ نافِعٌ على كُلِّ حالٍ

---

(١) Pascal's Wager.

(٢) بليز باسكال Blaise Pasca (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢م): عالم رياضيات وفيزيائي فرنسيّ. له مساهمات فلسفيّة. توفي قبل سنّ الأربعين. من أهم مؤلفاته: "Provincial letters"

(٣) نسبة إلى إمام المدرسة الوضعية، الفيلسوف الفرنسيّ (أوغيسط كونت) (Auguste Comte). (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧م).

(٤) إميل دوركايم \mile Durkheim (١٨٥٨ ـ ١٩١٧م): أكاديميّ فرنسيّ. أحد أعلام علم الاجتماع المعاصر. أكّد على أثر التاريخ في صناعة المجتمع، بأخلاقه ودينه. من أهمّ مؤلفاته: "Les Règles de la Méthode Sociologique"

(٥) نسبة إلى عالم النّفس النّمساويّ (سيجموند فرويد) (Sigmund Freud) (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩م).

عند مُنْكِري صِدْقِهِ، والمرءُ بذلك يضمن أَمْنًا نَفْسِيًّا، وإن كان أَصْلُه مُزَيَّفًا؛ فهو يُحقّق بالإيمان معنًى للحياة، وغايةً واتِّجاهًا لها، ويصنع من مظاهر الفوضى نظامًا متناسقًا، ويمنح النَّفْس قاعدةً للأمل، ويمنع الإنسان من الانتحار في وجودٍ بلا قيمة[1].. وأمَّا إن كان الإلٰه موجودًا، وكَفَرَ به الملحِدُ، فَمَآلُهُ وَبِيلٌ، وخاتمته عَذَابٌ وحَسْرةٌ وزَفِيرٌ؛ بلا خاتمة.. هو قرارٌ لقرارٍ في عذابٍ بلا شفاعة..

لا أظنّ عاقلًا يُسرف على نفسه في الخديعة يقول: إنّ الأمر أهون من ذلك! لا.. الأمر عظيم وجليل، وعاقبته مشرقة بلا ظلمة أو مظلمة بلا شروق.. بلا نهاية.. وهل هناك أعظم من نهاية بلا نهاية؟!

لست مع ذلك أدعو إلى ما دعا إليه (باسكال)؛ فإنّ الإيمان المُنْجِيَ لا يَتَحَقّقُ بمنطقِ «الخطط الوقائيّة»، وإنّما غاية الكلام تأكيد أنّ وجود الله وعدمه لا تتساوى فيه المآلات، فَأَمْرُ الإيمانِ جَنَاهُ حُلْوٌ أبدًا، وليست معه خسارةٌ، وأَمْرُ الكُفْرِ لا يُحقّق الرِّبْحَ؛ لأنّ الإلحاد مَصْدَرُ قَلقٍ وكَرْبٍ حتّى إنْ صَحَّ مذهب الملاحدة، والخسارة فيه لا شيء أعظم منها.. وإذا كان الفارق بين الحالين على تلك الصورة، كان الهمّ لهذا الموضوع عظيمًا ضرورة، وكان البحث عن كلّ برهانٍ ممكنٍ لإثبات وجود الله أَحْرى بالنَّظَرِ..

غاية «الرهان» ـ كما نراه ـ ليس دفع المرء إلى الإيمان كما هو في حديث (باسكال)، وإنّما دفعُه بعيدًا عن مذهب «اللااكتراثيّة» «Apatheism» الذي يُقرّر أنّ وجود الله أمرٌ غير جدير بالهمّ، وأنّ الإحساس بالحياة والاستمتاع بها يَجْدُرُ أنْ يَسْتَعْلِيَا على مسألة وجود الله؛ لأنّ ذاك الوجودَ أمرٌ بلا قيمةٍ في حياة الإنسان.. وتلك مَدْحَضَةٌ في طريق السَّعْيِ إلى فَهْمِ الوجود ومعرفة مآله..

ليس الإيمان بالله ضَرْبَة حظٍّ، ولا التَّعَلُّقُ به مَكْرًا نَفْعِيًّا رخيصًا، وإنّما هو تصديق عن رضًا وقناعَة.. ولكنّ الكفر دون استفراغ الجهد والجدّ

(١) James W. Sire, *Why Should Anyone Believe Anything at All?* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1994), p.55.

والاجتهاد في مراجعة أدلّة المؤمنين، تهَوَّرٌ سادر، مهما كان موقفنا من إنكار الخالق؛ ولذلك قال الفيلسوف (أنتوني فلو)[1] ـ أيّام كان ملحدًا ـ: «إذا كان هناك أيّ احتمال لأن نكون على الحقيقة مُهدَّدين بِبُؤسٍ لانهائيّ؛ فالمعرفة التي من الممكن أن تُظهِر لنا كيف من الممكن تلافي ذلك، عظيمةُ القيمة»[2].

البحث في وجود الله خيارٌ يُلْزِمُ كلّ إنسان أن يبحث فيه بجدٍّ وعُمْقٍ ـ إذا لم يصل إليه بعد ـ؛ فليس مع الإيمان بالله خسرانٌ مُؤْذٍ، وليس في مخالفته نعيمٌ مجز.

(١) أنتوني فلو Antony Flew (١٩٢٣ ـ ٢٠١٠م): فيلسوف إنجليزيّ شهير. حدّدت مؤلفاته بعض معالم الحوار الإيماني ـ الإلحادي في النصف الثاني من القرن العشرين. فصّل سبب عودته إلى الإيمان بخالق في كتابه: «هناك إلٰه».

(٢) Antony Flew, *God and Philosophy* (Amherst, N.Y.: Prometheus, 2005), p. 34.

المبحث الثاني

الإيمان، حقٌّ أم واجب؟

الإيمان بحقيقة الإنسان فرع عن معرفة موقعه من الكون. ومعرفة موقع الإنسان من الكون عينُ إدراك حقيقةِ الوجود خارجه. وكلُّ سَيْرٍ لا يَتَعَثَّرُ، ثَمَرَةُ عينٍ يَقِظةٍ وقَلْبٍ قَلِقٍ يتشَوَّفُ إلى الاهتداء إلى السَّيْرِ الآمِنِ إلى مبلغ الرَّجاء.. وحركةُ السّير إلى النهايات السّعيدة رهينةُ العِلم بمطلبِ الرّحلة والطّريق إليها. وفي كُلِّ قَلْبٍ إيمانٌ بطريقٍ ونهاية..

المطلب الأول

هل من الممكن أن نحيا دون «إيمان»؟

هل يمكن للإنسان أن يستغنيَ عن البحث عن الإيمان الحق، ويعيشَ دون مطلقِ الإيمان؟

يُوهِمُ السُّؤال السابق المرء أنَّ ترك البحث عن الإيمان الحقّ يعني العيش دون إيمانٍ.. وليس ذلك بصحيح؛ إذ يمكن ـ بلا ريب ـ أن يستغنيَ المرءُ عن البحث عن الإيمان الحقّ، لِكَسَلٍ أو هوًى أو أيّ عارضٍ آخر، لكن لا يمكنه أن يحيا دون إيمانٍ مُطلقًا. والإيمان الذي نقصِدُه هو التصوّر الكونيّ المُعْلَن أو المُضْمَر، والذي منه تندفع العواطف العفويّة من القلب، وتَنْبَجِسُ الأفكار الفاعلة من الذِّهن.

كلٌّ منّا يحمِلُ في صدره تصوّراتٍ للكون وما يحويه، لكنَّ كثيرًا منّا لا يَنْتَبِهُ إلى حقيقتها؛ فهو يَتَنَفَّسُها كما يتنفّس الهواء دون أن يعيش حال التَّنَفُّس بعقلِه؛ حتّى إذا انقطَعَ نَفَسُه أو سُئِلَ عن هذا الهواء الصَّاعد النَّازل أَدْرَكَ حقيقة الأنفاس وتَعَلُّقها بحياته.

إنّ على الملحد ـ المتصالح على مبدئه ـ أن ينطلق في فعله من إيمانٍ بدهريّة الوجود، وأنَّ الحياة مادَّةٌ صِرْفة، ولا شيء قبل الحياة، ولا شيء بعد الممات غير العدم. وليس اللاأدريُّ الذي لم يحسِمْ أمرَهُ في الإيمان بالله، قبولًا أو رَدًّا، ويرى أن يحيا الإنسان دون أن يبالي بالدّين، قَبُولًا أو رفضًا، بمنأًى عن سلطان الإيمان بحقائقَ كونيّة تصنع له رؤيته للوجود؛ إذ عليه أن يتحرّك من مبدأ لامركزيّة الوجود الإلٰهيّ، وعُلويّة الفِعْل العَمَليّ على التمهيد النّظريّ، وقيمة الشيء في ذاته أو نفعيته وليس في صِلَتِهِ بأصلِ الوجود، وغير ذلك من المبادئ التي تُشكّل ملامِحَ رؤيته الكونيّة الكبرى.

وما يُعكّر على ما سبق أنّ عامة الناس وإن كانت تُحَرِّكُهُمُ تصوُّراتهم الأوّلية الظاهرة أو المضْمَرة، إلّا أنّك يَنْدُر أن تجدَ فيهم من يلتزم رؤيةً كونيّةً منضبِطةً بحدودها الصّلبة؛ فلا يُغادِرُ مُوجِّهات السَّير فيها، وذاك لا يلغي على كُلِّ حالٍ أنّ هناك «فلسفة حياتيّة» تَحْكُم الجميعَ، تُمثّل المبدأ الأوّليَّ للعملِ، سواء كانت هذه الرُّؤية متناسقة بين أبعاضها أو مُشتَّتةً، مُعقّدة أو بدائيّة.

إنّ فعل الإنسان ـ كلّ إنسان ـ رهينُ تصوّراته النّظرية، عَلِمَ ذلك أم لم يَعْلَمْ؛ ولذلك فأَعْقَلُ النّاس هم الذين يصدرون في أفعالهم عن تصوّرات طافيةٍ على سطح وَعْيِهم، تناولوها بالتأسيس والاختبار، ولم يستقرّوا عليها حتى أيقنوا صوابها.

«إنّنا نجد على أُسس حياة كلّ إنسان، إيمانيّاته. وتُشَكِّلُ هذه الإيمانيّات قِيَمَهُ التي تَقُودُ أَعْمالَهُ»[١]. (جلن شولتز)[٢].

---

(١) Glen Schultz, *Kingdom Education* (Nashville, TN: LifeWay, 1998), p. 39.

(٢) جلن شولتز Glen Schultz: أستاذ التربية في "Columbia International University"

المطلب الثاني

الحقيقة، وفِصامُ النِّسْبيّة والبراغماتيّة

لماذا الشّقُّ على النفس، والتَّضْييق عليها بدعوى: «الحقيقةُ واحدةٌ لا تَتَعَدَّدُ؛ فلا نجاة إلَّا بالعِلمِ بها والعَمَلِ بمقتضاها»؟! أَلَيْسَ الأَوْلى أنْ يُسْلِمَ المرءُ نفسَهُ إلى ما ترضاه وتطمئنُّ إليه؟! لماذا لا نترك الرُّوح تأخذُ ما يُمْتِعُها حتّى نخرج من احتراب الآراء وتناطح المذاهب؟ لماذا لا يكونُ الحقُّ هو: «ما يُمْتِعُنَا، وكَفَى»؟!

المذهبُ الذي تُعبّر عنه الأسئلة السّابقة يَرْضَعُ من لِبان فلسفةِ النّسبيّة (Relativism)، ويأكل من قَلْبِها؛ فإنّه يقوم على رؤيةٍ تَخْلِطُ بين مفهوم «الحقيقة» ومفهوم «الهوى»؛ إذ الرِّضا بما يطمئنُّ إليه قلبُ الإنسان قد يتحقّق بموافقة الموضوع ذائقةَ المرءِ أو طموحَهُ، وقد يتحقَّقُ بمتابعة لذيذِ الأوهامِ والأماني الفاسدة، وأمّا «الحقيقة»، فهي الصُّورة التي تَنْطَبِعُ في العقل والقلب موافِقةً لصورة الوجود مهما كانت طبيعته.

وقد ثار الإنسانُ الغربيّ «بعد الحداثِيّ» على مفهوم الحقيقة، وفَضَّل صناعة السَّراب الماتِعِ على اكتشاف الحقيقة المجرّدة؛ لأنَّ الوجود ـ عنده ـ ما يريده هو لا ما يريده الوجود، أو كما يقول بعض فلاسفة ما بعد الحداثة: إنَّ الإنسان قد فَكَّكَ الواقع إلى قِطَعٍ صغيرةٍ، وترك لنفسه إعادة تركيبه على الصُّورة التي يريدُ؛ فالوجود فيضُ الذَّوْقِ لا كَشْفُ العَقْلِ.. وذاك هو الأُفْيُون.

والنسبيّة تَنْقُضُ نفسها ذاتيًّا لأنّه بإنكارها أُحاديّة الحقيقة تنفي عن نقيضها البُطْلان؛ فإذا جازَ في عُرْفِ النسبيّة أن تكون موضوعيَّةُ الحقيقةِ حقيقةً؛ امْتَنَعَ التَّسْليمُ للنسبيّة أنّها حقيقةٌ؛ إذْ كيف تكون حقيقةً وما يُناقِضُها حقيقةٌ في الآنِ نفسه؟! وكيف بإمكاننا أن ندعوَ غيرنا إلى أَلَّا يُسَلِّمَ بأُحاديّة الحقيقة رغم أنّ ما ندعوه إليه ليس حقيقة أحاديّة؛ إذ يقبل نقيضه؟! إنّ النَّقِيْضَيْنِ إذا اجْتَمَعَا تَنَافَيَا.. والنسبيّة بذلك تَهْدِمُ نفسها بِقَبُولِ نَقِيضِها.

«ليس بإمكان القائل بالنسبيّة أنْ يُعْلِنَ النّسبيّة الثقافيّة دون الارتفاع فوقها، ولا أن يرتفع فوقها دون أن يتنازل عنها»[١]. الفيلسوف (و. ف. كوين)[٢].

إنّ «الحقيقة» هي «موافَقَةُ ما في الأذهان لما في الأَعْيان»؛ أيْ: مُطابقةُ التصوُّرِ الذهنيّ للواقع الخارجيّ، وليست هي مُجرَّد مُعْطًى لُغويٍّ بَحْتٍ أو تَوَاطُؤٍ مُجْتَمَعِيٍّ... والبحث عن الإلٰه والغاية من الوجود ليس إبحارًا في ما يوافق مذاقَ القَلْبِ وخيار الرُّوح بضابطِ الإمتاع، وإنّما هو بحثٌ في حقيقة الوجود الخارجيّ الموضوعيّ، بمعنى إدراكِهِ على ما هو عليه دون تعديلٍ أو تغييرٍ أو رغبةٍ ذاتيّةٍ في تصوُّره على غير ما هو كائِنٌ عليه، أو بعبارة (توما الأكويني): «الحقيقة هي موافَقَةُ العَقْلِ لِلشَّيْءِ ذاتِهِ» «Veritas est adæquatio intellectus et rei»[٣][٤].

والمرءُ مهما حاول الفرار من واقعيّة الواقعِ؛ واقعٌ لا محالة في تَطَلُّبه؛ لأنَّ نَفْسَهُ تَطْلُبُ ـ ضرورةً ـ شيئًا قائمًا في الوجود، ولو أنّه كان يطلب مَحْضَ الرِّضا عَمَّا حوله لما التجأَ إلى العقلِ والفكر والاجتهاد في السَّبْرِ والتَّفكيك وتحرّي صِدْقِ النَّقْلِ؛ ومن شواهد ذلك قصّةٌ ظريفةٌ يرويها أحد الكُتَّابِ من خُصوم الإلحاد في أمريكا؛ إذْ أَخْبَرَ أنَّهُ بعد أن انتهى من مقدّمته في مؤتمرٍ عن الإيمان وتحدِّياتِهِ، تَقَدَّمَ إليه شابٌّ، وقال له: «د. ماكدويل، لماذا علينا أن نَهْتَمَّ أصلًا بأمر الحقيقة؟!»، وكأنَّهُ يَسْتَحِثُّهُ للدُّخول معه في جدالٍ طويلٍ حول شرعيَّةِ المُطالبة بأنْ تكونَ الحقيقةُ واحدةً مطابقةً للواقع، فأجابه بذكاء: «هل

---

(١) Cited in: H. Siegel, *Relativism Refuted: A critique of contemporary epistemological relativism* (Dordrecht: D. Reidel, 1987), p.43.

(٢) و. ف. كوين W.V. Quine (١٩٠٨ ـ ٢٠٠٠م): فيلسوفٌ وعالم منطق أمريكيٌّ. أحد أعلام الفلسفة التحليليّة في القرن العشرين.

(٣) *Summa Theologiae*, Ia, Qu. 16, art. 1.

(٤) يُعرف هذا المذهب باسم: "correspondence theory"، ويقابله "coherence theory" الذي يزعم أنّ «الحقيقة» هي الرُّؤى المتناسقة بين مجموعةٍ من الاعتقادات دون القيام على أصْلٍ أَوَّليّ بَدَهِيٍّ؛ ولذلك ينتهي المذهب ضرورة إلى نسبيّة الحقيقة لأنّه لا يزعم رَصْدَ الواقع الخارجيّ ابتداءً.

تريد جوابًا صوابًا أم جوابًا خطأ؟»، ثم ابتسم ابتسامةً خفيفةً وانْصرفَ. وترك وراءه الشابَّ في حَيْرةٍ، مُرْتَبِكًا؛ إذْ إنّ هذا الشابَّ الرَّافض للحقيقة المطابقة للواقع، جاء يطلب جوابًا مُطابقًا للواقع![1].

إنّ طلبَ الحقيقة قَدَرُ كُلِّ طالبٍ للمعرفة؛ إذ الحقيقة نهاية الكَشْفِ عن واقع الحال؛ ولذلك هي ـ مثلًا ـ في اليونانيّة (Αληθεια) [أليثيا]، فتتكوَّنُ من بادِئةِ السَّلْب (الهَمْزة)، والفِعْل (λήθω) [ليثو]؛ أي: مَسْتُورٍ أو مخفيّ[2]؛ لأنّها كَشْفٌ لِلْمَسْتُورِ، وليست صناعَةَ المَعْدُومِ. وهي واقعٌ قائم في الوجود لا يتعلَّقُ تَحَقُّقُه بإدراكِ العقل له، على خلافِ الخطأ أو الوَهْمِ؛ فهما صياغةٌ ذهنيّةٌ بَحْتةٌ.

وتتميَّزُ الحقيقة بخصّيصتين أساسيّتين. أَوَّلهما أنّها واحدة، لا تَظْهَرُ في صورة تُعاكِسُها أو تُنافِرُها، ولا تَخْضَعُ لأهواء النَّاس وأَمْزِجَتِهم، وأنّها كُلِّيَّةٌ، غيرُ مُرْتَهَنَةٍ لِطَبْعِ مكانٍ أو حالِ زمانٍ. هي حقيقةٌ لكلّ مِصْرٍ وكلِّ عَصْرٍ. وكما قال (فرنسيس برادلي)[3]: «إذا صَحَّتْ مَرَّةً؛ صَحَّتْ دائِمًا» «Once true, always true»[4].

وإذا كان العالَمُ الموضوعيُّ القائم خارِجَنا يَتَّسِمُ بالأُحاديّة ضرورةً؛ فإنَّ فَهْمَهُ بإدراكه على حقيقتِه يجب أن يكون أُحاديًّا؛ إذ الذِّهْنُ يستقبله انطباعيًّا ولا يَصْنَعُه. وإذا كانت الحقيقةُ بذلك واحدةً؛ فإنّ لُزومَ البحث عن هذه الصُّورة الأُحاديّة للواقع ضرورةٌ فكريّة وفريضةٌ أخلاقيّة. ولا معنى عندها للقولِ بوجوب الإذعان لداعي الهوى لِفَهْمِ العالَم، والتَّسامحِ مع دعوى تَعَدُّدِ الحقيقة لِتَعَدُّدِ السَّاعين إليها، أو جعل إنكارِ شرعيَّةِ تَعَدُّدِ الحقيقة عُدْوانًا على الضَّمائرِ.

---

(١) Josh McDowell and Sean McDowell, *Evidence That Demands a Verdict: Life-changing truth for a skeptical world* (Nashville, Tennessee: Thomas Nelson, 2017), p.607.

(٢) عبد الرحمٰن بدوي، مدخل جديد إلى الفلسفة (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٥م)، ص١٣٧.

(٣) فرنسيس برادلي Francis Bradley (١٨٤٦ ـ ١٩٢٤م): فيلسوف مثاليٌّ من أعلام فلاسفة بريطانيا في زمانه. من أهمّ مؤلفاته: "Appearance and Reality".

(٤) Francis Bradley, *The Principles of Logic* (London: K. Paul, Trench, 1883), p.133.

إنّنا نبحث في حقيقة الحياة، وعلاقتها بما قبلها، وصِلَتِها بما بعدها؛ لأنَّ الحياة الإنسانيّة، والوجود الكونيّ بِرُمَّتِهِ وُجودٌ مُتَعَيِّنٌ في ذاتيَّةٍ أُحاديّةٍ.

ونحن نبحث في وجود الله لأنَّ وجودَهُ ـ سبحانه ـ لا يمكن أن يقارِن عَدَمَهُ؛ فاختلافُ النَّاسِ في القول في وجودِ الله لا يَمَسُّ حقيقةَ وجود الإلٰه أو عدمه لأنّ هذا الوجود أو العَدَمَ قائمٌ بذاته خارِجَ وَعْيِنَا.

لماذا لا نختار الحقَّ الذي نريده إذن؟ جوابُ ذلك هو أنَّ الحقَّ لا يُختار ولا يُصْنَعُ، وإنّما يُكْتَشَفُ؛ إذ هو وجودٌ ذاتيٌّ قائِمٌ بنفسه خارِجَ وَعْيِنَا.

ولا شكّ أنّ التصوّر البراغماتيّ للعالَمِ الموضوعيّ لا يمنح الإنسان قدرةً على فَهْمِهِ، وإدراكِهِ على ما هو عليه كائن؛ لأنّه لا يسعى ـ ابتداءً ـ إلى ذلك؛ إذ الحقيقةُ عنده ليست العالَمَ الموضوعيّ ذاته، وإنّما الفَهْمُ الذي يُحقّق المنفعة العَمَليّة.

والمذهب البراغماتيّ يَضَعُنا في مأزقٍ قاتلٍ؛ إذ يَعْجَزُ عن التَّمييز بين حقيقة الوجود الخارجيّ و«الكِذْبة النَّافعة»؛ فقولُ الرَّجُلِ لابنِهِ: إنَّكَ إذا أَنْهَيْتَ ما في الصَّحْنِ فستصير كبيرًا في أيّام؛ سيجعل هذا الطِّفْلَ الزَّاهِدَ في الطَّعام يأكُلُ بِنَهَم، واغتذاؤه محمود، لكنَّنا نَعْلَمُ من حقيقة قوانين العالم الخارجيّ أنّ الطفل لا يصير كبيرًا في غُضونِ أيَّامٍ، فكيف نجمع بين حقيقة العالم الموضوعيّ وقوانينه والكذبة النَّافعة؟!

والمشكلة الكبرى «للحقيقة» البراغماتيّة أنّها تكتسب «صِدْقَها» من نجاحها عند أعيانِ النَّاس؛ وتَفْقِدُ «صِدْقَها» إذا لم يجد آخرون فيها نفعًا؛ فهي حقيقةٌ بالتَّبَعِ الظَّرْفيّ لا بالأصالة المطلقة، وتَتَعَدَّدُ بِتَعَدُّدِ المُنْتَفِعِين، وتَنْتَفِي بإنكار المُمْتَعِضِين؛ ولذلك قال (شلر)[1]: «توجدُ براغماتيَّاتٌ بِعَدَدِ البراغماتيِّين»[2].

---

(١) ف. سي. أس. شلر F. C. S. Schiller (١٨٦٤ ـ ١٩٣٧م): فيلسوف ألمانيّ، درّس في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكيَّة. من أعلام الفلسفة البراغماتيَّة. سمّى البراغماتيَّة «الإنسانويَّة» "Humanism"

(٢) Cited in: Nicholas Bunnin and Eric Tsui-James, eds. *The Blackwell Companion to Philosophy* (John Wiley & Sons, 2003), p.775.

ومن المهمّ هنا بيان أنَّ النَّظْرة النّسبيّة إلى الحقيقة قد آلَتْ ـ عَمَلِيًّا ـ بكثيرٍ من النَّاسِ في الغَرْبِ إلى تَرْكِ مَذْهَبِ الأُلوهيّة (Theism) إلى مذهب اللَّاأدريّة؛ أي: الإهمالِ التَّامِّ لقيمةِ موضوعِ البحث في وجودِ اللهِ؛ بل وعَدِّ هذه السَّلبيَّة المذهبَ الجادَّ والعاقِلَ الوحيدَ من الموقف المعرفيّ ـ ثُمَّ السُّلوكيّ ـ من وجود اللهِ.

«الإيمانُ، مَوْقِفٌ عَقْلِيٌّ مُناسِبٌ، مُتَعَلِّقٌ بالحقيقةِ»[١]. (د. و. همِلِن)[٢].

المطلب الثالث

هل علينا أن نبحث في صِدْقِ أَعْيَانِ كُلِّ الأديانِ؟

هل يزعم هذا الكتاب الذي بين يديك أنّه يناقِشُ كُلَّ الرُّؤى الكونيَّة لإثبات أنّ الإسلام هو الحقُّ الذي يُطابِقُ واقع الوجود؟

هو سؤالٌ مشروعٌ، واعتراضٌ على كُلِّ داعيةٍ للإسلام أنْ يُعِدَّ جوابَهُ؛ إذ قد يبدأ داعيةٌ نصرانيٌّ أو بُوذِيٌّ أَمْرَ بحثه في دينه، لينتهي إلى رَفْضِ جميع الأديان الأخرى دون أن يُفْسِحَ لها مجال البيان لِكَشْفِ حقيقتِها وبراهينِ صِدْقِها.

وجواب الاعتراض ظاهرٌ في أنّنا سنبحث في هذا الكتاب وكتاب «براهين النُّبُوَّة» في الحقيقة الكبرى لوجودنا ووجود الكون بعد التَّصديق بحجيّة العَقْلِ وصِدْقِ الحِسِّ. وكُلَّما تقدّمنا في النَّظَر، عَرْضًا للأسئلة واختيارًا لسديد الأجوبة، تساقَطَتْ في طريق البحثِ والكَشْفِ خياراتٌ كثيرةٌ مطروحةٌ لأديانٍ ورؤًى كونيّة تَزْعُمُ أنَّها ظِلُّ الحقِّ في الأرض. وكُلَّما اهتدَيْنَا إلى صوابٍ من بين الخيارات المطروحة، انْفَتَحَتْ أمامنا خياراتٌ فرعيّةٌ ضمن هذا الخيار؛

---

(١) D. W. Hamlyn, *The Theory of Knowledge* (London, Macmillan, 1970), p.87.

(٢) د. و. همِلِن D. W. Hamlyn (١٩٢٤ ـ ٢٠١٢م): فيلسوف بريطانيّ له عناية خاصة بدراسة نظرية المعرفة وتاريخ الفلسفة.

فنحن نَنْتَقِلُ من حقٍّ عامٍّ إلى آخرَ أَخَصّ حتى ننتهيَ إلى الحاجة إلى النبوّة، وعندها ينتهي البحث في تجريديّات العقل إلى تَطَلُّبِ الخيارات العمليّة، لنواجه أَجْوِبةَ القوالب الدينيّة الجاهزة.. وعندها يبدأ البحث في صِدْقِ الإسلام.

يبدأ بحثُنا ـ عمليًّا ـ في خيار وجود الإلٰه، وعدم وجودِه، والعَجْز عن الجَزْمِ، أو إهمال النَّظَرِ.. ثم إنَّنا أثناء البحث في وجود الله، سنتناول حقيقةَ هذا الإلٰهِ الخالِقِ والمصوِّرِ؛ أَهُوَ ذاتٌ مُريدةٌ فاعِلةٌ، أم شيءٌ مجرَّدٌ (كالأرقام مثلًا)، أم هو والطبيعة واحد (وحدة الوجود). فإذا انتهى البحث إلى وجود ذات كاملة مريدة، انتقلنا إلى بحث أوّل الوجود، أإله واحد أم آلهة متعددة؟.. وذاك حديثنا في هذا الكتاب.

وإذا انتهينا ممّا سبق إلى الإيمان بالإلٰهِ الواحدِ، سينفتح لنا سؤالٌ تالٍ هو: أإلٰهُ المُؤَلِّهَةِ الفاعِلُ في الكونِ، أم إلٰهُ (أرسطو) السّلبيُّ المنصَرِفُ عن كونِنا إلى ذاتِ نفسِه العَليّةِ؟ وإذا انتهينا إلى إلٰهِ المُؤَلِّهَةِ؛ لَزِمَنَا أن نبحث عن طريقِ معرفة الإنسان بذات الإلٰه وذات الوجود، وعندها يبلغ الظَّمأُ بالعقل آخر مداه، وينتهي إلى طلب جواب جاهزٍ كافٍ، وطريق ذلك النبوّة، وعندها نسأل عن الإسلام وصدقه.

ونحن في باب الحديث عن النبوّة سنجد أنفسنا أمام قلّةٍ من الأديان التي تزعم الإيمان بالإلٰهِ الأحد الذي أرسل إلى الأرض وحيًا، ولذلك لن نرصدها كُلَّها، باستثناء الإسلام والنصرانيّة[١]؛ لأنَّ البتَّ في أمر هذين الدِّيْنَيْنِ قد يقودنا إلى الدِّين الحقّ. ولا يُنتقل إلى غيرهما إلَّا بعد العلم بفسادهما جميعًا.

ولا يلزمنا أنْ ننظر في صِدْقِ غير الإسلام إلَّا إذا استبان لنا أنّ الإسلام فاسِدُ البرهان أو ضعيفُه، فلا يملك أن يسند أصوله.. وسير البحث هو الذي سيجعل الإسلام نهاية النظر، أو يلزمنا أن نتجاوزه لِنَنْظُرَ في غيره.

---

(١) النصرانية ديانة تزعم التوحيد والتثليث معًا!

لوحة: رحلة النظر

إنّنا بمعرفة أنّ (مُحَمَّدًا) ﷺ خاتم النبيّين نستغني عن البحث عن كلّ طريقٍ آخر لحقائق الوجود الكبرى؛ لأَنَّ **الحقَّ واحِدٌ لا يتعدّد**، وإذا صحَّتْ هذه النبوّة بَطَلَ كلُّ ما يُخالِفُها، وإذا ثبت فسادُهَا، وَجَبَ المسيرُ إلى غيرها... وبذلك يكتمل المسير إلى أجوبةِ أسئلةِ الإنسانِ الكبرى..

> **البحثُ في صِدْقِ كُلِّ دِيْنٍ لا يقتضي البحثَ الخاصَّ في كُلٍّ منها، وإنَّما يكفي استبعاد أجناسِ الدِّينِ الفاسدِ بأنواعها الكُبْرى كُلَّما أَلْغَى جِنْسَها النَّظَرُ العقليّ، قبل اختبار الدّين الذي يتوافق مع الحقائق المحصّلة في البحث.**

مراجع للتَّوسُّع:

يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م.

James W. Sire, *Why Should Anyone Believe Anything at All?*, Downers Grove, Ill. : InterVarsity Press, 1994, pp.16-90.

Francis Beckwith and Gregory Koukl, *Relativism: Feet Firmly Planted in Mid-Air*, Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 1998.

Paul Copan, *True for you, but not for me*, Minneapolis, Minn.: Bethany House Publishers, 1998.

Ravi Zacharias, *Can Man Live Without God*, Nashville: Thomas Nelson Publishers, 2004.

الفصل الثاني

المواقف العقديّة في مسألة وجود الله

ـ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]

ـ «مَنْ لا يعرف كيف يؤمنُ؛ لن يُدرِكَ العِلْمَ»

(أوغسطين)[(١)]

يَجِدُ المرءُ نفسَه في هذه الدُّنيا ـ إذا أراد أن يبلوَ نفسه بالفِكْر ليدرك مَوْقِعه من الكون ـ مدفوعًا إلى أن يَحْسِمَ أمرَهُ في مسألةِ طبيعة الوجود، هل هو أبعادٌ فيزيائيّةٌ مَحْضةٌ تُخْتَزَلُ في «الجواهر والأعراض»، أمّ أنّ المادة والطَّاقة في فَقْرٍ إلى مُوجِدٍ، هو الإلٰه في الاصطلاح الدّينيّ، أم الأمرُ غير ذلك أو بين ذلك أو بعض ذلك..

قبل البدء في البحث في براهين الإيمان بالله ونقود المخالفين، وَجَبَ العِلْم بمواقف الناس من الوجود الإلٰهيّ؛ فإنّ كثرة المصطلحات قد أَحْدَثَتْ لبسًا في إدراك خواطر اللُّبّ في أمر وجود الربِّ؛ فتداخلَتْ بذلك المواقفُ الرافضة للإيمان بمواقف المتشكّكين والموافقين في بعض الحكم أو المتجاهلين لكلّ الأمر..

---

(١) أوغسطين Augustine (٣٥٤ ـ ٤٣٠م): أحد أهم آباء الكنيسة وقدّيسيها. فيلسوفٌ ولاهوتيٌّ شهيرٌ. لا يزال مؤثّرًا في اللّاهوتِ النّصرانيِّ اليوم بصورة كبيرة.

المبحث الأول

المذهب الألُوهيّ Theism

يقوم المذهب الألوهيُّ على الإيمان بذاتٍ كاملةِ الصِّفات، يمتنِعُ عَقْلًا أَلَّا توجد لأنَّ عَدَمَها يلزَمُ منه محالاتٍ عقليّة؛ ولأنَّ المحالات العقليّة ممتنعةٌ واقعًا؛ كان وجود هذه الذات لازمًا، ولذلك يُسمّى الإلٰهُ في هذا السّياق في الكتابات الفلسفيّة والكلاميّة بـ«واجب الوجود». والإلٰه عند الأُلوهيّين مُفارِقٌ بصورةٍ كُليّةٍ للعالم؛ فالعالَمُ والإلٰه لا يتطابقان.

وإذا أُطلِقَ المذهب الأُلوهيّ في الأدبيَّات المعاصرة عند الجَدَلِ العَقَدِيّ، قُصِدَ به ضرورةً اليهوديّةُ والنصرانيّةُ والإسلامُ، وإن كان هو أوسع من ذلك إذ يشمل الأديان الصَّريحة في مذهبها التعدُّديّ.

ومن خصائص إلٰه المُؤَلِّهَة أنّه يتواصَلُ مع خَلْقِه من خلال الوَحْيِ لخواصِّ أنبيائه، أو الإلهام والكَشْفِ لأَصْفِيائه؛ فقد خَلَقَ الخَلْقَ ولم يتركهم دون عنايةٍ. وتدور مواضيع الوَحْيِ الخاصّ عادةً حول الغاية من الخَلْقِ، والعبادة بأوجهها المختلفة، والشَّرائع، والأخلاق.

ويختلف المُؤَلِّهَة فيما بينهم في عددٍ من المسائل، من أَهمّها القولُ في العالَمِ بين زَعْمِ أَزَلِيَّتِهِ وتقرير حُدوثِه. وأبرزُ خلافات الـمُؤَلِّـهَة سبَبُها تَأَثُّرُ جماهيرهم بالحضارات الوثنيّة المجاورة لهم أو التي عاشوا في ظِلِّها، ولذلك تَنْزع طوائف منهم إلى اتّخاذ الشُّركاء في باب الطاعة.

المبحث الثاني

الرُّبوبيَّة Deism

يقوم المذهب الرُّبوبيّ على أصلِ الإيمان بخالقٍ مُصوّرٍ لهذا الكون، واحدٍ وأَزَلِيٍّ، نَظَّمَ عَمَلَ الكون بقوانين آليَّةٍ مُسْتَغْنِيَةٍ عن التَّوجيه والتَّعديل؛ كحالِ السَّاعة التي يَصْنَعُها صاحبها ثم يتركها إلى نظامِ عَمَلِها الذاتيّ.

والكونُ عند الرُّبوبيّ المصدرُ الوحيدُ لمعرفة الله وصفاتِه؛ ولذلك فالرُّبوبيّ يستغني «بالوَحْيِ العامّ» المتمثّل في حقائقِ العَقْلِ ودِلالاتِ الكَوْنِ الطَّبيعيّ عن «الوَحْيِ الخاصّ» المتنزّل على الأنبياء.

يختلف الرُّبوبيّون عن المُؤَلِّهَة أساسًا في علاقة الإلٰه بالخَلْقِ؛ فالرُّبوبيّون يُنْكِرُون الوَحْيَ، ويُعارِضون الأديان، ويَرَوْنَ أنَّ الإلٰهَ الخالق لم يتواصل مع أحدٍ من البشر، وما دَعَاوى الوَحْيِ والأسفارِ المقدَّسةِ سوى فِرى بشريّة قُصِدَ بها خداعُ النَّاس.

وقد ازدهر المذهب الرُّبوبيّ فيما يُعْرَفُ بعصر الأنوار (القرن الثامن عشر) حيث كان جُلُّ رُمُوزِه الفكريّة الكبرى من الرُّبوبيّين ـ مثل (فولتير)[1] و(توماس باين)[2] ـ. وقد غَلَبَ على كتاباتهم الدَّعوةُ إلى الاستعاضة عن الوَحْيِ بالعقل البشريّ، والسُّخرية من الأديان ورموزها ومؤسّساتها. وكانت الرّبوبيّة في تلك المرحلة من التاريخ ثورةً مباشرة على الكنيسة، وخرافاتها،

(١) فولتير Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م): اسمٌ مستعارٌ لمفكّر فرنسيّ واسع التّأليف. كان له تأثيرٌ واضِحٌ في عَصْرِه، خاصّة في خُصومَتِه مع الكنيسة وعقائدِها ومؤسّساتها.

(٢) توماس باين Thomas Paine(١٧٣٧ ـ ١٨٠٩م): فيلسوفٌ، وسياسيٌّ بريطانيّ، وأحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكيّة.

وتَسَلُّطها على عقول النَّاس، واستغلالها للحقّ الإلٰهيّ لتحقيق مآربَ دُنْيويّة نَفْعِيَّة لأشخاص رجالِ الدِّين.

يُنكر الرُّبوبيّون وقوعَ المعجزات، ويرونها كُلَّها من آثار سذاجةِ عُقولِ المتديّنين أو من مَكْرِهم لاستجلاب الأَتْباع؛ فالكَوْنُ آلةٌ ضخمةٌ تعمل بقانونٍ لا يَتَعَطَّلُ، ومُدَّعِيْ خِلافِ ذلك خُرافيّ لا يَعْقِلُ أو ماكِرٌ يَتَّخِذُ قَصَصَ الخوارق سبيلًا لخداعِ النَّاسِ.

تَقَهْقَرَ المذهبُ الرُّبوبيُّ لصالح المذهبِ الإلحاديّ بعد أنْ مَهَّدَ له الأرضيَّةَ الأُوْلى بالاجتراء على النَّصرانيّة بالنَّقْدِ والنَّقْضِ. ويَغْلُبُ على الرّبوبيّين اليومَ رفضهم للأديان لإنكارهم كمالَ رحمةِ الله، واعتقادهم أَنَّ الشرّ الموجود في العالم يمنع الإيمان بإلٰهٍ رحيمٍ يَهْتَمُّ بأوجاع النَّاس وأحلامهم. وقد أَلْجَأَهُم العِلْمُ الحديثُ وكُشوفُه إلى الإيمان بالمصمّم.

يعتقد الرُّبوبيّون أنّ غاية الحياة تحقيق السَّعادة في هذه الدُّنيا، وأنَّ طريق معرفة الحقِّ العَقْلُ والعِلْمُ، لا الوَحْيُ. وأنّ على الإنسان أن يلتزم بالأخلاق التي يهديه إليها عَقْلُه، وعامّة هذه الأخلاق عالميّة، يُدْرِكُها الإنسان في كلِّ بيئةٍ لأنّها من صميمِ طبيعة الإنسان وفي مُتَنَاوَلِ الإدراك العقليّ.

يختلِفُ الرّبوبيّون في أمر المعاد، فمنهم من يُنْكِرُ الدَّارَ الآخرة، ومنهم من يرى أنّ الله يبعث النَّاسَ لِيُجازي الطَّيِّبَ على ما أَحْسَنَ فيه، والمفْسِدَ على ما أَساءَ فيه.

المبحث الثالث

الإلحاد Atheism

الإلحادُ في اللُّغةِ العربيَّةِ: «المَيْلُ جانِبًا»، وفي التَّعريف القرآنيّ: إنْكارُ أيِّ حقيقةٍ من حقائقِ الشَّرْعِ؛ كوجود اللهِ وصِفاتِه ومُحْكَمِ شَرْعِهِ. وفي الاصطلاح العُرْفيّ اليومَ: الإلحادُ هو إنكارُ الرّبِّ الخالقِ؛ إذ الكلمة الإنجليزيَّةُ تبدأُ بسابقةِ (a) قبل كَلِمَةِ (theism) للنَّفْي ـ كما في اليونانيّة ـ.

ومن أهمِّ مقولاتِ الإلحاد أنّ الكون مادَّةٌ وطاقةٌ وحركةٌ عَمْياءُ، وأنّه أزليٌّ (أو حادِثٌ بلا سببٍ، عند قِلَّةٍ)، وأنّه عالَمٌ فاسِدٌ بما فيه من شرٍّ، وأنَّ الأخلاق نسبيّةٌ، فلا توجد حقائقُ أخلاقيّةٌ تُكْتَشَفُ، وإنَّما هي قِيَمٌ تُخْلَقُ على أذواق النَّاس، وليس للحياة غايةٌ، ونهايةُ الإنسانِ الموتُ، فَهُو مِن الرَّحِمِ ـ بلا غايةٍ ـ وإلى الموتِ ـ بلا حِكْمةٍ.

والإلحادُ على نوعَيْنِ:

الإلحاد القويُّ (strong atheism): وهو: «الإيمان أَنَّ اللهَ غيرُ موجودٍ»؛ أيْ: أَنَّ الملحدَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لا وجود لإلٰهٍ. وهذا المذهب لا يُعْرَفُ أَحَدٌ من أئمَّةِ الإلحاد اليوم يَتَبَنَّاهُ؛ بل الجميعُ في مؤلَّفاتهم يُنْكِرُون تَلَبُّسَهُمْ به لأَنَّ النَّفْيَ المطلق هنا مُتَعَذِّرٌ ضرورةً. ويذهب عددٌ من الملاحدة إلى عَدِّ هذا التَّعريف مُجَرَّدَ تشويهٍ لحقيقةِ المعتقَدِ الإلحاديِّ من طَرَفِ المؤمنين بإلٰهٍ[1]. والحقيقة أنّ هذا التعريفَ هو التعريفُ الكلاسيكيُّ للإلحاد كما هو في الموسوعات

(١) العجيبُ هنا أنّ الإلحاد الشَّعبي في العالَـمَيْنِ العربيّ والغربيّ لا يكاد يقول بغير هذا التعريف. وسبب ذلك عجز أهله عن فهم التحدّيات التي تواجه الإلحاد القويّ.

والمعاجم الفلسفيّة القديمة، كما أنّه التعريف الذي عليه جماهير عوام الملاحدة في الغرب والشرق.

الإلحادُ الضعيفُ (weak atheism): وهو: «عدم الإيمان بوجود اللهِ»؛ أَي: أَنَّ الملحد يرى أنَّ حجّة المؤمن لم تُقْنِعْهُ حتَّى يؤمن بالله؛ فالحُجَّةُ المقامة لإثباتِ وجود الله أَدْنى من المطلَبِ، إقناعيًّا. ورغم أَنَّ كُلَّ رُموز الإلحاد المعاصر ينتمون إلى هذا المذهب إلَّا أَنَّ خطابهم الشَّعبيّ يُوحِي دائمًا أَنَّهم على مذهب «الإلحاد القويّ»، وذلك بسببِ إغراءِ الخِطاب الجَزْمِيّ. ومن الظَّريف في هذا الباب أن يكتُبَ الفيزيائيُّ (ستنجر)[1] أَشْهَرَ مؤلَّفاتِه الإلحاديّة تحت العنوان الفاقع: «الإلٰه: الفرضيَّةُ الفاشِلة ـ كيف يُثْبِتُ العِلْمُ أَنَّ اللهَ غيرُ موجودٍ»[2]، رغم أنّه صَرَّحَ مِرارًا أنّه لا يمكنُ إثباتُ أنّ الله غيرُ موجودٍ، وغاية ما يمكن إثباته أَنَّ الإلحادَ أكثر معقوليَّةً من الإيمانِ باللهِ!

كان الإلحادُ حالة استثنائيَّةً ونادرةً على مدى التاريخ البشريّ غير أنّه مع ظهور تَيَّار «theothanatology»[3] الذي يدعو إلى «مَوْتِ الإلٰه»، واستغناءِ الكَوْنِ عن مبدأٍ تفسيريٍّ ومعنًى أصيلٍ وغايةٍ نهائيّةٍ، أَصْبَحَ الإلحادُ عقيدةً لها أتباعٌ، ومؤسَّساتٌ، ومنابرُ. ويستمِدُّ الإلحادُ الحَدِيْثُ إلهامَهُ من عبارة الفيلسوف (نيتشه) القائل: «الإلٰهُ قد ماتَ، لقد قَتَلْنَاهُ»[4]. وقد عَرَفَ هذا التيّارُ ازدهاره الأكبرَ على مدى النِّصفِ الأوَّلِ من القرن العشرين وبداية النِّصف الثاني، بعد وقوع عالم الأكاديميا في الغرب تحت سُلْطانِه بصورةٍ تكاد تكون كُلِّيَّةً، وهو ما أتاح له أن يَفْرِضَ رُؤْيَتَهُ على الخطاب الإعلاميِّ، لتستسلم له مقاليدُ منافِذِ التَّأثيرِ.

---

(١) فكتور ستنجر Victor Stenger (١٩٣٥ ـ ٢٠١٤م): فيزيائيٌّ وفيلسوفٌ أمريكيّ. من أعلام تيَّار الإلحاد الجديد. شديد العدوانية ضدَّ الاعتقاد الدّينيّ، وتتميّز كتاباته بتكثيف الاعتراضات على حساب تناسقها.

(٢) *God: The Failed Hypothesis-How Science Shows That God Does Not Exist.*

(٣) الكلمة من اليونانيّة، وتتكون من ثلاثة مقاطع: «ثيوس» بمعنى إله، و«ثَنَتُوس» بمعنى موت، و«الوغوس» بمعنى عِلْم.

(٤) Friedrich Nietzsche, *The Gay Science*, tr. Josefine Nauckhoff (Cambridge: University Press, 2001), p.120.

امتدَّ النَّفَسُ الإلحاديُّ إلى اللَّاهوتِ النَّصرانيّ؛ فظهر تَيَّارُ «الإلحاد المسيحيّ»[1] الذي يدعو إلى اتّباع المسيح ورَفْضِ وجود الله، مقرّرًا بعبارة حاسمةٍ أَنَّ «كلَّ إنسانٍ مُنْفَتِحِ اليومَ على التَّجربةِ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ غائِبٌ، ولكنَّ المسيحيّ وَحْدَهُ الذي يَعْلَمُ أَنَّ الإلٰهَ قد ماتَ، وأَنَّ مَوْتَ الإلٰه حَدَثٌ نهائيٌّ، لا رَجْعَةَ فيه»[2].

مع بداية العقد السابع من القرن الماضي بدأ الخطاب المضادّ للإلحاد في الظهور من جديد في عالم الأكاديميا مع كتابات الفيلسوف (ألفن بلانتنجا)[3]، ثمَّ اتَّسَعَتْ دائرةُ هذا الخطاب في أقسام الفلسفة والعلوم، وما تزال في تَمَدُّدٍ مُتَّصِلٍ حتّى كتب (مايكل شرمر)[4] ـ أحد أشهر دعاة اللَّادينيّة في أمريكا ـ سنة ٢٠٠٠ إنّنا: لا نَشْهَدُ ـ فقط ـ أَنَّ الإلٰهَ لم يَمُتْ، وإنَّما نَشهَدُ أيضًا أَنَّ الإلٰهَ لم يَكُنْ أَكْثَرَ حياةً منه اليومَ[5].

كان الإلحادُ في السَّابق مُرْتَبِطًا بأَعْلام الفلسفة في القرنين التاسع عشر والعشرين مثل (نيتشه) و(ماركس)[6] و(راسل)[7]، غير أنّه مع بداية القرن الحادي والعشرين، وصدور كتاب (وَهْم الإلٰهِ) للبيولوجيّ (ريتشارد داوكنز) ظهر ما يُعرف بـ«الإلحاد الجديد»، وهو النَّمَطُ الإلحاديُّ الأكثرُ جاذبيَّةً اليومَ، ولذلك سيكون نَقْدُنا للإلحاد مُنْصَبًّا في هذا الكتاب أساسًا على «الإلحاد

---

(١) Christian atheism.

(٢) Thomas J. J. Altizer, *The Gospel of Christian Atheism* (Philadelphia: The Westminster Press, 1966).

(٣) ألفن بلانتنجا Alvin Plantinga (١٩٣٢م): فيلسوف أمريكيّ بارز. من أعلام المدرسة التحليلية في أمريكا الشمالية. له عناية خاصة بفلسفة الدين ونظرية المعرفة.

(٤) مايكل شرمر Michael Shermer (١٩٥٤ـ): ناشط لاديني أمريكيّ كثيف الحضور الإعلامي. يشرف على المجلّة الإلحاديّة المعروفة "Skeptic".

(٥) Michael Shermer, *How We Believe: Science, Skepticism, and the Search for God* (New York: Freeman, 2000), pp.16-31.

(٦) كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ ـ ١٨٨٣م): فيلسوف اقتصاد وعالم اجتماع ألمانيّ، تُنسب إليه الماركسية. قادَتْ أفكارُه ثورةً ماديّةً واسعةً على الإيمان بالله في البلاد التي حَكَمَها الماركسيُّون.

(٧) برتراند راسل Bertrand Russell (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠م): فيلسوفٌ وعالم منطقٍ ورياضيات بريطانيّ. أحدُ أعلامِ الفلسفة التحليليّة. حاصل على جائزة نوبل للآداب.

الجديد» ورُموزِه، خاصّة (داوكنز)[١] و(هاريس)[٢] و(لورنس كراوس)[٣]. . .

ظهر تيّار «الإلحاد الجديد» بعد أحداثِ تفجيرِ بُرْجَي التِّجارة في أمريكا سنة ٢٠٠١، وكان أَوَّلُ استعمالٍ لهذا المصطلح في مقالٍ في مجلّةِ «Wired» سنة ٢٠٠٦. وقد أَدَّى ما يُعرف إعلاميًّا بـ«الإرهاب الإسلاميّ» إلى وَضْع الإسلام لأوّلِ مرّةٍ في الغرب في قَلْبِ الخِطاب الإلحاديّ الغربيّ؛ حتّى إنَّ (هتشنز)[٤] سَمَّى أَشْهَرَ كُتُبِهِ الإلحاديَّة: «الله ليس كبيرًا»[٥] إيحاءً منه إلى قول المسلمين: «اللهُ أكبرُ»، وصَرَّحَ (داوكنز) ـ مِرارًا ـ أَنَّ الإسلامَ أَعْظَمُ الأَدْيانِ خَطَرًا على البشريّة. .

يُوْصَفُ «الإلحاد الجديد» أَنَّهُ يتميَّزُ بمجموعةٍ من الخصائص التي يُفارِقُ بها عامَّة الأنماط الكلاسيكيّة للتيّارات الإلحاديّة السابقة، وأهمّها:

- استدعاءُ العِلْم الطَّبيعي لِنُصْرَةِ القول باستغناءِ العقل عن الإلٰهِ لِفَهْمِ العالم.
- الدَّعوةُ إلى إقامة الحياةِ كُلِّها على أساسِ العِلْم الطَّبيعيِّ.
- الاختزاليَّةُ؛ وذلك باختصارِ الإنسانِ في طبيعته الماديَّةِ.
- اللُّغة العُدْوانيَّة تجاه الأديانِ؛ حتى وُصِفَ رُموز هذا التيَّار بأنّهم أَكْثَرُ من ملاحدة؛ فَهُمْ «كارهو اللهِ» «miso-theists».
- عَدُّ الأديانِ مَصْدَرَ القَتْلِ والفوضى والدَّمارِ في العالم.
- عَدُّ التَّدَيُّنِ خَطَرًا على المجتمعِ والجيلِ الجديد، ووجوبُ حماية الأطفال منه.

---

(١) ريتشارد داوكنز Richard Dawkins (١٩٤١ـ): عالم سلوك الحيوانات بريطانيّ. رأسُ تيَّارِ «الإلحاد الجديد». ساهَمَتْ مؤلَّفاتُه في تشكيل أُصولِ هذا التيّار، خاصَّةً كتابه «وَهْمُ الإلٰه».

(٢) سام هاريس Sam Harris (١٩٦٧م): عالم أعصابٍ أمريكيّ. له اهتمام خاصٌّ بعلاقة علم الأعصاب بالوعي والأخلاق. نال شعبيَّةً كبيرةً بعد نشره كتابه: «نهاية الإيمان».

(٣) لورنس كراوس Lawrence Krauss(١٩٥٤ـ): عالم فيزياءٍ نظريّة أمريكيّ. اشتُهِرَ بِزَعْمِهِ سَذَاجة الإيمان الدينيّ في مقابل نجاعَةِ التَّفكير العلميّ.

(٤) كريستوفر هتشنز Christopher Hitchens (١٩٤٩ ـ ٢٠١١م): كاتب وصحفيّ بريطانيّ ـ أمريكيّ واسع الشهرة بسبب كتاباته العنيفة ضدّ الأديان.

(٥) *God Is Not Great: How Religion Poisons Everything* (2007).

• الزَّعْمُ أَنَّ الإلحاد فكرةٌ نبيلةٌ وَجَبَ القيام للدِّفاع عنها، ومحاربة التَّديُّن بكلِّ صُورةٍ ممكنة.

• اللُّغة الشَّعبيّة للخِطاب بعيدةٌ في الأغلب عن الخِطابِ الفلسفيّ النُّخْبَوِيّ لمن سبقهم من أَعْلامِ الإلحاد.

• جَهْلُ أَعْلامِ الإلحاد الجديد بالمعارف الدينيّة، ولذلك قال فيهم اللّاهوتيُّ والفيلسوف (أليستر ماكجراث)[1]: إنَّ انشغالهم بتأليف كتبٍ في نقد الدِّينِ أَلْهَاهُمْ عن قراءة الكتب الدينيّة.

لم يفارق «الإلحاد الجديد» ـ في حقيقته ـ الأنماط الإلحاديّة السابقة كليّة؛ بل هو في حقيقتِه صورةٌ مُطوَّرةٌ لِلَادِيْنِيَّةِ عَصْرِ الأنوار، والمذهبِ العقلانيّ لملاحدة القرن التاسع عشر؛ حيث تَمَّ رَفْعُ شِعار العقل في مواجهة الخُرافة، والعلم في مواجهة الدّين، والحريّة والكرامة في مواجهة الكنيسة.

(١) أليستر ماكجراث Alister McGrath (١٩٥٣ـ): لاهوتيّ وعالم كيمياء بريطانيّ. من أوسع المفكّرين تأليفًا في الرد على تيَّار الإلحاد الجديد.

المبحث الرابع

اللَّاأَدْرِيَّة Agnosticism

كلمة اللَّاأَدْرِيَّةِ نَفْيٌ للمعرفة في مبنى المصطلح؛ إذ أُلْحِقَ حَرْفُ (a) لِنَفْيِ المعرفة التي هي في اليونانيّة «γνῶσις». وقد نَحَتَ هذه الكلمة الدَّاروينيُّ الشَّهيرُ (توماس هكسلي)[1] الذي كان على القول إنّ الأمور الميتافيزيقيّة لا سبيلَ لإثباتها أو دَحْضِها، وإن كان استعماله لمصطلح «لاأدريّة» وَصْفًا لمنهج عَدَمِ الحسم في غياب الأَدِلَّةِ القاطعة، وليس بالمعنى المستعمل اليوم في شأن الحكم في أمر وجود الله.

واللَّاأدريُّون يَرَوْنَ أنّه من الممتنِعِ القولُ بوجود الله أو عَدَمه؛ فهم يُعلّقون الحُكْمَ في هذا الموضوع؛ وذلك لواحدٍ من سببَيْنِ: إمّا لاستواء حُجَج الملحدين والمُؤَلِّهَة، وامتناعِ التَّرْجِيحِ بينها، أو لاعتقادهم أَنَّ الإنسان غيرُ مُهَيَّأٍ معرفيًّا لأن يجزم أو يُرجّح في هذا الموضوع؛ فطبيعةُ حدود المَلَكة الذِّهنيّة بعيدةٌ عن أنْ تَتَمَاسَّ مع حدود التَّفكيرِ في هذا الموضوع؛ ولذلك فالحكم في هذا الباب مُحالٌ عقلًا.

ورغم أنّ اللَّاأدريَّة قد تُستعمل أحيانًا مرادفةً للشكوكيّة (Skepticism)، إلَّا أنَّ الشُّكوكيّة متعلّقة تاريخيًّا ـ في الأغلب ـ بالشكّ في إمكان المعرفة بصورة كُليّةٍ لا خصوص العلم بوجود الله، خاصّةً في شكلها اليونانيّ السَّفْسَطيّ القديم، عِلْمًا أَنَّ اللَّاأدريّة مرتبطةٌ أساسًا بموضوع وجود اللهِ لا المعرفةِ البشريّةِ في عُمُومِها.

---

(١) توماس هكسلي Thomas Huxley (١٨٢٥ ـ ١٨٩٥م): بيولوجيّ إنجليزيّ اشتهر بدفاعه الدوغمائيّ عن (داروين) ونظريّته.

يَذْهَبُ عددٌ من أعلام الإلحادِ في القرنين الأخيرين إلى نسبةِ أنفسهم إلى اللّاأدريّة عند تحقيق طبيعة مُعْتَقَدِهم؛ فَهُمْ يُقِرُّون أنّهم لا يعلمون إنْ كان الإلٰهُ موجودًا أم لا، لكنَّ لاأَدْرِيَّتَهُمْ لا تَتَّخِذُ صِبْغَةَ الحِيَادِ المعرفيّ المطلَقِ، وإنّما تَمِيْلُ إلى كفَّةِ الشَّكِّ في وجود الإلٰهِ. ومن هؤلاء الفيلسوفُ (برتراند راسل) الذي قال في كُتيِّبٍ بعنوان: «هل أنا مُلْحِدٌ أم لاأَدْرِيٌّ؟»: «كفيلسوفٍ، إذا كنتُ أَتَحَدَّثُ إلى جمهورٍ فَلْسَفيٍّ بَحْتٍ، وَجَبَ عَلَيَّ القولُ: إنّه يَجِبُ أنْ أَصِفَ نَفْسِي بأَنَّني لاأدرِيّ؛ لأَنَّني لا أعتقد أنّ هناك حُجّةً قاطعة يمكن للمرء أن يُثبِتَ بها أنّه لا يوجد إلٰه. من ناحية أخرى، إذا كان لي أن أنقل الانطباع الصحيح إلى رجل الشارع؛ فإنّني أعتقد أنّه يجب عليّ أن أقول إنّي ملحِدٌ؛ لأنه عندما أقول: إنّه لا يمكن أن تُثْبِتَ أنّه لا يوجد إلٰه، يجب علي أن أُضِيْفَ أنّه لا يمكن أن تُثْبِتَ أنه لا توجد آلهة هوميروس»[1].

واللّاأدريُّون في سيرهم العمليّ ملاحدةٌ أو لادينيّون، أو بعبارة اللّاأدريّ (ويليام سومرست موغام)[2]: «النتيجةُ العمليَّةُ لِلّاأَدْرِيَّةِ هي أن تَتَصَرَّف كما لو أنّه لا يوجد إلٰهٌ»[3].

(١) Bertrand Russell, *Last Philosophical Testament: 1943-68* (London; New York: Routledge, 1997). p. 91.

(٢) ويليام سومرست موغام William Somerset Maugham (١٨٧٤ ـ ١٩٦٥م): روائيٌّ بريطانيّ شهيرٌ.

(٣) William Somerset Maugham, *The partial view* (London, 1954), p. 161.

المبحث الخامس

الشَّيئيَّةُ Ietsism

«الشيئيَّةُ» مصطلح من الممكن ترجمته إلى الإنجليزيّة بـ«somethingism»، ومذهب أصحابه قريب من مذهب الربوبيّة؛ فهم إذا سُئلوا عن إيمانهم بالإلٰه كما تُعرّفه الأديان، يجيبون بإنكارهم الإيمان به، وإذا سئلوا عمّا يؤمنون به، يقولون: نؤمن بشيء ما غير مادي لا نعرف التعبير عنه، قوّة عظيمة تتجاوزنا بعظمتها. وهم بذلك أقلّ وُضوحًا من الرُّبوبيّين في تعريفِ «القوّة» التي يؤمنون بها؛ فالرُّبوبيّون يعلمون أنّهم يتحدّثون عن خالقٍ له صفاتٌ ذاتيّةٌ واضحةٌ، وأما الشَّيئيُّون فمعرفتهم بهذه «القوّة» غامضةٌ، فهي أحيانًا قريبة من معنى الربّ، وأخرى قريبة من مفهوم الملائكة أو الطاقة. . .

الغربيُّون الذين يَصْدُق عليهم مصطلح «الشّيئيّون» كُثُرٌ، غير أَنَّ إحصائيّاتِ التَّصنيفِ الدّينيّ لا تَشْمَلُهُمْ في الأغلب كتوجُّهٍ عَقَدِيٍّ مخصوص. ومن الممكن إدراك الكثافة العدديّة لهؤلاء عند إقصائهم من دائرة الملحدين الخُلَّص؛ فقد انتهَتْ إحصائيّةٌ في أوروبا سنة ٢٠١٠ إلى أنّ ٨٠٪ من الأوروبيين يؤمنون بالله أو «بشيء من الممكن وَصْفُه أَنَّهُ رُوحٌ أو قُوّةُ حياةٍ». وفي البلاد الأَكْثَر إلحادًا ـ السُّويد وإستونيا وجمهوريّة التّشيك ـ أجابَ قرابة نِصْف من تَمَّ استفتاؤهم أنّهم يؤمنون بشيءٍ ما يُشْبِهُ القُوَّة الرُّوحيّة العليا(١).

يَجِدُ هذا المذهب زادَهُ الأكبرَ في الكَسَلِ المعرفيّ في الغرب حيث لا يَنْشَغِلُ الإنسان في بحثِ معاني الغايات الكبرى ومعنى الحياة؛ لاستغراقِه الكليّ في أسبابِ الحياة. ويبقى وَفَاؤُه للمعنى الغامض «للقوّة العظمى» مصدره أنّه لا يحاول عامدًا ـ على خلاف الملحد ـ طمس معنى الألوهيّة في صدره.

---

(١) Special Eurobarometer 341 Report, "Biotechnology" (2010) p. 204 (Cited in: Bo Jinn, *Illogical Atheism, Nashville: Thomas Nelson, 2015, p.157)*.

المبحث السادس

اللاَّاكتراثية Apatheism

اللَّاَاكتراثيَّةُ موقفٌ عَمَليٌّ من قضيّة وجودِ الله، وذلك بإهمال النَّظَرِ فيها وفي عواقبها نظريًّا وسلوكيًّا، ومُعايَشةِ الحياة على الأرض كأَنَّهُ لا يوجد إلٰهٌ. وهذا مذهبٌ شائعٌ في الغرب يَتَغَذَّى من «مذهب اللَّذِّيَّة» الذي يجعل الإنسان براغماتيًّا في تعامله مع أشياءِ العالم؛ فلا يَلْفِتُ قلبَهُ ولا عقله إلى المعاني المجرّدة البعيدة، وينغَمِسُ في طلب مُتَع الدُّنيا.

لا يرى اللَّاَاكتراثيّ أهميّةً لسؤال الوجود الإلٰهيّ؛ لأنّه لا يعتبره مركزيًّا في صياغة فهم الإنسان للعالم أو قِيَمِهِ أو فِعْلِهِ. الوجود المباشر الحينيّ هو ما يشغل اللَّاَاكتراثيّ، والسُّؤال عن ما عداه لا معنى له في الأغلب.

واللَّاَاكتراثيَّة درجاتٌ، منها ما هو مَحْضُ الجهلِ بالتفسير الدّيني للوجود، ومنها ما هو الانشغال عن التفسير الدينيّ بهموم الدُّنيا، والإغراق في تفاصيلها، ومنها ما هو نفورٌ من التَّفسير دون الدُّخول في خصومةٍ معه. ونظرًا لطبيعة انفصال اللَّاَاكتراثيّ عن التفاعل الإيجابيّ مع الدِّين، يُعرِّفُ بعضُ الملحدين واللَّاَأدريّين أنفسهم أنّهم لااكتراثيّون.

مراجع للتوسُّع:

عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد: مدخل لفهم الإلحاد الجديد، لندن: تكوين للدراسات والأبحاث، ٢٠١٤.

Gordon Stein, *The Encyclopedia of Unbelief*, Buffalo, NY: Prometheus Books, 1988.

Lindsay Jones, *Encyclopedia of religion*, Detroit: Macmillan Reference USA, 2005.

Norman Geisler, *A Handbook on World Views: A Catalogue for World View Shoppers*, Bastion Books, 2014.

Michael Palmer, *Atheism for Beginners: A Coursebook for Schools and Colleges*, Cambridge: The Lutterworth Press, 2013.

الفصل الثالث

البرهان المقنع.. حقيقته، ووجوبه، وحدُّه

ـ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]

ـ لا أستطيع أَنْ أُغَيِّرَ حركة الرِّيح، لكنَّني أستطيع إعادة توجيه شراعِي حتى أَصِلَ دائمًا إلى غايتي

(جيمي دين)

البحثُ في قضايا الإيمان رأسُه النَّظَرُ في فلسفةِ المعرفة؛ فالعلم بالنُّجوم الهادية في سماء الفِكْر ضمانةٌ للكشف عن معالم طريق النَّجاة. والإنسان إذا لم يُسدَّد في طريق المعرفة؛ تَخَطَّفَتْهُ سوانِحُ الأفكار، واجْتَالَتْهُ معارضاتُ الوَهْمِ عن صراط الحقّ. وشواهد الأحوال دالَّةٌ أَنَّ أَكْثَرَ الغَلَط والشَّطَطِ راجعٌ إلى الاندفاع في المسير من بصيرٍ غير مُتَرَيِّثٍ ولا مُتَمَهِّل. والسَّعيد من عَرَفَ مَطلُوبه؛ فلم يلتفِتْ عنه، وأدرك الطَّريق إليه؛ فلم ينحَرِفْ عنه..

المبحث الأول

الإيمان والبرهان

السُّؤال الذي يكثر فيه التنازع بين المؤمنين بالله والجاحدين له عند بحث موقع البرهان من الإيمان، هو مبلغ حاجة الإيمان إلى البرهان، وطبيعة البرهان الذي ينصر الإيمان؛ إذ قد كَثُرَتْ في هذا الباب أقوالُ الغُلاة الذين انحازوا إلى الأطراف؛ ولذلك وجَبَ البيان حتّى لا يُقال في الإيمان المرْضِيّ نُكرًا.

المطلب الأول

هل البرهان شرط ضروريّ للإيمان؟

قد يبدو السُّؤال عن ضرورة نصب البرهان لإقامة الإيمان منكرًا عند فئتين من الناس، فئة ترى أنّ الإيمان تصديقٌ أعمى ضرورةً، خاصة إذا استُخدم المصطلح الإنجليزيّ «faith» للتعبير عن مفهوم الإيمان في هذا الحديث؛ فالإيمان بالله عند هؤلاء إذعانُ العقلِ بلا بَيِّنةٍ لدعوى وجود كائنٍ روحيّ يعيش في ركن قَصِيٍّ في السَّماء مُرْسِلًا لحيته الطويلة بلا تهذيبٍ وبِيَدِهِ صَوْلجانُ الحُكْم، كما في أَيْقُوناتِ النَّصارى في كنائسهم، وقد يبلغُ الإيمان مرتبةً أدنى من ذلك؛ كتعريف (نيتشه) له أنّه: «الرَّغْبة في اجتناب معرفةِ ما هو حقّ»[1]. وهو مُنْكَرٌ أيضًا عند فئةٍ أُخرى مقابِلةٍ ترى أَنَّ كُلَّ ما لم يَقُمْ على وجوده برهانٌ عقليٌّ أو فلسفيّ، فهو عَدَمٌ ضرورةً؛ فالبرهان على وجود الشَّيء

(١) Nietzsche, *The Antichrist*, tr. H. L. Mencken (New York: A. A. Knopf, 1920), p.148.

هو الذي يَمْنَحُهُ حقّ الوجود، وغياب البرهان الإيجابيّ حجّة على عدم الشيء..

وقول الفريقَيْن السَّابقَيْن أَثَرٌ عن عَجَلَةٍ تَأْبى التَّرَوِّي تَأَثُّرًا بأعرافٍ اصطلاحيَّةٍ مُنكِرةٍ لمعنى عبارة «إيمان».. الإيمان بالمعنى الإسلاميّ ليس قرينَ التَّصديق الأَعْمى، إذ هو تصديق ما لا يُدرَك مباشرة بالحِسّ[1]؛ وإنْ دَلَّتْ عليه الشَّواهد والقرائن، أو ثبتَ بالتَّبع لا بالأصالة؛ كالإيمانِ بغيبِ يوم القيامة تبعًا للإيمان المدلّل بصحّة ربّانيّة القرآن؛ فهو إيمان معقولٌ أو عقلانيٌّ (reasonable faith).

والقول: إنّ ما لا دليل على وجودِه لا وجودَ له هو مِنْ رَهَقِ العقولِ المتشنّجة؛ إذ إنّ وجود الشيء بدخوله حيِّز الوجود غيرُ ظهورِ أَدِلَّة وُجُودِه؛ فوجود الشَّيء يعني أنّه حقيقةٌ قائمةٌ خارجَ وَعْيِنا، والعلم به هو اتّصال وَعْيِنا به من خلال ظهور براهين هذا الحضور الكونيّ. والإنسانُ في سَعْيِه للكشف عن حقائق الوجود لا يقول كلّما فُتِحَ أمامه بابٌ من العلم: إنّه قد خَلَقَ حقيقةً كونيّةً جديدةً، وإنّما يقول: إنّه قد كَشَفَ السّتر الذي كان يَحُولُ بينه وبين العِلمِ بهذه الحقيقة الكونيّةِ القائمةِ في الوجودِ قبل أن يُدرْكِها.

والقولُ بوجوبِ إقامةِ البرهانِ العَقْليّ أو العِلْميّ على وجودِ اللهِ للإيمانِ بوجودِ الذّاتِ العليّةِ يقومُ على دعوى إلحاديّةٍ فاسدةٍ، مضمونُها أَنَّ الإلحادَ هو الأَصْلُ، ولإثباتِ نقيضِه يحتاجُ المرءُ إلى برهانٍ إيجابيٍّ. وفي هذا الأمر عددٌ من المغالطات تعارض حقائق واضحة أَهَمّها:

• الإلحادُ دَعْوى نافِيةٌ، والدَّعوى النَّافيةُ تحتاج إلى برهانٍ لأنّها تَدَّعي غيابَ شيءٍ أو أَمْرٍ، والنَّفْيُ إثباتٌ لِعَدَمٍ، وبذلك يستوي النَّفْيُ والإثباتُ في وجوبِ إقامةِ الحُجَّةِ، ولو كانت للتَّرجيحِ لا الحَسْمِ.

• لا بُدَّ من التَّمييزِ بين الإيمانِ الشَّخصيّ بأمرٍ ما، وإقامةِ البرهانِ الإيجابيِّ عليه فيما لا يَدْخُلُ في جِنْسِ الأُمورِ التي لا يُحِيْلُ العَقْلُ وُجُودَها؛ فالإنسانُ قد يؤمِنُ بوجودِ شيءٍ لتجربةٍ شخصيّةٍ لم يُشارِكْهُ غيرُه فيها، ولا يكون

(١) في عامة استعماله.

بذلك مُخْطِئًا في عينِ الأمرِ لِغيابِ ما يَنْقُضُ مَذْهَبَهُ. ولكنَّ هذه التَّجربةَ الشَّخصيّةَ لا ترتقي لتكون حُجَّةً على المخالِفين فيما لم يختبروها؛ إذ إنَّ دعوةَ الآخرينَ إلى الانتقالِ من إيمانٍ إلى غيرِهِ تقتضي داعيًا بُرهانِيًّا لذلك لأنّها دعوى تتضمَّنُ إنكارًا على المخالِفِ مَذْهَبَهُ الأَوَّلَ، ودعوةً له إلى التَّراجُعِ عنه إلى غيرِهِ.

• هناك خَلْطٌ بين عَدَمِ الوجدانِ وعدم الوُجودِ؛ إذ لا يقتضي عَدَمُ العِلْمِ عِلْمًا بالعَدَمِ إلَّا بشرطين أساسيّين، وهما:

١ ـ البحثُ التَّامُّ في المجال المكانيّ أو الزمانيّ أو غيرهما من المجالات الموافقة لطبيعة المطلوب؛ فالنَّافي لوجود نَحْلةٍ في غرفةٍ مُلْزَمٌ أنْ يَتَمَهَّلَ حتّى يبحث في كامل المجالِ المكانيّ للغرفة للجزم بنفي وجود النحلة.

٢ ـ أن يكون من طبيعة المطلوب أن يترك آثارًا كالتي نبحث عنها للعلم بوجوده؛ كالبحث عن دب ضخم في أرض طينيّة رخوة من خلال آثار رجليه أو البحث عن زهرة فوّاحة في مكان صغير مغلق، بتعقّب رائحتها... والجزم بعدم وجود الله متعذّر هنا لأنّ الإلٰه لا يحيط به الكون الذي خلقه، كما أنّه لا يلزم ضرورة من وجوده أن يترك آثارًا لك في الكون، إذ إنّ له القدرة أن يطمس آثار صَنْعَتِهِ إذا شاء، لحكمةٍ يُريدها.

«فإنّ كثيرًا من الناس لا يُميِّزُ بين ما يَنْفِيه لقيام الدَّليل على نَفْيِه، وبين ما يُثْبِتُه لعدم دليلِ إثباته؛ بل تراهم يَنْفُون ما لم يعلموا إثباتَهُ، فيكونون قد قفوا ما ليس لهم به عِلْمٌ، وقالوا بأفواههم ما ليس لهم به علم»[١]. (ابن تيمية).

وأما من الناحية الشرعيّة؛ فلا يُشترط في من يُسْلِمُ أن يستدِلَّ بالعقل أو العلم؛ فلو وَجَدَ الإنسان في نفسه قبولًا للإسلام دون حاجة إلى إقامة البرهان؛ فهو على الإيمان المقبول شرعًا، وقد يرقى إلى مراتبَ عُلْيا في

(١) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ٤/٢٩٦.

الإيمان لسلامة فِطْرته دون أن يُظهِرَ حجَّة عقليّة أو علميّة؛ إذ هو يَجِدُ حقيقة وجودِ الله ووحدانيَّتهُ ضروريّة في نفسه، ولم يَحْمِلْهُ ظَنُّه على الشكّ في نُبوّة (محمّد) ﷺ. قال (ابن حزم): «فمن الباطل المتيقَّن أن يكون الاستدلالُ فرضًا لا يَصِحُّ أن يكون أحدٌ مسلمًا إلَّا به ثم يُغْفِلُ اللهُ ﷻ أن يقول: لا تقبلوا من أحدٍ أنّه مسلمٌ حتّى يستدِلّ. أَتُراه نَسِيَ ـ تعالى ـ ذلك، أو تَعَمَّدَ ﷻ تَرْكَ ذِكْرِ ذلك إضلالًا لعباده؟! ويترك ذلك رسول الله ﷺ إمّا عَمْدًا أو قَصْدًا إلى الضَّلال والإضلال... فما قال قطُّ رسولُ الله ﷺ لأهل قريةٍ أو حلَّةٍ أو حَيٍّ ولا لِراعٍ ولا لراعيَةٍ ولا للزّنج ولا للنّساء: لا أَقْبَلُ إسلامكم حتى أَعْلَمَ المستدِلَّ من غيرِه! فإذا لم يَقُلْ ﵇ ذلك، فالقول به واعتقادُه إِفْكٌ وضلالٌ. وكذلك أَجْمَعَ الصَّحابة ﵃ جميعُهم على الدُّعاء إلى الإسلام وقَبُولِه من كلّ أَحَدٍ، دون ذكر استدلالٍ ثم هكذا جيلًا فجيلًا»[1].

ولا يُلْزَمُ بالاجتهاد لطلبِ البرهان غيرُ الشَّاكِّ؛ إذ لا يذهبُ شَكُّهُ إلَّا بمرجّح لجانبِ الإثبات يندفِعُ به الإمكانُ العقليّ للكُفْر. قال (ابن حزم): «إنّما يضطرُّ إلى الاستدلالِ مَنْ نازَعَتْهُ نفسُهُ إليه ولم يَسْكُنْ قلبُه إلى اعتقاد ما لم يعرفْ برهانه؛ فهذا يَلْزَمُهُ طَلَبُ البرهان حينئذٍ لِيَقِيَ نفسَهُ نارًا وَقُودُها النَّاس والحجارة»[2].

المطلب الثاني

البرهان المقنِعُ عند أعلام الإلحاد

يشيع في أدبيات الخطاب الكِرازيّ الإلحادي القولُ: إنّ السبيل الوحيد للعلم بوجود الله رؤيتُهُ مباشرةً، أو مخاطبَتُهُ مباشرة، أو قيامُ برهانٍ لا سبيل لأنْ يُلاجِجَ فيه أحدٌ أو أن يَسْتَرِيْبَ فيه شَكَّاكٌ. وتلك دعوى إلحاديّة مُشْكِلةٌ من أَوْجُهٍ:

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنِّحل، تحقيق: عبد الرحمٰن عميرة ومحمد إبراهيم نصير (بيروت: دار الجيل، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م)، ٥/ ٢٤٤.

(٢) المصدر السابق، ٥/٢٤٦.

أوّلها: أنّ البرهان المطلوب تَحَكُّميٌّ في حَصْرِيَّته؛ إذْ لا يقوم عليه شاهدٌ عقليٌّ يُقرّر أنّ العلم بوجودٍ خالقٍ للكون أو واجب للوجود لا يكون إلَّا بمعايَنَتِهِ بالحواسّ بطريق مباشر أو أيِّ سبيلٍ آخرَ يمتنِعُ على المرء أنْ يُشاكِسَ في صوابه. وهذا التّكَلُّفُ مخالِفٌ لما يلتزم به الملحد في تَطَلُّبِ المعرفة في الأَوْجِهِ الأُخرى جميعِها؛ إذ إنَّ العلم الطبيعيّ ـ مثلًا ـ قائمٌ في كثير من مباحِثِهِ على الآثار والقرائن لا النَّظَرِ المباشِر، خاصَّةً في مباحث الفيزياء والكوسمولوجيا... كما أنّ طبيعة المطلوب ـ الإيمانُ بإلٰهٍ من خلال آثارِهِ لا عن طريق المعاينة المباشِرة ـ تَفْسَحُ ـ ضرورةً ـ لطالبِ الحقِّ أن يستهديَ إلى مطلوبه من أبوابٍ متفرّقة؛ لأنّ الآثار متنوّعةٌ في أوجه العلم بها؛ فمنها ما يُعرَفُ بالعقل المجرّد، ومنها ما يُعلم بالعِلم التجريبيّ، ومنها ما يُعرف بالذّائقة الجماليّة...

وثانيها: أنّ الاعتراض يقوم ـ في الأغلب ـ على أنّ: «ما لا يُدْرِكُه الحِسُّ؛ فلا برهان على وجوده»؛ وهي دعوى فلسفيّة لا سبيل للعِلْمِ بها بالحسّ نفسه!

وثالثها: أنّ هذه الدعوى واقعةٌ في «مغالطة الصّنف»[(١)]، وهي أن تُصنّف الشيء بما لا يوافق طبيعة جنسه؛ كالسُّؤال عن لَوْنِ الطَّعْمِ المُرِّ، وطَعْمِ الرَّقَمِ ٧... فالقول: إنَّ المرء لن يؤمِنَ بالله حتّى يُدْرِكَهُ بالبحث المعملي يقوم على أنّ الذات الإلٰهية تقبل الرصد المعملي!

رابعها أنّ العلم قد يفترض وجود قوانينَ أو أشياءَ تُفَسِّرُ ظواهرَ أخرى ـ رغم غياب البرهان المباشر لوجودها ـ لأنّ وجودَها هو الوحيدُ الذي يجعل بقيَّةَ الظّواهرِ مفهومةً؛ مثل: المجال المغناطيسيّ.

خامسها: أنّ غاية الخَلْقِ تقتضي أن يكون البرهانُ غيرَ قَسريّ يَشُلُّ الإرادة؛ إذ الإيمان اختيارٌ من وَجْهٍ، واختبارٌ من وَجْهٍ آخر، وإلزام الإرادة التَّصديق بوجود الله يُلْغِي الإرادة ويُفْسِدُ الاختبارَ.

---

(١) Category mistake.

وسادسها: أنّ الأَنْفُسَ على طبائع مختلفة؛ فمنها أَنْفُسٌ لا يستهويها التَّكَلُّف والمُشاقّة، ومنها أخرى تُهَيْمِنُ عليها روح الشّكوكيّة؛ ولذلك لا يوجد برهانٌ واحِدٌ مقنِعٌ للجميع على السَّواء؛ فما يُقْنِعُ فردًا قد لا يقنع الآخر، والنُّفوس والعقول سجايا.

يقول (ابن تيمية): «وكثيرٌ من الطُّرق لا يحتاج إليه أكثر النَّاس. وإنما يحتاج إليه مَنْ لم يعرف غيره. أو مَنْ أَعْرَضَ عن غيره. وبعضُ النَّاس يكون كُلَّما كان الطريق أَدَقَّ وأَخْفى وأكثرَ مُقدّماتٍ وأَطْوَلَ كان أَنْفَعَ له؛ لأنَّ نفسَهُ اعْتادَت النَّظَرَ في الأمور الدَّقيقة؛ فإذا كان الدَّليلُ قليلَ المقدّمات أو كانت جليَّةً لم تَفْرَحْ نفسُهُ به؛ ومثلُ هذا قد تُستعمَلُ معه الطُّرق الكلاميّة المنطقيّة وغيرها لمناسبتها لعادته؛ لا لكون العلم بالمطلوب متوقّفًا عليها مُطْلقًا»[1].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عامر الجزّار وأنور الباز (المنصورة: دار الوفاء، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م)، ٩/١١٥.

المبحث الثاني

المعرفة بين العقل والحسّ

اختلف الفلاسفة وعامة المفكّرين في المصدر المعتبر للمعرفة، وما يتأسّس عليه فَهْمُ العالم. وقد انقسموا طرائق قِددًا. ومدارُ اختلاف الخائضين في هذا الباب البحثُ في مبلغِ الثّقة في المعرفة المكتسبة من العقل والعلم الطبيعيّ والتجربة؛ أيْ: جواب الأسئلة التالية:

- هل يجوز الاحتجاج بمخرجات العقل والعلم والتجربة؟
- هل يحتكر أَيٌّ من العقل والعلم والتجربة العلم بالعالم؟
- ما حدود المعرفة المكتسبة من العقل والعلم والتجربة؟

المطلب الأول

العقل.. حجّيّته وحدوده

تَكَرَّرَ استفزازُ القرآنِ الإنسانَ أن يُعْمِلَ عقلَه لِيُدْرك الحقيقةَ، لِينجوَ من شراك الزَّيْف والوَهْم، فكان التَّعَقُّل قرينَ العلم بكثيرٍ من حقائق الوجود الكبرى، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وكان تَرْكُ التعقّل من أسباب دخول النار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [المُلك: ١٠].

والعقل هو **إدراك العلوم الضروريّة**، أو هو «قوانين الفِكْر الضروريّة الكليّة»[1] ويُسمّى العَمَلُ بها ـ تبعًا ـ أيضًا عقلًا. والعلم بالعلوم الضروريّة

---

(١) عبد الرحمٰن بدوي، مدخل جديد إلى الفلسفة، ص١٥٢.

يكون بمعرفتها والرَّبط بين الأفكار برابط هذه العلوم الضروريّة على طريق صحيح مستقيم. وهي معارف ضروريَّةٌ فلا تَقْبَلُ التَّعديل، وكُليَّةٌ حاكِمةٌ على فَهْمِنا لِكلِّ شيءٍ.

وأَهَمُّ هذه العلوم الضروريّة التي يكون العقل بها عقلًا أربعة، بغيرها يمتنع التّفريق بين العاقل والمجنون[1] ـ إذا التزم المجنون تركها كُلَّها أو بعضها[2] ـ:

١ ـ **مبدأ الماهية** Law Of Identity: كُلُّ شيءٍ هو نفسُه: (أ) هو (أ). مثال: أحمد (الشَّخْصُ المعيَّنُ الذي يحمل اسم أحمد) هو ذاتُه أحمد.

٢ ـ **مبدأ عدم التناقض** Law of noncontradiction: كُلُّ شيء هو غيرُ غير نَفْسِه: لا يمكن أن يكونَ (أ) هو (أ) و(غير أ) في الآن نفسِه، وفي العلاقة نفسِها؛ أي: الموحّدين في ظروفهما. وهذا أهمُّ مبدأ عقليّ، وكُلُّ المبادئ العقلية الأخرى تعود إليه. مثال: أحمد لا يمكن أن يكون هو نفسه غير أحمد؛ كأن يكون مصطفى أو عكرمة.

٣ ـ **مبدأ الثالث المرفوع** Law of excluded middle: الشَّيْءُ إِمَّا نَفْسُهُ أو غَيْر نَفْسِهِ: إمَّا (أ) أو (غير أ)؛ فالوَسَط بينهما مُسْتَبْعَدٌ. ولا يمكن للنَّقيضين أَلَّا يوجد أَحَدُهما. مثال: أحمدُ موجودٌ أو غيرُ موجودٍ، ولا يوجد احتمال ثالِثٌ؛ فلا بُدَّ أن يكون أحدهما لا غيرهما.

٤ ـ **مبدأ العلّة الكافية** Principle of sufficient reason: هو ـ في أعدل الأقوال ـ: لِكُلِّ شَيْءٍ تفسيرٌ لوجودِه، إمَّا من خارجِهِ أو بسبب طبيعته. ويَتَفَرَّعُ عن مبدأ العِلَّة الكافيةِ قانونُ السِّنْخِيَّة الذي يَكْشِفُ طبيعة السَّبب في طبيعة

---

(١) يقول (ابن تيمية) في أحد تعريفات العقل: «علوم ضرورية يفرق بها بين المجنون الذي رفع القلم عنه، وبين العاقل الذي جرى عليه العقل، فهو مناط التكليف» (ابن تيمية، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، تحقيق: موسى الدويش، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٨هـ، ص٢٦٠).

(٢) أَضَفْتُ قَيْدَ الالتزام هنا لأنّ المَوْجَةَ الإلحادية الجديدة تُشكِّكُ في هذه المبادئ الضَّروريّة لكنّها تُقِيْمُ كامل جَدَلها الإلحاديِّ على هذه المبادئ!

الأَثَرِ؛ فالقصيدة البارعة دالَّةٌ على شاعِرٍ بارعٍ، والصَّنْعَةُ الـمُتْقَنَةُ أَثَرٌ عن طبيعة الإتقان عند الصَّانعِ، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

ولا يمكن للعقل البشريّ أن يعمل دون اعتماد المبادئ الأربعة السّابقة، حتّى لو أراد أنْ يَشُكَّ في كلِّ شيء؛ فكلُّ شَكٍّ محكومٌ بمبدأ الماهيّة وعَدَم التّناقض والثّالث المرفوع والعِلَّة الكافية. والهروب من العقل بالعقل؛ ركونٌ إلى العقل؛ وذاك تناقضٌ يَنْفِي طَرَفَيْهِ. يقول (سي. أس. لويس)[1]: «إذا كانت قيمةُ التَّفْكير مَحَلَّ شَكٍّ؛ فلا سبيل لك لتثبت ذلك بالنَّظَر العقليّ... العَقْلُ هو نقطةُ البداية لنا، ولا معنًى لمهاجمته أو الدِّفاعِ عنه. **وإذا كُنْتَ بمعاملتك للعقل كظاهرةٍ تَضَعُ نَفْسَكَ خارِجَهُ، فلا حَلَّ لك عندها إلَّا أن تُصادِرَ على مطلوبِك بأَنْ تدْخلَهُ مرَّةً أُخرى**»[2].. إنّك لن تستطيع أن تُحاكِمَ عَقْلَكَ مِنْ خارجِهِ؛ فَأَنْتَ أَسِيْرُهُ، وكُلُّ محاولةٍ لنقض آلةِ التّفكير تقوم على آلة التّفكير.

ولك أن تسأل: ماذا لو ألغى المرء إذعانه لمبدأ عدم التّناقض ـ كما هي دعوى بعض الملاحدة اليوم تأثّرًا بدعاوى فريقٍ من علماء فيزياء الكَمِّ ـ؟

والجواب في أنّه صائرٌ لا محالةَ إلى أنَّ صِحَّةَ الإلحاد لا تُلْغِي صِحَّة الإيمان؛ فالإلحاد والإيمان يتعايشان في عَقْلِ الإنسان دون نَكارةٍ؛ فَثُبوت الشّيء لا ينقُضُ نقيضَهُ! ولو ألغى المرء إذعانه لمبدأ عدم التّناقض؛ فلنْ يملِكَ أن يُحْسِنَ قضاء أيِّ حاجةٍ من حاجاته اليوميّة لانتفاءِ الحِكْمَةِ من كُلِّ فِعْلٍ؛ إذْ إنَّ الفِعْلَ ونقيضُه صوابٌ، وهما أيضًا خطأ!

وماذا لو ألغى المرءُ مبدأ الثّالثِ المرفوع؟ لا شَكَّ أنّه سينتهي ضرورةً إلى أنّ الإلحاد ليس هو القرار النّهائيّ لأنّه يحتمل أن يوجد شيءٌ آخر صواب بين الإلحاد والإيمان!

---

(١) سي. أس. لويس C. S. Lewis (١٨٩٨ ـ ١٩٦٣م): فيلسوفٌ، وناقدٌ أدبيٌّ متخصّص في أدب القرون الوسطى وعصر النّهضة. يُشْهَدُ له أنّه أبرز المناضلين عن عقيدة الإيمان بإلٰهٍ ـ خارج الدّائرة الأكاديميّة ـ في القرن العشرين في الغرب.

(٢) C. S. Lewis, *Miracles* (New York: HarperOne, 1996), p.33.

كلّ موقف عقليٍّ لا يقوم على مبادئ العقلِ لا يمكن أن يُثْبِتَ صِحَّةَ نفسِه؛ لأنه يَقْبَلُ نَقِيْضَهُ، وبقبولِ نقيضِهِ يُصبِحُ فارِغًا من الدّلالة المعقولة والواقعيّة.

وماذا لو شكّ المرء في المعرفة العقليّة كلّها، وقال: إنّ العقلَ عاجِزٌ عن معرفة أيّ شيء؟

إنّه سيكون بذلك قد أصدر حُكْمًا عاقلًا على الواقع يتضّمن معرفةً قاطعةً به، وهذا قولٌ فاسِدٌ لقيامِهِ على العقل لنّقض العقل.. إنّ الإنسان لا يَمْلِكُ الإبحار في بحر الفِكْرِ دون هدايةِ نجومِ مبادئِ العقلِ. والطّاعِنُ في الفِكْرِ بالفِكْرِ واقِعٌ في «مغالطة المفهوم المسروق» «The fallacy of the Stolen Concept»؛ إذ يُقِيمُ مَذْهبَهُ على «سَرِقَةِ» جَوْهَرِ المبدأ الذي يريد نَقْضَهُ. وهو ما وقع فيه الفيلسوف الشُّكوكيّ (هيوم) عندما شَكَّكَ في المَلَكاتِ العقليّة بالعقل.

إنّ المرء بين خيارين اثنين فقط في حُجيّة العقل؛ إمَّا أن يُصدّق مبادئ العقل، أو أَلَّا يُفكّر؛ لا شَكًا في مبادئ العقل وإنما لأنه لا يملك خيارًا آخر بعد العقل، وأَمَّا الشكّ فيحتاجُ استدلالًا بالعَقل للشكّ، والشكّ ـ بذلك ـ موقف عقليّ متعلّق بامتناع الوصول إلى حقٍّ أو استواءِ قوّة برهانَي حجيّة العقل وعدم حجيّته. إنّ التَّشكيك في العقل إلغاءٌ لحجيّته في قبولِ العقل أو رَفْضِه، أو بعبارة الفيلسوف (توماس ريد)[١]: «عندما يتمُّ التَّشكيك في صدق المرء، سيكون من السُّخرية الإحالة إلى المرء ذاته للحكم في الأمر، سواء كان صادقًا أم لا»[٢].

إنّ الإيمان بمبادئ العقل يستلزم الإيمان أنّ «الحقيقة» حقيقيّة؛ فإنّ التفكير في الواقع يستلزم وجود «الواقع»، وسُبلِ وَصْفِه. والقولُ: إنّ الصّلة منقطعةٌ بين المنطق والواقع يستلزِمُ بناءَ فِكْرةٍ منطقيّةٍ لقَطْعِ الجِسْرِ بينهما؛ فنحن ـ

(١) توماس ريد Thomas Reid (١٧١٠ ـ ١٧٩٦م).: فيلسوف اسكتلندي، معاصر (لهيوم)، ومن أهمّ منتقديه. يرى أصالة الإدراك البدهي في البناء المعرفي.

(٢) Thomas Reid, *Essays on the Intellectual Powers of Man (J. Bartlett, 1852), p.389.*

بذلك ـ واقعون ضرورةً في الالتجاء إلى العقل. وبعبارة (جزلر)[1]: «كُلُّ الآراء المتعلّقة بالحقيقة، والتي تقوم على مبدأ لامطابقة الفكر للواقع (noncorrespondence) تقتضي وجود هذه المطابقة؛ حتّى وهي تحاول نَفْيَها.. الزَّعْمُ أنّ «الحقيقة لا تتطابق مع ما هو كائِنٌ» يستلزم أنَّ هذا الرأي مطابِقٌ للواقع. ولذلك، فالرأي القائل بلامطابقة الفكر للواقع لا يمكنه أن يُعبِّرَ عن نفسه دون استعمالِ إطارِ التَّطابق للإحالة»[2].

«بعضُ صور الفِكْرِ لا يمكن الشكُّ فيها بصورةٍ مفهومةٍ لأنّها تُقْحِمُ نفسَها عَنْوةً في كلّ محاولةٍ للتفكير في أيّ شيء. كُلُّ فرضيّة هي وَصْفٌ للأشياء، وتقوم مع المنطق القائم فيها. وهذا حُكْمٌ يَصِحُّ في كلّ شكٍّ أو اقتراحٍ مُضادٍّ»[3]. الفيلسوف الملحد (توماس ناجل)[4].

وقد حاول (ديكارت) أن يقيم منظومةً معرفيّةً تبدأ من الصِّفْرِ المعرفيّ؛ فلا تستعين بالعقل ولا بغيره في البدء؛ فافترض ـ لذلك ـ الشكّ في الحسّ؛ لأنَّ الحِسَّ يَخْدَعُنا أحيانًا فَيُرينا الشَّيء على غير حقيقتِه، وكذلك لا ضمانَةَ تمنع أنَّ هناك شَيْطانًا يتلاعب بعقولنا حتّى نفهم الأمور على غير حقيقتها؛ وذاك ينقضُ حُجيّة العقل. وزعم (ديكارت) بعد شَكِّهِ في الحِسِّ والعَقْلِ أنَّهُ قادِرٌ على أن يبدأ من يقينٍ لا يُخالِطُهُ رَيْبٌ يُؤَسِّسُ عليه المعرفةَ اليقينيَّةَ، وهو يَقِيْنُهُ أنَّهُ يُفَكِّرُ من خلال ظاهِرِ فِعْلِهِ الذِّهْنِيِّ المتمثّل في الشَّكِّ؛ فهو حتّى لو شَكَّ أَنَّهُ يَشُكُّ، فسيبقى بذلك ممارِسًا لفِعْلِ الشَّكِّ؛ أيْ: إنّه مُفَكِّرٌ ضرورةً، مهما بلغ مدى شَكِّهِ في ما يَعْرِضُ له.

---

(١) نورمان جزلر Norman Geisler (١٩٣٢ـ): فيلسوف ولاهوتيّ أمريكيّ شهير. أغزر الكتّاب الدفاعيّين النّصارى في أمريكا الشمالية، ومؤسّس تيّار واسع في مواجهة الإلحاد والتيارات العدميّة.

(٢) Norman L. Geisler, *Baker Encyclopedia of Christian Apologetics* (Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2002), p.742.

(٣) Thomas Nagel, *The Last Word* (Oxford: Oxford University Press, 2009), p.61.

(٤) توماس ناجل Thomas Nagel (١٩٣٧ـ): فيلسوف أمريكيّ بارز. له عناية خاصة بفلسفة العقل، ومشكلة الوعي، والفلسفة الأخلاقيّة.

لم يستطع (ديكارت) ـ رغم ظاهِرِ دَعْواهُ ـ أن يبدأ من الصِّفْرِ المعرفيّ؛ إذ إنّه ما كان ليصل إلى إثبات أَنَّهُ يَشُكُّ لو أَنْكَرَ مبدأ عدم التَّناقض الذي يثبت أنّه إذا كان يَشُكُّ فلا يَصِحُّ أَلَّا يكون شاكًّا. فما كان لـ(ديكارت) أن يتيقّن حقيقة شكّه لو أنّه كان بالإمكان أن يجتمع شكُّه مع أنّه لا يشكّ؛ وذاك يعني أنَّ الثّقة في حُجيّة الشّكِّ على وجود الذّات المفكّرة قائمةٌ في الحقيقة على أهمِّ مقولات العقلِ (مبدأ عدم التَّناقض)، ولولا البَدْءُ بالثّقة في العقل لما أمكن الثّقة في شيء، ولو حتّى دلالة الشكّ على وجود ذاتٍ تَشُكُّ؛ فتفكِّرُ.

وقد انتهى (الغزالي) بعد شفائه ـ إثر تجربته في الشَّكِّ في أَوَّلِيَّاتِ العَقْلِ وولوج طريق السَّفْسَطة ـ، إلى القول: «الأَوَّلِيَّاتُ ليست مطلوبةً؛ فإنّها حاضِرةٌ، **والحاضِرُ إذا طُلِبَ فُقِدَ واختفى**»[1]؛ فمن بحث في تأسيس الثّقة في مبادئ العقل الأولى انتهى إلى العجز عن تحصيل مُرادِهِ لأَنَّ المبادئ العقليّة لا تُطْلَبُ بالنَّظَر إنمّا يُسلَّم لها لأنّها قاعدة الفكر لا حصيلته. ولا يَلْزَمُ من ذلك العجزُ عن إثبات صحّة بعضها بطريق غير مباشر؛ إذ من الممكن الوصول إليها من خلال افتراضِ فسادِها، وملاحظةِ ما يَنْجُمُ عن ذلك من محالاتٍ؛ كالبحث في مبدأ العِلَّة الكافية.

إنّ الأوّليّات العقليّة ضرورةٌ بحتةٌ للوصول إلى تأسيسِ معرفةٍ بشريّة؛ فالأَوَّليُّ هو ما لا يسبقه شيءٌ؛ ولو طَلَبَ الإنسان البرهنة على كلّ الأوّليّات؛ فسينتهي به الأمر إلى التَّسلسُلِ اللَّانهائيّ في طلب برهانٍ لكلّ برهانٍ؛ فلا يَصِحُّ شيءٌ إلَّا إذا سَبَقَهُ برهانٌ دون بداية؛ بما يلزم منه أَلَّا يُنْشِئَ الإنسانُ معرفةً لأنّه لا بداية لِسِلْسلة البراهين المطلوبة؛ وهو ما قَرَّرَهُ (أرسطو) منذ قرون[2]، ووافَقَهُ على ذلك علماء الإسلام[3].

---

(١) أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد (بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٧م)، ص٦٨.

(٢) Aristotle, *Metaphysics*, 4.4.

(٣) انظر مثلًا: ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم (جامعة الإمام سعود، ١٤١١هـ ـ ١٩١١م)، ٣/ ٣٠٩.

ما بالعرض [ما كانت حجيّته من غيره] لا بد أن ينتهي إلى ما بالذات [ما كانت حجيّته من نفسه]، وإلّا لزم التسلسل.

والعَقْلُ، وإنْ كان آلةَ الفَهْمِ التي لا تُبْخَسُ قِيمتُها في إدراك الموجودات؛ إلَّا أنَّ الناس قد فُتِنُوا فيها في القرن الثَّامن عشر؛ حتّى صار العَقْلُ إلٰهًا يُعْبد لأنّه قادِرٌ على المعجزات، ويُدْرِكُ السِّرَّ وأَخْفَى. وقد كَتَبَ تحت لَفْحِ هذه الحماسة العارمة (توماس باين) كُتَيِّبَهُ الشَّهير في آخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر: «عصر العَقْل»[١]، وأَسَّس الفيلسوف الفرنسيّ (أوغيسط كونت)[٢] ديانته الوضعيّة على أنقاض النّصرانيّة، وجعل العَقْلَ رَأْسَها، وحَلَّ العَقْلُ مكان الوَحْيِ، وازْدَهَرَ المذهبُ الرُّبُوبيُّ المستغني «بالدِّين الطبيعيّ» أو «اللَّاهوت الطبيعيّ»[٣] المكتفي بمعرفة الربِّ بالعقل والنَّظَرِ في الطبيعة عن سلطان المعرفة المتعالية والقَداسات الخارجيّة الملزمة.

وبعد مرحلةِ الافْتِتان بالعَقْلِ والإغراق في وَهْم كمالِه، ظهر تَيَّارُ الكُفْرِ بالعَقْلِ؛ إمَّا بالشَّكِّيَّة المُطْلَقةِ (وإحياء مذاهب الشّكّ اليونانيّة القديمة؛ كالبيرونيّة)[٤]، ونفي المعرفة والمعنى الـمُتَحَقِّقَيْنِ في الواقع، أو بتضييق مُدْرَكات العَقْلِ إلى أَدْنى حَدٍّ، كما هو الحال مع مدرسة الوضعيّة المنطقيّة التي هَيْمَنَتْ على الجامعات الغربيّة فترةً من الزمان في القرن الماضي؛ إذ كانت تُقَرِّرُ أنّ الحقائق لا تَخْرُجُ عن مقولاتٍ تحليليّةٍ قَبْلِيَّةٍ (analytic a priori) (الرياضيات مثلًا) ومقولات تُثبت التجربةُ صِدْقَها؛ وما هو خارج ذلك فَلَغْوٌ لا معنى له؛ وتدخل مباحث الميتافيزيقا دخولًا أوّليًّا في ما هو «خارج المعنى»، أو «اللَّغو» ـ إن شئت ـ.

---

(١) The Age of Reason.

(٢) أوغيسط كونت Auguste Comte (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧م): عالم اجتماع فرنسيّ. أسّس المدرسة الوضعيّة. دعا إلى «ديانة الإنسانيّة» التي تتمركز حول الإنسان وتُنْكِرُ الإلهَ.

(٣) Natural theology.

(٤) البيرونيَّة Pyrrhonism: فلسفةٌ تُنْسَبُ إلى الفيلسوف اليونانيّ «Πυρρων». وهي تُقرّر أنّ الإنسان لا يمكنه أن يبلغ مرتبة اليقين في طلبه للمعرفة؛ ولذلك عليه أن يبقى دائمًا في حال الإقرار بالجهل.

ودعوى الوضعيّة المنطقيّة منتقضة ذاتيًّا؛ تَهْدِمُ أُسَّها بِفَأْسِهَا. ولَعَلِّي أُوضِّحُ ذلك بقصّةٍ يرويها أحدُ الفلاسفة الغربيّين[1]؛ إذ يَذْكُر أنّه منذ قرابة نصف قرن لمّا كان طالبًا، الْتَحَقَ بحصَّةٍ خاصَّةٍ بالوضعيّة المنطقيّة. وطلَبَ منه الأُستاذُ أَنْ يُعِدَّ عَرْضًا تعريفيًّا بهذه الفلسفة تحت عنوان «مبدأ التَّحَقُّق التَّجريبيّ»، على أَلَّا يتجاوز عشرين دقيقة. ولما حان موعد عرض المادة، وَقَفَ هذا الطالب ليقول: «يُقرّر مبدأ التحقّق التجريبيّ أنّه لا يوجد سوى افتراضَيْنِ اثنين فقط لهما معنى: الافتراضات الصَّادقة ضرورةً، والأُخرى التي من الممكن التَّحَقُّق منها تجريبيًّا. وبما أَنَّ مبدأ التَّحَقُّق التجريبيّ ليس صحيحًا بالضَّرورة، ولا من الممكن التَّحَقُّق منه تجريبيًّا؛ فإنّه ـ بذلك ـ بلا معنى»[2]. وانتهى الأمر بأن فَسَدَتْ على الأستاذ الموالي لهذه الفلسفة كُلُّ محاضرات المقرّر؛ لأنَّ هذه الفلسفة تَهْدِمُ نَفْسَها بنفسها؛ إذ تَحْكُمُ على نفسها ـ ضرورة ـ أَنَّها بلا معنى.

إنَّ العَقْلَ مَلَكَةٌ عظيمةٌ لِلْكَشْفِ والنَّبْشِ، ومن الظُّلْم حَصْرُ مجال إدراكِه في المبادئ المجرّدة الخام، واختزالِ ما بقي من حَقٍّ مدرك في حصيلة التَّجارب الحسيّة. ومن الغُلُوِّ ـ في المقابل ـ أن يُزْعَمَ أنّه يملك الإحاطةَ بكلّ موجودٍ. . العقل بين هذا وذاك، مَلَكَةٌ تُصيبُ الحَقَّ، فلا تضرِبُ في عَمايةٍ تامّةٍ، وتدرك من الحق بعضه لا كلّه.

والعقل في باب الإلٰهيَّاتِ ليس له إلَّا أن يلتقط الأوّليات التي تقودُه إلى معرفةِ حاجةِ الوجودِ إلى إلٰهٍ، وبعض صفات هذا الإله، فَيَنْبَجِسُ بعد ذلك المعنى أو العدم من تحقُّقِ وجود الإلٰه أو عَدَمِه. ولا يملك العقلُ أن يطيرَ بالإنسان إلى ما وراء الوجود لأَنَّ آلَتَهُ لا تعمل خارج حدود المكان والزَّمانِ. ولا تبلغ قُدْرتُه التجريديّة أن تحصرَ معالم ما يقع وراءَ أُفُقِ الأبعاد البشريّة؛ إذ لا يُصيب العقلُ إلَّا في التقاطِ رؤى أوّليّة يستخرجها من طبيعة وجودِه،

---

(١) هو: (نورمان جزلر).

(٢) Norman L. Geisler, Frank Turek, *I Don't Have Enough Faith to Be an Atheist* (Wheaton, Ill.: Crossway Books, 2007), pp.58 - 59.

والوجود الماديّ[١].

إنّ العقل المؤمنَ لا يملك أن يعرف من حقيقةَ الإلٰه سوى بعض صفة وجودِه كالحياة والقُدْرةِ والعِلْم والأُحاديّة، ثم يُسدَلُ ستار الإغماض على عَيْنِ العقل فلا تُبْصِرُ بعد ذلك إلَّا ظلالًا أو أوهامًا. ولذلك يبدو التصوُّرُ الإلٰهيُّ لأكبر فيلسوفٍ مُعَظِّم للعقلِ في التاريخ ـ (أرسطو) ـ ساذجًا وباردًا؛ إذْ إنَّ جَوْهَرَ الإلٰهِ عنده أنَّهُ «المحرّك الذي لا يَتَحَرَّكُ»؛ فَكُلُّ حَرَكَةٍ في الوجود يعُودُ أصلها إليه دون أن يكون هو محلَّ تَغَيُّرٍ. والآلهةُ تعيش في فِكْرِها الخاصّ؛ فهي «فِكْرٌ في فِكْرٍ» «νοησεως νοησις»، ولا تملك أن تخرج من هذا الاستغراق في الذَّاتِ ـ بعيدًا عن عالم المادَّةِ الوَطِيْء ـ؛ لأنّها إنْ فَعَلَتْ ذلك تَفْنَى! وهذا الإلٰهُ في خلاصة الوَصْفِ: «إلٰهُ السُّلُوب»، فلا يُعرَّف إلَّا بأنّه ليس كذا ولا كذا؛ حتى لم يَبْقَ من حقيقةِ وَصْفِهِ شيءٌ يُدْرَكُ[٢].

ولسنا هنا نصادِرُ على المطلوب بالدَّعوة إلى الإذعانِ إلى الغَيْبِ قبل العِلْم بوجوده؛ فذاك أمرٌ لا يُعْقَلُ، فَضْلًا عن أن يُتّبع، وإنّما نقول: إنّ الغَيْبَ إمّا أن يَشِفَّ عن معنى أو يُخْفيَ وراءه العَدَمَ. وإذا كان العدم، انتهى المسير إلى المصير؛ إذ ليس بعد العَدَمِ غير العَبَثِ، وإذا كان الأوَّلُ، لَزِمَ أن تكون وراء حُجُبِ الغَيْبِ معانٍ دافقة، ولا يملك العقل أن يصل إليها كُلّها لأنّ العقلَ أَسِيْرُ آفاق هذا الكونِ، وقوانينه وأشيائه، ولا يملك أن ينتهي إلى يقينٍ بعد ذلك غير الظّنون والتَّخَرُّصات، ولذلك كانت ميتافيزيقا اليونان أَوْهَنَ تُراثِهم العقليّ لأنّها جَرَتْ بالعقل في غير مضماره. فللمرء أن يُفكّر في الغيبيّات لأنّها سبيلُه لإدراك معنى الوجود وحقيقةِ الحياة، لكنَّهُ يجب أن يُدرك أنّه لن يبلغ بعقله النّهايات؛ فقد وُضِعَتْ دونها السُّدود حيث لا يبلغ عَقْله

---

(١) ولذلك قال (ابن عباس) ﷺ: «تفكروا في كلّ شيء، ولا تفكروا في ذات الله» (رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٦١٨). وقد تكرّر الأمر في القرآن بالنظر في الآثار لمعرفة المؤثّر: قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

(٢) Michael Frede and David Charles, ed., *Aristotle's Metaphysics Lambda* (Oxford: Oxford University Press, 2000).

الوفود. وقد أحسن من انتهى عند تُخوم الفَهْمِ ولم يُغامِرْ في تَطَلُّب سَرابٍ.

إنّ نهاية (اللّاهوت الطبيعيّ) في معرفة بعض حقائق الغيب من حقائق العقل وظواهر الطبيعة، ثم يَكِلّ العقل عن متابعة المسير، ليبقى الخبر الصادق (الوحي) هو السّبيل الأوحد لمعرفة ما وراء حُجُبِ المادّة.

المطلب الثاني

الحسّ.. حجيّته وحدوده

تَطْرَحُ قضيّةُ الحسِّ والإدراكِ في مجال بحثنا عَنْ فَهْمِ العالَم والأجوبةِ الوجوديّةِ الكبرى مجموعةً من الأسئلةِ المهمّةِ، أَهَمُّها هنا: صِدْقُ المعارفِ المحصَّلَةِ من الحواسِّ، واحتكار الحواسِّ والتجربة أبواب إدراك المعرفة.

أ ـ صدق الحواسّ:

نُسَلِّمُ كُلُّنا في حياتنا اليوميّة لقدرةِ حواسّنا وتجاربنا على كشفِ الواقع الذي يحيط بنا، ولا يوجَدُ بينَنا مَنْ إذا شاكَتْهُ شَوْكةٌ شَكَّ في حواسِّهِ لِتَقَعُّرٍ فلسفيٍّ باردٍ، وليس فينا مَنْ إذا لَسَعَتْهُ جذوة ألقى على أطراف الأعصاب في جِلْدِه تُهْمَةَ الوَهْمِ.. عَمَلِيًّا، كُلُّنا نخضع لِصِدْقِ حواسِّنا.

وفي عالم الجدلِ الفلسفيّ، شَكَّكَ بعضُ الفلاسفة في حُجّية الحِسِّ تحت دعوى أنّنا نعلم بالضرورة أنَّ الحواسَّ لا تُقدِّمُ لنا حقائقَ الأشياء كما هيَ، فنحنُ نرى الطَّائرة البعيدةَ صغيرةً رغم أنّها ضَخْمةٌ واقعًا، ونرى نِصْفَ عصا التَّجديف مائلًا أو مُتكسّرًا تحت الماء رغم عِلْمِنا أَنَّهُ مستقيمٌ واقعًا. وخَطَأُ الحواسِّ في بعض الأمر يَرْفَعُ عنها الصِّدْقَ، ويجعلها مَحَلَّ نَظَرٍ ونَقْدٍ.

وحقيقةُ الأمر في الدَّعوى السّابقة هي أنّها تقوم على خَلْطٍ بين نقل الحواسّ لصور الأشياء إلى الدِّماغ عند إنشاء الأفكار، والقول: إنّ الحواسَّ تُدْرِكُ حقيقةَ واقعِ الأشياءِ.

إنَّ الحواسَّ لا تخبرنا عن حقيقةِ حجم الطائرة؛ أَصَغيرة هي أم كبيرة؛ إذ تلك وظيفة الدّماغ، أمَّا الحاسَّةُ فتخبرنا أنَّ الطَّائرة تظهر على بُعْدِ مسافة

كذا، إذا كان ارتفاعها كذا مِترًا، وفي جَوٍّ صَحْوٍ أو غائِمٍ، على الصُّورة المدرَكَةِ بالعين؛ فالعَيْنُ تَطْبَعُ صورةَ الوجود كما تظهر في سياقٍ زمانيَّ ومكانيٍّ معيّنٍ. والعقلُ يُقدّر حقيقة حجم الطائرة بالنَّظَرِ إلى حصيلة تجربة النَّظَرِ إلى الطائرات من مسافاتٍ مختلفة، وعادةِ نِسَب تَقَلُّصِ حجم الأشياء ظاهريًّا إذا ابتعدت عَنَّا بمقدارٍ معيّن. فالحاسَّةُ لا تُدْرِكُ واقع الأشياء وإنّما تَنْقُلُ صُوَرَها ضمن ظروفٍ مكانيّة وزمانيّة مخصوصة، ويبقى الحُكْمُ للعقل الذي يجمع الصّورة التي يتلقاها من الخارج بحقائقِ الحسِّ الأخرى ومبادئِه لِيُصْدِرَ الحُكْمَ النّهائيّ.

يقول (كانط): «إنّ الصَّواب والخطأ لا يكونان في الموضوعِ بقدر ما لدينا من حَدْسٍ؛ بل في الحكم الذي نصدره عنه، فمن الصواب إذن أن نقول: إنَّ الحواسَّ لا تُخْطِئُ، **لا لأَنَّ حُكْمَها دائمًا صحيحٌ؛ بل لأنّها لا تَحْكُمُ على الإطلاق**»[1].

وهو ما قَرَّرَهُ (ابن تيميّة) قبله بقوله: «الحاسَّةُ لا يُمَيَّزُ بها بين الأشياء؛ بل مجرّد السَّمْعِ الذي يدرك الصّوت لا يميّز بين الصّوت وغيره؛ بل يُحِسُّ الصَّوْتَ، ثم الحُكْمُ على الصَّوْتِ بأنه غيرُ اللَّونِ يُعْرَفُ بغير الحاسّة وهو العَقْلُ، وبه يُعْرَفُ غَلَطُ الحِسِّ[2]، إذ الأَحْوَلُ يرى الواحد اثنين، والممرور يَجِدُ الحُلْوَ مُرًّا، لكنَّ العقل به يميز سلامة الحسِّ من فسادِه، إذ قد استقرَّ عنده ما يُدرك بالحسِّ السَّليم، فإذا رأى مَنْ لَهُ عَقْلٌ حِسًّا يدرك به خلاف ذلك علم فساده، ونظر في سبب فساده»[3].

فماذا لو شَكَّكْتَ في صِدْقِ الحواسّ، وقلتَ: إنّها لا تُقدِّمُ ضمانةً على صِحَّتها، على خلاف العقل؟

يُجِيبُ الفيلسوفُ (توماس ريد) مُعارِضًا مَن قام بالتشكيك في ما هو

(١) نَقَلَهُ: فؤاد زكريّا، نظريّة المعرفة (القاهرة: مكتبة النّهضة المصريّة، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م)، ص٦٢.

(٢) إذا كانت به آفةٌ كالعَجْزِ عن الاستطعام.

(٣) ابن تيمية، بغية المرتاد في الرّدِّ على المتفلسفة والقرامطة والباطنيّة، ص٢٦٧ ـ ٢٦٨.

أَعْظَمُ من ذلك؛ وهو الوجود الخارجيُّ بِرُمَّتِهِ، بقوله: «هذا الإيمان، سيّدي، ليس من صُنْعِي، وإنَّما هو مِنْ صُنْعِ الحياة، وأنا أَتَلَقَّاهُ بتصديقٍ، ودون شكٍّ.

يقولُ الشَّكَّاكُ: إنَّ العقلَ هو الحاكِمُ الوحيد للحقيقةِ، وعليكَ أَنْ تَرْمِيَ عنك كُلَّ رأيٍ أو إيمانٍ لا يَسْنُدُهُ العَقْلُ.

قلتُ: سيّدي، لماذا عليَّ أنْ أُومِنَ بِمَلَكَةِ العَقْلِ أكثرَ من مَلَكَةِ الحِسِّ، إنَّهما يَصْدُران معًا من المحلّ نفسِه، وصُنِعَا على يَدِ فَنَّانٍ[1] واحدٍ. وإذا وَضَعَ في إحدى يَدَيَّ عُمْلَةً مُزَيَّفَةً، فما الذي سيمنعه من أن يعطِيَني عُمْلَةً أخرى زائفة؟!»[2].

إنَّ الشَّكَّ في صِدْقِ الحواسِّ قَرِينُ الشَّكِّ في العَقْلِ؛ لأَنَّ مصدَرَهُما واحِدٌ، سواء قلنا: إنَّ المصدر هو الله ـ سبحانه ـ أم الطَّبيعة؛ ورفْضُ أَحدهما وقَبُولِ الآخر لا يمكن أنْ يَجِدَ لِنَفْسِهِ أَرضيَّةً معرفيَّةً أو وُجودِيّةً؛ فإنّه إذا كان المصدر واحدًا امتنعَ تصديقُه في بعض الأمر وتكذيبُه في بعضِه الآخر دون برهانٍ للتَّمييز والانتقاء.

ب ـ المذهب التجريبيّ:

بَرَزَ المذهبُ التجريبيُّ الذي يرى أَنَّ الحواسَّ أَصْلُ كُلِّ المعرفةِ، بعد ظُهورِ الحاجةِ إلى تَجَاوزِ المنطقِ الأَرسطيِّ الذي أُخِذَ عليه ـ عامة ـ عُقْمُه؛ إذ إنّه لا يُنْتِجُ معرفةً وإنَّما يكتفي بتأكيدِ المعلوم[3]. وتُعَدُّ النَّواةُ الصُّلْبةُ للمذهب التجريبيّ تقرير أَنَّ المعارفَ البشريَّةَ كُلَّها بَعْدِيَّةٌ (a posteriori)، فالإنسانُ كما يَزْعُمُ الفيلسوفُ (جون لوك)[4] يُولَدُ خلْوًا من المعارف والقَبْلِيَّاتِ ـ بالقُوَّةِ

---

(١) هذه عبارةُ المؤلِّفِ، وقد أراد بها وَصْفَ الرَّبِّ بالقُدرة الجماليَّة. ولا يجوز شَرْعًا وَصْفُ الرَّبِّ بذلك.

(٢) Thomas Reid, *An Inquiry into the Human Mind, on the Principles of Common Sense* (Edinburgh: Bell & Bradfute, 1810), p.363.

(٣) كان هذا المأخذُ أبرزَ ما انتقده ابن تيمية على المنطق الأرسطيّ (انظر: نَقْضُ المنطق، القاهرة: مطبعة السُّنة، ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م). وقد أَشَاعَهُ رُوّاد التجريبيّة كـ(فرنسيس بيكون)...

(٤) جون لوك John Locke (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م): أَحَدُ أعلام عَصْرِ الأنوار. فيلسوفٌ تجريبيٌّ إنجليزيٌّ. امْتَهَنَ الطبَّ. كان له نشاطٌ كبيرٌ في الفكر السياسيّ والأخلاقيّ.

وبالفِعْلِ ـ؛ أو كما يقولُ بعبارته الشَّهيرة: الإنسانُ قبلَ التَّجْربةِ «لَوْحةٌ فارِغةٌ» «tabula rasa» تَنْحتُ عليها التَّجربةُ المعارفَ اللَّاحقةَ. وهي دعوى لها جذورٌ في الفلسفةِ اليونانيّةِ القديمةِ، خاصّةً فلسفةَ الرّواقيّين[1].

يُقابِلُ المذهبَ التجريبيَّ مَذْهَبُ «الأَصْلانيَّة» «Innatism» الذي يُقرِّرُ أَنَّ الإنسانَ، كُلَّ إنسانٍ، يُولَدُ ممتلئًا بمجموعةٍ من المعارفِ المنحوتةِ في وَعْيِه. وهي معارِفُ متمايزةٌ وواضحةٌ.

وقد عَرَفَتْ أُوروبا منذ قُرونٍ جَدَلًا حاميًا بين الأَصلانيّين والتجريبيّين، تَقَهْقَرَ فيها مذهبُ الأَصلانيّين بعيدًا مع فُتوحات العقلِ التجريبيّ وعَجْزِ الأَصْلانيّين عن البَرْهَنَةِ على دَعْواهم؛ إذ يَبْعُدُ أن يكون هناك سبيلٌ لإثباتِ امتلاكِ الرَّضيعِ معارِفَ جاهزةً في ذِهْنِهِ، كما أَنَّ فِعْلَهُ كاشِفٌ أَنَّهُ يَتَرَقَّى في المعرفةِ، ويَتَطَوَّرُ في اكتسابِ المعلوماتِ المركّبةِ لتوجيهِ فَهْمِهِ للعالَم. فالطِّفْلُ يَنْشَأُ فارغًا من المعلوماتِ المرقُونةِ. وهو ما قَرَّرَهُ القرآنُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

ميلادُ الإنسانِ بلا معارف لا يَنْصُرُ ـ ضرورةً ـ قولَ التّجريبيّين لأنَّ الإنسانَ لا ينشأ خلْوًا مِنْ كُلِّ شيءٍ وإن لم يكن يحمِلُ رصيدًا إيجابيًّا من المعلومات الجاهزة؛ إذْ إنَّ الإنسانَ يَنْشَأُ بقابليّةٍ لاكتشافِ حقائقِ النَّفْسِ والوجود إذا لم تَدْفَعْهُ عن ذلك العوارضُ الفاسدةُ.

ولا سبيل لإثبات أنَّ المعرفةَ هي أَصْلُ كُلِّ تجربةٍ؛ لأنَّ **القول: إنَّ التجربةَ ضمانةُ صِدْقِ كُلِّ دعوى ليس قولًا تجريبيًّا، وإنّما هو مبدأٌ عقليٌّ أوّلي يقوم عليه المذهب التجريبي إيمانيًّا ولا يثبته**. ولا يمكن إثباتُ التَّجربةِ من التَّجربةِ؛ فذلك دَوْرٌ؛ إذ يتوقَّفُ إثباتُ الشَّيْءِ على نفسِه. ولا يمكن للتَّجربةِ نفسِها دون مبادئَ عقليَّةٍ قائمةٍ ـ بالفعل أو بالقوّة ـ أن تُنْتِجَ معرفةً. كما أَنَّ من معارفنا العقليّةِ ما لا يمكن أن يَنْتُجَ عن تجربةٍ؛ كامتناعِ اجتماعِ

(١) الرّواقيّة Stoicism: مدرسةٌ فلسفيّةٌ تُنْسَبُ إلى (زينون). سُمّيت بالرّواقية نِسبةً إلى الرّواق المصور بأثينا حيث كان (زينون) يجتمع مع أصحابه. وهي مدرسةٌ ماديّةٌ ترى أنَّ الحِسَّ أصْل المعرفة.

النَّقيضَيْنِ؛ فإنَّ التَّجربة مهما تَوَسَّعَتْ لا يمكن أن تُثْبِتَ هذا المبدأ الكُلِّيّ.

يقول (لايبنتس): «إنّ الحواسَّ وإن كانت ضروريّةً لِكُلِّ معارفنا الحاضرةِ، إلَّا أنّها ليست كافيةً لتزويدنا بكلِّ المعارفِ؛ لأنَّ الحواسَّ لا تُعطي أبدًا إلَّا أمثلةً؛ أي: حقائقَ جزئيّةً أو فرديّةً، لكنَّ كلَّ الأمثلة التي تُؤيِّدُ حقيقةً عامّةً، مهما يكنْ عَدَدُ هذه الأمثلةِ، فإنّها لا تكفي لتقريرِ الضَّرورةِ الكليّة لهذه الحقيقة نفسِها؛ لأنّه ليس من الضّروريّ أن يحدث دائمًا ما حَدَثَ مَرَّةً أو مَرَّاتٍ»[1].

إنّ المقولات العقليّة ـ كما يقول (كانط)[2] في عبارته الشّهيرة ـ فارغةٌ دون خبرة حِسِّيَّةٍ، والإدراكاتُ الحسيّةُ دون مقولاتٍ عقليّةٍ عمياء[3].. فالتّجربةُ كاشِفةٌ عن المقولات العقليّةِ، عامِلَةٌ ضمن قواعِدِها.

نحن ـ إذنْ ـ نُؤْمِنُ بحجيَّةِ الحسِّ والتّجربةِ دون أن نكون حِسِّيِّين أو تجريبيِّين، ولِلْحِسِّ والتّجربةِ دورٌ في البحث عن الدّينِ الحقّ عندما يتعلَّقُ البحثُ بقضايا محسوسةٍ أو قابلةٍ للتّجربةِ.

---

(١) Gottfried Leibniz, *Nouveaux Essais sur l'Entendement Humain* (Paris: Flammarion), p.11.

(نَقَلَهُ عبد الرحمٰن بدويّ، مدخلٌ جديدٌ إلى الفلسفة، ص١٦٤ ـ ١٦٥).

(٢) مذهب (كانط) لا يجعل المبادئ العقلية ضمانة لفهم العالم كما هو.

(٣) Immanuel Kant, *Critique of Pure Reason*, tr. Norman Kemp Smith (New York: Springer, 2016), p.354

المبحث الثالث

العِلْمُ وسؤالُ الإيمانِ

العِلْمُ الطّبيعيُّ اليومَ في بعض الدَّوائر الغربيَّةِ «هُبَل» العَصْرِ؛ إذ اسْتَغَلَّ أَحْبارُ الكنيسةِ العِلمويَّةِ نجاحَ المراصدِ والمختبراتِ في فَكِّ بعضِ مغاليقِ الكَوْنِ لادّعاء قُدرةِ العِلْمِ على فَكِّ شَفْرةِ كلّ مُغْلَقٍ وفَضْحِ سِرِّ كُلِّ مَكْتُوم؛ والتَّطاول ـ بذلك ـ على كُلِّ منهجٍ لا يعتمِدُ الحسابَ والرَّصْدَ والعَمَلَ المختبريّ.

ويُثير الحديث عن حجّية العلم في الشهادة للإيمان الدّينيّ أو ضدّه مجموعة من الأسئلة، أهمّها:

- هل يملك العِلْمُ إثباتَ وجودِ الله أو نَفْيَهُ؟
- ما مدى تماسُكِ المذهب العلمويّ؟
- هل يملك العلمُ نصرةَ الإلحاد؟

وجواب ما مضى من أسئلةٍ ينتظِمُ في النّقاط التالية..

المطلب الأول

العلم الطبيعيُّ ووجود الله

العلم[1] الطبيعيُّ هو «المراقبةُ المنتظمة **للأحداثِ والظُّروف الطَّبيعيَّةِ** من

(١) كلمةُ «عِلْم» في التُّراث الإسلاميّ تعني: إدراك الشّيء على ما هو عليه في الواقع، أو حُكْم الذِّهْنِ الجازمِ المطابق للواقع، وهو تعريفٌ لا يطابق مفهوم "science" الغربيّ؛ فهو أَوْسَعُ منه وأَشْرَفُ. وقد اكْتَسَبَ العِلْمُ الطبيعيُّ بعضَ بَرِيْقِهِ الزَّائدِ من مطابقته لَفْظًا لمصطلح «العِلْم»؛ ولذلك نضطرُّ أحيانًا لضبطِ المقصودِ بأنّه «العِلْم الطّبيعيّ» لا «العِلْم» بالمعنى التُّراثيّ عندنا.

أجلِ اكتشافِ الحقائقِ المتعلّقة بها، وصياغَةِ قوانينَ ومبادئَ قائمةٍ على هذه الحقائقِ»[١]. والعِلْمُ في تعريف «الأكاديميّة الوطنيّة الأمريكيّة للعلوم»: «استخدامُ الأَدِلَّةِ لبناء تفسيراتٍ وتوقُّعاتٍ قابلةٍ للاختبار متعلّقةٍ بالظواهر الطّبيعيّة، وكذلك المعرفة المتولِّدةُ من خلال هذه العمليّة»[٢]؛ ولذلك فإنّ طبيعةَ عَمَلِ عالِمِ الطَّبيعةِ ومجالِ نَظَرِهِ لا يمتدَّانِ إلى خارج مساحة المادّة والطّاقة؛ وهو ما يمنع العلمَ من أن يبحث ـ من هذا الوجه ـ في وجود الله؛ لأنّ الإلٰهَ مُبايِنٌ للعالَمِ بمادَّتِهِ وطاقتهِ.

كما أنّ العلمَ يبحثُ في حقيقةِ تَشَكُّلِ العالَمِ المادِّيِّ وطريقَةِ عَمَلِهِ؛ أي سؤالِ: الكَيْفِ؟ ولا يبحث عن العِلَلِ الأُولى والغايات النّهائيّة، أي سؤال: لِماذا؟

لا يعني ما سبق أنَّ العِلْمَ بمنأى عن بحث النَّظَرِ في وجودِ الله؛ إذْ إنَّ له حُضورًا واسعًا في هذا الكتاب، وفي عامَّةَ الكتبِ التي تَطْرُقُ هذا الموضوع اليومَ والبارحةَ وغدًا. إنَّ حضورَ العلمِ في معرضِ الجوابِ عن وجودِ الله كائنٌ في مقام المقدّمة لا في معرضِ المحاكمةِ وآلَةِ النَّظَرِ. أو بعبارةٍ أَجْلَى: العِلْمُ لا يملِكُ أَنْ يُقَدِّمَ إجابةً مباشِرةً في أَمْرِ وُجودِ اللهِ، ولا أن يكون منطق البحث التَّجريبيّ منهج النَّظر في كَشْفِ الحُجُبِ عن جوابِ السُّؤال، وإنّما للعلم أن يكون مقدّمةً صُغْرى في برهانٍ فلسفيٍّ عن وجود الله. مثال:

- مقدّمة كبرى: كُلُّ شيءٍ له بدايةٌ في الوجود؛ فَلَهُ سَبَبٌ.
- مقدّمة صُغْرى: الكونُ له بدايةٌ في الوجود.
- النَّتيجةُ: الكَوْنُ له سَبَبٌ.

الصياغة السابقة ذات جوهر فلسفيّ (صياغة منطقيّة)، تَتَضَمَّنُ في مقدّمتها الصُّغْرى دعوى لها مظهر ماديٌّ علميٌّ في أحد جوانبها، وهي بدء الكون؛

(١) Christopher G. Morris, ed. *Academic Press Dictionary of Science and Technology* (C.A.: Academic Press, 1992), p.1926.

(٢) National Academy of Sciences, Definitions of Evolutionary Terms.
<http://www.nas.edu/evolution/Definitions.html>.

وهذه الدعوى تقود ـ ضمن الاستنباط العقلي السليم ـ إلى نتيجةٍ متعلّقةٍ بمسألة وجودِ إلٰهٍ.

العِلْمُ الطَّبيعِيُّ لا يُثْبِتُ ـ بنفسِه ـ وجودَ اللهِ ولا يَنْفِيهِ، وإنّما تقريراتُه مقدّماتٌ في بُرهانٍ عَقْلِيٍّ (فلسفيّ).

وقد فتح النَّظَرُ الفلسفيُّ في العقود الأخيرة مجالًا فسيحًا للمقدّمات العلميَّةِ لِتَشْهَدَ بقوّةٍ للوجود الإلٰهيّ؛ حتّى قال الفيزيائيّ الكبيرُ والفيلسوفُ (جون بولكنجورن)[1]: «نحن نعيشُ في عصرٍ يَشْهَدُ إحياءً عظيمًا لِلَّاهوت الطبيعيّ. لا يَحْدُثُ إحياءُ اللَّاهوت الطّبيعي اليومَ في مجموعِ جماعة اللَّاهوتيّين الذين فقدوا سلطانهم في هذا المجال، وإنّما هو يَحْدُثُ بين علماء الطَّبيعة»[2].

«لا بُدَّ من القول: إنّ أولئك الذين يقولون: إنّ دراسة العِلْم تجعل المرء مُلْحِدًا، حَمْقى»[3]. الفيزيائيُّ الحاصل على نوبل (ماكس بلانك)[4].

المطلب الثاني

العلمويّة، إشكالاتُ المبدأ والوعود

العِلمويَّة[5]: اعتقادُ احتكارِ العِلْمِ الطَّبيعيّ لمناهجِ المعرفةِ أو سلطانِ

---

(١) جون بولكنجورن John Polkinghorne (١٩٣٠ـ): فيزيائيٌّ إنجليزيٌّ بارزٌ. له اهتمام خاصٌّ بمباحث علاقة العلم بالدّين. رَأَسَ إحدى كليّات جامعة كمبردج بين ١٩٨٨ ـ ١٩٩٦م.

(٢) John Polkinghorne, ‘So Finely Tuned a Universe of Atoms, Stars, Quanta & God’, *Commonweal*, August 16, 1996, p.16.

(٣) Cited in Frederick E. Trinklein, *The God of Science* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1971), p.64.

(٤) ماكس بلانك Max Planck (١٨٥٨ ـ ١٩٤٧م) عالم فيزياءٍ نظريّة ألمانيّ. حصل على جائزة نوبل في الفيزياء سنة ١٩١٨م. يُعتبر أحد مؤسّسي النظريّة الكموميّة. تحمل إحدى كبرى المؤسّسات العلميّة الألمانيّة اسمه: “Max Planck Society”

(٥) Scientism.

العِلْمِ على جميع مناهجِ المعرفة الأخرى. ويُعبِّرُ عنه (بيتر أتكنز)[١] العِلمويُّ بقولِه: «لا يوجَدُ سببٌ لافتراضِ أنَّ العِلْمَ لا يمكنه التَّعاطي مع كُلِّ أَوْجُهِ الوجودِ»[٢].

العلمويَّةُ دعوى بارِقةُ الاسمِ، تَسُرُّ الغَريرَ الذي يَسْتَهْوِيهِ القِشْرُ ويَغْفُلُ عن الحشا؛ إذ هي في حقيقتها باديةُ الفسادِ من أَوْجُهٍ عِدَّة:

أولًا: العلمويَّةُ فاسِدةٌ في أصل مبدئِها؛ أي: مقولَتِها الأُولى التي تُشكِّلُ نَواتها الصُّلبة، وهي أنّ كلَّ ما لم تَثْبُتْ صِحَّتُهُ على مَشْرَحَةِ العِلْم لا يكون صحيحًا. العلمويَّةُ ـ بذلك ـ الضَّحِيَّةُ الأُولى لمبدئِها الأوَّلِ؛ إذ إنَّ هذا المبدأَ ليس قضيّةً تجريبيّةً، وليس مسألةً علميّةً قابلةً للاختبار العلميّ؛ وإنّما تقريرٌ فلسفيٌّ، وهو ما يُخرِجُهُ عن جِنْسِ الدَّعاوى العلميّة؛ وبذلك يَثْبُتُ فَسَادُه؛ لِفَساد كُلِّ ما هو غيرُ علميٍّ في الميزان العلمويّ.. وبذلك تَنْتَقِضُ العلمويّة ذاتيًّا، وتَنْتَحِرُ بَحَدِّ نَصْلِها!

ثانيًا: العلمُ قائمٌ على مُسلّماتٍ لا يملك إثباتها؛ كالمنطقِ، والرياضياتِ، وموثوقيّةِ العقلِ والحواسِّ، ووجودِ العالمِ الخارجيِّ، والقدرةِ على العلم بحقيقة هذا العالَمِ، وقدرةِ اللُّغة على وَصْفِ العالَمِ... ولا يمكن للعالِمِ أَنْ يُنْشِئَ تجربةً علميّةً واحدةً، دون تلك المقدّماتِ.

«أَدْرَكَ كُلُّ مُمارِسٍ للعَمَلِ العلميّ أنّه قد كُتِبَ على مداخل «مَعْبَدِ العِلْمِ» الكلمات التالية: لا بُدَّ أَنْ يكون عندك إيمانٌ!»[٣]. (ماكس بلانك)

ثالثًا: العِلْمُ عاجِزٌ عن فَهْمِ موضوعِه الأَوَّلِ، وهو المادّة؛ ولذلك قال الفيلسوفُ **الملحد** (برتراند راسل): «هل ينقسم العالَمُ إلى عَقْلٍ ومادّةٍ. وإذا

---

(١) بيتر أتكنز Peter Atkins (١٩٤٠ـ): كيميائيّ إنجليزيٌّ. عُضْو «الجمعيّة الملكيّة للكيمياء». شارك في عدد من المناظرات في مواجهة علماء وفلاسفة مؤلّهة. يُعرف بخطابه الإلحاديّ الحادّ.

(٢) Peter W. Atkins, On the omnicompetence of science, in *Nature's Imagination: the Frontiers of Scientific Vision*, ed. John Cornwell (Oxford, Oxford University Press, 1995), p.125.

(٣) Max Planck, *Where Is Science Going?* (New York: W.W. Norton, 1932), p.214.

كان الأَمْرُ كذلك، فما العقل؟ وما المادّة؟ هل العَقْلُ خاضِعٌ للمادّة؟ أم هو يملك قوًى مُسْتَقِلَّةً؟»[١].

إنّ العِلْمَ لا يَعْرِفُ ما «المادة»، ويكتفي بالصّياغاتِ الرياضيّةِ والبحثِ في عناصرِ المادّة الدُّنيا التي يتكوَّنُ منها. وهو بذلك يَكْشِفُ ظاهريَّتَهُ التي تُقَيِّدُ قُدْرَتَهُ التفسيريّة.

رابعًا: العِلْمُ الطبيعيّ بَعِيدٌ كليَّةً عن المشاركة في التَّقويم الأَخْلاقيِّ والجماليِّ، والإحساس والذَّوْق؛ بل العقل نفسه الذي يُمثّل حالةَ وَعْيٍ، يَعْجَزُ العِلْمُ عن وَصْفِه بمقاييسِ الفيزياء. إنَّ العِلْمَ الطَّبيعيَّ لا يتجاوَزُ في وَصْفِه للعالَمِ الجانبَ الكمّيَّ إلى الجانب الكيفيِّ... ويُعبِّرُ الفيزيائيُّ الحاصل على **نوبل** (إرفين شرودنغر)[٢] بِلُغَةٍ حزينةٍ ضِيْقَ أُفُقِ العِلْمِ وقُصورَ يَدِهِ بقوله: إنَّ العِلْمَ «لا يمكنُ أَنْ يقولَ كلمةً واحدةً عن اللَّوْنَيْنِ الأَحْمر والأَزْرق، وعن المُرِّ والحُلْوِ، وعن الأَلَمِ والاستمتاع الجسدِيَّيْنِ. إنّه لا يعرف شيئًا عن الجمالِ والقُبْحِ، والجيّد والرَّدِيْء، واللهِ والأَبَدِيَّةِ. يَدَّعِي العِلْمُ أحيانًا أنه يُحْسِنُ الجواب في مثل الأبواب السَّابقة، لكنَّ هذه الأجوبة في كثيرٍ من الأحيان **سخيفةٌ جِدًّا حتّى إنَّنا لا نميل إلى أَخْذِها على مَحْمَلِ الجدّ**»[٣].

> **«إذا كانت هناك حدودٌ لما يملِكُ العلمُ وَصْفَهُ، فكذلك توجد حُدودٌ لِمَا يَمْلِكُ العِلمُ تَفْسِيرَهُ»[٤]. الفيلسوف (إدوارد فزر)[٥].**

خامسًا: العِلمُ لا يملك غير الصَّمْتِ في مواجهة الأسئلةِ الأَوّليّةِ؛ فهو

---

(١) Bertrand Russell, *History of Western Philosophy* (New York: Simon and Schuster, 2008), p.13

(٢) إرفين شرودنغر Erwin Schrödinger (١٨٨٧ ـ ١٩٦١م): فيزيائيٌّ نمساويٌّ بارز. له مساهماتٌ كبيرةٌ في ميكانيكا الكمّ.

(٣) Schroedinger, *Nature and the Greeks* (Cambridge, Cambridge University Press, 1954), p.93.

(٤) Edward Feser, *Scholastic Metaphysics, A Contemporary Introduction* (Heusenstamm: Editiones Scholasticae, 2014), p.20.

(٥) إدوارد فزر Edward Feser (١٩٦٨ـ): فيلسوفٌ توماويٌّ أمريكيٌّ. له اهتمامٌ خاصٌّ بالإلحاد الجديد، والفكر الأرسطيّ والتوماويّ، ومشكلة الوعي.

أداةٌ تعملُ في الوجود الماديِّ بعد أن خَرَجَ من كَتْم العَدَم، واتَّخَذَ أَعْراضًا، وسَرَتْ فيه روحُ الحركةِ؛ ولذلك كتبَ (بيتر مِدوار)[1] الحائزُ على جائزة **نوبل** في الطبّ: «وجودُ حدودٍ للعِلْمِ أَمْرٌ ظاهِرٌ من عَجْزِهِ عن الجواب عن **أسئلةِ الأطفالِ** الأَوَّلِيَّةِ المتعلّقة بالأمورِ الأوّليَّةِ والنهائيّة، والتي هي أسئلةٌ مثل: «كيف بدأ كُلُّ شيءٍ؟»، و«لماذا نحن كُلُّنا هنا؟» و«ما الغاية من الحياة؟»»[2]. إنّ العلم ـ بعد كُلِّ غَزَواتِهِ وفي عِزِّ نَشْوتِهِ ـ يَقِفُ بلا جوابٍ أمامَ طِفْلٍ مُتَحَيِّرٍ.

سادسًا: العِلْمُ الطبيعيّ يَفْهَمُ العالَمَ من خلال قوانينِه المكتشفةِ من انتظامِ عملِ الأشياءِ، ولا يمكن أن يَصِلَ بحثُه الرَّصْدِيُّ المباشر إلى ما وراء التّكرار، وإن كان يَشْرَحُ الأحداث الفرديّةَ انطلاقًا من الظَّواهر الأخرى المتكرّرةِ. ولذلك يقول الفيلسوفُ (فتجنشتاين)[3]: «الوَهْمُ الكبيرُ للحَدَاثَةِ هو أَنَّ قوانينَ الطَّبيعةِ تُفَسِّرُ لنا الكَوْنَ. **قوانين الطبيعة تَصِفُ الكَوْنَ، فهي تَصِفُ الانْتِظَامَ. لكنَّها لا تُفَسِّرُ شيئًا**»[4].

سابعًا: افتراضُ قُدرةِ العِلمِ على وَصْفِ العالَم الطبيعيِّ لا يَرْقَى بأيِّ حالٍ إلى مَنْعِ وجود تفسيرٍ للعالم من جِنْسٍ آخَرَ؛ إذ لَا يَلْزَمُ مِنْ تَعَدُّدِ التَّفاسير تَضَارُبها إذا كان لِكُلِّ تفسيرٍ زاويتُه في النَّظَرِ والفَحْصِ. والإصرارُ على اعتمادِ المنهجِ العلميِّ لتفسيرِ كُلِّ شيءٍ بدعوى نجاعةِ التَّفْسير العلميِّ هو أَشْبَهُ بِطُرْفَةِ ذاك السِّكِّيْرِ الذي وَقَفَ يُفَتِّشُ عن مفتاحِ سَيَّارتِه عند عَمُودِ النُّورِ، فَلَمَّا قيلَ لهُ: أَيْنَ أَضَعْتَ المفتاحَ؟ أَجابَ: هُناكَ في تلك السَّاحةِ المُظْلِمَةِ! ولمّا أُنْكِرَ عليه بَحْثُهُ عن المفتاحِ في غير المكانِ الذي يَغْلبُ الظَّنُّ أنَّهُ سَقَطَ فيهِ، أَجَابَ: لكنَّ المكان هُنا مُضِيْءٌ!.. أو ذاك الذي أُنْكِرَ عليه استعمالُ آلةِ الكَشْفِ عن

---

(١) بيتر مدوار Peter Medawar (١٩١٥ ـ ١٩٨٧م): بيولوجيّ بريطانيّ. رَأَسَ «المؤسّسة الوطنيّة للبحث الطبيّ». له اهتماماتٌ بالبحث الفلسفيّ.

(٢) Peter Medawar, *Advice to a Young Scientist* (London, Harper and Row, 1979), p. 31.

(٣) لودفيج فتجنشتاين Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩ ـ ١٩٥١م): فيلسوفٌ نمساويٌّ مشهورٌ. له عنايةٌ خاصّةٌ بالمنطق وفلسفة اللُّغة والرياضيّات.

(٤) Cited in: John Lennox, *Gunning for God: Why the new atheists are missing the target* (Oxford: Lion, 2011), p.228.

المعادنِ في بَحْثِهِ عن عَصاهُ الخَشَبِيَّةِ؛ فَأَجابَ: لكِنَّ هذه الآلَةَ ناجِعةٌ؛ فهي تَدُلُّني إلى المعادن كُلَّما استَعْمَلْتُها!

ثامنًا: العِلْمُ مَدِينٌ لعقيدةِ وجودِ الله بحقِّ الوجود؛ إذ إنّنا لا نستغني عن مبدأ وجود الله لنفهم لماذا يُفَسِّرُ العلمُ الوجودَ الطّبيعيّ؛ فتفسيرُ العلمِ الطبيعيِّ للوجودِ الطبيعيِّ يحتاج إلى تفسيرٍ؛ إذ الكونُ في أَصْلِهِ مادّةٌ وطاقةٌ في حركةٍ دَؤُوبةٍ، وهو بذلك ظاهرةٌ صامتةٌ تحتاج مَنْ يَنْطِقُ عنها. واحتمالُ العشوائيّةِ في هذا الوجودِ أَرْبَى بكثيرٍ على احتمالِ الانتظام والتناسق والتكاملِ، والواقِعُ مُنْتَظَمٌ، على خلاف المُتوقَّعِ، فالقُدْرَةُ التفسيريّة للعِلْم رهينةُ وجودِ الانتظامِ والتّناسقِ والتّكاملِ بين عناصرِ الطّبيعة؛ فلِمَ انْتَظَمَ الكَوْنُ ولَمْ يَتَبَعْثَرْ ويَسِرْ في عَمايةٍ؟ وجودُ اللهِ هو وحدَهُ الذي يُفَسِّرُ ذلك كما سيأتي معنا في الفصولِ اللّاحقةِ.

المطلب الثالث

الإلحاد والعلمويّة

تختصر العلمويّة طريق المعرفة في العلمِ الطبيعيّ وتُنْكِرُ ما عداه، أو تجعلُ ما عَدَاهُ خاضِعًا له؛ حتّى وَصَفَ (ريتشارد داوكنز) علماءَ الطَّبيعة أنّهم «المخْتَصُّون في أَمْرِ كَشْفِ ما هو حقيقيٌّ بشأن العالم والكَوْنِ»[1]. وهم بذلك قد نَقَضُوا أَوْهامَ الأَوَّلِيْنَ في شأن وجودِ إلٰهٍ يُفَسِّرُ وُجودَه وُجودَ كُلِّ شَيْءٍ عَدَاهُ؛ إذ العِلْمُ قد أَثْبَتَ أَلَّا إلٰهَ...

وتلك دعاوى منهم مردودةٌ مِنْ أَوْجُهٍ:

أَوَّلًا: العِلْمُ الطبيعيّ لم يَسُقِ الإنسانَ إلى الإلحادِ بِنَقْضِ حقيقةِ وُجودِ إلٰهٍ، وإنَّما الأمرُ على نقيضِ ذلك؛ إذ إنَّ الملحِدَ العِلمويّ ينطلِقُ من مبدأ: «الطّبيعانيّة الميتافيزيقيّة» «Metaphysical naturalism»؛ أي: إنَّهُ يَبْدَأُ بَحْثَهُ من مُقدّمةٍ وُجوديّةٍ أُوْلى تقولُ: الوجودُ مادَّةٌ، ولا يمكن غير ذلك. والقَوْلُ بماديّة

(١) Richard Dawkins, *A Devil's Chaplain: Selected Writings* (London: Phoenix, 2004), p. 242.

كُلِّ شيءٍ، حقيقةُ الإلحادِ لا نتيجةُ الإلحاد. والعلمويُّ بذلك ينطَلِقُ من النتيجةِ التي عليه أن يُناضِلَ لإثباتها، وتلك مُغالطةٌ منطقيّةٌ مشهورةٌ، وهي «المصادَرَةُ على المطلوبِ»، بتضمين المقدّمة في النَّتيجةِ.

ثانيًا: العلمويُّ عاجزٌ عن إثبات الرُّكْنِ الرَّكِينِ لميتافيزيقاه الماديّةِ، وهو أَنَّ الوجود مادَّةٌ؛ إذ إنَّ الإيمانَ بماديّةِ كُلِّ موجودٍ «قَفْزةٌ إيمانيَّةٌ» لا تُثْبِتُهَا تجربةٌ ولا يَشْهَدُ لها مبدأٌ عَقْلِيٌّ، ولذلك كَتَبَ الفيلسوفُ **الملحِدُ** (مايكل روس)[1]: «. . . إذا كنتَ تُريد اعترافًا، فقد قُلْتُ دائمًا: إنَّ مذهب الطبيعانيّة **اختيارٌ إيمانويّ**»[2].

ثالثًا: حتّى لو قَبِلْنا أنَّ العِلْمَ هو: «محاولةُ تفسيرِ العالَم الطبيعيِّ من خلال العمليَّات الطَّبيعيّةِ، لا فوقِ الطبيعيّة»[3] ـ أي: أَنَّ العلمَ لا يَقْبَلُ غير الخياراتِ الماديّةِ لتفسيرِ الظَّواهرِ الطبيعيّةِ، وهو ما يُسمَّى «الطَّبيعانيّة المنهجيّة» «Methodological naturalism» ـ فسيبقى التَّفسيرُ الدّينيُّ ضرورةً قائمةً لأنَّ التَّفسير الدِّينيَّ يُفَسِّرُ أساسًا ما وراء المادَّةِ.

رابعًا: العِلمُ الطَّبيعيُّ لُغْزٌ يحتاجُ إلى فَكٍّ، فهو نَشَازٌ ضمن التَّصَوُّرِ الماديِّ الذي يُنْكِرُ الغائيّة والحِكْمَةَ المتسلِّطةَ على أشياءِ الوجود؛ ولذلك يَلْزَمُ العاقِلَ أنْ يبحث عن تفسيرٍ لأن يكون العِلمُ الطّبيعيُّ مُمْكِنًا؛ إذ العلم الطّبيعيُّ فَرْعٌ عن حقيقةِ النِّظام في الكون، والنِّظامُ في الكون إعلانٌ لخضوعِهِ لِسُلطانِ الحِكْمةِ.

والعِلْمُ يقتضي وجودَ كَوْنٍ معقولٍ خاضِعٍ للغائيَّةِ وعَقْلٍ نَشِطٍ مُدْرِك للغائِيَّةِ، وكُلٌّ من هذين الشَّرْطَيْنِ لا يلتقي مع الوجود الماديّ الإلحاديّ الأَعْمى.

---

(١) مايكل روس Michael Ruse (١٩٤٠ـ): فيلسوفُ علومٍ (بيولوجيا) بارزٌ. له عنايةٌ خاصّةٌ بالعلاقة بين الإيمان والعلم، وجدل الخلق والتطوّر.

(٢) Cied in: Robert Stewart, ed. *Intelligent Design: William A. Dembski & Michael Ruse in Dialogue (Minneapolis, Minn.: Fortress Press, 2008). p. 37.*

(٣) Eugenie C. Scott, "My Favorite Pseudoscience," *Reports of the National Center for Science Education 23 (January-February 2003): 11 (Cited in: Hugh Ross, Creation as Science: A Testable Model Approach to End the Creation/evolution Wars*, Colorado Springs, CO: NavPress, 2006), p.195.

ونحن هنا لسنا بإزاء خيارَيْنِ مُتصادِمَيْنِ يتنافسان حَقَّ الوجود واحتكارَ مجالِ القراءة النّهائيّة لِلْكَوْنِ وأَشْيائِه: تفسير أَوَّل ماديّ تُدْرِكُهُ الحواسُّ، وآخر غيبيّ قائم على الإيمان بغير المنظور، ليكون الخَيارُ بين ما هو دانٍ سَهْل، وآخر بعيد لا تنالُه الحواسُّ. . وإنّما نحن أمام تفسيرٍ ماديٍّ للوجود (العلم الطبيعيّ)، وتفسيرٍ للتفسير الطبيعيّ (القُدْرة والعِلْم الإلٰهيَّيْن).

وقد يُفَاجَأُ القارئُ إذا عَلِمَ أنَّ (داوكنز) أَحد أَعْلام العلمويّين ـ يقولُ: «**ليس للعلمِ أيُّ سبيلٍ لِنَقْضِ وُجودِ كائنٍ أَعْلى**»[1]، وأَنَّ أَخاهُ العلمويَّ الملحِدَ (لورنس كراوس) قال: «إنَّ نجاحَ العِلْمِ لا يعني أَنَّهُ يَشْمَلُ كامِلَ الخبرة الفكريّة الإنسانيّة. . . العِلْمُ لا يجعل الإيمانَ بالله من المحالات. يجب أن نعترف بهذه الحقيقة، وأَنْ نَتَعَايَشَ مَعَها»[2].

وغايَةُ أَمْرِ (داوكنز) الزَّعْمُ أَنَّ وجودَ إلٰهٍ أَمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ بصورةٍ بالغةٍ ـ دون قَطْعٍ ـ؛ لِغيابِ الأَدِلَّةِ على ذلك. وذلك منه إقرارٌ ـ غيرُ مَقْصُودٍ ـ أَنَّ العِلْمَ ليس سبيلَ البحثِ المباشر في مسألةِ إثباتِ عقيدةِ إنكارِ الإلٰهِ[3].

والقول بِنَكارةِ مذهبِ العلمويّةِ ووضوح فسادِهِ شائعٌ بين المفكّرين الغربيّين، ويشهد عليه أمران، أَوَّلُهما: أنّك لا تكاد تجد علمويًّا يعترف بعلمويّته؛ فعامَّةُ العلمويّين يُنْكِرُون علمويّتهم عندما يُواجَهُون بلوازمها، رغم شُهرةِ دفاعِهم عنها؛ وذلك أنّه عندما يوضع العِلمويّ في مواجهةٍ صريحةٍ مع حقيقةِ المذهب، يرتاعُ لِشَناعةِ ما يرتبِطُ لزومًا بالتَّصديقِ بمذهبِه؛ فهو لا يستطيع ـ مثلًا ـ إخضاعَ الأخلاق والجمالِ لموازين العِلْم. والأمر الثّاني: هو أنَّ القِلَّةَ (الشَّاذَّةَ) التي تُصرِّحُ بعلمويَّتِها تواجِهُ انتقاداتٍ شديدةً ولاذِعةً من داخل الدَّائرة الإلحاديّة ذاتها، حتّى إنّ كتابَ فيلسوفِ العلوم الملحد (ألكسندر روزنبرج)[4] الصَّادر منذ بضعِ سنواتٍ «هادي الملحِدِ إلى الواقِعِ: الاستمتاعُ

(١) "Science has no way to disprove the existence of a supreme being." Dawkins, *A Devil's Chaplain*, p.149

(٢) Cited in: Brooks, 'This Week: Beyond Belief', *New Scientist*, 18 November 2006, p. 11.

(٣) (داوكنز) يناقض نفسه في مواضع أخرى من كُتُبِهِ بِعَدِّهِ قضيَّةَ الإيمانِ باللهِ مسألةً علميَّةً صرفة.

(٤) ألكسندر روزنبرج Alexander Rosenberg (١٩٤٦ـ): أستاذ فلسفة في "Duke University". له اهتمامٌ خاصٌّ بفلسفة العلوم وفلسفة الاقتصاد.

بالحياةِ دون أَوْهام»[1] قد هُوْجِمَ على صفحةِ إحدى المجلّاتِ اللّيبراليّةِ الأمريكيّةِ، وَوُصِفَ فيها أنّه «أَسْوَأُ كتابٍ في هذه السَّنة»[2].

المطلب الرابع

هل ماتت الفلسفة؟

شعارُ «مَوْت الفلسفةِ» الذي أطلقه الفيزيائيُّ (ستفن هاوكنج)[3]، تَلَقَّفَهُ خصوم المُؤَلِّهَة في الغربِ على أنّه نَصْرٌ للعِلْمِ على التَّفكير العقليّ المجرّد، وأنّ العِلْمَ قد انتهى إلى الاستقلالِ لنفسه بحقِّ معرفةِ الوجودِ والحُكْمِ عليه.

وغنيٌّ عن الإيضاح أنَّ الفلسفةَ لا يمكن أن تموتَ ليبقى العِلْمُ؛ لسببٍ ظاهرٍ؛ وهو أنّ العلم لا يمكن أن يقوم دون قاعدةٍ فلسفيّةٍ أُوْلى ينطلِقُ منها؛ فالعلمُ الطبيعيُّ قائمٌ على أُصولٍ ميتافيزيقيّةٍ ومعرفيّةٍ كثيرةٍ لا تَنْتُجُ عن العلم؛ بل يَنْتُجُ عنها العِلمُ....

بل أقولُ: دَعْكَ من البحث المختبريّ، والرَّصْدِ الفَلَكِيِّ، واعْلَمْ أنّهُ لا يمكن للمَرْءِ أنْ يَحُكَّ رَأْسَهُ إذا شَعَرَ بِداعٍ لِحَكِّهِ حتَّى يُسلِّمَ لمجموعةِ مُقَرَّراتٍ فلسفيّة أُوْلى ليس للعِلْمِ الطَّبيعيّ فيها نصيبٌ، ومنها:

١ ـ هل المعرفة ممكنة، أم أنّ الشكوكيّة هي الحقّ في عدم إمكان إدراك الحقيقة؛ وإِذَنْ: هل العِلْمُ الصادق بالشُّعورِ البغيضِ ـ الذي يستدعي اليَدَ لِلْحَكِّ ـ ممكنٌ أم لا؟

٢ ـ هل الوجودُ الخارجيُّ (جِلْدةُ الرَّأْسِ واليَدُ بأَظافِرِها) حقيقةٌ موضوعيّةٌ، ولذلك يَجِبُ حَكُّ الرَّأْسِ لِكَفِّ الشُّعورِ البغيضِ، أم لا حقيقةَ خارِجَ الدِّماغ ـ وهي المشكلةُ الفلسفيَّةُ القديمةُ في أمر وجود عالم خارج أذهاننا ـ؟

٣ ـ هل الحواسُّ التي تنقل لنا هذا الإحساسَ البغيضَ جديرةٌ بالتَّصديقِ؟

---

(١) *The Atheist's Guide to Reality: Enjoying Life Without Illusions.*

(٢) مجلّة "The New Republic"، والصحفيّ هو "Leon Wieseltier".

(٣) ستفن هاوكنج Stephen Hawking (١٩٤٢ ـ ٢٠١٨م): عالم فيزياء نظريّة إنجليزيّ شهير. عضو الجمعية الملكية للفنون.

٤ ـ هل آلةُ العقل التي تُفسّر الشُّعورَ بأنّه بغيضٌ، جديرةٌ بالتَّصديقِ؟

٥ ـ هل يجب الوثوق في قانون السببيّة بما يدفع المرءَ إلى تحريكِ يدِه فوق رَأْسِهِ حتّى يتمكَّنَ من حَكِّ فَرْوَتِه استجابةً لِداعِي الحكِّ؟ أم أنّ السببيّة وَهْمٌ من آثارِ التّكرار والتَّعاقُبِ كما يقول (هيوم)؟

٦ ـ هل الشُّعور البغيضُ هو الشُّعور البغيضُ؛ أيْ: هل علينا أنْ نَثِقَ في قانون الماهيّة؟

٧ ـ هل (الشُّعور البغيضُ) ليس (غير الشُّعور البغيضِ)؛ ولذلك فإزالة الشُّعور البغيضِ تكون بغياب الشُّعور البغيضِ ـ وهذا هو قانون عدم التناقض الذي يحاول بعض الكموميّين إنكارَهُ ـ؟

٨ ـ الشُّعور البغيضُ، إمّا أن يُوجَدَ أو لا يُوجَدَ، ولا يُوجَدُ خيارٌ ثالِثٌ، وهذا هو قانون الثَّالث المرفوع؛ إذ إنّ الشيء إمّا أن يوجدَ أو لا يوجدَ، ولا يوجَدُ خيارٌ ثالثٌ، أم إنّه علينا أن نبحثَ في خيارٍ ثالثٍ، ورابعٍ؟

٩ ـ إشكالية اختيار الرأي أو ما يُعرف بـ«Doxastic voluntarism». . هل للإنسان قدرةٌ على اختيار أفكارِهِ، أم هو مَقُودٌ قَسْرًا إليها؟ هل الوعيُ بالإحساسِ البغيضِ اختياريٌّ أم قَسْريٌّ؟. . .

وغير ذلك من المتبنّيات الفلسفيّة التي لا سبيل لأَنْ تَحُكَّ رَأْسَكَ قَبْلَ أن تَقْبَلَها أو ترفُضَها؛ عِلْمًا أنّ هناك مَنْ يُجادِلُ اليومَ في جميع المقولات الفلسفيّةِ السَّابقةِ التي لا تَشُكُّ فيها أَنْتَ لحظةً؛ ولذلك فإنّ التَّسليمَ لهذه المقرّراتِ ما عاد بَدَهِيًّا، على الأَقَلِّ عند طائفةٍ من فلاسفةِ الإلحادِ الجديدِ؛ فكيف إذنْ يقومُ صَرْحُ العِلْمِ الواسعِ على غيرِ منظومةٍ فلسفيّةٍ أَوْسَعَ وأَرْسَخَ؟!

الأمر باختصار هو أنّ طائفةً من العلماءِ الذين تشهَدُ كتاباتُهُم بالعَجَلَةِ في النَّظَرِ ـ وعلى رأسهم (داوكنز) و(كراوس) و(هاوكنج) ـ اقْتَحَمُوا مجالًا غير مجالِ تَخَصُّصُهِمْ؛ فجاءَتْ اعتراضاتُهُمْ على الإيمانِ باللهِ مُغْرِقةً في السَّطْحيَّةِ التي أَحْرَجَتْ عددًا من الفلاسفةِ الملاحِدةِ حتّى قال (مايكل روس) في مقاله: «لماذا أَعْتَقِدُ أَنَّ [رُموزَ] الإلحادِ الجديد كارثةٌ عُظْمى»: إنَّ كتابَ «وَهْمِ الإلٰهِ»

(لداوكنز) لا يرتقي صاحِبُه لِيَنْجَحَ به في مُقَرَّرِ «مَدْخل إلى الفلسفة» في الجامعة[1].

الميتافيزيقا مُقدِّمةٌ ضروريّةٌ لكلّ إبستيمولوجيا، والإبستيمولوجيا مُقدّمةٌ أساسيّةٌ لكلِّ بَحْثٍ علميٍّ تجريبيٍّ.

---

(١) Michael Ruse, Why I think the New Atheists are a bloody disaster
<http://www.beliefnet.com/columnists/scienceandthesacred/2009/08/why-i-think-the-new-atheists-are-a-bloody-disaster.html>

المبحث الرابع

البرهانُ الخَبَرِيُّ والإيمانُ

يَشْهَدُ النَّظَرُ في فِكْرِ كُلِّ الطَّوائفِ والمدارِسِ أَنَّها ـ عَمَليًّا ـ لا تَقْصُرُ المعرفةَ على النَّظَرِ العَقْلِيِّ والكَسْبِ الحِسِّيِّ، وإنّما للأَخْبارِ نصيبٌ وافرٌ في العلمِ بالعالَمِ، غير أنَّ الـمُدارَسَةَ النَّظريَّةَ تُظْهِرُ أَنَّ التَّسليمَ لِلْخَبَرِ البشريِّ أو الخبرِ العُلْوِيِّ (الوَحْي) مَحَلُّ جَدَلٍ واسعٍ عندما يكون مَحَلُّ البحث قضايا الإيمان بالغيبِ ومُقدِّماتِ ذلك.

المطلب الأول

الاستدلال بالخبر الصادق

يَشْهَدُ الواقِعُ العمليُّ أنَّ جميع النَّاسِ على اتّفاقٍ أَنَّ الخبرَ الصَّادِقَ مَصْدَرٌ للمعرفةِ إذا ثَبَتَ صِدْقُ النَّاقِلِ وانْتَفَتْ عن النَّقْلِ النَّكارَةُ؛ فإنَّ خَبَرَ الصَّادِقين حُجّة كمشاهدةِ العَيْنِ للخَبَرِ، سواء بسواءٍ. ومَنْ نَفَى ـ نظريًّا ـ عن الخبرِ حُجِّيَّتَهُ؛ فقد قضى على المعرفة البشريّة بالفَنَاءِ؛ فإنَّ الجانبَ الأكبرَ من معارفنا مصدرُهُ الخبرُ الصَّادقُ، كما أَنَّ تَطَوُّرَ العِلْم قائِمٌ على تصديق الخبرِ الصَّادقِ في نقلِ التَّجاربِ العلميّةِ السَّابقةِ وحقائق العِلْمِ الثَّابتةِ.

ومن طريفِ هذا البابِ أَنَّ الفيزيائيَّ الملحِدَ (لورنس كراوس) ناظَرَ أَحَدَ الدُّعاةِ المسلمين[1] في بريطانيا. وكان طُوْلَ المناظَرَةِ يَتَبَجَّحُ أَنَّهُ لا يُؤْمِنُ إلَّا

(١) حمزة تزورتسيس Hamza Tzortzis (١٩٨٠ ـ): داعيةٌ مُسلِمٌ شابٌّ من أُصولٍ يونانيّةٍ، مُهْتَدٍ إلى الإسلام من النَّصرانيَّةِ. له مناظراتٌ كثيرةٌ مع رُموزِ الحادِيَّةِ في الغربِ.

بما تُظْهِرُهُ له التَّجربةُ، وأَنَّهُ إذا شَكَّ في أَمْرٍ اخْتَبَرَهُ؛ فلا يَرْهَنُ عَقْلَهُ لِغَيْرِهِ. فقال له الدَّاعيةُ المسلِمُ: هل تُؤْمِنُ بالدَّاروينيّة؟ ـ لِعِلْمِ هذا الدَّاعيةِ أَنَّ (كراوس) وإخوانه يَرَوْنَ رُكْنِيَّةَ الإيمانِ بالدَّاروينيَّةِ لِنُصْرَةِ الإلحادِ ـ فَأَجابَهُ بالإيجابِ، فقالَ الدَّاعيةُ المسلِمُ: هل اخْتَبَرْتَ ذلك بنفسِكَ ـ لِعِلْمِهِ أَنَّ (كراوس) ليس بيولوجيًّا ـ؟!.. فَبُهِتَ (كراوس)، ولم يَدْرِ جَوابًا![1].

والحقيقة هي أنّه باستثناء المعارف الأوّليّة الضروريّة، تبقى جُلُّ المعارفِ الأخرى معارفَ خَبريّةً؛ فهي إمّا خَبَرٌ عن غيرنا ممّن يَزْعُمُ الاطّلاعَ على الأَمْرِ، أو خَبَرٌ عن حواسِّنا. ونحن مع امتحانِ حواسّنا وشهادةِ الآخرين نَسْلُكُ ذات المنهجِ، وهو التأكُّدُ من أهليَّةِ المُخْبِرِ للشَّهادةِ، وصِدْقِهِ، والعوارِضِ التي قد تدفَعُنا للشَكِّ في دَعْواهُ.

المطلب الثاني

هل يُستدلّ بالقرآن للإيمان بالله؟

هل لنا أن نستدلَّ بالقرآنِ في بحثنا عن الدّينِ الحقّ؟ جوابُ ذلك فيه تفصيلٌ ولا يغني عنه الإجمال..

الاستدلال بتقريرات القرآنِ في إثبات التوحيد أو نُبوّة محمَّدٍ ﷺ رأسًا، مُصادرةٌ على المطلوبِ؛ إذ لا يستقيم أَنْ يُحتجَّ بالكتاب لإثبات ربّانيّة الكتابِ.. ولكنَّ ذلك لا يعني مَنْعَ الاستدلال بشهاداتِ القرآن؛ إذ ليس القرآنُ خبرًا معرفيًّا فقط، وإنما هو كتابٌ يُقدِّمُ أيضًا سُبُلَ نَظَرٍ في طلب الحقيقة، وقَبْلَ ذلك منهجًا للتفكير. والاحتجاجُ بالقرآن في ذلك لا يُبْنَى على التسليم للقرآن بالربّانيّة، وإنّما يقوم على معقوليّة التقرير القرآنيّ؛ فهي شهادة استدلالٍ لا شهادة خبرٍ؛ كما في قوله تعالى في امتناع حُدوثِ الشَّيء دون سببٍ مُفارقٍ له: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

---

(١) رابطُ المناظرةِ كاملةً ومُعَرَّبَةً:

<https://www.youtube.com/watch?v=6cbEKmuEwr0>.

ثمّ إنّ معرفةَ حقيقةِ عقيدةِ الإسلامِ عند محاكمةِ تناسقِ التَّصوُّرِ الكونيِّ الإسلاميِّ ورُسوخِ أُصولِه، تقتضي إدراكَ هذه الصُّورة من مصادِرها، والقرآنُ مصدرٌ رئيسٌ لمعرفة حقيقةِ الإسلام؛ ولذلك فاختبارُ صِدْقِ الإسلامِ يقتضي معرفةَ خَبَرِهِ. وهذا ليس مقام استدلالٍ للقرآنِ لإثبات صِحَّتِهِ، وإنّما هو مقامُ بيانِ حقيقةِ الموضوعِ المختَبَرِ؛ إذ الحكمُ على الشّيء فرعٌ عن تَصَوُّرِهِ.

وإذا رأيتَ في ثنائيّةِ «لماذا أنا مسلمٌ؟» استعراضًا لآياتٍ من القرآن، فَخُذْ الأمرَ على ما سبقَ؛ فإنّ من آياتِ القرآن ما يَعْرِضُ مقولاتٍ وُجوديّةٍ في قوالبَ استدلاليّة، أو يَبْسُطُ أُصول منهجِ الاستدلالِ، ومن الآيات ما يشرح حقيقةَ الإسلام.

المبحث الخامس

الموقف الإيماني بين تَعَدُّدِ المداخل وعثرات النَّظَرِ

الخلوصُ إلى الموقف الصَّوابِ في أمرِ الوجود الإلٰهيِّ ليس أثرًا آليًّا لتصديقِ آلاتِ المعرفة؛ إذ إنّ باب العلم بمربوبيّة الكون تَحُفُّهُ مخاطِرُ أُخرى في طريقِ المعرفة، وأَهَمُّها أوهامُ مَنْ ضَيَّقُوا الطريقَ إلى العِلم باللهِ، ومزالِقُ أخرى في ذات الطّريق إلى اللهِ.

المطلب الأول

مسالِكُ إثباتِ صِدْقِ الدِّيْنِ

كثيرًا ما يكون سببُ عثرةِ الباحثين عن الحقِّ في أسئلةِ المبدأ والغايةِ أنّهم يرصُدون مطلوبهم من أَضْيَقِ أبوابِه؛ فإذا لم تَفِ الشَّواهدُ (كَطَلَبِ خارقةٍ ماديّةٍ يَرَوْنَهَا عيَانًا) لإثباتِ صِحَّةِ الإسلام، تركُوا الإيمانَ إلى ما ليس عليه برهانٌ (الإلحاد أو الأديان المحرّفة أو الأيديولوجيّات الباطلة).. والحقّ أنّ النَّظر في أدلّةِ الحقِّ له مسالكُ مختلفةٌ، من أهمّها:

الدليل المباشر: الدليلُ المباشرُ هو الذي يُقدّمُ حُجّةً إيجابيّةً قاطعةً؛ كالاستدلال بخارقةِ القرآن لإثبات النُّبوَّةِ. وهذا طريقُ الجادِّين الذين لا تَهُوْلُهُمُ الشُّبُهاتُ لأنَّ «اليقين عندهم لا يزولُ بِالشَّكِّ».

الدليل التَّراكميُّ: لا يُشترَطُ لإثباتِ أَمْرٍ ما أن يقوم على ذلك دليلٌ مباشِرٌ قاطِعٌ في ذاته، وإنّما يكفي أن تتآلَفَ البراهينُ المختلفةُ التي لا تَصِلُ آحادها إلى مطلب الجزمِ ليَثبت هذا الأمر. وهذا أمر معروفٌ تقوم عليه عامة معارِفنا؛ إذ إنّنا نُوقِنُ بِصِدْقِ كثيرٍ من الأمور لا لأنَّنا شاهَدْناها مُعاينةً، وإنّما

لِكَثْرَةِ القَرَائنِ على صِدْقِها؛ ككثرةِ النَّاقلين لحادثةٍ ما، رغم أنَّ عارِضَ الخطأ قائِمٌ في حقّ كلّ شهادة بمفردها. . . ودلائلُ وجود الله عند كثيرٍ من النَّاس تراكميّةٌ؛ بل الدَّليلُ الواحد قد يقوم على التَّراكُم؛ كالقول بأنَّ نَظْمَ الكَوْنِ دالٌّ على حكيمٍ عليمٍ؛ فهو دليل قائم على تراكم الشَّواهدِ على وجود النَّظْمِ البديع.

قال (ابن تيمية): «وممّا ينبغي أن يُعرف أنّ ما يحصلُ في القلبِ لمجموعِ أمورٍ، قد لا يَستقلُّ بعضها به؛ بل كُلُّ ما يَحصلُ للإنسان مِنْ شبع وَرِيٍّ وسُكْرٍ وفَرَحٍ وغَمٍّ بأمور مُجْتَمِعَةٍ لا يَحصُلُ ببعضها، لكنَّ بعضَها قد يُحصِّلُ بعضَ الأَمْرِ، وكذلك العِلْمُ بخبر الأخبار، وبما جَرَّبَهُ من الـمُجَرَّباتِ، وبما في نفس الإنسان من الأمور؛ فإنَّ الخبر الواحِدَ يُحصِّلُ في القلب نَوْعَ ظَنٍّ، ثم الآخر يُقوّيهِ، إلى أن ينتهيَ إلى العِلم، حتّى يتزايَدَ ويَقْوى؛ وكذلك ما يُجرّبه الإنسانُ من الأُمورِ، وما يراه من أَحْوالِ الشَّخصِ، وكذلك ما يُستَدلُّ به على كَذِبِهِ وصِدْقِهِ»[1].

التفسير الأفضل (Inference to the Best Explanation): الإيمان بالله ـ في الإسلام ـ لا يُقبل شرعًا إلَّا إذا كان التَّصديقُ جازمًا، إلَّا أَنَّ الظَّنَّ الرَّاجِحَ يُجْدِي كسبيلٍ إلى الإيمانِ الجازمِ. وحقيقة ذلك أنّ الإيمان بالله ـ مثلًا ـ وَجْهٌ لتفسيرِ وجود الكَوْنِ وتنظيمِه، وليس على الضفَّةِ الأُخرى غير القَوْلِ بالعشوائيّة. وعند تَضَارُبِ الرُّؤَى التفسيريّة، يُطرح القول الضعيف، ويُلتزَمُ القول الأقوى وإن لم يكن قطعيًّا إذا كانت البدائل قاصِرةً وعاجزةً تفسيريًّا. وهذا الظَّنُّ الغالِبُ يؤولُ في ختام الأمر بالمرء إلى اليقين في وجود الله لأنّه الخيار الوحيد الذي يملك قوّة تفسيريّة تفي بالمطلوب.

والتَّفسيرُ الأفضل هو ما استوفى مجموعَةً من الشُّروط، أهمّها:

١ ـ النِّطاقُ التَّفسيريُّ: يُفسِّرُ أَوْسَعَ مجموعةٍ من البيانات، أَكْثَرَ من الفرضيَّاتِ المنافسةِ.

---

(١) ابن تيمية، شرح الأصبهانيَّة، تحقيق: محمّد السّعوي (الرياض: دار المنهاج، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠١٠م)، ص٥٦١.

٢ ـ القوّةُ التفسيريّة: التَّفسيرُ الأفضلُ يجعل البيانات المدرَكةَ أَرْجَح مَعْرِفيًّا من الفرضيَّاتِ الأخرى.

٣ ـ المعقوليّةُ: التَّفسيرُ الرَّاجِحُ يتلاءَمُ بصورةٍ أَفْضَلَ مع لوازمِ الحقائقِ القائمةِ والمعروفةِ؛ إذ إنّ نُبوءاته هي أَصْدَقُ النُّبُوءاتِ المعقولةِ إذا انْطَلَقْنَا من البياناتِ المحصَّلَة.

٤ ـ افتراضُ المجهولِ: التَّفسيرُ الراجِحُ هو الذي يَلْزَمُ لِصِدْقِهِ افتراضُ أَقَلِّ عددٍ ممكنٍ من الافتراضات (suppositions) غير المدرَكة.

٥ ـ موافقةُ الاعتقاداتِ المقبولة: أفضلُ التَّفسيراتِ هو الذي يتوافق مع أكبر عَدَدٍ من الحقائق المقبولة؛ فلا يلزم منه تعديلٌ أكبرُ أو جوهريٌّ لمجمل ما انتهينا إليه من حقائقَ أو اعتقاداتٍ سابقةٍ.

٦ ـ التفوّقُ العامُّ: أفضلُ التَّفسيراتِ هو الذي يُرضِي بصورةٍ أكبرَ الشُّروط الخَمْسَ السّابقةَ[١].

قياسُ الخُلْفِ (reductio ad absurdum): هذا البرهانُ مفيدٌ في السَّعْي إلى الوصول إلى المطلوب أو إبطال قولِ المخالِفِ في المناظرة. وهو برهانٌ يقوم على إثبات رؤيةٍ أو تفسيرٍ ما بفسادِ الرُّؤية أو التَّفسير المناقِضِ أو المخالِفِ. وهنا يَلْزَمُ لِصِحَّةِ القَوْلِ واحدٌ من أَمْرَيْنِ:

١ ـ التَّناقضُ بين الرُّؤيتَيْنِ لا مجرّد الاختلافِ؛ بمعنى: أنّ الإنسان يجِدُ نفسَهُ بين خيارَيْنِ، إذا فسدَ الواحِدُ لَزِمَ القولُ بصحّة الثاني؛ كَلُزُومِ القولِ بوجودِ إلٰهٍ إذا ثَبَتَ فسادُ القولِ بِنَفْيِ وجودِ اللهِ. وهذا أَقْصَرُ الطُّرقِ.

٢ ـ سَبْرُ جميعِ الرُّؤَى المخالفةِ، ثم إبطالها كُلّها؛ لِيَصِحَّ القولُ الواحِدُ المخالِفُ، ومن ذلك تفسير الضَّبْطِ الدَّقيق لقوانينِ الكونِ بنفي الضَّرورةِ الكونيّةِ لذلك، والعشوائيّةِ المُبْدِعَةِ.

(١) J. P. Moreland, William Lane Craig, *Philosophical Foundations* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2003), p.62.

المطلب الثاني

مُعوِّقاتٌ في الطَّريقِ إلى الجوابِ

العِلْمُ بأهمِّ أدواتِ البحثِ عن معاني الوجودِ الكبرى يجبُ أن يقترنَ دائمًا بالعلم بمعوّقات الوصولِ إلى العلم المطلوبِ في المواضيعِ المخصوصةِ المطروقةِ. وسأكتفي هنا ببعضها، وهي كثيرةٌ:

وَهْمُ العِلْمِ: في ظِلِّ منظومةٍ معرفيّةٍ تحكُمُها آلةُ التَّعليم الرَّدِيء، وثقافةٌ دينيّةٌ شعبيّةٌ نزّاعةٌ إلى التَّبسيطِ في مقاماتٍ مُرَكّبةٍ، والاختزالِ في مسائلَ عميقةٍ، يُصبِحُ وَهْمُ العلمِ ظاهرةً شائعةً؛ فينطلقُ المرءُ في البحثِ عن اللهِ وفي النّبوّة وهو مَسْكُونٌ بوَهْمِ المعرفةِ دون تحقيقِ أُصولها، ثم هو بعد ذلك يُصدِرُ الأحكامَ القاطعةَ قبل إدراكِ حقائقِ الأدلّةِ في المقامات التي لا تستغني عن العلم بالبرهانِ.

لا بُدَّ للباحثِ عن الحقّ أن يعلمَ أَوَّلًا أنّ المعارفَ الشّائعةَ الطَّافيةَ تحتاجُ إلى مراجعةٍ ونَظَرٍ؛ لكثرةِ ما يَغْشاها من قُصورٍ وتخليطٍ. كما عليه أن يَحْذَرَ من خديعةِ الملخَّصات القاصِرةِ، كما هو - مثلًا - في الظَّنِّ أنَّ مذهبَ التطوّرِ البيولوجيِّ يُجيبُ عن سؤالِ النَّشأة الأُولى (أَصل الحياةِ)، رغم أنَّ كُلَّ الدَّارسين يعلمون أنَّ مذهب التطوُّرِ البيولوجيِّ في عُمومِه، والدَّاروينيّ خُصوصًا، لا يتناولُ هذه المسألةَ؛ إذ هي ابتداءً تُسمَّى «بالتطوّرِ الكيميائيِّ» «chemical evolution» على خلاف التطوّر البيولوجيّ..

البحث في الأسئلة الكبرى - ولا شيءَ أكبرُ من الحقائقِ الوجوديّةِ الكبرى - يحتاج جُهْدًا في تَطَلُّبِ الدَّليلِ، وتواضعًا في طلب المعرفة، وصبرًا في تَعَقُّبِ الحقائقِ.

عامَّةُ مَنْ يَطْعَنُ في الإسلامِ والإيمانِ باللهِ مِمَّنْ نَشَؤُوا في أُسَرٍ مُسلمةٍ، يُعانون «وَهْمَ المعرفةِ بالإسلام».. وطريقُ الإنصافِ يستدعيهم أن يدرسُوا الإسلامَ من أُصولِه وكتبِ أَهْلِ التَّخَصُّص من مُحَقِّقِيْهِ، بعيدًا عن الثَّقافةِ الشّعبيّةِ السَّاذجةِ والمشوَّهةِ.. وذاك يقتضي شجاعةً أدبيّةً وصَبْرًا في الطَّلَبِ..

الحُكْمُ قبل التَّفْكِيكِ: كثيرًا ما يقودُ وَهْمُ المعرفة إلى العَجَلَةِ، بإصدارِ أحكامِ الحَسْمِ رغم اقتضاءِ المقامِ التَّرَيُّثَ لمعرفةِ الأسئلةِ الكبرى، ثمَّ تفكيكها إلى إشكالاتٍ أصغرَ واضحةِ المعالِمِ، دون الخضوع لِسِحْرِ التَّبسيطِ الذي يحكُمُ على الأُمورِ بالمشاعِ من القولِ أو بظاهِرِ ما يُبدِيهِ السَّطْحُ. والحكمُ قبلَ النَّظَرِ والتَّفكيكِ يقود دائمًا إلى تقريراتٍ تعميميّةٍ قد تُهمِلُ طبائعَ خاصَّةً للموضوع؛ فلا تُسدَّدُ الخُطَى في طريقِ طَلَبِ الحقِّ. ومن ذلك التزامُ القولِ: إنَّ التَّدَيُّنَ قرينُ التَّخَلُّفِ المعرفيّ عامّةً، والعِلْمِيِّ خاصّةً؛ تأثُّرًا بواقعِ التَّخَلُّفِ العِلْمِيِّ في بلاد المسلمين، دون السُّؤالِ إن كان واقِعُ بلاد المسلمين واقعًا تحت سلطانِ الإسلامِ أم سُلطان العالمانيَّةِ، ودون فَهْمِ صِلَةِ العالمانيَّةِ بالعِلْمِ، وفَهْمِ أَثَرِ قَطْعِ العِلْمِ عن القيمةِ في نهاية مفهوم «الإنسانِ».

إغفالُ التَّضمينات (presuppositions): أُسُّ فسادِ عامَّةِ الاعتراضاتِ الإلحاديّةِ على الإيمان بالله، فسادُ تضميناتها الخَفِيَّةِ التي يقوم عليها الاعتراضُ؛ ولذلك **فالنَّبْشُ في جُذورِ الاعتراضاتِ الإلحاديَّةِ كثيرًا ما يَحْسِمُ أمرَ زَيْفِها قبل تناول المقولة الإلحاديّة بالنَّظَر**؛ إذ إنَّ هذه التَّضميناتِ فاسِدةٌ ضرورةً، وما بُنِيَ على فسادٍ كان فاسدًا؛ ومن ذلك اعتقادُ قُدرةِ العلمِ الماديِّ على تقديمِ أَجْوبةِ المعنى والغايةِ؛ لإسرارِ صاحبِ هذا المذهبِ اعتقادَهُ أَنَّ نجاحَ العِلميّ الطّبيعيّ في عالم البحث الفيزيقيِّ يَلْزَمُ منه نجاحه في البحثِ الميتافيزيقيِّ.

مراجع للتوسُّع:

راجح الكرديّ، نظريّة المعرفة بين القرآن والفلسفة، عمان، الأردن: دار الفرقان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

عبد الله الدّعجاني، منهج ابن تيميّة المعرفيّ، لندن: مركز تكوين، ١٤٣٥هـ.

Noah Lemos, *Common Sense: A Contemporary Defense*, Cambridge University Press, 2010.

Nigel Brush, *The limitations of Scientific Truth: Why science can't answer life's ultimate questions*, Grand Rapids, MI: Kregel Publications, 2005.

J. P. Moreland, *Scientism and Secularism: Learning to Respond to a Dangerous Ideology*, Crossway, 2018.

الفصل الرابع

هل الإلحاد عقيدةٌ عقلانيَّةٌ؟

ـ ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: ٢٣]

ـ «هناك طريقان ليُخدَع المرءُ، أحدُهما: أنْ يؤمن بما ليس حقيقيًّا، والآخر: أن يرفُضَ الإيمانَ بما هو حقيقيٌّ»

الفيلسوف (سورين كيركيغارد)[1]

يقول الملحِدُ: الإلحاد موقِفٌ عقلانيٌّ صارمٌ لا يخضَعُ للعاطفةِ ولا يَلْتَفِتُ للمحبوباتِ والمحاذيرِ، هو موقفٌ ينطلق من العقل وينتهي إلى العقلِ؛ ولذلك يَقْبَلُ الملحِدُ الواقع كما هو، ولا يرضى بالتَّفسير الرَّغْبويّ.. وأمّا الإيمان الدّيني فَتَصْديقٌ أَعْمى وأوهام غرير؛ يعكِسُ المرحلة الطُّفوليّةَ للعقلِ البشريِّ حيث يَقْبَلُ المؤلِّهُ كُلَّ شيءٍ غيبيٍّ دون بُرهانٍ لأنّه أَثَرٌ عن ميلٍ عاطفيٍّ يكتمُ أَنْفاسَ الفِكْرِ ويخمدُ نَبْضَهَ..

الإلحادُ ـ بِزَعْمِ أَعْلامِهِ ـ: خيارٌ شُجاعٌ يَرْكَنُ إلى العَقْلِ وَحْدَهُ؛ فيرفُضُ الإيمانَ بخالقٍ عن وَعْيٍ، ويأبى الإيمانَ بأيِّ شيءٍ دون بُرهانٍ ساطعٍ.. إنّه قناعةٌ راسخةٌ مُبْصِرةٌ تُحِبُّ النُّورَ وتَمْقُتُ الظَّلامَ..

إذا أَبْهَرَتْكَ العِبارةُ السَّابقةُ يومًا، أو سَحَرَتْكَ، فاعْلَمْ أَنَّها شِعارٌ شَفِيفٌ لا يُخْفِي وراءَهُ شيئًا؛ لأنّهُ يفتَقِرُ إلى أَعْظَمِ دَعْوى يَدَّعِيها لنفسِه، وهي قيامُ الإلحادِ بصورةٍ كُليّةٍ على العقلِ. وتفصيلُ هذا القُصورِ في الحديث التالي..

---

(١) سورين كيركيغارد Søren Kierkegaard (١٨١٣ ـ ١٨٥٥م): فيلسوف ولاهوتيّ دانماركي. من أعلام التيّار الوجودي.

المبحث الأول

إيمانويَّةُ المعتَقَدِ الإلحادِيِّ

يُطْلَقُ مصطلحُ «الإيمان» في العُرْفِ الشّعبيّ الغربيّ على الاعتقادِ في صِدْقِ أَمْرٍ دون دليلٍ، أو بعبارة (داوكنز) هو: «تصديقٌ أَعْمى، في غيابِ الدَّليلِ، أو حتّى على خِلافِ الدَّليلِ»[1].. هو اعتقادٌ بلا بصيرةٍ ولا وسيلةٍ لإثباتِ ما يُزْعَمُ وجودُه؛ فالفَجْوةُ عميقةٌ بين الاعتقادِ وصِحَّةِ مَضْمُونِه.

حقيقةُ الحال هي أنَّ مقابِلَ الإيمانِ عَدَمُ الإيمانِ؛ أي: الكُفْرُ، وليس الإيمانَ المدلَّلَ؛ فالثُّنائيَّةُ الإلحاديّةُ السَّابقةُ باطِلةٌ. الثُّنائيّةُ التَّضاديّةُ هنا هي الإيمان بما يُخالِفُ الحقَّ، والإيمانُ بما يُطابِقُهُ. وهنا يكون الجَدَلُ.

والسُّؤال الأَهَمُّ الذي يستدعي جوابًا في مقامِ دعوى العقلانيّة الكليّة للإلحادِ: هل يبدأُ الإنسانُ الملحِدُ تفكيرَهُ من الصِّفْرِ المعرفيّ، لِيُقِيمَ بعد ذلك منظومةً معرفيّةً إلحاديّةً كاملةً مُبَرْهَنَةً؟

وجوابُ ذلك لائِحٌ؛ وهو أنَّ الإلحادَ شارِقٌ بالإيمانويَّةِ؛ بل قُلْ: إنَّ عقلانيّةَ الإلحادِ في ذاتها مسأَلَةٌ إيمانويّةٌ، أو كما قال الفيلسوفُ (ج. بدزِزوسكي)[2]: «شِعارُ «العَقْلِ وَحْدَهُ!» لا معنًى له على كُلِّ حالٍ. العَقْلُ نفسُه يفترِضُ الإيمانَ سَلَفًا. كيف ذلك؟ لأنَّ الدِّفاعَ عن العَقْلِ بالعَقْلِ واقِعٌ في الدَّور[3]، ولذلك لا قيمةَ له»[4].

---

(١) Richard Dawkins, *The selfish Gene* (Oxford: Oxford University Press, 1989), p.198.

(٢) ج. بدزِزوسكي J. Budziszewski (١٩٥٢ـ): أستاذ الفلسفة في جامعة تكساس.

(٣) الدَّور: تَوَقُّفُ الشَّيْءِ على ما يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ.

(٤) J. Budziszewski, *Written on the Heart: The case for natural law* (Downers Grove: InterVarsity, 1997), p.54.

ثم إنّ من معارضات دعوى العقلانيّةِ الكليّةِ للإلحادِ اقتضاءُ العقلانيّةِ الكليّةِ المحالَ؛ إذ يَلْزَمُ من قولِ الملحدِ: إنّه يملِكُ بُرهانًا على صِحَّةِ كُلِّ ما يعتقده أنّ له بُرهانًا يَعْضُدُ كُلَّ بُرهانٍ؛ فهو يؤمن بالأَمْرِ (أ) لأنّه مَدْعُومٌ بالأمر (ب)، ويُؤمِنُ بِصِحَّةِ (ب) لأنَّه مُدلَّلٌ عليه بصحّة (ت)، ويُؤمِنُ بِصَوابِ (ت) لِصَوابِ (ث) الذي يُؤكِّدُ أنّه حقٌّ.. وهكذا إلى ما لا نهاية، وهو باطِلٌ لأنّه يقتضي التَّسَلْسُلَ إلى ما لا نهايةٍ.. وقد قِيلَ: إنّ الإنسان لو سُئِلَ (لماذا؟) عن كُلِّ شيءٍ يَدَّعِيهِ، ثماني مَرَّاتٍ مُتتالياتٍ؛ فسيجد نفسَهُ في التَّاسعةِ عاجِزًا عن البَرْهَنَةِ على السَّبَبِ.

ومذهبُ «البُرهانيّةِ» «evidentialism» في صورته الحادَّةِ التي تطلب بُرهانًا لكلّ دعوى لا بُدَّ أن ينتهيَ إلى الشَّكِّ في نفسِه؛ لأنّه يحتاجُ إلى برهانٍ لا ينتهي تَسَلْسُلُهُ. وهو بذلك يَنْتَحِرُ فِكْريًّا بذاتِ مَبْدَئِهِ.

إنَّ العَقْلَ الإنسانيَّ يَجْزِمُ ـ إذنْ ـ أنّه لا سبيل ـ منطقيًّا ـ لإقامة سلسلةٍ لا تتناهى من المقدّمات البرهانيّة لكلّ دعوى، وهو أَمْرٌ يُقرّهُ فلاسفةُ الإبستيمولوجيا من الملاحدةِ، فلا يخلو تفكيرُ أيِّ إنسانٍ من مُسلَّماتٍ ضرورةً؛ فإنّ فكرًا لا ينتهي إلى قاعدةٍ أُولى لابرهانيّةٍ، لا بُدّ أن ينتهيَ إلى أنّه «فِكْرٌ خالِصٌ» مقطوعُ الصَّلَةِ بالواقع لأنّه لا يمتلك قاعدةً تَدَّعي الواقعيّةَ، وهو مذهبُ الفلسفة الاتّساقِيَّةِ/ التَّنَاسُقِيَّةِ (Coherentism).

حقيقةُ الحالِ تَكْشِفُ أنَّ الملحِدَ يُقيم تفكيرَهُ كما المؤمن على مُقدِّماتٍ تَسْلِيميَّةٍ، أو ما يُعرف بـ«properly basic beliefs»، وهي الاعتقاداتُ التي لا تَسْتَنِدُ على بُرهانٍ، وإنّما هي الأُصولُ التي تقوم عليها المعرفة، مثل تصديقنا لِعُقولنا، وتصديقِ المبادئ الرّياضيّةِ، ولولا ذلك لما ادَّعَى الملحِدُ القُدرةَ على فَهْمِ الواقِعِ ووَصْفِهِ، وإنكارِ الخالِقِ.

ولا يمكن لعالِم الطّبيعةِ أنْ يتعامَلَ مع الوجودِ الماديِّ قبل أن يَفْرشَ أَرْضِيَّةً تَصَوُّرِيَّةً كونيّةً لَا يَدَ لِلعِلْمِ فيها؛ ومنها وجودُ نظامٍ قابلٍ لِلفَهْمِ والرَّصْدِ وأنْ تُبْنَى عليها مملكةُ العِلْمِ الواسعةُ؛ ولذلك قال عالِم الفيزياء النظريّة ـ

اللَّاأَدْرِيّ ـ (بول ديفيس)[1]: «. . . حتّى أَشَدُّ العلماءِ إلحادًا يَقْبَلُ إيمانيًّا وجودَ قانونٍ للنّظامِ في الطّبيعة مفهوم عندنا ولو جُزئيًّا. ولذلك **فلا يمكن للعِلْمِ أَنْ يَتَقَدَّمَ إلَّا إذا تَبَنَّى العلماءُ أساسًا نظرةً كونيَّةً لاهوتيَّةً**»[2].

وقد كشفَ فيلسوفُ العلوم (توماس كون)[3] في كتابه «الثَّوريِّ» "The Structure of Scientific Revolutions" جانبَ الخِداعِ في دعوى حياديَّةِ الفَهْمِ العلميّ للعالَم؛ ببيانِهِ أَنَّهُ لا يوجَدُ عالِمٌ يَدْرُسُ الطَّبيعةَ ناظِرًا في أشيائها إلَّا وقد حَمَلَ في ذِهْنِه قبلَ هذه النَّظَراتِ نظراتٍ كونيّةً أُخرى، ورُؤًى في الحقيقةِ والمعرفةِ والقِيَمِ سالفةً شَكَّلَتْ نَظْرَتَهُ الكونيّةَ والعلميَّةَ السَّابقةَ؛ فلا توجد ـ بعبارة (توماس ناجل) ـ «رُؤيةٌ مِنْ لامكان» «view from nowhere»[4]؛ فـ«كُلُّ ما يراه الإنسانُ مرتبِطٌ بما يَنْظُرُ إليه، وما عَلَّمَتْهُ تجربَتُهُ البصريَّةُ السَّابقة أَنْ يراهُ»[5].

والعقيدةُ الإلحاديّةُ ـ عَيْنًا ـ تقومُ على مُسلَّماتٍ تصديقيّةٍ كثيرةٍ تسيرُ ضدَّ البرهانِ، فضلًا عن تلك التي ليس عليها بُرهانٌ؛ ومنها:

- الكَوْنُ أَزَلِيٌّ أو أنّه حَدَثَ بلا مُحْدِثٍ.
- المعلومةُ (information) تَنْشَأُ من الفَوْضى.
- النِّظامُ المُبْهِرُ نَشَأَ من العشوائيَّةِ العمياء.
- الوَعْيُ نَشَأَ من اللَّاوَعْيِ (من مُجَرَّدِ تفاعلِ كيميائيّاتِ الدِّماغِ).
- الأَخْلاقُ المدنيّةُ نَشَأَتْ من طبائِعِ الغابيَّةِ الحيوانيَّةِ.
- الحياةُ نَشَأَتْ من اللَّاحياةِ ـ وهي المسألةُ التي وَصَفَها (هبرت

---

(١) بول ديفيس Paul Davies (١٩٤٦ـ): فيزيائي إنجليزيّ شهير، لاأدري. درّس في عدد من كبرى الجامعات الغربية. من أبرز الشخصيات الفكرية في الغرب كتابةً في علاقة العلم والإيمان.

(٢) Paul Davies, 'The Appearance of Design in Physics and Cosmology' in *God and Design: The Teleological Argument and Modern Science*, ed. Neal A. Manson (New York: Routledge, 2003), p.148.

(٣) توماس كون Thomas Kuhn (١٩٢٢ ـ ١٩٩٦م): أمريكيّ. أحد أعلام فلسفة العلوم في القرن العشرين. عمل رئيسًا لـ«مؤسسة تاريخ العلوم». عُرف بسكّ مصطلح «تحوّل النموذج الفكري» في بيان تطوّر فهم العلوم للعالم.

(٤) Thomas Nagel, *The View From Nowhere* (New York: Oxford University Press, 1986).

(٥) Thomas Kuhn, *The Structure of Scientific Revolutions* (University of Chicago Press, 1970), p.113.

يوكي)[1] أنّها «مُجرَّدُ مَسْأَلةٍ إيمانويّةٍ بالمعنى الضَّيِّقِ للإيمانِ، تَسْتَنِدُ كُلِّيًّا على الأيديولوجيا» ـ[2].

وعندما يزدادُ الخِناقُ ضِيقًا على العقلِ الإلحاديِّ عند مواجهتِه بأدلّةِ الإيمانِ، تَتَعاظَمُ قائمةُ العقائدِ الإيمانيّةِ التي لا يَدْعَمُها برهانٌ أو المعارِضَةِ للبرهانِ؛ كالقولِ بالأكْوانِ المتعدّدة التي لم يَرَها أَحَدٌ، ولا سبيل البتّة لإدراكِ وُجودِها، والزَّعمُ أنَّ الوَعْيَ وَهْمٌ (Epiphenomenalism)، وأنّه بالإمكان إدراكُ وَهْميّة حُريّة الإرادة في كونٍ جَبْرِيٍّ...

والملاحدةُ يُحبّون الاعتزاءَ إلى العلمِ والتَّدَثُّرَ بكشُوفِه لبيانِ أنّهم ينتهون إلى ما انتهى إليه العلمُ الطّبيعيُّ، غير أنّ العلمَ لا يَنْصُرهُمْ في شيءٍ؛ إذ ليس في العلمِ كَشْفٌ واحِدٌ يَنْصُرُ دَعْوى أَلَّا إلٰهَ، وهو ما فَضَحَهُ عالِمُ الرياضيات والبيولوجيا الفيلسوفُ **اللاأدري** (دافيد برلنسكي)[3] في غلافِ كتابِه الخارجيِّ «وَهْمُ الشَّيطانِ: الإلحادُ ودَعَاويهِ العِلْميّةِ» (٢٠٠٩م)، مُلَخِّصًا خاتمةَ رِحْلَةِ فُتوحاتِ العِلمِ:

«هَلْ قَدَّمَ أيُّ شخصٍ دليلًا على عَدَمِ وجود اللهِ؟ لا، ولا قريبًا من ذلك.

هل شَرَحَ علمُ كوسمولوجيا الكَمِّ ظُهورَ الكونِ أو لماذا هو هنا؟ لا، ولا قريبًا من ذلك.

هل أَوْضَحَتْ عُلُومُنا لماذا يبدو الكونُ لدينا مضبوطًا بدقّةٍ لِتُوجَدَ الحياةُ؟ لا، ولا قريبًا من ذلك.

هل يريد الفيزيائيُّون والبيولوجيُّون أن يؤمنوا بأيّ شيءٍ ما دام أنّه ليس فكْرًا دينيًّا؟ الأَمْرُ قريبٌ من ذلك.

---

(١) هبرت يوكي Hubert Yockey (١٩١٦ ـ ٢٠١٦م): فيزيائيٌّ وعالم معلوماتٍ أمريكيٌّ. اهتمَّ بربط نظريّة المعلوماتِ بالبيولوجيا.

(٢) Hubert Yockey, *Information Theory and Molecular Biology* (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), p. 284.

(٣) دافيد برلنسكي David Berlinski (١٩٤٢م): مفكّر أمريكي معروف، من أصل ألماني. درّس في عدد من جامعات أمريكا والنمسا وفرنسا.

هل قدَّمَتْ لنا العقلانيَّةُ والفِكْرُ الأخلاقيُّ فهمًا لما هو جيّدٌ، وما هو حقٌّ، وما هو أخلاقيٌّ؟ الواقع ليس قريبًا من ذلك بما فيه الكفاية.

هل كانت العالمانيَّةُ في القرن العشرين المروِّع مصدرَ خيرٍ؟ الأمر ليس قريبًا من أن يكون قريبًا من ذلك.

هل هناك عقيدةٌ قويمةٌ رسميّةٌ ضيّقةٌ وقمعيّةٌ في العلوم؟ الأمر قريبٌ من ذلك.

هل يُبَرِّرُ أيُّ شيءٍ في العلومِ أو فلسفتها الادِّعاء بأن المعتقدَ الدّينيَّ غيرُ مَنْطِقيٍّ؟ ليس الأمر في حُدود المقبولِ.

هل الإلحادُ العلميُّ ممارسةٌ تافهةٌ في ازدراء الفِكْرِ؟ الأَمْرُ كذلك لا ريبَ».

ذاك هو البَرْزَخُ الذي لا يزال يفصِلُ الإيمانويّةَ الإلحاديَّةَ بروحها الرغبويّةِ المهتاجةِ عن شواهد الكَوْنِ على حقيقة الوجودِ..

ولا يزالُ التَّفكيرُ الرَّغْبويُّ يصنَعُ وجهةَ الإلحادِ الجديدِ ونُقودَهُ وقراءَتَهُ التَّكوينيَّة للوجودِ وصيرورةِ الحياةِ حتى لحظتنا؛ حتى الْتَجَأَ (داوكنز) إلى نَفْخِ الرُّوْحِ في احتماليّة نشوءِ الحياةِ على الأرضِ بفعل كائناتٍ فضائيّةٍ متطوّرةٍ، رغم أنّ فكرةَ الكائناتِ الفضائيّةِ التي تزور أَرْضَنَا أَقْرَب إلى أحلامِ الأطفالِ منها إلى الفروضِ العلميّةِ، لكنَّها عند (داوكنز) محرابٌ يلتجِئُ إليه إذا عُدِمَ الدَّليلُ وكان البديلُ هو الإيمان بالله، في إيمانويّة يَحْسُدُهُ عليها المُؤَلِّهَة...

بل لمّا سُئِلَ (داوكنز) عن السِّلسلةِ التطوّريةِ لِرِيْشِ الطُّيُورِ ـ وهو شيءٌ مُعَقَّدٌ جِدًّا، وغيرُ قابلٍ للتَّبسيطِ ـ، أَجابَ: «لا بُدَّ أَنَّ هناك سِلسلةً من التطوّراتِ للوصول إلى الرِّيشِ. إذا لم يمكنك أن تتصوَّرَ طريقًا لذلك؛ فتلك مشكلتك وليست مشكلة الانتخاب الطبيعيّ»[١]. وهذه مغالطةٌ بيّنةٌ لأنّ الحجَّةَ على المدَّعِي، والخيالُ لا يُسْعِفُ دون بُرهانٍ. وقد تدارك (داوكنز) نفسه في

---

(١) عنوان الفيديو على اليوتوب: Dawkins on Irreducible Complexity:

<https://www.youtube.com/watch?v=WG0RCVB629Y&feature=youtu.be>

الجملة نفسها بعد أنْ اكتشفَ وُضوحَ مُغالَطتِه، فأضافَ بصراحةٍ يُحمَدُ عليها: «تلك مسألةٌ إيمانويّةٌ مِنّي»[1]. وهو بذلك يَدْحَضُ قولَهُ: إنّ «الإيمانَ العِلميَّ يقومُ على براهينَ قابلةٍ للاختبارِ مُتاحةٍ للجميع، في حين لا يفتقد الإيمانُ الدّينيُّ البرهانَ وَحْدَه، وإنّما استقلالهُ عن البرهانِ مَصْدر ابتهاجِه»[2].

وهذه ظاهرةٌ يَسْهُلُ كَشْفُها عند محاورةِ أعلامِ الملاحدةِ، وليست من سَقَطات (داوكنز)؛ فهذا الملحِدُ الشَّرِسُ (لويس ولبرت)[3] ـ المعروف بعنادِه الطُّفوليِّ في مناظَراته ـ يقولُ في حديثِه عن أصلِ الحياةِ من ناحية علميّةٍ: «كيف نشأت الخليَّةُ، ذاك أمْرٌ... wow! إنّه أمرٌ يَذْهَبُ بالعقلِ. إنّه أمْرٌ **مُعْجِزٌ حقيقةً ـ تقريبًا بالمعنى الدّينيّ**». ولمّا سُئِلَ كيف يجمعُ بين تصويرِ الأمر أنّه معجزةٌ مع إيمانِه بالتّفسير الدّاروينيّ، أجابَ: «**لا يوجَدُ في الحقيقةِ طريقٌ آخر، وإلّا فعليك أن تذهبَ إلى تفسير الأمرِ بوجود الله!**»[4].

والطَّابَعُ الإيمانويُّ الإلحاديُّ خَصْمٌ للبحثِ العلميِّ الجادِّ والهادئ؛ إذ هو يُسارِعُ إلى صبغ النَّتائج بصبغَتِه الماديّةِ قبل الوفاء للبحث بِحَظِّهِ من النَّظَرِ، خاصَّةً في المباحثِ التي يتنازَعُها التفسيران العشوائيُّ والحكيمُ؛ ولذلك صَرَخَ الفيزيائيُّ الحائز على **نوبل** (روبرت لاغلن)[5] قائلًا: «كثيرٌ من معارفنا البيولوجيّةِ اليومَ أيديولوجيا. ومن علامات التَّفكيرِ الأيديولوجيّ التفسيرُ الذي ليست له لوازِمُ، ولا يمكن اختباره. وأنا أُسمّي تلك المآزِقَ المنطقيَّةَ: «ضِدَّ النَّظريَّاتِ»؛ لأنّها تَحْمِلُ بالضَّبطِ الأثَرَ العَكْسِيَّ للنَّظريَّات الحقيقيّة: إنّها تُجَمِّدُ التَّفكيرَ بَدَلَ استِفْزازِه. التَّطوُّر عبر الانتخاب الطّبيعيّ ـ مثلًا ـ، والذي ذهبَ داروين إلى أنّه نظريّةٌ عظيمةٌ، تَبَيَّنَ مُؤَخَّرًا أَنَّهُ يَعْمَلُ «ضِدَّ النَّظريَّة» بأن يَتِمَّ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) *Daily Telegraph Science Extra*, Sept 11, 1989 (Cited in: John C. Lennox, *God's Undertaker: Has Science Buried God?*, Oxford: Lion Hudson, 2007, p.15)

(٣) لويس ولبرت Lewis Wolpert (١٩٢٩م): بيولوجيّ بريطانيّ من مواليد جنوب إفريقيا. له عناية بتبسيط العلوم.

(٤) Wolpert, 'The Hard Cell', *Third Way*, March 2007, p.18.

(٥) روبرت لاغلن Robert Laughlin (١٩٥٠ـ): أستاذ الفيزياء في جامعة «ستانفورد».

استعمالُه للتَّغْطِيةِ على نقائصِ الاختبارات المحرجة، وتسويغ النَّتائج التي هي في أفضل الأحوالِ مَحَلُّ رِيْبَةٍ وفي أَسْوَئِهَا لا تبلُغ أن تكون حتّى خَطَأً»[١].

إنّ الإيمان الإلحاديّ عند الفحصِ والتَّفكيكِ، شَرٌّ من الإيمان العجائزيّ الأعمى الذي يَنْعاهُ الملاحدةُ على المُؤَلِّهَة، فهو في حقيقتِه ـ كما يقولُ عالم الجينات الملحِدُ (ريتشارد ليونتن)[٢] في مقالِهِ النَّقْديّ لأَحَدِ كُتبِ الملحِدِ الشَّهيرِ (كارل ساجان) ـ يقومُ على تصوُّراتٍ تُخالِفُ البَدَاهةَ بما هو ظاهِرُ الفَسَادِ علميًّا. ويَفْضَحُ (ليونتن) أَصْلَ الدَّاءِ بقولِه: إنّنا «نَحْمِلُ التزامًا مبدئيًّا، التزامًا بالخضوعِ للماديَّةِ. ليست مناهجُ العِلْمِ ولا مؤسَّساتُه هي التي تُلزمنا بصورةٍ ما بقَبُولِ تفسيرٍ ماديٍّ لهذا العالَمِ المذْهِلِ، وإنّما على العكس من ذلك، نحن مُلْزمُون سَلفًا بولائنا للأسبابِ الماديَّةِ لِخَلْقِ هامشٍ للبحث ومجموعةٍ من المفاهيمِ التي تُنْتِجُ تفسيراتٍ ماديَّةً، **مهما خالَفَ ذلك البَدَاهَةَ**»[٣].

والإيمان الأعمى للإلحادِ يقودُ ضرورةً إلى اتّخاذِ العُنْفِ اللَّفْظِيِّ جُنَّةً يُتَّقى بهِ ويُقاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ، وإرهاب المخالِفين بصكوك الحِرْمانِ ولَعَناتِ الهرطقة، كما كان الحالُ مع (توماس ناجل) بعد كتابه عن الدَّاروينيّةِ وعُقْمِ رَحِمِها التَّفسيريّ، وفساد الأَرْضِيَّةِ الماديَّةِ لتفسيرِ المجالِ الأحيائيِّ وتعقيدِهِ المُبْهِرِ، خاصّةً ظاهرة الوَعْي[٤]، فقد رُمِيَ «بالهرطقة» رغم أنّه ما يزال مخلِصًا لإلحادِه[٥]! ووُضِعَتْ صورتُه على غلافِ مجلّةِ «The Weekly Standard»، وهو

---

(١) Robert Laughlin, *A Different Universe: Reinventing Physics from the Bottom Down* (New York, Basic Books, 2005), pp. 168 -69.

(٢) ريتشارد ليونتن Richard Lewontin (١٩٢٩م): بيولوجيٌّ وعالم رياضيات أمريكيٌّ. له عناية خاصّةٌ بأبحاث التطوّر الجزيئيّ.

(٣) Richard C. Lewontin, ((Billions and Billions of Demons,)) in *The New York Review of Books, January 9, 1997, p. 28.*
<http://www.nybooks.com/articles/1997/01/09/billions-and-billions-of-demons/>

(٤) Thomas Nagel, *Mind and Cosmos: Why the materialist neo-darwinian conception of nature is almost certainly false* (New York: Oxford University Press, 2012).

(٥) Joseph Brean, "What has gotten into Thomas Nagel?: Leading atheist branded a 'heretic' for daring to question Darwinism", *National Post*, 23 March 2013.
<http://life.nationalpost.com/2013/03/23/what-has-gotten-into-thomas-nagel-leading-atheist-branded-a-heretic-for-daring-to-question-darwinism/

مكتوفُ اليدَيْنِ وَتَحْتَهُ نارٌ، ومَنْ حَوْلَهُ يُوقِدُونها، وبجانِبِه كلمةُ «المهرطق». كما شَبَّهَ (داوكنز) فيلسوفَ العلوم **الملحد** (مايكل روس) بإحدى الشَّخصيَّات البريطانيّة التي عُرِفَتْ بِتَنَازُلِها أَمامَ (هتلر) والنازيّة؛ لأَنَّهُ لم يَرْضَ لاعِلْمِيَّةَ مقولاتِ تيَّارِ الإلحادِ الجديدِ وعاطفيَّتَهُ غير المُنْضَبِطَةِ، وانْحازَ إلى القائلين بتهافُتِ طَرْحِهِ(١).

لقد صَنَعَ الملاحِدةُ لأرثوذكسيّات كَنِيْسَتِهِمْ حِمًى دونَهُ الاغتيالُ المعنويُّ؛ لأنّ إيمانيّاتهم العمياءَ مَصْدَرُ ابتهاجِهِمْ.



(١) Michael Ruse, Why Richard Dawkins' humanists remind me of a religion.
<https://www.theguardian.com/commentisfree/belief/2012/oct/02/richard-dawkins-humanists-religion-atheists>.

المبحث الثاني

لابُرهانيَّةُ المعتَقَدِ الإلحاديِّ

تَكرَّرَ في الأدبيَّاتِ الإلحاديّةِ الاعترافُ أنّه لا سبيلَ لإثباتِ عَدَمِ وجودِ اللهِ؛ لامتناعِ نَفْيِ وُجود ما لا نُدْرِكُهُ بالحِسِّ، لكنَّ الملاحدةَ مع ذلك يُكثرون من عَرْضِ دعاوى تَزْعُمُ عَدَمَ وجودِ إلٰهٍ! والعجيبُ أنّه بفحصِ هذه الاعتراضاتِ لا تكاد تجد فيها حُجّةً واحدةً لإنكار وجود اللهِ.

فالشُّبهة الأَشْهَرُ لإنكار وجود اللهِ عند فلاسفةِ الإلحادِ في الغَرْبِ، أَقْصِدُ مُشكلةَ الشَّرِّ، تزعُمُ امتناعَ الجَمْعِ بين كمال علمِ الله وقدرته وخيريَّتِهِ من جهةٍ، ووجود الشَّرِّ في العالَمِ من جهة أخرى. وهو اعتراضٌ متوجِّهٌ إلى صفاتِ اللهِ لا وُجودِه، ولذلك يقول الفيلسوفُ الملحد (ج. ماكي)[1] ـ الذي يُعَدُّ أَشْرَسَ الملاحدة استدلالًا بمشكلة الشرِّ انتصارًا للإلحادِ ـ: إنَّ مُشكلةَ وُجودِ الشَّرِّ هي «**مشكلةٌ فقط لمن يؤمِنُ أنّ هناك إلٰهًا قديرًا كامِلَ الخيريّةِ**. وهي مشكلةٌ منطقيّةٌ تتمثّل في توضيح عَدَدٍ من الاعتقاداتِ والتوفيق بينها.... إذا كنتَ مُسْتَعِدًّا للقولِ: إنّ الله غيرُ كاملِ الخيريَّةِ، وليس تامَّ القُدْرَةِ... **فعندها لَنْ تواجِهَكَ مُشْكلةُ الشَّرِّ**»[2]..

ومما يَعْتَرِضُ به الملاحدة على الإيمان أَثَرُ الدِّين في إفسادِ حياة البَشَرِ وإثارة نَقْعِ الحروب. وذاك أَمرٌ لا تَعَلُّقَ له بوجود الله، وإنَّما هو مرتبِطٌ بحقيقةِ الوَحْيِ؛ أَيْ: صِحَّةِ الدِّيانات التي تَزْعُمُ أَنَّها تُبلّغُ عنِ اللهِ. والأَمْرُ بالمِثْلِ في

---

(١) جون لزلي ماكي John Leslie Mackie (١٩١٧ ـ ١٩٨١م): فيلسوفٌ أستراليٌّ له عنايةٌ خاصّةٌ بفلسفة الدّينِ، وفلسفة الأخلاق.

(٢) J. L. Mackie, 'Evil and Omnipotence,' *Mind* ,64 no. 254 (1955): 200, 201.

الحديث عن خرافاتِ الأديانِ وأساطيرها.. هي شُبهاتٌ حول الأديان لا الوجودِ الإلٰهيِّ نفسِه، والوجودُ الإلٰهيُّ في مَنْأًى عن هذه الشُّبهاتِ لأنّ **الأديان وسائِطُ للتَّعريفِ بالإلٰهِ، وليست هي حقيقة وجود الإلٰهِ.**

وإذا أراد الملاحدةُ تقديمَ أَوْسَعِ برهانٍ على نفي وجود الله، قالوا: لا يوجد بُرهانٌ على وجود الله، وذاك بُرهانُ أَلَّا إلٰهَ. وهو اعتراضٌ لا ينفي الوجود الموضوعيَّ لله خارج وَعْيِنا، وإنَّما ينفي قيامَ الأَدِلَّةِ في وَعْيِنا على وجود الله. فالاعتراضُ ينفي العلمَ بوجود الله ولا ينفي حقيقة وجودِ الله. وهذا غيرُ ذاك. ومعلومٌ أنَّ عدم العلم ليس علمًا بالعَدَم؛ فعدمُ عِلْمي بوجودِ زَهْرةٍ في غابات الأمازون تَضُوعُ عِطرًا مُشابهًا لرائحة عِطْر (Chanel N°5) لا ينفي ضرورةً وجودَ هذه الزَّهْرةِ بهذه الرَّائحة في غاباتِ الأمازون. وعَدَمُ عِلْمِي بوجودِ فَرَاشةٍ شَفَّافةٍ في الغابةِ السَّوْداءِ في ألمانيا لا يعني عَدَمَ وُجودَ هذه الفَرَاشةِ.

إنّ الإلحادَ في الحقيقة أعظمُ العقائد الإيمانيّةِ دوغمائيّةً؛ لأنّه يقوم على حُكْم سَلْبيٍّ كَوْنيٍّ ـ على حَدِّ تعبيرِ (ج. ك. شسترتون)[1] ـ، فإنَّ الدُّوغمائيَّات الأُخرى تقوم غالبًا على الإيمانِ بوجود شيءٍ، وأمّا الإلحادُ فيقوم على نفي شيءٍ بصورة كليّةٍ في هذا الوجود. والنَّفْيُ الكليُّ لأمرٍ ما في هذا الوجود دون بُرهانٍ، دوغمائيّةٌ متطرّفةٌ[2].

---

(١) ج. ك. شسترتون G.K Chesterton (١٨٧٤ ـ ١٩٣٦م): فيلسوفٌ وواعِظٌ إنجليزيٌّ شهيرٌ. اشتُهِرَ بكتاباته الدّفاعية عن الإيمان بالله والنّصرانيّة.

(٢) Gilbert Keith Chesterton, *Varied Types* (New York: Dodd, 1908), p.86.

المبحث الثالث

هَذْرِيَّةُ المعتَقَدِ الإلحادِيِّ

لم يَمْنَعْ عُقْمُ الإلحادِ دُعاتَهُ من أنْ يُؤَسِّسُوا رُؤًى كونيَّةً تُحاوِلُ إقامةَ قِيَمٍ إيجابيّةٍ؛ كالحديث عن قيمةِ الحريّةِ عند (سارتر)، والعَدْلِ عند (ماركس)، والخير عند (هتشنز)، والرَّفاهية الإنسانيِّة عند (هاريس). . ولكنَّ الإلحادَ في حقيقتِه لا يُهَيِّءُ لهذه القيم قواعدَ وجوديّة؛ إذ ليس في أرضِ الإلحادِ غير الجَدْبِ القِيَمِيِّ. ولذلك فالإلحادُ ـ على الحقيقة ـ يَسْرِقُ من قِيَمِ الدِّينِ في بيئتِه لِيُقيمَ عليها دَعْوَتَهُ؛ إذ إنَّ كلَّ الدَّعاوى الإيجابيّة للإلحادِ تقومُ على مُقدّمتَيْنِ أساسيَّتَيْنِ، وهما أنَّ للحياة معنًى أصيلًا ـ بصورة ما ـ، وأنَّ الإنسانَ كائنٌ شريفٌ له قيمتُه في هذا الكون، وهما ادِّعاءان يُنافِران العَدَمِيَّةَ الصميميّة للإلحادِ.

إنّ الإلحادَ عَدَمِيٌّ ضرورةً لأنه لا يعترف بغير المادَّةِ والطَّاقةِ والحركةِ، وليس من بين ذاك قِيمةٌ كونيّةٌ ذاتيّةٌ؛ ولذلك فالدَّعوةُ إلى أن تكون الحياةُ والإنسان مصدرًا لِقِيْمةٍ أو مَحَلَّ إكبارٍ، نشازٌ في كونٍ بلا قَلْبٍ. . وفي عالم الأشياء المحضة، لا معنى لغير أَبْعادِ الطُّوْلِ والعَرْضِ والعُمْقِ وفيزياءِ الحركَةِ. . كُلُّ شيءٍ يُقاسُ بأبعادِه الماديَّةِ الصُّلْبةِ وتَحَرُّكِهِ المجاليِّ الصَّامِتِ.

وقد فَضَحَ (نيتشه) ـ خَصْمُ الأديانِ الأكبرُ في القرونِ السَّالفة ـ الملاحدة الذين يُكبرون العَطْفَ والخير والإحسان إلى الضعيف، فَهُمْ ـ عندَهُ ـ ملاحدةٌ بِدَخائِلَ دينيَّةٍ (نصرانيّة)؛ إذ لم يَتَمَكَّنُوا من تجاوزِ القِيَمِ الدّينيّةِ إلى النَّظْرَةِ الماديَّةِ العَدَمِيَّةِ الصَّادِقةِ. والظَّريفُ هنا أنّ (نيتشه) نفسُه وَقَعَ في ما حَذَّرَ منه؛ إذ إنّه انتهى إلى الدَّعوةِ إلى معاني القُوَّةِ والعَظَمَةِ والمجد وتَحَدِّي الكَوْنِ؛ لِصناعةِ «السُّوبرمان»، ولكن لا معنى للـ«سوبرمان» في كون لا معنى فيه

للشجاعة والمجد؛ إذ الحياةُ ترابٌ إلى ترابٍ، ولُحُودٌ تَسْتَقْبِلُ ما رمّ ومُهُودٌ تَحْتَضِنُ ما اسْتَهَلَّ، ولا شيء بينهما غير الحركة التَّائهةِ بلا قِبْلةٍ، وقُبْلَةُ الموتِ تُنْهي كُلَّ شيءٍ.. عالَمُ الإنسانِ كعالَمِ الذُّبابِ، ليس فيهما غيرُ السَّيْرِ في اتّجاهِ الفَنَاءِ..!

إنّ الملحِدَ المهتمَّ بالفعل وقيمتِه هو ـ داخِل منظومَتِهِ التَّصوُّرِيَّةِ ـ كائنٌ طُفَيْلِيٌّ أخلاقيًّا؛ إذ يعيشُ على الأخلاقِ المقتَرَضَةِ من الأديانِ[1]، ويُجرِي أفعالَهُ على السَّجِيَّةِ الخَيِّرَةِ التي خَلَقَهُ اللهُ عليها، غير أَنَّهُ يجتهِدُ أَمْرَهُ لإنْكارِ فَقْرِهِ وأَنَّ إلحادَهُ عنوانٌ بلا مضمونٍ إيجابيٍّ ذاتيٍّ أصيلٍ؛ فكُلُّ حَسَنَةٍ عند الملاحدةِ لَقِيطَةٌ قِيمِيَّةٌ، أَصْلُها دينُ المجتمعِ.

وقد كتبَ الفيلسوفُ **الملحِدُ** (جون جراي)[2] مقالًا من وَحْيِ الدَّهريّةِ الماديّةِ، تحت عنوانِ «الإنسانيّة غيرُ موجودةٍ»، قال فيه: «دعوى أنّ الإنسانيّة (humankind) لها مقامٌ خاصٌّ ضمن مجموعِ أشياءِ العالَم تملِكُ حُضورًا ضمن أدبيَّاتِ المفكِّرين اللَّادينيِّين الذين يقولون لنا: إنَّ الإِنْسَ قد ظَهَرُوا صُدْفةً، ويُصِرُّون على أنّ «الإنسانيَّةَ» يمكن أن تَضُخَّ الغائيَّةَ في العالَمِ. ولكنْ في الفلسفةِ الطَّبيعانيَّةِ[3] البَحْتَةِ، ليس لِجِنْسِ الإِنْسِ أيُّ غايةٍ. ليس هناك سوى الإِنْسِ، مع دَوَافِعِهم وأهدافِهِم المتضاربةِ. باستخدام العِلم، يُغَيِّرُ الإنسانُ كوكبَ الأرضِ، ولكنَّ «الإنسانيَّةَ» لا يمكن أن تَسْتَخْدِمَ مَعْرِفَتَها المتنامية لتحسين العالم؛ لأنَّ **الإنسانيَّةَ لا وُجودَ لها**»[4].

وفي غياب مفهومِ «الإنسانيّة» يغدو الدِّفاعُ عن حقوقِ الإنسان، والقِيَمِ النَّبيلةِ للإنسان، وأَحْلامِ الإنسانِ... هَذَرًا نَدِيًّا يُرَطِّبُ قَسْوَةَ الوُجودِ المادِيِّ، لكنَّهُ يَعْجَزُ أَنْ يُحَوِّلَهُ إلى شيءٍ حَيٍّ؛ فليس في تلك المطالب رُوحُ الحياة، ولا في تلك الأرضِ قابليةُ الحياة، فهي مَلْساءُ بلا مَسَامّ...

---

(١) Vox Day, *The Irrational Atheist* (Dallas, Tex.: BenBella Books, 2008), p.263.

(٢) جون جراي John Gray (١٩٤٨م): فيلسوفٌ بريطانيٌّ له عنايةٌ بالفلسفةِ التحليليّة وتاريخِ الأفكار.

(٣) الطَّبيعانيَّةُ Naturalism.

(٤) John Gray, 'Humanity doesn't exist', *New Statesman* (10/02/11).

بل دعني أُلَخِّصُ الأمرَ من زاويةٍ أخرى، فأقولُ: إنّ «أَدِلَّةَ» الإلحادِ اليومَ تدورُ حول النّقاط التالية:

- العَقْلُ يَدُلُّ على أنه لا يُوجَدُ إلٰهٌ.
- العِلْمُ يَدُلُّ على أنّه لا يُوجَدُ إلٰهٌ.
- التَّطوُّرُ يَدُلُّ على أنّه لا يُوجَدُ إلٰهٌ.
- الأَخلاقُ تَدُلُّ على أنه لا يُوجَدُ إلٰهٌ.
- الشَّرُّ يَدُلُّ على أنّه لا يُوجَدُ إلٰهٌ.

والحقيقة أنَّ كُلَّ الأُمور السَّابقة المعتَرَضِ بها على وجودِ الله لا يمكن أن تُوجَدَ دون وجود الله؛ فالعَقْلُ أثرٌ عن مَلَكَةٍ تتجاوز ذَرَّاتِ الدِّماغ ونبضاتِه، والعِلْمُ أَثَرٌ عن كَوْنٍ مُنَظَّمٍ قابِلٍ لِلفَهْمِ، والتَّطَوُّر ـ إن قُلْنا بِصِحَّتِه جَدَلًا ـ عالَة على ضَبْطٍ دقيقٍ لِلكَوْنِ، والأَخلاقُ فَرْعٌ عن الإيمان بِمُقَنِّنٍ للأخلاق الموضوعيّةِ في فِطَرِ النَّاسِ، والشَّرُّ فرعٌ عن الإيمان بِخَيْرٍ، والخَيْرُ فَرْعٌ عن حكِيمٍ كريمٍ. وما الإلحادُ إلَّا لِصٌّ يَسْرِقُ من رصيدِ الإيمان لِيَكْتَسِبَ أَنْفاسَ الحياةِ!

المبحث الرابع

لاعقلانيَّةُ الدِّماغِ الإلحاديِّ

الإلحادُ دعوى إيجابيَّة؛ أي: هو تقريرٌ لحقيقةٍ إضافيةٍ وليس إعلانًا محضًا لعَدَمِ العِلْمِ؛ ولكنّ الإنسانَ في بُؤرة النَّظْرةِ الإلحاديّةِ لا يملِكُ أن يُثبِتَ أيَّ دعوى؛ بل هو عاجزٌ حتى عن اعتقادِها لأنّه لا يملك آلةَ البحثِ عنها واكتشافها؛ إذ الدِّماغُ البشريُّ حصيلةُ عَمَلِ العَصَبُونات التي تتفاعل مع مُحِيْطِها بالنَّبْضِ الكَهْرَبيّ، وهذا النَّبْضُ لا يحمل التزامًا أخلاقيًّا بنقلِ الحقيقةِ، فهو فِعْلٌ أَعْمى بين جدرانِ مادَّةٍ صامتةٍ. ومعلومٌ أنّ العقلَ هو آلةُ البحثِ عن الحقيقةِ، وفي غيابِ العقلِ القادرِ على إصابة الحقيقةِ لا يمكن للملحِدِ أن يَسْتَيْقِنَ إِلْحادَهُ، أو أَنْ يدعوَ إليه.

الملحد ≠ العقل ⇐ الحقيقة

وإذا كان الملحد الشهير (ستنجر) قد اعترض على الإيمان بالله في كتابه «الإلٰهُ: الفرضيَّةُ الفاشلة»؛ لأنّه لا يوجد ـ بِزَعْمِهِ ـ دليلٌ مقنِعٌ على وجود الإلٰهِ ـ الإبراهيميِّ بالأساس ـ، فَلِلْمُؤَلِّهِ أن يَرُدَّ عليه بقوله: إنّ **الإلحادَ فرضيّةٌ مستحيلةٌ** لا مجال لأن يُخْتَبَرَ صِدْقُهَا، فضلًا عن أن يَثْبُتَ صوابها لاحقًا.

وسببُ قَطْعِنَا أَنَّ الإلحادَ فرضيّةٌ مستحيلةٌ هو أنّه حتّى تَصِحَّ هذه الفرضيّةُ من خلال الرُّؤية الكونيّةِ للملحِدِ المادّيّ، لا بُدَّ أن يبدأ الملحدُ انتصارَهُ لعقيدتِه باستدلالٍ عقليٍّ، وهو أمرٌ مُتعذّرٌ؛ لأنّه يقتضي سلفًا الإيمان بقدرة

العقلِ على إدراك الحقيقة، لكنَّ العقلَ ـ ويا لَلْمُفاجأةِ ـ لا محلَّ له من الإعراب في الوجود الإلحاديّ؛ إذ لا توجد ضمانةٌ أنّ الدّماغ يقدِّمُ لنا عقلًا حَرِيًّا بالتَّصديق، أو قابلًا للتصديق، وبيانُ ذلك من وَجْهين:

الوجه الأوّل: حتى يكون المرء مُلحِدًا لا بُدَّ أن يؤمن بالتطوّر العضويّ العشوائيّ؛ فالناس أمامَ عالمِ الأحياء وما فيه من نَظْمٍ أمام تفسيرَيْنِ لا ثالث لهما، العشوائيّة أو النَّظْم الحكيم. ولمّا كانت العشوائيّة تقتضي الإيمان بالتطوُّرِ لأنَّ التعقيد العالي للكائنات الحاليَّةِ لا يمكن أن ينشأ مرَّةً واحدةً في طَفْرةٍ مفاجئةٍ، وإنَّما يحتاجُ ضرورةً أن يبدأ من مرحلةٍ بدائيّةٍ دُنْيا بسيطةٍ؛ لَزِمَ القولُ بالتطوّر العشوائيّ حتى لا يضطرَّ العقلُ إلى القولِ بالخَلْقِ الإعجازيّ.

والإيمان بعشوائيّة التطوّر يلزمُ منه عدمُ الثّقةِ في قدرة الدّماغ على اكتشافِ الحقيقة الموضوعيّةِ؛ لأنّ هذه العشوائيّةَ تتحرّكُ قُدُمًا تحت دَفْعِ الانتخاب الطبيعيّ لِتُعِينَ الكائنَ الحيَّ على البقاء والتَّناسلِ والفرارِ من آكِلِيْهِ، ولم تهتمَّ بإنتاجِ جهازٍ قادرٍ على معرفةِ الوجودِ بدقائِقِهِ وتعقيدِهِ على ما هو عليه..

وهذا الذي أُقَرِّرُهُ ليس دعوى تعسُّفيَّة من كيسِ المخالِفين لإدانةِ الدّماغ التطوّريّ، وإنّما هو حقيقةٌ يُقِرُّ بها أعلامُ الإلحاد؛ فهذا البيولوجيُّ الحائز على **نوبل** (فرنسيس كريك)[١] يقول بعبارةٍ جازمةٍ: «أَدْمِغَتُنَا المتطوّرةُ هي في ختام الأمرِ لم تتطوَّرْ تحت ضغط الحاجة إلى كَشْفِ الحقائقِ العلميّة، وإنّما هي فقط قد تطوَّرَتْ لِتَمْكِيْنِنَا أن نكون على درجةٍ من الذَّكاء تكفي للبقاء على قيد الحياة»[٢]. أو بعبارة فيلسوف العلوم (رونالد جير)[٣] فإنّ مشكلةَ البشر الأوائل كانت ـ بدقّة ـ طلب ما يوافِقُ حاجةَ الوقت؛ ولذلك فتطوُّرُ الملَكَةِ الذِّهنيَّةِ في

---

(١) فرنسيس كريك Francis Crick (١٩١٦ ـ ٢٠٠٤م): عالم بيولوجيا جزيئية وفيزياء حيوية بريطانيّ. نال جائزة نوبل (مشاركة) على اكتشافه تركيب الحمض النووي الصبغي.

(٢) Francis Crick, *The Astonishing Hypothesis: the scientific search for the soul* (Simon & Schuster, 1994), p.262.

(٣) رونالد جير Ronald Giere (١٩٣٨ـ): أستاذ الفلسفة في «جامعة مينسوتا». عمل رئيسًا لـ«جمعية فلسفة العلم».

الإنسان رهينُ توجيهِ الحاجاتِ الآنيَّةِ لتحقيق البقاء لا الكَشْفِ عن الحقائق العامَّةِ للكونِ[1].

إنّ ما نعتقدُ صِدْقَهُ وبداهته ـ في المفهوم الداروينى ـ أَثَرٌ لِبِنْيَةٍ دماغيّة تصنع ما يبدو حقيقة؛ فالحقيقةُ صناعةٌ بيولوجيّةٌ وليست كَشْفًا لما هو واقعٌ خارج الذِّهْنِ؛ فهي أَثَرٌ شخصيٌّ لازمٌ لِبِنْيَةِ الدّماغ الذي تطوّر بحثًا عن الاستجابة لشروطِ البقاء، وسيظلُّ الدِّماغ يتطوّرُ بتغيُّرِ حاجاتِ البقاء الماديّةِ ليصل إلى صُورٍ أعلى تُحقِّقُ تَوَاؤُمًا أفضلَ مع البيئة، ومع تطوُّرِهِ تتغيَّرُ «الحقائقُ»، فكلُّ «حقيقةٍ» من حقائق اليوم، عُرْضةٌ للاستبدالِ، دون استثناءٍ؛ لأنّ الحاكم على عمل الدِّماغ ليس واقِع الكون خارجَ الذِّهنِ، وإنّما هو واقِعُ الذِّهْنِ الذي يصنع ظلَّ الواقعِ.

ويعرض (جون جراي) صورةَ الأزمةِ التي لا فَرَجَ للملحدِ بعدها، بقوله: إنَّ الإلحادَ الذي يرى مركزيَّةَ الإنسان قائمٌ على «الإيمانِ أَنَّ البشريَّةَ بإمكانها من خلال العِلْمِ أن تعرِفَ الحقيقةَ؛ وبذلك تكونُ حُرَّةً. ولكنْ إذا كانت نظريَّةُ داروين في الانتخابِ الطَّبيعيِّ صحيحةً؛ فسيكون الأمر السَّابِقُ **مُسْتَحِيلًا، الدِّماغُ البشريُّ يَخْدِمُ النَّجاحَ التَّطَوُّرِيَّ لا الحقيقةَ**»[2].

حَيَوانِيَّةُ الإنسانِ المُتَطَوِّرِ عَشْوائِيًّا في المَنْظُورِ الإلحاديِّ تَمْنَعُ عَقلانِيَّةَ تَفْكِيرِهِ.

الوجه الثاني: الفيزيقانيّةُ هي الاعتقادُ أنَّ الإنسانَ مُختزَلٌ في بِنْيَتِهِ الفيزيائيَّةِ، وأنَّ حالاته الذّهنيّة أَثَرٌ حَصْريٌّ لحالاته الدماغيّة. ولازمُ هذا الاعتقاد ضرورة أنّ النشاط الذهنيّ لأدمغتنا لا يخرج عن وصف التفاعل الكيميائيّ والنَّبْضِ الكهربيّ. والكيمياءُ والكهرباءُ لا تورثان عِلمًا بالواقع الخارجيّ؛ لأنّه لا يُجتنى من العَمَى بصيرةٌ؛ فالتفاعل الماديُّ لا يُبصِرُ ولا

(١) Ronald N. Giere, "Naturalism," in *The Routledge Companion to the Philosophy of Science*, eds. Stathis Psillos and Martin Curd (London: Routledge, 2008), p.216.

(٢) John Gray, *Straw Dogs: Thoughts on Humans and Other Animals* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2007), p.26.

يَعِي؛ هو حركةُ أشياء في شيءٍ تُنْتِجُ أشياءَ لا تَشِي بشيءٍ خارجَ الشَّيءِ، والوَعْيُ الضَّامِنُ أنّ الإنسان يدرك حقيقةَ العالم الخارجيّ ليس شيئًا ماديًّا من الشَّيء.

وقد أَقَرَّ بمأزقِ الإلحادِ مع الفيزيقانيّة رؤوسُ الإلحاد، ومنهم (ألكسندر روزنبرج) الذي أَكَّدَ أَنَّ أفكارنا حول الأشياء مجرّد وَهْم، وأنّها ليست في وحداتها الذريّة سوى نبضات كهربيّة، وأنَّ «الفِكْرَ» حُزْمةٌ من هذه النَّبْضات؛ وإذا كانت كُلُّ نَبْضةٍ تُشكِّلُ صورةً واحدة؛ فليست تلك الصُّورة شيئًا ما على الحقيقة؛ فإنَّ كامل الحزمة ليس شيئًا متعلّقًا بالحقيقةِ؛ إذ الجزء لا يَرْصُدُ الواقع ولا يُمثّله. **فهذه النَّبضات «عندما تعمل معًا، «تصنعُ» الوَهْمَ أنّ هناك أفكارًا حول الأشياء»**[١].

إنّ التسليم أنّ العمليّة العقليّة ليست أكثر من حركةٍ تفاعليّةٍ بين ذرّاتِ الدّماغ، لا يلغي فقط صِدْقَ معرفتنا بالعالم الخارجيّ؛ بل إنّه يمنعنا من أن نُصدِّق أن أَدْمغتنا تتكوّن من ذَرَّات؛ لِعَجْزِنا عن فَهْمِ أيِّ شيء، مهما كان هذا الشَّيء[٢].

نحن إذن أمام خيارَيْنِ لا ثالث لهما؛ إمّا أن نفهمَ العالم من زاويةٍ تُميّزنا بالتَّكريم الإلٰهيّ بالوَعْي، أو أن نُقِرَّ أَنَّنا **آلات مُبَرْمَجَةٌ** لا تعلم شيئًا، ولا شيء من الشيء (وإن كانت الآلاتُ المبرمجة لا تَعِي أَنَّها آلاتٌ مبرمجة..!!). وإذا كان السبيل الوحيدُ لإنكار وجود اللهِ ـ سبحانه ـ هو العقلُ، وكان الإلحاد يقتضي نَفْيَ وجود العقلِ العاقل الذي يُدرِك حقيقةَ العالم؛ اقتضى القولُ بالإلحاد الكفرَ بالإلحاد حتى يتمكن الملحدُ من الكفر بالله!

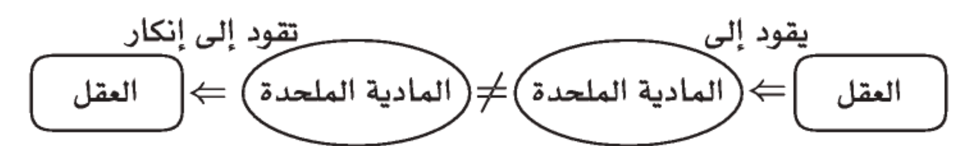
إنّ الإلحاد إمكانيةٌ مستحيلةٌ، وإن شئت فقل: دعوى منتقضة ذاتيًّا (self-refuting claim)؛ فالإنسان من زاويةِ إلحاديّةٍ حيوانٌ لا يُوثَقُ في فَهْمِهِ، وآلةٌ

(١) Alexander Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality: Enjoying life without illusions* (New York: W.W. Norton, 2011), pp.190-191.

(٢) J.B.S. Haldane, *Possible Worlds,* (NJ: Transaction Publishers, 2009), p. 209.

عاجزةٌ عن التَّفكير الذَّاتيِّ لأنّه لا عقل للملحِدِ ولا عقلانيّةَ في الإلحادِ[1].

المعضلة الإلحادية



للملحد دماغ وليس له عقل. العقل في التصوّر الإلحادي خديعةُ الوهم.

---

(١) سنعود إلى دراسة هذا الموضوع في فصل «برهان العقل» في هذا الكتاب.

المبحث الخامس

جبريّةُ المعتَقَدِ الإلحاديّ

الإنسانُ في المذهبِ الفيزيقانيّ بِنْيَةٌ ماديّةٌ تتحرّكُ بأمرِ النَّبْضاتِ الرعْناءِ وسَوْطِ الدَّفْقاتِ العمياءِ، وذاك يُلغي حريّةَ إرادةِ الإلحادِ من المعجم الإلحاديّ. وإذا كان الإيمانُ بالإلحادِ اختيارًا قسريًّا؛ امتنعَ وَصْفُ صاحبِه بأيِّ من أوصافِ الفضائلِ المعرفيّةِ أو الأخلاقيّةِ؛ فليس فِعْلُه استنارةً ولا انحيازًا إلى الحقِّ؛ وإنّما هو استجابةٌ آليّةٌ لِتفاعلاتٍ كيميائيّةٍ تُلزِمُه بوجهةِ النَّظَرِ التي يُسَمّيها «خياراتٍ فِكريّة عاقِلة».

إنّ «الإنسانَ الفيزيائيَّ» لا يختارُ موطِئَ قَدِمِهِ، وإنّما يُساقُ إلى ما يفعل؛ فأفكارُه أثرٌ ميكانيكيٌّ لحتميّاتٍ بيولوجيّةٍ، وما حريّةُ الإرادةِ إلَّا وَهْمُ غِرٍّ، أو بعبارة الفيلسوفِ الفيزيقانيّ الملحدِ (ألكسندر روزنبرج): «حقيقةُ أنّ العَقْلَ هو [فقط] الدّماغُ يضمن لنا أنّه لا توجَدُ إرادةٌ حُرَّةٌ. إنّها حقيقةٌ تُلغِي أيَّ غاياتٍ أو تصميمٍ يُنظِّمُ أعمالَنا أو حياتَنا»[١].

ومن طريفِ ما أَظْهَرَهُ (هاريس) في كُتَيِّبِهِ «حُريّة الإرادةِ» ـ بعد تصريحِه أَنَّ إرادتَنا أَثَرٌ عن مادّةٍ لا نملِكُ عليها سيطرةً واعيةً ـ[٢] سعادَتُه بهذا الكَشْفِ، مع دَعْوَتِه إلى وجوبِ التَّخَلُّص من وَهْمِ حُريّةِ الإرادةِ، رَغْمَ أنَّ سعادَتَهُ ـ بناءً على مَذْهبِه الفيزيقانيّ ـ وَهْمٌ أيضًا، واعتقادُ وهمِ مخالفه مجرّد وهمٍ؛ فهما أثرٌ عن تفاعلات فيزيائيّةٍ وبيولوجيّةٍ مَحْضةٍ.

---

(١) Alex Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality*, p.195.

(٢) Sam Harris, *Free Will* (New York: Free Press, 2012), p. 5

ولا يكتفي الملاحدةُ بهذا التّناقض الصّارخ في الموقفِ من الإرادةِ التي تصنع الإيمانَ والكفران، وإنّما يُوغِلُ أَعْلامُهُم في ابتزاز الوَهْمِ الذي صَنَعُوا من طِيْنِهِ صَنَمَهُمْ؛ فقد كتبَ البيولوجيُّ الملحِدُ العنيدُ (جيري كوين)[1] مقالًا على موقعه الخاص على الشَّبكة، يقول فيه: «إنَّ سلوكيّاتنا تُقرِّرُها بصورةٍ حصريّةٍ جِيْنَاتُنا وبيئاتُنا، ولا شيءَ آخرَ»[2]؛ لِيَقْفِزَ من ذلك للقولِ: إنَّ جبريّةَ فِعْلِ الإنسانِ حُجّةٌ لا بُدَّ من استثمارها لإثباتِ فسادِ الأديان؛ إذ كيف يُعاقِبُ الرَّبُّ بشرًا بالنَّارِ على فِعْلٍ ليس لهم سبيلٌ لِتَلافِيهِ؟!

وليت (كوين) حاكَمَ نفسَهُ قبل أن يحاكِمَ عقيدةَ الإيمان بالله؛ إذ إنَّ إنكارَه على المؤلّهين لا يَدْخُلُ في جِنْسِ الاعتراضات العقليّة الواعية؛ إذ هو ـ على مذهبه ـ موقفٌ نابع من تفاعلاتٍ ماديّةٍ لا تَعِي، وليس أثرًا عن فَهْمٍ لحقيقة الإيمان الدينيِّ. وقد كان عليه ـ لو أَنْصَفَ الحقَّ من نفسِه ـ أن يُدِينَ إِلْحادَهُ؛ لأنَّهُ يَخْتَزِلُهُ في معادلاتٍ فيزيائيّةٍ لا تُبْصِرُ، لا أنْ يَصْنَعَ كعكةَ الفيزيقانيّة لِيُثْبِتَ بها وَهْمَ حُريّةِ الإرادةِ، ثم يحتفي بها لإثباتِ تناقضِ الأديان... الفيزيقانيّةُ تُلْغِي من الإلحادِ معقولِيَّتَهُ لأنّها تُثْبِتُ أَنَّ اختيارَ الإلحادِ نزوعٌ آليٌّ لكائنٍ لا يختار.

«من العسير تصوّر كيف يُمكن للإرادة الحرّة أن تعمل إذا كان سلوكنا أسير القانون الفيزيائي؛ ولذلك يبدو أنّنا لسنا أكثر من آلات بيولوجيّة، وأنّ الإرادة الحرّة لا تعدو أن تكون وهمًا»[3]. (ستفن هاوكنج).

---

(١) جيري كوين Jerry Coyne (١٩٤٩ـ): بيولوجيّ أمريكيّ، من أصل يهوديّ. مهتم بالترويج لدعوى تعارض العلم والدين. من أهم خصوم «تيار التصميم الذكي» في أمريكا.

(٢) Jerry Coyne, Once again with free will: a question for readers.
<https://whyevolutionistrue.wordpress.com/2016/08/16/once-again-with-free-will-a-question-for-readers/>.

(٣) Stephen Hawking, *The Grand Design* (New York: Bantam Books, 2010), p.32.

المبحث السادس

رغبويَّةُ النُّزوع الإلحاديِّ

يختارُ بعض النَّاسِ الإلحادَ عقيدةً؛ لِعارِضِ شُبْهَةٍ وجَهْلًا بحقيقة الإلحاد، ويَتَبَنَّى كثيرون الإلحادَ لدافعٍ أُمْنَويٍّ يَمْتَحُ من الرَّغْبةِ في الحياة في كونٍ بلا عاقبةٍ، ووجودٍ بلا معياريّةٍ، رهبةً من المحاسبة أو نقمةً على القَدَرِ. وقد عَبَّرَ الفيلسوفُ الرِّوائِيُّ **الملحِدُ** (أدلوس هكسلي)[1] عن ذلك بقولِهِ: «كانَتْ لَدَيَّ دوافِعُ لئلّا أَرْغَبَ في أَنْ يكون للعالَم معنًى؛ ثُمَّ أَنْ أَفْتَرِضَ أنَّهُ ليس له معنى، وكنتُ بذلك قادرًا دون أيِّ صُعوبَةٍ أنْ أَعْثُرَ على أَسْباب مُرْضِيةٍ لهذا الافتراضِ. عامَّةُ الجَهْلِ، جَهْلٌ من الممكن تَلَافِيْهِ. **نحن لا نَعْلَمُ؛ لأَنَّنا لا نريد أَنْ نَعْلَمَ**. إنَّ إرادتنا هي التي تُقَرِّرُ كيف نستعمل ذكاءَنَا وموضوع بحثنا. الذين لا يَجِدُون في العالم معنى، يَصِلُونَ إلى ذلك عامَّةً ـ لسببٍ أو لآخر ـ لأَنَّ ذلك يوافِقُ رَأْيَهُمْ في أنَّ الكونَ يجبُ أنْ يكون بلا معنى»[2]. وعَبَّرَ عن هذه النَّزعة ذاتها ـ بصورةٍ فَجَّةٍ ـ الكاتبُ البريطانيُّ (مارتن روسن)[3] بقوله: «لن أُومِنَ باللهِ حتّى لو أَثْبَتَ اللهُ وُجودَهُ... أنا لا أومن باللهِ لا لأَنَّني لا أَمْلِكُ أنْ أَفْعَلَ ذلك، وإنّما لأنّي لا أُرِيدُ ذلك»[4].

وقد دَرَسَ عالم النفس (بول فيتز)[5] ـ المتحوّل من الإلحاد إلى الإيمان

---

(١) أدلوس هكسلي Aldous Huxley (١٨٩٤ ـ ١٩٦٣م): حفيدُ اللّاأدْرِيّ الشّهير (توماس هكسلي). مُفكِّرٌ إنجليزيٌّ. عضو الجمعيّة الملكيّة للآدابِ. رُشِّحَ لجائزة نوبل سبعَ مرَّاتٍ.

(٢) Adlous Huxley, *Complete Essays: 1936-1938* (Chicago, Ill.: Ivan R. Dee, 2001), p.367.

(٣) مارتن روسن Martin Rowson (١٩٥٩ـ): صحفيٌّ بريطانيٌّ، معروفٌ برسوماتِهِ السياسيّة السَّاخرة.

(٤) Martin Rowson, ‘If God proved he existed, I still wouldn’t believe in him’, *The Spectator*, 8 March 2008, p. 22.

(٥) بول فيتز Paul Vitz (١٩٣٥ـ): عمل أستاذًا لعلم النفس في جامعة نيويورك. له عناية بظاهرة الإلحاد =

بالله ـ في كتابه «إيمانٌ فاقِدُ الأَبِ: عِلْمُ نَفْسِ الإلحاد»[1] تاريخَ طائفةٍ من أهمِّ الشَّخصيَّاتِ الإلحاديّةِ المؤثّرةِ في التَّاريخ، وانتهى إلى أنَّ هؤلاء جميعًا إمّا يتامى افتقَدُوا حنانَ الأَبِ ورِعايَتَهُ (نيتشه، راسل، كامو..) أو كان لهم آباءٌ ضِعافٌ أو غِلاظٌ أَسَاؤُوا إليهم (هولباخ[2] وغيره...).. فقد كانت نشأتُهُمُ الأُوْلى بمشاقّها وآلامِها سَبَبًا لِكُفْرِهِمْ بمفهوم العَدْلِ في هذا الوجود؛ ثُمَّ كُفْرِهِمْ بالإلٰهِ.

كما أَجْرَت «الجمعيةُ الأمريكيَّةُ لعلم النَّفْسِ»[3] دراستَيْنِ في أثرِ العوامل النفسيّةِ والعقليّةِ التي تقود إلى الإلحاد، وقد تَمَّتْ الأُوْلى على ١٧١ أمريكيًّا، وكانت نتيجتها أَنَّ ٥٤٪ ممّن وَصَفُوا أنفسهم أنّهم ملاحِدةٌ أو لاأَدْرِيّون اعترفوا أنّ أسباب تركهم الإيمان بالله عاطفيّةٌ، في حين أَقَرَّ ٧٢٪ في التّجربة التّالية التي أُجرِيتْ على ٤٢٩ أمريكيًّا أنّ توجُّههم إلى الإلحاد أو اللَّاأَدْرِيَّةِ يعود إلى أسباب عاطفيّةٍ[4].

= وجذورها في المجتمع والفكر المعاصر.

(١) صدر معرّبًا عن «مركز دلائل» تحت عنوان رئيسٍ: «نفسية الإلحاد».

(٢) بارون دو هولباخ Baron d'Holbach (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩م): فيلسوفٌ ألمانيّ عاش في فرنسا. من أعلام ما يُعرف بعصر الأنوار.

(٣) American Psychological Association: أكبر تجمع علميّ للمتخصّصين في علم النَّفْسِ في أمريكا.

(٤) D. F. Bradley, *et. al. Relational reasons for nonbelief in the existence of gods: An important adjunct to intellectual nonbelief. Psychology of Religion and Spirituality*, 2017, 9(4), 319-327.
<http://psycnet.apa.org/record/2016-13467-001>
<https://www.psychologytoday.com/blog/the-pursuit-peace/201603/the-new-psychology-atheism>

المبحث السابع

برهان الإيمان السَّاذج عند أئمَّةِ الإلحاد

قد يأخُذُكَ خيالُك للظنّ أنّ أعلام «الإلحاد الجديد» ـ أصحابُ أَعْنَفِ خطابٍ في مواجهة الدّين ـ يطلبون من مخالفيهم بُرهانًا أقوى من البراهين التي تَبْذُلها أدبيَّاتُ المُؤَلِّهَة.. وإذا ساقك خيالُكَ إلى ذلك، فاعلم أنَّ الحقَّ قد فاتَكَ!

قد تسألُ: ما الذي من الممكن أن يُقنِعَ أئمّة الإلحاد بوجود الله؟ يُجيبك داعيةُ الإلحاد[1] المعروف (مايكل شرمر)، في إحدى المناظرات بقوله: إذا وَجَدْتُ في حسابي بصورةٍ إعجازيّةٍ مبلغَ كذا ألفٍ من الدُّولارات، سأومن عندها بالله. ورغم أنَّ حديث (شرمر) فيه شيءٌ من السُّخريةِ إلَّا أنّه يَحْمِلُ تصوّرًا يقول: إذا حدث أمامي أَمْرٌ مُعْجِزٌ باسمِ الخالق، فسأصدِّقُ أنّ هناك خالقًا.

وفي الحقيقة، هذا البرهان المطلوب أَضْعَفُ كثيرًا ممّا يَعْرِضُهُ عامَّةُ المُؤَلِّهَة في الشَّرقِ والغَرْبِ، إذ إنّ ارتفاعَ الرَّصيد البنكيّ لِمُلْحِدٍ، أو ظُهُورَ سحابةٍ على شَكْلِ كلمةِ التَّوحيدِ، أو سماعَ صوتٍ من السَّماءِ يقول: اعبدُوا اللهَ... كلُّ ذلك لا يدلُّ وَحْدَهُ على وجود الله، وإنَّما يدلُّ على انتقاضِ القانون الطَّبيعيّ مَرَّةً واحدةً لداعٍ فوق طبيعيٍّ.. وإذا عَزَلْنَاهُ عن دلالاتِ بُرهانِ الخَلْقِ والنّظم والأَخلاقِ... فسيبقى تعبيرًا عن خارقةٍ مجهولةِ السَّبَبِ. وليس في تلك الخوارقِ دليلٌ على أنّ الله ـ سبحانه ـ هو الخالق، ولا

---

(١) يُفضِّلُ تقديم نفسه أنّه لاأدريّ، لكنّه يصرّح أنه ينكر وجود الله.

أَنَّهُ مُصوِّرُ العالم، ولا أنَّهُ مَصْدَرُ الوَحْيِ، ولا أنّ الإسلام أو النّصرانيّة. . . حقٌّ، ولا ما هو الطريق الصحيح لعبادة الله، ولا أيّ صفة من صفات الله؛ ولذلك يُميّز علماءُ الإسلام بين الكرامات والخوارقِ الشيطانيّةِ؛ لأنَّ القرائنَ الخارجيّةَ هي التي تمنح هذه الأحداث دلالاتها النّهائيّة.

إنّ البرهانَ الذي يطلبه بعض أعلام الإلحاد للإيمان بالله هو فقط برهان لإمكانِ حدوثِ أَمْرٍ خارقٍ للسُّنَنِ الكونيّة، وهو لا يُثْبِتُ بعد ذلك أيَّ شيءٍ تقريبًا. . إنّهُ طَلَبٌ غريرٌ يُرْضِي به الإنسان الجانبَ الحِسِّيَّ المهيمِنَ على وَعْيِه، ويَطْلُبُ به عينَ ما طلَبَهُ الوَثَنِيُّون؛ شيءٌ ماديٌّ محسوسٌ قريبٌ من العَيْنِ واليَدِ للرُّؤْيَةِ والجَسِّ، دون أن يُنْظَرَ إلى لوازمِهِ اللّاهوتيّةِ.

مراجع للتوسّع:

علي عزّت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، القاهرة: مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

Thomas Reid, *An Inquiry into the Human Mind on the Principles of Common Sense*. Ed. Derek R Brookes, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1997.

Mitch Stokes, *How to be an Atheist: why many skeptics aren't skeptical enough*, Wheaton: Crossway, 2016.

Mitch Stokes, *A Shot of Faith (to the head): Be a confident believer in an age of cranky atheists*, Nashville, TN: Thomas Nelson, 2012.

Frank Turek, *Stealing from God: why atheists need God to make their case*, Colorado Springs: NavPress, 2014.

David Berlinski, *The Devil's Delusion Atheism and Its Scientific Pretensions*, ReadHowYouWant, 2010.

الفصل الخامس

مغالطات إلحادية

ـ ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التَّوْبَةُ: ١١٩]

«لا يوجَدُ شيءٌ أَيْسر مِنْ أَنْ يَخْدَعَ المرءُ نَفْسَهُ»

(دِموسثينس)[١]

تحت قِشْرةِ الخطابِ الوُثوقيّ لكلِّ ملحدٍ يزعُمُ امتلاكَ الحقيقةِ، نَفْسٌ مُتَرَدِّدَةٌ وقلبٌ مُتَقَلْقِلٌ. حاوِلْ أنْ تحاورَ هذا الملحِدَ، وأَمْعِنْ في السُّؤال والاستفهامِ؛ وستكتشِفُ أنَّ وُثوقيّة الإلحادِ موقفٌ نفسِيٌّ، وأنَّ الحَيْرَةَ هي عقيدتُه إذا خلا بنفسه في وحشَةِ اللَّيلِ بعيدًا عن صَخَبِ الجَدَلِ. وهذا ـ مثلًا ـ حال (داوكنز) ـ نبيِّ الإلحاد الجديد؛ فالرَّجُلُ مُتَقَلِّبٌ بين مذاهبَ شَتَّى؛ ففي خطابِه الشَّعبيِّ مُلْحِدٌ واثِقٌ في إلحادِهِ، وفي كتاباته لاأَدْرِيٌّ، أَقْصى رجائِهِ ترجيحُ كَفَّةِ نَفْيِ وجود الله، حتّى إنّه لما قيل له: إنّك تُوصَفُ بأنّك «أَشْهَرُ مُلْحِدٍ في العالَم»، اسْتَنْكَرَ هذا الوصف، قائلًا: «لم أَقُلْهُ أنا!»، مُضِيفًا: «أنا غيرُ واثِقٍ بصورةٍ مُطْلَقَةٍ أَنَّني أَعْلَمُ [ذلك] بصورةٍ مُطْلَقَةٍ، لأَنَّني لستُ كذلك»[٢]. ثم إذا حُوْصِرَ ببراهين العِلم، قال: إنّه من الممكن الدِّفاعُ عن مذهب الرُّبوبيّةِ، كما في مناظرته مع عالم الرياضيات (جون لنوكس)[٣] حيث

(١) دِموسثينس Demosthenes (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق م): سياسيٌّ يونانيٌّ قديمٌ، عُرِفَ بأسلوبه الخطابيّ.

(٢) في مناظرته لرئيس أساقفةِ كنتربري (Rowan Williams) (٢٠١٢):
<https://www.youtube.com/watch?v=bow4nnh1Wv0>

(٣) جرت المناظرة في "Oxford Museum of Natural History" بتاريخ ٢١ أكتوبر ٢٠٠٨م.

صرَّحَ بعبارته: «بإمكانك أن تُقِيمَ دعوى جديرة بالاحترام للربوبيّة» ـ وإنْ صَرَّحَ أنّه لا يوافق على نتيجتها ـ[1]..

وحالُ التَّرَدُّدِ الذي يعيشُه الملحِدُ متزامنٌ مع إمعانِهِ في نشر المغالطاتِ في مساجلاته مع المؤمنين بالله. ولا يقع أحدٌ في حبائِلِ الشَّكِّ بعد النّقاش مع ملحدٍ إلَّا أن يكون غافلًا عن إدراك هذه المغالطات، وفسادها.. وإذا كان برهانُ الحقِّ هو ما توافَرَتْ فيه شروطٌ ثلاثةٌ؛ وضوحُ العبارةِ، وصدقُ المقدِّماتِ، ومنطقيَّةُ الاستدلالِ[2]، فإنّ عامَّةَ آفاتِ فسادِ الاعتراضات الإلحاديّة من الممكن أن تُرَدَّ إلى نقيضِ هذه الشُّروط؛ إذ تَتَلَبَّسُ هذه الاعتراضاتُ بإجمالِ العبارة، وفساد المقدِّمات، ولامنطقيَّةِ الاستدلالِ.

والعِلْمُ بمغالطات الملاحدة ليس من نوافِلِ المعارف لمن أراد أن يقرأَ في الحوار الإيمانيّ ـ الإلحاديّ، وإنّما هو من رُؤُوس مسائِلِهِ؛ فإنّه به تَنْكَشِفُ زُيوفٌ وتسقط عامّةُ النُّقودِ الموجّهةِ إلى المُؤَلِّهَة. وذاكَ أمرٌ يستدعي التفصيل.

---

(١) <https://www.youtube.com/watch?v=DxD-HPMpTto>.

(٢) Peter Kreeft, *Three Philosophies of Life* (San Francisco Ignatius Press 1989), p.54.

المبحث الأول

مغالطاتٌ جَدَلِيَّةٌ شائِعةٌ

يفتقِدُ الحوارُ الفلسفيّ والعلميّ القائم اليوم ـ في كثير من الأحيانِ ـ الأَمانةَ في عَرْضِ الحقائقِ والدِّفاع عن المذاهب. وأَبْرَزُ مَعْلمٍ لهذا الانحرافِ كثرةُ المغالطاتِ المنطقيّةِ التي يمارِسُها كثيرٌ من المتناظِرين. ويَحْسُنُ بنا أنْ نعرِفَ بعضها حتّى يكون القارئُ على بيّنة منها، ويَزِنَ بها ما يُقرّره هذا الكتابُ من دعاوى، وما يَعْرِضُه من أقوالٍ للمخالِفين، ومن رُدودٍ عليهم.

١ ـ **مغالطةُ الالْتِبَاسِ** (fallacy of equivocation): وهي مغالطةٌ تَظْهَرُ في تغيير معنى الكلمةِ في الجملة نفسِها، باستعمالها مَرَّةً بمعنًى غيرِ مَذْمُومٍ، ثم استعمالها بمعنًى آخرَ مَقْبُوحٍ يكون مَحَلَّ الإنكار؛ كاستعمالِ كلمةِ «إيمان» مَرَّةً بمعنى تصديقِ ما هو غَيْبٌ عن الحواسِّ، وفي أُخرى في الجملة نفسِها بمعنى تصديقِ ما لا تُدْرِكُه الحواسُّ ويَشْهَدُ ضِدَّهُ العَقْلُ والعِلْمُ.

مثال: الإيمانُ هو تصديق ما لا تراه العينُ؛ وذاك برهانُ فسادِه؛ لأَنَّ الإيمانَ يُقابِلُ ما يَشْهَدُ له البرهانُ.

٢ ـ **مغالطةُ رَجُلِ القَشِّ** (Straw Man fallacy): تشويهُ مَذْهِبِ المخالِفِ أو حُجَّتِهِ لتبدوَ ضعيفةً متهافتةً، ثمّ مهاجمةُ هذا المذهب أو هذه الحُجَّة في صياغَتِهما المُشَوَّهَةِ.

مثال: الإسلامُ دينٌ يدعو إلى إنكارِ السُّننِ الكونيَّةِ والإيمانِ أَنَّ الكَوْنَ تُحَرِّكُهُ إرادةُ اللهِ من خلال الخوارقِ؛ ولذلك فالمرء إمَّا أن يؤمِنَ بالعلمِ والقوانينِ الطبيعيَّةِ أو أنْ يؤمن بالله والمعجزاتِ.

٣ ـ مغالطةُ السُّلطة الزَّائفة (False authority): الاحتجاجُ بمرجعيَّةٍ غيرِ موثوقٍ بأَهْلِيَّتِهَا في الموضوع مَحَلِّ الجَدَلِ؛ إيهامًا أَنَّ رأيَ المناظِرِ يَدْعَمُهُ أَهْلُ التَّخَصُّصِ أو الخِبْرةِ.

مثال: الاحتجاجُ بأقوالِ الفيزيائيّين ممّن لا تُعْرَفُ لهم عنايةٌ بالدِّراساتِ الفلسفيَّةِ في مسائلَ متعلِّقةٍ بفلسفةِ العُلوم، أو الاحتجاجُ بتعريفِ بعض الفيزيائيّين لِلْعَدَمِ الفلسفيّ (nothingness) ـ الذي هو الخُلُوُّ من كُلِّ شيءٍ ـ، للعَدَمِ الفيزيائيّ (الفراغ = void) ـ الذي هو طاقةٌ تَسْبَحُ في مكانٍ وزمانٍ ـ.

٤ ـ مغالطةُ الاحتكامِ إلى الصَّخْرةِ (argumentum ad lapidem): اتّهامُ مَذْهبِ المخالِفِ بالفسادِ دون بيانِ سببِ فسادِهِ.

مثال: الإيمانُ بالله سذاجةٌ عقليّةٌ؛ فلا يُصَدِّقُ بوجود الله إلَّا الجَهَلَةُ.

٥ ـ مغالطةُ المُعْضِلَةِ الفاسِدةِ (False dilemma): وَضْعُ المخالِفِ أمامَ خيارَيْنِ فاسِدَيْنِ لا ثالثَ لهما. وإلزامُه أنْ يختارَ أَحَدَ الخيارَيْنِ رَغْمِ وجود خيارٍ ثالثٍ مَنْطِقيٍّ.

مثال: إمّا أَنْ تؤمنَ أنَّ العِلْمَ يُفَسِّرُ كُلَّ شيءٍ أو أَنْ تؤمِنَ بالخرافات والأساطير (هناك خيارٌ ثالِثٌ؛ وهو أَنَّ العِلْمَ يُفسّر بعضَ الظَّواهرِ، ويُفَسِّرُ الوَحْيُ والعَقْلُ أُخرى، وتبقى حقائِقُ أُخرى بمنأًى عن الفَهْمِ؛ لا يُدْرِكُها العَقْلُ ولا العِلْمُ، ولم يَبُحِ الوَحْيُ بِسِرِّها).

٦ ـ مغالطة حُجَّة الجَهْلِ (argumentum ad ignorantiam): يَزْعُمُ الواقِعُ في هذه المغالطةِ أَنَّ دَعْواهُ صحيحةٌ حتّى يَثْبُتَ خِلافُهَا أو عَكْس ذلك، غيرَ آبِهٍ بِأَنَّهُ لم يَتِمَّ البحث جَيِّدًا في إمكانِ ثُبوتِ القَوْلِ أو الأقوال المخالِفةِ. وعادةً ما يُرادُ نَقْلُ عِبْءِ الإثبات بهذه المغالَطَةِ إلى المخالِفِ.

مثال: (إبراهيم) النبيُّ أُسطورةٌ؛ إذ إنَّنا نَجْهَلُ وجودَ برهانٍ يَدُلُّ على وُجودِهِ.

٧ ـ مغالطة الحَيْدَة عن المطلوب (Ignoratio elenchi): تُقدِّم هذه المغالطةُ حُجّةً لا تؤدّي إلى النتيجةِ المدَّعاةِ.

مثال: أَحداثُ العُنْفِ في السَّنواتِ الأخيرة هي ـ كما يقولُ الإعلامُ الغربيُّ ـ من فِعْلِ المُتَدَيِّنِينَ؛ لذلك لا يمكن أن يكون سلامٌ وأمانٌ دون مُحاربةِ التَّدَيُّنِ. (تُهْمِلُ هذه المغالطةُ أَنَّ هذه الدَّعوى ـ إنْ ثَبَتَتْ ـ فمن الممكن تفسيرها بسوء فَهْمِ النُّصوص الدينيّة لا أَنَّ استباحة أَمْنِ المسالمين سَبَبُه دَعْوةُ كُلِّ الأَدْيانِ إلى ذلك).

٨ ـ **مغالطَةُ المُصَادَرَةِ على المطلوبِ** (Begging the question): تَضْمِينُ النَّتيجةِ في المقدِّماتِ.

مثال: العالَمُ مادَّةٌ، ولا وجودَ لغيرِها؛ ولذلك فالحديثُ عن الإلٰهِ ضلالةٌ. (المطلوب من الملحِدِ إِثْباتُ أَنَّ العالَمَ مادَّةٌ، في حين أَنَّ البرهانَ ينطلِقُ من دعوى أَنَّ العالَمَ مادَّةٌ، ولا يَهْتَمُّ بإثبات ذلك).

٩ ـ **مغالطةُ نَقْلِ عِبْءِ الإثباتِ** (Shifting the burden of proof): ادّعاءُ صاحبِ الدَّعْوى أَنَّهُ ليس مُلْزَمًا بإثبات ما يَدَّعِي، وأَنَّ مُخالِفَهُ هو المطالَبُ بالبَيِّنَةِ، على خلافِ الأَصْلِ.

مثال: نَشْأَةُ الحياةِ كانتْ أَثَرًا عن صُدْفةٍ، وعلى القائلِ بالخَلْقِ الخاصِّ أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ نشأةَ الحياة كانت عَنْ تَصميمٍ.

١٠ ـ **مغالطةُ الالتماسِ الخاصِّ** (Special pleading): استثناءُ أَمْرٍ أو مسألةٍ ما من حُكْمٍ عامٍّ، دون دليلٍ.

مثال: ليسَ في الكونِ إرادةٌ حُرَّةٌ، فَكُلُّ شيءٍ محكومٌ بجبريَّةِ قانونِ المادَّةِ، غير أَنَّ الإنسانَ يَمْلِكُ إرادةً حُرَّةً ليسير عَكْسَ قانون الجبريّةِ.

١١ ـ **مغالطة الرنجة الحمراء** (Red herring): تَشْتِيتُ ذِهْنِ المخالِفِ وخداعُ السَّامعين بالانتقال من السُّؤال الأَصليِّ إلى قضايا جانبيّة.

مثال: لا يوجد إلٰهٌ؛ فالمتديّنون أَشرارٌ متجهّمون دائمًا.

١٢ ـ **مغالطة الشَّخْصَنَة** (Ad hominem): مهاجمةُ الشَّخْصِ لا الفِكْرَةِ لإسقاطِ الفِكْرةِ.

مثال: المسلمون مُتخلِّفُون اقتصاديًّا؛ ولذلك فحديثُهم عن تأسيسِ نهضةٍ إنسانيّةٍ على أُسسٍ عادلةٍ تُحقّق الرَّفاهية للجميع لا قيمةَ له.

١٣ ـ مغالطة تَسْمِيم البِئْرِ (Poisoning the well): فَرْعٌ عن مغالطة مهاجمة الشَّخْصِ لا الفِكْرةِ؛ وذلك بذكر معلوماتٍ عن المخالِفِ أو مَصْدَرِهِ غيرِ مُتعلِّقةٍ بموضوع المباحَثَةِ بقصد إسقاطِ قِيْمَةِ ما يقولُ.

مثال: أَنْصارُ «التَّصميم الذكيّ» في أَمريكا نصارى يؤمنون بخرافاتِ التَّوراةِ؛ ولذلك فما يقولونه في أَمْرِ التَّصميم مَحْضُ خُرافةٍ.

١٤ ـ مغالطةُ الاقتباسِ دون مراعاةِ السِّياقِ (contextomy): نِسْبَةُ دلالةٍ إلى نَصٍّ يَشْهَدُ بخلافها السِّياقُ.

مثال: اقتباسُ قولِه تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] لِبيانِ أَنَّ القرآنَ يدعو إلى إبادةِ غيرِ المسلمين، رَغْمَ أَنَّ تَتِمَّةَ الآية تقول: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] بما يَدُلُّ أنّها لا تَعُمُّ كُلَّ الكُفَّار، ولها سِياقٌ خاصٌّ.

١٥ ـ مغالطةُ السُّؤال المُعَقَّدِ أو المُتَعَدِّدِ (Plurium interrogationum): وهي عَرْضُ دَعْوى صريحة أو ضمنيّة، وافتراضُ تسليم المخالِفِ بها ضرورةً.

مثال: أَنْتَ إنسانٌ مُثَقَّفٌ، فلماذا تُسَلِّمُ بصورةٍ لابرهانيَّةٍ بوجودِ الله؟ (المغالَطَةُ هنا تَفْتَرِضُ أَنَّكَ تُسَلِّمُ بصورةٍ لابرهانيَّةٍ بوجود الله.)

١٦ ـ مغالطةُ القياسِ الفاسِدِ (False analogy): افتراضُ أَنَّ تَشَابُهَ أَمْرَيْنِ في بعض الأَمْرِ حُجَّةٌ للمطابقةِ بينهما في كُلِّ الأَمْرِ أو جُلِّهِ.

مثال: الكتبُ الدّينيَّةُ تُخَالِفُ العِلْمَ ضرورةً؛ أَلا ترى أَنَّ الكنيسةَ خالَفَتِ العِلْمَ في أكثر مِنْ مَسْأَلةٍ انتهى فيها النَّاسُ إلى الانحيازِ إلى جانبِ العِلْمِ ضِدَّ الدِّينِ! (الاعتراض يَقِيْسُ كُلَّ الكتبِ الدّينيّةِ على أَسْفارِ الكَنِيْسةِ.)

١٧ ـ مغالطة الواقعية (Fallacy of Reification): إسباغ صفة الأشياء المشخصنة على مفاهيم مجرّدة.

مثال: بإمكان العدم أن يوجِد الكون من لا شيء. (العدم الفلسفي هو محض غياب كلّ شيء. وغياب كلّ شيء يمنع وجود شيء له إرادة وقوة للفعل ابتداءً).

المبحث الثاني

معارضاتٌ إلحاديَّةٌ فاسِدةٌ

يُوحِي ضجيجُ الصَّخَبِ الإلحاديّ اليومَ أنّنا أمامَ عرضٍ نَسَقِيٍّ لفكرةٍ قويّةِ الأَرْكانِ، صارِمَةٍ في حواشيها، إذا أَنْشَبَتْ أَظْفارَها في دعوى مخالفةٍ كَشَطَتْ عنها ثوبَ الزُّورِ؛ غير أنَّ واقع الحالِ غير ذلك؛ فما إلحادُ أَيَّامنا غيرُ أَمْشاجٍ من الاعتراضاتِ الغاضبةِ التي تَضْرِبُ بِيَدٍ مُتشنِّجةٍ ذات اليمينِ وذات الشِّمالِ بِعَمايَةٍ، حتّى إنَّ كثيرًا من ضرباتها تَرْتَدُّ إليها فَتُدْمِيْهَا.. وأَصْلُ ذلك أنَّ الجانبَ العاطِفيَّ في الطَّرْحِ الإلحاديِّ قد استَأْثَرَ بِدَفَّةِ السَّيْرِ؛ والعاطفةُ تَقْبَلُ النَّقائِضَ، وتَخْفِضُ جَنَاحَهَا للجَوْرِ والأَثَرَةِ البَطِرَةِ.. وهاهنا أَهَمُّ الصَّرخات العاطفيّةِ للإلحادِ عندما يسعى إلى أن يَأْتَزِرَ بِإِزار العَقْلِ، وهاهنا ـ أيضًا ـ جوابها...

المطلب الأول

مشكلة خفاء الله

يَعترِضُ الملاحدةُ على دعوى وجودِ إلٰهٍ بالقولِ: إذا كان الإلٰهُ موجودًا حقيقةً، فيجب أن يكون وجودُه شديدَ الظُّهورِ؛ فلا يرتاب فيه بَشَرٌ يُدرِكُ يَمِيْنَهُ من شِمَالِهِ.. ولكنَّ واقِعَنا اليومَ يُخْبِرُ أنَّ طوائفَ من النَّاسِ (ملحدةٍ) لا تَجِدُ حُجَّةً تُلْزِمُهَا بهذا الاعتقاد.

الجواب:

تُعْرَفُ هذه الشُّبْهةُ المنتشِرَةُ بين الملاحدة بمشكلة «الخفاء الإلٰهيّ»

«divine hiddenness»[1]، وهي تقومُ على زَعْمَيْنِ، أَوَّلُهما: أنّه إذا كان الله موجودًا، فلا بُدَّ أن يكون وجودُه واضحًا للجميع بلا أدنى رِيْبَةٍ، وثانيهما: أنّ وجود الله غير بَيِّنٍ لِجُلِّ النَّاسِ..

والجواب من أَوْجُهٍ:

أولًا: العلم بوجود الله حقيقةٌ أَطْبَقَتْ عليها الأُمم السَّابقةُ، حتّى قال عامّةُ الفلاسفة قبل قرونٍ: إنَّ أَعْظَمَ حُجّةٍ على وجود الله تواطُؤُ النَّاسِ على ذلك، وهو ما يُعرف بِحُجَّةِ «Consensus gentium»؛ وذاك برهان عمليٌّ أنّه وُجودٌ غيرُ خَفِيٍّ؛ بل ظاهرٌ للبليد والذّكيّ على مرِّ القرونِ وتتابع الحضارات، وقد أصابَهُ ساكِنُ غاباتِ الأمازون، والعاكِفُ على النَّظَرِ في مكتباتِ بغداد القديمة. والإلحادُ شذوذٌ طارِئٌ لم يبدأ رَصْدُهُ كظاهرةٍ جماعيّةٍ إلَّا في آخرِ القرن التاسع عشر، وبداية العشرين، وكفى بذلك برهانًا على وضوح وجودِ الله ودُنُوِّهِ من عَقْلِ الإنسانِ. وقد كانت دعوةُ الأنبياء دائمًا مُتَّجِهةً إلى إفراد الربِّ بالطَّاعةِ لا إثباتِ وجودِ الخالق؛ فلم يَكُنْ أَمْرُ الخالقِ مصدرًا لنزاعٍ لالتزامِ السَّابقين فَهْمَ الكَوْنِ أنّهُ أَثَرٌ عن عظيمٍ أو عظماءَ من غير جِنْسِ البَشَرِ.

ثانيًا: النَّاظِرُ بِعَدْلٍ وعُمقٍ في أَدِلَّةِ وجود اللهِ يرى أنّها تَتَّخِذُ الوجودَ كُلَّهُ حُجَّةً لمطلبها؛ النَّفْسَ والعقلَ والقلبَ.. والزَّمانَ والمكانَ والمادّةَ والحياةَ.. أصلَ الوجود وطبيعتَه ومآلَه.. ظواهرَ السَّماء ومحافلَ الأرضِ.. حالَ الأمسِ، وواقعَ اليوم، ورجاءَ الغَدِ.. بَسْطَ الرَّخاءِ والنّعمة، وغصَّةَ الضِّيقِ والشّدّةِ.. فلم تَذَرْ لِرأيِ المخالِفِ مجالًا للمُنَاجَزَةِ.. بل قد اتَّخَذَتْ من حُجَجِ المخالِفِ للإلحاد (مثل مُشْكلةِ الشَّرِّ) حُجّةً للإيمان بطريقٍ سديدةٍ.

ثالثًا: خَلَقَ اللهُ الإنسانَ لِيَتَّجِهَ إليه بالإيمان والعبادةِ، وزَوَّدَهُ لذلك بثلاثةِ دوافِعَ تَضْمَنُ له بلوغَ الإيمانِ بالله وتوحيدَه إذا سلِمَتْ من فاسِدِ الموانِعِ، وهي:

أ ـ خَتْمُ الميثاق الأوَّل: قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن

(١) من أهمِّ المدافعين عن شبهة خفاء الإلٰهِ، الفيلسوف الكَنَدِيُّ (J. L. Schellenberg).

﴿ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وقال الرَّسُول ﷺ: «**إنَّ الله يقولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لو أَنَّ لَكَ ما في الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كنتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قال: نَعَمْ! قال: فَقَدْ سَأَلْتُكَ ما هو أَهْوَن مِنْ هذا وأَنْتَ في صُلْبِ آدم، أَنْ لا تُشْرِكَ بي فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ**»[١]. فالخَتْمُ الأَوَّلُ في النَّفسِ الإنسانيّةِ الميثاقُ الذي أُخِذَ على المرءِ قبل أن يخرج من ضِيْقِ الرَّحِمِ إلى فسيحِ الأرضِ، وهو أَنْ يَعْبُدَ اللهَ لا يُشْرِكَ بهِ شيئًا.

ب ـ الفِطْرَةُ: الفِطْرَةُ هي الحالُ الأُوْلَى للنَّفْسِ، وهي تَظْهَرُ ـ بالفعل، بعد كُمُونِها بالقُوَّةِ ـ عند نُضُوجِ العَقْلِ؛ بالتَّمْييزِ بين الحقِّ والباطلِ؛ حيث تكون مستعدَّةً للميلِ إلى الإيمانِ؛ بل مُنْجَذِبةً إليه. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

ت ـ العقل: العقلُ آلةُ النَّظَرِ في الكون، ومعرفة الأسباب بآثارها. والنَّظَرُ في الكونِ والنَّفْسِ كفيلٌ بهدايةِ الإنسانِ إلى الحقِّ في أمرِ الخالقِ ووحدانيّته. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٥٣].

رابعًا: التَّأْصِيلُ الفلسفيّ للإلحادِ ـ كما هو عند عامّةِ رُؤوسِ الملاحدةِ ـ لا ينتهي عند إنكار وجود إلٰه، وإنّما يجمع مع ذلك ـ وإنْ دون تصريحٍ أو التزامٍ من عامّةِ الملاحدة ـ الشَّكَّ في العقل والحسِّ ـ كما سبق، وسيأتي معنا في هٰذا الكتاب ـ؛ والشكُّ في الحسّ عمًى، والقَدْحُ في العقل جُنونٌ..

خامسًا: ظهور دلائل الوجود الإلٰهيّ في كونٍ خُلِقَ فيه النَّاسُ للاختبار في باب التَّصديق والفعل، ليس هو الظُّهور القَهْريُّ الذي يَشُلُّ إرادةَ الإنسان عن النُّكران، ويمنَعُه موقفَ الرَّفْضِ والامتناع؛ ولذلك فمَحْضُ وجودِ مُنْكِرين

---

(١) رواه البخاريُّ، كتابُ أحاديثِ الأنبياء، بابُ خَلْقِ آدمَ صَلَواتُ الله عليه وذرّيّته (ح/٣١٥٦)، ومسلم، كتابُ صفةِ القيامةِ والجنّة والنار، باب طلب الكافرِ الفداءَ بملءِ الأرضِ ذَهَبًا، (ح/٢٨٠٥).

لوجود إلٰهٍ ليس ممّا يحْتَجُّ به مُنْصِفٌ لإنكارِ التَّجَلّي الإلٰهيِّ في باب الآثار؛ إذ قد أُريدَ لهذا الوجود أنْ يَقْسِمَ النَّاسَ إلى فُسْطاطَيْنِ: فُسْطاطِ المُنِيْبين وفسطاطِ الجاحدين.

«كُلُّ دينٍ لا يقولُ إنّ الإلٰهَ خَفِيٌّ، ليس دِينًا حقًّا»[1]. الفيلسوف (بليز باسكال)

إنّ «البرهانَ المقنِعَ» المتوهَّمَ في العقلِ الإلحاديّ هو ذاك الذي يَقْمَعُ الإرادة الحُرَّةَ ويمنعها من الاختيار بين الإيمان والكُفْران. وهو خَصِيمُ طبيعةِ الإيمان الدّينيِّ الذي يَمْدَحُ الإيمانَ بالغَيْبِ لأنّه طريقُ السَّالكين في الدُّلْجَةِ إلى الحقيقةِ. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: ١١]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ٢، ٣].

وهذا الخفاءُ الإلٰهيُّ ـ غير الكُلّيِّ، وغيرُ المُلْغِزِ ـ هو الذي يُحَفِّزُ الدَّهْرِيَّ إلى أن يبحث عن معنى الحياةِ، ويَجِدَّ في طَلَبِ ذلك، وهو أيضًا الذي يدفع المؤمن إلى أن يجتهد في العُلُوِّ في مراقي المعرفة حتّى يبلغَ مرتبة القائلِ: «لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ؛ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا». فهو واقعٌ إيجابيٌّ يدفعُ النَّفْسَ الخاملةَ إلى أن تَثُورَ على كَسَلِها وتَفُكَّ غَمَامةَ الجَهْلِ لِتَعْرِفَ الرَّبَّ عن قَصْدٍ وحُبٍّ.

«محاولَتُك بيانَ الحقِّ لِمَنْ لا يُحِبُّهُ، لا تعدو أن تكون بذلًا لمزيدٍ من الأفكارِ لِيُسِيْءَ تَفْسِيرَهُ»[2]. (جورج ماك دونالد)[3].

(١) Blaise Pascal, *Pensées and Other Writings, trans. H. Levi (New York: Oxford University Press, 2008), sec 275*

(٢) George MacDonald, *The Curate's Awakening* (Minneapolis: Bethany House, 1985), p.161.

(٣) جورج ماك دونالد George MacDonald (١٨٢٤ ـ ١٩٠٥): أديب وشاعر اسكتلندي بارز.

المطلب الثاني

عِبْءُ الإثبات يقع على المؤمن بإلٰهٍ أم الملحِدُ؟

أَعْظَمُ المغالطاتِ الإلحاديّة الشائعةِ تلك التي تَزْعُم أنَّ عِبْءَ الإثبات في جَدَلِ البحث في وجود اللهِ يقع على المؤمن لا الملحِدِ؛ إذ المؤمنُ ـ على زعم أصحابِ المغالطة ـ صاحب الدَّعوى الإيجابيّة بالإثبات، ويكفي الملحِدَ لإثباتِ صوابِ مَذْهَبِهِ الإلحاديِّ أَنْ يُقرّر بُطلانَ الأَدِلَّةِ التي ساقها المؤمنُ بالله أو ضَعْفَها؛ فما الإلحادُ سوى «فقدان الإيمانِ بالله»[1]؛ ولِذا فَصَاحِبُهُ غَنِيٌّ عن إقامةِ البرهانِ لِصِحَّةِ مَذْهَبِهِ السَّلْبيِّ.

المغالطةُ الإلحاديَّةُ السَّابقةُ قائِمةٌ على مجموعةِ مُقدِّماتٍ مُنْكَرَةٍ، منها:

أولًا: التَّعريفُ الكلاسيكيُّ للإلحاد هو: العِلْمُ بِعَدَمِ وجودِ اللهِ، وفي التَّعريفِ الأَقَلِّ وُثُوقِيَّةً، الإلحادُ هو: رُجْحانُ عَدَمِ وُجودِ اللهِ لِضَعْفِ أَدِلَّةِ القائلين بوجودِه، وفي كلا الحالَيْنِ، يَكْشِفُ الإلحادُ عن ادِّعاءِ امتلاكِ معرفةٍ عن وجودِ اللهِ، والقاعدةُ تقولُ: «البَيِّنَةُ على من ادَّعى!»، والملحِدُ مُدَّعٍ؛ وعليه إقامةُ البُرهانِ، كما هو حالُ المؤمِنِ الذي يَدَّعِي وجودَ اللهِ في مقامِ المناظَرَةِ.

إنَّ نَفْيَ وُجودِ الشَيْءِ دون بُرهانٍ، مَحْضُ دعوى إيمانيَّة. والعِلْمُ بِعَدَمِ الوجودِ يقتضي عِلْمًا أَنَّ شيئًا ما غيرُ قائِمٍ في حَيِّزِ التَّحَقُّقِ، وليس هو مَحْضُ عَدَمِ العِلْمِ بوجودِه. فَقَوْلِي: إنَّ زَهْرةً حمراءَ موجودةٌ في حديقةِ جاري يحتاج إلى برهانٍ لإثباته، وكذلك قولُ مَنْ يقولُ: إنّه لا توجَدُ زَهْرةٌ حمراءُ في الحديقة ذاتِها، هو أيضًا فقيرٌ إلى برهانٍ لِنَفْيِ وجودِ هذه الزَّهْرةِ بهذا اللَّوْنِ في المكانِ المقصودِ. ولذلك فَعَدَمُ العِلْمِ بوجودِ الشَّيْءِ ليس حُجَّةً لِعَدَمِ وُجودِه؛ إذْ قد يوجَدُ الشَّيْءُ ولا نَعْلَمُ وُجودَه؛ لِخَفاءِ الشَّيْءِ أو لِتَقْصِيرِنَا في البحثِ عَنْهُ.

وقد كتب (كاي نيلسون)[2] ـ أحدُ أبرز **ملاحدة** أمريكا الشَّماليَّةِ ـ مُقِرًّا ما

(١) The lack of belief in God.

(٢) كاي نيلسون Kai Nielsen (١٩٢٦ـ): فيلسوف غزير التأليف، له عناية بفلسفة الدين والدفاع عن الإلحاد. عضو المجمع الملكي الكنديّ.

نقول: «من الممكنِ أَنْ تَفْشَلَ كُلُّ أَدِلَّةِ وُجودِ الله، لكن يبقى مع ذلك احتمالُ وجودِ اللهِ قائمًا. باختصارٍ، **إظهارُ أنّ الأدلَّةَ غيرُ ناجعةٍ ليس كافيًا في ذاتِه**. تبقى هناك مع ذلك إمكانيَّةُ وجودِ الله قائمةً»[1].

ثانيًا: زَعْمُ الملحِدِ أنّ الإلحاد: «فقدانُ الإيمان باللهِ»؛ بيانٌ منه لحالته المعرفيَّةِ وليس وَصْفًا للعالم، وما نحتاجُه عند المناظرة هو برهانٌ من الممكن الاحتجاجُ به لصالح صِحَّةِ الإلحادِ، وليس مجرَّدَ الاقتناعِ الشّخصيِّ لفردٍ ما بالإلحاد؛ فإنّنا نعلم أنّ قيام الحجّةِ الصَّحيحةِ غيرُ الاقتناعِ بها، فقد لا يَقْتَنِعُ المرءُ بالحجَّةِ الصَّحيحةِ لِسُوءِ فَهْمِهِ لها أو لِسُوءِ عَرْضِ أنصارها لها.

ثالثًا: المؤمِنُ والملحِدُ ـ على الصَّواب من الرأي ـ يحملان عبءَ إثباتِ تَصَوُّرِهما الكونيِّ. وأمّا الطَّرَفُ الذي ليس عليه أن يُثْبِتَ صِحَّةَ مَذْهَبِهِ؛ فهو المتوقِّفُ في الحُكْمِ؛ لأَنَّهُ لم يَجْرُؤْ على إصدارِ حُكْمٍ بَعْدُ. ولا أعني بالمتوقّفِ هنا مَنْ يُعرفُ باللَّاأَدْرِيِّ؛ إن كانت لاأَدْرِيَّتُهُ تتضمَّنُ القولَ بِعَدَمِ إمكانِ الحَسْمِ أو التَّرجيح بين أَدِلَّةِ الإيمانِ وأدلَّةِ الكُفْرانِ، أو إن كان يَزْعُمُ عَجْزَ العَقْلِ عن البَتِّ في أَمْرِ وُجودِ الله؛ إذ إنّ الحُكْمَ السَّالفَ وسابِقَهُ يتضمَّنانِ مَقُولةً إيجابيَّةً على اللَّاأَدْرِيِّ الدِّفاعُ عنها، وهي استواءُ قُوّةِ براهين الإيمانِ والإلحادِ في كِفَّتَي الميزانِ أو عَجْزُ العَقْلِ عن المضيِّ في طريق القولِ في الوجودِ الإلٰهيِّ. المتوقِّفُ البريءُ من عِبْءِ الإثباتِ هو الذي يقولُ: إنَّهُ ـ شخصيًّا ـ لا يشعُرُ أنّه قادِرٌ على الحَسْمِ، فَقَضِيَّتُهُ شعوريّةٌ ذاتيّةٌ بالأساس، أو هو الذي يقولُ: إنّه لم يُحْسِنْ معرفةَ المذهَبَيْنِ بصورةٍ جيدةٍ تسمح له بالحَسْمِ أو التَّرجيح، وقضيَّتُهُ بذلك فكريّةٌ، أَصْلُهَا الجَهْلُ؛ بما يمنَعُهُ من أن يكونَ طَرَفًا في خُصومةٍ في أمرِ الإيمانِ والإلحادِ.

رابعًا: الجَدَلُ في وجودِ الله، ليس مجرّد بحثٍ في وجودِ ذاتٍ ما، في مكانٍ أو لا مكانٍ أو كُلِّ مكانٍ، كما يُحِبُّ الملحِدُ أن يُوحِيَ للنَّاسِ، وإنّما هو

(١) Kai Nielsen, *Reason and Practice: a modern introduction to philosophy* (New York: Harper & Row, 1971.), p.144.

أَعْمَقُ من ذلك؛ فهو مُتعلِّقٌ بجوابِ سُؤالٍ جَوْهريٍّ يقول: ما هو تفسير وجودِ هذا الكون بِصِفاتِه القائمةِ؟ فإنّ وجودَ اللهِ أو عَدَمَهُ له لوازمُ موصولةٌ بِفَهْمِ هذا الوجود الحقيقيِّ القائمِ. فالملحِدُ مطالَبٌ بتفسيرِ الوجود كما المؤلِّهِ؛ ففي حين يرى المؤلِّهُ أنَّ وجودَ الله يُفسّرُ عامَّةَ خصائص الواقع، بطريقٍ مباشرٍ وغير مباشرٍ، يرى الملحِدُ أنّ هذا الوجودَ مُفْصِحٌ عن عشوائيَّةٍ غير حكيمةٍ.. إنّ الملحدَ ـ مثلًا ـ لا يملِكُ أنْ يَفِرَّ من جوابِ الأسئلةِ التاليةِ إنْ أراد أنْ يُقَرَّ على تَصَوُّرِهِ الكَوْنِيِّ:

- كيف يكونُ الكَوْنُ أَزَلِيًّا مع امتناعِ تَسَلْسُلِ الأحداث إلى ما لا نهايةٍ في الماضي؟ وكيف يَثْبُتُ ذلك علميًّا مع إجماعِ الفيزيائيّين الملاحدة أنَّ لكوننا بداية؟
- ما هو تفسيرُ الانفجارِ العظيمِ الذي ظَهَرَ به كونُنا؟
- كيف يُفَسِّرُ انفجارٌ ظهورَ الكَوْنِ المنظّم والحياة المعقّدة؟
- ما هو تفسيرُ الانفجارِ الكمبريّ الذي ظَهَرَتْ معه عامّةُ جماعاتِ الأحياءِ المعَقَّدةِ؟
- ما هو تفسيرُ انفجارِ الوَعْيِ من المادة؟
- ما هو تفسيرُ النُّزوعِ الأخلاقيّ عند الإنسانِ؟
- ما هو تفسيرُ مظاهرِ الجَمَالِ في الكونِ؟
- بل ما هو تفسيرُ وجود المعنى في كونٍ عَبَثِيٍّ أَزَلِيٍّ؟

إنَّ المذهبَ الإلحاديَّ يجبُ أن يكون جوابًا لأسئلةٍ وجوديّةٍ كثيرةٍ، وليس هو مَحْض الوُجومِ أمام ظواهر الكَوْنِ.

خامسًا: عَجْزُ المؤلِّهِ عن إثباتِ وجودِ اللهِ لا ينفي وجودَ اللهِ، ولا يُرجِّحُ كِفَّةَ الملحِدِ لأنَّ الملحدَ مُطالَبٌ بالبرهانِ التفسيريِّ لهذا الوجود. وفي غيابِ حُجّةٍ مُضادَّةٍ لمذهبِ المؤلِّهِ الذي لم يُقدّمْ بُرهانًا لمذهَبِهِ، يبقى الحُكْمُ مُعلَّقًا لأَنَّ غايةَ ما ينتهي إليه عَجْزُ المؤلِّهِ عن إقامةِ البرهانِ غيابُ برهانٍ إيجابيٍّ لوجودِ إلٰهٍ لا قيامُ برهانٍ إيجابيٍّ لعَدَمِ وجودِه.

عِبْءُ إثباتِ صِدْقِ النَّظْرَةِ الكَوْنِيَّةِ يَتَحَمَّلُهُ الملحِدُ أيضًا لأَنَّ صِدْقَ نَظْرَتِهِ الكَوْنِيَّةِ قائِمٌ على صِحَّةِ عَدَدٍ من المقدِّماتِ التي لا يَصِحُّ الإلحادُ إلَّا بِصِدْقِها قَبْلًا.

المطلب الثالث

اللّهُ أم القوانين الكَوْنِيَّة؟

يقول الملحِدُ: كان الإيمانُ بإلٰهٍ ضرورةً معرفيّةً في العُصورِ السَّالفةِ؛ لحاجةِ الإنسانِ إلى تفسيرِ الظَّواهرِ الطّبيعيّةِ؛ كالبراكين والزَّلازِلِ والأمطار والجَذْبِ؛ بالفعل المباشِرِ غيرِ السُّنَنيِّ، وأَمَّا اليومَ، فنحن في غِنًى عن هذا التَّفسير العجائبيّ؛ فقد مَكَّنَنَا العِلْمُ الطَّبيعيُّ من معرفة القوانين الماديّةِ التي تَحْكُمُ تلك الظَّواهر؛ بما يُغْنِينا عن «التَّفسير الدّينيِّ».

الجواب:

الثُّنائيَّةُ التي يُكرّر ملاحدةُ الغَرْبِ أَنَّ عليك أن تختارَ أَحَدَ طَرَفَيْهَا هي: الله أو القوانين الطبيعية؛ فإذا آمَنْتَ أنَّ ظواهِرَ المطَرِ والبَرْقِ والرَّعْدِ.. وغير ذلك من طبائعِ الطَّبيعةِ تُفسّرها القوانينُ الماديّةُ؛ فَأَنْتَ حينئذٍ مُسْتَغْنٍ عن الإيمانِ بإلٰهٍ بما عَلِمْتَ من نواميسِ المادَّةِ. وإذا آمَنْتَ باللهِ؛ فعليكَ عندها أن تُنْكِرَ القوانين الطّبيعيّةَ، وترى ظواهر الوجود آثارَ تَدَخُّلٍ خارِقيٍّ كُلَّ حِيْنٍ.. وهي ثُنائيّةٌ فاسِدةٌ، ومُزيّفةٌ، ومَقْلُوبةٌ.

أَوَّلًا: هي ثنائية فاسِدةٌ لأنّه لا تعارُضَ بين وجودِ الله ووجودِ القوانين؛ إذ العِلْمُ الطَّبيعيُّ هو: معرفة قوانينِ الكَوْنِ. ووجودُ القوانين الثَّابتة والمتْقَنَةِ فقيرٌ إلى تفسيرٍ؛ إذ العَبَثِيَّةُ لا تُنْتِجُ قانُونًا، والقانونُ أَثَرٌ عن حِكْمةٍ وقُدْرةٍ؛ ولذلك قال الفيلسوفُ (ريتشارد سوينبرن): «أنا لا أُنْكِرُ قُدْرَةَ العِلْمِ على تفسيرِ الكَوْنِ، وإنَّما **أنا أَفْتَرِضُ وجودَ اللهِ لتفسيرِ لماذا يملِكُ العِلْمُ القُدرةَ على التَّفسيرِ**. إنَّ نجاحَ العِلْمِ في أَنْ يُظْهِرَ لنا مبلغَ الانتظامِ الكبيرِ لعالَمِ الطَّبيعةِ

يُوَفِّرُ لنا أَرْضِيَّاتٍ قويَّة للإيمان أنَّ هناك سببًا أَعْمق لهذا النِّظام»[1]. إنّ العِلْمَ الطّبيعيَّ بحاجةٍ إلى الإقرار بوجود اللهِ لتفسيرِ وُجودِ العِلْمِ التَّفسيريِّ للطَّبيعةِ.

ثُمَّ إنّ الكونَ الإلحاديَّ العشوائيَّ بعيدٌ عن أن يَضُمَّ قوانين؛ فَضْلًا عن أن تكون القوانينُ بهذا التَّكامُلِ والإتقانِ الذي نراه في كَوْنِنا. إنَّ الكونَ الإلحاديَّ مجموعٌ: مادّةٌ وطاقةٌ وحرَكَةٌ عَمْياءُ. والقوانينُ المتقَنَةُ غريبةٌ عن تلك الصِّبغةِ الباهتةِ.

المغالطة الإلحادية هي ـ إذن ـ في:

- استدعاء الوسائط (القوانين) لإنكار خالِقِها.
- إنكار حاجةِ الوسائط إلى تفسيرٍ يتعارَضُ مع حقيقةِ أَنَّ جِنْسَها (النِّظام) لا يلتقي مع جِنْسِ الكَوْنِ الإلحاديِّ العشوائيِّ الأَعْمى.

إنّ عِلْمَنَا بالطَّريقِ الآليِّ لِعَمَلِ السَّيَّارَةِ لا يَمْنَعُنَا من الإيمان أَنَّ لها صانِعًا، وإنّما يَدْفَعُنَا نظامُهَا المعَقَّدُ والمرتَّبُ إلى تَطَلُّبِ صانعٍ ذَكِيٍّ لها.

«الاكتشافُ العِلميُّ هو اكتشافٌ دينيٌّ أيضًا؛ إذْ لا تَعَارُضَ بين العِلم والدِّينِ؛ فإنّ معرفتَنَا باللهِ تزدادُ عند كلِّ اكتشافٍ علميٍّ لنا عن العالم»[2].
عالم الفيزياء الفلكيّة الحائز على جائزة نوبل (جوزيف هوتن تايلر)[3].

لم يستشعِرْ علماءُ الطبيعة في تاريخ الإسلام أنَّ فُتوحَ العِلْمِ بالسُّنَنِ الكونيّةِ سبيلٌ لتقليصِ مساحات عَمَلِ الإلٰهِ أو سُلطانِ فِعْلِهِ في الوجودِ؛ بل العِلمُ بالسُّنَنِ الكونيّةِ من أعظم بوّابات العلم بكمالِ قُدرةِ اللهِ وعِلْمِهِ ورَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ.

والقرآنُ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا

---

(١) Richard Swinburne, *Is There a God* (Oxford: Oxford University Press, 1996), p.68.

(٢) Cited in: Anthony J. Does, *Blurry Daydream: When Faith Feels Like Make Believe* (IN: WestBow, 2017), p.22.

(٣) جوزيف هوتن تايلر Joseph Hooton Taylor (١٩٤١م): أستاذ الفيزياء في "University of Massachusetts Amherst".

أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمْرٞ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]؛ فالعِلمُ بالله وآثاره في خلقه سبب للخشية، والجَهْلُ يُوْرِثُ الغَفْلَةَ. ولا يورث العلم بآثار الخالق خشية حتى يقترن بصفاء النفس من مكدرات الفتنة، ورواسب المضلات العقدية التي يتلبّس بها الماديون من علماء الطبيعة.

«دعوى أَنَّ العِلْمَ والدِّينَ في نِزاعٍ دائم لم يَعُدْ يَأْخُذُ بها أَحَدٌ من كِبارِ مُؤَرِّخِي العِلْمِ بِجِدِّيَّةٍ»[1]. الفيلسوفُ (أليستر ماكجراث).

ثانيًا: هي ثنائيّةٌ مزيّفةٌ؛ لأنَّ الثُّنائيّةَ الحَقَّةَ التي على العاقلِ أن يختارَ أَحَدَ طَرَفَيْها لتفسيرِ وُجودِ العالَم هي (السَّبَبُ الأوّل) أو (اللَّاسَبَبِيَّة)؛ فهل الكَوْنُ ناشِئٌ عن سَبَبٍ أَوَّل أم أنَّ وُجودَهُ غيرُ مُسَبَّبٍ؟

والثُّنائيّة التي تُلْزِمُنَا بالتقاطِ الحقِّ من أَحَدِ طَرَفَيْهَا في شأنِ صُورةِ الكونِ هي (النَّظْمُ والعِنَايَةُ) أو (العَشْوائيّةُ الماديّةُ)؛ فهل ترتيبُ الأجرامِ والقوانين وظهور الحياة أثرٌ عن إرادةٍ وحِكْمةٍ أم نتيجة حركةٍ غيرِ مُوجَّهَةٍ إلى غايةٍ عُلْيا..؟ هنا يقع التَّنافرُ بين الخيارَيْنِ المتدابِرَيْنِ، ولا يملِكُ من يبغي معرفةَ تفسيرِ الوجود الماديِّ أن يُهْمِلَهُمَا معًا أو يختارهما معًا.. إمّا هذا أو ذاك.. وبالجواب يُعلَمُ وجودُ الله أو صواب الماديّة الإلحاديّة.

ثالثًا: هي ثنائيّةٌ مقلوبةٌ لأنّ العِلْمَ الماديَّ اليوم بِكُشوفِه المتناميةِ في العالَمِ الأكبر (الكون) والعالَمِ الأَصْغَرِ (الخليّة والذَّرَّةِ) ينصر بصورة أقوى من أيّ زمنٍ مضى حاجة الكونِ إلى خالقٍ ومُصوِّرٍ؛ فإنّ العِلمَ الطّبيعيَّ لم يَنْصُرْ حاجةَ الكونِ إلى خالقٍ يُحْدِثُهُ من العَدَمِ[2] إلَّا بداية من القرن العشرين مع الكشف عن ظاهرة تمدّد الكونِ، بعدما كان الاعتقادُ العِلميُّ الشائع يَنْصُرُ

---

(١) Alister McGrath, *The Twilight of Atheism* (London: Rider & Co, 2005), p. 87.

(٢) البرهان القديم كان فلسفيًا.

لقرونٍ القولَ بأزليّةِ المادّةِ. كما أنّه مع التعرّف عن كثَبٍ على قوانين المادّةِ والثَّوابتِ الفيزيائيّةِ انْفَجَرَتْ ينابيعُ جديدةٌ من المعارف تُؤَكِّدُ أنَّ ظُهورَ الحياة في الكون رَهِيْنُ عِلْمٍ وإرادةٍ ودِقّةٍ في الصُّنْعِ ما كانت تَخْطُرُ في عقولِ علماءِ الكونِيَّاتِ في العُصورِ السَّابقة. فالعِلْمُ اليومَ أَعْظَمُ نصيرٍ للإيمانِ باللهِ. ولذلك يقول الكيميائيُّ الشَّهيرُ (جيمس طور)[1] المهتمُّ بأَدَقِّ علوم الكيمياءِ العمليّةِ؛ أي: «النانوتكنولوجي»: «فقط الغِرُّ الذي لا يعرف شيئًا عن العِلم هو الذي يقول: إنّ العِلمَ يَصْرِفُ الإنسان بعيدًا عن الإيمان. إذا كُنْتَ تَدْرُسُ العلومَ حقيقةً؛ فسوف يجعلك ذلك أقربَ إلى اللهِ»[2].

المطلب الرابع

مُغالطة وَحْشِ السّباجيتي الطَّائر

يقول الملحِدُ: صحيحٌ أنّه لا يمكن إثباتُ عَدَمِ وُجودِ إلٰهٍ، لامتناعِ إثباتِ العَدَمِ، لكنَّ هذا العَجْزَ لا يمكن أن يكون حُجّةً لإثباتِ وجودِ إلٰهٍ، أَلا ترى أنّه لو قال قائلٌ: «إنَّ خالقَ الكونِ هو «وَحْشُ السّباجيتي الطَّائر» الذي لم يره أَحَدٌ»، فلن يُفلِحَ أَحَدٌ في أَنْ ينفيَ أنه الخالق؛ لأنّه لا يمكن نَفْيُ وُجودِ وحشٍ طائرٍ يتكوَّنُ من أعوادِ السّباجيتي معَ قِطْعَتَيْ لَحْم. وقد أُنْشِئَتْ ـ بالفعل ـ «كنيسةُ وَحْشِ السّباجيتي الطّائر» سنة ٢٠٠٥ في أمريكا للسُّخرية من دعوى المؤمنين بإلٰه الذين يتَّخِذُون العَجْزَ عن إثبات عدمِ وجود الله حُجّةً لوجودِهِ..

الجواب:

أولًا: ذاك تصويرٌ مغالِطٌ وساذجٌ لإيمان المسلمين. هو تفسيرٌ قد يَصْدُقُ على مَنْ يؤمِنُ بآلهةِ جبالِ الألْبِ، أو أيِّ إلٰهٍ تفسيرُ وجودِهِ الوحيدِ أنّه خَفِيٌّ عن الأنظار. إنَّ المسلم يؤمِنُ بالله لأنّه يعلم أنَّ وجود هذا الكون يدلُّ ضرورةً على وجودِ إلٰهٍ؛ إذ إنّ وجودَهُ التَّفسيرُ الوحيدُ لخلق الكونِ من عَدَمٍ، وضَبْطُ

(١) جيمس طور James Tour: عالم كيمياءٍ أمريكيٌّ. يحمل عَشَرات شهادات براءة الاختراع. انتُخب سنة ٢٠١٤م كأحد أهم ٥٠ عالمًا مؤثرًا في العالَم.

(٢) Lee Strobel, *The Case for Faith* (Michigan: Zondervan, 2000), p.111.

الكونِ وترتيبُه، وظهورُ الحياة وتعقيدُها، ووجودُ الأخلاقِ الموضوعيّة، والنبوّاتُ، والمعجزاتُ... وأمّا وَحْشُ السّباجيتي الطّائر؛ فهو افتراضُ كائنٍ مُتحيّزٍ في مكانٍ ما بعيدًا عن أنظارنا وآلةِ الرَّصْدِ عندنا؛ فَحُجَّةُ وُجودِه عَدَمُ إمكانِ نَفْيِ وُجودِه، إنْ سَلَّمْنَا جَدَلًا أنَّ عدمَ الوجدان حُجّةٌ للوجود! ـ... ثم إنَّ وجود الإلٰهِ في الإسلام يُفَسِّرُ كُلَّ شيءٍ، وَوَحْشُ السّباجيتي دعوى تحتاج هي نفسها إلى تفسيرٍ؛ فما هي بخاتمةِ البحثِ عن التَّفسير النِّهائيِّ الذي يُفَسِّرُ ما بعده.

وإنّ حال أصحاب هذا الاعتراض معنا هو كحال امرئٍ نَظَرَ إلى صاحبِه، وقال له: برأيكَ، ما هو الشَّيْءُ الموجود في الغرفة المجاورة؟ فأجابه صاحبُه: لا أعلم، هناك ملايينُ الاحتمالات. قطّة.. كُرسيّ.. شاشة.. مُهرِّج.. إبرة؟! فقال الأوّل: فإن قُلْتُ لكَ: توجَدُ فَرَاشةٌ، فهل تملِكُ تكذيبي؟ فأجابه صاحبُه: لا أملِكُ تكذيبَكَ، ولكنّ مجرَّدَ احتمال وجودِ فراشةٍ لا يجعل وجودها في تلك الغرفة حقيقةً، ولا حتّى راجحًا! إنّه ممكِنٌ من الممكنات..

وحالُنا مع أصحابِ هذا الاعتراض كحال رجلٍ قال لصاحبِه: برأيِكَ، ما هو الشَّيْءُ الموجود في الغرفة المجاورة؟ فأجابه صاحبُه: لقد رأيت شَعْرَ قِطَّةٍ عند الباب، وآثارًا طينيّة لأَرْجُلِها هناك، وسَمِعْتُ مُواءً من وراء البابِ.. لم أَرَ ما في داخل الغرفة؛ لكنَّ كُلَّ الدَّلائلِ تُشِيرُ إلى أنَّ قِطَّةً بالدَّاخل؛ ووجودُها هناك يُفَسِّرُ كُلَّ ما لاحظتُه، ولا أَجِدُ تفسيرًا آخر لما لاحظتهُ إن لم تكن في الغرفة قطّة. أنا ملزم أن أقول بوجود قطّة في الغرفة لأنّني لا أملك خيارًا عقليًّا غير ذلك لتفسير هذه الظواهر.. ولله المثل الأعلى، وواقع الإيمان بالربِّ أَعْظَمُ من ذلك لأنّه ليس أثرًا عن ترجيح، وإنّما دون قبوله المحالات العقليّة.

ثانيًا: العَقْلُ يقضي أنّ وَحْشَ السّباجيتي الطّائر ليس هو خالِقُ الكون لأنّه جزء من العالم الفيزيائي، محدود بحدوده، مكوّن من أجزاءه، مفتقر إلى بعضه. نحن هنا إزاءَ شيءٍ ناطقٍ بنفسه أنّه لا يحمل من الصفاتِ الإلٰهيّة شيئًا.

وقد صاغ (راسل) اعتراضَهُ الخاص بحديثه عن إبريقٍ مصنوعٍ من الخَزَفِ

الصِّينيّ يدور حول الشَّمسِ في مدارٍ بيضويٍّ لا تُدْرِكُهُ التّلسكوبات. وهو مثالٌ سَيِّئٌ؛ لما سبق بيانُه، ولأنّ هناك قرائنَ إيجابيةً على عدمِ وجود هذا الإبريقِ، مِثْلَ غيابِ مقتضي إنفاق المؤسسات العلميّة أو التجاريّة أموالًا ضخمةً هائلةً لمجرّد وَضْعِ إبريقٍ في مدارٍ سماويٍّ، فهو وإن كان ممكنًا من الممكناتِ، إلّا أَنَّ القرائنَ تجعلُ وُجودَهُ بعيدًا جدًّا، في حين أنَّ وجودَ الله أمرٌ واجبٌ، دونَهُ المحالاتُ.

ويكشِفُ مِثالَيْ وَحْشِ السّباجيتي وإبريق (راسل) جَهْلَ أعلامِ الإلحادِ بالتُّراث الفِكْريِّ لجدل المُؤَلِّهَة الإيمانيّ، وغزارة الأَدِلَّةِ، وتعاضُدِها، ومتانتِها؛ ولذلك علَّقَ الفيلسوفُ (ويليام لين كريج) غاضبًا، وساخِرًا: «الدَّرْسُ الحقيقيُّ الذي يمكن تَعَلُّمُه من دعوى وحشِ السّباجيتي الطَّائر هو أَنَّ ثقافَتَنا الشّعبيَّةَ بعيدةٌ بصورةٍ كُليّةٍ عن التُّراثِ العظيم لِلَّاهوتِ الطّبيعيّ... يُظْهِرُ اعتقادُ النَّاسِ أنّ الإيمانَ باللهِ هو مِثْلُ الاعتقادِ الذي لا أساسَ له في وَهْمِ الوحشِ جَهْلَهُم المطبِقَ بكتاباتِ أنسيلم، والأكويني، ولايبنتس، وبالي، وسورلي، وكثيرٍ من العلماء الآخرين، في الماضي والحاضر»[1]... ولو أضافَ (كريج) خَبَرَ التُّراثِ الإسلاميِّ العظيمِ في جَدَلِ الردِّ على الملاحدة؛ لكان قولُه أَصْدَقَ..

المطلب الخامس

هل يستطيع الله أَنْ يَخْلُقَ صَخْرةً لا يستطيعُ حَمْلَهَا

من الاعتراضات الإلحاديّة القديمة، التَّساؤلُ: إنْ كان اللهُ يقدِرُ أن يخلق صخرةً يَعْجَزُ عن حَمْلِهَا؛ فإذا استطاعَ خَلْقَ هذه الصَّخْرةِ؛ فَسَيَعْجَزُ لذلك عن حَمْلِهَا، وإذا لم يستطع خَلْقَ الصَّخْرةِ؛ فذاك برهانُ قصورٍ في الخالقيَّةِ.

الجواب:

الله كامِلُ القُدْرَةِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ؛ فهو قادِرٌ على كُلِّ شيءٍ، ولكنّ هذه القُدْرَةَ لا تتعلَّقُ بالمحالات؛ لأنَّها عَدَمٌ، والقُدْرةُ لا تَتَعَلَّقُ بِعَدَمٍ؛ فالصَّخْرةُ التي تُعْجِزُ من لا يُعْجِزُهُ شيءٌ هي اسمٌ لا يَصْدُقُ على مُسمًّى، وكذلك

(١) جواب (لويليام لين كريج) على شُبْهةِ وَحْشِ السّباجيتي الطَّائر:
<https://www.reasonablefaith.org/writings/question-answer/god-and-the-flying-spaghetti-monster/>.

السُّؤال: إن كان اللهُ يقدِرُ أن يخلقَ دائرةً مُرَبَّعَةً أو أَعْزَبَ له زوجةٌ.. تلك أسماءٌ لا يمكن أن تَصْدُقَ على مُسمًّى؛ فهي مُجرَّدُ كلماتٍ فارغةٍ من المعنى يَرْفُضُ العَقْلُ أن تكون لها مصاديقُ واقعيّة لأنّها حَشْوٌ لَفْظِيٌّ؛ فالدَّائرةُ تَرْفُضُ بطبيعة ذاتها أن تكون شيئًا آخر هو المربَّع؛ والمتزوّج لا يكون متزوّجًا حتّى يُفارِقَ العُزوبيّة.. وقد أَحْسَنَ (سي. أس. لويس) بقوله: «**الأشياءُ التي لا معنى لها، تبقى بلا معنى حتّى لو ربطناها بالله**»[1]؛ فالمسألةُ هنا غيرُ متعلّقةٍ بكمال الله، وإنّما هي متعلّقةٌ بالفساد الذاتيّ لإمكان وجودِ هذه الأشياء أو حتّى تَصَوُّرِها.

وإصرارُ الملحدِ أَنَّ الإلٰهَ قادِرٌ على كلّ شيءٍ لا يُعِيْنُهُ على نقضِ معنى كمالِ الأُلُوهيّة؛ لأنّنا إنْ سَلَّمْنَا بقدرةِ اللهِ على خلق الدائرة المربّعة، فسيعترض الملحِدُ أنّ ذاك من المتناقضات، وفِعْلُ المتناقضات محالٌ لأنّه لا يدخل في دائرة الإمكان؛ وبذلك يَرُدُّ الملحِدُ نفسَه إلى الأصلِ السابقِ الذي بَيَّنَّاهُ، وهو أنّ القدرةَ لا تتعلّقُ بفِعْلِ المحالاتِ.

الممتنِعُ بذاتِه ليس بشيءٍ يُتَصَوَّرُ وُقُوعُهُ؛ ولهذا اتَّفَقَ النّظّار على أنّه ليس بشيءٍ؛ فلا يَدْخُلُ في قوله: «إنّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ»[2]. (ابن تيمية)

المطلب السادس

أنت مؤمنٌ بالله أو مسلِمٌ، لأنّك ابنُ بيئةٍ مُسْلِمةٍ!

يشيعُ في المناظرات قول الملحِدِ لِخَصْمِهِ: إنّ إيمانَكَ بإلٰهٍ أو انتماءَكَ إلى الإسلام مَرَدُّهُ نَشْأَتُكَ بين أُناسٍ يحملون هذه العقيدةَ، ويَطْوُون عليها صُدورَهم بتقديسٍ وإجلالٍ.. ولو أَنَّكَ وُلِدتَ في بيئةٍ أخرى، لكان مُعْتَقَدُكَ غيرَ ما تَعْتَنِقُهُ اليومَ.

---

(١) "Nonsense is still nonsense even when we speak it about God".

(٢) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ١٠/ ٣٦٥.

الجواب:

أولًا: هذا الاعتراض واقِعٌ في «مغالطة الأَصْل» «genetic fallacy»؛ وهي مغالطةٌ تقوم على مهاجمةِ الأصل أو المصدرِ أو تمجيدِه لا مناقشةِ الفِكْرةِ نفسِها؛ كأن يُقال للمرءِ: إنّ الفكرةَ التي يراها، هي خطأٌ أو صوابٌ؛ لمجرّد أنّه يَنْقُلُها عن فلانٍ.. دون إبطالها ببرهانٍ عقليٍّ أو علميٍّ. وليس في ذاك حجّة؛ لأنّ وجود فساد في الأصلِ أو النَّبْعِ لا يلزم منه ضرورةً أن يكون كلُّ ما يصدر عنه خطأ، هذا إن صحَّ فساد النَّبْع أصلًا.. فالدَّعاوى تَبْطُلُ بإثبات مخالَفَتِها للواقعِ لا بالطَّعْنِ في أَصْلِها؛ فَأَنْ يَكُونَ مَصْدَرُ الفِكْرةِ إنسانًا يَنْتَفِعُ بِرَوَاجِها؛ كترويج تاجرٍ لبضاعةٍ يَبِيْعُها ويُرَدِّدُ أنّها تُنَمّي الجسمَ وتَدْفَعُ المَرَضَ، ليس حُجّة أنّها بضاعة فاسدةٌ لانتفاعِ مَنْ يُتاجِرُ فيها ببيعها؛ إذ ليس من شرطِ الحقيقة أَلَّا ينتفعَ بها أَحَدٌ أو أَلَّا يُناصِرَها مستفيدٌ.

ثانيًا: يعود هذا الاعتراضُ الإلحاديُّ على نفسه بالنَّقْضِ؛ إذ إنّه يلزمُ منه القولُ: إنّ إلحادَ سُكّانِ الصِّينِ وكُوريا الشَّمالية ـ اليومَ مثلًا ـ حُجّةٌ على أنّ الإلحادَ باطلٌ؛ لأنَّ أهلَ هذين البلدَيْنِ قد وَرِثُوا الإلحادَ عن آبائهم؛ ولو أنَّهم نَشَؤُوا في بلدٍ مجاور لهم لكانوا نصارى أو بوذِيِّين أو مسلمين..!

ثالثًا: كثيرٌ من أعلام المفكّرين الذين أَلَّفُوا المطوَّلاتِ في الردِّ على الإلحادِ في القرن الحالي والماضي كانوا يومًا ما ملاحدةً، مثل (سي. أس. لويس) و(أليستر ماكجراث) و(أنتوني فلو) في الغرب... وفي العالم العربيّ (مصطفى محمود) و(العقاد) و(عبد الوهاب المسيري)... فما تفسير ذلك دون تَخَلُّصِهم من سلطان البيئة؟!

المطلب السابع

لا سبيل للعلم بوجود اللهِ لامتناعِ علمِ الإنسانِ المحدود بالإلٰهِ المطلقِ

من أَبْرَزِ الشُّبهات في خطاب الإلحادِ الشّعبيِّ التي لا تكاد تَجِدُ لها ذكرًا في كتابات أعلام الإلحاد الفلسفيِّ والعلميِّ في الغرب، القول: إنّه لا سبيل للعلم بوجودِ الله؛ لأنّ الإنسانَ (المحدود) لا يملك العلم بالله (المطلق).

هذه الشُّبهةُ فاسدةٌ من وجهٍ، وحُجّةٌ على الملحدِ من وجهٍ آخرَ.

وجهُ فسادِ هذه الشُّبهةِ أنّها تخلِطُ بين العلمِ بوجود اللهِ من خلال آثاره في الوجودِ، والإحاطةِ علمًا بذاته من جهةٍ أخرى. ولا يُجادِلُ المُؤَلِّهَة في أنّهم لا يُحيطون علمًا بذاتِ الربِّ سبحانه، ولا يَسْعَوْنَ إلى ذلك؛ بل يقولُ المسلمون: «كُلُّ ما خَطَرَ في بالِكَ، فاللهُ ليس كذلك»، وأنَّ الله سبحانه «لا تُحيطُ به الأَوهامُ»، وفي القرآنِ بيانٌ حاسِمٌ للأَمْرِ في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]. فالله ـ سبحانه ـ عَلِيٌّ في ذاتِه وصفاتِه بما يتجاوَزُ الأفهامَ.

يُقرّر المُؤَلِّهَة مع ذلك أنَّ الكونَ ومبادئَ العقلِ دالّةٌ على وجودِ خالقٍ واجبِ الوجودِ؛ وذلك انطلاقًا من طبيعة الوجود الماديّ وأنّه لا يملك تفسيرَ وجودِ نفسِه بنفسِه في وجودِه وأَعْراضِه، وإنّما هو محتاجٌ إلى تفسيرٍ مِنْ خارجِهِ لأنّه مِنْ جِنْسِ الممكِنِ (contingent).

وأمّا أنّ اعتراضَ الملحدِ حُجّةٌ عليه، فلأنّه يَلْزَمُ من القول: إنّ العقل لا يملك العلمَ بوجود الله لأنّه بعيدٌ كليّةً عن العلم بحقيقة ما يُسمُّونه «المطلق»، أَنَّ العقلَ عاجزٌ أيضًا عن إنكار وجودِ الله؛ لأنّه عاجزٌ ضرورةً عن التَّماسِّ مع كُليّة الحقيقةِ الإلٰهيّةِ، فَعَجْزُهُ عن النَّفي كَعَجْزِهِ عن الإثبات؛ لامتناع القدرةِ على التفكيرِ في المطلق؛ ولذلك يلزمُ الملحِدَ أن ينحازَ إلى مذهب اللّاأَدْرِيَّةِ الذي يَأْباه!

المطلب الثامن

حُجّيةُ كَثْرَةِ الاعتراضاتِ على الإيمانِ

الملحِدُ: كُلُّ الاستدلالاتِ على وجودِ اللهِ لا تَسْلَمُ من المعارضةِ؛ ولذلك فلا سبيلَ للتَّسليمِ بها!

الجواب:

أولًا: وجود المعارضاتِ لا يُثْبِتُ حقًّا ولا ينفي باطلًا؛ فإنَّ الحقيقةَ غيرُ إثباتها، ووُجودُ الشَّيءِ غيرُ الدَّليلِ على وجودِه؛ ولذلك فوجودُ معارضاتٍ لا

يَدُلُّ إلَّا على وجودِ معارضاتٍ، ولا يَمَسُّ حقيقةَ وجودِ الشَّيء ولا حتّى صحّة الطَّريق إليه.

ثانيًا: يقومُ الاعتراضُ السَّابق على مُقدِّمةٍ مُضْمَرةٍ، وهي أَنَّ وجود معارضاتٍ ينفي بذاته صِدْقَ الدَّعوى؛ فما تَمَّتْ مواجهتُه باعتراضٍ؛ لَزِمَ سُقُوطُه بلا ارتيابٍ. وتلك دعوى لا يُسلِّمها الملحِدُ نفسُه في عامّةِ مسائلِ الجَدَلِ؛ إذ هو يُجادِلُ كثيرًا دفاعًا عن الإلحاد ضِدَّ معارضاته؛ ولو أَسْقَطَ وجودُ المعارضةِ أو المعارضات الدَّعوةَ؛ لَسَقَطَ الإلحادُ لِكَثْرةِ ما انتُقِد عليه.

ثالثًا: كثرةُ المعارضاتِ الإلحاديّة تدلُّ أحيانًا على فسادِها لا صحَّتِها؛ إذ إنّها تتعارض كثيرًا ولا تكاد تتعاضد؛ فرفْضُ الإيمان لأنّه يقودُ إلى الفساد الأخلاقيِّ يعارِضُ الاعتراضَ على موضوعيّة الأخلاقِ، والاعتراضُ على خَلْقِ العالم بأَزَلِيَّتِه يُعارِضُ الاعتراضَ بأنّه نَشَأَ دون سببٍ، والاعتراضُ على ظواهرِ الضَّبطِ الدَّقيقِ بوجود أكوانٍ متعدّدة يُعارِضُ إنكارَ أَصْلِ ظاهرِ الضَّبط الدَّقيقِ في كَوْنِنَا..

رابعًا: تَنَوُّعُ الأدلّةِ الإيمانيّةِ يُقوّيها ويجعل الاعتراضاتِ الإلحاديّةَ القائمةَ على البرهانِ الاحتماليِّ لا المنطقيِّ تضعُف كلّما زاد في رصيد الإيمان برهانٌ جديدٌ أو تفصيلٌ حادثٌ.. ولذلك فالبرهانُ الإيمانيُّ التكامليُّ يحتاجُ إلى ردٍّ خاصٍّ غير الردّ على أَفْرادِ البراهينِ الإيمانيّة؛ فإنَّ تعدُّدَ البراهين المتنوّعةِ والتي تمتدُّ من النَّفْسِ إلى الكون يُلزم الملحِدَ أن يناقِشَ القوّةَ المتميّزةَ لِتَعاضُدِ هذه البراهينِ، وهو ما اعترفَ به الفيلسوفُ الملحِدُ (ج. ل. ماكي)[1].

خامسًا: البرهانُ الإيمانيُّ لا يقوم على الدَّليلِ الاحتماليّ وَحْدَهُ، وإنّما هو يقوم في كثيرٍ من دلائلهِ على البرهان المنطقيِّ، والبرهانُ المنطقيُّ لا ينتقِضُ إلَّا ببيانِ فسادِ مُقدّماته أو انقطاع السَّيرورة المنطقيّة من المقدمة إلى النتيجة، وقد فَشِلَت الاعتراضاتُ الإلحاديّةُ في نقضِ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ أو أَحَدِهما.

---

(١) J.L. Mackie, *The Miracle of Theism* (Oxford: Clarendon press, 1982), p. 7.

مراجع للتوسُّع:

أحمد حسن، أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات مُنْكِري الدِّين، مركز دلائل، ٢٠١٦م.

نديم الجسر، قصة الإيمان، بيروت: منشورات المكتب الإسلامي، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٨م.

Norman L. Geisler and Ronald Brooks, *Come Let Us Reason: An Introduction to Logical Thinking*, Grand Rapids, MI: Baker, 1990.

Edward Feser, *The Last Superstition: A Refutation of the New Atheism*, South Bend, Ind: St. Augustine’s Press, 2011.

Jacob Van Vleet, *Informal Logical Fallacies: A Brief Guide*, Lanham: University Press of America, 2012.

الباب الثاني

برهانُ النَّفْسِ

- ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١]

- «اِعْرِفْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ»

(سُقراط)

تمهيد

نَفْسُ الإنسانِ أقربُ شيءٍ إليه في هذا العالَمِ. وفيها طبيعةُ **العِلْمِ الحضوريِّ** الذي لا يستأذِنُ الذِّهنَ لِيُهَيْمِنَ على العقلِ والقلبِ؛ إذ يجتمعُ في النَّفْسِ ـ بالعلم الحضوريّ ـ التَّصَوُّرُ والتَّصديقُ، ويحضر فيه عينُ المعلومِ[1]، على خلافِ **العِلْمِ الحصوليِّ** الذي هو حُضورُ صُورةِ المعلومِ لا عَيْنه.

وبرهانُ النَّفْسِ ـ بطبيعته الحضوريّة ـ شديدُ الوطأة على القلبِ؛ إذ لا يملِكُ الإنسان دفعَهُ عن نفسِه لأنّه عِلمُ النّفس بحالها.. هو العلم الذي يُمثِّلُ حُضورَ بعضِ النَّفْسِ في النَّفْسِ، فلا تملك النَّفْسُ أن تَفْصِلَهُ عنها أو تَنْفَصِلَ عنه لأنّه عينُ ذاتها وليس جُزءًا من معرفةٍ زائدةٍ مكتَسَبةٍ تَطْرَأُ على النَّفْسِ بعدَ النَّظرِ.

لا يسعى «برهان النّفس» إلى إقامةِ دليلٍ خارجيٍّ على وجود الله بإثباتِ دلالة الخلق أو النّظم على وجودِ مَنْ أَخْرَجَ الوُجودَ من عَدَمٍ، أو من نَظَمَهُ على صورةٍ بديعةٍ، وإنّما هو **يُخَيِّرُ** الملحِدَ بين «الإيمانِ بالإنسانِ واللهِ ـ سبحانه ـ»، أو اللّاشيء، وللملحِدِ أن يُنْكِرَ وجودَ اللهِ إذا أَنْكَرَ حقيقةَ «الإنسان» وتحَمَّل تبعاتِ ذلك في الشُّعور والتَّفكير والأخلاق..

ورغم ما قد يبدو من خِفَّةِ هذا التحدّي للملحدين ـ لمن لم يقرأْ في أدبيَّاتهم، ووَقَعَ تحت أَسْرِ لُغتهم المتعالية ـ إلَّا أنّه عند السَّبْرِ أو الامتحان

(١) كعلمه بجوعه وفرحه.

أقوى البراهين وأعظمها زلزلةً لأقلامهم، وأبلغها إحراجًا لهم على المنصّات، خاصّةً ما تعلّقَ منها بالبرهان الأخلاقيّ.. وإنّك لَتَجِدُ ملحدين كُثرًا يُنْكِرُونَ أَدِلَّةَ الخَلْقِ والتَّصميم والضَّبْطِ الدَّقيقِ، ويلتزمون لوازم ذلك، لكنَّكَ لن تَجِدَ مُلحِدًا واحدًا يُنكِرُ في نفسه البرهانَ الأخلاقيَّ وإن رَدَّهُ بِلِسَانِهِ، كما ستأتيك الشَّهادات الوفيرةُ على ذلك لاحقًا..

العلم الحضوريُّ وجدانُ ذاتِ المعلومِ، فلا يملِكُ الإنسانُ دَفْعَهُ عن نفسِه لأنّه بعضُ نفسِهِ.

حقيقةُ برهان النَّفسِ أنّه يُلزِمُ الإنسانَ أن يُقِرَّ أنّه ذاته التي يعرفها؛ حتى يُقِرَّ بوجود الله. ولا نقصد بذلك أنّه لا يُمكن للمرء أن يُحقِّقَ الوَعْيَ بنفسه والعالم حتى يُعلِنَ إيمانَهُ باللهِ، وإنّما نقول: إنّ الإنسانَ الذي يزعمُ الإقرارَ بحقيقة الإنسانِ وفَهْمِ العالَمِ دون أن يُقِرَّ بوجودِ اللهِ إنسانٌ متناقِضٌ لأنَّ وَعْيَهُ بنفسِه والعالم لا يَتِمُّ دون بنائِه على الإيمان بالله. فالمرءُ بين أن يتابع الفيزيائيَّ (هاوكنج) في قوله: إنّ الإنسان «غُثاءٌ كيميائيٌّ» «chemical scum»[1]، مع جميع ما يلزم من ذلك وجوديًّا من إنكارِ مفهوم الإنسانِ كليّةً، وَعَدِّهِ مَحْضَ أَثَرٍ عَشْوائيٍّ لمادّةٍ صمَّاءَ، أو أن يقول: إنَّ الإنسانَ أَثَرٌ جميلٌ وحكيمٌ عن حِكْمَةٍ عُلْويّةٍ مُقْتَدِرةٍ.

«وجودُ اللهِ هو العنصرُ الأساسيُّ لصناعةِ أيِّ نظرةٍ كونيّةٍ. إنكارُ الافتراضِ الرَّئيسِ إبحارٌ إلى جزيرةِ العَدَمِيَّةِ...»[2]. الفيلسوف الأمريكيّ (ر. سي. سبرول)[3].

ومن أَعْظَمِ لوازمِ إنكارِ العلمِ الحضوريِّ في النَّفْسِ، أنّه يمتنع معه إثباتُ

(١) صَرَّحَ بذلك في لقاءٍ تلفزيونيٍّ في برنامج "Reality on the Rocks: Beyond Our Ken"، سنة ١٩٩٥م.

(٢) R. C. Sproul, *The Consequences of Ideas: Understanding the concepts that shaped our world* (Wheaton, IL: Crossway Books, 2000).p.171.

(٣) ر. س. سبرول R. C. Sproul (١٩٣٩ ـ ٢٠١٧م): مفكّرٌ أمريكيٌّ بارزٌ. له اهتمامٌ خاصٌّ بجدل الإيمان والإلحاد، والسِّجالِ اللّاهوتيِّ البروتستانتيّ.

أيٍّ علم حصوليٍّ؛ فإنّ الإنسان إذا لم يُصدّقْ ما يحصلُ له من معرفةٍ قهريّةٍ فسينتهي ضرورةً إلى الشّكِّ في كُلّ علمٍ حصوليٍّ، بما ينتهي به إلى العَدَميّةِ الفكريّة والقِيَميّةِ.

وقد عَبَّرَ (القاسميُّ) عن ذلك ـ من جهةٍ ما ـ بِتَنْبِيهِه أنّ «مِن المعلومات الأوّليّة أنّ كلَّ مَنْ يَجِدُ عنده علمًا ضروريًّا[1]، فهو مضطرٌّ إلى هذا العلم الذي يَلْزَمُهُ لُزومًا لا يمكنه دفعُه عن نفسِه، وإنّه ليس من حِيْلةٍ لدفعِه حتّى يُقرّرَ نقيضَهُ ونفيَهُ؛ لأنّ محاولةَ من يحاول نَفْيَهُ نظريّةٌ، ودَفْعُ الضّروريّات بالنظريّات غيرُ ممكنٍ؛ لأنّ النظريّاتِ غايتها أن يُحتجَّ عليها بمقدّماتٍ ضروريّةٍ؛ فالضّروريّاتُ أصل النظريّات، فلو قُدِحَ في الضّروريّات بالنّظريّاتِ لكان ذلك قدحًا في أَصْلِ النَّظريّات»[2].

التَّشكيكُ في العِلم الحضوريِّ يلزم منه التَّشكيكُ في العلمِ الحصوليِّ =
النتيجة: التَّشكيكُ في كُلِّ عِلْمٍ.

وفي ضوء حقيقة «برهانِ النّفس» علينا أن نبحثَ عن أجوبةِ الأسئلة المتعلّقة بالشُّعور القهريّ بغائيَّةِ الحياةِ ومعناها الكامنِ فيها بما يُلجِئُ الإنسانَ إلى التَّطَلُّع إلى السَّماء، وشعور الإنسان بسلطان الأخلاق على فِعْلِه، وعِلمِ الإنسانِ أنَّهُ عاقِلٌ.. وسنزيدُ عليها حديثًا في غير الإنسان، وهو في الطَّبائعِ الغريزيّة المعقَّدة التي يحفظ بها الكائن الحيُّ وجودَه دون تَعَلُّمٍ أو ميراثٍ، وهي جزءٌ من بنائِه النّفسيّ ـ العضويّ، يهلك دونه..

ولعلّه يَحْسُنُ بنا أن نَدْلِفَ إلى هذا الحديث من خلال الأسئلة التالية:

١ ـ هل من الممكن أن نتعايش مع حِسِّ الغاية إذا لم يكن هناك إلهٌ؟

---

(١) العِلْمُ الضّروريّ = البَدَهِيُّ الذي تضطرُّ النَّفْسُ إلى تصديقِه دون اجتهادٍ.
العِلْمُ النَّظَرِيُّ = الاكتسابيُّ بَعْدَ نَظَرٍ عَقْلِيٍّ.

(٢) محمد جمال الدّين القاسميّ، دلائل التوحيد (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م)، ص٢٣.

٢ ـ هل من الممكن أن يُوثَقَ في قدرة الإنسان على الوَعْيِ بنفسِه والعالَمِ إذا لم يكن هناك إلٰهٌ؟

٣ ـ هل من الممكن أن نكون أخلاقيّين ـ أي مُلْتَزِمِيْنَ مبدئيًّا بِنَسَقٍ خُلُقيٍّ موضوعيّ ـ إذا لم يكن هناك إلٰهٌ؟

٤ ـ هل غرائزُ الحيوانات ميراثٌ بيولوجيٌّ، أم نِتاجُ خِبْرةٍ، أم هو الإلهامُ؟

الفصل الأول

برهانُ النُّزوعِ الفِطْريّ

ـ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]

ـ لَنْ تُؤْمِنَ باللهِ حتَّى تُؤْمِنَ بِنَفْسِكَ!

(سوامي ففكنندا)[١]

بين خيارين: فطرة شفَّافة أم وَهْم مَرَضيّ؟

يَنْزِعُ الإنسانُ اضطرارًا إلى الإيمانِ بمعنًى للحياةِ يتجاوز ظواهرَ المادّةِ الصّمّاءِ، ويميلُ ـ عادةً ـ إلى الاعتقاد أنّ هناك «ذاتًا قديرةً» تملِكُ تحريك الأمر وتصريفَه بدفع الكَرْب ومَنْحِ الغَوْثِ... وهو شعورٌ عميقٌ في النَّفْسِ، راسخٌ فيها، يَظْهَرُ كثيرًا عند هُبوبِ ريح المِحَنِ وهَمْعِ الكُرُوبِ على النُّفُوسِ..

والنَّفْسُ الإنسانيَّةُ ـ بذلك ـ تَشفُّ عَنْ ميلٍ طبيعيٍّ وصميميٍّ فيها إلى الإيمانِ بخالقٍ يسمع النِّداءَ عند البلاءِ ويُجِيْبُ المضطرَّ إذا دعاهُ، ويكشِفُ السُّوءَ، ويُحقِّقُ العِلْمُ به رضا النَّفْسِ ويُوْرِثُ العَقْلَ قناعةً؛ وذاك ما يجعل الإيمان بالإنسان، بما هو كائِنٌ، قرينَ الإيمان بالله بما هو باذِلٌ؛ فَبَيْنَ الإيمانَيْنِ تَلازُمٌ، لا يَتَحَقَّقُ أَحَدُهما على أتمِّ صورةٍ دون الآخر..

يقول المؤلّهُ بيانًا للمعنى السَّالف: إذا كان اللهُ موجودًا؛ فإنَّ العَقْلَ يميلُ إلى القولِ:

- في الإنسان نزوعٌ عميقٌ إلى الإيمان بخالقٍ.

---

(١) سوامي ففكنندا Swami Vivekananda (١٨٦٣ ـ ١٩٠٢م): راهبٌ هِنْديٌّ مشهورٌ.

• النَّفْسُ غيرُ المؤمنةِ بخالقٍ تعيشُ في مُشاقَّةٍ للوجودِ.

• مصالحةُ المرءِ مع نفسِه تقتضي أن يستسلم لداعي الإيمانِ.

كما يضيف المؤلِّهُ: إنكارُ الإنسانِ نزوعَهُ القهريَّ إلى العبادة يَلْزَمُ منه إنكارُ تصديقِ الإنسان لحجّيّة عَقْلِهِ وحواسِّهِ؛ فلا فارقَ بين إنكارِ الحاسَّةِ الدّينيّة وبقيّة الحواسِّ؛ فهما أَثَرٌ عن أصلٍ واحدٍ، وزَيْفُ أَحَدِهما حُجّةٌ للشّكِّ في أصالة الآخَرِ.

ويقول الملحِدُ: إذا لم يكن اللهُ موجودًا، فإنَّ الراجح أنَّ:

• الإيمان بخالقٍ شُعورٌ دَخِيلٌ على النَّفْسِ الإنسانيَّةِ.

• الإنسان مُسْتَغْنٍ عن الإيمان باللهِ لتحقيقِ الاستواء النَّفْسِيِّ.

• الإيمان بخالقٍ حالٌ عُصابيّةٌ، يَجِبُ تصنيفُها على أنّها مرضٌ من الأمراضِ.

• فَهْم حقيقة النَّفْسِ والكَوْنِ سبيلُ طَرْدِ وَهْمِ الإيمانِ من العَقْلِ والقَلْبِ.

بين دعوى المؤلِّهِ ومذهبِ الملحِدِ صدامٌ واضِحٌ؛ فلا يَصِحُّ مذهبُ أحدِهما بلا نَفْيِ الآخَرِ.. فهل من يقينٍ في أحد الخيارَيْنِ؟

صياغةُ البرهان:

ينبني برهاننا هاهنا على مفهومِ الفِطْرةِ.. والفِطْرةُ هي الحقيقة الأَصيلةُ للإنسانِ، ومن أَوْجُهِ تعريفها عند المجادَلةِ مع الملاحدةِ النَّظَرُ إليها على أنّها: **«ما يَنْعَدِمُ أو يَعْتَلُّ مفهومُ «الإنسانِ» بانْعِدامِهِ أو باعْتِلالِهِ»**، وهي تشملُ الجوانبَ الأساسيّةَ في الإنسان بما يميّزه عن الحيوانِ والمادَّةِ؛ كالعقلِ والإرادةِ والخُلُقِ... فالمقصود بالفِطْرةِ عند الحديث عن الإيمان بالله، حقيقة الإنسان بما هو إنسان..

والحديث عن فطريّةِ الإيمانِ يتناول معاني ثلاثة لها أساسيّة موصولة بالإيمان بالله خاصة، أوّلها: ظاهرةُ البحث عن الله في الجِنْسِ البشريِّ، على اختلافِ الأزمان والبيئات والأعراقِ، وثانيها: أنّ إدراكَ وجود الله حضوريٌّ في النّفسِ، لا ينفكُّ عنها، وثالثها: أنّ النفس مدفوعةٌ إلى التوجُّهِ إلى الخالق

بإحساسِ الحاجةِ والافتقارِ، خاصّةً عند الملِمَّاتِ[1].

لا توجدُ صياغةٌ كلاسيكيّةٌ مُتّفقٌ عليها بيانًا لبرهان الفِطْرةِ؛ لأسبابٍ كثيرة؛ منها اختلافُ تعريفاتِ الفِطرة، والاختلاف في بوّاباته إلى العقل، ووَجْه الإلزام العقليّ انطلاقًا من سلطانه النّفسيّ. . .

من أهمِّ صور هذا البرهان ـ على قُصورٍ في الإحاطة بجوانبه ـ:

١ ـ لم تَسْتَغْنِ البشريّةُ طوال تاريخها المعروفِ عن الإيمان بإلٰهٍ مُهَيْمِنٍ على الوجود، وما إنكارُ وجود الإلٰهِ المعبود إلَّا شذوذٌ طارئٌ. كما أثبتت الدِّراسات النّفسيّةُ الجادّةُ حاجةَ الإنسانِ إلى الإيمانِ بخالقٍ لتحقيقِ الاستواء النّفسيِّ.

٢ ـ عَجَزَ التّفسير الطبيعيُّ التطوّريُّ عن تقديمِ تفسيرٍ سائغٍ لظاهرة التَّدَيُّنِ.

٣ ـ الإيمانُ بخالقٍ عنصرٌ أَصيلٌ في النَّفْسِ الإنسانيّة.

٤ ـ التَّشكيكُ في بعض ما هو أصيلٌ في النّفس حُجّة للتّشكيك في كلِّ ما هو أصيلٌ فيها.

٥ ـ الإنسان مُلْزَمٌ بتصديقِ ضروريَّاتِ النّفس حتّى لا ينتفيَ مفهومُ الإنسانِ.

٦ ـ الإنسانُ ملزمٌ بتصديق حاجتِه الفطريّةِ إلى الإلٰهِ.

٧ ـ الحاجةُ الفطريّةُ إلى إلٰهٍ برهانُ وجودِ الإلٰهِ.

وتفصيل ما سبق، ودَفْعُ معارضاته التي قد تَرِدُ الذِّهْنَ، في الحديث التالي. .

---

(١) انظر: مرتضى فرج، أفي الله شكٌّ؟ (بيروت: الانتشار العربي، ٢٠١٣م)، ص٥٢.

المبحث الأول

الفِطْرةُ.. ما هي؟

الفِطْرةُ لُغةً: الخِلْقَةُ. قال (ابن فارس) عن جَذْرِ «ف ـ ط ـ ر»: «أَصْلٌ صحيحٌ يَدُلُّ على فتحِ شيءٍ وإبرازِه، ومنه الفِطْرةُ: وهي الخِلْقةُ»[1].

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠]؛ فالنَّاسُ مطبوعون في أَصْلِ الخِلْقةِ على الإيمان بالذَّاتِ العَلِيَّةِ التي يُفسّر وجودُها وجودَنا والعالَمَ.

وليست الفطرةُ أن يولد الإنسانُ وهو يحمِلُ وَعْيًا مُباشِرًا صريحًا بوجود اللهِ كما هي الصُّورة المزعومةُ لبرهاننا في أدبيَّات الملاحدةِ، وإنّما الفِطْرةُ المَيْلُ الطَّبعيُّ للإنسان للإيمان بالخالق، وأنَّ الخالقَ واحِدٌ، بيده كُلُّ شيءٍ، وهو الذي يملك بسلطانه الذي لا يضاهى أنْ يُصَرِّفَ الأمرَ كيف شاء، وهو وحده الذي يستحقُّ أن يُعْبَدَ حُبًّا وتَذَلُّلًا. قال رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرةِ، فَأَبَواهُ يُهوِّدانِه أو يُنصّرانِه أو يُمجّسانِه»**[2].

قال (الطّيبي) في حديث الفِطرةِ: «المراد تَمَكُّنُ النَّاسِ من الهدى في أَصْلِ الجِبِلَّةِ، والتَّهَيُّؤُ لِقَبُولِ الدِّينِ؛ فلو تُرِكَ المرءُ عليها لاستمرَّ على لُزُومِها، ولم يفارِقْها إلى غيرِها؛ لأنَّ حُسْنَ هذا الدّينِ ثابتٌ في النُّفوسِ، وإنَّما يُعْدَلُ

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللُّغة، مادة (فطر).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، (ح/١٣١٩)، ومسلِمٌ، كتاب القَدَر، بابُ معنى كلّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطْرةِ وحُكْم موتِ أطفالِ الكفّار وأطفال المسلمين، (ح/٢٦٥٨).

عنه لآفةٍ من الآفاتِ البشريَّةِ كالتَّقليدِ»[1].

ويوافقه (ابن تيمية) على ذلك بقوله: «كلٌّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطْرةِ، ليس المراد به أنَّهُ حين وَلَدَتْهُ أُمُّهُ يكون عارفًا بالله موحِّدًا له، بحيث يَعْقِلُ ذلك. فإنَّ الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]. ونحن نعلم بالاضطرار أنّ الطفلَ ليس عنده معرفةٌ بهذا الأمر، ولكنَّ وِلادتَهُ على الفِطْرةِ تقتضي أنَّ الفِطْرةَ تقتضي ذلك، وتستوجِبُه بحسبها. **فكُلَّما حصلَ فيه قوّةُ العِلْمِ والإرادة حصلَ من معرفتها بربّها ومحبّتها له ما يُناسِبُ ذلكَ**»[2].

إنّ الإنسان يُوْلَدُ خُلوًا من المعرفة؛ فلا يَتَّجِهُ ضرورةً إلى الله إذا خرج من ظُلْمةِ الرَّحِمِ إلى أنوار الأرض لافتقادِهِ آلةَ النَّظَرِ العقليّ والشُّعور الواعي، لكنّه مع ذلك يحمل في نفسه مَيْلًا طبيعيًّا إلى الإيمانِ بالله، وتوحيدِه؛ فإذا لم تَقُمْ بينه وبين هذا الإيمان موانِعُ البيئةِ المشوَّهة، اتَّجَهَ ضرورةً إلى التوحيد؛ فإنَّ في جَنَبَاتِ النَّفْسِ وآفاقِ الكَوْنِ ما يَنْبِشُ هذا الميلَ لِيُخْرِجَهُ من الكُمونِ إلى الحياة الحيَّةِ النَّابِضةِ. والوجود الصَّافي من الكَدَرِ مذكِّرٌ للنَّفْسِ بحقيقة أصلِ الخِلقة، والميثاق الأوّل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والدَّعوةُ إلى الإيمان باللهِ وتوحيدِه، دعوةٌ لِيَتَذَكَّرَ الإنسانُ حقيقتَهُ الأُوْلى، فإنَّ النَّفْسَ نَزَّاعةٌ إلى النِّسيانِ إذا غَشِيَتْهَا غاشيةُ هُمُوم الطِّيْنِ وأَظَلَّهَا هَاجِسُ الشَّهْوَةِ المتَجدِّدَةِ. قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: ٩، ١٠]، وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية: ٢١]، وقال جَلَّ شأنه: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ، تحقيق: عبد الرحمٰن البرَّاك (الرّياض: دار طيبة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م)، ٤/ ١٨٣.

(٢) ابن تيمية، دَرْءُ تَعَارُضِ العَقْلِ والنَّقْلِ، ٣٢٨/٤.

وهذه الفِطرةُ هي الإيمانُ بالإلٰهِ الواحد، وما يَلْزَمُ من ذلك، من رغبةٍ في الاقترابِ منه والاستجارةِ به. قال نبيّ الإسلام ﷺ: «**إذا أَوَيْتَ إلى فراشِكَ فقل: اللَّهمَّ أَسْلَمْتُ نفسي إليكَ، ووَجَّهْتُ وجهي إليكَ، وفَوَّضْتُ أَمْرِي إليك، وأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إليك، رَغْبةً ورَهْبةً إليك. لا مَلْجَأَ ولا مَنْجَى منك إلَّا إليك. آمَنْتُ بكتابِكَ الذي أَنْزَلْتَ، وبِنَبِيِّكَ الذي أَرْسَلْتَ. فإنَّك إنْ مِتَّ في لَيْلَتِك، مِتَّ على الفِطْرةِ...**»[1].

وأَهَمُّ مُحَفِّزاتِ استرجاع الإنسان اتّصالَهُ العميق باللهِ ما يكون عند المحنة وفقْدانِ العَوْنِ من البَشَرِ. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

والصياغةُ القرآنيةُ لبرهان الفِطرةِ أَقربُ إلى **الخِطابِ التَّجريبيّ منه إلى الخطاب التَّجريدِيِّ**؛ إذ تَأْمُرُ الإنسانَ أن يعود إلى نفسِه ليكتَشِفَ فيها جوهرةَ الإيمان العالقةِ بسويداءِ القَلْبِ. كما تكشف للنَّفْسِ أنّ حالَ الجحودِ لله ولِحُقُوْقِهِ موقفٌ غيرُ ناضجٍ ولا واعٍ، وأنّه لا يصمد أمام الاختبار الجادِّ المبرّأ من أغراض الجَدَلِ العِنادِيِّ.

وذاك أَمْرٌ أَكَّدَتْهُ الأبحاثُ الحديثة؛ فقد أجرى باحثون في «University of British Columbia» سنة ٢٠١١م دراسةً على مجموعةٍ من المتطوّعين، وانتهى البحث إلى أنَّ تفكير المتطوّعين في الموتِ يجعلهم أكثرَ قَبُولًا للقول: إنَّ هذا الوجودَ قد خُلِقَ بِحِكْمةٍ ولِحِكْمةٍ[2].

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ﴾، (ح/ ٧٠٥٠) ومسلِمٌ، كتاب الذِّكرِ والدُّعاءِ والتَّوْبةِ والاستغفار، بابُ ما يقولُ عند النَّومِ وأَخْذِ المَضْجَعِ، (ح/ ٢٧١٠).

(٢) Jennifer Welsh, Fear of Death Spurs Belief in Intelligent Design.
<https://www.livescience.com/13534-death-anxiety-intelligent-design-evolution.html>

والدَّليلُ الفِطريُّ أصلٌ يقوم على أساسِه البرهانُ الشَّرعيُّ والبرهانُ العقليُّ حيث يجد مكانَهُ الرَّضيّ. فهو يَتَسَاوَقُ مع مَيْلِ العَقْلِ وطَبْعِ القَلْبِ؛ فَتَتَّحِدُ بذلك في الإنسان ذاتُه كُلُّها مُتَّجِهةً في حركةٍ ناعمةٍ إلى السَّيْرِ في فَلَكٍ واحدٍ، دون تَضَارُبٍ أو تَشَتُّتٍ أو تَعَثُّرٍ.

والانجذابُ القهريُّ إلى الإيمانِ بإلٰهٍ حالٌ شعوريّةٌ لا يملك الإنسان دَفْعَهَا عن نفسِه، فهي عاليةُ الوضوحِ والبَدَاهةِ في صدرِهِ حتّى إنَّ التَّخَلِّي عنها يَتَطَلَّبُ عُنْفًا مع العَقْلِ والقَلْبِ بِقَطْعِ نَبْضِهِما العَفْوِيِّ.

قال اللَّاهوتيُّ (أوغيسط ساباتييه)[1]: «لماذا أنا مُتَدَيِّنٌ؟ إني لم أحرِّكْ شفتي بهذا السؤال مرّة إلَّا وأراني مَسُوقًا للإجابة عنه بهذا الجواب، وهو: أنا متدين لأني **لا أستطيع خلاف ذلك**؛ لأنَّ التديُّنَ لازمٌ معنويٌّ من لوازم ذاتيّ. يقولون لي: ذلك أَثَرٌ من آثارِ الوراثة أو التَّرْبِيَةِ أو المزاج. فأقول لهم: قد اعترضْتُ على نفسي كثيرًا بهذا الاعتراض نفسه، ولكنّي وجَدْتُه **يُعَقِّدُ المسألةَ ولا يَحُلُّها**»[2].

إنّ جَذْبَ الإيمان بالله للإنسان شديدٌ؛ لأنّه يمنح الدُّنيا ـ بقِصَرها وقُصورها عن المطلوب ـ ما يجعل لها معنى بصلتها بالحياة الآخرة؛ فلا تملك نفسٌ هادئةٌ أن تقف عند تخوم الدُّنيا إلَّا أن تراها فاصلًا زمنيًّا بين عالَمَيْنِ يتّصل آخِرُهما بأوّلهما، ولولا هذا الاتّصال لأصبح عالم الدُّنيا بلا معنى، ولا قيمة.. وذاك ما تأبى بداهةُ العقلِ والقلب قَبُولَه..

فِطْرةُ الإنسانِ من فِطْرةِ الوُجود، كُلٌّ يسير في فَلَكٍ واحد، في طريقٍ واحد، والإلحادُ هو التعبير عن عشوائيّةِ الوجود وتَشَتُّتِهِ الكَريهِ الذي يُكَدِّرُ صَفْوَهُ الأَوَّلَ.

---

(١) أوغيسط ساباتييه Auguste Sabatier (١٨٣٩ ـ ١٩٠١م): أستاذٌ في كليّة اللَّاهوت البروتستانتيّ بسترازبورغ، ثم مؤسّس كليّة اللَّاهوت البروتستانتيّ بباريس. تقوم فلسفته على أنّ الإيمان ينشأ من تَوْقِ الإنسان إلى مثالٍ أعلى يَظْهَرُ في شكل مجموعةٍ من التصوّراتِ التي من الممكن أن تأخذ شكل عقيدةٍ دينيّةٍ. من مؤلّفاته: Esquisse d'une philosophie de la religion d'après la psychologie et l'histoire.

(٢) حسن عيسى عبد الظاهر وآخرون، بحوث في الثقافة الإسلامية (الدوحة: دار الحكمة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م)، ص٣٨.

المبحث الثاني

الإيمان بالله بِضْعةٌ من حقيقة الإنسان

يقول (ابن القيم) في شرح معنى الفِطْرةِ التي يولَدُ عليها الإنسان: «كُلُّ مولود فإنّه يولد على مَحَبَّتِهِ لِفاطِرِهِ، وإقراره له بربوبيَّتِه، وادِّعائه له بالعبوديّةِ؛ فلو خُلِّيَ وعدم المعارض؛ لم يعدل عن ذلك إلى غيره، كما أنّه يولد على محبّةِ ما يُلائم بَدَنَهُ من الأغذية والأشربة، فيشتهي اللَّبَنَ الذي يُناسبه ويُغذّيه»[1].

وهي الحقيقة التي عبّر عنها اللّاهوتيُّ (جون كالفن)[2] «Sensus divinitatis»؛ أي: «الإحساس الإلٰهيّ»، وهو الإحساس الذي يمنح الإنسان معرفةً بالله، وانجذابًا إلى معنى الربوبيّة، بما يجعل وجود مُلْحِدٍ **صِرْفٍ** مجرّد وَهْمٍ؛ إذ إنّ شَغَفَ القلبِ بالحقيقة المتعالية على المادة أصيلٌ في النَّفْسِ، كُلّ نفسٍ. والأمر يحتاج ـ كما يقول الفيلسوف (بلانتنجا) ـ أن يقع تَمَاسٌّ بين طبيعة الإيمان بالله الكامنة في النَّفْسِ والعالم الخارجيِّ، ليحصل استحثاثُ هذا الإيمان للخروج من عالم القوّة إلى عالم الفِعْلِ[3].

ومن ظريف ما قيل في هذا المقام، مقالٌ كَتَبَتْهُ صحفيّة أمريكيّةٌ في «الواشنطن بوست» تحت عنوان: «أنا مُلحدةٌ، فَلِمَ لا أستطيع أن أَصْرِفَ الله

---

(١) ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م)، ص٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٢) جون كالفن John Calvin (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م): لاهوتيّ فرنسيّ، من أعلام ما يُعرف بالإصلاح البروتستانتي. يُنسب إليه الكالفنيون.

(٣) Alvin Plantinga, “Reason and belief in God,” in *Faith and Rationality* (Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1983), p.67.

عنّي؟». وفيه تتحدَّثُ عن تجربتها مع الإيمان بالله والكفر به، وتنتهي في الآخر إلى أنّها وإن كانت ملحدةً إلَّا أنّها لا تستطيع التخلُّص من «إحساس الأُلوهيّة» في صَدْرِها، ولذلك حاولت عَقْلَنَةَ الأمر بقولها: إنّ البناء الإنسانيَّ قد صيغ ليكون مؤمنًا بالله، أو بعبارتها: «من **المحيّر والمحبِطِ** أن تشعرَ بوجود شيءٍ لا تؤمن به.... لستُ على يقينٍ في شأنِ ما يجب فِعْلُه حيالَ أمر الإلٰهِ. إذا كان بإمكاني معرفة طريقةٍ لإبعادِ هذه الصُّورة عن نفسي؛ فسأفعل ذلك. لكنَّ علم النَّفْسِ ليس لِصالحي. يبدو أنّه بعد أن أَلِفْتُ الإيمانَ بالله لسنواتٍ عديدة، وعِشْتُ بدماغٍ قد ثُبِّت فيه الإيمانُ؛ سأُجبر على أن أبقى مع ظلِّهِ للأبدِ. ومع أني لا أزال ثابتةً على (عدم) الإيمان، إلَّا أني أشعرُ أيضًا أنه لا خيارَ لي سوى قبول أنني **ملحدةٌ مع مَيْلٍ إلى اللهِ**»[1].

فالإيمان بالله بِضعةٌ من الإنسان، يَخْتَلُّ اتّزان كلٍّ من يفقِدُه، وتتكدَّرُ دخيلةُ كلّ من يتخلَّصُ منه (في السَّطْحِ)، ولا تستطيع جدليَّاتُ أئمَّةِ الإلحادِ ولجاجَتِهم أن تُخْمِدَ صوتَ هذا النُّزوع الحامي إلى التعلّق بالسَّماءِ. ومن هؤلاء الذين فَشِلُوا في إجهاض أَجِنَّةِ الفِطْرةِ في الصَّدْرِ، (برتراند راسل) ـ أحد أئمّة الإلحاد في القرن العشرين ـ؛ فهو القائل: «لا شيء يمكن أن يخترق وَحْدةَ قلبِ الإنسان إلَّا أَمْرٌ مشبع بصورةٍ عاليةٍ مثل الحُبِّ الذي بَشَّرَ به المعلّمون الدّينيُّون»[2]. إنّ هذا الشُّعور هو وحده الذي يحقّق سعادةَ الامتلاء، وسَكِينةَ القلبِ، وتتنفَّسُ به الرُّوح دون انقباضٍ دائمٍ..

ويُلَخِّصُ (ابن القيم) الآفاتِ الدَّافعةَ قَهْرًا إلى طلب الاكتمال بالإيمان في قوله: «في القلب **شَعَثٌ** لا يَلُمُّهُ إلَّا الإقبال على الله..

وعليه **وَحْشةٌ** لا يُزِيْلُهَا إلَّا الأُنْس به في خَلْوَتِهِ..

وفيه **حُزْنٌ** لا يُذْهِبُهُ إلَّا السُّرور بمعرفته وصِدْقِ معاملتِهِ..

---

(١) Elizabeth King, I'm an atheist. So why can't I shake God?, *washingtonpost. 4 feb. 2016.* <https://www.washingtonpost.com/posteverything/wp/2016/02/04/im-an-atheist-so-why-cant-i-shake-god/?utm_term=.722ee483b928>

(٢) Bertrand Russell, *The Autobiography of Bertrand Russell* (London: George Allen and Unwin, 1967), p.146.

وفيه **قَلَقٌ** لا يُسكنه إلَّا الاجتماعُ عليه، والفِرار منه إليه..

وفيه نيرانُ **حَسَراتٍ** لا يُطْفِئُهَا إلَّا الرّضا بأَمْرِهِ ونَهْيِهِ وقَضَائِهِ، ومُعانقةِ الصَّبْرِ على ذلك إلى وقتِ لِقائِهِ..

وفيه **طَلَبٌ** شديدٌ لا يقف دون أن يكون هو وحده المطلوب..

وفيه **فاقةٌ** لا يَسُدُّها إلَّا مَحَبَّتُه ودوام ذِكْرِه والإخلاصِ له، ولو أُعطِيَ الدُّنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقةُ أبدًا»[1].

ليست كلمات (ابن القيم) مبالغاتٍ عاطفيّةً لعالِم مُؤَلِّهٍ مُنحازٍ بأشواقِ قلبِه الحارَّةِ إلى ما يهوى فؤادُه، وإنما هي حقائقُ أَقَرَّ بها أئمَّةُ الإلحاد المعاصِرِ ممّن شَقُّوا للإلحاد طريقًا للوجود اليوم.

إنّ في هذا الشعور الصَّارخِ بالفراغِ في قلب الإنسان دلالةً على مفقودٍ في عالم المادّة، أو بعبارة الفيلسوف الملحد (شوبنهاور)[2]: لا يوجدُ شيءٌ **في هذه الدُّنيا** من الممكن أن يُطفِئَ حنينَ الإنسان، وأن يرسم هدفًا نهائيًّا لطلباته، ويملأَ البِئْرَ التي لا قَعْرَ لها في قلبِه[3].. وفي ذلك إشارةٌ بيّنةٌ إلى أنّ الامتلاء هو الأصل الأوّل للنفس في مهدها الرّوحيّ، ولذلك كتب (بليز باسكال): «ما هو الشَّيءُ الآخَرُ الذي يُعلِنُه هذا الحنينُ وهذا العجزُ غير أنّه كان في الإنسان في يوم ما سعادةٌ حقيقيّةٌ، لكنْ لم يبقَ منها الآن غيرُ علامةٍ فارغةٍ وأَثَرٍ؟ وهو يحاول ـ عَبَثًا ـ أن يملأ هذا الفراغ بكلّ شيءٍ حوله، يبحث في أشياء ليست موجودةً عن عَوْنٍ لم يستطع أن يجده في الأشياء الموجودة، رغم أنّه لا شيء من ذاك يَنْفَعُ؛ إذ إنّ هذه الهوَّةَ السَّحيقةَ لا يمكن أن تمتلئ إلّا بشيءٍ لانهائيٍّ وغير متقلِّبٍ، بعبارة أخرى بالله»[4].

---

(١) ابن القيم، مدارجُ السَّالكينَ بين مَنَازلِ إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ، تحقيق: محمد حامد الفقي (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م)، ٣/ ١٦٤.

(٢) آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠م): فيلسوف عدمي ألمانيّ ملحد. عُرف بنزعته التشاؤميّة. أعلى من جانب الإرادة التي تصنع وعي الإنسان.

(٣) Arthur Schopenhauer, *The World as Will and Representation*, tr. E. F. J. Payne (New York: Dover, 2012), 2/573.

(٤) Blaise Pascal, *Pensées*, 7.425.

والإيمان بمعنى الوجود ـ أيضًا ـ بضعةٌ من حقيقة هذا الوجود؛ والإنسان لا يملك أن يَصِلَ إلى وَهْمِ العَدَميّة حتى يستبطِنَ أنّ الكون يحمل معنى؛ إذ المعنى منقوشٌ في النَّفْسِ، وهو ظِلٌّ من المعنى القائم في الوجود؛ وهو المعنى الذي عبَّرَ عنه (سي. أس. لويس) بقوله: «إذا كان الكونُ كُلُّه بلا معنى؛ فيلزَمُ من ذلكَ ألَّا نَكْتَشِفَ ـ البَتَّةَ ـ أَنَّهُ بلا معنى. فالأَمْرُ مثلَ القولِ: إذا لم يكن هناك ضَوْءٌ في الكَوْنِ؛ ولم يوجد مخلوقٌ بِعَيْنَيْنِ؛ فيجب ألَّا نعرف ـ البَتَّةَ ـ أَنَّ الكونَ مُظْلِمٌ. سيكون الظَّلامُ بلا معنى»[1].. إنّ الإنسانَ لنْ يَتَّجِهَ قلبُه بحثًا عن المعنى في هذا الكونِ ـ وإن كان قد ينتهي ظاهرًا إلى إنكارِهِ ـ حتّى يَنْجَذِبَ قلبُه أَوَّلًا إلى هذا المعنى السَّاري في أَنْفاسِ الوجودِ. ولذلك نَبَّهَ عددٌ من الكُتَّابِ أَنَّ الجهدَ الكبيرَ الذي يبذله دُعاةُ الإلحادِ في التأليفِ والمحاضرةِ والمناظرةِ لإنكارِ وجودِ اللهِ، لا تفسيرَ لهُ غيرَ أَنَّ هؤلاءِ المجتهدين الحماسيّين يعيشون تحت وَطْأَةِ ثِقَلِ شُعُورهم القويِّ بِفِكْرةِ الإلٰهِ، وأَهَمِّيَّتِها، رغم ظاهرِ قناعَتِهِمْ أَنَّ هذا الوجودَ بِرُمَّتِهِ بلا معنى ولا هدفٍ ولا قِيمةٍ. إنّها حماسَةٌ لا تُوقِدُها بُرودةُ الإلحادِ وإنَّما أَشْعَلَها لهيبُ الإحساسِ بالإلٰهِ والعُلُوِّ والغايةِ، وهو ما أَلْجَأَ (شوبنهاور) إلى أنْ يَصِفَ الإنسان أنَّهُ «حيوانٌ ميتافيزيقيٌّ»، في مقابل وَصْفِ (أرسطو) له أَنَّهُ «حيوانٌ عاقِلٌ»؛ فالإنسانُ كائنٌ ميتافيزيقيٌّ؛ بِنَزْعَتِهِ إلى البحثِ عن مصدر الجَذْبِ الأَوَّلِ، على خلافِ بقيَّةِ الأحياءِ المتّجِهةِ إلى العبادة بالخُضُوعِ قَهْرًا.

«يَجِدُ المرءُ نفسَهُ ـ لِدَهْشَتِهِ ـ موجودًا بصورةٍ مفاجئةٍ بعد آلافٍ مؤلَّفةٍ من السَّنوات التي لم يوجَد فيها. يعيشُ مُدّةً قصيرةً، ثمَّ مرَّةً أُخرى تأتي مُدَّةٌ أُخرى طويلةٌ أيضًا حيث يَجِبُ أن يختفيَ من الوجود. يثورُ القَلْبُ ضِدَّ هذا الواقعِ، ويَشْعُرُ أَنَّهُ لا يُمكِنُ أنْ يكون صحيحًا»[2]. الفيلسوف الملحِدُ (آرثر شوبنهاور).

(١) C.S. Lewis, *Mere Christianity, The Complete C. S. Lewis Signature Classics* (San Francisco, Calif.: Harper-SanFrancisco, 2002), p.41.

(٢) Arthur Schopenhauer, *A Series of Essays by Arthur Schopenhauer* (P. Eckler, 1915), p.22.

المبحث الثالث

الدِّراساتُ النَّفْسيَّةُ والنُّزوعُ الطبيعيُّ

يقول القرآن: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠]، ويقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

إنّ الإنسانَ في التصوّرِ القرآنيِّ مصنوعٌ على صُورةٍ لا تُحقِّقُ استواءَها ونُضْجَها إلَّا أن يكون الإيمانُ جُزءًا من حقيقةِ الذَّاتِ، ومتى بَتَرَ حَبْلَ الإلهامِ بينَهُ وبين الإيمان؛ اعْتَلَّتْ نفسُه، وفقدَ القلبُ قُدرتَهُ على الإحساسِ السَّويِّ، وعَجز العَقْلُ عن تحديد اتّجاهاتِ الفعل والحركةِ.

وتعترف عامّةُ الدّراسات النفسيّةِ اليومَ أنّ الإيمان بخالِقٍ مغروسٌ في البِنْيةِ العصبيّةِ والذِّهْنيّةِ للإنسانِ، ولكنْ نَظَرًا لِهَيْمَنَةِ القاعدةِ الإلحاديّةِ على أبحاثِ علم النَّفْسِ المعاصرةِ، والانطلاقِ من مُسَلَّمةِ أنَّ الأديان مَحْضُ اختلاقٍ بشريٍّ وصناعةٍ ثقافيّةٍ، تضطرُّ هذه الدِّراساتُ إلى الجِدّ في تفسير النُّزوع الدينيِّ تفسيرًا ماديًّا، مُنْكِرةً صِدْقَهُ الموضوعيّ.

وقد زعم بعضُ الباحثين أنّه قد تَوَصَّلَ إلى معرفة الجينِ المسؤولِ عن عقيدةِ الإيمانِ بإلٰهٍ، وهو ما ادَّعاهُ ـ مثلًا ـ (دين هامر) ـ رئيسُ مركزِ أبحاثِ الجينات بالمعهد القوميِّ للسَّرطانِ في الولايات المتَّحدة الأمريكيّة ـ في كتابه «جِيْنُ الإلٰهِ: كيف ثُبِّتَ الإيمانُ في جِيْناتنا»[١]، زاعمًا أنّ الجين (VMAT2) هو المسؤول عن عقيدة الإيمان بالله!

---

(١) *The God Gene: How faith is hardwired into our genes* (New York: Anchor, 2005).

كما أَلَّفَ عالِمُ الأعصاب (كفن نلسون) كتابَه «نبضة [الإيمان] بالله: هل ثُبِّتَ الدِّينُ في أَدْمِغَتِنَا؟»(١). وأَلَّفَ (أندرو نيوبرغ) (مشاركةً) كتابَهُ «لماذا لا يختفي الله: علم الدِّماغِ وبيولوجيا الإيمان»(٢)، وقَرَّرَا أنّ الإيمان بالله بِضْعةٌ من بناء الوَعْيِ البشريِّ.

ونَشَرَتْ صحيفةُ (تلجراف) البريطانيّة ـ شهر نوفمبر من سنة ٢٠٠٨م ـ حصيلةَ بَحْثٍ أكاديميٍّ عن الأطفال بعنوان: «الأَطفالُ يُولدون مؤمنينَ باللهِ»(٣). وقد انتهى البحث إلى أنَّ نُزوعَ الأطفالِ إلى الإيمان بخالقٍ وحِكْمةٍ وراء هذا الكون الماديِّ، نُزوعٌ عميقٌ، ساكِنٌ في النَّفْسِ الإنسانيَّةِ، مُسْتَغْنٍ عن التَّلَقِّي الخارجيِّ من خلال أَثَرِ المجتمعِ.

ومما جاء في البحث قول الدكتور (جستن بارت) ـ الباحث في مركز الأنثروبولوجيا والدِّماغ في جامعة أوكسفورد ـ: إنَّ الصِّغارَ عندهم قابليةٌ كبيرةٌ للإيمانِ بالله لأنّهم يفترضون أنَّ العالَمَ قد خُلِقَ لغايةٍ.

وأَكَّدَ (جستن بارت) أنّ الإيمان الدِّينيَّ للأطفالِ عميقٌ جدًّا حتّى إننا لو تَرَكْنَا أطفالًا في جزيرةٍ نائيةٍ فسيتَّجِهُون إلى الإيمان بالله؛ فالواقعُ الطبيعيُّ مُحَفِّزٌ للإيمانِ حتى دون تعليم خارجيٍّ. وهو بذلك يُؤَكِّدُ فِكْرةَ (ابن طُفَيْلٍ)(٤) في روايته الفلسفيَّةِ «حَيّ بن يَقْظان»، حيث اهتدى طِفْلٌ ناشِئٌ في جزيرةٍ نائيةٍ ـ يَتَغَذَّى على لَبَنِ ظَبْيةٍ ـ لم يَعْرِفْ له أُمًّا ولا جماعةً من البَشَرِ يُعَلِّمُونَهُ حقائقَ الحياة أَنَّ لِلْكَوْنِ إلٰهًا بمجرّد تفاعُلِ عَقْلِهِ وقَلْبِهِ مع البيئةِ الماديَّةِ التي تحيط به. وهي القِصَّةُ التي حَفَرَتْ بَصْمَتَهَا في فِكْرِ عددٍ من فلاسفة عَصْرِ النَّهضةِ الأوروبيّة كـ(جون لوك) و(باروخ سبينوزا) و(لايبنتس) الذي أثنى عليها ثناءً عظيمًا. فالكَوْنُ يُفَسَّرُ بالبداهة البشريّةِ أنّه أَثَرُ قُدْرةٍ عظيمةٍ. وهو ما أَكَّدَهُ عالم

---

(١) *The God Impulse: Is religion hardwired into our brains* (London: Simon & Schuster, 2011).

(٢) *Why God Won't Go Away: Brain Science & the Biology of Belief* (New York: Ballantine Books, 2002).

(٣) Children are born believers in God: <http://www.telegraph.co.uk/news/religion/3512686/Children-are-born-believers-in-God-academic-claims.html>.

(٤) ابن طُفَيْلٍ: أبو بكر محمّد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسيّ الأندلسيّ (١١٠٥م ـ ١١٨٥م): فيلسوفٌ أندلسيٌّ مُتَعَدِّدُ المعارِفِ. عَمِلَ وزيرًا في دولة الموحّدين.

النَّفْسِ (بول بلوم)[1] بقوله: «عندما سُئِلَ الأطفالُ بصورةٍ مباشرةٍ عن أَصْلِ الحيوانات والنَّاسِ، مالُوا إلى تفضيلِ التَّفسيرات التي تنطوي على خالقٍ صاحبِ قَصْدٍ، حتى لو لم يكن للبالغين الذين ربّوهم الرُّؤية نفسها»[2].

وقد انْتَهَتْ (أوليفيرا بيتروفيتش) ـ عالِمَةُ النَّفْسِ المختصّة في الوَعْيِ الطَّبيعانيّ والدّينيّ عند الإنسان وتطوُّرِه ـ بعدَ أبحاثٍ مُوسَّعَةٍ على مئاتِ الأطفالِ في كتابها الصَّادرِ هذه الأيام «الإدراكُ اللّاهوتيُّ الطبيعيُّ من الطُّفولةِ إلى الكُهُولَةِ»[3] إلى أَنَّ الطفلَ يُوْلَدُ بِنُزوعٍ طبيعيٍّ سَلِسٍ إلى الإيمانِ باللهِ، وأَنَّ **الإلحادَ مَوْقِفٌ مُكْتَسَبٌ طَارِئٌ**[4].

«ظهرَتْ في السَّنوات القليلةِ الماضية، عِدَّةُ أبحاثٍ تكشِفُ حقيقةَ فَهْمِ الأطفالِ لبعضِ الأفكار الدّينيَّةِ العالميَّةِ. وتُشيرُ بعضُ النَّتائجِ الحديثةِ إلى أَنَّ اثنين من الجوانبِ التأسيسيَّةِ في المعتَقَدِ الدّينيِّ ـ الإيمان بالذَّواتِ الإلٰهيَّةِ، وثُنائيَّةِ الجِسْمِ والعَقْلِ ـ تَرِدُ طبيعيًّا إلى الأَطْفالِ الصِّغار.» (بول بلوم)[5].

كما أثارت دراساتُ عالِمِ الأنثروبولوجيا (باسكال بوير) انتباهَ الباحثين، خاصّةً بعد مقالِهِ الذي نَشَرَهُ في مجلّة «Nature» منذ سنواتٍ قليلة،[6] حيث أَكَّدَ عُمْقَ البناءِ الدّينيِّ في العقل الإنسانيِّ. وقد عَلَّقَ أحدُ الباحثين على هذا المقال بمقالٍ آخرَ ظريفٍ بعنوان: «**اكتشفَ العلماءُ أنّه ربّما لا يوجد ملاحدةٌ،**

---

(١) بول بلوم Paul Bloom (١٩٦٣ـ): عالم نَفْسٍ كَنَديّ. أستاذُ علمِ النَّفْسِ وعلمِ الإدراكِ في جامعة يال.

(٢) Paul Bloom, 'Religion Is Natural,' *Developmental Science 10 ,no. 1 (2007): 147 -51.*

(٣) Natural-theological Understanding from Childhood to Adulthood.

(٤) تذكر (أوليفيرا) أنَّ مساعِدِيها اليابانيّين قد خالفوها رأيَها في أصالةِ الإيمان بالله عند الأطفالِ بدعوى أنَّ اليابانيّين يختلفون عن غيرهم في هذا الشَّأنِ. فَعَلَّقَتْ ـ في لقاءٍ صحفيٍّ ـ بقولها إنّها اختبرَتْ أطْفالًا بريطانيّين ويابانيّين، وكانت النتيجةُ واحدةً. وأضافَتْ أنّه رغم أنَّ الدِّيانة الشنتويّة في اليابان لا تعترف بإلٰهٍ، إلّا أنَّ الأطفالَ لما عُرِضَتْ عليهم الظواهرُ الطبيعيةُ وأُلزِمُوا أنْ يختارُوا تفسيرَها بفعلِ اللهِ أو أنّه لا أحَدَ يعلمُ أو أنَّ النَّاسَ فَعَلُوها، كانت إجابتهم هي الخيار الأوَّلَ. وهو ما عَدَّتْهُ (أوليفيرا) أعْظَمَ اكتشافٍ في بحثِها لأنَّهُ يُثْبِتُ أنَّ البيئة والثَّقافة بعيدتان عن تفسيرِ هذه الظَّاهرةِ.

R. Bryant, 'In the Beginning: An Interview with Olivera Petrovich', *Science and Spirit*, 1999.

(٥) Paul Bloom, 'Religion is natural,' *Developmental Science* , 10:1, pp 147-151 (2007).

(٦) Pascal Boyer, 'Being human: Religion: Bound to believe?,' *Nature*, 455, 1038-1039 (23 October 2008).

وليست هذه طُرْفة»[١]. وهي الفكرة التي عبّر عنها أحدُ الكُتَّابِ الملحدين في مجلّة «New Scientist» بقوله: «**الإلحادُ أمرٌ مستحيلٌ نفسيًّا** بسبب الطريقة التي يُفَكِّرُ بها البشرُ... هناك دراساتٌ تُظْهِرُ ـ على سبيل المثال ـ أنه حتى الأشخاص الذين يَدَّعُون أنهم ملحدون يلتزمون بصورةٍ ضمنيّةٍ بمعتقداتٍ دينيّةٍ، مثل وجودِ رُوحٍ خالدةٍ»[٢].

وقد انتهَتْ دراسةٌ لعلماءِ ثلاثة من قِسْمِ علم النَّفْسِ ودراسات الدِّماغ من جامعة (بوسطن) تحت عنوان: «الدِّماغُ المتفرِّقُ لغير المؤمِنِ» إلى أَنَّ في الإنسان مَيْلًا طبيعيًّا إلى رُؤيةِ الطَّبيعة كشيءٍ مُصَمَّم. وهي نتيجةٌ أُسِّسَتْ على ثلاثِ دراساتٍ أُجْرِيَتْ على مجموعاتٍ من المؤمنين باللهِ والملاحِدَةِ. وقد عُرِضَتْ فيها صُورٌ متتاليةٌ أمامَ المشاركين على سرعاتٍ مُتفاوتةٍ ليختاروا إنْ كانت المناظِرُ المعروضَةُ تَدُلُّ على أَنَّ ذاتًا قد صَمَّمَتْ ما في الصُّورِ لحِكْمةٍ. وكانت التَّجربةُ الثالثةُ خاصّةً بملاحِدَةِ فنلندا حيث الثَّقافةُ الإلحاديّة مُهَيْمِنَةٌ بصورةٍ شِبْهِ كُليّةٍ على الواقع الفِكْريّ، ومع ذلك كانت النَّتيجةُ واحِدةً في التّجارب جميعِها، وهي أَنَّ في الإنسان نُزوعًا للتَّفسير الغائيِّ للوجودِ؛ بما يَدُلُّ على أَنَّهُ شيءٌ أَصيلٌ في ذاتِهِ[٣].

وليس أَمْرُ إحساسِ الإنسانِ بالغائيّةِ قاصرًا على جانب البُنى والصُّورِ في موجودات العالَم، وإنّما يمتدُّ إلى أَبْعَدَ من ذلك، وهو سَيْر مجرى حياة الإنسان.. فقد تضَمَّنَ بحثٌ أُجْرِيَ سنة ٢٠١٤م ـ نشرتْهُ مجلّة (Cognition)[٤] تحت عنوان «لماذا يحدث هذا لي؟ التّفكير الغائيُّ حول أحداثِ الحياة للمؤمنين المتديّنين وغيرِ المؤمنين» ـ دراسةً أجريت في أمريكا على عددٍ من

(١) <http://www.science20.com/writer_on_the_edge/blog/scientists_discover_that_atheists_might_not_exist_and_thats_not_åjoke-139982>.

(٢) المصدر السابق

(٣) Elisa Järnefelt, 'Caitlin F. Canfield and Deborah Kelemen, The divided mind of a disbeliever: Intuitive beliefs about nature as purposefully created among different groups of non-religious adults', *Cognition* 140:72-88 (2015).

(٤) Konika Banerjee and Paul Bloom, 'Why did this happen to me? Religious believers' and non-believers' teleological reasoning about life events, *Cognition*, Volume 133, Issue 1, October 2014, Pages 277 -303. <http://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0010027714001358>.

المتطوّعين، طُلِبَ منهم فيها أن يُفَكِّرُوا في أحداثٍ مُهمّةٍ في حياتهم؛ كالتخرّج في الجامعة، وميلاد الأبناء، وعلاقات الحبّ، وموتِ أشخاصٍ قريبين منهم، وكانت المفاجأة أنَّ أغلبيّةَ غيرِ المؤمنين ذهبَتْ إلى نفس ما قالته أغلبيّة المؤمنين، وهي أنَّ ما وقع لهم كان لِحِكْمةٍ، وقَدَرٍ، وأنّه كان أثرًا عن تصميم لا عشوائيّةٍ عمياءَ. وقد كان الجواب نفسُه حاضرًا في دراسة بهذه الطَّبيعةِ في بريطانيا[1].

ومن دقيق ما نَبَّهَ إليه عددٌ من الباحثين، أنَّ ثورة الإنسانِ الملحدِ على الإلٰهِ، وحِرْصَهُ الشَّديد على إظهار ملامِح الغضبِ والثَّورةِ عند حدوث المصائبِ، خاصّةً النَّوائبَ الطَّبيعيةَ الكبرى، كُلُّ ذلك لا يلتقي مع ما يجب أن يكون عليه الملحِدُ إذا كان يحمِلُ قناعةً أَلَّا إلٰهَ في الوجود، وأنّ العشوائيّةَ تَحْكُمُ حركةَ كُلِّ شيءٍ، وأنّه لا معنى للمعنى في غيبة المعنى..

إنَّ الملحدَ يصيح غاضبًا لأنّه لا يملك أن يَنْزِعَ إحساسه بالحاجة الضروريّة إلى وجود إلٰهٍ؛ لذلك يصرخُ عندما يفشَلُ في إيجاد ائتلافٍ بين حِسِّهِ الطاغي بوجود إلٰهٍ وما يراه على الأرض من مظاهِرَ يستنكِرُهَا عَقْلُه أو قَلْبُه.. إنَّ صَرْخَتَهُ ليست رفضًا للإلٰهِ، وإنّما هي صرخةُ وَجَعٍ حين العَجْزِ عن الفَهْمِ.. ولو أنَّ مُلحِدًا حقيقيًّا، صافيَ الإلحاد، عاش في أرضنا، لما ارتاعَ من أيِّ مظهرٍ للشَّقاء أو الألم أو الظُّلْمِ في الوجود، ولَوَقَفَ باردًا غايةَ البُرُودِ أمام مَنْظَرِ طفلةٍ تموت بسرطان الدَّمِ أو قطارٍ يَدْهَسُ غافِلًا؛ فهو يملِكُ قناعةً أنّه أمام غُبارٍ كونيّ تَحَوَّلَ بفعلِ التطوُّر الأعمى إلى حيوانٍ يمشي على رِجْلَيْنِ قبل أن يعود إلى أصل التُّراب..

إنّ الإلحادَ في أقصى مظاهرِ ثورته ورفضِه للإلٰهِ، تعبيرٌ عن تنازعِ الإيمان باللهِ وشهودِ واقعٍ مُنْكَرٍ بما يُعجز البعض أن يؤالف بينهما، وهو ليس يقينًا في عدم وجود إلٰهٍ؛ فإنّ العاقلَ لا يثورُ على العَدَمِ، ولا يصرخُ في الوَهْمِ!

---

(١) Bethany T. Heywood & Jesse M. Bering, "Meant to be": how religious beliefs and cultural religiosity affect the implicit bias to think teleologically', *Religion, Brain & Behavior* Vol. 4, Iss. 3, 2014.

المبحث الرابع

كانط[1] والخير الأقصى المطلوب

في فيلم الأطفال «Prancer»، تقول البنتُ الصّغيرة «جسّي» التي فَقَدَتْ أُمَّها حديثًا، لصاحبتها التي لا تؤمن إلَّا بما تراه: «ولكنْ ماذا عن اللهِ؟ إنّك لا تملكِين رؤيته أيضًا؛ فهل يعني ذلك أنّك لا تؤمنين به؟». فاعترفَتْ لها صديقَتُها بشكوكها حول وجودِ الله للسَّببِ ذاتِه؛ وهو ما فاجَأَ «جسّي»؛ حتّى إنّها قالت لها: «ولكنْ إذا لم يكن هناك إلٰهٌ؛ فلا توجد هناك سماءٌ. وإذا لم تكن هناك سماءٌ، فَأَيْنَ أُمِّي؟»[2].. تلك صرخةُ القَلْبِ التي تعلنُ أنّ هذه الحياةَ أَصْغَرُ من أن تكونَ كُلَّ شيءٍ؛ فلا شيءَ وراءها.. فلا اتّصالَ بعد انفصالٍ، ولا راحةَ بعد تَعَبٍ؛ بل ولا عَدْلَ بعد ظُلْمٍ..

لقد رفضَ الفيلسوفُ (عمانويل كانط) جميعَ البراهينِ العقليّةِ على وجودِ الله (بمعارضات لا تخلو من مغالطة)، لكنّه عاد ليقرّرَ وجودَ الله من باب ثقةِ النَّفْسِ في مفهوم العَدْلِ؛ فالوجودُ الماديُّ الظرفيُّ يأبى أن يمنحنا قصّةً يقبلها العقل العمليّ.

ومن الممكنِ صياغةُ البرهانِ الكانطيّ على الصورة التّالية:

١ ـ الخيرُ الأعظمُ عند كلّ النّاسِ هو تحقيقُ السّعادة مع أداء الواجباتِ.

٢ ـ على كلِّ النّاس أن يَسْعَوا إلى الخير الأعظمِ.

---

(١) عمانويل كانط Immanuel Kant (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م): فيلسوف ألماني شهير. كان مَعْلَمًا بارزًا في تاريخ التفلسف بعد النزاع الطويل بين المدرستين العقلية والتجريبية. تأثيره الأكبر كان في مباحث نظرية المعرفة والميتافيزيقا وفلسفة الأخلاق.

(٢) Ravi Zacharias, *The Real Face of Atheism*, pp.94-95.

٣ ـ بإمكان النّاس أن يفعلوا ما يجب عليهم أن يفعلوه.

٤ ـ لكن النّاس في عجزٍ عن تحقيقِ الخيرِ الأعظمِ في هذه الحياةِ.

٥ ـ إذن النَّاسُ في حاجةٍ إلى اليوم الآخرِ لتحقيق الخير الأعظمِ.

٦ ـ وجود اليوم الآخرِ يقتضي وجودَ الله.

لم يرَ (كانط) في برهانِه الأخلاقيّ حجّةً نظريّةً لوجود الله؛ فقد زَعَمَ أنّ كُلّ الحججِ العقليّةِ قاصرةٌ، وإنّما كان يرى أنّ الإيمانَ بالله ضرورةٌ عمليّةٌ للتّصالح مع النّفسِ؛ فإنّ إيمان النّفسِ بمفهوم العَدْلِ عميقٌ جدًّا لا يمكن أن يُضحّى به لأَجْلِ وَهْمٍ فِكْريٍّ، كائنًا ما كان.

وقد انتقد كثيرٌ من الفلاسفة برهانَ (كانط) بالقول: إنّه لا يلزم من الحاجة إلى الشّيء وجودُ هذا الشّيءِ، وليس في الحاجة إلى «الخير الأكبر» «Summum bonum» دلالةٌ ضروريّةٌ على وجودِه أو حتميّة تحصيلِه. والبرهانُ ـ كما نراه في صيغته المعتدلة ـ يجب أَلَّا يُفْهَمَ أنّه تعبيرٌ عن وجوبِ التَّلازم المنطقيّ (المباشر) بين الحاجة إلى الشيء ووجوبِ وُجودِه؛ وإنّما هو تعبيرٌ عن مَلْحظٍ آخرَ في الوجود؛ وهو أنَّ الأمر الجليل لا يَتَمَخَّضُ عادةً عن أَمْرٍ تافهٍ أو عَدَميٍّ؛ فذاك هو القانون المُطَّرِدُ في الكون، والذي لا نعرف له استثناءً، بما يجعل عِبْءَ إِنْكارِهِ ثقيلًا على كاهِلِ المخالِفِ. وهو ما عبّر عنه الفيزيائيُّ اللَّاأَدْرِيّ (بول ديفيس) بقوله: «لا أستطيع أن أُصَدِّقَ أنَّ وجودَنا في هذا الكون مجرّد حدثٍ فُجائيٍّ، حَدَثٍ تاريخيٍّ عَرَضِيٍّ، طَفْرةٍ عَرَضِيَّةٍ في الدّراما الكونيّة العظيمة. مشاركتنا في هذا العالم حميميّة جدًّا... لقد قُصِد حقًّا أن نكون هنا»[1]... فهذا الوجودُ العظيمُ لا يمكن أن ينتهيَ إلى رمادٍ دون حِكْمةٍ؛ بأَنْ يسير إلى الموتِ الصَّامتِ بعد حياةٍ صاخبةٍ تَحْتَضِنُ كُلَّ الشُّرور لأجلِ نهايةٍ لا ترتقي فوق انقطاعِ الأنفاس ورَقْدةِ القُبُورِ.

ومن الطَّريف ـ الكاشفِ ـ لِعُمْقِ إحساسِ الإنسانِ أنّ هذه الدُّنيا لا يمكن أن تكون ختام المطاف، وأنَّ حقيقةَ العَدْلِ في الوجودِ تقتضي ضرورةً أن يكون

---

(١) *The Mind of God* (London, Simon and Schuster, 1992), p. 232.

وراءَ هذا الوجودِ وجودٌ آخر، السَّبْرُ الذي أَجْرَتْهُ مؤسّسةُ دراسةِ الأُسْرَةِ والثّقافة في (أوستن)[1] سنة ٢٠١٤ مع ١٥٧٣٨ أمريكيًّا؛ إذ أَثْبَتَت الدِّراسةُ أنَّ ثُلُثَ الملاحدة واللَّاأَدْرِيِّين (٣٢٪) يؤمنون بالبعث واليوم الآخر![2].

كما كَشَفَتْ دراسةٌ أُجريت في جامعة (Otago) أنّ الذين لا يؤمنون بإلٰهٍ، وإن كانوا يُظْهِرُون شَكًّا أكبرَ في صِدْقِ الأديان، إلَّا أنّهم إذا فَكَّرُوا في موتهم هم أنفسهم، يتحوّلون في لاوَعْيِهم إلى موقفٍ أكثرَ قَبُولًا للاعتقاداتِ الدينيّة. . .[3].

ويحدِّدُ القرآنُ السَّبيلَ الأجلى لكشفِ حقيقةِ موقفِ الإنسانِ من الإلٰهِ، وصِدْقِ حاجتِه إليه؛ إذ يقول: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾ [لقمان: ٣٢]؛ فالإنسانُ الملحِدُ أو المشركُ المتوجّهُ للمخلوقين بأوجهِ العبادةِ، إذا وجدَ نفسَهُ في حال العَوَزِ والحاجةِ، تَرَكَ كُلَّ أسلحةِ الملاجَجَةِ، ونَسِيَ تفريعاتِ المحاجَجَةِ، وأَهْمَلَ اللَّدَدَ في طَلَبِ البرهانِ على الواضحِ والتَّكَلُّفَ في طلب الجواب الكافي، واتّجه مباشرةً إلى السَّماء يطلب العونَ مِنْ واحدٍ لا ثاني له؛ الذّاتِ العَلِيّة التي بيدها كُلُّ شيءٍ.

ومما رُوي أنّ رجلًا قال لـ(جعفر بن محمّد) ﷺ: ما الدَّليلُ على الله تعالى، ولا تَذْكُرْ ليَ العالَمَ والعَرَضَ والجَوْهَرَ؟ فقال له: هل رَكِبْتَ البَحْرَ؟ قال: نعم. قال: هل عَصَفَتْ بكم الرِّيحُ حتّى خِفْتُمُ الغَرَقَ؟ قال: نعم. قال: فهل انْقَطَعَ رجاؤُكَ من المركبِ والملّاحين؟ قال: نَعَمْ. قال: هل تَتَبَّعَتْ نفسُكَ أنّ ثمّة من يُنْجِيكَ؟ قال: نعم. قال: فإنَّ ذاك هو اللهُ.

إنَّ النَّفْسَ الإنسانيّةَ لا يمكن أن تأْنَسَ بمواجهةِ عالَمٍ إلحاديٍّ عارٍ من التجمُّلِ؛ إذ إنّها تَضِجُّ ضرورةً من «لامعقوليَّةِ صَمْتِ العالم» ـ بعبارة (كامو) ـ،

(١) Austin Institute for the Study of Family and Culture (AISFC).

(٢) <http://relationshipsinamerica.com/religion/do-people-still-believe-in-life-after-death

(٣) Death anxiety increases atheists' unconscious belief in God, April 2, 2012.
<http://www.otago.ac.nz/news/news/otago031357.html>

ويُفْزِعُهَا الضَّبابُ الذي يُعمّي الاتجاهات أمامَها، فلا تدري يمينَها من شمالها؛ بل ولا أعلاها من أَسْفَلِها..

«إنَّهُ من العسير [أَنْ يوجد مُلْحِدٌ صادِقٌ في إِلْحَادِهِ] لأَنَّ الإنسانَ يَنْزِعُ إلى أَنْ يكون حَيَوانًا قَلِقًا، يَتُوقُ لِشخصٍ ما أو شيءٍ ما يُهَدِّئُنا، لِحِمايَتِنَا... إنَّهُ أَمْرٌ صَعْبٌ؛ لأَنَّ حياتنا، ومَنْ نُحِبُّ، يُهِمُّوننا أكثرَ ممّا يمكن أَنْ نُعَبِّرَ عنه، واحتمالُ فقْدانهم أَبَدًا بِفَنَاءِ الموتِ مُرْعِبٌ بطريقة فاجعةٍ. إنَّهُ أمرٌ صَعْبٌ لأَنَّ جُزْءًا منّا يريد أن يؤمِنَ بأَنَّنا نعيشُ في عالمٍ أَخْلاقيٍّ... وأخيرًا هو عَسِيرٌ لأَنَّنا نَتُوقُ إلى أشياءَ جَيِّدة لأنفسنا، وكثيرٌ منها (الشُّهْرةُ، الثَّرْوةُ، الشَّرَفُ، المَجْدُ) لا ينالها إلَّا الأَكثرُ حظًّا، وبعضُها (سعادةٌ لا يُخالِطُها حُزْنٌ) لا أَحَدَ سوف يتمتَّعُ بها في حدودِ حياتنا المحدودةِ»[1]. الصحفيّ الأمريكيّ (ديمون لنكر).

(١) Damon Linker, How to be an honest atheist.
<http://theweek.com/articles/452315/how-honest-atheist>.

المبحث الخامس

أجمعوا.. لماذا أجمعوا؟

حجّة القبول العام عند الجنس البشريّ لعقيدة الإيمان بالإلٰه للبرهنة على صحّة هذه العقيدة، عريقة في مذهب الخائضين في الإلٰهيّاتِ منذُ القديم، ولعلّ أقدمَ إشارة إلى ذلك ما جاء في «قوانين» (أفلاطون)[١] حيث استُدِلَّ بإيمان اليونانِ والبرابرة كُلِّهم بالآلهة حُجّةً لوجودها. . . بل لقد قال (هيوم): «المسألة اللّاهوتيّةُ الوحيدة التي نجد فيها اتّفاقًا بين البشر يكاد يكون عالميًّا، هي وجود قوّةٍ ذكيّةٍ، غيرِ مرئيّةٍ في العالَم»[٢]. وقد سبقَهُ أبو المذهب الرُّبوبيِّ في إنجلترا (إدوارد هربرت) بالقول: «لا يوجد اتّفاقٌ عامٌّ حول الآلهةِ، لكنْ يوجد اعترافٌ كَوْنيٌّ بالإلٰهِ»[٣].

يُسمّى برهانُ اتّفاقِ الأُممِ على الإيمانِ بالله باللّاتينيَّةِ «اتّفاقَ النَّاسِ» «Consensus gentium»، ويُؤيّده استقرائيًّا قولُ المؤرّخ اليونانيّ (بلوتارك)[٤] منذُ أَلْفَيْ سنةٍ: «بإمكاننا لو عَبَرْنَا العالمَ أن نَجِدَ مُدُنًا بلا أسوارٍ، ولا آدابٍ، ولا ملوكٍ، ولا ثروةٍ، ولا نقود، ولا مدارسَ ومسارحَ، ولكن لم ير الإنسانُ قطُّ مدينةً بلا معابدَ أو عُبّادٍ»[٥]. . وقد اشتُهِرت هذه الحجّةُ عند قدماء اليونان كـ(شيشرون)[٦]، ثم اللّاهوتيّين من آباء الكنيسةِ كـ(كلمنت السَّكَندريّ)[٧]

---

(١) Plato, *Laws*, 10.

(٢) David Hume, *Essays, Literary, Moral, and Political* (London: Alex. Murray, 1870), p.523.

(٣) *De Ventate*, trans. Meyrick H. Carre, p.289 (Cited in: Walter H. O'Briant, *International Journal for Philosophy of Religion*, Vol. 18, No. 1/2 (1985), p.78).

(٤) بلوتارك Plutarchus (٤٥ ـ ١٢٧م): فيلسوف ومؤرخ يونانيّ شهير.

(٥) Cited in: Stephen Alexander Hodgman, *Moses and the Philosophers* (Ferguson bros. & Company, 1881), p.254.

(٦) Ciceo, *De Natura deorum*, i. 17

(٧) *Stromata*, v. 14.

و(لكتانتيوس)[1]، وبقِيَتْ حاضرةً في كتابات المصلحين النَّصارى البروتستانت.

لم تَعُدْ حُجّةُ «اتّفاق النَّاسِ» ـ بصورتها الكلاسيكيّة ـ تلقى رواجًا بين الفلاسفة المؤمنين اليومَ، فضلًا عن أن يقبلها الملاحدةُ، وسبب ذلك أنّها مَعِيبةٌ في مقدّمتها ونتيجتها؛ فمقدِّمتها تزعمُ أنّ كلّ النَّاسِ مؤمنون صراحةً (لا أنّ بِذْرةَ الإيمان لا تُغادِرُ صُدُورهم، وهو الصَّوابُ)، وهذا أمرٌ لا يُسلَّم اليومَ به؛ إذ إنَّ عدد الملاحدةِ قد خرج في زماننا من واقعِ الشُّذوذِ إلى حال الظَّاهرة الواسعةِ في بعض البلادِ، ونتيجَتَها تَقَرَّرَ أنّه يلزمُ من إجماعِ النَّاسِ على شيءٍ أن يكون ذلك الشَّيءُ صحيحًا، وهذه قَفْزةٌ لم تُمهِّد لها الدَّلائلُ.

والحقُّ يقضي أن نقول: إنّ الإيمان بإلٰهٍ (أو آلهةٍ) حقيقة هَيْمَنَتْ على كُلّ الأممِ السَّابقة، ولم يصِرْ إنكاره إلى حالِ الظاهرة إلَّا منذُ زمنٍ قصيرٍ بفعل السُّلطانِ السّياسيِّ الذي فَرَضَ أنماطًا تعليميّةً تنتهي إلى ضَخِّ ثقافةٍ إلحاديّةٍ أو شِبْهِ إلحاديّةٍ في المجتمع، وذاك يقتضي أنْ نَطْرَحَ السُّؤال التّالي: لماذا أَجْمَعَ عامّةُ النَّاسِ في تاريخ البَشَرِ ـ قبل عصرنا ـ على الإيمانِ بذاتٍ غَيْبِيّةٍ عظيمةِ القدرةِ والحِكْمةِ، هي التي خَلَقَتْ وصَوَّرَتْ، وهي الملتجأ في كُلِّ أمرٍ؟ هذا الشُّعورُ المهيمِنُ على النَّفْسِ يحتاجُ إلى بيان لأصله، ولا يجوز أن يُتْرَكَ دون بيانِ سببٍ كافٍ يُفَسِّرُهُ.

يقول المؤمنُ باللهِ: إنّ الحاجةَ إلى وجودِ الله أصيلةٌ في النَّفْسِ فلا سبيل لإنكارها، وهي ظاهرةٌ في نفسِ المؤمن والملحِدِ. وهي تُوجِّهُ قلبَ هذا الإنسانِ ذي الأبعادِ الفيزيائيّةِ إلى السَّماء، فيربط تفسير الوجودِ كُلّهِ بالذَّاتِ أو الذَّواتِ الخفيّةِ عن الحِسِّ. والتّفسيرُ الأفضلُ لِلْعَيْنِ الشَّاخصةِ إلى أعلى هو أَنَّ الإنسانَ لا يَنْفَكُّ عن حقيقةِ الحاجة إلى الإيمان بإلٰهٍ، وليس في طبيعة التركيب الفيزيائيِّ للإنسانِ ما يضطرُّه إلى هذا الوَهْم. فالحُجَّةُ هنا ليستْ في أنّ ظاهِرَ الاتّفاقِ يمنعُ صِدْقَ المذهب المخالِفِ، وإنَّما في أنّ الاتّفاقَ في هذه المسألةِ حُجّة أنّ الإيمانَ حقيقةٌ نفسيّةٌ راسخةٌ في البشرِ مهما اختلفَتْ أَجناسُهُم وتناءَتْ دِيارُهم.

---

(١) *Divine Institutes*, i. 2.

وهنا سيقول المخالف: ولمَ أصدّق هذا الحِسَّ الغَرير؟ أَلَيْسَ الأَوْلى أن يُقال: إنّ التوجُّه إلى السَّماء شعورٌ بدائيٌّ لا يَسْتَحِقُّ ممن يُعَظِّمُ العقلَ أنْ يُولِيهِ انتباهًا!

ولعلَّ جوابَ المعترِضِ السَّابق كامنٌ في قول الفيلسوف (بول كوبان): «من الحِكْمةِ أن نفترضَ أنّ حواسَّنَا/ومَلَكَاتِ التَّفكيرِ عندنا، وغَريْزَتَنا الأخلاقيّةَ العميقةَ لا تقومُ بِخِداعِنا بصورةٍ مُمَنْهَجَةٍ. علينا أن نُسلِّم لِسلامةِ عَمَلِها، ونحن عادةً نفعل ذلك. في الحقيقةِ، حتّى أَشَدُّ الشُّكُوكِيِّين تَطَرُّفًا يفترضُ ذلك عندما يسعى بكلّ ثقةٍ لتحصيل نتائجِه الشُّكوكيّة... نعم، قد يُخْطِئُ المرءُ في إقامةِ فِكْرةٍ أو يقعُ في خَطَأٍ مَنْطِقِيٍّ، لكنْ من المستبعَدِ أن تكون تلك الأخطاءُ سببًا في الشَّكِّ في الموثوقيّة العامةِ لحواسِّنا أو لملكات التَّفكير عندنا.. في الحقيقة هي تفترضها في مقدّمتها. إنّ القدرة على رَصْدِ الخَطَأ تفترِضُ وعيًا بالحقيقة»[١].

إنّنا ملزمون بالاستسلامِ لِحِسِّ الإيمانِ حتّى لو لم يَعْضُدْهُ بُرهانٌ؛ لأنّنا نستسلِمُ لما يخبرنا به العَقْلُ والحِسُّ؛ والقلبُ والعقلُ والحِسُّ من أصلٍ واحدٍ، سواء قلتَ هو الطَّبيعة أو قلتَ هو اللهُ. واستبعادُ الدَّاعي الأَصيلِ للقَلْبِ مع التزامِ تصديقِ دعاوى العقل والحسّ تناقضٌ؛ فإنّ **الاشتراكَ في الأصلِ داعٍ للقولِ بالاشتراكِ في الحُكْمِ...**

لماذا آمَنَتْ عامّةُ أُمَمِ الأَرْضِ بإلٰهٍ؟

الجواب: هو أنّها استسلَمَتْ لِداعي النَّفْس، فاتَّجَهَتْ إلى السَّماء تطلبُ العَوْنَ والحُبَّ، كما استسلمت إلى ثقتها في جدارةِ العقلِ في أن يُبَلِّغَها الحقيقةَ، وجَدارة الحِسِّ الأخلاقيِّ أن يَهَبَهَا القدرة على التمييز بين الخير والشرّ.

---

(١) Paul Copan, 'God, Naturalism, and the Foundation of Morality' in *The Future of Atheism*, Robert B. Stewart, ed. (Minneapolis: Fortress Press, 2008), p.142.

«تقومُ [حُجّةُ الاتّفاق العالميّ على وجودِ الله] ببساطةٍ على مبدأ أَنَّ الذَّكاء الإنسانيَّ جديرٌ بالثّقة بصورةٍ جوهريّةٍ، فرغم أنّ آلةَ التفكيرِ قد تُخْطِئُ بصورةٍ متكررةٍ في هذه الحال أو تلك لأسباب عرضيّة، إلَّا أنّها في نفسِها سليمة، فهي بطبيعتها لا تقودُ إلى الخطأ وإنّما تقود إلى الصَّوابِ. ويَنْتُجُ عن ذلك القولُ: إنّه إذا اتّفقَ البَشَرُ في مجموعِهِمْ على عَدِّ نتيجةٍ ما يقينيّةً؛ فإنّه من المحال عَدُّ تلك النّتيجةِ خَطَأً، فإنّ الظنّ أنّ قناعةً عامّةً مثل هذه قد تكون مخطئةً يَلْزَمُ منها القول: إنَّ هناك عَيْبًا في المَلَكة نفسها»[1]. (جورج هيوارد جويس)[2].

---

(1) George Hayward Joyce, *Principles of Natural Theology* (Longmans, Green & co., 1923), p.179.

(2) جورج هيوارد جويس George Hayward Joyce (١٨٦٤ ـ ١٩٤٣م): عالم منطق بريطانيّ. من أهم مؤلفاته: "Principles of Logic"

المبحث السادس

الإلحادُ، أَزْمَةُ المعنى وطريق الانتحارِ

الإنسان نَبْتُ هذه الحياة الريّانة بالمعنى الثرِّ؛ ولذلك يَغشى العَدَميَّ شعورُ اغترابٍ شائك عن هذا الوجود؛ ولا يملك قلبُه إنكارَ هذا الشُّعور الجارحِ الذي يأكل من فُتات نفسِه كلّ حينٍ، وإن كان اللِّسانُ يصرخُ في الكُتبِ والنّدوات والمؤتمرات أنّ الإلحاد حَرَّرَهُ من الوَهْمِ، وسَمَا بِرُوحِه إلى الآفاق الحيَّةِ للوجود المدهِشِ.

إنَّ وَجَعَ العَدَميّةِ قاسٍ إذ يَقْتاتُ من سَكينةِ النَّفسِ حتى تبلى؛ فإنَّ الملحِدَ حين يُغادرُ جوَّ الحيّاة الموَّارةِ بالضَّجيجِ ويُقبِلُ على نفسه عاريةً من لِحَافِ التَّجَمُّلِ وتَصَنُّعِ الرَّاحةِ في أحضان النَّفس، تنكشفُ عَوْراتُ العَدَميّةِ فاحشةَ القُبْحِ دميمةَ الملامح؛ إذ يَمْسَخُ اللّامعنى الوجودَ أشياءَ بلا شيءٍ غير الفَرَاغِ الكَئِيبِ.

إنّه الشُّعور بوطْأَةِ الأَزْمةِ الوجوديّة (existential crisis) إذ تُطْبِقُ بِيَدَيْها على الأنفاس الصّاعدة فلا تتركها ترتدُّ هَيِّنَةً سهلةً حتى إنَّ الملحد لا يملك الالتفاتَ عنها إلى غيرِها، ولذلك يقول الفيلسوفُ الملحدُ (جون غراي): «لا يمكننا الفَرَارُ من خاتمةِ المأساة... لا يوجد خلاصٌ من كونِنَا بَشَرًا»[١].

إنّ وطأة الشُّعور بالاغترابِ والحزن شديدةٌ، وأشدُّ ما يكون نَقْرُها الدَّامي عند لحظات الصَّحْوِ، أَقْصِدُ صَحْوةَ العقْلِ ويقظة القلْبِ؛ إذ تَتَخَبَّطُ النَّفْسُ عند لحظاتِ الانجذابِ إلى المعنى المفقود فترتدُّ إلى الأرضِ خاويةً أَسِيْفةً حتى تَرْتَطِمَ بِشَوكِ الأرضِ النَّاتئِ.

---

(١) John Gray, *The Silence of Animals* (New York: Farrar, Straus & Giroux, 2013), p. 208

وقد حاول (برتراند راسل) أن يصنع أملًا للمعنى في كونٍ بلا معنى فقال بعبارة متفائلةٍ: «الإنسانُ نِتاجُ أسبابٍ ليست لها بصيرةٌ بالنّهاية التي تسعى إليها؛ فأَصْلُهُ، ونماؤُه، وآمالُه ومخاوفه، وحبُّه ومعتقداتُه، كلُّ ذلك ليس إلَّا نِتاجًا للتَّواطؤِ العَرَضِيّ للذَّرَّاتِ. . . وقد قُدِّر له الفَنَاءُ بِفَنَاءِ النِّظامِ الشَّمسيِّ، ولا بُدَّ ضرورةً أن يُدْفَنَ المعبدُ الكامل لإنجازاتِ الإنسانِ تحت حُطامِ الكَوْنِ الخَرِب. . . فقط داخِلَ سقالات[1] هذه الحقائق، وفقط على **أساسٍ متينٍ من اليأس الذي لا يَنْضُب**، من الممكن بناءُ مَسْكنِ الرُّوحِ بأمانٍ»[2].

ذاك تفاؤلٌ يُخاتِلُ نفسَهُ. . إذ كيف من الممكن أن يُزْرَعَ المعنى في أرضٍ بلا معنى؟ وكيف يُصنع أَمَلٌ في وجودٍ يائسٍ؟ وكيف يتمدَّدُ الوجود في الفراغ؟ لا جواب إلَّا في سرقةِ المعاني الدينيّةِ والقِيَم السَّماويّةِ لصناعة حياةٍ إلحاديّةٍ تُحْسِنُ الدَّبِيبَ. وفي غياب هذه الأرضيّة الدينيّةِ يغدو البحثُ عن جَنَى الأَمَلِ في سَبَخَةِ اليأسِ جُنونًا.

وقد كان (راسل) نفسُه، مُدرِكًا أنّ الإلحاد قرينُ الألم والعَدَم؛ فهو القائل في لحظة صدقٍ: «**في أعماقي دائمًا وأبدًا أَلَمٌ فظيعٌ ـ ألم فُضوليٌّ ثائرٌ ـ، بحثٌ عن شيءٍ يتجاوز ما يحويه العالَمُ**»[3].

إنّ الإيمان باللهِ هو الذي يُسْعِفُ العقلَ بالجواب عن الأسئلة الأربعة الأساسيّةِ التي تَبْذُلُ للإنسان أَصْباغَ صُورةِ الوجودِ الحيِّ وطريقَ الفَهْم، وهي أسئلةُ: الأَصْلِ[4]، والمعنى، والأخلاقِ، والمصيرِ. وأمّا الإلحادُ فيبدأ بِنَفْيِ معنى الأَصْلِ، وحقيقة المعنى، وموضوعيّةِ الأخلاق، وإشراقِ المصيرِ؛ إذ لا مسيرَ إلى مصيرٍ غيرِ التُّرابِ ودُودِهِ النَّهَّاشِ اللَّامبالي.

إنّ الحاجةَ إلى الإلٰهِ جزءٌ من ماهيّةِ معنى الوجودِ؛ إذ يستحيلُ الوجودُ بلا إلٰهٍ إلى شيءٍ مُرعبٍ في كآبَتِهِ الواجِمةِ، ووَحْشَتِهِ العابِسة؛ ولذلك قال

---

(١) scaffolding.

(٢) Bertrand Russell, *Mysticism and Logic* (Cited in: Mary Poplin, *Is Reality Secular?*, Downers Grove, IL: InterVarsity, 2014, p. 45).

(٣) Cited in: Philip Yancey, *Disappointment with God* (Grand Rapids, Michigan: Zondervan, 1988), p. 253.

(٤) origin.

(فولتير) كلمتَهُ الشَّهيرة في التَّعليقِ على رواجِ كتابٍ يدعو إلى الإلحادِ[1]: «إذا لم يكن اللهُ موجودًا، فَعَلْينا اختراعُه» «Si Dieu n'existait pas, il faudrait l'inventer»[2] تعبيرًا أصيلًا عن حاجة النَّفْسِ إلى العِلم والإحساسِ بوجودِ اللهِ؛ إذ إنّ فقدانَ الحضورِ الإلٰهيِّ سببٌ لأن تَفْقِدَ الحياةُ معناها. وإذا فقدت الحياةُ معناها، أصبحَ الانتحارُ هو الجواب الوحيد للسُّؤال الوجوديِّ الأكبرِ عن معنى الحياة.

وقد أجاب الملاحدةُ ـ حقيقة ـ عن أزمةِ المعنى البادية في أزمةِ الانتحار؛ إذ تشيرُ الإحصائيّات سنة ٢٠٠٤م ـ كما في «المجلة الأمريكيّة للطبِّ النَّفسيِّ»[3] ـ أنّ العقيدة الإلحادية عامِلٌ مُحَفِّزٌ للانتحار المادّيّ؛ إذ كشَفَتْ أنَّ الأشخاص غير المتديّنين هم أكثرُ النَّاسِ محاولةً للانتحارِ، وأنّ نِسبةَ الأقارب من الدَّرجة الأُولى الذين انتحَرُوا عندهم أيضًا هي الأعلى. الحياةُ عندهم أَقَلُّ قيمةً، والحَرَجُ الأخلاقيُّ عندهم من الانتحار أدنى من غيرهم، والموت عندهم انتقالٌ من عَدَمٍ جارحٍ إلى عَدَمٍ فارغٍ[4].

وهذا الذي انتهَتْ إليه أبحاثُ علم النَّفْسِ، هو الذي اعترفَ به كثيرٌ من أعلام الإلحاد، وهو نفس ما قَرَّرَهُ القرآنُ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]. والحجّة هنا هي أنّه كما يُستدلُّ لمعرفةِ المَرَضِ والعافيةِ باختلالِ الصِّحَّةِ البدنيّةِ وما يَردُّ لِلْبَدَنِ قُوَّتَه؛ فكذلك يُستدلُّ للإيمان أنّه حقٌّ، بحقيقة أنّه عافيةٌ للرُّوحِ والبَدَنِ، وأنّ اختلالَ القلبِ بآفةِ الإلحادِ حُجّةٌ أنّ الإلحادَ مَرَضٌ.

والإيمان بالله يردُّ الإنسانَ إلى حال المعافاة الأُوْلى، حالَ الوَضْعِ البِكْرِ للنَّفْسِ؛ ولذلك يقول القرآن: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠]؛ إذ الإيمانُ رحلةُ العودةِ من الاعتلال إلى الاستواء.

---

(١) Traité sur les trois imposteurs.

(٢) Voltaire, L'Epître à l'Auteur du Livre. des Trois Imposteurs' in *OEuvres complètes de Voltaire, ed. Louis Moland* (Paris: Garnier, 1877-1885), 10/403.

(٣) American Journal of Psychiatry.

(٤) <http://ajp.psychiatryonline.org/doi/abs/10.1176/appi.ajp.161.12.2303.

وقد يُقال: ولماذا علينا أن نعتقد أنّ الاستواء النَّفْسيَّ أمرٌ لازِمٌ، ولماذا نفترِضُ أنّه موافِقٌ للحقيقة؟

ذاك هو السُّؤال الذي سينتهي إليه الملحِدُ إذا أراد أن يعارِضَ بُرهانَ الفِطرةِ. وجوابُه ـ كما سبق ـ أنّ الإنسانَ في فِكْرِهِ مُلْزَمٌ أن يبدأ بتصديقِ عَقْلِهِ وحواسِّهِ رغم أنه لا يملك البرهنة على صِدْقِ العقلِ والحواسِّ، ولو أنّه أراد أن يبرهن على صدقِ عَقْلِهِ فَسَيَقَعُ في الدَّوْرِ؛ إذ سيستَدِلُّ بالعقل لِلْعَقْلِ، والأَمْرُ بالمثل للحواسِّ؛ إذ سيستدلُّ بها لنفسها، وذاك تفكيرٌ دائريٌّ.

كلّ اعتراض على صدق الفطرة النفسيّة يَصدق أيضًا على صدق العقل والحس. ولذلك فالقول بحجيّة العقل والحس دون الفطرة تناقض في تأصيل المرجعية المعرفيّة.

والإنسانُ أيضًا مُلْزَمٌ ـ من الوجه نفسه ـ أن ينطَلِقَ من قاعدةٍ أُوْلى لِلْحُكْمِ على الأشياء بالصِّحَّةِ والعافيةِ والصَّوابِ والخطأ. وفي باب استقامة النَّفْسِ، يَجِدُ الإنسانُ من نفسه ضرورةً ـ في لحظات الصِّدْقِ ـ أَنَّ حُبَّ الحياةِ، والتآلُفَ مع النَّاسِ، والتَّعاون معهم لخدمة المحتاجين والمنكوبين من أوضحِ مظاهرِ الحقّ والخير. وهي قضايا لا سبيل للبرهنةِ على صوابها بالعقلِ المجرّدِ، وإن أمكنَ دَعْمُها ذرائعيًّا ومآليًّا.

فالإنسانُ إذن أَسِيْرُ التَّسليم أنّ عافيةَ القَلْبِ والرُّوحِ ضرورةٌ، وأنّها تُطابِقُ المطلوب في هذه الحياة. وضريبةُ إنْكَارِ ذلك أن يَدْخُلَ المرءُ في عَدَمِيَّةٍ تنتهي به إلى أن يُنْكِرَ تَمَيُّزَهُ عن كُلِّ دوابِّ الأرضِ، وهو ما تُنكره كلُّ نفسٍ في لحظةِ الصَّفْوِ والصِّدْقِ.

فالتَّسليمُ بالاستواء الأخلاقيِّ، وأهميّته، ضرورةٌ للتَّسليمِ بمفهوم «الإنسان»، وإنكارُ مفهوم «الإنسان» يُنْهِي كُلَّ جَدَلٍ حول العقلِ والأخلاقِ والحقيقة. وذاك أَمْرٌ مُرِيعٌ!

وقد يُقال معارضةً: كيف يكون الإيمان باللهِ من ضروريَّاتِ المعارف،

ومن النَّاسِ من أَنْكَرُوا وجودَ الله، وإن كان عَدَدُهم قليلًا. . إنّ الضروريَّات لا يمكن أن يخلوَ منها إنسانٌ، ولو خلا منها أَحَدٌ انتفى عنها وَصْفُ الضروريَّات. . !

وجوابُ ذلك: أنّه لا يَلْزَمُ من الضروريَّاتِ لتكون ضروريَّاتٍ أنْ يُسَلِّمَ لها كُلُّ النَّاسِ؛ فإنَّ قيام الضروريَّاتِ في النَّفْسِ مُرْتَبِطٌ بسلامةِ النَّفْسِ من أعراضِ الفسادِ. وهو الحال نفسُه مع كلِّ ضروريَّاتِ النَّفْسِ؛ فَمَنْ يملِكُ دِماغًا يملِكُ عَقْلًا إلَّا أنْ تقوم بالدّماغ عَوَارضُ مَرَضِيَّةٌ تمنع التَّفكير السَّليم، فيبقى الدّماغ وينتفي العَقْلُ.

ويبقى السُّؤالُ الذي يَطْرَحُ نفسه بإلحاحٍ: لماذا تتوجَّهُ كُلُّ الأُمم، وعامّةُ الخَلْقِ إلى السَّماءِ تطلُبُ المعنى والغاية؟ وليس: لمَ لا تَتَّجِهُ القِلَّةُ إلى حيث يَتَّجِهُ باقي الخَلْقِ؟

ثم إنّ هؤلاء الذين يُنكرون الإلٰهَ والغايةَ، لم يُفلِحُوا ـ باعترافهم ـ في انتزاعِ جُذور هذا الحِسِّ والرَّغْبةِ من قلوبهم؛ فإنّ هذا المَيْلَ القَهْرِيَّ يُعاوِدُهم كُلَّما عادُوا إلى أنفسِهم، وتَخَفَّفُوا من أثقالِ ضجيجِ الحياة الذي يُصِمُّ آذانهم.

وقد تَطْرَبُ لِصِدْقِ البيولوجيِّ الملحدِ الشّهيرِ (فرنسيس كريك) في قوله: «أَنْتَ. . أفراحُكَ وأحزانُكَ، ذكرياتُكَ وطموحاتِك، إحساسُك بذاتك وبحريّة الإرادة، هي في الحقيقة ليست أَكْثَرَ من مجموعةٍ كبيرةٍ من الخلايا العصبيّةِ والجزيئاتِ المرتبطةِ بها. . . أنت لا تَعْدُو أن تكون سوى حُزْمَةٍ من الأَعْصابِ»[1]. ـ وهي الدَّعوى التي سمّاها (فرنسيس شايفر)[2] «لاإنسانيّةِ الإنسانِ» «The mannishness of man» ـ لكنَّكَ ستعود حَسِيرًا؛ لأنّك لن تَجِدَ هذا الذي يعيشُ حياتَهُ في ضَوْءِ الإيمانِ السالف مُؤْمِنًا أنَّ الإنسانَ حُزْمَةُ أعصابٍ أو غُبار كَوْنيّ. . إنّه لا يملك أن يكون غير ما هو كائنٌ؛ فهو مقهورٌ أن يُقِرَّ أنّه «إنسانٌ» كريمٌ. إنّه لا يملك ـ مهما أُوتِيَ من عِنادٍ ـ أنْ يرى ابنَهُ

---

(١) Francis Crick, *Astonishing Hypothesis* (New York: Scribner, 1994), p.3.

(٢) فرنسيس شايفر Francis Schaeffer (١٩١٢ ـ ١٩٨٤م): لاهوتيٌّ وفيلسوفٌ أمريكيٌّ شهيرٌ. من أعلام الدّفاعيّين النَّصارى المهتمّين بكشف تناقضات ثقافة الحداثة وما بعد الحداثة.

الرَّضِيعَ وهو يُقَبِّلُهُ كَوْمةً من اللَّحْمِ والعَظْمِ تتفاعَلُ عُضويًّا لِتُنْتِجَ حَرَكَةً، ولا يملك أن يُجْبِرَ لِسَانَهُ على أن يقول ببرودٍ «عقلانيٍّ» أمامَ فِراشِ أُمِّهِ الحنونِ التي تَلْفِظُ أَنْفاسَها الأخيرة: لا تُكابِري، قد آنَتْ ساعةُ عَوْدَتِكِ إلى التُّرَابِ، لِيَلْتَهِمَكِ دُودُ الأَرْضِ الذي يعيش مِثْلَكِ دورةَ الحياةِ والموت بلا جَزَعٍ! إنَّ مَوْتَكِ حَدَثٌ طبيعيٌّ لا يُغَيِّرُ من حقيقةِ تَفَاهَةِ الوُجودِ شيئًا!

إنَّ الموتَ خَيْرُ واعظٍ لأنّهُ صَوْتُ الفِطْرةِ حينما تَتَعَرَّى من ثوبِ العِنادِ، وصَفَاقَةِ الحَذْلَقَةِ.. أمامَ الموتِ، نَقِفُ كُلُّنا أمامَ وَجْهِ الحياةِ وحقيقتِها؛ فَبِضِدِّها تُعْرَفُ الأَشياءُ.. وأمامَ الموتِ تَثُورُ الفِطْرةُ وتَمُورُ البَدَاهةُ غَضَبًا..

الإلحادُ اختلالٌ في بِنْيةِ الإنسانِ كاختلالِ بَدَنِهِ بَأَيِّ مَرَضٍ مُهْلِكٍ.

المبحث السابع

رُمُوزُ الإلحاد ينتصرون لبرهانِ الفِطْرةِ

يُقَرِّرُ القرآنُ في صريح آياتِه أنَّ الإنسانَ زَرْعٌ عظيمٌ في هذا الوجود؛ خُلِقَ لِيَعْمُرَ الأَرْضَ، ويَتَعارَفَ مع الخَلْقِ، ويَعْبُدَ الرَّبَّ، وهو إلى التَّنْعِيم إن استقَامَ ولم يُعَقِّبْ على فِطْرتِه بِحُكْم.. وأَمَّا في سِفْرِ الإلحادِ؛ فالإنسانُ يُولَدُ ليكون جِيْفةً، إِثْرَ تَرَقٍّ بيولوجيٍّ؛ مَبْدَؤُهُ جَنَبَاتُ الرَّحِمِ، ونهايَتُه مع انقطاعِ الأَنْفاسِ.. خُلِقَ لِيَمُوتَ، ويَمُوتُ لأَجْلِ لا شيء.. أَنْفَاسٌ تَلْهَثُ إلى القَبْرِ بلا رجاءٍ، وخُطُواتٍ تسير به حثيثًا إلى الفَنَاءِ... الموتُ؛ **انتصارٌ حتميٌّ للكيمياء على البيولوجيا** بعودة الإنسان إلى التُّراب.. قوانينُ صامتةٌ تحرِّكُ الوجودَ بلا عَيْنَيْنِ.. وانحدارٌ سريعٌ وحثيثٌ إلى هاويةِ الفَرَاغ..

وقد وقفَ كثيرٌ من أعلام الإلحادِ أمام هُوَّةِ العَدَمِ؛ يُعلِنُون نَفْرةَ نُفُوسهم (= فِطْرَتهم) من فَرَاغِها، وانجذابَهُمُ الشَّديدَ إلى الإيمانِ بالله؛ فقد كَتَبَ أحدُ فرسانِ الوجوديّةِ الملحدةِ في القرن العشرين (ألبير كامو): «ثِقَلُ الأَيَّام مُخِيفٌ لكلِّ امرئٍ يعيشُ وَحْدَهُ من غيرِ إلٰهٍ ومن غير سَيِّدٍ»[1]. وقال أيضًا: «لا شيء بإمكانه أن يُخْمِدَ الجَوْعَةَ لما هو إلٰهيٌّ في قلبِ الإنسان»[2]. وأمّا (برتراند راسل) فيعبّر عن لحظاتِ الفراغ الموجِعة في قوله: «يبدو أنَّ شيئًا في المرء ينتمي بعنادٍ إلى الله حتى عندما يشعر المرءُ أنّه أقرب ما يكون إلى أشخاصٍ آخرين... في أدنى حالٍ، هكذا عليَّ أن أُعبّر عن هذا الأمر لو كان هناك إلٰهٌ. هذا غريبٌ، أليس كذلك؟ أنا أهتمُّ بحماسةٍ بهذا العالم وكثيرٍ من أشيائِه

---

(١) Camus, *The Fall* (New York: Random House, 1956), p. 133.

(٢) Camus, *The Rebel (New York: Alfred Knopf, 1956)*, p.147.

وأَنَاسِيِّهِ. . ما هو كلُّ شيء. . . يجب أن يكون هناك شيءٌ أكثر أهميّةً يشعر المرء به، على الرغم من أنني لا أومن بوجودِه»[1].

بل دَعْكَ من أولئك ـ على عظيمِ مقامِهِم في كنيسةِ الإلحاد ـ، وأَقْبِلْ معي ندرسُ فِكْرَ رَجُلٍ ارتبطَ ذِكْرُهُ ضرورةً بالدّهريّة الفَجَّةِ، وهو صاحب أكبرِ صَرْخةٍ إلحاديّةٍ عدوانيّةٍ ومغرورةٍ: «لقد مات الإله!». (نيتشه)، النّموذج الأَمْثَلُ لاختبارِ إمكان وجودِ مُلْحدٍ حقيقيٍّ بريءٍ من حِسِّ الإيمان باللهِ. وممّا يُعَظِّمُ أَمْرَهُ ليكون هذا النّموذج الذي نريد أنّه ليس فيلسوفًا نَسَقِيًّا يكتب بلسانٍ جافٍّ ضمن قوالبَ صُلْبةٍ من الممكن أن تُعَمِّيَ على حقيقةِ النَّفْسِ من خلال الأسلوب المدرَسيّ في عرض الأفكار. لقد كان (نيتشه) فيلسوفًا يكتبُ بِلِسانِ الأديبِ وحساسيّةِ الشَّاعر، ولذلك كانت أفكارُه وخواطرُه طافيةً على سطح أوراقِه، وإن شابهَا الغُموضُ أحيانًا. .

صرَّحَ (نيتشه) بإلحادِه بعباراتٍ حادّةٍ لا يخالِطُها الْتِبَاسٌ، ونادى بالكَشْفِ عن حقيقة العَدَمِيّةِ، وأَعْلَنَ أنّ الإنسان وحدَهُ هو الذي يصنعُ الأخلاقَ. . ولكنَّ تلك المعالِمَ لا تستوعِبُ كامِلَ الصُّورةِ؛ إذ هي التَّفاصيلُ النّاتئةُ التي تستهوي العابرين، وهي تُخْفِي حقيقةَ معالمِ نَفْسِيَّةِ هذا الفيلسوفِ الصَّاخِبِ؛ فقد رَفَضَ (نيتشه) وجودَ الله، واستَدْعاه، ونادى بالعَدَمِيّةِ، وحارَبَها، ودعا إلى حياةٍ أرضيّةٍ بلا آخرةٍ، وصنعَ آخرةً لانهائيّة، ورفضَ سلطان الأخلاقَ، وصَنَّمَها. .

لقد صرخَ (نيتشه) قائلًا: «لقد قَتَلْنَا الإلَهَ!». . لكنَّهُ لم يتوقَّفْ عند تلك العبارة؛ فذلك أَوَّلُ القَطْرِ، وإنّما قالَ مباشرةً بعدها: «. . . لقد قَتَلْناهُ أنا وأنتم. كُلُّنا قَتَلَهُ. ولكنْ كيف فَعَلْنَا ذلك؟ كيف استَطَعْنا أن نشربَ البَحْرَ؟ مَنْ أعطانا إسفنجةً لِنَمْسَحَ بها كامِلَ الأُفُقِ؟ ما الذي فعلناهُ عندما فَكَكْنَا هذه الأرضَ عَمَّا يَرْبِطُها بِشَمْسِهَا؟ إلى أينَ تَتَحَرَّكُ الأرضُ الآن؟ إلى أين نحن نتحرَّك؟ بعيدًا عن كُلِّ الشُّموس؟ أَلَسْنَا نهوي إلى الأَسْفَلِ بصورةٍ مستمرّة؟ إلى

---

(١) Bertrand Russell, *Autobiography* 2/320.

الخَلْفِ، إلى الجَنْبِ، إلى الأمام، إلى كلّ الاتجاهات؟ هل تَبَقَّى أعلى وأَسْفَل؟ أَلَسْنَا نَضِلُّ عَبْرَ عَدَم لانهائيٍّ؟ أَلَسْنَا نُحِسُّ بأَنْفاسِ الفَضَاءِ الفارغ؟ أَلَمْ تُصْبِحْ أَكْثَرَ بُرُودةً؟ أَلَمْ يُطْبِقْ علينا اللَّيْلُ بِصُورةٍ مُتَواصِلةٍ؟ هل نحتاجُ أَنْ نُشْعِلَ الفَوَانِيسَ في الصَّبَاحِ؟»[1].

إنّهُ إعلانٌ صريحٌ أنّ الوجودَ بلا إلٰهٍ وُجودٌ فاقِدٌ ضرورةً للمعنى والجِهاتِ والقِبْلةِ.. **تِيهٌ خالِصٌ**، وأرضٌ جَدْباءُ لا زَرْعَ فيها.. لكنَّ (نيتشه) لا يرضى بالعَدَم، ويَخْشَاهُ كُلَّ الخَشْيَةِ؛ ولذلك يَصْنَعُ للنَّاسِ إلٰهًا أدنى من الخالقِ وأعلى من البَشَرِ، وهو «الإنسان الأعلى» «السُّوبرمان»، ذاك الذي يُعيدُ للوجودِ المشوَّهِ جَمَالَهُ، ويستعيدُ به عافِيَتَهُ، وقِبْلَتَهُ.. «الإنسان الأعلى» هو البَدِيلُ القِيَميُّ للكمالِ الذي افتقدَهُ العالَمُ بموت الإلٰهِ، وبه يستعيدُ العالم قِيَمَهُ، وأُفُقَهُ، وغايَتَهُ... إنّه الإلٰهُ العائِدُ، وإن كان أَرْضِيًّا.. وقد كتب (نيتشه): «في الإنسان اتَّحَدَ المخلوقُ والخالقُ، في الإنسان خامَةٌ وزَوَائِدُ، وطِيْنٌ ووَحْلٌ وسُخْفٌ، لكنَّ في الإنسان أيضًا خالِقًا وصانِع قَسْوةٍ خارقةٍ، وأُلُوهةٍ مُتَفَرِّجةٍ»[2]. وقال أيضًا عن السُّوبرمان: «ما كان هذا الإلٰهُ إلَّا إنسانًا؛ بل بِضْعَ إنسانٍ. لقد نَشَأَ ذاك الشَّبَحُ حقًّا من رَمَادِي ولَهِيْبِي. إنّه لم يأتني من وراءِ هذا العالمِ»[3].

إنّ جوهرَ الألوهيّةِ ـ عند (نيتشه) ـ كامنٌ في قلب الإنسان، في إرادته للتَّسامي. وكما يتجمَّلُ الإنسانُ بالسَّعْيِ للاتّصافِ بمقتضياتِ صفاتِ الله[4]، فكذلك يسعى الإنسانُ إلى التخلُّقِ بأخلاق السُّوبرمان والتجمُّلِ بِقِيَمِهِ؛ فَصِفَاتُه النِّهايةُ والمعيارُ.

---

(١) Friedrich Nietzsche, *The Gay Science*, tr. Josefine Nauckhoff (Cambridge: University Press, 2001), p.120.

(٢) نيتشه، ما وراء الخير والشَّرِّ، تعريب: جيزيلا فالور (بيروت: دار الغروب، ١٩٩٥م)، ص١٩٧.

(٣) Friedrich Nietzsche, *Thus Spake Zarathustra, tr. Alexander Tille (London: Macmillan, 1896), p.34.*

(٤) قال (ابن القيّم): «ولما كان ـ سبحانه ـ هو الشَّكُورُ على الحقيقة كان أَحَبَّ خَلْقِهِ إليه من اتَّصَفَ بِصِفَةِ الشُّكْرِ، كما أنَّ أَبْغَضَ خَلْقِهِ إليه من عَطَّلَهَا أو اتَّصَفَ بِضِدِّها، وهذا شأنُ أسمائِهِ الحُسْنَى، أَحَبُّ خَلْقِهِ إليه من اتَّصَفَ بموجبها، وأَبْغَضهم إليهِ من اتَّصَفَ بِضِدِّهَا». (ابن القيم، عدَّةُ الصّابرين وذخيرة الشَّاكرين، تحقيق: محمّد علي قطب، بيروت: دار الأرقم، ٢٠١٦م، ص٢٢٧).

إنّ (نيتشه) لا يُلغِي مفهوم الإلٰهِ بالكليّةِ، وإنّما هو يُلْغِي إلٰهَ السَّماءِ لصالح إلٰهٍ آخرَ؛ هو إلٰهُ الأرضِ، وهو ما يظهر في قوله: «لقد ماتَتِ الآلهةُ، ونحن نُريدُ الآنَ أن يَحْيَا السُّوبرمان»[1].

لقد فَضَحَ (نيتشه) عَدَمِيَّةَ الوجودِ في عالَمٍ بلا إلٰهٍ، مُسايرًا بذلك مُلْهِمَهُ، فيلسوف المتشائمين (شوبنهاور)، غيرَ أنّه عاد فَوَصَفَ العَدَمِيِّين بالجُبْنِ والخَوَرِ، قائلًا: إنّه وإنْ صَحَّ أنّه ليس للحياة معنًى، إلَّا أنَّهُ علينا أن نَصْنَعَ في الحياة معنى؛ فَفَرْقٌ بين «معنى الحياة الأصيلِ»، وهو الشَّيءُ المعدومُ بعد إنكارِ الإلٰهِ، والمعنى الذي يَبُثُّهُ الإنسانُ في هذه الحياةِ لِيَمْنَحَهَا طَعْمًا تُطِيْقُهُ الأفواهُ ويَشُوقُهَا لمعايشةِ الحياةِ.

وما فَعَلَهُ (نيتشه) الكافِرُ بالمعنى لا يُفارِقُ ما فَعَلَهُ الفيلسوفُ الوجوديُّ الملحِدُ (كامو) في أُقْصُوصَتِهِ «سيزيف» حيث يقومُ بَطَلُ الأُسْطُورةِ اليونانيّةِ بِرَفْعِ صَخْرةٍ ضَخْمةٍ من أَسْفَلِ الجَبَلِ إلى أعلاهُ بلا انتهاءٍ ولا تغييرٍ ولا غايةٍ، عقابًا له من الآلهةِ الغاضبةِ التي رَأَتْ أنّهُ لا تُوجَدُ عقوبةٌ أَشَدُّ مِنْ عَمَلٍ «بلا فائدةٍ ولا أَمَلٍ». حاولَ (كامو) أن يصنعَ من وُجودِ (سيزيف) الفارغِ، وعَمَلِهِ العَبَثِيِّ الذي لا ثَمَرَةَ وراءَهُ، سبيلًا للمعنى؛ بل والسَّعَادةِ، فأَنْهى الأُقْصُوصةَ بقولِه: «ما عاد هذا الكونُ ـ الذي أَضْحى بلا سَيِّدٍ ـ في عَيْنَيْهِ عَقِيمًا ولا مُجْدِبًا. كلُّ حَبَّةٍ في هذه الصَّخرةِ، وكُلُّ نَثْرةٍ مَعْدَنيّةٍ من هذا الجَبَلِ الممتلِئِ لَيْلًا، يُشَكِّلُ له وَحْدَهُ عالَمًا. النِّضالُ في حَدِّ ذاتِه لبلوغ القِمَمِ يكفي لإشباعِ قلبِ الإنسان. يجب علينا أن نَتَصَوَّرَ سيزيف سَعِيدًا»[2].

كيف تَحَوَّلَ العَدَمُ إلى وجودٍ؟ وكيف انْقَلَبَ العَبَثُ إلى حِكْمةٍ؟ وكيف اعْتَصَرَ (نيتشه) و(كامو) من المأساةِ فَرَحًا وسعادةً؟! إنَّكَ لَنْ تَجِدَ جَوابًا صادِقًا إلَّا في يقينِ القَلْبِ أنَّ هذا الوجودَ يَرْفُضُ أنْ يكون عَبَثًا، فرغم أنّ (كامو) يُسمّي جِنْسَنَا: «الإنسانَ العَبَثِيَّ» «L'homme absurde»، إلَّا أنّه يَتَكَلَّفُ له معنًى

---

(١) Friedrich Nietzsche, *Thus Spake Zarathustra*, p.108.

(٢) Albert Camus, *Oeuvres Complètes d'Albert Camus* (Club de l'honnête homme, 1983), p.1/235.

في خِضَمِّ الظَّلامِ والمأساة، وهو معنى قريبٌ ممّا أراده (نيتشه) وإن لم يبلُغْ مَبْلَغَهُ في الحِدَّةِ. هذا المعنى هو «المغالبة».. لكنَّها مُغالَبةٌ يائسةٌ وبائسةٌ لأنّها والعَبَثَ سواءٌ؛ بل هي مَنْسُوجةٌ بخيوط العَبَثِ؛ فإنّ الحركةَ لا تُنْتِجُ المعنى؛ وإنّما المعنى هو الذي يَنْفُثُ في الحركةِ رُوحَ الدّلالةِ الإيجابيّةِ على الحياة. إنَّ الإنسانَ الملحِدَ الذي يَقْبَلُ العالَمَ الفارغ المظلم كما هو لا يمكن أن يصنعَ سعادةً مبصرةً؛ لأنّ مادّةَ الوجود لا تَلْتَئِمُ أفردها في جَوْهَرٍ يُسمّى «السَّعادة».. الظَّلامُ والفراغُ لا يصنعان شيئًا؛ ففاقِدُ الشَّيْءِ لا يُعْطِيهِ، ولا يُجْتَنَى من لَغْوِ العَبَثِ نَظمٌ حَكِيمٌ.. وما كان لـ«سيزيف» أن يشعرَ بالسَّعادة ـ مهما تطاولَتْ محاولاتُه ـ؛ إذ لا ثَمَرَةَ تُحْصَدُ في أعماقِ رِمالِ الصَّحْراءِ المتحرّكةِ، ولا معنى للانتصارِ إن لم تكن هناك ثَمَرةٌ. وما هي السَّعادةُ في يوم بلا غَدٍ، وفي ظلامٍ لا يَعْقُبهُ صَحْوٌ؟ وكيف ينتصِرُ (سيزيف) على المَلَلِ إذا كان وجوده قد قُدَّ من مللٍ؟! ومن أين يأتي النصر إذا كانت حياةُ الإنسانِ بين شقاءِ رفعِ الصَّخْرةِ حتّى إنهاكِ الأَنْفاسِ، وأَحْزانِ تَدَحْرُجِها حتّى تعود إلى القاعِ؟!

لقد اكتشف (نيتشه) ـ وبعده (كامو) ـ أنّ كونًا بلا إلٰهٍ، كونٌ باردٌ؛ فلا حرارةَ، أَجْوَفُ بلا معنى؛ لأنّهُ بلا قَلْبٍ، وأنَّ اللّامعنى شَوْكٌ لاذِعٌ، لكنَّ حنين النَّفْسِ الدَّائم إلى المعنى الجاذبِ دَفَعَهُمَا قَسْرًا إلى أن يَصْنَعَا معنًى «ما» في الحياةِ.

وقد عَبَّرَ (نيتشه) عن المعنى في حياةِ الفيلسوفِ بقوله: «علينا دائمًا أن نَمْنَحَ ميلادًا لأفكارِنا من أوجاعِنا، وأن نُغَذِّيها بكلِّ شيء فينا، الدَّمِ، والقَلْبِ، والنَّار، والمتعة، والهوى، والعَذَاب، والضَّمير، والقَدَرِ والمأساةِ. تعني الحياةُ لنا نحنُ دائمًا تحويل كُلِّ وجودِنا إلى نُورٍ ونارٍ»[1].

لماذا تَكَلَّفَ (نيتشه) صناعةَ المعنى رغم عُقْمِ المحاولة؟ لقد كان مَسُوقًا إلى ذلك قَهْرًا بِحِسِّ المعنى في صَدْرِهِ، فانطلقَ به يبحث عن سبيلٍ لِقَهْرِ الظُّلْمةِ، وهو حِسُّ المتديّنِ الذي تُدرِكُ أعماقُه أنّ هذا الكونَ الجليلَ لا يسعى

(١) Friedrich Nietzsche, *The Gay Science*, p 6.

حثيثًا إلى التَّمَوُّتِ الحراريّ بلا حِكْمةٍ، ولا الانْتِثَارِ الأَبَدِيِّ بلا غايةٍ، وإنّما أَمْرُهُ إلى معنى جليلٍ، ولا سبيلَ إلى معنى دون خالقٍ نَفَخَ رُوحَ الوجودِ في الكونِ لِيَصْنَعَ منهُ حياةً تَتَنَفَّسُ.

لا يَقِفُ أمرُ (نيتشه) عند صناعة المعنى «الدّينيّ» في وجود دَهْريٍّ، فقد كانت حماستُه «الدينيّة» مُتَّقِدةً، فاختار مواصلةَ المسيرِ إلى نهاياتٍ أَبْعَدَ، فقال بما هو جَوْهَرُ الإيمان الدينيّ وقرينُ الحِسِّ الإيمانيِّ الرافضِ لحياةِ المادّةِ التي تَبْدَأُ من الرَّحِمِ وتنتهي تحت جَنَادِلِ الرَّمْسِ، فقد رَفَضَ كُلَّ الرَّفْضِ أن تكون حيواتُنا ضَيِّقةً زمَنًا في هذا الكون المعجِبِ، فدعا إلى ما سَمَّاهُ «بالعَوْدِ الأَبَديِّ» «Die Ewige Wiederkunft»؛ أي: أنّ الزَّمَنَ لا نهاية له، ودَوْرَاتُ حياةِ الإنسان لانهائيّةٌ؛ فالإنسانُ يَؤُوبُ إلى هذا الوجود كُلَّما غادَرَهُ بعد كُلِّ دورةِ حياةٍ، إلى ما لا نهاية. وهي فكرةٌ حَيَّرَتْ قارئي (نيتشه) لأنّها تَفْتَقر إلى الواقعيَّةِ، ولا تلتقي مع ماديّةِ الإلحادِ وتجريبيّته، فذهب قِلَّةٌ إلى أنّها من التَّعابير الرَّمزيّةِ عند (نيتشه)، لكنَّ حقيقة العبارة في كتاباتِ هذا الفيلسوفِ صريحةٌ في واقعيّةِ التعبيرِ، وأنَّ (نيتشه) كان يؤمن بالعَوْدِ الأبديِّ للإنسان إلى غيرِ نهايةٍ. وقد تَكَرَّرَ المعنى ذاتُه عنده في أكثر من كتابٍ له؛ حتّى قيل: إنَّ هذه العقيدةَ مركزيّةٌ في الفلسفة النيتشويّة. ومن عباراته، قولُه: «كُلُّ شيءٍ يَمْضِي، كُلُّ شيءٍ يَعُودُ. عَجَلَةُ الوُجودِ تَدُورُ باستمرارٍ. كُلُّ شيءٍ يَمُوتُ، وكُلُّ شيءٍ يُزْهِرُ مَرَّةً أُخْرَى. تمضي سِنُونُ الوجودِ إلى الأَبَدِ بلا نهايةٍ»(١). وهو معنى الخلود عند المؤمنين بإلٰهٍ؛ إذ تَهْدِيْهِمْ نُصوصُ الوَحْيِ ونوازِعُ النَّفْسِ إلى أنّ هذه الحياةَ القصيرةَ أَضْأَلُ من أن تحتويَ وجودَ الإنسانِ، وأنّ الإنسانَ خُلِقَ للعَوْدِ مرّةً أخرى بلا فَنَاءٍ..

وماذا عن غَضَبِ (نيتشه) من الرَّبِّ؟ إنَّ كُلَّ عباراتِ الغَضَبِ والإدانةِ التي تَطْفَحُ بها كتاباتُ (نيتشه) تعبيرٌ مُتَشَنِّجٌ لمؤمنٍ بالله، يُعَبِّرُ عن تَسَخُّطِهِ من هذا العالم، وفَشَلِ الإنسانِ في تحقيق أحلامِهِ وبلوغ أُمنيَّاتِهِ. ولا يَجِدُ المرءُ

---

(١) Friedrich Nietzsche, *Thus Spake Zarathustra*, p. 316.

معنًى لِفَوْرَةِ الغَضَبِ التي تَتَمَلَّكُ الملاحدةَ كُلَّما حَلَّتْ بالنَّاسِ نازِلةٌ، إذا كان الإلٰهُ عندهم مجرَّدَ وَهْمٍ وخُرافةٍ؛ فهلْ يَتَشَنَّجُ الإنسانُ إذا فَكَّرَ في عَدَم، في أُسطُورةٍ نَحَتَها، وسَرَابٍ نَسَجَهُ؟! إنّها زَفْرَةُ الغَضبِ التي تُفْصِحُ عن تَسَخُّطِ هذا الإنسانِ أَنْ لَمْ يَفِ لَهُ الإلٰهُ بما يُريدُ، ولَمْ يَصْنَعْ لَهُ العالَمَ الذي يُحَقّقُ له النَّشْوةَ، أو الرِّضَا...

وقد أَنْكَرَ عدد من الباحثين المتخصّصين في (نيتشه) وفلسفتِه، أن يكون الإلحادُ خلاصةً جيّدةً لوصف تاريخِ (نيتشه) الفكريّ؛ فذهَبَ مُترجِمُ أهمِّ أعمالِ (نيتشه) إلى الإنجليزيّة، الباحِثُ الملحِدُ (ر. ج. هولنجديل)[1] إلى أنّ (نيتشه) مَرَّ بثلاثِ مراحِلَ، أَوَّلُها: التَّدَيُّنُ العميقُ على المذهب اللُّوثريِّ، وثانيها: العَدَمِيَّةُ الإلحاديّةُ، ردًّا على النَّصرانيّةِ، وهي تَظْهَرُ في كتاباته الأُوْلى، وثالِثُها: الانْقِلابُ على العَدَميّةِ حيث عاد تَدَيُّنُهُ الأَوَّلُ دون خصائصِ اللَّاهوتِ النّصرانيّ، شيء شبيه بـ«مسيحيّةٍ دون مسيح»، وفي هذا الطَّوْرِ الأخيرِ ذَكَرَ أَحْدَثَ مقولاتِه الدّينيّة، مثل العَوْدِ الأَبَدِيِّ والسُّوبرمان...[2].

وكتبَ صاحِبُ أَوَّلِ ترجمةٍ عربيّةٍ لكتابِ «هكذا تَكَلَّمَ زرادشت»: «إنّ نيتشه يُعلِنُ إلحادَهُ بكلّ صراحةٍ، ويُباهِي بِكُفْرِهِ غير أنّنا لا نَكْتُمُ القارئ الكريم أنّ ما قَرَأْناهُ **بين سُطُورِهِ**، وقد مَرَرْنَا بها كَمَنْ عليه أن يَتَفَهَّمَ كُلَّ معنى ويستجليَ كُلّ رمزٍ، يُحَفِّزُنا إلى القولِ بأنّنا لم نرَ **كُفْرًا أقربَ إلى الإيمانِ من كُفْرِ هذا المفكّر** الجبّار الثائرِ الذي يُنادِي بموت اللهِ، ثم يراه مُتَجَلِّيًا أمامَهُ في كلِّ نَفْسٍ تَخْفِقُ بين جوانحِ النَّاسِ من نسمتِه الخالدة، فإنّ هذا الملحد على الرغم من اعتقادِه بأنَّ الجسَدَ هو أصلُ الذّاتِ وأنّ الرُّوحَ عَرَضٌ لها وبأنَّ كِلا الرُّوحِ والجَسَدِ فان، لا يملِكُ نفسَهُ من الهتاف وهو يُؤكّد عَوْدةَ كُلِّ شيءٍ واستمرارَ كُلّ شيءٍ، فيقول: أَوَّاهُ كيف لا أَحِنُّ إلى الأبديّةِ وأضطرم شَوْقًا إلى خاتَمِ الزَّواجِ، إلى دائرةِ الدَّوائرِ حيث يُصبِحُ الانتهاءُ ابتداءً. إنّني لم أَجِدْ حتّى

---

(١) ر. ج. هولنجديل R. J. Hollingdale (١٩٣٠ ـ ٢٠٠١م): بريطانيّ. مؤرّخ ومترجم للفلسفة والأدب الألمانيّين. ترأّس «مؤسسة فردريك نيتشه» سنة ١٩٨٩م.

(٢) مقدمة (ر. ج. هولنجديل) لترجمته لكتاب «هكذا تكلّم زرادشت».

اليومِ امرأةً أُريدُها أُمًّا لأبنائي إلَّا المرأة التي أُحِبُّها؛ لأنّني أُحِبُّك أيّتها الأبديّة.

إنّني أُحِبُّكِ أيّتها الأبديّة.

أين هذه الهَتْفَةُ الرَّائعةُ تَصْدُو في أعماقِ رُوحٍ تَتَطَيَّرُ من الزَّوالِ من ابتسامةِ الملحِدِ الصَّفراءِ، وهو لا يرى وراءَهُ وأمامَهُ إلَّا العَدَمَ والزَّوالَ بل يكاد يرى وُجودَهُ خُدْعةً وخَيَالًا كاذِبًا.

إنّ فلسفةً لا تَسْتَنيم لفكرةِ الفَنَاءِ ولا ترى في النّهاية إلَّا عَوْدةً إلى بدايةٍ ليست بالفلسفة الجاحدةِ، فالمفكّر المؤمِنُ بإنسانيّةٍ عُلْيا تتدرَّجُ إلى الكَمَالِ حتّى لو قال بألوهيّةِ الإنسانِ على الأرض لا يمكِنُه إلَّا أن يؤمِنَ في قرارةِ نفسِه بكمالٍ مطلقٍ تَتَشَوَّقُ روحُه إليه وراء هذا العالم»[١].

وإذا كان (نيتشه) قد كتم الإيمان باللهِ في قلبه بعد أن غَيَّرَ ملامِحَهُ؛ حتى إنّه ليبدو كأنَّهُ والإلحاد سواء، فإنّ الفيلسوفَ (س. إ. م. جود)[٢] الذي كان أحد مشاهيرِ الفلاسفة في إنجلترا آخِرَ النِّصْفِ الأَوَّلِ من القرن العشرين، ورأَسَ قسم الفلسفةِ وعِلمِ النَّفْسِ في كليّة «Birkbeck» من جامعة لندن، كان يملِكُ الجُرْأَةَ على إعلان عَوْدَتَهُ إلى الإيمانِ؛ على خُصومةٍ منه سابقةٍ لعقيدةِ الإذعان لخالِقٍ؛ فَأَلَّفَ آخرَ حياتِه كتابَهُ «استرداد الإيمان»، وفيه قَدَّمَ بيانًا لأسباب عودتِه، ومنها أنَّ الإنسانَ لا يملِكُ مقاومةَ معنى الحاجةِ إلى إلٰهٍ؛ فقال: «هناك بعضُ الحوافزِ في الطّبيعةِ البشريّةِ... لا تُرْضِيها حياةُ الانكفاءِ على الذَّاتِ. هناك حافزُ خِدْمةِ عقيدةٍ أو قضيّةٍ، وحافِزُ بَذْلِ الخير للآخَرين، وحافِزُ مساعدةِ المأْزُومِينَ... ما أهميَّةُ هذه الأمور؟ هل يمكِنُ تَسْوِيغها بمعاييرَ أرضيّةٍ؟... تلك إذنْ مَعَاييرُ غَبِيَّةٌ إذا كان هذا هو العالَمُ الوحيدُ الكائِنُ، لأنّه لا يمكن العثورُ على أيِّ مُسوّغٍ لها فيه... نحن نسارِعُ إلى

---

(١) فريدريك نيتشه، هكذا تكلَّمَ زرادشت، ص٢٠ ـ ٢١.

(٢) س. إ. م. جود C.E.M. Joad (١٨٩١ ـ ١٩٥٣م): فيلسوفٌ إنجليزيٌّ كان له اهتمامٌ بتبسيطِ مَبَاحِثِ الفلسفةِ في المجالات العامة، كما كانت له نشاطاتٌ اجتماعيّةٌ وسياسيّةٌ.

تقديم المسوّغاتِ المطلوبة بالإشارةِ إلى وُجودِ عالَمِ آخرَ يجعل دَوَافِعَنَا الإيثاريّة معقولةً، ويَشْرَحُ تفضيلَنا من حينٍ لآخَرَ الواجبً على الغَنِيمةِ، ويُسوِّغُ ذلكَ»[1].

الإيمانُ بالإلٰهِ قَدَرُ الإنسانِ.. المُؤَلِّهَة على الإيمانِ بإلٰهٍ مُتَعالٍ على المادَّةِ، والملاحِدَةُ يرفعون إلٰههم تارةً ويُؤَنْسِنُونَهُ أُخْرَى.

(١) C.E.M. Joad, *The Recovery of Belief: A restatement of Christian philosophy* (Faber and Faber, 1953), p.90.

المبحث الثامن

مغالطةُ برتراند راسل: الدِّيْنُ وَهْمٌ سَبَبُهُ الخوفُ من الطَّبيعةِ

يقولُ كثيرٌ من الملاحدة ـ ومنهم «راسل»[1] ـ في وُثُوقيّةٍ لم يختبروا صِدْقَها في مَجْلِسِ نَظَرٍ وبَحْثٍ: التَّدَيُّنُ ظاهرةٌ مَرَضِيَّةٌ سَبَبُها الخوفُ من الطَّبيعة؛ فالإنسانُ يبحث عن أَمَانِهِ من مظاهرِ الطّبيعةِ الشّديدةِ كالفيضانات والزّلازلِ بالإيمان بقوّةٍ عُلْويّةٍ لا تُرَى، تملِكُ أن تُجيْرَهُ من غضبِ الطّبيعة.

التَّعقيب:

ردُّ «ظاهرةِ الإيمانِ» بين البشرِ إلى عاملٍ نفسيٍّ يُخْتَصَرُ في البحث عن عَوْنٍ من سُلطانٍ قويٍّ في مواجهةِ طبيعةٍ ثائرةٍ، كان نمطًا تفسيريًّا مُحَبَّبًا للأنثروبولوجيّين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهو اليومَ أدنى حُضُورًا في التّحليلِ الإلحاديّ للإيمانِ.

الإشكالاتُ التي تُواجِهُ التّفسيرَ السّابقَ كثيرةٌ، منها:

أَوَّلًا: يرتكبُ أنصارُ هذا التفسير «مغالطةَ الأَصْلِ»؛ بالابتداءِ بالحُكْمِ سَلْبًا أو إيجابًا على مَنْبَعِ الفِكْرَةِ؛ لِلْحُكْمِ على الفكرة نفسِها بالصَّوابِ أو الخطأ، دون التَّعَرُّضِ لحقيقةِ الفكرة ذاتِها، ومؤيّداتها؛ إذ إنَّ القولَ: إنّ الإيمانَ بإلٰهٍ باطلٌ لأنَّ أَصْلَهُ شعورُ الإنسانِ بالضَّعْفِ، لا يُبْطِلُ وُجود إلٰهٍ، وإنّما ـ في أَقْصاهُ ـ يُفَسِّرُ الحالةَ الإيمانيّةَ، ولا يَلْزَمُ من ذلك أَلَّا يوجد إلٰهٌ.

---

(١) Bertrand Russell, *Why I Am Not a Christian: And Other Essays on Religion and Related Subjects* (Simon and Schuster, 1957), p.22.

وهي **مُغالَطةٌ تَتَلَبَّسُ بها جميعُ التّفسيراتِ غير الدّينيّة للإيمان باللهِ.**

ثانيًا: عَدُّ التَّديُّنِ مجرّدَ تفكيرٍ أُمْنَوِيٍّ ملازم للعقل بما هو عقل؛ بما يختصر العقل في أنه عَقْلَنَةٌ لتلك الرَّغَائِبِ الذاتيّة، يعود بالنَّقْضِ على العقلِ نفسِه؛ إذ العقل عندها في ختامِ أَمْرِهِ صانِعُ وَهْم[1].

ثالثًا: ردُّ فِطريّةِ الإيمان باللهِ إلى طبيعةِ الخوفِ من مجاهيلِ الطّبيعةِ فارغٌ شَكْلًا، وفاسِدٌ مَضْمُونًا. فراغُ هذا الاعتراضِ شَكْلًا برهانُه أنّ ثُبوتَ الخوفِ الطَّبَعِيِّ من نَوَائِبِ الطّبيعةِ لا يُثْبِتُ في ذاتِه وجودَ اللهِ أو عَدَمَهُ؛ إذ قد لا يكون للإلٰهِ وجودٌ ويَشْعَرُ الإنسانُ بالضَّعْفِ أمامَ الزَّلازلِ والبراكينِ لأنّه يخشى أن تُصِيْبَهُ بأذًى، وقد يوجد الإلٰهُ ويجعلُ في قلبِ الإنسانِ خوفًا من الطَّبيعةِ يَسْتَحِثُّهُ إلى أن يبحثَ عن أمانِهِ في مَنْ يملِكُ الكونَ وقوانينَهُ والنَّوازِلَ ومفاتيحَها. فالخوفُ من مظاهرِ الطّبيعةِ في ذاتِه قابلٌ لِسِياقٍ كَوْنيٍّ إِلْحَادِيٍّ وسياقٍ آخرَ إيمانيٍّ، ولذلك فهو فارغٌ دلالةً. والاعتراضُ قائمٌ ضِمْنًا على دعوى عجيبةٍ لا يرضاها الملحِدُ نفسُه؛ وهي أنَّ وجودَ اللهِ يقتضي أن يقترن بوجود إنسانٍ لا يخافُ من الظَّواهرِ الطّبيعيةِ الحادّةِ. . ولا تَلَازُمَ منطقيًّا بين هذا وذاك، وذاك فسادُ الشُّبْهةِ مَضْمُونًا!

رابعًا: ما الذي يمنَعُ الإلٰهَ أن يُنْشِئَ في الإنسان حاجةً إلى البحثِ عن الخالقِ المعبودِ إذا خَشِيَ من نوائبِ الطّبيعةِ؟! أَلَا يكونُ ذلك رحمةً بالإنسانِ إذ يَمْنَحُهُ طريقًا جديدًا إلى الإلٰهِ بعيدًا عن جَدَلِ النَّظَرِ العقليّ؟!

وقد أَحْسَنَ الفيلسوفُ (بول كوبان) بقولِه في هذا السِّياقِ ـ ردًّا على رُموزِ الإلحادِ الجديدِ ـ: «بإمكاننا أَنْ نَقْلِبَ الاستدلالَ على رأسِهِ بالقولِ: إذا كان اللهُ موجودًا، وكان قد صَمَّمَنَا لِنَتَواصَلَ مَعَهُ، فإنَّنا ـ بذلك ـ نَعْمَلُ بصورةٍ سليمةٍ عندما تَتَوَجَّهُ إرادتُنَا إلى الإيمانِ باللهِ. . . في هذه الحالِ، الحُجَّةُ الأساسيَّةُ لداوكنز ودينيت يمكن أَنْ تَدْعَمَ في الواقِعِ فِكْرةَ أَنَّ المؤمنين المتديّنين يعملون بطريقةٍ لائقةٍ وضِمْنَ نِظامٍ»[2].

---

(١) C.E.M. Joad, *Guide to Modern Thought* (London: Faber and Faber, 1933), p. 213.

(٢) Paul Copan, *Is God a Moral Monster?* (Michigan: Baker Books, 2011), p.30.

وإنَّ ممّا يزيد في كِفَّة القَوْلِ: إنّ الشُّعور الإيمانيَّ يتوافَقُ بصورةٍ أكبرَ مع الصَّنْعةِ الإلٰهيَّةِ للإنسانِ، أَنَّ الملاحدةَ يعانُون بشدَّةٍ أَمْرَ إنكارِ إيمانِهِمْ باللهِ حتّى إنَّ إحدى الإحصائيّاتِ قد أَثْبَتَتْ أَنَّ ٣٨٪ ممّنْ يُعَرِّفُون أنفسهم أَنَّهمْ ملاحِدةٌ أو لاأَدْرِيّون أَقَرُّوا بإيمانِهِمْ بإلٰهٍ أو قُوَّةٍ عُظْمَى[١].

خامسًا: الأَمَلُ في اندثارِ الدِّينِ بعد فَكِّ مُغْلَقاتِ كثيرٍ من الظّواهرِ الطّبيعيةِ المخيفةِ، رجاءٌ ساذِجٌ؛ لأنّه لم يُدْرَكْ بَعْدُ عُمْقُ جُذورِ الدِّينِ في النَّفْسِ الإنسانيّةِ، ولذلك فَصَّلَ عالِمُ الاجتماعِ البارزُ (تشارلز تايلور)[٢] في كتابه «عصرٌ عالمانيّ» في بيان أنَّ العَلْمَنَةَ لا يمكن أنْ تُلْغِيَ الحُضُورَ الدّينيَّ على المستوى الفردِيِّ لأنَّ الدّينَ جُزءٌ صميميٌّ من النَّفْسِ الإنسانيّةِ، وهو ما عَبَّرَتْ عنه الفيلسوفةُ الفرنسيّةُ (شانتال دلسول)[٣] بقولها: إنّ الإنسانَ مَسْكُونٌ بـ«الرَّغْبَةِ في الأَبَدِيَّةِ» «désir d'éternité»[٤].

سادسًا: اكتشفَ النَّاسُ القوانينَ الماديّةَ التي تُفَسِّرُ الظَّواهِرَ الطَّبيعيةَ، ولم ينشأ عن ذلك انصرافُهُم عن هذا الإيمانِ؛ بل زادَهُمْ تعظيمًا للخالقِ، ولم تعرفْ دراساتُ اللَّاهوتِ الطَّبيعيِّ عنايةً بدقيقِ العِلْم أكثرَ منها اليومَ، **وكُلَّما فُتِحَ في سماءِ العِلْمِ فَهْمٌ؛ زادتْ في رصيدِ دلائلِ الإيمانِ آيةٌ**؛ فالكَشْفُ عن الحقيقةِ العلميّةِ للظَّواهِرِ الطبيعيّةِ سببٌ لتعميقِ الإيمان باللهِ لأنّ هذا الكَشْفَ يُسْفِرُ عن دِقَّةِ قوانينِ الطَّبيعةِ وعَظَمَتِهَا بما لا يلتقي مع التَّصَوُّرِ الإلحاديِّ لِعَشْوائيّةِ هذا الوجودِ.

ولا يزالُ التَّدَيُّنُ قُوَّةً مُهَيْمِنَةً على الثَّقافاتِ السَّائدةِ اليومَ؛ بل إنّ العالَمَ في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين ـ كما يقولُ عالِمُ

---

(١) Pew Forum, 'Religion and the Unaffiliated', 2012.

(٢) تشارلز تايلور Charles Taylor (١٩٣١م): فيلسوفٌ كنديٌّ مختصٌّ في الفلسفة السياسيّة وتاريخ الفلسفة. نال تكريماتٍ علمية عالمية، منها "Templeton Prize"

(٣) شانتال دلسول Chantal Delsol (١٩٤٧ـ): فيلسوفةٌ مهتمّةٌ بتاريخ الفكر السياسيّ. عضو «أكاديميّة العلوم الأخلاقيّة والسياسيّة الفرنسيّة».

(٤) Cited in: Charles Taylor, *A Secular Age* (Cambridge: Harvard University Press, 2007), p720.

الاجتماع الشّهير (بيتر برجر)[١] ـ «مُتَدَيِّنٌ باهْتِياجٍ كما كان من قَبْلُ، وفي بعضِ الأماكِنِ أَكْثَر ممّا كان»[٢].

سابعًا: يلزمُ من القول: إنَّ عبادةَ الإلٰهِ سَبَبُها الرّغبةُ في اتّقاءِ ضَرَرِ الظّواهرِ الطّبيعيّةِ المُهْلِكَةِ أنْ يكون الإلٰه عند جميعِ الأُممِ رَمْزًا لِلقُوّةِ، ولَصيْقًا بمظاهرِ الطّبيعةِ الصّاخبةِ، ولكنّنا نعلم أنّ أُممًا كثيرةً كانت تعبُدُ الأَحْجارَ والأَشْجارَ وحتى وَضِيعِ الحيوانات كالفئران؛ وذاك أَنَّ مَدَاخِلَ الإيمانِ باللهِ مُتعدِّدةٌ، ولا تقتصِرُ على البحث عن أَمانٍ دُنْيويٍّ عاجلٍ.

ثامنًا: شعورُ الخوفِ والرَّهْبةِ قاصِرٌ عن الإحاطةِ بالحالِ الإيمانيّةِ التي تُهَيْمِنُ على النَّفْسِ؛ فالتديّن يثير في النفس نبضاتِ الخُشُوعِ وَسَكْرَةَ الحُبِّ؛ وأمّا الخوفُ فيَشُلُّ في الإنسان قُدرَتَهُ على التّواصل الإيجابّي مع مَعبُودِه، ويُبْقِيهِ في حالٍ دائمٍ من القلقِ والخَشْيةِ، ولا يَسْتَجِيْشُ في نفسِه معاني القربِ والتَّداني، على خلافِ حالِ المتديّنِ. ولذلك قال (ساباتييه): إنَّ شُعورَ الرَّهْبةِ والخوفِ من القُوى العلويّةِ لا يكفي وَحْدَهُ لتفسير فكرةِ الدّينيّةِ، ولا بُدَّ من شعورٍ آخَرَ يُوازِيه ويُلَطِّفُ من حِدَّتِهِ. ذلك أنّ الخوفَ إذا استأْثَرَ بالنَّفْسِ سَحَقَ الإرادةَ ووَلَّدَ اليأسَ. ومَنْ وَقَعَ فريسةً للرُّعْبِ، إن لم يَتَصَوَّرْ إمكانَ الخلاصِ، لم يفَكِّرْ في البحثِ عن عَوْنٍ يُنْقِذُهُ من الخَطَرِ الذي وقعَ فيه؛ فلا بُدَّ لِتحقيقِ الشُّعورِ الدّينيِّ من مقاومةِ الخوفِ والرّهبةِ بما يعادِلُهُمَا من الأَمَلِ والرّجاءِ اللَّذَيْنِ يَبْعَثَانِ على الدُّعاء والتَّضَرُّعِ. هذه هي حقيقةُ التَّديُّنِ[٣].

تاسعًا: مَحْضُ تَمَنِّي وُجود الشَّيْءِ ليس حُجَّةً لِوُجودِه، ولا لِعَدَمِ وُجودِه؛

---

(١) بيتر برجر Peter Berger (١٩٢٩ ـ ٢٠١٧م): أحدُ أهمّ علماء الاجتماع في النّصف الثاني من القرن العشرين وبداية الحادي والعشرين. أثّرتْ أفكارُه في فهم صراع الدّين والعالمانيّة في علماء الاجتماع المعاصرين.

(٢) Peter Berger, 'The Desecularization of the World: A Global Overview,' in *The Desecularization of the World: Resurgent Religion and World Politics* (Grand Rapids, MI: Wm. B. Eerdmans, 1999), p.2.

(٣) Auguste Sabatier, *Esquisse d'une Philosophie de la Religion d'Apres la Psychologie et l'Histoire* (Paris, 1897), p.13.

نقله: محمد عبد الله دراز، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان (الكويت: دار القلم، د. ت.)، ص١٢٦.

ولذلك قال (إدوارد فون هارتمان)[1]: «صحيحٌ تمامًا أنّه لا يوجد شيءٌ لمجرّد رَغْبَتِنَا في وُجودِه، ولكنْ ليس صحيحًا أنَّ الشَّيءَ لا يمكن أن يكون موجُودًا إذا رَغِبْنَا في وُجودِه. إنَّ كامِلَ نقدِ فيورباخ للدِّينِ، وبُرهانه للإلحادِ، يعتمدان على هذه الحجّة الوحيدة، والتي هي مغالطةٌ منطقيّةٌ»[2].

عاشرًا: التفكيرُ الرّغبويُّ أقربُ إلى الإلحادِ منه إلى الإيمانِ بوجودِ إلٰهٍ؛ لأنّه يرفعُ عن الإنسانِ أَعْباءَ المسؤوليّةِ الأخلاقيّةِ، ويطلق فيه ذِئْبِيَّتَهُ لِتَنْهَش بلا رادع. يقوُل الشَّاعرُ البولنديُّ الحائز على جائزةِ نوبل (تشزلاف ملوز)[3]: **«الأفيونُ الحقيقيُّ لِلشُّعوبِ هو الإيمانُ بالعَدَم بعد الموتِ؛ فهو العَزَاءُ الكبيرُ للتّفكير بأنَّ خِيَانَاتِنَا، وجَشَعَنَا، وجُبْنَنَا، وقَتْلَنَا، لَن يكونَ عُرْضَةً لِلْمُحاسَبَةِ»**[4].

الحادي عشر: كُلُّ الأبحاثِ التي تسعى إلى ردّ الإيمانِ باللهِ إلى عاملٍ طبيعيٍّ صِرْفٍ تفتقِدُ البرهانَ المادِّيَّ أَيًّا كان نوعُه، وتعتمدُ كُليَّةً على أُصُولٍ رَخْوةٍ؛ ولذلك قال (كيث وارد)[5]: «على الرَّغْمِ من حقيقةِ أنّه لا يوجد **عَمَلِيًّا** دليلٌ متاحٌ عَمَّا كان من أُصولِ الدّينِ... لم يمتنعِ العلماءُ عن تقديمِ ادّعاءاتٍ نهائيّةٍ حول ما حدثَ بالفِعْلِ. هذا مثالٌ للحالِ التي تكون فيها دَعَاوى اليقينِ على خلافِ حَجْمِ الأَدِلَّةِ المتاحةِ... أَثْبَتَ عالِمُ الأنثروبولوجيا في جامعة أكسفورد (إيفانز ـ بريتشارد) في دراسته النّهائيّةِ «نظريات الدّين البدائيّ» عَدَمَ جَدْوى كلّ هذا الخيالاتِ، وهي القائمةُ على أَدِلَّةٍ غيرِ موثوقةٍ أو غير نقديّةٍ أو غيرِ موجُودةٍ»[6].

---

(١) إدوارد فون هارتمان Eduard von Hartman (١٨٤٢ ـ ١٩٠٦م): فيلسوف ألمانيّ له عناية خاصة بدراسات الميتافيزيقا.

(٢) Eduard von Hartman, Geschichte der Logik (2 vols: Leipzig, 1900), Vol.2, p.444. (Cited in: Alister E. McGrath, *Intellectuals Don't Need God and Other Modern Myths*, Grand Rapids, Mich.: ZondervanPublishingHouse, 1993, p.97).

(٣) تشزلاف ملوز Czeslaw Milosz (١٩١١ ـ ٢٠٠٤م): أستاذ اللغات السلافية والآداب في جامعة «كاليفورنيا».

(٤) Cited in: Timothy J. Keller, *The Reason for God: Belief in an Age of Skepticism* (New York: Penguin, 2008), p.75.

(٥) كيث وارد Keith Ward (١٩٣٨ـ): فيلسوف ولاهوتيّ بريطانيّ. عضو الأكاديمية البريطانيّة. من أبرز الفلاسفة المهتمين بالجدل الإيماني ـ الإلحادي وأغزرهم تأليفًا فيه.

(٦) Ward, *Is Religion Dangerous?* (Oxford: Lion, 2011), pp. 10 -11.

الثاني عشر: انتهى البحثُ النّقديُّ التخصّصيُّ إلى أنّ «انتقاداتِ الدّينِ المستَنِدَة إلى دعاوى ذاتِ أَصْلٍ سيكولوجيٍّ لا تَجِدُ قَبُولًا إلَّا عند قِلَّةٍ من الفلاسفةِ من أهل النَّظَرِ»[1].

(1) John O'Leary-Hawthorn, 'Arguments for Atheism', *Reason for the Hope Within* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1999), p. 134.

المبحث التاسع

مغالطةُ كونت: الإيمانُ باللهِ أَثَرٌ عن تَرَقٍّ في محاولةِ تفسيرِ الكَوْنِ

ذهب عالمُ الاجتماع الفرنسيّ (أوجست كونت) إلى أنَّ أَصْلَ الإيمان بإلٰهٍ الرَّغبةُ في تفسيرِ الظواهرِ الطّبيعيّةِ بذاتٍ أو ذواتٍ غَيْبيّةٍ. وقد سلَكَ الإنسانُ في فَهْمِه للعالَمِ ثلاثةَ مراحل:

المرحلة اللَّاهوتيّة: مرحلة الطُّفولة البشريّةِ، وفيها يُفسِّرُ الإنسانُ الظّواهرَ الطبيعيّةَ المفاجئةَ وغير المنتظمةِ بتدخُّلِ قوًى فوقِ طبيعّةٍ خارقةٍ. وقد تَقَلَّبَ العقلُ في معرفةِ هذه القوى من تعريفها أنّها أشياءُ ماديّةٌ، إلى الآلهةِ المتعدّدةِ، لينتهيَ إلى الإيمانِ بالإلٰهِ الواحدِ.

المرحلة الميتافيزيقيّة: وهي مرحلةُ المراهقةِ البشريّةِ، وعندها ترك العقلُ إسنادَ القدرةِ على التَّصَرُّفِ في الطّبيعةِ إلى الذَّواتِ، وأَسْنَدَها إلى «الأشياءِ المجرّدةِ». وهي مرحلةٌ انتقاليّةٌ إلى الطَّوْرِ الأخير الذي هو أرقى أطوار الفَهْمِ.

المرحلة الوَضْعيَّة: المرحلةُ الأخيرةُ هي مرحلة النُّضْجِ العقليِّ للبشريّة حيث يتوقّفُ العقلُ عن طَلَبِ أسبابِ الظَّواهرِ والحقائق النهائيّةِ، ويكتفي بوجود القوانين الطّبيعيّةِ التي تَحْكُمُ الوجودَ الماديَّ، وتسجيل الحوادث ومعرفة ما بينها من روابط. وهي مرحلةُ العقلِ والتّجربةِ لا غير.

التَّعقيب:

أَوَّلًا: «قانون الحالاتِ الثّلاث» الذي وضَعَهُ (كونت) ليس حصيلةَ استقراءٍ تاريخيٍّ تامٍّ أو واسعٍ، وإنّما هو قراءةٌ فلسفيّةٌ خاصّةٌ تمَّ إسقاطُها عَمْدًا

على حركة التّاريخِ، مع عنايةٍ بتاريخ الأفكار في الغَرْبِ، دون الشَّرقِ.

ثانيًا: المراحلُ الثّلاثُ التي عَرَضَها (كونت) ليست أدوارًا تاريخيّةً متعاقِبةً، وإنّما هي حالاتٌ قد تتعاصَرُ وقد تتعاقَبُ، وهي تتفاوت ظُهُورًا وخُمُولًا في كلِّ شَعْبٍ، وفي كُلِّ عَصْرٍ.

ثالثًا: المرحلة اللّاهوتيّةُ لا تُعارِضُ المرحلةَ الميتافيزيقيّةَ؛ وليست المرحلةُ الميتافيزيقيّةُ رؤية أرقى من المرحلة اللّاهوتيّة؛ فإنّ التّفسيرَ العلميّ للظّواهر الطّبيعيّةِ لا يتعارَضُ مع الإيمان أنّها تعود إلى إلٰهٍ واحدٍ نَظَمَ هذه القوانين لِيُحقّق الانسجامَ في هذا الكونِ.. بل لو قلنا إنّ النَّظرةَ اللّاهوتيّةَ أرقى من مرحلةِ النَّظرة الميتافيزيقيّة لَأَصَبْنا؛ لأنّها نَظْرةٌ كُليّةٌ تسعى إلى جمع شَتَاتِ الظَّواهرِ المتفرّقةِ في منظومةٍ واحدةٍ.

رابعًا: كَتَبَ (العَقَّادُ) في منتصف القرن العشرين: «إنّ القرن العشرين عَصْرُ الشَّكِّ في الإلحاد والإنكارِ بمقدار ما كان القرنُ الذي قبله عصر الشَّكِّ في الإيمان»[1]. وفي القرن الواحد العشرين، ازداد الحَرَجُ الذي يُعانِيهِ الإلحادُ؛ حتّى إنّ «الكونجرس العالميَّ للأكاديميّةِ الدَّوليّةِ للأَنْسَنَةِ» صَرَّحَ سنة ٢٠٠٥م قائلًا: «إنّ هناك مَلْمَحًا واضحًا لأزْمةِ ثِقَةٍ... تجتاحُ الإلحاد في الوقت الرَّاهنِ»[2]. وذاك إقرار يسير عَكْسَ قانون (كونت) التطوّريِّ.

خامسًا: اعترفَ (كونت) بالطّابعِ العَمَليِّ للتصوّرِ الإسلاميِّ، وتَوَجُّهِهِ القويِّ إلى التَّماسِّ مع الحقيقةِ (ولذلك فَضَّلَ العبقريّةَ الإسلاميّةَ على العبقريّةِ الكاثوليكيّةِ)[3]، وهو ما يتعارَضُ مع حتميّةِ انفصالِ المراحلِ الثّلاثِ بعضها عن بعض، وانحسارِ الرّؤيةِ الدينيّةِ في القالبِ اللّاهوتيِّ.

---

(١) عباس محمود العقّاد، الله، موسوعة عبّاس محمود العقّاد الإسلاميّة ـ المجلد الأوّل: مجموعة توحيد وأنبياء (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٠م)، ص٢٣.

(٢) Alister McGrath,
<www.thersa.org/acrobat/dennett_130306.pdf>.

(٣) Auguste Comte, *Système de Politique Positive´Paris: Divers, 1895), 3/XLIX.*

المبحث العاشر

مُغالطة ماركس: الدِّينُ ظِلُّ البِنْيةِ الاقتصاديَّةِ

ذهبَ (كارل ماركس) إلى أنَّ كُلَّ مظاهرِ الوَعْيِ الإنسانيِّ: الثَّقافة، والأخلاق، والدِّين أَثَرٌ حَتْمِيٌّ للمنظومةِ الاقتصاديّةِ؛ فالاقتصادُ، بآلياتِه وعلائِقِه، هو الذي يصوغُ فَهْمَنَا للعالَمِ.. وكُلَّما تَغَيَّرَ الشَّكلُ الاقتصاديُّ تَحَوَّلَ الفَهْمُ الدّينيُّ للإنسانِ من صُورةٍ إلى أُخرى.. فما الدّينُ إلَّا ظِلٌّ للاقتصادِ. وهو دائمًا مَطِيَّةُ المنتفِعِين لِتخديرِ الشُّعوب؛ ولذلك جاء في «البيانُ الشّيوعيُّ»[1]: «إنَّ الدُّستور والأخلاقَ والدّينَ كُلّها خُدْعةُ البورجوازيّةِ، وهي تَتَسَتَّرُ وراءَها من أَجْلِ مطامِعِها».

التَّعقيبُ:

أَوَّلًا: إذا كانت البِنى الفوقيّةُ المتمثّلةُ في جميعِ أنواعِ الوَعْيِ مجرّد أَثَرٍ آليٍّ وظَرْفيٍّ للبِنْيةِ الاقتصاديّةِ وعلائقِها؛ فالماركسيّةُ بذلك ـ لأنّها بناءٌ فلسفيٌّ ـ ليست سوى أَثَرٍ آليٍّ وظرفيّ للواقعِ الاقتصاديّ لِمُنَظِّرِيْهَا.. وهذه الرّؤيةُ ـ بذلك ـ تعودُ على أَصْلِها بالنَّقْضِ؛ لأنها تُنْكِرُ كليّةً قُدرةَ العقلِ على إصابةِ الحقيقةِ؛ فالفِكْرُ بكليّتِه نِسْبيٌّ، بما في ذلك نشاطُ الفِكْرِ لِكَشْفِ أَصلِ الدّين.

ثانيًا: فَشِلَ تغييرُ البناء الاقتصاديِّ للدّولةِ في ظِلِّ الأنظمةِ الشيوعيّةِ ـ مع توجيهِ التّعليم إلى اجتثاثِ الدّينِ من خلال الآلَةِ التّعليميّةِ والإعلاميّةِ ـ في القضاء على الظّاهرة الدينيّةِ. والصَّحْوةُ الواسعةُ للكنيسةِ الأرثوذكسيّةِ في روسيا

---

(١) Communist Menifesto.

بعد سُقوطِ النّظامِ الشيوعيِّ برهانٌ عَمَليٌّ أنَّ المسألةَ الدّينية ترفضُ الاختزالَ في العاملِ الاقتصاديِّ.

ثالثًا: دافَعَ عالِم الاجتماعِ الشّهير (ماكس فيبر)[1] عن دعوى أَثَرِ الدّينِ في صناعة البنى الاقتصاديّةِ، على نقيضِ دعوى (ماركس)، وبَيَّنَ أَثَرَ البروتستانتيّة بأخلاقها المنفَتِحةِ على الدُّنيا، والاستمتاعِ بخيراتها على ظهورِ الرأسماليّةِ[2]. وهي دعوى تحملُ من الحقِّ أَكْثَرَ ممّا زَعَمَهُ (ماركس).

رابعًا: اضطرب (ماركس) في موقِفِهِ من الحِسِّ الدّينيِّ بين المذهبِ ونَقِيضِهِ؛ فالدّينُ عنده «أَفْيُونُ الشُّعُوبِ» لِتخديرِ الطّبقاتِ الـمَنْهُوبةِ بأماني الجَنَّةِ، وكذلك هو زَفْرةُ المضطهدين تعبيرًا عن بُغْضِهِمْ لِلظُّلْمِ الذي يُصِيبُهم[3]! والتَّفسيرُ الذي يُفَسِّرُ الظَّاهرةَ بالشَّيءِ ونَقِيضِه لا يُفسِّرُ شيئًا في حصيلة حُكْمِهِ.

خامسًا: يَلْزَمُ من التَّفسيرِ الماركسيِّ «للظّاهرة الدينيّةِ» أنّ الإنسانَ لم يَعْرِف التَّدَيُّنَ إلَّا بعد بلوغِ الاجتماعِ الإنسانيِّ مرحلةً متقدّمةً من التطوّرِ، وذاك أمرٌ يَرْفُضُهُ البحث الأنثروبولوجيُّ؛ فلم يُعْرَفِ الإنسانُ إلَّا وهو مُتَدَيِّنٌ.

سادسًا: المذهبُ الماركسيُّ نَزَّاعٌ إلى التَّبسيط الـمُخِلِّ في تفسيرِ كثيرٍ من الظَّواهرِ؛ بسبب الغُلُوِّ في قِيمةِ أَثَرِ العاملِ الاقتصاديّ في صناعة الفِكْرِ، ولِغَلَبَةِ طابعِ القراءةِ الحماسيّة للتّاريخ في كتابات (ماركس) وإنْ غَلَّفَ تحليلَها بالحتميّاتِ المزعومةِ؛ ولذلك وَصَفَ (برتراند راسل) في موسوعتِه في تاريخِ الفلسفةِ فلسفةَ (ماركس) أَنَّها قاصِرةٌ، ومُبالِغةٌ في الجانب العَمَليِّ على حسابِ الجانبِ الفِكْريّ، وأَسِيْرة مُشْكلاتِ عَصْرِها[4].

---

(١) ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠م): عالم اجتماعٍ واقتصادٍ وفيلسوفٌ ألمانيٌّ. يُعتبر مؤسّس علم الاجتماع الاقتصاديِّ.

(٢) *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism (Die protestantische Ethik und der Geist des Kapitalismus).*

(٣) John Raines, *Marx on Religion* (Philadelphia: Temple University Press, 2002), pp.5-6.

(٤) Bertrand Russell, *History of Western Philosophy*, p.788.

المبحث الحادي عشر

مغالَطَةُ فرويد: عُقْدَةُ أُوديب

دافَعَ (فرويد) في كتابه «الطَّوْطَمُ والحَرَامُ»[1] عن روايةٍ تَفَرَّدَ بها لِنَشْأَةِ الدِّيْنِ، تقولُ: إنَّ البشريَّةَ كانت تعيش في شَكْلِ عَشائِرَ صغيرةٍ تحت سلطان ذكورٍ أَقْوياءَ، وكان أَنْ قَرَّرَ أبناءُ أَحَدِ رؤوس العشائر أنْ يقتُلوا أباهم لِتَسَلُّطِهِ واحتكاره النِّساءَ لِنَفْسِه؛ لكنَّهم بعد قَتْلِهِ وإعادة تنظيم أُمور العشيرة، شَعَرُوا بالنَّدَمِ؛ فقاموا بتخليدِ ذكرى أَبِيْهِم من خلال إنشاء احتفالاتٍ دينيّةٍ تُحيي أَمْرَهُ بالرَّمْزِ له بِصُوَرِ الطَّوْطَمِ[2]، ثمّ تَحَوَّلَتْ هذه الذِّكْرى إلى عبادةِ الإلٰهِ السَّماوِيّ لاحقًا[3].

التَّعْقِيبُ:

أولًا: اعْتُرِضَ على (فرويد) أَنَّهُ ـ مَنْهَجِيًّا ـ لم يُقِمْ نَظَرِيَّتَهُ على دراساتٍ واسعةٍ تُمَهِّدُ للدَّعاوى الواسعة التي قَدَّمَها عن الأديان، مُكْتَفِيًا بِقِلَّةٍ من المَرْضَى الذين الْتَقَاهُمْ؛ ولذلك اتَّهَمَهُ صاحبُ كتابِ «لماذا كان فرويد مُخْطِئًا» أَنَّهُ رَوَّجَ في كتاباته للعِلْمِ الزَّائِفِ[4]. كما أَنَّ التَّفسير الفرويديّ لِلدِّينِ لم يستوعب عامَّةَ الأَدْيانِ، واكْتَفى بالأَدْيانِ الغربيَّةِ «الحديثة» وبعضِ المظاهر الدينيّة التي تُوْصَفُ أَنَّها بدائيَّةٌ. وظاهِرُ فِعْلِ (فرويد) أَنَّهُ قد بنى نظريَّتَهُ على

---

(١) Totem and Taboo (Totem und Tabu)

(٢) الطَّوْطَمُ: شَيْءٌ ماديٌّ أو رُوحِيٌّ أو رَمْزٌ مُقَدَّسٌ يُتَّخَذُ شِعارًا للجماعة: الأُسرة، القبيلة...

(٣) دافع (فرويد) عن أَوْجُهٍ أُخرى نفسيَّةٍ للظَّاهرة الدّينيّة، كقولِهِ: إنَّ الدِّينَ أَثَرٌ للتَّفْسِيرِ الرَّغْبويِّ، وأنّه حالةٌ عُصابِيَّةٌ... وما سنناقِشُهُ هو التَّفسيرُ التَّاريخيُّ لِأَصْلِ الدِّيْنِ.

(٤) Richard Webster, *Why Freud Was Wrong: Sin, science and psychoanalysis* (Oxford: Orwell Press, 2005).

قِصَّةِ اللَّاهوتِ النَّصرانيّ بموتِ الإلٰهِ على الصَّلِيب، وأَكْلِ جَسَدِهِ في القُدَّاسِ فيما يُعرف بـ«سِرّ التَّناول».

ثانيًا: انتُقِدَ كتابُ «الطَّوْطَم والحرام» انتقاداتٍ شديدة لهشاشةِ أَدِلَّتِهِ، وعُمُوميَّتِها، والإطارِ التاريخيِّ الزَّائفِ لها[1]؛ فليس في السَّرْدِ التَّاريخيّ لـ(فرويد) ما يَدْعَمُهُ من الآثارِ؛ وإنَّما هو مَحْضُ خيالٍ؛ وهو بذلك على الطَّرف الآخرِ المقابِلِ للبحثِ التاريخيِّ العلميِّ الجادِّ.

ثالثًا: نظريّة (فرويد) في التَّفسير الأُودِيبيّ لعبادة اللهِ تجاوزها البحث العلميّ حتّى بين الملاحدة؛ ولذلك كتب (ماكجراث): «يُنْظَرُ الآنَ عُمومًا إلى حديث فرويد عن الأُصولِ التَّاريخيّة للدّين أَنَّهُ غيرُ موثوقٍ به على الإطلاق... لقد تَجَاوَزَ علماءُ الأنثروبولوجيا وعلماءُ الاجتماعِ الدِّينيّ عامّةً رواياته التاريخيّة عن أُصولِ الدّين، لأنّها تَخْميناتٌ لا تستحِقُّ أَنْ تُؤخذَ بِجِدِّيَّةٍ»[2].

خلاصة النَّظَرِ:

• برهانُ الفِطْرةِ جَوْهَرُهُ أنَّ الإنسانَ لو تُرِكَ لنفسِه دون تعليم من ثقافةٍ خارجيّةٍ؛ فَسَيَتَّجِهُ إلى السَّماءِ يبحثُ عن «قُوّةٍ»[3] و«سُلْطةٍ» عُلْيَا تُفَسِّرُ الوجودَ: المبتدأ والغايةَ.

• الإيمانُ باللهِ شُعورٌ قَسْريٌّ في الإنسان، وإنكارُ صِدْقِهِ كإنكارِ صِدْقِ العقلِ والحِسِّ في طلبِ الحقيقة؛ فإنّ الزَّعْمَ أنّ الطبيعةَ وَهَبَتْنا عَقْلًا صاحِيًا وحِسًّا مُعافى ـ بلا برهانٍ مباشر ـ ثم خَدَعَتْنا بِقلبٍ ضالٍّ، تناقض في الحُكْمِ على أمانةِ الطَّبيعةِ.

• إذا كان الإيمانُ جُزْءًا أصيلًا من الشّخصيّة السَّويّةِ؛ فالتَّصديقُ به ضروريٌّ للإيمانِ بمعنى «الإنسان».

---

(١) Marvin Harris, *The Rise of Anthropological Theory: A History of Theories of Culture* (New York: Thomas Y. Crowell Company, 1971), pp. 425 - 426.

(٢) Alister McGrath, *The Twilight of Atheism*, pp. 71, 73.

(٣) لا نُسمّي الله ـ سبحانه ـ بغير ما سمّى به نفسه في الوَحْيِ، وما نستعمله من ألفاظٍ مثل «قوّة» هو من باب التَّدَرُّجِ مع المخالِفِ في الإبانة عن المعنى أو من بابِ نَقْلِ معتقداتِ النَّاسِ.

• لا يوجد مُلحِدٌ صِرْفٌ؛ فالإيمان أصيلٌ في النَّفْسِ؛ قد تُعَفِّرُهُ الغَفْلَةُ أو يُعَمِّيْهِ التَّغَافُلُ، لكنّه يَظْهرُ دائمًا عند خَلْوةِ المرء بنفسِه، وافتقارِه حين الحاجة والكَرْبِ.

• اتّفاق الأُممِ طوالَ التّاريخ البشريِّ على الإيمان بالله تفسيرُه الأقربُ جوهريّةُ الإيمانِ في البناءِ الإنسانيِّ.

• الإيمان مُقدّمةٌ ضروريّةٌ لِفَهم النَّفْسِ والعالَم، وبانعدام الإيمانِ يفقد الإنسانُ القدرةَ على الحُكْمِ على الأشياءِ لأنَّ الكونَ بلا إلٰهٍ شَتَاتٌ للأشياءِ مُظْلِم.

• الإيمانُ هو حال الطّبيعةِ الأُوْلى المعافاة للنَّفْسِ، والإلْحادُ ـ نَفْيًا نظريًّا وسُلُوكًا ـ خروجٌ عن حالِ المُعافاةِ.

• الخوفُ من الطّبيعةِ لا يُفَسِّرُ الظّاهرةَ الدّينيّةَ وإنّما يُعبِّرُ عن أَصَالَتِها.

مراجع للتَّوسُّعِ:

عبد الله العجيري، شموعُ النَّهار: إطلالةٌ على الجَدَلِ الدّينيِّ الإلحاديّ المعاصر في مسألة الوجود الإلٰهيِّ، لندن: تكوين، ٢٠١٦م.

عبد الله الشهري، ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، بيروت: مركز نماء، ٢٠١٤م.

Loren Meierding, ''the *Consensus Gentium Argument,'' Faith and Philosophy* 15/3 (1998), pp. 271-297.

Winfried Corduan, *In the Beginning God: A Fresh Look at the Case for Original Monotheism*, B & H Publishing Group, 2014.

Peter Kreeft, *Christianity for Modern Pagans: PASCAL's Pensees Edited, Outlined, and Explained,* San Francisco: Ignatius Press, cop. 1993.

William Lane Craig, ''The Absurdity of Life Without God,'' *Reasonable Faith*, Illinois: Crossway, 2008, pp. 65-90.

Tom Morris, *Making Sense of It All: Pascal and the Meaning of Life*, Grand Rapids, Mich.: William B. Eerdmans, 1992.

الفصل الثاني

البرهان الأخلاقي

ـ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١]

ـ قَبُولُ القِيَمِ الأخلاقيّةِ الموضوعيّةِ يُوفِّرُ «أَرضيّةً للإقرار أنَّ الإلٰهَ قد صَنَعَها»[1].

زعيمُ الإلحاد الفلسفيّ (ج. ل. ماكي)

بين خيارين: أخلاق موضوعيّة أم خيارات ذوقيّة؟

«البرهانُ الأخلاقيّ»[2] هو الاستدلالُ بوجود قِيَم أخلاقيّةٍ تَسْتَقْبِحُ أُمُورًا وتُزكّي أُخرى لا بناءً على الذَّوْقِ الشّخصيِّ أو العُرْفِ الاجتماعيِّ وإنّما بناءً على وجود معيارٍ غير ماديٍّ يُحدّد الخيرَ من الشرّ، لِلقَوْلِ بوجودِ إلٰهٍ مُقَنِّنٍ لِقِيمِ الخيرِ والشَّرِّ. وفي غيابِ الإيمانِ بإلٰهٍ، يغدو الكونُ مجرّد رُكامٍ من مادّةٍ وطاقةٍ بلا قيمةٍ ذاتيّةٍ؛ فلا خير ولا شرَّ، ولا حقَّ ولا باطلَ..

يقول المؤلِّهُ:

إذا كان اللهُ موجودًا؛ فالعَقْلُ يَتَوقَّعُ:

- وجودَ الخيرِ والشَّرِّ في الكَوْنِ.
- وجودَ أخلاقٍ موضوعيّةٍ مُلْزِمةٍ.

إذا لم يكن اللهُ موجُودًا:

---

(١) J.L. Mackie, *The Miracle of Theism*, p.118.

(٢) The moral argument.

• لا يوجد معيارٌ أخلاقيٌّ للتّمييزِ بين الخيرِ والشَّرِّ.

• لا يوجد شيءٌ يستحِقُّ وَصْفَ الخيّريةِ.

• لا معنى لِمَدْحِ شيءٍ بأنّه خيرٌ.

• لا يوجد شيءٌ يستحِقُّ وَصْفَ أنّه شَرٌّ.

• لا معنى لِذَمِّ شيءٍ كونه شرًّا.

• الأخلاقُ اختيارٌ ذوقيٌّ مَحْضٌ؛ لا يَحِقُّ للمرءِ أن يُلْزِمَ بمعياريّته غيرَهُ؛ فلا كبيرةَ ولا صغيرةَ، ولا فضيلةَ ولا رذيلةَ.. فقط المادّةُ والطّاقةُ والحركةُ العمياءُ حقيقةُ الوجودِ.

يقول الملحِدُ: الخيرُ والشَّرُّ وَصْفَانِ يَصْبِغُهما الإنسانُ بِمَحْضِ ذَوْقِهِ على الأشياء، وهو ليس في حاجةٍ ـ بذلك ـ إلى الإيمانِ بوجود إلٰهٍ ليعرِفَ الخيرَ والشَّرَّ، أو ليكون خَيِّرًا.

فهل يملِكُ الخيرُ أن يكون حُجّةً للإيمان؟ وهل يقتضي الإلحادُ أَلَّا يكون هناك شرٌّ؟...

صياغة البرهان:

يُعتبرُ البرهانُ الأخلاقيُّ أَحَدَ أَحْدَثِ براهينِ الإيمانِ في الجَدَلِ الإيمانيِّ ـ الإلحاديِّ، ويُنْسَبُ تأصيلُه عادةً إلى الفيلسوفِ الألمانيّ (عمانويل كانط)، وليس الأمرُ كذلك؛ فبرهان (كانط) في الظَّمَأ الأصيلِ إلى العَدْلِ وتحقيقه في الوُجودِ الأَبَديِّ، وليس في موضوعيّةِ الأخلاقِ.

لِبُرْهانِ الأخلاقِ صِيَغٌ عديدةٌ، كلٌّ ترجو بيانَ حاجة الأخلاقِ الموضوعيّة إلى أرضيّةٍ وجوديّةٍ؛ هي الإيمانُ بوجود اللهِ... من الصّيغِ الجيّدةِ لبرهانِ الأخلاق، القولُ:

١ ـ توجد إلزاماتٌ أخلاقيّةٌ موضوعيّةٌ.

٢ ـ لا يمكن تفسيرُ هذه الإلزاماتِ بأسبابٍ طبيعيّةٍ.

٣ ـ لا يمكن تفسيرُ هذه الإلزاماتِ بعواملَ اجتماعيّةٍ.

٤ ـ لا يمكن تفسيرُ الإلزاماتِ الأخلاقيّةِ الموضوعيّةِ بغير مصدرٍ شخصيٍّ.

٥ ـ الإلزامُ الأخلاقيُّ لا بدَّ أن يكون له مصدر شخصيٌّ له سلطانُ إقامتِهِ[١].

وبالإمكان التّعبيرُ عن المعنى نفسِه بالصّيغةِ الأشهرِ اليومَ، وهي:

١ ـ إذا لم يكن اللهُ موجودًا؛ فالقِيمُ الأخلاقيّةُ الموضوعيّةُ غيرُ موجودةٍ.

٢ ـ القيمُ الأخلاقيّةُ الموضوعيّةُ موجودةٌ.

٣ ـ اللهُ موجودٌ.

جوهرُ هذا البرهانِ هو أنّ الأخلاقَ ـ تحسينًا وتقبيحًا ـ لا يمكن أن تُعْزَى إلى ضرورةٍ عُضْويَّةٍ، ولا سُلطانٍ عُرْفيٍّ، ولا اختيارٍ ذَوْقيٍّ فَرْدِيٍّ؛ ولذلك لا سبيل لتفسيرِها إلَّا بالقولِ إنّها حقيقةٌ كونيّةٌ جوهريّةٌ متعاليةٌ على الأشياء الماديّةِ، فهي أَثَرٌ عن كمالِ اللهِ الذي صبغَ قَلْبَ الإنسانِ صبغةً أخلاقيّةً.

---

(١) Ed Hindson and Ergun Caner, eds. *The Popular Encyclopedia of Apologetics* (Eugene, Or.: Harvest House Publishers, 2008), p.239.

المبحث الأول

البرهانُ الأخلاقي وسُلطانُه النّفسيّ

المَدَاخِلُ إلى نُفوسِ النَّاسِ مُتعدّدةٌ؛ فمن النَّاسِ من يستثيرُهُ البرهانُ العقليّ الشّائقُ، ومنهم من يستفِزُّهُ النَّظَرُ المَعْمَلِيُّ البصيرُ، وغيرهما يَتَحَرَّكُ قلبُه بالدَّلائلِ النَّظريّةِ الـمُفْعَمَةِ بالإحساس، وهي ليست محض عواطفَ جَيَّاشة، وإنّما هي أَثَرُ الإحساسِ العميقِ بعلاقة الكون بالذّاتِ، وإن شئتَ فقلْ: تحقيقُ معقوليّةِ العالَمِ في قلبِ الإنسانِ بإنشاء صورةٍ مُنْسَجِمةٍ غير مُشَوَّشةٍ.

والميزة الكبرى للبرهانِ الأخلاقيِّ أنّه بسيطٌ لا يستدعي من الباحث عن الحقِّ معرفةً بالعُلوم وتعقيداتها، ولا الجَدَل الفلسفيّ العميقِ ومضائِقِه، كما أنّه بريءٌ من جَفَافِ بعض الأدلّةِ القائمة على النَّظَرِ العَقْلِيِّ الصِّرْفِ.. إنّه برهانٌ قريبٌ من النَّفْسِ لأنّه مغموسٌ في أعماقِ الذّاتِ البشريّةِ ولَصِيقٌ بالبَدَاهةِ؛ حتى إنّ أَشَدَّ الملاحدةِ غِلْظةً يَجِدُ مَشَقَّةً وَعَنَتًا لِرَدِّهِ؛ إذ يدفَعُه إلى أن يَنْخَلِعَ من طبيعته الإِنْسِيَّةِ ويَكْفُرَ بعميقِ رؤيتِه لنفسِه ولكلِّ ما حوله من إنسٍ وشيءٍ حتّى يَنْفُضَ الخاطر الأخلاقيَّ الدَّبِقَ عن عَقْلِهِ وقَلْبِه.

هو برهانٌ يَجِدُ فيه المؤمِنُ تناسقًا في رؤيتِه للأشياءِ ويَتَعَثَّرُ في طريقِه الملحدُ الذي يسير في طريقٍ يُعاكِسُه؛ إذ يجد نفسَهُ في شَتَاتٍ بين واقعِ شُعورِهِ الذي يرى القُبْحَ حَقًّا والواجِبَ أَمْرًا من جهةٍ، وتفكيرِه الفلسفيِّ الذي يقول له: إنَّ كلَّ الأفعالِ سواءٌ؛ تَقْبِيلُ رَضِيعٍ أو إرضاعُه عند ظَمَأٍ أو جُوعٍ هو كَرَضْخِ رَأْسِهِ بين حَجَرَيْنِ حتى تَتَهَشَّمَ جُمْجُمَتُهُ وتَثْعبَ الدِّماءُ منه حتّى يَبْرُدَ، كلٌّ منهما فِعْلٌ لا يَرضى المَدْحَ ولا يَلْقى القَدْحَ.. إلقاءُ وردةٍ في حضن أُمِّك تستعطي بها دعاءً من فَمِهَا؛ كرَمْيِها بالرَّصَاصِ حتى تصير أَشْلاءً، كلاهما فِعْلٌ

بلا حقيقةٍ قِيَمِيَّةٍ. . تعذيبُ قِطَّةٍ وتمزيقها لمجرّد اللَّهْوِ؛ كإطعامها حين مَسْغَبَةٍ من خَشَاشِ الأرضِ، عَمَلانِ بلا قِيمةٍ ذاتيّةٍ، فهما متساويان بلا شُكْرٍ ولا نُكْرٍ. . .

هو برهانٌ تَنْقُرُ كلماتُه وصُورهُ سويداءَ القلبِ الـمُعَانِدِ حتّى يَدْمَى؛ ولذلك اعترفَ الفيلسوفُ **الملحِدُ** (كاي نيلسون) بقوّة الحِسِّ الأخلاقيّ وسلطانه على العقلِ؛ حتّى قال ـ بعد أن ذَكَرَ عَدَدًا من الأمور المستهجَنةِ أخلاقيًّا في ثقافتنا ـ: «الإيمانُ أنَّ مثل هذه الأمورِ الرئيسةِ تُعَدُّ شَرًّا **أكثرُ معقوليّةً من الإيمانِ بأيِّ نظريّةٍ شُكوكيّةٍ** تقول لنا: إنّه ليس بإمكاننا أن نعرفَ أو نَتَعَقَّلَ أنَّ أَيَّ أَمْرٍ من هذه الأُمور شَرٌّ»[1].

فضريبةُ الإلحادِ ليست بالسَّذاجةِ التي يتصوَّرُها الملاحدةُ الشّعبيُّون؛ إنّها تمتدُّ من إنكارِ حقيقةِ الإنسانِ ـ أي: تميّزه عن أشياء العالَم المادّيِّ ـ إلى إنكارِ كلّ قيمةٍ للوجود ومعنى له وغاية؛ إذ الإنسانُ بلا أَخْلاقٍ شَيءٌ، أَيُّ شيءٍ؛ بلا شيءٍ. والوجودُ غابةٌ بلا حَكَمٍ؛ بلا ضميرٍ؛ بلا تأنيبٍ، ولا زَجْرٍ، ولا نَدَمٍ. . عالَمٌ مُظْلِمٌ قاسٍ. .

ولستُ أَقْصِدُ برسم هذه الصُّورة القاتمةِ الكئيبةِ للوجودِ في غَيْبَةِ الأَخلاقِ الموضوعيّةِ أن ننتهيَ ضرورةً إلى وجود اللهِ إذا رَفَضَ الملحِدُ أن يعترفَ بالنَّقْشِ الأَخلاقيِّ المَحْفُورِ في قَلْبِه، وإنّما لا بُدَّ أن نُقِرَّ جميعًا أنّ عالَمَ الإلحادِ عالَمٌ قاسٍ جدًّا لا تُطِيقُه أنفسُنا ولا أنفاسنا، سواء أَقَرَّ المرءُ بوجودِ الله أم جَحَدَ ذلك. وهذه القسوةُ الجَارِحَةُ لا بُدَّ أن تدفعَ الإنسانَ ـ كُلَّ إنسانٍ، بما هو إنسان ـ أنْ يأخذَ برهانَ الأخلاقِ على وجودِ الله محملَ الجدِّ عند البحثِ؛ لأنّ القَبُولَ أو الرَّفْضَ ينتهي إلى صناعةِ عالَم مُفارِقٍ للآخر بصورةٍ كليّة؛ فالمسألةُ ليست من قضايا التَّرَفِ الذِّهْنيِّ، ولا هي حُكْمٌ مُنْبَتٌّ عن ساحِ الفِعْلِ. . هو قرارٌ لا يَعْقُبُهُ فِرارٌ؛ وإنّما يَمُدُّ يَدَهُ الخَشِنَةَ لِيُمْسِكَ بالرُّوحِ لِيُلْزِمَهَا أنْ تُعايِشَ عواقبَ الحُكْمِ ولوازِمَ الرُّؤيةِ.

---

(١) Kai Nielson, *Ethics Without God* (New York: Prometheus Books, 1990), p.59.

ومن جلالةِ هذا البرهان أنه يقودنا إلى معرفة اللهِ لا من جهةِ أنّه الخالِقُ أو المصوِّرُ ـ كما سيأتي معنا ـ، وإنّما من جهة دلالته على جَمَالِ الله ـ سبحانه ـ؛ فالرَّحْمةُ التي في قَلْبِ العَبْدِ ظِلٌّ لِكَمالِهَا في ذاتِ الله ـ سبحانه ـ، وطَلَبُ العَدْلِ الذي يُهَيْمِنُ على أنفسنا بعضٌ من العَدْلِ الكامِلِ للهِ ـ سبحانه ـ، وكُلُّ خيرٍ نابضٍ بالحقِّ في قلبِ الإنسان ـ يليق باللهِ سبحانه ـ هو على صورةٍ أكملَ في ذات اللهِ ﷻ.

كما أنّ البرهانَ الأخلاقيَّ سبيلٌ لمعرفةِ النُّبُوَّةِ الحقَّةِ. يقول القرآنُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ فالإنسانُ يهتدي بما نُقِشَ في صَدْرِه من معرفةِ الخيرِ وحُبِّهِ، ومعرفة الشرِّ وبُغْضِهِ، إلى ربّه وحقيقةِ الرّسالة النّازلة على الخَلْقِ منه. فتفتيشُ الإنسانِ في دَوَاخِلِ أعماقِه يهديهِ ـ بما فيه من انجذابٍ قَسْرِيٍّ إلى مَكَارمَ مخصوصةٍ ـ إلى مَنْ طَبَعَ فيه هذه المُيُولَ، ويَسُوقُه إلى معرفةِ الرّسالةِ الأصيلةِ التي تطابق أوامِرُها وزواجِرُها ما يَرْضاهُ وما يَأْباهُ في حال المعافاةِ من مسالكَ ودُروبٍ. وقد أَكَّدَ نبيُّ الإسلام ﷺ رَبَّانيّةَ رسالَتِهِ بمطابقتها لِطَبَائِعِ الخيرِ التي يُدْرِكُها النَّاسُ بلا وَحْيٍ: «**البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثمُ ما حَاكَ في نفسِكَ وكَرِهْتَ أَنْ يطَّلع عليه النَّاسُ**»[1].

> **«إنَّ الأخلاقَ في أعمالِنا وَحْدَها القادرةُ أن تعطيَ الجَمَالَ والجَلَالَ لِحَيَاتِنا»[2] (أينشتاين).**

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، (ح/٢٥٥٣).

(٢) Albert Einstein, Letter to a minister, November 20, 1950 (Cited in: Helen Dukas, *Albert Einstein: the human side*, 1979, p.95.

المبحث الثاني

معنى موضوعيّة الأخلاق

يبدأُ الجِدالُ في موضوعيّةِ الأخلاقِ من معرفةِ معنى أن تكون الأخلاقُ موضوعيّةً. وجُلُّ الإشكالِ في النّقاشِ مع الملاحدةِ في فَهْمِ هذا البرهان هو في عَجْزِهِمْ عن إدراك معنى «الموضوعيّةِ» «objectivity»؛ إذ يقعُ الخَلْطُ ـ مثلًا ـ في هذا الشَّأْنِ بين «موضوعيّة» الأخلاق و«إطلاقيّة» الأخلاقِ. إطلاقيّةُ الأخلاق مُتعلّقةٌ بثبوت القِيْمةِ الأخلاقيّة نفسِها في كلِّ حال وحينٍ؛ فالكَذِبُ مثلًا مُنْكَرٌ في كلِّ حالٍ وحينٍ، حتى عند الضّرورةِ المُلْجِئةِ التي قد تَدْفَعُكَ عادة أن تكذِبَ حتى لا تُقْتَلَ. موضوعيّةُ الأخلاقِ ليست مُتعلّقة بذلك؛ وإنّما تُشيرُ إلى أنّ القِيَمَ الأخلاقيّةَ قائمةٌ خارجَ نفسِك، ثابتةُ الوجودِ بعيدًا عن حِسِّكَ أو ذَوْقِكَ أو أعرافِ المجتمع. إنّها حقيقةٌ قائمةٌ بذاتها ثابتةٌ في نفسِها خارجَ حُدودِ الأهواء البشريّةِ؛ ولذلك فالطّريقُ إليها اكتشافُها لا اختراعُها.

وأَعْظَمُ ما في الأخلاقِ الموضوعيّةِ غير الذاتيّةِ طابعُها الإلزاميُّ الذي يَجِدُهُ المرءُ في نفسِه، ولا يملك منه فِكاكًا؛ ولذلك يُقِرُّ بها الإنسانُ وإن عارضَتْ رَغَباتِه. وإذا حاولَ الإنسانُ أن يُفْلِتَ من سُلطانِ هذه القِيم، تَأَوَّلَ حالَ فِعْلِهِ، واخترعَ لنفسِه مُسوّغاتٍ لأن يأتيَ ما يَهْوى، دون أن يُنْكِرَ أَصْلَ الحُكْم الأخلاقيِّ الأوَّل، وإلزامه؛ كأن يُقِرَّ أنَّ السَّرقةَ فِعْلٌ قبيحٌ، ويَتَأَوَّلَ لنفسِه أنّه يأخذُ مالَ غيرِه لأنّه محتاجٌ إلى ما يدفعُ به عن نفسِه ووَلَدِهِ الجُوعَ.

ولَعَلَّ أَفْضَلَ مَنْ عَرَّفَ الموضوعيّةَ الأخلاقيّةَ بعبارةٍ تدفعُ الالتباسَ الفيلسوفُ (ويليام ريتشي سورلي)[1] بقولِه: «عندما أُؤَكِّدُ أنّ «هذا أمر جيّدٌ» أو

---

(١) ويليام ريتشي سورلي William Ritchie Sorley (١٨٥٥ ـ ١٩٣٥م): فيلسوف اسكتلندي. عضو الأكاديميّة =

«ذاك أمرٌ سيئٌ»، فأنا لا أعني أنّي ألقى مُتْعةً أو نُفُورًا في ممارسته، أو أنّ عندي شعورَ إعجابٍ به أو سُخْطٍ عليه. من الممكن أن تكون هذه التّجاربُ الشخصيّةُ حاضرةً، لكنَّ الحُكْمَ لا يشير إلى اختيارٍ عَقْلِيٍّ شخصيٍّ أو ذاتيٍّ، وإنّما هو متعلّقٌ بوجود قِيْمةٍ موضوعيّةٍ في هذه الحال. ما الذي يَلْزَمُ من هذه الموضوعيّة؟ بوضوحٍ، وفي المقام الأَوَّلِ، يلزمُ من طابعِ الموضوعيّةِ استقلالُ موضوعِ الحُكْمِ. فإذا كان تقريري: «هذا أمرٌ جيّدٌ!» صادقًا؛ فهو إذنْ جيّدٌ لا فقط بالنّسبة لي، وإنّما هو جيّدٌ لكلِّ أَحَدٍ.

إذا قلتُ: «هذا أَمْرٌ جيّدٌ!»، وقال آخرُ مشيرًا إلى الأمرِ نفسِه: «هذا ليس بجيّدٍ!»، فلا بُدَّ أنْ يكون واحِدٌ مِنَّا مُخْطِئًا في حُكْمِهِ... صِحَّةُ الحُكْم الأَخلاقيّ غيرُ مرتَبِطةٍ بالشّخصِ الذي يُصْدِرُهُ... يقتضي هذا القولُ موضوعيّةً مُنْفَصِلةً عن إنجازاتِ النَّاسِ.. بل هي مستقلّةٌ عن اعترافِهِم بِصِحَّتِها. وسواءٌ اهتدينا بهذه القِيَم أَمْ لا، وسواءٌ اعْتَرَفْنَا بها أم لا؛ تبقى هذه القِيَمُ صالحةً... القيمُ الأخلاقيّةُ الموضوعيّةُ صالحةٌ بصورةٍ مستقلّةٍ عن إرادتي، وهي مع ذلك شيءٌ يُرْضِي غايتي ويُكَمِّلُ طبيعتي»[(١)].

إنَّ غَضَبَنَا من الشرّ إقرارٌ ضروريٌّ أنّه أَمْرٌ مَرْذُولٌ، لا تهواهُ النَّفْسُ، وترى أنّه انحرافٌ عن أصلِ الاستقامةِ على الخُلُقِ السَّوِيِّ. وهو موقفٌ يؤولُ ضرورةً إلى ـ وإن شئتَ فقلْ: يَنْبُعُ من ـ عِلْمِنَا بأنَّ للحياةِ معنى، وأَنَّ للعَدْلِ وجودًا خارجَ أذواقِنا يُلْزِمُنا أنْ نُنْكِرَ المُنْكَرَ، وأنَّ الحياة لا بُدَّ أن تكون عادلةً، وأنَّ العَدْلَ يَجِبُ أنْ يَحْكُمَ، وأنّ المُسِيءَ لا بُدَّ أنْ يُعَاقَبَ.. وكُلُّ ذلك ليس من الماديّةِ في شيءٍ، وليس فيه للإلحادِ الدَّهْرِيِّ نَصِيبٌ؛ إذ ليس هناك معنى لِلشرّ والخيرِ والعَدْلِ والقَصَاصِ؛ بل لِلْحياةِ نفسِها، في كَوْنٍ مادَّتُهُ صَمَّاءُ، وحَرَكَتُهُ عَمْياءُ...

= البريطانيّة. درّس فلسفة الأخلاق في جامعة «أبردين». له أكثر من مؤلف في الأخلاق ومذهب الماديين.

(١) William Ritchie Sorley, *Moral Values and the Idea of God* (New York: Macmillan, 1921), pp.93 -94.

المبحث الثالث

هل الأخلاق حقيقةٌ موضوعيّةٌ؟

البحثُ في موضوعيّةِ الأخلاقِ، بحثٌ في نَقْضِ نَقِيضِ هذه الموضوعيّة؛ أي: النّسبيّة، لا فقط نِسبيّةِ الأخلاقِ؛ بل نِسبيّةِ الحقيقةِ نفسِها. ففي عالَمِ النِّسبيّةِ لا توجدُ حقيقةٌ قائمةٌ بذاتها. وفي النّسبيّةِ الأَخْلاقيّةِ تَنْتَفِي فكرةُ الخيرِ والشرِّ؛ فالأَذْواقُ هي التي تُكْسِبُ الأشياءَ قِيْمَتَهَا الوافدةَ.

وقد اجتمعَ جُهْدُ عامّةِ الملاحدةِ لإنكارِ صِبْغةِ الموضوعيّةِ عن الأخلاقِ حتّى صَبَغُوا المِزاجَ العامَّ بعباراتِ النِّسبويّة؛ كقولهم: «ما هو خيرٌ بالنّسبة لك؛ قد يكون شَرًّا في عَيْنَيْ غَيْرِكَ؛ ولذلك لا يَحِقُّ لك الإنكارُ على ما لا يرضاهُ ذَوْقُكَ؛ فَلِكُلٍّ ذَوْقُهُ!»..

والنِّسبيّةُ الأخلاقيّةُ دعوى لا تكاد تَجِدُ من يَنْصُرُها عند النَّبْشِ فيها، وتَأَمُّلِ أُصُولِها الوجوديّة ولوازِمِها القِيَمِيَّةِ، وإن كان من النَّاسِ من يَرْضاها نَظَرِيًّا، ويَقْبَلُهَا عند موافقتها محبوباتِه. ولإثباتِ موضوعيّةِ الأخلاقِ علينا أن نَكْشِفَ مخبوءَ الطّبيعةِ الإنسانيّةِ ومَذْهَبَها الأَصيلَ في الأخلاقِ..

من الممكن نَظْمُ البرهانِ على موضوعيّةِ الأخلاق؛ كالتالي:

١ ـ لا بُدَّ أن يكون هناك قانونٌ أخلاقيٌّ موضوعيٌّ كونيٌّ، وإلَّا فـ:

- لا يمكن أن يكون هناك اتِّفاقٌ عامٌّ حولَ جُلِّ المبادئِ الأخلاقيّةِ.
- لا معنى للخلافِ القِيَمِيِّ بين النَّاسِ، على خلافِ ما يَظُنُّه النَّاسُ.
- لا يوجد مذهبٌ أو فِعْلٌ خَطَأٌ.
- كلُّ المذاهبِ الأخلاقيّةِ لا تتعارَضُ لأنّها اختياراتٌ شخصيّةٌ.

• كلُّ الإداناتِ الأخلاقيةِ لِعُتَاةِ المُجْرِمِينَ (ستالين، هولاكو...) لا معنى لها.

• ليس من المهِمِّ أن نحفظَ العهودَ والمواثيقَ، على غير ما نَظُنُّ.

• لسنا بحاجةٍ إلى تبريرِ جرائِمِنا وإفسادِنا في الأرض؛ إذ لا يملِكُ أحدٌ أن يُدِيْنَهَا، كما أنّنا لا نَشْعُرُ أنّها انحرافٌ عن حقٍّ واستقامةٍ.

٢ ـ وجودُ هذا القانونِ الأخلاقيّ يتجاوزُ اختيارَ الفَرْدِ؛ فهو مُسَلَّطٌ عليه من الخارج؛ ودليلُ ذلك أنّه:

• أحيانًا كثيرةً يتعارضُ مع اختيارِه ومصلحَتِهِ الآنيّة.

• يَتَعَارَضُ مع الطّابعِ العامِّ للشُّعوبِ التي قَبِلَتْه مع عَجْزِها عن الالتزامِ العَمَلِيِّ به.

الأخلاقُ الموضوعيّةُ تُحَقِّقُ نُبُوءاتها في واقِعِنا بصدقٍ ودقّةٍ؛ ونحن نستجيب لها بصورةٍ عفويّةٍ حتّى لو لم نعترفْ باللِّسانِ بموضوعيّتها.. كُلُّنا سواء أمامَ حقيقتها المتسلّطةِ على أفكارِنا ومشاعِرِنا.

ومن ظريفِ ما يقع لأئِمَّةِ الإلحادِ عند محاولتهم إنكارَ موضوعية الأخلاقِ؛ كَشْفهم تناقُضَهم الحادَّ؛ إذ إنَّ براءةَ اللِّسان من الحقيقةِ الأخلاقيّةِ غيرُ براءةِ الحالِ والجَنَانِ، ومن ذلك أنّ شابًّا سأَلَ (داوكنز) بعد محاضرةٍ له، قائلًا: «إذا كان البشرُ آلاتٍ، ولم يكن من المناسب لَوْمهم أو مَدْحهم بسبب أفعالهم؛ فلماذا علينا ـ إذن ـ أن نعترفَ لك بالفضلِ لِكِتابِكَ الذي تُرَوِّجُ له؟».

فأجابه (داوكنز) أنّه يَتَصَرَّفُ في هذا المقام بأسلوبٍ عاطِفِيٍّ، واللَّومُ يقع على النَّاسِ.

فردَّ الشَّابُّ نفسُهُ بقوله: «لكنْ، أَلَا تَعُدُّ ذلك تَضَارُبًا في رُؤَاك؟»

فاعترفَ (داوكنز) بتناقُضِهِ، وأَضافَ: «... ولكنّهُ **تَضَاربٌ يَجِبُ أَنْ نَتَعَايَشَ مَعَهُ**، وإلَّا فستكونُ الحياةُ قاسيةً»[1].

---

(١) Nancy Pearcey, *Saving Leonardo: A call to resist the secular assault on mind, morals, & meaning*, (Nashville, Tennessee: B & H Publishing Group, 2010), p.153.

وهكذا الإلحادُ في كثيرٍ من أبوابِ الجَدَلِ في أُصولِه، إذا واجَهَهُ عاقلٌ بتناقِضاتِه، وأنَّهُ فِكْرةٌ لا يُمْكِنُ أن يعيشَ على سُنَّتِها الإنسانُ، أَقْفَلَ الملحِدُ بابَ السِّجالِ بقولِه: «الإلحادُ ينتهي بنا إلى التَّناقضِ، وعلينا أن نستسلمَ له»، رغم أنَّ **حُجَّةَ الملحدِ لِرَفْضِ الإيمانِ فسَادُ أَدِلَّتِهِ لتناقضها مع الواقعِ!**

إنَّ النَّفْسَ تَسْتَشْعِرُ ضرورةَ وجودِ الخير والشرِّ بمعزلٍ عن رَغَائبِ النَّفْسِ ومُيُولِ القَلْبِ، وهو إحساسٌ واعٍ يَدْهَمُهَا فلا يتركُ لها فُسحةً للفِرار، وإنّما يدفَعُها إلى حيث يريد دفعًا؛ فهو حِسٌّ حضوري، قاطعٌ، ومستغنٍ عن البرهانِ. ومن هذا الشُّعورِ تَنْبَجِسُ معاني الوجود وحاجةُ الكونِ إلى ذاتٍ نَحَتَت الأخلاقَ وقوانينَها في سقفِ الوجودِ ولَوْحِ القُلُوبِ.

وإنّ أعظمَ برهانٍ على موضوعيّةِ الأخلاقِ أنّه لم يوجد إنسانٌ استطاعَ أن يعيش حياته وَفْقَ فلسفةِ النِّسبيّةِ الأخلاقيّةِ؛ ولذلك فإنّ عَصْرَ ما بعد الحداثةِ الذي يُمثِّلُ العصرَ الذهبيَّ للسُّيولة القِيَميّةِ لم يستطِعْ أن يَصْبغَ وجود النَّاسِ بِلَوْنِ النِّسبيّةِ في كلّ شيءٍ، وإنّما راجَ سُوقُ النّسبيّة فقط في ما يُحبّه النَّاسُ بِعُمْقٍ؛ فلا يرضى أَقْنانُ النّسبيّة في الغَرْبِ جوازَ سَلْبِهم أَرْواحَهم أو أَمْوالَهم أو حُرِّيَتَهم أو كَرَامَتَهم.. وكلُّ عدوانٍ على تلك الحقوقِ مُسْتَنْكَرٌ عندهم ومُجَرَّمٌ بلا لِيْنٍ...

وما رَفْضُ الملاحدة لما يَسْتبشِعُونَهُ، ومجاهَرَتُهم بذلك، وعَقْدُهم راياتِ الولاء والبراءِ على مُقَدَّساتهم الأخلاقيّةِ، وصناعتهم لوبيَّاتٍ تَطْحَنُ مُعارِضِيهم، إلَّا تعبيرٌ حادٌّ على العِلم بالشرّ، وبُغْضِه، وحشدِ النَّاسِ لِحَصْبِهِ بِحَصَى النَّقْدِ ورَجْمِهِ بِلَعناتِ الويلِ. والتّعبيرُ الواعي وغيرُ الواعي عن معرفة الشرِّ الموضوعي دالٌّ بذاته على العِلمِ بالخيرِ الموضوعيّ؛ بل هو يسبقه؛ فإنّنا لن نغضبَ من الشرّ إلَّا بعد عِلْمِنَا بالخير، ولن نرفُضَ الشرَّ إلَّا وقد علمنا ما يجب أن يكون لِتَسْتَقِيمَ منظومةُ الوجودِ على سُنَّةِ الفَضْلِ. ولن نرى في الخيرِ فضيلةً حتّى نُدْرِكَ ـ وإنْ بالهَمْسِ في دَخَائِلِ القُلُوبِ ـ أَنَّ للوجود قِيمةً في كُليّتِه وجزئيّاتِه.

وقد طاردَ الوجودُ الأخلاقيُّ العقل الفلسفيّ المتفلّت من ظواهرِ الوجود؛

وأَلْزَمَهُ أن يَحْنِيَ الرَّأْسَ تَوَاضُعًا؛ فإنّ مباينةَ القِيْمةِ الأخلاقيّةِ للذَّوْقِ الذّاتيّ ساطعةٌ في وَعْينا بالعالم. ولذلك يشهدُ الفيلسوفُ البريطانيُّ ـ المختصُّ في مباحثِ الفلسفةِ الأخلاقيّة ـ (جون كوتنهام)[1] «**للإجماعِ** المتنامي بين الفلاسفة ـ بصورة **مفاجِئةٍ** لكلِّ أَحَدٍ ـ أنَّ نَوْعًا من موضوعيّةِ القِيْمةِ أمرٌ صَوَابٌ»[2].

في الكون الإلحاديّ، لا توجد غيرُ الأعراضِ الفيزيائيّة، وكلُّ ما عدا ذلك فَوَهْمٌ.

(1) جون كوتنهام John Cottingham (١٩٤٣ـ): فيلسوف إنجليزيّ. مختص في الفلسفة الحديثة المبكّرة، خاصة الفلسفة الديكارتيّة، والفلسفة الأخلاقيّة. رأس «المؤسسة الأرسطية» وعدد من المؤسسات الفلسفيّة الأخرى.

(2) John Cottingham, "Philosophers are finding fresh meanings in Truth, Goodness and Beauty", *The Times* (June 17, 2006).

المبحث الرابع

عندما يواجه الملحِدُ نفسَه!

لماذا يسألُ الملحدُ عن الشرّ، والخير، وعن أحزانِ المتألِّمِين، وأوجاعِ المكروبين، ومن أَكْرَثَهُ الهَمَّ؟ لماذا يكترِثُ الملحدُ بتأليفِ كتابٍ عن «وَهْم الإلٰهِ» و«خَطَرِ الدِّينِ»؟

إنّه يَنْطَلِقُ في حَرْبِهِ على الإيمان باللهِ من الإيمانِ بِقِيمةِ الحقيقةِ، وأنّ معرِفَتَها فضيلةٌ، وضرورة التَّحَلِّي بالمحامِدِ، وأنَّ تركَ ذلك نقيصةٌ... ولكنَّ ذلك مخالِفٌ لِجَوْهَرِ الإلحادِ العَدَميِّ؟!

وقد اعترفَ الفيلسوفُ الملحِدُ (ألكسندر روزنبرج) أنَّ الماديّةَ الفلسفيّةَ يَلْزَمُ منها القولُ بالإلحادِ، ويَلْزَمُ من الإلحادِ القولُ بالعَدَميّةِ، ومنها العَدَميّةُ الأخلاقيّةُ، غير أنَّ الملاحدة ـ كما يقول ـ يَفِرُّون من لازمِ الماديّةِ لأنّهم يرونَ كارِثِيَّةَ هذه النتيجةِ، كما أنهّم يَخْشَوْنَ مواجهةَ النَّاسِ بها؛ إذ إنّ القولَ: «إنّ «كُلَّ شيءٍ مَقْبُولٌ»[1] هو عينُ العَدَميّةِ، والعَدَميّةُ سَيِّئَةُ السُّمْعةِ»[2].

ويُلخّص (روزنبرج) حقيقةَ ماهيّة العَدَميّةِ وأعراضَها القِيَميّةِ بقوله: «تَرْفُضُ العَدَميّةُ التَّمييزَ بين الأعمال المقبولةِ أخلاقيًّا، والممنوعةِ، والمطلوبةِ. لا تخبرنا العَدَميّةُ أنّه ليس بإمكاننا أن نَعْرِفَ أيَّ الأحكامِ الأخلاقيّةِ صحيحٌ، وإنما **تخبرنا أنّها كلّها خطأ**. وبصورةٍ أَدَقّ، تزعمُ العَدَميّة أنّ كلَّ الأحكام الأخلاقيّة مُؤسَّسةٌ على افتراضاتٍ لا أساسَ لها، وخاطئة. تقول العَدَميّة: إنَّ فِكْرةَ «المباح أخلاقيًّا» بأكملها لا يمكن الدّفاع عنها وهي بلا معنى.

(١) "Anything goes"
(٢) Alexander Rosenberg, *The atheist's Guide to Reality, p.95.*

بالإضافة إلى ذلك، تُنْكِرُ العَدَميّةُ على الحقيقة وجود شيءٍ يُسمّى: القِيْمةَ الأخلاقيّةَ الجوهريّةَ... كما **تُنْكِرُ وجودَ أيّ شيءٍ جيّدٍ في نفسِه أو قبيحٍ في نفسِه**»[1].

ثم اعترفَ (روزنبرج) أنّه يلزم من العَدَميّةِ ثلاثةُ أُمورٍ:

أوّلها: العَجْزُ عن إدانة (هتلر) أو (ستالين) أو (ماو) أو (بول بوت) أو أيّ مُجرمٍ من مجرمي التّاريخ الحديث لافتقادِ أَرْضيّةٍ أخلاقيّةٍ تسمح بذلك.

ثانيها: أَلَّا يَثِقَ النَّاسُ في العَدَمِيِّ لأنه ليس كائنًا أخلاقيًّا.

ثالثها: العَدَميّةُ مُدَمّرةٌ للمجتمعِ. والقولُ بالعدميّة سيردُّ الإنسانَ إلى الطّابع الأنانيّ والوحشيّ كما صَوَّرَهُ الفيلسوفُ (هوبز) في الإنسان العاري من مُجَمِّلاتِ الحضارةِ. ومن المؤكّدِ أنّنا نُحِبُّ أَلَّا نكون عَدَمِيِّين إذا استَطَعْنا أنْ نَتَفَادى ذلك، كما لا نُحِبُّ لِغَيْرِنَا أن يكون عَدَمِيًّا[2].

تلك هي العَدَميّةُ في العَرَاءِ، تحت الشَّمْسِ، وقد ساد التغافل عنها بين مُقَدَّمِي الملاحدةِ؛ حتّى لكأنّها والإلحاد في شِقاقٍ. ولا يَنْتَبِهُ الملحدُ لِنَكارَةِ مَذْهَبِهِ حتّى يُواجِهَهُ نبيهٌ بفسادِ التَّجميلِ أو البَتْرِ في تَصَوُّرِهِ الأخلاقيِّ. ومن ظريف هذا الباب أنَّ أستاذَ فلسفةٍ أمريكيًّا ذكر أنَّ طالبًا عنده كان مُصِرًّا على نَفْيِ موضوعيّةِ الأخلاقِ، معتقدًا بصورةٍ جازمةٍ ذاتِيَّتَها (subjectivity)؛ فَنِسْبِيَّتَهَا. وفي يومِ الامتحانِ كتبَ الطّالبُ بَحْثًا مُؤَصّلًا في ذلك، فيه جهدٌ كبيرٌ، وطُولُ نَفَسٍ في تَتَبُّعِ تَفَاصِيلِه. ولمَّا رَدَّ الأستاذُ البحثَ إلى الطالب، فُوجِئَ الطّالب أنّه قد حصلَ على علامةٍ سَيِّئَةٍ؛ فأسرعَ إلى الأستاذِ مُعترِضًا، قائلًا: إنّ بَحْثَهُ بلا شَكٍّ جيِّدٌ، ويستحِقُّ علامةً جيّدةً. فردَّ الأُستاذُ: لم يُعْجِبْنِي غِلافُ البَحْثِ الذي قَدَّمْتَهُ، وأنا أعتقِدُ أنَّ ذلك أمرٌ يُسيءُ إلى البحثِ... فانْتَبَهَ الطّالبُ إلى مآلِ النسبيّة الذَّوقيّةِ وظُلْمِها البادي إذا حَكَمَتْ في الحُقُوق، ونَكَارةِ هذا الحُكْم في بداهةِ الحِسِّ الأخلاقيّ.. ولم يَدْرِ الطّالبُ كيف يَرُدُّ على أستاذِه لَفْتَتَهُ الذَّكيّةَ.

---

(١) المصدر السابق، ص٩٧ ـ ٩٨.

(٢) المصدر السابق.

وهذا (داوكنز) ـ المتطرّفُ في تفسيرِهِ البيولوجيّ لكلّ شيء تقريبًا ـ انتَفَضَ على التّفسير الدّاروينيّ؛ حتّى قال: «أنا ـ كعالِم طبيعة أكاديميٍّ ـ أَعُدُّ نفسي داروينيًّا مُتحمّسًا لذلك، مؤمنًا أنّ الانتخاب الطّبيعيَّ، إن لم يكن القوّةَ الدّافعةَ الوحيدةَ في التّطوّر، فهو بالتأكيد القُوّة الوحيدةُ المعروفةُ القادرةُ على إنتاجِ وَهْمِ الغاية (purpose) الذي تمكّنَ من عقلِ كلّ من يُفكّرُ في الطّبيعةِ. ولكن في الوقت نفسِه الذي أَدْعَمُ فيه الدّاروينيّة كعالِم طبيعةٍ، أنا **مُعادٍ للدّاروينيّة بحماسةٍ** (passionate anti-Darwinian) عندما يَتَعَلَّقُ الأمرُ بالسّياسةِ وكيف ينبغي لنا أن نُديرَ شؤوننا الإنسانيّة»[1]. ومعلومٌ عن (داوكنز) معارضته للدّاروينيّة الاجتماعيّة..

وسَبَبُ هذا القَهْرِ النَّفْسِيِّ الذي تُمارِسُه الأخلاقُ الموضوعيّة على النَّفْسِ أنّها من المبادئ الأُولى الضّروريّة لِلْعملِ السَّويِّ للنَّفْسِ، ورفض هذه المسَلّمات ينتهي بالإنسانِ إلى أن يَتَصَرَّفَ بصورةٍ غير طبيعيّةٍ، فَيْلَتَذّ بتعذيبِ الرُضَّع لِمَخْضِ المَرَحِ، أو يأْكُلهم كما يَفْعَلُ «Psychopath Cannibals»، وهي أمورٌ يرفُضُها النَّاسُ لا لأنّها ممّا لا يميلُ إليه المرءُ أو لا يرضاه لنفسِه، وإنّما لأنّها فِعْلٌ قَبِيحٌ في ذاتِه، بَشِعٌ في نفسِه، غيرُ إنسانيٍّ في جَوْهَرِهِ.

إنَّ كلَّ قولٍ للملحِدِ: إنّ الأخلاقَ مجرّد تَوَاضُعٍ اجتماعيٍّ على قَبُولِ قِيمةٍ ما، وإنّ الإنسان مجرّد حَيَوانٍ مُتَرَقٍّ عن شَبيهِ قِرْدٍ، لا يملِكُ أن يدفَعَ عن نفسِ الملحِدِ النَّكارةَ الجوهريّة لِقَتْلِ رضيعٍ بِسِكّينٍ حادَّةٍ واللّهو بأَشْلائِه ليلةَ مَرَحٍ..

إنَّ برهانَ الأخلاقِ لا يسعى لِقَهْرِ الملحدِ أن يقول بموضوعيّةِ الأخلاقِ من خلال برهانٍ علميٍّ أو كشفٍ كونيٍّ، وإنّما هو يدفع الملحدَ إلى أن يواجِهَ نفسَهُ، بأن يَجْمَعَ في تَنَاسُقٍ بين رُؤيتِه الكونيّةِ ومذْهَبِهِ الأخلاقيِّ.. وسبيلُ ذلك رفع مُضْمَرَاتِهِ الأخلاقيّةِ إلى سَطْحِ وَعْيِهِ لِيَفْحَصَ العَقْل الفلسفيّ تجانُسَ هذه المضْمَرَاتِ مع صَرِيحِ رُؤيتِه الكونيّةِ.. إنّه **برهانٌ يَضَعُ الإنسانَ أمام نفسِه**، هل هو نسيجٌ واحدٌ أم شَتَاتٌ مُبَعْثَرٌ..؟

---

(١) Richard Dawkins, *A Devil's Chaplain*, pp.10 -11.

«علمُ اليقين ـ عندنا ـ وارداتٌ تَرِدُ إلى النُّفوسِ تَعْجَزُ النُّفُوسُ عن رَدِّها»[1]. (نجم الدين الكُبرى).

وقد اعترفَ غيرُ واحدٍ من كُبَرَاءِ الإلحادِ بأَزْمَةِ الإلحادِ، وأَزْمةِ التَّعَثُّرِ والتَّبَعْثُرِ.. ومنهم (راسل) الذي ركَعَ مُقِرًّا أنّه لا يستطيعُ أن يعيشَ في ضَوْءِ تَصَوُّرٍ أخلاقيٍّ سُلطانُه الذَّوْقُ الشّخصيُّ، مُعْتَرِفًا أنَّ رُؤاهُ «لا تُصدَّق» «incredible»، جاهرًا بِعُمْقِ الأَزْمةِ الإلحاديّةِ في قوله: «لا أَعْرِفُ لذلك حلًّا»[2].

وأمّا (داوكنز) فيقول: إنّه إذا استعملَ شخصٌ ما أفكارَهُ ـ أفكارَ (داوكنز) ـ لتبرير نَمَطِ حياةٍ يدورُ حول المصلحةِ الشّخصيّةِ لِلمرءِ دون أَدْنى قِيْمةٍ لحقوقِ الآخرين، فسيكونُ من العَسِيرِ الاعتراضُ فلسفيًّا أو أخلاقيًّا على أفعالِه البَغِيضةِ، وسيكتفي (داوكنز) بأن يَشْكُوَهُ إلى الشّرطة لأنّه يُخالِفُ أعرافَ المجتمع[3].. وذاك برهانُ رَفْضِهِ للإنسان المخلِصِ لإلحادِهِ!

وكان الكاتبُ **الملحدُ** (بيتر كاف)[4] صريحًا في إصراره على نَكارَةَ المنظومةِ الأخلاقيّةِ الإلحاديّةِ، بقوله: «مهما كانت الحُجَجُ الشُّكُوكيّةُ التي يُؤتى بها ضِدَّ إيماننا أَنَّ قَتْلَ البريءِ أَمْرٌ قبيحٌ أخلاقيًّا، يبقى الأمرُ أَنَّ ثِقَتَنا في أنّ القتلَ أمرٌ قبيحٌ أخلاقيًّا أعظمُ من ثِقَتِنَا في أنَّ الحُجَّةَ [المعارضة] سليمةٌ... تعذيبُ طفلٍ بريءٍ لمجرد المُتْعَةِ أمرٌ خاطئٌ أخلاقيًّا. نقطة، فلا جِدَالَ»[5].

ولعلَّ أوضحَ استسلامٍ أمامَ قُوّةِ البرهانِ الأخلاقيِّ قول (راسل) في آخر

---

(١) نقله ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٤/٤٣.

(٢) Bertrand Russell, Letter to the Observer, 6 October 1957 (Cited in: *William Lane Craig, Reasonable Faith,* Wheaton: Good News Publishers/Crossway Books 2008, p.79).

(٣) Dawkins, 'Nick Pollard talks to Dr Richard Dawkins',*Third Way*, April 1995, 18 (3).

(٤) بيتر كاف Peter Cave (١٩٥٢م): أستاذ الفلسفة في "Open University" و "City University" بلندن. رئيس المؤسسة الإلحاديّة "Humanist Philosophers' Group"

(٥) Peter Cave, *Humanism* (Oxford: OneWorld, 2009), p.146.

ما انتهى إليه في فلسفَتِهِ الأخلاقيّةِ: «لا أعرفُ كيف أَنْقُضُ حُجَجَ ذاتيّةِ (subjectivity) القِيَمِ الأخلاقيّةِ، لكنَّني أَجِدُ نفسي عاجزًا عن الإيمانِ أنّ الشَّيءَ الوحيدَ الـمُنْكَرَ في الوحشيَّةِ القاسيةِ هو أنّني لا أُحِبُّها»[١].. فالنَّفْسُ تَرْفُضُ الشَّرَّ بِحِسِّ البَدَاهَةِ لأنّه شَرٌّ لا يملِكُ أن يكونَ في حِسِّ الآخرين ـ مهما اختلَفُوا عنّا واختلَفْنا معهم ـ خيرًا..

تلك هي النَّفْسُ حين تُوْقِفُهَا سُدُودُ القَلْبِ والرُّوح، فَتَمْنَعُهَا مجاوزةَ الحَدِّ والطُّغيان في اللّجَجِ والجَدَلِ، وتلك هي براعةُ برهان الأخلاقِ؛ إذ يَسْلبُ الإنسانَ القُدرةَ على المعارضة، ليرخيَ سلاحَ المعاندة؛ فهو في الخيارِ بلا خيارٍ؛ إذ إنّه بين أنْ يَقِفَ موقِفَ الحَرْبِ مع نفسِه؛ فَيَقْتَلِعَ قَلْبَهُ من بينِ الأَضْلُعِ، أو أنْ يُعْلِنَ نهايةَ الـمُناجَزَةِ؛ فيقرَّ للأخلاقِ بالعُلُوِّ فوقَ الذَّوْقِ والاختيار. وذاك برهانُ الإيمانِ الذي منه يَفِرُّ.

وقد كَشَفَتْ حقيقةُ موضوعيّةِ الأخلاقِ أَزْمَةَ العقلِ الإلحادِيِّ، أو المجتمعِ الغربيِّ ـ عامّةً ـ الذي يقول بالشّيءِ ويعمل بِضِدِّهِ، ويدعُو إلى الشّيءِ، ويُضْمِرُ نَقِيضَهُ. وقد كَشَفَ الفيلسوفُ الشّهير (ريتشارد تايلر)[٢] ذلك في مقدّمة كتابِهِ عن الأخلاقِ، بقولِه: إنَّ المجتمعاتِ الحديثة تَخَلَّتْ بدرجاتٍ متفاوتةٍ عن الإيمان بإلٰهٍ، ومع ذلك استبْقَتْ فِكْرةَ الأخلاقِ «حتّى إنَّ مُثَقَّفين يُعلِنون في بعض الأحيان أنَّ أشياءَ مثل الحَرْبِ أو الإجهاضِ أو انتهاكِ بعضِ حقوقِ الإنسانِ هي «خَطَأٌ أخلاقيًّا»، وهم يتصَوَّرُون أنهم قالوا شيئًا حقيقيًّا ومُهِمًّا. لا يحتاج المثقَّفُون إلى أن يُقالَ لهم: إنّ مثل هذه الأسئلةِ لم تَتِمَّ الإجابةُ عنها البَتَّةُ من خارج الدّينِ»[٣].

وأضاف: «الكُتّابُ المعاصرون الذي أَلَّفُوا في الأخلاقِ، والذين تحدَّثُوا ببلاغةٍ عن الحقِّ والباطل الأخلاقِيَّيْنِ والواجبِ الأخلاقيِّ دون إحالةٍ إلى

(١) Bertrand Russel, 'Notes on 'Philosophy'', *Collected Papers*, Volume 11, 310 -1 (Cited in: Michael K. Potter, *Bertrand Russell's Ethics*, London; New York: Continuum, 2006, p.173).

(٢) ريتشارد تايلور Richard Tayler: أستاذُ الفلسفة في جامعة «براون» في ولاية رود آيلاند.

(٣) Richard Taylor, *Virtue Ethics: An Introduction* (Prometheus Books, 2002), p.2.

الدّينِ، لا يعدو فِعْلُهُمْ أن يكون نَسْجًا لِشَبَكَةٍ فكريّةٍ من الهواء الرَّقيقِ، وهو ما يعني أنّهم **يَتَحدَّثُون بلا معنى**»[1].

تلك أزمةُ التَّناقضِ المُهَيْمِنِ على الإلحادِ؛ وسَبَبُها الإمعانُ في مخالفةِ بداهاتِ العُقولِ والنُّفوسِ.. وانْحِرافُ الأَلْفِ مِيلٍ، يبدأُ بِعِنادٍ يَرْفُضُ السَّيرَ في الطريق المستقيمِ.

---

(١) المصدر السابق، ص٧.

المبحث الخامس

هل يلزم من موضوعيّةِ الأخلاق وجودُ اللهِ

إذا تَقَرَّرَ أنَّ الإخلاقَ قائمةٌ بنفسِها خارجًا عن مَيْلِكَ الذَّوْقِيِّ؛ وَجَبَ عندها أن نسألَ: هل يلزمُ من ذلك القولُ بوجودِ اللهِ؟

قد تَعْجَبْ ـ ولا عَجَبَ ـ أَنَّ أَشَدَّ النَّاس إصرارًا أنّه يَلْزَمُ من الإقرار بموضوعيّة الأخلاقِ وجود اللهِ أَكْبَرُ فلاسفةِ الإلحاد في القرنَيْنِ الحالي والماضي؛ فقد وجدُوا أنفسَهم أمامَ عالمٍ ماديٍّ بلا ضميرٍ بعدما قطعُوا كلَّ وشيجةٍ بين المادة وما وراءَها؛ فبدا الوجودُ أمامَ ناظِرَيهم باهتًا؛ بلا ألوانٍ، جامدًا بلا شوقٍ إلى التّجاوز إلى ما وراء الآفاقِ؛ ولذلك سال الحِبْرُ الغامقُ على صحائفِ كُتُبِهم أنّ الأخلاقَ الموضوعيّةَ لقيطةٌ في عالم المادّةِ، وأنّ وجود الإلٰهِ والأخلاقِ الموضوعيّةِ في تلازُمٍ حتميٍّ.

ومن ذلك شهادةُ الفيلسوف الملحدِ (ج. ماكي) في كتابِه «معجزة الإيمان»[1] ـ الذي يُعَدُّ من أهمِّ المؤلّفات الإلحاديّة في العقودِ الأخيرة ـ بقوله: إنَّ المفاهيمَ الأخلاقيةَ تُمثّلُ طابعًا نَشَازًا في التصوُّرِ الإلحاديِّ لِلْكَوْنِ؛ ولذلك فإنّ «وُجُودَ قِيَم أخلاقيّةٍ موضوعيّةٍ يجعل وجودَ إلٰهٍ أَرْجَحَ من الحال لو لم تكن هناك أخلاقٌ موضوعيّةٌ.. ولذلك، عندنا هنا... حُجّةٌ في الأخلاقِ لوجودِ إلٰهٍ»[2].

وهي عينُ الحقيقةِ التي دافَعَ عنها الفيلسوفُ الوجوديُّ الملحِدُ (جون بول

(١) عنوانُ الكتابِ ساخِرٌ؛ إذ يَزْعُمُ المؤلِّفُ أنّ الإيمانَ يُعارِضُ الفَهْمَ الطَّبيعيَّ للأُمورِ.

(٢) J.L. Mackie, *The Miracle of Theism*, pp.115 -16.

سارتر) بموافقته (دوستويفسكي)[1] قوله: «كُلُّ شيءٍ مُباحٌ إذا لم يكنِ اللهُ موجُودًا»؛ مُعْتَرِفًا أنّ «كلّ شيءٍ حقيقةً مباحٌ إذا لم يكن اللهُ موجودًا.. ولا يملك الإنسانُ أن يَجِدَ أيَّ شيءٍ يعتمد عليه من داخل نفسِه أو من خارجِها»؛ فلا يوجد شيءٌ يعطي شرعيّةً لأفعالنا في وجودٍ بلا قِيمةٍ أخلاقيّةٍ ذاتيّةٍ. وإذا كان وجودُنا يسبق ماهِيَّتَنَا ـ لأنَّنا في العالم الإلحاديِّ نصنَعُ قِيَمَنَا في عَمَاءٍ ـ؛ فلا يمكنُ للإنسانِ أنْ يُضْفِيَ شَرْعِيَّةً لِفِعْلِهِ من داخِلِه أو من خارِجِه[2].

وقد شَنَّ (سارتر) حملةً صاخِبةً على فلاسفةِ فرنسا الذين كتبُوا في آخرِ القرن التاسع عشر زاعِمِين ـ في سَعْيِهم لصناعةِ مجتمعٍ عالمانيٍّ ـ أنّه بالإمكان الوصولُ إلى القيمِ الأخلاقيّةِ الدينيّةِ ذاتها بعد إلغاءِ الإيمانِ بوجودِ اللهِ. فالوجوديُّ ـ كما يقول (سارتر) ـ يعارِضُ بشدَّةٍ نَزْعةَ إلغاءِ الإيمان بوجودِ اللهِ بأقلِّ تَكْلفةٍ، وعلى الملحدِ أن يواجِهَ حقيقةَ العالَم بلا إلٰهٍ، كما هيَ. وهو وإن كان «يَجِدُ عَدَمَ وجودِ اللهِ أَمْرًا مُحْرِجًا للغايةِ لأنّه **تختفي مع اختفائِهِ كُلُّ إمكانيّةٍ لإيجادِ قِيَمٍ**»[3] إلَّا أنّه مُلْزَمٌ أنْ يَتَعَايَشَ مع ذلك.

ويُعبّرُ (جويل ماركس)[4] ـ الفيلسوفُ **الملحد** ـ في مقالٍ نَشَرَهُ سنة ٢٠١٠م عن تجربته مع (الله) و(الأخلاق) بقوله: «لقد تَخَلَّيْتُ عن الأخلاقِ تمامًا!... كان [هذا] الفيلسوف[5] لفترةٍ طويلةٍ يجتهدُ فكريًّا تحت افتراضٍ غيرِ مُخْتَبَرٍ، وهو أنَّ هناك شيئًا حَقًّا وآخر باطلًا. **أنا الآن أعتقِدُ أنّه لا يوجد شيءٌ من ذلك**... لقد أصبحتُ مقتنِعًا أنّ **الإلحادَ يقتضي مذهبَ اللَّاأخلاقيَّةِ** (amorality)، وبما أنّني ملحِدٌ؛ فلا بُدَّ عَلَيَّ أن أَعْتَنِقَ اللَّاأخلاقيّةَ... **لقد عِشْتُ الكشفَ الصَّادِمَ أنَّ الأُصوليّةَ الدينيّةَ مُصِيبةٌ: بدون اللهِ، لا توجد أخلاقٌ**»[6].

---

(١) دوستويفسكي Dostoyevsky (١٨٢١ ـ ١٨٨١م): روائيٌّ وفيلسوفٌ وُجودِيٌّ رُوسيٌّ. من أَهَمِّ أعمالِه روايتُه «الإخوةُ كارامازوف».

(٢) Jean-Paul Sartre, 'Existentialism' in *Jean-Paul Sartre: Basic Writings* (Psychology Press, 2001), p.32.

(٣) Jean-Paul Sartre, *Existentialism is a Humanism* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2007), p.28,

(٤) جويل ماركس Joel Marks: عَمِلَ أُستاذًا للفلسفةِ في جامعة «نيو هافن». له عنايةٌ بفلسفة علم النَّفْسِ.

(٥) يقصد نفسه.

(٦) Joel Marks, An Amoral Manifesto.
<https//philosphynow.org/issues/80/An_Amoral_Manifesto_Part_1>

ويُقرِّبُ لنا الأمْرَ عَمَلِيًّا الفيلسوفُ البريطانيُّ الملحِدُ (جوليان بجيني) ـ الذي أُسْنِدَ إليه تأليفُ الكتاب الخاصِّ بالتَّعريف بالإلحاد ضمن السّلسلةِ الشَّعبيّةِ الشّهيرة «مُقدّمةٌ مختَصَرةٌ جدًّا» ـ بقوله: «إذا لم تكن هناك سُلْطةٌ أخلاقيّةٌ واحدةٌ [أي: الله]؛ فعلينا عندها بصورةٍ ما أن «نَخْلُقَ» قِيَمًا لأنفسنا... وذاك يعني: أنَّ الدَّعاوى الأخلاقيّةَ ليست صحيحةً أو فاسدة... من الممكن أن تختلِفَ معي لكنْ ليس بإمكانِك أن تقولَ: إنّي ارتكبْتُ خَطَأً واقعيًّا»[1].

وأمّا زعيمُ الإلحادِ العِلْميِّ (داوكنز) فيعبّر عن المعنى السّابق في الكتاب الإلحادي الأَشْهرِ «وَهْم الإلٰهِ» بقوله: «**من العسير جدًّا الدِّفاعُ عن الأخلاق المُطْلَقةِ[2] من أَرْضِيّةٍ غير الأَرْضيّةِ الدّينيّةِ**»[3].

وأَخْتِمُ بشهادةِ أَشْهرِ نصيرٍ للدّاروينيّةِ من بين فلاسفة العلومِ اليومَ ـ (مايكل روس) ـ الذي قال: «لقد ماتَ اللهُ؛ فَلِمَ عَلَيَّ أن أكونَ صالحًا؟ الجواب: هو أنّه **لا توجد أدنى أسبابٍ ليكون المرءُ صالحًا... الأَخْلاقُ لَغْوٌ**. الآن وقد عَلِمْتَ أنَّ الأخلاقَ وَهْمٌ صَنَعَتْهُ جِيْنَاتُكَ لِتَجْعَلَكَ فَرْدًا مُتَعاوِنًا مع غيرِهِ في المجتمعِ، ما الذي يَمْنَعُكَ أن تَتَصَرَّفَ مثلَ الرُّومانِ في القديم؟ حَسَنًا، لا شيءَ، بالمعنى الموضوعيِّ للكلمةِ»[4].

لقد تواطَأَتِ الشّهاداتُ الإلحاديّةُ على تثبيت اقتضاءِ موضوعيّةِ الأخلاقِ وجودَ اللهِ بِلِسانٍ بَيِّنٍ، وعبارة مُحْكمةٍ.. والإقرارُ سُلطانُ الأَدِلَّةِ إذا وافَقَ ما يهدي إليه النَّظَرُ في الوجود.. إنّه لا يُجْتَنَى من مادّةٍ صَمَّاءَ لا تَسْمَعُ، بَكْمَاءَ لا تُبِيْنُ، شَلَّاءَ لا تَمْلِكُ حُرِّيَّةَ إرادةٍ، أنْ تُفِيْضَ على الوجود معاني القُبْحِ والتَّقْبِيحِ والحُسْنِ والتَّحْسِينِ.. في عالَمِ المادّةِ، لا شيء غيرَ الأبعادِ الفيزيائيّة

---

(١) Julian Baggini, *Atheism: A Very Short Introduction* (Oxford University Press, 2003), pp.41 -51.

(٢) يَقْصِدُ الموضوعيَّةَ!

(٣) Richard Dawkins, *The God Delusion* (London: Bantam Press, 2006), p.232.

(٤) Michael Ruse, God is dead. Long live morality, *UK Guardian in March 2010*.
<https://www.theguardian.com/commentisfree/belief/2010/mar/15/morality-evolution-philosophy>.

ودَبِيْبِها.. لا قِيمةَ للإنسانِ ووُجودِه.. ولا حُكْمَ على الإنسان وفِعْلِهِ من خارجِهِ..

«أخلاقيًّا... يَخْدَعُ أَعْلامُ الإلحادِ الجديدِ النَّاسَ في كُلِّ مناسبةٍ. إنّهم يؤمنون بِفِعْلِ «الحقّ»، لكنّهم لا يُجَذِّرُونَهُ في شيءٍ»[1]. الفيلسوف (جون مارك رينالدز)[2].

(١) John Mark Reynolds, Atheism Ranting: The pity and poverty of modern anti-theism. <http://dedicatedlion.blogspot.com/2007/05/atheism-ranting-pity-and-poverty-of.html>

(٢) جون مارك رينالدز John Mark Reynolds: أستاذ الفلسفة في "Houston Baptist University"

المبحث السادس

ملاحدةٌ ينتصرون لبرهانِ الأخلاقِ

يعترفُ أئمّةُ الإلحادِ أنّه لا سبيل للحديث عن حقيقةٍ أخلاقيّةٍ واحدةٍ أصيلةٍ في الكون إذا كان الكَوْنُ مادّةً صِرْفةً، وإنّما هي أَذْواقٌ وأَعْرافٌ لا غير؛ وذلك لِعِلْمِهِمْ أنّه يَلْزَمُ من تجذير الأخلاقِ في الوجودِ الإنسانيِّ الإقرارُ بمصدرِها العُلْوِيِّ، ولكنَّ الملحِدَ مُغْرِقٌ في التَّناقضِ في موقِفِهِ الأخلاقيِّ وموقِعِهِ القِيَمِيِّ؛ فهو ثائرٌ على كلِّ شيءٍ لأنه رافِضٌ للواقعِ الظَّالِمِ الـمُنْحازِ لأهدافٍ قَمِيْئَةٍ، لكنَّ فلسفةَ الإلحادِ ترفضُ مفهومَ العَدْلِ والظُّلْمِ والانحرافِ.

إنّ الملحدَ يَصْرُخُ بأنَّةٍ لِظُلْمِ المَسْحُوقِينَ والمكروبين والمكروثين، ويُجَدِّفُ في حَقِّ الرَّبِّ الذي خَلَقَ حياةً يَحْكُمُهَا التَّفاضُلُ لا التَّسَاوِي، لكنَّهُ عند الانتصارِ للإلحادِ يُصَرِّحُ بِثِقةٍ أنَّ حياة الإنسانِ بلا معنى، ولا هدفٍ، ولا قيمةٍ.. إنّه يقطعُ الجِسْرَ إلى تسويغِ غَضْبَتِهِ وأَنَّتِهِ!

ويَلْعَنُ الملحِدُ ظُلْمَ السُّوْقِ الرَّأْسماليِّ لأنّه يُشَيِّءُ الإنسانَ، لكنّه لا يرى الإنسانَ في بُؤرةِ الإلحادِ غيرَ شيءٍ؛ كأيِّ شيءٍ ماديٍّ بلا رُوحٍ، ذَرَّات مُتلاحِمةٍ بلا جُذُورٍ ولا آفاقٍ..

ويُشَهِّرُ بالاحتلالِ الذي يُعامِلُ المقهورين معاملةَ الحيواناتِ، لكنّه يرى الإنسانَ في فلسفتِه العِلْمِيَّةِ مُجَرَّدَ حيوانٍ مُتَرَقٍّ عن حيواناتٍ أدنى... إنّه يثورُ ضدَّ نفسِه.. ضِدَّ رُؤيتِه الإلحاديَّةِ للوجودِ!

ولعلّكَ إذا نظرْتَ إلى أهمِّ كتابٍ إلحاديٍّ في القرنِ العشرين، وهو كتاب: «وَهْمُ الإلٰهِ» (لداوكنز) فَسَتَهْتَدِيْ إلى حقيقةٍ عجيبةٍ، وهي أنّ (داوكنز) - كما يقولُ الفيلسوفُ الملحِدُ (مايكل روس) - «مشارِكٌ في غَزْوةٍ دينيّةٍ أخلاقيّةٍ،

لا كفيلسوفٍ يحاوِلُ إقامةَ افتراضاتٍ ونتائجَ، وإنّما كَمُبَشِّرٍ يُخْبِرُ عن سُبُلِ الخلاصِ والهلاكِ. كتابُ «وَهْم الإلٰهِ» **هو قبل كُلِّ شَيْءٍ عَمَلٌ أَخْلاقِيٌّ**»[١].

ولم يكن (داوكنز) بِدْعًا في هذا البابِ، فإنّ كتابَ (كريستوفر هتشنز): «اللهُ ليس كبيرًا: كيف يُسَمِّمُ الدِّينُ كُلَّ شيءٍ»[٢] (٢٠٠٧م) يسير في المضمارِ نفسِه؛ إذ اتَّهَمَ «الدِّينَ» أنّه يُسَمِّمُ الواقعَ بِدَعْمِهِ لِلظُّلْم والخداعِ والعُنْفِ وازدراءِ النِّساءِ وإكراهِ الأطفالِ على ما يَضُرُّهُمْ. وكذلك فَعَلَ (سام هاريس) في كتابه «نهايةِ الإيمانِ: الدِّيْنُ والإرهابُ ومستقبلُ العَقْلِ»[٣]، و(كراوس) في محاضراته... ولَخَّصَ هذه الظاهرةَ الفيلسوفُ **الملحد** (دافيد برنك)[٤] في قوله: إنَّ «التزامَنَا بموضوعيّةِ الأخلاقِ عَمِيْقٌ»[٥].

إنّها الأزمةُ التي تَحَدَّثَ عنها (نيتشه) في قولِه عن مُفكّريْ عَصْرِهِ سنة ١٨٨٨م: «لقد تَخَلَّصُوا من الإلٰهِ المسيحيّ، لكنَّهُمْ يؤمنون الآن مع ذلك إيمانًا راسخًا أنَّ عليهم التَّعَلُّقَ بالأخلاقِ المسيحيّةِ»[٦].

لقد نَصَرَ (داوكنز) البرهانَ الأخلاقيَّ على وجودِ اللهِ بامتيازٍ؛ إذ أَقَرَّ بِمُقَدِّمَتَيْهِ؛ فقال: إنَّ عالَمَنَا بلا إلٰهٍ، **ولذلك** فلا يوجد خيرٌ ولا شرٌّ، وإنما هو تَمَاثُلٌ باهِتٌ بين كلِّ الأشياءِ[٧]. وهذا من (داوكنز) إقرارٌ أنّه يلزم من عَدَمِ وجودِ اللهِ أَلَّا يكون هناك خيرٌ أو شرٌّ. ثم اعترفَ بوجود الأخلاقِ الموضوعيّةِ (التي يُقِرُّ هو نفسُه في غيرما موضعٍ من كُتُبِهِ أَنَّها ملازِمةٌ للإيمانِ باللهِ)، وذلك في إدانَتِهِ النَّصارى والمسلمين والمتديِّنين عامّةً أنهم لم يَرْعَوْا حُقوقَ الإنسان، ويخالفون نبيلَ الأخلاقِ؛ بل لقد كَتَبَ هو نفسُه عَشْرَ وصايا أَخلاقيّة في مقابِلِ

---

(١) Michael Ruse, *Defining Darwin: Essays on the History and Philosophy of Evolution* (Amherst New York, Prometheus Books, 2009), p.237.

(٢) *God Is Not Great: How Religion Poisons Everything.*

(٣) *The End of Faith: Religion, Terror, and the Future of Reason.*

(٤) دافيد برنك David Brink (١٩٥٨ـ): أستاذُ الفلسفةِ في جامعة كاليفورنيا. له اهتمامٌ خاصٌّ بالفلسفةِ الأخلاقيّة والسياسيّة.

(٥) David Brink, 'The autonomy of Ethics',in *The Cambridge Companion to Atheism*, ed. Michael Martin (New York: Cambridge University Press, 2007), p.149.

(٦) Nietzsche, *Twilight of the Idols* (Oxford: Oxford University Press, 2008), p.45.

(٧) Richard Dawkins, *River Out of Eden: A Darwinian View of Life* (New York: Basic Books, 2008), p.133.

الوصايا العَشْر لِلتَّوراة داعيًا النَّاسَ إلى الالتزام بها لأنّها الحقُّ الأخلاقيُّ الجديرُ بالاتّباعِ.. أيْ: هي أَخلاقٌ موضوعيّةٌ مُلْزِمةٌ لنا..

وفي إقرارِ (داوكنز) بمقدِّمَتَي البرهانِ الأَخلاقِي، تمهيدٌ لكلِّ مُلْحِدٍ أن يَضَعَ النَّتيجةَ المنطقيّةَ اللَّازمةَ لهاتين المقدِّمَتَيْنِ، وهي: اللهُ موجودٌ!

أُطروحةُ (داوكنز) في كتابِهِ «وَهْمِ الإلٰهِ»:

١ ـ إذا لم يكن اللهُ موجودًا؛ فَلا توجد أخلاقٌ موضوعيّةٌ = وجودُ الأخلاقِ الموضوعيّةِ مُلازمٌ للإيمان باللهِ.

٢ ـ الأخلاقُ الموضوعيّةُ موجودةٌ.

٣ ـ يلزم من مُقدِّمَتَي (داوكنز): اللهُ موجودٌ.

وقد كان البرهانُ الأخلاقيُّ سببَ عودةِ طبقةٍ من أعلامِ الفِكْرِ والعِلْمِ في الغَرْبِ إلى الإيمانِ بالله، ومن ذلك عودةُ الأديب الكبير (سي. س. لويس) وعالِم الجِيْناتِ ذائع الصِّيْتِ (فرانسيس كولنز)[١] إلى الإقرارِ بالربّ بعد جحدِهِ.

كتبَ (كولنز) في مُؤَلَّفِهِ «لُغة اللهِ: عالِمٌ يُقدِّمُ البرهانَ للإيمانِ» ـ الذي بَلَغَ عند صُدُورِه مرتبةَ الأكثرِ مَبِيْعًا في أمريكا ـ في بيانِ قِصَّةِ خُرُوجِه من الإلحادِ؛ مُخْبِرًا أنه لمّا أرادَ البحثَ بعمقٍ في أَمْرِ وجودِ اللهِ على أساسٍ جادٍّ وصلبٍ من البحث، اكتَشَفَ أنّهُ لا يملِكُ أُصولًا صلبة لِدَعْوى الإلحادِ التي عاش معها، ومع ذلك بدأَ النَّظَرَ في الإيمانِ مَرَّةً أُخرى مع قناعةٍ راسخةٍ أنّه سينتهي ضرورةً إلى أنّ الإيمانَ باللهِ لا يمكن أن يقومَ على أساسٍ عَقْلِيٍّ. وحَدَثَ تَحَوُّلُهُ المفاجِئُ لمّا ذَهَبَ إلى رجلِ دِينٍ يسأَلُهُ إن كان من الممكن أن يكون للإيمانِ أيُّ أساسٍ منطقيٍّ. سمعَ مُحادِثُه كاملَ اعتراضاتِه، ثمَّ استخرجَ كتابًا صغيرَ الحَجْمِ من جانِبِه وأَهداهُ إيّاه.

---

(١) فرانسيس كولنز Francis Collins (١٩٥٠ـ): عالم جينات أمريكيّ مشهور. قاد «مشروع الجينوم البشري» في أمريكا. مدير «المؤسسات الوطنية للصحة».

كان هذا الكتاب: «المسيحيّةُ المجرّدَةُ» لـ(سي. أس. لويس)، وهو من أكثرِ الكتبِ مبيعًا في تاريخِ الكتبِ إلى اليومِ، وأَهَمُّ ما فيه حديثُه عن الإيمان باللهِ دون رَبْطِه بالنّصرانيّةِ وعقائدِها. ولـمّا تَصَفَّحَ (كولنز) ما فيه، شعرَ أنّ الاعتراضات التي عاش معها طولَ حياتِه في مواجهة الإيمانِ باللهِ طُفُولِيَّةٌ، وأنَّ الرُّدود التي في الكتاب كانت من رَجُلٍ عاشَ الإلحادَ، فكان خبيرًا بصياغاتِ اعتراضاتِه، ومَدَاخِلِ الأَجْوبةِ.

كان أَهَمَّ ما هَزَّ (كولنز) في الكتابِ عنوانُ الفصلِ الأَوَّلِ: «الصَّوابُ والخطأ دليلان لمعنى الكَوْنِ»، وهو الذي نَبَّهَهُ إلى عُمْقِ حِسِّنَا الأخلاقيِّ الذي يلتزم بِسُلطانِ المبدأ السُّلوكيِّ؛ فالإنسان يُسَلِّم بأنّ هناك خيرًا لا يَخْضَعُ لِتَقَلُّبِ مِزاجِهِ، وأَنَّهُ واحِدٌ، وعالَمِيٌّ. ورغم أنّ (كولنز) داروينيٌّ ـ شديدٌ في داروينيّتِهِ إلى اليوم ـ إلَّا أنّه وَجَدَ التَّفسيرَ التّطوّريَّ لأخلاقيّةِ الإنسانِ شديدَ القُصورِ لتفسيرِ أَصْلِ المبدأ الأخلاقيِّ[1].

أعلن (كولنز) بدايةَ العودةِ في قوله: «أَشْرَقَ هذا القانونُ الأخلاقيُّ بِنُورِهِ الأبيضِ النَّاصعِ في أعماقِ إلحادِي الطُّفُوليِّ، وطَلَبَ دراسةً جادّةً لِأَصْلِهِ»[2]. ولخَّصَ التّجربة في قوله: «كُنْتُ بدأتُ رِحلةَ الاستكشافِ العِلميِّ هذه لِتَثْبِيتِ إِلْحادِي. وقد تَهَاوى هذا الإلحادُ الآنَ بسبب القانونِ الأخلاقيِّ (وعِدَّةِ أُمورٍ أخرى) أَجْبَرَتْنِي على الإقرار بمعقوليةِ فرضيّةِ وجودِ اللهِ»[3].

وكما أَشْرَقَ القانونُ الأخلاقيُّ في قَلْبِ (كولنز) بعد قراءةِ ما كتبَهُ (سي. أس. لويس)، أشرقَ أيضًا في قلبِ (فيليب فندر إلست)[4] بعد تَأَثُّرِهِ ـ أيضًا ـ بكتابات (لويس) حتّى إنّه أَلَّفَ كتابَيْنِ في التَّعريف بهذا المفكّر اللَّامعِ[5]..

نشأ (إلست) في أُسرةٍ لِأَبَوَيْنِ غير نصرانيَّيْنِ، وتَخَرَّجَ في جامعة

---

(١) Francis Collins, *The Language of God: A Scientist Presents Evidence for Belief* (New York: Free Press, 2006), pp.11 ff.

(٢) المصدر السابق، ص٢٩.

(٣) المصدر السابق، ص٣٠.

(٤) Philip Vander Elst.

(٥) *C.S. Lewis: A Short Introduction; Thinkers of Our Time: C.S. Lewis.*

أوكسفورد بشهادةٍ في السّياسةِ والفلسفةِ، وكان أمرُ الوجود الإلٰهيِّ مما يَشْغَلُ ذِهْنَهُ، غير أنّه انتهى فيه إلى أَنَّ الإيمانَ بإلٰهٍ أَشْبه «بالعبادةِ العَمْياء لديكتاتورٍ كونيٍّ». وكانت مشكلةُ الشرِّ مما أَغْلَقَ أمام ناظِرَيْهِ الرَّغبةَ في تركِ الإلحادِ.

استمرَّ الحالُ بـ(إلست) على دَهْرِيَّتِهِ حتّى دفعَتْهُ ظروفٌ شخصيّةٌ إلى قراءةِ أَهَمِّ كتابات (لويس) في الإيمان بالله والشُّكوكِ الإلحاديّة، وكانت سُمْعَةُ (لويس) كأحدِ أَهَمِّ المفكّرين البريطانيّين في زمانِه، وتفوُّقُه العلميُّ في كامبردج، مع خَلْفِيَّتِهِ الإلحاديّة، وتجربته مع النَّوائبِ الشَّخصيّة، من أهمِّ ما جعل لقراءةِ حديث (لويس) في مشكلةِ الشرِّ مذاقًا خاصًّا، وصِدْقًا، وعُمْقًا.. وكان حديث (لويس) عن الفسادِ الذاتيِّ لمشكلة الشرِّ بقيامِها على وجودِ الشرّ الذي يستلزِمُ وجود مِعيارٍ أخلاقيٍّ أساسُه وجودُ إلٰهٍ، سببًا في سُقوطِ هذه الشُّبْهةِ من قَلْبِ (إلست)[1].

---

(١) Philip Vander Elst, From Atheism to Christianity: a Personal Journey.
<https://www.bethinking.org/is-christianity-true/from-atheism-to-christianity-a-personal-journey>.

المبحث السابع

محاورة ظريفة في موضوعية الأخلاق

المحاورةُ التّاليةُ تَمَّتْ بين الكاتبِ المُناظِرِ المعروف (فرنك تورك) وأَحَدِ مَنْ حَضَرُوا محاضرةً له، وفيها بيانٌ عَمَليٌّ لِعَجْزِ الملحِدِ عن فَهْمِ أَزْمةِ تأصيلِ الأخلاق في تَصَوُّرٍ كونيٍّ إلحاديٍّ، وكَشْفٌ لِأَزْمةِ الجَمْعِ بين الإلحادِ والأخلاق الموضوعيّةِ[1]:

نثنائيل: لقد قَدَّمْتَ ثلاثَ حُجَجٍ محدّدةٍ على وجود اللهِ: حُجّة الخَلْقِ، وحُجّة التَّصميم، وحُجّة أخلاقيّةٍ.

أُريدُ في البدءِ أن أحاولَ نقضَ دليلِ الأخلاقِ لأنّه ليس في الحقيقة حُجّةً لوجودِ الله، وإنّما هو حجّةٌ لحقيقةِ أنّه علينا أن نحملَ معرفةً بوجودِ الإلٰهِ لأنّه إن لم يكن الأمرُ كذلك فلن يكون هناك أساسٌ أخلاقيٌّ من الممكن أن نقف عليه، وذاك أمرٌ اختلِفُ معه لأنّني أَشعرُ أنّ الإنسان ذو نزعةٍ أصيلةٍ للإيثارِ والتلبُّسِ بالأخلاقِ.

فرنك تورك: طيب! تَوَقَّفْ هنا لِلَحْظةٍ نثنائيل! ماذا تعني بِنُزوعٍ للإيثارِ والتَّلَبُّسِ بالأخلاقِ؟

نثنائيل: نحن كرماءُ، ونهتمُّ بأمرِ بعضنا بعضٍ.

فرنك تورك: لماذا تعتقِدُ أنَّ ذاك أمرٌ جيّدٌ؟

نثنائيل: لماذا ذاك أمرٌ جيّدٌ؟ لأنّ ذاك يُعينُ كلَّ الكائناتِ الحيّةِ على البقاء.

---

(١) فديو المحاورة:

<https://www.youtube.com/watch?v=8RqYK9972s0>.

فرنك تورك: لماذا تعتبر البقاءَ على قيد الحياةِ أمرًا جيّدًا؟

نثنائيل: لأنّه بذلك بإمكاننا أن نتكاثَرَ، ونستمرَّ في الوجود كنوعٍ من أنواعِ الكائناتِ الحيَّةِ.

فرنك تورك: لماذا هذا أمر جيّدٌ؟ مَنْ قال ذلك؟

نثنائيل: لماذا هذا أمر جيّدٌ؟ لأنّ الأمر كذلك!

فرنك تورك: طيّب، ذاك وصفٌ لما هو كائنٌ لا لما يَجِبُ أن يكون. ستالينُ سيقولُ: طيّب نثنائيل، سأَضْمَنُ لنفسي البقاء بِقَتْلِكَ، والاستيلاء على ما تَمْلِكُ. لماذا هو خاطِئٌ؟

نثنائيل: . . . توجد حالاتٌ لا يقوم فيها النَّاسُ بالعنايةِ بحقوقِ بعضهم، وهي مواقِف استثنائيّةٌ، ولكنْ لأنَّ طابعَ الإيثارِ أصيلٌ في الإنسان، فسيكونُ حافِزُهُ الأَوَّلُ أن يعتنيَ بغيرِهِ أو يُعِين النَّاسَ، ولكن إذا كان حافزه مناقضًا لذلك، فلن يملك ذلك الدَّافِعَ، وسيقرِّرُ أنّه يُريد قَتْلَ النَّاسِ لأنه لا يوجد داعٍ له للإحسانِ إليهم.

فرنك تورك: مَرَّةً أخرى أرى أنّك تُصادِرُ على المطلوب في شأنِ ماهيَّةِ الإيثار. لماذا تُعْتَبَرُ العِنايةُ بالآخرينَ أمرًا جيّدًا إذا لم يكن هناك إلٰهٌ؟ ذاك رأيُك! هل توجد مرجعيّةٌ خارجيّةٌ ذات سُلطانٍ، مرجعيّةٌ ثابتةٌ تأخذ منها رأيَك ذاك بما يجعلُ رأيَك موضوعيًّا، أم هو فقط ما تُحِسُّهُ؟

نثنائيل: البَشَرُ! ولذلك إذا نَظَرْتَ إلى الأَمْرِ على أنّه من المتوافَقِ عليه في التّاريخ البشريّ أنّنا نعتني بعضنا ببعض، فبإمكاننا أن نعتبرَ ذلك برهانًا لامتلاكِنا حافزًا أخلاقيًّا.

فرنك تورك: طيب، دعني أتّفق معك، نعم نحن نملك حافزًا أخلاقيًّا وذاك بالضّبط ما قاله سي. أس. لويس في كتابه «The abolition of man» عندما نَظَرَ في كامل الثّقافات المتنوّعة، وقال: إنّها تَتَّفِقُ في الأخلاقِ الأساسيّة. الآنَ، كيف تُفَسّرُ الأخلاقَ الأساسيّة؟ قد تكون هنا طرقٌ مختلفةٌ لتفسير ذلك، بعضُها سيقول: إنّ الله كَتَبَها في قلوبِنا، لكنّ **البحثَ ليس في**

كيفية معرفتِنا بهذه الأخلاقِ، وإنّما هو لماذا كان الإيثارُ ـ كما قدَّمْتَهُ ـ وعناية النَّاسِ بعضهم ببعض أمرًا جيّدًا؟ مَنْ قَرَّرَ ذلك؟

نثنائيل: ليس من المهمّ أن نعرِفَ مَنْ قَرَّرَ ذلك، الأمرُ على ما هو قائِمٌ! نحن كائناتٌ إيثاريّةٌ. لا حاجةَ أن نجد مَنْ يقولُ لنا إنّ ذاك أمر جيّدٌ، الأمر هو كذلك، وكفى!

فرنك تورك: ولكن إذا تَدَخَّلَ (هتلر) أو (ستالين)، وقال: أنا لا أريد أن أُوْثِرَ على نفسي، أنا أريد أن أكون أنانيًّا، وأن أحتكرَ كلَّ شيء لنفسي، وإذا كان عليَّ أن أقتُلَكَ لِأُحَقِّقَ ذلك، فسأقتلُكَ. لماذا ذلك أمرٌ خاطِئٌ بصورةٍ موضوعيّةٍ؟

نثنائيل: لأنّه لا يهتمُّ بأمور الآخرين.

فرنك تورك: مَنْ قَرَّرَ ذلك؟ من أين جئت بهذا المعيار الموضوعيّ أنّه عليك أن تهتمَّ بالآخرين؟ مِنْ أين جاءَ ذاك المعيارُ إذا لم يكن هناك إلٰهٌ؟

نثنائيل: سأذكر مثالًا أَعْرِفُهُ. توجدُ ثلاثُ ملحوظاتٍ أريدُ أن أعرِضَها. أَوَّلُها، نحن لا نزال موجودين، ولولا أنّنا اعْتَنَيْنَا بعضنا ببعض ككائناتٍ اجتماعيّةٍ، لكانت إمكانيّةُ بقائِنا على قيدِ الحياة بالغةَ الضَّعْفِ؛ إننا نحتاج أن نعيشَ متعاونين، ونحتاج أن نعتنيَ بعضنا ببعض، ونحتاج أن نكون لُطَفَاءَ بعضنا مع بعض.

فرنك تورك: أنتَ بذلك تفترضُ أنّ تحقيق البقاءِ أمرٌ جيّدٌ، لماذا تحقيق البقاءِ للإنسان؟ لماذا لا يكون بقاء الصّراصير أو الظّباء أو العنكبوت الأَرْمَلَةِ أَوْلَى؟

نثنائيل: لماذا تحتاج مفهوم الخير هناك؟ نحن لا نزال أحياء، ونحن جنسٌ لطيفٌ في تعاملنا بعضنا مع بعض، ونعتني بأمر بعضنا مع بعض.

فرنك تورك: اعذرني نثنائيل، أَنْتَ تَسْرِقُ معايير الخير من كَوْنِ اللهِ لتجعلَ رؤيتَك الكونيّةَ فاعِلةً، ولكنْ إذا لم تكن هناك معاييرُ أخلاقيّةٌ سُلطانيّةٌ موضوعيّةٌ متجاوزةٌ لنا، فلن ينجَحَ الإلحادُ عندها (في أنْ يُقَدِّمَ أخلاقًا).

نثنائيل: أعتقد أنّك مُصيبٌ، في كلامِكَ حَقٌّ، فكرةُ الخيرِ والشرّ مفهومٌ دينيٌّ من عدّة أوجهٍ، ولكن لماذا نحتاج ذلك؟

فرنك تورك: الأمر مرتبِطٌ بما تَعْنِيهِ أنت بكلمةِ دِينٍ. بإمكاننا أن نجعلَ الدّينَ خارجَ الموضوعِ لأنّها كلمةٌ مُثْقَلَةٌ (بأُمورٍ كثيرةٍ).

لِنَتَحَدَّثْ فقط عن «المصدر»، أنطولوجيًّا (أي: دراسة الوجود)، من أين جاءت الأخلاقُ؟ هل أنت ملحِدٌ؟

نثنائيل: نعم!

فرنك تورك: هل أنت ماديٌّ؟

نثنائيل: لا!

فرنك تورك: إذن أنت تؤمِنُ بحقيقةٍ غير ماديّةٍ، هذا أمر جيّدٌ. كيف تُفَسِّرُ وجودَ حقيقةٍ غير ماديّةٍ إذا لم يكن هناك إلٰهٌ؟

نثنائيل: هل من الممكن أن تُعرِّف الحقيقةَ غير الماديّةِ؟

فرنك تورك: لنأخذ القوانينَ الأخلاقيّةَ، إنّه من الصَّواب أن نعتنيَ بالآخرينَ، إنّه من الصَّوابِ أن نُحِبَّ، إنّه من الخطأ أن نَقْتُلَ. من أين جاء ذلك؟

نثنائيل: ذاك شيءٌ أصيلٌ فينا، في سُلوكِنا.

فرنك تورك: ذاك كيف نَعْرِفُه! ودَعْنِيْ أَتَّفِقُ معك أنّ هناك طُرُقًا عِدَّةً لمعرفة ذلك. إذا كان التطوُّرُ البيولوجيُّ صوابًا، ربّما استطاع التطوّرُ أن يُعِيْنَنَا على اكتسابِ ذلك، ربّما عَلَّمَنَا آباؤُنا ذلك، رُبَّما عَلَّمَنَا المجتمعُ ذلك، ولكنّ **سؤالي لا يتعلَّقُ بكيفيّة معرفتِنا ذلك، سؤالي هو: لماذا كان أَمْرُ أَنْ نُحِبَّ غيرَنا أمرًا صوابًا**، وأن نقتلَ غيرَنا أمرًا خَطَأً، بصورةٍ موضوعيّةٍ؛ إذ إنّنا قد سأَلْنَا النَّازِيِّينَ، قالوا لنا: نحن نطيعُ حُكومتَنَا. قلنا لهم: عليكم واجبٌ أَعْظَمُ، وهو أن تلتزموا بما هو خيرٌ لا أن تُطِيعُوا حُكومَتَكم، وقد فشلتم في ذلك، ولذلك فأنتم مُذنِبُون.

إذن أين هو المعيار الأعلى؟ ومن أين جاء؟ وما هو أنطولوجيًّا؟

نثنائيل: إلى درجةٍ ما، هذا تأويل لـ. . رُبَّما سأُفْسِدُ فِكْرتي، ولكنَّ هذا تأويلٌ لِسَبَبِ وُجودِنا. لقد جئنا في ختامِ سلسلةٍ طويلةٍ للحياةِ، ولِنُجِلَّ وجوبَ أن نبقى، علينا أن نكون لُطفاءَ، وأن نكون لطفاءَ هو أن نُجِلَّ الحياةَ التي نحياها، والحياةُ هي كلُّ ما نملِكُ.

فرنك تورك: طيب، طيب، أنا أَتَّفِقُ مع ما تقوله لكنّك الآن تستورِدُ مصطلحاتٍ أخلاقيّةً مثل الإجلالِ والخير إلى منظومةٍ إلحاديّةٍ لا تملِكُ البَتَّةَ أن تَمْنَحَ أرضيّةً لهذه المصطلحاتِ الأخلاقيّةِ، هذه هي النُّقطة التي أُدَنْدِنُ حولها.

الملحِدُ لا يفهمُ عادةً حقيقةَ التفسيرِ الأنطولوجيِّ للأخلاقِ، فيبحثُ في جوابِ: لماذا نحن نَتَصَرَّفُ بصورةٍ أخلاقيّةٍ؟ في حين أنَّ السُّؤالَ هو: لماذا علينا أن نكون أَخْلاقِيِّين؟ وهو سؤالٌ عن الواجبِ لا عن سبب الوُجودِ.. وأَفْضَلُ طريقٍ لوضع الملحدِ أمامَ السُّؤالِ الحقيقيِّ هو أن يُسأَلَ: لماذا علينا أن نُدِيْنَ أصحابَ الأيديولوجيّاتِ الدَّمَويّة كالنّازيّةِ والصهيونيّة، إذا كانت الأخلاقُ نِسبيّةً، وكانت نَظْرَتُهُم للوجودِ تُتِيْحُ لهم استباحةَ دماءِ غيرِهم؟ كيف نُفَسِّرُ حَقَّ إدانةِ هؤلاء إذا كانت الأخلاقُ أَذْواقًا أو اختياراتٍ أو مجرّدَ حوافِزَ بيولوجيّةٍ؟!

المبحث الثامن

نُقُودٌ ورُدُودٌ

لم أرَ الملاحدةَ في ضعفٍ أمامَ براهينِ الإيمانِ كَحَالِهِمْ عند مناقشةِ البرهانِ الأخلاقيِّ على وجودِ اللهِ. ومن أَعْجَبِ أحوالهم معه إصرارهم على عَدَمِ فَهْمِ حقيقتِه ولوازِمِه، فتراهم يُنْكِرُون على المؤمن أُمُورًا لا يَدَّعِيْها، ويُنْكِرُونَ على البرهانِ الأخلاقيِّ مقدّماتٍ لا ينطَلِقُ منها، وغاياتٍ لا يسعى لإثباتها.. وأَنْتَ إذا فُزْتَ بملحدٍ يَفْهَمُ حقيقةَ هذا البرهانِ، فعليكَ أن تستبشِرَ؛ لأنّك أمامَ شخصٍ يعرِفُ ما الإلحاد، وهذا عزيزٌ نادِرٌ..

أهمُّ الاعتراضات الإلحاديّةِ على البرهان الأخلاقي ما يأتي..

المطلب الأول

اعتراضٌ: الملحِدُ قد يكون طيّبًا، خَيِّرًا، دون أن يؤمن بالله؟!

الرَّدُّ الكلاسيكيُّ على البرهانِ الأخلاقيِّ عند أعلام «الإلحادِ الجديدِ» وعَوَامُّ الملاحدةِ هو: «هناك ملاحدةٌ على خُلُقٍ عالٍ حميدٍ رغم أنهم لا يؤمنون بإلٰهٍ! فكيف تلزموننا بالإيمان بإلٰهٍ ليكون المرءُ على خُلُقٍ خَيِّرٍ؟!»

الجواب:

أَوَّلًا: القضيّةُ ليست: غيابَ الإيمان بالله ووجود الأخلاقِ الذاتيّة، وإنّما: غيابُ اللهِ ووجود الأخلاق الموضوعيّةِ.. ليست هي: الحاجة إلى الإيمان لوجود الأخلاقِ، وإنّما: الحاجة إلى وجودِ الله لتكون هناك أخلاقٌ موضوعيّةٌ يحتكِمُ إليها الجميعُ؛ فإنّنا لن نعرف الصّلاحَ حتّى نحتكمَ إلى قواعدَ موضوعيّةٍ خارجَ أذواقِنا ومواجيدنا.

إنّ السُّؤالَ غيرُ متعلّقٍ بالالتزام بالقِيم الخيّرة، وإنما بإثباتِ الحقيقة الموضوعيّةِ للمبدأ الأخلاقيِّ؛ إذ إنّ الإيمان أَنّ الطّبيعةَ هي كلُّ شيءٍ ولا شيءَ وراءَها يلزم منه ـ كما يقول الفيلسوفُ الملحد (مايكل روس) ـ أنَّ «الأخلاقَ الموضوعيّةَ مجرّدُ وَهْمٍ»[1].

ثانيًا: حديثُنا متعلّقٌ بالجانب الأنطولوجيِّ للأخلاق لا الجانب الإبستيمولوجيّ؛ فنحن نناقشُ حقيقةَ وجود الأخلاقِ بمعزلٍ عن ذوقِ الفرد والمجتمع، ولا نبحث الآن في سبيل الوصول إلى هذه الأخلاقِ، إذ إنّنا نُقِرُّ أنّ الإنسانَ الملحدَ والمؤمن بالله يملكان الوصولَ إلى جوهرِ[2] الخلُقِ السّليم دون عَوْنِ وَحْيٍ؛ إذ إنّ المَيْلَ الخُلُقِيَّ منقوشٌ في قلب كلّ إنسانٍ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، ولكنّنا نُنكِرُ أنْ يكون تفسيرُ حُجيّةِ السّلطانِ الأخلاقيّ ممكنًا دون أن يقوم على الإيمان بوجود مَنْ قَنَّنَ هذا القانون الأخلاقيّ بصورةٍ مُتعاليةٍ على البشر، ليكون واحدًا، ومُلزِمًا لهم جميعًا.

> **الوجودُ ماديٌّ صِرْفٌ = غيابُ أساسٍ وُجوديٍّ للأخلاقِ**
> **الوجودُ مخلوقٌ لإلٰهٍ كاملِ الصّفاتِ = وجودُ أساسٍ وجوديٍّ للأخلاقِ.**

ثالثًا: الملحِدُ لا يملك أن يكون إنسانًا خَيِّرًا، ضمن منظومتِه التصوّريّة؛ إذ إنّ الماديّةَ الصِّرْفةَ لا تعترف بالخيرِ والشرّ، والحقُّ والباطل. والحُكْمُ بخيريّةِ مُلْحِدٍ يفترضُ انسلاخَ الملحدَ من منظومته إلى منظومةٍ إيمانيّةٍ تؤمنُ بالخير والشرّ، وتُقيمُ أمرَها على مفهومِ تميُّز الإنسانِ وتكريمه، وذاك تناقضٌ. إنّ الملحد بإمكانه أن يعملَ صالحًا لكن ليس بإمكانه أن يكون صالحًا لأنَّ إلحادَهُ لا يعترِفُ بقيمة الصَّلاحِ.

---

(١) Michael Ruse, 'Evolution and Ethics', in *The Nature of Nature: Examining the Role of Naturalism in Science*, eds. Bruce L. Gordon and William A. Dembski (Wilmington, DE: ISI, 2011), p. 862.

(٢) جوهره لا جميع تفاصيله؛ لسلطان الهوى والبيئة في الانحراف أحيانًا بمفاهيم الواجب والمحظور.

الملحِدُ ـ ضمن تصوُّرِه الكونيِّ الماديِّ ـ لا يمكنه أن يكون طيّبًا ولا أن يكون شرّيرًا لانعدامِ مفهومِ الخير والشرّ في تصوُّرِه الكونيِّ.

رابعًا: الملحِدُ يؤمنُ أنّه ـ هو نفسُه ـ لم يَفُزْ بحظِّ الوجود اليوم إلَّا لأنَّ أجدادَهُ من الكائنات الدُّنيا قد استطاعوا أن يأكُلوا الكائناتِ الأضعف التي أفناها الانتخابُ الطّبيعيّ. وإذا كان منطِقُ الانتهاشِ هو الذي خَدَمَ وجوده؛ فلِمَ عليه أن يَتَخَلَّى عنه الآن ضرورةً لا ذَوْقًا؟!

المطلب الثاني

اعتراض: إذا كانت الأخلاقُ موضوعيّةً، فما الحاجة إذنً إلى الدِّينِ؟

ما الحاجة إلى الدِّينِ إذا كانت الأخلاقُ موضوعيّةً تُعْلَمُ بضرورةِ النَّفْسِ دون اكتسابٍ من تعليمِ وَحْيٍ؟

الجواب:

أَوَّلًا: يجبُ أَلَّا نخلِطَ بين الحاجة إلى وجود اللهِ لإثباتِ إمكان الأخلاق الموضوعيّةِ، والحاجة إلى اللهِ لتفصيلِ المنظومة الأخلاقيّةِ؛ إذ إنَّ وجودَ الله ضرورةٌ لأن توجد أخلاقٌ متعاليةٌ ملزِمةٌ للإنسان دون أن تكون نابعةً من ذاته، وهو ما يتعلَّقُ به البرهان الأخلاقيّ، لكن يبقى أمرُ تفصيلِ السُّلوكِ الأخلاقيّ مُنفصِلًا عن ذلك.

والإنسان قادرٌ على إدراك الحقيقةِ الذاتيّةِ لكثيرٍ ممّا هو حَسَنٌ أو قبيحٌ بمعزلٍ عن الشّرائع السّماويةِ؛ ولذلك قال القرآنُ في وصفِ قبائحِ المشركين قبل الرسالة الخاتمة: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨][1].

---

(١) إطلاق الحكم في التقبيح والتحسين العقليين خطأ، والأمر يقتضي التفصيل. قال (ابن تيمية): «قد ثبت بالخطاب والحكمة الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع: =

ثانيًا: اتّفاقُ البشر على كثيرٍ من القِيمِ الأخلاقيّةِ حُجّةٌ للدّينِ لا ضِدّه؛ إذ تُظْهِرُ تَسَاوُقَ الخَلْقِ والأَمْرِ الإلٰهِيَّيْنِ؛ فقد خلقَ اللهُ الإنسانَ على صفةِ الاستواءِ الأخلاقيِّ، وأَلْهَمَهُ معرفةَ الخيرِ والشرّ، سواء اهتدى بعد ذلك إلى الإيمان باللهِ أَمْ جَحَدَهُ، ثُمَّ أَمَرَهُ بما يوافق ما فَطَرَهُ عليه، وانحرافُ الإنسانِ ذوقيًّا عن القِيمِ التي نزل بها الوَحْيُ؛ انحرافٌ في الإنسان عَمَّا جُبِلَ عليه. قال الله سبحانه ـ في الحديث القدسيّ ـ: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**»[1].

ثالثًا: تفصيلُ دقائقِ المنظومةِ الأخلاقيّةِ بما لا يجعل للهوى سلطانًا على سلوكِ الإنسان لا يستقيم دون وَحْيٍ؛ إذ إنّ اتّفاق البشر على مجموعةٍ كبيرةٍ من الأحكام الأخلاقيةِ لا يمنع اختلافهم في أُخرى بسبب عواملِ البيئة والثقافةِ والهوى والمصلحةِ الشّخصيةِ. ووظيفةُ الوَحْيِ إحكامُ المتشابه ومَنْعُ الانحرافِ عن حدودِ الأحكام.

رابعًا: يتحرَّكُ الإنسانُ بالرَّهْبةِ كما الرَّغْبةِ؛ ولذلك يحتاج الدّينَ لِيُحَذِّرَهُ مَغَبَّةَ مُفارَقَةِ الخُلُقِ القويم، ويُحَفِّزَهُ بالوعد بالنّعيم ليلازم طريقَ الاستقامةِ الأخلاقيّةِ. فالمعرفةُ الأوّليةُ بأصولُ الخُلُقِ الحَسَنِ لا تُغني عن الحاجة إلى الدِّينِ لأنّ المعرفةَ وَحْدَهَا ليست ضمانةً للالتزام الأخلاقيِّ.

= **أَحَدُها**: أن يكون الفعل مشتملًا على مصلحةٍ أو مفسدةٍ ولو لم يرد الشَّرْعُ بذلك؛ كما يعلم أنَّ العَدْلَ مشتملٌ على مصلحة العالَم، والظُّلْمُ يشتملُ على فَسَادِهِم. فهذا النَّوعُ هو حَسَنٌ وقبيحٌ، وقد يُعْلَمُ بالعَقْلِ والشَّرْعِ قُبْحُ ذلك، لا أَنَّهُ أَثْبَتَ للفِعْلِ صِفةً لم تكن. لكن لا يلزمُ من حصولِ هذا القُبْحِ أن يكون فاعِلُهُ مُعاقَبًا في الآخرةِ إذا لم يَرِدْ شَرْعٌ بذلك...

النوع الثَّاني: أنّ الشَّارع إذا أَمَرَ بشيءٍ صار حَسَنًا، وإذا نهى عن شيءٍ صار قَبِيحًا، واكتسَبَ الفِعْلُ صِفَةَ الحسن والقُبْحِ بِخِطابِ الشَّارعِ.

النوع الثَّالثُ: أن يأْمُرَ الشَّارِعُ بشيءٍ، لِيَمْتَحِنَ العَبْدَ، هل يُطِيعُهُ أم يَعْصِيهِ، ولا يكونُ المراد فِعْل المأمورِ به؛ كما أَمَرَ إبراهيمَ بِذَبْحِ ابْنِهِ، ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ١٠٣﴾ حَصَلَ المقصودُ، فَفَدَاهُ بالذّبْحِ» (ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٨/٢٧٨ ـ ٢٧٩)..

(١) رواه مسلم، كتاب الجنّة وصِفَة نعيمِهَا وأَهْلها، باب الصِّفاتِ التي يُعْرَفُ بها في الدُّنيا أهل الجنّة وأهل النَّار، (ح/ ٢٨٦٥).

المطلب الثّالث

اعتراض: اختلافُ الأنساقِ الأخلاقيّةِ حُجّةٌ لِنَفْيِ موضوعيَّتِها

كيف تكون الأخلاقُ حقيقةً موضوعيّةً مفارِقةً للذَّوقِ الفرديِّ أو الجماعيِّ رغم عِلْمِنَا أنّ الأُممَ اختلفَتْ أَشَدَّ الاختلافِ في الأحكام الأخلاقيّةِ.

الجواب:

أَوَّلًا: النَّاسُ يختلفون في مسائلَ كثيرةٍ جدًّا، فهل اختلافُهم ينفي وجودَ حقيقةٍ موضوعيّةٍ؟ يختلفون حول قِيْمةِ العِلْمِ، وفائدة السِّلْمِ، وقُبْحِ نُظُمِ الحُكْمِ الأُحاديّةِ... ونحن نَرُدُّ على المخالفين لَنا هنا أنّهم لم يُصِيبُوا الحقَّ رغم ثبوت الخلافِ.. ولَمْ يَمْنَعنا وجودُ الخلاف من تقريرِ وجودِ حقائقَ موضوعيّة في هذه المسائلِ.

ويُنْكِرُ الفيلسوفُ **الملحِدُ** (روس شافر لاندو)[1] دلالةَ اختلافِ النَّاسِ على رَدِّ موضوعيّةِ الأَخْلاقِ بقولِه: «لا يَحِقُّ لنا أن نستنتجَ من حقيقةِ أنَّ الفيزيائيّين البارِعين أيضًا يختلِفُون فيما بينهم أَنَّهُ لا توجد حقائقُ موضوعيّةٌ في الفيزياء الأساسيّةِ... إذا كانت الاختلافاتُ العلميّةُ لا تُقَوِّضُ الواقعَ الموضوعيَّ للعِلمِ، فكذلك يجب أَلَّا تُقَوِّضَ الاختلافاتُ الأخلاقيّةُ الواقعَ الموضوعيَّ للأخلاقِ»[2].

ثانيًا: الاعتراضُ قائمٌ على الخَلْطِ بين الجانبِ الأنطولوجيِّ للأخلاقِ الموضوعيّةِ، والجانب الإبستيمولوجيِّ. الجانب الأَوَّلُ مُتعلِّقٌ بالأساسِ الوجوديِّ الذي تقوم عليه الأخلاقُ المتعاليةُ على أَذْواقِنا واختياراتِنَا الشّخصيّة، والثاني مُتعلِّقٌ باكتشافِنَا تفاصيلَ حقائقِ التَّقْبيحِ والتَّحْسِينِ؛ فالأَمْرُ الأَوَّل ـ الذي نحن بِصَدَدِ مناقشتِه في هذا الفصل ـ مُتعلِّقٌ بالحاجةِ إلى إلٰهٍ لِتُوجَدَ الأخلاقُ الموضوعيّةُ؛ فَبِغَيْرِ إلٰهٍ يَرْتَدُّ العالَمُ إلى وُجودٍ ماديٍّ أَعْمى بلا بصيرةٍ ولا قلبٍ،

---

(١) روس شافر لاندو Russ Shafer-Landau (١٩٦٣ـ): أستاذُ الفلسفةِ في جامعة «نورث كارولاينا». له عنايةٌ خاصّةٌ بالفلسفة الأخلاقيّة.

(٢) Russ Shafer-Landau, *Whatever Happened to Good and Evil?* (OUP, 2004), pp. 68, 70.

ولا خيرٍ ولا شرٍّ، والأمر الثاني مُتعلِّقٌ بشفافيةَ النَّفْسِ وصفاء الفِطَرِ والقُدرةِ على تجاوز الأَثَرِ السَّلْبِيِّ للثّقافةِ السَّائدةِ؛ فعندما يَرِيْنُ على القلبِ غَبَشُ العَوَائِدِ الفاسدةِ والرُّؤى المنحرفةِ، يُخالِفُ المرءُ غيرَهُ حُكْمَهُ الأَخْلاقيَّ..

ثالثًا: الإنسانُ يَجِدُ في نفسِهِ تَرَقِّيًا في حُكْمِهِ الأخلاقيِّ؛ فهو في مراهَقَتِه قد يميلُ إلى أحكامٍ أخلاقيّةٍ مُتشدّدةٍ أو حَدّيّةٍ، لكنَّهُ إذا كبر اعتَدَلَ حُكْمُه الأخلاقيُّ دون أن يرى في ذلك أنَّ الأخلاقَ تَتَغَيَّرُ، وإنّما هو يُقِرُّ أنّ الحقيقةَ الأخلاقيّةَ واحدةٌ، لكنّه يَتَرَقَّى في معرفتها بِتَرَقِّي معرفتِه بنفسِه والعالَمِ.

رابعًا: يقول (سي. أس. لويس) ردًّا على الزَّعْمِ أنّ الحضاراتِ لها مقولاتٌ أخلاقيّةٌ مختلفةٌ بصورةٍ واسعةٍ: إنّها «كذبةٌ، كَذبةٌ عظيمةٌ جدًّا. لو يذهبُ شخصٌ ما إلى المكتبة، ويُمضي أَيَّامًا في قراءةِ «موسوعة الدِّينِ والأخلاق»[1]؛ فسيكتشفُ بسرعةٍ الاتّفاقَ الهائلَ في اختياراتِ العَقْلِ العَمَليّ عند النَّاسِ. سَيَجْمَعُ من ترانيمِ بابلَ إلى ساموسَ، ومن قوانينِ مانو إلى كتاب الموتى، وتعاليمِ كونفوشيوس، والرّواقيّين، والأفلاطونيّين، والسُّكّانِ الأَصْلِيِّين لأستراليا والهنود الحمر، الاستنكاراتِ المتكرّرة الحماسيّة نفسَها للقَمْعِ والقَتْلِ والغَدْرِ والباطل، والأوامرَ نفسَها بالعَطْفِ على كبار السنّ، والصِّغار، والضُّعفاء، والصَّدَقةِ، والنَّزَاهةِ، والصِّدْقِ»[2].

خامسًا: (داوكنز) نفسُه قد أَقَرَّ[3] أنّه لا يوجدُ اختلافٌ جوهريٌّ بين الحِسِّ الأخلاقيّ للمتديّنين والحِسِّ الأخلاقيّ للملاحدة رغم أنّهما على طَرَفَيْ نَقِيضٍ في النَّظَرِ إلى الكَوْنِ؛ حتّى إنّه وصف هذا التطابق بالمفاجئ[4].

---

(١) *Encyclopedia of Religion and Ethics.*

(٢) C. S. Lewis, "The Poison of Subjectivism," in *C. S. Lewis, Christian Reflections, Walter Hooper*, ed. (Grand Rapids: Eerdmans, 1967), p.77.

(٣) في موافقة للأنثروبولوجي (Hauser) والفيلسوف الملحد (Peter Singer)..

(٤) See Richard Dawkins, *The God Delusion*, p.298.

المطلب الرَّابِعُ

اعتراضٌ: الأخلاقُ الصَّالحة ما حَقَّقَ الرَّفاهية للإنسانِ

حاولَ (سام هاريس) أنْ يَجِدَ حَلًّا لأساسِ الأخلاقِ في المنظومة الإلحاديَّةِ، فَزَعَمَ في كتابه: «المشْهَد الأخلاقيّ: كيف يُحَدِّدُ العِلْمُ القِيَمَ الإنسانيَّةَ» (٢٠١٠م) أَنَّ غايةَ الحياةِ الإنسانيّة الواعيةِ تحقيقُ الرَّفاهية الإنسانيّة[١]، وأَنَّ العِلْمَ قادِرٌ على معرفة أَنْواع الرَّفاهيةِ وأَسْبَابِها؛ كما أَنَّهُ قادِرٌ على تحديد القِيَمِ الإيجابيَّةِ التي يجب علينا أَنْ نَتَبَنَّاها، بعيدًا عن الحاجة إلى الدِّينِ أو الإلٰهِ.

الجواب:

أولًا: يزعمُ (هاريس) أنّ أساسَ الأخلاقِ تحقيقُ الرَّفَاهِية؛ فما يقولُ العِلمُ إنّه يُحقِّقُ الرَّفاهية فهو حَقٌّ وخيرٌ، وما كان غيرَ ذلك فهو باطلٌ وشرٌّ. وليس في هذا «التَّأصيلِ» تأصيلٌ لشيءٍ؛ إذ إنّه لا يوجد مِعيارٌ موضوعيٌّ لمفهوم الرَّفَاهِية؛ فهو ليس شيئًا يَقْبَلُ القياس الحسابيّ ولا يَخْضَعُ لمعادلاتِ الفيزيائيّين ولا مِشْرَطِ الجَرَّاحِين، فمفهومُ الرَّفاهِية نفسُه مُشْكِلٌ، ومُتَعَالٍ بصورةٍ كبيرة وربّما كُليّةٍ عن الاختبارِ والتقويم العِلْمِيَّيْنِ.

وقد انتُقِدَتْ دعوى (هاريس) أنّها «أكثرُ الدَّعاوى المبالِغَةِ في غُرُورِها، وهي مَعِيبةٌ بصورةٍ واضحةٍ. إنّ العلمَ لا يُنْتِجُ قِيَمَهُ الأخلاقيَّةَ الخاصّةَ. إنّه بالإمكان استعمالُه للخيرِ والشرّ، وقد استُعمِلَ لذلك.. و«المستقبلُ السَّعيدُ» الذي يَتَنَبَّأُ به، هو في حَدِّ ذاتِه انعكاسٌ ثقافيٌّ»[٢].

كما انتقدَ عددٌ من الملاحدة طرح (هاريس) بِخَلْطِهِ حديثَ العلم بحديثِ الأخلاقِ، ومنهم الفيزيائيُّ **الملحِدُ** ـ الشَّرِسُ في حماسَتِه للإلحاد ـ (شون كارول)[٣] الذي شَنَّعَ على هاريس استخلاصَ «يجب» «ought» من «كائن»

---

(١) Sam Harris, *The Moral Landscape: How Science Can Determine Human Values* (New York: Free Press, 2010), p.1.

(٢) David Sexton, The King James Bible bashers. <http://www.standard.co.uk/lifestyle/the-king-james-bible-bashers-6388687.html>

(٣) شون كارول Sean Carroll. (١٩٦١م): كوسمولوجيٌّ أمريكيٌّ. مختصٌّ في ميكانيكا الكمِّ والجاذبيّة. =

«is»؛ فالعلمُ يَشْرَحُ عملَ أشياءِ الطّبيعةِ، ولا يملِكُ أن يقولَ كلمةً في «ما يجب». وكان اعتراضُه قائمًا على بيانِ ثلاثِ حقائقَ ضمن المنظومةِ الماديّةِ التي يشترك فيها مع (هاريس):

الحقيقة الأُولى: اختلافُ النَّاسِ في تعريفِ الرَّفَاهِية، «وهو أمرٌ بَدَهيٌّ بصورةٍ تامّةٍ»؛ فهناك من لا يَأْبَهُونَ بصورةٍ تامّةٍ بالرَّفَاهِية، وهناك القَتَلَةُ، والعُنْصُرِيُّون، والمُعْتَلُّون اجتماعيًّا. ولا سبيلَ في التصوّرِ الماديِّ لِرَسْمِ خطٍّ فارقٍ بين الطّبيعيّ وغير الطّبيعيّ من النَّاسِ، ولا توجد تجربةٌ علميّةٌ تُعِينُ على ذلك. وحتّى بين مَنْ يراهم المجتمعُ أَسْوِياءَ، توجدُ اختلافاتٌ جَمَّةٌ في معنى الرَّفَاهِية وطريق تحقيقِها، بين رَخَاوَةٍ وشِدَّةٍ. بل حتّى لو اتَّفَقَ النَّاسُ على معنى ما هو جيّد، يبقى لنا أن نقولَ: إنَّ اتِّفَاقَهُمْ لا يجعلُ الأمرَ جيّدًا، فهو في آخرِ أمرِهِ رأيٌ لا غيرَ.

الحقيقة الثَّانية: هدفُ تحقيقِ أَعْلى قدرٍ من الرَّفَاهِية لا يُمثّلُ هَدَفًا بَدَهِيًّا للأخلاقِ فإنّ مدارسَ الفلسفةِ الأخلاقيّةِ تَتَصَارعُ في ذلك؛ ففي حين يَقِفُ مذهبُ (هاريس) عند مذهب العاقِبِيَّةِ (consequentialism) حيث يُحْكَمُ على كُلِّ فِعْلٍ تَبَعًا لِعَاقِبَتِهِ، ترى مدرسةَ الأخلاقِ الواجبة (Deontological ethics) أنّ قيمة الفِعْلِ كامنةٌ فيه، وليسَتْ في مآلِهِ.

الحقيقةُ الثَّالثة: حتّى لو اتَّفَقْنَا في تعريفِ مفهومِ الرَّفَاهِية، ومعاييرها الموضوعيّةِ، يبقى الإشكال أنَّ مصالح النَّاسِ في تحقيقِ الرَّفَاهِية عُرْضةٌ للتَّعارضِ والتَّصَادُمِ؛ بما يُنْتِجُ مُشكلةَ ضَبْطِ المعيارِ الذي يُرَجِّحُ مصلحةَ طائفةٍ على أُخْرى، ورَفَاهية فريقٍ على حسابِ فريقٍ آخرَ؟ وهناك سَتَخْتَلِطُ مُنْطَلَقاتُ معرفةِ المعيارِ وحساباتُ ضَبْطِهِ.[1]

ثانيًا: لماذا علينا أن نختارَ السَّعْيَ إلى السَّعَادةِ والرَّفَاهية؟ لماذا علينا أن

= من أهمِّ الفيزيائيّين الملاحدة المشاركين في الحوار الإيمانيّ ـ الإلحاديّ.

(١) Sean Carroll, You Can't Derive Ought from Is.
<http://blogs.discovermagazine.com/cosmicvariance/2010/05/03/you-cant-derive-ought-from-is/#.WlrEw-XanHcc>

نبحثَ عن السَّعادة؟ ولماذا نقيسُ الأَمْرَ بالمُتَعِ، فهل المُتْعَةُ حاصلةٌ للجميعِ بالشّيءِ نفسِه؟ ولماذا علينا أن نسعى إلى سعادةِ غيرِنا؟ ولماذا علينا أن نَعْتَبِرَ أَنَّ لِغَيْرِنَا الحقّ في الوصول إلى حال النَّشْوةِ نفسها التي نرضاها لأنفسِنا؟ أَلَمْ يَقُلْ (هاريس): إنّه إذا قام نظامٌ إسلاميٌّ يُهَدِّدُ مصالحَ الغَرْبِ، وكانت الحربُ النَّوويَّةُ هي الطَّريقُ الوحيدُ للقضاءِ عليه، فَعَلَى الغَرْبِ أَنْ يَخُوضَ هذه الحربَ حتّى لو أَدَّتْ إلى قَتْلِ عَشَرَاتِ ملايين الأَبْرِياءِ[1]؟! لمَ لَمْ يَعْتَبِرْ (هاريس) رَفَاهية «النِّظام الإسلاميّ» مطلبًا للوجود البشريّ؟ أو مطلبًا لعشرات ملايين المسلمين الأبرياء؟ لماذا تكون رفاهية (هاريس) ومَنْ يُشاركونه الفِكْرَ والمَوْطِنَ الجغرافيَّ المَطْلَبَ دون غيرِهِ؟

ثالثًا: في عالم المادّةِ العَمْياء، لماذا تُعْتَبَرُ رَفَاهيةُ الحيوانِ المُنْتَسَلِ من القِرَدَةِ الجنوبيّة (Australopithecus) أَمْرًا يُسْعِدُ السَّماءَ والأرض؟ لماذا علينا أن نتعاملَ مع الإنسانِ على أَنَّهُ غايةٌ لا وَسِيلةٌ أو مجرّد أَدَاةٍ؟ نحن نحتاجُ أُصُولًا ميتافيزيقيّةً ترفَعُ قيمةَ الإنسانِ ليكون رِضَاهُ غايةً، ولا توجد تلك الأُصولُ في كون الماديِّين الذي لا قَلْبَ له. رضا الإنسانِ مسألةٌ لا قيمةَ لها في كَوْنِ الملاحدةِ حيث لا يَتَمَيَّزُ الإنسانُ عن ابن عَمِّهِ الشَّمْبَانزيِّ إلَّا ببعض رَصِيْدِهِ الجِيْنِيِّ. وهل رَفَاهية قِرْدٍ أو فَأْرٍ أو مايكروبٍ أَمْرٌ محمودٌ أَخْلاقيًّا؟ لا يوجد أَدْنى داعٍ لِرَبْطِ مفهومِ الرَّفَاهِية بكائناتٍ تَتَحَرَّكُ بدافعِ التَّفاعلاتِ الكيميائيّةِ العمياء..

إنّ معرفتَنَا العلميّة قد تُفيدنا في معرفةِ ما يُمْتِعُ الكلبَ أو الفأْرَ، لكنَّها لا تَمَسُّ مسألةَ أهميّة إمتاعِ الكلبِ أو شرعيَّة ذلك في شيء؛ إنّها معرفةٌ تُلاحِظُ أَثَرَ المعاملةِ في إفرازاتِ الغُدَدِ وحَرَكةِ الهرمُوناتِ وارتخاءِ المَفَاصِلِ، لكنَّها لا تُوَرِّثُ الإنسانَ من ملاحظةِ ذلك واجبًا أخلاقيًّا نحو الكلبِ أو الفأرِ.

رابعًا: اتِّجَاهُ (هاريس) ـ الماديّ الدّاروينيّ ـ إلى مفهومِ الرَّفَاهِية لِضَبْطِ القِيَمِ الأخلاقيّةِ يُخالِفُ المنطِقَ الدّاروينيَّ الذي على كُلِّ داروينيٍّ مثل (هاريس)

---

(١) Sam Harris, *The End of Faith: Religion, Terror, and the Future of Reason* (London: Simon & Schuster, 2006), p.129.

قَبُولُهُ، والذي يقولُ: إنَّ القِيَمَ الأخلاقيّةَ اعتباطيّةٌ؛ فالإنسانُ الذي يُعَظِّمُ اليومَ الصِّدْقَ والنُّبْلَ، كان من الممكن أن يقودَهُ خَطُّهُ التَّطَوُّرِيُّ إلى تعظيمِ الكَذِبِ والنَّذَالَةِ. أو بالمثال الذي قدّمَهُ الفيلسوفُ **الملحِدُ** (مايكل روس)، فإنّه كان بالإمكان أَلَّا نَنْتَسِلَ عن ساكني الغابات، وأن نكونَ مثلَ النَّمْلِ الأَبْيَضِ، الذي تَطَوَّرَ بسبب حاجته إلى «أنْ يَسْكُنَ في الظَّلام، ويأكُلَ فَضَلاتِ بعضِه بعضًا، ويَتَغَذَّى على جُثَثِ الموتى». ولو سِرْنَا في الخَطِّ التَّطَوُّرِيِّ لِلنَّمْلِ الأَبْيَضِ، فإنّنا «سوف نَنْظُرُ إلى مثل تلك الأعمال على أنّها جميلةٌ وأخلاقيّةٌ» و«نَجِدُ أنّه من المثير للاشمئزازِ أخلاقيًّا العيشُ في الهواء الطَّلْقِ، والتَّخَلّص من فضلاتِ الجسم ودَفْن الموتى»[(١)].

المطلب الخامس

اعتراض: الأخلاق مُنْتَجٌ بيولوجيٌّ

الأَخلاقُ أَثَرٌ عن التطوُّرِ البيولوجيِّ للإنسان. وقد تحوَّلَ الإنسانُ المتوحّش إلى إنسانٍ أخلاقيٍّ بِفِعْلِ حاجَتِهِ إلى التَّعَايُشِ مع بيئتِه الصُّغْرى؛ الأُسْرةِ والقَبِيْلَةِ.

الجواب:

أولًا: السُّلطان العالي للمذهبِ العِلْمويِّ في الأوساط الأكاديميّة، وضَغْطُ المذهبِ الاختزاليِّ على طبيعة الأبحاثِ العلميّةِ فَتَحَا البابَ واسعًا أمامَ الالتجاءِ إلى تفسيرِ أخلاقيّةِ الإنسان تفسيرًا بيولوجيًّا.

ويقومُ التّفسيرُ البيولوجيُّ للنَّزْعَةِ الأخلاقيّةِ ونَسَقِيَّتِهَا على ثلاثِ مُقدِّماتٍ مُضْمَرَةٍ مُتعلّقةٍ بِكَشْفِ الحقيقةِ، ليس عليها برهانٌ، أُوْلاها: ميتافيزيقيّةٌ، وهي أنَّ الوُجودَ مادَّةٌ وحَسْبُ، وثانيها: تعليليّةٌ، وهي أنّ الأسبابَ العاملةَ في الكَوْنِ كُلّها مادِّيَّةٌ وجَبْرِيَّةٌ، وثالِثُها: أنَّ المعرفة لا يمكن تحصيلها إلَّا بالعِلمِ

---

(١) Michael Ruse and E. O. Wilson, "The Evolution of Ethics", in *Religion and the Natural Sciences: The Range of Engagement, James Huchingson, ed. (Eugene, Or.: Wipf & Stock, 2005), p.311.*

الطَّبيعيِّ أو تحت ظِلِّ العِلمِ الطّبيعيِّ[1]. وما بُني على دَعَاوى غيرِ مُبَرْهَنةٍ، فهو غيرُ مُبَرْهَنٍ.

ثانيًا: تفسيرُ ظُهورِ الطّبيعةِ الأخلاقيّةِ للإنسان ومضمونها بالانتخابِ الطَّبيعيِّ، لا يُثْبِتُ - حتّى لو صَحَّ جَدَلًا - أنّه لا علاقة للهِ - سبحانه - بأصلِ الأخلاقِ؛ إذ إنّ تفسيرَ الانتخابِ الطّبيعيِّ لِوَجْهٍ من أَوْجُهِ الطَّبيعةِ الأخلاقيّةِ للإنسان لا يُلْغِي فِعْلَ اللهِ في ذلك وفي غير ذلك. فالانتخابُ الطَّبيعيُّ قد يكونُ آلةَ اللهِ لإنباتِ الحافِزِ الأخلاقيِّ في النَّفْسِ.

ثالثًا: السَّبَبُ الأَعظمُ لِفَشَلِ التَّفسيرِ الدَّاروينيِّ لالتزامِ الملحدِ بحدودِ القيمِ الأخلاقيّةِ أنّ هذا التفسيرَ لا يُفَسِّرُ لماذا علينا أنْ نَفْعَلَ فِعْلًا أخلاقيًّا، وإنّما يَشْرَحُ لماذا نفعل نحن ذلك الفِعْلَ، فليس في هذا التَّفسير شرحٌ للواجبِ الأخلاقيِّ - وهو الذي يَعْنِيْنَا - وإنّما هو يُبَيِّنُ وجودَ الحافزِ الأخلاقيِّ، والإنسان قد يَجِدُ في نفسِه حافزًا لأنْ يَفْعَلَ فِعْلًا ما، لكنَّهُ لا يراه واجِبًا، ويخالِفُهُ لأنّه يملك دوافِعَ أُخْرى تَمْنَعُهُ من الاستجابةِ للحافِزِ. والنُّزُوعُ الأخلاقيُّ بذلك - كما يقول (سي. أس. لويس) - لا يختلفُ عن الرّغبةِ في التَّقَيُّؤِ أو التَّثاؤُبِ عند وجود الحافِزِ[2]. وشرحُ الالتزامِ الأخلاقيّ هنا يجب أن يناقشَ سببَ **وجوبِ** الفعلِ لا سببَ **وُجودِ** الفِعْلِ؛ فالحاجةُ التي يَجِدُها المرءُ لِلْعَيْشِ في جماعةٍ مُتآلفةٍ من النَّاسِ لا تُفَسِّرُ وُجوبَ الالتزامِ الأخلاقيِّ بالحفاظِ على هذه الوَحْدَةِ؛ فقد يَجِدُ المرءُ أنّ هذه الوَحْدةَ باهتةٌ تَقْتُلُ شُعورَهُ بِذاتِه، فيختارُ أخلاقيًّا الفردانيّةَ على الجماعيّةِ.

وقد انْتَبَهَ عالِمُ البيولوجيا الملحِدُ **العَدَمِيُّ** الحائِزُ على **نوبل** (جاك مونو) إلى قُصورِ التَّفسيراتِ الماديّةِ - ومنها التّفسير الدّاروينيّ الطّبيعانيُّ -، فقال: «واحدةٌ من أَعظمِ مُشكلاتِ الفلسفةِ: العلاقةُ بين عالَمِ المعرفَةِ وعالَمِ القِيَمِ. المعرفةُ هي ما هو «كائن» «is» والقِيَمُ هي ما «يجب» «ought» أن يكون. أَوَدُّ

---

(١) Paul Copan, "My Genes Made Me Do It": Is Ethics Based on Biological Evolution? <http://enrichmentjournal.ag.org/201404/201404_024_Genes_Made_Me_Do_It.cfm>.

(٢) C.S. Lewis, *Miracles*, p.58.

أن أقولَ: إن جميع الفلسفاتِ التقليديّةِ حتى الشيوعيّة قد حاولَتْ استخلاصَ «يجب» من «كائن». وذاك أمرٌ مستحيلٌ. إذا كان صحيحًا أنه ليس هناك هدفٌ في الكونِ، وأنّ الإنسان ليس إلّا عَرَضًا حادِثًا، فلا يمكنُكَ ـ عندها ـ استخلاصُ «يجب» «ought» من «كائن» «is»[١].

إنّ التّفسير الداروينيّ قد ينتهي إلى نَفْعِيَّةِ أَفْعالٍ بشريّةٍ تُنْكِرُهَا ثقافَتُنَا في الشَّرْقِ والغَرْبِ رغم أنّها بيولوجيًّا نافعةٌ في تحقيق البقاء؛ ومن ذلك الاغتصابُ الذي يُفيدُ في بقاء النَّسْلِ البشريِّ، وهو الغايةُ الكبرى للوجودِ في الفَهْمِ الدّاوكنزيّ، لكنَّ (داوكنز) ومَنْ على قِبْلَتِهِ يَسْتَبْشِعُونَ الاغتصابَ.. ولذلكَ لـمّا سألَتْ مجلّةُ (Skeptic) (داوكنز): «هل بإمكاننا أن نلتجِئَ إلى التّطوّرِ لا لِيُجِيْبَنَا عن ما هو كائنٌ، وإنّما لِيُعَرِّفَنَا بما يجب أن يكون؟»، أجابَ (داوكنز): «لا أُفَضِّلُ أَنْ أَفْعَلَ ذلك»![٢]

الاغتصاب «ظاهرة بيولوجية طبيعية من آثار الموروث التطوري للإنسان.. [مثل] بقع الفهود والرقبة الطويلة للزرافة»[٣]. (راندي ثورنهيل) و(كريج بالمر).

التَّفْسِيْرُ الدَّاروينيُّ يَصِفُ السُّلُوكَ البَشَرِيَّ بما هو كائنٌ، ولا يَصِفُ الوَاجِبَ الأَخْلاقِيَّ بما هو واجبٌ.

رابعًا: الرَّبْطُ بين النُّزوعِ الأخلاقيِّ وتفاصيلِ القِيَمِ الإنسانيّةِ والانتخابِ الطّبيعيِّ الأعمى، مجرّد دَعْوى؛ كعامّةِ دَعَاوى الدَّرَاونةِ، دَعْوى بلا شَرْحٍ جادٍّ لآلياتِ هذا التَّطَوُّرِ الـمُدَّعى؛ إذ يكتفي مُنَاصِرُهَا بمعنًى عامٍّ مُجْمَلٍ يَزْعُمُ أنّ

(١) Jacques Monod, *Chance and Necessity* (London: Collins, 1971), p.110.

(٢) Frank Miele, 'Darwin's dangerous disciple. An Interview With Richard Dawkins', *The Skepsis*, vol. 3, no. 4, 1995.
<http://scepsis.net/eng/articles/id_3.php>.

(٣) Cited in: Cheryl Brown Travis, ed. *Evolution, Gender, and Rape* (Cambridge: MIT Press, 2013), p.223.

الخُلُق الإنسانيَّ أَثَرٌ من آثار التَّعَاوُنِ الجَمْعِيِّ بين جماعةِ الأحياءِ الذين الْتَجَؤُوا إلى التَّعاونِ مَنْعًا لانْدِثارِهِمْ.

خامسًا: احتارَ (داوكنز) في تفسير الظَّاهرةِ الأخلاقيّةِ، فَزَعَمَ - في محاضرةٍ له في جامعة واشنطن - أنَّ تَوَقُّعَ المعاملةِ بالمِثْلِ من الطَّرف الآخَرِ هو الذي أَنْشَأَ الحِسَّ الأَخْلاقيَّ في الإنسان، لكنَّهُ اسْتَدْرَكَ على ما زَعَمَ بقولِهِ: إنّ ذلك لا يَتَعَلَّقُ بالسُّلوكِ الأخلاقيِّ الرّاقي الذي يُظْهِرُهُ الإنسانُ. وحاولَ أنْ يُفَسِّرَ ظاهرةَ الإيثار[1] بأنّها أَثَرٌ عن «إصابةٍ خاطئةٍ» «mistaken misfiring» للدَّوائِرِ العَصَبِيَّةِ المتعلّقةِ بحسابِ التَّعاطي بين أفرادِ الأُسْرةِ[2]، لكنّه عاد فقالَ: «لا يملِكُ العِلمُ مناهِجَ لِتحديدِ ما هو أخلاقيٌّ»[3]. ثم أضافَ في مَرَّةٍ أُخرى - في إحدى المحاضرات - أنَّ موضوعَ أساس الأخلاقِ موضوعٌ صَعْبٌ جدًّا، وأنّه لا يَعْرِفُ على الحقيقة لِمَ نحن أَخلاقِيُّون[4].

ويبقى السُّؤال قائمًا بلا جوابٍ.. كيف ينتقِلُ الكَوْنُ المادِّيُّ الأَعْمى من صَمَمِ المادّةِ العابِثَةِ إلى القِيَمِ الأخلاقيّةِ الحيَّةِ. مِنْ أَيْنَ انْبَجَسَتْ معاني الكَرَامةِ الإنسانيةِ والواجبِ الأخلاقيِّ إذن؟

في عالَم مادِّيٍّ يَخْتَزِلُ الأفكارَ والمشاعِرَ في النَّبضاتِ العَصَبيّةِ والتَّفاعلات الكيميائيّةِ، يضطرُّ الملحِدُ أنْ يُفَسِّرَ الأخلاقَ تفسيرًا أَعْمى بلا قلبٍ، يَحْصُرُ القبيحَ والحَسَنَ في حركاتِ أعضاءِ الإنسانِ وعُضَيَّاتِهِ. إنَّ العلمَ قادرٌ على أن يَصِفَ فِعْلَ القَتْلِ والاغتصاب والسَّرقة بعباراتٍ تُصوّرُ حال الجهازِ العَصَبيِّ أثناء القيامِ بالفِعْلِ، وقَبْلَهُ وبعدَهُ، لكنّهُ عاجِزٌ عن بيانِ لمَ كان الفِعْلُ مَقْبُوحًا أو مَمْدُوحًا.

إنّ العِلمَ مُتَنَاءٍ بصورةٍ تامّةٍ عن الأخلاقِ في بابِ التّفسيرِ لأنّه أعمى لا يرى ألوانَهَا، لكنَّهُ محتاجٌ إلى الأخلاقِ لِيُقِيمَ حضارةً مُنْصِفةً، عاقلةً، غير داميةٍ

(١) Altruism.

(٢) Jonathan D. Sarfati, *The Greatest Hoax* (Creation Book Publishers. Kindle Edition).

(٣) Richard Dawkins, *A Devil's Chaplain*, p.34.

(٤) في محاضرة بعنوان: حول مصدر الأخلاق <https://www.youtube.com/watch?v=7XtvWkRRxKQ>.

ولا مجنونةٍ. فهو محتاجٌ إلى أُصولٍ أخلاقيّةٍ تَحْفَظُ الوجودَ من الدَّمامةِ والدَّناءةِ، ولا يملِكُ أن يبنيَ لنفسِه أو لغيره فلسفةً أخلاقيّةً مُبَرَّرَةً من داخِلِ العِلمِ. و«كُلُّ محاولةٍ لاختزالِ الأخلاقِ في قوالبَ عِلْميّةٍ لا بُدَّ أَنْ تَفْشَلَ» - بعبارة (أينشتاين) -[1].

مختصر النَّظَرِ:

- الأخلاقُ الموضوعيّةُ هي الأخلاقُ الواحدة، المتسلِّطةُ علينا من خارِجِنا، والملزمة للجميع.
- وجودُ الأخلاقِ الموضوعيّةِ يقتضي وجودَ اللهِ باعتراف أئمّةِ الإلحادِ.
- الالتزامُ النَّفْسِيُّ بموضوعيّةِ الأخلاقِ مسألةٌ صَمِيْمِيَّةٌ في الإنسان لا يستطيع التَّخَلِّيَ عنها.
- البرهانُ الأخلاقيُّ أعظمُ براهينِ الإيمان التي يَجِدُ الملاحدةُ مَشَقَّةً في رَدِّهَا.
- في غيابِ الأخلاقِ الموضوعيّةِ يَمْتَنِعُ وُجودُ قِيَمِ الخير والشرّ، وحقّ المَدْحِ والذَّمِّ.
- في غيابِ الأخلاقِ الموضوعيّةِ يمتنع على الملحدِ - ضِمْنَ نَظْرَتِهِ الكونيّة - أن يكون أخلاقيًّا أو أن يَتَرَقَّى خُلُقِيًّا.
- أَصْلُ اعتراضاتِ الملاحدةِ على البرهانِ الأخلاقيِّ عَجْزُ كثيرٍ منهم عن فَهْمِهِ؛ ولذلك تأتي معارضاتهم في غير محلِّ النِّزاعِ، أو باستدعاءِ العِلمِ الطّبيعيِّ للشَّهادة في غيرِ بابِهِ.

مراجع للتَّوَسُّعِ:

Mark Linville, “The Moral Argument” in *The Blackwell Companion to Natural Theology*, MA:Wiley-Blackwell, 2009, pp. 391-448.

---

(١) John C. Lennox, *Gunning for God: Why the New Atheists are Missing the Target*, p.99.

Paul Copan, "The Moral Argument" in Paul Copan and Paul K. Moser, eds. *The Rationality of Theism*, London: Routledge, 2003, pp. 74-149.

David Baggett and Jerry L. Walls, *Good God: The Theistic Foundations of Morality* , Oxford University Press, 2011.

Francis J. Beckwith, and Gregory Koukl, *Relativism: Feet Firmly Planted in Mid-Air*, Grand Rapids, MI: Baker, 1998.

Douglas R. Geivett, *Evil and the Evidence for God: The Challenge of John Hick's Theodicy*, Philadelphia: Temple University Press, 1993.

الفصل الثالث

برهان العقل

ـ ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ـ «ليس [للملحدِ] مقامٌ مفهومٌ يَقِفُ عليه، ولا نَظَرِيّةٌ معرفيّةٌ مُتّسقةٌ، ولا مُسوّغٌ لِخِطابٍ له معنى أو ترابط داخليّ، ولا حُجَج»[١].

الفيلسوف (جرج بنسون)[٢]

بين خيارَيْنِ: الله والعقل أم الجنون؟

يقول المؤمنُ بالله: إنّه لا سبيل للتفكير في أيِّ حقيقةٍ إلَّا عبر واسطة النَّشاطِ الذّهنيّ (العَقْل)، سواء بالنظر العقليِّ المجرّد أو عن طريق الحواسِّ والتّجربة البسيطةِ أو العِلْميّةِ المركّبة التي تَحْتَكِمُ في خاتمة أمرِها لِحُكْمِ العَقْلِ.. العَقْلُ أداةُ التّفكيرِ، ودون العَقْلِ لا يمكن للمرءِ أن يُفكِّرَ في وجودِ اللهِ، ولا يمكنه أنْ ينفيَ هذا الوجودَ، ولا أنْ يُثْبِتَهُ، ولا حتّى أنْ يَشُكَّ فيه..

يعتقد المؤمنُ باللهِ أنَّ العقلَ هِبةٌ ربَّانيّةٌ من إلٰهٍ كاملِ العِلْمِ والرَّحمةِ؛ ولذلك يملك العقلُ أن يُفكّرَ في وجودِ اللهِ، وأن يهتديَ إلى الحقيقةِ.. ولولا ذلك لامْتَنَعَ أنْ تَصِحَّ ضمانةٌ لوجود العقلِ؛ ولَقُلْنَا: إنّما هو إذنْ دماغٌ أَسِيْرُ

---

(١) Greg Bahnsen, *Always Ready Directions for defending* the faith (Tex.: Covenant Media Foundation, 1996), p.55

(٢) جرج بنسون Greg Bahnsen (١٩٤٨ ـ ١٩٩٥): فيلسوفٌ ودِفاعِيٌّ كالفينيٌّ. أَحَدُ رُموزِ مدرسة "Presuppositional apologetics"

التّفاعلاتِ الكيميائيّةِ، والنّبضاتِ الكهربيّةِ، والدّماغُ بِنْيةٌ مادّيّةٌ لا يمكنها أن تتجاوزَ حدود التّفاعل المادّيِّ الأَعْمى.

والإنسانُ إذا آمنَ بإلٰهٍ عليمٍ حكيمٍ، كان تَوَقُّعُ أنْ يخلقَ هذا الإلٰهُ كائناتٍ مفكرةً تسعى إلى الحكمةِ لمعرفةِ نفسِها والكونِ والإلٰهِ نفسِه راجحًا جدًّا..

إمَّا العَقْلُ واللهُ، أو لا إلٰهَ؛ فلا عَقْلَ!

ويقول الملحِدُ: إنّ الإلحادَ دِيْنُ العَقْلِ، والعَقْلُ نورٌ يهدِي إلى أنَّ الوجودَ بلا إلٰهٍ، وبلا معنًى.. والدِّماغُ حُجّةٌ لإدراكِ الحقيقةِ لأنّه قد أَثْبَتَ ـ عَمَليًّا ـ نجاحَهُ في تحقيق رفاهيّةِ الإنسانِ..

إدراكُ الحقيقة رهينُ صِدْقِ العَقْلِ وحُجِّيَّتهُ.. فهل يَنْتَصِرُ العقلُ للهِ أم للإلحادِ؟

صياغة البرهان:

طرائقُ الإدراكِ العقليّ ـ في أدبيّات المؤمنين بالله ـ لوجودِ اللهِ كثيرةٌ، ومن أهمّها ـ في العقودِ الكثيرة ـ دليلُ العَقْلِ نفسه على وجود الله؛ فالعقلُ إذا آمَنَ بالعقلِ، لَزِمَهُ الإيمان باللهِ. إنّه لا يحتاجُ أن يَنْظُرَ خَلْفَهُ إلى نشأةِ الكَوْنِ من عَدَمٍ، ولا قُدَّامَهُ لِيَرَى جَمَالَ الكَوْنِ كالدُّرَرِ.. يكفي العقلَ أنْ يُقِرَّ لِلعقلِ أَنَّهُ عَقْلٌ حتّى يَعْقِلَهُ عن الفِرار من الإيمانِ باللهِ..

يقوم «برهان العَقْلِ» «argument from reason» على أنَّ مفهومَ «الإنسانِ العاقلِ» لا يَصِحُّ إلّا ضمنَ تصوُّرٍ كَوْنيٍّ رأْسُهُ الإيمانُ بالله، وأَنَّ كُلَّ تَشْكِيكٍ في العقلِ لِنُصْرةِ الإلحادِ ينتهي إلى إنكارِ مفهوم «الإنسان العاقلِ». وفي غَيْبَةِ المَلَكَةِ الإدراكيّةِ يَمْتَنِعُ على الملحِدِ أنْ يَنْصُرَ إِلْحادَهُ، وعلى الشُّكُوكيِّ أن يَنْصُرَ شُكُوكِيَّتَهُ، وعلى اللّاأَدْرِيِّ أَنْ يَنْصُرَ لاأَدْرِيَّتَهُ.

طَفَا «برهان العقل»[1] على سَطْحِ الجَدَلِ المعرفيِّ في العقودِ الأخيرةِ،

---

(١) يُسمّى أحيانًا: "The transcendental argument" انظر:

Lance Waldie, *A Christian Apologetic For Christian Apologists,* (Lulu Com, 2013), pp.49-65.

وإن كانت صياغاتُهُ المبكّرةُ تعودُ إلى ما قبل ذلك بقرونٍ[1]. وكان أَوَّلُ مَنْ تَعَرَّضَ لبرهانِ العقلِ بصورةٍ مباشرةٍ، رئيسُ الوزراء البريطانيّ (آرثور بلفور)[2] في كتابِهِ «قواعد الإيمان»[3]، ثم (سي. أس. لويس)[4]، والْتَقَطَ عديدٌ من الفلاسفة بعدَهُمَا هذا البرهانَ، ومنهم (ريتشارد برتل[5])[6] و(ج. ب. مورلند[7])[8]، وأهمّهم (ألفن بلانتنجا)[9]... وأمّا فارِسُهُ في أيّامنا فهو الفيلسوفُ (فكتور رِبّرت)[10] الذي ناقش سنة ١٩٨٩م أطروحتَهُ للدّكتوراه في شرحِهِ والرُّدود على ما انتُقِدَ عليه[11]، وهو مستمرٌّ إلى اليوم في بيانِ صياغاته، ولوازِمِهِ، وتَعَقُّبِ ما يُقال فيه.

غايةُ البرهانِ بيانُ أنّ تصديقَ المذهبِ الطّبيعانيّ (Naturalism) ـ الذي يُقرِّرُ أنّه من الممكنِ تَفْسِيرُ كُلِّ الظّواهر الطّبيعيّة بأسبابٍ طبيعيّةٍ وقوانينَ مادّيّةٍ ـ مُمْتَنِعٌ إذا آمَنَّا بالعَقْلِ، وأنّ الملحِدَ الطَّبيعانيَّ الذي يَزْعُمُ العقلانيّة يَنْقُضُ دَعْواهُ داخِلِيًّا بالإيمانِ بِمُتَنَاقِضَيْنِ لا يَلْتَقِيان، وهما العَقْلُ واللَّاعَقْلُ. ولذلك فدخول

---

(١) البذرةُ الأولى للبرهانِ موجودةٌ في كلام الفيلسوف اليونانيّ (إبيقور) ـ متوفّى سنة ٢٧٠ ق م ـ: «ذاك الذي يقولُ: إنَّ كلَّ الأشياء تَحْدُثُ بِفِعْلِ الضَّرورةِ، لا يمكنه أنْ يَنْتَقِدَ آخرَ يقولُ: ليست كُلُّ الأشياءِ تَحْدُثُ بِفِعْلِ الضَّرورةِ؛ إذ إنّه قد أَقَرَّ أنَّ قولَهُ قد حَدَثَ بِفِعِل الضَّرورةِ» (Epicurus, Aphorism 40 of the Vatican Collection).

(٢) آرثور بلفور Arthur Balfour (١٨٤٨ ـ ١٩٣٠م): رئيس وزراء المملكة المتّحدة. له اهتمامٌ بالدّراسات النّفسيّة. صاحب كتاب "Theism and Humanism".

(٣) Arthur Balfour, *The Foundations of Belief: Notes Introductory to the Study of Theology* (New York: Longmans, 1918), 279 - 285.

(٤) C. S. Lewis, *Miracles*, pp.17-36.

(٥) ريتشارد برتل Richard Purtill (١٩٣١ ـ ٢٠١٦م): أستاذُ الفلسفةِ السَّابق في جامعة "Western Washington". له اهتمامٌ خاصٌّ بفلسفة الدين.

(٦) Richard Purtill, *Reason to Believe* (Grand Rapids: Eerdmans, 1974) 44 -46.

(٧) ج. ب، مورلند J. P. Moreland (١٩٤٨ـ): فيلسوفٌ ولاهوتيٌّ أمريكيٌّ. من أعلامِ مَنْ يكتبون في محاورةِ الملاحدةِ في أمريكا. له اهتمامٌ خاصٌّ ببرهان الوَعْي على وجودِ اللهِ.

(٨) J. P. Moreland, *Scaling the Secular City* (Grand Rapids: Baker Book House, 1987), pp.77 -105.

(٩) Alvin Plantinga, *Warrant and Proper Function and Warranted Christian Belief* (New York: Oxford University Press, 2000).

(١٠) فكتور رِبّرت Victor Reppert (١٩٥٣ـ): فيلسوفٌ أمريكيٌّ. له عنايةٌ خاصّةٌ بالتُّراث الفلسفيّ للكاتب البريطانيّ «سي أس. لويس».

(١١) عنوان الأطروحة: "Physical Causes and Rational Belief: A Problem for Materialism".

ساحِ الطّبيعانيّةِ يقتضي الخروجَ من ساحِ العقلانيّةِ، ودخولُ ساحِ العقلانيّةِ يقتضي الخروجَ من ساحِ الطبيعانيّةِ.

من الممكن صياغةُ برهانِ العقلِ على الصُّورة التالية:

١ ـ إذا كان المذهب الطّبيعانيُّ صحيحًا؛ فيلزَمُ من ذلك أَلَّا تكونَ مَلَكَاتُنَا المعرفيّةُ قادرةً على معرفةِ الحقيقةِ.

٢ ـ لكنَّ مَلَكَاتِنَا المعرفيّةَ قادرةٌ على اكتشافِ حقائقَ في الكَوْنِ.

٣ ـ إذن المذهبُ الطَّبيعانيُّ فاسِدٌ[١].

يَسْبِقُ «الإيمانُ بالعَقْلِ» «الإيمانَ العَقْليَّ[٢] باللهِ» معرفيًا، ويَسْبِقُ «الإيمانُ باللهِ» «الإيمانَ بالعَقْلِ» أنطولوجيًّا.. فلا عَقْلَ بلا إيمان باللهِ.

(١) Victor Reppert, *C. S. Lewis's Dangerous Idea: In Defense of the Argument from Reason* (Downers Grove, Illinois: InterVarsity Press, 2003), p.85.

(٢) الحديث هنا عن الإيمان العقليِّ المدلَّلِ لا الإيمان الفِطْريِّ.

المبحث الأول

العقل تحت تهديد المادية

يُقَدِّمُ الملحدُ ـ عادةً ـ نفسَهُ على أنّه «مُفَكِّرٌ حُرٌّ» «free thinker» و«عقلانيٌّ» «rationalist» و«ذَكِيٌّ» «bright»؛ فهو مُقْتَنِعٌ أنَّ ماهيَّةَ إِلْحادِهِ لا تَنْفَكُّ عن عقلانيَّتِهِ، ولولا عقلانيَّتُهُ ـ كما يزعم ـ لما كان ملحِدًا. وهو يرى أَنَّ إلحاده أَثَرٌ عن فلسفةٍ سليمةٍ لا تعارِضُ مبادئَ العَقْلِ؛ بل هي ثَمَرَتُهَا، وأَمَّا مَنْ آمَنَ بإلٰهٍ، فهو خُرَافيٌّ، خَصِيمُ العَقْلِ، قد أَثْقَلَتِ الأَساطير ظَهْرَهُ.

ويؤمِنُ عامة المُؤَلِّهَة أنَّ العقلَ غيرُ الدّماغ، وأنَّ العقلَ مُتَسَلِّطٌ على الدّماغ، في حين يؤمن الطّبيعانيُّون ـ وهُمْ عامَّةُ الملاحِدَةِ ـ في المقابل أنَّهُ لا عَقْلَ، وإنّما غايةُ ما يملِكُهُ الإنسانُ الدِّماغ؛ إذ لا شيءَ في حَيِّزِ الطّبيعةِ غير الأشياء الماديّة والقوّة الطّبيعيّة المتسلّطة على حَرَكَتِها، وقد يُعَبِّرُ الطّبيعانيُّون عن ذلك بقولِهِمْ: إنَّ العَقْلَ هو نفسُه الدِّماغُ، اسمانِ لِمُسَمًّى واحِدٍ..

ويَتَعَاظَمُ سُلطانُ التّفسيرِ الماديِّ في إلغاء مفهوم العَقْلِ من الوُجودِ الطّبيعيّ بِتَبَنِّي الملاحدة كُلِّهِمْ تقريبًا للتّفسير الدّاروينيّ لِنَشْأَةِ الإنسانِ، حيث الإنسانُ أَثَرٌ مُتَأَخِّرٌ عن تَطَوُّرٍ عَشْوائيٍّ بسبب أخطاءِ النَّسْخ الجِيني في الخلايا.

لقد تطوَّرَ الإنسانُ عن الخليّة الأُوْلى تحت ضَغْطِ مِصْفاةِ الانتخابِ الطَّبيعيِّ التي تَدْفَعُ حَرَكَةَ الحياةِ بِسَوْطِ «البَقَاءِ للأَكْثَرِ تَأَقْلُمًا مع البيئةِ»، أو كَمَا يُسَمِّيْهِ أَهْلُها: "Survival of the fittest". فالحيوانُ الذي يملك سرعةً تَمْنَحُهُ فُرصةً للهروبِ من الكَوَاسِرِ وملاحقةِ غَنَائِمِهِ، تَهَبُهُ الطّبيعةُ حَقَّ البَقَاءِ، ومن شاقَّتْهُ الطَّبيعةُ حتّى أَرْهَقَتْهُ، كَنَسَهُ الانتخابُ الطّبيعيُّ عن رُكَحِ الوُجودِ..

هو صراعٌ يسيرُ بحافِزِ الفائدةِ العاجلةِ لتحقيقِ أسبابِ إغناءِ البَطْنِ

واستبقاءِ الأنفاسِ في بيئةٍ دَمَويّةٍ لا تَرْحَمُ الضّعيفَ والعَلِيلَ.. وليس في ذاك الصّراع ـ كما يَعْرِضُهُ ـ الماديُّون الدَّراونةُ ـ مكانٌ لإكرام الإنسانِ المتطوّر عن الأسماكِ والزَّوَاحِفِ بالعَقْلِ الذي يسعى إلى فَهْمِ العالَم كما هو فَيَنْعَكِسُ في الذِّهْنِ خاليًا من كَدَرِ الوَهْمِ.. ولذلك قال (كِنان مالك)[1]: «إذا كانت قُدراتنا المعرفيّةُ لا تعدو أن تكون سوى نزعاتٍ مُتطوّرةٍ؛ فلنْ تكون هناك طريقةٌ لمعرفة أيٍّ من هذه القدرات تُؤدِّي إلى معتقداتٍ حقيقيّةٍ وأيّها يُؤدّي إلى أخرى غيرِ صحيحةٍ»[2].

ومن عَجَبٍ أنّ (داروين) قد أَدْرَكَ تلك الحقيقة؛ فقال: «عندي شَكٌّ دائِمٌ في أن تكون لِقَنَاعاتِ عَقْلِ الإنسانِ ـ التي تَطَوَّرَتْ من حيواناتٍ أدنى ـ أيُّ قِيْمةٍ أو أن تَسْتَحِقَّ التَّصديقَ أصْلًا. **هل بإمكانِ أيٍّ منَّا أن يُصدِّقَ قناعاتِ عَقْلِ قِرْدٍ، إن كانت هناك أصلًا قناعاتٌ في مثل ذلك العَقْلِ**»[3].

ولعلَّ عَجَبَكَ يتعاظَمُ إذا عَلِمْتَ أنَّ (داروين) لم يجد هذه الحقيقةَ حُجّةً لِلشَّكِّ في كُلِّ حقيقةٍ، وإنّما حُجّة فقط للشَّكِّ في وجودِ اللهِ؛ فإنّ (داروين) قد ذَكَرَ في مرّةٍ أخرى شَكَّهُ في حُجيّة العَقْلِ بقوله: «.. لكنْ بعد ذلك يَنْشَأُ الشَّكُّ: هل من الممكن الوثوقُ بعقلِ الإنسان ـ الذي كما أعتقِدُ تمامًا قد تَطَوَّرَ عن عَقْلٍ أَدْنى كالذي يَمْتَلِكُهُ أدنى حيوانٍ ـ عندما يُقَدِّمُ مثل هذه الاستنتاجات الكبرى؟»[4]. وقد أَوْرَدَ كلامَهُ السَّالف تعقيبًا على حديثِه السَّابق الذي قال فيه: إنَّهُ كان يَجِدُ في نفسِه ـ كَكُلِّ إنسانٍ ـ شعورًا غامرًا يَدْفَعُهُ إلى رَفْضِ ردِّ هذا الكونِ العظيمِ ومَلَكاتِ الإنسان المدهِشةِ إلى الصُّدْفَةِ/العَشْوائيَّةِ العَمْياء[5]...

---

(١) كنان مالك Kenan Malik: كاتبٌ بريطانيٌّ من أَصْلٍ هِنْديٍّ، مُتخصّصٌ في فلسفةِ البيولوجيا وتاريخ العُلوم.

(٢) Kenan Malik, "In Defense of Human Agency," in *Consciousness, Genetics, and Society* (Stockholm: Ax:son Johnson Foundation, 2002) (Cited in: Nancy Pearcey, Finding Truth, p.196).

(٣) To William Graham, 3 July 1881.

نص رسالة (داروين) كاملًا:

<https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-13230.xml>.

(٤) Charles Darwin, *On the Origin of Species* (Ontario: Broadview Press, 2003) Appendix A, p.433.

(٥) المصدر السابق.

وذاك من الشُّكوكيّة الانتقائيّةِ في العقلِ الماديِّ؛ إذ ينتقي من الشُّكوكِ ما يُبْقِي شَكَّهُ قائمًا، ولو تَلَبَّسَ بالتَّنَاقُضِ.

إنّ قصّة الحياةِ كما نَسَجَهَا خيالُ المادّيّين وأَوْرَاقُهُمُ العِلْمِيَّةُ في أقسامِ البيولوجيا والأنثروبولوجيا، لا تَعْرِفُ لِلْعقلِ الذي يُدرِكُ حقيقةَ الوجود وُجودًا؛ فإنّ التطوُّرَ البيولوجيَّ الذي صَنَعَ لنا إنسانَ اليومِ يُحرّكُهُ الحافِزُ الماديُّ لا الفِكْريّ، ولا مكان في غابة الأحياء لِنَفْحَةِ العَقْلِ التي ليس في الأرض آليّةٌ لصناعتها في الذّهْنِ..

وإذا كان التّفسيرُ الطّبيعانيُّ لِظُهورِ الإنسانِ على سطحِ هذه الأرضِ يُلْغِي مَلَكَةَ العَقْلِ من الوجودِ؛ فلا يُجْتَنَى من المادّةِ المتعلّقةِ بأسبابِ البَقَاءِ نَفْحَةٌ غيرُ ماديّةٍ تسعى لِفَهْمِ الكَوْنِ ودقيقِ معادلاته وخَبَرِهِ؛ ولذلك لَزِمَ الشَّكُّ في العقلِ، وفي التّفسير الطَّبيعانيِّ نفسِه؛ إذ هو نتيجة تَفَكُّرِ العَقْلِ في عالم الطَّبيعةِ.. وهاهنا نَخْسَرُ التَّفسيرَ وتفسيرَ التَّفْسيرِ.. وتلك مِحْنةٌ إلحاديَّةٌ شَقِيَّةٌ ما ذَكَرَهَا فيلسوفٌ مُلْحِدٌ إلَّا وعاجَلَ الهروبَ منها لأنّها تُطْبِقُ على فَهْمِنَا بالأَسْدادِ فَتَمْنَعهُ من الاسترسالِ في الكلامِ بلا عَقْلٍ!

والماديَّةُ الصِّرْفةُ ـ وهي ملاذُ عامّةِ الملاحدة ـ تَحْكُمُ على التَّفكيرِ أنّه بلا معنى؛ لأنَّهُ خِلْوٌ من حقيقةِ النَّظَرِ البصير بالخارج، وإنّما هو حركةٌ ذاتيّةٌ للذَّرَّاتِ؛ لا تَتَعَدَّى إلى غيرها. وفي ذلك يقولُ البيولوجيُّ التَّطوُّرِيُّ **الملحِدُ** المعروف (ج. ب. أس. هالدين)[1]: «إذا كان عَمَلُ عَقْلِي يَتِمُّ تحديدُه بصورةٍ كُليّةٍ من حركاتِ الذَّرَّاتِ في دِماغٍ؛ **فلا حُجَّةَ لي عندها لافتراضِ أَنَّ معتقداتي صحيحةٌ**. قد تكونُ عمليَّاتُ دِماغي سليمةً كيميائيًا، ولكنَّ ذلك لا يجعلها سليمةً منطقيًّا؛ ولِذا ليس لديَّ أَيُّ سببٍ لافتراضِ أنَّ دماغي يَتَكَوَّنُ من ذَرَّاتٍ»[2].

---

(١) ج. ب. أس. هالدين J. B. S. Haldane (١٨٩٢ ـ ١٩٦٤م): عالم بيولوجيا بريطانيٌّ. من أَهَمِّ أَنْصارِ التَّطوُّرِ الدَّارونيِّ ومُنَظِّرِيهِ المتأخّرين. كانت له عنايةٌ بِنَشْرِ الثَّقَافة العلميّة الشعبيّة.

(٢) Cited in: Karl Popper, *The Open Universe: An Argument for Indeterminism* (Psychology Press, 1988), p.82.

إنَّ كُلَّ معرفةٍ عقليّةٍ تَنْطَلِقُ ـ ضرورةً ـ من مُقدِّماتٍ لا بُدَّ من افتراضها بَدْءًا، مِثْلَ:

١ ـ الإنسانُ بإمكانه أنْ يَفْهَمَ تقريراتِ الكلامِ.

٢ ـ الإنسانُ يَمْلِكُ القُدْرَةَ على اختيارِ تصديقِ التَّقريراتِ أو تكذيبِها أو تعليقِ الحُكْمِ حولها.

٣ ـ توجدُ قوانينُ منطقيَّةٌ.

٤ ـ البَشَرُ قادرون على فَهْمِ القوانينِ المنطقيَّةِ.

٥ ـ قَبُولُ تقريرٍ ما من الممكن أن يكون سَبَبًا في إنتاجِ معتقداتٍ أُخرى.

٦ ـ لِفَهْمِ القوانينِ المنطقيّةِ دَوْرٌ سَبَبِيٌّ في قَبُولِ نتيجةِ الحجَّةِ على أنَّها صحيحةٌ[١].

كل المقدّماتِ البَدَهِيَّةِ السَّابقة لإقامةِ أيّ بُرهانٍ عَقليٍّ، تنطلِقُ من معقوليَّةِ الكَوْنِ، ومعقوليَّةِ الكَلامِ، ووُجودِ العَقْلِ. وكُلُّ محاولةٍ لإنكارِ وُجودِ اللهِ، أو لإعلان الشَّكِّ في عقلانيّة العَقْلِ، تَقُومُ ضرورةً على تصديقِ المعقوليَّاتِ السَّابقة.. ولكنَّ وجودَ العاقِلِ لِتَعَقُّلِ الكَوْنِ رَهْينُ وجودِ العَقْلِ لا الدِّماغِ..

وقد انْتَبَهَ لِقُوَّةِ برهانِ العَقْلِ عَدَدٌ من الفلاسفةِ واللَّاهوتيّين في الغَرْبِ، ومنهم (كورنليوس فان تِل)[٢] في كُتُبِهِ ومناظراتِه، حتّى إنّه جَعَلَهُ عُمْدَةَ مَذْهَبِهِ في مواجهة الإلحاد، مكْتَفِيًا بالقولِ لِلْمُلْحِدِ: تَكَلَّمْ! دافِعْ عن مَذْهَبِكَ! فإذا تَكَلَّمَ الملحِدُ، اكتفى (فان تل) بأن يقول له: إذا افْتَرَضْتَ أنَّ لكَ معرفةً بالعالَم، ونحن نُوافِقُ أنَّ من النَّاسِ من يملكون معرفةً بالعالَم، انْتَقَضَ إِلْحادُكَ ضرورةً؛ إذ إنَّ المذْهَبَ المادِّيَّ يقوم على امتناع العِلم بِحقيقةِ العالَمِ لأنّه يَخْتَزِلُ كُلَّ شيءٍ في المادَّةِ، وفي عالَمِ المادَّةِ الصِّرْفَةِ لا يوجد عَقْلٌ[٣].

---

(١) Victor Reppert, *C. S. Lewis's Dangerous Idea: In Defense of the Argument from Reason*, p.73.

(٢) كورنليوس فان تِل Cornelius Van Til (١٨٩٥ ـ ١٩٨٧م) فيلسوفٌ ولاهوتيٌّ هولنديٌّ. رأسَ مدرسةَ «الدّفاعيّات الافتراضيّة» «Presuppositional apologetics» التي تنطلق من الإيمان باللهِ خاصّةً، والإيمان النّصرانيّ عامّةً، مقدمةً تسليميّة أُوْلى في مناظرةِ المخالِفِينَ. ولهذا المذهب أنصارٌ كثرٌ في التيّارِ الكالفينيّ.

(٣) James Anderson, 'If Knowledge Then God: The Epistemological Theistic Arguments of Plantinga And Van Til', *CTJ* 40 (2005): 49-75.

يقول (فان تل) في معرض بيانه أنّ الإيمان بالعقل ينقض الإلحاد وينصر الإيمان: «لا بدّ أن نشير إلى أنّ تفكير [غير المُؤَلِّهَة] يقود نفسَهُ إلى التّناقض الذاتيِّ، لا فقط من زاويةِ نظرٍ تؤمِنُ باللهِ، وإنّما أيضًا من زاويةِ نَظَرٍ لاإلٰهيّةٍ. . . إنّ هذا الأمرَ هو ما علينا أن نَعْنِيَهُ عندما نقولُ: إنّنا نُفَكِّرُ من المحال إلى نَقِيْضِهِ. ليس النَّقِيضُ مُحالًا إلَّا إذا كان مُتناقِضًا ذاتيًّا عندما يعمل على أساسِ افتراضاته الخاصّةِ»[1].

إنّ الملحدَ الذي يُقدّمُ منظومَتَهُ الكونيّةَ الماديّةَ التي تنتهي إلى نَفْيِ العَقْلِ، فيعرف ذلك ويُقِرُّهُ، ثم يجتهِدُ للانتصارِ لإلحاده بالحُجَجِ العقليَّةِ، أَشْبَهُ بِرَجُل يَتَنَفَّسُ الهواءَ في كُلِّ حِينٍ، ثم هو يَخْطُبُ الخُطَبَ العَصْماءَ في إنكارِ وُجودِ الهواء، أو يُؤَلِّفُ الكتبَ الضِّخامَ انتصارًا لنظريّةٍ علميّةٍ تَؤُولُ إلى إنكار وُجودِ الهواءِ وامتناعِ التَّنَفُّسِ. . .

ومن الممكن صياغةُ الموقف الإيمانيّ من المذهب التّفسيريّ الإلحاديّ في النّقاط التالية:

١ ـ المعرفةُ البشريّةُ والتّواصلُ بين البشر مُمْكِنَيْنِ فقط إذا (أ) كان العالَمُ يكشِفُ عن تركيبٍ مُتناسقٍ ومترابِطٍ علائقيًّا، و(ب) وكانت العقولُ البشريّةُ تملِكُ قُدرةً مشتركةً على فَهْمِ ذاك التَّرْكيبِ على حقيقتِه.

٢ ـ إذا لم يكن مذهب الأُلوهيِّين صحيحًا؛ فلا توجَدُ عندها أَرْضيّةٌ للإيمان بـ(أ) و(ب).

٣ ـ إذن، إذا لم يكن المذهبُ الأُلوهيُّ صحيحًا، فلا توجد عندها أرضيّةٌ يُبْنَى عليها الإيمان بإمكان المعرفة البشريّة والتّواصل البشريّ.

٤ ـ توجد أرضياتٌ لإمكانِ المعرفةِ البشريّةِ وتَوَاصُلِ البَشَرِ فيما بينهم.

٥ ـ إذن المذهب الأُلوهيّ حقٌّ[2].

(١) Cornelius Van Til, *A Survey of Christian Epistemology* (NJ: Presbyterian and Reformed, 1969),p.204.

(٢) المصدر السابق.

إنَّ العَقْلَ ثَمَرَةُ أَرْضٍ يسقيها الإيمانُ بالكَوْنِ المفهوم، وبالإلٰهِ الذي رَزَقَ الإنسانَ مَلَكَةَ الفَهْمِ، وأَمَّا أرضُ المادّيَّة فَسَبَخَةٌ لا تُنْبِتُ فَهْمًا.

«وجود الله من الممكن استنباطه تفسيرًا لإمكان وجود أيّ تجربة مفهومة على الإطلاق»[1]. (ستوارت س. هاكت)[2].

وتَدْعَمُ «مُشكلة العَقْلِ» «برهانَ العَقْلِ» من نواحٍ أخرى غيرِ اقتضاءِ قَبُولِ المادّيّةِ انْتِفَاءَ المعرفةِ؛ ومنها امتناعُ تفسيرِ ظُهورِ الوَعْيِ عن طريق أَخْطاءِ النَّسْخِ الدَّاروينيّة، وانْبِثاق الوَعْيِ اللَّاماديِّ من المادَّةِ كما سيأتي..

---

(١) "The existence of God is concluded as an explanation for the possibility of any intelligible experience at all" (Stuart C. Hackett, *The resurrection of Theism: Prolegomena to Christian apology*, Grand Rapids, Mich.: Baker Book House, 1984, p.192).

(٢) ستوارت س. هاكت Stuart C. Hackett (١٩٥٢ ـ ٢٠١٢م): فيلسوف أمريكي بارز. تتلمذ على يديه بعض أهم الفلاسفة الأمريكان المهتمين بالرد على الإلحاد اليوم كـ(ويليام لين كريج) و(بول كوبان) و(تشاد مايستر)...

المبحث الثاني

ظاهرةُ الوَعْيِ

تطرحُ قضيّةُ الوَعْيِ، أو كما تُسمّى في الأدبيَّاتِ الغربيّة أحيانًا «body-mind problem» المتمثّلة في علاقةِ الجَسَدِ بالدِّماغ أو العلاقة بين عالَمِ المادَّةِ وعالَمِ الفِكْرِ مُشْكِلَتَيْنِ للملاحدةِ، أوّلهما: قُصورُ الآليّةِ الدّاروينيّة عن تفسير ظاهرةِ الوَعْيِ، وثانيهما: مُعْضلة انبثاق ما هو غيرُ ماديٍّ من المادّةِ.

المطلب الأول

الانتخاب الطبيعي والوعي

لمّا كان الخيارُ الدّاروينيُّ لتفسير كلِّ ظواهر الأحياء مُلازِمًا اليومَ للمعتَقَد الإلحاديّ، كان الملحدُ مُطالَبًا بتقديمِ صياغةٍ ماديّةٍ تطوّريةٍ لظهورِ الوَعْيِ، تراعي الشُّروط التالية:

- الانتقال من البسيطِ إلى المعقَّدِ في مِصْفاةِ الانتخابِ الطبيعيِّ.
- تحقيق أهدافٍ تفيد البقاءَ على طول الخَطِّ التّطوّريِّ للمخّ (الدّماغ في أَصْلِهِ الأَوَّل البِدائيِّ، وفي المراحل الوسيطة، وفي مرحلته النهائيّةِ الآنَ).
- تحقيق المخّ هدفًا نهائيًّا في ختامِ رحلته التطوّريّةِ يكون مُتَّصلًا حَصْرًا بتحقيق البقاءِ.

النَّظَرُ في أدبيَّاتِ الدَّرَاونةِ كاشفٌ عَجْزَ التّفسيرِ الدّاروينيِّ عن بيان المراحلِ الوسيطةِ للدّماغ بما يُحقِّقُ أسبابَ البقاء، كما عَجَزَ الدَّراونةُ عن تفسيرِ علاقةِ تطوُّرِ الجهازِ العصبيِّ بظهور العقلِ الواعي.

ويشرحُ (ريتشارد جريجوري) ـ أستاذُ علمِ النَّفْسِ العصبيّ ومديرُ مختبرِ الدّماغ والإدراكِ في جامعة (بريستول) في إنجلترا ـ المُعْضِلَة هنا بقوله: إذا لم

يكن لِلوَعْيِ أيُّ أَثَرٍ ـ لأنّه ليس لِلْوعيِ إرادةٌ ـ فإنّه يبدو بلا قِيمةٍ؛ ولذلك يَجِبُ أَلّا يَظْهَرَ تحت سُلطانِ الضّغط التطوّريِّ. وفي المقابلِ، إذا كان الوعيُ مفيدًا، فلا بدَّ أن يكون شيئًا ذا إرادةٍ، ولكنّ التفسيرَ الماديَّ لِنشاطِ الدّماغ لا يجعل العَقْلَ شيئًا مُرِيدًا[1]. فلا عَقْلَ بلا إرادةٍ، ولا إرادةَ ضمن رؤيةٍ ماديّةٍ اختزاليّةٍ تَنْزِلُ بالإنسانِ إلى جِنْسِ البَهِيمةِ التي تصطرعُ مع أسبابِ البقاءِ فلا تَذَرُ للانتخابِ الطّبيعيِّ أن يَنْتَخِبَ وَعْيًا مُرِيدًا.

ويتأكّدُ قُصورُ المجال التّفسيريِّ للانتخابِ الطّبيعيّ مع ما تَكْشِفُهُ الأبحاثُ الحديثة؛ فقد اكتُشِفَ ـ مثلًا ـ أنّ الدّماغ إذا أَصَابَ العَطَبُ بعضَ أَجْزائِهِ، يقومُ تلقائيًا بإعادةِ تشغيلٍ لِلْجِهَةِ المعطوبةِ لِتَقُومَ بوظائفَ أُخرى مختلفةٍ؛ فقد أجرى الباحثون في جامعة (روشستر) منذ أربعِ سنواتٍ أبحاثًا على سِتَّةِ أشخاصٍ وُلِدُوا صُمًّا، فاكتشفوا أنّ المنطقة الخاصّةَ بالسَّمْعِ نَشِطَةٌ أثناء محاولةِ الصُّمِّ فَهْمَ المتكلِّمين أَمَامَهُمْ من خلالِ حَرَكاتِ شِفَاهِهِمْ. كما أُجريت تجاربُ في جامعة (فندربلت) على أشخاصٍ وُلِدُوا عُمْيًا وآخرين أُصِيبُوا لاحقًا بالعَمَى؛ وتَبَيَّنَ أنَّ منطقةَ القشرةِ البصريّةِ عندهم تعملُ أثناء قراءةِ حروف (بريل). ولذلك صَرَّحَتْ إحدى الباحثاتِ بقولها عن بحثِ جامعة (فندربلت): «هذا يُظْهِرُ أَنَّ الدِّماغَ يقومُ بصورةٍ أساسيّةٍ بتهيئةِ نَفْسِهِ من جديدٍ»[2].

وقد بَلَغَ إسرافُ الدَّراونةِ في تَعَسُّفاتهم التَّفسيريّةِ لبيان أَصْلِ ظُهورِ الوَعْيِ في الإنسانِ ـ في صُورتِه العُلْيَا ـ وفي الحيوانات ـ في صُورتِه الدُّنيَا ـ أَنْ نُشِرَتْ ورقةٌ علميَّةٌ هذا الشَّهر في المجلّة العلميّة «Cell» تَزْعُمُ أَنَّ الوَعْيَ ظَهَرَ نتيجةَ اقتحامِ فيروسٍ لِجِيْنُومِ الكائناتِ رُباعيَّةِ الأطرافِ[3]! ولا عَجَبَ؛ فإنّ

---

(١) R.L. Gregory, 'Consciousness,' in *The Encyclopaedia of Ignorance*, Ronald Duncan; Miranda Weston-Smith, eds (Oxford; New York: Pergamon Press, 1977), pp. 276 -277.

(٢) Super Powers for the Blind and Deaf. The brain rewires itself to boost the remaining senses. <https://www.scientificamerican.com/article/superpowers-for-the-blind-and-deaf/>.

(٣) Elissa D. Pastuzyn, *et. al.*, The Neuronal Gene Arc Encodes a Repurposed Retrotransposon Gag Protein that Mediates Intercellular RNA Transfer, *Cell*, Volume 172, Issues 1 - , 2, p275 - 288.e18, 11 January 2018 <http://www.cell.com/cell/fulltext/S0092-8674(17)31504-0>.

احتكارَ العشوائيّةِ تفسير عالَم الأحياءِ أَصْلٌ لأفكارٍ تَسْتَنْكِرُهَا البَدَاهَةُ؛ إذ تَجْعَلُ مِنْحَةَ الوَعْيِ أَثَرًا لِمُشاغَبَةٍ فيروسيَّةٍ عَشْوائيّةٍ!

المطلب الثاني

انْبِثاقُ الوَعْيِ من المادَّةِ الصَّمَّاءِ

التّفسير الماديُّ للوعي يخبرنا أنّه عندما بلغَ الدّماغُ البشريُّ درجةً عاليةً من التطوّرِ العُضْويِّ، ظهر الوعيُ فجأةً كَأَثَرٍ آلِيٍّ لذلك. والوعيُ بذلك أَثَرٌ لازمٌ لِلذَّرَّاتِ الدُّنيا لِلدّماغ، والتي بتراكمها وَظِيفيًّا ظَهَرَ الوعيُ. ويُسمّى هذا التَّفسيرُ لظاهرةِ الوعيِ بالتفسيرِ الفيزيقانيّ (physicalism) حيث الجانب الفيزيائيُّ يَحْتَكِرُ السُّلطةَ التّفسيريّةَ.

يقولُ خُصومُ المادِّيِّين من أنصارِ الظَّاهرة الثَّنَويَّةِ: إنّ الأمور على ظواهِرِها، وظواهِرُها أنّ ظاهرةَ الوعيِ تختلف بصورةٍ ضروريّةٍ في جِنْسِها عن الدّماغِ الماديِّ. وعلى مُنْكِرِ الظّاهرة الثنويّةِ عبءُ إثباتِ خلاف ذلك، فهي تخالِفُ ما يبدو لنا بدهيًّا من أنّ أفكارَنا وقراراتِنا ناتجةٌ عن التّجربةِ لا عن تفاعلاتٍ كيميائيّةٍ عمياءَ، وأنّ استخدامَ العقلِ للدّماغِ لا يعني أنّهُ إفرازٌ حَصْريٌّ له. وما الدّماغ غيرُ كُتَلٍ من الكربون الهلاميّ والهيدروجين والنيتروجين والأوكسجين، مثله مثلُ أيِّ قطعةٍ أُخرى من اللَّحْمِ؛ ولذلك فهو من غيرِ جِنْسِ الوَعْيِ.

وقد اعترفَ بتحدي التَّمايزِ الأَصيلِ بين الوَعْيِ والدِّماغ الفيلسوفُ البريطاني **الملحِدُ** (نجل وربرتن)[١]، ولذلك قال: «حافِزٌ مهمٌّ للإيمانِ بِصِحَّةِ ثُنائيّةِ [العَقْلِ والدِّماغِ] الصُّعوبةُ التي يُواجِهُها جُلُّنا في رُؤيةِ كيف أنَّ شيئًا ماديًّا بصورةٍ صِرْفةٍ، مثل الدّماغِ، بإمكانه أنْ يؤدّيَ إلى أنماطٍ معقّدةٍ من الشُّعور والفِكْرِ الذي نُسمّيهِ وَعْيًا. كيف يمكن لشيءٍ ماديٍّ بَحْتٍ أن يَشْعُرَ بالكآبةِ، أو

---

(١) نجل وربرتن Nigel Warburton (١٩٦٢ـ): فيلسوف مهتم بتبسيط المعارف الفلسفية للقارئ. له عناية خاصة بالدراسات الجمالية والأخلاقية.

يُقدّر قِيْمةَ لَوْحةٍ؟ مثلُ هذه الأسئلة تُعْطِي النَّظْرةَ الثَّنَويّةَ معقوليّةً أوّليّةً»[١].

ماذا قدَّمَ المادّيُّون من برهانٍ لِردِّ عَمَلِ العَقْلِ إلى نشاطِ الدّماغ قَصْرًا؟

الأدبيَّاتُ الماديّةُ كثيرةٌ ومتنوّعةٌ ومتضاربةٌ في باب التّفسير الفيزيقانيِّ لظاهرةِ الوَعْي، وكُلُّها مَشُوبةٌ بالقُصورِ والتَّكَلُّفِ، حتّى إنَّ الفيلسوفَ **الملحدَ** ـ المهتمَّ خاصّةً بفلسفةِ العَقْلِ ـ (ويليام ليكن)[٢] اعترفَ أنَّ «الاعتراضاتِ النَّموذجيّةَ ضِدَّ المذهبِ الثَّنَويِّ غيرُ مُقْنِعةٍ بصورةٍ كبيرةٍ»[٣].

الحَلُّ الماديُّ يواجه مَأْزقًا شديدًا لأنّه لا توجد مُقدّماتٌ واضحةٌ للبحثِ عن حَلٍّ نهائيٍّ، وهو ما دَفَعَ عالم النَّفْسِ والإدراكِ الملحد (ستفن بنكر)[٤] أن يعترفَ أنّه «لا أَحَدَ يعلمُ كيف يكون الحلُّ أو حتّى إنّ كان الأمرُ مُشكلةً علميّةً حقيقيّةً أساسًا.. لا يوجد أَحَدٌ يعلمُ كيف نَتَصَرَّفُ مع هذه المشكلةِ العويصةِ»[٥].

وعلَّقَ زعيمُ الملاحدة (ريتشارد داوكنز) على ذلك بقوله: «حَدَّدَ ستفن [بنكر] بأناقةٍ مُشكلةَ الوَعْيِ الذّاتيِّ، وسأَلَ عن مَصْدَرِه وتفسيرِه. وقد كان صادقًا بصورةٍ كافيةٍ للقولِ: «إنّها (مُشكلةٌ) تَهْزِمُنِي شرَّ هزيمةٍ». وقد كان من الأمانةِ أن قال ذلك، وأنا أُؤَيِّدُهُ. **نحن لا نعلمُ. نحن لا نَفْهَمُ ذلك**»[٦].

ويشارِكُهُ الشَّهادةَ فيلسوفُ الوَعْيِ (جيري فودور)[٧] بقولِه: «**لا يوجدُ امرئٌ اليومَ** يملِكُ **أَدْنى فِكْرةٍ** لِتَفْسيرِ كيفَ من الممكنِ لأيِّ شيءٍ ماديٍّ أن

---

(١) Nigel Warburton, *Philosophy: The Basics* (London: Routledge, 2004), pp. 129 -30.

(٢) ويليام ليكن William Lycan (١٩٤٥ـ): فيلسوفٌ أمريكيٌّ يُدرِّسُ في جامعة (كونتكت). اختير عضوًا في الأكاديمية الأُستراليّة للعلوم الإنسانيّة.

(٣) William Lycan, 'Giving Dualism Its Due.
<www.unc.edu/ ˜ ujanel/ Du.htm>.

(٤) ستفن بنكر Steven Pinker (١٩٥٤ـ) أمريكيٌّ. أُستاذٌ في جامعة «هارفارد». من أنصارِ علم النَّفْسِ التّطوّريّ. له عنايةٌ خاصّةٌ بتبسيط العُلوم.

(٥) Steven Pinker, 'The Mystery of Consciousness', *Time*, 19 January 2007.
<www.time.com/ time/ magazine/ article/ 0,9171,1580394-1,00. html>.

(٦) Cited in: Varghese, *Wonder of the World* (Fountain Hills, Ariz.: Tyr Publ., 2004), p. 56.

(٧) جيري فودور Jerry Fodor (١٩٣٥ ـ ٢٠١٧م): فيلسوفٌ أمريكيٌّ، له عنايةٌ خاصّةٌ بفلسفة العقلِ، وقد أثَّرَتْ دراساتُه بصورةٍ بالغةٍ في هذا الباب.

يكون واعيًا»[١]. وهي شَهَادةُ الفيلسوفِ **الماديِّ** (ناد بلوك) ـ المتخصِّصِ في فلسفةِ العَقْلِ نفسها ـ[٢]: «ليس لنا في مسألةِ الوعيِ شيءٌ البَتَّةَ يَسْتَحِقُّ أن يُسَمَّى برنامجًا بحثيًّا، كما لا توجد أيُّ مقترحاتٍ موضوعيّةٍ حول كيفيةِ البدءِ في واحدٍ منها... **الباحثون في حَيْرةٍ**»[٣].

كيف يمكن للدّماغ الماديِّ أن يمارسَ نشاطًا غير ماديٍّ لِفَهْمِ العالَم، ويُؤَوِّلَ هذا النَّشاط إلى إدراكِ حقيقةِ العالَم؟ هنا يقفُ التّفسير الماديُّ بلا قُدرةٍ على التّفسير سوى القولِ: إنّ العِلمَ قد كَشَفَ أنّ هناك مراكز تخصّصيّة في الدّماغ للذّاكرةِ، واتّخاذِ القَرارِ، والسَّمع، والكلام، وأنّه إذا تَعَطَّلَ مركزٌ ما تَعَطَّلَتْ معه وظيفَتُهُ.. وليس هذا الرَّبْطُ حُجّة لِتَفْسِيْرِ ظاهرةِ العَقْلِ لأنَّ معرفِتَنا أنَّ آلَةَ البيانو تصدر أصواتًا مختلفةً باختلافِ أَزْرَارِها، وإذا تَعَطَّلَ منها زِرٌّ امْتَنَعَ أنْ يَصْدُرَ هذا الصَّوْتُ من الآلةِ، لا يدعونا للقولِ: إنّ مصدرَ صناعةِ اللَّحْنِ آلَةُ البيانو لا صاحبها الذي يستعملها للعَزْفِ. إنّ ظاهرَ الأمرِ أنَّ العقلَ يستعمِلُ الدّماغ لا أَنَّهُ ثَمَرَتهُ، كما هو الأمر مع البيانو وعازفه[٤].

(١) Jerry Fodor, 'The Big Idea: Can There Be a Science of Mind?', *Times Literary Supplement*, 3 July 1992, p. 5.

(٢) ناد بلوك Ned Block (١٩٤٢ـ): أستاذ الفلسفة وعلم النّفس جامعة نيويورك.

(٣) Ned Block, 'Consciousness', in *A Companion to Philosophy of Mind, ed. Samuel Guttenplan* (Oxford: Blackwell, 1994), p. 211.

(٤) ماذا لو قال مؤمن بالله: إنّ الوعي ظاهرة ماديّة؛ فإنّ الله لا يُعجزه أن يجعل الوعي أثرًا للمادة! وجوابه: أنّ ذلك غير ممتنع عقلًا لكنّه ينبني على أنّ المادة تحمل خصائص أعلى مما تفترضه جميع المدارس الماديّة اليوم؛ فالصفة الزائدة في المادة لإنتاج الوعي غائبة عن المادة في توصيف الماديين الملاحدة. ولذلك فنحن نقول: (١) ظواهر الأمر على أنّ الوعي ظاهرة غير ماديّة للأسباب المذكورة في المتن، حتّى يثبت خلاف ذلك. (٢) ظهور خلاف ذلك لا يمكن أن يكون حجّة للإلحاد، وإنما سيقترن يقينًا بأدلّتنا على وجود الله؛ لأنّ المادة المنتجة للوعي لا بدّ أن تكون ـ عندها ـ مخلوقة على صورة حكيمة تعجز العشوائية (المترسة بالانتخاب الطبيعي) عن تفسيرها.

المبحث الثالث

الدِّماغُ البشريُّ ومُشْكِلَةُ فائِضِ الحاجةِ إلى البقاء

التطوّرُ الدّارويني يَتَحَرَّكُ على خَطٍّ جَبْرِيٍّ ضمن الحَدِّ الأَدْنى المطلوب لتحقيقِ البقاءِ. فالطَّفرات تزوّد عمليّةَ التّطوّر بالمادة الخام لينتقي منها الانتخابُ الطّبيعيُّ ما يُحقّق البَقَاءَ. وليس في المفهومِ الدّارويني شِيءٌ اسْمُهُ استشرافُ مستقبلٍ أو بذلُ زيادةٍ على الحَاجَةِ.

وقد انْتَبَهَ (ألفرد راسل والس)[1] ـ أبو التطوّر الذي عاصَرَ (داروين)، وكان عِلْمُ (داروين) أنّه انتهى إلى ما انتهى إليه هو أيضًا في أمر التطوّرِ البيولوجيّ والانتخابِ الطّبيعيِّ سببًا إلى مسارعته بنشر كتابِه «في أصل الأنواع» ـ إلى أنّ العقلَ البشريَّ يفوق كفايةَ الإنسانِ لتحقيق البقاء، وهو ما يسّمى بـ«مُفارَقَةِ والس» «Wallace paradox»؛ فعقلُ الإنسان الذي يعيش في غابات الأمازون قادرٌ على مقاومة أسبابِ الانقراضِ بالقدرة على تحقيق الكفاية من الأكل والرّواء والـمَلْبَسِ والمأوى، فَلِمَ امْتَلَكَ عقلُ (الشّافعي) و(أينشتاين) القدرةَ على التفكيرِ العميقِ في قضايا مُرَكَّبَةٍ عَسِيْرَةِ الفَهْم؟! كيف يملك الإنسانُ ـ المترقّي بضرورةِ الحاجة إلى البقاء ـ قدراتٍ حسَّاسة وعالية للتّعامل مع أصولِ الفِقْهِ والفلسفةِ والشِّعْرِ والرّياضيات؟ تلك هي المعضلة!

وقد أَغْضَبَ (والس) (داروين) بِنَشْرِهِ ورقةً علميّةً يقول فيها: إنّ الانتخابَ الطّبيعيَّ عاجِزٌ عن تفسير امتلاكِ البشرِ المتوحّشين مَلَكَاتٍ ذهنيّةٍ تَفُوقُ حاجتهم

---

(١) ألفرد راسل والس Alfred Russel Wallace: أنثروبولوجيٌّ وعالم بيولوجيا بريطانيّ. كانت له عناية خاصّة بدراسة التّوزيع الجغرافيّ للحيوانات.

في بيئتهم، ليسوا بحاجة إليها[1]. وأضاف في الورقة نفسها: «علينا إذن أن نقبلَ إمكانيّة أنّه أثناء تطوّر الجنس البشريّ قادَ ذكاءٌ أَعْظَمُ (Higher Intelligence) قوانينَ [التغيير، والتكاثر، والبقاء] نفسَها لأَهْدافٍ نبيلةٍ»[2].

ويبدو أنّ (داروين) قد عَلِمَ بأمر المقال قبل نَشْرِهِ؛ ولذلك أرسل رسالةً إلى (والس) قال له فيها: «أرجو أَلّا تكون قد قَتَلْتَ بصورةٍ كاملةٍ ابْنَكَ وابْنِي»[3]. يقصد بذلك نظريّةَ التطورِ البيولوجيِّ بأَثَرِ الانتخابِ الطّبيعيِّ.

وقد انتصَرَ لرأي (والس) نفسه عالِمُ الأَعْصابِ (جون كرو إكلس)[4] ـ الحائزُ على جائزة **نوبل** لأبحاثه في التَّشابك العَصَبيّ في كتبِه التي تدور أغلبها حول تفسير الدّماغ وظاهرة العقل ـ، فقد كان يرى العقلَ هِبةً ربّانيّةً يتميّزُ بها الإنسانُ عن بقيّة الثَّدييَّاتِ.

إنّ التّطوُّرَ الماديَّ العشوائيَّ الأَعْمى لا يملك رؤيةً ولا إرادةً لإنتاج رصيدٍ ماديٍّ فائضٍ عن الحاجة الآنيّةِ للكائنِ الحيّ؛ فهو أسيرُ مطلبِ اللَّحظةِ، خاصّة إذا تعلَّقَ الأَمْرُ بأَعْقَدِ جهازٍ في الكون، وهو الدّماغ البشريّ. ولذلك اضطرَّ (والس) إلى إخراج العقلِ البشريِّ من آثار الانتخابِ الطّبيعيّ، ونِسْبَتِهِ إلى سُلطان القدرة الإلٰهيّةِ.

«يتوقّع المرءُ أن يكون الانتخابُ التّطوّريُّ قادرًا أن يؤدّيَ إلى ظهورِ عُقولِ جِنْسٍ الأَناسيّ التي تتعاملُ مع التّجربة اليوميةِ، ولكنْ أن تكونَ هذه العُقولُ قادرةً أيضًا على فَهْمِ العالَم تحت الذَّرِّيِّ لنظريّة الكَمِّ واللَّوازم الكونيّة للنِّسْبِيَّةِ العامَّةِ؛ فذاكَ أمرٌ يتجاوَزُ بكثيرٍ أيَّ شيءٍ يمكن أن يكون ذا صِلةٍ بشروط قدرة البقاء على قيد الحياةِ»[5]. الفيلسوف والفيزيائيّ (جون بولكنجورن).

---

(١) A. Wallace, Essay S146: 1869, titled 'Sir Charles Lyell on Geological Climates and the Origin of Species. <www.wku.edu/˜smithch/wallace/S146.htm>.

(٢) المصدر السابق.

(٣) Letter from Darwin to Wallace, March 1869.

(٤) جون كرو إكلس John Carew Eccles (١٩٠٣ ـ ١٩٩٧م): عالم أعصابٍ وفيلسوفٌ أستراليٌّ، حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٦٣م.

(٥) John Polkinghorne, *Science and theology* (London: SPCK; Minneapolis: Fortress Press, 1998.), p.72

والعَجَبُ أنّ (سام هاريس) قد انتهى إلى نفس ما انتهى إليه (والس) ـ وإن دون قَصْدٍ ـ؛ إذ اعترفَ أنّه لا يمكن تفسيرُ ظُهورِ الدّماغ والقدرةِ على القيامِ بالعمليّاتِ الذهنيّةِ المعقّدةِ التي تتجاوز حاجاتِ البقاء، من خلالِ نموذجٍ ماديٍّ تطوّريٍّ. وأَعْقَبَ ذلك بقولِه: إنّ قدرةَ الإنسانِ على القيامِ بهذه الكشوفِ العلميّة الكبيرةِ ومعرفة الكون تتجاوز بصورةٍ قصوى الإمكانات المحدودة المفتَرَضَة للتطوّرِ الماديِّ البَحْتِ، لِيَصِفَ ذلك بقوله: إنّ هذا الأمر «**نوعٌ من المُعْجِزاتِ** «a kind of miracle»»[1]. لقد عُدْنا إلى الحديث عن «**المُعْجِزةِ**» لتفسير هذا الوجود على لسانِ مُلْحِدٍ عَنِيْدٍ.. وهو نفس تفسيرنا نحن: هذا الوجودُ لا يُفَسِّرُ نفسَه بنفسِه، وإنما هو يَتَطَلَّبُ تفسيرًا من خارج السُّنَنِ الكونيّة الرَّتيبةِ لِيُفَسِّرَ وُجودَهُ.

إنَّ الدِّماغَ معجزةٌ كَيْفًا وكَمًّا، ومن ذلك قول (كارل ساجان) ـ الفيزيائيِّ الماديّ العنيدِ ـ في كتابه (الكون): إنَّ حَجْمَ المعلومات المحفوظة في الدّماغ ـ إذا عُبِّر عنها بـ«البايتات» «bites» ـ تكفي لملءِ عشرين مليون مجلّدٍ[2]، وهو ما يعادل مجموع الكتب في أكبر مكتبات العالَمِ.. إنّه «مكان كبيرٌ جدًّا في مساحةٍ صغيرةٍ جدًّا»[3].

وقد حاول الدَّراونةُ القفزَ فوق هذه المشكلة بحديثهم عَمَّا أَسْمَوْهُ «الذَّكَاءَ العامّ» «General Intelligence»، بزعمهم أنّ هذه القدرات قد كَمَنَتْ في الدّماغ حتى استُخْدِمَتْ لاحقًا في الآدابِ والعُلُومِ المتطوّرة. وهو جوابٌ لا يُجِيْبُ عن شيءٍ؛ لأنّه لا يكشِفُ آليةَ ظهورِ الذّكاءَ دون حاجةٍ آنيّةٍ ضروريّةٍ؛ فما هو داعي هذا التطوّر إن لم تكن الحاجة الآنيّةُ قائمةً؟! إنّ الجواب الدّاروينيّ لا يعدو أن يكون اعترافًا بالمعضلة ثم إلباسها ثوبًا داروينيًّا دون تفسيرٍ..

---

(١) في مناظرته مع (جوردون بيترسون) (Sam Harris VS Jordan Peterson “What Is True” 2017.)، دقيقة ٣٩. الرابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=B9eKURpdFM8>.

(٢) Carl Sagan, *Cosmos* (Ballantine, 2013), p.293.

(٣) المصدر السابق

ثم إنّ دراساتِ علوم الأعصابِ، والدّماغ خصوصًا، أَثْبَتَتْ أَنَّ مراكزَ التّفكير في الدّماغ تقومُ بوظائفَ مخصوصةٍ ومتمايزةٍ بما يجعل الحديثَ عن انتقالٍ وظيفيٍّ عامٍّ إلى تخصّصٍ عصبيٍّ دقيقٍ في بنيانٍ كاملٍ متكاملٍ بعيدًا عن التّصديق؛ فالذّكاء العامُّ يُخالِفُ الذّكاء التّخصّصيَّ المكتَشَفَ اليوم.

المبحث الرابع

ملاحِدةٌ ينتصرون لبرهان العقلِ

هَيْمَنَ التَّفسيرُ الماديُّ لظاهرة العقلِ على البحث العلميِّ في القرن العشرين بسبب احتكارِ التيّارِ الماديِّ للأكاديميا الغربيّة، غير أنّه مع تطوُّرِ دراسات العلوم العصبيّةِ، ظهر قُصورُ هذا التّفسير، وبدأَ سُلطانُ المذهَبِ الثَّنويِّ في التَّوَسُّعِ[1]. وقد بلغ عددُ الفلاسفة الذين يذهبون إلى التّفسير الثّنويِّ قرابة ٢٧٪ من مجموع الفلاسفةِ، وهم في تَزَايُدٍ مُتَّصلٍ[2]. وتَضَخَّمَتْ نسبةُ الذين يَتَّخذُون موقِفًا مُتَرَدِّدًا بين المذهَبَيْنِ؛ فهم يرفضون التّفسير الثّنويّ بسبب ولائهم للمذهب الماديّ، ولا يملكون الانحيازَ إلى التّفسير الطّبيعانيِّ لِقُصُورِهِ[3].

ومن الشّخصيات العلميّةِ الكبيرة التي غَيَّرَتْ وِجْهَتَها من المذهب الماديِّ الأُحاديِّ إلى المذهب الثَّنويِّ أسماء كبيرة مثل (ستفن وايت)[4] و(تيري هورجان)[5]. كما قدَّم (جايغون كيم)[6] اعتراضاتٍ مهمّةً ضدّ المذهبِ الثنويِّ

---

(١) John Heil, *Philosophy of Mind: A Contemporary Introduction* (London: Routledge, 1998), p. 53.

(٢) <http://philpapers.org/surveys/results.pl.

(٣) <http://fragments.consc.net/djc/2005/09/jaegwon_kim_ com.html.

(٤) ستفن ل. وايت Stephen L. White: أستاذ الفلسفة في جامعة «Tufts». له عنايةٌ خاصّةٌ بمشكلة العقل وعِلْمِ الجَمَال.

(٥) تري هورجان Terry Horgan: فيلسوفٌ من جامعة أريزونا. له عنايةٌ خاصّةٌ بالدّراسات الميتافيزيقيّة، ونظريّة المعرفة، وفلسفة العقل.

(٦) جايغون كيم Jaegwon Kim (١٩٣٤ـ): فيلسوف من أَصْلٍ كُوريٍّ. درّس في عدد من الجامعات الأمريكيّة. له عنايةٌ خاصّةٌ بمشكلة العقل والدّماغ.

في كتابَيْهِ «Mind in a Physical World» و«Physicalism, or Something Near Enough»، رغم نُفُورِهِ من التّفسير الدّينيّ لظاهرة الوَعْيِ وإيمانه أنّه علينا أن نَجِدَ تفسيرًا ماديًّا لظاهرة الوَعْيِ.

ومن أعلام الفلسفة الإلحاديّة الذين كشفوا أزمةَ التفسيرِ الماديِّ التطوّريِّ لظاهرة الوَعْيِ، الفيلسوفُ (توماس ناجل)، وهو واحد من أكبرِ فلاسفةِ آخر القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، وعضو الأكاديميَّتَيْنِ الأمريكيّة والبريطانيّة، وله مساهماتٌ مهمّةٌ في طرح إشكالِ تفسير ظاهرة الوعي في بحثه القديم «ما معنى أن تكون خُفَّاشًا»[1]، وكتابه الأخير «العقل والكون»[2].

(ناجل) فيلسوفٌ ملحِدٌ، صريحٌ في تأكيد إلحاده، وهو القائل دون خفاء: «أريدُ أن يكون الإلحادُ صحيحًا، وأنا منزعِجٌ من حقيقة أنَّ بعض أكثر الناس ذكاءً واطّلاعًا ممن أعْرِفُ مُتَدَيِّنُونَ. ليس الأمر قاصًرا على أني لا أومن باللهِ، وبطبيعة الحال، آمل أن أكون على حقٍّ في اعتقادي، وإنّما الأَمْرُ أنّي آمل ألّا يكون هناك إلٰهٌ! **أنا لا أُرِيدُ أن يكون هناك إلٰهٌ**. أنا لا أريد أن يكون الكَوْنُ على ذلك الحال»[3].. فليس هناك شكٌّ في إخلاص الرَّجُلِ لإلحادِهِ، وهو مع ذلك من الذين كَشَفُوا أزمةَ مصداقيّةِ العقلِ داخل التصوُّر الدّاروينيِّ؛ فرغم أنّ التصوّر الدّاروينيَّ هو اليومَ البديلُ الوحيدُ للتصوُّرِ الدّينيِّ لكفاءةِ العقل، إلَّا أنّ (ناجل) يُكرِّرُ دائمًا أنّ التّفسير التطوّريَّ مُثِيرٌ للسُّخْريةِ.

وقد صَرَّحَ (ناجل) في شرحِ بعضِ أَوْجُهِ إشكالِ التّفسير الداروينيِّ، أنّ اعتقادَنا أنّنا كائناتٌ بيولوجيّةٌ جاءت العالَمَ «صُدْفةً» بسبب عمليّة التطوّرِ العشوائيّةِ، لا يلتقي مع امتلاكنا القدرةَ على الفهم الموضوعيِّ الصحيح للعالم[4]. ولذلك قال: إنّ «الوَعْيَ هو **العَقَبَةُ الأَبْرَزُ في سبيلِ تَأْسِيسِ مذهبٍ طبيعانيٍّ شامِلٍ** يعتمد فقط على مصادرِ العُلومِ الفيزيائيَّةِ»[5].

---

(١) What is it like to be a bat?

(٢) *Mind and Cosmos.*

(٣) Thomas Nagel, *The Last Word*, pp.130 - 131.

(٤) المصدر السابق، ص٤.

(٥) Thomas Nagel, *Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo-Darwinian Conception of Nature is Almost Certainly False*, p.35.

المبحث الخامس

رُدُودٌ ونُقُودٌ

استنقاذُ العقلِ من التفسيرات غيرِ الاختزاليّةِ مشروعٌ دوغمائيٌّ للتيّار الإلحاديِّ؛ ولذلك يحشد له الملاحدةُ الاعتراضاتِ العلميّةَ والبراجماتيّةَ وحتّى الآمال في تفسيرٍ ماديٍّ لم تَظْهَرْ ملامِحُهُ بَعْدُ...

المطلب الأول

نحن نُصدِّقُ العقلَ لأنه ناجِعٌ

يقول الملحِدُ: نحن نُصدِّقُ العقلَ لأنّه ينتهي إلى تحقيق رفاهِية الإنسان ويُلَبِّي حاجاتِه؛ وذاك برهانٌ أنّه يُصِيبُ الحقيقةَ ضرورةً. إنّ علينا أن نُصدّقَ العقلَ لأنّه أَثْبَتَ جَدَارَتَهُ من خلالِ النَّفْعِ الذي قَدَّمَهُ لنا في مجالِ طَلَبِ أسبابِ الحياةِ وفَكِّ ألغازِ الكونِ إثر تَطَوُّرِ العُلومِ الطّبيعيّةِ.

الجواب:

أَوَّلًا: الاعتراضُ السّابق واقِعٌ في مغالَطَتَيْنِ:

أ ـ التّفكير الدّائريّ: الحُكْم على العقلِ بالنَّجَاعَةِ والجَدْوى يقتضي حُكْمًا عقليًّا على العقل؛ أي: إنّه يستلزِمُ الثّقة في حكم العقلِ لِلحُكْمِ على العقلِ أن يدرك الأشياءَ على حقيقتِها؛ وصحَّةُ العقلِ ـ بذلك ـ تتوقَّفُ على حكمِ العقلِ نفسِه!

ب ـ لزوم ما لا يلزم: لا تلازُمَ بين النَّجاعة والصَّواب، وهذا أمرٌ معلومٌ في تاريخ العلوم؛ فإنَّ النَّجاعةَ قد تقترِنُ بالخطأ للخفاءِ الظَّرْفيِّ لِوَجْهِ الخَطَأ؛ إذ تَعْجَزُ معارفُ العَصْرِ عن كَشْفِ الخَلَلِ، كما هو ـ مثلًا ـ مع النموذج الفلكيّ

للمجموعةِ الشَّمسيَّةِ الذي عَرَضَهُ (تيخو براهي)[1] في القرن السَّادس عَشَر، وفيه القولُ بمركزيّة الأرضِ مع المحافظةِ على النموذج الرياضيِّ لحركات الأَجْرامِ لنموذج مركزيّةِ الشّمسِ في نموذج (كوبرنيكوس)[2]، أو ما كان مع فيزياء (نيوتن) التي حَكَمَتْ الغربَ قُرونًا طويلةً حتّى زعَمَ جماهيرُ العلماءِ لها العِصْمةَ وأنّها نهايةُ معارفِ الفيزياء، إلى أن ظهرَتْ فيزياءُ (أينشتاين)، فأَنْهَتْ عصرَها لصالِحِ معارفَ جديدةٍ.

ثانيًا: نجاعةُ الوعيِ في عالم الحيوانِ لا تقومُ ضرورةً على إدراكِ العالم على حقيقته؛ ولذلك قال (بلانتنجا) ـ في رَدِّهِ على ردودِ خُصُوم «برهان العقل» ـ: إنّ العثورَ على الغذاءِ والقرناء والفِرار من الضَّواري لا يَتَطلَّبُ قدرةً معرفيّةً حاسمةً لمعرفة الطّبيعةِ على حقيقتِها، وإنّما يكفي أن يكون الحيوانُ قادرًا على توفير ما يُبْقِيهِ حيًّا؛ لتكون معرفَتُه بالطّبيعةِ ناجعةً، في بيئةٍ تقوم على الكرّ والفَرِّ طَلَبًا للغذاءِ والأَمْنِ والتَّكاثرِ[3].

إنّه لا يوجد ما يمنع الطّبيعةَ من أن تمنحَ الحيوانَ قدرةً على التّعاطي مع البيئةِ بطريقةٍ ناجعةٍ دون مطابقةٍ للحقيقة؛ كأن يرى الحيوانُ في كلِّ شيءٍ مُتَحَرِّكٍ تهديدًا له لافتراسه، دون تمييزٍ بين حيوانٍ يرغبُ فيه لِمَعِدَتِهِ وآخرَ لا يدخل هو في مَطْعُوماتِه. يُؤدّي تصوُّر أنَّ الحركةَ تعني الاستعدادَ للانقضاضِ على الحيوانِ إلى حماية هذا الحيوان من الضَّواري، رغم أنّه من الخَطَأ رَبْط كلِّ حركةٍ بالتَّهَيُّؤ للانقضاضِ على الفريسةِ. ولذلك قال (ستفن بنكر): «تَمَّ تشكيلُ أَدْمِغَتِنَا من أجلِ اللّياقةِ البَدَنِيَّةِ، وليس من أجلِ الحقيقةِ. في بعض الأحيان تكونُ الحقيقةُ متكيّفةً، لكن في بعض الأحيان لا تكون كذلك»[4]..

---

(١) تيخو براهي Tycho Brahe (١٥٤٦ ـ ١٦٠١م): فلكيٌّ دنماركيٌّ. أنشأ مرصدًا فلكيًّا عند سواحل الدّنمارك.

(٢) اسم النموذج: .Tychonic system

(٣) Alvin Plantinga, *Where the Conflict Really Lies: Science, religion, and naturalism* (New York: Oxford UP, 2011), p. 329.

(٤) Steven Pinker, *How the Mind Works* (New York: W. W. Norton, 1997), p.305.

بل ذهب (إريك بوم)[1] إلى ما هو أبعدَ من ذلك بقوله: «في بعض الأحيان تكون أنت مُؤَهَّلًا بصورةٍ أكبر للبقاء على قيد الحياةِ والتَّكاثر، **إذا آمَنْتَ بشيءٍ باطلٍ أكثر مما لو كنت تُصدِّقُ الحقيقةَ**»[2]. ولذلك اعترف (روزنبرج) أنّ «الانتخاب الطبيعي ليس على صورة جيّدة جدًّا في أمر انتقاء المعتقدات الصائبة» و«هناك دليل قوي على أن الانتخاب الطبيعي يُنتج كثيرًا من **المعتقدات الزائفة** والتي هي أيضًا مفيدة»[3].

المطلب الثاني

العقلُ وبصيرة الكمبيوتر

يقول بعض الملاحدة: إنّ ماديّة الدّماغ لا تُلْغِي حقيقةَ إدراكِهِ الصَّوابَ وفَهْمَ العالَم كما هو، وحُجَّتُهم أنّ الدّماغ يطابق في هذه الحال الكمبيوتر؛ فهو آلةٌ ماديّةٌ تُنْتِجُ معلوماتٍ صحيحةً مطابقةً للواقعِ.

الجواب:

مثال الكمبيوتر ـ في حقيقتِهِ ـ بعيدٌ كلَّ البعد عن نُصْرةِ النموذج الماديِّ؛ بل هو حُجَّةٌ للمذهب الثّنويِّ؛ لأنّ إصابة الكمبيوتر الحقَّ سَبَبُها أنَّ وراءَهُ عَقْلًا يَتَحَكَّمُ فيه، يُدرِكُ الواقعَ ويُصِيبُ الحَقَّ، بَرْمَجَهُ بِعِلْمٍ وحِكْمةٍ لذلك؛ فالكمبيوتر واسطة ماديّةٌ لإدراك الحقيقةِ، ولا يُدْرِكُها بذاتِه، وكذلك يقول الثَّنويُّون في الدّماغ والعقل؛ إذ العقلُ يستعمِلُ الدّماغ في إدراكِ الواقِعِ.

يقول الفيلسوفُ (ويليام هسكر)[4]: «تعمل الكمبيوترات على صورتها تلك لأنَّها صُنِعَتْ من بشرٍ يَتَمَتَّعُون بِمَلَكَةِ العَقْلِ. الكمبيوترُ ـ بعبارة أخرى ـ مجرّدُ امتدادٍ لِعَقْلانيّةِ مُصَمِّمِيْهِ ومُسْتَعْمِلِيْهِ، إنّه بعيدٌ عن أن يكونَ مَصْدرًا

(١) إريك بوم Eric Baum: عالمٌ أمريكيٌّ متخصّصٌ في الذّكاء الاصطناعيّ.

(٢) Baum, *What is Thought?* (Cambridge, Mass.; London: MIT, 2006), p.226.

(٣) Alexander Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality: Enjoying life without illusions*, pp.11 -111.

(٤) ويليام هسكر William Hasker (١٩٣٥ـ): فيلسوفٌ من أعلام الفلسفة في أمريكا. له عنايةٌ خاصّةٌ بمشكلة الشّرِّ، ومشكلة العقل والدّماغ.

مُسْتَقِلًّا للتّفكير العقليّ بُعْدَ التّلفزيونات أن تكون مَصْدَرًا مُسْتَقِلًّا للأخبارِ والتَّرْفِيهِ»[1].

إنّ برهانَ العقلِ قائمٌ على أنّ كلّ منظومةٍ ماديّةٍ مُغْلَقَةٍ على نفسِها تعملُ بصورة آليّةٍ لا يمكن أن تكون وسيلةً لإدراك الحقيقة؛ لافتقادِها ـ أساسًا ـ جَوْهَرَ النَّفاذِ إلى الوعيِ أو إفرازِه، وليس حالُ الكمبيوترات كذلك؛ فإنّها تعمل ضمن منظومةٍ منفتِحةٍ على خارجها، وهي وَعْي المُصَنِّعِ والمستخدِمِ.

المطلب الثالث

الطّبيعة انْتَخَبَتِ العَقْلَ

يقول الملحِدُ: إنَّ الطبيعةَ قد انتخبت العقلَ عند ظهوره في الكائنات الحيّة؛ ولذلك هو موجودٌ اليومَ، ولا حاجة لافتراضِ تفسيرِ الأُلُوهِيِّين الذين يستدعون أسبابًا غير ماديّةٍ لتفسير ظهور العقلِ.

الجواب:

الاعتراضُ السّابق يصادر على المطلوب؛ إذ هو يبدأ من دعوى ظهورِ العقل آليًّا ضمن آليةٍ بيولوجيّةٍ عشوائيّةٍ، لِيُضيفَ على ذلك انتخابَ الطّبيعة للعقلِ الواعي. لسنا هنا نجادِلُ في إمكان انتقاءِ آليّةِ «الانتخاب الطّبيعيّ» الظواهرَ البيولوجيّةَ الناجعةَ؛ فذاك أمرٌ تشهَدُ له الطّبيعةُ، ولا يجادل فيه أحدٌ، وإنّما نُنْكِرُ أن تكون يدُ الفيزياء ثم البيولوجيا قادرةً على تصميم عَقْلٍ واعٍ، دون وَعْيٍ منهما بمعنى الوَعْيِ.

مشكلةُ ظهور العقل ضمن الأسبابِ الماديّةِ في التفسير الدّاروينيّ عصيَّةٌ على الحلِّ لأنَّ الانتخابَ الطّبيعيَّ من حَوْضِ الجِيْنَاتِ المتغيّرةِ بِفِعْلِ أخطاء النَّسْخِ لا يُفَسِّرُ ظُهورَ عَقْلٍ يُصِيبُ الحقيقةَ ويُبْدِعُ في مجالاتٍ بعيدةٍ عن أسبابِ تحقيق البقاء؛ فالانتخابُ الطّبيعيُّ لا يرى غير تحقيقِ البقاء سببًا لاستبقاءِ الكائنِ الحيِّ ومَسْحِ غيرِه عن الوجود.

(١) William Hasker, *Metaphysics* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1983), p. 49.

المطلب الرابع

العلم سَيُفَسِّرُ ظاهرةَ العَقْلِ

يقول الملاحدةُ: إنّ اتّخاذ العقلِ برهانًا لوجودِ الله عَجَلةٌ في الحُكْم، فهو التجاءٌ إلى «إلٰهِ الثَّغرات»؛ فكلُّ ما يجهل المؤلِّهُ أَصْلَهُ، يُسْنِدُهُ إلى الإلٰهِ. والعِلْمُ أَصْدَقُ أنْباءً من أماني المؤمنين بإلٰهٍ، ولعلَّ العِلمَ يكتشِفُ يومًا جميع حقائقِ العقلِ ضمن التّفسير الماديِّ البحتِ.

الجواب:

هذا الاعتراضُ الإلحاديُّ واقع في مُغالَطَةِ «علم الثَّغرات»، والتّفكير الرّغبويِّ الذي يتحرَّكُ بدافعِ الحاجةِ المحضةِ إلى إثبات ما يريد. وليس للعِلم بابٌ لِنَقْضِ «برهان العقلِ»؛ لأنّ هذا البرهانَ بعيدٌ عن الجَدَلِ العِلميِّ في أصل الدّماغ؛ فهو برهانٌ فلسفيٌّ يقول: إنّ تصديقَ ماديّةِ العقلِ يرفع الثّقةَ في مخرجاتِه؛ لأنّ الشكَّ في العقلِ نَقْضٌ لإمكان العلمِ بأيّ شيءٍ.

وأمّا علاقةُ العِلم بمشكلتَي العَقْلِ، وهما فائضُ المعرفةِ وعلاقة المادّةِ بالوعي غير الماديِّ، فلا أَمَلَ للإلحادِ في تجاوزهما لأنّ العشوائيَّةَ الأَمَلُ الوحيدُ عند الملاحدة لنقضِ برهان التّصميم الذي يستَدِلُّ به المُؤَلِّهَة لإثبات وجودِ اللهِ، وكُلُّ إنكارٍ للعشوائيّةِ إقرارٌ بالتّصميم. وليس هناك من سبيلٍ لربطِ العشوائيّةِ بالعطايا المجانيّةِ؛ لأنَّ العشوائيةَ لا تعرف الكَرَمَ، والانتخابُ الطّبيعيُّ لا يَدَّخِرُ العَطَايا لِغَدٍ؛ فهو يُغَرْبِلُ الموجودَ لتحقيقِ البقاءِ الآني للكائنِ الحيِّ.

وفيما يتعلَّقُ بتفسيرِ الوعي تفسيرًا ماديًّا، فغايةُ ما يملِكُ الماديُّون إثباته أنّ العملياتِ الفكريَّةَ مرتبطةٌ بمواضِعَ معيّنةٍ في الدّماغِ. وذاك أمرٌ لا نُنْكِرُهُ، ولا نراه يملأ الفجوةَ بين واقعِ الدّماغ الماديِّ وواقعِ العَقْلِ غيرِ الماديِّ بما يثبت اختزالَ العقلِ في الدّماغ، وفي ذلك يقول الفيلسوفُ (ج. ب. مورلند) المهتمُّ بالجَدَلِ الماديِّ في مسألةِ تفسيرِ ظاهرةِ الوعي: «لن يُفيدَ الطّبيعانيَّ الزَّعْمُ أنّنا عندما نزداد عِلْمًا بالدِّماغ، سنكون قادرين على تفسيرِ كيفية ظهور

الحالات العقليّةِ في الدّماغ المتطوّر. في أفضلِ الأحوالِ، سَيُقرِّرُ ذلك التفسير المزعوم حال الترابط (بين العقل والدماغ). . والثّنويُّون مطمئِنُّون إلى ذلك التَّرابط. ولكنّ التَّرابطَ الذي يجيب عن سؤالٍ، لا يقولُ كيف يَظْهَرُ الوَعْيُ»[1].

ثم إنّ كشوفَ عَمَلِ الدّماغ لا تَنْصُرُ الإلحادَ؛ بل تَهْدِمُ أُسَّهُ، وهو خالِقِيَّة العشوائيّةِ؛ فقد كَشَفَتْ دراساتُ الأعصابِ أنّ الذَّكاءَ البشريَّ على درجةٍ من التّعقيدِ يَقِفُ أمامَها كلُّ عالِمٍ بخشوعٍ؛ فإنّ الدّماغ يتكَّوَنُ من ١٠٠ بليون خَلِيَّةٍ عَصَبيّةٍ (neurons)، وكلُّ خلّيّةٍ ترتبِطُ بقريبٍ من أَلْفِ خليّةٍ على صورةٍ بالغةِ التّعقيدِ، وكلُّ ارتباطٍ بين خليَّتَيْنِ على درجةٍ مُبْهِرةٍ من التّعقيد، حتّى قال فيه أَحَدُ علماءِ الدّماغ[2]: «هو عالَمٌ بِذاتِهِ»[3].

مختصر النَّظَرِ:

• حتّى يَصِحَّ الإلحادُ، لا بدَّ أن يكون الطّريقُ العقليُّ (والعلميُّ التَّابعُ له) صحيحًا.

• الإيمانُ بالعقلِ يلزم منه الإيمانُ باللهِ لأنّه لا ضمانةَ لِصِدْقِ الدّماغ غير المِنْحةِ الإلٰهيّةِ.

• يُقِرُّ الملاحدةُ أنّ الإيمانَ بمذهبِ التطوّرِ العشوائيِّ ضروريٌّ لصحّةِ الإلحادِ؛ لأنّ هذا التطوّر حُجَّةُ الإلحادِ لإبطالِ برهانِ التَّصميمِ في عالَمِ الأحياءِ على وجودِ اللهِ.

• مذهبُ التطوّر العشوائيِّ يُثْبِتُ أنّ الدِّماغَ لم يَتَطَوَّرْ لإصابةِ الحقيقةِ وإنّما تطَوَّرَ لتحقيقِ البقاءِ.

• مَلَكاتُ الدّماغ الإنسانيِّ تَتَجَاوَزُ في تصميمِها وعودَ المذهب الدّاروينيّ العشوائيّ.

---

(١) J. P. Moreland, 'Should a naturalist be a supervenient physicalist?', *Metaphilosophy* 1988. 29: ½. 35-57.

(٢) بيتر لاين Peter Line.

(٣) في حوار معه.

<https://creation.com/mind-by-design-peter-line-interview>

• الوعي ظاهرةٌ غيرُ ماديّةٍ تستعصي ـ بطبيعتها ـ على التّفسير الماديِّ الاختزاليِّ.

• كلُّ دفاعٍ إلحاديٍّ عن العقلِ بالعقلِ في ظلِّ الرؤيةِ الكونيّةِ الماديّةِ، باطلٌ ابتداءً؛ لأنّه واقِعٌ في الدَّوْرِ.

مراجع للتَّوَسُّعِ:

Victor Reppert, *C.S. Lewis's Dangerous Idea: a philosophical defense of Lewis's argument from reason*, Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2003.

Alvin Plantinga, *Where the Conflict Really Lies: Science, Religion, and Naturalism*, New York: Oxford University Press, 2011.

J. P. Moreland, *Scaling the Secular City*, Grand Rapids: Baker Book House, 1987.

Tom Carson and Carson Weitnauer, *True Reason: Confronting the Irrationality of the New Atheism*, Kregel Pubs, 2014.

William Hasker, *The Emergent Self*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1999.

الفصل الرابع

برهان الغريزة

- ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]

- «لو تساءَلْنا عن كيفيةِ ظهورِ أَوَّلِ سلوكٍ غريزيٍّ، وعن كيفيّةِ تَوَارُثِهِ؛ لما وَجَدْنا أَيَّ إجابةٍ»[1]

الباحث التطوّري (جوردون تايلر)[2]

بين خيارين: هداية أم صدفة؟

تشهدُ الطبيعةُ ـ بصورةٍ واسعةٍ يَصْعُبُ حَصْرُهَا ـ أنّ الكائناتِ الحيّةَ تمتلك قدراتٍ على التّعاطي الحكيمِ والمعقَّدِ مع الواقع دون أن تكون قد اكتَسَبَتْهُ عن تجربةٍ أو وراثةٍ ظاهرةٍ؛ فإِنَّ طبائعَ سُلوكِ هذه الكائناتِ لا ترتبط بترتيبِ نيكولوتيديٍّ خاصٍّ في الجينوم؛ ولذلك لا يمكِنُ رَدُّها إلى أمرٍ من الممكنِ للتفسيرِ البيولوجيِّ التطوّريِّ أن يُفَسِّرَهُ..

ويجدُ المؤمن باللهِ نفسَهُ أمام الظّاهرة السابقةِ مَدفوعًا إلى أن يقولَ: إنّ الظاهرة الغريزيّةَ جزءٌ من بُنْيَانِ الكائن الحيِّ، تَسُوْقُهُ إلى سلوكيّاتٍ واعيةٍ وذكيّةٍ لا يمكن تفسيرها بغير الإلهام، وهو ما قَرَّرَهُ القرآنُ في قولِه تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾.

---

(١) Gordon Taylor, *The Great Evolutionary Mystery* (New York: Harper & Row, 1983), p.222.

(٢) جوردون تايلور Gordon Taylor (١٩١١ ـ ١٩٨١م): كاتبٌ بريطانيٌّ متخصّصٌ في تبسيط العلوم. انتقَدَ في كتابِهِ *"The Great Evolution Mystery"* التّفسيرَ الدّاروينيَّ كما رفَضَ التّصميمَ الإلٰهيَّ.

ويقول الملحد: لا يَنْأى شيءٌ في الوجودِ عن التّفسير الماديِّ، والغريزةُ الحَيَّةُ مَظْهَرٌ مادِّيٌّ صِرْفٌ.

صياغةُ برهانِ الهدايةِ

الغريزةُ: هي النُّزوع الطّبيعيُّ في الكائن الحيّ، قبل التجربة، واستقلالًا عن التعليم الخارجيِّ[1]. وإذا كانت الوراثةُ السّابقة والتّجربة اللّاحقةُ في عجزٍ عن تفسير الفعلِ الغريزيِّ الذكيِّ والمعقَّدِ؛ لزمَ القولُ بالتّفسير الإلهاميِّ.

وبالإمكان صياغةُ برهان الغريزةِ على الصُّورة التالية:

١ ـ الغريزةُ الحيوانيّةُ مصدَرُها الوراثةُ أو الكَسْبُ أو الإلهامُ.

٢ ـ الوراثةُ والكَسْبُ عاجزان عن تفسير الفِعل الغريزيِّ.

٣ ـ الغريزةُ مصدَرُها إلهاميٌّ.

ولإثبات صحّة البرهان يكفي إثباتُ بطلانِ التَّفْسِيرَيْنِ الوراثيِّ والكسبيِّ.. وذاك موضوع بحثنا في الصّفحات التالية من خلال النَّظَرِ في الأمثلة العجيبةِ التي يُفِيضُها علينا البحثُ العلميُّ بعد بيانِ حقيقةِ الرُّؤيةِ الدَّاروينيّةِ..

---

(١) William Paley, *Natural Theology or Evidences of the Existence and Attributes of the Deity* (Philadelphia: John Morgan, 1809), p.299.

المبحث الأول

غرائِزُ الكائناتِ الحيّةِ وأَزْمةُ التّفسيرِ المادِّيِّ

بدأ (داروين) الفصل الثامن الخاصَّ بالغريزةِ من كتابه «في أَصْلِ الأنواعِ» بقوله: «العديدُ من الغرائزِ رائعةٌ لدرجةِ أنَّ تطوُّرَها سيظْهرُ للقارئ على الأرجح أنّهُ مُشكلةٌ كافيةٌ للإطاحة بنظريَّتي بالكامِلِ»[1]. وكان قد ذَكَرَ قبلَ ذلك في مقدِّمةِ الكتاب أنَّ مشكلةَ الغرائزِ من أَوْضَحِ المشكلات وأَخْطَرِها على نظريَّتِهِ[2].

والقارئُ للفصلِ الثّامن يرى أنّ (داروين) كان يتحدَّثُ عن إمكان تثبيتِ العادات (الغرائز) لا إثباتِ وقوعِ هذا الأمر؛ فقد قال: «أنا لا أَدَّعِي أنَّ الحقائقَ التي تَمَّ عَرْضُها في هذا الفصل قد تُعَزِّزُ بأَيِّ درجةٍ كبيرةٍ نظريَّتي، ولكن لا تستطيع أيُّ صورةٍ من صورِ الإشكالات ـ في حدود عِلْمِيْ ـ أنْ تَنْقُضَها»[3]؛ وذاك لا يُعَدُّ تفسيرًا عِلْميًّا لظاهرةِ الغرائزِ.

اعترفَ (داروين) أنّه لم يُفَسِّرْ معارضاتٍ خطيرةً لنظريّته؛ فقال: «لا شَكَّ أنّ كثيرًا من الغرائزِ التي من الصَّعْبِ تفسيرُهَا قد تكونُ مُعارِضةً لنظريّة الانتخابِ الطّبيعيِّ. وهي حالاتٌ ليس بإمكاننا أن نرى كيف بالإمكانِ أن تنشأَ فيها الغريزةُ، وحالاتٌ لا تُعْلَمُ فيها درجاتٌ تطوّريةٌ وسيطةٌ، وحالاتُ غرائز بالغةِ التَّفَاهةِ يَبْعُدُ أن تكون أَثَرًا للانتخابِ الطّبيعيِّ، وحالات غرائز تكاد تكون متطابقةً في حيواناتٍ متباعِدةٍ جِدًّا بعضها عن بعض في الميزانِ الطّبيعيِّ إلى

---

(1) Charles Darwin, *The Origin of Species* (New York: P. F. Collier & Son, 1909), p.262.

(2) المصدر السابق، ص١٦.

(3) المصدر السابق، ص٢٩٦.

درجة أَنَّنا لا نستطيعُ أن نجد تفسيرًا لِتَطَابُقِها عن طريقِ الوراثةِ من سَلَفٍ مُشْتَرَكٍ؛ بما يُلْزِمُنَا أن نؤمِنَ أنّه تَمَّ اكتسابُهَا بصورةٍ مُستقِلَّةٍ من خلال الانتخابِ الطّبيعيِّ؛ ولن أتناولَ هنا بالبحث هذه الحالات الكثيرة»[1]؛ وهو بذلك يدعو إلى إيمانٍ دوغمائيٍّ بنظريّته رغم قُصُورِها، ويُلْزِمُنَا قَبُولَ أَفْضَلِ التَّفسيراتِ الماديّةِ المقبولةِ عنده لأنّه لا حَلَّ خارج التَّفسير الماديِّ.

والتَّفسيرُ الدّاروينيُّ واضِحُ التَّهافُتِ في ضَوْءِ مَعَارِفِنا الجينيَّةِ اليومَ؛ فإنَّ توريثَ العاداتِ المتراكِمةِ يحتاج تَحَوُّلًا في الرَّصِيدِ الجينيِّ، **وهو ما لم يُثْبِتْهُ أَحَدٌ**. وفي غيابِ حديثٍ عن إمكانيّةِ توريثِ العاداتِ وتراكُمِها يُصبِحُ الحديثُ عن التّفسير الماديِّ بلا معنى عَمَلِيًّا.

وقد حاول الدَّراوِنةُ التَّوَسُّعَ في إيجادِ المخارجِ فقالوا لاحقًا بما يُعرف بـ« Baldwin effect»؛ وهي نظريّةٌ تَزْعُمُ أنَّ الكائناتِ الحَيَّةَ القادرةَ على تَعَلُّمِ التَّكَيُّفِ مع البيئةِ الجديدة هي التي يَنْتَقِيها الانتخابُ الطّبيعيُّ، ويَمْنَحُهَا حقَّ البقاء. وهي نظريّةٌ **فارغةٌ** ـ على الحقيقة ـ لأنّها تتعلَّقُ بالانتقاءِ من الكفاءاتِ الموجودةِ لدى الكائناتِ الحَيَّةِ لا صناعةِ غرائزَ مُعَقَّدةٍ وقَهْرِيَّةٍ تنشأُ مع الكائنِ الحَيِّ منذ ولادتِه؛ فهذا التّفسير يقول: إنَّ الطَّيْرَ الذي يكون قادرًا على تَعَلُّمِ أساليب الفِرار من الجَوَارِحِ بصورةٍ أَسْرَعَ هو الذي يبقى؛ وذاك أمرٌ بعيدٌ عن ما نُنازِعُ فيه عند الحديث عن عجائبِ الغرائِزِ.

إنَّ الغَرَائِزَ أَعْقَدُ بصورةٍ كبيرةٍ من الصُّورِ التي عَرَضَها (داروين) والدَّرَاوِنةُ بَعْدَهُ، إِذْ إِنّها تراعي أُمورًا فيزيائيّةً ورياضيّة وهندسيّة لا سبيل للقول بتراكمها؛ فهي غيرُ قابِلَةٍ للنُّموِّ البَطِيْءِ ولا الظُّهُورِ المفاجِئِ؛ وهو ما سيكون حديثنا في بقيّة هذا الفصل.

---

(١) المصدر السابق، ص٢٩٠.

المبحث الثاني

وسائلُ محافظةِ الكائناتِ الحَيَّةِ على أسبابِ البقاءِ

تَستعمِلُ الكائناتُ الحيّةُ أساليبَ معقّدة جدًّا للمحافظةِ على بقائِها أو بقاء نسلها في ظروف تمنع أن تكون تلك الأساليب موروثة عن آبائها. ولنذكر بعضها هنا:

الهجومُ المُظَلَّلُ: جاء في تقريرٍ مختصرٍ في المجلّة العلميّة الشّهيرة «New Scientist»: «يُغطّي اليعسوبُ أعداءَهُ في المناورات المعقّدة التي لا يمكن للطَّيّارين العسكريِّين إلّا أَنْ يَتَمَنَّوا مثلها في الأَحلام.... إنّ فِعْلَهُ يتطلَّبُ تَحَسُّسًا للمواقِعِ وتَحَكُّمًا في ذلك رائِعَيْنِ»[1]. ويُضِيفُ أَحدُ الباحثين من «Centre for Visual Science» في الجامعة الوطنية الأستراليّة: «من الصّعب للغاية تحقيقُ هذا النَّوعِ من الأداء دون أنظمةِ قياسٍ باهظةِ الثَّمَنِ ومُكلّفةٍ للغاية»[2].

النَّمْلُ الفَلَّاحُ: اكتشفَ باحثان ألمانيّان نوعًا من النَّمْلِ في جُزُرِ (فيجي) يقوم ببذر ستّة أنواعٍ من نبات القَهْوةِ في أعالي أشجارٍ عملاقةٍ لِتَصِلَها الشَّمسُ، ثم يقومُ بِتَسْمِيدِها، ورعايَتِها، ثمّ حَصَادِ رَحِيْقِها، كما يفعلُ البَشَرُ عند زراعةِ ما يريدون جَنَاهُ. والأَعْجَبُ ـ كما تقول (سوزان رينر) المختصَّةُ في علم النَّباتِ من جامعة (Ludwig Maximilian) بميونيخ ـ أنّ هذا النَّمْلَ يرعى هذه البذور أسابيع دون أن يَظْهَر له من ذلك شيءٌ[3].

---

(١) Anon, 'How stealthy insects outsmart their foe,' *New Scientist* 178 (2398): 26, 2003.

(٢) المصدر السابق.

(٣) Ant species cultivates coffee for accommodation:
<http://www.dw.com/en/ant-species-cultivates-coffee-for-accommodation/a-36477533>.

الرَّحِمُ الثاني على ظَهْرِ الأُمّ: يقوم ضفدعُ «البيبا» الأسودُ بتجميعِ البَيْضِ بواسطة سيقانِه الزُّعنفيَّةِ لِيُلْصِقَها بظهرِ الأُنْثى، ثم يَنْتَفِخُ الجِلْدُ لِيُساعِدَ هذا البيض في الثَّبَاتِ، ويتكوَّنُ غلافٌ رقيقٌ حافظٌ لهذا البيضِ، وبعد ٣٠ ساعة يختفي البيضُ تحت جلدِ ظهرِ الأُنثى ويعودُ إلى شَكْلِهِ الأَصْليّ، ويبدأ البيضُ في النُّمُوِّ تحت جلدِ الأنثى. وبعد ١٥ يومًا تبدأ اليرقات في التحرّكِ داخل البيضِ بما يجعل ظهرَ الأُنثى يبدو كأنّه في حركةٍ التوائيّةٍ. بعد مرور ٢٠ يومًا، تبدأ الضّفادعُ الصّغيرة في الخروجِ عبر ثُقوبٍ تَفْتَحُهَا في جِلْدِ الأُمّ[1].

بيتٌ للغائبِ الذي لن يراهُ البَنَّاءُ الصَّيَّادُ: تَحْفرُ نحلةُ «الحفَّارِ» في الأرضِ حُفرةً مُنْحَنِيةً لِيَرَقَتِهَا، وذلك بأنْ تأخذَ حَفْنةً من التُّرابِ بِفَمِهَا وتدفعها بأطرافِها الأماميةِ للتّخلُّصِ منها، وهي عمليّةٌ بطيئةٌ وشاقّةٌ. ثم تقوم بتمويهِ المكانِ بأن تَلْتَقِمَ كُتَلَ التُّرابِ التي أزالتها عند الحَفْرِ، وتجعلَها تحت فَكِّها، ثمّ تَنقُلُها جُزءًا جُزءًا إلى مكانٍ بعيدٍ، ثمّ تَنْثُرُها بصورةٍ مُبَعْثَرةٍ حتّى لا تَجْلِبَ الانتباهَ. وعندما ينتهي الحفرُ ويصبح هناك مكانٌ مُتَّسِعٌ لحجمِ النَّحلةِ، تبدأ الأنثى بتكوينِ مُلْحقٍ خاصٍّ لهذه الحفرةِ مؤقَّتًا ـ وتبدأُ رحلةَ طَيرانٍ من أجلِ البحث عن الغِذاءِ.

تتخصَّصُ أنواعُ هذا النَّحْلِ في اصطيادِ أنواعٍ من الحَشَراتِ مثل الجرادِ واليرقاتِ والحشرات الطَّنَّانةِ، وطريقةُ اصطيادِهِ لِفريستِه مختلفةٌ عن المعتاد لأنه عند اصطيادِهِ لها لا يَقْتُلُها بل يعملُ على تخديرها بواسطةِ إِبْرَتِهِ اللَّاسعةِ ثم يحملها إلى مَلْجَئِهِ الآمِنِ، وعند وصوله إليه يَضَعُ بَيْضَتَهُ الوحيدةَ على هذه الفريسةِ المخدَّرَةِ التي تَظَلُّ طازَجَةً تكفي مادّةً غذائيّةً لِلْيَرَقَةِ التي ستخرجُ من البَيْضَةِ. وبعد أن تُوفِّرَ الأُمُّ المكانَ والغِذاءَ لِصَغِيرِها يكون من اللَّازِمِ توفيرُ الحِمايةِ له، فَتَجْتَهِدُ في سَدِّ مَدْخَلِ الحُفرةِ بالتُّرابِ والحَصَى بكلّ إتقانٍ وعِنايةٍ، ثم تتناولُ قِطْعَةَ حَجَرٍ بِفَكِّها، وتستخدمها مِطْرَقَةً لِتَسْويةِ مَدْخلِ الحُفْرةِ، وفي

---

(١) David Attenborough, *Life on Earth* (Glasgow: William Collins Sons & Co. Ltd, 1979), p. 145

(نقله: هارون يحيى، التَّضحيةُ عند الحيوان، نسخةٌ إلكترونيّةٌ، ص٦٧).

النّهاية تقومُ بتهذيبِ التُّرابِ في المدخلِ بواسطة سيقانها المشوكة كي تكتمِلَ عمليَّةُ التَّمْويهِ. وهكذا تُصبِحُ الحفرةُ مَخْفِيَّةً تمامًا، إلَّا أنَّ هذه الحشرةَ لا تكتفي بذلك بل تَنْشُرُ عِدّةَ حُفَرٍ وَهْمِيَّةٍ هنا وهناك بالقربِ من الحفرةِ الأصليّةِ للتَّمويهِ أيضًا. وأمَّا الغذاءُ الموجودُ في الحُفْرةِ فيكفي لِتغذيةِ اليَرَقَةِ التي ستخرجُ من البَيْضةِ حتى اكتمالِ نُمُوِّهَا لِتصبحَ حَشَرَةً كاملةً تستطيع الخروجَ من الحفرةِ إلى العالم الخارجيِّ[١].

كلُّ التفاصيل السابقة، لا يتعلَّمُها النَّحْلُ من أَبَوَيْهِ لأنَّهُ يُولَدُ دون أن يراهما!

خدماتُ التَّنْظِيفِ البَحْرِيِّ والزَّبائنُ: يُخبرنا الدَّراونةُ أن «الطَّبيعةَ حمراءُ السِّنِّ والمِخْلَبِ»[٢]؛ فهي مسرحُ الصّراعِ من أجلِ البقاء، لكنَّ الطَّبيعةَ في حقيقتها تحملُ مع معاني الصّراع التَّراحُمَ والتَّخادُمَ. ومن ذلك ظاهرةُ مراكز التَّنظيفِ البحريِّ حيث تقوم أسماكٌ صغيرةٌ بتنظيفِ الأسماك والكائناتِ البحريّةِ الأُخرى المُصْطَفَّةِ الـمُنْتَظِرَةِ دورَها لِنَزْعِ ما عَلِقَ بها من زوائدَ أو جُروحٍ، مع اتّفاقٍ ضِمْنيٍّ أَلَّا يأكلَ الزَّبُونُ مَنْ نَظَّفَهُ؛ بل يُيَسِّرُ له سبيلَ العَمَلِ، بأنْ يَنْتَظِرَ دَوْرَهُ دون استعجالٍ، وإذا بدأ العملُ لا يتحرَّكُ من مكانِهِ، وإنَّما يُحرّكُ خَيَاشِيْمهُ لِيَدْخُلَ العامِلُ لأداء وظيفَتَهُ. وأماكِنُ محلَّات التَّنْظِيفِ معروفةٌ للأسماكِ المحليّةِ، فهي تأتيها تطلُبُ الخِدمةَ، وقد ينتقلُ العُمَّالُ إلى الزَّبونِ إذا كان كَسُولًا[٣].

التَّضْحِيةُ في خَلِيَّةِ النَّحْلِ: تَتَفَانى عاملاتُ النَّحْلِ في سبيل الحفاظ على حياة المَلِكةِ واليَرَقاتِ وسلامَتِهِمَا من الأذى، عِلْمًا أنَّ هذه العاملاتِ عقيماتٌ، واليرقاتِ ليست صِغارَها. وتَتَأَلَّفُ خليّةُ النّحلِ من المَلِكةِ والذُّكور المسؤولةِ عن تلقيحِ الملِكةِ، وأخيرًا العاملاتُ التي تعتبر المسؤولةَ الأولى

---

(١) Russell Freedman, *How Animals Defend Their Young* (New York: 1978), pp.43-45
(نقله: هارون يحيى، التضحية عند الحيوان، ص٦٧)

(٢) Nature, red in tooth and claw.

(٣) Gordon Taylor, *The Great Evolutionary Mystery*, pp.225 -226.

والأخيرة عن إدارة الخليّة بمختلف نشاطاتها الحيويّة اليوميّةِ مثل إنشاء الغُرَفِ الشَّمْعِيَّةِ، ونظافةِ المستعمراتِ وأَمْنِهَا، وأَمْنِ الخليّةِ، وتغذيةِ الملِكةِ والذّكور، والاعتناء باليرقاتِ وإنشاءِ الغُرَفِ حسب نوعِ النّحلِ الذي يَخْرُجُ من البَيْضِ من مَلِكَةٍ أو ذَكَرٍ أو عاملةٍ، وتهيئةِ هذه الغرفِ بصورةٍ مناسبةٍ، وتنظيفِها، إضافةً إلى توفير الدِّفْءِ والرُّطوبة اللّازِمَيْنِ لِلبَيْضِ، وتوفير الغذاء لليرقات حسبَ الحاجة وجمع المواد اللّازمة لصنع الغذاء؛ مثل خُلاصةِ الفواكِهِ، ورحيق الأزهار، والماء ونُسْغِ الأشجار...

عندما تخرج العاملة من الشَّرْنَقَةِ كاملةَ النُّمُوِّ تَظَلُّ تعملُ داخلَ الخليّةِ فترةَ ثلاثة أسابيع تقريبًا أو أقلّ قليلًا. وأوّلُ عملٍ تقوم به الاهتمامُ بتنشِئةِ اليرقات ورعايتها. وتتغذّى النّحلةُ العاملةُ على ما تأخذه من العَسَلِ ورحيقِ الأزهار المتوفّرَيْنِ في مخازنَ خاصّةٍ داخل الخليّةِ إلَّا أنها تُقدِّمُ جُزءًا كبيرًا ممّا تحصلُ عليه لليرقاتِ كي تَتَغَذّى عليه، وتتمُّ عمليّةُ تغذية اليرقاتِ عن طريق إخراج جزءٍ مما تغذّتْ عليه سابقًا من مَعِدَتها والجزءُ الآخر يتمُّ إفرازُهُ من غُدَدٍ خاصّةٍ موجودةٍ في منطقة الرَّأْسِ، وهذه الغُدَدُ تُفْرِزُ مادّةً جيلاتينيّةً تُعْتَبَرُ غِذاءَ اليَرَقاتِ.

وهنا سُؤَالٌ يطرح نفسه: كيف يمكن لِكائنٍ حَيٍّ خرج تَوًّا من الشَّرْنَقَةِ أن يعرف ما عليه أن يفعَلَهُ دون اعتراضٍ، وهذا يشمل كُلَّ النَّحْلِ؟ والمفروض في هذه العاملات أن تُفَكِّرَ في إدامةِ حياتها وكيفيّةِ الحِفاظِ عليها لحظةَ خروجِها من الشّرنقةِ دون تفكيرٍ في التَّضحيةِ من أَجْلِ الغيرِ.

عندما تدخلُ النّحلةُ العامِلةُ يومها الثاني عشر في الحياةِ، تَنْضُجُ غُدَدُهَا التي تُفْرِزُ شَمْعَ العَسَلِ؛ عندئذٍ تبدأ العاملاتُ ببناء الغُرَفِ السُّداسِيَّةِ وترميم الموجود منها.

في المدّة بين اليوم الثاني عشر ونهايةِ الأسبوع الثّالث من حياتها، تقومُ العاملاتُ بِجَمْعِ رحيقِ الأزهار وخُلاصةِ العَسَلِ اللَّذَيْنِ جُلِبَا من قِبَلِ الذَّاهِبين خارجَ الخليّةِ. وتقوم بتحويلِ خُلاصةِ العَسَلِ إلى عَسَلٍ وتُخَزِّنُهُ فيما بعدُ، وفي تلك الأثناء تقوم بتنظيفِ الخليّةِ من الفَضَلاتِ والأَوْساخِ وأَجْسادِ النَّحْلِ الميِّتِ ورَمْيِهَا خارجَ الخليّةِ.

تصبح النّحلةُ العاملةُ في نهاية الأسبوع الثّالث جاهزةً أن تخرجَ لِجَمْعِ خُلاصةِ العَسَلِ ورحيقِ الأزهار والماء ونُسْغِ النَّباتات.

تبدأ النَّحلاتُ العاملاتُ بالخروج للبحثِ عن الأزهار التي تحتوي على خُلاصة العَسَلِ. وهذه العمليّةُ مرهِقةٌ للغاية، فتصبح النّحلةُ العاملةُ مرهقةً ومتعبةً حتى الموت في نهاية أسبوعين أو ثلاثةٍ من العَمَلِ المرْهِقِ[1].

ظاهرةُ الإيثارِ والتَّضْحِيةِ بالنَّفْسِ تُعارِضُ بصورةٍ كُليّةٍ مَنْطِقَ التّفسير الدَّارويني القائِمِ على صراعِ الكائن الحيِّ من أجل البقاءِ. وقد صَرَّحَ داروين أنَّ نظريَّتَهُ تَنْهارُ بالكامل إذا تَمَّ إثباتُ أنَّ الطَّبيعةَ من الممكن أن تصنع شيئًا[2] يعمل بصورةٍ كُليّةٍ لمصلحةِ غَيْرِهِ.

---

(١) Freedman, *How Animals Defend Their Young*, pp. 21 - 22.

(نقله: هارون يحيى، التضحية عند الحيوان، ص١٣٢ ـ ١٣٥).

(٢) إشارة (داروين) متعلّقة بالبِنى العضويّة، وهي تَصِحُّ في الغرائز تبعًا.

المبحث الثالث

آلاتُ الحيواناتِ لِكَشْفِ الواقعِ المحيطِ بها والاستفادةِ منه

لا تستغني الحيواناتُ في بيئتها الخَطِرَةِ عن الطَّلَبِ الدَّائِم للمَطْعَم والأَمْنِ من الكائنات التي تغتذي عليها. وتكشِفُ لنا دراسةُ عالَم الحيوانِ عن قُدراتٍ معجبةٍ لهذه الكائنات الضَّعيفةِ، قوامها تعامُلٌ رياضيٌّ وهندسيٌّ مُعَقَّدٌ مع الواقع، ويكفي هنا أن نُشير إلى قدرةِ الحيواناتِ على الاهتداء إلى مقاصِدِها، ومن ذلك:

العَدَّادُ النَّمْلِيُّ: تُسافِرُ النَّمْلَةُ الصَّحراويّةُ (Cataglyphis fortis) كثيرًا مئات الأمتار في طُرُقٍ مُتَعَرِّجةٍ للوصول إلى الأَكْلِ، ثم تعود إلى مكانها من طريقٍ آخرَ رَغْمَ غيابِ العلاماتِ التي تَدُلُّها على مملكتها.

وقد حَيَّرَ الأمرُ العلماءَ، فأجرى فريقٌ منهم من ألمانيا وسويسرا تجربةً أَخْفَوْا فيها أَيَّ معالِمَ مُتميّزة للمكانِ، ومع ذلك استطاعت النَّمْلةُ العودةَ إلى محلّها الأوّل[١]. وانتهى البحثُ إلى أنّ هذه النّملةَ تملِكُ عدَّاد مسافاتٍ (built-in odometer) يقوم بعملياتٍ حسابيّةٍ معقّدةٍ تسمّى (path integration)؛ أي: إنَّ النّملةَ تُقَسِّمُ الرّحلةَ حسابيًّا إلى مراحلَ قصيرةٍ، وتحسِبُ لكُلِّ واحدةٍ طُولًا واتّجاهًا مُعَيَّنًا، ثم يَتِمُّ جمع المراحلِ لتحديد الاتّجاه والمسافة المطلوب عُبورها[٢].

---

(١) S.Wohlgemuth, *et al.,* Ant odometry in the third dimension, *Nature* 411(6839):795 - 798, 2001.

(٢) Jonathan Sarfati, *By Design: Evidence for Nature's Intelligent Designer* (Powder Springs, GA: Creation Book Publishers, 2008), p.93.

العَدَّادُ النَّحْلِيُّ: كشفَ علماءُ من جامعةِ لندن مُؤَخَّرًا أَنَّ النَّحْلَ يقومُ بحساباتٍ رياضيَّةٍ مُعقَّدةٍ لحساب المسافاتِ المطلوبِ قَطْعُها بين الأَزْهارِ، لاختصارِ الطُّرقِ والاقتصاد في الطَّاقة المطلوب بَذْلها، حتى لو اكْتَشَفَ هذه الأَزهارَ على غيرِ ترتيبِ رحلاته المبرمجة إليها[1].

الإنترنت النَّمْلِيُّ: أَثْبَتَتْ دراسةٌ لباحِثِين من جامعة «ستانفورد» أنّ النَّمْلَ مُجَهَّزٌ بنظام إنترنت أو «anternet» كما سمَّاهُ هذا الفريق؛ إذ يُطْلِقُ النَّمْلُ تردُّداتٍ في نطاقٍ مكانيٍّ يُحيط به لإرسال رسائلَ إلى النَّمْلِ المجاوِرِ، والذي يقوم بالتقاطِهَا وقراءَتِها، في طريقةِ عَمَلٍ مُعقَّدةٍ كتلك التي تُسْتَعْمَلُ في نقلِ الملفَّات على الإنترنت[2].

الهندسَةُ العَنْكَبُوتيَّةُ: يَحْفِرُ عنكبوتُ (Trapdoor Spider) في الأرضِ حُفرةً دائريَّةً بالأَشواطِ التي في فَمِهِ، ويَدْهنُ حوافَّها بِلُعَابٍ من فَمِهِ ممزوجٍ بالتُّراب، ويضع عليها خُيُوطًا حريريّةً، ثم يصنعُ بابًا يوافِقُ بصورةٍ بارعةٍ حَجْمَ فُوَّهَةِ الحُفْرةِ، وله مِفْصَلٌ من حريرٍ يُمكّنه من فَتْحِهِ وإغلاقِهِ بسهولةٍ. كما يقوم هذا العنكبوتُ بِدَهْنِ البابِ بِلَوْنِ الأرضِ التي تحيط به نفسِه حتى لا تَنْتَبِهَ له الفَرَائِسُ. يَقْبَعُ العنكبوتُ في «بيته» لسنواتٍ، وإذا أرادَ وَجْبةً خرجَ من حُفْرَتِهِ لِيُمْسِكَ بالحَشَراتِ، وإذا ما داهَمَهُ خَطَرٌ يُهْرَع إلى «بيته» مُسْرِعًا مُغْلِقًا وراءه الباب[3].

السَّهْمُ المائيُّ: يُحَدِّثنا أحدُ الباحثين عن انبهارِهِ بطريقةِ صيدِ سمكةِ (archerfish) للحَشَراتِ التي تَتَغَذَّى عليها بِقَذْفِها لها بِدَفْقَةِ ماءٍ مفاجِئةٍ إلى أعلى: «تصطادُ سمكةُ (archerfish) بمعرفةٍ عَمَليّةٍ بالحركةِ، والجاذبيّةِ، والبصريَّاتِ، وديناميت السَّوائلِ. وهي **تحلُّ المشكلات التي قد تُبقي طالبَ الفيزياء في سَهَرٍ إلى آخرِ اللَّيلِ، دون كَلَلٍ. إنّها تستعمل العِلْمَ لِتَكْتسبَ**

---

(١) M. L. Lihoreau, *et al.* 2010..Travel Optimization by Foraging Bumblebees through Readjustments of Traplines after Discovery of New Feeding Locations. *The American Naturalist 17*.

(٢) Stanford researchers discover the "anternet" <https://news. Stanford.edu/news/2012/august/ants-mimic-internet-82312.html>.

(٣) Geoff Chapman, The trapdoor spider, in *Creation 13(2): 9. March 1991*.

قوّةً خارقةً»[١].

القُنْدُسُ، مُهَنْدِسُ السُّدُودِ: القُنْدُسُ مهندسٌ بارعٌ وبَنَّاءٌ صَبُورٌ؛ إذ يُنْشِئُ عُشَّهُ بمهارةٍ فائقةٍ، وبالمهارة نفسها يُنْشِئُ سَدًّا مَنِيعًا لتهدئةِ سرعةِ المياهِ الجاريةِ وحمايةِ عُشِّهِ منها، وهو يبذُل جُهْدًا خارِقًا على مدى عدّة مراحلَ لإنجاز هذا العملِ المرهِقِ. ففي المرحلة الأولى يقوم بتجميع كَمٍّ هائلٍ من أغصانِ الأشجارِ ليستخدمها في غذائِهِ وفي بناء عُشِّهِ والسَّدِّ الذي أَمامَهُ، ولهذا يقوم هذا الحيوان بقرضِ الأشجارِ المتوفرة لِقَطْعِها. وأَثْبَتَت الأبحاثُ العلميَّةُ أنه يقوم بحساباتٍ دقيقةٍ عند عمليّة القَطْعِ. كما يُفَضِّلُ العملَ على ضِفَّةِ المياهِ التي تهبُّ عليها الرِّياحُ حتى تساعِدَهُ المياهُ في جلبِ تلك الأغصانِ باتجاه عُشِّهِ.

ويتميّز عُشُّ هذا الحيوانِ بتخطيطٍ بارعٍ ومفصّلٍ؛ إذ يحتوي على مَدْخَلَيْنِ سُفْلِيَّيْنِ تحت سطحِ الماء وغُرْفةٍ خاصّة أعلى من مستوى الماء للتّغذية وفوقها غرفةٌ خاصّةٌ للنّومِ، إضافةً إلى قناةٍ خاصّةٍ للتَّهْوِيَةِ. ويقوم القندسُ بتجميع الأغصانِ؛ واحدًا فوق الآخرِ لتشكيلِ الهيكلِ الخارجيِّ لِلعُشِّ بعناية كبيرة، مع استخدامِ الأعوادِ الصّغيرةِ والطِّيْنِ لمنعِ وجود فَجَواتٍ في بنائِهِ المهدَّدِ بسيولِ المياهِ الدافقةِ.

أمّا الموادُّ التي يستخدمها القُندسُ في بناء عُشِّهِ، فهي تساعِدُ على تَمَاسُكِهِ من جهةٍ، والحفاظِ على درجةِ الحرارةِ داخِلَهُ من جهةٍ أُخرى، فَعَلى الرّغم من انخفاضِ درجةِ الحرارةِ في الشِّتاءِ إلى ٣٥ درجة تحت الصِّفْرِ فإنّ الحرارةَ داخل العُشِّ تبقى فوق الصِّفْرِ باستمرار، ويقوم القُندسُ أيضًا بإنشاء مخزنٍ للأغذيةِ تحت العُشِّ يَتَغَذَّى منه طوالَ فَصْلِ الشّتاء. وفي تلك الأثناء يقوم القندسُ بإنشاء قنَوَاتٍ تَحْتِيَّةٍ على شكلِ شَبَكَةٍ، ويبلغ طولُ هذه القنواتِ مِتْرَيْنِ يستطيع بواسطتها أن يصلَ إلى اليابسةِ حيث توجد الأشجارُ التي يتغذّى عليها.

وعند حدوثِ أيِّ فَجْوةٍ أو خَلَلٍ في بناء السَّدِّ يقومُ القندسُ باستخدام

---

(١) A. Bhatia, 'The fluid dynamics of spitting: how archerfish use physics to hunt with their spit,' *wired.com, 29 November 2013.*

الطِّيْنِ أو أغصانِ الأشجار لِـمَلْئِهِ ثانيةً، وهكذا يتحوَّلُ السَّدُّ إلى نوعٍ من الحَوْضِ العميقِ يستطيع من خلالِهِ أن يجعلَ من عُشِّهِ مَخْبَأً كبيرًا للأغذيةِ والمؤونة عُدَّةً لِفَصْلِ الشِّتاءِ. ويستطيع القندسُ أن يُوَسِّعَ من المساحةِ المائيّةِ داخل العُشِّ لنقل أكبرِ كميّةٍ ممكنةٍ من الغِذاءِ والمواد اللّازمةِ لبناء العش وترميمه؛ حتى إنّ هذا الأسلوب يجعل العُشَّ في مأْمنٍ من الأعداء، وفي هذا يُشْبِهُ عُشُّ القُندسِ قلعةً مُحاطةً بخنادقِ الدّفاع يَصْعُبُ الهجومُ عليها[1].

روائِعُ مُدُنِ النَّحْلِ والنَّمْلِ الأَبْيَضَيْنِ: يقول (بيتر كروبتكين)[2]: «لو كانت المستعمرات التي يُنْشِئُها النَّحْلُ أو النَّمْلُ الأبيض بمقياسِ المنازل التي يُنْشِئُهَا الإنسانُ؛ لكانت هذه المستعمرات أَكْثَرَ تطوّرًا في أسلوبِ بنائِها وإدارتها؛ لأنها تتألَّفُ من طُرُقٍ مُعَبَّدةٍ، ومخازنَ مُهَيَّأَةٍ للاستهلاكِ عند الحاجة، وصالاتٍ فسيحةٍ، إضافةً إلى مخازنَ لِلْحُبُوبِ، ومساحاتٍ لِزَرْعِ الحُبُوبِ، وتُستَخْدَمُ في هذه المستعمرات مختلفُ الوسائلِ والطُّرقِ الحكيمةِ لرعايةِ البَيْضِ واليَرَقاتِ...»[3].

---

(١) BroJwonhn Sparks, *The Discovery of Animal Behavior* (Boston: Little and Company, 1982), p.114-117.
(نقله: هارون يحيى، التضحية عند الحيوان، ص١٤ ـ ١٥).

(٢) بيتر كروبتكين Peter Kropotkin (١٨٤٢ ـ ١٩٢١م): عالم تطوّريٌّ وناشطٌ سياسيٌّ روسيٌّ.

(٣) Kropotkin, *Mutual Aid: A Factor of Evolution* (London: William Heinemann, 1919), Chapter 1.
(نقله: هارون يحيى، التضحية عند الحيوان، ص١٢٨).

المبحث الرابع

عجائِبُ الغرائِزِ مع داوكنز

من أجمل ما قيل في باب الغرائزِ، ما كتبه (داوكنز) في كتابه «أَعْظَمُ استعراضٍ على الأرض». فقد ذكر فيه أمثلةً رائعةً تقشعِرُّ لها جلودُ العلماء وتزيد المؤمنين خُشوعًا في محرابِ العَظَمةِ الإلٰهيّةِ في أمر وصولِ النَّباتات ـ التي لا تتحرَّكُ من مكانها ضرورةً ـ إلى الحصول على التَّلقيحِ لِضمانِ البقاء النّوعيِّ.

يتساءَلُ (داوكنز): «كيف تتوصَّلُ الزُّهورُ إلى الفوزِ بحبوب اللَّقاحِ عبر الفجوةِ الفيزيقيّةِ التي تفصلها عن الزّهورِ الأُخرى من النّوع نفسِه؟ الطريقةُ الواضحةُ هي عن طريق الرّياح، وتستخدمُ الكثيرُ من النباتات هذه الطريقةَ. حُبوبُ اللَّقاحِ مسحوقٌ دقيقٌ خفيفٌ، إذا انطلقَ منها قَدْرٌ كافٍ في يومٍ يَهبُّ فيه النَّسِيمُ، قد يَصِلُ واحدٌ أو اثنين من حبوب اللّقاحِ المحظوظةِ إلى أن يَحُطَّ فوق المكان المناسب في زهرةٍ من النّوعِ المناسبِ»[1].

ثم يخبرنا (داوكنز) الملحِدُ عن خيار اقتصاديٍّ ذكيٍّ للنّبات، وهو استئجارُ الحَشَرَاتِ لتحقيق التّلقيحِ. يقول: «القِصّةُ في بعض الحالات مُعقّدةٌ إلى حدٍّ بالغٍ، وهي في كلّ الحالاتِ **فاتِنةٌ**. تستخدمُ زهورٌ كثيرةٌ الطّعامَ **رَشْوَةً،** ويكون هذا عادةً من الرَّحِيقِ. ربّما تكون كلمةُ رَشْوةٍ مَشْحُونةً بأكثرَ مما يَجِبُ. هل تُفَضِّلُ استخدامَ «دَفْعِ أَجْرٍ عَمَّا يُقدَّمُ من خِدْماتٍ»؟. أنا أَجِدُ متعةً في

(١) ريتشارد دوكنز، أَعْظَمُ استعراضٍ فوقَ الأَرْضِ، ترجمة وتقديم: مصطفى إبراهيم فهمي (القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ٢٠١٣م)، ١/ ٩٠.

الإجابتَيْنِ معًا، ما دُمْنا لا نُسيءُ فَهْمَهما بالطّريقة البشريّةِ. الرَّحِيقُ شرابٌ سُكَّريٌّ، تُنْتِجُهُ النّباتاتُ بوجهٍ خاصٍّ، **وذلك فَحَسْبُ لِتَدْفَعَ الأَجْرَ**، ولِتُزَوِّدَ بالوقودِ النَّحْلَ والفراشاتِ، وطُيورَ الطّنَّانِ، والخفافيشَ وغير ذلك من وسائلِ النَّقْلِ المستأْجَرَةِ. صُنْعُ الرّحيقِ له ثَمَنٌ مُكلّفٌ، فهو يُوَجِّهُ جانبيًّا جُزءًا من طاقة الشّمسِ السَّاطعةِ التي تَحْتَبِسُها الأوراقُ، أو الألواحُ الشّمسيّةُ للنّبات. من وجهةِ نظرِ النَّحْلِ وطُيورِ الطَّنَّانِ، يكون هذا وَقُودًا للطَّيران له طاقةٌ عاليةٌ. الطّاقةُ المحتَبَسَةُ في سُكّريّاتِ الرّحِيقِ كان يمكن استخدامها في مواضعَ أخرى من اقتصاديّات النّباتِ، ربّما لِصُنْعِ الجُذُورِ، أو لملءِ مستودعاتِ التَّخْزينِ تحت الأرضِ التي نُسمِّيها بالدَّرَناتِ والأَبْصالِ والجُذُورِ البَصَلِيَّةِ، أو حتّى لِصُنعِ كَمّيَّاتٍ ضخمةٍ من حُبوبِ اللّقاحِ لِنَشْرِها على مَتْنِ الرِّياح الأَرْبَعَةِ. من الواضحِ أنّه بالنِّسبةِ لِعَدَدٍ كبيرٍ من أنواعِ النَّباتِ تَنجحُ عمليّةُ البيعِ إذْ تُحَبِّذُ دَفْعَ أَجْرٍ للحَشَراتِ والطُّيورِ بالسُّكَّرِ من أجلِ استخدامِ أَجْنِحَتِها، وتزويدِ عَضَلاتها بوقودٍ للطَّيرانِ»[1].

ويُحدِّثُنا (داوكنز) عن إغراء الزُّهورِ للحَشَراتِ برائحتها الزكيّةِ، غير أنه يُفاجِئنا بخبر عددٍ من الزُّهورِ ـ مثل زهرةِ «بنيامين النّتن» و«زهرة الجيفة» ـ تستخدِمُ ذُبابَ اللَّحْمِ أو خنافسَ الجيف الملقّحات، هذه الزُّهور كثيرًا ما تجعلنا نشعُرُ بالغَثَيانَ؛ لأنّها تُحاكِي رائحةَ اللَّحْمِ العَطِنِ لِجَذْبِ الحَشَراتِ المُحِبَّةِ لِلْجِيَفِ[2].

وأَغْربُ مما سبق حديثُ (داوكنز) عن الزُّهورِ التي لا تَسْحَبُ الحَشَرات برائحتها الزكيّة فقط؛ بل تجعل رائِحَتَها **مِثْلَ رائحةِ أُنْثى** الحَشَراتِ، وتُشَكِّلُ نفسَها على **صورةِ** إناثِ هذه الحَشَراتِ.

حقيقةً، كنت أَتَصَوَّرُ أنّ الملحدين سَيُنْكِرون التَّشابُهَ الهائِلَ بين الحَشَراتِ وهذه النَّباتات؛ لأنَّ الإقرارَ بحقيقة التَّشابهِ والقصد منه، يلزمُ منهما ضرورةً

(١) المصدر السابق، ١/ ٩٠ ـ ٩١.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٩٦ ـ ٩٧.

وجود بديع حكيم، لكنَّ (داوكنز) اختارَ الصِّدْقَ في الوَصْفِ ـ لا في لازِمِهِ ـ؛ فقال: «إنَّ هناكَ زُهُورًا أُخرى وجدَتْ طريقًا جانبيًّا لِتَتَجَاوَزَ نفقاتِ إطعامِ عوامِلِ التَّلْقِيحِ، وذلك بأنْ تَعْمَلَ بدلًا من ذلك على خِداعِها. إنَّ زُهورَ الأُوركيدِ تُشْبِهُ إناثَ النَّحْلِ (أو الدَّبابير أو الذُّباب) شَبَهًا يكفي لخداع الذُّكورِ لتحاول جِماعَهَا. وبمدًى ما تُشبِهُ هذه الزُّهورُ الـمُحاكِيةُ إناثَ نوعٍ بِعَيْنِهِ من الحَشَرَاتِ، فإنَّ ذُكورَ هذا النّوعِ ستعملُ حسب هذا المدى كرصاصاتٍ سِحريّةٍ، وتذهبُ من زَهْرةٍ إلى أُخرى من هذا النّوع وَحْدَهُ من الأُوركيد؛ بل حتى لو كانت زهرةُ الأوركيدِ تُشبِهُ أيَّ «نَحْلةٍ قيمة» بدلًا من نوعٍ واحدٍ من النّحلِ، فإنّ حشراتِ النّحلِ المخدوعةَ بها سَتَظَلُّ تعملُ «إلى حدٍّ كبيرٍ» كرصاصةٍ سِحريّةٍ. عندما تَنْظُرُ أَنْتَ أو أَنْظُرُ أنا عن كَثَبٍ إلى زهرةِ أُوركيد تُشبِهُ الذُّبابةَ أو النَّحْلةَ، سوف نستطيع أن نعرفَ أنّها ليست حَشَرَةً حقيقيّةً؛ ولكنّنا سننخَدِعُ لو أَلْقَيْنَا عليها نظرةً عارضةً بطرف العَيْنِ. وحتّى لو نظرنا إليها مباشرةً، فإنني سأقولُ: إنّ زهرةَ الأوركيدِ المشابِهَة للنّحلِ من الواضح أنّها تُشبه النّحلةَ الطَّنَّانةَ أكثر من أن تُشْبِهَ نحلةَ العَسَلِ»[(١)].

وقَدَّمَ (داوكنز) أمثلةً أخرى **بديعةً مُلْهِمةً**، أَجِدُ نفسي مضطرًّا لِعَرْضِها هنا، فقال: «هناك زهرةُ الأوركيد المسمَّاةُ بعنكبوت الأُوركيد « Brassia»، وهي تَتَوَصَّلُ إلى أن تُلَقَّحَ عن طريق نوعٍ مختلفٍ خَدَّاعٍ. هناك إناثٌ لأنواعٍ مختلفةٍ من الدَّبُّور المتوحّد (ويُسمَّى «بالمتوحّد» لأنّ هذه الدَّبابير لا تعيشُ اجتماعيًّا في أعشاشٍ كبيرةٍ مثل حشراتِ الخريفِ المألوفةِ المسمّاة بالسُّترات الصَّفْراءِ عند الأمريكيِّين). وهذه الإناثُ تُمْسِكُ بالعناكِبِ، وتَلْدَغُهَا لِتَشُلَّها، وتَضَعَ بَيْضَها من فوقها لتكون العناكبُ مصدرَ غذاءٍ حَيٍّ لِيَرَقاتِ الدَّبُّور. زهورُ أوركيدِ العنكبوتِ تُشبِهُ العناكِبَ شَبَهًا كافيًا لأن تَخْدَعَ إناثَ الدَّبابيرِ فتحاولُ لَدْغَها. أثناء هذه العمليّة تلتقِطُ الإناثُ اللَّواقيحَ ـ اللَّاقوحُ كتلةٌ من حُبوبِ اللَّقاحِ تُنْتِجُهَا زُهور الأُوركيد ـ. وعندما تنتقِلُ إناثُ الدَّبابيرِ لتحاول لَدْغَ زهرةٍ

(١) المصدر السابق، ص١٢٤.

أُوركيد عنكبوتٍ أُخرى، تَتَنَقَّلُ مَعَها اللَّواقيحُ. لا أستطيع هنا أن أُقاوِمَ رغبتي في أن أُضِيْفَ الحالةَ العكسِيّةَ تمامًا للعنكبوت المسمّى «إبيكادس هيتروجاستر» الذي يُقَلِّدُ شَكْلَ زهرة الأوركيد. تأتي الحَشَرَاتُ إلى تلك «الزّهرة» بحثًا عن الرّحيق، ويَتِمُّ في التَّوِّ التهامُهَا بواسطة العنكبوتِ الزّهرة.

بعضٌ من زهور الأوركيد الأكثر إذهالًا في ممارسة هذه الخُدْعةِ من الإغواءِ موجودةٌ في غرب أستراليا. هناك أنواعٌ مختلفةٌ من جنس (دراكي) معروفةٌ بزهرةِ الأُوركيدِ المِطْرَقَةِ. لكلِّ نوعٍ منها علاقةٌ خاصّةٌ بنوعٍ بِعَيْنِهِ من الدَّبابيرِ من النّوعِ المسمَّى (ثينيد). أحدُ أجزاءِ الزّهرةِ يُشبِهُ إحدى إناثِ الحَشَرَاتِ شَبَهًا بدائيًّا، بما يَخْدَعُ الدَّبُّورَ ليحاول الجِماعَ مع هذا الجُزْءِ.

حسب وَصْفي حتّى الآن، فإنّ زهورَ (الدّراكي) لا تختلف اختلافًا دراميًّا عن زهور الأوركيدِ الأُخرى التي تحاكي الحشراتِ، إلّا أنّ زهورَ الدّراكي تخفي في كُمِّها خُدْعةً إضافيّةً مُهمّةً: أُنثى «الدَّبُّورِ» المُزَيَّفة المحمولة على طرفِ «ذراعٍ» له مِفْصلٌ، و«كُوعٌ» مَرِنٌ... عندما يُمْسِكُ الدَّبُّورُ بأنثى الدّبّورِ الدُّمْية فإنّ حركَتَهُ الخافِقةَ تُسبِّبُ ثَنْيَ «الكُوعِ» ويتكَرَّرُ لَطْمُ الدّبّورِ جِيْئةً وذهابًا بِمِثْلِ مِطْرقةٍ تَلْطمه إزاء الجانب الآخر من الزَّهرةِ - دَعْنَا نُسَمِّيْهِ بالسِّنْدانِ - حيث تحتفظُ الزّهرةُ بأجزائِها التَّكاثريّةِ. تَنْزاحُ اللَّواقيحُ من موضِعِها وتلتَصِقُ بالدّبّورِ الذي يَنْتَزِعُ نفسَهُ مُتَخَلِّصًا في النّهاية ويطير مُبْتَعِدًا، وهو أكثرُ أَسًى وإن كان واضحًا أنّه ليس أَكْثَر حِكْمةً: ذلك أنّه ينطلق لِيُكَرِّرَ الأداءَ نفسَهُ فوقَ زهرةٍ أُخرى من زهور الأوركيد المِطْرَقةِ، حيث يرتَطِمُ هو واللَّواقيح التي يحملها الارتطام الملائم على السِّندان، بحيث تجد بضاعَتُهُ المنقولَةُ ملاذها المحتومَ على الأعضاء الأُنثويّةِ للزَّهْرةِ...

ناقشتُ في محاضرةٍ أَمْرَ زهرة «الأوركيد الدَّلْو» بأمريكا الجنوبيّة التي تتوصَّلُ إلى أن يتمَّ تلقيحُها بطريقةٍ أُخرى مختلفة نوعًا ولكنّها بالدَّرجةِ نفسها من **الرَّوْعَةِ**. هذه الزَّهرةُ لها أيضًا حشراتُ تلقيحٍ خاصّة بها، ليست دبابيرَ، وإنّما هي نَحْلٌ صغيرٌ من المجموعة المسمَّاة «يوجلوسين». مرّة أخرى، لا تُوفِّرُ هذه الزُّهورُ أيَّ رحيقٍ، ولكنّها أيضًا لا تَخْدَعُ النَّحْلَ ليجامعها. وبَدَلًا من

ذلك، فإنّها تُوَفِّرُ جُزءًا حَيَوِيًّا لمساعدة ذُكورِ النَّحْلِ فلا تستطيع ذكور النّحل دونه من جذبِ الإناث الحقيقيّةِ.

هذه الحشرات الصّغيرةُ من النّحلِ تعيش فقط في أمريكا الجنوبيّة، ولها عادةٌ غريبةٌ، فهي تنطلِقُ لمسافاتٍ لها قَدْرُها لِجَمْعِ الموادّ ذاتِ العِطْرِ أو أيّ موادَّ أُخرى ذات رائحةٍ نَفَّاذةٍ، وتَخْتَزِنُهَا في أوعيةٍ خاصّةٍ مُلْحَقةٍ بسيقانها الخلفيّة الكُبْرى. نجد في الأنواع المختلفة أنّ هذه الموادَّ ذات الرائحةِ تأتي من مصادرَ مختلفةٍ كالزُّهور، أو الأخشاب الميّتةِ، أو حتّى من البُرازِ. يبدو أنّ هذه الحشراتِ تستخدمُ هذه الرّوائح المجمَّعَةَ لِجَذْبِ الإناثِ أو مغازَلَتِها. هناك حشراتٌ كثيرةٌ تستخدِمُ رائحةً معينّةً لاجتذابِ الجنسِ الآخَرِ، ومعظمُ الحشراتِ تُنْتِجُ هذه العُطُورَ في غُدَدٍ خاصّةٍ. مثالُ ذلك: أنّ أُنْثى فراشةِ الحرير تجذِبُ الذُّكورَ وهي على مسافاتٍ بعيدةٍ مُذْهِلةٍ بأنْ تُطْلِقَ رائحةً فريدةً تنتجها بنفسِها وتكتشِفُها الذُّكورُ بقرونِ استشعارِهَا، **حتّى ولو كانتْ آثارًا من كميّاتٍ ضئيلةٍ تَبْعُدُ ـ حَرْفِيًّا ـ أَمْيالًا**. نجد في حالة نَحْلِ اليوجلوسين أنّ الذُّكورَ هي التي تستخدم الرّائحةَ. هذه الذُّكورُ، على عكسِ إناثِ الفراشِ، لا تقوم بتركيبِ الرَّوائح الخاصّةِ بها، وإنّما تستخدم مُكوّناتٍ ذاتِ رائحةٍ تكون قد جَمَعَتْها، وهي لا تَجْمَعُها كموادّ نقيّة وإنّما في أَخْلاطٍ تُمْزَجُ بِحِرْصٍ، تَخْلِطُها مَعًا مثلما يفعل صانِعُ العُطُورِ الخبير. تمزج كلَّ نوعٍ مَزْجًا خاصًّا من موادَّ جُمِعَتْ من مصادرَ مختلفةٍ. كما أنّ هناك بعضَ أنواعٍ من نحلِ اليوجلوسين تحتاج بشدَّةٍ عند إنتاجِ الرّائحةِ الخاصّةِ بنوعها إلى موادَّ تُوَفِّرُها فقط زهورٌ من أنواعٍ معينّةٍ من الأُوركيد من جنس «كوريانثيس»؛ أي: أُوركيد الدَّلْو. الاسمُ الشّائِعُ لِنَحْلِ اليوجلوسين هو «نَحْلُ الأُوركيدِ».

يا لها من صورةٍ متشابكةٍ للاعتماد والتَّبَادُلِ. تحتاج زهورُ الأوركيدِ نَحْلَ اليوجلوسين للأسبابِ المعتادة «للرَّصاصةِ السِّحريّةِ». والنَّحْلُ يحتاجُ زهورَ الأُوركيدِ لسببٍ أَكْثَر غَرَابةً، وهو أَنَّ ذُكورَ النّحلِ لا تستطيع اجتذابَ الإناثِ بغير موادَّ يستحيلُ أو على الأَقَلِّ يَصْعُبُ كلَّ الصُّعوبةِ العُثورُ عليها إلّا من خلال الخِدْماتِ الطّبّيّةِ لزهورِ أُوركيد الدَّلْو. على أنّ الطَّريقةَ التي يَتِمُّ بها

تلقيحُ الزُّهورِ لهي حتّى أَكْثَرُ غرابةً، وهي ظاهريًّا تجعل النَّحْلَ يبدو أَشْبَهَ بأن يكون ضَحِيَّةً وليس شريكًا مُتعاوِنًا.

ينجذِبُ ذَكَرُ نَحْلِ اليوجلوسين إلى زَهْرِ الأُوركيد بواسطة رائحةِ الموادِّ التي يحتاجها حتّى يُنْتِجَ عُطورَهُ الجِنْسِيَّة. يَحُطُّ ذَكَرُ النَّحْلِ على حَرْفِ الدَّلْوِ ويبدأُ في حَكِّ المادَّةِ العِطْرِيَّةِ الشَّمْعِيَّةِ للدَّاخِلِ من الجيوبِ الخاصَّةِ لِحِفْظِ المادَّةِ ذات الرّائحةِ في سِيْقانِهِ. إلَّا أنَّ حَرْفَ الدَّلْوِ يكونُ زَلِقًا تحت قَدَمِهِ، وهناك سببٌ لذلك. يقع ذَكَرُ النّحلِ داخلَ الدّلو المملوءِ بالسَّائِلِ، ويَسْبَحُ فيه. يَعْجَزُ الذَّكَرُ عن التَّسَلُّقِ لأعلى جوانبِ الدَّلْوِ الزَّلِقَةِ. لا يوجد إلَّا طريقٌ واحِدٌ للنَّجاةِ، وهو ثَقْبٌ خاصٌّ في حَجْمِ حَشَرَةِ النَّحْلِ موجودٌ في جانب الدَّلْوِ. هناك حَصًى «مُتَدَرِّجةٌ كَسُلَّم» تَقُودُه إلى الثَّقْبِ ويأْخُذُ في الزَّحْفِ من خِلالِهِ. الحَيِّزُ ضَيِّقٌ، ويصبح حتّى أَكْثر ضِيْقًا عندما يَنْقبِضُ فيه «فَكَّانِ» ويَحْتَبِسَا الذَّكَرَ. وأثناء بقاء ذَكَرِ النّحلِ في قَبضةِ الفَكَّيْنِ، فإنّهما يُلْصِقانِ لاقُوحَيْنِ بالصَّمْغِ على ظَهْرِهِ. يستغرِقُ الصَّمْغُ بعضَ الوقتِ لِيستقِرَّ، وبعدها يرتخي الفَكَّانِ ثانيةً ويُطْلِقانِ ذَكَرَ النَّحْلِ، فيطيرُ مُبْتَعِدًا، وقد اكتملَ الأَمْرُ باللَّواقيحِ فوق ظَهْرِه. لا يزال الذَّكَرُ يسعى وراءَ المكوّناتِ الثّمينةِ لِعِطْرِهِ، فَيَحُطُّ فوق زهرةِ أُوركيد دَلْوٍ أُخرى وتتكرَّرُ العمليّةُ مرّةً أُخرى. إلَّا أنّه يحدث في هذه المرّة أثناء نِضالِ الذَّكَرِ خلال ثَقْبِ الدَّلْوِ، أنْ تُكْشَطَ اللَّواقيحُ من فوق ظَهْرِه لِتُخَصِّبَ مِيْسَمَ زهرةِ الأُوركيد الثّانيةِ»[1].

قد **تسألني مُنْدَهِشًا**: لِمَ لمْ يرَ (داوكنز) في هذه النّماذج الواضحة على الإبداعِ الإلٰهيِّ برهانًا على وجودِ اللهِ؛ فإنّ القولَ بالعشوائيةِ والانتخابِ الطّبيعيِّ في هذا المقام عجيبٌ؟ وجَوَابي: هو أنّ (داوكنز) كان أثناءَ عَرْضِهِ لهذه النّماذج مشغولًا ببيان أسبابِ مقاومةِ هذه الكائناتِ لعواملِ الاندثارِ لا أسبابِ ظهورِها. ونحن دون رَيْبٍ نوافِقُهُ أنَّ هذه الأساليبَ الخِداعِيَّةَ الباهرةَ من أسباب بقاء هذه الكائنات، لكنّنا نَعْجَبُ كلّ العَجَبِ كيف لم يُفَكِّرْ (داوكنز) في أَسبابِ هذا التّعقيد الحَكِيمِ!

(١) المصدر السابق، ص١٢٥ ـ ١٢٨.

حَشَرَةُ (bee orchid) على شَكْلِ أُنْثى النَّحْلِ لِجَذْبِ الذُّكُورِ



حَشَرَةُ (Orchid mantis) مُتَنَكِّرةً في شَكْلِ زَهْرةٍ لِخِداعِ فَرَائِسِها



مختصر النَّظَرِ:

- لم يُقدِّمِ الدَّراونةُ آليّةً مقبولةً عِلْمِيًّا لظهور الغرائزِ في الكائناتِ الحيّةِ.
- من أكبرِ مُعضِلاتِ الغرائزِ في التّفسير الماديِّ أنّها مُتنوّعةٌ جدًّا، ومختلفةٌ طبعًا؛ بما يمنع أن تكون راجعةً إلى آليّةٍ واحدةٍ أو آليّاتٍ متقاربةٍ.
- عامّةُ الغرائزِ تبدأُ مُعقّدةً، مرتبطةً بالعِلمِ بالهندسة والرياضيات أو قوانينِ الفيزياء.. وهي تَظْهَرُ غالبًا مع الكائنِ الحيِّ منذُ ولادَتِه.
- التّفسيرُ الماديُّ الوحيدُ المعقولُ لطابعِ الغرائزِ الحيوانيّةِ أن يكون الحيوانُ قد اكتسَبَها تعليمًا من أَبَوَيْهِ، ولكن يُعارِضُ ذلك أنَّ هذه الكائناتِ تُظْهِرُ سُلُوكَها الغرائزيَّ ولو لم تَعْرِفْ لها أَبَوَيْنِ.
- لا يوجد تفسيرٌ جِيْنِيٌّ لعامّةِ الغرائزِ؛ وهو ما يمنعُ القولَ بِنُشُوئِها التطوّريِّ، وتَوَارُثِهَا.

مراجع للتَّوَسُّعِ:

شوقي أبو خليل، غريزةٌ... أم تقديرٌ إلٰهيٌّ، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧م.

كريسي موريسون، تعريب: محمود صالح الفلكيّ، العلم يدعو للإيمان، بيروت: دار القلم، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

روبرت لمون، تعريب: كامل عطا، الغريب في عالم الحيوان، القاهرة: دار المعارف، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

Jonathan Sarfati, *By Design: Evidence for Nature's Intelligent Designer*, Powder Springs, GA: Creation Book Publishers, 2008.

Geoffrey S Simmons, *Billions of missing links*, Eugene: Harvest House, 2008.

William Paley, *Natural Theology or Evidences of the Existence and Attributes of the Deity*, Philadelphia, John Morgan, 1809, Chap. 18.

الباب الثالث

آيات الله في وجود الوجود

ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾

ـ «جَعَلَ اللهُ كُلَّ شَيْءٍ في العالَمِ مُعَلِّمًا لنا»[(١)]

الكاتب والخطيب المفوّه (سبرجيون)[(٢)]

---

(١) Charles H. Spurgeon, *Lectures to My Students*, lecture 7.

(٢) تشارلز سبرجيون Charles Spurgeon (١٨٣٤ ـ ١٨٩٢م): واعظٌ إنجليزيٌّ شهيرٌ لُقِّبَ بـ«أميرِ الوُعَّاظِ». له مؤلّفاتٌ كثيرةٌ في الوعظ والتّفسير والشِّعْرِ...

تمهيد

هل نَظَرْتَ حَوْلَكَ مَرَّةً، ورَفَعْتَ رأْسَكَ أُخرى، ثم قلتَ: لماذا وُجِدَ الوُجودُ؟

لعلَّكَ لم تواجِهْ نفسَكَ بالسُّؤالِ السَّابقِ لأنَّكَ تعتقِدُ أنّك وَصَلْتَ إلى جوابِه.. فإن لم تكن وَصَلْتَ بَعْدُ، فاعلمْ أنّ الألفةَ هي التي مَنَعَتْكَ أن تسأل أَعْظَمَ الأسئلة وأكثرها بَدَاهةً..!

إنّه سؤالٌ يُحاصِرُ العَيْنَ اليَقِظَةَ حتى لا تَغْفُو، يسأَلُهُ المؤمنُ والملحِدُ واللّاأَدْرِيُّ ليدرِكَ موقِعَهُ من الوجودِ؛ فإنَّ من لم يَفْهَمْ أَصْلَ الوجودِ، لم يُدْرِكْ حقيقةَ نفسِه ومَوْضِعَ قَدَمِهِ.. إنّه شرارةُ الفِكْرِ الأُولى؛ ولذلك قال الفيزيائيُّ (ستفن هاوكنج) ـ إحدى أيقونات الإلحادِ ـ: «تَذَكَّرْ أَنْ تَنْظُرَ إلى أعلى، إلى النُّجومِ، لا إلى أسفلَ، إلى رِجْلَيْكَ. حاولْ أَنْ تَعْقِلَ ما ترى، وأنْ تتساءَلَ: ما الذي جعل الكونَ موجُودًا. كُنْ مُحِبًّا لِلْكَشْفِ!»[1]

ومُحَفِّزاتُ السُّؤالِ عن وجود الوجودِ تنطلق كُلُّها من الكلمةِ المُرْهِقةِ لِلْعَقْلِ والمُمْتِعَةِ لِلنَّفْسِ: «لماذا؟».. لماذا كان ذلك كذلك؟، ولماذا لم يكنْ ذلك غير ذلك؟ هل تستدعي نَفْسِي «لماذا»؟ أم أنّها واردةٌ على النَّفْسِ من خارجِها؟ أم هي كامنةٌ في كُلِّ شيءٍ؟ ماذا لو عِشْتُ بلا «لماذا»؟ ولماذا أَجِدُ في «لماذا» ـ عند التَّفكيرِ العاقلِ ـ لَذَاذَةً؟ ولماذا تُصيِّر «لماذا» عقولَ بعضهم

(١) Cited in: Sunil Singh, *Pi of Life: The Hidden Happiness of Mathematics* (Rowman & Littlefield, 2017), p.51.

جُذاذًا؟ هل المشكلةُ في «لماذا»، أم في العقلِ الذي يَنْحَتُ بِفَأْسِ «لماذا» عقائِدَهُ؟

وسؤالُ «لماذا؟» عند البحثِ في أمرِ وجودِ اللهِ، يستدعي النَّظَرَ في مسائلَ كثيرةٍ، أَهَمُّهَا طَلَبُ أَجْوبةِ الأسئلة التالية:

١ ـ لا يَجِدُ العقلُ حَرَجًا في تَصَوُّرِ امتناع أَلَّا يوجد الكَوْنُ.. فلماذا إذنْ وُجِدَ الكونُ رغم أنّه ممكنٌ من الممكنات؟

٢ ـ الكونُ ليس من نَحْتِ أَيْدِينا؛ فلماذا يبدو مفهُومًا بصورةٍ غير مفهومةٍ؟

٣ ـ إذا كان الكون مخلُوقًا؛ فلماذا لم يكنْ أَزَلِيًّا؟ وإذا كان أَزَلِيًّا؛ فلماذا يَجِدُ العقلُ نَكارةً في التَّسليم بِأَزَلِيَّتِهِ؟

تلك هي الأسئلةُ التي تفتحُ بابَ الفَهْمِ على مِصْراعَيْهِ لمن أراد أن يدفَعَ الشِّقاقَ بين عَقْلِهِ والوجودِ مِنْ حولِهِ..

الفصل الأول

لماذا كان الوجود وجودًا؟

ـ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]

ـ «أَشْعُرُ أَنَّ عَقْلِي في كثيرٍ من الأحيانِ يَئِنُّ تحت ثِقَلِ الدّلالةِ العظيمةِ التي يُمَثِّلُهَا هذا السُّؤَالُ لي. وجودُ أيِّ شَيْءٍ بالكليّةِ يبدو لي مَصْدَرًا لِرَهْبَةٍ عَمِيْقَةٍ»[١].

الفيلسوفُ الأستراليُّ الملحِدُ (ج. ج. س. سمارت)[٢]

بين خيارين: وجود مفهوم أم صور غائمة؟

لن نفهمَ الوجودَ بعقولنا حتى يَتَمَلَّكَنَا حالُ الاندهاشِ.. ومصدرُ أوّلِ اندهاشٍ للعقلِ أمامَ هذا الوجودِ، وقبلَ النَّظَرِ في طبيعتِهِ، ونظامِهِ، وجَمَالِهِ، سؤالُ: لماذا يوجد الوجود؟ أو بالصياغة الأثيرةِ لدى الفلاسفةِ منذ القَدِيم: «لماذا يوجد شيءٌ بدلًا من لا شيءٍ؟» «Why there is something rather than nothing?».

وتتداعى بعد ذلك الأسئلةُ الكبرى اللَّحُوحةُ: لماذا كان ذلك كذلك؟ لماذا يوجد الحَجَرُ والشَّجَرُ، ولماذا الذَّرَّةُ والمجرَّةُ؟ لماذا وُجِدَ الوجود الماديُّ؟ لماذا لم يكن العَدَمُ الحقيقةَ الوحيدةَ؛ «فالمُتَيَقَّنُ أنَّ الوضعَ الأكثرَ طبيعيّةً هو ببساطةٍ العَدَمُ»؟![٣].

---

(١) J.J.C. Smart, "The Existence of God," in *Church Quarterly Review 156 (1955): 194.*

(٢) ج. ج. س. سمارت J.J.C. Smart (١٩٢٠ ـ ٢٠١٢م): فيلسوفٌ أستراليٌّ معروفٌ. له عنايةٌ خاصّةٌ بفلسفة الدِّينِ وفلسفةِ العقل ومشكلة الوَعْيِ.

(٣) Richard Swinburne, *Is There a God*, p. 48.

يقول الفيلسوفُ البريطانيُّ (كيث وارد): «لقد بدا لِغالبيّةِ أولئك الذين فَكَّرُوا بعمقٍ وكَتَبُوا عن أصلِ الكونِ وطبيعتِه أنّه يشيرُ إلى مَصْدَرٍ وراءَهُ، وهو مصدرٌ غيرُ فيزيائيٍّ وصاحِبُ ذكاءٍ وقُوّةٍ عظيمَيْنِ. تقريبًا كلُّ كبارِ الفلاسفةِ الكلاسيكيِّين ـ بالتأكيد أفلاطون، وأرسطو، وديكارت، ولايبنتس، وسبينوزا، وكانط، وهيغل، ولوك، وبيركلي ـ رَأَوْا أنَّ أصلَ الكونِ كامنٌ في القول: إنَّ الكونَ لا يُفَسِّرُ نفسَهُ، وإنّه يحتاجُ إلى تفسيرٍ من خارِجِهِ»[1].

إنّه سؤالٌ عن طابع الإمكانِ في هذا الوجود؛ فوجودُنا لا يَقْهَرُ عقولَنا على اعتقادِ أنّه واجب التّحقُّقِ، كما أنّ وجودَنا أيضًا يمنَعُنا من افتراضِ امتناعِ هذا الوجودِ. وطابع الإمكان في وجودنا داع للتفكير في ذاتٍ فَرَضَتْهُ على الوجودِ. . وذاك هو «اللهُ».

الظَّريفُ هنا هو أنّه رغم أنَّ هذا البرهانَ ـ المسمّى «برهان الإمكان» ـ كان أبرز البراهينِ على وجودِ الله في الجَدَلِ الفلسفيِّ منذ (أرسطو) إلى حدود القرن التاسع عشر، إلَّا أنّه ـ كما يقول الفيلسوفُ التّوماويُّ السَّاخرُ (إدوارد فزر) ـ قد استعصى فَهْمُهُ على جميع أعلامِ الإلحاد الجديد[2].

حَظِي هذا البرهانُ باهتمامِ فلاسفةِ اليونانِ القدماءِ، وفلاسفةِ النّصارى واليهودِ في القرونِ الوسطى، كما كان أَبْرَزَ أَدِلَّةِ من عُرِفُوا بـ«فلاسفة الإسلامِ»، خاصّةً (ابن سينا)، وقال به المتكلّمون وأَهْلُ الحديث. . .

لن نُطِيلَ الحديثَ في هذا البرهان، لِبَسَاطَتِهِ ووُضُوحِهِ من جهةٍ، ولطابع التّجريدِ فيه بما يجعل التَّعَمُّقَ في التّفصيلِ سببًا لإغماضِهِ، فقد اعتادَ العقلُ المعاصِر لُغَةَ التّمثيلِ بالمحسوساتِ والأرقام، وهو ما لا يوافق العَرْضَ البَيانِيَّ لهذا البرهان. . . فما هو برهانُ الإمكانِ؟

---

(١) Keith Ward, *God, Chance and Necessity* (Oxford: One World Publications, 1996), p.1.

(٢) Edward Feser, So you think you understand the cosmological argument?
<http://edwardfeser.blogspot.com/2011/07/so-you-think-you-understand.html>.

«هذا اللُّغْزُ العظيمُ الذي يستَحِثُّ عقولَنا: ما العالَمُ؟ ما الإنسانُ؟ من أين جاءَا؟ مَنْ صَنَعَهُمَا؟ من يُدَبِّرُهُما؟ ما هَدَفُهما؟ كيف بَدَءَا؟ كيف ينتهِيان؟ ما الحياةُ؟ ما الموتُ؟ ما القانونُ الذي يجب أن يقودَ عقولَنا في أثناء عُبورنا في هذه الدُّنيا؟ أيُّ مستقبلٍ ينتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجدُ شيءٌ بعد هذه الحياةِ العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود؟ هذه الأسئلةُ لا توجد أُمّةٌ ولا شَعْبٌ ولا مجتمعٌ إلَّا وَضَعَ لها حُلولًا جيّدةً أو رديئةً، مقبولةً أو سخيفةً، ثابتةً أو متحوّلةً »[1]. (برتلمي سنت هيلار)[2].

صياغةُ البرهانِ

يقول القرآنُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦﴾ [فاطر: ١٥، ١٦]؛ فالفَقْرُ صفةٌ جوهريّةٌ في الإنسانِ وجميعِ أجزاءِ العالَمِ، والفقيرُ لا يملِكُ صِفَةً تُلزم العقلَ أن يقول بضرورةِ وجودِه، فهو فقيرٌ محتاجٌ في وجودِه إلى من يُخْرِجُهُ من وَهْمِ العَدَمِ إلى حقيقةِ الوجودِ. وتلك هي حقيقةُ برهانِ الإمكانِ.

ويُعتبر برهانُ الإمكانِ أَهَمَّ صياغاتِ «البرهان الكوسمولوجيّ» الذي يُعْنى بإثباتِ وُجودِ «سَبَبٍ أَوَّل» للوجود لا سَبَبَ لَهُ. ولبرهانِ الإمكانِ أكثرُ من صيغةٍ، أَهَمُّها الصِّيغةُ التُّوماويَّةُ (نسبة إلى اللَّاهُوتيِّ توما الأكويني[3])، والصّيغة السِّيناويَّةُ (نسبة إلى ابن سينا)، والصِّيغةُ اللايبنتسية (نسبةً إلى الفيلسوفِ الألمانيِّ غوتفريد لايبنتس[4])، وتَتَّفِقُ براهينُ الإمكانِ على حاجة

(١) نقله: محمّد مصطفى الزّحيليّ، وظيفة الدّين في الحياة (طرابلس: جمعيّة الدّعوة الإسلاميّة العالميّة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، ص٣٥.

(٢) برتلمي سنت هيلار Barthélemy-Saint-Hilaire (١٨٠٥ - ١٨٩٥): فيلسوفٌ فرنسيٌّ. تَرْجَمَ عَدَدًا من كتب أرسطو إلى الفرنسيّة، وله دراساتٌ في الأديان الشرقيّة، كما أَلَّفَ كتابه: «محمّد والقرآن».

(٣) توما الأكوينيّ Thomas Aquinas (١٢٢٥ - ١٢٧٤م): أحد آباءِ الكنيسةِ وقدِّيسيها. ما يزال تأثيرُه على اللّاهوتِ الكاثوليكيِّ ومباحثِ المعرفة في الكنيسة الكاثوليكيّة قَوِيًّا.

(٤) غوتفريد لايبنتس Gottfried Leibniz(١٦٤٦ - ١٧١٦م): فيلسوفٌ وعالم رياضياتٍ ألمانيّ بارز، =

كلّ شيءٍ إلى سَبَبٍ أوَّل، سواء بطريق مباشرٍ أو من خلال أسبابٍ مُسَبَّبة تنتهي إلى سَبَبٍ أوَّل.

عامّةُ صياغاتِ برهانِ الإمكانِ تقومُ على أنّ وجودَ أيِّ شيءٍ ماديٍّ يقتضي وجودَ سببٍ لوجوده ولِوُجودِ كُلِّ موجودٍ ماديٍّ[1]، من خارج الوجود الماديِّ؛ إذ الوجودُ الماديُّ لا يحملُ ـ ضرورةً ـ تفسيره من داخِلِهِ.

= من أعلامِ المدرسة العقليّة. أَثَّرَ في عصرِه والقرون التّالية بصورة بالغةٍ.

(١) البرهانُ لا يقتصر على تفسيرِ الموجودات الماديّةِ (فكلُّ موجودٍ عاجِزٌ عن إثبات وجوبِ وُجودِه مُحتاجٌ إلى تفسيرٍ من خارِجِهِ، سواء كان هذا الوجود ماديًّا أم لا)، وإنّما حَصَرْنَا الأمرَ في الموجودات الماديّةِ لأنها مجالُ المحاورة مع الملاحدةِ.

المبحث الأول

سؤالٌ من أعماقِ البَدَاهَةِ

في القرآن الكريم آياتٌ تَسْتَحِثُّ النَّظَرَ إلى أنّ الكونَ على صورةٍ ممكنةٍ تَقْبَلُ غيرَها، وتقبَلُ عَدَمَهَا؛ كقولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص: ٧١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [المُلك: ٣٠].

هي آياتٌ تُحَرِّضُ العَقْلَ أن يستنْكِرَ سُلطانَ العادةِ على فَرْضِ قانونِ الوُجوب، وأن يرى الممكناتِ مُقدّمةً للسُّؤالِ، أو الأسئلة الأُولى.. لماذا أنا موجودٌ في هذا الكون؟ لماذا يوجد الإنسانُ والحيوانُ؟ لماذا يوجد الصَّوْتُ والألوانُ؟ لماذا الكونُ نفسُه موجودٌ؟ ما هي عِلَّةُ وجودِ الوجودِ؟ لماذا كُنَّا، ولم يكن العَدَمُ؟ وتَسْتَحِثُّه بذلك ـ ومع ذلك ـ على إكبارِ نِعَمِ الوجودِ؛ فوجود الخير الممكن؛ فَضْلٌ من مُنْعِم.

تلك الأسئلةُ مقدّمة النَّظَرِ، وطريقُ الفَهْمِ لِمَنْ أَحْسَنَ الـمُؤَالَفَةَ بين الوُجودِ وسَبَبِهِ، وهي أيضًا بِذْرةُ الحَيْرَةِ لمن قطع الوجود عن أصله.. وهي التي دَفَعَتِ الشَّاعِرَ الحائِرَ ليقولَ:

جِئْتُ، لا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ، ولَكِنِّي أَتَيْتُ
ولَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيْقًا فَمَشَيْتُ
وسَأَبْقَى مَاشِيًا إنْ شِئْتُ هذا أَمْ أَبَيْتُ
كيفَ جِئْتُ؟ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيْقِي؟

إنّ الإنسانَ طارئٌ على هذا الوجود الماديِّ، والوجودُ الماديُّ بأكمله يخبر أنه محتاجٌ إلى تفسيرٍ؛ لأنه ليس وَضْعًا ضروريًّا للوجود، ومِن: لَسْتُ أَدْرِي! يبدأُ البحثُ عن المبدأ لمن لم يُدْرِكْهُ بِمَحْضِ الفِطْرةِ.

إنّ النَّفْسَ المُفْعَمَةَ بالحياةِ لا تَفْتُرُ عن ملاحقةِ سببِ وضعِ الأشياءِ موضِعَها القائمَ، فإنّ إمكانَ وجودِ الشّيءِ وعَدَمِهِ، وإمكانَ قيامِهِ على حالاتٍ كثيرةٍ لا مَزِيَّةَ ضروريّةً لإحداها على الحالات الأُخرى تجعل السُّؤالَ عن الـ«لِمَ» ضرورةً عقليّةً، بَدَهِيَّةً تَقْتَحِمُ على النَّفْسِ أَسْوارَها، وتهيمن على أقطارِ الرُّوحِ إذا صَفَتْ من سُلْطانِ العادَةِ وبلادَةِ الأُلْفَةِ.

والنَّظَرُ في عالم المادَّةِ كاشِفٌ أَنَّهُ لا يوجد شيءٌ ثابتٌ مستقِرٌّ على حالٍ أبدًا؛ فكلُّ شيءٍ مُتغيّرٌ، ليس له حال قارَّةٌ وضروريّةٌ. ولا يوجد شيءٌ في وجودنا الماديِّ إلّا وهو قابِلٌ من ناحيةِ الاحتمالِ العقليّ لأن يوجد، أو لا يوجد؛ فبإمكاننا تَصَوُّرُ كونٍ آخرَ دون بَشَرٍ، ودون حَيَوانٍ، ودون أرضٍ، ودون مجموعةٍ شمسيّةٍ، وبإمكاننا تصوُّرُ كونٍ آخرَ دون جزيئاتٍ صُغرى كَذَرَّاتِنا والكواركات، ودون تجمُّعاتٍ كبرى كالمجرَّات...

ويبقى السُّؤال يلاحِقُنا: لِمَ يوجد كلُّ ما نراه؟ أو بعبارةِ الفيلسوفِ الألمانيِّ الشّهير (لايبنتس): «لماذا هنالك شيءٌ بَدَلًا من لا شيء؟».

إنّه السُّؤالُ الذي يمثّل أصلَ كلِّ سؤالٍ ميتافزيقيٍّ أوّليٍّ، ولذلك قال الفيلسوفُ الألمانيُّ الملحِدُ (هايدجر) في مقدّمةِ حديثٍ عن الميتافيزيقا: «لماذا هناك موجوداتٌ بدلًا من لا شيء؟ هذا هو السُّؤال الذي هو بجلاءٍ ليس سؤالًا عاديًّا.. «لماذا هناك موجوداتٌ، لماذا هناك شيءٌ أصلًا بدل اللّاشيء؟». بداهةً، هذا هو أوّل الأسئلةِ»[1].

هل الأمرُ كما يقول فلاسفةُ الإلحاد كـ(برتراند راسل): إنَّ وجود الكونِ ليس إلَّا «حقيقة عمياء» «brute fact»، فهو قائمٌ أَزَلًا دون تفسيرٍ.. أم الأمر أَعْظَمُ من ذلك؟

(١) Martin Heidegger, *An Introduction to Metaphysics* (New York: Anchor Books, 1961), p.1.

المبحث الثاني

لماذا وُجِد ما أَمْكَنَهُ أَلَّا يُوجَدَ؟

يُعتبر دفاعُ (ابن سينا) في «الشّفاء» و«النّجاة» و«الإشارات والتّنبيهات» عن برهان الإمكانِ أساسَ ذُيوعِه في القرون الوسطى، وإن كان قد أَخَذَهُ من «الفارابي» الذي سَبَقَهُ إلى جوهر نَظْرَتِهِ الوجوديّة؛ إذ هما ينطلقان من مفهومِ الوجودِ لرؤية واجبِ الوجودِ[1].

قال (ابن سينا): «إنّ واجبَ الوجودِ هو الموجودُ الذي متى فُرِض غير موجود عَرَض منه مُحال، وإنّ الممكن الوجود هو الذي متى فُرِض غير موجود أو موجودًا لم يَعرض مِنه محالٌ. فالواجب الوجودِ هو الضروريُّ، والممكِنُ الوجودِ هو الذي لا ضرورةَ فيه بوجهٍ؛ أي: لا في وجودِهِ ولا في عَدَمِهِ. وهذا هو الذي نَعْنِيهِ في هذا الموضع بممكنِ الوجود»[2].

تقوم الصّيغة السّيناويّةُ لبرهان الإمكان على أنّ الموجوداتِ لا تخرج عن ثلاثة:

١ ـ وجودٌ ممكِنٌ، وهو ما إذا عُدَّ ذاته؛ لم يجب وجودُه؛ فلا يجد العَقْلُ حَرَجًا في أن يخلوَ منه الوجود؛ إذ يحمِلُ في ذاتِه صبغةَ العَدَميّةِ بما يجعله محتاجًا إلى ما يُرَجِّحُ فيه جانبَ الوجودِ. وهذا هو الممكِنُ.

٢ ـ وجودٌ واجِبٌ؛ وهو ما إذا عُدَّ ذاته؛ وَجَبَ وُجودُه؛ فالعقلُ يمنع أَلَّا يوجدَ لِتَرَتُّبِ المُحَالات على عَدَمِ وجودِه، وهذا واجبُ الوجودِ.

---

(١) عادل محمود بدر، برهان الإمكان والوجوب بين ابن سينا وصدر الدين الشيرازي (اللاذقية: دار الحوار، ٢٠٠٦م)، ص٣٣.

(٢) ابن سينا، المبدأ والمعاد، تحقيق: عبد الله نوراني (طهران، مؤسسة مطالعات الإسلام، ١٩٨٤)، ص٢.

٣ ـ وُجودٌ مُمْتَنِعٌ؛ وهو ما إذا عُدَّ ذاته، وَجَبَ عَدَمُ وُجودِه؛ لترتب المحالات على وجودِه؛ وهذا هو المستحيلُ.

ومن الممكن تلخيصُ الصّيغة السّيناويّةِ في الصُّورة التالية:

١ ـ الموجوداتُ إمّا مُمْكِناتٌ لا مُرَجِّحَ من داخلها لِوُجودِها أو عَدَمِها، أو محالاتٌ يَتَرَتَّبُ على وُجودِها مُحالٌ، أو واجباتُ الوجودِ يَتَرَتَّبُ على عَدَمِهَا مُحالٌ.

٢ ـ لا يمكن أن يوجدَ في الوجودِ إلَّا الممكِنُ أو واجِبُ الوجودِ لأنّ المحال ممتنعٌ وُجودُه.

٣ ـ كُلُّ الوُجودِ المادّيِّ يحتمِلُ ـ عَقْلًا ـ الوجودَ والعَدَمَ؛ فالعَقْلُ يَتَصَوَّرُ إمكانَ وُجودٍ آخَرَ يقومُ على لَبِنَاتٍ صُغْرى غيرِ الذَّرَّاتِ، وخلايا حَيَّةٍ لا تَعْرِفُ الحَمْض النَّوويَّ الصِّبْغِيَّ. . .

٤ ـ لا يمكنُ لِسِلسلةِ الممكناتِ أن تكون لا نهائيّةً؛ إذ الممكِنُ يحتاجُ ضرورةً إلى تفسيرٍ مستغْنٍ عن التّفسير من خارِجِه.

٥ ـ يحتاجُ الكونُ الماديُّ إلى ذاتٍ من خارجِهِ تُرَجِّحُ جانبَ الوجود على العَدَمِ.

٦ ـ هذه الذّاتُ المريدة التي هي من خارج الكونِ الماديِّ يُسمّيها المؤلِّهَةُ: الله.

وتكمن قُوّةُ هذا البرهان في أنّه مستغْنٍ عن النَّظَرِ في تفاصيل الكون وثقافةِ العصر وتطوُّرِ المعارِفِ العِلْميّةِ؛ إذ يقومُ على حقائقَ عقليّةٍ ثابتةٍ في جوهرِ أشياء العالَم، وهي أنَّ العقلَ قادِرٌ على تصوُّرِ قيامِ الكونِ على صورةٍ أُخرى غير صورته الحاليّةِ؛ دون لزومِ محالاتٍ من ذلك.

ومن الممكن النَّظَرُ إلى الأمرِ من زاويةٍ أخرى بالقول: إنّ حالَ الكونِ لا يَخْرُجُ عن واحدٍ من الصُّورِ الأربعِ التالية:

١ ـ الكونُ مجرّدُ وَهْم.

٢ ـ الكونُ خَلَقَ نفسَهُ.

٣ ـ الكونُ موجودٌ ضرورةً.

٤ ـ الكونُ ليس موجودًا ضرورةً، وإنّما هو ممكِنٌ يحتاج للخُروجِ إلى الوجود الحقيقيِّ من الإمكان المَحْضِ إلى مُرَجِّحٍ.

والنَّظَرُ في الاحتمالاتِ السّابقة يقتضي أن نقولَ:

١ ـ الاحتمالُ الأوّلُ مخالِفٌ للبداهةِ العقليّةِ والحسيّةِ، ولو صَحَّ فإنّه لا يُنْهِي الإشكالَ لأنّ الوَهْمَ قائمٌ حقيقةً في العَقْلِ، ولِذا علينا أنْ نَسْألَ عن سَبَبِهِ، هل هو ممكِنٌ أم واجِبُ الوجود؟ وعَلَيْهِ فجوابُه في واحدٍ من بقيّةِ الاحتمالاتِ.

٢ ـ الاحتمالُ الثّاني باطِلٌ؛ لاستلزامِ وجودِ الشّيءِ قبلَ وُجودِه لإحداث وُجودِه؛ فهو يحتاجُ نفسَهُ لتُخرِجَهُ من العَدَمِ.

٣ ـ الاحتمالُ الثّالثُ باطِلٌ لِغِيابِ المانِعِ من افتراضِ عَدَمِ وُجودِ الكونِ أو وجودِ كونٍ من مادّةٍ أُخرى.

٤ ـ لم يَبْقَ غيرُ الصُّورةِ الرَّابعةِ، وهي أنّ هذا الكونَ ممكنٌ من الممكناتِ، وأنّه محتاجٌ إلى مَنْ يَمْنَحُهُ حَقَّ الوجودِ.

المبحثُ الثّالثُ

الوجودُ والحاجةُ إلى تفسيرٍ:
لمَ يوجد شيءٌ بدلًا من لا شيءٍ؟

يقوم العلمُ الطّبيعيُّ وغيرُه من أبوابِ طلبِ المعرفةِ في حياةِ البشرِ على مبدأ طلبِ سببٍ لتفسيرِ وجودِ أيِّ شيءٍ أو تفسيرِ طبيعتِه أو هيئتِه أو تغيّرِه... هذا أمرٌ يلازمنا في كلِّ شأنِنا حتى في ما نراه في منامِنا.. وهو ما يُعبّرُ عنه بعضُ الفلاسفةِ التُّوماويّين بعبارة «كلُّ شيءٍ قابلٌ لِلفَهْمِ» «everything is intelligible».

وليس الملاحدةُ بمنأًى عن هذا الشُّعور القهريِّ؛ إذ رغم زَعْمِ جماعةٍ منهم أنّ الكونَ ـ مَثَلًا ـ ربّما قد نَشَأَ دون سَبَبٍ؛ إلّا أنّهم جميعًا لَا يَفْتُرون عن طلبِ تفسيرٍ لكلِّ شيءٍ، وما قولُهُم بنشأةِ الكونِ بلا سَبَبٍ إلَّا هروبٌ مُؤَقَّتٌ من التّفسير السَّبَبيِّ حتى يَتِمَّ الكشفُ عن سببٍ طبيعيٍّ لظهور الكونِ..

وأصلُ طلبِ تفسيرٍ لكلّ شيءٍ، ما سمّاه (لايبنتس) «مبدأ العِلَّة الكافيةِ» «principle of sufficient reason»[1]. ويجد مبدأُ «العلّةِ الكافية» أَصْلَهُ في العبارة اللَّاتينيّة «لا يكون شيءٌ بلا سَبَبٍ» «nihil est sine ratione». وهذا المبدأُ ضرورةٌ عقليّةٌ للتخلُّصِ من سلسلةِ الأسبابِ التي تحتاجُها الممكناتُ؛ فلا بُدَّ أن تنتهيَ سلسلةُ الموجوداتِ بذاتٍ يكون فِعْلُها سببًا لغيرها، ويكون تفسيرُ وجودِها في نفسِها لا في غيرِها؛ فوجودُها ضروريٌّ لِيَصِحَّ تفسيرُ كلِّ

---

(١) سمّاه (لايبنتس) في كتاباته الأولى: «السبب المحدّد» «determining reason»؛ لأنّه يحدّد الأمر المحتمل الذي سيدخل حيّز الوجود.

ما عَدَاها[١].

يقول (لايبنتس): «إنَّ تفكيرَنا قائمٌ على مبدأَيْنِ عظيمَيْنِ: مبدأ التَّناقُضِ الذي بفضله نَحْكُمُ على الشّيءِ الذي ينجُمُ عنه تناقضٌ، أَنَّهُ خَطَأٌ، ونَحْكُمُ على الشّيءِ بالصِّحَّةِ إذا كان مُقابِلًا للخطأ أو نَقِيضِهِ، وبفضل مبدأ العِلَّةِ الكافيةِ نُقَرِّرُ أنّه لا توجدُ حقيقةٌ صادقةٌ أو موجودةٌ، ولا تقريرٌ صحيحٌ، حتّى تكون له علَّةٌ كافيةٌ ليكون كذلك لا على واقعٍ آخر، وإن كانت هذه العِلَلُ عادةً لا يمكن أن تكون معلومةً لنا»[٢].

القولُ: إنّ الأشياءَ توجد أو تقومُ دون تفسيرٍ، جُزافًا، أَخْطَرُ تهديدٍ لوعي الإنسانِ بالكونِ وبخواطره وأفكارِه؛ إذ إنّ تفسيرَ الوجودِ بأكملِه، خاضعٌ «لمبدأ العلّة الكافية»، والذي يَنُصُّ على أنّ لكلِّ وجودٍ قائمٍ تفسيرًا لوجوده، سواء كان التّفسيرُ من خارجِهِ؛ لأنه ممكِنُ الوجودِ لا يجدُ العقلُ حَرَجًا في تصُّورِ عَدَمِهِ، أو كان سببُ وجودِه طبيعة الشيء نفسِه؛ أي: إنّ وجودَهُ ضروريٌّ عَقْلًا لِتَرَتُّبِ مُحالاتٍ عَقْليّةٍ على عَدَمِهِ.

فما هو واجِبُ الوجودِ؟ واجبُ الوجودِ ما كان وجودُه واجبًا في كِلِّ عالَمٍ[٣] ممكنٍ، وهو أَمْرٌ يُمثِّلُ له بعضُ الفلاسفةِ بالأرقام الرياضيّة؛ كوجود الواحد والاثنين، وإن كُنَّا نعتقِدُ أنَّ الأرقامَ لا تُمثّلُ ذَواتًا، وإنَّما هي تجريداتٌ ذِهْنيَّةٌ، ولِذا لا تَدْخُلُ في مُسمَّى واجبِ الوجودِ المقصود هنا.

ولمبدأ العِلَّةِ الكافيةِ أكثرُ من صيغةٍ، وهو في الصّيغة التي نَرْتَضِيها: كُلُّ موجودٍ له تفسيرٌ لوجودِه، سواءٌ بسبب طبيعتِه الخاصَّةِ أو بأَثَرِ سَبَبٍ خارجِيٍّ[٤].

---

(١) Gottfried Wilhelm Leibniz, *Principes de la Nature et de la Grâce*, §8

(٢) Gottfried Leibniz, *The Monadology and Other Philosophical Writings*, tr. Robert Latta (Oxford: Clarendon Press, 1898) p.235.

(٣) العالم في الاصطلاح التراثي عندنا: كلّ ما عدا الله سبحانه. والعالم في حديثنا هنا هو كلّ وجود متحقّق، وهو بذلك أوسع من المعنى التراثي للكلمة.

(٤) William Lane Craig, *On Guard: Defending your Faith with Reason and Precision* (CO: David C Cook, 2010), p.56.

ولكنْ، ما سبيلُ البَرْهَنَةِ على ضرورةِ العِلَّةِ الكافية؟

العِلَّةُ الكافيةُ مَبْدَأٌ يُهَيْمِنُ على فَهْمِنَا للعالم، وللوجُودِ بما هو وُجودٌ، ونحن نَسْتَصْحِبُهُ في كُلِّ شَأْنِنَا، ولا يطرحُ أحدٌ ما يُستشكل به على صدقِه إلَّا ما يكون من الملاحدةِ في أمر وجودِ الله. وهو أَظْهَرُ من أن تُنْصَبَ له الآياتُ، وإن كان لا يُمكن أن تُقام الحُجَّةُ عليه بصورةٍ مباشرةٍ، حالُهُ حالُ البَدَهِيَّاتِ الأُخرى التي تُمثّلُ قواعدَ التّفكير الأُولى.

يقول (لاغرونج)[1] عن مبدأ العِلّة الكافية: رغم أنّه ليس بالإمكانِ البرهنةُ عليه بطريقٍ مباشرٍ، إلَّا أنّهُ بالإمكانِ البرهنةُ عليه بطريقٍ غير مباشرٍ من خلال برهان الخُلْفِ "reductio ad absurdum"[2]؛ أي: بإثبات فسادِ نَقِيضِ مبدأ العِلّة الكافية؛ فلو أَنَّ امرءًا رفضَ أن يكون لكلّ شيءٍ في حياتِهِ سَبَبًا يُفَسِّرُ وُجودَهُ أو هيئتَهُ، فسيمتَنِعُ عليه أنْ يُصدِّقَ عَقْلَهُ لأنّ وظيفةَ العقلِ الرَّبْطُ بين أشياء الوجودِ في نظامٍ سَبَبِيٍّ تفسيريٍّ. وإذا بَطَلَتِ العِلّة الكافيةُ في تفسير العالَم، فإنّها تَنْزِلُ من مرتبةِ الحقيقة الميتافيزيقيّة الحاكِمَةِ على وجودِ كلّ شيءٍ إلى مجرّد قولٍ لا أَصْلَ لَهُ، وإذا انتقَضَ مبدأُ العِلّة الكافيّةِ تَحَلَّلَ الوجودُ إلى ذرَّاتٍ غيرِ مترابطةٍ، وانْتَفَى العِلْمُ والفَهْمُ، وصار مفهومُ العقلِ وَهْمًا لانقطاعِ العلاقةِ بين الذِّهْنِ والعالَمِ الخارجيِّ، والعلائِقِ بين أجزاءِ هذا العالم.

إنّ كونًا ماديًّا لا يخضعُ لمبدأ العِلّة الكافية هو مجموعةُ أشياءٍ وأحداثٍ لا تخضع لأيّ نظامٍ سَبَبِيٍّ سُنَنِيٍّ، وأمام كلِّ حادثةٍ جديدةٍ يكون الكونُ أمامَ عددٍ لا يكاد يتناهى من الاحتمالاتِ.. ولكنّنا نجد الكونَ دائمًا يسلُكُ سبيلًا سُنَنِيًّا واحدًا، وهو ما يَكْشِفُ أنَّ الوجودَ يرفُضُ إنكارَ هذا المبدأ بجلاءٍ متكرّرٍ مرّاتٍ لا تكاد تُحْصَرُ منذ بدءِ الكونِ. وهذا أمرٌ يقتضي تفسيرًا!

وقد لخَّصَ (إدوارد فزر) وَرْطَةَ الملاحدةِ بدفْعِ المشكلةِ إلى أقصاها في

---

(١) ريجنال ماري غريجو ـ لاغرونج Réginald Marie Garrigou-Lagrange (١٨٧٧ ـ ١٩٦٤م): لاهوتيٌّ كاثوليكيٌّ فرنسيٌّ. من أَهَمِّ المجدّدين لتراث اللّاهوتيّ الشّهير (توما الأكويني).

(٢) Garrigou-Lagrange, *God: His Existence and His Nature; A Thomistic Solution of Certain Agnostic Antinomies* (St. Louis: B. Herder, 1939), 1/181.

قوله: «الشَّكُّ في مبدأ العِلّة الكافيةِ أو إنكارِه **يُلْغِي كُلَّ أَرْضِيّةٍ بإمكاننا أن نُقِيمَ عليها شَكَّنَا في مبدأ العِلّة الكافية أو رَفْضِهِ**، ولذلك فَرَدُّ مبدأ العِلّة الكافيةِ يعود على نفسِه بالنَّقْضِ. وحتّى النَّقْدُ الموجَّهُ إلى مبدأ العِلّة الكافيةِ لاعتناقِ الشُّكوكيّةِ الحسيّةِ perceptual skepticism وإعادة التَّشكيكِ في المعرفة الأوّليةِ، لَنْ يَجِدَ مَفَرًّا هناك. إنَّ رَفْضَ مبدأ العِلّة الكافية يُقَوِّضُ كلَّ إمكانيّةٍ لأيِّ بَحْثٍ عَقْلِيٍّ»[1].

من الممكن تلخيصُ مراحلِ النَّظَرِ في العِلّة الكافية دلالةً على وجود اللهِ في العناصِرِ المتتابعة التالية:

١ ـ يقرّرُ مبدأ العِلّة الكافية وجودَ تفسيرٍ لوجودِ أيّ شيءٍ موجودٍ ولِصِفاتِهِ.

٢ ـ يلزمُ من القولِ: إنّ مبدأ العِلّة الكافية باطِلٌ أن يكون وجودُ الأشياءِ والأحداثِ غير قابلٍ للتّفسيرِ أو الفَهْمِ.

٣ ـ ولكنّ ذلك مُخالِفٌ لِشَهادَةِ البَدَاهَةِ والعِلْمِ الطّبيعيِّ.

٤ ـ يلزمُ من القول: إنّ مبدأ العِلّة الكافية باطِلٌ أَلَّا نَثِقَ في مَلَكاتِنا الإدراكيّةِ.

٥ ـ ولكننا نملك (يحقّ لنا) في الحقيقة أن نَثِقَ في مَلَكَاتِنا الإدراكيّةِ.

٦ ـ بالإضافة إلى ما سبَقَ، لا سبيل لردِّ صِدْقِ مبدأ العِلّة الكافية مع القَبُولِ العامّ للقولِ: إنّ هناك تفسيراتٍ صحيحةً في العِلْمِ الطّبيعيّ والفلسفةِ.

٧ ـ ولكن توجدُ عِدَّةُ تفسيراتٍ صحيحة من الممكن كَشْفُها في العِلْمِ والطّبيعةِ والفلسفةِ.

٨ ـ إذن مبدأُ العِلَّةِ الكافيةِ صحيحٌ.

٩ ـ تفسيرُ وُجودِ أيّ شيءٍ كائنٍ، موجودٌ إمّا في شيءٍ آخَرَ تَسَبَّبَ فيه، وهو بذلك ممكِنُ الوُجودِ، أو في الطَّبيعةِ الخاصَّةِ لهذا الشَّيءِ، وهو بذلك واجِبُ الوُجودِ. ومبدأُ العِلّة الكافية يُلْغِي بذلك احتمالَ أنْ يكون العَدَمُ تفسيرَ وُجودِ الشَّيْءِ.

---

(١) Edward Feser, *Five Proofs of the Existence of God* (San Francisco Ignatius Press, 2017), p.150.

١٠ ـ توجدُ أشياءُ ممكِنَةُ الوُجودِ.

١١ ـ وجودُ سِلسلةٍ من الممكناتِ تُفَسِّرُ فيها الأشياءُ السَّابقةُ الأُخرى اللَّاحقةَ في تَتَابُعٍ لا يمكن أن يلغيَ الحاجةَ إلى تفسيرٍ خارِجَ هذه السِّلْسِلَةِ؛ لامتناعِ أن تستمِرَّ سلسلةُ الممكناتِ إلى الماضي بلا أَوَّل.

١٢ ـ سلسلةُ الممكناتِ تحتاج إلى تفسيرٍ من خارجِها.

١٣ ـ لا يمكن أن يكون التّفسير النّهائيُّ لسلسلةِ الممكناتِ الأُولى سلسلةَ ممكناتٍ أُخرى خارجَهَا؛ لأنَّ السّلسلةَ الثّانية بحاجةٍ إلى تفسيرٍ.

١٤ ـ إذنْ، التّفسير النّهائيُّ للمُمْكِناتِ لا يمكن أن يكون ممكنًا آخَرَ أو سلسلةً أُخرى من الممكناتِ.

١٥ ـ لا يوجد تفسيرٌ كافٍ للممكناتِ غير واجبِ الوُجودِ.

تَكْمُنُ قوّةُ هذه الصّيغةِ البرهانيّةِ في أنّ نَفْيَ الحاجَةِ إلى عِلَّةٍ كافيةٍ لوجودِ كلِّ موجودٍ يَلْزَمُ منه أن يكون وُجودُ الأشياء بلا تفسيرٍ، وإذا كان وُجود شيءٍ واحدٍ قد يستغني عن التّفسير؛ لَزِمَ أنْ يستغنيَ وجودُ كلُّ شيءٍ عن التّفسيرِ لِغِيابِ الوجوبِ الميتافيزيقيّ لذلك؛ وعندها يصبح العقلُ بلا معنى؛ لأنَّ عَمَلَ العقلِ قائمٌ على فَهْمِ العالم بتفسيرِ عِلَّةِ وجودِ الذَّواتِ وأَعْراضِها.

«يبدو لي أنه عندما يواجِهُ المرءُ أعاجيبَ الحياةِ والكونِ، يجب أن يسأَلَ: «لماذا؟» لا فقط «كيف؟». الإجابات الممكنة الوحيدة هي الدّينيّةُ... إنّي أجِدُ الحاجةَ إلى اللهِ في الكون وفي حياتي»[١]. (آرثر ليونارد شاولو)[٢] الحائز على نوبل في الفيزياء ١٩٨١م.

ولتقريب الأمرِ، وبيانِ التَّنَاقُضِ العَمَلِيِّ للملحِدِ في التَّعاملِ مع مبدأ العِلّة

(١) Cited in: Henry Margenau and Roy Abraham Vargesse, eds. *Cosmos, Bios, Theos* (IL: Open Court Publishing, 1992), p.105.

(٢) آرثر ليونارد شاولو Arthur Leonard Schawlow (١٩٢١ ـ ١٩٩٩م): فيزيائي أمريكي، ساهم في اختراع توليد أشعة الليزر.

الكافية، يدعوك الفيلسوفُ (ريتشارد تايلور)[1] إلى أن تفترض أَنَّكَ تَتَجَوَّلُ في غابةٍ، وكُلَّما مَشَيْتَ ترى جُذُوعًا وأغصانًا وحِجارةً، وهي مَنَاظِرُ مألوفةٌ.. وفجأَةً لَفَتَ انتباهَكَ وجودُ شيءٍ غيرِ عاديٍّ في الغابة؛ فإذا هو كُرَةٌ كبيرةٌ في حَجْمِكَ، مَلْساءُ وشفّافةٌ بصورةٍ تامّةٍ. لا شَكَّ أنّك سَتَتَحَيَّرُ في سبب وجودِ هذا الشّيء في هذا المكان وستبحث عن تفسيرٍ لهذا الأَمْرِ[2]. والآن، ماذا لو تَصَوَّرْنَا هذه الكُرَةَ أكبَرَ من تلك الكرةِ بكثير؛ لتكن مثلًا في حَجْمِ كَوْنِنا.. لا شَكَّ أنَّ السُّؤالَ سيبقى قائمًا عن سببِ وجودِ هذه الكرةِ الكونيّةِ؛ فإنّ تَضَخُّمَ حَجْمِ الكُرةِ الأُولى لا يجعل وجودَها بَدَهِيًّا.. سيبقى واقع الكونِ كواقعِ الكرةِ المهمَلَةِ في الغابةِ محتاجًا إلى تفسيرٍ..

إنّ وجودَنا ككائناتٍ عاقلةٍ يَدْفَعُنَا دائمًا إلى تَطَلُّبِ تفسيراتٍ لوجود الأشياء، فلماذا نستثني الكونَ في مجموعِهِ من هذا المبدأ التّفسيريِّ، خاصّةً أنّ مبدأ العِلّة الكافيةِ يلتقي مع التّفسيرات الأخرى للوجود والنَّفْسِ في الانتهاءِ إلى لزومِ القولِ بالذّاتِ الأُوْلى المبدئيّةِ الحَكِيمةِ؟!

ومن الممكنِ النَّظَرُ إلى برهانِ الإمكان من زاويةٍ أُخرى، وهي أنَّ كُلَّ شيءٍ في حياتِنا «مُعْجِزةٌ»؛ كُلُّ شيءٍ مألوفٍ وغيرُ مألوفٍ، الأشياءُ، والحركةُ، والنّظامُ، والتّفاعلُ، والتّكاملُ.. ووجودُ العقلِ والمنطقُ والرياضياتُ.. كُلُّها أمورٌ أَفْسَدَتْ العادَةُ وَعْيَنَا بها؛ إذ جَعَلَتْهَا مألوفةً غير مُسْتَحِثَّةٍ للتَّسَاؤُلِ في نفوسنا، كما يَأْلَفُ ساكِنُ أَحَدِ القُطْبَيْنِ أو الصَّحْراءِ حِدَّةَ الطَّبيعةِ، ويراها الأَصْلَ، ويرى الخُضْرةَ خُروجًا عن المألوفِ، ومَصْدرَ العَجَبِ. إنّ الشّيءَ ـ بكلّ أعراضِه التي تواجهنا كلَّ يوم ـ يمثّل معجزةً لأنّه خارجٌ عن الأصلِ الأوّل، وهو العَدَمُ؛ فكُلُّ ما فارق العَدَمَ وتَجَلَّى في فُسْحَةِ الوجودِ مُفارقٌ للطّبيعةِ الأُولى للوجودِ، وحافِزٌ حثيثٌ للاستغرابِ والدَّهْشةِ لولا آفَةُ الأُلْفَةِ.

---

(١) ريتشارد تايلور Richard Taylor (١٩١٩ ـ ٢٠٠٣م): فيلسوفٌ أمريكيٌّ. دَرَّسَ في عديد من الجامعات. من أَهَمِّ مُؤلَّفاته: "Metaphysics".

(٢) Richard Taylor, *Metaphysics* (Prentice Hall, 1992), p.88.

المبحث الرابع

ملاحدة ينتصرون لبرهان الإمكان

ظلّ برهان الإمكان منذ زمن (أرسطو) حتى القرن التاسع عشر أهم البراهين الفلسفية على وجود الله في كتابات الفلاسفة، غير أنّ تعاظم النزعة الشكوكية وتشويه هذا البرهان في الكتابات الإلحاديّة المتأخّرة، أضعف حضوره في السجال الإيماني ـ الإلحادي. ولم يمنع ذلك من استعادة هذا البرهان بعض بريقه القديم مع صحوة التوماوية الجديدة التي نفضت الغبار عن قوّة هذا البرهان وتهافت الاعتراضات التي سيقت في مشاكسته على مدى قرون.

من أهم العائدين إلى الإيمان بخالق بعد إلحادٍ الفيلسوف (إدوارد فَزِر) الذي يمثّل اليوم أحد الكُتّاب البارزين في الردّ على الملاحدة عامة، وتيّار الإلحاد الجديد خاصة.

نشأ (فزر) في أسرة كاثوليكيّة، ثم دبّ إلى قلبه الشكّ مع قراءة كتب (نيتشه)؛ حتّى ظنّ أنّ الإلحاد حقيقة بدهية في نفس قطعيّة كروية الأرض. تشرّب (فزر) بعد ذلك اعتراضات (هيوم) و(كانط) على اللاهوت الطبيعي، وابتلع أهم كتب الإلحاد لفلاسفة النصف الثاني من القرن العشرين مثل: «The Miracle of Theism» و«Atheism: A Philosophical Justification». وكان أكبر تحدٍ للإيمان في نظره، غياب أدلّة حاسمة على وجود الله، في حجم قدر هذه العقيدة الكونيّة الكبرى.

قرأ (فزر) في سنوات الجامعة ما قرّره (أفلاطون) و(أنسلم) وغيرهما ممن كتبوا في وجود الله، ولكن دون عمق.. وقد اقتضاه الأمر عقدًا من

الزمان ليبدأ في إدراك قوة البراهين الكلاسيكية. اهتم أثناء ذلك بفلسفة الدماغ، وقرأ لعامة المدارس المعاصرة، وكتب في ذلك أكثر من دراسة، وانتهى به ذلك إلى بداية الشك في صدق المذهب الطبيعاني.

كانت البداية الكبرى لتحوّله إلى الإيمان عندما عُهد إليه تدريس فلسفة الدين في الجامعة؛ فقد بدأ أوّل أمره بتدريس أدلة الإيمان ونقودها على الطريقة الكلاسيكية للملاحدة، بالاستخفاف بهذه الأدلة، ثم قرّر تطوير النقود ودعمها. ولمّا عاد لاحقًا إلى تدريس أدلّة وجود الله الخمس (للأكويني)، ونظر في ما درّسه سابقًا لطلبته؛ اكتشف حجم سوء فهمه لمادة المقرّر، بما أحرجه أمام نفسه.

استمر (فزر) على مذهبه الإلحادي، غير أنّه بدأ يُدرك أنّ الاعتراضات الإلحاديّة على الأدلّة الكلاسيكيّة للإيمان لم تُدرك قوّة هذه الأدلّة.. ويضيف في أمر تحوّله عن الإلحاد إلى الإيمان: «كلّما درّست أدلّة وجود الله وفكّرتُ فيها، وعلى وجه الخصوص البرهان الكوسمولوجي [برهان الإمكان]، أتحوّل من القول: «هذه الحجج ليست جيدة» إلى التفكير في أنّ «هذه الحجج هي أفضل قليلًا مما يُظنّ فيها» إلى أنّه «في الواقع، كانت هذه الحجج مثيرة للاهتمام». في نهاية المطاف انتهيت إلى القول: «يا إلٰهي، هذه الحجج صحيحة رغم ما يقال فيها!»[١].

دافع (فزر) بعد ذلك عن برهان الإمكان بتفصيل أمام تشكيكات فلاسفة الإلحاد في القديم والحديث في كتابيه المعروفين «The Last Superstition: A Refutation Of The New Atheism» و«Five Proofs of the Existence of God»، وفي كتابه عن (الأكويني)، وكتابه الآخر عن الميتافيزيقا المدرسيّة «Scholastic Metaphysics: A Contemporary Introduction». ولا تزال مدوّنته على الشبكة تعتني ببيان قوّة هذا البرهان وفساد معارضاته.

---

(١) Edward Feser, The road from atheism
<http://edwardfeser.blogspot.ca/2012/07/road-from-atheism.html>.

المبحث الخامس

نقودٌ وردودٌ

الاعتراضاتُ على برهانِ الإمكان قديمةٌ نوعًا، ومحصورةٌ عَدَدًا، فهي تدورُ على عَدَدٍ ضَيّقٍ من المعارضاتِ التي يأتيك هنا عرضها وجوابها.

المطلب الأول

فماذا لو كان سبب الممكِنِ ممكنًا آخر؟

المعترض: نعم الكَوْنُ عاجِزٌ أن يدلَّ على أنّه واجبُ الوجودِ؛ إذ هو مركَّبٌ من أجزائه المتحيّزة في مجالات متمايزة، وهو ممكنٌ من الممكناتِ... لكن ماذا لو كان كوننا مسبوقًا بأكوان ممكنةٍ أخرى إلى ما لا نهاية؟

الجوابُ:

أَوَّلًا: سَبْقُ الكونِ الممكنِ بأكوانٍ ممكنةٍ أخرى كانت سببًا على التوالي في وجوده لا يمكن أن يمتدَّ إلى ما لا نهايةٍ. فوجودُ لاتَنَاهٍ في العِلَلِ مُحالٌ؛ فإنّ احتياج كلِّ معلولٍ إلى عِلّة بلا بدايةٍ لسلسلة العلل مُمْتَنِعٌ بَدَاهةً لأنّه يلزم منه أَلَّا يوجد شيءٌ؛ كاشتراطِ إذنٍ لإطلاقِ النَّارِ من جُنديٍّ على عَدُوِّهِ، واحتياجِ هذا الجنديِّ إلى إِذْنٍ من رئيسِهِ، واحتياجِ رئيسِه إلى إذنٍ من رئيسِه، واحتياج كلِّ رئيسٍ في سلسلةِ الأُذون إلى إذن رئيسِه.. إلى ما لا نهايةٍ من أُذونِ الرُّؤساءِ... هنا لن يَتَمَكَّنَ الجنديُّ من تحصيل الإذن لتعلُّقِ الإذنِ بسلسلةٍ لا تَتَنَاهى من الأُذون/العِلَلِ.

ثانيًا: جنسُ الممكناتِ ممكنٌ ضرورةً، ولا تُخْرِجُهُ الكَثْرةُ عن جنسِ الممكنِ، فالفَرْقُ بين الممكنِ والواجبِ كيفيٌّ وجوهريٌّ وليس كَمِّيًّا أو عَرَضِيًّا.

المطلب الثاني

إمكانُ البعض لا يلزم منه إمكان الكُلّ

المعترض: صحيحٌ أنّ الكون مُركَّبٌ من الممكنات، لكن لا يلزمُ من ذلك أن يكونَ الكونُ كُلُّه ممكِنًا؛ إذ القولُ: إنَّ صفاتِ الأجزاءِ هي ضرورةً صفاتُ الكُلِّ مُغالطةٌ منطقيّةٌ معروفةٌ باسم «مغالطةِ التَّركيبِ».. أَلَا ترى أنّ الجِدارَ العالي يتكوَّنُ من حجارةٍ صغيرةٍ متراكِمةٍ؛ ومع ذلك فالأجزاءُ صغيرةٌ والكلُّ كبيرٌ.

الجواب:

أولًا: مغالطةُ التَّركيبِ تقول: إنّه لا يلزم أن يكون الكلُّ مُتَّصِفًا بصفاتِ آحادِ الأجزاء، ولا تقول: إنّه يلزم أنْ تكون صفةُ الكلّ مغايرةً لصفاتِ الأجزاء؛ ولذلك فصفاتُ الكلّ قد تكون هي نفسُها صفات الأجزاء، وهذا هو الأغلبُ؛ كأن يكون لونُ الثَّوبِ أَحْمَرَ لأنَّ لونَ خُيُوطِهِ كلّها أَحْمَرُ، وقد تكون صفةُ الكلِّ مخالفةً لِصِفاتِ الأجزاء كما في مثالِ الجِدارِ وحِجارَتِهِ.

ثانيًا: بالنَّظَرِ في أمر الكونِ نرى أنّ اجتماعَهُ ممكنٌ من الممكناتِ، مهما كَثُرَتْ أَجْزاؤُه، ولا يمكن أن يتغيَّرَ حالُه إلى واجبِ الوجود لأنّ واجِبِيَّةَ الوجودِ صفةٌ ذاتيّةٌ في الشّيءِ لا تُكْتَسَبُ بِتَضَخُّمِ حَجْمِهِ. ونحن لو حَذَفْنا من هذا الكون بعضَهُ مرّةً بعد مرّةٍ فستبقى طبيعتُه ذاتَها، وكذلك لو زِدْنَاهُ على التَّوالي أجزاءً جديدةً. ولذلك، لو افترضنا زوالَ جميعِ أجزاء الكونِ مرّةً واحدةً فلن يَتَرَتَّبَ على ذلك مُحالٌ عَقْليٌّ.

ثالثًا: العالم ليس أكبرُ من مجموعِ أشيائِه، ولا يمكن أن يكون تفسيرُه من داخِلِه بأن يكون أَحَدُ أجزائِه أو بعضُ أجزائِه مُفَسِّرًا لِكُلِّهِ؛ إذ إنّ جميعَ هذه الأجزاء تشتركُ في طبيعةِ أنّها تحتاج إلى تفسيرٍ من خارجِها. وقد مَثَّلَ (لايبنتس) لهذا الأمر بكتابٍ في علمِ الهندسِة موجودٍ منذ الأَزَلِ[1]، فرغم أَنَّ

---

(١) لا نوافق على ما ذهبَتْ إليه طائفةٌ من الفلاسفة من إمكانِ اجتماع الإمكانِ والأَزَلِيَّة؛ فذاك من نقائضِ الكلامِ؛ فإنَّ الإمكانَ يَلْزَمُ منه الحُدُوثُ.

كلَّ نُسخةٍ مُنْتَسَخَةٍ من النُّسْخَةِ التي قَبْلَهَا، إلَّا أنّنا سنبقى نسألُ عن سببِ كتابةِ هذا الكتابِ، ولماذا كُتِبَ على الصُّورة التي عليها. والأمرُ كذلك في حال الكونِ، فمهما عُدْنا في الزَّمَنِ إلى الوراء، فلن نجد في الأوضاع السَّابقة تفسيرًا لوجود العالم؛ إذ الأوضاع السَّابقةُ لا تُقَدِّمُ تفسيرًا كاملًا لوجود العالَمِ رأسًا، ولوجودِه على صورته تلك[1]. إنّ أصلَ طلب تفسيرٍ للكون من خارجِه سببُه طبيعةُ الكونِ في ذاته، وهي طبيعةٌ لا تَنْفَكُّ عنه.

المطلب الثالث

ما هو سبب وجود الله؟

المعترض: إذا كان مبدأُ العِلّةِ الكافية يُقرِّرُ أنَّ كُلَّ شيءٍ يحتاج إلى عِلَّةٍ تَسْبِقُهُ تُفَسِّرُ وُجودَهُ، فهو بذلك يُبْطِلُ حُجَّتَكُمْ لأنّ ذلك يقضي أن يكون قبلَ اللهِ شيءٌ يُفَسِّرُهُ.

الجواب:

مبدأُ العِلّة الكافيةِ لا يقول: إنَّ كلَّ شيءٍ له عِلَّةٌ تَسْبِقُهُ، وإنّما يقول: إنَّ كلَّ موجودٍ له تفسيرٌ لِوُجودِه، إمّا مِنْ ذاتِه أو من خارجِه. ووجودُ اللهِ ـ سبحانه ـ تفسيرُه من داخِلِه؛ إذ إنَّ هذا الوجودَ ضرورةٌ عقليّةٌ في ذاتها لتفسيرِ وجود بقيّةِ الموجوداتِ؛ فكلُّ شيء ممكنُ الوجودِ يحتاج ـ في نهاية السِّلسلةِ ـ إلى وُجودٍ مُسْتَغْنٍ عن عِلَّةٍ تَسْبِقُه.

المطلب الرابع

واجب الوجود ليس هو إلٰهُ المُؤَلِّهةِ

الاعتراضُ الكلاسيكيُّ على برهانِ الإمكان، وكلِّ براهينِ وجودِ الله، هو: . . لكنَّ هذا البرهانَ لا يَدُلُّ على مَنْ تُسَمُّونَهُ: «الله» بجميع صفاتِه الواردةِ في القرآنِ؟

---

(١) Gottfried Leibniz, *Leibniz: Philosophical Essays*, tr. Roger Ariew and Daniel Garber (Indianapolis: Hackett, 2015), p.149.

الجواب:

أَوَّلًا: الجوابُ الذي **لا يجيب عن كلِّ شيءٍ لا يُرَدُّ بدعوى أنّه لم يُجِبْ عن شيءٍ**؛ فقُصورُ البرهانِ عن الدّلالةِ على كلّ شيءٍ، لا يلزم منه أَلَّا يَدُلَّ على أيِّ شيءٍ؛ فقد يَدُلُّ على بعض شيءٍ!

ثانيًا: برهانُ الإمكانِ دالٌّ على عَدَدٍ من صفاتِ الذَّاتِ العَلِيَّةِ، بالإضافة إلى وجودِ هذه الذَّاتِ، وهي كُلُّها ثابتةٌ لله ـ سبحانه ـ، ومنها:

• هي ذاتٌ واحدةٌ وليست ذواتٍ مُتعدّدةً: تَعَدُّدُ واجبِ الوجودِ يعني: أنّ هناك اختلافًا بينهم في الصِّفاتِ، وهذا يعني: أنّهم مُرَكَّبُون من أبعاض، والمُرَكَّبُ من أبعاضه مُفْتَقِرٌ إلى أجزائِه، والمُفْتَقِرُ إلى شيءٍ لا يكون كامِلًا.

• هي ذات غيرُ ماديّةٍ: الذَّاتُ الماديّةُ مُرَكَّبةٌ ضرورةً مما يقبل الانقسام والالتئام؛ وهي بذلك ليست كاملة.

• هي ذاتٌ بالغةُ القُدْرةِ والحِكْمةِ: إخراجُ الذّاتِ واجبةِ الوجودِ للكونِ بترجيحِ أَحَدِ طَرَفَيِ الإمكانِ فيه (الوجود على العَدَمِ) ليكون على الصُّورةِ التي نراها، برهانُ قُدْرةٍ وعِلْمٍ عَظِيْمَيْنِ...

مختصر النَّظَرِ:

• السُّؤال الأَهَمُّ، والأكثرُ إلحاحًا على العقلِ: لماذا يوجد الوجودُ الماديُّ؟ لماذا لم يكن العَدَمُ ـ والعَدَمُ أَرْجَحُ ـ؟

• الكونُ كلُّه، أو بأجزائِه، لا يحمِلُ أيَّ علامةٍ دالّةٍ على أنَّ وجودَه واجبٌ عَقْلًا. ولا يجد العقلُ مَشَقّةً في تَصَوُّرِ وجودِ كونٍ مُخالِفٍ لكوننا جزئيًّا أو كليًّا.

• كلُّ ما أمكنَ تَصَوُّرُ عَدَمِهِ؛ فهو ممكنُ الوجودِ، ولذلك يحتاج إلى مَنْ يُوجِدُه؛ تفسيرًا لوجودِه.

• نظرًا للامتناعِ العقليِّ لوجودِ سلسلةٍ من التّفسيراتِ اللَّامتناهيةِ، فإنّ العقلَ يُلْزِمُنا بتقريرِ وجودِ ذاتٍ غيرِ ماديّةٍ أَخْرَجَتِ الكونَ من الوجودِ إلى العَدَمِ، وهي مُستغْنِيةٌ عن تفسيرِ وجودِها من خارجِها، وإنّما ضرورةُ وُجودِها عَقْلًا تُفَسِّرُ وُجودَها.

• إنكارُ مبدأ العِلّة الكافية لتفسير وجود الوجود المادي يلزم منه التَّشكيكُ في ضرورةِ تعليلِ الأشياءِ لِفَهْمِ العالَمِ من حولِنا ولتأسيسِ العُلومِ، وهي تكلفةٌ باهظةٌ لا يَجْرُؤُ الملحِدُ ـ عامّةً ـ على قَبُولها.

• الإلحادُ فقيرٌ تفسيريًّا، وأحيانًا كثيرةً يختارُ رَفْضَ التّفسيرِ لأنّه يَؤُوْلُ ضرورةً إلى إثباتِ وجودِ اللهِ.

مراجع للتَّوَسُّعِ:

Edward Feser, *Five Proofs of the Existence of God*, San Francisco Ignatius Press, 2017.

Bruce R. Reichenbach, *The Cosmological Argument: A Reassessment*, Springfield, IL: Charles C. Thomas, 1972.

William Lane Craig, and J.P. Moreland, eds. *The Blackwell Companion to Natural Theology*, Oxford: Wiley-Blackwell, 2009.

William Lane Craig, *The cosmological argument from Plato to Leibniz*, London: Macmillan, 1980.

الفصل الثاني

برهان المعنى

- ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١]

- «ليستِ الحياةُ بالأساسِ بَحْثًا عن المُتْعَةِ ـ كما هو ظَنُّ فرويد ـ، ولا هي بحثٌ عن القُوّةِ ـ كما هو تعليمُ ألفرد أدلر ـ، وإنّما هي بحثٌ عن معنًى».

عالم النَّفْسِ (فكتور فرنكل)(١)

المعنى بين نبوءات الإيمان ونبوءات الإلحاد:

البحثُ في وجود الله في جوهَره بحثٌ عن معنًى لهذا الوجود؛ فالوجودُ الكونيُّ المعقول صدًى لوجود الله وكمالِه؛ ولولا هذا الوجودِ لكان العَبَثُ الدَّاكن أُفقَ كلِّ مَرْأى، وحقيقةَ كلّ شيءٍ. والعاقلُ من النّاسِ من لا يُلزم الوجودَ أن يَتَزَيَّا بِزِيِّ غَيرِهِ أو أن يَظهر على غير حقيقتِه.. فإذا كان الوجودُ يحمل إشراقةَ المعنى، فَحَيَّهَلًا، وإذا كان باهتًا بلا معالِمَ، فمَرْحَبًا...

وأمام هذا الكون، يقف المرءُ سائلًا، ومتسائلًا: هل للوجود الماديّ لكونِنا معنى؟ هل لحياتنا معنى؟ هل للمعنى معنى في ما حولنا، وفي أنفسِنا؟

جواب الأسئلةِ السابقة لا يخرج عن وجهَيْنِ، لا مَفَرَّ من اعتناقِ أحدهما ولَفْظِ الآخَرِ:

١ ـ إذا كان اللهُ موجودًا؛ فإنّه من المعقولِ أن يُظْهِرَ الكونُ دلالةً على معانٍ تعكِسُ حِكْمةَ الخالِقِ، وغائيَّةَ الوجودِ.

---

(١) فكتور فرنكل Viktor Frankl (١٩٠٥ ـ ١٩٩٧م): عالِمُ نَفْسٍ نمساويّ شهير. أسَّسَ مدرسة «Logotherapy» التي تقوم على معالجة كثير من الأمراض النَّفسيَّةِ بإحياء حِسِّ المعنى في الإنسانِ.

٢ ـ إذا لم يكن اللهُ موجودًا؛ فلا معنى لشيءٍ في الوجود؛ ماديًّا كان أم غير ذلك؛ لأنّ الكونَ ليس إلّا مادّةً وطاقةً في حركةٍ أزليّةٍ عشوائيّةٍ عابثةٍ.. ولا يُجْتَنَى من العَبَثِ معنى.

وإن شئتَ نَظَرْتَ إلى الأمر من زاويةٍ أخرى: إذا كانت الفلسفة في تعريفها الأوسعِ «محاولةَ التّفكير العقليّ والنّقديّ حول أهمّ أسئلةِ الحياة لتحصيل المعرفة والحكمة منها»[1]، وإذا كانت أَبْرَز خِصِّيْصَة في الفيلسوف هي «الاندهاش» ـ كما يقول (أرسطو) ـ[2]، والاندهاش «astonishment/ amazement» هو العَجَبُ من وجودِ الوجود ومن طبيعة الوجود... فهل الاندهاشُ الفلسفيُّ له مُسوّغٌ في كون المادّيّين الخُلَّص؟

صياغة البرهان:

برهان المعنى متعلّقٌ بانتظامِ الوجود في أنساقٍ تَراتُبِيَّةٍ مفهومةٍ على صورةٍ لا تُوافِقُ نُبُوءَاتِنا عن الكونِ العشوائيّ. وهو برهان لم يأخذْ حَظَّهُ من النّظر في الكتب المتعلّقة بإثباتِ وجود الله، وإن كان أشارَ إليه عددٌ من كبار المفكّرين بصورةٍ عابرةٍ، ومن ذلك قول الفيزيائيّ الشّهير (جون بولكنجهورن): «إنّنا في أُلْفةٍ شديدةٍ مع حقيقةِ أنّه بإمكاننا فهمُ العالَم، حتّى إننا غالبًا ما نعتبر هذه الحال من بَدَهيّاتِ الأُمور. إنّ [فَهْمَنَا للعالَم] في الحقيقةِ هو الذي يجعل قيامَ العلمِ الطّبيعيِّ أمرًا ممكِنًا؛ إذ كان بالإمكانِ أن يكون الأمرُ على خلافِ ذلك؛ فإنّه من الممكنِ أن يكون الكونُ فوضى عشوائيّةً بَدَلَ أن يكون كونًا مُنَظَّمًا، كما أنّه بالإمكان أن تكون عقلانِيَّتُه غير مُدْرَكَةٍ بالنسبة لنا... [في الحقيقة] هناك توافقٌ بين عقولنا والكونِ، وبين معقوليّاتنا الداخليّة، ومعقوليّةِ الوجودِ المُدْرَكِ خارجَنا»[3].

من الممكن أن يصاغ برهانُنا على الصّورة التالية:

---

(١) J. P. Moreland and William Lane Craig, *Philosophical foundations*, p.13.

(٢) Aristotle, *Metaphysics 1.1.*

(٣) John C. Polkinghorne, *Science and Creation: The search for understanding* (Templeton Foundation Press, 2006.), p.29.

١ ـ الانتظامُ على صورةٍ مفهومةٍ ومُعْجِبة لا يُمكن أن يُعزى إلى العشوائيّةِ.

٢ ـ الوجودُ الماديُّ منتظَمٌ على صورةٍ مفهومةٍ ومعجبةٍ.

٣ ـ نظامُ الوجود الماديّ لا يعود إلى العشوائيّةِ.

٤ ـ أصل النّظامِ في الوجود الماديِّ يعود إلى الحكمةِ القصديّةِ القديرةِ.

٥ ـ اللهُ هو الذي أَبْدَعَ نِظامَ الكَوْنِ.

المبحث الأول

عَدَمِيَّةُ الإلحاد

أين يقع المعنى الكونيّ من الإلحاد؟

يجيبنا (ريتشارد داوكنز) بقوله: «الكونُ الذي نُبْصِرُهُ، له بكلِّ دِقّةٍ الخصائصُ التي ينبغي لنا أن نَتَوَقَّعَها إذا كان في جوهَرِه بلا تصميمٍ، ولا غايةٍ، ولا شرٍّ، لا شيء غير عَدَمِ اكتراثٍ قاسٍ»[1].

يضعنا (داوكنز) أمام وجودٍ بلا معنى في كونٍ بلا معنى، وما أفعالُنا وأحلامُنا وآمالنا سوى رقصاتٍ عمياء على دَقَّات الحَمْضِ النَّوويِّ العابِثةِ. إنّنا في كونٍ هَواءٍ تسيرُ به الرِّيحُ حيث تشاء.. والحركةُ من بين أيدينا ومن خَلْفِنا تسلكُ إلى غير غايةٍ سوى التَّمَوُّتِ الحراريِّ الذي سيُنهي الوجودَ الماديَّ بأكملِه.

ما قيمة كلّ شيء في هذا العالم الفارغ من الجوهريّة؟

تجيبنا عالمة النَّفْسِ **الملحدة** (سوزن بلاكمور)[2]: «في نهاية الأمرِ، لا قيمة لشيءٍ... إذا كنت تؤمنُ حقًّا بمذهب التطوّرِ وتفسيرِه لسبب وجودِنا هنا؛ فعليك أن تَخْلُصَ إلى نتيجةِ أَنَّنا هنا دون أدنى سببٍ على الإطلاق»[3].

إنّ العَدَمِيَّةَ هي مقتضى الإلحاد، وأَقْصِدُ بالعَدَمِيّةِ هنا عدميّة الحقيقة (truth) وعدميّة القيمةِ (value)، فالأشياء سواءٌ بلا تفاضُلٍ جوهريٍّ بينها، والحقيقة وَهْمٌ؛ فهي محضُ رغائبَ ذاتيّةٍ، لا غير.

---

(١) Dawkins., *River out of Eden*, p. 133.

(٢) سوزن بلاكمور Susan Blackmore (١٩٥١ـ): عالمةُ باراسيكولوجيا بريطانيّة، غزيرةُ التّأليف. شُكوكيّة.

(٣) S. Blackmore, The world according to... Dr Susan Blackmore, *The Independent* (UK), 21 January 2004.

ومن عجبٍ أنّ أئمّةَ العَدَميّةَ في القرون الأخيرة لم يحتملوا العَدَميّة التي دافعوا عنها، فقد وقعَ (نيتشه) في خديعةِ تمجيد القوّةِ، ودعا إلى «السُّوبرمان»، في حين لخّص (سارتر) عَدَميَّـته في عبارته الشّهيرة: «الوجودُ يسبِقُ الماهيّة» «l'existence précède l'essence»، ففتح للماهيّةِ بابًا في وُجودٍ مُنْغَلِقٍ على نفسِه بلا منافِذَ على المعنى. لقد مَجَّدَ (سارتر) مفهومَ الحريّةِ على أنّه قَدَرٌ وُجُودِيٌّ ومَكْرَمَةٌ إنسانيَّةٌ.. لكن لا معنى للحريّة في كَوْنٍ بلا اتّجاه؛ لأَنَّهُ بلا أَرْضٍ ثابتةٍ، وبلا معالم ناطقة؛ إذْ كيف يكونُ للوجود المُبَرَّأ من القيمة مَعْلَمٌ واحِدٌ؟ الوجودُ كُلُّه بلا رِيْحٍ ولا لَوْنٍ، الأشياءُ كُلُّها باهتةٌ باردةٌ بُرودَ الموتِ، شاحِبَةٌ شُحُوبَ الوَهْمِ.. والإنسانُ ذاتُه بلا معالم في وجودِ الوجودُ فيه هو الذاتيّةُ (subjectivity)؛ إذ لا موضوعَ في الخارجِ جَديرٌ بِالفَهْمِ، وفي حياةٍ لا وجود فيها إلَّا للعَدَم (das Nichts) ـ بعبارة (نيتشه) ـ، يبدو الحديث عن معنى ـ بكليّة مفهوم «المعنى» ـ بلا معنى.. أو كما يقول (هايدغر)[1]: «إذا كان الإلٰهُ ـ كأساسٍ متعالٍ وهدفٍ لكلّ الحقائق ـ قد مات، إذا كان العالَم المتعالي للأفكار يعاني فقدانَ وجوبِه وفوقَ ذلك قوّته الحيويّة والخلقيّة؛ فلم يَبْقَ شيءٌ ـ إذن ـ للإنسانِ لِيَتَعَلَّقَ به وليَتَّخذه مُوَجِّهًا»[2].

ولعلّ أفضل من عرَّى التصوّرَ الإلحاديَّ ورفع عنه أوهامَ المعنى الممكنةِ، الفيلسوفُ الأمريكيُّ (ألكسندر روزنبرج)؛ فقد أَكَّدَ لزومَ القولِ بالعَدَمِيَّةِ إذا سَلَّمَ المرءُ بصوابِ الإلحاد؛ فاللّامعنى ثمرةٌ لازمةٌ لِلّاإيمانِ، مُؤكّدًا أنّ الحياةَ خِلْوٌ من القيمة الأخلاقيّة الموضوعيّة، ومن الدلالة اللّغويةِ، ومن الذّات، ومن كلّ معنى أو غايةٍ.. إنّه الخَوَاءُ؛ فلا شيءَ!

ولذلك انتهى الفيلسوف (ر. س. سبرول) بعد عرضه اعتراضاتِه على عَدَمِيَّةِ (نيتشه) وتناقضاتها الذاتيّة الظاهرةِ في رَفْضِها لمفهومِ العقلِ والدّليل

---

(١) مارتن هايدغر Martin Heidegger (١٨٨٩ ـ ١٩٧٦م): فيلسوفٌ وجوديٌّ ملحِدٌ ألمانيٌّ. من أعلام فلاسفةِ القرن العشرين. أَثَّرَتْ أفكارُهُ في كثيرٍ من الفلاسفة البارزين في القرن الماضي مثل (دريدا) و(فوكو).

(٢) Martin Heidegger, *Nietzsche*, in *Nietzsche: The world as will to power*, eds. Daniel W. Conway, Peter S. Groff (London, Routledge 1998), p.96.

إليه، إلى القول: «من غير الإيمان بإلٰهٍ، تبدو العَدَمِيَّةُ ـ رغم عَدَمِ معقوليَّتِها ـ أكثرَ منطقيّةً من الأَنْسَنَةِ المُهَجَّنَةِ (hybrid humanism) أو أيّ موقفٍ بَيْنِيٍّ آخر»[1].

إنّ العَدَميّةَ المُقْفِرَةَ من كلّ قيمةٍ إيجابيّةٍ ذاتيّةٍ، هي الثَّمَرةُ الواجبةُ في أرضٍ لا تشرِقُ فيها شمسُ الإيمان باللهِ، ولا تمتدُّ آفاقُها إلى ما وراء النّهايات. . .

«يبدأ الأمر بالتخلّي عن الإيمان بالإلٰهِ الفاعلِ في الوجود، ثم يتمُّ التَّخَلِّي عن الأملِ في حياةٍ بعد الموت. عندما تَتَخَلَّى عن الأمرين السابقين، تأتي الأمور التالية في التّتابع بصورةٍ سَلِسَةٍ. تتخلّى عن الإيمان بالأخلاق الكامنة في الوجود. وأخيرًا تصل إلى أنْ ليس للإنسانِ إرادةٌ حُرّةٌ. إذا كنت تؤمن بمذهب التطوّر، فليس لك أملٌ أن توجد أيّ إرادةٍ حُرّةٍ. لا أَمَلَ البَتَّةَ أن يوجدَ أيُّ معنى عميق في الحياةِ. نحن نحيا، ونموتُ، وسننتهي بصورةٍ كليّةٍ عندما نموتُ»[2]. البيولوجيُّ الملحد (ويليام بروفين)[3].

إنّ العَدَميّةَ ليست هي محضَ الفراغِ، وإنّما هي الفراغُ الذي يأبى أن يُفْسِحَ للمعنى مساحةً للوجود؛ لأنّ العَدَمَ هو عدمُ المعنى؛ فهو معنى بذاته، ولكنّه معنى سلبيّ؛ فلا يلتقي المعنى ونقيضُه في مساحةٍ واحدة.

---

(١) R. C. Sproul, *The Consequences of Ideas: Understanding the Concepts that Shaped Our World*, p. 172.

(٢) Cited in: Wayne D. Rossiter, *Shadow of Oz: Theistic Evolution and the Absent God* (Eugene, Oregon: Pickwick Publications, 2015), p.3.

(٣) ويليام بروفين William Provine (١٩٤٢ ـ ٢٠١٥م): مؤرّخُ علومٍ أمريكيّ. من أهمّ الرّموز المعادية لتيّار التّصميم الذكيّ.

المبحث الثاني

الكون الناطق بالمعنى

الكونُ في التصوّر الإلحادي مجموعُ أبعاضٍ بلا رابطةٍ متجاوزةٍ تجمع بينها، فهل يوافق الكونُ هذا الوصفَ؟

إنّ الكونَ طافحٌ بالمعاني باديَ الرأي، والتّطابقُ بين الفكرِ والواقع ظاهرةٌ لا يمكن إغفالها أو رَدّها؛ إذ إنّ ردَّها إعدامٌ للعقل، وبإعدامِ العقل ينتهي إمكان التفكير والحُكْم. ولذلك يقول (سي. إس. لويس): «لا يمكن لأيِّ أمرٍ في الكون أن يكونَ صحيحًا إلَّا إذا سَمَحَ ذلك الأمر لتفكيرنا أن يكون صوابًا. النظريّةُ التي تُفَسِّرُ كلّ شيء في كلِّ الكونِ إلَّا أنّها تمنع تصديقَ صواب تفكيرِنا، لا بُدَّ أن تُرفضَ بوضوحٍ؛ إذ إنّه قد تمَّ الوصولُ إلى تلك النظريّة بالتفكير، وإذا كان التفكيرُ في ذاته غير مجد؛ فستدمّر النظريّةُ نفسَها بداهةً»[1].

فما هي مظاهر المعنى في الكون ودلالتها على نقضِ الإلحادِ وإثبات الوجود الإلٰهيِّ؟

المطلب الأول

دليلُ المفهوميّةِ

يبدأ العلم بالإيمان أنّ الكون مفهومٌ، وأنّ العقل متناغِمٌ في عَمَلِه مع عملِ الكونِ؛ ولذلك هو قادرٌ على استيعابِ شَكْلِه وحَرَكتِه. وقد اشتُهِرَ عن

---

(١) C. S. Lewis, *Miracles*, p.21.

(أينشتاين) قوله: «أعظمُ شيء غير مفهوم فيما يتعلّق بالكونِ؛ هو أنّه مفهومٌ»[1]. وهي ـ عندي ـ كلمة من أَعْمَقِ ما قيل في التّاريخ البشريّ، إنّها كلمةٌ ساحرةٌ أُحِبُّ أنْ أُذَكِّرَ بها كلَّ من يُجادِلُ في الإلحاد بحماسةٍ عَجِلَةٍ لأَرُدَّهُ إلى بداهاتِ العقولِ.

في عبارة (أينشتاين) الشّرارة الكبرى للنَّظَرِ الواعي إلى حقيقةِ هذا العالم المُلْتَحِفةِ بالغرابة لِتَؤُزَّ الإنسانَ أنْ يُفكّر. وقد استثارت العبارةُ بعض معارف (أينشتاين) لإنكارها عليه؛ ولذلك اضطرّ أن يكتب إلى أَحدِهم قائلًا: «لقد تَعَجَّبْتَ أنني أَعُدُّ مفهوميّةَ الكونِ (إلى الحدّ الذي يسمح لنا أن نتحدَّثَ عن هذه المفهوميّةِ) **مُعْجِزةً** أو لُغْزًا أَبَدِيًّا. حَسَنًا على الإنسان أن يَتَوَقَّع مبدئيًّا عالَـمًا من الفوضى لا سبيل له لِفَهْمِهِ بعقلِه بأيّ حال... إنّها **«المعجزة» التي تترسَّخُ باستمرارٍ كلّما توسَّعَتْ معرفتُنا. وهنا يكمن ضعفُ فلاسفةِ الوضعيّة والمُدافِعين عن الإلحادِ»**[2].

إنّها «المعجزة»..! واعْلم أنّ كلمةَ «معجزة» تتكرّرُ على أَلْسِنةِ الملاحدة في تفسير كثيرٍ من الظواهر الكونيّةِ كما سيأتي في هذا الكتاب أكثرَ من مرّة. وقد رَجَّتْ حقيقةُ أنّ الكونَ بتركيبِه موافقٌ للعقلِ وتفكيره، والفَهْمِ ونظامِه، عقلَ (أرسطو) حتّى قال: إنّ البحثَ في الطبيعةِ كاشفٌ أنّ العالم محتومٌ أن يكون معلومًا، وأنّ الإنسان محتومٌ أن يَعْلَمَ؛ فقد صُنِعا بعضهما لبعض[3].

وليس المقصود ببرهان المعنى هنا القول: إنَّ العلمَ ناجعٌ؛ فيلزم من ذلك مباشرة أن يكون اللهُ موجودًا. وإنّما الأمرَ كما يقول (جون بولكنجورن): «وجودُ الخالقِ مُفَسِّرٌ لِمَ العالَمُ مفهومٌ بصورة بالغةٍ، ولا أستطيع رؤية أيِّ تفسيرٍ آخرَ فاعِلٍ ولو بصورةٍ أدنى»[4]؛ فالعِلمُ مَدِينٌ لمفهوميّة الكونِ؛ ولولا قَبُولُ الكونِ لِلفَهْمِ لامْتَنَعَ على العقلِ أنْ يفهمَ وعلى العلم أن ينشأ.

---

(١) "Das Unverstaendliche am Universum ist im Grunde, dass wir es verstehen".

(٢) Albert Einstein *Letters to Solovine,* (New York: Philosophical library, 1987), p.131.

(٣) J. Lear, *Aristotle: The Desire to Understand* (Cambridge: Cambridge University Press, 1988), p. 230.

(٤) Polkinghorne, *Quarks, Chaos & Christianity* (New York: Crossroad Pub., 2005), p.23.

«تبدو لي الرُّؤيةُ الإلحاديّةُ القائلةُ: إنّ الكونَ وُجِدَ صُدْفةً دون غايةٍ لكنْ مع بِنْيةٍ منطقيّةٍ رائعةٍ، رؤيةً غَبِيَّةً»[١]. الفلكيُّ الكبيرُ (فريد هويل).

المطلب الثاني

دليلُ النِّظامِ

ترتيب الكونُ يحتمل صورًا لا تكاد تحصى، وعامَّتُها صورٌ فوضويّةٌ غير متآلفةٍ ولا متناغِمةٍ؛ بما يمنع ظهورَ القوانين. كما أنّ العقلَ لا يجد حَرَجًا في تصوُّرِ كونٍ تتغيّر ظروفُه وقوانينُه كلّ لحظةٍ، أو تَعْقُبُ الفوضى فيه فوضى أُخرى... لكنّنا نجد كونَنا على خلافِ كلّ ما سبقَ؛ فهو بإجماعِ المؤمنين والملاحدةِ مُنَظَّمٌ، يسير في سِكَكِ القوانين؛ بما يجعل مادّةَ الكونِ تبدو على شكل خطوطٍ متآلِفةِ الأفرادِ وحركاتٍ يَغْلُبُ عليها التّناسقُ؛ حتّى أطلقَ الفيلسوفُ وعالم الرياضيات اليونانيّ (فيثاغورس)[٢] على الكونِ اسم «كوسموس» «κοσμος» [كوسموس] بمعنى: شيء مُنَظَّم، ومن هذه الكلمة جاءت الكلمة الإنجليزيّة «cosmos»..

والقانون الطّبيعيُّ ـ كما يُعرّفه كثيرٌ من العلماءِ اليوم ـ هو: «القاعدةُ التي تستنِدُ على انتظامٍ مرصودٍ، وتُوفّر نبوءاتٍ تتجاوز الوضعيّاتِ الحاليّة التي قامت عليها».

والملاحظ في عالَمِ الطّبيعةِ أربعةُ أمورٍ:

١ ـ الكونُ مُكوّنٌ من جسيماتٍ كثيرةٍ عَدَدًا بصورةٍ مَهُولةٍ.

٢ ـ الكونُ خاضعٌ لقوانينَ تَحْكُمُ حركَتَهُ وتفاعُلَ أجزائِه مع محيطِها.

٣ ـ خضوعُ المجرّات المتباعدةِ للقوانين نفسِها.

---

(١) Fred Hoyle, *Home is Where the Wind Blows: Chapters from a Cosmologist's Life* (Oxford: Oxford University Press, 1997), p.421.

(٢) فيثاغورس Pythagoras (٥٧٠ ـ ٤٩٥ ق. م): فيلسوفٌ يونانيٌّ، تُنْسَبُ إليه المدرسة الفيثاغوريّة. كان له اهتمامٌ بالرياضيات والعلوم والموسيقى.

٤ ـ خضوعُ الكونِ للقوانين ذاتها قديمًا وحديثًا (= خضوعُ كلّ مجموعةٍ إلى قوانينَ متجانِسةٍ).

وهي حقائقُ تُشَكِّلُ معضلةً كُبرى في التصوُّرِ الإلحاديِّ العشوائيِّ؛ إذ يَبْعُدُ بصورةٍ كبيرة ردُّ ذلك إلى التغيُّرِ الأَعْمى؛ ولذلك جاء البيانُ القرآنيُّ في الدّعوة إلى معرفة الربِّ من خلال انتظامِ الكونِ. قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝﴾ [الرحمٰن: ٥]. قال (ابن كثير): «أيْ: يَجْرِيَانِ بحسابٍ مُقَنَّنٍ مُقَدَّرٍ لا يتغيّر ولا يضطرب»[١].

وقد صاغ اللّاهوتيُّ الاسكتلنديُّ (جون تلّك)[٢] برهانَ النّظام في استدلالِه على وجود الله بقولِه:

١ ـ النّظامُ الكونيُّ يُثْبِتُ وجودَ عَقْلٍ.

٢ ـ مظاهرُ الطَّبيعةِ تُثْبِتُ وجودَ نِظامٍ.

٣ ـ مظاهرُ الطَّبيعةِ تُثْبِتُ وجودَ عَقْلٍ[٣].

والمقصود «بالعَقْلِ» هنا، الحِكْمة الصَّادرة عن غير المادّةِ، والـمُتَعالِيةِ على الكونِ.. وذاك منه تعبيرٌ عن الحاجةِ إلى الوجود الإلٰهيِّ.

إنّ وجودَ هذا الانضباطِ في كونٍ عَبَثِيِّ الحركةِ يَبْعُدُ تَصْديقُه لأنّه يزعمُ أنّ النظامَ يُولَدُ من رَحِمِ العَبَثِ دون سُلطانٍ حَكِيمٍ يَتَسَلَّطُ على العَبَثِ لِيُخْضِعَهُ إلى حاقِّ النّظام؛ ولذلك قال الفيزيائيُّ (بول ديفيس): «نظامُ الكونِ يبدو أمرًا بديهيًّا. حيثما نَظَرْنا، من المجرّات البعيدةِ إلى أعمقِ فراغاتِ الذَّرَّةِ، نواجِهُ الانتظام والتَّنظيمَ المعقّد. نحن لا نرى المادّة أو الطّاقة موزَّعةً بطريقة عشوائيّةٍ، إنّها على خلافِ ذلك مرتّبةٌ بصورة هَرَمِيَّةٍ: ذرّاتٍ وجزيئات، وبلُّورات، وكائناتٍ حيّة، وأنظمةٍ كوكبيّةٍ، ومجموعات نَجْمِيّةٍ، وهكذا. أَضِفْ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي السّلامة (الرّياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م)، ٨/ ٤٨٩.

(٢) جون تلّك John Tulloch (١٨٢٣ ـ ١٨٨٦م): رجلُ فِكْرٍ ودينٍ. دَرَّسَ اللّاهوت النّظاميّ والدّفاعيّات في الجامعة. اشتُهِرَ بكتابه «اللّاهوت العقليّ والإيمان المسيحيّ».

(٣) William Leslie Davidson, *Theism as Grounded in Human Nature* (London: Longmans, Green, 1893), p.416.

إلى ذلك أنّ سُلوكَ الأنظمةِ الماديّةِ ليس عشوائيًّا، وإنّما هو قانونيٌّ ومنهجيٌّ»[1].

وإذا كان الوجود قد بدأ بما يسمّى «الانفجارَ العظيمَ»، والذي هو تَفَجُّرٌ عَنِيفٌ حامٍ جدًّا؛ فإنه يلزمنا أن نعتقدَ أنّه سَيَؤُولُ إلى فوضى عارمةٍ، فلِمَ تَحَوَّلَتِ الفوضى - إن كانت هناك فوضى أَصْلًا! - إلى نظامٍ؟ هو سؤالٌ نسألُه نحن، وقد طرحَهُ قبلَنا (آلن ساندِيغ)[2] - أحدُ أكبرِ علماءِ الفلك في القرن العشرين، وقد تحوَّلَ في آخرِ حياتِه إلى الإيمان باللهِ -؛ إذ قال: «إنّي أَجِدُ أنّه من غير المحتملِ بصورةٍ عظيمة أن يكون هذا النّظامُ قد جاء من فوضى. لا بُدَّ أن يكون هناك مبدأٌ تنظيميٌّ. الإلٰهُ بالنّسبة لي شيءٌ مُلْغِزٌ لكنّه تفسيرٌ لمعجزة الوجودِ»[3].

والنّظام الذي نحن بصددِ وَصْفِهِ ليس وَجْهًا من الحركة البسيطة الدافعةِ لكلّ الكون في اتّجاهٍ واحد، وإنّما هو أنظمةٌ ديناميكيّةٌ مختلفةٌ ومتكاملةٌ تسير بانتظامٍ تكامليٍّ حيٍّ ومعقّدٍ؛ فكلُّ شيءٍ موصولٌ بغيره، وحركتُه متأثّرةٌ بحركة غيره، ونظامُه متأثّر بغيره من الأنظمةِ.

ولا يمكن تفسير هذا النّظامِ بطبيعةِ كلِّ جُزءٍ منه، فإنّ الأجزاء منفعِلةٌ بغيرها، كما لا يمكن تفسيره بمجموع الأجزاء لأنّ النّظام أمرٌ زائد على أشياءِ المجموعة.. ولا يمكن الاقترابُ من تفسير أصل النّظام إلّا بفهم أنّ «النّظامَ» مُظْهِرٌ لِلحِكْمةِ، والحكمةُ صفةُ حَكِيمٍ، والمادةُ صمَّاءُ لا تُفَكِّرُ؛ فوجَبَ أن تكون الحكمةُ التي أوجَدَتْ نظامَ الكونِ غير نابعةٍ من المادّةِ وإنما وافدةٌ من ورائها؛ أيْ: مُتَعَالية عليها، أو بعبارة العالم الكبيرِ (جون هوتن)[4]: «النِّظامُ

---

(١) Paul Davies, *God and the New Physics* (Penguin Books Ltd., 1990), p.145.

(٢) آلن ساندِيغ Allan Sandage (١٩٢٦ - ٢٠١٠م): فلكيٌّ أمريكيٌّ. نَشَرَ مئاتِ المقالات العلميّة، وأثَّرَ بصورةٍ بالغة في تطوُّرِ علم الفَلَكِ في عصرِه. أوّلُ من حَدَّدَ بدقَّةٍ عُمْرَ الكَوْنِ.

(٣) Allan Sandage, *New York Times*, 12 March 1991, p.B9.

(٤) جون هوتن John Houghton (١٩٣١-): أحد أعلام العلم في المملكة المتّحدة. أستاذُ علمِ فيزياءِ الغلافِ الجَوِّيِّ في جامعة «أوكسفورد». له عنايةٌ خاصّةٌ بالجدل العلميِّ والأخلاقيِّ لقضايا المناخِ.

اللّافت للنّظرِ، والاتّساق، والموثوقيّة، والتّعقيدِ المُذْهِلِ للوصفِ العِلميِّ للكونِ، انعكاسٌ للنّظام والاتّساق والموثوقيّة والتّعقيد في الفِعْلِ الإلٰهيِّ»[1].

والنّظامُ هو سبب قُدرتنا على فَهْمِ العالَم، واكتشافِ قوانينِه، وتسخيرِها لخدمة الإنسانِ، ولولا الطّبيعةُ الانتظاميّةُ للوجودِ الماديِّ لامْتَنَعَ أن نكتَشِفَ شيئًا؛ بل ولامْتَنَعَ أن نُقْدِمَ على فعلِ شيءٍ؛ ثقةً في مآلِه؛ لأنَّ غيابَ القوانين يمنعُ الثّقةَ في مآلِ الفِعْلِ؛ فقد تشرَبُ ويستمرُّ الظَّمَأُ، وتمتنِعُ عن الأكل فَتَسْمَن، وتنزِلُ فترتفع، وتَسْكُتُ فتصرخ..!

إنّ وجود الإنسان ـ كما نعرفه ـ، ومنحةَ العقلِ التي تَحْكُمُنا، رَهِيْنَا وجودِ النّظام في الكونِ، ولولا هذا النّظام لما كان الإنسان عاقلًا، فلا عقلَ بلا قدرةٍ على الفهم والتَّنَبُّؤ...

والمشكلةُ التي تواجه العقلَ الماديَّ هاهنا هي تفسير قدرةِ قِطَعٍ من المادّةِ غير العاقلةِ على الانتظامِ في قوانينَ عظيمةٍ، متعاشقةٍ، تُوَجِّهُ آلةً كونيّةً ضخمةً تخدِمُ وجودَ هذا الإنسانِ.

ليست القوانينُ الكونيّةُ في ذاتها التّفسير النهائيّ للنّظام الكونيّ لأنّ الإشكالَ الذي يواجِهُ الملاحدة ليس في السبب القريبِ لهذا النّظام (القوانين)، فلا يشكُّ أحدٌ أنّ القوانين هي التّفسير الدّاني لهذا النّظام، وإن شئتَ فقل هي حقيقةُ هذا النظام، وإنّما المطلوبُ هو تفسير أصلِ وجودِ النّظام في كونٍ لا يُغادِرُ في ذهن الملحدِ كونه مجموعةَ نَثَائِرَ عمياءَ تَبَعْثَرَتْ بعد انفجارٍ حامٍ.

«برهان النّظام» حجّةٌ مركزيّةٌ في أدلّة (ريتشارد سوينبرن)[2] على وجودِ الله. ومعلومٌ أنَّ (سوينبرن) أشهرُ فلاسفةِ بريطانيا المُؤَلِّهَة الذين كتبُوا في باب الجدلِ الإيمانيّ ـ الإلحاديّ في النّصف الثاني من القرن العشرين وإلى اليوم.

---

(١) John T. Houghton, *The Search for God: Can Science Help* (Vancouver: Regent College Pub., 2007), p.59.

(٢) ريتشارد سونبرن Richard Swinburne (١٩٣٤ـ): أحد أبرز الفلاسفةِ البريطانيّين، وأشهرُ الفلاسفةِ المؤلّهة في بريطانيا. دَرَّسَ في جامعة أوكسفورد. له عنايةٌ خاصّةٌ بفلسفة الدّينِ وفلسفة العلومِ.

يقول (سوينبرن) في بيان بداهةِ دلالة النّظام الحاكم على قِطَعِ هذا الكونِ، على وجود الربّ: «إذا كانت كُلُّ النُّقود التي اكتُشِفَتْ في منطقةٍ أثريّةٍ تَحْمِلُ العلامات نفسَها، أو كانت كلُّ الوثائق الموجودة في غرفة ما قد كُتِبَ عليها بخصائص كتابة اليد نفسِها؛ فإنّنا نبحثُ عن تفسيرٍ يعود إلى مصدرٍ واحدٍ. المصادفاتُ الظّاهرةُ تستدعي ضرورةً تفسيرًا»[1].

فالكونُ منظَّمٌ لأنّه يعمل ضمن قوانينَ، والقوانينُ هي منظومةُ الحركةِ والتّفاعل المتكرّرة بين أجزاء الكونِ، وهي منظومةٌ ماديّةٌ تعمل في المادّةِ لِتَقُودَها إلى أوضاعٍ تسمح للكونِ بالاستمرار؛ بما يَشِيْ أنّها تعملُ بِحِكْمةٍ وتسيرُ إلى حِكْمةٍ. ولذلك قال (ماكس بلانك) ـ الذي أَحْدثَ ثورةً في فَهْمِنا لعالَمِ الذَّرَّةِ وما دونه، والحائز على جائزة **نوبل** في الفيزياء ـ عن النّظام الكونيّ: «بالإمكان صياغةُ هذا النّظام في شكلِ عَمَلٍ **غائيٍّ**. هناك أدلّةٌ على وجود ترتيبٍ ذَكِيٍّ للكونِ يَخْضَعُ له كلٌّ من الإنسانِ والطَّبيعةِ»[2].

إنّ جوهرَ برهان النظام أنّ قوانينَ الكونِ عَرَضٌ للطّبيعةِ التكراريّة لعمل الأشياءِ بصورةٍ دائميّةٍ، وذاك هو ما يظهر باستمرارٍ في علوم الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا... وغيرها من سُنَنِ الطّبيعةِ. ومن الممكن التعبيرُ عن هذه القوانينِ بصياغاتٍ رياضيّةٍ بسيطةٍ من اليسير فَهْمُها، والتَّنَبُّؤ بمستقبلِ عَمَلِ الكونِ. فانتظامُ الكونِ هنا يظهر بوضوحٍ في موافَقَتِه للمعادلات الرياضيّةِ والصياغاتِ العلميّةِ المختصرة. ووجودُ الشيء المركَّبِ، والمعقَّدِ، والواسع جدًّا، والذي بالإمكان اختصارُ هَنْدَسَتِهِ وطبيعة عملِه في قوالبَ معرفيّةٍ رمزيّةٍ، أَمْرٌ مُدْهِشٌ؛ بل **مُعْجِزٌ**[3].

ومفهومُ النّظامِ هو الذي جعل العلم بحقيقة الكونِ ممكِنًا؛ أي: إنّ البشرَ استطاعُوا إنشاءَ كُلِّ مباحثِ العِلمِ الطّبيعيّ لأنّهم يؤمنون سَلَفًا بأنّ الكون مُنَظَّمٌ، فلا سبيلَ للعالِمِ أن يفهمَ العالَمَ بدءًا حتّى يَعْتَنِقَ رُؤيةً كونيّةً قَوَامُها

(١) Richard Swinburne, *Is There a God?*, p. 50.

(٢) A. Barth, *The Creation in the Light of Modern Science* (Jerusalem Post Press, Jerusalem 1966), p. 144.

(٣) Richard Swinburne, Argument From Design: <http://www.orthodoxytoday.org/articles2/SwinburnDesign.php>.

الإيمانُ الجازِمُ أنّ كونَنا خاضِعٌ لترتيبٍ مُنَظَّمٍ، وأنّ هذا الترتيبَ واضِحٌ بصورةٍ تسمح باكتشافِه.

ويُوَضِّحُ (تشارلز تاونز)[1] حاجةَ العِلم إلى الكُفْرِ بالعَبَثِيَّةِ ـ الملازِمةِ ضرورةً للإلحاد ـ والإيمانِ القاطعِ بالنّظامِ لإنشاء رُؤيةٍ ماديّةٍ معقولةٍ عن الكونِ تُسمّى عِلْمًا طبيعيًّا، بقوله: «الإيمانُ ضروريٌّ للعالِم، حتى في مرحلةِ البدء، والإيمانُ العميقُ ضروريٌّ حتى يُؤَدّي أَشَقَّ ما يعترِضُه من مَهَامَّ. لماذا؟ لأنه يجب أن يكون على ثِقةٍ بأنّ هناك نظامًا في الكون، وأنّ العقل البشريَّ ـ في الواقع، عقله هو ـ لديه فرصةٌ جيّدةٌ لِفَهْمِ هذا النّظام. ودون هذه الثّقة، لن تكون هناك جدوى في بذل جُهدٍ مُكثّفٍ لمحاولة فَهْمِ عالَمٍ من المحتمل أن يكون فوضويًّا أو غير مفهوم. **ومن شأن هذا العالَم أن يعود بنا إلى أيّامِ الخرافةِ عندما اعتقدَ الإنسانُ وجودَ قوى ذاتِ نَزَوَاتٍ تَتَلاَعَبُ بالكَوْنِ**. في الواقع، إنّ محض هذا الإيمان بكونٍ مُنظّم ومفهومٍ للإنسان، هو الذي **سَمَحَ بالانتقالِ الأساسيّ من عَصْرِ الخُرافةِ إلى عصرِ العِلمِ**، وأتاحَ لِتَقَدُّمِنا العلميِّ أن يكون»[2].

وقد وَضَّحَ عالِمُ الفيزياء النّظريّة ـ اللّاأَدْرِيّ ـ (بول ديفيس) ضرورةَ الإيمان بالنّظام للصّيرورةِ العلميّةِ واللّوازم الفلسفيّة لذلك في مقال له بعنوان «Taking Science on Faith»[3]؛ حتّى إنّه قال: إنّه لا يمكن أنْ يكون المرءُ في عداد العُلماءِ حتّى يُقِرَّ بَدْءًا بإيمانِه أنّ هذا الكون مُنَظَّمٌ بصورةٍ عقلانيّةٍ. وأضاف أنّ سُؤَالَيْهِ لزملائِه الفيزيائيّين: «ولكنْ مِنْ أينَ أَتَتْ هذه القوانين؟» و«لماذا هي على الصُّورة التي عليها الآن؟» لا يَلْقَيَانِ من الجواب غير: هذا ليس سُؤالًا عِلْميًّا! أو: لا أَحَدَ يعلَمُ الجوابَ! وما بينهما. وأَفْضَلُ جوابٍ سَمِعَهُ هو: لا يوجد سببٌ لكونها كذلك. هي فقط كذلك!

---

(١) تشارلز تاونز Charles Townes (١٩١٥ ـ ٢٠١٥م): فيزيائيٌّ أمريكيٌّ. له اهتمامٌ بالإلكترونيّات الكموميّة. أشرفَ على مجموعةٍ من المشاريع العلميّة الكبرى للحكومة الأمريكيّة.

(٢) Charles Townes, 'The Convergence of Science and Religion,' IBM's *Think Magazine*, Volume 32, p.5 (March-April, 1966).
<http://www.templetonprize.org/pdfs/THINK > pdf >.

(٣) <http://www.nytimes.com/2007/11/24/opinion/24davies.html>.

وكان تعليقُه على كلّ جوابٍ باردٍ، قولَهُ: «هل من الممكن أن يكون الصَّرْحُ العظيمُ للنّظام الفيزيائيِّ الذي نُدْرِكُهُ في العالَمِ الذي حولَنا مُتَجَذِّرًا في عَبَثِيَّةٍ بلا عَقْلٍ؟ **إذا كان الأمر كذلك، فالطّبيعةُ ـ إذن ـ خديعةٌ شيطانيّةُ الذَّكاءِ،** تُخَفِّي اللّامعنى والعَبَثَ في صورةٍ ما على شكلِ نظامٍ وعقلانيّةٍ أَصِيْلَيْنِ».

وقد يُغْفِلُ مَن اعتادَ رؤيةَ النّظام جُزءًا أصيلًا في البناء الكونيّ عن الاندهاشِ من حُضورِه الصّميميِّ في أشياءِ العالم؛ وليس ذلك لِبداهَةِ الحاجة إلى اقترانِ المادة بالنظام؛ وإنّما لأنّ هذا الغافِلَ عن الاندهاشِ قد نشأ في بيئةٍ بُني تاريخُهَا الفكريّ منذ مئاتِ السّنين على أنّ للكونِ غايةً، وللطبيعةِ خالِقًا، على خلافِ طبيعة الذهنيّةِ الصّينيّةِ التي تَأَخَّرَ فيها الكشفُ العلميُّ قُرونًا بسبب الغَفْلةِ عن وَحْدةِ الوُجودِ المادّيِّ وانتظامِه في قوالبِ أنظمةٍ حكيمةٍ؛ ولذلك قال مؤرّخُ العلوم (جوزيف نيدهام)[1]: «لم تكن هناك ثقةٌ في أنّه بالإمكان البتَّةَ كشفُ شَفْرةِ قوانينِ الطّبيعة وقراءتها؛ لأنه لم تكن هناك أيُّ ضمانةٍ أنّ الكائن الإلٰهيّ ـ الأكثرَ عقلانيّةً منّا ـ قد صاغ مثل هذه الشَّفْرةَ التي من الممكن قراءتها»[2].

إنّ العلم قائمٌ على تفسير عَمَلِ أشياءِ العالَم لتفسيرِ آثارِ هذه المنظومةِ الكُبرى، فكلُّ شيءٍ في العِلمِ قائمٌ على حاجة كلّ شيء، وكُلُّ حَدَثٍ إلى تفسيرٍ، فلِمَ يستثني الملحِدُ مجموعَ النّظام من التّفسير؟ لماذا يرى وجوبَ تفسير أفرادِ الأحداثِ، ولا يرى نظامَ الكونِ في مجموعِه ـ وهو الحدَثُ الأَهَمُّ ـ في حاجةٍ إلى تفسير؟!

إنّ البحث العلميَ يسيرُ حَثِيثًا نحو كشوفٍ تُصَادِمُ أُصولَ المذهبِ الطّبيعانيِّ، ولُبَّ الحركةِ العمياءِ فيه؛ فاتّساعُ آفاقِ الرَّصْدِ البعيد، ودِقَّةُ النَّظَرِ الحادِّ إلى ما لم تكن تُدْرِكُهُ العَيْنُ المجرّدة قد قادَا فَتْحًا جديدًا إلى روائعِ

---

(١) جوزيف نيدهام Joseph Needham (١٩٠٠ ـ ١٩٩٥م): مُؤرّخُ علومٍ وعالم كيمياء حيويّة بريطانيّ. عضو الجمعيّة الملكيّة البريطانيّة. له اهتمام خاصٌّ بتاريخ العلم في الصّين.

(٢) Joseph Needham, *The Grand Titration (London: G. Allen & Unwin, 1969), p.327.*

النّظام والاتّساق في هذا العالم الفسيحِ؛ ولذلك قال (روبرت مليكان)[1] ـ الحائز على جائزة **نوبل** في الفيزياء سنة ١٩٢٣ ـ: «بدأ العِلمُ يُظْهِرُ لنا كونًا **مُنَظَّمًا وجَمَالًا متآلِفًا مع النّظام**، كونًا لا يعرف النَّزَواتِ، كونًا يَتَصَرَّفُ بطريقٍ معروفٍ وقابلٍ لِلتَّنَبُّؤ به، كونًا من الممكن التَّعويلُ عليه؛ في كلمةٍ، إلٰهٌ يعمل من خلال السُّنَنِ الطّبيعيّةِ»[2].

المطلب الثالث

دليل الرياضيات

الكونُ الإلحاديُّ كونٌ كَمِّيٌّ ضرورةً، فهو مجموعة أشياء متراكِمةٍ؛ لكنّ العلم يخبرنا عن طابعٍ كيفيٍّ ماتِعٍ للمادّةِ والطّاقة، وهو انتظامُ المادّة والطّاقةِ على نَسَقٍ رياضيٍّ مُعقَّدٍ ومُرَتَّبٍ ومتآلِفٍ.

وقد كان من أسباب عُلُوّ المدرسة العقلانيّةِ التي كان رُوَّادُها علماء رياضيات (كديكارت ولايبنتس..) في ما يُعرف بعصر النّهضةِ في أوروبا أنّ الكون قد كَشَفَ نفسَهُ للعالم في صُوَرِ معادلاتٍ رياضيّةٍ؛ إذ كانت الكشوفُ تأتي مُصَدِّقةً لما تَنَبَّأَ به علماءُ الرياضيات. وقد كانت دهشةُ (يوهانس كيبلر)[3] ـ عالم الرياضيات والفَلَك ـ في بداية القرن السَّابع عشر عظيمةً بهذه الكشوفِ بعدما كانت الرياضيات مجرّدَ مُتْعةٍ عقليّةٍ عند اليونان (عند إقليدس وأرخميدس...)؛ فقال بعبارةٍ جَذْلَى: «لا بُدَّ أن يكونَ الهدفُ الرئيسُ لِكُلِّ الأبحاثِ في العالَم الخارجيِّ اكتشافَ النِّظام والتَّناسقِ العقلانِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ فُرِضَا على العَالَمِ من الله، واللَّذَيْنِ أُوْحِيَا إلينا بِلُغَةِ الرّياضيات»[4].

---

(١) روبرت مليكان Robert Millikan (١٨٦٨ ـ ١٩٥٣م): فيزيائيٌّ أمريكيٌّ. نال نوبل عن أبحاثه في قياس شِحْنَةِ الإلكترون. كان له اهتمامٌ فلسفيٌّ ببيان حال التّوافق بين العلم والإيمان، والتّكامل بينهما.

(٢) Robert Millikan, *Science and Religion* (New Haven: Yale University Press, 1930), p.79.

(٣) يوهانس كيبلر Johannes Kepler (١٥٧١ ـ ١٦٣٠م): عالمٌ ألمانيٌّ من أعلام الثّورة العلميّة في القرن السّابع عشر.

(٤) Johannes Kepler, *De Fundamentis Astrologiae Certioribus*, Thesis XX (1601).

وجَدَّدَ فيلسوفُ الرّياضيات (مارك ستاينر)[1] الحديثَ السَّابِقَ نفسَهُ في كتابه «الرّياضياتُ مُشْكِلةً فلسفيّةً» «Mathematics as a Philosophical Problem» (١٩٩٨م) ببيان أنّ الفيزيائيّين نَجَحُوا في الكَشْفِ عن قوانينَ علميّةٍ على أساسٍ واحدٍ، وهو أنّ **الكَوْنَ بِنْيَةٌ رياضيّةٌ قابلةٌ لِلْفَهْمِ والكَشْفِ**؛ بل إنَّ الرياضيات تَجَاوَزَتْ «مَنْحَ» العُلماءِ القُدْرَةَ على فَهْمِ الطَّبيعةِ ووَصْفِها إلى القُدْرةِ على الكَشْفِ عن ظواهرَ فيزيائيّةٍ جديدةٍ.

ويُعتبَرُ حديثُ الفيزيائيّ (يوجين ويغنر)[2] ـ الحائزِ على جائزة **نوبل** والمتوفّى منذ عَقْدَيْنِ ـ عَمَّا سَمَّاهُ ـ بعنوان مقالِهِ ـ «الفعاليّةُ غيرُ المعقولةِ للرّياضياتِ» «The unreasonable effectiveness of mathematics» صرخةً كُبرى في الأوساط العلميّة ـ الفلسفيّةِ، خاصّةً في دراسات عالم الذَّرَّةِ وتَعَالُقِ الجُسَيماتِ الدَّقيقةِ والتَّنَاظُرِ المدهِشِ بينها، والنُّبوءات الرياضيّة الكثيرة التي صَدَّقَها البحثُ العلميُّ. وقد خَتَمَ حديثَهُ في هذا الأمر بقولِه: «الفعاليّةُ غيرُ المعقولةِ للرّياضيات في العلومِ الطبيعيّةِ شيءٌ يُتاخِمُ عالَمَ الغُموضِ... ولا يوجدُ تفسيرٌ عقليٌّ لذلك... معجزةُ ملاءَمَةِ لُغةِ الرّياضيات لصيغةِ قوانين الفيزياء هَدِيَّةٌ عظيمةٌ **لا نَفْهَمُهَا ولا نَسْتَحِقُّهَا**»[3].

ليس أمامَ الملحِد خيار للقول: إنّ الرّياضيات ذواتٌ قائمةٌ في «عالَمِ المُثُل»[4] الأفلاطونيّ، وإنّ الوجود الأرضيّ العَيْنِيّ ظِلٌّ لها؛ إذ إنّ الملحدَ الماديَّ لا يؤمن بعالَمِ المُثُلِ. وليس للملحدِ أن يَنْسِبَ إلى الرّياضيات قدرةً سُلطانيّةً لتشكيلِ الوجود؛ إذ الرياضياتُ أفكارٌ تجريديّةٌ لا إرادة لها ولا قدرةَ

---

(١) مارك ستاينر Mark Steiner (١٩٤٢ـ): أستاذُ الفلسفةِ في الجامعة العِبريّة في فلسطين. متخصّصٌ في فلسفة الرّياضيات والفيزياء.

(٢) يوجين ويغنر Eugene Wigner (١٩٠٢ ـ ١٩٩٥م): عالمُ رياضيّاتٍ وفيزياء مَجَرِيٌّ. له مساهماتٌ بارزةٌ في دراسة الذَّرَّةِ.

(٣) E. Wigner, 'The Unreasonable Effectiveness of Mathematics in the Natural Sciences', *Communications in Pure and Applied Mathematics, vol. 13, No. I (February 1960).*

(٤) عالَمُ المُثُلِ: نظريّةٌ أفلاطونيّةٌ تُقرِّرُ أنَّ عالَـمَنَا الحِسِّيَّ ظِلٌّ لعالَمٍ رُوحيٍّ أنْقَى وأَصْدَق، هو عالَمُ المُثُلِ، وفيه توجدُ الأُصولُ الكاملةُ للأعيانِ النّاقصةِ التي في كَوْنِنا.

ذاتيّةً تملِكُهَا لِلفِعْلِ. وأمام عَجْزِ الملحدِ عن فَهْمِ تَعَالُقِ المادّةِ والرّياضياتِ لصناعةِ كَوْنٍ مفهومٍ، يملك المؤلِّهُ الجوابَ الشَّافي عن هذا الإشكالِ، وهو أنّ الرّياضيات بناءٌ نَظَريٌّ مَرْجِعُهُ ذاتٌ حَكِيمةٌ، وأنّ صياغةَ الكونِ على نَسَقٍ رياضيٍّ مَتِينٍ حُجَّةٌ على وجودِ هذه الذَّاتِ.

وبإمكاننا أن نصوغ هذا البرهان على الصورة التالية:

١ ـ إذا لم يكن اللهُ موجودًا، فإنّ قابليّةَ تطبيقِ الرياضيات مجرّدُ صُدْفةٍ سعيدةٍ.

٢ ـ قابليةُ تطبيق الرّياضيات ليست مجرّد صُدْفةٍ سعيدةٍ.

٣ ـ إذن اللهُ موجودٌ[١].

إنّها الحقيقة التي تستثير في النَّفْسِ الرَّغْبةَ في التَّفَلْسُفِ؛ أَقْصِدُ «شعورَ الدَّهْشةِ».. ولذلك صَرَّحَ (ريتشارد فاينمان)[٢] ـ الحائز على جائزة **نوبل** في الفيزياء ـ: «سَبَبُ أنَّ الطّبيعةَ ذاتُ صِبْغةٍ رياضيّةٍ أَمْرٌ مُلْغِزٌ... حقيقةُ وجودِ قواعدٍ ـ من الأَساس ـ **مُعْجِزةٌ**»[٣]. إنّ تطابُقَ اللُّوغوس (العَقْل) البشريّ وثَمَرَةَ اللُّوغوس الكونيِّ (الطّبيعة) في صياغةِ رياضيّاتٍ معقولةٍ حُجَّةٌ أنّ رُوحَ الحياةِ في الكونِ مَصْدَرُها غيرُ مادّةِ الكونِ، وغيرُ قانونِ المادّةِ. وتخبرنا خبراتُنا المتراكمةُ التي لا تَعْرِفُ استثناءً أنّ الأفكارَ المتراكمةَ (multi-layered) والمتداخلةَ، والمنظَّمَةَ لا تَصْدُرُ إلَّا عن ذاتٍ حَكِيمةٍ (أو ما يُسمّى في الأدبيَّاتِ الغربيّة: عَقْل ذكيٌّ)؛ فلماذا نستثني قوانينَ الكونِ من أن تكون أَثَرًا عن ذاتٍ ذكيّةٍ أو حكيمةٍ؟!

إنّ العقلَ لا يجد أدنى نَكارةٍ في أن يكون الكَوْنُ مُشَوَّشًا، وأن يستعصيَ على الفَهْمِ ويتأَبّى على الخُضوعِ للقوالِبِ الرياضيّةِ المحكَمَةِ حادَّةِ الأطرافِ؛

---

(١) Corey Miller and Paul Gould, eds. *Is Faith in God Reasonable?: Debates in Philosophy, Science, and Rhetoric* (New York: Routledge, 2014), p.15.

(٢) ريتشارد فاينمان Richard Feynman (١٩١٨ ـ ١٩٨٨م): عالم فيزياء نظريّةٍ أمريكيّ بارز. اشتُهِرَ بمساهماته العلميّة في ميكانيكا الكمِّ.

(٣) Richard Feynman, *The Meaning of It All: Thoughts of a Citizen-Scientist* (New York: BasicBooks, 1998), p.43.

ولذلك أَرْسَلَ عالِمُ الرّياضيات **الملحِدُ** (روجر بنروز)[1] رسالةً إلى عالم الرياضيات الكبيرِ (ريتشارد توماس) يَسْأَلُهُ بِدَهْشَةٍ عن النّتائج الرياضيّة العجيبةِ والمبهرةِ التي ظهرَتْ في الفيزياء النّظريّة في العَقْدَيْنِ الأخيرَيْنِ. فأجابَهُ (ريتشارد توماس) بقوله: «لا يمكن أنْ تكونَ هذه الأشياءُ ـ لعالم الرياضيات ـ مُصادفةً. لا بدَّ أنّها من سَبَبٍ أعلى. وذاك السَّبَبُ هو افتراضُ أنّ هذه النّظريّة الرياضيّةَ الكبيرةَ تَصِفُ الطَّبيعةَ»[2].

وقد قال (بنروز) ـ **الملحِدُ** ـ نفسُه: «إنَّهُ يَشُقُّ عَلَيَّ أن أُصَدِّقَ... أنّ مثل هذه النَّظريات يمكن أن تنشأَ عن بعضِ انتخابٍ طبيعيٍّ عشوائيٍّ من الأفكار، مُبْقِيةً ـ فقط ـ الجيّدةَ منها لِتَحْيَا. الجيّدُ من هذه الأفكارِ هو ـ ببساطة ـ أَجْوَدُ بكثيرٍ من أن يكونَ من الأفكارِ التي نَجَتْ، والنَّاشِئُ عن طريقِ عشوائيّةٍ... يجب أن يكون هناك سببٌ خَفِيٌّ عميقٌ للتَّوافقِ بين الرياضيات والفيزياءِ»[3].

المطلب الرابع

عناد قانون الأنتروبيا

يَنُصُّ قانون الأنتروبيا على أنّ الوجودَ ينتقل ذاتيًّا من النّظام إلى الفوضى، ومن المعنى إلى اللَّامعنى، ولا ينتقِلُ بذاتِه من اللّامعنى إلى المعنى.

ويعارض قانون الأنتروبيا بذلك مفهومَ وجود المعنى أو بقاءَهُ في كونٍ يزعمُ الملاحدةُ أنّه أَزَليٌّ، إنّ وجودَنا في عالم فائضٍ بالمعنى يُصادِمُ دعوى عَمَى الكونِ وعشوائيّتِه لأنّ قانون الأنتروبيا مُخبرٌ أنّ كلّ نظامٍ يسير ـ إذا غابَ الموجِّهُ ـ ذاتيًّا إلى الفوضى، والفوضى عنوانُ اللَّامعنى.

إنّ وجودَ المعنى، وبقاءَهُ، وذُيوعَه يخالِفُ قانون الفسادِ في كونٍ مُتغيّرٍ بذاته يتدحرجُ كلَّ حينٍ إلى هُوّةٍ سحيقةٍ مغمورةٍ بالثُّقوب التي تَمْسَحُ كلَّ حينٍ عن صفحات الوجود جِبْرَ قِيَمِ الحقّ والخير والجَمَال لصالح الفراغِ..

---

(١) روجر بنروز Roger Penrose (١٩٣١ـ): عالم رياضياتٍ وفيزياء إنجليزيّ شهير. حاصلٌ على جائزة "Wolf Prize in Physics".

(٢) David Berlinski: *The Devil's Delusion*, p.46.

(٣) Roger Penrose, *The Emperor's New Mind* (New York: Oxford University Press), p.430.

المبحث الثالث

ملاحدةٌ ينتصرون لبرهانِ المعنى

المعنى قرينُ الوجود الحيِّ، ولولا المعنى لاستحالَ الوجودُ ركامَ أشياءٍ بلا ألوانٍ؛ بل ولا معالِمَ؛ فكلُّ الأشياءِ شيءٌ واحد بسيطٌ بلا عُمْقٍ، وصامتٌ لا يَنْطِقُ ولا يُبِيْنُ.. ووجودُنا على هذه الأرض مُثقلٌ بالمعنى الذي قد لا يراه الملحدُ وإن كان يعيشُ معناهُ واقعًا في كثيرٍ من أوجهِ حياتِه؛ فإنّ الإنسان لا يستطيع البَتَّةَ أن يحيا دون معنى؛ وإن اتَّخَذَ العَدَميّةَ دِيْنًا، وشِعارًا، ودِثارًا..

وقد كان المعنى سببًا لعودة كثيرٍ من الملاحدةِ إلى الإيمانِ بالله بعد أن كان نُطْقُ قلوبهم به حَسِيْسًا؛ مُعْلِنِينَ أنّ التّعايشَ الآمِنَ والواعي مع المعنى يقتضي الإيمان بالحِكْمةِ الكاملةِ التي تمنع أن يكون الوجودُ الماديُّ بلا عقلٍ ولا قلبٍ، ولا خوفٍ ولا شوقٍ، ولا انجذابٍ وارتدادٍ.. ومن هؤلاء العائدين إلى الإيمان بعد خصومةٍ إلحاديّةٍ حادَّةٍ، البيولوجيُّ (واين روستر)[1] صاحب الكتابِ القَيِّمِ الذي صدرَ منذ سنوات قليلة: «Shadow of Oz: Theistic Evolution and the Absent God».

يُخبرنا (روستر) عن خروجِه عن الإلحاد في قصّةِ أَزْمةِ المعنى قائلًا: إنّها أَخَذَتْ مُنْعَرَجَها الأكبرَ في الليلةِ التي احتفلَ فيها مع زوجتِه بنشرِه مقالًا عِلْمِيًّا في مجلَّةٍ مرموقةٍ عن التطوُّرِ السَّريعِ لإنزيماتِ سُمِّ إحدى الأفاعي؛ فبعد سهرةٍ ممتعةٍ، ذهبَتْ زوجتُه إلى فراشِها واستَمَرَّ هو في السَّهَرِ يشاهد التلفزيون،

(١) واين روستر Wayne Rossiter: حاصل على الدّكتوراه في البيئة والتطوّر البيولوجيّ. أستاذٌ مساعِدٌ للبيولوجيا في جامعة "Waynesburg".

وفجأةً شَعَرَ بوَعْكةٍ مُباغتةٍ وقُشَعْريرةٍ. . ولأَوَّلِ مَرَّةٍ يَنْتَبِهُ لمعنى الموتِ.

يقول: ملَكَ رُوحي سؤالٌ ثائِرٌ: «ما هي الأُسُسُ المنطقيّةُ التي يمكن أن تجعلني أَهْتَمّ بحالِ كوكبِ الأرضِ (أو حتى عائلتي) بعد أن أُغادِرَ الحياةَ؟ بل ماذا أعني «بالحَسَنِ» أو «القَبِيْحِ»؟ لم أستطِعْ أنْ أُثْبِتَ وجود أيِّ أخلاقٍ موضوعيّةٍ موجودة بعيدًا عن تجارِبنا الذاتيّة. إنَّ وجود أيّ قوانينَ أخلاقيّة بطريقةٍ موضوعيّةٍ ـ سواء وُجِد أيُّ شخصٍ يُنْسَبُ إليها أم لم يوجد ـ ستكون خارجةً عن متناولنا، ولن يكونَ لدينا أيُّ سببٍ موضوعيٍّ أو منطقيٍّ للامتثالِ لها إذا كانت موجودةً. . .

إذا أدَّت الجزيئاتُ إلى تَكَوُّنِ الخلايا، والخلايا إلى تكوّن الأعضاءِ، والأعضاء إلى تَكَوُّنِ الأجسادِ، فعندها تكون فرضيَّةُ «جزيئاتٍ إلى رَجُلٍ» صحيحةً. إنّنا حقًّا ـ بذلك ـ مَحْضُ أجهزةٍ رطبةٍ تستجيبُ للمؤثّرات الخارجيّةِ بطرائقَ ميكانيكيّةٍ وغير واعيةٍ. لا روحَ، ولا وَعْيَ، فقط آلات.

لقد دمَّرني هذا الخاطِرُ بصورة كليّةٍ وتامّةٍ»[1].

وبدأ (روستر) بعد ذلك رحلتَهُ في البحث عن البرهانِ العاقلِ على وجود الله بعدما فَضَحَت العشوائيّةُ أمام عَيْنَيْهِ خُلُوَّ الحياةِ من القِيمِ الأخلاقيّةِ الموضوعيّة؛ بل من كلِّ قِيمةٍ للحياةِ. . .

وعاد أيضًا إلى الإيمان بالربّ من بوّابة «المعنى»، اللاهوتي (كريج بويد)[2]؛ فقد كان أيّام دراسته في الجامعة ملحدًا شديدًا في عدميّته، وكان كثير القراءة لـ(نيتشه) و(سارتر).

كانت رحلة العودة مثيرة بحق؛ لأنّها بدأت بنقيض ما انتهت إليه؛ فقد أطلق شرارتها أحد أساتذة (بويد) الملحدين في الجامعة؛ إذ إنّه قد نصحه أن يقرأ للفيلسوف (كامو)؛ فقد استطاع هذا الأستاذ أن يكتشف من خلاله معنى للحياة في حياة بلا معنى.

---

(١) Wayne D. Rossiter, *Shadow of Oz: Theistic Evolution and the Absent God*, pp.4 -5.

(٢) كريج بويد Greg Boyd (١٩٥٧ـ): لاهوتي أمريكي، ومن أهم الشخصيات الدينية المؤثرة في الساحة الأمريكية.

قرأ (بويد) ما كتبه (كامو)؛ واكتشف أنّه يؤمن أنّ الحياة لاعقلانية، وعبثيّة، ولا معنى لها، ولا هدف، ومؤلمة؛ وهو ما أدهش (بويد) الذي تعجّب من تفاؤل أستاذه بعد قراءة عبثيّة الحياة في عيني (كامو). وقد دفع (كامو) (بويد) إلى أن يفكّر نقديًّا لأوّل مرّة في عدميّة الوجود الإلحادي: «إذا كان الكون بلا قيمة ولا معنى؛ فما قيمة أن تكون شجاعًا، وباسلًا، وبطلًا؟ من أين أتت هذه القيمة؟... لماذا علينا أن نحاول ونفعل أي شيء إذا كان كلّ شيء ينتهي إلى العدم؟»

لقد هيّجت عبثيّة (كامو) في (بويد) حنينه إلى المعنى؛ فالكون العبثي فارغٌ؛ ينتهي إلى فساد كلّ شيء، ولا نصر لغير الموت الذي يملك القرار الأخير، وكلّ أحلامنا وآمالنا ـ بذلك ـ عبث. وذاك يطرح الأسئلة الحرجة التالية:

- كيف أنتج العالم غير العاقل كائنات عاقلة؟
- كيف أنتج العالم الذي لا معنى له كائنات لها معنى؟
- كيف أنتج الكون اللاأخلاقي كائنات أخلاقية؟
- كيف خلق الكون كائنات تحنّ إلى شيء لا وجود له؟

يقول (بويد): «عندما تنظر إلى طبائع الطبيعة؛ تكتشف أنّ الطبيعة قد أنتجت كائنات تشتاق إلى أشياء تم توفيرها لها. نحن جائعون وهناك طعام، ونشعر بالعطش وهناك ماء... حسنًا، من أين جاء هذا التوق إلى المعنى والخير والعقل إذن؟».

ويتساءل: «كيف تُفسَّر ظاهرة البشر الذين ينتحرون لأن الحياة لا معنى لها ولا هدف أمامها؟ إذا كان الكون بلا معنى ولا هدف؛ فيجب أن يكون ذلك أكثر الاستنتاجات الطبيعية والواضحة في العالم؟ **إذا لم يكن الله موجودًا... فلماذا يُعتبر الالتزام بالإلحاد أكثر الأشياء صعوبة في العالم؟**»[1]...

---

(١) Dr. Greg Boyd: Atheism To Belief:
<https://www.youtube.com/watch?v=BnCn-rxcSN4&t=308s>.
<https://jamesbishopblog.com/2017/03/15/from-nihilist-to-pastor-howpdr-greg-boyd-lost-in-atheism/>.

لقد كانت أسئلة المعنى طريق (بويد) لاكتشاف منافرة الإلحاد للكون وطبائعه.

كما نَشَرَتْ (جنفر فلولر)[1] ـ منذ سنتين ـ قِصَّتَها مع الإلحاد في كتابها «شيءٌ آخَرُ غيرُ اللهِ»[2]، وفيه سَرَدَتْ رحلتها بعيدًا عن العَدَميّةِ؛ فقد عاشَتْ في أُسرةٍ ما كانت تَعْبَأُ بالدِّينِ، ووَجَّهَهَا ذلك إلى تقديسِ العِلم الطّبيعيِّ وأنّه حامِلُ أسرارِ الوجود كلِّهِ، فليس وراء المادة وقوانينِها شيءٌ غير أَوهام المُسَفْسِطِين.. وفجأةً انْقَلَبَ حالها لَمَّا أَنْجَبَتْ وَلِيدَها الأَوَّلَ.. تقولُ: «نظرْتُ أَسْفلَ منّي، وقُلْتُ: «ما هذا الرَّضِيعُ؟.. طيب، من زاويةٍ ماديّةٍ إلحاديّةٍ بحتةٍ، هو مجموعةٌ من التّفاعلات الكيميائيّة المتطوّرةِ بصورةٍ عشوائيّةٍ». وانْتَبَهْتُ إِثْرَ ذلك الجواب إلى أنّه إذا كان الأمرُ كذلك؛ فكلُّ الحُبِّ الذي أَشْعُرُ به تجاهَهُ ليس إلَّا تفاعلاتٍ كيميائيّة في أَدْمِغَتِنَا». ونظرتُ أَسْفَلَ، إليه، وقلتُ: «ليس الأمر كذلك! ليس الأمر كذلك»[3]!

إنّ الحُبَّ شُعورٌ صميميٌّ في الإنسان لا يملك صادِقٌ أنْ يُلْغِيَهُ، وهو فرعٌ عن المعنى؛ وفي كونٍ بلا معنى، لا معنى للحُبِّ؛ إذ الحُبُّ كأسٌ مُتْرعةٌ بالمعنى العَذْبِ.

مختصر النَّظَرِ

- العَدَميّةُ قرينةُ الإلحاد، والمعنى نقيضُها.
- الكون مفهومٌ بصورة غير مفهومةٍ عند الماديّين.
- الكونُ الإلحاديُّ العشوائيُّ لا يأتَلِفُ مع مظاهر النّظام الغامرة في الكون.
- الرياضياتُ تشهد لِجَمَال مفهوميّة الكونِ.
- وجودُ النّظام في الكون معارضٌ لقانون تزايُدِ الفوضى في عالم المادّةِ.

---

(١) Jennifer Fulwiler.

(٢) Something Other than God: How I Passionately Sought Happiness and Accidentally Found It.

(٣) Justin Brierley, *Unbelievable¢* (London: SPCK, Society for Promoting Christian Knowledge, 2017), pp.71 - 72.

• إنكارُ مفهوميّة الكونِ تصوُّرٌ لا سبيل إلى التّعايش معه واقعيًّا.

مراجع للتَّوسُّعِ:

Richard Swinburne, *Is There a God*, Oxford: Oxford University Press, 1996.

John Foster, *The Divine Lawmaker: Lectures on Induction, Laws of Nature, and the Existence of God*, Oxford: Clarendon Press, 2004.

F. R. Tennant, ‘‘Theism and Laws of Nature,’’ *The Harvard Theological Review*, 17/4 (1924) pp. 375-391.

Danny Frederick, ‘‘A Puzzle About Natural Laws and the Existence of God,’’ *International Journal for Philosophy of Religion* (2012).

الفصل الثالث

الخلق

ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]

ـ «كثيرٌ من النَّاسِ لا يُحِبُّون فِكْرةَ أنَّ لِلزَّمَنِ بدايةً، ولعلَّ سببَ ذلك اقتضاءُ الأَمْرِ التدخُّلَ الإلٰهيَّ»[1]

الفيزيائيُّ الملحِدُ الشّهير (ستفن هاوكنج)

الكَوْنُ: خَلْقٌ من العَدَمِ أم وجودٌ من الأَزَلِ؟

القولُ: إنّ الله ـ سبحانه ـ لم يَزَلْ وَحْدَهُ، ثمّ خَلَقَ الأَشياءَ كُلَّها من مسائلِ الإجماعِ في القرونِ الإسلاميّةِ الأُولى بين الفِرَقِ الإسلاميّةِ الكُبْرى. وقد صَحَّ عن الرَّسُولِ ﷺ قولُه: **«كان اللهُ ولم يكنْ شيءٌ غيرُهُ»**[2]؛ ولذلك

---

(١) Stephen Hawking, *A Brief History of Time* (New York: Bantam Books, 1996), p.49.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب بَدْءِ الخَلْق، باب ما جاء في قولِ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، (ح/ ٣٠٢٠).

قال (ابن حجر): «قولُه: **«كان اللهُ ولم يكن شيءٌ غيرُه»** في الرّوايةِ الآتيةِ في التّوحيد: **«ولم يكن شيءٌ قَبْلَهُ»**، وفي روايةِ غيرِ البخاريِّ: «ولم يكن شيءٌ مَعَهُ». والقِصَّةُ مُتَّحِدةٌ؛ فاقتضى ذلك أنَّ الرّواية وَقَعَتْ بالمعنى، ولعلَّ راوِيَها أَخَذَهَا من قولِه ﷺ في دُعائِه في صلاةِ اللَّيْلِ ـ كما تقدَّمَ من حديث ابن عبّاس ـ: **«أنتَ الأَوَّلُ فليس قَبْلَكَ شيءٌ»**، لكنّ روايةَ البابِ أَصْرَحُ في العَدَمِ، وفيه دلالةٌ على أنّه لم يكن شيءٌ غيره لا الماءُ ولا العَرْشُ ولا غيرهما، لأنّ كلَّ ذلك غيرُ الله تعالى ويكون قبله **«وكان عَرْشُهُ على الماء»**، معناهُ: أنّه خَلَقَ الماءَ سابقًا، ثم خَلَقَ العَرْشَ على الماءِ» (فتح الباري، ٧/ ٤٨٧).

تنبيه: تواطأ أهل العلم على مدى القرون الست الأولى على قبول عبارة: **«كان اللهُ ولم يكنْ شيءٌ غيرُهُ»**، ونقلوها في مصنفاتهم دون نكير، سواء كانت نيتهم منصرفة إلى نقل ما رواه البخاري أو تقريرًا لخبر عقدي دون طلب إحالة إلى خبر مرفوع.

كَتَبَ (ابن حزم) في مؤلَّفِهِ عن الإجماعِ تحت عنوان: «بابٌ من الإجماع في الاعتقادات»: «**اتَّفَقُوا** أنَّ الله ﷻ وحدَهُ لا شريكَ له، خالِقُ كُلِّ شيءٍ غيره، وأنّه تعالى **لم يَزَلْ وَحْدَهُ ولا شيءَ غيره معه، ثم خَلَقَ الأشياءَ كُلَّها** كما شاء»[1].

وقد نقل (ابن حزم) الإجماعَ السَّابقَ بعد استقراءٍ واقعيٍّ[2]، خاصّةً أنّه كان له اهتمامٌ خاصٌّ وعظيمٌ بمسألة حدوثِ العالم من العَدَمِ بعد أن لم يكن هناك شيءٌ، وله في ذلك مناظراتٌ مع القائلين: إنَّ الدَّهْرَ لاَ أَوَّلَ لَهُ، ومنهم (ثابت بن محمد الجرجانيّ)[3]، وناقَشَ أصحابَهُ في زمانِه (عبد الله بن شنيف)[4] أيضًا في ذلك.. كما احْتَجَّ الإمامُ (أحمد) ـ في خصومتِه مع القائلين: إنّ القرآن مخلوقٌ ـ بِأَثَرِ (ابن عبّاسٍ) ﷺ: «إنَّ أَوَّلَ ما خلقَ اللهُ **من شيءٍ**: القَلَمُ»[5]. وفي ذلك دلالة على وجودِ مخلوقٍ أوّل ليس قبله خَلْقٌ؛

---

(١) ابن حزم، مراتِبُ الإجماع، تحقيق: حسن أحمد إسبر (بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م)، ص٢٦٧.

(٢) حديثُ الأئمة الأوائل عن وجودِ أوّلٍ بإطلاق للمخلوقات، وغياب النقل الصريح لخلاف ذلك في القرون الأولى رغم قيام مقتضى التصريح به (إذ هو خبر عظيم في أمر العقيدة، لا نظير له عند الفرق الكبرى لأهل الكتاب)، واشتهار مبحث «أوّل الخلق» في كتب المصنّفين.. كلّ ما سبق، إذا أضفنا إليه أنّ الفرق العقديّة **الأولى** قد دخلت في منازعات في مسائل بالغة الدقة والخفاء، وأفاضت في بيان لوازم المذاهب، دون أن تنكر على جماعة أخرى قولها بقدم نوع المخلوقات (الفلاسفة كانوا يرون قدم عين المخلوقات)؛ يُلزمنا أن نوافق (ابن حزم) استقراءه.. وأدنى ما يُقال في الأمر عندها أنّه إجماع سكوتي عند أهل السُّنَّة في قرونهم الأولى.

(٣) ابن حزم، الفصل في الأهواء والملل والنحل، ١/ ٦١ ـ ٦٢.

(٤) المصدر السابق، ١/ ٦٣.

(٥) الآجُرّيّ، الشّريعة، تحقيق: عبد الله الدّميجي (الرياض: دار الوطن، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م)، ١/ ٥١٠. قال الإمام (الآجُريّ) مُعلِّقًا: «كأنّه [الإمام أحمد] يقول: قد كان الكلامُ قبل خلق القَلَم، **وإذا كان أوّل ما خلقَ اللهُ من شيء القلم؛ دلَّ على أنّ كلامَهُ ليس بمخلوقٍ، ولأنّه قبل خلق الأشياء**». (المصدر السابق).

تنبيه: رُوي عن (ابن عباس) ـ من طريق أبي هاشم عن مجاهد عَنْه ـ: «إنّ الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئًا، فكان أوّل ما خلق الله القلم». وهو أثرٌ يخالف الرواية التي نقلناها عن (ابن عباس) في المتن في أوّل مخلوق؛ إذ يُثبت أنّ العرش سابق القلم. وقد ضعّف الحديث الإمام (الطبري) و(الألباني) القائل: «منكر جدًّا عندي لقوله: «قبل أن يخلق شيئًا»... فإنه يشعر أن العرش =

ولذلك فالقرآن الذي كان وراءَ القَلَم ليس بمخلوقٍ. كما جاءت الرّواية عن (ابن عباس) ﵄: «إنّ أَوَّلَ شيءٍ خَلَقَهُ الله القَلَمُ؛ فأَمَرَهُ بكتبِ كُلِّ شيءٍ»، أَخْرَجَهُ الحاكِمُ[1]، وقال: «حديثٌ صحيحٌ على شرط الشَّيخَيْنِ ولم يخرجاه»، وقال (السيوطي): «ورجالُه ثِقاتٌ»[2].

وقال الإمام (الطبري) ـ المتوفَّى ٣١٠هـ : «فإذا كان **معلومًا** أنّ خالِقَ الأشياء وبارِئَها **كان ولا شيء غيرُه**، وأنّه أحدثَ الأشياء؛ فدَبَّرَها، وأنّه قد

= غير مخلوق! وهذا باطل ظاهر البطلان، وقد رواه شعبة عن أبي هاشم فلم يذكر فيه هذا الباطل. ولعلّه من قبل أبي هاشم الرماني، فإنه وإن كان ثقة بالاتفاق، فقد غمزه ابن حبان، فقال في «ثقاته» (٥٩٦/٧): كان يخطئ، يجب أن يعتبر حديثه إذا كان من رواية الثقات عنه، فأما رواية الضعفاء عنه... فإن الوهن يلزق بهم دونه لأنه صدوق لم يكن له سبب يوهّن به غير الخطأ، والخطأ متى لم يفحش لا يستحق من وجد فيه ذلك الترك».

قلت [الألباني]: وإذا كان لا بد من تعصيب الخطأ في ذلك القول إلى أحد من سلسلة هذا الإسناد؛ فالأولى أن ينسب إلى من دون ابن عباس، ثم إنّ أولاهم به هو أبو هاشم هذا ـ لما سبق ـ، وليس الراوي عنه سفيان ـ وهو: الثوري ـ، فإنه: «ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة» ـ كما قال الحافظ في «التقريب» ـ.

وإنّ مما يبطل ذاك القول ونسبته إلى ابن عباس: أنه نفسه ممن روى عنه ﷺ ما يؤكد بطلانه لما تقدم بلفظ: «**إنّ أول شيء خلقه الله تعالى القلم...**».

ولذلك قال الطبري ﵀: «وقول رسول الله ﷺ الذي رويناه أولى بالصواب؛ لأنه كان أعلم قائل بذلك قولًا بحقيقته وصحته، من غير استثناء منه شيئًا من الأشياء أنه تقدم خلقُ الله إياه خلقَ القلم؛ بل عمَّ بقوله ﷺ: «**إن أول شيء خلق الله القلم**» كل شيء، أنّ القلم مخلوق قبله من غير استثنائه من ذلك عرشًا ولا ماءً، ولا شيئًا غير ذلك، فالرواية التي رويناها عن أبي ظبيان وأبي الضحى عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ أولى بالصحة عن ابن عباس من خبر مجاهد عنه الذي رواه عنه أبو هاشم؛ إذا كان أبو هاشم قد اختلف في رواية ذلك عنه شعبة وسفيان على ما ذكرت من اختلافهما فيها». [قلتُ سامي: أثرُ ابن عباس الذي فيه وجود العرش قبل خلق القلم رواه عن أبي هاشم سفيان الثوري بإثبات وجود العرش قبل القلم، ورواه شُعبة عن أبي هاشم دون هذه الزيادة، وإنما بإثبات أنّ القلم أوّل مخلوق].

وإني لأحمد الله تعالى أنّ هذا الكلام من هذا الإمام موافق تمامًا لما كنت ذكرته في فوائد حديث ابن عباس هذا في المصدر المذكور آنفًا «الصحيحة»، أن فيه ردًّا على من يقول بأن العرش هو أول مخلوق، ولم أكن يومئذٍ قد وقفت عليه. فالحمد لله على توفيقه، وأسأله المزيد من فضله». (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ٦٧٩/١٣ ـ ٦٨٠).

(١) المستدرك على الصَّحيحَيْنِ، (ح/٣٨٩٣).

(٢) السّيوطي، الحاوي للفتاوي (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م)، ٤٢٩/١.

خَلَقَ صُنوفًا من خَلْقِه قبل خَلْقِ الأَزْمِنَةِ والأوقات، وقبل خَلْقِ الشَّمس والقمر اللَّذَيْنِ يُجريهما في أفلاكِهِما، وبهما عُرِفَت الأوقاتُ والسَّاعات...»[1]؛ ثمّ ذَكَرَ اختلافَ السَّلَفِ الصَّالح في أوّل مخلوقٍ؛ لإجماعهم أنَّ لِلخَلْقِ بدايةً[2].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ٣١/١.

(٢) روى (الطبري) ـ مثلًا ـ عن (**مجاهد**) (متوفًّى ١٠٤هـ) ـ تلميذ (ابن عباس) ﷺ ـ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، قوله: «**قبل أن يخلق شيئًا**». (تفسير الطبري، تحقيق: مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، دار هجر، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ٣٣٠/١٢).

وشهاداتُ الأئمّة الأوائل ـ من أهل الحديث ـ غير ذلك كثيرة ـ من القرن الثّالث إلى القرن الخامس الهجريّ ـ في أنّ لِجِنْسِ الخَلْقِ بدايةً أُولى مُطْلَقة (وهي شهادات في عدم تحقق تسلسل المخلوقات في الماضي، لا في عدم إمكان ذلك عقلًا؛ فذاك مبحث آخر، وحجّية هذه الشهادات هنا هي في منع توهّم أنّ في وجود بداية للمخلوقات ما يُعدّ تعطيلًا لصفة الخالقية؛ فالله ـ سبحانه ـ خالق ولا مخلوق، لا يزداد بالخلق كمالات)، ومنها:

قال العلّامة (**عبد العزيز الكنانيّ**) ـ المتوفّى ٢٤٠هـ في مناظرته لـ«بِشْر المريسيّ» ـ أحد أئمّة المعتزلة ـ: «أَقَرَّ بِشْرٌ أنّ الله كان ولا شيء معه، وأنّه أحدثَ الأشياءَ بعد أن لم تكن الأشياءُ بقدرته، وقلت أنا: إنّه أَحْدَثَها بأَمْرِهِ وقوله ﷻ عن قُدْرتِه، فلم يَخْلُ... أن يكون أوّل خلقِ خَلَقَهُ الله بقولٍ قالَهُ أو بإرادةٍ أرادَهَا أو بقدرة قدرها؛ فأيّ ذلك فقد ثبت إنّ هاهنا إرادة ومريد، وقول وقائل، ومقال وقدرة، وقادر ومقدور عليه. **وذلك كله متقدّم قبل الخلق، وما كان قبل الخلق؛ فليس هو من الخلق في شيء**» (الكنانيّ، الحَيْدَةُ والاعتذار في الردّ على مَنْ قال بخلق القرآن، تحقيق: علي الفقيهي، المدينة المنورة: مكتبة العلم والحكم، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، ص٨٤).

وقال الإمام (**عمرو بن عثمان**) ـ المتوفى ٢٩٧هـ : «لم يستحدث تعالى صفة كان منها خليًّا، واسمًا كان منه بريًّا، تبارك وتعالى، فكان هاديًا سيهدي، **وخالقًا سيخلق**، ورازقًا سيرزق، وغافرًا سيغفر، وفاعلًا سيفعل». (ذكره: ابن تيمية، الفتوى الحموية الكبرى، تحقيق: حمد التويجري، الرياض: دار الصميعي، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ص٣٨٤ ـ ٣٨٥).

وقال الإمام (**الطَّحاويُّ**) ـ المتوفّى سنة ٣١٢هـ في مَتْنِهِ العَقَدِيّ المشهور بـ«العقيدةِ الطحاويّة» ـ: «ما زال بصفاتِه قديمًا قبل خَلْقِهِ، لم يزدَدْ بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليًّا، كذلك لا يزال عليها أبديًّا. **ليس بعد خَلْقِ الخَلْقِ استفاد اسم الخالق، ولا بإحداثِ البريّةِ استفاد اسم الباري. له معنى الرّبوبيّة ولا مربوب، ومعنى الخالقيّة ولا مخلوق**. وكما أنه محيي الموتى بعدما أحياهم استحقّ هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك **استحقَّ اسم الخالق قبل إنشائهم**».

وقال الإمام (**الآجُرّيُّ**) ـ توفي ٣٦٠هـ ـ: «لم يزل الله عالِمًا مُتكلِّمًا سميعًا بصيرًا بصفاته **قبل خلق الأشياء**، من قال غير هذا كَفَرَ». (الآجريّ، الشريعة، ٤٩٠/١).

وقال الإمام الحافظ (**ابن منده**) ـ المتوفّى سنة ٣٩٥هـ ـ: «ولم يزل موصوفًا بالخالق، الباري، المصوّر، **قبل الخلق**» (ابن منده، كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرّد، تحقيق: علي الفقيهي، المدينة المنورة: ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ٧٦/٢). =

وقد اتَّفَقَ المُؤَلِّهَة والملاحدةُ منذ عُرِف للإلحادِ وجودٌ ـ إلّا من شَذَّ من ملاحدة العصر المنكرين للسببيّة ـ أنّ وجودَ الكونِ بعد عدمٍ دليلٌ على احتياجِه لخالقٍ غير ماديٍّ يُخرِجُه من الوجود إلى العَدَمِ، وهو من يُسمّيه المؤمنون والملاحدة «الله» ﷻ، أو بعبارة الفيلسوف المسلم (الكِنْدِيِّ) (توفي ٢٥٦هـ/ ٨٧٣م) ـ والذي تَأَثَّرَ بالفلسفة اليونانيّة لكنَّهُ خالَفَ الفلاسفةَ اليونان قولهم بأزليَّةِ المادَّةِ ـ: «إنَّ الفِعْلَ الحَقِّيَّ الأَوَّلَ تَأْيِيْس الأيسات عن ليس[1]»[2].

وقد تحدّثتُ بتفصيل في هذا البرهان ـ المسمّى برهان الحدوث ـ في كتاب آخر[3]، وهو أَوْلى بالمراجعة لمن أراد الاستفاضة في البيان، وأكتفي هنا بأهمّ عناصر الموضوع.

يقول المؤلِّهُ: أصلُ الكونِ الماديِّ حُجّةٌ لمعرفة حقيقة الخالقِ؛ فإنّه إذا كان الله ـ كما هو في وَصْفِهِ القرآنيّ ـ موجودًا، فلا بدّ أنّه:

- قد خَلَقَ الكونَ إِثْرَ عَدَمٍ.
- الكونُ لا يحمِلُ صفاتِ الأَزَلِيَّةِ.
- من الرّاجح أن يُظْهِرَ الكونُ صفاتٍ ماديّةً دالّةً على أنَّ له بدايةً.

ويقول الملحِدُ: إذا كان الكون بلا خالقٍ، فمن المتوقّع أن:

- يدلَّ البرهانُ العقليُّ والعلميُّ على أنّ الكونَ وُجِدَ لمدّةٍ لانهائيّةٍ من الزَّمنِ.

= وقال الإمام (**ابن بطة**) ـ المتوفّى ٣٨٧هـ : «اللهُ لم يزل عليمًا سميعًا بصيرًا متكلّمًا، تامًّا بصفاتِه العليا وأسمائه الحسنى، **قبل كون الكون، وقبل خلق الأشياء**». (ابن بطة، الإبانة الكبرى، تحقيق: يوسف الوابل، الرياض: دار الراية، ١٤١٨هـ، ٥/٣٢٥).

وقال الإمام (**اللّالكائيّ**) ـ المتوفّى ٤١٨هـ في أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق: «إنّما جرى القلم [الذي كُتِبَتْ به أقدارُ الخَلْقِ] بكلام الله الذي **قبل الخلق إذا كان القلم أوّل الخلق**» (اللّالكائيّ، شرح أصول اعتقاد أهلِ السُّنة والجماعة، تحقيق: أحمد الغامدي، دار طيبة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م، ٢/٢٤٣)

وقال الإمام المفسّر (**أبو القاسم الثّعلبيّ**) ـ المتوفّى سنة ٤٢٧هـ ـ : «اللهُ تعالى كان **قبل خَلْقِهِ الأشياء** قائمًا بذاتِه، ثمّ خَلَقَ الأشياء من غير حاجةٍ له إليها». (الثعلبيّ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: ابن عاشور، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٦/١٢٦).

(١) الأَيْس: الوجود. اللَّيْس: العَدَمُ.

(٢) أبو ريدة، رسائل الكنديّ الفلسفية (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٠م)، ١/١٨٢.

(٣) سامي عامري، فَمَنْ خَلَقَ الله (لندن: مركز تكوين، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م). وهو متاحٌ على النت للقراءة.

• امتناعُ وجودِ ما يَنْقُضُ أَزَلِيَّةَ الكونِ.

علينا الآن أن نُوَلّيَ وَجْهَنَا لِلنَّظَرِ في الحقائق العقليّةِ اليقينيّةِ والثّوابتِ العلميّة لبيان حقيقة عُمْرِ الكَوْنِ، هل هو أَزَليٌّ بلا بدايةٍ، أم مخلوقٌ خَلَقَهُ خالِقٌ.

صياغةُ برهانِ الخلق

أَشْهَرُ صياغةٍ لدليلِ الخَلْقِ هي:

١ ـ كلُّ حادثٍ (أي: موجودٍ بعد عَدَمٍ) لا بُدَّ له من سَبَبٍ.

٢ ـ الكونُ حادِثٌ.

٣ ـ للكَوْنِ سَبَبٌ من خارجِهِ.

٤ ـ اللهُ هو خالِقُ الكَوْنِ.

ويعترف جميعُ من يكتبُ في دليلِ الحدوثِ في الغربِ أنّ علماءَ الإسلامِ هُمْ أَهَمُّ من أَصَّلُوا هذا البرهان، حتى إنْ ظهرَتْ صياغَتُه الأولى قبل الإسلامِ ببضعة قرونٍ، ومن ذلك قولُ الفيلسوفِ النَّصرانيّ (دوغلاس غروثيوس)[1]: «تطوَّرَ البرهانُ الكلاميُّ الكوسمولوجيُّ بصورة أَوَّلِيَّةٍ على يد اللّاهوتيّين المسلمين في العصور الوسطى رغم أَنَّ القدّيس بونافنتورا قد أَيَّدَهُ أيضًا [لاحقًا]»[2].

وجوهر النّزاع في هذا البرهان كامن في دعوى «نشأة الكونِ من عَدَم»؛ إذ يُسلِّمُ البشرُ عامَّةً أنّ الشيءَ لا يخرج من العَدَمِ إلَّا بسببٍ، ولا سببَ إلَّا بِمُسَبِّبٍ، وإذا كان الكونُ هو المادّةُ[3]؛ كان مُوجِدُهُ ـ غير الماديّ ـ متقدّمًا عنه وُجوديًّا ضرورةً؛ فيلزم من ذلك أن يكون اللهُ مُوجِدَهُ. وبسبب ذلك سَيَنْصَبُّ حديثُنا التالي على إثبات أنّ المادَّةَ حادثِةٌ غيرُ أَزَلِيَّةٍ بالبرهانَيْنِ، العقليِّ؛ وهو الجوهريّ، والعلميِّ؛ وهو المعضّد.

---

(١) دوغلاس غروثيوس Douglas Groothuis (١٩٥٧ـ): فيلسوف أمريكيّ. له عناية بالجدل الإيماني الإلحادي، وفلسفة الدين، وتحديات ما بعد الحداثة.

(٢) Douglas R. Groothuis, *Christian Apologetics: A comprehensive case for biblical faith* (Downers Grove, Ill.: IVP Academic; Nottingham, England: Apollos, 2011), p.214.

(٣) لا يجد الجدل الفلسفي والعلمي هنا نفسه معنيًّا بالمخلوقات غير الماديّة؛ فإنّ الإيمان بها فرع عن الإيمان بالله.

المبحث الأول

البرهان العقلي على نَفْيِ أَزَليّةِ الكونِ

كتبَ الفلاسفة منذ زمن (يوحنا فِلُوبونوس)[1] في بيانِ أنّ الزمانَ لا يمكن أن يكون أزليًّا لعدم إمكان تسلسلِ الأحداث إلى ما لا نهاية[2]؛ وإذا انتفى إمكان أزليّةِ الزّمانِ؛ لزم القولُ: إنّ المكان مخلوقٌ بعد عَدَمٍ، لِتَلَازُمِ الزَّمان والمكان وُجُودًا وعَدَمًا[3].

وسنتناول هنا أهم الأدلّة العقليّة على نفي أزليّةِ الكونِ، ولكن قبل ذلك لا بُدَّ أن نَعْرِفَ ما هو الزّمانُ حتّى نُدرِكَ إن كان له حَدٌّ.

الزَّمَانُ ـ كما يقول (أرسطو) و(الغزاليّ) و(ابن تيميّة). . . ـ: «مقدارُ الحَرَكَةِ[4] موسوم من جهة التقدُّم والتأخُّرِ»؛ أي: هو أَثَرُ تَعَاقُبِ الحوادث في العالم؛ لأنّه يُنْتَزَعُ ذِهْنِيًّا من الحركة، فهو عَرَضٌ لهذا التَّحَوُّلِ. وفي تعريفٍ أَبْسَطَ يُوافِقُ غرضَ بحثنا: الزَّمانُ هو مجموعُ ما يَسْتَغْرِقُه تَتَالي الأحداثِ.

---

(١) يوحنا فِلُوبونوس Ἰωάννης ὁ Φιλόπονος (ـ ٥٧٠): عُرِفَ في التُّراثِ الإسلاميِّ بـ«يوحنا النَّحويِّ». فيلسوفٌ أرسطيّ ولاهوتيٌّ نصرانيٌّ. أُدِيْنَ بعد وفاتِه بالهرطقة لآرائِهِ حَوْلَ التَّثْلِيثِ.

(٢) في كتابِهِ "De aeternitate mundi contra Proclum".

(٣) **تنبيهان**: نَفْيُ المكانِ الذي يُحِيْطُ بالربِّ لا يَنْفِي حقيقةَ العُلُوِّ الذي جاء به الشَّرْعِ.. والأمر نفسه في القول بإحداث الزمان (الزمان مفهوم انتزاعي لا جوهر له، ظهر بظهور المكان ـ الزمان التقديري التوهمي قبل الخلق ليست فيه آنات)؛ فإحداث الزمان لا ينفي فعل الله في الزمان عند بدئه بخلق الكون؛ أي: ما يُسمّى «بأفعال الله الاختيارية» التي دلّت عليها النصوص الشرعية بإحكام وإفاضة؛ ولذلك صرّح الإمام (الطبري) ـ مثلًا ـ بالامتناع العقلي للاتناهي الفعلي، وبامتناع قدم جنس المخلوقات، مع إثباته «لأفعال الله الاختيارية» في تفسيره.

(٤) الزَّمَنُ من زاوية نظريَّةِ النِّسْبِيَّةِ العامَّةِ بُعْدٌ رابعٌ للكَوْنِ يتمدَّدُ ويَتَحَدَّبُ، ولا يَمَسُّ ذلك برهاننا في شيء؛ لأنّنا سنناقش الزَّمن بِعَدِّهِ أثرًا عن تتابع الأحداث (التغيُّرات)؛ وهي زاوية للنَّظر مختلفةٌ وغيرُ مُعاكِسةٍ.

وبذلك يمكن الحُكْمُ على الزَّمَنِ أنّ له نهايةً إذا كانتْ أحداثُه المتتابعة نهائيَّةً، أو أنَّهُ بلا نهايةٍ إذا كان مجموعُ أحداثِهِ المتتابعة بلا نهايةٍ.

المطلب الأول

امتناعُ وجودِ ما لا يَتَنَاهى في الواقِعِ

يقول الفيزيائيُّ (بول ديفيس): «توجدُ قاعدةٌ في العِلْمِ غيرُ مكتوبةٍ، وهي أنّ أيَّ شيءٍ من الممكن ملاحظَتُه، ويُتوقّع أن يكون لانهائيًّا؛ فذاك علامةٌ مُؤَكَّدةٌ أنّ النظريّةَ [التي تَضُمُّه] تنهارُ بصورةٍ أو بأخرى»[1]. وقد عَبَّرَ (ابن حزم) قبله عن هذا المعنى بصورةٍ أوسعَ تشمل كُلَّ شيءٍ طبيعيٍّ دخَلَ حَيِّزَ الوجودِ: «**كُلُّ موجودٍ بالفعل فَقَدْ حَصَرَهُ العَدَدُ**»[2]؛ بما يلزم منه أنّ ما لا نهايةَ لِمَجْمُوعِهِ لا يَدْخُلُ في الوُجودِ بالفِعْلِ.

هو برهانٌ مَتِينٌ، لم يجد (هيوم) الشُّكوكيُّ أمامَهُ من قولٍ غير أن يُصَرِّحَ قائلًا: «يبدو العَدَدُ اللَّانهائيُّ للأجزاءِ الحقيقيةِ للزَّمَنِ التي تَمَرُّ في تَتَابُعٍ، فَيَعْقُبُ الجزءُ منها الآخَرَ، يُعدّ تناقُضًا بصورةٍ بَدَهيّةٍ، حتّى إنّه ـ كما نَتَصَوَّرُ ـ لا يمكن لأيِّ إنسانٍ لم يَفْسُدْ رأيُه... أنْ يَقْبَلَهُ»[3].



(١) Paul Davies, *About Time: Einstein's Unfinished Revolution* (New York: Simon & Schuster, 1995), p.112.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنّحل، ١/٥٨.

(٣) David Hume, 'An Enquiry Concerning Human Understanding,' in *The English Philosophers from Bacon to Mill*, ed. Edwin A. Bunt (New York: Random House, 1939), 12.2, p. 684.

من أَهَمِّ أدلَّةِ الامتناع العقليّ لوجودِ لاتناهٍ واقعيٍّ أنّه يلزم من وجود اللّانهاية الفعليّةِ عددٌ من **المُحالاتِ** لا يقبلها الواقِعُ الماديُّ، ونقدّم لذلك مثالَيْنِ:

المثال الأوّل:

تَصَوُّرُ مكتبةٍ فيها عَدَدٌ لانهائيٌّ من الكُتُبِ، وهي على لَوْنَيْنِ، كتب بيضاءَ وأخرى سوداءَ، وهي مُرتّبةٌ على الرُّفوف بالتوالي، بين كلّ كتابَيْنِ أبيضَيْنِ كتابٌ أَسْود. ونحن إذا حاولنا أن نتعامل تعاملًا واقعيًّا مع هذه المكتبة فسننتهي إلى تناقضاتٍ لا يمكن أن تجد لها مكانًا في واقع الوجود الماديِّ، ومنها:

- عددُ الكتبِ البيضاءَ يُساوي عددَ الكتبِ البيضاءَ والسَّوداءَ معًا = (لامتناهٍ).
- لو حذفنا كلَّ الكتب البيضاء فسيبقى عددُ الكتب هو نفسُه = (لامتناهٍ).
- لو زِدْنا كُتُبًا جديدةً إلى المكتبة فسيبقى عددُ الكتب نفسُه قبل الإضافة = (لامتناهٍ).
- إذا افترضنا أنّه على غلافِ كلّ كتابٍ رقمٌ خاصٌّ به، والتّرقيمُ يبدأ من (١) صُعودًا إلى اللّانهاية، فلن نجد رقمًا طبيعيًّا لكتابٍ جديدٍ بعد أن استنفدنا جميع الأرقامِ الطّبيعيّة رغم أنّ اللّانهايةَ لا تَنْفَدُ أَرْقامُها.
- افترِض أنّنا سَحَبْنا من الرُّفوف كُلَّ الكتب السَّوداء بما يترك مساحةً بين كلّ كِتابَيْنِ أَبْيَضَيْنِ، وبتجميع الفراغات إلى بعضها نُحَصِّلُ مساحةَ فراغٍ لانهائيّةٍ على رُفوفِ الكتب، ولكن الرُّفوف عليها عَدَدٌ لا نهائيٌّ من الكتب بما يقتضي مَلْءَ كُلِّ الرُّفُوفِ[١]!

وكذلك يكون الأمرُ لو تعامَلْنَا مع مجموعِ أحداثِ الزَّمانِ إذا جعلنا

---

(١) See William Lane Craig, *The Existence of God and the Beginning of the Universe* (San Bernardino, CA: Here's Life, 1979), pp.42 - 45.

حَدَثَ (الآن) أَبْيَضَ اللَّوْنِ، وما يَسْبِقُه أَسْود، وما قَبْلَهُ أَبْيض، وما يَسْبِقُه أَسْود، إلى الأَزَلِ بلا نهايةٍ.

المثال الثاني:

وهو المثال الذي عرضه (برتراند راسل): تَصَوَّرْ شَخْصًا يكتبُ مُذكّراتِه، ويحتاجُ سنةً كاملةً لإتمام مذكّرات يومٍ واحدٍ فقط. إذا قلنا: إنّ هذا الشّخصَ قد عاش ما لا يتناهى من الزَّمانِ؛ يلزمنا ـ عندها ـ أن نقول:

- إنّه قد فرغَ من كتابةِ خَبَرِ أَيَّامِهِ جميعِها.
- لكنَّنا نعلم أنّه كُلَّما تقدّمَت الأيّامُ ازدادت الهوَّةُ الزَّمنيَّةُ بينَهُ وبين اليوم الذي يُؤَرِّخُ له؛ إذ إنّه كُلَّما أَرَّخَ ليومٍ جديدٍ ابتعَدَ سنةً كاملةً عن اليومِ السّابق الذي يؤرّخُ له.

ولا يمكن الجَمْعُ بين الاحتمالَيْنِ السّابقَيْنِ لتعارضهما الواضح.

ومن أدلّة أنّ القول بوجود اللانهايات واقعًا يلزم منه المحالات أنّ عدد أحداث الوجود إمّا أن يكون شفعًا (زوجيًا: ٢، ٤، ٦...) أو فردًا (فرديًا: ٣، ٥، ٧...) «وما عُدّ من الأشياء فغير خارج من أحد العددين: شفع أو وتر؛ فإن يكن شفعًا فإنّ أوّله اثنان، وذلك تصحيح القول بأنّ له ابتداءً أولًا، وإن كان وترًا فإنّ أوّله واحد؛ وذلك دليل على أنّ له ابتداء وأوّلًا؛ وما كان له ابتداء فإنّه لا بدّ من مبتدئ، هو خالقه» ـ بعبارة (الإمام الطبري)[1].

أو بعبارة أخرى: عدد ما مضى من أحداث الزمان لا يخرج عن التالي:

- فرد وزوج. وذاك محال؛ فالعدد لا يمكن أن يكون فردًا وزوجًا في نفس الآن من نفس الجهة.
- لا فرد ولا زوج. وذاك محال؛ فإنّ العدد لا يخرج عن الفردية والزوجية معًا في نفس الآن من نفس الجهة.
- فرد. والعدد الفرد له نهاية= الزمان له نهاية من جهة الماضي والحاضر.

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١/ ٢١.

• زوج. والعدد الزوج له نهاية = الزمان له نهاية من جهة الماضي والحاضر.

ونحبّ التّنبيهَ والتذكير أنّ حديثنا هنا ليس عن اللّانهاية في عالم الرياضيات المجرّدة، وإنّما عن اللّانهاية في عالمِ الواقع؛ فإنّ الرياضيات علم التَّجريدِ الذِّهنيِّ الذي لا يلتقي ضرورةً مع ممكَنات الواقعِ[1]؛ ولذلك قال صاحبا كتاب «الرياضيات والخيال» ـ وهما من علماء الرياضيات ـ: ««الوجود» بالمعنى الرياضياتي يختلف كليًّا عن وجود الأشياء في العالم المادي. . . اللانهائي بالتأكيد لا يوجد بنفس معنى قولنا: «هناك سمك في البحر»»[2].

اعتُرِضَ على هذا البرهان بأنّ وجودَ هذه التّناقضات والمُحالاتِ لا يَضُرُّ وجودَ اللّانهاية الفعليّةِ في عالَمِنا، فذاك هو المتوقّع من وجود هذه اللّانهاية! وهو اعتراضٌ عجيبٌ لأنّ برهاننا قائِمٌ على أنّ عالَمَنَا لا يتحمَّلُ المتناقِضات لأنّ التّناقضَ ضرورةً غيرُ مُمْكِنِ الوُجودِ؛ كاجتماع الضِّدَّيْنِ أو ارتفاعهما، فالتَّناقُضُ في التَّصَوُّراتِ حُجَّةٌ لامتناعِ واقعيَّتِها. وقَبُولُ التّناقضِ في الواقع يلزم منه بطلانُ الإلحاد لأنَّ صِحَّةَ «دلائلِ الإلحاد» ـ عندها ـ لا تمنع وجودَ دلائلَ للإيمان صحيحةً!

وبالعودة إلى مفهوم الزَّمَنِ، نقول: إنّ الزَّمَنَ مفهومٌ انتزاعيٌّ يَسْتَلُّه الذّهنُ من تتابع الأحداثِ؛ الحَدَث تِلْوَ الآخر، ويمتنع أن يكون الزّمان بلا بداية

---

(١) بالإمكان التمثيل لما تقبله الرياضيات ولا يقبله الواقع أنّ: ($x^2-4=0$). تدلّ على أنّ (x) هو (2) أو (2-). . ولا يمكننا أن نقبل نتيجة: (2-). في بحثنا عن عدد مجهول من الرجال كانوا يشتركون في فعل أمر ما اعتمادًا على المعادلة السابقة، فإنّ عددهم سيكون (٢) لا سالب اثنين!
ولذلك فالاعتراض على عدم إمكان تفاضل اللامتناهيات بالقول: «إذا ضاعف المرء عددًا تضعيفًا لا يتناهى (مثال: $٥^١$، $٥^٢$، $٥^٣$، $٥^٤$). وضاعف عددًا أصغر منه تضعيفًا لا يتناهي (مثال: $٣^١$، $٣^٢$، $٣^٣$، $٣^٤$...)؛ فإنّ السلسلة الأولى مجموعها أكبر من السلسلة الثانية غير منتهض لأنّ الحديث السابق في المجرّدات الرياضية البعيدة عن مبحثنا في ما يتعلّق بالموجودات العينيّة التي يتّسع لها الواقع الفعلي.

(٢) Edward Kasner and James Newman, *Mathematics and the Imagination* (New York: Simon & Schuster, 1940), p.61.

لامتناعِ أن يوجد شيءٌ لامُتَنَاهٍ دَخَلَ حَيِّزَ الواقع على التّوالي؛ لِلُزوم المحالات لذلك.

المطلب الثاني

عدم إمكانِ تحصيلِ ما لا يَتَنَاهى بمجموعِ الزّياداتِ المُتَتَالية

هذا البرهان غير البرهان السّابق؛ إذ هو لا يُناقِش إمكان اللّانهايةِ الفعليّةِ، وإنّما يقول: إنّه ـ **حتى لو صحَّ إمكان وجود ما لا نهاية له فعليًّا** ـ يبقى أنّه ليس بالإمكان تحصيلُه **من خلال تركيم الأفراد المتتابعين**. ومن الممكن صياغة هذا البرهان في الشكل التالي:

١ ـ مجموعُ الأحداثِ في الزّمان = مجموعةٌ تتكوَّنُ من إضافةِ حَدَثٍ بعد آخر.

٢ ـ كلُّ مجموعةٍ تتكوَّنُ بإضافةِ عُضْوٍ بعد آخر لا يمكن أن تبلغ اللّانهاية الفعليّةَ.

٣ ـ الزَّمَنُ ـ كلَّ حِينٍ ـ سلسلةٌ مُتناهيةٌ من الأحداثِ.

٤ ـ الزَّمَنُ مُتَنَاهٍ.

من أسبابِ امتناعِ تحصيل ما لا نهايةَ له من خلال تركيمِ الأفرادِ:

أ ـ لا توجدُ زيادةٌ واقعيّةٌ إذا أُضيفَتْ إلى الشّيءِ المتناهي جَعَلَتْهُ لامُتَنَاهِيًا. تَفَكَّرْ ـ مثلًا ـ في أَعْظَمِ رقمٍ، ثمّ زِدْ عليه ما شئت من أعدادٍ؛ لن تبلغ اللّانهايةَ بذلك!

ب ـ ما لا نهايةَ لهُ لا يقبلُ الزّيادة؛ فهو لامُتَنَاهٍ، ولذلك زيادة الأفرادِ إليه لا تزيدُه شيئًا. وإذا افْتَرَضْنَا وجودَ ما لا نهاية له، امتنَعَ علينا أن نتصوَّرَ زيادة عليه؛ لأنّه لا وجودَ لما بعد ما لا ينتهي. وإذا قَبِلَ ما لا نهايةَ له الزّيادة؛ فمعنى ذلك أنَّ الزيادة كانت على أَمْرٍ له نهاية ضرورة. يقول (ابن حزم): «ما لم يوجد إلَّا بعد ما لا نهاية له؛ فلا سبيلَ إلى وُجودِه أَبَدًا؛ لأنَّ وقوعَ البَعْديَّةِ فيه هو وجودُ نهايةٍ له، **وما لا نهايةَ له فلا بَعْدَ لَهُ**؛ فعلى هذا لا يوجد شيءٌ بعد شيءٍ أَبَدَ الأَبَدِ، والأشياء كُلُّها موجودةٌ بعضها بعد بعض،

فالأشياء كُلُّها ذاتُ نهايةٍ»[1].

وبتطبيق ذلك على الزّمانِ، يقول (ابن حزم): «ما لا نهاية له فلا سبيلَ إلى الزّيادة فيه؛ إذ معنى الزّيادة إنّما هو أن تضيفَ إلى ذي النّهاية شيئًا من جنْسِهِ يزيد ذلك في عَدَدِهِ أو في مساحته؛ فإن كان الزّمان لا أَوَّلَ له يكون به مُتناهِيًا في عددِهِ الآن، فإذنْ كُلُّ ما زاد فيه ويزيد مما يأتي من الأزمنةِ منه، فإنّه لا يزيدُ ذلك في عددِ الزّمان شيئًا»[2].

وغاية الكلام هنا هي أنّ «**ما يَتَسَلْسَلُ لا يَتَحَصَّلُ**»؛ فكلُّ ما انتظمَ في سلسلةٍ لانهائيّةٍ ـ من الأشياء أو العِلَلِ ـ لا يمكن أن يَصِحَّ له وجودٌ لِعَجْزِ التَّسَلسلِ عن بلوغ حدِّ اللّانهاية. والزّمانُ هو أثرُ تَدَفُّقِ الأحداث، اللّاحق يلي السَّابق. ويمتنع أن يكون الزّمان بلا بدايةٍ لامتناعِ تحصيل مجموعةٍ لا نهايةَ لها من الأحداثِ مع قبول هذه المجموعة للزّيادةِ.

«يلزمُ من وجودِ حوادِثَ لا أَوَّلَ لها، أن يكون دخل في الوجود وفرغ من حركات الأفلاك وأشخاص الحيوان ونحوها على الترتيب، واحدًا بعد واحد، عددٌ لا نهاية له. والجَمْعُ بين الفراغِ وعَدَمِ النّهاية، جَمْعٌ بين مُتَنَاقِضَيْنِ، فيكونُ مُحالًا على الضَّرورةِ». (السنوسيّ).

المطلب الثالث

عدم إمكان عبور اللَّامتناهي

يكرّر الفيلسوف الأمريكيّ (ج. ب. مورلند) اليوم في كُتبِه ومناظراته قوله: عَدَمُ إمكانِ عُبورِ ما لا ينتهي حُجّةٌ أنَّ الزمان له نهايةٌ (في البدء والآن). ومُلخَّصُ البرهان أنّ الزّمانَ عند الملاحدة انتقالٌ من حَدَثٍ إلى حَدَثٍ سابقٍ له إلى ما لا نهاية في الماضي؛ وهو ما يلزم منه وجودُ مسافةٍ لانهائيّةٍ بين زماننا

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/٥٩.

(٢) المصدر السابق.

والأَزَلِ (الماضي)، ولكن من المستحيل عُبورُ المسافة اللَّامتناهية؛ إذ كيف ينتهي المرءُ من عبورِ ما لا حَدَّ لِنِهايَتِهِ[1]؟!

وبقريب من ذلك قال (ابن الأنباريّ)[2]: «لو قلنا شَرْطُ كُلِّ حادثٍ أن ينقضيَ قَبْلَهُ آحادٌ لا نهايةَ لها؛ لَأَدَّى ذلك إلى أنّه لا يحدُثُ حادِثٌ إلَّا بعد أن ينتهيَ ما لا ينتهي، وذلك مُحالٌ، لأنّ في إثبات حوادِثَ لا أَوَّلَ لها نَفْيًا لجملة الحوادِثِ، فإنّها لو ثَبَتَتْ لَكَانَ **كُلُّ واحدٍ منها مشروطًا بانتهاءِ ما لا ينتهي قبله**، وكلّ ما عُلّق ثبوته على محال كان محالًا»[3].

بعبارة أخرى:

١ ـ الزَّمَنُ هو حركةٌ خَطِّيَّةٌ تتكوَّنُ من حَبَّاتٍ مترابِطةٍ، كلُّ حَبَّةٍ هي حَدَثٌ من الأحداثِ (أو حركةٌ من الحركات) لا يَظْهَرُ إلَّا بعد انتهاءِ الحَدَثِ السَّابقِ له، وبدون هذه الحبَّاتِ (الأحداث) لا وجود للزَّمَنِ لأنَّ الزَّمنَ وجودٌ انتزاعيٌّ؛ يُنتزع من مَظْهَرِ تَتَالي الأَحْداثِ.

٢ ـ الزَّمنُ حقيقةٌ مُدْرَكَةٌ ومَعِيشةٌ.

٣ ـ إذا كان الزَّمان لامُتَنَاهِيًا في الماضي؛ فمعنى ذلك أنَّ الأَحداثَ غيرُ مُتَنَاهيةٍ.

٤ ـ نحن الآن نعيشُ آخِرَ حَدَثٍ في سِلْسِلَةِ الزَّمانِ.

٥ ـ إذا كان الزَّمانُ لانهائيًّا فلا بُدَّ أنه بالإمكان العبورُ من الحَدَثِ الحالي إلى ما لا بدايةَ.

٦ ـ لا توجدُ لَحْظةُ بدايةٍ.

---

(١) حديثُنا هو عن الزّمانِ الدّاخلِ في حيّز الوجودِ وليس مُطْلق الزّمان؛ لأنّ الزّمان من الآن إلى المستقبل لامُتَنَاهٍ، ولكنّه لاتَنَاهٍ افتراضيٌّ ممكِنٌ، فكلُّ زمانٍ من الآن إلى المستقبل ـ إلى لحظةٍ مُحدّدةٍ منه ـ مُتَنَاهٍ.

(٢) أبو البركات ابن الأنباريّ (٥١٣ ـ ٥٧٧هـ): عالمٌ واسع المعرفة بعلوم العربيّة والشّريعة والعلوم العقليّة.

(٣) ابن الأنباريّ، الدّاعي إلى الإسلام، تحقيق: سيد باغجوان (بيروت دار البشائر، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م)، ص١٣١.

٧ ـ لا سبيلَ للوصولِ إلى النّهايةِ (حَدَثُ الآن).

أو بمثالٍ آخرَ واقعيٍّ: هل يمكن تَسَلُّقُ سُلَّم بئرٍ لامتناهي العُمْقِ حتّى بلوغ السَّطحِ؛ إذ تَضَعُ الرِّجْلَ كُلَّ مَرَّةٍ على دَرَجَةٍ أعلى من التي تحتها؟ طبعًا لا؛ إذ إنَّ ما لا قَعْرَ له لا يمكنُ تَسَلُّقُهُ لأنّه لا بدايةَ له.

وإن شئت فَفَكِّرْ في شخصٍ يَدْخُلُ عليك غُرْفَتَكَ وهو يَلْهَثُ ويقول عَادًّا: «.. (ـ ٣).. (ـ ٢).. (ـ ١).. (٠).. أخيرًا انتهيتُ من العَدِّ من الأَزَلِ!» وهاهنا ستسأله سؤالَيْنِ تَهَكُّمِيَّيْنِ: ممّ بدأتَ العَدَّ؛ إذ لا يمكن العَدُّ إلَّا من بدايةٍ؛ ولا بداية للأَزَلِ؟! ولماذا انتهيت من العَدِّ الآنَ وليس قبلَ يومٍ أو شهرٍ أو سَنَةٍ من الآنَ؛ فما الذي فَضَّلَ لحظةَ انتهائِكَ الآنَ من العَدِّ عن لحظاتٍ أُخرى؟!

أو قلْ: لا أَسْمَحُ بدخول أحدٍ من النّاسِ هذا الباب إلَّا أن يكون مسبوقًا بغيرِه.. عندها لن يدخُلَ أحدٌ البابَ؛ لأنّ سلسلةَ الدَّاخِلينَ لا بدايةَ لها؛ إذ إنه قبل كُلّ داخلٍ داخِلٌ في تسلسلٍ إلى الماضي لا ينتهي.

ونحن إذا قلنا: إنّ اليومَ هو آخِرُ سلسلةِ الزَّمان، لَزِمَنَا أن نقولَ بأَوَّلٍ للزَّمانِ؛ «فالآخِرُ والأَوَّلُ من بابِ المضاف؛ فالآخِرُ آخِرُ الأَوَّلِ، والأَوَّلُ أَوَّلُ الآخِرِ. ولو لم يكن أَوَّلٌ لم يكن آخِرٌ»[1].

وقد وقفَ الفيلسوفُ الأمريكيُّ **الملحِدُ** (جون هوسبرز)[2] متسائلًا: «كيف وَصَلْنا إلى اللّحظةِ الحاليّة إذا كانت سلسلةٌ لا نهائيّةٌ من الأحداثِ قد سَبَقَتْ اللَّحظةَ الحاليّةَ؟ كيف أَمْكَنَنَا الوصولُ إلى اللَّحظةِ الحاليّةِ ـ التي نحن فيها الآن، بداهةً ـ إذا كانت اللّحظةُ الحاليّة قد سُبِقَتْ بسلسلةٍ لا نهائيّةٍ من الأحداثِ؟»[3]. ثم لم يُعقّب بجوابٍ، مُقِرًّا ـ ضِمْنِيًّا ـ أنّ الإشكالَ لا جوابَ له عنده.

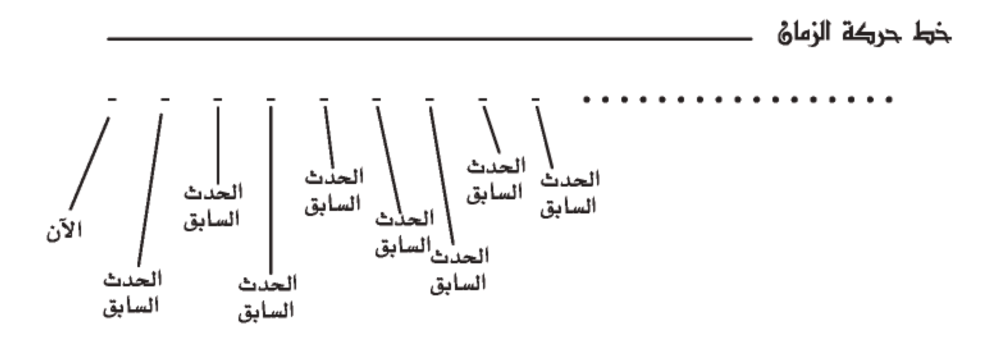
---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/ ٦٣.

(٢) جون هوسبرز John Hospers (١٩١٨ ـ ٢٠١١م): فيلسوفٌ أمريكيٌّ. رئيس قسم الفلسفة في كلية «بروكلين» في جامعة كاليفورنيا.

(٣) John Hospers, *An Introduction to Philosophical Analysis*, (Routledge & Kegan Paul: London, 1967), p.434.

السؤال: لماذا وصلنا إلى «الآن» الآن إذا كنا لم نبدأ من بداية؟!



الزَّمانُ هو أَثَرُ تَرَاكُمِ الأحداثِ على التَّوالي، ويمتنع أن يكون الزَّمانُ بلا بدايةٍ لامتناعِ الوصولِ إلى نقطةِ النّهايةِ (لحظة الآن) دون عُبورِ سلسلةٍ هي في حقيقتِها بلا بدايةٍ.

المبحث الثاني

البرهان العلمي على نفي أزلية الكون

كانت الثّقافة العلميّة السّائدة قبل القرن العشرين ـ في غير العالم الإسلاميّ ـ تكاد تُجْمِعُ على أنّ الكون أَزِليٌّ، وقد انتهت ـ بل قل: وَقَفَتْ ـ عند هذا الرأي لأنّ الرأي الفلسفيّ والجهد العلميّ قد انتهيا إلى القول بأزليّةِ الكون، خاصّةً أنّ ميتافيزيقا اليونان ـ القائلة بذلك ـ قد هَيْمَنَتْ على أوروبا طَوَال تاريخها.

مع نهاية القرن التاسع عشر بدأت تباشير الكشف عن ميلاد الكون، غير أنّ القرن العشرين كان هو العلامة الفارقة في تاريخ تأريخ الكون؛ فقد قُلِبَ الرأي العِلميُّ رأسًا على عقب، وحُرّك ـ بذلك ـ الرأي الفلسفيُّ إلى نقيضِ ما كان عليه. .

يصوّرُ الفيلسوف (أليستر ماكجراث) الموقف العلمي من أصل الكون في آخر النصف الأول من القرن العشرين بقوله عن أزليّةِ الكونِ: «لَعِبَ هذا الاعتقاد [أزليّة الكون] دورًا مُهمًّا في المناظرة الكبرى التي جَرَتْ في لندن سنة ١٩٤٨م بين اثنين من كبار الفلاسفة، وهما الملحد برتراند راسل والمسيحيُّ فردريك سي. كوبلستون. آمَنَ راسل أنّ هذا الإجماع العلميَّ أكثرُ من كافٍ لينهيَ قضيّةَ الله بِرُمَّتِهَا إلى الأبدِ؛ فالكونُ موجودٌ وحسب، وليس هناك أيُّ سببٍ وجيهٍ يدعونا للتفكير فيما أتى به للوجود. وقد فاز راسل بالمناظرة في هذه النّقطة[1].

---

(١) لا نوافق (ماجراث) دعواه فوز (راسل)؛ إذ إنّ الكون ممكنٌ من الممكنات يحتاج سببًا لتفسير رُجْحان وجودِه على عَدَمِهِ.

إلَّا أنّه منذ سنة ١٩٤٨م تغيّر كلُّ شيء؛ ففي السِّتِّينِيَّات أصبح واضحًا أنّ الكون له بداية، وهو ما عُرف باسم الانفجار العظيم»[١].

ثم أضاف قائلًا:

«وإذا تكرَّرَت المناظرة بين راسل وخَصْمِه كوبلستون اليوم؛ فستختلف نتيجتها تمامًا في هذه النّقطة؛ بل إنّ هذه المناظرة أُعِيدَتْ بالفعل سنة ١٩٩٨م احتفالًا بذكراها الخمسين بين اثنين من كبار الفلاسفة، هما ويليام لين كريج ونظيره أنتوني فلو الذي كان ملحدًا آنذاك. كريج الذي يعتبره الكثيرون الوريث الشّرعيّ للفيلسوف كوبلستون قَدَّمَ الحُجَّةَ التالية:

- المقدّمة الكُبْرى: كلُّ ما يظهر إلى الوجود له سَبَبٌ.
- المقدّمة الصُّغْرى: العالَمُ ظَهَرَ إلى الوجود.
- النّتيجةُ: إذن العالَمُ له سَبَبٌ.

وعلى غير العادة، نلاحظ في هذه الحجّة أنّ المقدّمة الصُّغرى تعادل المقدّمة الكُبْرى في أهميّتها، وقد تَفُوقها في ذلك. وهذه المقدّمة الصُّغْرى التي استخدمها كريج، والمقبولة اليوم من كلّ العلماء تقريبًا، كانت ستُرفض منهم جميعًا سنة ١٩٤٨م. وقد واجَهَ فلو صعوبةً كبيرةً أمام هذه النّقطة، ولم يتمكَّنْ من استخدام الاستراتيجيّات التي استخدمها أَسْلافُه من المدافعين الملحدين استخدامًا مناسبًا. ومنذ هذه المناظرة تخلّى فلو عن الإلحادِ»[٢].

السَّردُ السَّابق (لماجراث) يُوضِّحُ حقيقةً يَغْفُلُ عنها الكثيرون ممّن يعيشون عصر الكشف عن «الانفجار العظيم»؛ وهي أنّه منذ عُقودٍ ـ لا قُرونٍ ـ مَضَتْ كان العلماء على اتّفاقٍ أنّ الكون أزليٌّ؛ ولذلك **فانتقاض هذا الإجماع بإجماعٍ مقابلٍ على أنَّ كَوْنَنا له بدايةٌ، من الأمورِ التي تستحِقُّ التَّدَبُّرَ**، والنَّظَرَ في لوازمها الفلسفيّةِ برؤيةٍ جديدةٍ عند الملاحدةِ.

---

(١) أليستر ماجراث، الدّفاعيات المجرّدة، ترجمة: ماريانا كتكوت (RZIM Middle East، ٢٠١٣م)، ص٩٦ ـ ٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص٩٧.

لقد تكاثرت الأدلة العلميّة على حقيقةِ مخلوقيّةِ كونِنا وتعاضَدَتْ حتّى قال (هاوكنج) في بداية محاضرةٍ له بعنوان: «بدايةُ الزَّمانِ»: «يبدو أنَّ **كُلَّ الأَدِلَّةِ** تشيرُ إلى أنّ الكونَ لم يكن موجودًا من الأَزَلِ، وإنّما كانت له بدايةٌ منذ قرابة ١٥ بليون سنة[١] مَضَتْ»[٢].

وإذا كان عالم الفلك الكبير ـ اللَّاأَدْرِيِّ ـ (جاسترو)[٣] يقول: «بإمكاننا الآن أن نرى كيف تَقُودُ الحُجَّةُ الفلكيّةُ إلى النَّظْرَةِ الكتابيّةِ[٤] حول أَصْلِ العالَم. تختلِفُ التفاصيل لكنّ العناصرَ الأساسيّةَ لقصص علم الفَلَكِ والكتاب المقدَّسِ في سِفْرِ التَّكوينِ هي نفسُها: سلسلةُ الأحداثِ التي قادَتْ إلى ظهور الإنسان بدأَتْ بصورةٍ مفاجئةٍ وحادّةٍ في لحظةٍ محدّدةٍ في الزّمان»[٥].. فنحن نقول ـ في المقابل ـ: إنّ القرآن يُطابِقُ كُشوفَ العَصْرِ في علم الفَلَكِ في الأصولِ والتّفاصيل[٦].

حول الكشف عن خَلْقِ الكون ونَفْيِ أَزَلِيَّتِهِ: «تنتهي القصّةُ مثل كابوسٍ للعالِم الذي عاش بإيمانه بسلطانِ العقلِ. لقد تَسَلَّقَ [هذا العالِمُ] جبالَ الجَهْلِ، ويكاد يرتقي أعلى قِمَّتِه؛ لكنّه ـ وهو يرفع نفسَهُ إلى أعلى آخرِ صَخْرةٍ، إذا به يلقى تهنئةً من مجموعةٍ من اللَّاهوتيّين الذين كانوا جالِسِين هناك على مدى قرونٍ»[٧]. (روبرت جاسرو).

وسنكتفي هنا ببيان براهين العلم الحديث على خلق الكون من عَدَمٍ.

---

(١) هذا الكلام قيل قبل التّدقيقات الأحدث.

(٢) <http://www.hawking.org.uk/the-beginning-of-time.htm>.
النموذج الكوسمولوجيّ لـ(هاوكنج) يكتفي فيه الكون بنفسِه وليست له «نقطة» بداية؛ لأنه يقوم على ما يُسمّى «بالزّمن التَّخَيُّليّ». وهو نموذج غير واقعيٍّ، ولذلك يعترف (هاوكنج) نفسُه أنّه بإلغاء «الزّمن التخيليّ»؛ سنعود إلى المفردة التي نشأ منها الكونُ.

(٣) روبرت جاسترو Robert Jastrow (١٩٢٥ ـ ٢٠٠٨م): فلكيٌّ أمريكيٌّ وأحد أعلام علماء وكالة الفضاء الأمريكيّة «ناسا» في القرن العشرين.

(٤) أي: نظرة الكتاب المقدّس النصرانيّ.

(٥) Robert Jastrow, *God and the Astronomers* (New York: Norton, 1992), p.14.

(٦) انظر: سامي عامري، فمن خلق الله؟ ص٢٣٤ ـ ٢٥٢.

(٧) Robert Jastrow, *God and the Astronomers*, p.116.

المطلب الأول

القانون الثّاني للدّيناميكا الحراريّة

يُقِرُّ العلماءُ أنّ القانون الثّاني للدّيناميكا الحراريّة واحِدٌ من أعظمِ قوانين الكَوْنِ؛ بل هو أَعْظَمُ قوانينِه؛ حتى قال عالم الكوسمولوجيا (إدنجتون)[1]: إنّه القانون الأوّلُ لكلّ العلومِ، وإنّ أيَّ نظريةٍ علميّةٍ تتعارضُ مع هذا القانون لا تملِكُ أَمَلًا في البقاء، وإنّها ستنهار ضرورةً[2]. فما هو هذا القانون، وما هي لوازمه في شأن بداية الكون؟

التعريف:

التعبيرُ عن حقيقةِ القانون الثّاني للدّيناميكا الحراريّة مرتبطٌ بالطّاقةِ، والفوضى، والمعلومات[3]؛ ولذلك من الممكن التعبيرُ عنه بِصِيَغٍ مختلفةٍ تَدُلُّ بمجموعها على حقيقة هذا القانون ومَظْهَرِ عَمَلِهِ في الكونِ، ومن هذه الصّيغ التّعريفيّة:

- الطّاقةُ المستهلَكَةُ تنحو إلى النَّفَادِ.
- الحرارةُ تنحو إلى التَّبَرُّدِ.
- المعلومات تنحو إلى التَّشَوُّشِ.
- النّظامُ ينحو إلى الفوضى.
- الخليطُ العَشْوائِيُّ لا يُنَظِّمُ نفسَهُ.

ونظرًا لسُلْطانِ القانون الثّاني للدّيناميكا الحراريّة على الكون بصورةٍ مُطْلَقَةٍ، سُمّي هذا القانونُ «سَهْمَ الوَقْتِ»، فهذا القانون دالٌّ على اتّجاه الزَّمَنِ من الماضي إلى الحاضر؛ فهو يدلُّ على أنّ النّظام والفَوْضى إنْ وُجِدا؛ فالفوضى تَعْقُبُ ضرورةَ النّظامَ، ووجودُ الحرارةِ والبُرودة في التَّاريخ لا بُدَّ أن يُرتَّبَ بتأخيرِ فَقْدِ الحرارةِ على اكتسابِها...

(١) آرثر إدنجتون Arthur Eddington (١٨٨٢ ـ ١٩٤٤م): فلكيّ وفيزيائي إنجليزيّ، وله عناية بفلسفة العلم. له مساهمات علميّة بارزة في القرن الماضي في الفيزياء الفلكيّة.

(٢) Arthur Eddington, *The Nature of the Physical World* (New York: Macmillan, 1928), p.74.

(٣) J. P. Moreland, *Scaling the Secular City*, p.34.

«القانونُ الثَّاني للدِّيناميكا الحراريّة ليس قاصرًا في عَمَلِهِ على الأُمورِ الهندسيّةِ. إنّه قانونٌ أساسيٌّ للطبيعةِ. لا يوجَدُ سبيلٌ للفِرار منه». (بول ديفيس)[1].

الدّلالة: إذا كان الكونُ المادِّيُّ هو كُلُّ شيءٍ، مشَكّلًا مَنْظُومةً مُغْلَقَةً على نفسِها (closed system)، وهو مع ذلك لم يبلغ إلى اليوم مرحلة التَّمَوُّتِ الحراريِّ؛ أَيْ: نَفَادِ الطَّاقَةِ الحراريَّةِ، وإذا كان مستوى الأنتروبي [مستوى الفوضى] إلى اليوم لا يزال مُنْخَفِضًا؛ فذاكَ دَالٌّ أَنَّ لِلْكَوْنِ لحظةً ما بدأ منها الرَّصيدُ الحراريُّ والنّظامُ في التحوُّلِ؛ إذْ لو كان الكونُ أَزَلِيًّا لَتموَّتَ حراريًّا، وبلَغَ نهايةَ الفوضى منذُ الأَزَلِ.

من الممكن التّعبير عن المعنى السابق في النقاط التالية:

١ ـ تحتاج المنظومةُ الماديّةُ إلى النّظام داخلها لتتمكَّنَ من العملِ.

٢ ـ في كلِّ مرّةٍ تعملُ فيها المنظومةُ الماديّةُ، تفقِدُ جزءًا صغيرًا من نظامِها؛ بما يعني: أنّها تصيرُ غير قادرةٍ على إتمام مستوى العمل نفسِه الذي أَدَّتْهُ في الحال السّابقة. وهذا التحوُّلُ من النّظامِ إلى اللّانظام هو الذي يُسمّى «أنتروبي».

٣ ـ التحوُّلُ من النّظام إلى اللّانظام له اتّجاهٌ واحِدٌ على المستوى البعيدِ (ظهور طَفْراتٍ في الاتّجاه المعاكِسِ استثناءٌ لا يستَمِرُّ طويلًا).

٤ ـ الكونُ منظومةٌ مُغْلقةٌ لا تتواصَلُ ماديًّا مع وجودٍ ماديٍّ آخَرَ، ولذلك فاتّجاهها من النّظام إلى اللّانظامِ حَتْمِيٌّ.

٥ ـ القولُ بأزليّةِ الكونِ يقتضيّ أنّ الكونَ قد بلغ نهاية الفوضى والتَّمَوُّتِ الحراريِّ منذ زمن لا نهائيٍّ. وذاك مُخالِفٌ لما نعرفه عن كونِنا الذي لا يزال مُنْضَبِطًا في نظامِه وطاقتِه الحراريّةِ الظاهرةِ في التّفاعلاتِ الفيزيائيّةِ

(١) Paul Davies, *The Fifth Miracle: The Search for the Origin and Meaning of Life* (Orion productions, 1999), p.51.

المتواصلة فيه[١].

وكما يقول عالم الفيزياء النّظريّةِ اللّاأَدْرِيّ (بول ديفيس): «إذا كان للكونِ مَخْزُونٌ مَحْدُودٌ من النِّظام، وهو يَتَغَيَّرُ دون رجعةٍ نحو الاضطراب ـ ليبلغَ في نهاية المطاف التوازنَ الترموديناميكي ـ؛ فيلزَمُ من ذلك مباشرةً أَمْران؛ الأَوَّلُ: أَنَّ الكوَن سوف يموتُ في نهايةِ المطافِ... هذا هو المعروف بين علماءِ الفيزياء باسم «الموتِ الحراريِّ» للكَوْنِ. والثاني: أَنَّ **الكَوْنَ لا يمكن أَنْ يكون موجُودًا من الأَزَلِ**؛ إذ لو لم يكن كذلك لَبَلَغَ توازُنَهُ التّرموديناميكيّ النّهائيَّ منذ زَمَنٍ لامُتَنَاهٍ في الماضي. الخُلاصةُ: الكَوْنُ لم يوجد منذ الأَبَدِ»[٢].

وعَبَّرَ الفيزيائيُّ (باري باركر)[٣] عن الفِكْرةِ ذاتها بقولِه: «يُشيرُ القانون الثاني للدِّيناميكا الحراريَّة إلى أَنَّ لِلْكَوْنِ وللزَّمانِ بداية. ولو كان الكونُ أو الزَّمانُ أَزَلِيًّا لكان التَّبَادُلُ الحرارِيُّ قد تَمَّ وتَوَقَّفَ في تلك الأَحقابِ الطَّويلةِ الممتدَّةِ، وإِذَنْ لا تُصبِحُ في الكون أَجْسَامٌ حارَّةٌ كالشَّمْسِ وبقيَّة النُّجُوم، وأُخْرى باردةٌ كالكواكبِ والأَقْمَارِ وغيرِها؛ أَيْ: لَبَرَدْت النُّجومُ وصارت بدرجةِ حرارةِ الصَّقِيعِ وانتهى كُلُّ شيءٍ في الكون»[٤].

إنَّ الكونَ في حاجَتِهِ إلى الطّاقةِ لِلْعَمَلِ وتفادِي الموتِ الحرارِيِّ، أَشْبَهُ بالسَّيَّارةِ وحاجَتِها إلى البنزين لِتَسْتَمِرَّ في الحركة. ونحن إذا رأينا سيارةً تجري أَدْرَكْنَا أَنَّ خَزَّانها قد مُلِئَ منذُ زَمَنٍ غيرِ بعيد؛ لأَنَّها كانت بِصَدَدِ استهلاك البنزين طَوَالَ عَمَلِهَا، وإذا كان لا يزال فيها طاقةٌ للعمل إلى الآن، فذاكَ دليلُ بداية استهلاكها لما كان في الخزّان منذُ مُدّةٍ قصيرةٍ إذا كانت تعملُ دون

---

(١) Robert Spitzer, *The Soul's Upward Yearning: Clues to Our Transcendent Nature from Experience and Reason* (San Francisco, California Ignatius Press, 2015), p. 301.

(٢) Paul Davies, *God and the New Physics*, p.11.

(٣) باري باركر Barry Parker: أستاذٌ متقاعدٌ للفيزياء والفَلَكِ في جامعة «Idaho State University». له اهتمامٌ بتبسيط العلوم لغير المختصّين.

(٤) باري باركر، السَّفَرُ في الزَّمَانِ الكَوْنيِّ، تعريب: مصطفى محمود سليمان (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م)، ص١٦٣ ـ ١٦٤.

تَوَقُّفٍ.. وكذلك هو حال الكَوْنِ، فإنَّ وجود طاقةٍ حراريّةٍ عاليةٍ في كوننا (في النّجوم) إلى اليوم، دليلٌ أَنَّهُ كونٌ محدودُ العُمْرِ..

أو الأَمْرُ شبيهٌ بِطعامٍ يُوْضَعُ أَمَامَنَا، والبُخارُ الحارُّ يَصْعَدُ منه علامةً على سُخُونَتِهِ. لنا هنا أن نقولَ: إنّ هذا الطَّعامَ لم يُطْبَخْ أو يُسَخَّنْ إلَّا منذ زمنٍ محدودٍ قصيرٍ؛ لأَنَّ طُولَ الزَّمَنِ سَيُؤَدِّي إلى برودةِ الأَكْلِ.

وإن شئت فشبّه الأَمْرَ ـ من وجهٍ آخر ـ برسالةٍ أرسلتَها إلى صَدِيقَيْنِ، فوصلَتْ إلى الأَوّل: «ما الحبّ إلّا للحبيب الأوّل»، ووصلت إلى الثاني: «الأوّل ما إلّا الحبّ للحبيب». ولمّا كنتَ أنتَ المرسِلَ الوحيدَ لهذه الرّسالة، فَسَتُوقِنُ أنّ الرّسالة الأصليّة هي الثانية، وليست الثانية، وأنّه قد حدث خَلَلٌ عند إرسال الرّسالة الثانية أدّى إلى سُقوطِ معلوماتٍ منها؛ إذ إنّ القانون الثّاني للدّيناميكا الحراريّة ـ في معناه العامّ ـ لا يسمح بالزيادة العفويّة للمعلومات؛ فالوجود يتحرّك إلى الفوضى من النّظام لا من الفوضى إلى النّظام[1].

١ ـ الكونُ يتَّجِهُ من الحرارة والنّظام إلى التَّمَوُّتِ الحراريّ والفوضى التامّة.
٢ ـ الكونُ لم يبلغ التموُّتَ الحراريّ والفوضى التامّة بعد.
٣ ـ للكونِ عُمْرٌ محدودٌ لأنه لم ينتهِ إلى التموُّتِ والفوضى النهائيّين منذ الأَزَلِ.

المطلب الثاني

تمدّد الكون

كان الاعتقادُ السَّائد قبل القرن العشرين أنّ الكونَ ثابِتٌ، وأنّ الأجرامَ السَّماويّةَ كانت كما هي عليه الآن، وستبقى كذلك، حتى ذهبَ بعضُ الفلاسفة

(١) القانون الثّاني للدّيناميكا الحراريّة مُتعلّقٌ في أصلِهِ بالتحوُّل الحراريِّ، لكنّه يشمل بصورةٍ أَعَمَّ انتقالَ المعلومة:

(W.L. Everitt, "Empathy and Entropy," *Journal of Engineering Education*, vol. 47 (April 1957), pp. 658-659).

إلى تَأْلِيهِ هذه الكواكبِ الأزّليّةِ، والزّعم أنّ لها تصرُّفًا في الكونِ وأقدار النّاسِ، غير أنّ الأمر تغيَّرَ بصورةٍ راديكاليّةٍ مع بداية القرن العشرين؛ حيث بدأ تراكُمُ القَرَائنِ على أنّ الكون يتمدَّدُ بتباعُدِ المسافةِ بين أجزائه مع حركة الزَّمانِ.

وقد اعترفَ بالانقلابِ التامِّ للرؤية العلميّةِ حول ثبات الكونِ الفيزيائيُّ **الملحِدُ** (كراوس) في كتابه: «كَوْنٌ من لا شيء» بقوله: «يعرف **الجميعُ الآن** (باستثناء الـمُشرِفين على بعض المدارسِ في الولايات المتحدة[1]) أنّ الكون ليس مُستقِرًّا وإنّما هو يتمَدَّدُ، وأنّ هذا التَّمَدُّدَ **قد بدأ في انفجارٍ كبير حارٍّ جدًّا وكثيفٍ منذ قرابةِ ١٣,٧٢ بليون سنة**»[2]. وهو بذلك ينقل **إجماعَ العُلماءِ** على أنّ لكونِنا بدايةً من خلال ملاحظةِ تَمَدُّدِهِ بعد انفجارٍ أوّل، مُشيرًا إلى أنّ الطائفة الوحيدة التي تُنْكِرُ ذلك هي جماعةٌ من النَّصارى الذين يؤمنون أنّ لِكونِنا بدايةً لكنّهم يُنكِرون الرّواية العلميّةَ السّائدة لذلك لأنّها تُعارِضُ ما جاء في كتابهم المقدّس، وهي طائفةٌ تَنْتَصِرُ لـ«فرضيّة الأرض الفَتِيَّةِ» القائلةِ: إنّ عُمْرَ كَوْنِنا بضعةُ آلافٍ من السِّنين.

يُجْمِعُ الفيزيائيُّون الملاحدةُ اليومَ أنَّ لِكَوْنِنَا بدايةً بعد الكشفِ عن تَمَدُّدِ الكَوْنِ.

لم يكن الانتقالُ من التصوُّرِ الإستاتيكيِّ لِلكَوْنِ إلى القولِ: إنَّهُ يتمدَّدُ سَهْلًا كما قد يَظُنُّ بعضهم اليومَ؛ إذ إنَّ الكَوْنَ الثّابتَ أبرزُ مواريثِ الحضاراتِ القديمة؛ ولذلك لـمّا طَوَّرَ (أينشتاين) نظريَّتَهُ للجاذبيّةِ ضمن نظريّة النِّسبيّةِ العامّةِ، وانتهَتْ معادلاتُه لتقود إلى نفي ثَبَاتِ الكَوْنِ؛ اضطُرَّ إلى أن يُغَيِّرَ

---

(١) يشير بكلامه هذا إلى الأُصوليّين النّصارى الذين يؤمنون أنّ عُمْرَ الكونِ بضعةُ آلافٍ من السّنين، متابعةً لظواهر الكتاب المقدّس النّصرانيّ!

(٢) Lawrence M. Krauss, *A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing* (New York: Free Press, 2012), p.3.

حساباتِه (بإضافةِ «الثّابت الكونيّ»[١]) ليعود للكونِ استقرارُه، قبل أن يتراجَعَ بصورةٍ كليّةٍ عن فرضيّة الكونِ الثّابتِ.

وقد بَدَأَ الكشف عن توسُّعِ الكَوْنِ بأبحاث (ألكسندر فريدمان)[٢] الذي أَثْبَتَ أنّ الكونَ في ضوء نظريّة النّسبية العامّةِ لا يمكن أن يكون ثابتًا مستقرًّا، وإنّما هو متحرّكٌ ضرورةً، إمّا بالتوسُّعِ أو بالتقلُّصِ. وأَثْبَتَ بعدَهُ عالِمُ الفَلَكِ (جورج لوميتر)[٣] ـ اعتمادًا على كشف (فيستو سيلفر)[٤] لظاهرةِ الانزياحِ نحو الأحمر سنة ١٩١٢م ـ أنّ الكونَ يَتَوَسَّعُ.

وكانت أبحاث (إدوين هابل)[٥] الأبرزَ في الدّلالة على تأكيدِ القول بتمدُّدِ الكونِ؛ فقد كشَفَ في العشرينيّات من القرن الماضي بعد عَمَلِهِ الرَّصْدِيِّ بتلسكوبِ جَبَلِ ويلسون وحساباتِه الرياضيّة أنّ الكون يَتَمَدَّدُ بقيمةٍ ثابتةٍ.

والأمرُ ليس مجرّد اجتهادٍ نَظَرِيٍّ؛ بل تَشْهَدُ له الرُّؤيةُ البَصَرِيّةُ نفسُها؛ فقد أَثْبَتَهُ الرَّصْدُ الفَلَكِيُّ؛ إذ مَكَّنَنَا «مَرْصَدُ هابل الفضائيّ» من رؤية الكون بعد ميلادِهِ؛ بِرَصْدِ صُورةِ أَقْدَمِ مجرّاتٍ من الممكن رؤيتها، مضى عليها ١٣,٢ بليون سنة[٦].

وقد اتَّفَقَ علماءُ الكوسمولوجيا أنَّ رَفْضَ الكونِ للثّبات وتمدّده علامةٌ على أنّه كان أَكْثَرَ انكماشًا في تاريخه القديم، وكلَّما عُدْنَا إلى الوراء، كانت أَجْزاؤُه أكثرَ تقاربًا حتّى لحظة البدايةِ؛ حيث كان الكونُ مُنْكَمِشًا في نقطةٍ صِفْرِيَّةٍ قبل أن ينفجِرَ.

---

(١) نَدِمَ (أينشتاين) بعد ذلك على إضافة الثّابت الكونيّ، وَعَدَّ هذا الثّابت أكبر خطأ علميٍّ وَقَعَ فيه، ثمّ تَبَيَّنَ عِلْمِيًّا أنَّ الخَطَأَ ليس في إضافةِ هذا الثّابت وإنما في الحسابات المتعلّقة بهِ.

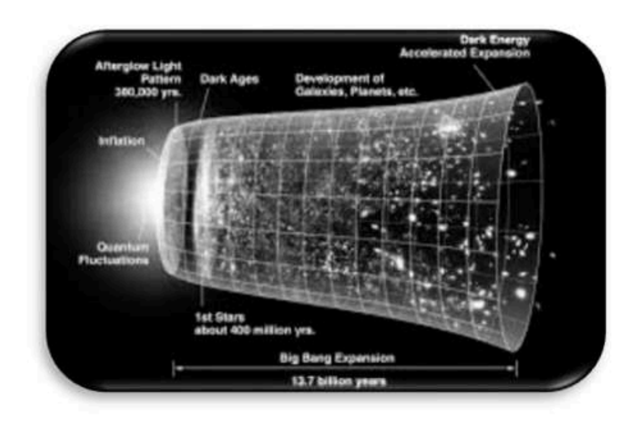
(٢) ألكسندر فريدمان Alexander Friedmann (١٨٨٨ ـ ١٩٢٥): فيزيائيٌّ وعالم رياضيّاتٍ روسيٌّ مشهورٌ.

(٣) جورج لوميتر Georges Lemaître (١٨٩٤ ـ ١٩٦٦م): قسّيسٌ وعالم فَلَكٍ بلجيكيٌّ دَرَّسَ في الجامعة الكاثوليكيّة لـ«لوفين». كان مذهبُهُ في «الذَّرَّةِ البدائيّةِ» أَصْلَ نظريّة الانفجارِ الكبيرِ.

(٤) فيستو سيلفر Vesto Slipher (١٨٧٥ ـ ١٩٦٩م): فلكيٌّ أمريكيٌّ. صاحب اكتشافات علميّةٍ مهمّةٍ في تاريخ علمِ الفَلَكِ الحديث.

(٥) إدوين هابل Edwin Hubble (١٨٨٩ ـ ١٩٥٣م): فلكيٌّ أمريكيٌّ من أعلام العصر. يُنْسَبُ إليه «قانون هابل».

(٦) Hubble Reveals Universe's Oldest Galaxies.
<https://news.nationalgeographic.com/news/2014/01/140107-hubbke-oldest-frontier-science-space-astronomy/>.



ودلالةُ التوسُّعِ ليست ـ فقط ـ حُجَّة على أنَّ لكوننا بدايةً؛ بل هي حجّةٌ أيضًا أنّنا حتى لو افترضنا أنّ كونَنا مسبوقٌ بأكوانٍ أُخرى، وكان المجموع يتمدَّدُ، لَزِمَ أن يكونَ لجميعِ هذه الأكوان بدايةٌ أُوْلى لم يكن قبلَها للوجودِ الماديِّ وجودٌ. وهو ما أَكَّدَهُ الفيزيائيُّ الكبير ـ اللّاأَدْرِيّ ـ (ألكسندر فلنكن)[1] ـ أحدُ أكبرِ علماء كوسمولوجيا اليوم ـ، إذ كتب سنة ٢٠٠٧ مُؤكِّدًا أنّ كلّ نظريّةٍ تُقرّرُ توسُّعَ الكونِ بقيمةٍ لا تنزل تحت الصِّفْرِ، مهما كانت ضآلَةُ هذا التوسُّعِ، يجب أنْ تَؤُولَ إلى الإقرارِ ببدايةِ هذا الكونِ أو هذه الأكوانِ المتعاقِبةِ، دون حاجةٍ للدُّخولِ في أيّ تفاصيلَ أُخرى للأكوانِ التي تفترِضُها هذه النّظريّات، بما في ذلك أمر الجاذبيّةِ وغيرها[2].

وقد قضى ما انتهى إليه الفيزيائيّ (ألكسندر فلنكن) على آمالِ جُلِّ النماذج المطروحة لأكوانٍ قبل كونِنا؛ إذْ هي تقومُ على زَعْمِ تَمَدُّدِ كلِّ الأكوانِ السّابقة لنا، ويَعْسُرُ بِجِدٍّ أن تَجِدَ نموذجًا لا يقوم على افتراضِ تَوَسُّعٍ كونيٍّ.

---

(١) ألكسندر فلنكن Alexander Vilenkin (١٩٤٩ـ): كوسمولوجيٌّ شهيرٌ من أُصولٍ رُوسيّةٍ. مديرُ مؤسّسة الكوسمولوجيا في جامعة (تافتس). غزير التّأليف في الدّراساتِ العلميّة في أصل الكونِ.

(٢) "A remarkable thing about this theorem is its sweeping generality. We made no assumptions about the material content of the universe. We did not even assume that gravity is described by Einstein's equations. So, if Einstein's gravity requires some modification, our conclusion will still hold. The only assumption that we made was that the expansion rate of the universe never gets below some nonzero value, no matter how small. This assumption should certainly be satisfied in the inflating false vacuum. The conclusion is that past-eternal inflation without a beginning is impossible." Alexander Vilenkin, *Many Worlds in One: The Search for Other Universes* (New York: Hill and Wang, A division of Farrar, Straus and Giroux, 2006), p.175.

المطلب الثالث

اللَّيلُ الـمُظْلِمُ

هل نظرْتَ إلى السَّماءِ ليلًا بظلامها الدَّامِسِ ونجومِها الـمُتَلَألِئةِ، وتفكَّرْتَ في أَصْلِ الكونِ ـ لا أَقْصِدُ النَّظَرَ الشَّاعريَّ في جَمَالِ المنظَرِ، وإنّما النَّظَر العِلميّ ـ؟

إن لم تفعل ذلك، فاعلم أنّك إن رفَعْتَ رأسك ورأيت السَّماءَ مظلمةً إلَّا من قليلٍ من أنوار النُّجومِ؛ فعليك أن تشهدَ عندها أنَّ كوننا ليس أزليًّا. يقول فيلسوف العلوم (مايكل أنثوني كوري)[1]: «من حُسْنِ حَظِّ المؤمنِ باللهِ أنَّ عِدَّةَ ملاحظاتٍ علميّةٍ مثيرةٍ للاهتمام قد استطاعَتْ ـ بالفعل ـ استبعادَ أن يكون الكونُ لانهائيَّ العُمْرِ والتمدّد المكاني. من جهةٍ، سماء اللّيل هي أساسًا مظلمة، ولكنّ هذا ليس الذي علينا أن نتوقّعه إذا كان هناك عددٌ لانهائيٌّ من النُّجوم في السَّماء»[2].

غايةُ الكلامِ هي أنّه يلزم من افتراضِ أنَّ الكون أَزَليٌّ بلا بدايةٍ أن تَصِلَنَا أضواءُ النُّجومِ من الأَزَلِ؛ فَتَمْلَأَ صفحةَ السَّماء حتى تَغْمُرَهَا بالإضاءَةِ؛ فَتَلْتَهِبَ الأرضُ من تحت أقدامنا، وهذا على خلافِ لَيْلِنَا المظلِمِ قليلِ الأنوارِ؛ وسببُ ذلك أنّ النُّجومَ قد وُلِدَتْ منذُ زمنٍ قصيرٍ نِسْبيًّا، فَوَصَلَنا نورُ بعضِها، ولم يَصِلْنا نورُ البقيّةِ. ففي كونٍ لانهائيِّ العُمْرِ والسَّعَةِ، لا يمكن أن تكون سماءُ ليلُها كسماء ليلِنا.

المطلب الرابع

نظرية النسبية العامة

لعلَّهُ لا توجد نظريّةٌ ـ اليوم ـ تعرَّضَتْ للاختبارِ أكثرَ من نظريّة النّسبيّةِ العامّةِ. وقد أَثْبَتَتْ كلُّ الاختبارات دِقَّتَهَا الشّديدة إلى درجة

---

(١) مايكل أنثوني كوري Michael Anthony Corey (١٩٥٧ ـ ٢٠١١م): باحثٌ أمريكيٌّ مُهْتَمٌّ بالجَدَلِ العِلْميِّ بين المؤلِّهةِ والملاحدةِ. حاصل على دكتوراه في فلسفة العلم والدّين، ودكتوراه أُخرى في علم النّفس الدّينيّ.

(٢) Michael Anthony Corey, *God and the New Cosmology: The Anthropic Design Argument* (Lanham, Md.: Rowman & Littlefield, 1993), p.35.

٠,٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠١[١]؛ حتّى قال عالم الفيزياءِ والرياضيات (روجر بنروز): «وهذا ما يجعل نظريّةَ النّسبيةِ العامّة لأينشتاين ـ بهذا المعنى المخصوص ـ أكثرَ النَّظريَّاتِ المعروفة للعلماء المختبرَةِ بأبلغ دِقَّةٍ»[٢].

ومما يذكره التاريخُ أنّه لـمّا اهتدى (أينشتاين) إلى هذه النظريّة اكتشفَ أنّها تقتضي كَوْنًا غير أَزَليٍّ. وقد تأكّدَ مرّةً أُخرى صِدْقَ ما تَنَبَّأَتْ به نظريةُ النسبيّة العامّة في أمر ظهور الكونِ بالكشفِ عن (الموجات الثّقاليّة) (gravitational waves) ـ سنة ٢٠١٦ ـ[٣]. وهي انحناءاتٌ في الزَّمَكَانِ تظهرُ على شكلٍ مَوْجِيٍّ. وكان (أينشتاين) قد تَنَبَّأَ بها سنة ١٩١٦م.

وفي علاقة الموجات الثّقاليّة ـ المكتشَفَةِ حديثًا ـ ببداية الكون، يقول (نيل تروك)[٤] مديرُ المركز البحثيّ للفيزياء النظريّة «Perimeter Institute for Theoretical Physics»: «بالنّسبة لي الشيءُ الأكثر إثارةً هو أننا سنكون قادرين على رؤيةِ الانفجارِ العظيمِ، بالمعنى الحرفيِّ لما أقول. إنّنا لا نستطيع أن نرى باستخدام الموجاتِ الكهرومغناطيسيّةِ أَبْعَدَ من ٤٠٠,٠٠٠ سنة بعد الانفجارِ العظيم. كانت بدايةُ الكونِ مُعْتِمةً فيما يتعلَّقُ بالضَّوْءِ، ولم تكن معتمةً بالنسبة لموجاتِ الجاذبيّة. إنّها شَفَّافةٌ بصورةٍ تامّةٍ.

لذلك ـ حرفيًا ـ، من خلال جمع موجاتِ الجاذبيّة سوف نكون قادرين على رؤية ما حدث بالضّبط عند الـمُفردة الأوليّةِ. كان التوقُّع الأكثر سِحْرًا وروعةً لنظرية أينشتاين أنَّ كلّ شيء خَرَجَ من حَدَثٍ واحِدٍ: الانفجار العظيم للمفردة. ونحن سوف نكون قادرين على رؤية ما حدث»[٥].

---

(١) Hugh Ross: *More Than a Theory, Revealing a Testable Model for Creation* (Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2009), p.97.

(٢) Roger Penrose, *Shadows of the Mind* (New York: Oxford University Press, 1994), p.230.

(٣) Gravitational Waves Detected 100 Years After Einstein's Prediction.
<https://www.ligo.caltech.edu/news/ligo20160211>

(٤) نيل تروك Neil Turock (١٩٥٨ـ): فيزيائيٌّ من جنوب إفريقيا. مدير مؤسّسة «Perimeter Institute for Theoretical Physics». له اهتمامٌ خاصٌّ بالقياس الرّياضِيّاتيّ لبدءِ الكونِ.

(٥) Cited in: "Gravitational waves: breakthrough discovery after two centuries of expectation," by Tim Radford, *The Guardian*, February 11, 2016.
<https://www.theguardian.com/science/2016/feb/11/gravitational-waves-discovery-hailed-as-breakthrough-of-the-century>

المطلب الخامس

نظريّة الانفجار العظيمِ

ما هي النظريّة الموفَّقةُ علميًّا؟

جواب السُّؤال السَّابق هو: النظريّةُ التي يرضى عنها العِلمُ هي التي تُحْسِنُ صياغةَ الملاحظات والقوانينِ والفرضيّاتِ والتجاربِ ضمن نَسَقٍ واحدٍ متناسقٍ ينتهي إلى تقديم تفسيرٍ صلْبٍ وغير متكلَّفٍ للواقع الماديِّ.

وبالنَّظَرِ في جميع المعارف الكونيّةِ المتعلّقةِ بتاريخ الكون وتغيُّرِهِ، لا نجد غير نظريّةِ الانفجارِ العظيمِ لِتُفَسِّرَ لنا ظاهرة تَوَسُّعِ الكون وحرارته الأُولى الفائقة ثم المتبرّدة والتي تظهر من خلال الرَّصْدِ، ووَفْرَةِ الهليوم والدّيوتريوم واللّثيوم[1]... ولذلك أَجْمَعَ العلماءُ على صِحَّةِ هذه النظريّة وصارت البرامجُ العلميّة للكشْفِ عن الكونِ تنطلق من التَّسليم لها، كما هي برامج (ناسا) وغيرها من وكالات الفضاء. وقد كان الاتّحاد السُّوفياتيُّ هو المشغّب الوحيد على هذه النّظرية لِلَوازِمِها الميتافيزيقيّة، غير أنَّ انهيار الاتّحاد السُّوفياتيَّ عَجَّلَ بنهايةِ الجَدَلِ المضادّ لهذه النظريّةِ.

ما حجم الدّلائل التي تدعَمُ نموذج نظرية الانفجار العظيم؟

يجيبنا الفيزيائيُّ الملحد (لورنس كراوس) بقوله عن صِدْقِ نموذج الانفجار العظيم: «**جميعُ الأَدِلَّةِ** الآنَ تَدْعَمُهُ، بِقُوَّةٍ»[2]. وهي الحقيقة التي كرَّرَها عالم الفيزياء الفلكيّةِ (جِم سويتزر)[3] بقوله: «**كُلُّ طُرُقِ الأَدِلَّةِ** تقود إلى الانفجار العظيم.. لا توجد نظريّةٌ تملك أن تضاهيها في وَجَاهَتِهَا»[4]. ولذلك لم يجد الفيلسوف الملحد (أنتوني فلو) بُدًّا أمام هذا الكشف من الإقرار ـ **أيّام كان أَحَدَ رُؤوسِ الإلحاد في العالم الغربي** ـ أن يقول: «الاعترافُ جيّدٌ للنَّفْسِ.

---

(١) See Hugh Ross, *The Creator and the Cosmos* (Colorado Springs, CO: NavPress, 1995), appendix.

(٢) Lawrence M. Krauss, *A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing*, p.5.

(٣) جِم سويتزر Jim Sweitzer: عالم فيزياء نظرية أمريكيّ. عمل مديرًا لمركز «DePaul University's Space Science Center».

(٤) Jim Sweitzer, "Do You Believe in the Big Bang?," *Astronomy* 30 (December 2002): 36.

لذلك سأبدأ بالاعتراف بأنّ الملحد الذي يرى عِبْءَ الإثبات على المؤلِّهِ، عليه أن يشعر بالحَرَجِ من **الإجماع الكوسمولوجيّ** المعاصر؛ إذ يبدو أنّ علماء الكوسمولوجيا يقدّمون حُجّةً علميّةً لِما ادّعى القِدّيس توما [الأكويني] أنه لا يمكن إثباته فلسفيًا؛ أي: إنّ للكون بداية»[١].

توجد اليومَ سيناريوهات مختلفةٌ للانفجار العظيم غير أنّها تتّفق على أنّ لهذا الكون بدايةً، وأنّه بدأ في توسُّعٍ منذ ذلك الحين، وأنّه في حال تَبَرُّدٍ تدريجيٍّ منذ بدايته الأولى الحارّةِ[٢].

وقد كان الكشفُ عن الانفجار العظيم محرجًا للملاحدة الذين حاولوا إنكارَه بكلّ سبيل غير أنّ الكشفَ ـ سنة ١٩٦٤م ـ عن «إشعاع الخلفيّةِ الكونيّةِ الميكرويّ» «cosmic microwave background radiation» الذي يمثّل الآثارَ الأولى للانفجار الأوّلِ، والذي توقَّعَ العلماء وجودَهُ قبل كَشْفِهِ، قد «أدَّى إلى إقناع ـ تقريبًا ـ آخِرِ الشَّكَّاكِين»[٣].

وكانت القياساتُ الدّقيقةُ «لإشعاع الخلفيّة الكونيّة الميكرويّ» كما قَدَّمَها «مِسْبارُ كوبي الفضائيّ» (COBE) لوكالة الفضاء الأمريكيّة (ناسا) في بداية التّسعينيّات من القرن العشرين أَكْبَرَ داعمٍ لكشف السّتينيّات؛ حتّى قال الفيزيائيُّ الحائز على جائزة **نوبل**، ورئيس فريقِ (COBE) (جورج سموت)[٤] إِثْرَ هذا الكَشْفِ: «ما وَجَدْناهُ هو برهانُ ميلادِ الكونِ. . وكأنّنا ننظر [إلى فعل] الله»[٥].

لقد صَدَمَ الكشفُ عن فسادِ أزليّةِ الكونِ علماءَ الفَلَكِ والكوسمولوجيا الملاحدة حتّى أعربُوا عن امتعاضِهم الشّديد من خطورةِ اللّوازم الفلسفيّة لهذا الكشف؛ فذكر الفَلَكيُّ **اللّاأَدْرِيُّ** (روبرت جاسترو) في كتابه الماتع (الله والفلكيُّون) الاستقبالَ العاطفيَّ السّلبيَّ للفلكيّين الملاحدة وتَضَخُّمَ الأدلّةِ

---

(١) Henry Margenau and Roy Abraham Vargesse, eds. *Cosmos, Bios, Theos*, p. 241.

(٢) Hugh Ross, *A Matter of Days: Resolving a Creation Controversy* (Covina, CA: RTB Press, 2015), p.144.

(٣) Robert Jastrow, *God and the Astronomers*, p.15.

(٤) جورج سموت George Smoot (١٩٤٥ـ): عالم فيزياء نظريّة وكوسمولوجيا أمريكيّ. حصل على جائزة نوبل بسبب أبحاثه المرتبطة بـ«مستكشف الخلفيّة الكونيّة» «COBE».

(٥) Michael Anthony Corey, *God and the New Cosmology*, p.53.

الحاسمة لصحّةِ الانفجار الأوّلِ؛ ومن ذلك قول (آرثر إدنغتون)[1]: «ليس لَدَيَّ أيُّ فَأْسٍ للطَّعْنِ في هذه المناقشة [لكنّ] مفهومَ البدايةِ بغيضٌ إليَّ... أنا ـ ببساطة ـ لا أُوْمِنُ أنَّ النّظام الحاليَّ للأشياءِ قد بدأ بانفجارٍ... توسُّعُ الكونِ غيرُ معقولٍ.. لا يُصَدَّقُ... **يتركني أَشْعُرُ بالبَرْدِ**»[2].

وقد استمرَّ الملاحدةُ في محاربة نظريّة الانفجار العظيم طَوَال مُدّة تاريخ الكشف عن هذا الانفجار، في كلّ مراحلِ التّأصيل العلميّ وتفصيلِه[3]، حتّى استسلموا لحقيقتِه لـمّا أُغْلِقَتْ دونهم المخارجُ.

«لا بُدَّ من الاعتراف أنّ ظهور نظريّةِ الانفجارِ العظيم المتعلّقة بنشأة الكونِ قد أضافَتْ ثقلًا جديدًا إلى حُجّةِ وجودِ ما يمكن أن يكون خالِقًا»[4].
الفيلسوف الملحد (ويليام رو)[5].

---

(١) آرثر إدنغتون Arthur Eddington (١٨٨٢ ـ ١٩٤٤م): فلكيٌّ إنجليزيٌّ شهيرٌ. كانت له عنايةٌ بفلسفة العلومِ.

(٢) Robert Jastrow, *God and the Astronomers*, p.104.

(٣) Hubert P. Yockey, *Information Theory and Molecular biology*, p.212.

(٤) William Rowe, 'Cosmological Arguments', *The Blackwell Guide to the Philosophy of Religion*, ed. William Mann (Oxford: Blackwell, 2005), p.115.

(٥) ويليام رو William Rowe (١٩٣١ ـ ٢٠١٥م): فيلسوفٌ أمريكيٌّ. دَرَّسَ في جامع «بردو». له عنايةٌ خاصّةٌ بفلسفة الدّين، ومشكلة الشرّ خاصّة.

المبحث الثالث

ملاحدةٌ ولاأَدْرِيُّون ينتصرون لبرهانِ الخَلْقِ

شَكَّلَ الكشفُ عن ميلاد الكون صدمةً للعلماء مع بداية القرن العشرين، وقد كان ذاك الكشفُ أهمَّ حدثٍ عِلميٍّ له تعلُّقٌ بالجَدَلِ الإيمانيّ الإلحاديّ بعد كتاب «في أَصْلِ الأَنواعِ»، ولكن في الاتّجاه المعاكسِ. وكان عِنادُ الجماعة العلميّة دفاعًا عن أزليّةِ الكون شديدًا، غير أنّ تراكم المؤيّدات الصلبة لنشأة الكون من عدم هزم ذاك العنادِ.

كان كتابُ الفَلَكيِّ اللَّاأَدْرِيِّ (روبرت جاسترو) «اللهُ والفَلَكِيُّون» شهادةً عظيمةً لـتاريخ أثرِ الانفجار العظيم على المعتقد الماديّ للإلحاد؛ فقد تحدَّثَ فيه المؤلّفُ عن صَدْمَتِهِ وصَدْمَةِ المجتمعِ العِلميّ بما كَشَفَتْهُ المراصِدُ والحسابات الرياضيّة في بيئةٍ يُهيمِنُ عليها التّفسير الماديُّ. . .

ورغم أثر الانفجار العظيم على الرّؤية الكونيّةِ لـ(جاسترو) إلَّا أنّه لم يَتَغَلَّبْ على لاأَدْرِيَّتِهِ. ويشرح ذلك بقوله: «من جهةٍ، يبدو لي أنّ عِلْمَ الفَلَكِ قد أَثْبَتَ أنّ هناك قُوًى تعمل في العالم تتجاوَزُ المقدرةَ الحاليّةَ للوصف العلميّ، وهي حرفيًّا قوى فوق طبيعيّةٍ؛ لأنّها تقع خارجَ مجالِ القانون الطّبيعيِّ. ومن جهةٍ أُخرى، قراءاتي في أدبيّاتِ العِلم قادتني إلى اعتناقِ الفلسفة الاختزاليّةِ ومذهب الماديّة العلميّةِ، وهي رُؤيةٌ تُقرِّرُ أنَّ الكُلَّ ليس أكبر من مجموعِ أَفرادِه، ولا توجد «قوّةٌ لِلخَلْقِ»، ولا حقيقةَ للحياة بعيدًا عن جزيئات الجَسَدِ، ولا عَقْلَ بعيدًا عن الخلايا العصبيّة للدّماغ ومجالاته»[1]. . .

(١) Roy Abraham Varghese, eds. *Intellectuals Speak out about God* (Chicago, Ill.: Regnery Gateway, 1984), pp. 19- 20.

لقد وقع (جاسترو) بذلك في أَسْرِ الدُّوغمائيّةِ الماديّةِ بما مَنَعَهُ أن يسيرَ مع الدَّليلِ إلى آخِرِ شَوْطٍ..

ولئن ضَعُفَتْ نفسُ (جاسترو) عن المضيِّ قُدُمًا للإيمان بالله، فإنّ (آلن سانديغ)[1] ـ الذي أَجْمَعَ العلماءُ أنّه واحدٌ من أكبر علماء الفَلَكِ في القرن العشرين لِكَثْرَةِ أبحاثه وكُشُوفِه، وهو الحاصل على جوائز كبرى مثل «Crafoord Prize» و«Eddington Medal of the Royal Astronomical Society» ـ قد اختار أَقْصَرَ الطُّرُقِ إلى الحقِّ، وهو تَرْكُ الإلحادِ الذي نَشَأَ عليه صَبِيًّا، والعودة إلى الإيمان بالله، رغم أنّه قد صَرَّحَ سابقًا، بعد عِلْمِهِ بدلائل بدءِ الكون: «إنّه استنتاجٌ غريبٌ... لا يمكن أن يكون صحيحًا»[2].

كتب (سانديغ) عن علاقةِ الانفجار العظيم ببحثنا عن الله: «يَضَعُ تَوَسُّعُ الكونِ ـ مع عواقِبه فيما يتعلق باحتمالية قيام علماء الفَلَكِ بتحديدِ حَدَثِ الخَلْقِ ـ عِلْمَ الكون الفَلَكيِّ قريبًا من اللّاهوتُ الطّبيعيِّ للعصور الوسطى الذي حاول أن يجد اللهَ عن طريق تحديدِ السَّببِ الأَوَّل...

معرفةُ الخَلْقِ ليست هي معرفة الخالِقِ، ولا تخبرنا أيٌّ من النتائجِ الفلكيّة عن سبب وقوع الحَدَثِ. إنَّ الأمرَ على الحقيقة من خوارقِ الطّبيعة (أي: خارج فَهْمِنا للنّظام الطّبيعيِّ للأشياء)، وبهذا التّعريف هو مُعْجِزةٌ. ولا تُعرف طبيعةُ اللهِ ضمن أيّ جزءٍ من هذه النتائج العلميّةِ. لذلك يجب على المرء أن يَتَحَوَّلَ إلى الكتب المقدَّسةِ»[3].

عاد (سانديغ) إلى الإيمان في سِنِّ الخمسين، وكان أكبرُ إعلانٍ له عن ذلك في مؤتمرٍ عُقِدَ للحوارِ في شأن علاقة العِلمِ بالدّينِ، حيث فاجَأَ الحضورَ بجلوسه في جهةِ المحاضرين المؤمنين باللهِ. وقد تَحَدَّثَ في اللقاءِ عن

---

(١) سبق تعريفه.

(٢) Cited in: Robert Jastrow, *God and the Astronomers*, pp. 104 - 105.

(٣) أسئلة وأجوبة مع (سانديغ):
<http://www.leaderu.com/truth/1truth15.html>.

الانفجارِ العظيم، وأنّه لا سبيل لتفسيرِهِ فيزيائيًّا من داخلِ العالم، وهو بذلك يستدعي تفسيرًا فوق طبيعيٍّ.

وقال لاحقًا لمراسِلٍ صحفيّ: «إنّ العِلمَ الذي أُمارِسُهُ هو الذي قادني إلى نتيجةٍ أنّ العالَمَ أَشَدُّ تعقيدًا من أن يُفَسِّرُه العِلمُ. **فقط من خلال ما هو فوق طبيعيٍّ بإمكاني أن أَفْهَمَ لُغْزَ الوُجودِ**»[١].

وممن عادوا إلى الإيمان من بوّابة الفيزياء الكونية، عالمة الفلك والفيزياء الكونية (سارة سلفياندر) التي نشأت ملحدة في أسرة ملحدة وبيئة اجتماعية تحتقر التديّن. كان كلّ ما تعرفه عن التديّن أنّه نوع من السذاجة الفكريّة؛ ولذلك لم يكن أمر الإيمان يشغل ذهنها.

كانت بداية عودة (سارة سلفياندر) إلى الإيمان بعد التحاقها بمجموعة من الباحثين في «مركز علوم الفيزياء الكونية والفضاء» للبحث عن قرائن مستقلة للانفجار العظيم الأوّل، غير «إشعاع الخلفيّةِ الكونيّةِ الميكرويّ». وقد كان اهتمامهم منصبًّا على البحث في وفرة الدوتريوم في المراحل المبكّرة من عمر للكون. وقد انتهت نتائج الأبحاث إلى تأكيد نبوءات الانفجار العظيم. وقد أدهشها ذلك؛ فالكون يشير بكليّته إلى أنّه أثر عن إرادة وحكمة منذ البدء[٢].

---

(١) Cited in: Lee Strobel and Mark Mittelberg, *Today's Moment of Truth*, kindle edition.

(٢) Sarah Salviander-Scientist Converted from Atheism.
<https://www.youtube.com/watch?v=YfzJHQCYIMo>.
<https://jamesbishoplog.com/2015/05/23/former-atheist-astrophysicist-sarah-salviander-explains-her-journey-to-christianity/>.

المبحث الرابع

نقودٌ ورُدودٌ

كان اعتقادُ أزليّةِ الكونِ منذ زمنِ اليونان حتى بداية القرن العشرين سَبَبًا لعدم اهتمام جُلِّ الفلاسفة ببيان وجودِ الله انطلاقًا من الأَصْلِ الماديّ للكون[1]، كما أنّ الملاحدة كانوا يقرون أنّ في خلق الكون من عَدَمٍ حُجّة لوجود الله، اطمئنانًا منهم إلى أنّ العلم يدلُّ على أزليّةِ الكونِ، لكنَّ دلالة العِلمِ الحديث على خَلْقِ العالم أَفْسَدَتْ سَعْيَ الملاحدة، واضطرّتهم إلى محاولَةِ تشتيتِ الحوار بالاعتراضِ على برهان الحدوثِ بِعَددٍ من المعترضات:

١ ـ إنكارُ بداهةِ حاجة العالمِ إلى خالقٍ للخروجِ من العَدَمِ.

٢ ـ التَّشكيكُ في مبدأ السَّبَبِيَّةِ.

٣ ـ إنكارُ دلالة البرهانِ على وجود الله ـ سبحانه ـ.

وسيكون حديثنا التالي في الردّ على هذه الاعتراضات التي تَمْتَدُّ من ساحة الفلسفةِ إلى ساحة العِلْم. وسأضطرُّ إلى سَوْقِها هنا لِكَثرةِ تداولها في الخطابِ الإلحاديِّ المعاصِرِ، وإنْ لم تكن شائعةً خارجَ دائرةِ أعلام مُلْحِدي الغربِ.

المطلب الأول

الاعتراض على خلق العالم من عَدَمٍ

لم يمنع اعتضاد البرهان الفلسفيِّ على خلق العالم بالبرهان العلميّ

---

(١) المتكلّمون لا الفلاسفة هم الذين اهتمُّوا في تاريخ الإسلام بالاستدلال بدليل الحدوث (هذا إن قَبِلْنَا التّمييز الكلاسيكيّ بين المتكلّمين والفلاسفة).

لنشوء كونِنا منذ ١٣,٧ بليون سنة عددًا من مخالِفِيهِ من التَّشغيبِ على دلالات هذه الحقيقة. وبين يديك ما اعترضوا به، وجوابه.

١ ـ لاتناهي المستقبل:

اعتراض: أنتم تعترضون على أزليّةِ الكونِ بالقول: إنّه لا بدّ أن يكون للماضي بداية، لكنّكم تؤمنون أنه ليس للمستقبل نهاية (كحال أهْلِ الجنَّةِ ـ عندكم ـ في نعيمهم الذي لا ينتهي).. أليس هذا تناقضًا أن تُنكروا لانهائيّة الزّمانِ مرّةً وتقبلونها في أخرى؟

الجواب:

هذه الشُّبْهةُ هي أَضْعَفُ ما قيل في برهانِ امتناع التَّسلسُلِ، ولذلك يقلّ وجودها اليومَ في كتابات أعلام الفلاسفة المخاصمين لهذا البرهان!

جواب الاعتراض هَيِّنٌ، وهو أنّ المعترِضَ قد خَلَطَ بين (اللّانهاية الفعلية) (Actual infinity)، وهي لاتَنَاهٍ مُحقّقٌ، قائمٌ في الكون، دخَلَ حَيِّزَ الوُجودِ، و(اللّانهاية الافتراضيّة) (Potential infinity)، وهي مجرّد تقدير، غير محقّق؛ **فليست من اللّانهاية الحقيقية في شيء**، وإنما هي **مجرّد افتراضٍ ذهنيٍّ** لاستمرارِ تَعَاقُبِ الأشياءِ في حركة الزَّمنِ؛ فاللَّاتناهي لا يمكن أن يوجدَ في الماضي المنتهي ولا الحاضر القائم؛ لأنه يفتَرِضُ تجمُّعَ أشياء لا تنتهي عددًا في حيّز الوجود، على خلاف اللّانهاية المتزايدة؛ إذ هي شيءٌ غير واقعيٍّ لا يجتمع في الوجود الآن أو في الماضي، ولا يُغادِرُ مجال التصوّرِ الذهنيّ البحت. والقولُ بواقعيّة (اللّانهاية الافتراضيّة) بإمكانِ تَحَقُّقِهَا باطِلٌ، ولا يُمكن تَوَهُّم ربطها حتّى بالقُدْرةِ الإلٰهيّة؛ إذ إنَّ قُدْرةَ الله لا تَتَعَلَّقُ بالـمُحالات؛ فهي مما لا يقبل الوجودَ ضرورةً. أو بعبارة أوضح: قدرة الله تتعلّق بكلّ شيء، وواقعية (اللانهاية الافتراضية) وهم؛ لأنها مجرّد دال بلا مدلول؛ فليست هي بشيء عند التحقيق.

اللّانهاية الفعلية

مجموعُ أفرادٍ مُحَدَّدِين ومُتَمايِزين عَدَدُهم أكبرُ مِنْ أيِّ رقمٍ طبيعيٍّ ٠، ١، ٢، ٣...
= لاتَنَاهٍ مُحَقَّقٌ

اللّانهاية الافتراضية

مجموعةٌ تَتَضَخَّمُ دون حَدٍّ لكنّها في كلِّ لحظةٍ محدودة.
= لاتَنَاهٍ مُقَدَّر

الفرق بين اللّانهاية الفعلية واللّانهاية الافتراضية ـ كما يقول عالمُ الرياضيات الفذُّ (دافيد هلبرت)[1] ـ هو أنّ اللّانهاية الافتراضيّة تتضخّم دائمًا في اتّجاه اللّانهاية، لكنّها **دائمًا** مجموعةٌ لها نهايةٌ في كلّ حين، في حين أنّ اللّانهاية الفعليّة هي مجموعةٌ مكتملةٌ تضمُّ أشياء لا نهاية لِعَدَدِها[2]. ولذلك قال (هلبرت): «**لا وجود البَتَّةَ للّانهائيِّ في الحقيقةِ.** إنّه لا يوجد في الطّبيعة ولا يُقدِّمُ أساسًا شرعيًّا للتفكير العقليّ. . . . الدَّوْرُ الذي بَقِيَ له أن يَلْعَبَهُ هو فقط في **أن يكون فِكْرةً**»[3].

(اللّانهاية الفعليّة) هي إذن **تَسَلْسُلٌ لما دخَلَ حَيِّزَ الوجودِ، على خلافِ (اللّانهاية الافتراضيّة) التي هي مَحْضُ افتراضٍ ذِهْنيٍّ لأمرْ يَتَعَاقَبُ في الوجود (في طرف المستقبل)**. والتَّسَلْسُلُ الذي نحن بصدِدِه لإثبات أنّ للزّمانِ بدايةً هو «توقُّف وجودِ أَمْرٍ، على وُجودِ أَمْرٍ قَبْلَهُ، مُتوقّفًا على ما قبلَهُ كذا لا لأَوَّل»، وهو وصفٌ للتَّسَلْسُلِ الفعليّ لا الافتراضيّ.

إنّ مقالنا هو الآتي:

١ ـ لا يدخل الوجودَ إلَّا معدودٌ؛ فلا ينقضي إلَّا محدودٌ[4].

---

(١) دافيد هلبرت (١٨٦٢ ـ ١٩٤٣م): عالم رياضيات ألمانيّ شهير. أَثَّرَ في علوم الرّياضيات بصورةٍ بالغةٍ في عصرِهِ. طَوَّرَ عِدَّةَ نظريّاتٍ.

(٢) David Hilbert, "On the Infinite," in Paul Benacerraf & Hilary Putnam, *Philosophy of Mathematics* (N.J.: Prentice-Hall, 1964), pp.139, 141.

(٣) Ibid., p.151.

(٤) ابن الأنباري، الداعي إلى الإسلام، ص١٣٣.

٢ ـ الزّمان دخَلَ الوجودَ.

٣ ـ الزَّمانُ محدودٌ.

٤ ـ الزَّمانُ له بدايةٌ.

وليس حالُ أهلِ الجنّةِ في شيءٍ من اللَّانهاية الفعليّة؛ فاللّانهاية عندهم تصوُّرٌ ذِهْنيٌّ مَحْضٌ لمعنى الزّمان الآتي والمتدفّق كلّ حينٍ. وأمَّا واقعيًّا، فكلُّ لحظةٍ من لحظات المؤمنين في الجنّة مسبوقة بزمنٍ محدودٍ؛ فما دَخَلَ من مُكْثِهِمْ في الجنّة دائمًا محدودٌ.

قال (ابن حزم): «ما لم يأت بعدُ من زمانٍ أو شخص أو عَرَضٍ **فليس كلُّ ذلك شيئًا، فلا يقع على شيء من ذلك عددٍ ولا نهاية، ولا يوصف بشيء أصلًا؛ لأنه لا وجود له بعد،** فإذا وُجِدَ لَزِمَهُ حينئذٍ ما لزم سائر ما قد وجد من أجناسِه وأنواعِه من النّهاية والعدَدِ وغير ذلك من الصِّفات»[1].

في كلّ زمن من أزمان أهل الجنة؛ للمؤمن أن يقول:

١ ـ لا يدخُلُ الوجودَ إلَّا معدودٌ.

٢ ـ مُدَّةُ بقاءِ أهل الجنَّة في الجنَّة لم تدخل كُلُّها حَيِّزَ الوجودِ.

٣ ـ مُكْثُ أهل الجنّة في الجنّة محدودٌ دائمًا في كُلِّ لحظةٍ.

٤ ـ المستقبلُ لأهل الجّنةِ ليس من اللَّاتَنَاهي الفعليّ.

ولو أردنا أنْ نُمثّل للفارقِ بين نَوْعَي التَّسلسُلِ، فسنقولُ:

التَّسَلْسُلُ الممتنِعُ: افْتَرِضْ أَنَّ هناك سلسلةً تتكوَّنُ من حبَّاتٍ مترابطةٍ، مُعلّقةٍ من الأعلى تتدلّى إلى الأسفل، والحبَّةُ الأخيرة تُمسِكُها أَنْتَ بِيَدِكَ. هل من الممكن أن توجد هذه السّلسلةُ المدلّاةُ بلا بدايةٍ رغم أنها معلَّقةٌ من أعلى وتمنع سُقوطَ الحبّة الأخيرة على الأرض؟ الجواب طبعًا: لا!

وكذلك هي سلسلةُ أحداثِ الزَّمان، لا يمكن أنْ نَصِلَ إلى الآن (لحظة «الآن») إلَّا إذا كان هناك حَدَثٌ أَوَّلٌ (الحبَّةُ الأُوْلى).

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/ ٦١.

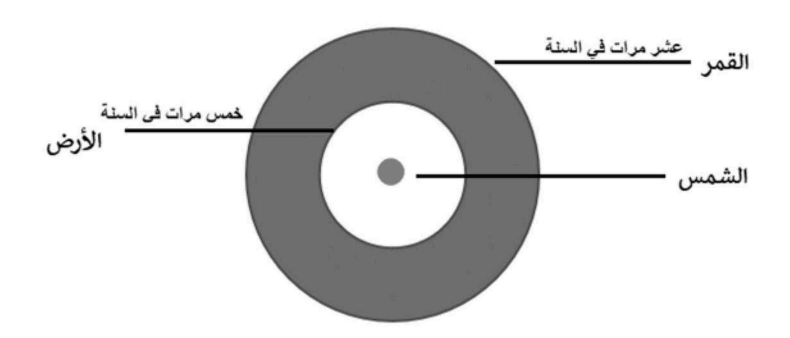
التَّسَلْسُلُ الـمُمْكِنُ: سِلْسِلةٌ تُمْسِكُ أنتَ حَبَّتَها الأُوْلى، وهي تزيد كُلَّ يوم حَبَّةً من الأَسْفَلِ، في تعاقُبٍ إلى ما لا نهايةٍ. لا يوجد ما يمنع هذه السِّلسلةَ من أن توجد، لكنَّ هذه السِّلسلةَ في كُلِّ لحظةٍ من لحظاتها هي سلسلةٌ نهائيّةٌ، وأَمَّا لانهائيَّتُها، فمجرَّدُ تقديرٍ ذهنيٍّ لما سيكون.

٢ ـ اجتماعُ اللَّامُتَنَاهي الـمُتَرَاكِم:

اعتراض: إنّ اللّانهاية الفعليّة الممتنعة هي اجتماعُ ما لا يَتَنَاهى في لحظةٍ واحدةٍ، لا تسلسل ما لا يَتَنَاهى على التّوالي؛ والزّمانُ لا يجتمع في لحظةٍ واحدة، وإنما هو تتالي لحظاتٍ أو أحداثٍ مُتعاقِبةٍ؛ فلا يبقى منه في لحظة واحدةٍ مجموع لامُتَنَاهٍ من اللَّحظات أو الأحداثِ!

الجواب:

أولًا: من أسبابِ عَدَمِ وجود لامُتَنَاهٍ في الواقعِ اقتضاءُ اللَّاتَنَاهي مُحالاتٍ، سواء كان هذا الاجتماع لحظيًّا أم على التّوالي، وما سبق من أدلة على منع اللّانهاية لِلُزومِ المحالات يصحُّ في حالَي اللَّاتَنَاهي اللَّحْظِيِّ والتَّسَلْسُلِيِّ. وقد عَرَضَ (الغزالي) أمثلةً واضحةً في نقض التَّسلسُلِ في صورتِه التَّسَلْسُليّةِ، ومنها ـ بصورة تبسيطيّةٍ ـ أن نفترِضَ من الأزَلِ أنّ (الأرضَ) تدورُ حول (الشَّمسِ) خمس مرّاتٍ في السّنة الواحدة، و(القمرَ) يدور حول (الشَّمسِ) عشر مرّات في السّنة.



والعقلُ يُلْزِمُنَا هنا بنتيجَتَيْنِ متعارضَتَيْنِ:

النّتيجةُ الأُولى: عدد مرّاتِ دوران (القمرِ) حول (الشّمسِ) ضعفُ عدد مرّات دوران (الأرضِ) حول (الشّمسِ)؛ إذ يدور القمر ١٠ مرّاتٍ حول الشَّمْسِ مقابل ٥ مرّاتٍ تدورها الأرضُ حول ذات الجُرْمِ.

النّتيجة الثّانيةُ: عدد مرّات دوران (القمرِ) حول (الشّمسِ) يساوي عدد مرّات دوران (الأرضِ) حول (الشّمسِ)؛ لأنّهما يدوران منذ الأَزَلِ حول ذات الجرمِ.

ولنا أن نقدّم مثالًا آخر، وهو أن نفترض أنّ رجلًا كان من الأزل يستعمل مطرقة واحدة كلّ يوم، ومع نهاية اليوم يصيب العطب مطرقته، فيستعمل في اليوم التالي مطرقة أخرى جديدة.. لزوم المحالات هنا ثابت سواء بقيت المطارق محفوظة (أجزاء السلسلة) لتكوّن سلسلة لانهائية مجتمعة الأجزاء في حيّز الوجود اللحظي (أي: موجودة كلّها الآن) أم اندثرت؛ فالعبرة بدخولها حيّز الوجود، ولو على التتالي، لا اجتماعها في الوجود مرّة واحدة[١].

ثم إنّ برهان امتناع تحصيل ما لا يَتَنَاهى تَرَاكُميًّا يَصِحُّ ضرورةً على ما لا يَتَنَاهى لحظيًّا وتراكُميًّا؛ فلا يمكن ـ ببداهةِ العقولِ ـ تحصيل شيءٍ لا نهائيٍّ إذا جَمَعْنا أَفرادَهُ التي دخَلَتْ حَيِّزَ الوجود، بمجرّد التّراكم.

وتحصيل المتسلسل الذي لا يَتَنَاهى ممتنِعٌ أيضًا؛ لأنّه لا يمكن عبور خطٍّ لانهائيٍ للوصول إلى آخِرِه. وسلسلةُ أحداث الزّمن متّصلةٌ اتّصال حبَّاتِ العِقْدِ، غيرَ أنّها أُفقيّةٌ لا تجتمع، وعبور هذه السّلسلةِ ممتنِعٌ ضرورةً لأنّه يستحيل عبور ما لا يَتَنَاهى.

ثانيًا: وَضَّحَ الإمام (ابن حزم) أنّه لا فارق البتّة بين التَّسلسُلِ اللّحظيّ والتَّسلسُلِيِّ التَّراكُميِّ، فقال: «كُلُّ محصورٍ بالعَدَدِ مَحْصِيٌّ بالطّبيعةِ فذو نهايةٍ؛ فالعالم كُلُّه ذو نهايةٍ، **وسواء في ذلك ما وُجِدَ في مُدّةٍ واحدةٍ أو مُدَدٍ كثيرةٍ**؛ إذ ليست تلك المدد إلّا مُدَّةً مُحْصاةً إلى جَنْبِ مدّةٍ مُحْصاةٍ؛ فهي مُركّبةٌ من مُدَدٍ

---

(١) William Lane Craig, and J.P. Moreland, eds. *The Blackwell Companion to Natural Theology*, p.116.

مُحْصاةٍ؛ وكُلّ مُركّبٌ من أشياءَ فهو تلك الأشياء التي رُكِّبَ منها، فهي كُلُّها مُدَدٌ مُحْصاةٌ»[1].

٣ ـ تراكم المدد لقيام الأزل:

اعتراض: إذا كان الزمن قد بدأ بحدث ما (الحدث ج)؛ فالعقل يجوّز أن يكون قد حدث قبله (قبل الحدث ج) حدث آخر، وآخر، وآخر.. وتجويز وقوع عدد محصور من الأحداث قبل الحدث ج حجّة على إمكان وقوع عدد لامتناه (غير محصور) من الأحداث قبل ذات الحدث؛ فإمكان حدوث حدث قبل كلّ حدث حجة لإمكان حدوث أحداث بلا بداية.. وبذلك يثبت إمكان وجود سلسلة لانهائية من الأحداث منذ الأزل..

الجواب:

أولًا: المعترض لم يفهم معنى «الزمان» الذي نتحدث عنه؛ إذ هو زمان لا يقع في ظرف زمان أكبر منه؛ وبالتالي فلا معنى لأن يبدأ الزمان في زمان أبكر مما بدأ منه؛ فكل بداية للزمان هي أوّل هذا الزمان، ولا يمكن أن تكون أبكر من البداية.. نحن هنا نغيّر طبيعة الحدث الأول، من حدث إلى آخر، لا أننا نبدأ قبل «البداية»!

ثانيًا: يقوم هذا الاعتراض على مغالطة التركيب fallacy of composition التي تزعم أنّ الكلّ يحمل دائمًا صفات أفراده؛ فسور الصين قد بُني من حجارة أو صخور صغيرة؛ ويلزم لذلك أن يكون السور صغيرًا لصغر أجزائه!

ووجه المغالطة هنا واضح في التزام أن يكون الكل هنا على صفة الجزء؛ إذ إنّ إمكان وجود أحداث قبل الحدث الأول لزماننا لا يجعل وجود سلسلة «أولى» لامتناهية من الأحداث من الممكنات؛ لأنّ السلسلة اللامتناهية الفعلية غير الافتراضية ممتنعة في ذاتها للزوم المحالات لوجودها، ولأنّ العدد اللانهائي لا يمكن بلوغه بتراكم الأفراد.. أي: إنّ السلسلة اللامتناهية غير

---

(١) ابن حزم، الفصل في الأهواء والملل والنحل، ١/٥٨ ـ ٥٩.

قابلة للبناء أصلًا، وافتراض خلق الرب لأحداث ـ كثيرة ـ مهما كثرت لا يؤول إلى تجويز قيام سلسلة منها لامتناهية لأنّ وجود السلسلة ممتنع عقلًا؛ إذ إنّ هذه السلسلة ليست حصيلة تركيم محض لأفرادٍ من الأحداث، وإنّما هي أثر إمكان تحصيل مجموعة لامتناهية من تركيم أفراد، وهو الذي ننازع في إمكانه لأنّ **ما لا يتناهى لا ينشأ عن تركيم**.

٤ ـ أَزَلِيَّةُ أكوانٍ قبل كَوْنِنا:

اعتراض: صحيحٌ أنّ كلَّ الكوسمولوجِيّين الملاحدة يُقرّون أنّ كونَنا مخلوقٌ، لكنَّ منهم مَنْ يرى أنّ كونَنا ليس أَوَّلَ الوجودِ الماديِّ، وإنّما هو مسبوقٌ بأكوانٍ أُخرى أزليّةٍ. وممّن طرحُوا نماذج لانهائيّة الكوسمولوجِيان الملحدان الشَّهيرَان (هاوكنج) و(شون كارول).

الجواب:

أولًا: الحقيقةُ العلميّةُ التي يشهد لها كُلُّ شيءٍ اليوم هي أنّ لكونِنا بدايةً. وأمّا وجودُ أكوانٍ قبل كونِنا فَمَحَلُّ جَدَلٍ وشَكٍّ. ويتمهَّدُ عن ذلك أنّ البرهان المدرَك اليوم مع الـمُؤَلِّـهَة، وهو ما يعني في أدنى تقديرٍ ـ من النّاحية العلميّة ـ في هذه المرحلة من النَّظَرِ أنّ مذهَبَ الـمُؤَلِّـهَة أَرْجَحُ من قول الملاحدةِ في شأن نفي أزليّةِ الوجود الماديِّ.

ثانيًا: يقوم الإلحاد الماديُّ اليوم على تصديق البرهانِ المادي وترك التَّخمينِ، والبرهانُ الماديُّ يقف بِحَسْمٍ مع حقيقة أنّنا لا نعرف كَوْنًا غير كَوْنِنا، وأنّنا لا نملك أن نَعْبُرَ بِرَصْدِنا إلى شيءٍ قبل بدايةِ هذا الكونِ.

ثالثًا: لا يوجد بُرهانٌ ماديٌّ واحِدٌ مستقِلٌّ على وجود كونٍ قبل كونِنا. وكلُّ ما يُقال هو مجرّدُ احتمالٍ رياضيٍّ. ولعلَّ أَبْرَزَ ما يكشِفُ أنّ دَعاوى وجودِ أكوانٍ قبل كونِنا مَحْضُ تَخَرُّصٍ، كَثرةُ النماذج الـمُدَّعاة لهذه الأكوانِ، والتَّباين الكبير بينها؛ فلو كان الأمرُ قائمًا على براهينَ علميّةٍ جادّةٍ لكانت هذه النماذج قليلة عددًا، ومتقاربةً في أصولها، لكنّنا نرى نماذج تختلفُ بعضها عن بعض اختلافاتٍ جذريّةً؛ كالخلافِ بين نموذج «Chaotic Inflation» ونموذج

«Cyclic Ekpyrotic Scenario». . لقد تعدَّدَتْ وتَبَايَنَتْ لأنّها تنطلِقُ من دعوى وجودِ هذه الأكوان، ولم تَبْدَأْ من التَّساؤُلِ عن وُجودِها؛ فهي تفترِضُ النّتيجةَ في المقدّمةِ.

رابعًا: عَجْزُ العقلِ الإلحاديِّ عن الكشفِ عن برهانٍ ماديٍّ ينصر دعوى أزليّةِ الكون لم يمنَعْ عددًا من أنصار الإلحادِ من التَّشَبُّثِ بهذه العقيدة، ولذلك أَنْشَؤُوا نماذج كونيّةً أزليّةً دون بدايةٍ، قائمةً على مجرّد الإمكان الرياضيّ، دون برهانٍ ماديٍّ. ومعلومٌ أنّ عالم الرياضيات عالَمٌ تجريديٌّ يسمح في كثير من الأحيانِ للأَوْهامِ بالوجود حتى ولو عارَضَتْ أدنى شروط الواقعيّةِ.

خامسًا: نموذج (هاوكنج) مجرّدُ صياغةٍ رياضيّةٍ، لا يمكن أن يكون لها وجودٌ واقعيٌّ؛ إذ إنَّ الزَّمَنَ الذي كان قبل الانفجارِ في نموذج (هاوكنغ) (زَمَنٌ تَخَيُّلِيٌّ) (imaginary time)، وقد افْتَرَضَهُ (هاوكنغ) لِتَصِحَّ معادلاتُه دون أن يرى له حقيقة، وكانت غايتُه تلافي المفردة التي نَشَأَ منها كونُنا، ولذلك اعترف قائلًا: «عندما يعود المرءُ إلى الزَّمَنِ الحقيقيِّ الذين نعيشُ فيه، ستظلُّ هناك مفردات singularities»[(١)]؛ فالزَّمَنُ له بدايةٌ إذا رَجَعْنا إلى المفردة[(٢)] أو المفرداتِ؛ فمشروعُ (هاوكنج) برُمَّتِه ـ كما يقول الفيزيائيُّ (روبرت شلدون)[(٣)] ـ محاولةٌ يائِسةٌ للفرار من بدايةٍ للكونِ، رغم أنّ هذا النموذج «لا أَساسَ له في الفيزياء والواقع»، كما أنّه فَشِلَ في تحقيق مُرادِه؛ لأنّه بإلغاء نقطةٍ واحدةٍ للبداية، قَدَّمَ عَدَدًا لامُتَنَاهِيًا من نِقاط «البدايات»[(٤)]. وقد وَصَفَ (شون كارول) نموذج (هاوكنج) أنّه يفترِضُ بداية أولى للكونِ من العَدَمِ مع الانفجارِ العظيمِ[(٥)].

---

(١) Stephen Hawking, *A Brief History of Time*, p. 139.

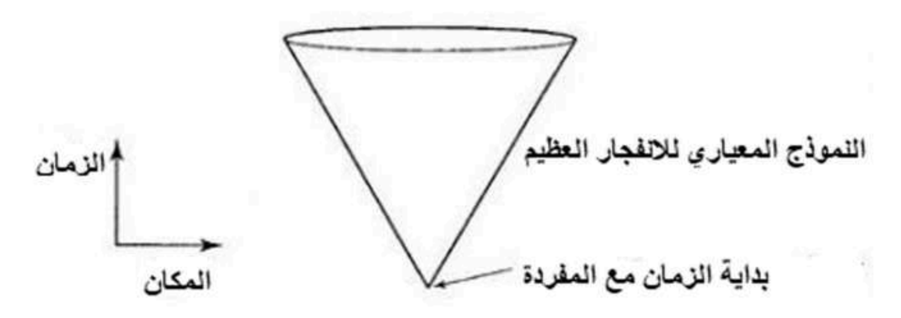
(٢) المفردة singularity: النُّقطةُ الأُولى التي كانت تَجْمَعُ كُلَّ كُتْلَةِ الكَوْنِ قبلَ الانفجارِ والتَّمَدُّدِ.

(٣) روبرت شلدون Robert Sheldon: مختصٌّ في فيزياءِ الفَضَاءِ. أستاذُ الفيزياءِ في جامعة ألاباما. عضوُ «المعهد الأمريكيّ للمِلاحةِ الجويّةِ والفضائيّةِ».

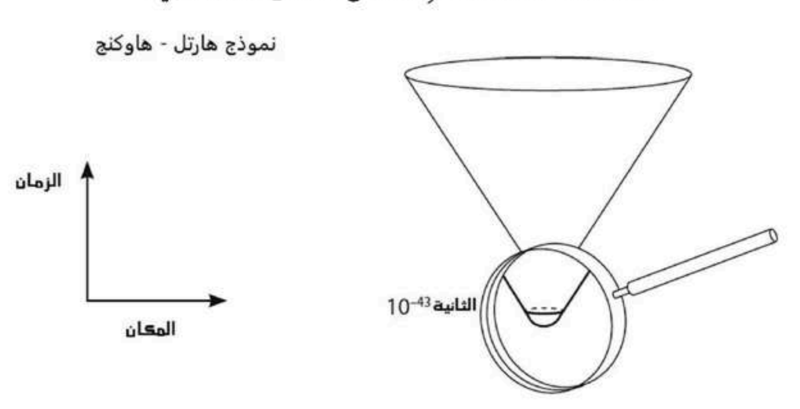
(٤) Was Stephen Hawking (1942-2018) right to object to the Kalam cosmological argument? <https://uncommondescent.com/intelligent-design/was-stephen-hawking-1942-2018-right-to-object-to-the-kalam-cosmological-argument/>.

(٥) في الدقيقة الخامسة من الفيديو التالي، من برنامج «Closer to Truth»: =

القَعْرُ الحَادُّ للزَّمَكانِ (نموذجٌ واقِعيٌّ)



القَعْرُ الـمُتَقَوِّسُ للزَّمَكانِ (نموذج هاوكنج غيرُ واقعِيٍّ)



سادسًا: (شون كارول) لم يَدَّعِ عِلْمَهُ بأزلِيَّةِ الكونِ؛ فهو القائِلُ: «ما زِلْنَا إلى الآن نَجْهَلُ جوابَ سؤالِ: هلْ للكونِ بدايةٌ؟»[1]. . ثمّ إنَّ نموذجه قائمٌ على أنّ الكونَ الواحد يسيرُ في اتّجاهَيْنِ متعاكسَيْنِ للزَّمانِ، وهو تصوُّرٌ لا يمكن أن يكون له مُوازٍ واقعيٌّ، وإذا طَبَّقْنَاهُ واقِعِيًّا فسينتهي إلى أنّ للوجودِ

= I don't know what happened at the Big Bang. At the Big Bang maybe things just came into existence. Stephen Hawking for example would say that the universe came into existence at the Big Bang... A fluctuation out of nothingness. So it was not pre-existing nothingness to turn into the Big Bang. It's just as you would say talking about what is before the Big Bang is like talking about north of the North Pole it's a nonsensical idea.

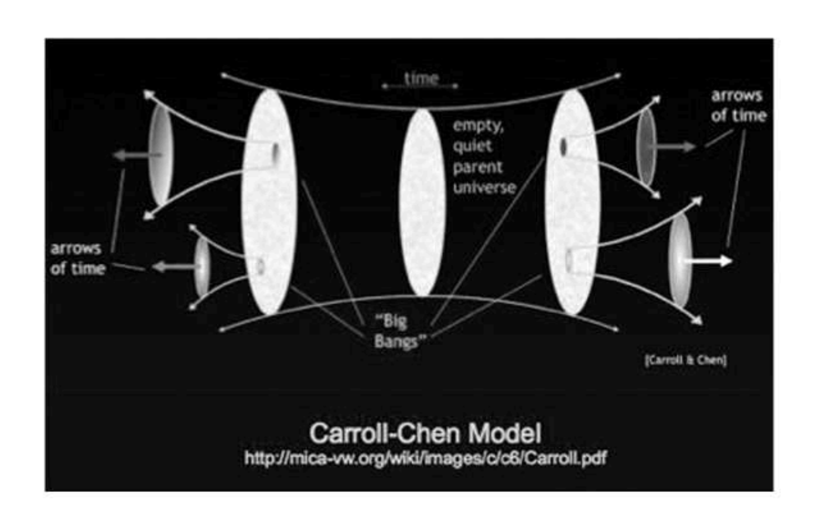
<https://www.youtube.com/watch?v=FgpvCxDL7q4>.

(١) في الدّقيقة الأُولى من الفيديو التالي، من برنامج: "Closer to Truth"

"We still don't know the answer to the question: Did the universe begin?".

<https://www.youtube.com/watch?v=FgpvCxDL7q4>.

الماديِّ بدايةً؛ ولذلك بعد أن دَرَسَ (فلنكن) نموذج (شون كارول) وغيرَهُ، صَرَّحَ قائلًا: «لا توجد نماذج اليومَ تُقَدِّمُ نموذجًا مَرْضِيًّا لِكَوْنٍ بلا بدايةٍ»[١].
وبسبب غرابةِ هذا النموذج، وافتقادِهِ كلَّ بُرهانٍ ماديٍّ، وضَعْفِهِ، لم يجرؤ (كارول) على استظهارِهِ في مناظَرَتِهِ للفيلسوفِ (وليم لين كريج) (٢٠١٤) في علاقةِ الكشفِ الكوسمولوجيِّ بوجود اللهِ[٢]!



سابعًا: أَشْهَرُ الكوسمولوجيّين الملاحدة، المتطرّفين في إلحادهم، لم يجرؤُوا على الجزم أنّ الوجودَ الماديَّ أَزَليٌّ، وإنّما غاية أَمْرِهم الظَّنُّ والتَّرْجيحُ، ولذلك لمّا سُئِلَ (شون كارول) نفسه إن كان يعتقد أنّ للوجودِ الماديِّ بدايةً، لم يُبْدِ قَطْعًا في الموضوعِ، وإنّما رَجَّحَ أنَّ الكونَ أَزَليٌّ لأنّ ذلك برأيِهِ سَيُفَسِّرُ الطريقةَ العجيبةَ الـمُتْقَنَةَ فيزيائيًّا لبدايةِ كَوْنِنا، وأنّ القولَ: إنّ الكونَ بدأَ منذ ١٣,٧ بليون سنةٍ من العَدَمِ على الصُّورةِ التي كَشَفَها العِلمُ سيتركنا في حَيْرةٍ في

---

(١) في محاضرة لـ(فلنكن) بعنوان: "Did the Universe have a Beginning?":
<https://www.youtube.com/watch?v=NXCQelhKJ7A>.

(٢) نشر المناظرة مطبوعة:
Sean Carroll, William Lane Craig, Robert B. Stewart, eds. *God and Cosmology: William Lane Craig and Sean Carroll in Dialogue* (Fortress Press, 2016).

تفسير هذا الأمر[١]؛ فما أَلْجَأَهُ إلى القول بأزليّةِ الوجودِ الماديِّ غير الحاجة إلى الفِرار من برهان الضّبط الدَّقيقِ للكونِ ـ وهو من أعظم أدلة وجود الله ـ!

ثامنًا: من أبرزِ الدّلالات الطّريفة على غيابِ أيّ برهانٍ عِلميٍّ لصالح أزليَّةِ الوجود الماديِّ أنَّ الكوسمولوجيَّ الشّهير (ألان غوث)[٢] يُصرِّحُ في مقالاته العلميّة التي ينشرها في المجلّات المحكّمة وفي لقاءاته الجادّة مع المهتمِّين بالشَّأنِ العِلميِّ[٣] أن الدّلائل العلميّةَ تشير إلى أنّ الوجودَ الماديَّ كلَّهُ حادثٌ غيرُ أَزَليٍّ ـ قبل كوننا، لكنَّهُ صَرَّحَ مرّةً أنّه يؤمن أنّ الوجود أَزَليٌّ؛ إذ ظهر في صُوَرٍ قَدَّمَها (شون كارول) في مناظرته لـ(ويليام لين كريج) وهو يحمل لافتاتٍ تُقرِّرُ أنّه يُؤمِنُ بأزليّةِ الوجود الماديِّ. وذاك برهانُ تَعَارُضِ مَيْلِهِ العاطفيِّ النّابعِ من عقيدتِه، ودلائلُ العِلم التي لا تقبل غيرَ المعطيات الماديّة. فالمعطياتُ الماديّةُ عند (غوث) لم تُسْعِفْهُ أن يَنْصُرَ إيمانَهُ، لكنّه يعيش بإيمانٍ غير مُدَلّلٍ أنّ الوجود المادي أزليٌّ.. وهذا برهانٌ قويٌّ لِعَجْزِ الإلحادِ واللَّاأَدْرِيَّةِ عن نُصْرةِ أزليّةِ المادّةِ ببرهانٍ عِلميٍّ..

تاسعًا: الشَّواهدُ العِلميّةُ المتاحة اليومَ تشير إلى أنّ للكونِ أو الأكوان السَّابقة بدايةً، وممّن شَهِدُوا بذلك (ألكسندر فلنكن) بقوله: «**كُلُّ الدَّلائلِ التي**

---

(١) في لقاء تلفزيوني معه:

<https://www.youtube.com/watch?v=O7ybg0IMPto>

(٢) ألان غوث Alan Guth (١٩٤٧ـ): عالِمُ فيزياء نظرية وكوسمولوجيا أمريكيٌّ بارِزٌ. اشتُهِرَ بنظريّته في «التَّضَخُّم الكونيّ» بعد ولادةِ الكون بفترةٍ قصيرةٍ.

(٣) انظر حوارَهُ في: برنامج «Closer to Truth» في الفيديو التالي حيث صرَّحَ أنّ كونَنَا قد بدأ يَقِينًا منذ ١٣,٧ بليون سنةٍ، ثم أضاف جوابًا على قول محاورِهِ: إنّه ـ (غوث) ـ وآخرين أَثْبَتُوا أنَّ للبدايات كُلِّها بداية أُوْلى نهائيّة: «نعم، ذلك صحيح، هذه الأمور لا يزال فيها شيءٌ قليلٌ من الغُمُوضِ. لن أَزْعُمَ أنّ هذه الأمورَ قد تَمَّ إثباتها بصورةٍ لا شَكَّ فيها، ولكنْ باعتماد افتراضاتٍ معقولةٍ بإمكان المرءِ أن يُظْهِرَ أنّه حتّى في سياقِ مذهب التَّضَخُّمِ [الذي يُعْتَبَرُ غوث أَعْظَم مُنَظِّرِيْهِ] مع تكوُّن فُقاعاتٍ كثيرة، ستبقى هناك بدايةٌ نهائيّةٌ في مكانٍ ما».

"Yes, that's right those issues are still a little unclear. I wouldn't say that those things are shown beyond doubt but with reasonable assumptions one could show that even in the context of inflation with many bubbles forming it would still be somewhere an ultimate beginning".

الفيديو التالي:

<https://www.youtube.com/watch?v=j-gPyhjlSZ0>.

نَمْلِكُهَا تقولُ: **إنَّ لِلْكَوْنِ بدايةً**»[1]. وما النماذج الأزليّةُ المطروحة سوى أَمَانٍ رياضيّة.

عاشرًا: اعترف عددٌ من كبار الكوسمولوجيّين أنّه لا رجاءَ في المستقبل لاكتشافِ وجودٍ ماديّ أزليٍّ قبل الانفجار العظيم؛ لقيامِ الدّليل العلميّ على امتناع ذلك. ومن ذلك قول (فلنكن) في كتابه الذي نشره منذ بضع سنوات «عوالِمُ في عالَمٍ واحِدٍ: البحثُ عن أكوانٍ أُخرى»: «مع قيام الدّليلِ الآن، ما عاد للكوسمولوجيّين أن يَتَخَفَّوْا وراءَ إمكانيّةِ وجودِ كونٍ لانهائيٍّ في الماضي. **لا مَهْرَبَ: عليهم أنْ يُواجِهُوا مُشْكلةَ البداية الكونيَّةِ**»[2].

الحادي عشر: البرهانُ العلميُّ عندنا تَعْضِيديٌّ، وليس هو أصل البرهان على خَلْقِ المكان والزَّمانِ، وإنّما البرهان الأساسيُّ هو البرهانُ العقليُّ لامتناع اللَّانهايةِ في الواقع.

- **كَوْنُنَا مخلوقٌ = حقيقةٌ دلَّ عليها البرهانُ الفلسفيُّ (العقليُّ) القاطِعُ، وتُؤَيِّدُهَا الدَّلائِلُ العِلميّةُ الـمُتَضَافِرَةُ.**
- **وجودُ أكوانٍ أَزَليّةٍ قَبْلَ كَوْنِنَا = دَعْوى بلا برهانٍ مادِّيٍّ مُسْتَقِلٍّ + فَشَلُ كُلِّ النّماذِجِ المعروضةِ في إثباتِ إمكانِ أَزَلِيّةِ الوجود الماديِّ عِلْمِيًّا+ دَعْوى تُعارِضُ البرهانَ الفلسفيَّ القاطِعَ.**

٥ ـ المادة لا تفنى ولا تُستحدث:

اعتراض: القانون الطبيعي يقول: المادة لا تفنى ولا تُستحدث؛ ولذلك فالكون أزلي ضرورة بلا بداية لأنّ مادته غير مستحدثة.

الجواب:

أوّلًا: القانون الذي يستدلّ به المعترض اسمه في الأدبيات العلميّة:

---

(١) Cited in: Lisa Grossman, “Why physicists can’t avoid a creation event,” *New Scientist* (January 11,2012).

(٢) Alexander Vilenkin, *Many Worlds in One: The Search for Other Universes*, 176.

القانون الأوّل للديناميكا الحراريّة، وهو قانون حفظ الطاقة، وينصّ على أنّ الطاقة ـ في منظومة مغلقة ـ لا تفنى ولا تُستحدث من عدم، وإنّما تتحوّل من حال إلى أخرى. وهو قانون متعلّق بعمل الكون لا بأصل الكون؛ ولذلك لم يجد العلماء القائلون ببدء الكون من عدم مع الانفجار العظيم فيه معارضًا لقبول صحّة مذهبهم، كما لا يستدلّ به القائلون بأزليّة الكون لنصرة نماذجهم الأزليّة، فلم يعترض به (شون كارول) ولا (كراوس)... وغيرهما في مواجهة القائلين بخلق الوجود المادي بعد عدم، رغم أنّ هذا الاعتراض إن صحّت مقدماته؛ فهو أقصر الطرق للقول بأزليّة الكون، ولا يقتضي الجهد الضخم لاستنباط نموذج معقّد يسمح للمادة والطاقة أن يكونا بلا بدءٍ. ثم إنّ جميع القائلين بأزليّة الكون من الفيزيائيين اللادينيين، يذكرون أنّ مذهبهم ممكن أو راجح، وينكرون جزمهم بصحّة مذهبهم (غوث، فلنكن)، ولو أنّ القانون الأوّل للديناميكا الحراريّة حجّة في الباب؛ لما توانوا عن الجزم في هذا المقام.... باختصارٍ، هذا القانون ليس له محلّ في جدل أصل الكون، وإنّما هو قانون يعمل في حياة الكون، بعمل الكون.

ثانيًا: العلماء الذين يؤمنون بالقانون الأوّل للديناميكا الحراريّة، يؤمنون أيضًا بالقانون الثاني للديناميكا الحراريّة. وقد علمتَ أنّ القانون الثاني حجّة على أنّ الكون له بداية، ولم تستطع النماذج القائلة بأكوان قبل كوننا أن تتجاوزه بنجاح. ولا يجوز ضرب قوانين الكون ببعضها.

٦ ـ مَنْ خَلَقَ اللهَ؟

اعتراض: إذا كان لِكُلِّ شيءٍ خالقٌ ـ كما هو قول المؤمنين ـ، فمَنْ خَلَقَ الله؟

ويضيف (داوكنز) على ما سبق: لا يمكن التّسليمُ أنّ الإلٰهَ هو «السَّبَبُ الأوَّلُ»؛ لأنّ السَّبَبَ يجب أن يكون أَبْسَطَ مِنْ أَثَرِهِ حتى يُفَسِّرَهُ، في حين أنّ الإلٰهَ ذاتٌ شديدةُ التَّعقيدِ.

الجواب:

أَوَّلًا: لم يَقُلْ أَحَدٌ من المؤمنين بالله إنّ «لِكُلِّ شَيْءٍ خالِقًا»، ولا يمكن أن يَقَعَ ذلك في أَذْهانهم ولا أن يصدُرَ عن أَفْواهِهم؛ إذ إنّ برهانَ الحدوثِ لم يَقُمْ إلَّا لِنَفْيِ هذه الدَّعوى؛ فهو برهانٌ قام لِيُثْبِتَ أنّ سلسلةَ الأسبابِ والأشياء المتتابعة لا بُدَّ أن تكون لها بدايةٌ أُوْلى.

برهانُ الحدوث يقول: إنّ لكلّ «أثرٍ» سببًا، لا أَنَّ كُلَّ «شيءٍ» له سَبَبٌ، والأَثَرُ يقتضي ضرورةً سَبَبًا، لتنتهيَ السلسلةُ بذاتٍ أُوْلى ليس لها سَبَبٌ.

والبرهانُ يقولُ: لأنّه يوجد شيءٌ الآن؛ فلا بد أنّه كان هناك شيءٌ أَوَّل بلا بدايةٍ؛ فإنّه لا يَنْشَأُ شيءٌ من لا شيءٍ، مهما تَقَهْقَرْنَا في تَتَبُّعِ سسلة الأحداث.

ثانيًا: الملاحدةُ يستنكرون معقوليّةَ وجودِ إلٰهٍ لا بدايةَ له رغم أنّ الملاحدة آمَنُوا طولَ تاريخهم قبل القرن العشرين أنَّ الكَوْنَ أَزَليٌّ؛ لِعِلْمِهِمْ أنّه لا بُدَّ أن يوجد شيءٌ لا مُبْتَدَأَ له زَمَنِيًّا. وقد كانوا يُسَلِّمُون لذلك دون جَدَلٍ؛ حتى إنّ الفيلسوفَ (صموئيل كلارك)[1] ـ أَحَدُ أَشْهَرِ من كَتَبُوا في البرهان الكونيِّ ـ قال في مُؤَلَّفٍ لَهُ سنة ١٧٠٥: «إنّهُ من المؤكَّدِ بصورةٍ قاطعةٍ لا شَكَّ فيها أَنَّ هناك شيئًا قد وُجِدَ منذُ الأَزَلِ. هذا أمرٌ واضِح جدًّا ولا يمكن إنكارُه حتّى **إِنَّهُ لم يجرؤ مُلْحِدٌ في أَيِّ عَصْرٍ مضى أَنْ يَفْتَرِضَ عَكْسَهُ**، ولِذا لا تَكادُ تُوجَدُ حاجةٌ للاستدلالِ عليه أو عَدِّهِ دعوى خاصّةٍ بالمؤمنين؛ إذ إِنَّهُ بسببِ وُجودِ شيءٍ الآنَ، من الواضح أَنَّ هناك شيئًا وُجِدَ دائمًا؛ وإلَّا فالأشياءُ الموجودةُ الآنَ يجب أن تكون قد نَشَأَتْ مِنْ لا شيء، بلا سببِ البَتَّةَ، وذاك من نقائِضِ الكلام»[2].

ثالثًا: الإنسانُ أمامَ خيارَيْنِ جادَّيْنِ، إمّا أنْ يكون اللهُ بلا أَوَّلٍ أو أن

---

(١) صموئيل كلارك Samuel Clarke (١٦٧٥ ـ ١٧٢٩م): أحدُ أَعْلامِ الفلسفةِ في بداية القرن الثامن عشر في إنجلترا. كان له اهتمامٌ خاصٌّ بالجَدَلِ الفلسفيّ في الردِّ على الـمُنْكِرين لِلَّاهوت الطبيعيّ.

(٢) Samuel Clarke, *A Demonstration of the being and Attributes of God* (London: W. Botham, 1725), p.8.

يكون الكَوْنُ بلا أَوَّلٍ؛ إذ إنَّ العَدَمَ لا يُوجِد شيئًا. ولـمّا قام البرهانُ العقليُّ والعلميُّ بإثبات أَنَّ الوُجود الماديَّ له بدايةٌ، لَزِمَ القولُ: إنَّ اللهَ هو الأَوَّلُ الذي لا شيء قَبْلَهُ.

رابعًا: القولُ: إنّ السَّبَبَ يجب أن يكون أقلَّ تعقيدًا من الأَثَرِ لا برهانَ عليه عَقْلًا؛ فقد يَنْشَأُ الأَثَرُ عن أَمْرٍ أَشَدَّ تعقيدًا منه؛ بل لعلَّ ذلك هو الأَصْلُ في الأشياء لا العكس في عالَمِ الأفكار والصَّنائِعِ.. أَلَا ترى أنّ المكتوبَ والمصنوع أَبْسَطُ دائمًا من الدّماغِ الذي أَنْشَأَهُ؟!

خامسًا: تفسيرُ وجودِ الكونِ من عَدَمٍ مرتبِطٌ بإدراكِ جوابٍ يملِكُ قدرةً تفسيريّةً تُحِيطُ بإشكالاتِ السُّؤالِ، وليس من شرط القُدرةِ التفسيريّة للجواب أن يكون الجوابُ أَقَلَّ تعقيدًا من أَثَرِهِ.

سادسًا: ليس من شرط التفسير المقبولِ أن يكون له تفسيرٌ؛ فإنَّ طَلَبَ تفسيرٍ لِكُلِّ تفسيرٍ يَلْزَمُ منه أَلَّا يوجد تفسيرٌ؛ لأنّ تفسيرَ كُلِّ تفسيرٍ يَؤُولُ إلى التَّسَلْسُلِ اللَّانهائيِّ؛ ولذلك اعترَضَ عددٌ من الملحدين على (داوكنز) مذهَبَهُ، ومنهم الفيلسوفُ **الملحد** (غريغوري داوز)[1] قائلًا: «يبدو أنّ (داوكنز) يفترِضُ أنّ كُلَّ تفسيرٍ ناجحٍ لا بُدَّ عليه أيضًا أن يُفَسِّرَ تَفْسيرَهُ، ولكنّ ذلك مَطْلَبٌ غيرُ معقولٍ؛ إذ إنّ العديد من تفسيراتنا الأَنْجحِ تُثِيرُ أَلْغازًا جديدةً وتُقَدِّمُ لنا أسئلةً جديدةً تحتاج أَجْوبة»[2].

سابعًا: الذَّاتُ الإلٰهيّةُ عظيمةٌ إلى مبلغِ الكَمَالِ، وليست مُعقّدةً، والتَّعقيدُ غيرُ العَظَمةِ والكَمَالِ، وقد قال (داوكنز) في كتابه: «صانع السَّاعات الأَعْمى» إنّ الشَّيءَ يكون مُعَقَّدًا إذا كانت لهُ أَجزاء «مُرتّبةٌ بطريقةٍ يَبْعُدُ أن تَنْشَأَ فقط عن الصُّدْفةِ»[3]، فكيف يكونُ الله في ظِلِّ هذا التّعريف «كائنًا مُعقَّدًا»؟! إنّ الله ليس ماديًّا، ولا مُرَكَّبًا من أجزاء يوجد الإلٰه بالتئامها؟!

---

(١) غريغوري داوز Gregory Dawes: أمريكيٌّ. أستاذُ الفلسفةِ في جامعة «أتاجو». حاصلٌ على دكتوراه في الفلسفة وأخرى في الدِّراسات الكتابيّة.

(٢) Gregory W. Dawes, *Theism and Explanation* (London; New York: Taylor & Francis, 2009), p.16.

(٣) Richard Dawkins, *The Blind Watchmaker*, p.7.

ثامنًا: وَجَّهَ الفيلسوفُ الملحِدُ (توماس ناجل) اعتراضًا على (داوكنز) خلاصَتهُ أنّ (داوكنز) واقِعٌ في الإشكالِ نفسِهِ الذي أراد أن يُلْزِمَ المؤمنَ بِجَوَابِهِ؛ إذ إنّ (داوكنز) يَرُدُّ كُلَّ أَوْجُهِ الحياةِ على الأرضِ إلى آليّةِ «الانتخابِ الطّبيعي»، لكنَّ الكائناتِ الحيَّةَ لا يمكن أن تَتَطَوَّرَ دون وجودِ الحياةِ الأُولى في شَكْلِها البِدائيِّ؛ فالتَّطَوُّرُ لا يمكِنُ أن يَقَعَ إلَّا بوجودِ رَصِيدٍ جِيْنِيٍّ تَحْدُثُ فيه الطَّفرات، لكنَّ المادَّةَ الجينيّةَ الأُولى شديدةُ التَّعقيدِ بصورةٍ أَعْظَمَ من التَّطَوُّرِ اللَّاحِقِ لِظُهُورِها، بما يقتضي أنَّ تفسيرَ أَصْل التَّطَوُّرِ أَعْقَدُ من التَّطَوُّرِ نَفْسِهِ[1]، وهو ما يلزمنا أَلَّا نُسَلِّمَ لِلتطوُّرِ حتّى نُفَسِّرَ أصلَ الحياةِ الأُولى المعقّدة، ومعلومٌ فَشَلُ جميعِ النَّظريّاتِ القائمةِ لتفسيرِ أَصْلِ الحياةِ ـ كما سيأتي معنا لاحقًا في هذا الكتاب ـ.

المطلب الثاني

الاعتراضُ على قانون السَّبَبِيَّةِ

يقول الفيلسوفُ (ويليام لين كريج) ـ أشهرُ من كَتَبُوا في برهان الحدوثِ في القرون الأخيرة ـ: إنّه لـمّا أَلَّفَ كُتُبَهُ الأُولى في سبعينيّات القرن الماضي، لم يَقَعْ في خَلَدِهِ أنّ هناك مَنْ يَسْتَشْكِلُ بِجِدٍّ مبدأَ السَّبَبِيَّةِ؛ إذ هو مُسَلَّمةٌ عند عامّةِ النَّاسِ.

ولستُ أرى الاعتراضَ على مبدأ السببيّةِ إلَّا علامةً على يَأْسِ العَقْلِ الإلحاديِّ؛ إذ اختارَ إلغاءَ مبدأ السببيّةِ الذي لا يوجد العَقْلُ بغيرِهِ، ويمتنِعُ العِلمُ بأيِّ شيءٍ دُونَهُ، طَلَبًا لِنَفْيِ الإِلٰهِ.

والاعتراضُ على مبدأ السببيّةِ في الخطابِ الإلحاديِّ له وَجْهانِ: واحدٌ فلسفيٌّ، وثانٍ علميٌّ..

---

(١) Thomas Nagel, *Secular Philosophy and the Religious Temperament: Essays 2002-2008* (Oxford: New York: Oxford University Press, 2010). pp.24-25.

١ ـ دعوى سقوط السببيّةِ فلسفيًّا:

القولُ: إنّ لكلّ أَثَرٍ سَبَبًا، مُسَلَّمَةٌ عقليّةٌ بنى عليها البشرُ منذ القديم كُلَّ أفعالهم وأفكارهم. وهو المبدأُ الذي تَنْبَجِسُ منه كلُّ كُشُوفِنا العلميّةِ واختراعاتنا. وقد اشتُهِرَ عن الفيلسوفِ الاسكتلنديِّ (دافيد هيوم) محاولَتُهُ نَفْيَ حقيقةِ السببيّةِ، مُنْكِرًا حقيقةَ السَّبَبِ والأَثَرِ، مُخْتَزِلًا الأَمْرَ في تَتَابُعِ الأحداثِ ودلالةِ الاقترانِ بينها على وَهْمِ السّببيّةِ، فَتَكَرُّرُ بَلَلِ العُشْبِ بَعْدَ المَطَرِ ليس حُجّة أنَّ المطَرَ سَبَبٌ في بَلَلِ العُشْبِ... وتلك دعوى تقتضي التّعقيبات التالية:

أ ـ هيوم والسببية:

لم يجد قولُ (هيوم) ـ عَمَلِيًّا ـ حُظْوةً في ساحةِ الفِكر الفلسفيِّ، وحتى الإلحاديِّ؛ لأنّ له تكلفةً واقعيّةً كارثيّةً، فإنّ إنكار السببيّةِ يقتضي إنكارَ حقيقةِ وجودِ قوانينَ كونيّةٍ تَحْكُمُ العالَمَ الطّبيعيَّ، وإنكارُ حقيقةِ هذه القوانين؛ يعني: نهايةَ العُلومِ الكاشفةِ للأسبابِ الدّائميّةِ.. والعُلومُ حُجّةُ ملاحدةِ العَصْرِ لإنكار وجودِ اللهِ!

ورغم شُهرةِ نِسبةِ مذهب إنكارِ السّببيّةِ إلى (هيوم) إلَّا أنّ (هيوم) قد رَدَّهُ عن نفسِه؛ إذ قال في رسالةٍ أَرْسَلَهَا إلى (جون ستيوارت) سنة ١٧٥٤م؛ أي: بعد تأليفه كتابَهُ «An Enquiry Concerning Human Understanding» (١٧٤٨م) الذي أَصَّلَ في فَصْلِهِ الرّابع لظاهريّةِ العلاقة الاقترانيّةِ بين الأشياءِ: «ولكنْ اسمحْ لي أن أَقُولَ لكَ إنّني لم أُقَرِّرْ البَتَّةَ **ذاك الادِّعاءَ السَّخِيْفَ** أنّ شيئًا ما من الممكن أنْ يَنْشَأَ دون سَبَبٍ. أنا لم أُقَرِّرْ إلَّا أنَّ يَقِيْنَنَا في خطأ تلك الدَّعْوى لم يَنْجُمْ عن حَدْسٍ ولا عن بُرهانٍ، وإنّما من مَصْدرٍ آخَرَ»[1].

ب ـ هل أَثْبَتَ اعتراضُ (هيوم) فسادَ مبدأ السَّببيَّةِ؟

غايةُ ما قَدَّمَهُ (هيوم) لِنُصْرَة مَذْهَبِهِ إمكانُ تَصَوُّرِ ظهورِ شيءٍ دون تصوُّرِ سَبَبٍ مَعَهُ. وذاكَ لا يُثْبِتُ شيئًا في نقضِ مبدأ السببيّة، لأسبابٍ، منها:

---

(١) J. Grieg, ed., *The Letters of David Hume* (Oxford: Clarendon Press, 1932), 1/187.

• الخيالُ التَّصَوُّرِيُّ قد يَتَفَلَّتُ من قوانين الواقِعِ؛ فالواقِعُ مَحْكُومٌ بقوانينِ المنطقِ، والخيالُ مجالٌ رَحْبٌ لِلمُمْكِنِ والـمُحَالِ؛ ولذلك فالخيالُ ليس حُجّة على الواقع. وللمرء أن يتصوَّرَ ما شاء، ولو كان غير ممكنٍ.

• تصوُّرُ ظهور الشّيءِ مع عَدَمِ تَصَوُّرِ سَبَبِهِ لا يعني عَدَمَ وُجودِ سَبَبٍ له؛ فأنْ أَتَصَوَّرَ ظُهور باقةِ وردٍ في محرابِ المسجدِ دون تصوّرِ سَبَبِ ذلك لا يعني تَصَوُّري ظهورَ باقةِ الوردِ دون سَبَبٍ؛ إذ إنّ عَدَمَ تصوّرِ السَّبَبِ لا يُلْغِي البَتَّةَ السَّبَبَ نفسَهُ في الخيالِ والواقع؛ إذ قد يتصوَّرُ الخيالُ إنسانًا دون تَصَوُّرِ طُولِهِ، ولا يعني ذلك إمكان وجودِ إنسانٍ دون طُولٍ.. فتصوُّرُ ظهور الشّيء دون تصوُّرِ سَبَبِهِ لا يعني تصوُّرَ ظهورِ الشّيء غيرَ مُسبَّبٍ.

• تصوُّرُ ظهورِ هذه الباقة دون سَبَبٍ سَبَبُهُ أنّ الخيالَ قد تصوَّرَ صاحِبَهُ يَقِفُ أمامَ المحراب، ثم هو يُفَاجَأُ بظهور الباقةِ دون سَبَبٍ يراه بِعَيْنِهِ، وهنا علينا أن نفترِضَ سببًا خارقيًّا لا أنْ نَنْفِيَ السَّبَبَ، والخارقةُ سَبَبٌ، وإن كانت سَبَبًا غير طبيعيٍّ.

ت ـ امتناعُ الاعتراض العَقْلِي على السببيّةِ:

كيف من الممكن للعاقِلِ أن يعترِضَ على قانون السببيّةِ؟ هذا هو السُّؤال!

من يُنْكِرُ السببيَّةَ يُنْكِرُ كُلَّ شيءٍ ضرورةً، لا السببيّةَ فقط، ولا بُدَّ أن يَسْقُطَ في الشُّكُوكيّةِ الشّاملةِ والقاتلةِ؛ إذ عليه أن يمتنِعَ عن الأكلِ طَلَبًا لِلشَّبَعِ، وعن الشَّرابِ طَلَبًا لِلرِّيِّ، وعن الدَّواءِ طَلَبًا لِلعافِيةِ... إنّه عليه أن يَتَوَقَّفَ عن الدّفاع عن إنكاره للسببيّةِ؛ لأنّه يُقِيمُ مَذْهَبَهُ على ترتيبٍ سَبَبيٍّ للمقدّمات والنّتائج.. إنّه عليه أن يتوقَّفَ عن التّفكير لأنّ التّفكير قائمٌ بصورة كليّةٍ على مبدأ السببّيةِ.. بل عليه أن يتوقّفَ عن الشّكِّ؛ لأنَّ الشَّكَّ نشاطٌ عقليٌّ سببيٌّ.. فإنكارُ السببيّةِ ـ في خاتمة الأمر ـ مُحالٌ لأنّه مذهبٌ مُنتقِضٌ ذاتيًّا؛ فهو يُنْكِرُ أمرًا يقوم هو عليه: الاستدلالُ العقليُّ أو العلميُّ السببيُّ لإنكار السببيّةِ.

وإذا كان عامّةُ الملاحدة اليومَ يرون العِلْمَ الطّبيعيَّ طريقَ المعرفة؛ فإنّ

إنكارَهم للسببيّةِ يَؤُولُ ضرورةً إلى إبطالِ إمكانِ العِلم بالعِلم لأنَّ العِلمَ سَبَبيٌّ في رَبْطِهِ الظّواهر بعضها ببعض والأشياءَ في تتالي حالاتها؛ ولذلك قال الفيلسوفُ (و. ت. ستاس)[1] عن قانون السببيّة: «كُلُّ دارِسٍ للمنطِقِ يَعْلَمُ أنَّ هذا هو أَعْظَمُ قوانينِ العُلوم، وأَسَاسُها كلّها. إذا لم نكن نؤمن بحقيقةِ السببيّةِ، وأنّ كُلَّ ما له بدايةٌ فَلَهُ سَبَبٌ... فَسَتَنْهارُ جميعُ العُلومِ في وقتٍ واحدٍ لتصير غُبَارًا»[2].

٢ ـ استغناءُ الكَوْنِ صِفْريّ الطّاقةِ عن خالِقٍ:

من أَشْهَرِ الاعتراضات التي نَسْمَعُها عن سُقوطِ السببيّةِ القولُ: إنّ الكونَ صِفريٌّ الطّاقةِ، وهي الفرضيّةُ المعروفةُ بـ(Zero-energy universe)، وقد طرحها (إدوارد ترايون)[3] سنة ١٩٧٣م[4]، وخلاصتها: أنّ مجموعَ الطّاقة الإيجابيّةِ ـ في شكلِ المادّةِ ـ يساوي مجموع الطّاقة السّالبيّةِ ـ في شكل الجاذبيّةِ ـ، بما يعني: أنّنا لسنا في حاجةٍ إلى خالِقٍ ليوجدَ الكونَ من لا شيءٍ؛ فالكونُ في حقيقتِه صِفْرٌ، عَدَمٌ؛ لِتَعَادُلِ طاقَتَي الكونِ؛ إذ إنّ مجموعَ الطّاقة الإيجابيّةِ والطّاقة السّالبيّةِ يساوي صِفْرًا، والصِّفْرُ عَدَمٌ!

وفي ذلك يقول (هاوكنج): «... مجموعَ الطَّاقةِ الكُليَّةِ لِلْكَوْنِ، يُساوي بالضَّبْطِ صِفْرًا. وتتكوَّنُ المادَّةُ في الكَوْنِ من الطّاقة الإيجابيّةِ. ومع ذلك، فإنَّ المادَّةَ تَجْذِبُ نفسَها بالجاذبيَّةِ.... وهكذا، وبمعنى من المعاني، لمجالِ الجاذبيّةِ طاقةٌ سالبيَّةٌ. في حال كَوْنٍ هو تقريبًا متماثِلٍ في الفَضَاءِ، بإمكانِ الواحِدِ أَنْ يُظْهِرَ أَنَّ طاقةَ الجاذبيَّةِ السَّلْبيَّةِ تُلْغِي تمامًا الطَّاقةَ الإيجابيَّة ممثّلة في المادّةِ. وبذلك تكون طاقةُ الكونِ صِفْرًا»[5].

---

(١) و. ت. ستاس W.T. Stace (١٨٨٦ ـ ١٩٦٧م): فيلسوفٌ وعالم إبستيمولوجيا بريطانيٌّ. دَرَّسَ في جامعة «برنستون».

(٢) W.T. Stace, *A Critical History of Greek Philosophy* (London: Macmillan and Co., 1934),p.6.

(٣) إدوارد ترايون Edward Tryon (١٩٤٠ـ): فيزيائيٌّ أمريكيٌّ. دَرَّسَ في جامعة «City University of New York». اشتُهِرَ بدعواه أنّ الكون قد نشأ بفعلِ تَمَوُّجٍ كُموميٍّ في الفراغ.

(٤) Edward P. Tryon, 'Is the Universe a Vacuum Fluctuation?,' *Nature*, vol. 246, p.396-397, 1973.

(٥) Stephen Hawking, *A Brief History of Time*, p.129.

ولذلك انتهى داعيةُ الإلحاد (بيتر أتكنز) إلى أنَّ العَدَمَ «قَدْ تَمَّ فَصْلُهُ إلى أَضْدَادٍ لِيُؤَدِّيَ ـ بَعْدَ ذلكَ ـ إلى ظهورِ شيءٍ»(١).

الجواب: ذاك أَكْثَرُ الاعتراضات تهافتًا، وأَكْتَفِي بِرَدِّهِ من أَوْجُهٍ قليلةٍ:

أ ـ دَعْوَى تساوِي الطَّاقة الإيجابيّة والطّاقة السالبيّةِ في الكَوْنِ مَحَلُّ نَظَرٍ، والقَطْعُ به بعيدٌ جِدًّا في حدود معارفنا الضَّيِّقَةِ والظَّنِّيَّةِ، كما أَنَّ الدَّعْوى مَبْنِيَّةٌ ـ كما يظهر من كلام (هاوكنج) نفسِه ـ على أَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ مُتماثِلٌ. ومن الذين أَنْكَرُوا تعادُلَ الطّاقة (عبد السَّلام محمَّد) ـ عالِمُ الفيزياء الباكستانيّ الحاصِلُ على نوبل (١٩٧٩م)، والمتخصِّصُ في النَّظَرِيَّةِ الكُمُوميَّةِ ـ؛ فقد قال: «لا يبدو أَنَّ القياساتِ تَدْعَمُ في الوقت الحاضرِ [دعوى] أَنَّ كُتْلَةَ الكَوْنِ تساوي صِفْرًا. . . ودون ذلك علينا أَنْ **نَتَخَلَّصَ من كامِلِ مفهومِ أَنَّ الكَوْنَ قد نَشَأَ مِنْ (تَذَبْذُبٍ كُمُومِيٍّ)** (quantum fluctuation)»(٢).

ب ـ وجودُ الكونِ اليومَ يَنفِي تَعَادُلَ الطّاقةِ الإيجابيّةِ والسالبيّةِ في بداية ظهورِ الكونِ؛ إذ إِنَّ عَدَمَ تَنَافي الطَّاقَتَيْنِ بإبادةِ بعضهما بعضًا وبقاءَ طاقةِ الكَوْنِ الأُولى اليومَ حُجّةٌ لذلك؛ ولذلك نُشِرَ مُؤَخَّرًا مقالٌ في المجلّة العلميّةِ «Nature» يُقرِّرُ أَنَّ التَّعادلَ بين وَجْهي الطّاقةِ دقيقٌ جِدًّا ـ بِزَعْمِهِمْ ـ بما يجعل العِلْمَ في حَيْرةٍ في سبب ظهور الكَوْنِ(٣)؛ حتّى صَرَّحَتْ إحدى الباحثات المشاركات في المقال في ندوةٍ صحفيّةٍ بقولها: «كُلُّ ملاحظاتِنا تَدُلُّ على وُجودِ تَنَاظُرٍ (symmetry) تامٍّ بين المادّةِ والمادَّةِ المضادَّةِ، ولذلك فعلى الكونِ أَلَّا يُوْجَدَ. . يجب أَنْ يوجدَ لاتَنَاظُرٌ في موضعٍ ما، لكنّنا ببساطةٍ لا نفهم أين يوجدُ الاختلافُ»(٤).

---

(١) Peter Atkins, *On Being: A scientist's exploration of the great questions of existence* (New York: Oxford University Press, 2011), p.17.

(٢) Abdus Salam, "Science and Religion: Reflections on Transcendence and Secularization," in *Cosmos, Bios, Theos*, eds. Henry Margenau and Roy Abraham Varghese, p. 99.

(٣) C. Smorra 'A parts-per-billion measurement of the antiproton magnetic moment', *Nature* 550, 371-374 (19 October 2017).

(٤) Johannes Gutenberg University Mainz, Riddle of matter remains unsolved: Proton and antiproton share fundamental properties, 19 October 2017.
<http://www.uni-mainz.de/presse/aktuell/3027_ENG_HTML.php>.

ت ـ «مَجَالُ الجاذبيّةِ» «gravitational field» ليس على الحقيقة «سالِبِيًّ» الطّاقةِ بصورةٍ ذاتيّةٍ جوهريّةٍ، ولذلك استعمَلَ (هاوكنج) عبارة «بمعنًى ما» «in a sense» للتعبيرِ عن سالبيّةِ طاقةِ الجاذبيّةِ. والصَّوابُ هو أنّ كونَنَا يتكوَّنُ من «طاقَتَيْنِ» بينهما تَضَادٌّ لا أنَّ كونَنَا «صِفْري الطّاقَةِ»، فَلَسْنَا هنا أمامَ أرقام رياضيّةٍ سالبةٍ وموجبةٍ بالمعنى الحرفيِّ للسّلبِ ونقيضِهِ. كما أنّ تضادَّ الطّاقَتَيْنِ لا يعني أنّهما أَثَرٌ عن انقسامٍ أوّل بحالٍ.

ث ـ الأَهَمُّ مما سبقَ هو أنّ القولَ: إنّ وُجودَ طاقَتَيْنِ مُتَقَابلتَيْنِ مُتَسَاويتَيْنِ دالٌّ على الأَصْلِ الصِّفْريِّ للكونِ ولزوم نُشوءِ الكونِ ـ بذلك ـ عن عَدَمٍ بلا سَبَبٍ، يقتضي أنَّ العَدَمَ قد انْفَجَرَ في بدايةِ الكونِ إلى طاقةٍ إيجابيّةٍ وأُخرى سالبيّةٍ. وذاك لَغْوٌ مَحْضٌ؛ **إذ العَدَمُ غيابُ كُلِّ شيءٍ، فكيف انْفَجَرَ اللّاشيء ليصبح شَيْئَيْنِ!** هذه مغالطةٌ مُتكرّرةٌ من الملاحدة تُعْرَفُ بمغالطة التَّشْيِيْءِ «Reification»، وهي إسباغُ صِفاتٍ وُجوديّةٍ ماديّةٍ على تَصَوُّرٍ ذِهْنيٍّ مُجَرَّدٍ.

٣ ـ دعوى إسقاطِ فيزياء الكَمِّ للسببيّةِ:

القراءةُ الشعبيّةُ الغامضةُ والمجملةُ لنتائجِ البحثِ العلميِّ سمةٌ مميّزةٌ للخِطابِ الإلحاديِّ الحديثِ. ولعَلَّ استعمالَ أقطابِ الإلحاد لفيزياء الكَمِّ في خطابهم الشّعبيِّ أَبْرَزُ مظاهِرِ هذه الظّاهرةِ.

ومن مظاهِرِ هذا الأمر الزَّعْمُ أنّ فيزياء الكَمِّ قد أَثْبَتَتْ أنّه من الممكِنِ أن يَصْدُرَ شيءٌ من لا شيءٍ؛ إذ تَظْهَرُ الجُسَيْماتُ في الفراغِ (vacuum) ثم تختفي دون سَبَبٍ؛ بما يُسْقِطُ الحَتْمِيَّةَ والسببيّةَ. فما جواب هذه الدَّعوى؟

أ ـ هل لفيزياء الكَمِّ قولٌ؟

فيزياءُ الكَمِّ علمٌ ناجِحٌ على المستوى الرّياضيِّ؛ بما يُفِيدُ في تطويرِ اختراعاتِنا، لكنّه أَدْنى من ذلك على المستوى التّفسيريّ لحقيقةِ الوجودِ؛ إذ تَتَنَازَعُهُ مدارسُ كثيرةٌ جدًّا يَصْعُبُ حَصْرُها؛ ولذلك يُعَدُّ القولُ: إنّ علمَ فيزياءِ الكمِّ قد قَرَّرَ أنّ عالَمَ الذَّرَّةِ أو ما تحتها لاحَتْمِيٌّ أو لاسَبَبيٌّ، ضَرْبًا من

الإجمال المخادِع؛ إذ إنّ الخلاف في هذا الباب معروفٌ ومشهورٌ، وغير محسومٍ لِغيابِ الآلَةِ التي تَحْسِمُهُ بسبب دِقّة عالَمِ الذَّرَّةِ وخَفَائِهِ.

ومن جميلِ توصيفِ الواقعِ التّفسيريِّ لعالَمِ الكَمِّ اليومَ في السَّاحةِ العلميّةِ بما لا يعرفه عَوَامُّ الملاحدة في الغربِ الذين يحسبون أنّ فيزياء الكم قد حَسَمَتْ أَمْرَهَا في قراءةِ الواقِعِ الماديِّ، قول (ألكسندر فلنكن): إنَّ ميكانيكا الكَمِّ قد حَقَّقَتْ نجاحاتٍ عمليّةً هائلةً، واستطاعَتْ أن تُفَسِّرَ بِنى الذَّرَّةِ والتّفاعلاتِ النّوويّةِ «لكنَّ أُصُولَ هذه النظريّة من المعروف أنّها غامِضةٌ، والسِّجالُ حول **تأويلها** ما يزال جَاريًا»[1].

وأَعْقَبَ ذلك بتأكيدِه أنّه «بما أنّ اختيارَ التّفسيرِ لا يُؤثّر على أيٍّ من نتائج النّظريّة أو توقُّعاتها؛ فإنّ **جُلَّ** الفيزيائيّين الممارسين للعملِ العِلميِّ يَتَّخِذُون **موقفًا لاأَدْرِيًّا من أُصول ميكانيكا الكَمِّ**، ويَصرِفُون القليلَ من وَقْتِهم في التَّساؤلِ عن مثل هذه المواضيع. وبعبارة عالِم الجسيماتِ إزيدور رابي: «ميكانيكا الكَمِّ ليست إلّا خوارزميّةً. اسْتَعْمِلْهَا. هي تَعْمَلُ، لا تَجْزَعْ». موقف «اخْرَسْ، وعُدَّ»[2] يعمَلُ بصورةٍ جيّدةٍ»[3].

إنّ اليقين في لاحَتْمِيَّةِ الكونِ لم يكنْ راسِخًا حتى عند كبارِ المنكرين للحتميّةِ مثل (بول ديراك) الذي قال في آخِرِ حياتِهِ: إنّه يبدو من الواضح أنّ ميكانيكا الكَمِّ اليومَ ليست على صورتها النّهائيّةِ، ومن المتوقّع بِجِدٍّ أن تعودَ ميكانيكا الكمّ إلى الصُّورة التي أرادها (أينشتاين) المخاصِمُ للاحتميّةِ[4].

وأمّا الذي فَضَحَ الخطاب العلميّ الإلحاديّ المزدوج، فهو الفيزيائيّ (لي سمولن)؛ إذ كَشَفَ أنّه «في حين يعترِفُ العديدُ من الفيزيائيّين البارزين بصورةٍ غيرِ مُعْلَنةٍ برِيْبَتِهِمْ حول ميكانيكا الكمّ، تُظْهِرُ مواقِفُهُم العامّةُ أَنَّ مشكلاتِ

---

(١) Alexander Vilenkin, *Many Worlds in One: The search for other universes*, p.115.

(٢) اخْرَسْ وَعُدَّ! Shut up and calculate!: شِعارٌ يُعَبِّرُ بِهِ عن جماعةٍ كبيرةٍ من الفيزيائيّين الذين يَرَوْنَ إهمالَ البحث في حقيقةِ عالَمِ الذَّرَّةِ وما تحتها، والاكتفاء بالحسابات الرياضيّة التي تُفِيدُ دارِسَ فيزياء الكَمِّ.

(٣) المصدر السابق.

(٤) P. A. M. Dirac, The Early Years of Relativity, in *Special Relativity and Quantum Theory: A Collection of Papers on the*, eds. M. Noz and Young Suh Kim (Springer Science & Business Media, 2012), p.23.

ميكانيكا الكمّ قد تَمَّ حَلُّها في عشرينيّات القرن العشرين»[1].

ومن الطّرائفِ في هذا الباب أنَّ أحدَ الحُضُورِ في مناظرةِ الفيلسوفِ الملحدِ ـ رئيس جمعيّة الفلاسفةِ الهيومنست[2] [الملاحدة من أنصار الأَنْسَنَةِ] في أمريكا ـ (جون شوك) والفيلسوف النّصرانيِّ (دوغ غريفت)[3] سأل الفيلسوفَ (غريفت) بِلُغةٍ ساخِرةٍ: أنا أَتَعَجَّبُ أنه يوجد إلى اليوم من يتحدَّثُ عن اللَّاحتميّةِ (والسببيّة) بعد كشوفِ فيزياء الكمّ، فذلك علامةٌ على غَرَارَةِ (immaturity) المتحدِّثِ (يقصد: النّصرانيَّ)!

فكان تعليقُ الفيلسوفِ الملحِدِ (جون شوك) بالموافَقَةِ على جواب (غريفت) على سؤال المعترِضِ في أنّ هناك جَدَلًا عِلْمِيًّا قائمًا في هذا الباب، والحَسْمُ في ذلك جُرْأَةٌ غير مُبرَّرةٍ!

ثمّ أجاب (شوك) نفسه بالقول: إنّ العِلمَ لم يَحْسِمْ أَمْرَهُ في هذا الموضوع، وعلينا انتظارُ الكُشوفِ العلميّةِ حتى نَقْطَعَ بأَحَدِ الوَجْهَيْنِ[4]!

وأَصْرَحُ من ذلك قولُ الفيزيائيّ الملحِدِ العَنِيدِ (شون كارول) في مناظرتِه الشهيرةِ للفيلسوفِ (ويليام لين كريج)، تعليقًا على التّفسير اللَّاحتميّ (وربّما اللَّاسببيّ) الذي يُروّجُ له تفسيرُ مدرسةِ كوبنهاجن ـ حامل لواء اللَّاحتميّةِ ـ: «أنا سعيدٌ لأنّنا وَجَدْنا منطقةً أُخرى مهمّةً جدًّا للاتّفاق بيني وبين الدكتور كريج. تفسيرُ كوبنهاجن **هُراءٌ** في الأساسِ. **لا يوجد إنسانٌ عاقِلٌ الآن يحمِلُ هذا الفِكْرَ**، ومع ذلك نحن نُدَرِّسُهُ لجميع طلَّابنا الجامعيّين، **وهذه فضيحةٌ. لا أَحَدَ يعرِفُ ما هو الجواب الصَّحيحُ**»[5].

---

(١) Lee Smolin, *The Trouble with Physics* (London: Penguin, 2008), p.323.

(٢) Society of Humanist Philosophers.

(٣) دوغ غريفت Doug Geivett(١٩٥٩ـ): فيلسوفٌ أمريكيٌّ. عضو الأكاديميّة الأمريكيّة للدّينِ. مساهِمٌ في الحوار الإيمانيّ ـ الإلحاديّ. له اهتمامٌ بفلسفة الدّينِ واللَّاهوتِ الفلسفيّ.

(٤) Does God Exist? Doug Geivett vs. John Shook.

المقطع (س١، دق ٣).

<https://www.youtube.com/watch?v=ynV2Zbp5iEw&t=6584s>.

(٥) المقطع: ١ ساعة، ٣٧ دقيقة، ٣٠ ثانية.

رابط الفيديو:

<https://www.youtube.com/watch?v=wqKObSeim2w>.

بل لقد صرّح (كراوس) هذه السنة في لقاء مصوّر، عندما سُئل: «هل يرى العلم الكون اليوم أنّه حتميّ؟»، بقوله: «نعم، في الأساس الكون حتميّ. تطوّر الدالّة الموجيّة التي تصف الكون حتميّ كذلك. التجارب والقياسات التي تجريها ستكون احتمالية، ولكن كما أقول: ميكانيكا الكم تضمّ ما يُدعى بالمعادلات التفاضلية من الصنف الثاني، والتي إذا قمت بوصف قيمتها الابتدائية، ما قد يأتي سيكون متوقعًا. القياسات التي تجريها ستكون احتمالية، ولكن كما أقول مرّة أخرى: يمكننا أن نجزم بماهية الاحتمالات لكلّ حساب إذا فهمنا الدالّة الموجيّة للنظام. إذن فالكون حتمي ببعض المقاييس، لكنّ الأمر معقد بمقاييسنا... نعم الكون حتمي بمقاييس أساسيّة»[1].

فالثقافةُ الشعبيّةُ التي يروّج لها (النت) غيرُ تلك التي يَعْلَمُها أئمّةُ الإلحاد أنفسُهم، والتي من الممكن تلخيصها في أنّ الزعم أنّ فيزياء الكمّ قد حَسَمَتْ أَمْرَ الحتميّةِ أو السببيّةِ ليس إلّا شعارًا أُمْنَوِيًّا لم يَقْطَعْ به العِلمُ.

ومن المهم أن يعرف القارئ أنّ من أهمّ نظريات الحتميّة في فيزياء الكم اليوم نظرية (دافيد بوم)[2]. وهي نظريةٌ تعرّضت للإهمال عمدًا حتى بداية الثمانينيّات من القرن الماضي بسبب السُّلطان التعسّفيّ لتفسير كوبنهاجن في عالم الأكاديميا، حتّى إنها كانت تُعَدُّ «هرطقةً علميّةً»، غير أنّها تكتسب مع الأيام أنصارًا جُدُدًا بين المتخصّصين[3].

إنّ مبدأ السببيّةِ **حقيقةٌ ميتافيزيقيّةٌ** تشهد لها كلُّ تجاربنا، ويشهد لها قبل ذلك أهمُّ قانونٍ عقليٍّ، وهو مبدأ عَدَمِ التَّناقُضِ.. والتّشكيك في هذا المبدأ الميتافيزيقيّ يحتاج إلى برهانٍ قاطعٍ واضحٍ، في وضوح الشَّمس، وليست

---

(١) لقاء (كراوس) مع مجموعة (الباحثون الجزائريون) بعنوان: «مقابلة «الباحثون الجزائريون» مع عالم الفلك والفيزياء النظرية البروفيسور لورنس كراوس».
<https://www.youtube.com/watch?v=78wR8nSIMVA>.

(٢) دافيد بوم David Bohm (١٩١٧ ـ ١٩٩٢م): أمريكيٌّ. من أعلام الفيزياء في القرن العشرين. له مساهماتٌ متميّزة في فيزياء الكمّ.

(٣) Anil Ananthaswamy, Quantum weirdness may hide an orderly reality after all.
<https://www.newscientist.com/article/2078251-quantum-weirdness-may-hide-an-orderly-reality-after-all/>.

دعوى اللّاحتميّة أو اللّاسببيّة في ذلك من شيءٍ (هذا إن جاز عَقْلًا الاستدلالُ بشيء ضدّ أهم مبدأ عقليٍّ!)، أو بعبارة الفيلسوف (ج. ب. مورلند): «يبدو أنّه من المعقول التمسُّكُ بقانون السَّبَبِ والأَثَرِ، الرَّاسخِ. من المؤكد أنّ عِبْءَ الإثبات يقع على أولئك الذين يُنكِرون هذا القانون»[١].

ب ـ فيزياء الكمّ وطُفُوليّةُ العقلِ البشريِّ:

هل نملك اليوم أهليّةَ معرفةِ حقيقةِ علائِقِ عالَم الذرَّةِ وما تحتها؟ سأترك هنا الجواب لأكبرِ علماء الفيزياء في القرن العشرين لِيُجِيبُونا[٢]:

- (مراي جل ـ مان)[٣]، الحائز على **نوبل** في الفيزياء: «ميكانيكا الكمِّ مُلْغِزةٌ، فرعٌ معرفيٌّ مُرْبِكٌ، لا يَفْهَمُهُ ـ في الحقيقة ـ أيٌّ منّا، لكنّنا نَعرِفُ كيف نستعمِلُهُ».

- (ريتشارد فاينمان)، الحائز على **نوبل** في الفيزياء أيضًا: «أستطيع القول ـ بثقةٍ ـ: إنّه لا يوجد أَحَدٌ يفهم ميكانيكا الكَمّ».

- (دافيد بوم): «ميكانيكا الكَمّ لا تُفسِّرُ شيئًا؛ هي فقط تعطي معادلاتٍ لبعض النّتائج.. ميكانيكا الكم عِلْمٌ للحساب يُمَكِّنُكَ من التَّنَبُّؤ بنتائِجَ إحصائيّةٍ، ولكنّها لا تملك تفسيراتٍ».

- (جون بل)[٤]: «لا أحد يعرف ما تقولُه فيزياءُ الكمِّ في أيّ وضعيّةٍ مخصوصةٍ».

وقد درس فيلسوفُ العلوم (سلفاتور كنافو)[٥] النّظريّات الكُموميّةَ، بما فيها النظريّات التي تُسْقِطُ الحتميّةَ أو السببيّةَ، وانتهى إلى القول: «التّاريخ

---

(١) Moreland, *Secular City*, p. 39.

(٢) الشهادات التالية عن:
Victor Vaguine, *Prologue to Super Quantum Mechanics* (Dallas, TX: ConsReality Press, 2012), p.19.

(٣) مراي جل ـ مان Murray Gell-Mann (١٩٢٩ـ): فيزيائيٌّ أمريكيٌّ. له مساهماتٌ علميّةٌ كبيرةٌ في نظريّةِ الجُسَيْماتِ الأَوَّلِيّةِ.

(٤) جون بل John Bell (١٩٢٨ ـ ١٩٩٠م): فيزيائيٌّ أيرلنديٌّ. له مساهماتٌ متميّزةٌ في التَّنْظير لقراءةٍ نسقيّةٍ لميكانيكا الكَمِّ.

(٥) سلفاتور كنافو Salvator Cannavo: أستاذٌ متقاعدٌ من تدريس الفلسفة في كليّةِ بروكلين.

الطّويلُ جدًّا للمحاولات الفاشلةِ لصياغةِ تأويلٍ مقبولٍ وعامٍّ، يُوحي بشدّةٍ أنّ برنامج التأويلِ هو بصورةٍ عظيمةٍ غيرُ عَمَليٍّ، هذا إن لم يكن عديمَ الجدوى تمامًا»[١].

الحقيقةُ الوجوديةُ لعالم الذرَّةِ وما تحتها هي ـ إذن ـ أَخْفَى وأَدَقُّ من أن تكون بَيّنَةَ الدّلالة لتنقُضَ مبدأ السببيّةِ الذي تشهد له كلُّ تجاربنا الأُخرى، والذي نزعم أنّه **مبدأٌ ميتافيزيقيٌّ مرتبِطٌ بحقيقة كونِ الشّيء شيئًا.**

ت ـ هل اختفى السَّبَبُ الضَّرُوريُّ؟

يقتضي القولُ: إنّ هناك جُسيماتٍ افتراضيّةً تَظْهَرُ بلا سَبَبٍ أَلَّا يكون ظُهورُ هذه الجسيماتِ مَشْرُوطًا بشيءٍ؛ فظُهُورُها ممكنٌ في كلّ حالٍ وحِينٍ. وهذا أمرٌ لا يَدَّعِيهِ أنصارُ التفسيرِ الكمّيِّ اللّاحتميِّ؛ إذ هم يَنْفُونَ الحاجة إلى الشّرط الضّروريِّ (Necessary Condition) لظهور الجُزَيْءِ، لكنّهم يُنْكِرون رَدَّهم للشَّرط الكافي (Sufficient Condition) لظهوره، وهو ما يعني إقرارَهُم بالحاجةِ إلى سببٍ ما لظهورِهِ[٢].

إنّ الجُسَيْمَ الذي يُقال: إنّه يَظْهَرُ ثم يتلاشى من العَدَمِ، لا يَظْهَرُ إلَّا في سياقٍ زمانيٍّ، وفي سياق مكانيٍّ، وضمن شروطٍ فيزيائيّةٍ معيّنةٍ لا يمكن أن يحدثَ في غيابها. فوجودُ أسبابٍ متمثّلةٍ في مكانٍ وزمانٍ وظروفٍ فيزيائيّةٍ مخصوصةٍ هي شروطٌ ضروريّةٌ لظهورِ الجسيمِ وإن لم يكن تَوَفُّرُ هذه الشروطِ ضمانةً لِظُهورِ الجسيمِ. ويلزم من ذلك أنّ القولَ: إنّ فيزياء الكمِّ أَثْبَتَتْ في

---

(١) Salvator Cannavo, *Quantum Theory: A Philosopher's Overview* (Albany, State University of New York Press, 2009), p.xii.

(٢) الشَّرْطُ الكافي هو الذي يَلْزَمُ مِنْ حُضُورِهِ حُدُوثُ الأَثَرِ، وإن لم يكن هو السَّبيلَ الوحيدَ لإحداثِ الأَثَرِ ذاتِهِ. مثال: الحُصُولُ على أعلى العلاماتِ كامِلَ السَّنَةِ الدِّراسيَّةِ شرطٌ كافٍ ليكون الطَّالِبُ الأَوَّلَ في الصَّفِّ، فَتَوَفُّرُ هذا الشَّرط يَلْزَمُ منه ضرورةً أن يكون الطَّالِبُ الأوّل، وإن كان من الممكن أن يكون الأَوَّلَ على الصَّفِّ حتى لو لم يكن الأَوَّلَ في كُلِّ الموادِّ المُمْتَحَنِ فيها.
الشَّرْطُ الضّروريُّ هو ما يجب توفُّره حتى يكون بالإمكانِ تحصيلُ الأَثَرِ، دون أن يلزمَ من وجودِهِ حُدُوثُ الأَثَرِ: حُضُورُ الطَّالِبِ الامتحانَ شَرْطٌ ضروريٌّ للنَّجاحِ، لكن لا يَلْزَمُ من حُضُورِ الطَّالِبِ نجاحه في الامتحانِ.

القراءة اللَّاحتميّة أنّه من الممكن أن يحدُثَ الشّيءُ دون سببٍ البتّةَ دعوى باطلةٌ.

وقد انتبه (ماكس بورن)[1] ـ أحد أكبر علماء الكمّ، وأحد أهمّ أنصار اللَّاحتميّةِ، وأحد الحاصلين على جائزة **نوبل** في فيزياء الكمّ ـ إلى ما يُرَوِّجُهُ النَّاسُ من إلغاء فيزياء الكمّ للسببيّةِ؛ فكتب كلامًا قويًّا في نقضِ هذه الدَّعْوى مُبيّنًا أنّ سقوطَ السببيّةِ؛ يعني: نهاية العِلم: «التّقريرُ الذي يتردّد كثيرًا في أنّ الفيزياءَ الحديثةَ قد تَخَلَّتْ عن السببيّةِ فاقدٌ بصورة تامّةٍ لأيّ أساسٍ. صحيحٌ أنّ الفيزياء الحديثةَ قد تَخَلَّتْ عن الكثيرِ من الأفكار التقليديّة أو عَدَّلَتْهَا، لكنّها **سَتَتَوَقَّفُ عن أن تكون عِلْمًا إذا تَخَلَّتْ عن البحث عن أسبابٍ للظَّواهِرِ** [الطَّبيعيّةِ]»[2].

إنّ فَهْمَ العالِم لِظُهورِ أيّ شيءٍ أو اختفائِه بعيدًا عن قانونِ السّببيّةِ؛ يعني: نهاية العِلْمِ؛ فالعِلْمُ مَدِينٌ لمبدأ السببيّةِ بالوجودِ، وليست فيزياءُ الكمّ استثناءً في هذا الباب.

ث ـ هل تَظْهَرُ الجُسَيْماتُ الافتراضيّةُ حقًّا؟

السُّؤال الذي يجب أن يُطْرَحَ في البدء هو: هل تَصِحُّ دعوى من يقول: إنّ هناك جُسيماتٍ تَظْهَرُ وتختفي (سواء بِسَبَبٍ أو بدون سَبَبٍ)؟

يُجِيْبُنَا بحثٌ علميٌّ تخصُّصيٌّ صدرَ حديثًا بجوابٍ صادِمٍ، وهو أنّ (كثيرًا من) الفيزيائيّين يعلمون أنّ هذه الجسيماتِ مجرّدُ افتراضٍ رياضيٍّ بَحْتٍ، وليس لها وجودٌ ابتداءً، وأنّ زَعْمَ ظُهورِ الجسيمات الافتراضيّةِ مَحْضُ وَهْمٍ.

يقول البحثُ: «الأداةُ الحسابيّةُ الممثّلةُ في مُخَطَّطاتِ فاينمان تقترح صورةً غالبًا ما يُساء فَهْمُهَا على أنّها «جُسيمات حقيقيّة تَتَفَاعَلُ من خلال تبادُلِ

---

(1) ماكس بورن Max Born (١٨٨٢ ـ ١٩٧٠م): عالِمُ رياضياتٍ وفيزيائيٌّ ألمانيٌّ. دَرَّسَ في جامعة كمبردج وغيرها.

(2) "The statement, frequently made, that modern physics has given up causality is entirely unfounded. Modern physics, it is true, has given up or modified many traditional ideas; but it would cease to be a science if it had given up the search for the causes of phenomena." Max Born, *The Natural Philosophy of Cause and Chance* (Oxford: 1949), p.4.

جُسيماتٍ افتراضيّةٍ». العديدُ من الفيزيائيّين، وخاصّةً غيرُ الخُبَرَاءِ منهم، يأخذون هذه الصُّورةَ حرفيًّا، كأنّها شيءٌ حقيقيٌّ يحصل في الطّبيعة بالفِعلِ. في الحقيقة أنا لم أرَ كتابًا من الكتب الخاصة بتقديم علم فيزياءِ الجسيماتِ للجماهير من غير المتخصّصين، إلَّا وقَدَّمَ هذه الصُّورة على أنّها شيءٌ حقيقيٌّ يحصل في الواقع. لذلك فإنّ صورةَ التّفاعلات الكموميّةِ التي تبدو فيها على أنّها عمليّةٌ يحصل فيها تَبَادُلٌ لِلجُسيماتِ الافتراضيّةِ هي واحدةٌ من أَسْوأ الخرافات ليس فقط في فيزياء الكَمِّ، وإنّما في الفيزياء كلّها. في الواقع هناك **إجماعٌ** بين الخبراء في أُسُسِ نظريّة المجال الكُموميّة على أنّ هذه الصُّورة ينبغي أَلَّا تُؤْخَذَ حَرْفِيًّا. المبادئُ الأساسيّةُ للفيزياء الكُموميّةِ لا تحتوي على مفهومِ الحال «الافتراضيّة». مفهومُ «الجسيماتِ الافتراضيّةِ» يَنْشَأُ فقط من اتّباعِ أُسلوبٍ رياضيٍّ مُعيّنٍ في الحساب»[1].

ج ـ هل ظهور الجُسيماتِ خَلْقٌ من عَدَمٍ؟

يذهب عددٌ من الفيزيائيّين إلى القول: إنّ الجسيماتِ الافتراضيةَ تَظْهَرُ حقيقةً ثم تختفي، ولكنّهم لا يَرَوْنَ أنّ ذلك خَلْقًا من عَدَمٍ، وإنّما هم يُفسّرون ذلك بأنّ هذا الجسيمَ مُتَحوّلٌ عن الطّاقة الموجودةِ في مَجَالِهِ؛ فهو يتحوَّلُ من طاقةٍ إلى مادّةٍ، ثمّ يعودُ فيتحوَّلُ من مادّةٍ إلى طاقةٍ. وليس في ذلك شيءٌ من الخَلْقِ من عَدَمٍ، وإنّما هو تحوُّلٌ من حالٍ إلى أُخرى.

ح ـ هل لِلعَدَمِ إرادةٌ واختيارٌ وذَوْقٌ؟

السُّؤال الذي علينا أن نسأَلَهُ جميعًا مع الفيلسوفِ الأمريكيِّ (دالس ويلارد)[2]: «إذا كنتَ تَسْمحُ أن يَنْشَأَ الكونُ الماديُّ كلُّه «من لا شيءٍ»؛ فلا يوجد أيُّ سَبَبٍ لئلّا تستَمِرَّ الأشياءُ الماديَّةُ والأَحْداثُ في النُّشُوءِ «من لا

(١) H. Nikoliæ, Quantum mechanics: Myths and facts. *Foundations of Physics*, 2007, 37 (11), 1563-1611.
(نَقَلَهُ وعَرَّبَهُ: أحمد إبراهيم، اختراقُ عقلٍ، الرياض: مركز دلائل، ١٤٣٧هـ، ص١١٧ ـ ١١٨).

(٢) دالس ويلارد Dallas Willard (١٩٣٥ ـ ٢٠١٣م): أستاذ الفلسفة في جامعة جنوب كاليفورنيا. له اهتمامٌ خاصٌّ بالإبستيمولوجيا وفلسفة العَقْلِ.

شيء». وإذا كان الكونُ كلُّه يمكن أن ينشأ من العَدَمِ؛ فمن المؤكّد عندها أنّ كُوبًا من الشَّايِ من الممكن أن يَنْشَأَ من لا شَيءٍ»[1].

بعبارة أخرى: إذا كانت السببيّةُ مجرَّدَ وَهْمٍ، وكان من الصَّوابِ الاعتقادُ أنّ الكون قد نَشَأَ بمادّتِهِ وطاقَتِهِ كلّها بلا سَبَبٍ، فلِمَ لا يختارُ العَدَمُ أيَّ شيءٍ آخَرَ ليوجَدَ بلا سَبَبٍ؟ هل لِلعَدَمِ اختيارٌ يُمَيِّزُ بِهِ بين محبوباتِهِ ويُفاضِلُ به بين مطلوباتِهِ؟! إذا كانت السببيّةُ مجرّد خديعةٍ ذهنيّةٍ لا وجود لها في الكونِ؛ فيلزم من ذلك أنّ أيَّ شيءٍ من الممكن أن يظهر فجأةً بلا شيءٍ؛ فيظهَرُ جَمَلٌ في غُرفةِ نَوْمِكَ، بلا سَبَبٍ، وتظهَرُ سَمَكَةٌ في قَهْوةِ الصَّبَاحِ، بلا سَبَبٍ، وتُفاجِئُكَ شِفاهٌ ضاحكةٌ على صفحةِ الكتاب وأنت تقرأُ هذه الكلمات، بلا سبب!

إنّ اللَّاسببيّةَ لا تختارُ ولا تشاءُ، وليس لها ذَوْقٌ؛ لأنَّ اللَّاسببيّةَ عَدَمٌ. والعَدَمُ لا يُميّز بين الأشياء لأنّ العَدَمَ محضُ الغِيابِ!

وقد كتبَ الكوسمولوجيُّ (دافيد دارلنج)[2] في بيانِ تدليسِ الخطاب العلميِّ عندما يتحوَّلُ إلى خطابٍ شعبيٍّ وُثُوقيٍّ، في مقالِه: «حول خَلْقِ شيءٍ من لا شَيءٍ»: «الأَمْرُ العظيمُ ـ أَعْظَمُ كلِّ الأُمورِ ـ هو كيف تُحصِّلُ شيئًا من لا شَيءٍ... لا تَدَعِ الكوسمولوجيّين يَسْتَخِفُّون بكَ في هذا الأمر؛ فليس لهم أدنى معرفةٍ بذلك رغم حقيقةِ أنّهم يجتهدون بِجِدٍّ لإقناعِ أنفسِهم والآخرين أنّ هذا الأمر ليس مُشكلةً... لا يمكنك أن تُخَادِعَ غيرَكَ هنا باستدعاء ميكانيكا الكَمّ. إمّا أنّه لم يكن هناك شيءٌ للبدءِ به، وهكذا لم يكن هناك فراغٌ كَمِّيٌّ، ولا ما قَبْلَ الغُبارِ الهندسيّ، ولا زَمَانٌ من الممكن أن يَحْدُثَ فيه أَيُّ شيءٍ، ولا قوانينُ فيزيائيّةٌ بإمكانها أَنْ تُغَيِّرَ اللَّاشيءَ إلى شيءٍ، أو كان هناك شيء»[3].

---

(١) Dallas Willard, *Knowing Christ Today: Why We Can Trust Spiritual Knowledge* (New York: HarperOne, 2009), p.103.

(٢) دافيد دارلنج David Darling (١٩٥٣ـ): كوسمولوجيٌّ إنجليزيٌّ له عددٌ من المؤلّفات العِلميّة، خاصّةً في تبسيط العُلوم. من مؤلّفاتِهِ: «The Universal Book of Astronomy».

(٣) David Darling, "On Creating Something From Nothing", *New Scientist* (volume 151, September 14,1996), p. 49.

المطلب الثالث

الاعتراض على دلالة البرهان على إلٰهِ المسلمين

عِلْمُ الملاحدةِ بِقُوَّةِ بُرهانِ الحُدُوثِ أَلْزَمَهُمْ أنْ يُتابِعُوا الاعتراضَ حتَّى آخِرِ مَدًى؛ لِيَمْنَعُوا المُؤَلِّهَةَ من تأكيدِ قُوّةِ حُجَّتِهِمْ لإثبات وجودِ اللهِ ـ سبحانه ـ. ولذلك أَصَرَّ بعضُهم أنَّ برهانَ الحدوثِ لا يَدُلُّ على وجودِ إلٰهِ المُؤَلِّهَة عامّةً، وإلٰهِ المسلمين خاصّةً.

١ ـ البرهانُ لا يَدُلُّ على وجودِ الإلٰهِ المُتَعَالي:

اعتراض: برهانُ الحُدُوثِ لا يَدُلُّ في خاتِمَتِهِ على وجودِ الله، وإنّما غايةُ أَمْرِهِ أنْ يَدُلَّ على وجودِ سَبَبٍ أَوَّل. والسَّبَبُ الأوّلُ من الممكن أن يكون شيئًا مجرَّدًا لا ذاتًا مُرِيْدةً. يقول (دانيال دينيت)[1] في سَبَبِ وُجودِ الكَوْنِ: «رُبَّما هو فِكْرةُ تُفّاحةٍ. ربمّا هو الجَذْرُ التَّربيعيُّ للسَّبْعةِ... هو ليس شيئًا لأنّ الأشياءَ المجرّدةَ لا يمكن أن تَتَسَبَّبَ في حصولِ شيءٍ. مَنْ قالَ ذلك؟ مثالِي الأَفضلُ لِشيءٍ مُجرّدٍ تَسَبَّبَ في حصولِ أَشْياءَ هو مبدأُ التَّثْلِيثِ؛ إذْ إنّك عندما تُريدُ حِفْظَ بَيْتِكَ من [التَّحرُّكِ]، تَضَعُ قطعةً مُثَلَّثَةَ الشَّكْلِ هناك وتُثَبِّتُهَا، وبِفَضْلِ الطّبيعةِ الهندسيّةِ لِلمُثَلَّثَاتِ بإمكانك أن تُنْشِئ بِناءً صُلْبًا»[2].

الجواب:

أَوَّلًا: لا يُقصد بكلّ برهانٍ على وجود اللهِ أنّه دالٌّ على جميع صِفاتِ الخالِقِ ـ إلَّا برهانُ إعجازِ القُرآنِ، فإنّ القرآنَ آيةٌ على النّبوّةِ والأُلوهيّةِ، وفيه خَبَرُ الذَّاتِ العَلِيَّةِ ـ؛ فالبرهانُ الذي لا يدلُّ على كلِّ مطلوبٍ لا يَنْتَفِي عنه وَصْفُ الدّلالة على بعض المطلوبِ.

وبرهانُ الحدوث دالٌّ على وجود ذاتٍ/ إلٰهٍ فوقَ الزّمان، بائنٍ عن خَلْقِهِ، قديرٍ وعليمٍ وحكيمٍ، قد تَفَرَّدَ بِفِعْلِ الخَلْقِ. وتلك الصّفاتُ من أعظمِ صِفاتِ الله

---

(١) دانيال دينيت Daniel Dennett (١٩٤٢ـ): فيلسوفٌ أمريكيٌّ. من أعلام ما يُعرف بـ«الإلحاد الجديد». له اهتمامٌ خاصٌّ بفلسفة العقل وفلسفة الدِّينِ.

(٢) <https://humblesmith.wordpress.com/2012/10/18/daniel-denett-on-william-lane-craig/>.

سبحانه في القرآن الكريم. والبرهان بذلك مُلْزِمٌ للملحدِ ويوافِقُ القرآن في ما جاء به في حدود هذا الخبر.

ثانيًا: ما ذكره (دينيت) دليلُ مبلغِ استخفافِ أنصارِ الإلحادِ الجديدِ بالعقلِ البشريِّ؛ إذ إنّهم يَتَحَرَّوْنَ الجِدِّيَّةَ والمنطقَ واستقامةَ التفكيرِ في عامّةِ أَمْرِهِمْ، لكنّهم يُشَكِّكُون في البدهيّاتِ وأَوْضَحِ الواضحاتِ إذا تَعَلَّقَ الأَمْرُ بإثباتِ وجودِ اللهِ!

إخراجُ الوجود من عَدَمٍ يقتضي إرادةً وقُدرةً على ترجيحِ وُجودِ الكونِ على عَدَمِهِ، ويقتضي أيضًا وُجودَ قُدرةٍ فائقةٍ تفوقُ إدراكَنا، ولا تملِكُ الأشياءُ المجرّدةُ فِعْلَ ذلك. والعجيبُ أنّ (دينيت) ليس أفلاطونيًّا ولا يؤمن بعالَمِ الـمُثُل؛ ولِذا فالأشياءُ المجرّدةُ عنده ليست إلَّا تجريداتٍ ذهنيّة ليس لها تحقّق ذاتي في أيّ وُجودٍ، فكيف يفعل العَدَمُ فِعْلًا في الوجودِ؟!

وهل مِثالُ الـمُثَلَّثِ الخَشَبِيِّ حُجّة معدودةٌ؟! الـمُثَلَّثُ الخشبيُّ ليس حقيقة مجرّدة، وإنّما هو شيءٌ ماديٌّ بلا مِرْيةٍ! فكيف تَجَرَّدَ عن شَيْئِيَّتِهِ الماديّةِ عند (دينيت)؟! وهل يملك الوصف الهندسي للمثلث أن يفعل شيئًا دون وجود الخشب ذاته؟!

٢ ـ خالِقُ الكونِ قد يكون شيئًا آخَرَ غير الإلٰهِ:

يُجادِلُ قِلّةٌ من الملاحدة في اقتضاء خَلْقِ الكونِ وجودَ إلٰهٍ، ويَرَوْنَ أنّ الخالِقَ من الممكنِ أن يكون أيَّ شيءٍ آخَرَ؛ فإنّ بُرهانَ الخَلْقِ لا يقتضي الإيمانَ بإلٰهٍ.

وقد طَرَحَ هذه الشُّبْهَةَ (لويس ولبفرت) في مناظرتِهِ مع (وليام لين كريج)، وكانت نهايةُ الشُّبْهةِ ظريفةً، ومُعبّرةً عن الجواب بوضوحٍ:

كريج: ما أنا بصددِ تقديمِهِ في هذه الحجّةِ الأُولى هو أنّ الكونَ له بدايةٌ وُجِدَ فيها.

ولبفرت: فماذا كان؟ وجود بدايةٍ لا يقتضي وجودَ إلٰهٍ.

كريج: بل يقتضي ذلك إذا صَحَّ أنّ كُلَّ ما له بداية له سَبَبٌ. يَلْزَمُ من ذلك منطقيًّا أنّ..

ولبفرت: لكن لا يلزمُ أن يكون السَّبَبُ هو الله.

كريج: جيّدٌ، تَذَكَّرْ أَنّني قَدَّمْتُ حُجّةً أنّ أيَّ سَبَبٍ لوجودِ الكونِ يجبُ أن يكون غير مُتَحَيِّزٍ، وغير مُتَزَمِّنٍ، وغيرَ ماديٍّ، وقويًّا بصورة عظيمة، وذاتًا.

ولبفرت: طيب، أنا أعتقد أنّ سببَ وجودِ الكون: كمبيوتر. (الحضور يضحكون).

كريج: لكنَّ الكمبيوترات مُصمَّمةٌ على أيدي بشرٍ.

ولبفرت: لكنّ هذا الكمبيوتر لا سَبَبَ لِظُهورِه، كمبيوترٌ مُصمَّمٌ تصميمًا ذاتيًّا!

كريج: حقًّا؟!

ولبفرت: نعم! ومُتعالٍ على الزَّمانِ. (الحضور يضحكون).

كريج: ذاك كلام مُتناقِضٌ.

ولبفرت: لماذا؟ أين التَّناقُضُ في ذلك؟

كريج: الكمبيوتر يحتاج أن يعمل، ويحتاج وقتًا.

ولبفرت: لكن لاحظ أنّ هذا كمبيوتر مُتَمَيِّزٌ جدًّا! (الحضور يضحكون).

كريج: طيب، لا بُدَّ أن تكون متناسقًا منطقيًّا.

ولبفرت: الأَمرُ متناسِقٌ منطقيًّا.

كريج: حقًّا!

ولبفرت: نعم، هذا كمبيوترٌ مُذهِلٌ!

كريج: وهو أيضًا كامِلٌ في قُدْرَتِهِ؟

ولبفرت: نعم!

كريج: مُتَعَالٍ على المكان[1]، وغيرُ ماديٍّ؟

---

(١) يسألُ بعضُهم: أينَ كان اللهُ قبل الخَلْقِ (أي: هل كان يحتويه شيءٌ؟)؟ وجوابُه: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ**» (كما في الحديثِ النّبويِّ)، ولا يبلغُ العَقْلُ أن يُعارِضَ ما جاء في الحديث؛ لأنّه مُقتضى =

ولبفرت: نعم، نعم! (الحضور يضحكون).

كريج: الآن فَهِمْت ما فعلتَهُ. ما تُسمّيهِ «كمبيوتر» هو في الحقيقةِ . . الله! شيءٌ غيرُ فيزيائيٍّ، مُتَعالٍ على المكان، غيرُ مُتَزَمِّنٍ، كامِلُ القُدْرَةِ. (الجمهور يَتَوَقَّفُ عن الضَّحِكِ ويُظْهِرُ إعجابَهُ بِالرَّدِّ).

كريج: انْظُرْ. . كلمة «كمبيوتر» تَفْقِدُ كُلَّ مَعْنَاها إذا سَلَبْتَهَا كُلَّ خَصَائِصِها التي تجعلُ الشَّيْءَ جهاز كمبيوتر وأَسْبَغْتَ عليها كُلَّ الصّفاتِ التي للهِ[1]!

٣ ـ القوانينُ قادرةٌ على خَلْقِ الكَوْنِ:

زَعَمَ (هاوكنج) في كتابِه «التّصميم العظيم» أنّه بإمكاننا الاستغناءُ عن الإيمانِ بالإلٰهِ الخالقِ إذا آمَنَّا أنّ القوانين الكونيّةَ قادرةٌ على إيجاد الكون من عَدَم. فقد قال في كتابه: «التصميم العظيم»: «لأنه يوجدُ قانونٌ كالجاذبيّةِ، فبإمكان الكونِ أن يَخْلُقَ ـ وسَيَخْلُقُ ـ نفسَهُ من عَدَمٍ»[2].

الجواب: لعلَّنا نَقْتَصِرُ في الردِّ على هذه الدّعوى الغريبةِ بكلام أحدِ مُتَطَرّفي الإلحادِ الجديد؛ إذ قال (بيتر أتكنز): «لا توجد قوانينُ في كَوْنٍ لم يُوجَدْ بَعْدُ؛ لأَنَّ القوانينَ تَظْهَرُ للوجودِ على أنّها السُّلوكُ الذي يَظْهَرُ مع نُشوءِ الوُجودِ»[3].

القوانينُ الكونيَّةُ هي ـ إذن ـ **مُجَرَّدُ وَصْفٍ لِعَمَلِ مادَّةِ الكَوْنِ**، وفي غيابِ مادّةِ الكونِ لا وجود للقوانينِ لأَنَّ القوانينَ لا توجد في العَدَمِ.

ثم إنَّ وجودَ الجاذبيّةِ نفسِها لا بُدَّ أن يكون مَحَلَّ سُؤالٍ؛ لأنّ الجاذبيّةَ مُـمْكِنٌ من الـمُمْكِناتِ، فما الذي رَجَّحَ وُجودَها على عَدَمِها؟!

= البراهينِ العقليّةِ الواردةِ في هذا الفصل، ولا يملِكُ أن يزيدَهُ بيانًا؛ لأنّ العقلَ لا يملك أن يبلغَ إلى ما وراء المخلوقاتِ، ولا يملِكُ أن يَتَصَوَّرَ ذلك؛ لأنّه محكومٌ بتصوّرِ ما يحتويه المكانُ؛ والله لا تحتويه مخلوقاتُه، في علو، مستو على عرشه بما يليق به.

(١) Lewis Wolpert vs William Lane Craig, Is God a Delusion?, February 28th 2007, Central Hall, Westminster. <https://www.youtube.com/watch?v=n2wh179kos0>

(٢) Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, The Grand Design, p.180.

(٣) Peter Atkins, *On Being: A scientist's exploration of the great questions of existence* (OUP Oxford, 2011), p.12.

ولَعَلَّ فَهْمَ فسادِ هذا التَّفكير يحتاجُ أنْ نَعْرِضَ كلماتِ (ألكسندر فلنكن). فقد سَأَلَهُ مُحاوِرُهُ[1] في البرنامج الشَّهير (Closer to Truth)[2] بعد أَنْ تَحَدَّثَ (فلنكن) عن نَشْأَةِ الكَوْنِ من الفراغ (vacuum) ـ وهذا الفراغُ ليس عَدَمًا (فهو مجالٌ يتضمَّنُ مستوًى مُنْخَفِضًا من الطَّاقة) ـ ضمن قوانينِ ميكانيكا الكَمِّ ونِسبيّةِ (أَيْنِشتاين): «إنَّهُ (الخَلْقُ من الفراغ الكُموميّ) ليس شيئًا مِنْ لا شيءٍ؛ لأَنَّكَ تَبْدَأُ هنا مع قوانين فيزياء الكَمِّ وقانونِ النّسبيّةِ العامّةِ. توجد كثيرٌ من الأشياءِ هناك. هناك الفراغُ الذي تَحَدَّثْتُ عنه، وهو يَنْبِضُ بالطَّاقةِ والتَّقَلُّبِ والضَّغْطِ، وجميعِ أنواع الأشياء. أَعْني: أَنّهَ يوجد كثير من الأشياء هناك!».

وكان رَدُّ (فلنكن): «هذا صحيحٌ، لكنَّني لم أَبْدَأ بالفراغِ. الفراغُ هو ما يَنْتُجُ عَمَّا [أبدأُ به]. ما أَبْدَأُ بهِ في الحقيقةِ هو قوانينُ الفيزياءِ؛ أَي: النسبيَّةُ العامَّةُ وميكانيكا الكَمِّ. وبالطَّبْعِ يُفْتَرَضُ أَنَّ هذه القوانين موجودةٌ بمعنًى أَفْلاطُونيٍّ ما حتى قَبْلَ الكَوْنِ، على الرغم من أَنَّ عبارة «قَبْل» يَجِبُ أنْ تُوضَعَ بين علامتي تَنْصِيصٍ؛ لأَنَّهُ لا يوجد زمانٌ. والسُّؤال بالطَّبْعِ هو سؤالٌ مُحَيِّرٌ للغايةِ: لماذا هذه القوانينُ؟ مَن الذي أَعْطى الوجودَ هذه القوانين؟ إِنَّهُ لُغْزٌ عَمِيقٌ وليس لَدَيَّ الكثيرُ لأَقُولَهُ عن ذلك، وإنْ كُنْتُ أَوَدُّ لو أَمْلِكُ أَنْ أَفْعَلَ»[3].

ما معنى كلام (فلنكن)؟

إنّه يقول لنا: إنّ الوجودَ الماديَّ بأكملِهِ (المكان، والزّمان، والمادّة، والطّاقة، والفراغ) قد ظهرَ إلى الوُجودِ بِفِعْلِ قوانينِ الفيزياء..

ولكن كيف توجد قوانينُ في غيابِ الوجودِ المادّيِّ؟

---

(١) سُجِّلَ الحوار سنة ٢٠١٤م (كما أَخْبرني بذلك مُذيعُ البرنامج في مُراسلةٍ إلكترونيّة معه). فهو بذلك أَحْدَثُ تعبيرٍ لـ(فلنكن) عن تَصَوُّرِهِ الكَوْنيّ.

(٢) هو برنامجٌ بَدَأَ عَرْضُه على شبكة (PBS) الأمريكيّة منذ سنة ٢٠٠٠م، ويُقدّمه الكاتب والمذيع الشّهير (روبرت كون) (Robert Kuhn). ويهتمُّ بعقد لقاءاتٍ مع كبار علماء الطَّبيعة، والفلاسفة، واللَّاهوتيّين. الموقع الإلكتروني للبرنامج: <www.closertotruth.com>.

(٣) <https://www.youtube.com/watch?v=PSESZR3wC8s>.
من الدَّقيقة ٤ الثَّانية ٥٢ إلى آخر الشَّريط.

يُجِيْبُنَا (فلنكن) أنّ هذه القوانين كانت في عالَم مُشابِهٍ لما سَمَّاهُ (أفلاطون) بـ«عالَم المُثُلِ». وعالَمُ المُثُلِ عند (أفلاطون) هو عالَمُ المُجَرَّدات، وهو غيرُ عالَمِ المادّةِ وعالَمِ الحِسِّ، هو عالَمُ الكُلِّيَّاتِ لا العَيْنِيَّاتِ. فقوانينُ الكونِ عند (فلنكن) كانت في وجودٍ غَيْبِيٍّ غيرِ حِسِّيٍّ! ولا يشهَدُ العِلمُ الماديُّ ولا الحِسُّ لعالَمِ المُثُل المزعوم!

وقد تسأل: لمَ الْتَجأَ (فلنكن) إلى هذا الكلامِ الفاسِدِ البارِدِ؟!

والجَوَابُ: هو أنّ الرجل ماديٌّ لاأَدْرِيٌّ يخشى كلَّ الخشيةِ أن يُقِرَّ بالبَدَهِيِّ من القَوْلِ، وهو أَنَّ الوجودَ بمادّتِهِ وطاقتِهِ وقوانينِهِ أثرٌ عن إرادةِ ذاتٍ عَلِيَّةٍ غيرِ ماديّةٍ قديرةٍ. وقد أَدَّتْهُ حماسَتُهُ الماديّةُ إلى أن يَصِفَ القولَ بوجودِ اللهِ لتفسيرِ ظهورِ الكونِ من عَدَمٍ بأنّه تفسيرٌ «تبسيطيٌّ للغايةِ» «far too simplistic»؛ إذ إنّ جوابَ الأُلُوهِيِّين ـ كما يقول ـ لا يجيبُ عن سؤالِ: أين كان اللهُ قبلَ الزَّمانِ؟ وسؤالِ: كيف يكونُ الخَلْقُ من غيرِ مادّةٍ أُوْلى[1]. والعَجَبُ هنا هو أنّ (فلنكن) يُؤْمِنُ أنَّ القوانينَ توجد «قبل الزَّمانِ»، وأنَّ خَلْقَ القوانينِ لِلكَوْنِ كان من العَدَمِ! فَبِمَ تَفْضُلُ القوانينُ مفهومَ الخالِقِ؟!

ورغم تهافُتِ ما قاله (فلنكن) إلّا أَنَّهُ يُحْمَدُ له حَيَاؤُهُ ـ الذي يفتقِدُهُ رُؤُوسُ الإلحادِ الجديد ـ؛ إذ اعْتَرَفَ أنّه لم يُجِبْ عن أَصْلِ السُّؤال في كلامِهِ، وهو: من أين جاءت القوانينُ؟ ولمَ ظَهَرَتْ؟ وهو أَصْلُ السُّؤالِ الفلسفيِّ الدّينيِّ، مُقِرًّا أنَّ العِلمَ عاجِزٌ أن يبلغ هذا الجوابَ بِيَدٍ.

وأخيرًا، أرجو أَلَّا تندهِشَ لِلفَقْرِ الفلسفيِّ لكبارِ الكوسمولوجيّين، فقد صَدَّقَ فيهم (أينشتاين) قولَه: «عالِمُ الطَّبيعةِ، فيلسوفٌ بائِسٌ» «The man of science is a poor philosopher»[2]. وهو ما شهد به (مايكل روس) لصاحبِهِ (داوكنز)؛ إذ قال: «أَعتقِدُ أنَّ داوكنز جاهِلٌ بكلّ ما يتعلَّقُ بالفلسفة واللّاهوت»[3].

---

(١) Alexander Vilenkin, *Many Worlds in One: The search for other universes*, p.177.

(٢) Albert Einstein, "Physics And Reality", tr. Jean Piccard, in *Journal of the Franklin Institute*, vol. 221, p.349.

(٣) Michael Ruse in Tristan Abbey, 'The Impact of Darwinism', *The Stanford Review*, Volume XL, Issue 7, <www.stanfordreview.org/Archive/Volume_XL/sue_7/Features/features2.shtml>

خلاصة النَّظَرِ:

• الزَّمانُ مَظْهَرُ تَتَالي أَحداثِ الكَوْنِ. والعَقْلُ يمنع وجودَ عَدَدٍ من الأحداث لامُتَنَاهٍ؛ وعليه فالزَّمانُ له بدايةٌ؛ لأَنَّهُ أَثَرٌ عن شيءٍ محدودٍ، وهو عددُ الأحداثِ في الوجودِ.

• كُلُّ معارِفِنا العلميَّةِ المتاحة تَدُلُّ أَنَّ كَوْنَنَا ناشِئٌ بعد عَدَمٍ.

• الإجماعُ حاصِلٌ بين علماءِ الكوسمولوجيا الملحِدين أَنَّ لكوننا بدايةً.

• الأَدِلَّةُ على أَنَّ لكوننا بدايةً مُتعدِّدةٌ ومُتنوِّعةٌ؛ ولذلك لا رجاءَ للمخالفين أَنْ يكشِفَ العِلْمُ عَكْسَها؛ لأَنَّها لا تتعلَّقُ ببرهانٍ واحدٍ يحتملُ التَّشكيكَ والزَّعْزَعَةَ.

• لا يوجد دليلٌ واحِدٌ مستقِلٌّ بنفسِه يدلُّ بصورةٍ مُحْكَمةٍ على وجود أكوانٍ قبل كَوْنِنا؛ ولِذا فالوقوفُ عند الدَّليلِ المادّيِّ المتاح يُلْزِمُنا أَنَّهُ لا كَوْنَ قبل كَوْنِنا.

• البراهينُ العلميَّةُ دالَّةٌ اليوم أَنَّهُ حتّى لو صَحَّ وُجودُ أَكْوانٍ قبل أَكْوانِنا فلا بُدَّ أَنَّ لها بدايةً كما هو اعترافُ عددٍ من كبار علماءِ الكوسمولوجيا اللّاأَدْرِيِّين الذين يملكونَ حماسةً عقديّةً لإثبات أَزَلِيَّةِ الكَوْنِ.

• من شروط صحة الإلحادُ أَنْ يكون الكونُ الماديُّ أَزَليًا، ولا يملِكُ عالمٌ من علماء الكوسمولوجيا الملاحدةِ اليومَ الجَزْمَ بذلك.

• البرهانُ العقليُّ يدلُّ يقينًا أَنَّ كَوْنَنَا مخلوقٌ، وهو العُمْدةُ في نَفْيِ أَزَلِيَّةِ كُلِّ وجودٍ ماديٍّ، والبرهانُ العلميُّ يقف اليوم في صَفِّ النَّافين لأزليّةِ الكونِ رغم تَوَسُّعِ بعضِ علماء الكوسمولوجيا في تقديمِ نماذجَ مخالِفةٍ لا برهانَ عليها. والبرهانُ العلميُّ تكميليٌّ وليس هو الأَصْلُ في الاستدلالِ.

• الاستغناءُ عن قانون السببيَّةِ استغناءٌ عن العَقْلِ في مقامٍ يقتضي الإيمانَ بالعقلِ.

• يَلْزَمُ من بدايةٍ للكونِ وُجودُ مَنْ أَبْدَأَهُ مِنْ خارجِهِ.

مراجع للتوسُّع:

مصطفى صبري، موقف العَقْلِ والعِلْم والعالم من ربِّ العالمين وعبادهِ المرسلين، دار إحياء الكتاب العربي، ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥٠م.

William Lane Craig, *The Kalâm Cosmological Argument*, London: MacMillan, 1979.

Robert Jastrow, *God and the Astronomers*, New York: Warner Books, 1980.

Hugh Ross, *The Creator and the Cosmos: How the greatest scientific discoveries of the century reveal God*, Colorado Springs, Colo.: NavPress, 2001.

Norman L. Geisler and Frank Turek, *I Don't Have Enough Faith to Be an Atheist*, Wheaton, Ill.: Crossway Books, 2007.

الباب الرابع

آيات الله في نظم الكون

- ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٦، ٧].

- «كُلَّما قُمْتُ بِفَحْصِ الكَوْنِ ودراسةِ تفاصِيلِ بِنْيَتِهِ، وَجَدْتُ أدلّةً أَعْظَمَ أنّ الكونَ كان ـ بمعنًى ما ـ يعلَمُ أنّنا قادِمُون»(١).

الفيزيائيّ (فريمان دايسون)(٢)

(١) Freeman Dyson, *Disturbing the Universe* (New York: Basic Books, 1979), p.250.

(٢) فريمان دايسون Freeman Dyson (١٩٢٣ـ): عالِمُ فيزياء ورياضيات أمريكيّ شهير.

تمهيد

يَنْظُرُ اللَّاهوتيُّون وعلماءُ الطّبيعةِ إلى دلالة تركيبِ الكونِ على أصلِهِ من زاويتَيْنِ تنتهيان إلى إثباتِ وجود الذّات الحكيمةِ القديرة التي صَوَّرَت الوجودَ الماديَّ على ما هو عليه. .

الزّاوية الأُولى: هي طبيعةُ تركيبِ الكونِ وتعقيدُه، ويُسمِّي أصحابُ هذه الوجهة هذا البرهانَ ببرهانِ النَّظْمِ، أو «برهان التَّصْمِيم» «argument from design» كما في الأدبيَّاتِ الغربيّةِ؛ فإنّ الكونَ قد صِيْغَ على صُورٍ تجمعُ بين التّعقيدِ والوظيفيّةِ.

والزّاوية الثّانية: هي النَّظَرُ إلى مآلاتِ الطّبائعِ الماديّةِ للموجوداتِ؛ إذ إنّ النَّظَرَ في ائتلافها مجموعةً، وفي ائتلاف الأَجزاءِ الصُّغْرى لها ضمن أَجزاءٍ أكبرَ؛ يقودُ إلى العِلمِ أنّها وُجِدَتْ لغايةٍ، وتسيرُ إليها، ولذلك يُسمّي أَصحابُ هذه الرُّؤيةِ هذا البرهانَ بالبُرهانِ الغَائِيِّ «Teleological argument» كما عند (توما الأكويني)، أو (بُرهانِ العِنايةِ) كما عند (ابن رشد) قبلَهُ، وهو يقوم ـ عند (ابن رشد) ـ على أَصْلَيْنِ: موافقةِ جميعِ أجزاءِ العالَمِ لوجود الإنسان، وأنّ ما كان مُسَدَّدًا نحو غايةٍ واحدةٍ، فهو مصنوعٌ لِحِكْمةٍ ضرورةً[1].

والسَّائدُ في أدبيّاتِ الـمُؤَلِّـهَةِ ـ تاريخيًّا ـ الحديثُ عن جميعِ أوجُهِ برهانِ النَّظم في سياقٍ واحدٍ؛ بالقولِ: إنّ تركيبَ الوجودِ في السَّماءِ والأرضِ دالٌّ

---

(١) ابن رشد، الكَشْفُ عن مناهجِ الأدلّةِ في عقائد الملّة، تحقيق: محمّد عابد الجابريّ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨م)، ص١٦٣.

على الإتقانِ والغائيّةِ؛ ويلزم من ذلك ضرورةً القولُ بوجودِ الله، أو وُجودِ مَنْ يَتَّصِفُ بصفاتٍ لا تليق إلَّا باللهِ.. غير أنّه مع ظهورِ المذهب الدَّاروينيِّ القائم على التّفسير الآليِّ العشوائيِّ لمنظومةِ الحياة، انْتَبَهَ أنصارُ هذا البرهانِ إلى وجوب التّفصيلِ في مقاماتٍ يكون فيها الإجمالُ مَصْدرًا لدخولِ الشُّبْهةِ؛ فَفَصَلُوا برهانَ النّظم في عالَم الأحياءِ ـ وهو الوَجْهُ الذي تَعَرَّضَ الدَّراونةُ لمحاولة نَقْضِهِ ـ عن بقيَّةِ أَوْجُهِ بُرهان النَّظْم، وقد أَحْسَنُوا بذلك؛ غير أنَّ بعضَهُمْ ـ في الغربِ ـ شَطَّ، فَتَرَكَ برهانَ التَّصميمِ في عالَمِ الأَحياءِ بالكليّةِ، وانْتَصَرَ ـ فقط ـ لبقيّةِ أوجهِ هذا البرهان أو بعضِها...

والإنصافُ والحِكْمةُ يقتَضِيانِ من طالبِ الحقّ أَلَّا يَقَعَ ضحيَّةَ الإرهابِ النَّفْسيِّ الذي يُمارِسُهُ غُلاةُ المادّيّين على بُرهانِنَا هذا؛ فالواجبُ عَرْضُ مُؤَيِّداتِ جميعِ أَوْجُهِ بُرهان النَّظْمِ، والردُّ على المعارضاتِ، دون الوقوعِ في آفاتِ التَّدْلِيسِ والتَّعْمِيمِ والرُّكُونِ إلى المؤيّدات الـمَعِيْبَةِ..

وللوفاء لحديثنا بحقّ البَسْطِ والإنصاف فستتناول ثلاثةَ أَوْجُهٍ كُبْرى لبرهان النَّظْمِ:

الوجه الأَوّل: دلائِلُ النَّظْمِ الحَكِيمِ في الفيزياء؛ بدراسةِ أَوْجُهِ الضَّبْطِ الدّقيقِ للظُّروفِ الفيزيائيّةِ الدّقيقةِ التي آلَتْ إلى ظهور الحياةِ، أو التي تليق بأيِّ وَجْهٍ من أَوْجُهُ الحياةِ.

الوجه الثّاني: دلائِلُ النَّظْمِ الحَكِيمِ في البيولوجيا، والمتعلّقة بجانبِ تعقيدِ العالَمِ الأَحْيائيّ وغائِيَّتِهِ. وبَحْثُ ذلك يقتضي الرَّدَّ على المعارضاتِ، وعَرْضَ المؤيّداتِ وتدعِيْمها. وهو بابٌ واسِعٌ جدًّا لكثرةِ أَدِلَّتِهِ وتَنَوُّعِهَا من جهةٍ، وشيوعِ معارضاتِهِ في كُتُبِ الملاحدةِ من جهةٍ أُخرى.. ورغم أنّ البحث في هذا الموضوع في كتابنا هذا قد استغرقَ صفحات كثيرةً؛ إلّا أنّنا ـ على الحقيقة ـ قد اختصَرْنَاهُ إلى أدنى حَدٍّ تقوم به الحُجَّةُ.

الوجه الثَّالث: دلالةُ الجَمَالِ ـ حيث تتآلَفُ الفيزياءُ مع البيولوجيا ـ على وجودِ اللهِ، وهو موضوعٌ شائِقٌ، وإن أَغْفَلَتْهُ عامّةُ البُحُوثِ الـمُعْتَنِيَة بدلالةِ الخَلْقِ على الخالِقِ..

الفصل الأول

برهانُ الضَّبْطِ الدَّقِيقِ

- ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢]

- «هل وقعنا فَجْأَةً، ودُونَ قَصْدٍ، على الحُجَّةِ العِلميّةِ لوجودِ الكائنِ الأَسْمى؟»[(١)].

عالِمُ الفَلَكِ (جورج غرينشتاين)

بين خيارين: ضبط دقيق أم صُدَف سعيدة؟

الكونُ مجموعُ مادّةٍ وطاقةٍ بِنَسَبٍ محدُودةٍ ومضبُوطةٍ، تَحْكُمُهُ قوانينُ متنوّعةٌ ومُتعاضِدةٌ منذ اللَّحظةِ الأُولى للانفجارِ الأَوَّلِ. والنَّظَرُ في هذا البنيانِ وتفسيرُه سببٌ للاصطراع الفِكريّ بين الـمُؤَلِّـهَةِ والملاحدةِ.

يقول المؤمِنُ باللهِ:

الوجودُ الحيُّ والنّظامُ المتكامِلُ يقتضيان تَوَفُّرَ منظومةِ قوانينَ وثوابتَ كونيّةٍ دقيقةٍ جدًّا ومتناغمةٍ في تَشَابُكِهَا المعقَّدِ لتقودَ إلى أَمْرَيْنِ عجِيْبَيْنِ: نشأةِ الحياةِ، واستمرارِها. واليومَ يُقَرِّرُ المؤمنون بخالِقٍ - بصورةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَبْلُ - أنَّ العِلْمَ يَنْصُرُهُمْ بشِدَّةٍ في أنّ الكون قد صِيغَ مادّةً وقوانينَ على صورةٍ بالغةِ الدِّقَّةِ لِتَظْهَرَ الحياةُ.

ويَضَعُ المؤلِّهُ حُجَّتَهُ على الصُّورة التّالية:

١ ـ إذا كان الكونُ قد خَلَقَهُ إِلٰهٌ، وكان هذا الإِلٰهُ يريد أن يَبُثَّ من خلالِ الكونِ ما يَدُلُّ على وجودِهِ؛ فالمتوقَّعُ وُجودُ:

(١) Greenstein, *The Symbiotic Universe* (New York: William Morrow, 1988), p.27.

- كَوْنٍ مُنَظَّمٍ.

- تنظيمُ الكونِ قائمٌ على صورةٍ دقيقةٍ ومتعالِقةِ الأَفْرادِ تَسْتَفِزُّ الذِّهْنَ.

- يقودُ هذا النّظام المعقَّدُ إلى ظُهورِ الحياةِ.

- نظامُ الكونِ وأشياؤُه مُقدّرةٌ بطريقةٍ خاصّةٍ لا تسمَحُ لاحتمالِ الصُّدْفةِ أن يكتَسِبَ شرعيّةً عقليّةً أو عِلْمِيّةً.

٢ ـ إذا كان الكَوْنُ بلا خالِقٍ أو مُصوّرٍ («مُصَمِّمٍ» كما في الأدبيّات الغربيّة)؛ فالمتوقَّعُ وجودُ:

- كَوْن عشوائي

- كونٍ مُسْتَقِرٌّ في عشوائيَّتِهِ لأنه أَزِليٌّ، أو مُتزايِدٌ في عشوائيَّتِهِ بسبب قانونِ الأنتروبيا الذي يسيرُ به إلى مزيدٍ من الفوضى.

- لا مجال لتصوُّرِ الهدفيّةِ في مقاديرِ الأشياءِ أو قوانينِها. والتَّسامحُ في ذلك يجب أَلَّا يخرجَ عن الاستثناءِ.

بعبارةٍ أُخرى: وجودُ كَوْنٍ مُتْقَنِ العَنَاصِرِ بِدقّةٍ بالغةٍ حتى تُوجَدَ الحياةُ، أَمْرٌ له ما يُفَسِّرهُ في كونٍ صَنَعَهُ خالِقٌ، ولا يَجِدُ العقل له معنى ولا سياق في كونٍ دَهْريٍّ يُحَرِّكُهُ كَرُّ الأيامِ العابثةِ.

يقول المنكِرُ لوجود الله: هذا البِناءُ الكونيُّ أَثَرٌ لِلعَشْوَائِيَّةِ الـمَحْظُوظَةِ، وكَفَى!

صياغة البرهانِ

بدأ بُرهانُ الضّبطِ الدّقيقِ في الظُّهورِ بوضوحٍ في المكتبة الغربيّةِ منذ ستينيّات القرن الماضي. وقد تَشَكَّلَ مع تطوُّرِ علمِ الكوسمولوجيا والفيزياء في كَشْفِهِما الشُّروطَ الضّروريةَ لِنَشْأَةِ الحياة وبقائِها في الكَوْنِ. وهو برهانٌ بَيِّنٌ في كتاب الله منذ قُرونٍ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢]. قال (الطبري): «فَسَوَّى كُلَّ ما خَلَقَ وهَيَّأَهُ لـما يَصْلُحُ له، فلا خَلَلَ فيه ولا

تَفَاوُتَ»[1]؛ فالحياةُ قائمةٌ على مبدأيْ التَّسْخِير ـ كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣] ـ والتَّقدير؛ فالتَّسخيرُ توجيهُ الوجودِ المادّيِّ إلى وجهةِ خِدْمةِ بقاءِ الحياةِ، والتّقديرُ ضَبْطُ الموازينِ لذلك.

والبرهان قديمٌ في التّراث الإسلاميّ، ولعلَّ أَشْهَرَ من دافَعَ عنه (ابنُ رشد) الحفيد في الدّليلِ الذي سمّاهُ بـ«دليل العِنايةِ». ومختصَرُهُ: أَنَّ العالَمَ بجميعِ أجزائِهِ موافِقٌ في خَلْقِهِ وتَرْكِيْبَتِهِ لوجودِ الإنسانِ، وكلُّ ما يوجد مُوافِقًا في جميعِ أجزائه لِفِعْلٍ واحِدٍ، ويكون مُسَدَّدًا نحو غايةٍ واحدةٍ؛ فهو أَثَرٌ عن إرادةٍ وحِكْمةٍ[2]. بُرهانُ الضَّبْط الدّقيقِ المعاصِرُ يَضُمُّ صيغةَ (ابن رشدٍ)، غير أَنَّهُ أَدَقُّ من جهةِ دِقَّةِ الضَّبْطِ في ضَوْءِ علمِ الاحتمالات، وأَوْسَعُ من جهةِ أنه مَعْنِيٌّ بوجودِ كُلِّ صُورةٍ للحياة ممكنة، لا فقط حياة الإنسانِ.

من أَهَمِّ خصائص هذا البرهانِ أنّه لا يَقَعُ عليه الاعتراضُ الدَّارويني بعد أن تمكَّنَ الملاحدةُ من فَرْضِ سلطانِ وَهْمِ «إبطال الدَّاروينيّة لبرهان التّصميم في عالم الأَحْياء»؛ فبُرهانُ الضَّبطِ الدَّقيقِ لعالَمِ الفيزياءِ والكيمياءِ لا يَخْضَعُ لآليّاتِ التَّطَوُّرِ البيولوجيّ المزعومةِ...

يَنْبَنِي بُرهانُ الضّبطِ الدّقيقِ على دَعْوى أنّ الكونَ الحادِثَ منذ ١٣,٧ بليون سنةٍ إِثْرَ انْفِجارٍ عشوائيٍّ، والـمُتَحَرِّكُ بلا مُوَجِّهٍ ولا غايةٍ، لا يوافق الصُّورةَ التي نعرفها حقيقةً عن هذا العالَمِ من ناحيةِ ترتيبِ عَمَلِهِ (القوانين) وترتيبِ مَوَازِيْنِهِ (النِّسَبِ الفيزيائيّةِ في آحادِهَا واجتماعِهَا الـمُتَنَاغِمِ) بما يَؤُولُ إلى ظُهورِ الحياةِ.

أشهرُ صيغةٍ في عَرْضِ بُرْهانِ الضَّبْطِ الدَّقِيق تَنْتَظِمُ في الشّكل التالي:

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (دار هجر، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م)، ٣٩٦/١٧.

(٢) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص١٦٣.

١ ـ قوانينُ الكونِ وأشياؤُه مضبوطةٌ ضبطًا دقيقًا لوجودِ الحياةِ.

٢ ـ تفسيرُ الضّبطِ الدّقيقِ لا يخرجُ عن الضّرورةِ الماديّةِ أو الصُّدْفةِ أو الحِكْمةِ.

٣ ـ الضّرورةُ الماديّةُ والصُّدْفةُ لا تُفَسِّران الضَّبْطَ الدَّقيقَ لِلكَوْنِ.

٤ ـ الكَوْنُ مُنظَّمٌ من بديعٍ مُتَعَالٍ على المادَّةِ، هو اللهُ ـ سبحانه ـ.

المبحث الأول

حُجِّيَّةُ بُرهانِ الضّبطِ الدَّقِيقِ

برهانُ الضّبط الدّقيقِ ابنُ العَصْرِ الذي قيلَ فيهِ: إنَّ العِلمَ قد أغنى الإنسانَ عن البحثِ في تفسيرِ الوجودِ بغيرِ الأسبابِ الماديّةِ. وقد أَعْلَنَ هذا العصرُ أنّ حاجَتَنا إلى تفسيرِ ظواهِرِ الكون صارت أكثرَ إلحاحًا بعد أنْ غَدَتْ أَكْثَرَ إدهاشًا؛ فإنّ الكون ينأى بنفسِه ـ من خلال ما يكشِفُه البحثُ العلميُّ العميقُ عن دِقّةٍ عجيبةٍ في رسمِ ملامحِ الكونِ الكُبْرى والصُّغْرى ـ عن سَذَاجةِ العشوائيّةِ الملازمةِ للعفويّةِ والفوضى. ونحن اليوم ندركُ بيقينٍ أنّ الحياة حَدِّيَّةٌ في شُروطِها، لِهَشَاشَةِ شروطِ قيامِها وبقائِها؛ فشروطُ قيامِها بالغةُ الرَّهافةِ، وأسبابُ القضاءِ عليها كثيرةٌ؛ فهي عُرْضةٌ للفَنَاءِ بالحرارةِ الزّائدةِ أو الباردِ الفائضِ أو كثرةِ أَشِعّةِ غاما أو الأشعّةِ السينيّةِ أو غيرها من الأشعّةِ المؤيّنة؛ وهي الظّواهِرُ التي يُفْرِزُها مركَزُ المجرَّةِ[1].

ويُعبّر علماءُ الفيزياء عن ظاهرةِ الضّبطِ الدّقيق بعبارةٍ أثيرةٍ في كتاباتهم؛ بقولهم: إنّ ظاهرةَ الحياةِ في هذا الكون «مُتَوَازِنةٌ على حَدِّ السِّكِّينِ» «balanced on a knife-edge»؛ فإنّك لو غَيَّرْتَ من طبائعِ المقادير والقوانينِ في أَقَلِّ القليلِ؛ سينهارُ الكَوْنُ أو تَفْسُدَ الحياةُ؛ غير أنَّ الفيزيائيَّ (بول ديفيس) ـ وهو من أَغْزَرِ العلماءِ تأليفًا في هذا الباب ـ يشرحُ الحالَ بصورة أَدَقَّ بقولِه: «الكليشيه القائل: إنّ «الحياةَ متوازنةٌ على حَدِّ السّكّينِ» يبدو مُغْرِقًا في

(١) Peter D. Ward and Donald Brownlee, *Rare Earth: Why Complex Life is Uncommon in the Universe* (New York: Copernicus, 2000), p.28.

السَّطْحِيّةِ؛ إذ لا يوجد سِكّينٌ في الكونِ يبلغُ هذا الحَدَّ من الدِّقَّةِ»[1].

يظهرُ جوهَرُ الضّبط الدّقيقِ للكونِ في وجود أمورٍ لا تحتمِلُها العشوائيّةُ ولا الضّرورةُ الماديّةُ لظهور الحياةِ، وهي:

١ ـ الضّبطُ الدّقِيقُ للقوانينِ الفيزيائيّةِ.

٢ ـ الضّبطُ الدّقيقُ للثّوابتِ الكونيّةِ.

٣ ـ الضّبطُ الدّقيقُ للظُّروف الأُولى لِظُهورِ الكونِ.

٤ ـ الضَّبطُ الدّقيقُ للمركّباتِ الكيميائيّةِ والبيولوجيّةِ الضروريّةِ للحياة على الأرضِ.

وللوفاء بحقّ الإنصاف في الجَدَلِ عند البرهنةِ على صلابةِ بُرهان الضّبط الدّقيقِ على وجودِ الله؛ علينا أن نُثْبِتَ صِدْقَ مجموعةٍ من الأمور:

١ ـ الدّقَّة الحَرِجة للعواملِ الماديّةِ لظهور الحياةِ في الكونِ.

٢ ـ نفي الإمكان العشوائيِّ لهذه الدقّةِ.

٣ ـ عرض اعتراضاتِ الملاحدة، والردّ عليها.

ولكن قبل النَّظَرِ في ذلك لا بُدَّ من معرفةِ معنى الدِّقَّةِ في الضّبطِ الذي سنتناوله؛ فإنَّ دلالةَ الحَسْمِ في هذا الضّبطِ دِقَّتُهُ البالغةُ التي تَدْفَعُ عنه وَهْمَ العشوائيّة الخلّاقةِ..

المطلب الأول

رَهَافةُ برهانِ الضّبطِ الدّقيقِ

تقومُ معرفةُ حقيقةِ دقّةِ الضّبطِ الكونيِّ على إدراكِ المعنى الرياضيِّ (العلميِّ) للأحداثِ المستبعدَةِ جدًّا، والأُخرى المستحيلة:

١ ـ الاحتمالاتُ البعيدةُ: إذا قَرَأْتَ أنّ النّسبةَ الاحتماليّةَ لحصولِ أمرٍ ما تبلغُ ١ من (١٠^٨٠) أو ١ من (١٠^٩٠) أو ١ من (١٠^١٠٠)؛ فهل تراها أُمُورًا قريبةَ المنال أم مستبعدةً بِجِدٍّ؟

---

(١) Paul Davies, *Goldilocks Engima: Why Is the Universe Just Right for Life?* (New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2008), p.170.

قد تبدو هذه الأرقام ـ لبعضهم ـ غير كبيرةٍ، ولكنَّ الحقيقةَ الرياضيّةَ والاحتماليّةَ تُخْبِرُ غير ذلك؛ إذ إنّ الاحتمالَ الرياضيّ لِعُثورِكَ على حَبَّةِ رَمْلٍ واحدةٍ ـ أَخَذَها منكَ شخصٌ ما وسافر بها إلى حيث لا تَعْرِفُ لِيُلْقِيَهَا في مكانٍ ما، في بلدٍ ما على هذه الأَرضِ ـ من بين جميع حَبَّاتِ الرَّمْلِ يبلغ ١ من ($١٠^{١٩}$) فقط؛ فرقم ($١٠^{١٩}$) هو إذن ضخمٌ جدًّا جدًّا!

أو غَطِّ قارّةَ أمريكا الشّماليّة كُلَّها بِحَبَّاتٍ نَقْدِيَّةٍ صغيرةٍ حتّى القَمَر (عُلُوَّ ٢٣٩ ألف ميل)، ثم كَوِّمِ القِطَعَ النّقديّةَ نفسها في بليون قارّةٍ أُخرى مثل أمريكا الشّماليّة من الأرض حتّى القَمَرِ، ثم لَوِّنْ قِطْعةً نقديّةً واحدةً منها باللَّونِ الأَحْمرِ، وغَطِّ عَيْنَيْ صاحِبِ لَكَ، وقلْ له أن يستخرجَ تلك القطعةَ من الأكوام الهائلةِ لِلقِطَعِ التي تَحْجُبُ الأَنْظارَ في هذه القارّات الكثيرةِ.. واعْلَمْ أَنَّ احتمالَ أَنْ يُصِيبَ صاحبُكَ القطعةَ الحمراءَ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ هو ١ من ($١٠^{٣٧}$) فقط[١].

٢ ـ الاحتمالاتُ المستحيلةُ: متى يكون الأَمْرُ مُحالًا (عادةً) من النّاحية الاحتماليّةِ؟

جَوَابًا عن السُّؤالِ السَّابقِ، وَضَعَ العُلماءُ ما سَمَّوْهُ: «universal probability bound»، وهو الحَدُّ الذي إذا تجاوزَهُ الاحتمالُ الرياضيُّ صارَ تفسيره بالعوامِلِ الطّبيعيّةِ وَحْدَهُ مُحالًا في حُدودِ العادةِ.

حَدَّدَ عالِمُ الرياضيات (ويليام دمسكي)[٢] الحَدَّ الرياضيَّ الاحتماليَّ بـ: ١ من ($١٠^{١٥٠}$). وقد توصَّلَ إلى هذه النّسبةِ بحسابِهِ العَدَدَ الأَقْصى الممكن للأَحْداثِ في الكونِ بالنّسبةِ لجميع مُكوّناتِه الدُّنْيا:

$١٠^{٨٠}$ = عدد الجسيماتِ الأوّليّةِ في الكون المنظورِ.

$١٠^{٤٥}$ = العدد الأقصى بالثّانية لإمكان تحوُّلٍ فيزيائيٍّ = معكُوس «زَمَنْ

---

(١) Hugh Ross, *The Creator and the Cosmos*, p.115.

(٢) ويليام دمسكي William A. Dembski (١٩٦٠ـ): عالِمُ رياضياتٍ وفيلسوفٌ أمريكيٌّ. من أعلام مدرسة «التّصميم الذَّكِيّ». له عنايةٌ خاصّةٌ بنقض إمكان تَحَقُّقِ ظواهِرِ التّصميم بصورةٍ عشوائيّةٍ.

بلانك» «Planck time»[١]. و«زَمَنُ بلانك» هو أَقْصَرُ مدًى زمنيٍّ ممكن لحدوثِ تغيّرٍ ماديٍّ؛ أي: ١٠^٤٥ جُزْءٍ من الثّانية الواحدةِ.

١٠^٢٥ = هذا الرّقم أكبر بليون مَرَّةٍ من عُمْرِ الكونِ إذا حَسَبْنَاهُ بالثّواني.

= عددُ الأحداثِ طَوَالَ تاريخ الكونِ لا يمكن أن يتَعَدَّى ١٠^٨٠ × ١٠^٤٥ × ١٠^٢٥ = ١٠^١٥٠[٢].

بعد أن عرفنا معنى أن يكون الحدثُ الكونيُّ مُسْتَبْعَدًا جدًّا، وأن يكون من النّاحيةِ الاحتماليّةِ داخِلًا في جِنْسِ الصِّفْرِ الرّياضيِّ، يَحِقُّ لنا أن نبدأ رِحْلةَ النَّظَرِ.

المطلب الثاني

الضّبطُ الدّقيقُ للقوانينِ

وجودُ القوانينِ في حِسِّ الإنسان البليدِ حقيقةٌ من جِنْسِ «المعتادات» و«المألوفات»، وفي حِسِّ عالِمِ الطّبيعةِ معادلةٌ شائقةٌ تُؤَسِّسُ للنّظامِ الكونيِّ، وفي حِسِّ الفيلسوفِ لُغْزٌ قَلِقٌ مُدْهِشٌ، مُثيرٌ لِلعَقْلِ، ومُسْتَفِزٌّ للوجدان، مُقْترنٌ ـ ضرورةً ـ بِسُؤَالِ الـمُنْدَهِشِ: «لماذا؟»..

بدأ كَوْنُنا بالعملِ منذُ مِيلادِهِ على سُنَّةِ مجموعةٍ من القوانينِ التي تَحْكُمُ مَسارَهُ حتى ظهورِ الحياةِ على الأرضِ. والنُّقْطةُ التي يجب أن نبدأ منها ونحن نَتَفَكَّرُ في مَحْضِ وجودِ القوانينِ، وكثرتِها وتكامُلِها بما يُؤدّي إلى ظهورِ الحياةِ، غيابُ الضَّرورةِ العقليّةِ لوجود أيٍّ من هذه القوانينِ في كَوْنٍ حادثٍ غير

---

(١) «زمن بلانك» (t_P)، هو الزَّمَنُ الذي يحتاجه الفُوتونُ في الفراغِ لِيَعْبُرَ مسافةً تُساوي «طُوْلَ بلانك» (ℓ_P)= ١,٦١٦٢٥٢ × ١٠^-٣٥ متر.

(٢) William A. Dembski, *The Design Inference* (Cambridge: Cambridge University Press, 2007), p.213.

وقد أعادَ (دمسكي) حساب النّسبةِ الاحتماليّة لاحقًا في بحثه: (Specification: The Pattern That Signifies Intelligence).. وانتهى إلى النّسبة نفسها.

<https://billdembski.com/documents/2005.06.Specification.pdf>.

عِلْمًا أنّه لم يتراجعْ عن طريقةِ حِسابِهِ الأُولى لِلحَدِّ الاحتماليِّ لإمكانِ حُدوثِ أمرٍ ما في الكونِ، فقد أعاد ذِكْرَ الطّريقة الأُوْلى في:

William Dembski and Jonathan Witt, *Intelligent Design Uncensored*, pp. 68-69 (InterVarsity Press, 2010).

أَزَلِيٍّ قائم على العشوائيّةِ الذّاتيّةِ؛ فالعَقْلُ يَسْمَحُ للجاذبيّةِ أن تُوجَدَ، ولا يرى نَكارةً في عَدَمِها؛ فالجاذبيَّةُ ممكنٌ من الممكِناتِ، وليسَتْ شيئًا واجبَ الوُجودِ؛ بل الأَصْلُ هو أَلَّا تُوجَدَ الجاذبيَّةُ، ووُجودُها هو الذي يحتاجُ إلى تفسيرٍ.

والنَّظَرُ في القوانين التي تَحْكُمُ الوُجودَ، يَدْفَعُ العَقْلَ إلى أنْ يَعْجَبَ مِنْ:

١ ـ وُجُودِ القوانينِ.

٢ ـ تَنَوُّعِ القوانينِ.

٣ ـ تَكَامُلِ القوانينِ.

٤ ـ دِقَّةِ القوانينِ.

٥ ـ جَمَالِ القوانينِ.

ولذلك عَبَّرَ (ديفيس) عن دَهْشَتِهِ بقوله: «القوانينُ... تبدو نفسها نتيجةَ تصميمٍ مُبْتَكَرٍ لِلغَايةِ»(١).

والنَّاظِرُ في طبيعةِ الحياةِ يشهدُ أنّ الحياةَ في كَوْنِنا قائمةٌ على وجودِ عَدَدٍ من القوانين، تَتَخَلَّفُ الحياةُ كليّةً بِتَخَلُّفِها، ومنها:

• الجاذبيّةُ: هي ظاهرةٌ طبيعيّةٌ تتعلَّقُ بتسارُعِ الأشياءِ التي لها كتلةٌ للتَّقارُبِ، وتَتَعَاظَمُ قُوّةُ الجاذبيّةِ تَبَعًا لكتلةِ الأشياءِ. غيابُ الجاذبيّةِ يَلْزَمُ منه أَلَّا تُوجَدَ نُجُومٌ؛ إذ هي ما يُمْسِكُ هذا الأَجْرامَ حتّى لا تَتَنَاثَرَ في الكونِ، وعَدَمُ إمكانِ قيامِ النُّجُومِ يلزمُ منه امتناعُ ظهور الحياةِ لِغيابِ الطّاقةِ طَويلةِ الأَمَدِ.

• القُوّةُ النّوويّةُ الكُبْرى التي تربِطُ البروتونات والنّيترونات مَعًا في النَّواةِ: دون هذه القوةِ لا يمكن للنّيوكُلونين أن تَتَجَمَّعَ، وعلى هذه القُوّةِ أن تكون أعلى بصورةٍ كبيرةٍ من القُوّةِ الكهرومغناطيسيّةِ المخالِفةِ لها، وإلَّا تَفَتَّتَتْ نَواةُ الذَّرَّةِ.

• القُوّةُ الكهرومغناطيسيّةُ: وهي القُوّةُ التي تَتَجاذَبُ بِسَبَبِها الأَجسامُ ذَوَاتُ الشِّحناتِ الكَهْربيَّةِ المتخالِفةِ، وتَتَنَافَرُ بسببها الأَجسامُ ذوات الشِّحناتِ

---

(١) Paul Davies, *Superforce* (New York: Simon & Schuster, 1984), p. 243.

الكهربائيّةِ المتماثِلةِ. ولا يمكنُ للذَّرَّةِ أن تُوْجَدَ لِغيابِ ما يمكن أنْ يَضَعَ الإلكترون في مَدَارِهِ. ولا سبيلَ أيضًا لِنَقْلِ الطَّاقةِ من النُّجومِ إلى الكوكبِ الذي فيه الحياةُ. ولا حياةَ دون ذَرَّةٍ وطاقةٍ.

• مبدأُ التَّكْمِيم Principle of Quantization: مبدأُ التَّكميم هو المسؤولُ عن المدارات الثابتةِ داخِلَ الذَّرَّةِ، ودونه تَسْحَبُ النَّواةُ الإلكتروناتِ إليها، ليختفيَ مَفْهُومُ «الذَّرَّةِ»، وتَمْتَنِعَ الحياةُ.

إنّ غيابَ أيٍّ من القوانينِ السَّابقةِ سَيَحُولُ دون قيامِ منظومةٍ كونيّةٍ قادرةٍ على البقاءِ والتَّفاعُلِ. وهي قوانينُ تَمْنَعُ طبيعتُها التَّكامُلِيَّةُ الإقرارَ بدعوى أَنَّ الوجودَ الماديَّ مُسْتَغْنٍ عن التَّفسيرِ.

ويُنَبِّهُنا (أندريه لاند)[1] ـ أَحَدُ أئمّةِ الفيزياءِ النظريّةِ اليومَ ـ إلى التَّساؤُلِ عَمَّا هو أَبْسَطُ وأَوْضَحُ ممّا سَبَقَ؛ إذ يقول: «لماذا هناكَ ثلاثةُ أبعادٍ للفضاءِ وبُعْدٌ واحِدٌ للوَقْتِ؟ لو كان لدينا أَرْبَعَةُ أَبْعادٍ لِلفَضَاءِ وبُعْدٌ واحِدٌ لِلزَّمَانِ، فَلَنْ تَسْتَقِرَّ الأَنْظِمةُ الكَوْكَبِيَّةُ، وسوف تكونُ نُسْخَتُنَا من الحياةِ مستحيلةً. لو كان لدينا بُعْدانِ لِلفَضَاءِ وبُعْدٌ واحِدٌ لِلزَّمانِ، فَلَنْ يكونَ بإمكانِنا أنْ نَكُونَ»[2].

لماذا توجد القوانينُ التي تنتفي الحياةُ بِتَخَلُّفِها؟

ليس عند الإلحادِ جوابٌ سوى «الوُجوم». وهو وُجُومٌ يزداد شُحُوبًا إذا عَلِمْنَا أنَّ مادّةَ الكونِ نفسَها تستدعِي سؤالَ «لماذا؟»، «لماذا يَظْهَرُ الشّيءُ الذي لا تستغني عنه الحياةُ في المرحلةِ المطلوبةِ من عُمْرِ الكَوْنِ؟».. ومن ذلك وجودُ الكربون؛ فإنّه عُنصرٌ كيميائيٌّ يحمل ميزاتٍ خاصّةً كثيرةً، من أَهَمِّها أَنَّ ذَرَّاتِه قادرةٌ على الانتظام في سلسلةٍ طويلةٍ من الجزيئاتِ، وهو ما يحتاجُه ضرورةً الحَمْضُ النَّوويُّ الصِّبْغِيُّ (DNA) والبروتيناتُ. وهي حقائقُ جعلَتْ

---

(١) أندريه لاند Andrei Linde (١٩٤٨ـ): عالم فيزياء نظريّة من أصلٍ روسيٍّ. أستاذ الفيزياء في جامعة «ستانفورد».

(٢) Science's Alternative to an Intelligent Creator: the Multiverse Theory.

لقاء صحفيّ مع (لاند):

<http://discovermagazine.com/2008/dec/10-sciences-alternative-to-an-intelligent-creator>.

(بول ديفيس) يقولُ: «لولا الكربونُ، لكانت الحياةُ كما نَعْرِفُهَا مُمْتَنِعَةَ الحدُوثِ؛ بل **رُبمَّا كانت كُلُّ أَشْكالِ الحياةِ مُسْتحيلةً**»[1]، عِلْمًا أَنَّ الكربونَ لم يكنْ لَهُ وُجودٌ البتّة عند الانفجارِ العظيمِ[2]. وللكربونِ وصِفَاتِه دلالةٌ عظيمةٌ على التَّصميمِ يُدرِكُها الـمُعْتَنُون بدقيقِ العُلومِ، ويَغْفُلُ عنها الَّذين يَرَوْنَ كُلَّ شيءٍ «عادِيًّا»؛ ولذلك صَرَّحَ (جورج والد) ـ الحائِزُ على **نوبل** في الطبّ والمهتمُّ بالبحث الكيميائيِّ ـ أَنَّ أَدِلَّةَ وُجودِ اللهِ واضحةٌ جدًّا؛ ذاك أَنَّ للكربونِ مع الهيدروجينِ والأوكسجينِ والنّيتروجينِ «خصائصَ فريدةً من نوعها تُناسِبُ وظيفَتَها، ولا يُشارِكُهَا في ذلك أَيٌّ من العناصِرِ الأُخرى في الجدولِ الدَّورِيِّ للعناصِرِ الكيميائيَّةِ»[3].

«تشيرُ الدّراسةُ المتأنّيةُ لقوانينِ الفيزياءِ أنّ هذه القوانينَ ليست مجرّد مجموعةٍ «قديمةٍ» من القوانينِ، وإنّما هي متميّزةٌ من عددٍ من الأوجهِ المثيرةِ: في تماسُكِها وانسجامِها، واقتصادِها، وعالميَّتِها وموثوقيَّتِها، وتشجيعِها التَّعدُّدَ والتَّعقيدَ دون الفوضى العارمةِ، وما إلى ذلك. ولعلَّ الميزةَ الأكثرَ غرابةً هي الطّريقةُ التي «تُفَكُّ بها شَفْرَةُ» القوانينِ من قِبَلِ البَشَرِ»[4]. (بول ديفيس).

---

(١) Paul Davies, *The Fifth Miracle*, p.145.

(٢) المصدر السابق.

(٣) Interview: David Levy, 'Four Simple Facts Behind the Miracle of Life,' *Parade Magazine*, June 12, 1998, p. 12.

(٤) Paul Davies, The unreasonable Effectiveness of Science, in *Evidence Of Purpose: Scientists Discover The Creator*, ed. John Marks Templeton, p. 56.

المطلب الثالث

الضّبطُ الدّقيقِ للثّوابتِ الكونيّةِ

الثّوابِتُ الكونيّةُ هي الأرقامُ الأساسيّةُ التي عندما تُضَخُّ في قوانين الفيزياء، تُحَدِّدُ الهيكلَ الأساسيَّ للكونِ[١]. وهذه الثّوابِتُ التي يتحقَّقُ بها وجودُ الحياةِ على الأرض، على نوعَيْنِ:

١ ـ **نوعٌ** بالِغُ الدِّقَّةِ لِدَرَجَةٍ مُبْهِرةٍ، حتّى وُصِفَ الكونُ لأجلها أنّه مضبوطٌ على حَدِّ الشَّفْرةِ. .

٢ ـ **النَّوعُ الثَّاني** لا تبلُغُ دِقَّتُهُ الحِدَّةَ العاليةَ السَّابقةَ، لكنّه يتطلَّبُ مع ذلك رهافةً عاليةً وتكامُلًا مَعَ بقيَّةِ النِّسَبِ الدَّقيقةِ.

وقد جَمَعَ الفيزيائيُّ (هيو روس)[٢] عَشَرات الثّوابت الكونيّةِ من هذا النّوع[٣]. كما أفاضَ في الأمثلةِ الفيزيائيّانِ (جون برو) و(فرنك تبلر) في كتابهما «المبدأ الكوسمولوجيّ الإنسانيّ»[٤].

وشهاداتُ الفيزيائيّين في هذا الأمرِ وفيرةٌ، ومن ذلك قول (هاوكنج) في الثّوابت الفيزيائيّة: «الحقيقةُ الملحوظةُ هي أن قِيَمَ هذه الأرقام تبدو كأنّه قد تَمَّ ضَبْطُها بصورةٍ دقيقةٍ ليكون تطوُّرُ الحياة مُمْكِنًا، فعلى سبيل المثالِ، لو كانت الشِّحْنةُ الكهربائيّةُ للإلكترونِ مختلفةً عما هي عليه الآن قليلًا، فإنَّ النُّجُومَ لن تكون قادرةً على حَرْقِ الهيدروجين والهيليوم، أو لن تكون قادرةً على الانفجارِ»[٥].

---

(١) Robin Collins, 'The teleological argument: an exploration of the fine-tuning of the universe,' in *The Blackwell Companion to Natural Theology*, William Lane Craig and J. P. Moreland, eds., (Oxford Wiley-Blackwell, 2012), p.213.

(٢) هيو روس Hugh Ross (١٩٤٥ـ): عالِمُ فيزياء فلكيّة كنديٌّ. من أهمِّ العلماء الغربيّين المهتمّين بمواجهة الظّاهرة الإلحاديّة بالكشوف العلميّة. له نشاط واسع في الجدل الإيمانيّ الإلحاديّ في أمريكا من خلال مؤسّسته الدّعوية العلميّة «Reasons to Believe».

(٣) Hugh Ross, *The Creator and the Cosmos*, pp. 145 - 157, 245 - 248.

(٤) John D. Barrow and Frank J. Tipler, *The Anthropic Cosmological Principle* (Oxford; New York: Oxford University Press, 1996).

(٥) Stephen Hawking, *A Brief History of Time*, p.125.

ويُعَدُّ «الثّابتُ الكونيُّ» «The Cosmological Constant» ـ وهو متعلّق بمعدَّلِ توسُّعِ الكَوْنِ ـ أَعْظَمَ أَوْجُهِ الضّبطِ في ثوابتِ الكَوْنِ حتّى قال (روبن كولنز): إنّ دِقَّتَهُ تعدُّ بصورةٍ واسعةٍ أكبرَ مُشكلةٍ فرديّةٍ تُواجِهُ الفيزيائيّين والكوسمولوجيّين[١]؛ إذ يكفي تغييرُ دِقّة الثّابتِ الكونيِّ درجةً واحدةً من (١٠^١٢٠) حتى يتوسَّعَ الكونُ بسرعةٍ زائدةٍ أو ببطءٍ. وفي الحالين كلتيهما تمتنع الحياةُ. ويكفي أن تَعْلَمَ أنّ رقم (١٠^١٢٠) أكبرُ من مجموعِ عدد البروتونات والنيوترونات في الكونِ كلّه مئة بليون كدريليون كدريليون مرّةٍ!

من الثّوابت الأُخرى، العلاقةُ بين الثّوابت نفسِها؛ فإنّه لو تَمَّ تغييرُ العلاقة بين القُوّةِ الكهرومغناطيسيّةِ والجاذبيّةِ ١ من (١٠^٣٦) فلن يوجد الكونُ كما نعرِفُهُ اليومَ[٢].

المطلب الرابع

الضّبطُ الدّقيقُ لِلظُّرُوفِ الأُوْلى لِظُهُورِ الكَوْنِ

يَتَّفِقُ العُلماءُ اليومَ أَنَّ الكونَ قد بدأ بانفجارٍ حارٍّ شديدٍ. ومن طبيعةِ الانفجارِ الفوضويّةُ والعشوائيّةُ؛ فلا يُؤَمَّلُ منه غيرُ التَّشَتُّتِ وبَعْثَرَة الطّاقةِ. لقد كان مُنْكَمِشًا ثم تَشَظَّى في كلِّ اتّجاهٍ بما يُوحِي بالفوضى العارمةِ والبعثرَةِ الأبديّةِ لهذا الشَّتَاتِ الهائِجِ.

المفاجأةُ التي يشهد لها العلماءُ هي أنّ الانفجارَ العظيمَ كان مُنَظَّمًا بدِقَّةٍ عظيمةٍ، وأنّه حَدَثٌ أَبْعَدُ ما يكون عن مفهوم «الانفجار» الذي يُشَتِّتُ الـمُنَظَّمَ ويُبَعْثِرُ الـمُرَتَّبَ؛ فقد انْتَظَمَتْ قُواهُ الأساسيَّةَ الأربعةَ ـ الجاذبيّةَ والقوّةَ الكهرومغناطيسيّةَ والقُوّةَ النَّووية الكُبْرى والقُوّةَ النَّوويّةَ الضَّعيفةَ ـ في أَوَائِلِ الثّانية الأُولى للانْفجارِ العظيمِ.

ولِيدرِكَ المرءُ مَبْلَغَ النّظام والدِّقَّةِ المهيمِنَيْنِ على بدايةِ كَوْنِنا بما يكشِفُ

---

(١) Robin Collins, 'Evidence of fine-tuning', *God and Design: The Teleological Argument and Modern Science*, Neil A. Manson, ed. (London; New York: Routledge, 2003.), p.180.

(٢) Martin Rees, *Just Six Numbers: The Deep Forces That Shape the Universe* (London: Weidenfeld & Nicolson, 2015), p.30.

نَكارةَ القَوْلِ بِسُلطانِ العشوائيّةِ في صياغة نسيجِ الوجودِ الذي نَرْفُلُ في نَعِيمِه، يُخْبِرُنَا (روجر بنروز) أنّ استمرارَ الكونِ في حالٍ من الانتظامِ والتَّفاعُلِ بما آلَ إلى ظُهورِ الحياةِ كان رَهِينَ حالِ الكونِ في بَدْئِهِ؛ وأنَّ الظُّروفَ الأُوْلى كان يجب أن تكون على حالٍ دقيقةٍ من الانتظام، وأنَّ الاحتمالَ الرّياضيَّ لِظُهورِ ذاك الظَّرْفِ الفيزيائيِّ الدَّقيقِ يبلغ ١ من ١٠ أس ١٠ أس ١٢٣[١]، وهو رَقْمٌ ضَخْمٌ جِدًّا لو جَمَعْتَ الكُتُبَ الموجودة على الأرض كُلَّها، وعَمَدْت إلى صفحاتها مُجَمَّعةً وأَرَدت كتابةَ هذا الرّقمِ فلن تملكَ أنْ تكتُبَهُ لكَثْرَةِ أَصْفارِهِ.. بل دَعْ عنك ذاك.. إنّك لو أردت أن تكتُبَ أصفارَ هذا الرقمِ على جميعِ ذَرَّاتِ الكونِ فلن تبلغ كتابَتَهُ! **إنَّهُ رقمٌ مَهُولٌ!**

لقد ظهرَ الكونُ في مراحلِهِ الأُولى في حالٍ عاليةٍ من الانتظامِ بما يُخالِفُ أَهَمَّ قانونٍ ماديٍّ، وهو القانون الثّاني للدّيناميكا الحراريّة، وهو أَمرٌ مُدهِشٌ جعلَ الفيزيائيَّ الأمريكيَّ (جوردن فن وايلن)[٢]، يقولُ في كتابِهِ المدرسيِّ الذي كان يُدرَّسُ في الجامعات الأمريكيّةِ عن القانون الثّاني للديناميكا الحراريّة ـ على خلاف عُرفِ الصّياغاتِ العلميّة المحايدة ـ: «السُّؤالُ الذي يطرحُ نفسَهُ هو كيف دخَلَ الكونُ حالًا من الإنتروبيا مُنْخَفضًا [نظام عالٍ غير عشوائيٍّ] في المقام الأوّل؛ إذ إنّ جميعَ العمليّاتِ الطبيعيّة المعروفة لنا تَمِيْلُ إلى زيادة الإنتروبيا [الاضطراب]... وقد وَجَدَ المؤلّفُ أن القانون الثّاني يميلُ إلى زيادةِ قناعَتِهِ أنّ هناك خالِقًا لديه الجوابُ عن مصيرِ الإنسانِ والكونِ في المستقبلِ»[٣].

ومن عَجَبٍ أن يقول الفيزيائيُّ الملحِدُ (هاوكنج) أمام المشهدِ الكونيِّ في بداياته الأُوْلى: «سيكونُ من الصَّعبِ جِدًّا أنْ نُفَسِّرَ لمَ كان ينبغي أن يبدأ الكونُ بهذه الطّريقة فقط، إلّا إنْ قُلْنا إنّه عَمَلُ اللهِ الذي أرادَ خَلْقَ

(١) Roger Penrose, *The Emperor's New Mind*, p.344.

(٢) جوردن فن وايلن Gordon Van Wylen: عمل رئيسًا لقسم الفيزياء في جامعة (ميتشجان).

(٣) Gordon Van Wylen, *Thermodynamics* (New York: John Wiley & Sons, 1959), p. 169.

كائناتٍ مثلِنا»[١].

وقد شَهِدَ (هاوكنج) أنّه لو كان مُعدَّلُ توسُّعِ الكونِ في اللَّحظةِ الأُوْلى بعد الانفجارِ أَصْغَرَ ممّا كان عليه بواحِدٍ من مئة ألفِ مليونِ مليون جُزءٍ؛ لانْهَارَ الكونُ قبل بلوغِ حَجْمِهِ الحاليِّ. ولو أنّه تَوَسَّعَ في اللَّحظةِ الأُولى بعد الانفجارِ بنسبة واحد من مئة ألف مليون مليون جُزْءٍ لَتَمَدَّدَ بصورةٍ تَجْعَلُهُ فارغًا الآنَ[٢].

وقد أَلَّفَ عالِمُ الكوسمولوجيا والفيزياء الفلكيّة البارز، رئيسُ «الجمعية الملكيّة» البريطانيّة، **الملحِدُ** (مارتن رِيس)[٣] منذُ سنواتٍ قليلةٍ كتابَهُ المثير: «فقط ستّةُ أرقامٍ»، وهي أرقامٌ ستّةٌ متعلّقةٌ بظروف نشأةِ الكونِ، كانت كامنةً في الكونِ منذ بدايتِهِ. وقد عَلَّقَ (ريس) بقوله: إنّه لو كانت هذه الأرقامُ مختلفةً عمّا كانت عليه، ولو بصورةٍ طفيفةٍ، فلن تكون هناك نُجُومٌ، ولا عناصِرُ معقّدةٌ، ولا حياةٌ.

هذه الأرقام السّتّةُ هي:

١ ـ مبلغُ قوّةِ القُوّةِ التي تربِطُ عناصرَ الذَّرَّةِ، وتُحَدِّدُ شَكْلَهَا.

٢ ـ مبلغُ قُوّةِ القُوَى التي تجمعُ الذَّرَّاتِ فيما بينها.

٣ ـ كثافةُ المادّةِ في الكونِ.

٤ ـ مبلغُ قُوّةِ القُوّةِ المعارِضَةِ للجاذبيّةِ والتي تَحْكُمُ تَوَسُّعَ الكونِ.

٥ ـ سَعَةُ الشُّذوذاتِ أو التَّمَوُّجاتِ المعقّدةِ في الكونِ المتوسِّعِ، والتي تُغَذّي نُمُوَّ الأفلاكِ والمجرّات...

٦ ـ الأبعادُ الفضائيّةُ الثُّلاثيّةُ لكونِنا؛ إذ لا يمكن للحياةِ أن توجدَ في كونٍ ثُنائيِّ الأَبْعادِ الفَضَائيّةِ أو رُباعِيِّها.

---

(١) Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, *A Briefer History of Time* (New York: Bantam Books, 2005), p.73.

(٢) Stephen Hawking, *The theory of Everything: the origin and fate of the universe* (Beverly Hills, CA: New Millennium Press, 2002), p.104.

(٣) مارتن ريس Martin Rees (١٩٤٢ـ).

معادلاتٌ ونِسَبٌ في غايةِ الدّقَّةِ، لو زُحْزِحَتْ قليلًا لامْتَنَعَ على الوجود أن يشهدَ إنسانًا يَشْهَدُهُ. وقد خَتَمَ (ريس) كتابَهُ بقولِه: «هناكَ عددٌ قليلٌ من القوانينِ الماديّةِ الأساسيّةِ التي تُحدِّدُ «القواعدَ». كان ظُهُورُنا من انفجارٍ عظيمٍ بسيطٍ مُرْتَبِطًا بصورةٍ مُرْهَفَةٍ بستّةِ «أَرْقامٍ كَوْنِيَّةٍ». ولو لم يَتِمَّ ضَبْطُ هذه الأرقامِ بِدِقَّةٍ، لامْتَنَعَ على طبقاتِ التَّعقيدِ المتراكِمةِ أنْ ترى النُّورَ»[1].

المطلب الخامس

الضّبطُ الدّقيقُ في تفاصيلِ الـمُركَّباتِ الكيميائيّةِ والبيولوجيّةِ على الأرضِ

أَنْكَرَ بعضُ العُلماءِ ـ قديمًا ـ أَمْرَ الضَّبْطِ الدّقيقِ للكونِ لِظُهورِ الحياةِ، حتّى دخل القرنُ التاسع عشر الذي ابتدأَتْ تَظْهَرُ فيه القياساتُ الفيزيائيّةُ والتحليلاتُ الكيميائيّةُ لِتَشِفَّ عن دِقَّةٍ مُثيرةٍ. وبَدَأَتْ تَظْهَرُ بعد ذلك مؤلّفاتٌ واسعةٌ في الباب، منها كتاب «لِيَاقَةُ الكَوْنِ»[2] لـ(لاورنس هندرسون)[3] سنة ١٩١٣ حيث جَمَعَ خصائِصَ البيئةِ التي تسمح دِقَّتُها بظهورِ الحياة، وكان أَهَمَّ ما بحثه مُتعلّقًا بخصائصِ الماء والكربون اللَّذَيْنِ دَرَسَ خصائِصَهُما الكيميائيّة بعنايةٍ مع مقارنَتِهما بغيرهما. ووضَّحَ أنَّ تغييراتٍ كيميائيّةً طفيفةً فيها كفيلةٌ بإفسادِ مظاهِرِ الحياةِ.

كما خَلَصَ الكيميائيُّ الأمريكيُّ (فرانك ستلنجر)[4] ـ صاحبُ الدراساتِ العلميّةِ الرائدةِ في الطّبائعِ الكيميائيّةِ للماء ـ إلى أنّ الماءَ ظاهرةٌ أرضيّةٌ مثيرةٌ؛ فقال في ذلك: «إنّه لمن اللّافِتِ للنَّظَرِ أنَّ كثيرًا من الأُمورِ غيرِ المتوقّعةِ يجب أَنْ تَتَوفَّرَ معًا في مادّةٍ واحِدةٍ»[5].

---

(١) Martin Rees, *Just Six Numbers: The Deep Forces That Shape the Universe* (New York: A Member of the Perseus Books Group, 2000), p.161.

(٢) The Fitness of the Environment.

(٣) لاورنس هندرسون Lawrence Henderson (١٨٧٨ ـ ١٩٤٢م): بيولوجيٌّ وكيميائيٌّ وفيلسوفٌ. أحدُ أعلامِ الكيمياء الحيويّة في بدايةِ القرن العشرين.

(٤) فرانك ستلنجر Frank Stillinger (١٩٣٤ـ).

(٥) Stillinger, "Water Revisited," Science 209 (1980): 451 (Cited in: Guillermo Gonzalez and Jay W. Richards, =

ومن المؤلّفاتِ المهمَّةِ في البابِ، كتابُ «قدر الطّبيعة: كيف تكشِفُ قوانينُ البيولوجيا الغايةَ في الكونِ»[1] لعالِمِ البيولوجيا الدّقيقةِ ـ **اللَّاأَدْرِيِّ** ـ (مايكل دينتون)[2]؛ فقد رَفَعَ فيه دِقَّةَ بُرهانِ الضّبطِ الدّقيقِ في الخصائصِ الكيميائيّةِ والحيّويّةِ لبيئةِ الحياةِ على الأرضِ؛ فَتَحَدَّثَ عن ظواهِرَ طبيعيةٍ دقيقةٍ في تَمَيُّزِهَا وعجيبةٍ في حُضُورِها مثل الخَصَائصِ الحراريّة للماءِ، وانحلاليّةِ ثُنائي أُكسيد الكربونِ، وخصائصِ التَّجْمِيعِ الذَّاتيِّ للبروتينات، وطبيعةِ الخليّةِ..

وخَلَصَ (دينتون) إلى أَنَّ وُجودَ الحياةِ في الخليّة مُؤَسَّسٍ على الماء والكربون، وهو وُجودٌ يعتمِدُ بصورةٍ حاسمةٍ على عَدَدٍ من التكيُّفاتِ المثيرةِ في خصائصِ كثيرٍ من المكوّناتِ الأساسيّةِ للحياةِ، وأنّ من أَعظم ما يُثيرُ الدَّهْشَةَ أنَّ كُلَّ مُكَوِّنٍ يبدو ـ في كلِّ محاولةٍ تقريبًا ـ **الـمُرَشَّحَ الـمُتَاحَ الأَوْحَدَ لهذا الدَّوْرِ البيولوجيّ الـمُحَدَّدِ**؛ بل نَجِدُهُ أكثرَ من ذلك يُبْدِي كُلَّ مَظَاهِرِ مُلاءَمَتِهِ المثاليّةِ؛ إذ لا يَنْحَصِرُ ذلك في صِفةٍ أو صِفَتَيْنِ؛ بل يَشْمَلُ جميعَ خصائصِهِ الفيزيائيّةِ والكيميائيّةِ[3].

= *The Privileged Planet, How Our Place in The Cosmos is Designed for Discovery*, Regnery Publishing 2004, p.34).

(1) *Nature's Destiny: How the Laws of Biology Reveal Purpose in the Universe.*

(2) مايكل دينتون Michael Denton(١٩٤٣ـ): أستاذ الكيمياء بجامعة «برنستون».

(3) مايكل دينتون، قَدَرُ الطّبيعةِ، تعريب: موسى إدريس وآخرون (الرياض: مركز براهين، ٢٠١٦)، ص٢٤.

المبحث الثاني

ملاحدة انتصروا لبرهان الضبط الدقيق

بُرهانُ الضّبطِ الدّقيقِ هو ـ من بين البراهين العلميّة على وجود الله ـ «برهانُ العَصْرِ» للإيمانِ. . هو البُرهانُ الذي قال في دلالتِهِ (ستفن واينبرغ)[١] الفيزيائيُّ **الملحِدُ** الحائز على جائزة **نوبل** في لقائِهِ مع (داوكنز): «نحن ـ بِسَبَبِهِ ـ في وَرْطةٍ»[٢] بِسَبَبِ العَجْزِ عن تفسيرِهِ في كونٍ عشوائيٍّ أَعْمى. وهو البُرهانُ الذي اعترفَ (هتشنز) **الملحِدُ** أنه أَقْوى أَدِلَّةِ المؤمنين باللهِ، وأنه برهانٌ يُضطرُّ الملحِدُ إلى التَّفكيرِ بِجِدٍّ فيه[٣]، وهو الذي جَعَلَ عَدَدًا ممّن يرفُضون بُرهانَ التَّصميمِ في الأحياءِ بسببِ إيمانهم بالتّفسير الدّاروينيّ ـ مثل عالِمِ الجِيْناتِ (فرانسيس كولنز) ـ، يُقرّون أنّه برهانٌ لا سبيلَ لِرَدِّهِ.

ومن علماءِ الكونيّاتِ الذين أَذْهَلَهُم ما في الكونِ من دقّةٍ حتّى إنّهم تَرَكُوا إلحادَهُمْ لأَجْلِ البراهينِ المتدفّقةِ على دقّةِ النّظمِ، الفيزيائيُّ (فرنك تبلر)[٤] القائلُ: «لـمّا بَدَأْتُ حياتي المهنيّة منذ قرابةِ عشرين سنةً مَضَتْ ككسمولوجيٍّ، كنتُ مُلْحِدًا مُقْتَنِعًا بإلحادِيْ. لم أَتَصَوَّرْ ـ حتى في أحلامي السَّادرة ـ أنّني سأَكتُبُ كتابًا يَزْعُمُ أنّه يُظْهِرُ أنَّ الدَّعاوى المركزيّة لِلّاهوتِ المسيحيِّ اليهوديِّ

---

(١) ستفن واينبرغ Steven Weinberg (١٩٣٣ـ): عالِمُ فيزياء نظرية أمريكيٌّ. عضوُ الأكاديميّة الوطنيّة للعلوم الأمريكيّةِ.

(٢) في لقائه مع (داوكنز)، حيث حاول (داوكنز) أن يستنجد به للتخلّص من دلالة «الضّبط الدّقيق» على وجود الله. الرابط:

(٣) <https://www.youtube.com/watch?v=GDJ9BL38PrI>

(٤) فرنك تبلر Frank Tipler (١٩٤٧ـ): عالم رياضيات وفيزياء وكوسمولوجيا أمريكيّ. أستاذ في جامعة «تولان».

[خَلْقَ العالَمِ ونَظْمَ القوانين] هي في الواقع حقيقيّة، وأنَّ هذه الدَّعاوى هي استدلالاتٌ مباشِرةٌ من القوانين الفيزيائيّةِ كما نَفْهَمُها نحن الآن. **لقد دُفِعْتُ إلى الإيمان بهذه النَّتائِجِ**، بسببِ المنطقِ الصُّلْبِ لِفَرْعِ الفيزياء الخاصِّ الذي أُدَرِّسُهُ»[١].

ومن الذين زَلْزَلَ النَّظْمُ الدّقيقُ ولاءَهُمْ للإلحادِ الذي نافَحُوا عنه بِشِدَّةٍ عالِمُ الفَلَكِ الكبير (فريد هويل)[٢]، حتّى قال: «يخبرنا التّفسيرُ **البَدَهِيُّ** للحقائقِ أَنَّ كائنًا بالِغَ الذَّكاءِ قد تَحَكَّمَ في ضبطِ الفيزياء، وكذلك الكيمياءِ والبيولوجيا، وأنّه لا تُوجَدُ قُوى عَمْياءُ تستحِقُّ الذِّكْرَ في الطَّبيعةِ»[٣].

---

(١) Frank Tipler, *The Physics of Immortality* (London: Pan, 1996), p.ix.

(٢) هذا التّصريحُ جعل عددًا من المؤرّخين لحياة (هويل) يقولون: إنه قد تَحَوَّلَ من الإلحادِ الذي صَرَّحَ بالانتصارِ له سابقًا إلى اللّاأَدْرِيَّةِ.

(٣) Fred Hoyle, 'The Universe: Past and Present Reflections,' *Annual Review of Astronomy and Astrophysics*:1982, 20:16.

المبحث الثالث

نقودٌ ورُدودٌ

تَعَرَّضَ برهانُ الضّبطِ الدّقيقِ للكونِ لاعتراضاتٍ من كلّ نوعٍ، وبحدّةٍ عاليةٍ تبلغُ درجةَ الحماسةِ الغاضبةِ. وقد حاولَتْ هذه الاعتراضاتُ أنْ تَمَسَّ من البرهانِ كلّ جانبٍ، فكان منها الفلسفيُّ، والعلميُّ، والمباشر وغيرُ المباشِرِ. وهنا أَهَمُّها في أدبيّاتِ الملاحدةِ المقروءةِ والمسموعةِ.

المطلب الأول

الإنسانُ أَتْفَهُ مِنْ أَنْ يُصَمَّمَ الكونُ لأَجْلِهِ

اعتراض: أنتم تزعمون أنّ الأرضَ؛ بل الكون كلّه، وُجِدَ فقط من أجل الإنسانِ.. وهذا غرورٌ.. وإهدارٌ لطاقةِ الكونِ الهائلة من أجلِ كائنٍ تافِهٍ!

الجواب:

أولًا: نحن لا نقطع أنّ الكونَ قد خُلِقَ فقط من أجلِ الإنسان، فَلَعَلَّ اللهَ ـ سبحانه ـ قد خَلَقَ كائناتٍ أُخرى عاقِلةً في كواكبَ أُخرى، وربّما دَلَّ قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشُّورى: ٢٩]، وقولُه ـ سبحانه ـ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النَّحل: ٤٩] على وجود كائناتٍ تَدُبُّ في السَّماءِ (وبذلك ليست هي من الملائكةِ ولا الجانِّ)، وتُحَاسَبُ على أَعْمالها كما نُحَاسَبُ نحنُ؟! نحن لا ندري؛ ولذلك لا نَجْزِمُ في مَقَامِ الاحتمالِ.

ثانيًا: لماذا لا نقولُ مع عالِمِ الفَلَكِ من وكالة ناسا (ألوسيوس

أوكيف)[1]: «نحن طِبْقَ المعاييرِ الفَلَكيّةِ القياسيّةِ مجموعةٌ من المخلوقاتِ مُدَلَّلَةٌ وَمَرْعِيّةٌ. . . لو لم يكنِ الكونُ مخلوقًا على صورةٍ مضبوطةٍ قُصوى لما أَمْكَنَ لنا أن نُوْجَدَ. مَذْهَبِي هو أنّ هذه الظُّروفَ تُشير إلى أَنَّ الكونَ قد خُلِقَ ليعيش فيه الإنسانُ»[2]؟! فَبِنْيَةُ الكَوْنِ تَدُلُّ على إدلالٍ للإنسانِ وعظيمِ مَقَامِهِ في الوُجود الماديّ، لا على عَبَثِيَّةِ الوُجُودِ.

ثالثًا: الاعتراضُ قائمٌ على نظرةٍ تأنيسيَّةٍ للإلٰهِ، بإحلالِ مشاعِرِ الشّحِّ في أفعالِه خشيةَ نفادِ الموارِدِ؛ فالملحِدُ يرى أنّ على الإلٰهِ أن يُنفِقَ من ملكُوتِه أقلَّ ما يمكن لتحقيق أوسعِ محبوباته؛ خشيةَ أن تَنْفَدَ خزَائِنُه؛ فهو ـ في ظَنِّهِ ـ يُعطي بإقتارٍ مخافةَ الفَقْرِ! وفي هؤلاء قال القرآنُ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠].

رابعًا: يَنْطَلِقُ الاعتراضُ الإلحاديُّ من افتراضِ أنَّ قِيمةَ الأشياءِ مُتَعَلِّقةٌ بِحَجْمِها، فكلَّما كان حجمُها أكبر، كانت أَلْيَقَ باهتمامِ الإلٰهِ! وهذه دعوًى سخيفةٌ في الدَّرْسِ اللَّاهوتيّ؛ إذ ليس عليها بُرهانٌ؛ بل هي سخيفةٌ حتى في عالَمِ الإنسانِ؛ فإنَّ جَوْهَرةً في حَجْمِ الكَفِّ أَعْظَمُ قيمةً من أكوامٍ ضَخْمَةٍ من التُّرابِ والصُّخورِ. . وما الذي يجعلُ الضَّخْمَ أَعْظَم قِيمةً من الصّغير والقليل؛ وكلُّه مخلوقٌ، مَدِينٌ للخالِقِ بالوجودِ بعد عَدَمٍ؟!

المطلب الثاني

نُدْرَةُ الحياةِ في الكونِ

اعتراض: جُلُّ البِناءِ الكونيِّ ليست فيه حياةٌ، وهو ما ينفي دَعْوى الضّبطِ الدّقيقِ!

الجواب:

أولًا: هل نملِكُ الجَزْمَ أنّه لا توجد حياةٌ في الكونِ غيرُ حياتِنا؟

---

(١) جون أوكيف John O'Keefe (١٩١٦ ـ ٢٠٠٠م): فلكيٌّ أمريكيٌّ بارزٌ. أوّلُ من اكتشفَ الشَّكْلَ الدّقيقَ للأرضِ. ساهَمَ بصورةٍ كبيرةٍ في عددٍ من المشاريعِ الحكوميّةِ الفلكيّةِ.

(٢) Fred Heeren, *Show me God* (Illinois: Searchlight Publications, 1995), p. 226.

(وكالة ناسا) وغيرها من المؤسّساتِ العلميّةِ المهتمّةِ باحتمالِ وجودِ حياةٍ خارجَ كوكَبِنا، لا تزالُ تُعْلِنُ إلى اليوم أنّها لا تملك حَسْمَ الجوابِ. والجماعةُ العلميّةُ في الغربِ لا تزالُ تُنْفِقُ الملايين بحثًا عن حياةٍ خارجَ مجرّتنا. ومعلومٌ أنّ من فروعِ العُلومِ اليومَ ما يُعرف بـ (Astrobiology)؛ أي: علم الأحياءِ الفلكيّ، والمهتمّ بالبحث عن الحياةِ في الكونِ خارجَ الأرضِ.

ثانيًا: ما هو وَجْهُ النَّكارةِ في أنْ يَخْلُقَ اللهُ كُلَّ ما نراه في السَّماءِ زينةً لها لإمتاع الإنسانِ ولاستثارةِ حاسّةِ التّفكيرِ في جلالِ الكونِ وجَمَالِهِ؟ قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: ٦]؟ ما الذي يُعْجِزُ اللهَ ـ سبحانه ـ عن فِعْلِ ذلك؟ وهل يَضِيْعُ من مُلْكِهِ شيءٌ إذا سَخَّرَ جُلَّ ما في الكون زينةً للدّلالةِ عليه؟! إنّ السَّماءَ خُلِقَتْ لأَغْراضٍ منها بيانُ عظيمِ قُدْرةِ اللهِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾ [الغاشية: ١٧، ١٨]؛ فالنَّظَرُ في الكواكِبِ المعلّقةِ للعِلمِ بِعظمةِ اللهِ غَرَضٌ خاصٌّ لوجودها، أو أَحَدُ هذه الأغراضِ.

ثالثًا: خَلْقُ الأَجرامِ السّماويةِ في التصوّر الإسلاميِّ له أكثرُ مِنْ حِكْمةٍ. قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ [يونس: ٥، ٦]. وكلُّ كوكبٍ مُسَخَّرٌ لِغَرضٍ نَعْلَمُهُ أو لا نعلمُه. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]. وجَهْلُنا بأغراضِ خَلْقِ هذه الكواكب ليس حُجّة لشيءٍ؛ فَعدَمُ العِلم ليس عِلْمًا بالعَدَمِ، خاصّةً أنّ معارِفَنا الفلكيّةَ أَسِيرةُ الضّعفِ الشّديدِ لآلاتِ السَّبرِ الفَضَائيِّ.

رابعًا: يُقرّر علماءُ الكوسمولوجيا أنّ الحياة في كوكَبِنَا تحتاجُ السَّعَةَ الهائلة لهذا الكون لإنتاجِ العناصر الأساسيّةِ للوجود؛ كالهيدروجين وغيره في

الفرنِ الكونيّ الأوّل؛ فَسُنَّةُ الخلقِ أن تَنْشَأَ الأشياءُ وتتطوَّرَ على صورةٍ تنتهي بتحقيقِ حكمةِ الله ـ سبحانه ـ في خَلْقِهِ. وقد بدأَ الكونُ صغيرًا جدًّا، ثم تَوَسَّعَ لينشأ المكانُ الفسيحُ، ثم تفاعلَتْ عناصِرُه لتنشأ المادّةُ التي سَتَتشَكَّلُ منها الأرض؛ فالتّفاعُلُ الكونيُّ كان مُسَخَّرًا لمادّةِ الكونِ لإنتاج ظروفِ وجودِ الحياةِ.

يقول الفيزيائيُّ (جون برو)[1]: «نحن نعلمُ أَنَّ الكونَ آخِذٌ في الاتِّساع، ولِذا فإنَّ حَجْمَهُ الضَّخْمَ نتيجةٌ لِعُمْرِهِ العظيم. **وكُلُّ كَوْنٍ يحتوي على لَبِنَاتِ التَّعْقِيدِ يَجِبُ**[2] **أَنْ يكونَ كبيرًا في السِّنِّ بما فيه الكفاية لِتَتَشَكَّلَ النُّجُومُ وتَتَوَلَّدَ العناصِرُ التي يَسْتَنِدُ عليها هذا التَّعقيدُ.** وهذا الأَمْرُ يتطلَّبُ عناصرَ أَثْقَلَ من الهيدروجين والهليوم، وهي العناصرُ التي تَشَكَّلَتْ في الدَّقائقِ الثَّلاثِ الأُوْلى من الانْفِجارِ العظيم. العناصرُ الكيميائيّة الحيويّةُ الأَثْقَلُ، مثلُ الكربون، مصنوعةٌ منها عبر تفاعلاتٍ نَوويَّةٍ في النُّجُوم. عندما تموتُ النُّجومُ تَتَفَرَّقُ هذه العناصرُ البيوكيميائيّةِ في الفضاءِ، وفي نهايةِ المطافِ تَجِدُ طريقَها إلى الكواكبِ وإلى النَّاسِ. هذه العمليَّةُ من الكيمياء النَّوويَّةِ طويلةٌ وبطيئةٌ. ويستغرِقُ الأَمْرُ ملياراتِ السِّنين لتعبُرَ طريقَها. ولِذا فإنَّ الكونَ الذي يحتوي على «مُراقِبِينَ» يجبُ أن يكون سِنُّه بلايينَ السِّنين، ثُمَّ بلايينَ السَّنواتِ الضَّوئيَّةِ حَجْمًا. تلك هي الشُّروطُ الأساسيَّةُ للحياةِ حتّى تكونَ مُمْكِنةً.

آثارٌ أُخرى تَتْبَعُ ذلك. الحجمُ الكبيرُ لكونٍ صالحٍ للحياةِ يحتاجُ مُعَدَّلَ كثافةٍ مُنْخَفِضًا جِدًّا، وكذلك أنْ تكون المجرَّاتُ والنُّجومُ متباعدةً بصورةٍ كبيرةٍ... ويَضْمَنُ مبلغُ التَّوسُّعِ العظيمِ أيضًا أن يكون الكَوْنُ بالِغَ البُرُودَةِ. هذا، بِدَوْرِهِ؛ يعني: أنَّ السَّماء ليلًا تبدو مُظْلِمةً. هناك كثافةُ طاقةٍ قليلة جدًّا في الكون لتجعله مُشْرِقًا. وهكذا **فالأَكوانُ التي تَفِي بالظُّروف اللَّازمةِ للحياة كبيرةٌ سَعَةً وسِنًّا**»[3].

---

(١) جون برو John Barrow (١٩٥٢ـ).: عالم كوسمولوجيا وفيزياء نظريّة ورياضيات إنجليزيّ. حاصل على جائزة «Templeton Prize» المهمّة في الجَدَلِ الإيمانيّ ـ العلميّ.

(٢) حديث المؤلّف من داخل سنن الكون، والله سبحانه قادِرٌ على إحداث سُنَنٍ مُخالِفةٍ لذلك.

(٣) John Barrow, 'Outer Space,' in Fran5ois Penz, Gregory Radick, and Robert Howell, eds. *Space: In Science,* =

خامسًا: انتفاءُ الحياةِ في غير كوكَبِنا لا ينفي البَتَّةَ الضَّبطَ الدَّقيقَ في الكونِ لِظُهورِ الحياة على الكوكب الأَزْرقِ؛ ولذلك فالاعتراضُ لا تَعَلُّقَ له بِنَفْيِ حقيقةِ الضَّبْطِ الدَّقيقِ، وإنَّما هو مُتَعَلِّقٌ بانتفاء الحِكْمةِ من وجودِ كواكبَ أُخرى تقومُ عليها الحياةُ، ولا يَلْزَمُ من الحِكْمَةِ أن تقوم الحياة في كُلِّ الكَوْنِ.

سادسًا: الضَّبْطُ الدَّقيقُ في أَعْظَمِ مظاهِرِه لا يَتَعَلَّقُ بموضعٍ في الكون دون موضعٍ آخرَ، وإنّما هو مرتبِطٌ بوجود القوانين الكونيّة المحكَمَةِ والمتكامِلةِ، وبالنِّسَبِ الكونيَّةِ المحكمة بدقَّةٍ عاليةٍ **عند بدء الكون**؛ أي: في المرحلةِ الأُولى لخروجِه من حالِ الانكماشِ الأَوَّلِ؛ فالكونُ مضبوطٌ بدقَّةٍ حَرِجةٍ عندما كان حَيِّزُهُ صغيرًا جدًّا؛ وهو ضَبْطٌ غيرُ متعلِّقٍ بالأرضِ أو مجرّتنا، وإنما بمادَّةِ الكونِ الأُولى كُلِّها وقوانينِها منذ لحظتها الأُوْلى. ولذلك يقول (بول ديفيس): «تُلْزِمُنا الاكتشافاتُ الأخيرةُ حول الكونِ في بدايتِه أنْ نَقْبَلَ أنَّ الكونَ المتوسِّعَ قد تَمَّ ضَبْطُ حَرَكَتِهِ بمراعاةِ دِقَّةٍ مُدْهِشةٍ»[1].

المطلب الثالث

الضَّبطُ الدَّقيقُ، وَهْمٌ من أَوْهامِ المؤمنين بإِلٰهٍ!

اعتراض: دَعْوى الضَّبطِ الدَّقيقِ للكونِ، مُجرَّدُ ادِّعاءٍ عاطفيٍّ بلا برهان، لا يَنْصُرُهُ إلَّا المتعَصِّبَةُ من المؤمنين بإِلٰهٍ!

الجواب:

أولًا: هذا البرهانُ قائِمٌ على الحساب الرياضيِّ الاحتماليِّ، وليس هو مجرّد نظريّةٍ تَأَمُّلِيَّةٍ شاعريَّةٍ، ولِذا فالرَّدُّ عليه يحتاج إلى لغةٍ رياضيّةٍ تَنْقُضُ حقيقةَ الأرقامِ أو تُفسّرها غير تفسيرِ الـمُؤَلِّـهَة.

ثانيًا: كثيرٌ من الأسماء العلميَّةِ الكبيرةِ في الغَرْبِ تَرَكَتِ الإلحادَ إلى الإيمان بسبب هذا البرهان، مِثْلَ الفيزيائيِّ (فرنك تبلر) وعالم الجينات (فرانسيس كولنز)...

=Art and Society (Cambridge: Cambridge University Press, 2004), p.181.

(١) Paul Davies, *The Accidental Universe* (New York: Cambridge University Press, 1982), p.vii.

ثالثًا: كثيرٌ من مشاهيرِ الملاحدة واللَّاأَدْرِيّين في العالم يعترفون بوضوح أَنَّ هناك قوانينَ دقيقةً ونِسَبًا فيزيائيَّةً مضبوطةً تنتهي بأقلِّ اضطرابٍ لها الحياةُ، ومن هؤلاء الكوسمولوجيُّ الملحِدُ (هاوكنج)، وعالِمُ الفيزياء النَّظَرِيَّةِ الملحِدُ (مارتن ريس)، والفيزيائيُّ الملحِدُ (واينبرغ)، وعالم الفيزياء النَّظريّة الملحِدُ (ليونارد سسكيند)[1]، وعالم الكوسمولوجيا اللَّاأَدْرِيُّ (فلنكن)، وعالم الكوسمولوجيا الملحِدُ (غوث)، وعالم الفيزياء النظرية اللَّاأَدْرِيُّ (بول ديفيس)، وعالم الرياضيات الملحِدُ (روجر بنروز)، وعالم الفيزياء النّظريّة الملحِدُ (أندريه لند)... وهؤلاء أعلى طبقاتِ العلماء في الغَرْبِ كما هو معلوم[2]؛ بل نَقَلَ (بول ديفيس) أَنَّ «هناك **اتِّفاقًا عامًّا** بين الفيزيائيّين والكوسمولوجيّين أنَّ الكون قد ضُبِطَ بصورةٍ دقيقةٍ لظهور الحياة مِنْ عِدَّةِ نَوَاحٍ»[3].

رابعًا: كان الكَشْفُ عن دِقَّةِ الضَّبْطِ الدَّقيق للكونِ مُفاجِئًا للعلماءِ؛ وفي ذلك قال الفيزيائيُّ المعروف (ميتشيو كاكو)[4]: إنَّ العلماء قد «**صُدِمُوا** لـمَّا عَلِمُوا أَنَّ الكثيرَ من الثَّوابتِ الكونيّة المألوفةِ لهم تَقَعُ في نطاقٍ ضَيِّقٍ جِدًّا بصورةٍ دقيقةٍ جدًّا بما يسمحُ للحياةِ أن تكون ممكنةً»[5]. مُضِيفًا أَنَّهُ إذا تَغَيَّرَ واحِدٌ منها فلن تكون هناك نُجومٌ ولا حَمْضٌ صِبْغِيٌّ، ولا حياةٌ[6].

خامسًا: وَصَفَ غيرُ واحِدٍ من الفيزيائيّين الملحِدين الكشْفَ عن الثَّوابت الكونيّة أنّه في غايةِ الجلاء، وأَنَّ إِنْكارَهُ تَعَسُّفٌ لاأَخْلاقيٌّ حتّى قال الفيزيائيُّ

---

(١) ليونارد سسكيند Leonard Susskind (١٩٤٠ـ): أستاذ الفيزياء النظريّة في جامعة «ستانفورد» ومدير «Stanford Institute for Theoretical Physics».

(٢) لم يُثبت هؤلاء وجود إلٰه، ولكنّهم أقرّوا بوجود نسب دقيقة تقوم عليها الحياة، إذا اختلّ بعضها بأدنى درجة انتفت الحياة بكلّ صورها.

(٣) Paul Davies, “How Bio-Friendly Is the Universe?” *International Journal of Astrobiology*, vol. 2, no. 2 (2003): 115 - 120.

(٤) ميتشيو كاكو Michio Kaku: عالم الفيزياء النّظرية الشّهير، والوَجْهُ العِلميُّ الإعلاميُّ ذائع الصِّيتِ. وهو غيرُ مؤمن بالله (=لاأَدْرِيّ أو مؤمن بوَحْدَةِ الوُجُودِ!).

(٥) Michio Kaku, *Parallel Worlds* (London: Penguin, 2006), p.247.

(٦) المرجع السابق.

الملحِدُ المعروف (دافيد دوتش)[1] مُوَبِّخًا إخوانَهُ الملحِدين: «إذا زَعَمَ أيُّ أحَدٍ أَنَّهُ لم يتفاجَأْ بوجود المميّزاتِ الخاصَّةِ للكَوْنِ، فهو يَدُسُّ رَأْسَهُ في الرَّمْلِ. هذه المميزاتُ الخاصّةُ **مفاجِئةٌ وغيرُ مُتوقَّعةٍ**»[2]. ويشاركهم هذا الكشفَ الفيزيائيُّون المؤلّهون، ومنهم (تشارلز تاونز)[3] ـ الحائِزُ على جائزة **نوبل ـ في** تصريحٍ له سنة ٢٠٠٥: «هذا كونٌ مُمَيَّزٌ بصورةٍ كبيرة: إِنَّهُ لَمِنَ اللّافِت للنَّظَرِ أَنَّهُ قد وُجِدَ على هذه الصُّورةِ»[4].

سادسًا: كثيرٌ من الملاحدة يعترفون أنَّ قضيّة الضّبطِ الدّقيقِ أمرٌ مُحرِجٌ للمُلْحِد، وليست هي مجرّد دعوى إيمانيّة للمؤلّهة، ولذلك اجتهدوا لإثبات وجودِ عددٍ لا نهائيٍّ من الأكوان يَسْمَحُ للضّبط الكونيّ أن يكون «صُدْفةً».

سابعًا: لَعَلَّ مِنْ أَظْهَرِ براهينِ وضوحِ الضّبط الدّقيقِ، ما يخرج به بعض الفيزيائيّين من نظرياتٍ «عجيبةٍ» لِتَجَاوُزِ مَأْزِقِ التَّفسير المادّيِّ؛ ومن ذلك قولُ عالِمِ الفيزياء الفلكيَّةِ الموسوعيِّ المعروفِ (جون غريبن)[5]: إنَّ كونَنا قد خُلِقَ على يَدِ فَرْدٍ أو أفرادٍ من حضارةٍ مُتَطَوّرةٍ تكنولوجيًّا تقع في جِهةٍ ما من الأكوان المتعدّدة، وإنَّ هذه الحضارة رُبَّما قد تَسَبَّبَتْ في حدوثِ «الانفجار العظيم». وهي دعوى لا قيمة لها البتّة في ميزانِ العِلْمِ. والأَمْرُ الوحيدُ الجديرُ بالتّقديرِ في دعوى (غريبن) دلالَةُ هذه النَّظريّةِ العجيبةِ على لسانِ عالمٍ فيزيائيٍّ كبيرٍ أَنَّ طبائِعَ كونِنا لا يمكن تفسيرُهَا إلّا بالحِكْمةِ العاليةِ والقُدْرةِ الخارقةِ خارجَ حُدودِ العشوائيَّةِ العَمْياء.

---

(١) دافيد دوتش David Deutsch (١٩٥٣ـ): بريطانيٌّ. أستاذ الفيزياء في جامعة أوكسفورد. له عنايةٌ خاصّةٌ بدراساتِ ميكانيكا الكَمِّ.

(٢) The Theists strike back Opinion The Guardian.
<https://www.theguardian.com/commentisfree/andrewbrown/2009/jan/08/religion-atheism-longley-advertising>.

(٣) تشارلز تاونز Charles Townes (١٩١٥ ـ ٢٠١٥م): فيزيائيٌّ أمريكيٌّ. له مساهماتٌ متميزةٌ في دراسات الإلكترونيّات الكموميَّةِ.

(٤) ‘Explore as much as we can’: Nobel Prize winner Charles Townes on evolution, intelligent design, and the meaning of life, by Bonnie Azab Powell, UC Berkeley NewsCenter (June 17, 2005).
<http://www.berkeley.edu/news/media/releases/2005/06/17_townes.shtml>.

(٥) جون غريبن John Gribbin (١٩٤٦ـ): عالم فيزياء فلكيّةٍ بريطانيٌّ شهيرٌ. مُتعدِّدُ الاهتمامات العلميَّة. له عنايةٌ بتبسيط العلومِ لِلْعامَّةِ.

المطلب الرابع

أَهِيَ الضَّرورةُ المادِّيَّةُ؟

الاعتراض: وجودُ القوانين الضّروريّة لِظُهورِ الحياةِ، وتَوَفُّرُ النِّسَبِ الفيزيائيّة لاستمرارِها، أَمْرٌ ضروريٌّ من ضروراتِ المادّة.

الجواب:

أَوَّلًا: لِمَ يكونُ ما سَبَقَ ضروريًّا؟ ما هو الشّيءُ الذي من الممكن أن يجعلَ الشيء الممكنَ (contingent) ضروريًّا. الكونُ بأكملِه ممكنٌ من الممكناتِ. وقد كان من الممكن أَلَّا يوجدَ شيءٌ، وأنْ يكون العَدَمُ التَّامُّ، فكيف يكون بعضُه (قوانينُه ونِسَبُهُ) ضروريًّا؟!

ليس في الكون منطقيًّا ولا علميًّا ـ مثلًا ـ ما يدعو الجاذبيّةَ والذرَّةَ أن تكونا على ما هُمَا عليهِ... ولا غيرهما من قوانينِ العالَمِ وأشيائِه الأساسيّةِ، وليس في البرهانِ العقليِّ أنَّ الكونَ الممكنَ في كُلِّيَّتِهِ، ضروريٌّ في تفاصيلِهِ. وليس في العلم ما يُلزِمُ الكونَ أنْ يَتَّخِذَ صيغةً واحدةً، ولذلك يقولُ عالِمُ الفَلَكِ (جورج غرينشتاين)[1]: «لا شيءَ في الفيزياء يُفَسِّرُ لِمَ على المبادئ الأساسيّةِ أن تُوافِقَ بِدِقَّةٍ شروطَ الحياةِ»[2].

الثاني: الاحتمال الأَكبرُ هو أنْ لا توجدَ القوانين والنِّسَبُ الضّروريةُ لنشأة الحياةِ، لا العكس؛ إذ إنّ احتمالَ وجودِها أَدَقُّ وأَصْغَرُ وأَبْعَدُ.

الثالث: لا يوجد أَحَدٌ من أعلامِ الإلحاد اليومَ يزعُمُ أنّ قوانينَ الكونِ وثوابِتَهُ يجب ضرورةً أن تكون كذلك.

---

(١) جورج غرينشتاين George Greenstein (١٩٤٠ـ): أستاذ علم الفلك في كليّة «Amherst». أَلَّفَ ثلاثةَ كُتُبٍ مدرسيّةٍ في تَخَصُّصِهِ. له عناية بتبسيطِ العُلوم للعامّةِ.

(٢) Nancy Pearcey, *Finding Truth: 5 Principles for Unmasking Atheism, Secularism, and Other God Substitutes* (Colorado Springs, CO: David C. Cook, 2015). p. 26.

المطلب الخامس

هل هي الصُّدْفَةُ؟

اعتراض: دِقَّةُ ضَبْطِ كَوْنِنَا صُدْفَةٌ سعيدةٌ، فحسب.

الجواب:

أولًا: لا يوجد شيءٌ اسمُهُ «صُدْفَةٌ» أنطولوجيًّا؛ فالصُّدْفَةُ هي جَهْلُنا بالأسبابِ، أو بعبارةِ الفيلسوفِ الفرنسيِّ (بول جانيه)[١]: «الصُّدْفَةُ كلمةٌ خاليةٌ من المعنى اخْتَرَعَهَا جَهْلُنا»[٢]. وليس موضوعُنا هاهنا عن الجهلِ بالأسبابِ التي أَدَّتْ إلى الضّبطِ الدّقيقِ للكونِ.

ما يقصده الملحِدُ الذي يرى هذه الشُّبْهَةَ هو أنّ الثّوابتَ الكونيّةَ الدّقيقةَ قد نَشَأَتْ عشوائيًّا؛ ولذلك فهذا الاعتراضُ بحاجة إلى أن يُصاغَ من جديدٍ حتّى يوافِقَ قَصْدَ المعتَرِضِ، بالقولِ: أَلَيْسَتِ العشوائيّةُ قادرةً على صناعةِ ما يبدو ضبطًا دقيقًا للكونِ؟!

ثانيًا: الحديثُ عن إمكانِ العشوائيّةِ أن تُنْتِجَ صيغةً ما في عالَمِ المادّةِ ليس مَحْضَ تَقَوُّلٍ، واجتهادٍ ذَوْقيٍّ، وإنّما هو أمرٌ داخِلٌ في علمِ الرياضيات، أو ما يُعْرَفُ تحديدًا بعلمِ الاحتمالاتِ.

وقد اهتمَّ عددٌ من العلماءِ بقدرةِ العشوائيّةِ على إنتاجِ صياغاتٍ ماديّةٍ في الكونِ مخصوصةٍ. ويُعدُّ عالِمُ الرياضيات والفيلسوف (ويليام دمسكي) أَشْهَرَهُمْ. وله في هذا البابِ كلامٌ مُحْكَمٌ مَتِينٌ[٣].

ثالثًا: عَدَدُ أَوْجُهِ الضّبطِ الدّقيقِ كثيرةٌ جدًّا بما يجعلُ القولَ بعشوائيَّتِها مَحْضَ عِنادٍ، وفي ذلك يقولُ الفيزيائيُّ **الملحِدُ** (أندريه لاند): «الدينا العديدُ من المصادفاتِ العجيبةِ جدًّا جدًّا. وكلُّ هذه المصادفات تَتَمَيَّزُ بأنّها تنتهي إلى

---

(١) بول جانيه Paul Janet (١٨٢٣ ـ ١٨٩٩م): فيلسوفٌ غزيرُ التّأليفِ. أستاذُ الفلسفةِ الأخلاقيّةِ والمنطِقِ. رَأَسَ قسمَ الفلسفةِ في السُّوربون.

(٢) Paul Janet, *Final Causes*, trans. William Affleck (Edinburgh: T. & T. Clark, 1878), p.19.

(٣) See William A. Dembski, *No Free Lunch: Why specified complexity cannot be purchased without intelligence* (Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2002).

جَعْلِ الحياةِ ممكنةً»[١]. وأمّا الفيزيائيّ (جورج إليس)[٢] فلم يَجِد غَضَاضةً في أنْ يَصِفَ ظُهورَ الحياة ضمن هذه الشُّروطِ الماديّةِ الدّقيقةِ بأنّه «**مُعْجِزَةٌ**»[٣].

ومن ظريف ما يُعبَّرُ به عن مبلَغِ غَرَابَةِ دِقَّةِ الثّوابت الكونيّةِ قولُ الفيلسوف والفيزيائيّ (روبن كولنز): إنّ الحصولَ على الدقّةِ المطلوبة للحياةِ بصورةٍ عشوائيّةٍ هو أَشْبَهُ بِرَمْيِ سَهْمٍ عبر كامِلِ الكَوْنِ لِيُصِيبَ نُقْطةً في حافّتِهِ من طرفهِ الآخر يبلُغُ حجمُها قدَمًا واحدةً[٤].. فَتَأَمَّلْ!

المطلب السَّادس

لأَنَّنا هنا؟

اعتراض: يُعدُّ «المبدأُ الإنسانيُّ الضّعيفُ»[٥] من أشهرِ صيغِ رَفْضِ الضّبط الدّقيقِ. وهو يقول ـ بكلٍّ بساطةٍ ـ: نحن نملِكُ الشّهادةَ لوجودِ هذا الضّبطِ الدّقيقِ لِسَبَبٍ واحدٍ، وهو أنّ وجودَ هذا الضّبط يسمحُ لنا بالوجودِ. ولو لم تكن هذه النِّسَبُ موجودةً، ما كان لنا أن نشهدَ وجودَها. أو بعبارةِ (لورنس كراوس): «ليس أمرًا مُفاجِئًا لنا أنّنا نعيشُ في كونٍ بإمكاننا أن نعيشَ فيه»[٦].

الجواب:

أَوَّلًا: لا يُوَضِّحُ «المبدأُ الإنسانيُّ الضّعيفُ» شيئًا، ولا يُفَسِّرُ شيئًا. إنّه يقولُ لنا: إنَّنا موجودون لأنَّنا موجودون.. فهو يخلط بين ملاحظةِ طبيعةِ الوجودِ (التي تسمَحُ بظهور الحياةِ)، وتفسير خصائصِ هذه الطّبيعة ضمن نَظْرةٍ إلحاديَّةٍ عشوائيَّةٍ.

---

(١) Science's Alternative to an Intelligent Creator: the Multiverse Theory.

(٢) جورج إليس George Ellis (١٩٣٩ـ): عالِمُ رياضياتٍ وفَلَكٍ من جنوب إفريقيا.

(٣) G. Ellis, The Anthropic Principle: laws and environments, in *The Anthropic Principle*, F. Bertola and U. Curi, eds. (Cambridge, England: Cambridge University Press, 1993), p.30.

(٤) Robin Collins, 'A scientific Argument for the existence of God' in *Philosophy of Religion: An Anthology*, Michael C Rea; Louis P Pojman, eds. (Stamford, CT: Cengage Learning, 2015), p.75.

(٥) Weak anthropic principle.

(٦) Lawrence M. Krauss, *A Universe from Nothing*, p.125.

ثانيًا: هذا الاعتراضُ يمنع الإيمانَ باللهِ حتى لو كان الضَّبْطُ دالًّا على وجودِه ـ سبحانه ـ، بمعنى: أنه يَنْفِي دلالةَ الصُّنْعِ والتَّصميمِ من جهةٍ مبدئيَّةٍ؛ لأنّه يقومُ على مبدأ: وُجُوديٌّ هو سببُ شهادتي لطبيعةِ الأشياءِ، لا أنّ الأشياءَ دالّةٌ على وُجودِ تفسيرٍ لصياغَتِها على نحوٍ خاصٍّ فريدٍ.

ثالثًا: برهانُ الضّبطِ الدّقيقِ لا يدعُوكَ إلى أَلَّا تستغرِبَ أنَّكَ غيرُ موجودٍ في كَوْنٍ يزعُمُ الماديُّون أنّه عشوائيٌّ أَعْمى، وإنّما يدعوك إلى أن تستغربَ أنّك موجودٌ في هذا الكونِ الذي يزعمُ الماديُّون أنّه عشوائيٌّ.

من الممكنِ التّمثيلُ للأمرِ بالقولِ: افْتَرِضْ أنَّ العَدُوَّ قبضَ عليك، وقرّرَ التَّخَلُّصَ منك، وانتدبَ لذلك أفضلَ القَنَّاصةِ الذين أحاطُوا بك لِرَمْيِكَ بالرَّصاصِ عن قُرْبٍ. وفي لحظةٍ واحدةٍ أَطْلَقَ الجميعُ رصَاصَهُ صَوْبَكَ. ولكنْ بعد أن هَدَأَ صوتُ الرّصاصِ المنهَمِرِ نَحْوَكَ فَتَحْتَ عَيْنَيْكَ، فإذا أَنْتَ حَيٌّ لَمْ تُصِبْكَ رصاصةٌ واحدةٌ. وجاءَكَ شخصٌ يجري نحوكَ يقولُ لك: عَجِيبٌ.. كيف نَجَوْتَ من هذا الرّصاصِ الذي صُبّ عليك صبًّا من فُوهاتِ هؤلاء القَنَّاصةِ الذين ما كانوا يبعدون عنك سوى أمتارٍ قليلةٍ؟ هل سَتُجِيْبُهُ بفلسفةِ أنصار «المبدأ الإنسانيّ الضّعيفِ» نفسِها: لا داعيَ للاستغرابِ! الأَمْرُ بسيطٌ جدًّا! جوابي هو: لقد نَجَوْتُ من رَمْيِ القَنَّاصةِ لأنّني حَيٌّ الآن! لو أصابني رَصَاصُهُم، لَـمِتُّ، ولم أَكُنْ هنا لأُجِيْبَكَ[1]! تهافُتُ هذا التّفسيرِ من تهافُتِ جوابِ أنصارِ «المبدأ الإنسانيّ الضّعيفِ»؛ لا خلاف!

المطلب السابع

فماذا عن حياةٍ على غير صِفةِ حياتِنا؟

اعتراض: صحيحٌ أنّ وجودَ الحياةِ اليومَ رهينُ قوانينَ ونِسَبٍ فيزيائيّةٍ دقيقةٍ جدًّا، لكنّ تَخَلُّفَ بعض هذه القوانينِ أو الكثير منها على الصُّورة المعروفةِ لن يؤدّيَ إلى الغيابِ التّامِّ لظاهرةِ الحياةِ، وإنّما سيغيِّرُ خصائصَها؛ فسنشهَدُ عندها ـ مثلًا ـ حياةً قائمةً على غير الكربون.

(١) John Leslie, *Universes* (London and New York: Routledge, 1989), pp.13 - 14.

الجواب:

سبق بيانُ أنّ تخلُّفَ وجودِ عامّةِ القوانينِ الكونيّةِ والضّبطِ الدّقيقِ لبداية الكونِ وللثّوابتِ الكونيّةِ يمنَعُ وجودَ الذَّرَّاتِ والمجرَّاتِ وعَمَلِ الكيمياء والبيولوجيا. إنّه برهانٌ متعلّقٌ بمطلق الوجودِ الماديِّ الحيِّ لا الحياة البشريّةِ على أَرْضِنا.

ويشهَدُ (بول ديفيس) على ذلك بقولِهِ: «الشَّيْءُ المدهِشُ بحقٍّ ليس أنَّ **الحياةَ على الأرضِ** قائمةٌ على توازنٍ دقيقٍ جدًّا كَحَدِّ السِّكِّينِ، وإنَّما أَنَّ **الكَوْنَ كُلَّهُ قائِمٌ** على توازنٍ دقيقٍ كَحَدّ السّكّينِ... وحتى لو قُمْتَ بإهمالِ الحياةِ البشريّةِ وعَدِّها مُجرَّدَ حَدَثٍ غيرِ مُتوقَّعٍ في المجموع العامِّ للوجودِ، فستبقى هناك حقيقةُ أَنَّ الكونَ كُلّه يبدو مناسبًا بوجهٍ غير معقولٍ لوجودِ الحياةِ»[1].

ويقول (روبن كولنز) ـ أَهَمُّ مُنَظِّرِي برهانِ الضَّبْطِ الدَّقِيقِ ـ: إنّ هذا البرهانُ في جُلِّ النَّمَاذِجِ التي يَعْرِضُها مُتَعلِّقٌ بإمكانِ إقامةِ حياةٍ في الكَوْنِ، على أيِّ صُورةٍ، لا الحياةِ القائمةِ فقط على الهيدروجين. ويُبَرْهِنُ على ذلك بقوله: إنَّهُ لو كانت القوَّةُ النَّوويَّةُ الكُبْرى أَضْعَفَ قليلًا مما عليه الآن؛ فلن يُمْكِنَ لأَيِّ ذَرَّةٍ أنْ تَتَكَوَّنَ في الكَوْنِ باستثناء الهيدروجين. ولا يمكن للحياةِ ـ بداهةً ـ أن تقوم فقط على الهيدروجين[2]!

إننا إذن لا نَتَحَدَّثُ عن تَغَيُّرِ صيغةِ الحياةِ أو صِفَتِها، وإنّما حديثُنَا عن عَدَمِ إمكانِ قيامِ حياةٍ مُطْلَقًا لاشتراطِ الحياةِ، كلّ حياةٍ ماديّة، مادّة وضوابط.

---

(١) Paul Davies, BBC Horizon documentary, "The Anthropic Principle," 1987.

مقطع الفيديو:

<https://www.youtube.com/watch?v=r5aaBDbHI8I&t=51s>

(٢) Robin Collins, "A Scientific Argument for the Existence of God", in *Philosophy of Religion: An Anthology*, eds. Louis P. Pojman and Michael Rea (Australia; Stamford, CT, United States: Cengage Learning, 2015), p.215.

المطلب الثامن

لكن الاحتمالات كلها ممكنة على السواء!

اعتراض: كلُّ الاحتمالاتِ مهما كانت بعيدةً، فهي ممكنةٌ، أَلَا ترى أنّ كلَّ الأرقامِ المشاركة في مسابقة اليانصيبِ من الممكن أن توجدَ بصورةٍ متساويةٍ في باب الاحتمالِ..!

الجواب:

مثالُ اليانصيب بهذه الصّيغةِ كاشفٌ سوءَ فَهْمِ المعتَرِضِ لحقيقةِ برهانِ الضّبط الدّقيقِ. لا يسعى برهانُ الضّبط الدّقيقِ إلى إثبات إمكانِ وجود كونِنا، وإنما يسعى إلى بيانِ الضّعفِ الاحتماليّ لوجود الحياةِ في كونِنا ضمن شروطِ الضّبط الدّقيقِ للثّوابت الكونيّةِ وطبائعِ القوانين الطبيعيّةِ. ولذلك فالمثالُ الصّوابُ هنا لبيانِ الطّبيعةِ الاحتماليّةِ لظهور الثّوابت المرهفة والقوانينِ المتقنةِ في كونِنا هو أن يُحدِّدَ القائمون على اليانصيب رقمًا فائزًا من بين ترليونات ـ وأكثر من ـ الأرقامِ المشارِكةِ في المسابقةِ، ثم يُطْلَبُ من شخصٍ واحدٍ أن يَسْحَبَ هذا الرّقم في محاولةٍ واحدةٍ فقط. ذاك هو المثال الموافِقُ لاحتمالِ ظهور الحياة ضمن النِّسَبِ الحَرِجَةِ المطلوبةِ.

القضيّةُ ليست وجودَ كونٍ ما ضمن الاحتمالاتِ الهائلةِ لنشوءِ أكوانٍ ما، وإنما هو ظهورُ الحياة القائمةِ على مقدّماتٍ احتماليّةُ وجودها بعيد جدًّا، وأن تجتمع؛ لتنشأَ منها الحياةُ.

المطلب التاسع

الأكوان المتعددة؟

اعتراض: وجودُ عددٍ هائل جدًّا أو لامُتَنَاهٍ من الأكوان، بإمكانِه أن يُفسّر الضّبطَ الدّقيقَ لكونِنا على أنّه صدفةٌ سعيدةٌ؛ ففي ظلّ وجودِ عددٍ لامُتَنَاهٍ أو بلايين بلايين بلايين... الأكوانِ، من الممكن أن يوجد كونٌ مضبوطُ النِّسَبِ والقوانين مثل كونِنا..

الجواب: يطرح جمهورُ الفيزيائيّين الملاحدةُ اليومَ ثنائيّةَ: الله ـ سبحانه ـ أو الأكوان المتعدّدة، وبعبارة (وينبرغ) في حديثِه إلى (داوكنز): «إذا اكتشفْتَ ضبطًا دقيقًا مُذهِلًا بالفعل.. أعتقدُ أنّه لن يبقى لك سوى تفسيرَيْنِ: مصمّم خَيِّرٍ أو الأكوان المتعددة»[١].

مشكلةُ فرضيّةِ الأكوانِ المتعدّدة حلًّا لحقيقة الضّبط الدّقيقِ لها عدّة أوجهٍ:

أوَّلًا: الأكوانُ المتعدّدةُ دعوى بلا برهانٍ علميٍّ: يَقِيْنُنا العِلميُّ حتّى السّاعةِ لا يتجاوزُ حدودَ كونِنا إلى غيرِه، وكلُّ حديثٍ عن ما وراء كونِنا مجرّدُ افتراضٍ بلا برهانٍ واحد صُلْبٍ. بل الأَدْهى من أن نكونَ اليوم جاهِلِين بوجودِ أكوانٍ أخرى، هو أنّنا في عَجْزٍ اليوم وغدًا عن الكشفِ عن هذه الأكوان. يقول عالم الفيزياء الفلكيّةِ (جورج إليس): «نحن لا نملك معلوماتٍ عن هذه المناطق، ولن نعرفَ عنها شيئًا في المستقبل»[٢]. الإلحاد ـ إذن ـ يَفِرُّ من الدّليلِ الماديِّ المحسوسِ إلى الغيبِ ومحضِ الظنّ الذي لا يسندهُ برهانٌ.

الأمرُ في حقيقتِه دعوى إيمانيّة بلا دليلٍ جادٍّ، كتلك التي يُقرّرها الـمُؤَلِّـهَةُ من أنصارِ «المذهب الإيمانَوِيِّ» «Fideism». يقول (هولدر)[٣]: «يُقدِّم استدعاءُ الأكوانِ المتعدّدة تفسيرًا ميتافيزيقيًّا للحياة لا تفسيرًا علميًّا لها؛ بسبب عدم وجود آثار قابلة للملاحظة. كما أنّ هذه النظريّةَ هي أيضًا غيرُ علميّةٍ بمعنى آخر، وذلك أنّها تقدّم نوعًا «جامعًا» لكلّ تفسيرٍ»[٤].

ثانيًا: لماذا يفترض الملاحدة أن تكون الأكوانُ المتعددة مختلفةً بصورةٍ واسعةٍ بما يسمح أن تستوعِبَ جميع الاحتمالات الممكنة لمختلفِ القوانين والنِّسَبِ الفيزيائيّة؟! بل ما الذي يمنعُ أن تكون هذه الأكوانُ على الصّورة

---

(١) Cited in: Amanda Gefter, 'Why it's not as simple as God vs the multiverse,' *New Scientist*, 2685, p.48, 6 December 2008.

(٢) George F.R. Ellis, 'Does the Multiverse Really Exist?' *Scientific American*, 2011, 305 [2]: 41.

(٣) رودني هولدر Rodney Holder: عالم فيزياء فلكيّة ورياضيات. مدير مؤسسة «Faraday Institute for Science and Religion» في كلية «St. Edmund». له عنايةٌ خاصّةٌ بالرَّدِّ على الفيزيائيّين الملاحدة.

(٤) Rodney Holder, 'Fine-Tuning, Many Universes, and Design,' *Science & Christian Belief*, Vol 13, No. 1. 20.

نفسها أو على صورٍ متقاربةٍ جدًّا؛ إذ هي نِتاجُ آليّةٍ فيزيائيّة واحدةٍ أَخْرَجَتْهَا إلى الوجودِ؟!

ثالثًا: القولُ بالأكوانِ المتعدّدة يُخالِفُ أَصْلَ قاعدة «نصل أوكام» التي يقوم عليها البحث العلميّ الحديث؛ وهو أنّه لا يجوز افتراضُ عناصرَ أكثرَ في عمليّةِ التّفسير دون ضرورةٍ؛ فإذا تخالَفَتْ نظريّتانِ تملكانِ القُوّة التّفسيريّة نفسَها، أُخِذَ بأبسَطِهما؛ فلو أنَّ ظاهرةً طبيعيّةً ما فُسّرَتْ بسببٍ طبيعيّ واحدٍ في قولٍ، وبسبَبَيْنِ طبيعيَّيْنِ اثنَيْنِ في قولٍ ثانٍ؛ يؤخذ بالقولِ الأوّل إذا استوَتْ القوّة التفسيريّةُ للقَوْلَيْنِ.

رابعًا: الأكوانُ المتعدّدة لا تُلغِي المشكلةَ وإنّما تدفعها إلى الخَلْفِ قليلًا: تقع دعوى الأكوان المتعددة أساسًا في شكلَيْنِ اثنين ـ كما يقول (كولنز):

الشّكلُ الأوّلُ: دعوى ميتافيزيقيّة بحتةٍ، وهي وجودُ كلّ الأكوان الممكنةِ دون سببٍ ولا ضرورةٍ. وأنصارُها قِلَّةٌ قليلةٌ[1]؛ فهي بلا بُرهانٍ مع غَرَابَةٍ فاحشةٍ، كأنْ تَفْتَرِضَ أكوانًا على كلّ الألوان المعروفة، وكلّ الأحجام الممكنة، وكل الأشكال الممكنة، وكلّ الروائح الممكنة... بالإضافة إلى مشكلة امتناع قيام ما لا يتناهي في حيّز الوجود.

الشّكل الثّاني: وهو التصوّر الأشهرُ، ويقرّر أنّ الأكوانَ تَنْتُجُ عن نظامٍ فيزيائيٍّ يُسمّيه (كولنز): «مُوَلِّد الأكوانِ». وله أنصارٌ كثر من كبارِ الكوسمولوجيّين مثل (أندريه لاند) و(مارتن ريس).

الطبيعةُ الأَبْرزُ لآلِيَّةِ خَلْقِ الأكوانِ كما تَظْهَرُ في النَّماذجِ الكونيَّةِ المطروحةِ، هي أنَّها آليّةٌ قائمةٌ على دِقَّةٍ وتناسقٍ وانضباطٍ عالٍ لإنتاجِ أكوانٍ جديدةٍ. وهو ما يعني: أَنَّنا في حاجةٍ إلى ضبطٍ دقيقٍ لظهور هذه الآليةِ الذكيَّةِ، وتأكيدِ الحاجةِ إلى تفسيرِ المشكلة الأُوْلى مع كونِنا الحاليّ[2].

---

(١) منهم الفيلسوف (David Lewis) وعالم الكوسمولوجيا (Max Tegmark).

(٢) Robin Collins, 'Design and the Many Worlds Hypothesis'.
<http://home.messiah.edu/%20~rcollins/fine-tune/Craig7.htm>.

خامسًا: هل هُمْ جادُّون؟: هل الذين يُدافِعُون عن أكوانٍ عَدَدُها أكبرُ من عددِ ذَرَّاتِ كونِنا؛ بل ربّما لانهائيّة، لتفسير الضّبط الدّقيق لكوننا يسلكون الطّريق الجادَّ لتفسير هذه الظاهرة؟ أَلَا يبدو فِعْلُهُمْ حالَ عِنادٍ واستكبارٍ عن الإذعانِ للحقِّ؟!

يعجبني هنا مثالُ الفيلسوف (بلانتنجا) في بيان الأمر؛ إذ يخبرنا عن رجلٍ في قاعةِ قِمارٍ يربح عشرات المرّاتِ على التوالي في لُعبةِ الوَرَقِ (poker) من أوّل مرّة، وهو أمرٌ لا يحصل البتّة في هذه اللعبة التي تقوم في أصلِها على الحظِّ عند تقسيم الأوراق عشوائيًا. ينظر هذا اللّاعبُ المحظوظ إلى زملائه ويقول لهم: لعلّكم تستغربون فوزي المتكرّر من المرحلة الأولى دائمًا، وتظنّون أنّ هناك خُدْعةً! لا! تفسير الأمر ببساطةٍ هو أنّه بسبب وجود عددٍ لانهائيٍّ من الأكوان، فإنه من غير المستغرب أن يتوافق بالصُّدفةِ أن يفوز واحدٌ في عشرات المرّات المتتالية من أوّل دورٍ في كوكبٍ ما!

هل ترى أحدًا من الجالسين يأخذ كلامَهُ مأخذ الجدّ رغم أنّ ما يصحّ في حاله يصحّ في حال الضّبط الدّقيق للكون، وإن بدرجة أقلّظ!

إنّ افتراض عددٍ غيرِ محدودٍ من الأكوان لِتفسيرِ شيءٍ ما، يلزمُ منه أنّ لا يُفَسِّرُ شيءٌ شيئًا؛ فما يفسّر كلّ شيء، لا يفسّر شيئًا... وفي عالم الأكوان المتعدّدة، كلُّ شيء ممكن، كائنٌ.. وفي ذاك الوجود، لا معنى للقانون والعِلّة والعِلمِ لأنّه يكفي لتفسيرِ أيّ شيء القولُ: إنّه غير مستحيلٍ منطقيًا.. وامتناع الاستحالة المنطقيّة برهانُ وجودِه الضروريّ..!

سادسًا: دعوى الأكوان المتعدّدة لا تبلُغ أن تلغيَ ظاهر الضّبط الدّقيق لكوننا؛ فكما يقول عالِمُ الكيمياء الحيّوية الحائز على **جائزة نوبل** (كريستيان دو دوف)[1]: «حتى لو تَبَيَّنَ أن النظريّةَ صحيحةٌ، يبقى أنّ النتيجة التي أَسْتَخْلِصُها من ريس ووينبرغ تُذكّرني بما يُسمّى بالفرنسيّة «إغراق الأسماك». حتّى لو استخدمْتَ كلّ المياه في المحيطات لإغراق الحيوان، سيبقى وجودُ

---

(١) كريستيان دو دوف Christian de Duve (١٩١٧ ـ ٢٠١٣م): عالم كيمياءٍ حيويّة بلجيكيّ. حصل على جائزة نوبل عن اكتشافاته المهمّة لتركيب الخليّةِ وعَمَلِها.

هذا الحيوان هناك رغم ذلك مُؤكَّدًا. مهما كان عدد الأكوانِ التي من الممكن افتراضُ وجودِها، لا يمكن أن يصبح كونُنا بلا تميّز بسببِ ضخامة هذا العدد»[١]، فوجود كونٍ اجتمعَتْ له شروطُ الحياة الدّقيقة والبعيدة يبقى حقيقةً مستفزّةً للذّهنِ، بعيدًا عن وجود أكوانٍ أخرى، مهما كَثُرَتْ عَدَدًا.

مختصر النَّظَرِ:

- وجودُ حياةٍ، أيّ نوعٍ من الحياة، في هذا الكوكب رهينُ وجودِ قوانينَ دقيقةٍ وضبطٍ حادٍّ جدًّا للثّوابتِ الكونيّةِ، باعتراف عامّةِ الفيزيائيّين الملاحدة.
- الظروف الأولى للكون كانت مهدّدة بصورة بالغةٍ أن تؤولَ إلى دمارٍ شاملٍ وفوضى عارمةٍ في غَيْبَةِ الضّبط الدّقيقِ لتلك البدايةِ.
- برهان الضّبط الدّقيقِ هو البرهان الذي أَلْزَمَ كثيرًا من أعلام الإلحاد بالاعتراف أنّه محيّرٌ.
- هربَ الملاحدةُ الماديُّون إلى افتراض وجود عدد هائلٍ جدًّا أو لانهائي من الأكوان لتجاوُزِ مشكلةِ ظاهر الضّبط الدّقيق للكون، دون بُرهانٍ عِلميٍّ؛ فوقعوا بذلك في الإيمان الأعمى بما لا دليل عليه ولا قرينةَ جادّة تَدْعَمُهُ.

مراجع للتوسُّع:

Paul Davies, *Goldilocks Engima: Why Is the Universe Just Right for Life?*, New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2008.

Guillermo Gonzalez and Jay W. Richards, *The Privileged Planet, How Our Place in The Cosmos is Designed for Discovery*, Regnery Publishing, 2004.

Rodney D. Holder, *God, the Multiverse, and Everything: Modern Cosmology and the Argument from Design*, Routledge, 2016.

Hugh Ross, *Improbable Planet: How Earth Became Humanity's Home*, Grand Rapids, Michigan: Baker Books, 2017.

Robert J. Spitzer, *New Proofs for the Existence of God: Contributions of Contemporary Physics and Philosophy*, Grand Rapids, Mich.: William B. Eerdmans Pub., 2010.

(١) Christian de Duve, *Life Evolving* (Oxford: Oxford University Press, 2002), p.299.

الفصل الثاني

برهان النظم في عالم الأحياء، الحقيقة والمعارضات

- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٢٠]
- «مِنْ وَقْتٍ لآخرَ يُعيد التطوُّريُّون بحثَ دراسةٍ تجريبيّة تقليديّة، ويجدون ـ بصورةٍ صادمةٍ لهم ـ أنّها دراسةٌ مَعِيبةٌ وخاطئةٌ تمامًا»(١).

البيولوجيّ الملحد (جيري كوين)(٢)،

صاحِبِ أشهرِ كتابٍ في الغرب في الدّفاع عن التطوّر(٣)

بين خيارين: نَظْم حَكِيم أم عشوائيّة عابثة؟

نَظْمُ عالَـم الأحياء على صورةٍ تجمعُ بين التّعقيد والوظيفيّة يحاصر العَيْنَ أَنَّى نَظَرَتْ، ويُبْهِرُ العقلَ أنّى تأمَّلَ، وهو ما جعل النّظم في عالم الأحياء الحجَّةَ العقليّةَ الأبرزَ للإيمان باللهِ على مدى التّاريخ البشريِّ المعلومِ.

ومن أعظمِ دلائل صلابةِ برهانِ النّظم في عالم الأحياء، ما تراه في كتابات أهمِّ الفلاسفةِ الذين تَعَرَّضُوا إلى دلائل وجود الله بالتَّشكيكِ أو النَّقضِ كـ(كانط) و(برتراند راسل)؛ إذ اعترفُوا أنّ برهانَ النَّظْمِ لا يخلو من مَتَانةٍ، وأنّه لا سبيل لإبطالِهِ بِحَسْمٍ؛ فقد كتب (كانط)(٤): «تستحِقُّ هذه الحجّةُ أن تُذْكَرَ

---

(١) J.A. Coyne, Not black and white, review of "Melanism, Evolution in Action", by Michael E.N. Majerus. Nature 396, 35 (1998).

(٢) جري كوين Jerry Coyne (١٩٤٩ـ): بيولوجيٌّ أمريكيٌّ. أستاذٌ سابقٌ في جامعة شيكاغو. من أَهَمِّ خُصوم تيَّارِ التَّصميم الذَّكِيّ.

(٣) *Why Evolution is True*, 2009.

(٤) قَدَّمَتْ بعضُ الكتابات العربيّة ـ في القرن العشرين ـ الفيلسوفَ الألمانيّ (عمانويل كانط) على أَنَّهُ نصيرُ الإيمان؛ لأَنَّهُ استدَلَّ بالحاجةِ الأخلاقيّة للآخرة تحقيقًا للعَدْلِ النّهائيّ لإثبات وجودِ الله. وهذه دعوى =

باحترام. إنّها أَقْدَمُ الأدلَّةِ وأوضَحُها وأكثَرُها موافقةً لبداهة العقلِ البشريّ»[1]، وأمّا (راسل) فقد قال: إنّ هذا البرهانَ يقوم على القولِ: إنّ النَّظَرَ في عالم الطبيعة يدلُّ على أنّ من مظاهرِ الوجود الماديِّ ما لا يمكن رَدُّه لأثرِ الطبيعةِ العمياء. وزاد: «ليس في هذا البرهانِ عَيْبٌ منطقيٌّ صوريٌّ؛ إذ إنّ مُقدّماته تجريبيّةٌ وتعترف نتيجَتُه أنّه يُتَوَصَّلُ إليها بالتّوافقِ مع القواعد المعهودةِ للاستنباطِ التّجريبيّ. ولِذا فالسُّؤال حول قَبُولِ هذا البرهانِ أو رَدِّهِ ليس مُتعلّقًا بالأسئلةِ الميتافيزيقيّة، وإنَّما باعتبارات التّفاصيل المقارَنَةِ»[2].

برهانُ النّظم هنا ـ إذن ـ قائمٌ على النَّظَرِ في طبيعة عالم الأحياءِ، وقبولها للتّفسير العشوائيِّ أو النَّظْمِ الحَكِيمِ. وهذا ما يجعل الخلافَ بين المؤمنِ والملحدِ واضحَ المعالِم.

يقول المؤلّه: وجودُ الله يتوافق مع[3]:

- مظاهر الحِكْمةِ والإتقانِ في عالم الأحياءِ.
- آثار النَّظْم ظاهرةٌ للعلماء وللعامّة لأنّها طريقُ الجميعِ إلى العلم بوجود الله وكَمَالِ قُدْرتِه.
- يجد الإنسانُ مَشَقَّةً في تقليد هذا النَّظْمِ؛ وفي هذه المشقّةِ برهانٌ أنّ هذا الكونِ ونَظْمَهُ ليس من آثار العشوائيّةِ.
- يقف الحسابُ الاحتماليُّ بصورةٍ واضحةٍ ضدَّ إمكان نشوء هذا النّظم عن عشوائيّةٍ أو سلاسلِ أَحْداثٍ عشوائيّةٍ.

يقول المخالِفُ: في كونٍ بلا خالقٍ حكيمٍ، من المتوقَّعِ أن نرى:

- العشوائيّة قادِرة على أن تصنعَ أُمورًا ظاهِرُها النَّظْمُ.

= عجيبةٌ؛ لأنَّ (كانط) عند جميع مُؤرّخي الفلسفةِ واللّاهوتِ الطبيعيّ أَهَمُّ فيلسوفٍ في تاريخ المعرفة قَدَّمَ اعتراضاتٍ على براهين وجودِ الله، وهو أَبْرَزُ مُؤسّسي اللّاأدريَّةِ المعرفيّة عامَّةً، والدّينيّة خاصّةً. ونظريّتُهُ في المعرفة تقومُ على أنَّهُ لا سبيلَ لإدراكِ الأشياءِ على حقيقتِها، وغايةُ أَمْرِنَا إدراكُ علاقاتنا بالأشياء، وهذه العلاقاتُ هي مُجرَّدُ صياغاتٍ في الذِّهْنِ غيرِ مُتَحَقِّقةٍ ضرورة في الخارج.

(١) Immanuel Kant, *Critique of Pure Reason*, p.520.

(٢) Bertrand Russell, *A History of Western Philosophy*, p. 589.

(٣) يتوافق، لا أنَّهُ واجبٌ؛ لأنَّ حِكْمَةَ الإلهِ أَوْسَعُ من أنْ تُحْصَرَ في سبيلٍ واحدٍ لبيانِ وُجُودِه وعَظَمَتِهِ.

• غياب الغائيّة في الطّبيعة.

تلك نبوءاتُ الفريقَيْنِ؛ فمن تُصدّق الطّبيعةُ، والطّبيعةُ لا تَكْذِبُ؛ فليس لها غَرَضٌ دَفِينٌ يُوَجِّهُهَا، ولا قَلْبٌ يَلِيْنُ فيُحرّكها.. إنّها بَصْمَةٌ ناطقةٌ بنفسِها، تشهَدُ للحكمةِ أو العشوائيّةِ دون حَرَجٍ؟

صياغةُ برهان النَّظمِ في عالَمِ الأحياءِ:

لا يمكن لبرهانِ النَّظْمِ أن يجد مجالًا للنّقاشِ الـمُنْصِفِ، بعيدًا عن تَحَيُّزِ طَرَفَيْ الحِوَارِ، دون ضبطِ حقيقةِ البرهانِ، ولذلك علينا أن نرسم صورةً للبرهان تُلزِمُ المؤمنين بالله والملاحدةَ أَلَّا يَخرُجوا عن حُدُودِهِ؛ لِتَتَّضِحَ قوّةُ هذا البرهانِ في مواجهة ما يُراد به نقضه، خاصّةً بعد انتشار صياغاتٍ يرى الملاحدةُ أنّها تمثّل حقيقةَ هذا البرهان رغم ضعف بنيانها الاستدلاليّ.

صياغة البرهان:

١ ـ العشوائيّةُ لا تُنْتِجُ نَظْمًا مُتْقنًا.

٢ ـ عالَمُ الأحياءِ يحمل ظاهرَ النَّظمِ الـمُتْقَنِ.

٣ ـ عالَمُ الأحياءِ ليس عشوائيًّا.

٤ ـ عالم الأحياء أَثَرٌ عن نَظْمٍ.

المقدمة الأولى لهذا البرهان سِرُّ نجاح البرهان أو فَشَلِه؛ ولذلك سيكون الحديث في الفصل التالي خاصًّا ببيان عجز العشوائيّةِ عن تفسيرِ كثيرٍ من مظاهِرِ عالم الأحياء، وسنتناول قبلَهُ ـ في فصلنا هذا ـ تعريفَ برهانِ النّظم، والاعتراضَ عليه بما يُعرف بالنظريّةِ التطوّرية، فاصِلِيْنَ بين مفهوم التطوّر على أنّه قراءةٌ تاريخيّةٌ لتاريخ الأحياء، وآلية التطوّر العشوائيّة التي تُهدِّدُ صدقَ برهان النّظم إن صَحَّتْ. ونحن في هذا المسلَكِ النّقديِّ نَجْنَحُ إلى خيارٍ ما يُعرَفُ في الغربِ «بالتَّصميمِ[1] الذَّكِيِّ» «Intelligent Design» الذي يرى أنّ خصم برهانَ

(١) فِعْلُ اللهِ أكبرُ من أنْ يكون مُجرّد تصميمٍ، والإبداعُ هو الإنشاءُ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، وهو فِعْلٌ حَكِيمٌ لا ذَكِيٌّ؛ إذِ الذَّكاءُ أَثَرٌ عن عَمَلِ دِماغٍ، فلا يَلِيْقُ وَصْفًا للهِ سُبحانَهُ.

النّظم هو العشوائيّةُ المطلقةُ لا التطوّر عن أصلٍ واحد مشترَكٍ، وإن كُنّا ـ مع ذلك ـ نقول بالخَلْقِ لا بالتطوّرِ.

سنتناول في هذا الفصل ما يتعلّق بأمر التطوّر عن أصلٍ مشترك (ثم آليات العشوائيّين)، وإن كنّا نراه خارج معركةِ الدّفاع عن ما يُعرف ببرهانِ النّظم، وذلك لبيان فسادِ الاستدلالِ به في هذا المقام منهجيًّا وعلميًّا.

خَصْمُ بُرهانِ النَّظْمِ العشوائيَّةُ، لا التَّطَوُّرُ عن أَصْلٍ مُشْتَرَكٍ

والأسئلةُ التي تُلِحُّ في طَلَبِ جوابٍ في هذا الباب هي:

١ ـ ما حقيقةُ برهانِ النّظم وموقِعُ طَرَفَيِ السِّجالِ فيه؟

٢ ـ هل التطوُّرُ البيولوجيُّ برهانٌ جادٌّ للإلحادِ؟

٣ ـ هل يشهد تاريخُ الحياةِ للتطوّرِ؟

٤ ـ هل كشف العِلْمُ آليّةً ماديّةً للتطوُّرِ؟

٥ ـ هل الدَّاروينيّةُ حقيقةٌ علميّةٌ أم مجردّ نظريّةٍ، أم. . . ؟

٦ ـ هل يوجد برهانٌ علميٌّ على تطوُّرِ (آدم) عليه السلام عن سَلَفٍ أَوَّل؟

المبحث الأول

مدخل إلى برهان النظم

العِلمُ بحقيقة بُرهانِ النّظمِ فرعٌ عن العِلمِ بموقِعِهِ في جَدَلِ اللَّاهوتِ الطبيعيِّ عامّةً، وتفسيرِ منظومةِ عالم الأحياءِ خاصّةً، وبإدراك ذلك بعيدًا عن الصّياغات الإلحاديّة المتحيّزة، من الممكن أن يبدأَ الجَدَلُ في صدقِ هذا البرهان على بَيِّنةٍ من حقيقتِهِ، ومن طبيعةِ الجَدَلِ الإيمانيّ ـ الإلحاديّ.

المطلب الأول

تاريخ البرهان

برهانُ النّظمِ عامّةً، والنّظمُ في عالَم الأحياء خاصّةً ـ وهو الذي نقصده هنا ـ يسمّى بـ(البرهان الغائِيِّ)؛ إذ الوجودُ الماديُّ متحرّكٌ نحو غايةٍ ولا يَنْتَظِمُ في حركةٍ سادِرةٍ. وقد كتبَ فيه قديمًا (أفلاطونُ)[1]، ونُسِبَ إلى أُستاذِه (سقراط) ـ أيضًا ـ الحديثُ في البابِ[2]. ونَقَلَ (إكسونوفان)[3] عن أُستاذِه (سقراط) في مُؤلَّفِه الذي جمع فيه محاوراتِ (سقراط)[4] أنّ «كُلَّ ما يوجد للاستعمال؛ فهو أَثَرٌ عن ذكاءٍ» ـ وهو تعريفٌ لا يُتَابَعُ عليه لإجمالِه الشَّديدِ ـ.

وقد أفاض في شرح هذا البرهان علماءُ الإسلام (كالغزّالي) و(ابن الجوزيّ) و(ابن القيّم)، وذكروا ما في عجيبِ خِلْقَةِ الإنسانِ من حِكْمةٍ وإتقانٍ

---

(١) Plato, *Laws*, book X.

(٢) Plato, *Phædo*.

(٣) إكسونوفان Xenophon (٤٣٠ ـ ٣٥٤ ق. م): تلميذ (سقراط). فيلسوفٌ يونانيٌّ ومؤرّخٌ.

(٤) Ἀπομνημονεύματα

وتَنَاسُقٍ تمنَعُ البداهَةُ رَدَّهَا إلى العَبَثِ أو العشوائيّةِ. وحفل بهذا البرهان بعض فلاسفة اليهود (كابن ميمون) ولاهوتيّي النّصارى كـ(توما الأكويني) بدرجةٍ دُنْيا، وكان كتاب (وليام بالي)[1]: «اللّاهوت الطّبيعيّ»[2] أَهَمَّ ما كتبَهُ اللّاهوتيّون النّصارى قبل القرن العشرين.

لم تبدأ المشاكساتُ الحقيقيّةُ لبرهان النّظم إلّا مع (هيوم) في القرن الثّامن عشر، ثم (كانط) في القرن نفسِه، غير أنّها بَقِيَتْ ضيّقةَ الأَثَرِ حتّى جاء (داروين) في القرن التالي لِيُحْدِثَ بَلْبَلَةً ظهرَتْ آثارُها الواضحةُ في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ولم يَسْتَعِدْ برهانُ النّظمِ حَيَوِيَّتَهُ إلّا مع نهاية السبعينيّات وبداية ثمانينيّات القرن العشرين على يدِ عددٍ من العلماء مثل (تشارلس ثاكستن)[3] و(والتر برادلي)[4] و(روجر أولسن)[5] المؤسِّسين الأوائل للتيّار المعروف باسم «التّصميم الذكيّ». وقد أقاموا أُطروحتهم أساسًا على أنّ المعلومات الرقميّة المشفّرةَ في «الحَمْضِ النَّوويِّ الصِّبْغِيِّ» لا يمكن تفسيرها بغيرِ نَظْمٍ حَكِيمٍ بعيدٍ عن الدّاروينيّة وعشوائيَّتِها[6]. والتعريفُ الرسميُّ «للتّصميم الذكيِّ» في أدبيَّاتِ مُؤَسِّسِي الصّياغةِ الحديثة لهذا التيّار هو أنّ «**السَّبَبَ الذَّكِيَّ هو التّفسيرُ الأفضلُ لبعض مظاهرِ هذا الكونِ والكائناتِ الحيّة، لا العَمَليّةُ غيرُ المُوَجَّهَةِ مثلَ الانتخابِ الطّبيعيِّ**»[7].

ويُعَدُّ برهانُ النّظمِ مركزيًّا في الخطاب القرآنيِّ الحِجاجِيِّ؛ إذ تَعَدَّدَت الآياتُ في بيان أنّ الكونَ صَنْعَةٌ إلٰهيّةٌ مُتْقَنَةٌ، بما فيه من أحياء، وهو ما

---

(١) وليام بالي William Paley (١٧٤٣ ـ ١٨٠٥م): لاهوتيٌّ بريطانيٌّ له عنايةٌ باللّاهوت الطّبيعيِّ والرّدّ على الملاحدة.

(٢) Natural Theology.

(٣) تشارلس ثاكستن Charles Thaxton (١٩٣٩ـ): كيميائيٌّ أمريكيٌّ، وعضوُ «مؤسّسة ديسكوفري».

(٤) والتر برادلي Walter Bradley (١٩٤٣ـ): أستاذ الهندسة في جامعة «بايلور».

(٥) روجر أولسن Roger Olsen (١٩٥٠ـ): عالم كيمياءِ الأَرْضِ. عضوُ الجمعيّة الأمريكيّة للكيمياءِ.

(٦) Stephen C. Meyer, A Scientific History-and Philosophical Defense-of the Theory of Intelligent Design. <http://www.discovery.org/scripts/viewDB/filesDB-download.php?command=download&id=3241>.

(٧) تعريفٌ قياسيٌّ لا يُنْسَبُ عادةً إلى كاتِبٍ بِعَيْنِهِ.

يستدعي من العَبْدِ الإعجابَ والتقديرَ، والخضوعَ للقدير الذي خلقَ الكونَ على خيرِ صُورةٍ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السَّجْدة: ٧]؛ وإن لم يكن القرآنُ مُتوجِّهًا ابتداءً لإثباتِ الرُّبوبيّةِ، وإنّما تستثير الآياتِ معاني الأُلوهيّةِ وضرورةَ التّوحيد بالإشارة إلى حقيقةِ الرُّبوبيّة في الخلق والنَّظْمِ والهداية.

المطلب الثاني

حقيقةُ النَّظْمِ.. وعِبْءُ الإثباتِ

يتّفقُ الـمُؤَلِّـهَةُ والملاحدةُ أنّ عالَمَ الأحياءِ كاشِفٌ عن «ظاهرِ النَّظْمِ» «The appearance of design»، والقصد بظاهر النّظم هو أنّ تركيب هذا العالَمِ وعَمَلَهُ على المستويَيْنِ الكبير والصّغير (الخَلوي)[١] يُوحِي بوجود نظم، ومن ذلك قولُ داوكنز: «البيولوجيا هي دراسةُ الأشياء المعقّدة التي تحمل **مَظْهَرَ** ما تمّ تصميمُه لِغايَةٍ» «biology is the study of complicated things that have the **appearance** of having been designed for a purpose»[٢].

الخلافُ بين الـمُؤَلِّـهَةِ والملاحدةِ ليس إذن في **ظاهر** النَّظْمِ، وإنّما هو في **حقيقةِ** النّظم؛ فالمؤلّهُ يقولُ: إنّ ظاهر النّظمِ سَبَبُهُ أنّ النّظم حقيقةٌ؛ فعالَمُ الأحياءِ يبدو منظومًا لأنه ـ ببساطة ـ على الحقيقة منظومٌ. وأمّا الملحِدُ اليومَ فيقول: إنّ ظاهرَ النّظمِ خادعٌ لأنّ هناك آلياتٍ عشوائيّةً غيرُ قَصْديّةٍ أَدَّتْ إلى ظُهورِ الشَّكْلِ المنظومِ المخادِعِ.

والمؤلّهُ ـ بذلك ـ لا يجد مُشاقّةً في التّوفيق بين ظاهر النّظم وحقيقتِه؛ لأنّه يجري على أصلِ أنّ ظاهرَ الشيء يعكِسُ حقيقةَ الشّيءِ. وهذا هو الأصلُ في كلّ أمرٍ وليس الاستثناء. وأمّا الملحِدُ فيحاول أن يثبِتَ أنّ أَصْلَ النّظم وَهْمٌ، ولكنّه يدفع ثمن ذلك باهظًا، وهو الاصطراع الدّائمُ مع الأشكالِ الكثيرةِ والمتنوّعة لظاهِرِ النّظمِ؛ وهو ما اضطرَّ البيولوجيّ الملحِد (فرنسيس كريك) إلى

---

(١) الخلويّ = نِسبةٌ إلى الخليّة.

(٢) Richard Dawkins, *The Blind Watchmaker* (London: WW Norton & Company, 1986), p.1.

أن يقول: «**يجب على البيولوجيّين أن يتذكَّرُوا دائمًا أنّ ما يَرَوْنَهُ هو شيءٌ لم يُصَمَّمْ، وإنّما هو مُتَطَوِّرٌ**»[1]. وهي عبارةٌ تكشِفُ مبلغ ظهور طابع النّظم في عالَمِ الأحياء، ومدى معاناةِ العقل البشريِّ لإنكار هذا الطابع الظاهر بل الفاحش في استعلان أَماراته وفُشُوِّ مَعَالِـمِهِ. ولذلك قِيلَ: إنّ البيولوجيّ الملحد (ج. ب. أس. هالدين) شَبَّهَ علاقةَ الغائيّة بالبيولوجيا بعلاقة الرّجلِ مع عشيقتِه غير الشرعيّةِ؛ فلا هو ـ من جهةٍ ـ يريد أن يُرى معها أمام النّاس، ولا هو ـ من جهةٍ أخرى ـ يملك أن يَتَخَلَّى عنها[2].

وهي المعاناةُ ذاتها التي بَلْبَلَتْ نفسَ (داروين)؛ فقد روى دُوقُ أرجيل[3] سنة ١٨٨٥م حوارًا جَمَعَهُ بـ(داروين) قبل سنةٍ من وفاة (داروين)، وأشار فيه الدُّوقُ إلى ظواهرَ تكشِفُ الغائيّةَ في الطّبيعة لاحَظَهَا (داروين) مثل تلقيحِ زَهْرةِ الأُوركيد، ودُودةِ الأرضِ، وغير ذلك..

وقال الدُّوقُ: إنّه من المحال أن يلاحظَ الإنسانُ وجودَ هذه الظواهر العجيبةِ دون رَدِّها إلى حكمةٍ أو عقلٍ وراءَها. وأضافَ: «لن أنسى أبدًا إجابة السيّد داروين. لقد نَظَرَ لي بِجِدٍّ، وقال: «حَسَنًا، هذا الخاطِرُ كثيرًا ما يطرقُ رأسي، بشدّةٍ، ولكنْ في أحيان أخرى ـ وهَزَّ رأسَهُ بصورةٍ غامضةٍ، وزاد ـ، يبدو أنه يَتَلاشى»[4].

غايةُ التّنبيهِ على «ظاهر النّظم» كَشْفُ مغالطةِ الملاحدةِ عند ادّعائهم أنّ إثباتَ وُجود نَظْمٍ حقيقيٍّ يقع على عاتقِ المؤلِّهِ لا الملحِدِ. وهذه مُخاتلةٌ واضحةٌ تخالفُ الأصولَ المعلومة للجَدَلِ؛ إذ إنّ على مُنْكِرِ حقيقةِ الظّاهرِ إثباتُ أنّ هذا ظاهرٌ مخادِعٌ، لا العكس؛ فإنّ الأصلَ في الأشياء صدقُ ظاهرِها إلّا أن يُثْبِتَ البرهانُ خِلافَ ذلك.

---

(١) Francis Crick, *What Mad Pursuit: A Personal View of Scientific Discovery* (London: Sloan Foundation Science, 1988), p.138.

(٢) Victoria Alexander, *The Biologist's Mistress: Rethinking self-organization in art, literature, and nature* (Litchfield Park, AZ: Emergent Publications, 2011), p.7.

(٣) Duke of Argyll.

(٤) Charles Darwin, Francis Darwin, ed. *The Life and Letters of Charles Darwin* (New York: D. Appleton, 1898), 1/285.

المؤلِّهُ يقولُ: الأُمورُ على ظاهرِها حتى يَثْبُتَ خِلافُ ذلك = النَّظْمُ حقيقةٌ حتّى يَثْبُتَ أَنَّهُ وَهْمٌ. الملحِدُ وَحْدَهُ مطالبٌ بإقامة الحجّةِ في الجَدَلِ حول النّظمِ؛ لأنّه يُقِرُّ مع المؤلّهِ أنّ النَّظْمَ ظاهرةٌ قائمةٌ، وإنْ زَعَمَ أنها ظاهِرةٌ مخادِعةٌ.

المطلب الثالث

المذاهب في تفسير النظم

قاد الجَدَلُ الإيمانيّ ـ الإلحاديُّ في باب تفسير ظاهرةِ الأحياء وأشكالها إلى ظهور ثلاثةِ مذاهبَ كُبْرى:

يقرّر المذهبُ الأولُ: أنّ أنواع[1] الكائناتِ الحيّة قد نشأَتْ دونَ سَلَفٍ، مَرّةً واحدةً، على صورةٍ كاملةٍ ومعقّدةٍ، في أزمنة متوالية؛ فجنس كلّ مجموعة يظهر في زمان ما كاملًا. وهذا هو مذهب الخَلْقِ الخاصّ، وهو بإعلانِه أنّ النّظم ظاهرٌ له حقيقةٌ، يُثْبِتُ للنّظم غائيّةً؛ ويرى أنّ التعقيد المنظّمَ والبديعَ لا يمكن أن يخرج إلى حَيِّزِ الوجود مرّةً واحدةً نتيجة العشوائيّةِ أو الصُّدْفةِ، ولا بدّ أن يُردَّ بسبب ذلك إلى القدرة والحِكْمة الإلٰهيَّتَيْنِ. ويوافِقُ التيّارُ الإلحاديُّ تيَّارَ الخَلْقِ الخاصِّ قولَهُ إنّ ظهورَ النّشأة المعقّدة دون تدرُّجٍ حجّةٌ لوجود إلٰهٍ.

يرى المذهب الثاني: أنّ الوجود الحيَّ كُلَّهُ قد بدأ بسيطًا بصورةٍ تسمحُ العشوائيّةُ بإنشائِهِ ـ ولو على زَمَنٍ طويلٍ ـ، ثم ظهر بعد ذلك عالَمُ الأحياءِ كلّه بسبب التطوّر العشوائيِّ غيرِ الموجَّهِ على مدى بلايين السّنين. . وأَهَمُّ مبادئ هذا المذهب ـ إذن ـ هي:

- نشأةُ الحياةِ الأُولى في شكلٍ بسيطٍ جدًّا، ومُتَنَامٍ في تعقيدِه مع الزَّمَنِ.
- ظهورُ الحياة بأسباب ماديّةٍ عشوائيّةٍ بَحْتةٍ.
- جميعُ الكائناتِ الحيّةِ لها أصلٌ واحِدٌ مشترَكٌ.

---

(١) مصطلح «نوع» يَعْسُرُ ضَبْطُهُ بيولوجيًا، وللعلماءِ في ذلك تعريفاتٌ عِدَّةٌ.

- تطوَّرَتْ جميعُ الكائنات الحيّةِ عن الأصلِ الأوّلِ الحَيِّ البسيط.
- آليةُ تطوّر جميع الكائناتِ الحيّةِ عشوائيّةٌ غيرُ مُوجّهةٍ.
- النّظمُ ـ لما سبق ـ ظاهِرٌ مُخادِعٌ.

وأمّا المذهب الثالثُ: فيقرّر أنّ التفسير العشوائيَّ لأصل الحياة ولتطوّرها مُتهافِتٌ بمقاييسِ العِلمِ نفسِه، وأنَّ كُلَّ محاولةٍ لتأكيد هذا النّهجِ لا بدّ أن تنتهيَ إلى مخالفةِ بَدَهيَّاتِ المعرفة العلميّة والرياضيّة. غير أنّ هذا الفريقَ يميلُ إلى الأخذ بمذهب التطوُّرِ في تفسير ترابطِ مظاهرِ الحياة في الكائنات الحيّة. وهذا هو مذهَبُ التطوّر الموجَّهِ، أو التّطوير. وهو يرى أنّ النَّظْمَ صادِقٌ ظاهرًا وباطنًا، وهو حُجّةٌ لوجود اللهِ.

وقبل أن نناقش الاعتراضَ الإلحاديَّ الجوهريَّ؛ وهو صحَّة المذهبِ العشوائيّ في تفسير التنوُّعِ الأَحيائيِّ وأصله، نحتاج ـ ضرورة ـ أن نسأل السُّؤال الذي يحسب عامّةُ الملاحدة وكثيرٌ من الـمُؤَلِّـهَةِ اليومَ أنّه مَحْسُومٌ؛ وهو اقتضاء القول بالتطوّر إنكار وجود خالق.

المبحث الثاني

هل يتحدى التطور وجود الله؟

تُعدُّ نظريّةُ التطوّرِ رُكْنًا أساسيًّا في الخِطابِ الإلحاديِّ الحديثِ لدعوى يريدُ الملاحدةُ ترسيخَها، وهي أنّ ثُبوتَ التطوّرِ البيولوجيّ حجّةٌ لنقضِ حقيقةِ الإيمان بالله؛ فبَيْنَ خلقِ الأحياء بالتدرّج ووجودِ الله تضادٌّ حتميٌّ؛ فلا يثبت أحد طَرَفَي الأمر حتى يَنْتَفِيَ الطّرفُ الآخَرُ. وهي قضيّة تحتاج إلى تحرير وبيان.

المطلب الأول

معنى «التطوّر»

يحرص الدّراونةُ على إبهام كلمة «التطوّر» في حديثهم، لإيهام جمهورِ الناس أنّ الحججَ الكثيرة التي يستعرضونها لإثبات التطوّر؛ برهانٌ لـ«التطوّر الداروينيّ». وهو ما فعله ـ مثلًا ـ (داوكنز) في كتابه: «أعظم استعراضٍ على الأرض»[1]. ولذلك يجب أن نحدّد معنى «التطوّر» إذا أردنا مناقشة صحَّتِه علميًّا، فإنّ تداخُلَ المعاني مصدرٌ للالتباس ومدخلٌ للتّدليسِ.

كلمة «تطوّر» عند الحديث عن عالم الأحياء من الممكن أن تعني:

التغيُّرَ مع مرور الزّمنِ: وهذا نوع من التطوّر يتّفق الجميعُ على صحّته، فإنّه قد تظهر من الكلابِ القصيرة كلابٌ أكبر، وقد تفقِدُ بعض الطُّيور قدرتها على الطّيران... والكائن الحيُّ ـ هنا ـ هو نفسه لم يتحوّلْ إلى نوعٍ ثان مفارقٍ جينيًّا للنوع الأوّل.

---

(١) *The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution.*

الأصل العالميُّ المشترك: وهو القول: إنّ جميع الكائناتِ الحيّة تَنْتَظِمُ في علاقة شَجَريّةٍ كثيرة الفُروع، وجِذْعها الأوّل أَدْنَاهُ بكتيريا أُوْلى بدأَتْ بها الحياةُ. وهذا النّوعُ من التطوّر محل اتّفاقٍ بين الملاحدة، ومحلُّ جَدَلٍ بين الـمُؤَلِّـهَةِ في مختلف الأديانِ بسبب اختلافِ أوجهِ تفسير النّصوص المقدّسةِ، وإن سلَّمَ عامّتُهم أنّه لا يمسُّ مسألة وجود الله بنقضٍ.

التّطوّرُ العشوائيّ: وهو قولٌ يجمع الإيمان بالأصل العالميّ الواحد للكائنات ضمن الشّجرة التطوّرية مع تفصيل القول في آليّتِه، بالقول: إنّها عشوائيّةٌ غير موجّهة، وإنّ الزمن مع العشوائيّة كفيلان بإنتاج كلّ مظاهر النّظم في عالم الأحياء. ويُعَدُّ المذهبُ الدّاروينيُّ في صياغته الحديثة التي أضافت إلى ما قرّره (داروين) القول بالطَّفرات العشوائيّة في جينوم الكائن الحيِّ، أَهَمَّ ممثّلٍ لطرح التطوّرِ العشوائيِّ. وخلاصة قول هذا الفريق: إنّ التطوّر يبدأ صغيرًا لا يكاد يُلحظ، ثم بتراكُمِهِ مع الزّمن يظهر نوعٌ جديد من نوع آخرَ يختلفان في بعض الرّصيد الجينيِّ بفعل أخطاء النَّسخ.

نقاشنا مع الملاحدة مُنْصَبٌّ على التعريف الثالث للتطوّر؛ لأنه الوحيدُ القادر على نفي الدّلالة على النّظم في عالم الكائنات الحيّة؛ إذ هو يفسّر تنوُّعَ الأحياء ومظهر النّظم انطلاقًا من عشوائيّةٍ محضةٍ.

ومن المهمّ هنا بيان أنّ عامة ما يستدِلُّ به التطوّريون لإثبات التطوّر يقع ضمن التفسير الأوّل لمعنى هذا المصطلح؛ فاكتسابُ الكائن خِصّيصةً ما دون تغيّر رصيده الجينيّ (=دون إضافة معلومات جديدة في حَوْضِه الجينيّ) ليس من التطوّر الذي يُنْشِئُ التّعقيد الأَحيائيّ عن أصل مشترك في شيء؛ ولذلك فكلّ برهان يُدّعى للتطوّر الدّاروينيّ لا بدّ أن يستوفيَ شرط إضافة معلوماتٍ جديدة إلى الحوض الجينيّ للكائن الحيّ حتى تكون حصيلتُه البعيدةُ تغيير الكائن الحيّ من نوع إلى آخَرَ؛ فإنّ التطوّر الداروينيَّ قائمٌ على لزوم تصديق دعوى تطوّر البكتيريا على مدى أربعة بلايين سنة إلى الإنسان الحالي عبر وسائطَ حيوانيّةٍ مختلفةٍ.

القارئُ في الأدبيّاتِ التطوّريةِ لا بُدَّ أن يَحْذَرَ من خَلْطِ معاني التطوّرِ عند عرض براهينها؛ فمن التطوّرِ ما أَجْمَعَ عليه كُلُّ العلماء، ومنه ما هو مَحَلُّ جَدَلٍ، ومنه ما يُشكِّكُ في النّظم، ومنه ما لا يَمَسُّه بشيءٍ.

المطلب الثاني

حاجة الإلحادِ إلى التطوّر البيولوجيّ

يتّفق الملاحدة اليوم أنّ الإلحاد لا يستغني البتّة عن التفسير الداروينيّ لتعدُّد أوجُهِ الحياة؛ حتّى قال (داوكنز): إنّه لو عاش قبل زمن (داروين) لكان ـ على الأرجح ـ مؤمنًا بالله[1]؛ فالتطوّر بذلك ركن في كلّ تصوّر إلحاديٍّ واعٍ بدلائل الـمُؤَلِّـهَةِ على وجود الله، وإن كان لا يلزم من التطوّر ـ بكلّ صُوَرِهِ ـ نَفْيُ وجود الله كما سيأتي.

تتمثّلُ حاجة الإلحادِ إلى عقيدة التطوّر العضويّ في أنّ عالَمَ الأحياء يحمل في ظاهِرِه صورةَ النّظم، كما هو بَيِّنٌ من آليّاتِ استبقاء الحياة والتّناسلِ. ويُقرّ الملاحدة أنّ ظهور هذه الكائنات بهذا التعقيد مرّة واحدة لا يمكن أن يُفسَّرَ بأيّ تفسير طبيعانيٍّ؛ لأنّ التّعقيد الحكيم لا يَظْهَرُ فَجْأَةً؛ فالعشوائيّةُ لا تَصْنَعُ سِحْرًا. وهاهنا يقفِزُ سؤالٌ ضروريٌّ: كيف من الممكن أن يلغيَ الملحدُ الحِكْمةَ من ظاهر النّظم دون استدعاء «معجزةٍ»، ضمن القوانين الماديّة العمياء للكونِ؟

جواب السُّؤال يقتضي:

١ ـ البدء من أمرٍ بسيط جدًّا تسمح العشوائيّةُ بظهورِه حتّى نتجاوَزَ مشكلةَ التعقيدِ.

٢ ـ فكرة التّغيُّرِ مع الارتقاءِ ضمن فتراتٍ زمنيّةٍ طويلة جدًّا تسمح بظهور

---

(١) صرّح بذلك ـ مثلًا ـ في هذا اللقاء:
<https://www.youtube.com/watch?v=nstfJ1BABdI>.

الأجهزة ذات الوظائف الذكيّة. وقد عَبَّرَ (داوكنز) عن جوهر التفسير السابق بقوله: إنّه يجب على التطوّر أن يكون تدريجيًّا؛ لأنّه دون هذا التدرّج «سنعود مجدّدًا إلى المعجزاتِ»[1].

٣ ـ افتراض وسيلةٍ تسمح بتسريع هذا الأمر ضمن عُمْرِ عالم الأحياء (بين ٣,٧ بلايين سنة و٤,١ بلايين سنة)، مع استبقاء التغيّرات الجيّدة بما يسمح ببقائها وتثبيتها في عالم الأحياء من خلال التّوريث (الانتخاب الطبيعيّ).

ما يحتاجه الطبيعانيُّ هو إذن قراءة التاريخ قراءةً ماديّةً تبدأ من البسيط وتنتهي إلى المعقّد على أساس آليّةٍ طبيعيّةٍ تستفيد من قابليّةِ الكائن الحيّ للتفاعل والتغيّر واستبقاء التغيّرات المكتسبة (كما في اللّاماركيّة) أو الجينيّة (كما في الداروينيّة الحديثة).

وفي غياب البساطة الأولى أو الآلية الماديّة العشوائية لا بدّ أن يضطرّ الإنسان إلى استدعاء المعجزة الخارقة أو الحكمة المتعالية على المادة؛ أي: الإقرار بوجود الله.

المطلب الثالث

التطور البيولوجيّ لا يلغي وجود الله[2]

لا يمثّل القول: إنّ الكائناتِ قد تطوَّرَتْ عن أصلٍ أدنى إلى فرعٍ أعلى حجّة ضدّ وجودِ الله؛ إذ لله ـ سبحانه ـ أن يَخْلُقَ ما شاء كما شاء لِحِكْمةٍ يشاؤُها، وليس في كمال الألوهيّة ما يقتضي أن يكون الخلق آنيًّا، غير متدرّجٍ. ولذلك لم يَجِدْ عددٌ من أنصار التطوّر إشكالًا في الجمع بين الإيمانِ بخالقٍ، والإيمان بالتّطور وسيلةً للخلقِ. ويبقى موضوع التطوّر ـ بذلك ـ محصورًا في

---

(١) Richard Dawkins, *River Out of Eden*.

(٢) الحديثُ هنا في دلالة التطوّر على نَفْيِ وجودِ الله، وهو ليس مُتَعَلِّقًا بموافقتِه الرِّوايةَ القرآنيةَ لأَصْلِ (آدَمَ) ﷺ؛ فنحن هنا نتحدَّثُ عن وجودِ الله فقط، وأمّا موقف القرآنِ من التطوّر عن أصلٍ مشتركٍ واحدٍ فموضوعٌ آخر.

أمر الجمع بين الرّوايات الدينيّة للخلق والرّواية التطوّريّةِ، هل تأتَلِفان أم تفترقان؟ وإذا افترقتا، فهل هو افتراقٌ حتميٌّ أم افتراقٌ يستدعِيهِ القولُ الأرجح في قراءة النصّ المُنَزَّلِ؟

وقد كان (داروين) ـ مثلًا ـ مُدْرِكًا للحقيقة السّابقة، ولذلك لم يجد أثناء تأليفِهِ لكتابه «في أصل الأنواع» رابطًا بين ما تَخُطُّه يدُه وإنكار وجود الله؛ وقد كتب في رسالة له سنة ١٨٦٠م إلى صديقه عالم النّبات (أسا جراي)(١) ـ بعد تأليف كتابه «في أصل الأنواع» ـ أنّه لم يكن يحمل رؤيةً إلحاديّةً وهو يؤلّف كتابَهُ، وأنّه مُتَرَدِّدٌ في مسألة الإيمان؛ فرغم أنّه يجذبه إلى الإلحاد ما يراه من شُرورٍ في الطّبيعة، إلّا أنّه أضاف قائلًا: «لا يمكنني بأي حال أن أَكُونَ راضيًا أن أرى هذا الكونَ الرائعَ، وخاصّةً طبيعة الإنسان، وأن أَسْتَنْتِجَ أنّ كل شيءٍ نتيجة قوّةٍ عمياء. **إنني أَمِيْلُ إلى النّظر إلى كلّ شيء على أنّه نتيجةُ قوانينَ مُصَمَّمة**، وأمّا التفاصيلُ، سواء كانت جيّدة أو سيّئة، فهي متروكةٌ لعمل ما يُمكن أن نسمّيه بالصُّدْفةِ»(٢).

وأمّا البيولوجيّ (توماس هكسلي)(٣) ـ أعظم أنصار (داروين) في القرن التاسع عشر؛ حتّى سُميّ لذلك بـ«كلب داروين» ـ فقد قال: إنّ التطوّر «ليس بأيّ صُورةٍ على تماسٍّ بالإيمان بالله»(٤). فهو عنده مسألة لا تمسّ مسألة وجود الله إثباتًا ولا نقضًا.

كما لم يجد البيولوجيّ (كنث ملر)(٥) إشكالًا في الدّفاع عن وجود الله، والانتماء للكنيسةِ الكاثوليكيّةِ، وتأليف كتابه «وجود إلٰه داروين: بحثُ عالِمٍ عن أرضيّةٍ مشتركة بين الإلٰه والتطوّر»(٦)، رغم أنّه تطوّريٌّ متطرّفٌ أو **أَشَدّهمْ**

(١) أسا جراي Asa Gray (١٨١٠ ـ ١٨٨٨م) أحد أهمُّ علماء النباتات في أمريكا في القرن التاسع عشر. أوّلُ رئيسٍ للأكاديميّةِ الأمريكيّةِ للفنون والعلوم.

(٢) Charles Darwin, Francis Darwin, ed. *The Life and Letters of Charles Darwin*, 2/105.

(٣) توماس هكسلي Thomas Huxley (١٨٢٥ ـ ١٨٩٥م): بيولوجيٌّ وعالِمُ أحافيرَ إنجليزيّ.

(٤) *The Academy* 1, 1869, 13 - 14.

(٥) كنث ملر Kenneth Miller (١٩٤٨ـ): عالم بيولوجيا دقيقة أمريكيّ. أستاذ البيولوجيا في جامعة «براون».

(٦) *Finding Darwin's God: A Scientist's Search for Common Ground Between God and Evolution*, (2000).

تطرّفًا اليوم؛ فهو أيقونةُ الداروينيّة الأمريكيّةِ المخاصِمةِ لمدرسةِ «التّصميم الذكيّ».

وأمّا الفيلسوف الملحد (مايكل روس) الذي يُجْمِعُ الدّارسون أنّه أهمّ فلاسفة العلوم ـ اليوم ـ دفاعًا عن الداروينيّة، وله مناظراتٌ مشهودةٌ وكُتُبٌ ومقالاتٌ ذائعة في الردِّ على القائلين ببرهان النّظم في عالم الأَحياء، فينكر بشدّةٍ على من يرى التطوّر البيولوجيّ حجّة ضدّ وجود الله، كما في كتابه «هل من الممكن للداروينيّ أن يكون مسيحيًّا؟»[١]؛ حيث نفى تَعَذُّرَ الجَمْعِ بين اللّاهوتِ النّصرانيِّ والتطوّر، حتّى في صورتِه العشوائيّةِ[٢].

كما أصدرت «الأكاديمية الوطنية للعلوم»[٣] الأمريكيّة ـ التي تعدّ أهم مؤسّسة علميّةٍ تتولّى الدّفاع عن «قداسة» المذهب التطوّريِّ وفَرْضِه بالإرهاب القانونيّ في أمريكا ـ سنة ١٩٩٩م كُتَيِّبًا بعنوان «العلم والمذهب الخلقي» قَرَّرَتْ فيه الآتي: «يرى عديدٌ من المتديّنين، ومنهم كثيرٌ من العلماء، أنّ الله خلَقَ الكونَ ومختلف العمليات التي تقود التطوّر الفيزيائيّ والبيولوجيّ، وأنّ هذه العمليات أَدَّتْ إلى خَلْقِ المجرّات، ومنظومتنا الشمسيّة، والحياة على الأرض. هذا الاعتقاد الذي يُسمّى أحيانًا «التطوّر الإلٰهي» «theistic evolution» ليس في شقاقٍ مع التفسيرات العلميّة للتطوّر. هو في الحقيقة يعكس الطابع الرائع والملهم للكونِ الفيزيائيّ كما يكشفه علمُ نشأة الكون وعلم المتحجّرات وعلم البيولوجيا الدّقيقة، والعديدُ من التخصّصات العلميّة الأخرى»[٤].

إنّ نهاية أمر التطوّر العشوائيِّ أن ينفيَ دلالة ظاهر النّظم على صدق برهان النّظم في عالم الأَحياء، لكنّه لا ينفي بقيّة أدلّة وجودِ الله. وأمّا مذهبُ

---

(١) *Can a Darwinian Be a Christian?* (2001).

(٢) Michael Ruse, *Can a Darwinian Be a Christian? The Relationship Between Science and Religion* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

(٣) The National Academy of Sciences.

(٤) National Academy of Sciences, *Science and creationism: a view from the National Academy of Sciences* (Washington, D. C.: National Academy Press, 1999), p. 7.

التطوّر البيولوجيّ في صورتِه الموجّهة فلا ينفي وجودَ الله؛ بل يدعَمُه صراحةً؛ إذ يؤكّد أنّ عالم الأحياء مُصَمَّمٌ من طَرَفِ خالقٍ بديعٍ.

فساد نظريّة التطوّر حجّةٌ لوجود الله، وصِحَّتُها لا تُبْطِلُ برهان النّظم في عالم الأحياء، فضلًا عن أن تُبْطِلَ كلّ براهين وجود الله.

مذهبُ التّطوّرِ العشوائيِّ حجّةٌ ضدّ برهان النّظم في عالم الأحياء فقط، وصِحَّتُه لا تستلزم بُطلان بقيّة دلائل وجودِ الله.

المطلب الرابع

التطوّر ـ المزعوم ـ حجّة لوجود الله

ليس على القائلين بالخلق الخاصّ ـ مثلَنا ـ إقامةُ برهانٍ لِصِدْقِ دعواهم؛ إذ إنّ الأصل هو الخلق الخاصّ لأنّنا نرى الكائنات لا تُنْجِبُ إلَّا نَسْلًا من جِنْسِها، وذاك هو الظّاهر، وعلى المخالِفِ البرهانُ. ولم يستطع أنصار التطوّر الذين ينتقون من قاعدةِ البيانات العلميّة لعالَمِ الأحياء ما يوافق مذهبهم، إقامةَ برهان حاسِمٍ أو ترجيحيٍّ لمذهبهم؛ وليس لنا أن نترك الأصل، وهو الخلق الخاص إلى التطوّر إلَّا بدلالة تاريخيّةٍ أو علميّةٍ حاسمةٍ.

وبعيدًا عن ذلك، لنا أن نقول بوضوح: إنّ التطوّر ليس حجّة ضدّ وجودِ الله، وإنّما هو ـ عند التحقيق ـ حجّة لوجود الله ـ إن صَحَّ جَدَلًا ـ، من وَجْهَيْنِ أساسِيَّيْنِ:

• **ظهور الحياة**[1]: نظريّة التطوّر تفترض ضبطًا دقيقًا وحادًّا للشروط الفيزيائيّة والقوانين الكيميائيّةِ التي تحكم العالم، مع وجود اللَّبِناتِ الماديّة التي لا يستغني عنها الوجود الحيُّ. وبعبارة عالِمِ الرياضيات البريطانيّ (جون

(١) يَزْعُمُ الدَّراونةُ أنّ نشأةَ الحياةِ لا تَعَلُّقَ لها بالتطوُّرِ، وحقيقةُ الحالِ هي أنَّ فَصْلَ التَّطَوُّرِ عن أَصْلِ الحياةِ تَعَسُّفٌ في تفسير ظاهرة الحياةِ.

لنوكس)[١]: «لقد بَقِيَتْ ـ طبعًا ـ براهينُ الضّبط الدّقيق في الكيمياء والفيزياء والكوسمولوجيا بعيدةً عن اعتراضات نظرية التطوّر البيولوجيِّ. ولذلك فإنّ... الضّبط الدّقيق للكون على المستوى الفيزيائيّ وقدرة هذه العمليات على إنتاج حياة عضويّة عن طريق عمليّةٍ تطوّريةٍ، هما في ذاتهما حُجّة قويّة للذّكاء المبدِع»[٢].

• **تطوّر الأحياء**: حصولُ التطوّر من الخليّة الأُولى إلى منظومةِ الأحياء الحالية محتاجٌ إلى منظومةٍ دقيقةٍ جدًّا من القوانين والظروف الأوّليّة التي يمتنع في قانون الاحتمالات أن تجتمع في هذه الحياة في عُمْرِ هذه الأرض الفتيَّةِ. وقد درس الفيزيائيّان (بارو) و(تبلر) عشر مراحل لتطوّر الإنسان، وكانت كلُّ مرحلة من هذه المراحل مستبعدة من ناحية علم الاحتمالات الرياضيّ حتّى إنّ إتمام مرحلةٍ واحدة فقط منها يحتاج بلايين السّنين[٣]. كما أنّ احتمال الظُّهور الفوريّ لجينوم الإنسان هو بين $(4^{-180})^{110.000}$ و$(4^{360})^{110.000}$[٤]، وهما رقمان عظيمان جدًّا تفوق أصفارهما حروف هذا الكتاب بمرات كثيرة جدًّا.. ولذلك فهذا الحدث يقتضي **مُعجِزةً**.. وهو ما يفرُّ منه الملاحدة!

فاستعراض أدلّة التطوّر البيولوجيّ، والاستكثارُ منها لا ينفي حقيقةَ حاجةِ هذا التطوّر إلى تفسيرٍ غير عشوائيٍّ في مقدّماته الماديّةِ.

---

(١) جون لنوكس John Lennox (١٩٤٣ـ): عالم رياضياتٍ وفلسفة علوم من أيرلندا الشَّماليّة. من أهمِّ المحاورين المؤلّهة في العالم الغربيِّ اليومَ. ناظر (داوكنز) مَرَّتَيْنِ.

(٢) John C. Lennox, *God's Undertaker: Has Science Buried God?*, p.92.

(٣) John Barrow and Frank Tipler, *The Anthropic Cosmological Principle*, pp. 561 - 565.

(٤) المصدر السابق، ص٥٦٥.

المبحث الثالث

التطوّر وتكذيب التاريخ

تفرَّع الجَدَلُ بين القائلين بالخَلْقِ الخاصّ والتطوّر إلى مدى بعيد جدًّا، ودخل أهلُه في مساجلاتٍ كثيرة التفاصيل حتّى ضاق على الباحث أن يلمّ هذه البعثرة. ولأنّنا نسعى هنا إلى امتحان مطابقةِ المذهب التطوريِّ لحقائق العلم؛ لزم أن نناقش أُصولَ المسائلِ التي عليها مدار صحّةِ المذهب التطوّري؛ فبها يقوم القولُ بالتطوّر أو يسقط.

والنّاظِرُ في الجَدَلِ العِلميِّ بين الفريقَيْنِ يُدرك أنّ القولَ بصحّة المذهب التطوّريّ لا ينفكُّ عن صحّة تاريخيّة شجرة الحياة التي تتكوّن من أصلٍ أوّل أسفلَ جذرها، وهو الأصل العالمي المشترك (universal common ancestry) لكلّ الكائنات الحيّة؛ وأغصانٍ متفرّعة عن الجذر وعن غيرها من الأغصان الكبرى؛ وهي العلاقة الانتسالية بين مجموع الكائنات؛ فكلّ كائنٍ حيٍّ له سَلَفٌ يَسْبِقُهُ سَلَفٌ حتّى الأصل العالمي المشترك في علاقة شجريّة سَلِسَةٍ.. ولذلك لا يستغني التطوّري عن إثباتِ هذا الأصل الأوّل والعلاقةِ الشجريّة بين الكائنات الحيّة؛ ليثبت صحّة مذهَبِهِ، ويكفي ـ في المقابل ـ أن يُبْطِلَ مُنْكِرُ التطوّر هذا الأصل المشترك ليتهاوى المذهب التطوّري التقليدي بِرُمَّتِهِ.

المذهب التطوّري التقليدي يقوم مع قيامِ شجرةِ الحياةِ ويسقطُ مع سُقوطِها.

وقد استمرّ القول ببداهَةِ القول بالأصل المشترك والانتظام الشجريّ لجميع الكائنات الحيّةِ منذ زمن (داروين) حتّى وقت قريب؛ ولذلك تعدُّ شجرة

الحياة مَعْلَمًا قارًّا في الكتب المدرسيّة لتاريخ الأحياء.. غير أنّ الدّراسات العلميّة في المجلّات التخصصيّة تشهد عصرًا جديدًا يشهد على السلفيّة التطوّرية بالهرطَقةِ العلميّةِ..

المطلب الأول

شجرةُ الحياة في مواجهة علمِ الأحياء الجزيئي والشَّفْرة الجينيّةِ

تُعَدُّ شجرة الحياة التي صنَعَها الدّراونة انطلاقًا من التّشابه المورفولوجيّ (الشَكليّ) بين الكائنات واحدةً من أهمّ براهين التطوّر عند البيولوجيّين؛ بل هي الأيقونة الكبرى للتطوّر؛ إذ يزعم أنصارُ شجرة الحياة المورفولوجيّة أنّ الكائنات الحيّة تنتظم في علاقة تسلسليّةٍ شجريّةٍ واضحة؛ بما يدفع دعوى الخلق الخاصّ للأجناس الحيّة.

ويرى مُتَعَصِّبَةُ المذهب التطوريّ ـ أيضًا ـ أنّ علم الأحياء الجزيئي (Molecular biology) حجّة عظيمة لإثبات التطوّر من خلال بيان أنّ مقارنة التكوين الجينيّ للكائنات الحيّةِ كاشِفٌ عن شَجَرَةِ حياةٍ واحدةٍ تَدُلُّ على تفرُّعِ الكائنات عن بعضها بصورةٍ ترتيبيّةٍ منظّمةٍ؛ أي: إنّ المقارنة بين الخريطة الجينيّة للكائنات الحيّة تدلُّنا على تاريخِ تفرُّعِ كلّ الكائنات عن أصلٍ واحدٍ أوّل بصورة مرتّبةٍ.

كما زعم (داوكنز) وعامّة التطوّريّين أنّ الكائنات الحيّة كلّها تستعمل آلية عمل «الحَمْض النّوويِّ الصِّبغيّ DNA» نفسه؛ بما يدلّ أنّها كلّها تعود إلى أصلٍ أوّل كان يستعمل الآليّة نفسَها.

فهل تتكاتف الدَّعاوى السابقة لِنُصْرَةِ التطوّر، أم أنّها يهدم بعضها بعضًا؟

١ ـ أشجار علم الأحياء الجزيئي في مواجهة شجرة المورفولوجيين:

لـمّا سُئِلَ (داوكنز) عن أهمّ برهانٍ يدعم التطوّر، أجاب: إنّه التشابه الجيني بين الكائنات الحيّة؛ بما يفيدنا في رسم شجرة تطوّرية لها جذع تفرَّعَتْ عنه كلّ هذه الكائنات. وعَقَّبَ بعد ذلك قائلًا: «هذه الحجّةُ قويّةٌ بصورة

هائلة. والطّريق الوحيد للاعتراض على دلالتها وأنّ التطوُّرَ حقٌّ هو بالقول: إنّ المصمّم الذكيَّ، الإلٰهَ، قد تعمَّدَ الكَذِبَ علينا، وتَعَمَّدَ خِداعَنا»[1].

شجرة الحياة الجِينيّة هي إذن البرهانُ الأعظم على «حقيقة التطوّرِ»!

ما زَعَمَهُ (داوكنز) حجّة قديمة للتطوّر تنقضها أبحاث البيولوجيا الجزيئية الأَحدَثُ؛ إذ كَشَفَتْ بجلاء أنّ شجرةَ الحياة القائمة على علم التّشريح والتّرتيب الجزيئي للبروتينات و«الحَمْض النَّوويِّ الصِّبْغيّ» لا تدلّ على شجرة واحدة للأحياء، ولا تعكِسُ ترتيبًا سَلِسًا لها؛ ولذلك قال البيولوجيّ (مايكل سيفنون)[2]: «لقد أَبَدْنَا شجرة الحياة. إنّها لم تعد البتّة شجرة، إنّها شيءٌ آخر مختلفٌ تمامًا»[3]. وهو الذي قارن بين ٢٠٠٠ جين مشترك بين الإنسان والضّفادع والكأسيّات[4] وقنفذ البحر[5] وذُباب الفاكِهة[6] والدّيدان الأسطوانيّة[7]. وكانت المفاجأة أن انتهى إلى أنّ الجينات تقدّم قصصًا تطوّرية مختلفة[8]. الخلاف في شجرة الحياة المزعومة ثابت فيها جميعًا «من الجَذْرِ إلى التّفريعات الكُبْرى ضمن ـ ومن بين ـ الأصناف (taxa) المختلفة إلى التجمّعات الصُّغرى» على حدِّ تعبير عالم البيولوجيا الدقيقة التطوري البارز (كارل ووز)[9][10].

إنّ شهادةَ الأبحاث العلميّة الأحدث التي يندر أن يستشهد بها (داوكنز) المشغول بالبروبغندا الداروينيّة العتيقة، تُقدّم مُرافعةً تُبْطِلُ أصل مرافعة

---

(١) انظر: فديو (داوكنز): Richard Dawkins answers reddit question about evolution.

<https://www.youtube.com/watch?v=5PlqNoCAIgA>.

(٢) مايكل سيفنون Michael Syvanen: أستاذ البيولوجيا الدقيقة وعلم الجينات في Harvard "Medical School".

(٣) Graham Lawton, "Why Darwin was wrong about the tree of life," *New Scientist* (January 21, 2009).

(٤) Sea squirts.

(٥) Sea urchins.

(٦) Fruit flies.

(٧) Nematodes.

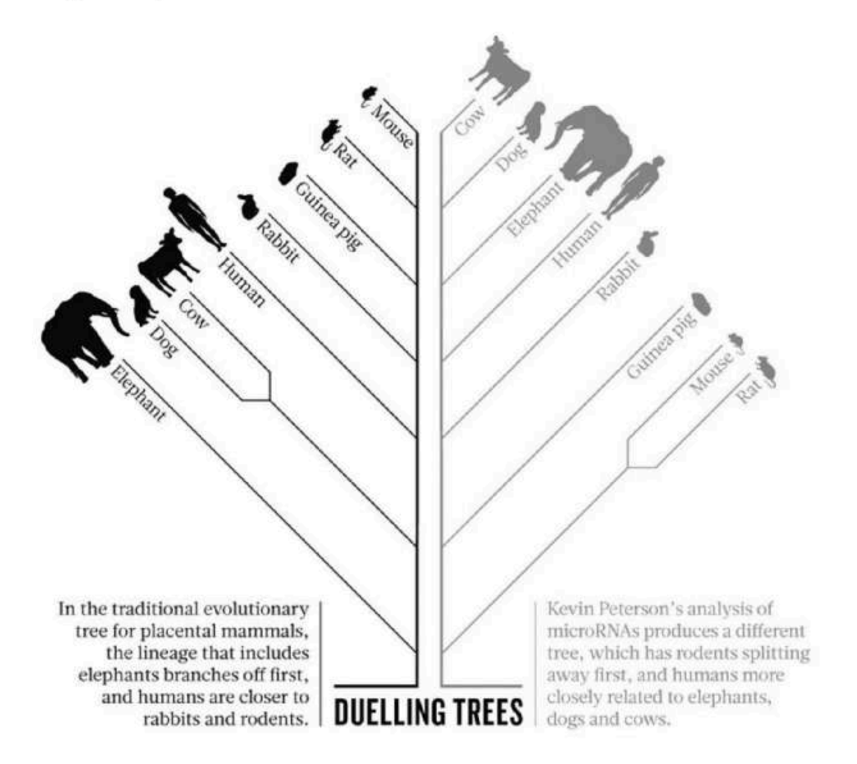
(٨) Graham Lawton, "Why Darwin was wrong about the tree of life," *New Scientist* (January 21, 2009).

(٩) Carl Woese كارل ووز (١٩٢٨ ـ ٢٠١٢م): عالم بيولوجيا دقيقة وفيزياء حيويّة أمريكيّ. أستاذ البيولوجيا الدّقيقة في جامعة «إلينوي». مكتشف مملكة الأصليات Archaea.

(١٠) Carl Woese 'The Universal Ancestor', *Proceedings of the National Academy of Sciences USA*, Vol. 95: 6854 - 9859 (June, 1998)

(داوكنز)؛ إذ يقول عالم البيولوجيا الفرنسيّ (إريك بابتست) ـ[١]: «نحن لا نملك البتّة أيَّ برهان على أنّ شَجَرَةَ الحياة شيءٌ حقيقيٌّ»[٢].

ومن الأمثلة التفصيليّة في هذا الباب ما كشفه البحث الجينيُّ في أمر الدراسة المقارنة لحمض (microRNA) في الثدييَّات المشيميّة؛ إذ أظهر أنّ شجرة الحياة التي يرسمها هذا الحَمْضُ تختلف عن الشَّجَرَةِ المورفولوجيّة بصورة واضحة. فالمورفولوجيُّون يرون أنّ الجِذْعَ الذي يَضُمُّ الفِيَلَةَ قد بدأ بالفِيْلَةِ أَوَّلًا، وأنّ الإنسان أَقْرَبُ إلى الأرانب والقوارِضِ من بقيّة أفراد السِّلسلةِ، في حين أنّ شجرة (microRNA) تَدُلُّ أنّ الإنسان أقربُ إلى الفِيَلَةِ والكلابِ والبَقَرِ[٣].



---

(١) إريك بابتست Eric Bapteste: بيولوجيٌّ فرنسيٌّ حاصل على دكتوراه في البيولوجيا وأُخرى في فلسفة العلم من «السُّوربون» حول عالميّة شجرة الحياةِ.

(٢) Graham Lawton, 'Why Darwin was wrong about the tree of life', *New Scientist* (January 21, 2009).

(٣) Elie Dolgin, 'Phylogeny: Rewriting evolution', *Nature* 486, 460 - 462 (28 June 2012).
"https://www.nature.com/news/phylogeny-rewriting-evolution-1.10885".

٢ ـ أصل الحياة أم أصول الحياة؟

زَعَمَ (داوكنز) أَنَّ شَفْرةَ «الحَمْضِ النَّوويِّ الصِّبغيِّ» واحدةٌ في كلّ الكائناتِ الحيّة؛ وتَطابُقُها حُجَّةٌ للقول: إنّها تعود إلى أَصْلٍ واحِدٍ[1].

المفاجأةُ غيرُ السَّارَّةِ حدثَتْ أمام عَيْنَيْ (داوكنز) في اللّقاء الشّهير الذي جَمَعَهُ سنة ٢٠١١م في جامعة أريزونا مع عالم الجِيْنات الشهير (كريج فنتور)[2]، و(بول ديفيس)، وعالم الكيمياء الحيوية الحاصل على جائزة نوبل (سيدني ألتمان)[3] وغيرهم. . . إذ قال (كريج فنتور): إنَّ البحث العلميَّ الذي أَشْرفَ عليه في دراسةِ جينوم البكتيريا قد أَثْبَتَ بوضوحٍ أَنَّهُ «يبدو أَنَّ هناك أَجَمَةَ الحياةِ. . وعليه لا تُوجَدُ شَجَرَةُ الحياة»[4]، وذلكَ بعدِ تحليلِهِ لِستِّينَ مليونِ جينٍ لكائناتٍ بحريّةٍ؛ فرغم قيامها كُلِّها على «الحَمْضِ النَّوويّ الصّبغيّ»، إلَّا أنّها لا تُكَوِّنُ شجرةً بالمعنى الدَّاروينيّ الكلاسيكيّ لاختلافِ أساليبِ التَّشفيرِ بينها على صورةٍ جَلِيَّةٍ.

وقد نَشَرَتْ مُؤَخَّرًا مجلَّةُ «New Scientist» العِلْميّةُ مقالًا تحت عنوان «رُبَّما لم تبدأ الحياةُ مَرَّةً واحدة، وإنّما نشأَتْ مَرَّاتٍ عديدة على الأرض»، وتحت ذلك عنوان فرعيٌّ: «بعيدًا عن كونها معجزةً وَقَعَتْ مَرَّةً واحدةً منذ ٤ بلايين سنة، من الممكن أن تكون بداياتُ الحياةِ شائعةً جِدًّا حتى إِنَّها تَكَرَّرَتْ مَرَّاتٍ كثيرةً»[5].

وقد عَبَّرَ أحدُ علماء البيولوجيا الجزيئيّة ونَشْأَةِ الحياة ـ منذ سنواتٍ قليلةٍ ـ عن الفِكْرةِ نفسِها بعباراتٍ أَوْضحَ، قائلًا: «تَزْعُمُ فرضيّةُ داروين أَنَّ جميعَ

---

(١) Richard Dawkins, *The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution* (London: Transworld Publishers, 2009) p.315.

(٢) كريج فنتور Craig Venter (١٩٤٦ـ): عالم كيمياء حيويّة وجيناتٍ أمريكيّ شهير. أَسَّسَ «The Institute for Genomic Research».

(٣) سيدني ألتمان Sidney Altman (١٩٣٩ـ). : عالم بيولوجيا جزيئيّة كَنَديّ. دَرَّسَ في جامعة «يال».

(٤) "There may be a bush of life... So there is not a tree of life".
<https://www.youtube.com/watch?v=MXrYhINutuI>

(٥) Penny Sarchet, Life may have emerged not once, but many times on Earth.
<https://www.newscientist.com/article/mg23130870-200-life-evolves-so-easily-that-it-started-not-once-but-many-times/>.

أشكالِ الحياة الموجودةِ سليلةُ آخرِ سَلَفٍ مشتركٍ خَلويٍّ، وأَنَّ تَنَوُّعَ أشكالِ الحياةِ نتيجة التَّدَرُّجِ في الطَّفرات مع الانتخابِ الطّبيعيِّ، وهي وِجْهَةُ النَّظَرِ السَّائدةِ التي أَثَّرَتْ على البيولوجيا وحتى المجتمعِ لأكثرَ مِنْ قَرْنٍ من الزَّمانِ. ومع ذلك، فإنَّ هذا الرأيَ الدّاروينيَّ عن الحياةِ يتعارَضُ مَعَ العديدِ من الملاحظات، ويفتقِرُ إلى تفسيرٍ فيزيائيٍّ ـ كيميائيٍّ معقولٍ. وتشيرُ الدَّلائلُ القويَّةُ إلى أَنَّ **فرضيَّةَ السَّلَفِ المشتَرَكِ هي الخَلَلُ الأَساسِيُّ في الدَّاروينيَّةِ**»[1].

ويُلخّصُ البيولوجيّ (واين روستر) الأَزْمةَ المفاجئةَ بقوله: «كان من المفترَضِ أَنْ تُحَلَّ مشكلاتُ تحديد العلاقات ضمن شجرةِ الحياةِ بالثَّورةِ الحاصلةِ في علم الجينات، **ولكنْ على العَكْسِ من ذلك، كُلَّما نَظَرْنا في الشَّفْرةِ الجينيّة، زاد الأَمْرُ سُوءًا**»[2]؛ فالشَّفْرَةُ الجِيْنيّةُ لا تَشْهَدُ لأَصْلٍ واحِدٍ، وإنَّما تَنْطِقُ بأُصُولٍ مختلفةٍ إنْ سَلَّمْنَا ـ جَدَلًا ـ بالتَّطَوُّرِ.

والشَّهادةُ للحياةِ أَنَّها نَشَأَتْ مرَّاتٍ عديدةً، مع قيامِ الحياةِ على الحَمْضِ النَّوويِّ الصّبغيّ يجعلُ الصُّدْفَةَ التَّطوّريَّةَ مُشْكلةً أَشَدَّ إرهاقًا للتَّطوّريّين ممّا هي عليه الآن؛ لأَنَّ قَبُولَ نشوء الحياة مَرَّةً واحدةً بصورةٍ عشوائيّةٍ، أَمْرٌ مُشكِلٌ؛ فكيف بِتَكَرُّرِ مظاهِرِ هذه القُدْرةِ العشوائيّة مَرَّاتٍ كثيرة. كما أَنَّ تَكَرُّرَ مظاهرِ الحياة المتشابهةِ دون سَلَفٍ مشتَرَكٍ يزيدُ برهانَ التَّشابُهِ بين الكائناتِ حُجَّةً على التطوّر ضَعْفًا؛ إذ يكشِفُ أنَّ التَّشابه قد يكون فَرْعًا عن حاجةِ الكائنِ للتَّفاعلِ البيئيِّ الإيجابيِّ مع البيئةِ دون انْتِسالٍ من سَلَفٍ أَوَّل مع كائناتٍ مُشابِهةٍ.

المطلب الثاني

شجرة الحياة في مواجهة كشوف الأحافير

كان (داروين) مدركًا أنّ نظريّته لا يمكن أن تصحّ حتى يشهد لها الواقعُ الأُحفوريُّ، ولذلك حرص على استنطاق طبقاتِ الأرض، غير أنه فُوجئ أنها

(١) Shi V. Liu, A Fundamentally New Perspective on the Origin and Evolution of Life, *Pioneer* 3: 7 - 17, 2008. <https://arxiv.org/abs/0811.3653>.

(٢) Wayne D. Rossiter, *Shadow of Oz: Theistic Evolution and the Absent God*, p.120.

تشهد ضدّه؛ فقال بصراحةٍ ـ محمودة ـ: «عدد الوسائط المختلفة التي عاشَتْ سابقًا على الأرض يجب أن تكون ضخمةً؛ فلماذا ـ إذن ـ لا نجد كلَّ تشكُّلٍ جيولوجيٍّ وكلَّ طبقة ممتلئة بهذه الرّوابط الوسيطة؟ من المؤكد أنّ الجيولوجيا لا تكشف عن أيّ من هذه السّلسلةِ العُضويّة المتدرّجة بدقّة. إنّه ـ ربما ـ **الاعتراضُ الأوضحُ والأقوى الذي من الممكن أن يوجّه إلى نظريّتي**»[1].

وقد أَمَّلَ (داروين) أن تكون شهادةُ الأحافيرِ قاصرةً بسبب ضعف محفوظاتها؛ ولذلك بنى معارَضَتَها لنظريّته على هذا القُصور، غير أنّ كلَّ الكشوفات التّالية أفسَدَتْ هذه الأُمْنِيَّةَ حتى قال عالم الأحافيرِ التطوّريّ (نيلس ألدردج)[2]: إنّ العلم قد نَقَضَ نُبوءةَ (دارون) عن التطوّر **التّدريجيِّ**، وأنه بعد مئة وعشرين سنةً من نبوءةِ (دراوين) «أصبح من الواضح جدًّا أنّ السِّجِلَّ الأُحفوريَّ لن يطابق هذا الجزء من توقُّعات داروين، وليست المشكلة الفقرَ الشّديدَ لِلسِّجِلِّ الأُحفوريّ. السِّجِلُّ الأُحفوريُّ ببساطة يُظهِرُ أنّ هذه التوقّعات مُخطِئةٌ»[3].

لقد غدا تَشَبُّثُ الدَّراونةِ بِفَقْرِ محفوظاتِ الأحافير مُغالطةً عنيدةً مكشوفةً، ولذلك قال الجيولوجيُّ البريطانيّ (توماس نفيل جورج)[4] منذ أكثر من ستّين سنة: «ليست هناك حاجة للاستمرار في الدّفاع عن فَقْرِ السِجلّ الأُحْفُوريّ. . . إنّه لا يزال مُكوَّنًا أساسًا من الثَّغَرات»[5].

وقد حاول الدَّراونةُ مؤخَّرًا إسقاط الشَّاهد الأحفوريّ أو التّهوين من قيمتِهِ حتى زَعَمَ (داوكنز) ـ بلغةٍ عاطفيّةٍ ساذجةٍ ـ أَنَّ القول بالتطوّرِ قائمٌ بصورةٍ كُبْرى على التَّشابه العضويّ (وهو أمرٌ من الممكن تفسيرُه بالخالِقِ الواحد)

---

(١) Charles Darwin, *On The Origin of Species* (Cassell, 1909), p.245.

(٢) نيلس ألدردج Niles Eldredge (١٩٤٣ـ): عالم بيولوجيا وأحافير أمريكيّ. المشرف على أحافير اللافقاريات في أحد متاحف التاريخ الطبيعي. أسّس مع (جاي جولد) نظريّة «التوازن المتقطع» في تفسير الظهور المفاجئ للأحافير في طبقات الأرض.

(٣) *The Myths of Human Evolution* (New York: Columbia University Press, 1982), pp.45-46.

(٤) توماس نفيل جورج Thomas Neville George (١٩٠٤ ـ ١٩٨٠م): جيولوجيٌّ بريطانيٌّ. تَرَأَّسَ الجمعيّة الجيولوجيّة في لندن.

(٥) Thomas Neville George, ‘Fossils in Evolutionary Perspective,’ *Science Progress*, vol. 48 January 1960, pp. 1 - 3.

والتّوزيعِ الجغرافيّ (وهو متعلّقٌ بما يُعرف بالتطوّر الصُّغْرويّ!). وأكَّدَ أنَّنا لسنا في حاجةٍ إلى الأحافيرِ، وليس في ثَغْرات السِّجلِّ الأُحفوريِّ حُجّةٌ للمخالِفين؛ إذ إنَّنا محظوظون بوجودِ أحافيرَ أَصْلًا[1]!

وتلك ـ من (داوكنز) ـ مُخاتَلَةٌ مكشوفةٌ؛ إذ إنّنا عندما نطلبُ برهانًا مباشِرًا وحاسمًا على التطوّر الكُبْرويِّ، يُقالُ لنا: إنّ التطوُّرَ يستغرِقُ ملايين السّنين لينتقلَ الكائِنُ من جنسٍ إلى آخَرَ، وعندها يستدِلُّ التطوّريُّون بالسِّجلِّ الأُحفوريّ شهادةً على الانتقالِ البطيء. وعندما نُنْكِرُ على التطوريّين صَمْتَ السِّجلِّ الأُحفوريِّ، يقولون لنا: إنّنا لسنا بحاجة إليه. والأمر كما يقول عالم الأحافير (س. م. ستانلي)[2]: «في غيابِ الأحافيرِ، يبقى من المشكوكِ فيه أنْ تُمَثِّلَ نظريَّةُ التطوّرِ أيَّ شيءٍ غيرَ فَرَضِيَّةٍ مُسْتحيلةٍ... السِّجلُّ الأُحْفُوريُّ، وفقط السِّجلُّ الأُحفوريُّ هو الذي يُقدِّمُ حُجَّةً مباشِرةً على التَّغْييرات المتتابعة الكبرى في الكائناتِ الحيّةِ على الأرضِ»[3].

ما صورةُ شَجَرَةِ الحياة الدّارويِنيّةِ كما ترسمها الأَحافيرُ؟

يُجِيْبُنَا عالم الأحافير التطوّريُّ الشهير (جاي جولد)[4]: «الأشجار التطوّرية التي تُزَيِّنُ كُتُبَنَا المدرسيّة ليس فيها بيانات إلَّا على أطراف الأغصان وعُقَدِها، والباقي هو **استنباطٌ ـ مَهْمَا كان معقولًا ـ لا تَشْهَدُ له الأحافيرُ**»[5]. وزاد في فَضْحِ الواقع العِلميّ بقوله: «إنّ علماءَ الأحافير يعلمون أنّ السّجلَّ الأُحفوريَّ يحتوي أقلّ القليل فيما يتعلّق بالأشكال الوسيطة»[6]. وهو ما قرّره

(١) Dawkins, *The Greatest Show on Earth*, p.146.

(٢) س. م. ستانلي S. M. Stanley (١٩٤١ـ): عالم أحافير وبيولوجيا أمريكيٌّ. دَرَّسَ جيولوجيا في «Johns Hopkins University». له مساهماتٌ بارزةٌ في علم الأحافيرِ في القرن العشرين.

(٣) Steven M. Stanley, *The New Evolutionary Timetable* (New York: Basic Books, 1981), p.72, 1981.

(٤) ستيفن جاي جولد Stephen Jay Gould (١٩٤١ ـ ٢٠٠٢م): أمريكيٌّ. أحد أكبر علماء الأحافير في القرن العشرين، ومُؤسّس نظرية «التوازن المتقطّع». وهو أشهرُ خصوم التّفسير التطوريّ المتدرّج لـ«داروين».

(٥) Stephen Jay Gould, ‘Evolution’s Erratic Pace,’ *Natural History*, 86 [5]: 13. May

(٦) Stephen J. Gould, *The Panda’s Thumb* (New York: Norton, 1980), p. 189.

صاحبه (إلدردج): «لقد قلنا نحن علماء الأحافير: إنّ تاريخ الحياة يدعم هذا التفسير [قصّة التغيّر التدرّجي]، في حين أنّنا نعلم طَوَال الوقت أنّه لا يَدْعَمُها»[١].

وتظهر إشكالاتُ الأحافير أساسًا في الطبيعة الانفجاريّة لظهورها. وهنا أهمّها.

١ ـ الانفجار الكمبري:

كان (داروين) مُدْرِكًا أنّ تاريخ الحيواناتِ في طبقات الأرض يعرف لغزًا مُحَيِّرًا جدًّا، وهو الظُّهور المفاجئ لعامّةِ الكائنات الحيّة متعدّدة الخلايا في طبقة الكمبري ـ أو العصر الكمبري ـ (بدءًا منذ قرابة ٥٣٠ مليون سنة). وفي هذا يقول: «ستبقى هذه القضية غيرَ قابلةٍ للتّفسير في الوقت الحاضر»[٢].

ولا يزال الانفجارُ الكمبري يشكّل إلى اليوم معضلةً للتطوّريين عامّةً، والدَّراونةِ خاصّةً، أو بعبارة البيولوجيّ التطوّري (ماثيو ويلز)[٣]، هو «صداع حقيقيّ للبيولوجيّين التطوّريين»[٤].

وقد أَصدرَ ـ مُؤخَّرًا ـ فيلسوف العلوم (ستيفن ماير)[٥] كتابَهُ: «شكُّ داروين: الأصل الانفجاريّ لأصلِ الحياة الحيوانيّة والدّفاع عن التّصميم الذكيّ»، وكشفَ فيه عن أزمة الماديّةِ في تفسيرِ الظُّهور المفاجئِ لطبقةٍ كبيرةٍ من الكائناتِ الحيّةِ متعدّدة الخلايا شديدة التّعقيد. وقد تفاوتَتْ رُدود العلماءِ

---

(١) Niles Eldredge, *Time Frames: The Rethinking of Darwinian Evolution and the Theory of Punctuated* (New York NY: Simon & Schuster, 1985), p.144.

(٢) “The case must at present remain inexplicable; and may be truely urged as a valid argument against the views here entertained” Darwin, *On the Origin of Species*, p.269.

(٣) ماثيو ويلز Matthew Wills: أستاذ تاريخ التّطور البيولوجيّ في جامعة «باث». له عنايةٌ خاصّةٌ بما يُعرف «بالتّطوّر الصُّغرويّ».

(٤) “Marine worms reveal the deepest evolutionary patterns”.
<https://www.sciencedaily.com/releases/2012/10/121009092533.htm>.

(٥) ستيفن س. ماير Stephen C. Meyer (١٩٥٩ـ): أمريكيٌّ. أحد أئمّة تيّار التّصميم الذكيّ. ناقَشَ في كُتُبِهِ أُصولَ المنهج العشوائيّ للدّاروينيّة، عارضًا البديل التّصميميَّ وأَدِلَّتَهُ.

على الكتاب، فمنهم من اعترفَ بقوّة الحجّة وأمانة المؤلفِ في عرض المشكلةِ، لكنّه لم يستطع أن يخون ولاءَهُ للتّفسير الماديِّ، ومنهم من تَشَبَّثَ بمساجلاتٍ جانبيّةٍ بعيدة عن أصل المشكلةِ، وكان أهمَّ اعتراض على لسان عالم الإحاثة المتخصّص في العصر الكمبري (تشارلز مارشل)[١] ـ بالقول: ربّما كانت الكائنات التي عاشَتْ قبل الكمبري تحمل في داخلها برمجةً جينيّةً أنتجت الانفجارَ الأَحْيائيَّ. لكنّ هذا الجواب ـ التخمينيّ ـ لا يحلُّ شيئًا من الإشكال، فكما يقول (ماير) سينتقل سؤال: من أين جاءت المعلومات الجينيّة في العصر الكمبري؟ إلى: من أين جاءت المعلومات الجينيّة المنتحية في كائناتِ عَصْرِ قبل الكمبري؟ إذ المشكلة باختصارٍ هي: أصلُ المعلومات الكامنة في الجينوم[٢]. ثم إنّ تعقيب (مارشل) لا يلتقي مع التّفسير الداروينيّ الذي يقرّر أنّ المعلومةَ الجينيّةَ لا يستقِرُّ وجودُها إلَّا إذا وَجَدَتْ لها دورًا وظيفيًّا حين نُشُوئِها، وإلَّا سَيُلْغِيها الانتخابُ الطبيعيُّ؛ فَلِمَ بَقِيَتْ هذه الجيناتُ كامنةً في صمتٍ ملايين السّنوات قبل أن تَتَحَفَّزَ للظُّهور؟!

تتمثّل خطورةُ الانفجار الكمبريّ في أنّه يمثّل البدايةَ الحقيقيةَ لأغلبِ الكائنات متعدّدة الخلايا؛ إذ إنّه من سَبْعٍ وعشرين (شعبة) (phyla) حيوانيّة محفوظة في الأحافير[٣]، ثلاث وعشرون منها ظَهَرَتْ في هذا الانفجار، منها عشرون دون سَلَفٍ[٤].

---

(١) تشارلز مارشل Charles Marshal: عالم أحافير أمريكيٌّ. المشرف على متحف التّاريخ الطّبيعيّ: «Berkeley Natural History Museums».

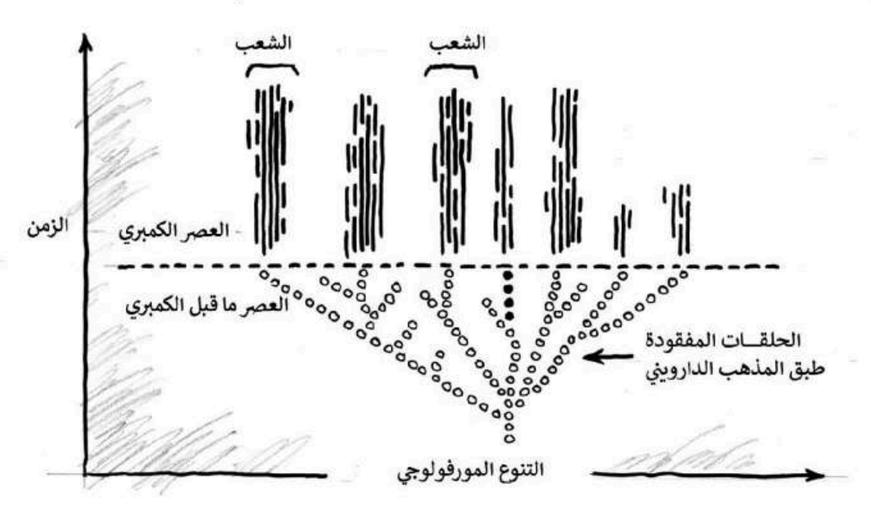
(٢) Stephen C. Meyer, To Build New Animals, No New Genetic Information Needed? More in Reply in Charles Marshall.
<http://www.evolutionnews.org/2013/10/to_build_new_an077541.html>.

(٣) مجموع الشعب الحيوانية ست وثلاثون.

(٤) Stephen Meyer, *Darwin's Doubt: The Explosive Origin of Animal Life and the Case* for Intelligent Design (WA: HarperCollins, 2014) pp. 417 - 418.
اللوحتان التاليتان عن كتاب «ماير».

العصر الجيولوجي	العـــدد التقريبي للشعب التي ظهرت لأول مرة	العدد التراكمي للـــشـــعب	أسماء الشعب
ما قبل الكمبري	3	3	CNIDARIA(?) MOLLUSCA(?) PORIFERA
الكمبري	20	23	ANNELIDA HEMICHORDATA BRACHIOPODA HYOLITHA BRYOZOA LOBOPODIA CHAETOGNATHA LORICIFERA CHORDATA NEMATOMORPHA COELOSCLERI-TOPHORA PHORONIDA PRIAPULIDA CTENOPHORA SIPUNCULA ECHINODERMATA TARDIGRADA ENTOPROCTA VETULICOLIA EUARTHROPODA
عصور جيولوجية متأخرة	4	27	NEMATODA (CRETACEOUS) NEMERTEA (CARBONIFEROUS) PLATYHELMINTHES (EOCENE) ROTIFERA (EOCENE)
لا تظهر في السجل الأحفوري	9	36	ACANTHOCEPHALA KINORHYNCHA CYCLIOPHORA ORTHONECTIDA DICYEMIDA PENTASTOMA GASTROTRICHA PLACOZOA GNATHOSTOMULIDA

هذا الظهور المفاجئ لهذه الشُّعَبِ المتباعِدَةِ في بِنْيَتِها بصورةٍ كبيرةٍ يقتضي في ضوء الرُّؤية الداروينيّة وجودَ سَلَفٍ لها واسعٍ ومتنوّعٍ بصورة كبيرةٍ في العصر قبل الكمبري، لكنّنا لا نجد من ذلك شيئًا في السّجلِّ الأُحفوريّ.



٢ ـ الانفجارات الخلقية غير الكمبرية

ليس الانفجارُ الكمبريّ الحدثَ الوحيد الذي يكشِفُ أنّ الترقّي التدريجيَّ الناتِجَ عن الطَّفرات العشوائيّةِ دعوى باطلة بسبب الضَّخِّ المفاجِئِ للمعلومات في عالم الأحياء، وإنّما عرفت الأرضُ انفجاراتٍ أَحيائيّةً أُخرى، منها:

• الانفجار الأَفالوني[١]، وقد تمّ في آخرِ العصر السّابق للعصر الكمبري[٢]، وفيه ظَهَرَتْ لأوّل مرّة في تاريخ الحياة كائناتٌ متعدّدة الخلايا[٣].

• الانفجار الأردوفيسي[٤] بعد أربعين مليون سنة من الانفجار الكمبري، وفيه ظَهَرَتْ أنواعٌ كثيرة جدًّا من الكائنات البحريّة (تحت مستوى الشُّعَبِ) حتّى إنّ أحد العلماءِ سمّى ذلك «الانفجار الثاني العظيم للحياة» «Life's Second Big Bang»[٥].

• الانفجار الأدونتدي[٦]، وفيه ظَهَرَت الأسماكُ ذات الأسنان[٧].

• ظهور النّباتات الأرضيّة الوعائيّة[٨] فجأةً، حتّى قيل في هذا الحدث: إنّه الانفجار الأَحيائيُّ على اليابسة المقابل للانفجار الكمبري في البحر[٩].

• يُقارِنُ العلماءُ ظهور العديد من نباتات الأرض بظهور الحيوانات البحرية المفاجئ في العصر الكمبري[١٠].

• انفجار الحشرات في العصر الفحميّ[١١]، وفيه ظهرَتْ جماعاتٌ من

---

(١) The Avalon Explosion.

(٢) قبل العصر الكمبري بثلاث وثلاثين مليون سنة.

(٣) Bing Shen et al., 'The Avalon Explosion: Evolution of Ediacara Morphospace,' *Science* 319 (2008): 81 - 84.

(٤) The Ordovician explosion, or the Ordovician radiation, or the great Ordovician biodiversification event.

(٥) James O'Donoghue, 'The Ordovician: Life's Second Big Bang,' *New Scientist* 2660 (2008): 34-37.

(٦) The odontode explosion.

(٧) Gareth J. Fraser et al., 'The Odontode Explosion: The Origin of Tooth-Like Structures in Vertebrates,' *Bioessays* 32 (2010): 808 - 817.

(٨) Vascular land plants.

(٩) Richard M. Bateman *et al.*, 'Early Evolution of Land Plants: Phylogeny, Physiology, and Ecology of the Primary Terrestrial Radiation,' *Annual Review of Ecology and Systematics* 29 (1998): 263-292.

(١٠) المصدر السابق.

(١١) Carboniferous Insect Explosion.

الحشرات المجنّحة دون سَلَفٍ معروفٍ[١].

• الظُّهور المفاجئ للنّباتات المزهرة، وهو ما يُسمّى أحيانًا بـ«الإزهار الكبير» «big bloom»[٢]. وقد اضطرب (داروين) لهذا الحَدَثِ؛ إذ إنّه يَتَعَارَضُ مع نظريّته في التطوّر التدرّجيّ[٣].

• انفجار الحياة الديناصورية؛ وهو الحدث الذي وصفه أحد العلماء من جامعة «بريستول» بقوله: «في البدء لم تكن هناك آثار للديناصورات، وبعد ذلك ظهرت آثار كثيرة. هذا يدل على لحظة انفجارها»[٤].

• ظهور الطُّيور فجأةً، وكان ظهور جُلِّ مجموعات الطُّيور (٩٥٪) منها في فترةٍ جيولوجيّة قصيرةٍ (بين ٦٥ مليونًا و٥٥ مليون سنة ق. م)[٥].

• ظهور الثدييّات المشيميّة[٦] بصورة مفاجئةٍ في الفترة بين ٦٢ و٤٩ مليون سنة ق. م دون سَلَفٍ؛ حتّى إنّها سُمّيت «بالتَّشَعُّبِ الثَّدْيِيَّاتيّ» «mammalian radiation»[٧].

الانفجارات السابقة وغيرها تُشْكِلُ بصورة واضحةٍ على التّفسير الدارونيّ؛ بل وتعكس صورةً مقلوبةً للشَّاهِدِ الأُحفوريّ كما يريده التطوّريون؛ إذ إنّ الأحافير تُقدّم صورةً للكائنات الحيّة متعدّدة الخلايا في بداية ظهورها وهي في غاية التّعقيد الوظيفيّ، مع اختلافاتٍ واسعة بينها في مستوى الشُّعَبِ، في حين يلزم من تصديق المذهب التطوّريّ أن تبدأ الحياةُ على مستوى

---

(١) Conrad C. Labandeira, 'The Fossil Record of Insect Extinction: New Approaches and Future Direction', *American Entomologist* 51 (2005): 14-29.

(٢) See Stefanie De Bodt, Steven Maere, and Yves Van de Peer, 'Genome duplication and the origin of angiosperms,' *Trends in Ecology and Evolution*, 20 (2005): 591 - 597.

(٣) William E. Friedman, 'The Meaning of Darwin's 'Abominable Mystery',' *American Journal of Botany* 96 (2009): 5-21.

(٤) Dinosaurs ended-and originated-with a bang!, Press release issued: 16 April 2018. <http://www.bristol.ac.uk/news/2018/april/dinosaurs-ended-and-originated-with-a-bang-html>.

(٥) See Alan Cooper and Richard Fortey, 'Evolutionary Explosions and the Phylogenetic Fuse,' *Trends in Ecology and Evolution*, 13 (April, 1998): 151 - 156; Frank B. Gill, *Ornithology*, 3rd ed. (New York: W.H. Freeman, 2007), 42.

(٦) Placentalia.

(٧) J. David Archibald, 'Eutheria (Placental Mammals),' *Encyclopedia of Life Sciences*/eLS (Chichester, UK: Wiley, 2012).

الكائنات متعدّدة الخلايا بسيطة ومتشابهة ثم تتوسّع بينها الاختلافات بسبب تراكم الطَّفرات الثابتة في الكائنات الحيّة. وقد عبّر (داوكنز) عن المنطق التطوّري بقوله: «ما كان اختلافًا بين الأنواع داخل الجنس الواحد يتحوّل مع الوقت إلى أنواع مختلفةٍ داخل الفصيلةِ نفسها. ولاحقًا تتمايز الفصائل إلى درجةٍ تجعل العلماء المختصّين يُفضّلون تسميتها بالرُّتَبِ، ثم الصُّفوف، فالشُّعَبِ»[1]. والنّاظر في الأحافير يرى أنّ الشُّعَب والصُّفوف قد ظهرت فجأة في الانفجار الكمبريّ، ثم بعد ذلك ظهرت (في انفجارات مثل الانفجار الأردوفيسي) الكائنات التي تنتمي إلى التّصنيفات الأدنى..

وقد اعترف عددٌ من التطوريّين بهذا الترتيب المقلوبِ؛ فكتب فريقٌ من علماء الإحاثة أنّ «السّجلّ الأُحفوريّ يدلُّ على أنّ التنوُّعَ الأكبر للشُّعَب حَدَثَ قبل تنوُّعِ الصُّفوف، وتنوّع الصّفوف قبل تنوّع الرُّتبِ، وتنوُّع الرُّتبِ قبل تنوُّع الفصائِلِ،.. لا يبدو أنّ الأَصنافَ الأعلى قد تمايَزَتْ عبر تراكُمِ الأصنافِ الأدنى»[2].

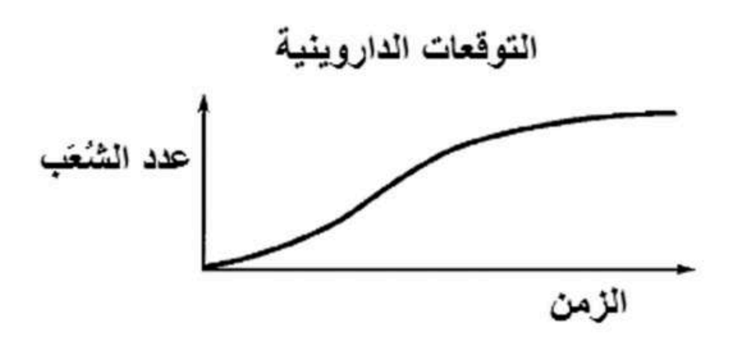
طبقات الأحياءِ من الأَخَصّ إلى الأَعَمّ

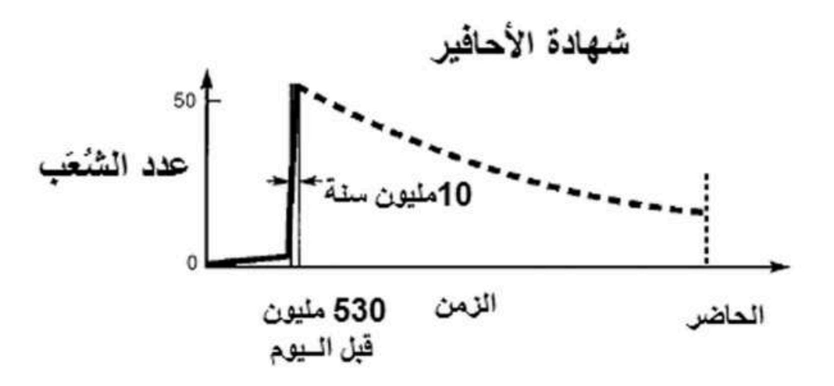
نوع
جنس
فصيلة
رتبة
صف
شعبة
مملكة
نطاق
الحياة

(١) Richard Dawkins, *Unweaving the Rainbow* (Boston: Houghton Mifflin Harcourt, 1998), p.201.

(٢) Douglas H. Erwin *et al*, 'A Comparative Study of Diversification Events,' *Evolution* 41 (1987): 1177 -1186, 1183.

وفي الصورتين التاليتين بيان الخلاف بين نبوءات الداروينية وواقع حال الأحافير(١):





خلاصة النَّظَرِ في الشّاهد الأحفوريّ أنّه يتوافق بصورةٍ واضحةٍ مع نبوءاتِ مذهبِ الخَلْقِ الخاصّ لا مذهب التطوّر:

١ ـ الكائناتُ الحيّة تنشأ بصورةٍ مفاجئةٍ مكتملةِ البُنْيان دون سَلَفٍ.

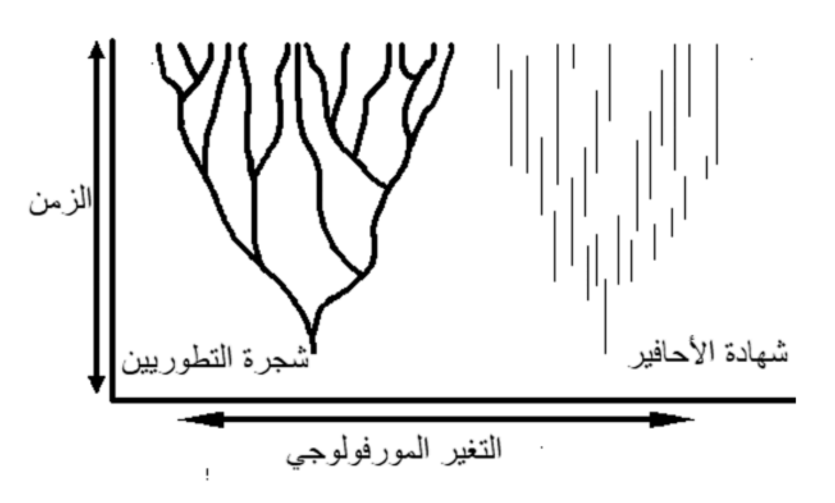
٢ ـ تستمِرُّ على ذلك حتى تَنْقَرِضَ.

٣ ـ لا يمكن نَظْمُ مجموعِها في شكلٍ شَجَرِيٍّ مُترابِطٍ.

وقد قرّر (داروين) أنّ نظريّته تقوم على القانون الطبيعيّ ـ المزعوم ـ

(١) William Dembski, James Kushiner, *Signs of Intelligence: Understanding Intelligent Design* (Grand Rapids, Mich.: Brazos Press, 2001), p.151.

«الطبيعة لا تقوم بالقَفْزِ» «Natura non facit saltum»، غير أنّ الطبيعة تشهد أنّ البدايةَ قد تكون قفزةً عظيمةً بلا مقدّمةٍ بسيطةٍ؛ بل هي قفزاتٌ كثيرةٌ متكرّرةٌ بلا مقدّماتٍ.



٣ ـ السُّؤال الذي يكرهُه الدَّراونةُ:

الجوابُ الدّارونيُّ الكلاسيكيُّ على مشكلةِ غيابِ الحلقات الوسيطةِ بين الكائنات الحيّةِ (الحيوانية والنباتيّة) هو الإشارةُ إلى بضعِ أمثلةٍ يُزعم أنّها وسائِطُ كانت مفقودةً ـ وأشهرها حيوان (تِكتالِك) (Tiktaalik)، الذي قال فيه (داوكنز): «تِكتالك هو الحَلْقَةُ المفقودة المثالية ـ مثالية لأنّه يكاد يشطر الاختلافاتِ بين الأسماك والبرمائيّات، ومثاليّ لأنّه لم يعد مفقودًا»[١]. وكلّ تلك الأمثلة عليها اعتراضاتٌ علميّةٌ، ومنها أنّ (تكتالك) ـ الحَلْقَةَ المزعومة لسدّ الفجوةِ الهائلة بين الأسماك والحيوانات الأرضيّةِ ـ قد فَقَدَتْ قيمتَها الدّلاليّة المزعومة في تاريخ التطوّر ـ على خلاف ما تراه في الكتب المدرسيّة ـ بعد اكتشاف آثارِ رباعيّاتِ الأطرافِ (Tetrapods) أقدم ١٢ مليون سنة من (Eusthenopteron) ـ أقدم سمكة معروفة ـ[٢]، مما اضطرَّ أحد علماء الأحافير

---

(١) Richard Dawkins, *The Greatest Show on Earth*, p.169.

(٢) Jonathan Sarfati, *The Greatest Hoax on Earth? Refuting Dawkins on evolution* (Kindle edition).

أن يصرّح قائلًا: «هذه النتائج تلزمنا أن نعيد النَّظَرَ في كامِلِ صورةِ الانتقالِ من الأسماكِ إلى الحيوانات الأرضيّة»[1].

على أنّني لا أريد أن يستغرق مُخالِفُ الدّراونةِ في هذه التفاصيل لأنّ السُّؤال الحقيقيّ ليس في الوسائط الفرديّةِ المفقودة، فإنّ أربعًا أو عشرين أحفورةً لا تُفسِّرُ شيئًا، وإنّما المطلوب أن نسأل السُّؤال الأهمّ، ونجيب عنه بأمانةٍ علميّةٍ.

سؤالنا على الصورة التالية: تُخبرنا المجلّة العلميّة (National Geographic) أنّ «السجلَّ الأُحفوريَّ مثل فيلم للتطوّرِ ضاعَتْ منه ٩٩٩ لوحة من كلّ ١٠٠٠ لوحة»[2]. ورغمَ ـ حقيقةِ ـ أنَّ عددَ الكائناتِ الوسيطةِ يجبُ أن يكون أكبرَ من ٩٩٩ مُقابِلَ كُلِّ نوعٍ موجودٍ اليومَ، إلَّا أنّنا نرضى به ـ تَنَزُّلًا ـ، ونقول: إنَّ التَّفسيرَ الدَّاروينيَّ يَعِدُنا بحلقاتٍ وسيطةٍ وافرةٍ جدًّا تعادِلُ نوعيًّا أَلْفَ ضِعْفِ الأنواعِ الموجودةِ اليومَ، فَأَيْنَ هي هذه الحلقات في السِّجِلِّ الأُحْفُوريِّ؟ أو بعبارةِ العالِمِ الخَلْقِيِّ المشهورِ (دوان غش)[3] في سُؤالِه الذي كَرَّرَهُ في عَشَرَاتِ المناظرات ومئاتِ المواجهاتِ العلميّةِ، دون جوابٍ من الدَّراونةِ: «إذا كان التَّطَوُّرُ حقيقةً؛ فيجب أن تحتوي هذه الصُّخُورُ التي تعود إلى العصرِ ما قبل الكمبري على عِدَّةِ بلايينَ من أَحافيرِ الأَسْلافِ التَّطَوُّرِيِّينَ للفقاريّات المعقّدة. أين أَحافيرُ هذه الأشكالِ الانتقاليّةِ التي تربِطُ بين هذه اللَّافقاريّات المعقَّدةِ والسَّلَفِ المشترَكِ؟ الكثيرُ من صُخورِ العَصْرِ ما قبل الكمبري سليمةٌ مُهيَّأةٌ بصورةٍ مثاليّةٍ لِحِفْظِ الأحافيرِ. إذا كانت الأحافيرُ موجودةً هناك؛ فلا بُدَّ أن يكونَ من الممكنِ العثورُ عليها. توجد الآن عِدَّةُ تقاريرَ عن أدبيّاتٍ علميّةٍ لاكتشافِ أحافيرَ مايكروسكوبيّةٍ ورَخْوةٍ، وَحِيدةِ الخليّةِ، مثل البكتيريا والطَّحالبِ على صُخورِ العَصْرِ قبل الكمبري. إذا كان بالإمكانِ العُثورُ

---

(١) Fossil Footprints Give Land Vertebrates a Much Longer History, *ScienceDaily*, 8 January 2010. <https://www.sciencedaily.com/releases/2010/01/100107114420.htm>.

(٢) *National Geographic*, November 2004., p. 25 .

(٣) دوان غش Duane Gish (١٩٢١ ـ ٢٠١٣م): عالم كيمياءٍ حيويّة أمريكيٌّ. أَشْهَرُ المناظرين في صف تيّار الخلق الخاصّ. كانت له عنايةٌ متميّزة ببيان دلالة الشّاهد الأُحفوريّ على بطلان المذهب التطوريّ.

على أحافيرِ تلك الكائنات، فمن البَدَهِيِّ أنّه لن تكون هناك صعوبةٌ في العثورِ على أحافيرِ الأسلافِ التَّطَوُّرِيّةِ والأشكالِ الانتقاليّةِ التي تنتهي إلى اللّافقاريّات المعقَّدَةِ التي توجد أحافيرُها في الصُّخور الكمبريّة. لا أَحَدَ ـ مع ذلك ـ وجد الأسلافَ المتحَجِّرَةَ أو الأشكالَ الانتقاليّةَ التي تربط ـ لِنَقُل ـ الإسفنجيّاتِ بقناديلِ البحرِ، وعضديّات الأَرْجُلِ بالـمَحَارِ، والقواقِعَ مع المِفْصَلِيّاتِ ثُلاثيّةِ الفُصوصِ، أو أيّ روابطَ أخرى ممكنةٍ لنوعٍ واحدٍ من اللّافقاريّات الكمبريّةِ»[١].

السؤال السّابق الذي ظلّ (دوان غش) يكرره في مناظراته ومحاضراته وفي كتابَيْهِ العَظِيْمَيْنِ: «Evolution, the fossils say no!» و«Evolution: The Fossils Still Say No!» لم يَلْقَ غيرَ الصَّمْتِ والذُّهُولِ.

والظريف في شهادة الأحافير هو أنّها تشهد بعكس المتوقّع تمامًا؛ فإذا كانت نبوءات الداروينيّة تُنْبِئُنَا عن أعدادٍ ضخمةٍ جدًّا من الحلقات الوسيطةِ تفوق بصورة هائلةٍ الأنواع الموجودةَ اليوم، فإنّ الأحافير تشهد بالتَّقَطُّعِ الهائل بين الأنواع، أو بعبارة (إرنست ماير)[٢] ـ أحد أئمّة «الداروينية الحديثة ـ: «إنّ المرءَ لا يَجِدُ في الحقيقة غير الانقطاعات. كلُّ الأنواعِ مُنفصِلةٌ عن بعضها بثغراتٍ لا يمكن عُبُورها (bridgeless gaps)، الحلقات الوسيطة بين الأنواع لم تُكْتَشَفْ. . . . والمشكلة أعظمُ من ذلك على مستوى الأنواع العليا»[٣].

٤ ـ الظهور المفاجئ للتعقيد العالي:

إذا أخذنا بالقولِ: إنّ الانفجارَ الكمبري قد استغرق ١٠ ملايين سنة، فذاك يعني: أنّ هذا الانفجارَ قد استغرق ١,٧٪ من تاريخ أحافير الحيواناتِ، رغم أنّ بداية تكوينِ الهيكل البدنيّ (body plan) حتى يصل إلى ما شاهدناه

(١) Doug Sharp and Jerry Bergman, *Persuaded by the Evidence* (Kindle edition).

(٢) إرنست ماير Ernst Mayr (١٩٠٤ ـ ٢٠٠٥م): عالم بيولوجيا ألمانيّ، له عناية بعلم تصنيف الكائنات الحيّة، ومساهمة في فلسفة العلوم.

(٣) *The Growth of Biological Thought: Diversity, Evolution, and Inheritance* (The Belknap Press of Harvard University Press, 1982), p.524.

في العصر الكمبري يقتضي مدّة هي الأَطْوَلُ في تاريخ التطوّر البيولوجيِّ. وقد ظهر التّعقيد في المراحل الأولى للعصر الكمبري، وأمّا ما سبق ذلك فالكائنات إمّا صغيرة جدًّا (مثل البكتيريا والطحالب) أو كائنات مشكوك بصورة كبيرة في علاقتها بما ظهر عند الانفجار الكمبري[١].

ومن الإشكالات الكبرى التي يفضحها الانفجارُ الكمبري ظهورُ أشدّ الأعضاء تعقيدًا في بداية المرحلة الكمبرية؛ أي: العَيْن والدّماغ، دون سالِفِ أصلٍ مُتَرَقٍّ.

فالعينُ المكتشفةُ في أدنى طبقة الكمبري (أي: بداية العصر الكمبري) بالغةُ التّعقيد، عِلْمًا أنّ البحث العلميَّ لم يهتدِ إلى اليومِ لكائناتٍ لها عيونٌ قبل العصر الكمبري[٢]؛ فَعَيْنُ إحدى مفصليّاتِ الأَرْجُلِ (Arthropod) المكتشفة حديثًا في أستراليا أَشَدُّ تعقيدًا من عددٍ من عيون الأصناف (taxa) الحيوانيّة الموجودة اليوم، مثل سرطان حَذْوَةِ الحِصَانِ (Horseshoe crab)؛ فكلّ واحدة من هذه المفصليّات لها أكثر من ٣٠٠٠ عَدَسَةٍ عُيَيْنَةٍ كبيرةٍ، وتكشِفُ طبيعةُ هذه الأَعْيُنِ أنها لكائنات تعيش على اصطيادِ فرائسِها، وتملك القدرةَ على الرّؤية في الضّوء الخافِتِ[٣].

وشَهِدَ مؤخّرًا أحد علماء الأحافير من جامعة «New England» ـ بعد كشفِهِ ومجموعتهُ البحثيّة عن عَيْنَيْنِ مُعقَّدَتَيْنِ لكائنٍ عاش منذ أكثر من ٥٠٠ مليون سنة[٤] ـ أنّ العين المعقّدة «قد ظهرت بصورة **انفجاريّة، في لمحة بصر** بالتقويم الجيولوجيّ»[٥].

---

(١) Alan Cooper and Richard Fortey, 'Evolutionary explosions and the phylogenetic fuse,' *Trends in Ecology and Evolution*, 13 (April, 1998): 151 - 156.

(٢) F. Zhao, *et al.* 'Complexity and diversity of eyes in Early Cambrian ecosystems. *Sci. Rep*. 3, 2751.

(٣) Lee MS *et al*. 'Modern optics in exceptionally preserved eyes of Early Cambrian arthropods from Australia'. *Nature* 474: 631 - 634 (7353).
<http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/21720369>.

(٤) J. R. Paterson, *et al*. Acute vision in the giant Cambrian predator Anomalocaris and the origin of compound eyes. Nature 480, 237 - 240 (2011).
<https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/22158247>.

(٥) شهادة عالم الأحافير (John Paterson):

= The eyes have it: world's oldest predator found, canberratimes.com.au, 7 December 2011.

وقد كان أقدم الأَدمِغةِ المعروفة في الأحافير يعود إلى ٢٣٠ مليون سنة، غير أنّ علماء صينيّين اكتشفوا سنة ٢٠٠٨م دماغًا ثُلاثيَّ الأجزاء لأحافيرِ شبيهِ الجمبري (shrimp-like) اسمه «Fuxianhuia protensa» يعود للعصر الكمبري، وهو على شكلٍ قريب من أَدمغةِ كثير من مفصليّات الأرجلِ اليوم. وشهد أحدُ الدارسين له أنه اكتشاف مفاجئٌ جدًّا **لم يكن أحدٌ يتوقَّعُه في هذه الفترة المبكّرة**، وأنّ العلماء فوجئوا بأمرين: التّعقيد المبكّر في بداية ظهور الكائنات متعدّدة الخلايا، واستمرار هذا الجهاز العصبي نفسِه على الصورة نفسِها تقريبًا على مدى مئات ملايين السنين(١).

أُحفورةُ (Fuxianhuia protensa) من الصّين وتعود إلى ٥٢٠ مليون سنة وقد حُفظ دماغها(٢)



خلاصة الكلام: هي أنّ الانفجارَ الكمبري يرفضُ التفسير المادي الصِّرفَ لنشأة الأنواع الكبرى للحياة، وفي هذا يقول فريقٌ من البيولوجيّين

= <http://www.canberratimes.com.au/technology/sci-tech/the-eyes-have-it-worlds-oldest-predator-found-20111207-1uw81.html>.

(١) Cambrian fossil pushes back evolution of complex brains.
<https://www.sciencedaily.com/releases/2012/10/121010131436.htm>.

(٢) Oldest Arthropod Brain Found in Buglike Creature.
<http://www.livescience.com/23862-oldest-arthropod-brain-complex.html>.

برئاسة (كفن بترسون)[١]: «أصبح توضيحُ الأساس الماديِّ للانفجار الكمبري أكثرَ صعوبةً من قبل ـ وليس العكس ـ كلّما تَعَلَّمْنا المزيدَ حول الحَدَثِ نفسِه»[٢].

وقد قيل للهروبِ من مأزقِ نُدْرةِ «الحلقات المفقودة»: إنّ سببَ ذلك القصورُ الهائل في محفوظاتِ الأحافير، لكنّ هذا الجواب الذي قَدَّمَهُ (داروين) انكشفَ فسادُه بإقرارِ كثيرٍ من الدّراونة كما سبقت الإشارةُ إليه.

ولعلّ النّظرَ في نِسب الكائنات الموجودةِ اليوم والمحفوظة في طبقات الأرض، ومقارنتها بتوقعات الدَّراونة لِلمُنقرِض من الحيوانات يُعدُّ أوضحَ المسالكِ لكشفِ أمانة طبقات الأرض في تقديم صورةٍ عامّةٍ للكائنات التي عاشت على الأرض.

تخبرنا الدراسات الاستقرائيّةُ أنّ الأحافير قد حفظت لنا من بين الثلاث والأربعين (رتبة) (orders)، (٩٧,٧٪) منها. ومن بين ١٧٨ فصيلة من فصائل (families) الحيوانات الأرضية الحيّة، حَفِظَتْ لنا الأحافير ٨٧,٨٪ منها[٣].

تعتبر الأحافيرُ الشّاهِدَ الوحيدَ المباشرَ للمذهب التطوّريِّ، وهي ضِدُّ التطوّرِ لأنها تشهد ضِدَّ نُبوءاتِ التطوّر التدرّجيِّ البطيءِ، وتشهد للمذهبِ الخَلْقيِّ بمطابقة نبوءاتِه عن الظهورِ المفاجئ والمتكرِّر للكائنات الحيّة في شكلِها النهائيِّ، وبقائِها على ذلك ملايين السّنين.

٥ ـ أفضل مثالٍ أُحفوريٍّ للتطوّر في الميزان:

التطوّرُ ـ في الخطاب الإلحاديِّ ـ حقيقةٌ لا مِرْيةَ فيها ولا شَكَّ، ولا

---

(١) كفن بترسون Kevin Peterson: بيولوجيٌّ أمريكيٌّ. أستاذٌ في «Dartmouth College». له عنايةٌ خاصّةٌ بالانفجار الكمبري والتّعقيد المبكّر لمظاهر الحياة.

(٢) Kevin J. Peterson, Michael R. Dietrich, and Mark A. McPeek, 'MicroRNAs and Metazoan Macroevolution: Insights into Canalization, Complexity, and the Cambrian Explosion,' *BioEssays* 31 (July 2009): 737.

(٣) هذه النِّسَبُ تعود إلى سنة ١٩٨٥م، ولعلّها اليوم أكبر.
Michael Denton, *Evolution: A Theory in Crisis*, p.90.

يمكن فهم عالم الأحياء إلّا من زاويةٍ تطوّريةٍ. ولا شكّ أنّ هذه الوُثوقيّةَ المتطرّفةَ تقتضي أن يكون أبسطُ نظرٍ في أيٍّ موضوعٍ من موضوعات تاريخ الأحياء دالًّا ـ بلا ريبة ـ على انتقالِ الكائنات من جنسٍ إلى آخَر.

وقد تَبَيَّنَ لنا سابقًا أنّ الأحافيرَ لا تشهدُ لدعوى التطوّريّين، ولذلك سننزِلُ إلى أدنى مستويات التحدّي لنسألَ عن أوضحِ مثالٍ في جَعْبَتِهِم عن التطوّر [الكبروي، كما يسمّونه]. ولعلَّ عامة التطوّريين يذكرون تطوُّرَ الحِصان حُجّةً لمذهبهم.

الدَّعْوى: نشرَ عالِمُ الحفريّات (أوثنيل مارش)[1] قبل ثلاثِ سنواتٍ من وفاة (داروين) صُورًا لتطوّر الحصانِ الحديث وحيدِ الإصبع من سَلَفِهِ الذي كان رباعيَّ الأصابع. وقد اشتهرت هذه الدعوى بعد ذلك، و«طوَّرها» التطوريُّون بسلسلةٍ أطولَ حتّى أصبحَتْ أَشْهَرَ نموذجٍ للتطوّر في الكتبِ المدرسيّة يتلقّاه الطّلبة كعقيدةٍ لا يملكون أمامها غير التَّسليمِ.

الحقيقة: النموذج التطورِيُّ للأحصنة خديعةٌ لا تَدْعَمُها الأحافيرُ، ويعلم فسادَها المتخصّصون منذ زمنٍ. وفي ذلك يقول الكاتب العلميّ التطوّريُّ (جوردون تايلور): «ربّما تكون **أَخْطَرُ نقاط الضَّعْفِ في الدّاروينيّة** فَشَلَ علماءِ الحفريّات في العثور على سلالاتٍ مُقنِعةٍ أو تعاقُباتِ كائناتٍ تُظهِرُ التغيّر التطوّريَّ الكبيرَ... وغالبًا ما يتمُّ الاستشهاد بالحصان بصفته **النموذجَ الناجحَ الوحيدَ**، لكنّ الحقيقةَ أنّ الخَطَّ من حصانِ فجرِ التّاريخِ إلى الحصان المعاصرِ خَطٌّ مُنْحَرِفٌ جدًّا، وهو مزعومٌ لإظهارِ زيادةٍ مستمرّةٍ في الحجم، لكنّ الحقيقةَ أنّ هناك أنواعًا أَصْغَرَ من حصانِ فجر التاريخ لا أكبر، ويمكن الإتيانُ بنماذج من مصادرَ مختلفةٍ في تعاقُبٍ يبدو مُقنِعًا لكن ليس هناك دليل يؤيّد تعاقبها بهذا الترتيب فعلًا»[2].

---

(١) أوثنيل مارش Othniel Marsh (١٨٣١ ـ ١٨٩٩م): عالم أحافير أمريكيّ. دَرَّسَ في جامعة «يال». كانت له دراساتٌ كشفيّةٌ واسعةٌ في غرب الولايات المتّحدة الأمريكيّةِ.

(٢) G. R. Taylor, *The Great Evolution Mystery*, p.230.

٦ ـ معضلةُ القِرْدِ العائِم، ودوغمائيّة التّطوّريّين:

يقولُ التطوّريُّون: إذا كان التطوّرُ صحيحًا؛ فيجب أن يكون قادرًا على تفسير التوزيع الجغرافيّ للأحياء على الأرض؛ فالكائناتُ المتجاورة لها أصلٌ مشترك، وقد تتجاور الكائناتُ التي لها أصل مشترك مدّةً من الزمان، ثم يحدث بينها تمايزٌ مكانيٌّ كبيرٌ بفعل حركة القارّاتِ وتَبَاعُدِها، وإنّ عِلْمنا بالأصل الأوّلِ للقارّات يجعلنا ندرِكُ أن وجود كائناتٍ لها أصلٌ واحد في أكثرَ من قارّةٍ سَبَبُهُ انفصالُ هذه القارّات عن بعضِها.

ويتَّخِذُ التطوّريُّون ـ لذلك ـ الجغرافيا الحيويّة[1] حجّةً لصدق قراءتهم التاريخيّةِ لظهور الكائناتِ الحيّة وتفرُّعِها. ويهتمُّون بهذا الدليل للردِّ على أنصار نظريّة «الأرض الفَتِيَّةِ» من النّصارى الذي يعتقدون أنّ عُمْرَ الأرضِ بضعةُ آلافٍ من السّنين، وأنَّ القارّاتِ لم تكن واحدةً قبل تمايُزِها على صورتها اليوم.

هذا الدّليلُ الذي يعتمده التطوّريون يُقدِّمُ ـ في حقيقته ـ بعض أهمِّ الاعتراضات على صدقِ دعوى التطوّر؛ فإنّ هناك أفرادَ أنواعٍ مخصوصةٍ من الأحياء ظهروا في أكثرَ من مكانٍ بعد انفصالِ القارات لا قبل الانفصالِ، رغم وجود مانعٍ جغرافيٍّ يمنع ظهورهم في هذه الأماكن المختلفة مرّةً واحدةً، بما يُثْبِتُ أنّنا أمام كائناتٍ خُلِقَتْ بصورةٍ منفصلةٍ ولم تتفرَّعْ عن بعضٍ.

من أمثلة ذلك: القِرَدَةُ الأمريكيّةُ الجنوبيّةُ المسمّاة (platyrrhines)؛ إذ إنّ الشواهد الجزيئيّةَ والمورموفولوجيّةَ تقول: إنّ (New World platyrrhine) من نَسْلِ (Old World platyrrhine) الإفريقيِّ، وتُظْهِرُ الأحافيرُ أنّ قردةَ (platyrrhines) قد عاشَتْ في أمريكا الجنوبيّة منذ قرابة ٣٠ مليون سنةٍ فقط، ولكنّ الصّفائحَ التّكتونيّةَ تُظْهِرُ أنّ إفريقيا وأمريكا الجنوبيّة قد انفصَلَتَا بعضهما عن بعض منذ قرابة ١٠٠ ـ ١٢٠ مليون سنةٍ مَضَتْ. وإذا كانت القِرَدَةُ الأمريكيّة الجنوبيّةُ قد انفصَلَتْ عن القِرَدَةِ الإفريقيّةِ منذ قرابة ٣٠ مليون سنة،

---

[1] Biogeography.

فعلى التطوّريّين أن يشرحوا لنا كيف عَبَرَتْ القِرَدَةُ على أقلّ تقدير ٢٦٠٠ كيلومتر في الماء من إفريقيا إلى أمريكا الجنوبيّة.

اعترفَ التطوّريُّون بأزمةِ التفسير التطوّريّ هنا، وعَدُّوا ذلك من المعضلات[١]، غير أنّهم جاؤوا بتفسيرٍ أقربَ للخيالِ دون جرأةٍ على مُساءلةِ فرضيّةِ الأصلِ المشترَكِ للقِرَدَةِ (ولجميع الكائنات). لقد قَدَّمُوا فرضيّةً تقول: إنّ القِرَدَةَ قد عامَتْ من إفريقيا إلى أمريكا الجنوبيّة لِتَسْكُنَ العالَمَ الجديدَ. ولاحظ هنا أننا نحتاج أكثرَ من قِرْدٍ ليستمِرَّ التَّناسُلُ في القارّةِ الجديدة[٢]! العَوْمُ أو صُنْعُ القَوَارِبِ على يد القِرَدَةِ لِعُبورِ مئات الكيلومترات، شَططٌ مأزوم.

ليست تلك القِرَدَةُ المثالَ الوحيدَ للكائناتِ العابرةِ للقارّات دون سيناريو معقولٍ؛ فهناك نماذجُ أخرى لحيواناتٍ لا سبيل لتصوّر عبورها البحر لمئات أو آلاف الكيلومترات، ومنها الفِيلُ الذي ظهرت أَحافيرُه في جُزُرٍ مختلفة[٣]، ووصول النَّحْلِ واللّيمور وغيره من الثدييّات إلى جزيرةِ مدغشقر[٤]...[٥].

(١) John G. Fleagle and Christopher C. Gilbert, 'The Biogeography of Primate Evolution: The Role of Plate Tectonics, Climate, and Chance,' in *Primate Biogeography: Progress and Prospects*, eds. Shawn M. Lehman and John G. Fleagle (New York: Springer, 2006), 393 - 394.

(٢) Fleagle and Gilbert, "Biogeography of Primate Evolution," 394.

(٣) Richard John Huggett, *Fundamentals of Biogeography* (London: Routledge, 1998), p.39.

(٤) Susan Fuller, Michael Schwarz, and Simon Tierney, "Phylogenetics of the Allodapine Bee Genus Braunsapis: Historical Biogeography and Long-Range Dispersal Over Water," *Journal of Biogeography* 32 (2005): 2135 - 2144.

(٥) J. P. Moreland, *et. al.* eds. *Theistic Evolution: A Scientific, Philosophical, and Theological Critique* (Wheaton, Illinois: Crossway, 2017), pp.369 - 370.

المبحث الرابع

التطوّر وعقم الآلية

يعود ظهور كلّ هذا الثراء في عالم الأحياء في التعريف الدّاروينيّ إلى آليّتَيْنِ أساسيَّتَيْنِ، وهما الطَّفراتُ العشوائيّةُ والانتخابُ الطبيعيُّ، وغير ذلك من الآليات هامشيّةٌ لأنّها تتعلّق ببقاء الجيناتِ الموجودة سلفًا وقدرتِها على الانتشار (مثل: الانحراف الوراثيّ[١] وانسياب الجيناتِ[٢] والتَّرافقِ الجينيّ)[٣]. وإذا كان الدَّراونة يَرَوْنَ تَبَنِّي عامّة البيولوجيّين للتطوّر الحجّة الكُبْرى لِصِدْقِهِ، إلَّا أنّهم يقرّون أنّ الموقفَ من آلية التطّور محلُّ خلافٍ واسعٍ؛ ولذلك قال التطوّري الشهير (فرنسيسكو أيالا)[٤]: «الآليّاتُ المسؤولةُ عن هذه التغييرات لا تزال محلّ البحث... للأسف، يوجد الكثير، والكثير، والكثير مما يجب اكتشافه. علينا أن نعرف كيف تعمل الآليات بالتفصيل لإعادة بناء التاريخ التطوّريِّ، ولكنّنا نحمل صورة غايةً في الضبابيّةِ حول الكيفيّة التي تعمل بها على المستوى الجينيّ، وكيف يرتبط التّغيير الجينيّ بالتطوّر والعَمَلِ»[٥].

---

(١) Genetic drift.

(٢) Gene flow.

(٣) Recombination.

(٤) فرنسيسكو أيالا Francisco Ayala (١٩٣٤ـ): بيولوجيٌّ وفيلسوفٌ أمريكيٌّ من أصل إسبانيٌّ. رَأَسَ «الجمعيّة الأمريكيّة لتقدّم العلوم». يعتبر من الوجوه العلميّة ذات الحضور الشّعبيّ في الدّفاع عن التطوّر في الولايات المتّحدة الأمريكيّةِ.

(٥) Francisco J. Ayala, 'The Evolution of Life: An Overview,' in *Evolutionary and Molecular Biology: Scientific Perspectives on Divine Action*, eds. Russell, Stoeger, and Ayala (Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1999), pp.21 - 22.

نحن ـ إذن ـ لا نسير في إنكارنا للآليّةِ العشوائيّةِ عكس إجماعٍ أو شِبهِ إجماعٍ علميٍّ؛ بل إن سألْتَ عن الإجماع، فسأقول لك ما قاله عالم الأحافيرِ **التطوّريُّ** (سيمون كونواي موريس)[١]: «يبدو أنّ نقطة الاتّفاقِ الوحيدة عند نقاش التطوّر العضويّ هي: «لقد وقع [التطوّر]». **ولا يوجد بعد ذلك إجماع**»[٢].

والاتّفاق حاصل بين ملاحدة التطوّريين أنّ التطوّرَ عمليّةٌ عشوائيّةٌ، غير مُوجَّهَةٍ، غير أنّ العشوائيّةَ تحتاج ضرورةً إلى ثلاثة مكوّنات لِتُفَسِّرَ تاريخ الأحياء الصّاعد والتعقيد البيولوجيّ؛ وهي:

- الانتقال الوراثيّ.
- التغيير العَرَضيّ.
- الانتخاب الطبيعيّ[٣].

التفصيلُ العِلميُّ لدقائق عمل الجينات لإثبات التطّور، حجّةٌ ضدّ العشوائيّةِ، ولا يمكن أن يقع التطوّر ـ إن صحَّ جَدَلًا ـ إلَّا عن حِكْمةٍ وقُدرةٍ؛ حتّى قال مُؤَخّرًا عالم هندسة العملياتِ الحيويّة[٤] (متّي ليزولا)[٥] الذي عاش تاريخه العلميَّ في دراسة آليّةِ عَمَلِ المايكروبات والإنزيمات، في بحثٍ له بعنوان: «التطوُّرُ: قِصّةٌ بلا آليّةٍ»: «الأمرُ المثير في البيولوجيا الحديثة حقيقةً أنّ كلَّ الأدلّةِ التي تحاولُ إثباتَ آليّة للتطوّر هي في الحقيقة أمثلة للتّصميم»[٦].

لن نناقش الآليّةَ الثانويّةَ التي تُفَسِّرُ عَمَلَ الكائنات الحيّةِ، وسنكتفي

---

(١) سيمون كونواي موريس Simon Conway Morris (١٩٥١ـ): عالم أحافير إنجليزيّ شهير. رئيس بيولوجيا أحافير الأحياء في جامعة «كامبردج». له عنايةٌ خاصّةٌ بالأحافير المبكرة للحيوانات والنّباتات.

(٢) Simon Conway Morris, 'Evolution: Bringing Molecules into the Fold', *Cell*, Volume 100, Issue 1, pp.1 - 11, 7 January 2000.
<http://www.cell.com/fulltext/S0092-8674(00)81679-7>.

(٣) William A. Dembski, Unintelligent Evolution.
<https://billdembski.com/documents/2004.12.Unintelligent_Evolution.htm>.

(٤) Bioprocess engineering.

(٥) متّي ليزولا Matti Leisola (١٩٤٧ـ): كيميائيٌّ فنلنديٌّ. عميد كليّة الكيمياء حتى سنة ٢٠١١م. متخصّص في دراسة الإنزيمات.

(٦) J. P. Moreland, *et. al.*, eds. *Theistic Evolution*, p.160.

بالآليات الكبرى التي يُقدِّمُها الدَّراونةُ، أي: الانتخاب الطّبيعيّ والطَّفرات العشوائيّة.

المطلب الأول

آليةُ الطَّفراتِ العشوائيّةِ

الطَّفراتُ العشوائيّةُ (random mutations) هي تغييراتٌ نادرةٌ وعَرَضيّةٌ أو مُفْتَعلةٌ تحدث للرَّصِيد الِجينيِّ للكائن الحيّ أثناء تضاعُفِ الحَمْضِ النَّوويِّ الصِّبغيِّ (DNA). والقولُ بالقُدرةِ الخَلْقِيَّةِ للطَّفراتِ للانتقال بالبكتيريا الأولى إلى الإنسان الحالي على مدى تاريخ الحياة على الأرض، مُنْكَرٌ لِعِدَّةِ أسبابٍ، منها:

١ ـ الطَّفراتُ وعِلمُ الاحتمالاتِ: اعترضَ الفيزيائيُّ الملحدُ (فولفغانغ باولي)[1] ـ الحائز على جائزة **نوبل** ـ على البيولوجيّين تهاونهم العجيبَ في الالتزامِ بالصّرامة العلميّةِ عند مناقشتهم أمر تفسير مفهوم «الانتخاب الطبيعي»؛ إذ إنّهم لا يحسبون النّسبة الاحتماليّة لإنتاجِ التغييرات المطلوبةِ للعمل النّاجح للانتخاب الطبيعيِّ، مُتَّهِمًا إيّاهم بالخِداعِ؛ إذ إنّهم يتعاملون مع المدى الزمنيّ المتاحِ لإنتاج هذه التّغييرات على أنّه لا نهائيٌّ «ولذلك تصبح اللُّعبةُ سهلةً، وذلك لِتَفادِي مفهوم الغائيّةِ. وفي حين يدَّعُون أنّهم بهذه الطريقة لا يزالون «عِلْمِيِّين» و«عقلانيّين»؛ هم في الحقيقة بعيدون جدًّا عن العقلانيّة، خاصّةً بسبب استعمالهم كلمةِ «صُدْفة» دون ربطِها بتقديراتٍ رياضيّةٍ محدّدةٍ بالقياسِ الاحتماليِّ في تطبيقها على أحداثٍ نادرةٍ جدًّا مطابقةٍ بصورةٍ أو بأخرى للكلمةِ العتيقة «**مُعْجِزة**»»[2].

ولعلّ أيسرَ طريق لمعرفة قدرة الطَّفراتِ العشوائيّةِ على تفسير التنوّع الأحيائيِّ اليوم ضمن سلسلةٍ تطوريّةٍ، حسابُ الأمر رياضيًّا، وذلك بحساب

---

(١) فولفغانغ باولي Wolfgang Pauli (١٩٠٠ ـ ١٩٥٨م): عالم فيزياء نظرية نمساويّ المولد. أَحَدُ رُوّاد فيزياء الكمّ. رَشَّحَهُ (أينشتاين) لنيل جائزة نوبل.

(٢) Letter by Pauli to Bohr of February 15, 1955.

عدد الطَّفراتِ العشوائيّةِ الممكنة منذ ظهور الحياة على الأرض، وبذلك نُحدِّدُ سقفَ الاحتمال العشوائيِّ للتطوّر.

وقد اجتمع ـ فعلًا ـ عددٌ من علماء الرياضيات في مَحْفلٍ شهيرٍ منذ خمسين سنة لمحاكمة النموذج التطوّري الدّاروينيّ رياضيًّا. وانتهى الاجتماعُ بإعرابِ عددٍ من الحاضرين عن مبلغ صَدْمَتِهِم من سطحيّة التّناول الدّاروينيّ لقدرة الطَّفراتِ العشوائيّةِ على تفسير التنوّع الأحيائي؛ ومن ذلك قول أَحَدِ المشاركين: «يبدو أنّ الأمر يحتاج عدَّة آلافٍ، وربّما ملايين من الطَّفراتِ المتتالية لإنتاج أَقَلِّ تعقيدٍ نراه في الحياة الآن. يبدو أنّه ـ بسذاجةٍ على الأقلّ ـ مهما كانت نسبة احتمالِ حدوثِ طفرةٍ واحدة، حتى لو بلغت $\frac{1}{2}$، فسترتفع نسبة الاحتمال إلى ١,٠٠٠,٠٠. وهو أمر قريبٌ جدًّا من الصِّفْرِ»[١].

ولعلَّهُ من الجيّد أن ننظرَ إلى نماذجَ واقعيّةٍ بلغةٍ رياضيّةٍ علميّةٍ ليكون الحُكْمُ واضحًا للجميع؛ وليكن تطوُّرَ إنزيم[٢] واحدٍ إلى نوعٍ آخَرَ؛ فقد دَلَّ البحثُ العلميُّ أنّ هذا التغيير يحتاج على الأَقَلِّ سَبْعَ طَفراتٍ[٣]. ما هو الزَّمَنُ المطلوب في الاحتمال الرياضيِّ لهذه الطَّفرات المحايدة المتناسقة؟ الجواب صادِمٌ بلا شَكٍّ؛ إذ يقول البحث العلميُّ: إنّ الزَّمَنَ المطلوب لظهور هذه الطَّفراتِ في تجمُّعٍ بكتيريٍّ، يبلغ $١٠^{٢٧}$ سنة. وهو زَمَنٌ أَعْظَمُ بكثير من عُمْرِ الكونِ[٤]!

وخُذْ أيضًا مثال بروتين (RS7)؛ إذ إنّ احتمال الظُّهور العشوائيِّ لهذا البروتين الذي يحتاجه كلُّ كائنٍ حيٍّ هو ١ من ($١٠^{١٠٠}$)[٥]، وهو احتمال أبعد بمسافات شاسعة من مجموع احتمالات الطَّفراتِ منذ ظُهورِ الحياة على الأرض.

---

(١) Stanislaw M. Ulam, 'How to Formulate Mathematically Problems of Rate of Evolution,' in *Mathematical Challenges to the Neo-Darwinian Interpretation of Evolution* (Wistar Institute Press, 1966,No. 5), pg. 21.

(٢) كلّ إنزيم هو بروتين، وليس كلّ بروتين إنزيمًا.

(٣) A. K. Gauger and D. D. Axe, 'The evolutionary accessibility of new enzyme functions: A case study from the biotin pathway,' *BIO-Complexity* 2, no. 1 (2011): 1-17.

(٤) المصدر السابق.

(٥) Kirk Durston, Calculating the Maximum Number of Trials Evolution Could Have Performed. <http://www.evolutionnews.org/2016/04/calculating_the102791.html>.

وماذا لو نزلنا إلى مستوى أدنى من الطَّفراتِ المطلوبة، وقلنا: ما هو الوقت المطلوب من الناحية الاحتماليةِ لحدوث طفرَتَيْنِ متلازمَتَيْنِ (simultaneous mutations) ـ لا لإنشاء جِينٍ جديد وإنما لتغيير وظيفتِه بصورةٍ ما ـ ضمن الآلية الدّاروينيّة؟

يُجِيْبُنَا البيولوجيّان (رك دارت) و(دينا شمت) بأنّ حدوث هاتين الطفرتَيْنِ معًا يحتاج وقتًا أكبر من ١٠٠ مليون سنة[١]، ومن المعلوم أن الدَّراونة يزعمون أنّ الإنسان قد انفصل عن سَلَفِهِ المشترك مع الشّامبنزي منذ ٦ ملايين سنةٍ فقط. عِلْمًا أنّ الحدَّ الأدنى المطلوب من الطّفراتِ لظهور وظيفةٍ أو شكلٍ مفيدٍ هو أربعُ طَفْراتٍ لا اثنَتَيْنِ[٢]!

وما هو الزمن المطلوب لتحويل بروتينٍ للقيام بوظيفةِ بروتينٍ قريبٍ منه؟ يجيبنا ثلاثةٌ من البيولوجيّين في بحثٍ لهم أنّ الآلية الداروينيّة تحتاجُ أكثر من 10^{15} سنة ـ أي: ١٠٠ ألف سنةٍ ضِعْفَ سِنِّ الأرضِ! ـ لبلوغ ذلك[٣].

وقد حاول (داوكنز) مواجهةَ هذه المشكلة بتحريفِ تعريفِ التطوّر، زاعمًا أنه زيادةٌ أو نقصٌ نظامِيَّان للتكرّر في الحوضِ الجينيّ[٤]، وهذا قولٌ فاسِدٌ؛ لأنّ الانتقالَ من البكتيريا الأولى التي تُمثّلُ الحياةَ الأولى على الأرض إلى الإنسان الحالي يحتاجُ إلى زيادةٍ في المعلومات، لا إلى تكرارها (تضاعُفِها الكمّيّ لا الكيفيّ)؛ فالفرقُ بين البكتيريا والإنسانِ ليس مجرّد اختلافٍ كميّ وإنّما هو ـ أساسًا ـ اختلافٌ كيفيٌّ؛ إذ إنّ الحَوْضَ الجينيّ للإنسان أعظمُ تَنَوُّعًا من الحوض الجينيّ للخليّة الأُولى.

٢ ـ قصور الطّفراتِ عن تفسير التطوّر الكبروي[٥]: يقول عددٌ من

(١) Rick Durrett and Deena Schmidt, 'Waiting for Two Mutations: With Applications to Regulatory Sequence Evolution and the Limits of Darwinian Evolution,' *Genetics*, 180: 1501 - 1509 (2008).

(٢) Reeves, Gauger, Axe, 'Enzyme families-Shared evolutionary history or shared design? A study of the GABA-aminotransferase family', *BIO-Complexity* 2014 (4): 1-16.

(٣) المصدر السابق.

(٤) Richard Dawkins, *The Greatest Show on Earth*, p.33.

(٥) مصطلح التطور الكبروي ومعه التطوّر الصغروي من المصطلحات الموهمة والمشكلة التي لا نستعملها إلا اضطرارًا؛ إذ إنّ العبرة ليست في حجم التغيّر (فقد يحدث تغيّر شكلي بارز دون أدنى تغيّر على =

البيولوجيّين في بحثٍ لهم: «قد يكون علم الوراثة كافيًا لتفسير التطوّر الصُّغْرويّ، إلَّا أنّه لم يلاحظ أنّ التغييراتِ الصُّغرويّةَ في تردُّدِ الجينات قادرةٌ على تحويل الزّواحفِ إلى ثدييّاتٍ أو تحويل الأسماك إلى برمائيّات. التطوّرُ الصُّغرويُّ يبحث فقط في التَّأَقْلُماتِ المتعلّقة ببقاء الأصلح، لا ظُهور الأصلح. وكما أشار إلى ذلك (غُودوِن) (١٩٩٥م): أَصْل الأنواع ـ مشكلة داروين ـ ما يزال إشكالًا لم يُحلّ»[١].

وتؤكّدُ عالمةُ الأحياء المعروفة (لين مارغوليس)[٢] على المعنى السّابق نفسِه، بعبارةٍ غاضبةٍ، ساخرةً: «تَدَّعي الداروينيّةُ الحديثةُ أنّ الأنواعَ الجديدةَ تظهر لـمّا تَحْدُث طَفْراتٌ ويظهرُ تَغَيُّرٌ في الكائنِ الحيِّ. لقد عُلِّمْتُ مرارًا وتكرارًا أنّ تراكمَ الطّفراتِ العشوائيّةِ يقودُ إلى التغيير التطوّريِّ؛ بما يؤولُ إلى ظهورِ أنواعٍ جديدةٍ. لقد آمَنْتُ بذلك حتّى بَحَثْتُ عن الدَّليلِ»[٣].. فالخروج من التلقّي السّلبيّ إلى النَّظَرِ النّقديِّ يرفع ستارَ الغَفْلةِ عن وَهْمِ أَثَرِ الطّفراتِ العشوائيّةِ في صناعة التطوّرِ الكُبْرويِّ.

٣ ـ نُدرةُ الطّفراتِ النّافعةِ: يُقرُّ العلماء أنّ جُلَّ الطّفراتِ محايدةٌ، وتُقَدَّرُ الطّفراتُ الضّارّةُ بـ ٣٪ من مجموع الطّفراتِ[٤]، وأمّا الطّفراتُ النافعة فقليلة جدًّا إلى حدِّ النُّدْرةِ. مع العلمِ أنّ معنى أنها نافعةٌ لا يعني أكثر من أنها نافعةٌ في ظروفٍ معيّنةٍ محصورةٍ، وكثيرًا ما تكون هذه الطّفرةُ النّافعةُ سببًا لِضررٍ من

= المستوى الجيني؛ لأنّ الكائن مهيّأ لذلك سلفًا بآلية التفاعل مع البيئة في جيناته الخاملة)، وإنّما العبرة بتضخّم الرصيد الجينيّ للكائن الحي.

(١) Scott Gilbert, John Opitz, and Rudolf Raff, 'Resynthesizing Evolutionary and Developmental Biology,' *Developmental Biology* 173, 1996, pg. 361

(٢) لين مارغوليس Lynn Margulis (١٩٣٨ ـ ٢٠١١م): بيولوجيّةٌ تطوّريّةٌ تنتصر لنظريّة (التكافل الدّاخلي) (endosymbiotic theory) التي تُقرّر أنّ أهمَّ محرّكٍ للتطوّر تكافل الكائنات؛ وهو عَكْسُ مفهوم «صراع البقاء» الدّارونيّ. الإشكال هنا هو أنّ التكافل (١) يفسّر بقاء الكائنات الحيّة لا ظهورها ابتداءً، كما أنّه (٢) لا يفسّر أهمَّ إشكالٍ للتطوّر الماديّ، وهو ظهور المعلومات في عالم الأحياء.

(٣) Cited in: 'Discover Interview: Lynn Margulis Says She's Not Controversial, She's Right,' *Discover Magazine*, p. 68 (April, 2011).

(٤) Adam Eyre-Walker and Peter Keightley, 'The Distribution of Fitness Effects of New Mutations,' *Nature Reviews Genetics* 8 (August 2007): 610 - 18.

جهةٍ أخرى، مثل الطّفرةِ التي تؤولُ إلى حماية بعض الناسِ من عَدْوى الإيدز؛ إذ إنّها في الآن نفسِه تجعل صاحبَها عُرْضةً بصورةٍ كبيرةٍ لمرض السَّرَطان؛ فعامّة هذه الطّفراتِ «النّافعة» تُؤدّي إلى نقصٍ في الرّصيد الجينيّ يَسُدُّ مداخل مألوفة لأمراضٍ معيّنة، أو تُنَشِّطُ هذه الطّفراتُ معلوماتٍ جينيّة مثبَّطة في الجينوم.

٤ ـ الطّفراتُ مصدرٌ للفوضى: يقول (بيير ـ بول غراسي)[١]: «.. رغم أنّ كلَّ شيء ليس على الصّورة التي يجب أن يكون عليها، إلّا أنّ العالَمَ الحيَّ ليس عشوائيًّا كليّةً، والحياة أَثَرٌ عن نظام مُرتّبٍ بصورة عاليةٍ جدًّا. بمجرّد أن يحدث بعض الاضطراب ـ ولو كان ضئيلًا ـ في الكائن المنظّم، يَعْقُبه المرضُ، والموت. ليس هناك حلٌّ وَسَطٌ بين ظاهرةِ الحياة والفوضى»[٢].

فطبيعةُ الطّفراتِ تنحو إلى أن تصنع فوضى في عالم الأحياء بما يفوقُ قدرةَ الانتخابِ الطبيعيِّ على تنظيمِه من جديد. والأهمُّ من ذلك أنّ الطّفراتِ مصدرٌ للقضاء على المعلومات القائمة بتقليصها تدريجيًّا. وقد عبَّرَتْ (لين مارغوليس) عن المعنى السّابق بقولها: «على الرغم من أنّ الطّفراتِ العشوائيّةَ تُؤثّر في عَمَلِ التطوّر، إلّا أنّ تأثيرها أساسًا بالحذفِ والتّعديلِ والصّقلِ... **الطّفراتُ باختصارٍ تنحو إلى إنتاجِ المرضِ والموتِ والفسادِ.** لا يوجد برهانٌ في الأدبيّات الضّخمةِ للتغييرات الوراثيّةِ يُظْهِرُ دليلًا لا لَبْسَ فيه أنّ الطّفرةَ العشوائيّةَ نفسَها ـ حتّى مع الانعزال الجغرافيّ للمجموعات السكنيّة ـ تقودُ إلى ظهور أجناسٍ جديدةٍ»[٣].

٥ ـ العجزُ عن التّمثيل للطّفرةِ التي تُضيف معلوماتٍ إلى الحوض الجينيّ: إذا كان التطوّرُ الكبرويُّ لا يخرجُ عن أن يكون حصيلةَ تراكُمِ

---

(١) بيير ـ بول غراسي Pierre-Paul Grassé (١٨٩٥ ـ ١٩٨٥م): أحدُ أكبرِ علماء الحيوانات الفرنسيّين في القرن العشرين. رَأَسَ «جمعيّة علم الحيوانات» ثم «أكاديميّة العلوم». أشْرفَ على موسوعة «Traité de zoologie, anatomie, systématique, biologie» في ٣٧ مجلّدًا.

(٢) Pierre-Paul Grassé, *Evolution of Living Organisms* (New York: Academic Press, 1977), p.98.

(٣) Lynn Margulis and Dorion Sagan, *Acquiring Genomes: A Theory of the Origins of the Species* (New York: Basic Books, 2003), p.29.

الطّفراتِ الصّغروية، وإذا كان الفارقُ بين البكتيريا الأُولى والإنسان اليومَ هو بالأساس اختلافٌ كيفيٌّ في المعلومات المضمّنةِ على شكلِ معلومات مُشَفَّرةٍ في شريطِ «الحَمْضِ النَّوويِّ الصّبغيّ»؛ لزم أن يكون التطوّر الصُّغرويُّ قادرًا على زيادة معلوماتٍ جديدةٍ في الجينوم.

وبالنّظرِ في أدبيّاتِ الدَّراونةِ، **لا نجد مثالًا واحدًا لإضافة معلومةٍ واحدةٍ جديدةٍ إلى عالَمِ الأَحياءِ** عن طريق الطّفراتِ العشوائيّةِ. وعندها تكونُ كلُّ المعلوماتِ المضافة إلى جينومِ الكائنِ الحيِّ نِتاجَ استيرادٍ لها من كائنٍ آخرَ حيٍّ قائمٍ؛ وهو ما لا يَنْصُرُ قضيّةَ الدَّراونةِ في شيءٍ لأنّنا نبحث عن إضافةٍ لمعلوماتٍ جديدةٍ لا تبادل معلوماتٍ قائمة داخل المنظومة الأحيائية.

ومن عجائبِ الدَّراونةِ إقرارهم بالعَجْزِ عن البرهنةِ على هذا الأصل المركزيّ لدعوتهم مع إيمانهم الدُّوغمائيّ بمذهبهم؛ ومن ذلك إقرارُ بحثٍ علميٍّ حديث أنّ ظهورَ جينٍ كاملٍ وظيفيٍّ جديدٍ مما يُسمّى بالحَمْضِ النّوويِّ الصبغيّ الخردة أَمرٌ مُسْتَبْعَدٌ جِدًّا، وهو أَشبهُ بحلم الخيميائيّين ـ الخرافيّين ـ تحويلَ الرَّصاصِ إلى ذَهَبٍ في العُصورِ الوسطى[١].

٦ ـ إشكاليةُ الطّفراتِ في الجيناتِ ذاتِ الوظائفِ المتعدّدة: كان الاعتقادُ السّائدُ على مدى مجمل القرن العشرين أنّ الجينات تقوم بوظائفَ أُحاديّةٍ، وأنّ الجيناتِ التي لها أكثرُ من وظيفةٍ (pleiotropic) نادرة. واليوم كَشَفَ البحثُ العلميُّ أنّ الجيناتِ تَقَعُ ضِمْنَ منظومةٍ متشابكةٍ ومُعقّدةٍ من العلاقات، وأنَّ الجيناتِ تُفْرِزُ مُنتجاتٍ تُؤثّر في بقيّةِ الشّبكةِ الجينيّة. والإشكالُ الذي تَطْرَحُهُ هذه الطّبيعةُ التركيبيّةُ هي في تعارُضِها مع حاجةِ التطوّر إلى طَفْراتٍ تُضِيفُ طابعًا إيجابيًّا في عمل الجِينِ، لكنّ هذه الطّفرةَ ستكون عاجزةً في الأغلب عن المحافظة على الوظائف المختلفة والمعقّدة للجِينِ. وإذا أَضَفْنَا إلى ذلك أنّ الطّفراتِ النافعةَ نادرةٌ جدًّا؛ أصبح وفاءُ هذه الطّفراتِ

(١) Adam Siepel, 'Darwinian Alchemy: Human Genes from Noncoding RNA', *Genome Research*, 19 (10): 1693 - 5 October 2009.

لحاجة الشّبكة الجينيّة للعمل التكامليّ أقربَ إلى الـمُحالِ. والطّفراتُ بذلك سبيلٌ لإحداث فوضى عاجلة في الحقل الجينيّ لا إعادة تنظيمه وترتيبِه وإنمائِه.

٧ ـ الطّفراتُ المزاجيّةُ: «الأُحفوراتُ الحيّةُ» «living fossils» كائناتٌ حيّةٌ مُتَأَبِّيةٌ على التطوّرِ تمثّلُ مشكلةً جادّةً للنظريّةِ الداروينيّةِ. والمقصود بالأُحفوراتِ الحيّة ـ بصورةٍ مجملةٍ لغيابِ التعريف المتّفق عليه ـ الكائناتُ الحيّةُ الموجودة اليوم وفي الأحافير، والتي بَقِيَتْ على مدى فترات زمنيّةٍ طويلةٍ جدًّا ـ تقريبًا ـ دون أن يُصِيبَها تغييرٌ، مع انقراضِ «أقاربها». إذ إنّ هناك عديدًا من الحيواناتِ والنّباتات لم تتغيَّرْ منذ مئاتِ ملايين السّنين، كما أنّ من البكتيريا (Archaebacteria) ما لم تتغيّر منذ بلايين السنين.

يزعم الدَّراونةُ أنّ الكائناتِ العصيّةَ على التطوّرِ لا تمثّلُ مشكلةً تفسيريّةً لأنّ الداروينيّةَ لا تزعم أنّ على كلِّ الكائناتِ أن تتطوّرَ ولا أنّ الكائناتِ إذا تطوّرَتْ فلا بدّ أن ينقرِضَ سَلَفُها.

وجوابُنا: أنّ هذه الكائناتِ تمثّلُ مشكلةً باعترافِ عالِمَيْ الإحاثة التَّطَوُّرِيَّيْنِ (جولد) و(ألدردج)؛ إذ قالا: «يجب عَدُّ المحافظةِ على الاستقرار داخِلَ الأَنْواعِ مُشْكلةً تَطَوُّرِيَّةً كُبْرَى»[١]. إنّه لا معنى أن تظهر الحياةُ المعقّدةُ وتتطوَّرَ منذ ٣,٧ بلايين سنةٍ أو أكثرَ بسببِ آليّةِ الطّفراتِ الكثيرةِ والعنيفةِ، ثم تمتنع الطّفراتُ على مدى ملايينَ السّنين عن التأثير في جينوم حيواناتٍ ونباتاتٍ ومايكروباتٍ عاشت الظُّروف المناخيّة والبيئيّة نفسَها لبقية الكائنات ـ مثل العصور الجليدية المتكرّرة ـ. لا يمكن للطّفراتِ العشوائيّةِ أن تشهدَ الشَّهادةَ ونَقِيْضَها إلَّا أن تكونَ مُوجَّهةً عن قَصْدٍ وترتيبٍ!

٨ ـ مُفارقةُ الحمايةِ من الطّفراتِ: يُحدّثنا العلماءُ عن «مفارقة الحِماية من الطّفراتِ» «mutation protection paradox» التي عجز التطوّريون عن فَكِّ

---

(١) Gould and Eldredge, 'Punctuated equilibrium comes of age', *Nature* 366 (6452): 223-224, 1993.

لُغْزِها؛ إذ إنّ التطوّرَ من البكتيريا الأُوْلى إلى منظومةِ الحياة المتشعّبةِ اليومَ يحتاجُ إلى آليةِ الطّفراتِ لتحقيق ذلك، لكنّ الخليّةَ مزوّدةٌ بآليةٍ لإصلاحِ أخطاءِ الطّفراتِ؛ إذ تُلغي جُلَّها ولا تُبْقِي منها إلَّا النَّادرَ. فدون الطّفراتِ العشوائيّةِ لا يمكنُ للتطوُّرِ (الدّاروينيّ) أن يحدثَ؛ إذ تطرأُ عليه المعلوماتُ الجديدةُ في الحوضِ الجينيّ، وهو ما يقتضي تعطيلَ جهازِ رَصْدِ الطّفراتِ، لكنّ تعطيلَ جهازِ رصدِ الطّفراتِ وإصلاحها سيؤدّي إلى هلاكِ الكائنِ الحيِّ بسببِ ضخامةِ الطّفراتِ في الحوضِ الجينيِّ يوميًّا. فَمَنْعُ الطّفراتِ يمنعُ التطوّرَ، وإطلاقُها يُهْلِكُ الكائنَ الحيَّ[1]!

٩ ـ الطّفراتُ العشوائيّةُ وعبقريّةُ الطبيعةِ العمياء: كيف لنا أن نُفَسِّرَ مظاهرَ الإتقانِ التي عَجِزَ الإنسانُ عن مُجاراتها في الطّبيعةِ إذا كانت الطّفراتُ العشوائيّةُ فِعْلًا بلا حِكْمةٍ ولا خُطّةٍ، وكانت الطّبيعةُ تسير في عَمَاءٍ؟ كيف يتفوّقُ العَمَلُ العشوائيُّ ـ وإن سانَدَهُ الانتخاب الطبيعيُّ الذي يعمل كمصفاةٍ ـ على الاجتهاد والجدّ البَشَرِيَّيْنِ؟

من أمثلة هذا الباب: ما نلاحظُه من أليافٍ بصريّةٍ في الطبيعةِ وما اخترعه الإنسانُ من أليافٍ بصريّةٍ. تعمل هذه الأليافُ على إرسال الضّوء على مدى طُولِها، ويستعملها الإنسانُ في تواصلِ الانترنت، ورغم أنّ المصنوعَ منها نِتاجُ عبقريّةٍ بشريّةٍ عاليةٍ وجهدٍ معمليٍّ شاقٍّ إلَّا أنّ الإنسان قد اكتشفَ أنّ الأليافَ البصريّة في الإسفنجة البحريّة (Venus' flower basket) أعظمُ صُنْعًا؛ فأليافُهَا أَدَقُّ من الألياف المصنَّعَةِ، ولُيُونَتُها أَشَدُّ، وتفاعُلُها مع البيئة أَعظمُ، حتّى قال أحدُ العلماء في جامعة (أريجن) بأمريكا: «إنّها مثالٌ رائع لبيان كيفَ أنّ الطبيعة الرائعة مُصمّمةٌ وبانيةٌ لأنظمةٍ مُعقّدة»[2]، وقال عالم آخر في الشأن نفسه: «**إنّنا في العصر الحجري مقارنة بالطبيعة**»[3].

---

(١) DeJong and Degens. 2011. 'The Evolutionary Dynamics of Digital and Nucleotide Codes: A Mutation Protection Perspective'. *The Open Evolution Journal*. 5: 1 - 4.

(٢) Cited in: McCall, 'Sponge has natural glass fiber optics', *San Francisco Chronicle*, p. A2, 8 August 2003.

(٣) المصدر السابق.

المطلب الثاني

آلية الانتخاب الطبيعيّ

الانتخابُ الطبيعيُّ أهمُّ آليةٍ تطوّريةٍ عند الدَّراونةِ، وهو ببساطة: ظاهرة بقاء الكائن الأمثلِ في بيئتِه على الحياة؛ فالكائنُ الأسرع مؤهّلٌ لأن يبقى هو ونَسْلُه على خلافِ الكائن الذي يَسْهُلُ على الضّواري اقتناصُه، والكائنُ الأقدرُ على التخفّي مؤهّلٌ للبقاء أكثرَ من الكائن الذي يسهُلُ على الضّواري التقاطهُ...

تتعرّضُ آليّةُ الانتخاب الطبيعي كمحرّك أوّليٍّ «للتطوّر الكبرويّ» إلى اعتراضات متزايدةٍ ـ خاصّةً هذه الأيام ـ من خُصومِ الداروينيّةِ من التطوّريّين أنفسِهم، ومن ذلك الاجتماعُ الذي انعقد سنة ٢٠٠٨م في (Altenberg) في النَّمْسا، وضمَّ ١٦ من كبار البيولوجيّين، حيث أعربوا عن قصور الانتخاب الطبيعيّ عن تقديم وُعودِه الكبرى[١]. ومن أهمّ هذه الاعتراضاتِ:

١ ـ الانتخابُ الطبيعيُّ ليس آلةً خَلْقِيّةً: علماءُ البيولوجيا التطوريُّون أنفسُهم ضاقُوا ذَرْعًا بِعُقْمِ الدّاروينيّة الحديثةِ، ولهم في ذلك نقودٌ شديدةٌ، ومن ذلك قولُ علماءِ فريق «Altenberg 16» في آلية الانتخاب الطبيعي: إنّها «جيّدةٌ بصورةٍ ظاهرة في صياغة بقاء الأَصْلحِ، لكنّها ليست كذلك في صياغة ظُهور الأصلح»[٢]. فتقليصُ عددِ الكائناتِ الحيّةِ بالقضاء على ما لا يَقْدِرُ منها على التّعامل الإيجابيّ السّليم مع البيئة لا يُفَسِّرُ ظهورَ التركيب العضويّ المعقّد والمتكامل لهذه الكائنات الحيّة. ولا تملك الطّفراتُ العشوائيّةُ سدَّ الثّغرةِ الخَلْقِيَّةِ لأنها ـ كما عَلِمْتَ سابقًا ـ هي أيضًا عقيمةٌ.

الانتخاب الطبيعي يفسّر بقاء الأمثل لا ظهوره، فهو وسيلة حفظ لا تطوير.

٢ ـ الانتخابُ الطبيعيُّ نقيضُ التطوّرِ: أهمُّ خِصّيصةٍ للانتخاب الطبيعيّ

---

(١) John Whitfield, ‘Biological theory: Postmodern evolution?’ *Nature*, 455: 281 - 284 (September 17, 2008).

(٢) Cited in: John Whitfield, ‘Biological theory: Postmodern evolution?’ *Nature*, 455: 284 (September 17, 2008).

تقليصُ التنوّع الجينيّ في عالم الأحياء؛ إذ يقوم بإقصاءِ جزءٍ من المعلومات الجينيّة الموجودة، والتي لا تؤهّلُ الكائن الحيّ للبقاء أو لمقاومة عوامل الفناءِ أو أخطار الصّراع؛ فالانتخاب الطبيعيُّ لا يزيد التنوّعَ الجينيّ وإنّما يُضَيِّقُهُ بصورةٍ مُطَّردةٍ.

٣ ـ الانتخابُ الطبيعيُّ عدوُّ التطوّرِ: لا شكّ أنّ الانتخابَ الطبيعيَّ قادرٌ على تفسير عددٍ من ظواهر التّغييرات الصُّغرى، إلَّا أنّه في الآن نفسِه أكبرُ أسباب فشلِ التفسير الداروينيّ لأنّ عامّة النماذج التطوّرية الواسعة ـ إن لم تكن كلّها ـ عاجزةٌ عن العبور من مرحلةٍ وظيفيةٍ أُولى إلى مرحلةٍ وظيفيةٍ تاليةٍ إلَّا عَبْرَ المرور بمراحلَ وسيطةٍ غيرِ وظيفيّةٍ؛ أي: هي عاجزةٌ عن العمل أو لا تُقدِّمُ إضافةً إيجابيّةً متقدّمةً عن المرحلة السّابقة، وهو ما يعني: أنّ الانتخاب الطبيعيَّ سيتدخّلُ هنا ليمنع هذه النّقلةَ ويُقْصِيَ المراحلَ الوسيطةَ من الوجود، وهذا يَظهر بصورةٍ كبيرة في التطوّر المزعوم لِعُضَيَّات الخليّة، أو تَطَوُّرِ جَنَاح الطَّائر عن عُضوٍ لا يطير، أو تطوُّرِ الجهاز التنفّسيِّ للكائنات التي لا تطير إلى الجهاز التنفسيِّ للطّيور. ولذلك قال البيولوجيّ الداروينيّ (جري كوين): **«الانتخابُ الطّبيعيُّ لا يمكنه أن يبنيَ أيَّ خاصيّةٍ [عُضويّةٍ] لا تمنحُ الخطواتُ الوسيطةُ إليها فائدةً خالصةً للكائن الحيِّ»**[1].

٤ ـ الانتخابُ الطبيعيُّ يتعارضُ مع تكامُلِ المنظومةِ الأحيائيّة: الانتخابُ الطبيعيُّ ـ في العُرْفِ الداروينيِّ ـ عمليّةٌ طبيعيّةٌ عمياء وأنانيّةٌ تنتهي ببقاء الأمثلِ في تعامُلِهِ مع محيطِه البيئيّ؛ فكلُّ حيٍّ يَتَشَبَّثُ بالحياة حتى تهلِكَهُ عوامِلُ الإفناء رغم أَنْفِهِ. والطبيعةُ حجّةٌ أنّ الحياةَ تشهد لذلك، وتشهد أيضًا لِنَقِيْضِهِ؛ حيث يُضَحِّي الحيوانُ أو العُضَيُّ بنفسِه طواعيةً من أجلِ بقاء غيره بما يُثْبِتُ تكامُلَ الحياة من أجل الحياة؛ ومن ذلك ظاهرةُ الانتحارِ الطّوعيِّ للخليّةِ من أجل حياة الكائن الحيِّ؛ بل الإنسانُ لا يستطيع أن يحيا دون أن تموتَ خلاياه

(١) Jerry Coyne, 'The Great Mutator,' *The New Republic* (June 14, 2007).

لتنشأ أُخرى أكثر تخصّصًا. وهو مشهدٌ تعاضديٌّ للبقاء يخالِفُ جوهرَ الانتخاب الطّبيعيّ الداروينيّ الدّامي.

وقد تعجَبُ ـ كما أَعجبُ ـ من اتّخاذ الانتخاب الطبيعيّ الآلةَ الكبرى للتطوّر الدارويني رغم عُقْمِهِ الواضح، ولكنني أجزِمُ أنّ العَجَبَ سيتضاعَفُ عندما تقرأ قولَ العالِمَيْنِ الـمُلْحِدَيْنِ (جري فودور)[1] و(ماسيمو بياتلّي ـ بالمريني)[2] ـ المتخصّصَيْنِ في «علم الإدراك» ـ في كتابِهِما (ما الذي أَخْطَأَ فيه داروين) ـ ٢٠١٠ ـ: «لقد قيل لنا من طرفِ أكثر من واحدٍ من زملائنا: إنّه حتّى لو كان داروين مُخْطِئًا إلى حدٍّ بعيدٍ في زَعْمِهِ أنّ الانتخاب الطبيعيَّ آليّةُ التطوّر، فإنّه **ينبغي مع ذلك أَلَّا نُصَرِّحَ بذلك، ولا بأيّ صورةٍ أمام النّاسِ**. إننا إن فعلنا ذلك، فَسَنَصْطَفُّ ـ وإنْ بغيرِ قَصْدٍ ـ مع قُوى الظَّلام التي تهدف إلى القَضَاءِ على العِلم»[3]. إنّه صوتُ الكنيسةِ الآتي من أعماقِ التّاريخ: آمِنْ ثُمَّ فَكِّرْ.. أو هي صُكوكُ الحرمان في انتظارِك! وقد انتهى المؤلّفان إلى فَشَلِ كلِّ النظريّاتِ التطوّريةِ المطروحة، وإن آمَنَّا أنّ العلمَ سَيُفسّر يومًا ما الأمرَ بطريقٍ ماديٍّ صِرْفٍ!

نحن نؤمن بظاهرة «الانتخاب الطبيعيّ»، وأَثَرِها في عالم الأحياء، ولا نجادل في ذلك، لكنّنا نُنْكِرُ أن تكون هذه الآليّةُ العمياءُ قادرةً على إخراج شيءٍ حيٍّ إلى الوجود، أو أن تزيد في رصيدِه على المستوى الجينيّ.

التطوّر سرديّةٌ تاريخيّةٌ يشهد ضدّها الدّليلُ الماديُّ المباشِرُ (الأَحافيرُ)، ويكشف البحثُ عُقْمَها في باب الآليّةِ.

---

(١) جري فودور Jerry Fodor (١٩٣٥ ـ ٢٠١٧م): أستاذُ الفلسفة في جامعة «روتجرز». متخصّصٌ في دراسات العقلِ والإدراك.

(٢) ماسيمو بياتلّي ـ بالمريني Massimo Piattelli-Palmarini (١٩٤٢ـ): أستاذٌ في جامعة «أريزونا». متخصّصٌ في اللُّغويّات وعلم النّفسِ.

(٣) Jerry Fodor and Massimo Piattelli-Palmarini, *What Darwin Got Wrong* (New York: Farrar, Straus, and Giroux, 2010), p.xx.

المطلب الثالث

هل الداروينيّةُ حقيقةٌ علميّةٌ أم مجردّ نظريّةٍ، أم...؟

من الشّائع في خطاب عوامّ الـمُؤَلِّـهَةِ القولُ: إنّ الداروينيّة (التطوّر العشوائيّ القائم على الانتخاب الطبيعيّ من الطّفراتِ العشوائيّة) باطلةٌ؛ لأنّها مجرّدُ نظريّةٍ، ويقابل ذلك زعمُ الملاحدة أنّ الداروينيّةَ حقيقةٌ علميّةٌ محلّ قطع لوضوح براهينها.

قولُ عوامّ الـمُؤَلِّـهَةِ فاسِدٌ؛ إذ إنّ مصطلح (نظرية) (theory) لا يدلُّ على أنّ مضمونَ النّظريةِ ليس حقيقةً علميّةً، فقد يكون الشّيءُ نظريّةً وحقيقةً علميّةً في الآن نفسِه، كنظريّةِ النّسبيّةِ العامّةِ لأينشتاين، وقد يكون نظريّةً وفاسدًا علميًّا كـ«نظريّة الحال الثّابت» «Steady State theory» في الكوسمولوجيا.

(النظرية) في المفهوم العلميّ طبقًا لتعريف (الأكاديمية القومية الأمريكيّة للعلوم) هي: «تفسيرٌ موثّقٌ بصورةٍ جيدةٍ لبعض جوانب العالم الطبيعيّ من الممكن أن يضمَّ حقائقَ، وقوانين، واستدلالاتٍ، وفرضياتٍ مُخْتَبَرة»[(١)]؛ فالنظرية إذن نَسَقٌ كلّيٌّ يسعى إلى تفسير الظّواهر الطّبيعية اعتمادًا على حقائقَ علميّةٍ وما قاربها.

وقولُ الدَّراونةِ: إنّ الدّاروينيّة حقيقةٌ علميّةٌ باطلٌ؛ فإنّها فاقِدةٌ للسَّنَدِ العِلميّ، وفقيرةٌ إلى السَّنَدِ التّاريخيّ، وعامّة نبوءاتها كَذَّبَهَا البحثُ التاريخيُّ والتّحليلُ العِلميُّ.. بل الداروينيّةُ لا تَرْقَى بأيّ حال إلى أن تكون نظريّةً، أو بعبارة (إرنست شاين)[(٢)] ـ الحائز على **جائزة نوبل** في الطبِّ ـ: «**من العسيرِ وَصْفُهَا أنّها نظريَّةٌ**» «**It can hardly be called a theory**»[(٣)]؛ إذ هي كما يقول كثير من خصومها مجرّد قَصَصٍ (just-so story). إنها أمورٌ متقطّعةٌ لرواياتٍ

(١) National Academy of Sciences, *Teaching about Evolution and the Nature of Science* (Washington, DC: National Academy Press, 1998), p.7.

(٢) أرنست شاين Ernst Chain (١٩٠٦ ـ ١٩٧٩م): عالم كيمياء حيويّة بريطانيّ. نال جائزة نوبل لأبحاثه في البنسلين.

(٣) R. W. Clark, *The Life of Ernst Chain: Penicillin and Beyond* (New York: St. Martin's Press, 1985), p.147.

مزعومةٍ عن تطوّر الكائنات الحيّة بآليَّتَيْ الطّفراتِ العشوائيّةِ والانتخاب الطبيعيِّ، قائمةٌ بالكليّةِ على التّخمينِ، ويكثر في هذه الرّواياتِ التّعارُضُ، وأهمُّ عناصِرِها، غيابُ التّفصيلِ والتّجريبِ. .

وقد أَشارَ الفيلسوفُ الموسوعيُّ ـ الذي رأسَ اللّجنةَ المشرِفةَ على تحرير «الموسوعة البريطانيّة» لعدّةِ سنواتٍ ـ (مورتمر ج. أدلر) إلى قريب ما قرَّرْناهُ بقوله: إنَّ الدَّراوينيّة «ليست نظريَّةً بمعنى حقائق وقوانين علميَّة مُنَظَّمة نَسَقِيًّا، مثل القَوْلِ في أُصُولِ نيوتن كَوْنَهَا نظريَّة»، وإنَّما هي «نظريَّةٌ» بمعنى «أنَّ هناك محاولةً لتوضيحِ بعضِ الحقائق التي أُسِّسَتْ علميًّا في العلوم البيولوجيّة، بصناعةِ فَرَضِيَّاتٍ ليست هي مقترحاتٌ من الواجِبِ إثباتُ صِحَّتِهَا، وإنّما هي مُجَرَّدُ تخميناتٍ خَيَاليَّةٍ حول عمليَّاتٍ أو أحداثٍ غير مُلاحَظَةٍ. هذا هو معنى **الفَرَضِيَّةِ التي قال نيوتن: إنَّ على العلماءِ أَلَّا يَصْنَعُوها»**[1].

وكيف ترقى الداروينيّة لتكون نظريّةً إذا كان مَبْناها يقوم على الخيالِ لا حقائقِ الأرضِ حتّى إنّ (فرانكلن م. هارولد)[2] ـ أستاذ الكيمياء الحيوية سابقًا في جامعة كولورادو ـ كَتَبَ: «لا بُدَّ أن نعترفَ أنّه لا توجد حاليًّا أيُّ قَصَصٍ داروينيّةٍ مُفَصَّلَةٍ عن تطوّرِ أيِّ نظامٍ كيميائيٍّ حيويٍّ أو خلويٍّ، وإنّما هي فقط تَكَهُّناتٌ أُمْنَوِيَّةٌ»؟[3]! إنها لا تفسّر شيئًا على مستوى ظهور أعضاء وظيفيّةٍ جديدةٍ في الكائن الحيِّ؛ إذ تَتَنَبَّأُ بالشَّيءِ ونقيضِه وتَتَأَقْلَمُ مع الفِكْرةِ وعَكْسِها، ولذلك سَخِرَ الكيميائيُّ البارز (فيليب سكل)[4] من التفاسير المتصادمة للداروينيّة؛ فالانتخابُ الطّبيعيُّ ـ مثلًا ـ سببٌ لتفسير الطابع الأنانيِّ والعُدوانيّ للإنسان، وهو في الوقت نفسه حجّةٌ لتفسير طابع الإيثار والسلميّة فيه، كما أنّه

---

(١) M.J.Adler, *What Man Has Made of Man* (Ungar, New York, 1957), p. 115.

(٢) فرانكلن م. هارولد Franklin M. Harold (١٩٢٩ـ): عالم كيمياء حيويّة. أستاذٌ في قسم البيولوجيا الدّقيقة في جامعة واشنطن.

(٣) Franklin M. Harold, *The Way of the Cell: Molecules, organisms and the order of life* (Oxford University Press, New York, (2011), p. 205.

(٤) فيليب سكل Philip Skell (١٩١٨ ـ ٢٠١٠م): كيميائيٌّ أمريكيٌّ. دَرَّسَ في «Pennsylvania State University». عضوُ أكاديميّة العلوم الأمريكيّة.

يُفسّرُ طابع الرّغبة الحماسيّة في إنشاء علاقاتٍ نسائيةٍ كثيرةٍ عند الرّجالِ، وطابع المحافظة ورعاية الأسرة الضيّقةِ. حتّى قال: «عندما يكون التّفسير مَرِنًا جِدًّا حتّى إنّه بإمكانه أن يُفَسِّرَ أيَّ سُلوكٍ، يغدو من الصّعب اختباره تجريبيًّا، ناهيك عن استخدامِه كمحفّزٍ للكشفِ العِلميّ»[1].

الواقع ربما أَعْمَقُ من مثال (سكل)؛ إذِ الدَّاروينيّةُ قائمةٌ على العشوائيَّةِ والحِكْمةِ، وجَعْلِ الطّبيعةِ مجموعةَ أشياءَ باهتةٍ ومجموعةَ ذواتٍ مُرِيْدةٍ، والتطوُّرُ سريعٌ وحتمِيٌّ والاستقرارُ طويلٌ وشائِعٌ. . . . إنها نظريّةٌ تَتَنَبَّأُ بالشّيءِ وضِدِّهِ، ولذلك ـ كما يقول البيولوجيُّ (كورنليوس هانتر)[2] ـ: هي **لا تَتَنَبَّأُ بِشيءٍ، فَكُلُّ ما يَتَنَبَّأُ بِكُلِّ شيءٍ، لا يَتَنَبَّأُ بِشيءٍ!**

ولم نأت هنا ببِدْعٍ من القول؛ إذ إنَّ (جري كوين) ـ البيولوجيَّ المتطرّفَ في معاداته للنّظم الحَكِيم ـ يقول: «سنستنتِجُ ـ على غير المتوقّع ـ أنّ هناك القليلَ من الأدلّةِ لصالحِ نَظْرةِ الدّاروينيّة الحديثة: أسسها النظريّة والأدلّة التجريبيّة التي تَدْعَمُها ضعيفة»[3]؛ بل قال البيولوجيُّ وفيلسوف العلوم التطوّريّ (دنيس نوبل)[4] في ورقةٍ علميّةٍ صَدَرَتْ حديثًا عن الداروينيّة الحديثة: «**كلُّ الافتراضاتِ المركزيّة للنظريّةِ التركيبيّة الحديثة (التي تُسمّى عادة الداروينيّة الحديثة) قد تمَّ نَقْضُها**»[5]. وهي كما يقول:

- التغيّراتُ الجينيّةُ عشوائيّةٌ.
- التغيّراتُ الجينيّةُ تَدَرُّجِيَّةٌ.

---

(١) P.S.Skell, 'Why do we invoke Darwin? Evolutionary theory contributes little to experimental biology,' *The Scientist* 19 (16): 10, 2005.

(٢) كورنليوس هانتر Cornelius Hunter (١٩٥٧ـ): عالم فيزياء حيوية أمريكيّ، له نشاطٌ واسِعٌ في محاورة الدَّراونة والتّطوّريّين على الشّبكة العنكبوتية وفي مؤلّفاته المطبوعة.

(٣) H. A. Orr and J. A. Coyne, 'The Genetics of Adaptation: A Reassessment,' *American Naturalist*, 1992, 140, 726.

(٤) دنيس نوبل Denis Noble (١٩٣٦ـ): أستاذُ علمِ وظائفِ الأعضاءِ في جامعة أوكسفورد. نَشَرَ أكثرَ من ٣٥٠ مقالًا علميًّا في أهمِّ المجلّات العلميّة في الغرب.

(٥) D. Noble, 'Physiology is rocking the foundations of evolutionary biology,' *Experimental Physiology* 98 (8): 1235-1243, 2013.

• وِراثةُ الخصائصِ المكتسبةِ، أمرٌ مستحيلٌ..[1].

المطلوب اليوم ليس حلّ إشكالاتِ التطور العشوائيِّ، وإنما عَدَمُ الرُّضوخِ لجاذبيّةِ مذهبِ النّظم الحَكِيم. وهذا ليس من الأسرار التي يُخْفِيْهَا الدَّراونةُ، وإنما هو قانونٌ دونه صُكوكُ الحِرْمانِ.

«التطوُّرُ نظريّةٌ مقبولةٌ عالميًّا لا لأنّه بالإمكان إثباتها بحجّةٍ متناسقةٍ منطقيًّا، وإنّما لأنّ البديلَ الوحيدَ ـ وهو الخَلْقُ الخاصُّ ـ غيرُ مقبولٍ بِحَسْمٍ»[2]. البيولوجيّ (د. م. س. واطسون)[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) D.M.S. Watson, 'Adaptation', *Nature* 124: 233, 1929.

(٣) د. م. س. واطسون D.M.S. Watson (١٨٨٦ ـ ١٩٧٣م): أستاذُ علمِ الحيوانِ والتّشريح المقارن في «University College».

المبحث الخامس

تطوّر الإنسان، حقائق مخالفة واستدلالات قاصرة

الجدلُ الإسلاميُّ ـ التطوّريُّ مجالُه الحقيقيُّ الوحيدُ ـ تقريبًا[1] ـ هو تطوّرُ (آدم) عليه السلام عن سَلَفٍ سابق؛ إذ ليس في نُصوصِ الوَحْيِ ما له تَعَلُّقٌ بالخليّة الأُولى أو الحيوانات الأُولى أو تطوُّر النّبات والحشرات والطّيور والأسماك والدّيناصورات، على خلاف التّوراة في سِفْرِ التّكوينِ حيث جاء التَّصريحُ ـ بلا لَبْسٍ ـ أنّ الحيوانات والنّباتات قد خُلِقَتْ مرّةً واحدةً على صورةٍ ثابتةٍ؛ فلم تَتَطَوَّرْ عن شَكْلِها الأَوَّل.

لم يتعرَّض القرآنُ إلى مسألةِ تطوُّرِ الحيوانات والنّباتات بنقضٍ أو إثباتٍ؛ بما يُخْرِجُ هذه المسألةَ عن الجَدَلِ الشّرعيِّ إلى الجَدَلِ العِلميِّ الخالِصِ؛ ولذلك يَحْسُنُ بنا أن نتناول هنا فقط دعوى تطوُّر (آدم) عليه السلام بالدّراسةِ العلميّةِ، لا للردِّ على الإلحادِ ـ إذ لا تَعَلُّقَ لانْتِسالِ (آدم) عليه السلام من سَلَفٍ سابقٍ بصحّة الإلحادِ، وإن كان ثُبوت الخَلْقِ الخاصِّ يُثْبِتُ برهان التّصميم؛ ويُبْطِلُ بذلك الإلحاد ـ وإنّما ردًّا على مَنْ يَرَوْنَ مُخالفةَ قولِ جماهيرِ علماءِ الإسلامِ اليومَ القائلين بالخَلْقِ الخاصّ لأبي البشريّة حقائق العلم؛ فإنّ ظواهر النُّصوص الشرعيّةِ على أنّ (آدم) عليه السلام قد خُلِق بلا سَلَفٍ. .

(١) المجال الثاني هو عشوائيّةُ ظهور الكائنات الحيّة، لو سَلَّمْنَا أنّ هذه الكائنات ـ باستثناء الإنسان ـ قد ظهرَتْ عن تطوُّرٍ لا عن خَلْقٍ خاصٍّ.

المطلب الأول

تطوّر الإنسان وتحدّي الزَّمانِ

الارتقاءُ من الكائن الأَحْدَبِ إلى الإنسان المنتصِبِ يقتضي ظهورَ عددٍ هائلٍ من التغييرات التّشريحيّة الواسعةِ للمَشْيِ، والجري، والقَبْضِ على الأشياء، وحجم الدّماغ وتركيبه... كما على الصّورة الحالية الفريدة.

لم يترك البحثُ العلميُّ هذه المسألةَ خاضعةً للخيالِ المحض للعلماءِ، وإنّما دَخَلَ بابَ الحساب الاحتماليّ فيها بما يجعل القولَ بإمكان حدوثِ هذا التطوّر في الحدودِ الزمنيّةِ المتّفقِ عليها بين أنصار الخَلْقِ الخاصِّ والتطوّريِّين محلّ بحثٍ جادٍّ.

وإذا كان الإنسان ـ كما يقول التطوّريُّون ـ قد تَطَوَّرَ عن شِبيهِ قِرْدٍ منذ ٦ ملايين سنة، وكان هذا التطوّرُ عشوائيًّا، وكانت المجموعة التي بدأ منها هذا التطوُّرُ تبلغ ١٠ آلاف فردٍ ـ كما هو ظنُّهم ـ؛ فإنّ السيناريو التطوّريَّ سيفشَلُ ضرورةً؛ لأنّ ٦ ملايين سنة لا تسمحُ إلَّا بطَفْرةٍ واحدةٍ في موقع ارتباط[(١)] على الحَمْضِ النَّوويّ الصّبغيّ، وتكون ثابتةً في الرئيسيّات[(٢)]. في حينِ يستغرِقُ تثبيتُ طفرَتَيْنِ ٢١٦ مليون سنةٍ[(٣)].

الفارقُ التّشريحيُّ بين الإنسانِ وسَلَفِهِ المزعوم منذ ٦ ملايين سنة يشمل ستّة عَشَرَ وَجْهًا تشريحيًّا ضروريًّا، وكلُّ وجهٍ يحتاج عددًا من الطّفرات، وقد يبلغ مجموع هذه الطّفراتِ الآلافَ، بعضُها يجب أن يكون متزامنًا حتّى يسمح الانتخاب الطبيعيُّ لهذا الكائن بالبقاء[(٤)].

---

(١) Binding site.

(٢) R. Durrett and D. Schmidt, 'Waiting for regulatory sequences to appear,' *Annals of Applied Probability* 17 (2007): 1-32.

(٣) R. Durrett and D. Schmidt, 'Waiting for two mutations: With applications to regulatory sequence evolution and the limits of Darwinian evolution,' *Genetics* 180 (2008): 1501-1509.

(٤) Ann Gauger, Douglas Axe and Casey Luskin, *Science and human origin* (Seattle, Wash.: Discovery Institute Press, 2012), pp.24 - 26.

المطلب الثاني

ترتيب ظهور جنس (الهومو)

سبق أن نَبَّهْنا أنّ عِبْءَ الإثباتِ على القائل بالتطوّر لا على القائلِ بالخلق الخاصِّ؛ لأنّ المشاهَدَ والمدرَكَ بصورةٍ مباشرةٍ هو أنّ الكائناتِ الحيّةَ لا تُنْتجُ غيرَ جِنْسِها؛ فمَنْ قال: إنّ الإنسانَ مُتَطَوِّرٌ عن شَبِيهِ قِرْدٍ؛ فَعَلَيْهِ البُرهانُ. وقبل النَّظَرِ في أدّلةِ التطوّريّين على أنّ الإنسان الحالي جاء عن غير جِنْسٍ إِنْسِيٍّ، لا بُدَّ من بيانِ أنّ الأجناسَ المسمّاة (هومو) (homo)، ومنها جِنْسُنا، هي ـ على الظاهر ـ من البَشَرِ؛ فالخلاف بينها أقربُ إلى خلافِ أفراد الجِنْسِ الواحدِ لا خلاف الأجناس المتعدّدة؛ ولذلك فَمَنْ أرادَ إثباتَ أَصْلٍ غيرِ إِنْسِيٍّ للبشر؛ فَعَلَيْهِ أن يُثْبِتَ أنّ جنس (homo) يرجع في أَصْلِهِ إلى غير البشر.

جنس (homo) كلُّهم بشرٌ مثلنا، وإثبات سَلَفٍ (لآدم) عليه السلام يقتضي إقامةَ برهانٍ مباشرٍ أو قرائنَ قاطعةٍ على انتسالِ هذا الجنسِ من سَلَفٍ سابقٍ.

الروايةُ التطوّريةُ التقليديّةُ لظهور أجناسِ الـ(هومو) (homo) تزعمُ بروز هذه الأجناسِ بصورة متتابعةٍ دون تعاصُرٍ، فقد ظهرَ (الإنسان الماهر) ثم (الإنسان المنتصب) ثم (الإنسان النياندرتال) ثم الإنسانُ العاقِلُ الحالي (Homo sapiens). واليوم يَشُكُّ كثيرٌ من العلماء في حقيقةِ جِنْسٍ اسمُهُ (الإنسان الماهر)؛ فهو أقربُ عندهم إلى خليط من عظامِ أجناسٍ مختلفةٍ[1]، كما أنّنا حتّى لو قَبِلْنَا أنَّ آثارَهُ تدلُّ على نوعٍ واحدٍ، يبقى إشكالُ أنّ ظهور (الإنسان الماهر) في الأحافيرِ كان بعد ظهورِ جنس (الهومو)[2]، ولعلَّ أَهَمَّ من ذلك أنّ البحث العلميّ قد دلَّ على أنّ (الإنسان الماهِرَ) يحمل صفات

(١) Ian Tattersall, 'The Many Faces of Homo habilis,' *Evolutionary Anthropology* 1 (1992): 33 - 37.

(٢) See F. Spoor, M. G. Leakey, P. N. Gathogo, *et al.* "Implications of New Early Homo Fossils from Ileret, East of Lake Turkana, Kenya," *Nature* 448 (August 9, 2007): 688-691.

كثيرة موجودةٍ في القِرَدَةِ الجنوبيّة[١]. وما سبق يمنع أن يكون هذا الكائنُ واسطةً بين القِرَدَةِ الجنوبية وأنواعِ الهومو الأُخرى.

يحمل (الإنسان النّياندرتال) كلَّ صفاتِ جِنْسِنا، حتّى إنّ بعض علماءِ المستحاثّات البشريّةِ يَرَوْنَهُ جُزْءًا من نَوْعِنا، الإنسان العاقل[٢]. وما حُفِظَ لنا من البيئةِ التي أَحَاطَتْ بأحافيرهِ تدلُّ أنّه كان يستعمِلُ أدواتٍ متطوّرةً في حياتِه اليوميّة، حتّى قال أحد علماء الأركيولوجيا من جامعة (بوردو): «كان النّياندرتاليّون يستعملون تكنولوجيا متطوّرة كالتي يستعملها الإنسانُ الحديث، وكانوا يستعملونها بالصّورة نفسِها»[٣]. وقد كشفَ البحثُ الجيني أخيرًا أنّ الإنسان الحاليَّ قد تزاوَجَ مع (الإنسان النياندرتال)؛ ولذلك تحمل جيناتُنا آثارًا منه[٤].

ودلائل العقلِ أيضًا مشهودٌ لها في (الانسان المنتصِبِ)، ومنها أنّ أحافيرَهُ قد وُجِدَتْ في جُزُرٍ؛ بما يوحي أنّه صَنَعَ مراكِبَ للسَّفَرِ إليها، ولذلك قال أحدُ العلماء: «لدينا كلّنا اعتقادٌ أنّ الإنسانَ الأوّل لم يكن ذكيًّا بحقّ. تُظْهِرُ الاكتشافاتُ خلاف ذلك؛ فأجدادُنا كانوا على درجةٍ كافيةٍ من الذّكاء تُمكّنهم من بناء مراكبَ والمغامرة لاستعمالها»[٥]. وكشف البحث العلمي مؤخرًا في الفلبين عن حيوان وحيد القرن مذبوحًا منذ قرابة ٧٠٠ ألف سنة مضت؛ بما يُثبت انتقال جنس (الهومو) بالقوارب إلى الفلبين للعيش هناك قبل الإنسان الحديث بمئات آلاف السنين[٦].

---

(١) Sigrid Hartwig-Scherer and Robert D. Martin, 'Was 'Lucy' More Human than Her 'Child'? Observations on Early Hominid Postcranial Skeletons,' *Journal of Human Evolution* 21 (1991): 439-449.

(٢) E.g., Eric Delson, 'One Skull Does Not a Species Make,' *Nature* 389 (October 2, 1997): 445 - 446; Hawks *et al*, 'Population Bottlenecks and Pleistocene Human Evolution'; Emilio Aguirre, 'Homo erectus and Homo sapiens: One or More Species?,' in 100 Years of Pithecanthropus: The Homo erectus Problem 171 Courier Forschungsinstitut Senckenberg, ed. Jens Lorenz (Frankfurt: Courier Forschungsinstitut Senckenberg, 1994), 333-339.

(٣) Joe Alper, 'Rethinking Neanderthals,' *Smithsonian magazine* (June 2003).

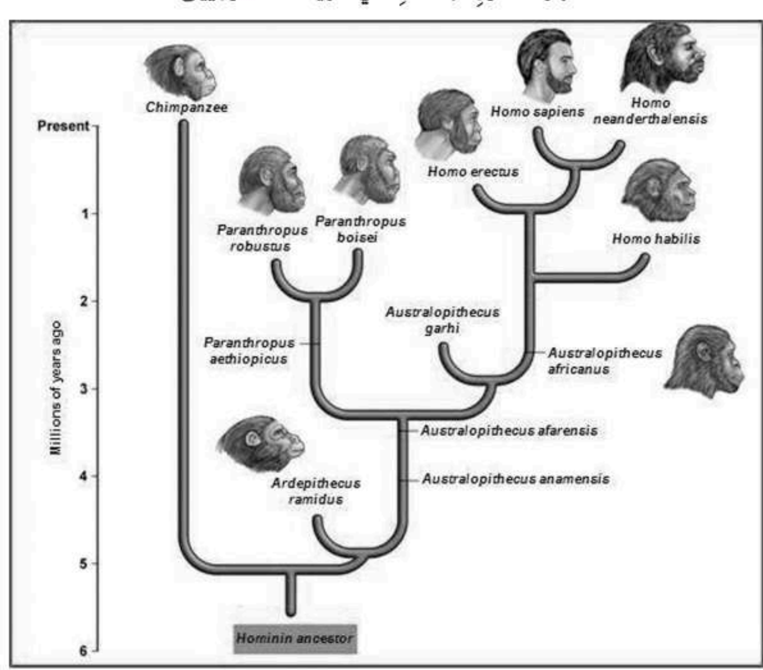
(٤) Rex Dalton, 'Neanderthals may have interbred with humans,' *Nature news* (April 20, 2010), <http://www.nature.com/news/2010/100420/full/news.2010.194.html.%5D>.

(٥) Jrn Madsen, 'Who Was Homo erectus,' *Science Illustrated* (July/August 2012): 23.

(٦) Michael Greshko, 700,000 - Year-Old Stone Tools Point to Mysterious Human Relative. <https://news.nationalgeographic.com/2018/05/stone-tools-rhinoceros-luzon-philippines-ancient-hominins-science/?beta=true>.

وقد تعاصَرَ (الإنسان المنتصِبُ) و(الإنسان النّياندرتال) وكذلك تعاصَرَ (الإنسان النّياندرتال) والانسانُ الحديث. كما أثبتَ البحثُ العلميُّ أنّ الإنسان المعاصر أقدمُ في التاريخ ممّا كنّا نظنُّ؛ فقد تَبَيَّنَ مُؤخّرًا وجودُ هياكلَ[1] - في جبلِ إيغود في المغرب الأقصى - تعود إلى ٣٠٠ ألفِ سنةٍ ماضيةٍ[2].

شجرةُ تطوّرِ الإنسانِ في أدبيّات التّطوّريّين



ولحسم أمر تطوّر الإنسان، لننظر في أهم القرائن التي يقيمها التطوّريون لذلك، ومعرفة صلابتها.

---

(١) اسمها (Irhoud) ١ و٢ و٣.

(٢) Homo sapiens are 100,000 years older than we thought.
<https://www.pri.org/stories/2017-06-07/homo-sapiens-are-100000-years-older-we-thought> accessed 7.6.2017.

المطلب الثالث

حجج التطوريين لتطوّر الإنسان في الميزان

يُوحِي خطابُ التطوّريّين في معرض حديثهم عن أصلِ الإنسان الحالي أنّ الشّهادات لانتساله عن أسلافٍ غير بشريّة واضحةٌ بلا لَبْسٍ، كثيرةٌ لا تُحصى.. غير أنّك إذا جَمَعْتها أمامك وجدتها قاصرةً عن إثبات ذلك؛ بل قد تجد فيها ما يقوم ضدّ دعوى التطوّر نفسه.. وسأكتفي هنا بذكر أهمّ حجج التطوريّين لصالح الأصل الأقدم للإنسان الحالي، مع جوابها مختصرًا..

أ ـ الشاهد الأحفوريّ على تطوّر الإنسان: الثّقة العظيمة التي يبديها التطوّريّون في شأن شهادة الأحافير على تطوّر الإنسان الحالي من أسلافٍ، تُوحِي أن هذه الأحافيرَ قاطعةُ الدّلالة على السّلسلة التطوريّة المزعومة، ولكنْ كيف يكون الأمرُ كذلك، ونحن نعلمُ ـ كما يقولُ عالم الأحافيرِ (جاي جولد) أنّ «جُلَّ أحافيرِ القِردةِ العُلْيا (hominid) هي أجزاء من الفَكّ وقِطَعٌ من الجَمَاجِم، ومع ذلك تُستعمَلُ كأساسٍ لافتراضاتٍ لانهائيّةٍ ولصناعة قَصَص مُفصّلة»؟[1] وقد دفَعَ فَقْرُ هذه الأحافير (برنارد وود)[2] المختصَّ في علم مستحاثّات البشرِ، أن يقول: «بإمكان أُحفورةٍ واحدةٍ أن تُغيّر بصورةٍ جوهريّة طريقةَ بنائنا شجرةَ الحياةِ»[3].

الذي يعتقده عامّةُ أنصارِ الخَلْقِ الخاصّ في الغَرْبِ وعامّةُ من خاضوا في تاريخ الأناسيّ في عالمنا الإسلامي هو أنّ كلّ جنس (هومو) أبناء (آدم) عليه السلام.. ولذلك فإنّ زعم التطوّريّين أننا نشترك مع القِردةِ في سَلَفٍ مشترَكٍ يقتضي أن يوجد ما يشهد لانتسالِ (الانسان المنتصِبِ) ـ أقدمِ أشكال الأناسيّ ـ من (القِردةِ الجنوبيّة) (Australopithecus).

---

(١) Stephen Jay Gould, *The Panda's Thumb*, p.126.

(٢) برنارد وود Bernard Wood (١٩٤٥ـ): أستاذُ التّشريح التطوّريّ في عددٍ من الجامعات البريطانيّة والأمريكيّة. يعمل مديرًا لـ«Center for the Advanced Study of Human Paleobiology». له اهتمامٌ خاصٌّ بدراسة الأحافيرِ لترتيب أحافيرِ التطوّرِ البشريِّ المزعومِ.

(٣) Bernard Wood, 'Hominid revelations from Chad,' *Nature*, 418 (July 11, 2002): 133 - 35.

والذي يشهد عليه التحقيقُ العِلميُّ هو ما قَرَّرَهُ (جون هاوكس)[1] ـ أحدُ علماء مستحاثّات أسلاف البشر من جامعة وسكنسن ـ، أنّه لا يوجد في القِرَدَةِ العُليا جِنْسٌ انتقاليٌّ إلى «الإنسان المنتَصِبِ». والحَلُّ ـ بزعمه ـ هو الإيمان بالانتقال الفُجائيِّ من جِنْسِ القِرَدَةِ إلى جنس (هومو) من خلال «ثورة جينيّة» حصلَتْ في القِرَدَةِ الجنوبيّةِ[2]!

وقد شهد البيولوجيُّ التطوّريُّ الشهير (إرنست ماير) سنة ٢٠٠٤م أنّ ظهور جنس (هومو) كان مفاجئًا؛ معترفًا أنّ هناك فجوةً كبيرةً بين أقدمِ أحافير جنس (هومو) والقِرَدَةِ الجنوبيّة. وأَضافَ: «كيف بالإمكانِ تفسيرُ ما يبدو كقفزةٍ هنا؟ علينا أن نعود إلى المنهج العريقِ للعِلمِ التاريخيِّ، وهو صناعةُ رواياتٍ تاريخيّةٍ؛ لأنّنا لا نملك أيَّ أُحفورةٍ من الممكن أن تُعتمد كحَلْقةٍ مفقودةٍ»[3].

وفي ورقةٍ علميّةٍ نُشِرَتْ في «Journal of Molecular Biology and Evolution»، ذكر الباحثون أنّ الـ(هومو) يختلفون عن القِرَدَةِ الجنوبيّة بصورةٍ كبيرةٍ في حجمِ الجُمْجُمَةِ والطُّولِ والرُّؤْيةِ والتَّنَفُّسِ... وأضافوا قائلين: «نحن ـ مثل كثير من غيرنا ـ نفسِّرُ الشّاهد التَّشريحيَّ لإظهار أنّ الإنسانَ العاقِلَ الأَوَّلَ كان مختلِفًا بصورة كبيرةٍ ودراماتيكيّةٍ عن... القِرَدَةِ الجنوبيّةِ عمليًّا في كلّ عناصر الهيكلِ العظميِّ وفي كلّ ما تبقّى من سُلُوكِهِ»[4].

إثباتُ تطوّرِ الإنسانِ عن حيوانٍ أدنى يقتضي إثباتَ انتسالِهِ من القِرَدَةِ الجنوبيةِ، وهو ما فَشِلَ التّطوّريُّون في إقامةِ البرهان الأثَرِيِّ عليه.

ب ـ الاشتراكُ الجِينيُّ مع الشّمبانزي: يقول التطوّريُّون ـ منذ سنة

---

(١) جون د. هاوكس John D. Hawks: أنثربولوجيّ أمريكيٌّ متخصّصٌ في أحافيرِ الإنسان ضمن رؤيةٍ تطوّرية بحتةٍ.

(٢) J. Hawks *et al*, 'Population bottlenecks and Pleistocene human evolution,' *Mol Biol Evol* 17 (2000): 2 - 22.

(٣) Ernst Mayr, *What Makes Biology Unique?: Considerations on the Autonomy of a Scientific Discipline* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004), p.198.

(٤) John Hawks, Keith Hunley, Sang-Hee Lee, and Milford Wolpoff, 'Population Bottlenecks and Pleistocene Human Evolution,' *Molecular Biology and Evolution* 17 (2000): 2-22, at 3.

١٩٧٥م[١] ـ: إنّ أعظمَ برهانٍ على تطوُّرِ الإنسان أنّه يشترك مع الشّمبانزي ـ ابن عمّه ـ في ٩٩٪ من جيناتِهِ، وذاك دليلُ وجودِ أَصْلٍ مشترَكٍ بينهما.

والردُّ على ذلك من وَجْهَيْنِ ـ بعيدًا عن كشفِ الإشكالات المنهجيّة في تحديدِ هذه النسبة ـ:

الوجه الأوّل: شَكَّكَ كثيرٌ من العلماء التطوّريّين في تلك النّسبة المزعومةِ، فعند عَرْضِ كامِلِ الجينُوم للمقارنةِ لا نَجِدُ غير ٧٦٪ من التَّطابُقِ[٢]. ورغم الْتِجاءِ التطوريّين للقولِ: إنّ عامّةَ الجينوم خُرْدَةٌ إلَّا أنّ الدّراساتِ الأحدثَ تكشِفُ أنّ هذه الخردةَ المزعومةَ كنزٌ من الجينات الذكيّة.

ومهما تكن نِسبةُ التّطابق الجينيّ بين الإنسان والشّمبانزي ـ بعد استبعادِ «الخُرْدَةِ» المدَّعاة ـ، فهي ـ ضرورة ـ أقلُّ من ٩٩٪ بشهادة مجلَّةِ (Science) ـ التطوّريّةِ ـ؛ إذ نَشَرَتْ مقالًا سنة ٢٠٠٧م تحت عنوان: «أُسطورةُ الـ١٪» تنفي فيه هذه النّسبة العالية من التّطابق[٣]. ولذلك يذهب كثيرٌ من التطوّريّين اليومَ إلى أنّ نسبة التشابه الجينيّ بين الإنسان والشّمبانزي تبلغ ٩٥٪، وهي النّسبة التي شَهِدَ لها بحثٌ علميٌّ صدرَ سنة ٢٠٠٢م[٤]. وفارِقُ ٥٪ جينيًّا، فارقٌ ضخمٌ بين هذَيْنِ الكائِنَيْنِ.

الوجه الثّاني: كشفَ بحثٌ علميٌّ منذ سنوات أنّ الفئران تشترك مع الإنسان في ٩٧,٥٪ من جينُومِهِ رغم أنّ سَلَفَنا المشترك ـ المزعوم ـ قد عاش منذ ١٠٠ مليون سنة[٥]. وقد عارضَ نتيجة هذا البحثِ رئيسُ البحث الجينوميّ

---

(١) Mary-Claire King and A.C. Wilson (1975). 'Evolution at Two Levels in Humans and Chimpanzees'. *Science*. 188: 107 - 116.

(٢) تقرير عالم الجينات (Richard Buggs):
Richard Buggs, "chimpanzee?", *Reformatorisch Dagblad* (October, 10, 2008).
http://www.refdag.nl/chimpanzee_1_282611.

(٣) John Cohen, 'Relative Differences: The Myth of 1%', *Science* 29 Jun 2007: Vol. 316, Issue 5833.

(٤) R. Brittin, 'Divergence between Samples of Chimpanzee and Human DNA Sequences is 5%, Counting Indels,' *Proceedings of the National Academy of Sciences, USA* 99: 13633 - 35, 2002.

(٥) خلاصة مقال علمي في مجلة «Nature»:
Chris Gunter & Ritu Dhand, 'Human biology by proxy', *Nature* 420, 509 (05 December 2002).
<https://www.nature.com/articles/420509a>.

في مؤسّسة «Sanger Institute» ـ المختصّة بالبحث الجينوميّ في إنجلترا ـ بقوله: إنّه يُرجِّحُ أنّ الجينومَيْنِ بينهما تطابق، وأنّ سببَ عَمَلِهما المختلِفِ بعضُ الجيناتِ التي تقوم بتنظيمِ عَمَلِ مجموعاتٍ أُخرى من الجيناتِ[1]!

ت ـ التحامُ الكُروموسوم ٢: يقول التطوّريّون: إنّ للشّمبانزي ٢٤ زَوْجًا من الكروموسومات وللإنسانِ ٢٣ زَوْجًا منها، وقد اكتشفَ العُلماءُ أنّ سببَ اختلافِ عدد الكروموسومات بين الإنسان والشّمبانزي أنّ هناك التحامًا بين كروموسومَيْنِ يُشكّلان اليوم «الكروموسوم ٢» في جينوم الإنسان؛ وبذلك يكون عددُ كروموسومات الإنسان قبل الالتحام ٤٨.

رغم شهرة هذا الاستدلال إلّا أنه مَعِيبٌ من عدّة نواحٍ ـ بعيدًا حتّى عن صحّةِ دعوى الالتحامِ التي لا تخلو من نَظَرٍ ـ، ومنها أنَّ هذا الالتحامَ لا يُشكّلُ ـ إن صحَّ ـ حجّة لشيء؛ لأنّ التطوريّين لا يقولون: إنّ هذا الالتحامَ كان سببًا في تطوُّر السَّلَفِ المشترك بين الإنسان والشّمبانزي إلى إنسان؛ ولذلك كتبَ عالِمُ الجيناتِ والأنثروبولوجيا التطوّريّ (جونثان مارك)[2]: «ليس هذا الالتحامُ ما أعطانا اللُّغَةَ، أو المشيَ على رِجْلَيْنِ، أو الدّماغ الكبير، أو الفنَّ. . . . إنّه من جنس تلك التغييرات المحايِدة التي تفتقِدُ تعبيراتٍ خارجيّةً وما هي بجيّدة ولا سيئّة»[3]. هو التحامٌ حدثَ في تاريخ حياة الإنسان، وكشفُ مطابقة عدد كروموسومات الإنسان للشّمبانزي لا يدلُّ على أصلٍ مشتركٍ قريبٍ؛ فإنّ عدد الكروموسومات ليس حُجّة حاسمة لموضعِ الكائن في شجرة الحياة.

ث ـ الأعضاءُ الأثريّةُ: يزعم التطوّريُّون أنّ في الإنسان عَشَرات الأعضاء التي لا وظيفةَ لها، وأنّها أَثَرٌ عن سَلَفٍ قديمٍ كان يستعملها لتحقيق البقاء.

---

(١) Andy Coghlan, Just 2.5% of DNA turns mice into men.
<https://www.newscientist.com/article/dn2352-just-2-5-of-dna-turns-mice-into-men/>.

(٢) جوناثان مارك Jonathan Marks (١٩٥٥ـ): عالم أمريكيّ درّس في جامعة (Yale) و(University of North Carolina-Charlotte).

(٣) Jonathan Marks, *What it means to be 98% Chimpanzee: Apes, People, and their Genes* (Los Angeles: University of California Press, 2003), p. 39.

حُجّةُ الأعضاء الأثريّةِ قائمةٌ بصورةٍ جوهريّة على مغالطَتَيْنِ، أُولاهما: مُغالطةُ الجَهْلِ، وهي أنّ ما نجهل وظيفتَه فلا وظيفةَ له، وثانيهما ـ وهي أَثَرٌ عن الأُولى ـ: زعم امتناعِ قيام العُضْوِ بغيرِ وظيفةٍ واحدةٍ؛ فقد اكتشَفَ التطوّريُّون أنّ كثيرًا من هذه الأعضاء الأثريّة المزعومةِ لها وظائفُ دقيقةٌ ومهمّةٌ بعد أن جَهِلُوا ذلك سابقًا، فقالوا: إنّها الآن تخدِمُ وظائفَ أقلَّ مما كان سابقًا، ولذلك فهي إلى الآن «أعضاء أثريّة»!

بعض الأمثلة التي يسوقها التطوريُّون عجيبةٌ، كمثال حَلَمَةِ الذُّكور؛ فهل يَدَّعُون أنّ سَلَفَ الإنسان كان أُنثى؟! كما أنّ بعض عِنَادِهِم لم يُوقِفْهُ غيرُ الكشفِ عن الآثار السّيئةِ التي نَتجَتْ عن التخلُّص من بعض هذه الأعضاء العاطلةِ بِزَعْمِهِمْ، كما هو معروف مثلًا عند استئصال اللَّوْزَتَيْنِ(١).

ج ـ **الأخطاء المشتركة**: مَثَّلَت الجيناتُ العاطلة أهمَّ برهانٍ على تطوّر الإنسان في الخطاب التطوّريِّ لعالِم الجيناتِ (فرانسيس كولنز) الذي يُعَدُّ أبرز خُصومِ مدرسَتَي الخَلْقِ الخاصّ والتّصميم الذكيّ، وقد كان «الحَمْضُ النَّوويُّ الصبْغَيُّ الخُرْدَةُ» أَعْظَمَ أَدِلَّتِهِ على أنّ الإنسان قد تطوَّرَ عن أسلافٍ سَبَقُوهُ؛ ولذلك يَعُجُّ جينُومُهُ بالجيناتِ التي لا تعمَلُ. وقد دَفَعَتْ الدّراسات الجينيّة المتأخّرةُ (كولنز) أن يقول بصراحةٍ: «... وفيما يتعلَّقُ بالحَمْضِ النَّوويّ الصّبغيّ الخُرْدَة، نحن لا نستخدِمُ هذا المصطلح بعد الآن لأنّني أعتقِدُ أنه كان في ذلك إلى حدٍّ كبيرٍ شيءٌ من الغَطْرَسَةِ أن نتصوَّرَ أنه يمكننا أن نستغنيَ عن أيِّ جزءٍ من الجينوم، كما لو كنّا نعرفُ ما يكفي لنقول: إنه بلا وظيفةٍ.... معظم الجينوم... تبين أنّه يفعلُ أشياءَ تقوم بأشياء»(٢).

ح ـ **البشريّةُ والأُسْرةُ الأُوْلى**: يزعم التطوّريُّون أنّ العِلمَ يُخبرنا أنّ (آدم) وزوجَهُ مجرّدُ أُسطورةٍ؛ لاقتضاء بدايةِ «الإنسان العاقل» وجود مئات أو آلاف

---

(١) انظر في الردّ التّفصيليّ على دعوى وجودِ أعضاء أثريّة في الإنسان:
George Franklin Howe and Jerry Bergman, *"Vestigial Organs" are Fully Functional: A History and Evaluation of the Vestigial Organ Origins Concept* (Terre Haute, IN: Creation Research Society Books, 1990).

(٢) صرّح بذلك سنة ٢٠١٥م في اجتماع في مؤتمر «J.P. Morgan Healthcare Conference».
<https://evolutionnews.org/2016/07/on_junk_dnåfra/>

«الأَوادِمِ»، لا (آدمَ) واحدًا، وعُمْدةُ هذا الزّعم حجم التنوّع الجينيِّ بين البشرِ بما يمنع رَدَّهُ إلى سَلَفٍ أَوَّل يتكوّن من رَجُلٍ واحدٍ وامرأةٍ واحدةٍ.

والحقيقةُ هي أنّه على المذهبَيْنِ الخَلْقِيِّ والتطوّريِّ، لا توجد ضرورةٌ لافتراضِ مئاتٍ أو آلافِ الأَوادِمِ لِتَفْسِيرِ التّنوّع الجينيّ الحالي في البشر، وما تُقَدِّمُهُ دراساتُ «population genetic» التطوّريّةُ ليس في مقدّماتها حقائقُ ثابتةٌ، وإنما تبدأ هذه الدّراسات بافتراضاتٍ تحتاج نفسُها إلى إثباتٍ[1]؛ بل هي تفترضُ عشوائيّةَ التنوّع الجينيّ بين البشر؛ أي: إنّها تفترض مقدّمةً عشوائيّةً داروينيّةً لإثبات رِوايةٍ تطوّريّةٍ.

وقد قَدَّمَ عددٌ من البيولوجيّين الذين يَرَوْنَ الخَلْقَ الخاصَّ (لآدم) عليه السلام قراءاتٍ علميّةً لتاريخ التنوّعِ الجينيِّ تسمح بأصلٍ واحدٍ لجميع البشريّة، ومنهم البيولوجيّةُ (آن جوجر)[2] وعالِمُ الكيمياء الحيويّةِ (فضل رنا)[3].

---

(١) وهي: مُعَدَّلُ تَطَفُّرٍ ثابتٍ، وغيابُ انتخابِ التغيّرات الجينيّة في تسلسلاتِ الحَمْضِ النَّوويّ الصِّبْغِيّ التي تَمَّتْ دِراستُها، والتَّزاوجُ العشوائيُّ بين الأفراد، وغيابُ الهجرة إلى الجماعات المتزاوجة أو منها، ووجودُ حجمٍ ثابتٍ للجماعةِ...

(Ann Gauger, Douglas Axe and Casey Luskin, Science and human origins, p.112).

(٢) Ann Gauger, Douglas Axe and Casey Luskin, *Science and Human Origins,* pp.105-122.

وانظر أيضًا في دراسةٍ أحدث:

Ola Hössjer, Ann K. Gauger, and Colin R. Reeves, 'An Alternative Population Genetics Model,' in *Theistic Evolution,* pp.503 ff.

(٣) Fazale Rana and Hugh Ross, *Who Was Adam?: A creation model approach to the origin of man* (Covina, CA: RTB Press, 2015).

المبحث السادس

ملاحدة شهدوا للخلق ضد التطوّر

يَشِيعُ في الأدبيّات التطوّريّةِ الزَّعْمُ أنّ التطوّرَ حقيقةٌ واضحةٌ وضوح حقيقةِ قانون الجاذبيّةِ، وأنّ الذين يُنْكِرُونَهُ لم يدرسوا هذه الأدلّة؛ بل لم يفتحوا كتابًا واحدًا في البيولوجيا. وهي لُغَةٌ ـ كما ترى ـ حاسمةٌ لا تَذَرُ لِلمُخالِفِ مَجَالًا إلّا أن يُقِرَّ بالجَهْلِ لِيَسْلَمَ من اللَّوْمِ.

ومقابل ما سبق، يُخبرنا الواقِعُ أنّ من أكابرِ العلماء الـمُتّفَقِ على تَقَدُّمِهم العلميِّ من عاش معارضًا للتطوّرِ، مثل (أرنست شاين)[1] القائل: «يبدو لي أنّ افتراضَ أنّ تطوّر الأصلحِ وبقاءَهُ هو بصورةٍ كليّةٍ أَثَرٌ عن طَفْراتٍ صُدْفَويّةٍ، أو حتّى إنّ الطّبيعةَ تقوم باختباراتٍ عن طريق التّجربة والخطأ من خلال الطّفراتِ بهدف خَلْقِ أنظمةٍ حيّةٍ أَصْلَحَ للبقاء ـ كما هو زَعْمُ وَضْعِيِّيْ آخِرِ القرن ١٩ وأَتْباعهم ـ افتراضٌ غيرُ قائم على حُجّةٍ، وليس بالإمكان التّوفيقُ بينَه وبين الحقائقِ»[2]. كما أَنْكَرَ التَّطَوُّرَ (ريموند دمدين)[3] مخترِعُ (التّصويرِ بالرّنينِ المغناطيسيّ) (MRI)، والذي رُشِّحَ لجائزةِ نوبل، ولكن لم يُمنح الجائزةَ بسبب تَدَيُّنِهِ ورَفْضِهِ للتطوُّرِ[4]. وقد كان رفض التطوّر أيضًا السبب ـ أو أحد

(١) عامّةُ تصريحاتِ (شاين) تَدُلُّ على رَفْضِهِ التطوّرَ العشوائيَّ؛ بما فهم منه كثيرون أنّه يرفُضُ معه التَّطَوُّرَ البيولوجيَّ نفسَهُ.

(٢) Chain, ‘Social Responsibility and the Scientist in Modern Western Society,’ *Perspectives in Biology and Medicine*, Spring 1971, Vol. 14, No. 3, pp. 367.

(٣) ريموند دمدين Raymond Damadian (١٩٣٦ـ): طبيبٌ أمريكيٌّ من أَصْلٍ أَرْمنيٍّ.

(٤) رَجَّحَ الفيلسوفُ الملحدُ (مايكل روس) ذلك سببًا لرفضِ مَنْحِهِ الجائزة:
(M. Ruse, ‘The Nobel Prize in Medicine-Was there a religious factor in this year’s (non) selection?’ *Metanexus Online Journal*, March 16, 2004).

أسباب ـ عدم منح (فريد هويل) جائزة نوبل، بعد أن رُشّح لها؛ إذ أصدر أثناء ذلك دراسته التي أثبتت أنّ إمكان التطوّر في ظلّ حساب الرياضيات الاحتمالي لا يغادر مقام الصفر. وهو المشهد الإقصائي الذي شهد بحقيقته الكيميائي (أ.إ. ولدر ـ سميث)[1][2].

كما كفرَ بالتطوّرِ أبناءٌ له وأنصارٌ ممّن لا يجرؤ عاقِلٌ أن يُنْكِرَ قِيْمَتَهُم العِلميّةَ، ومنهم عالم الكيمياء الحاصل على جائزة **نوبل** (ريتشارد سمالي)[3] بعد قراءَتِهِ منذ بضع سنواتٍ كتابَ «أُصول الحياة»[4] لبيولوجيٍّ وفيزيائيٍّ من أنصار الخَلْقِ الخاصّ.

بل إنّ كثيرًا من المتصدّرين للدّفاع عن مذهب الخلقِ الخاصِّ اليوم، هُمْ من علماءِ البيولوجيا أو الكيمياء أو الكيمياء الحيويّة الذين كانوا من مُتَعَصِّبةِ المذهبِ التطوّريِّ سابقًا، وقد فارقُوا مذهبَ التطوُّرِ (سواء العشوائيّ أو غير العشوائيِّ) أثناء دراستهم أو تدريسهم هذه التخصُّصاتِ العلميّة في الجامعة. وسأكتفي هنا بذكر خبرِ ثلاثةٍ منهم.

أَوَّلُهم: الدكتور (ريتشارد لمسدن) (Richard Lumsden)[5]، أُستاذُ الطُّفيليّات وبيولوجيا الخليّة في جامعة (Tulane). وقد نشر عَشَرات الأوراقِ العلميّة في المجلّات المحكَّمةِ، وأَشْرفَ على عشرات طلبة الدُّكتوراه. وقد عاش ملحِدًا، مُتَعَصّبًا للداروينيّة، يختصر كلَّ تفسيرٍ للكونِ في الأسباب الماديّة. ولـمَّا طُرِح مشروعُ قانونٍ في ولاية لويزيانا لإتاحة وقتٍ للمذهبِ الخَلْقيِّ في المدارس يُساوي الوقت الذي يُعْطى للمذهبِ التّطوّريِّ، أَنْكَرَ

(١) أ.إ. ولدر ـ سميث A. E. Wilder-Smith (١٩١٥ ـ ١٩٩٥م): كيميائي بريطاني حاصل على ثلاث شهادات دكتوراه في العلوم. من أعلام المذهب الخلقي في أوروبا.

(٢) A.E. Wilder Smith, *The Scientific Alternative to Neo-Darwinian Evolutionary Theory: Information sources & structures* (Costa Mesa, CA: TWFT Pub., 1987), p. iii.

(٣) ريتشارد سمالي Richard Smalley (١٩٤٣ ـ ٢٠٠٥م): أستاذُ الكيمياء والفيزياء والفَلَكِ في جامعة «رايس». نال جائزةَ نوبل لاكتشافِهِ شكلًا جديدًا للكربون.

(٤) Fazale Rana and Hugh Ross, *Origins of life* (Covina, CA: RTB Press, 2013).

(٥) هذا فيديو يخبر فيه عن قصّته:
<https://www.youtube.com/watch?v=pS5j3XccmUM>.

ذلك وشَنَّعَ عليه، واستَغَلَّ مَنْصِبهُ في الجامعة لمحاربة هذا القانونِ.

بداية التحوّل كانت لـمَّا جاءته طالبةٌ مرّةً تطلُبُ مناقشَتَهُ في ما يُدَرِّسُهُ، فاستمعَ لها وهي تسألُ بِأَدَبٍ عن مُشكلةِ نشأةِ الحياةِ، وإمكانِ تَكَوُّنِ الحَمْضِ النَّوويِّ الصِّبْغِيِّ عشوائيًّا، ولماذا توجد فراغاتٌ واسعةٌ في الأحافير بين الأصناف الحيوانيّة الكبرى.. كان (ريتشارد لمسدن) يستمع بعناية، ويُظْهِرُ ثقةً في فساد قولِ الطالبة، لكنّه اهتَزَّ من الدَّاخِلِ؛ إذ اكتشَفَ إيمانويَّتَهُ العَمْياءَ بدعاوى التطوُّرِ والدّاروينيّة..

بدأ (لمسدن) بعد ذلك اللقاءِ في مراجعة مقولاتِ التطوّر والداروينيّة من منطلقٍ علميٍّ بَحْتٍ؛ فاكتشَفَ مع الوقتِ أنّها ضعيفةٌ، ومَعِيبةٌ؛ بما أَلْزَمَهُ أن يتحوَّلَ إلى القولِ بالخلق الخاصِّ. وقد أَثَارَ تَحَوُّلُهُ الجامعةَ التي دَرَّسَ فيها؛ مما جعلها تتخَلَّى عنه؛ فالتجأ إلى العمل في المؤسّسة العلميّة الـمُعْتَنِيةِ بالردِّ على التطوّريِّين «Institute for Creation Research»، ثم الْتَحَقَ بتدريسِ تخصُّصِه في جامعةٍ أُخرى أَفَادَتْ من تَبَحُّرِهِ العِلميّ.

للأسف، لم تَطُل حياةُ «لمسدن» وتُوفّي بعد فترةٍ ليست بالبعيدةِ عن مفارقتِه المذهبَ التطوّريَّ بسبب حياتِه القديمةِ التي أَدْمَنَ فيها الكُحُولَ، وقد ترك عَدَدًا من المحاضراتِ والورقات العلميّة في نقضِ المذهب التطوّريِّ، ومنها ردٌّ على زعم (داوكنز) أنَّ خَلْقَ اللهِ مَعِيبٌ، نعى عليه فيها جَهْلَهُ الواضح بالبيولوجيا الخلويّة[1].

ثاني المهاجرين من المذهب التطوّري إلى مذهب الخَلْقِ الخاصِّ: البروفسور (František Vyskočil)، المختصّ بالطّبائعِ الكيميائيّةِ والكهربيّةِ للتّشابُكِ العصبيّ، والخلايا العصبيّة، ومضخَّات الغِشاء، وأبوابٍ أخرى في البيولوجيا. نَشَرَ ٤٥٠ ورقةً علميّة، كثيرٌ منها في أهمِّ المجلّات العلميّةِ العالميّة. أَهَّلَتْهُ أبحاثُه ليكون عُضوًا في أهمّ مؤسّسة علميّةٍ في جمهوريّة

(١) Richard D. Lumsden, Not So Blind A Watchmaker.
<http://citeseerx.ist.psu.edu/viewdoc/download?doi=10.1.1.456.4779&rep=rep1&type=pdf>.

التشيك «Learned Society of the Czech Republic»، وهي التي تجمع أكابر العلماء في تخصّصاتهم.

بَدَأَتْ شُكُوكُ (Vyskočil) في صحّة المذهبِ التطوّريِّ عندما بدأ في أبحاثِ ما بعد الدُّكتوراه في دراسةِ تعقيدِ التَّشابكات العصبيّة؛ بما جعله يسأل نفسه: «كيف للتَّشابُكاتِ العصبيّةِ والبرامجِ الجينيّةِ التي تَحْكُمُها أن تكون أثَرًا لِلصُّدْفةِ العمياء».

وفي سنة ١٩٧٠م حضرَ محاضرةً لعالِم رُوسِيٍّ مشهورٍ ذَكَرَ فيها أنّ الكائناتِ الحيّةَ لا يمكن أن تكون أَثَرًا عن طَفْراتٍ عشوائيّةٍ وانتخابٍ طبيعيٍّ. وبعد المحاضرة سأل (Vyskočil) المحاضِرَ في أمرِ التطوُّرِ، فأجابَهُ المحاضِرُ: إنّ البكتيريا البسيطةَ من الممكن أن تَنْقَسِمَ كُلَّ ٢٠ دقيقة، ولها مئاتُ البروتينات المختلفة، وكلٌّ منها يضمُّ ٢٠ نوعًا من الحَمْضِ الأمينيِّ مُرَتَّبًا في سلاسلَ طويلةٍ. وتتطوَّر البكتيريا بطَفْرةٍ تحدثُ في نكليوتيدٍ، واحدًا بعد واحدٍ، وذاك لا يستغرق ٣ × ١٠^٩ (العُمْر الافتراضيّ للأرض)، وإنّما يأخذ ١٠^٥٠ سنة. وهو عُمْرٌ أَطْولُ ـ بما لا يوصف ـ من عُمْرِ الأَرضِ.

كلامُ العالِمُ الرّوسيِّ مع شُكُوكِ (Vyskočil) قادَتْهُ إلى تركِ المذهب التطوّريِّ كليّةً(١).

ثالثُ المتحوّلِينَ من المذهبِ التطوّريِّ عالِمُ الهندسةِ الحيويّةِ(٢) الفنلنديُّ (متّي ليزولا) (Matti Leisola). وكان منذ مدّةٍ عميدًا لكليّة العلوم الكيميائيّة في «Aalto University». وهو عالِمٌ نَشِطٌ في ميدان البحث العِلميّ، وله مقالاتٌ كثيرةٌ منشورةٌ في المجلّات العلميّةِ، وله عنايةٌ خاصّةٌ بدراسة الإنزيمات. وقد نَشَرَ قِصّتَهُ في كتابٍ صدر هذه السّنة بعنوان «مُهَرْطِقٌ، رِحْلَةُ عالِمٍ من داروين إلى التّصميم»(٣).

---

(١) <https://answersingenesis.org/world-religions/atheism/from-atheist-to-bible-believing-scientist/>.

وهذا حوار مكتوب معه:

<https://wol.jw.org/en/wol/l/r1/lp-e?q=g+11%2F10+pp.+8-9>.

(٢) Biological engineering.

(٣) *Heretic: One Scientist's Journey from Darwin to Design.*

نَشَأَ (ليزولا) مُلحِدًا، كارهًا للنّصرانية، مُقْتَنِعًا أنّ الداروينيّةَ خيرُ سلاحٍ لإبطالِ عقيدةِ وجودِ إلٰهٍ. بَدَأَ تَحَوُّلَهُ إِثْرَ تَحَوُّلِ صديقَتِهِ إلى الإيمان بالله، وهو ما دعاهُ إلى أن يَنْظُرَ في أَمْرِ الإيمان من جديدٍ؛ فاكتشَفَ أنّ التفسير الماديَّ لظهور الحياةِ غير مُقْنِعٍ، ولا يمكن للحركةِ العشوائيّةِ الأُوْلى أن تُنْتِجَ ترتيباتٍ إنزيميّة فاعلة. كما أنّ ظاهِرَتَيْ التّشفيرِ والتّداخل الشّديدين بين الأنظمةِ الحيويّةِ وتكاملها على مستوى الخليّة والأنسجة والإنسان بمجموعه بعيدتان عن التّفسيرات الماديّةِ العمياء.

اختصر (ليزولا) واقع المذهَبَيْنِ التطوّريّ والدارويني في أنّهما مجرّدُ قَصَصٍ بلا آليّةٍ. وقد نَبَّهَ في محاضراتِه ـ التي ألقاها في تخصُّصه ـ على قصورِ آليّةِ الطّفراتِ عن إحداثِ تغييرٍ في الكائنات بنقلها من جنسٍ إلى آخَرَ، دون أن يعارِضَهُ أَحَدٌ؛ فإنّ التغييرات التي تُحدِثُها الطّفراتُ ضئيلةٌ جدًّا، ولذلك فهي قاصِرَةٌ عن نُصْرَةِ قِصّة الانتقال من البكتيريا الأُوْلى إلى الإنسان الحاليّ.

كتاب (ليزولا) مشحونٌ بقصصِ مَكْرِ الدَّراونةِ بِكُلِّ مُخالِفٍ في الجامعة وخارجَها، ومَنْعِهِمْ له ولغيرِهِ من الحديث عاليًا. كما تَحَدَّثَ فيه عن الأَثَرِ الإيجابيِّ لمناقشاته مع كثيرٍ ممّن حادثوه ينصحُونه بترك مذهَبِهِ؛ فقد أَدْرَكُوا بما قَدَّمَهُ لهم من دلائلَ أنّ الروايةَ التي تَعْرِضُها الداروينيّة مَبْتُورةٌ، وأنّ صحيحَ العِلمِ لا يَنْصُرُها.

المبحث السابع

نقودٌ ورُدودٌ

الاعتراضاتُ في هذا الباب مكرّرةٌ، وعامّةُ أَجْوِبَتِها مُضَمَّنةٌ في ثنايا الحديث السَّالِفِ، ببيانِ شهادة التّاريخ ضدَّ التطوُّرِ، وعجزِ الآلة العشوائيّةِ أن تُنْتِجَ شيئًا، فَضْلًا عن أن يكون هذا الشّيءُ هو الإنسانُ. ولذلك سأكتفي هنا بذكر نقودٍ جديدةٍ أُخرى.

المطلب الأول

التطوُّر محلّ إجماعٍ علميٍّ، وإنكارُه مكابرةٌ

الاعتراض: الإجماعُ على صحّة المذهب التطوّريِّ، حقيقةٌ لا تَقْبَلُ الجَدَلَ؛ وردُّ الإجماعِ العلميِّ باطلٌ ضرورةً.

الجواب:

الحديثُ عن الإجماع على التطوّرِ فيه إجمال مُخِلٌّ يؤولُ إلى إعطاء صورةٍ غير واقعيّةٍ عن الأمرِ. وتفصيلُ الكلام في النّقاط التالية:

أَوَّلًا: الإجماعُ العلميُّ ليس في ذاته حُجّة، وإنّما له سُلطانٌ أدبيٌّ قويٌّ لدلالته على وضوحِ المسألة في الوسط العلميِّ في زمن ما بما يجعل الخروجَ عن هذا الاتفاقِ مصدرَ حَرَجٍ لفاعِلِه. الحجّةُ في جميعِ الدّراساتِ العلميّة وجودُ برهانٍ حاسِمٍ قابلٍ للاختبارِ والفَحْصِ والمراجعة لا آراء العلماء وإن كانت اتّفاقًا منهم على مذهبٍ ما؛ وهو ما أكّدته رئيسة «School of Earth and Atmospheric Sciences» في مؤسسة جورجيا للتكنولوجيا بقولها في بحث لها عن الإجماع العلمي وقيمته: «عند وجود نظريات علمية راسخة بحق، لا تتم

مناقشة «الإجماع»، ويغدو مفهوم الإجماع من الأمور غير المهمة في هذا السياق... من الممكن أن يظهر الإجماع حول فرضية أو نظرية علميّة، لكنّ وجود الإجماع ليس هو في نفسه الحجّة»[1].

ثانيًا: الإجماعُ العلميُّ ليس واحِدًا، وإنّما هو أَجْناسٌ؛ أَقْواها ما كان مُستنِدًا إلى أَدِلَّةٍ ماديّةٍ كثيرةٍ ومباشرةٍ، مع اتّفاقِ المجتمعِ العِلميّ عليه قرونًا دون منازعةٍ. وأدنى منه ما خَفَّتْ براهينُه، وأدنى الجميع ما كان سببُه ضَعْفَ الأدواتِ العلميّةِ أو عُسْرَ التّعامُلِ مع مادّةِ الموضوعِ، وحُجَّته القرائن لا الدّلائل المباشرة، والصّفات الثّلاث السّابقة طابع قول جمهور البيولوجيّين في التطوّر البيولوجيّ؛ إذ إنّ معرفةَ العلماءِ بعالم الأحياءِ لا تزال تقف أمامَ ظلماتٍ كثيفةٍ، خاصّةً على مستوى الخليّة، كما أنّ الحديث عن التطوّر متعلّقٌ بتاريخ الأحياء الذي لا نَعْلَمُ عنه إلّا أَقَلَّ القليلِ من خلال الأحافير المشتَّتَةِ في الأرضِ، ثم إنّ القولَ بما يُعْرَفُ بالتطوّر الكُبْرويّ أَساسُه القرائنُ الجينيّةُ والتشريحيّةُ لا الرَّصْدُ المباشِرُ لهذا التطوّر. وما كان حالُه كذلك كان سلطانُه الأدبيُّ أدنى مما يزعُمُه التطوّريُّون.

ثالثًا: القولُ بالتطوّرِ عليه اتّفاقُ جمهورِ ـ لا كُلِّ ـ البيولوجيّين (إن قلنا: إنّ الإجماع هو إطباق أهل العلم). ثم إنّ موضوعَ التطوّر يَمَسُّ معارفَ كثيرةً، ومع ذلك لا نجد له هذه الكثرةَ من الأنصار خارجَ كثيرٍ من المعارفِ غيرِ البيولوجيّة؛ حتى إنّ الإحصائياتِ قد دلَّتْ على أنّ ١٨٪ من الأطبّاء في أمريكا يؤمنون أنّ الله قد خلَقَ (آدم) عليه السلام مرّةً واحدةً، و٦٠٪ قالوا بالنّظم الحَكِيم[2].. فما الذي يجعل قولَ البيولوجيّين حجّةً بما يُسَفِّهُ قولَ غيرهم؛ إذ لو كانَ الإجماعُ المزعومُ عن برهانٍ يقينيٍّ لاهتدى إليه كلُّ من يَتَعاطى مع الجانبِ البيولوجيِّ في الإنسانِ بطريقٍ علميٍّ ماديٍّ؟!

رابعًا: اتّفاقُ عامّةِ البيولوجيّين على القولِ بالتطوّر سَبَبُهُ أنّ أقسامَ

---

(١) Judith Curry, Climate change: no consensus on consensus.
<https://judithcurry.com/2012/10/28/climate-change-no-consensus-on-consensus/>.

(٢) Jonathan Witt, Poll: 60 Percent of Doctors Reject Darwinism.
<https://evolutionnews.org/2005/05/poll_60_percent_of_doctors_reject_darwin/>

البيولوجيا واقعةٌ تحت سيطرة الدَّراونةِ؛ فالتطوُّرُ عقيدةٌ «علميّةٌ» في الجامعات الغربيّةِ. وهي عقيدةٌ تحْكَمُ بالهَرْطَقةِ والحِرْمانِ على المخالِفين. وقد تَمَّ طَرْدُ غير واحدٍ من العلماء من هيئةِ التّدريسِ لِرَفْضِهِ عقيدةَ العشوائيةِ أو التطوُّرِ. وكسر هذا «الاتفاق» عسير لتحكّم هذه الأقسام في منح الشهادات، والتوظف، والترقية، وإقامة المؤتمرات، ودعم الأبحاث ماديًّا، ونشر نتائجها في المجلّات المحكّمة. ومن المعلوم أنّ المجلّات المحكّمة التي تعتبر بوابة البحث العلمي في الغرب ترفض بصورة مبدئيّة نشر دراسات القائلين بالخلق الخاص.

خامسًا: التطوُّرُ هو اللّاعِبُ الوحيدُ في السّاحة العلميّة ـ على حدِّ تعبير الفيلسوفِ (ألفن بلانتنجا) ـ، فلا يوجد خيار آخرَ في السّاحة العلميّة من الناحية المبدئيّة؛ ذلك أنّ البحثَ العلميَّ في جميع جامعات الغربِ ومراكزِ البحث يقوم على مبدأ «الطبيعانية المنهجيّة»؛ فكلُّ تفسيرٍ لظاهرةٍ طبيعيّةٍ يجب أن يُردَّ إلى سببٍ ماديٍّ طبيعيٍّ، وهو ما يُلغِي التفسير الخَلْقيَّ ضرورةً، ويجعله من العلوم الزّائفة ابتداءً في النّظرة العلميّة الحديثةِ في الغربِ؛ إذ إنّه يقترن ضرورةً بالإيمان بخارقةِ الخَلْقِ. ويلزم من ذلك أنّ التّطورَ ليس خيارًا مطروحًا للاختبارِ وإنّما هو حقيقةٌ أوّليّةٌ يبدأ منها البيولوجيُّ والأنثروبولوجيُّ وعالِمُ الأحافيرِ بحثَهُ في الجامعات إذا أراد أَلَّا يُطْرَدَ.

ومن ظنّ أنّ البحث العلمي في الغرب بريء من ضغط الأيديولوجيا وأصحاب المصالح؛ فقد فاته إدراك الصورة الحقيقيّة لواقع المجتمع العلمي؛ وهو الواقع الذي كشف ستره التطوّري المتطرّف (جاي جولد) بقوله: «سبُلنا [نحن العلماء] لتعلّم حقيقة العالم متأثّرة بصورة بالغة بالتصوّرات الاجتماعية المسبقة وطرق التفكير المتحيزة التي يجب على كل عالم تطبيقها على أيّ من المشاكل. إنّ الصورة النمطية «للمنهج العلمي» العقلاني والموضوعي بصورة كليّة، حيث يُصوّر العلماء على أنّهم مناطقة وروبوتات تتبادل المعارف؛ أسطورة مسخّرة لخدمة نفسها»[1].

(١) Gould, In the Mind of the Beholder, *Natural History*. Feb 94, Vol. 103 Issue 2,: 15.

سادسًا: كلُّ مَنْ خَبِرَ السّاحة الثقافيّةَ الغربيّةَ عن كَثَبٍ، وعاش مَعَامِعَ الصّراعات الفكريّةِ فيها وتاريخَ الأفكار، يعلمُ بيقينٍ أنّ الفِكْرَ في الغربِ تُحَرِّكُهُ قِلَّةٌ قليلةٌ جِدًّا من الأكاديميّين، ويبقى للبقيَّةِ من المختصّين دورُ الاستهلاكِ؛ ولذلك تنتقض كثير من الإجماعات بدراسة باحث واحد يعيد تغيير مسار حركة البحث العلمي إلى وجهة جديدة؛ فقد نقض (لافوازييه)[1] الإجماع على وجود «الفلوجستون»، ونقض (باستور)[2] الإجماع على التولّد العفوي للكائنات الحيّة، ونقض (ألفرد فجنر)[3] دعوى أنّ القارات ثابتة لا تتحرّك. والإجماعات المنتقضة في باب توصيف الأمراض، وأسبابها، وعلاجها لا تكاد تحصر في القرنين الماضي والحالي.

سابعًا: كلُّ برهانٍ يستدِلُّ به التطوريُّون له مخالِفٌ من جِنْسِهِ؛ فالاستدلالُ بالأحافير الانتقاليّةِ يُعارِضُه الاستدلالُ بفَجَوات الأَحافيرِ، والاستدلالُ «بالبِنى المتماثلة» «Homologous structures» يُعارِضُه «التّطوُّرُ الـمُتَقَارِبُ» «convergent evolution»[4]. وقد كان أَعْظَمُ براهينِ التّطوُّرِ في العقود الأخيرة «الحَمْضُ النَّوويُّ الصِّبْغِيُّ الخُرْدَةُ» «Junk DNA»، واليوم يكشِفُ البحثُ العلميُّ «كنوزًا» في الـخُرْدَةِ المزعومِ، وهي العبارة التي ظهرَتْ في عنوانِ مقالٍ نَشَرَتْهُ «Scientific American» ـ التطوّريّةُ ـ: «كُنوزٌ مَخْفِيَّةٌ في الحَمْضِ النَّوويِّ الصِّبْغِيِّ الـخُرْدَة» «Hidden Treasures in Junk DNA»[5]. وقد أَدَّى القولُ: إنّ هذا الحَمْضَ النَّوويَّ الصِّبْغِيَّ خُرْدَةٌ إلى تعطيل كثيرٍ من الكُشوفِ العلميّة المهمَّةِ في معرفة الأَمْراضِ وعلاجِها.

---

(١) أنطوان لورون لافوازييه Antoine Laurent Lavoisier (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤م): كيميائي فرنسي شهير. كانت له مساهمات في علم البيولوجيا.

(٢) لويس باستور Louis Pasteur (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥م): بيولوجي وكيميائي فرنسي شهير. صاحب اكتشافات علمية مميزة.

(٣) ألفرد فجنر Alfred Wegener (١٨٨٠ ـ ١٩٣٠م): عالم جيوفيزياء ألماني، كانت له أيضًا عناية بعلم الأرصاد الجوية.

(٤) سنتناولها بالحديث في الفصل القادم.

(٥) *Scientific American*, October 1, 2012.
<https://www.scientificamerican.com/article/hidden-treasures-in-junk-dna/>.

ثامنًا: تاريخ العلوم هو تاريخُ نقضِ الإجماعات، وتاريخُ الأفكارِ في الغربِ انكساريٌّ؛ أي: إنّ النّاسَ يَتَّفِقُون على فِكرةٍ ما، ويَتَعَصَّبُون لها، ثم تهوي هذه الفكرةُ مرّة واحدةً إلى القاعِ ويُهْمِلُها النَّاسُ، وينتقلون إلى فكرة أخرى. وهو ما يدلُّ على أنّ مفهومَ «الإجماع» في الحِسِّ الثقافيّ الغربيّ أَضْعَفُ منه في الحِسِّ الثقافيّ في التُّراثِ الإسلاميِّ.

تاسعًا: الانتقالُ بين الأفكارِ في الغربِ يأخذُ أحيانًا صُورًا متطرّفةً، حتى قال الفيلسوف الملحد التطوّريُّ (توماس ناجل) في ختام كتابه «Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo-Darwinian Conception of Nature is Almost Certainly False» ـ الخاص بإخفاقات الداروينية ـ: إنّ الداروينيّةَ التي يؤمن جمهورُ البيولوجيّين بصحّتها اليوم، ستصبِحُ مصدرَ **سُخْريةٍ** بعد جيلٍ أو جيلَيْنِ لِعُقْمِهَا التفسيريّ[1]؛ إذ إنّ انتصارَ الداروينيّة ـ كما يقول (ناجل) ـ انتصارٌ **للنظريّة الأيديولوجيّة على البداهة**[2]!

خلاصة الكلام: عبارةُ «إجماعٍ علميٍّ» على صحّة التّطوّرِ فيها إجمالٌ مُخِلٌّ. والإجماعُ الحجّةُ لا يكون إلّا عن أمرٍ يقينيٍّ بدلائلَ حاسمةٍ، وليس التطوّرُ في ذاك من شيء مع وجودِ معارضاتٍ قويّةٍ له من داخل الكُشوفِ العلميّةِ.

«ليست الداروينيّةُ مجرّدَ داعمٍ للفلسفةِ الطبيعانيّةِ، وإنّما هي نتيجةُ الفلسفةِ الطبيعانيّةِ»[3]. (فيليب جونسون)[4].

---

(١) Thomas Nagel, *Mind and Cosmos*, p.128.

(٢) المصدر السابق.

(٣) Phillip E. Johnson, Comparing Hostage-Takers. <http://www.arn.org/docs/johnson/pjcht.htm>.

(٤) فيليب جونسون Phillip Johnson (١٩٤٠ـ): أستاذ القانون في جامعة بركلي. له كتاباتٌ رائجةٌ في انتقادِ الداروينيّة وأُسُسِها الماديّةِ.

المطلب الثاني

فماذا عن الأحافير الوسيطة التي تملأ المتاحف؟

اعتراض: كيف يَشُكُّ عاقلٌ في صحّةِ المذهب التطوّريِّ والمتاحفُ تَغَصُّ بالأحافيرِ التي تُظْهِرُ بوضوحٍ تاريخ انتقالِ الكائناتِ الحيّةِ من الأدنى إلى الأعلى؟ هاتُوا لنا أَرْنَبًا من العصر ما قبل الكمبري، وسنترك مَذْهَبَنا؟!

الجواب:

أولًا: شهادات المنكرين لانتصارِ الأحافير للنّظرية التطوريّةِ التدرّجيّةِ قَدَّمَها أكابِرُ التّطوّريّين، وليست هي من تكلُّفاتِ القائلين بالخلقِ الخاصّ. وقد اعترفَ (داروين) نفسُه أنّ الشّاهد الأُحفوريّ يقف ضدّ نظريّتِهِ.

ثانيًا: الاستدلالُ بالشّاهد الأُحفوريّ للمذهب التطوريِّ يقتضي إثباتَ وجودِ وَفْرةٍ هائلةٍ من الحلقات الانتقاليةِ بين الكائنات ضمن محفوظاتنا من الأحافيرِ، وهي ملايين الحلقات الانتقالية التي يجب أن تَحْفَظَهَا لنا طبقاتُ الأرضِ، لا بعضُ الأحافيرِ التي تحتفي بها المتاحِفُ.

ثالثًا: جميعُ النماذج التي يعرِضُها التطوريُّون «حلقات وسيطة» وليست «حلقات انتقالية»؛ فهي بذلك تنصر مذهب (أرسطو) في ترتيب الكائنات من أدنى إلى أعلى ولا تَنْصُرُ انتظامها التطوّريَّ؛ فقد ذهب (أرسطو) ـ وتابَعَهُ كثيرٌ من اللّاحقين، ومنهم كثير من علماء الإسلام ـ، إلى أنّه من الممكن ترتيبُ الموجودات من الأدنى الوضيع إلى الأعلى، دون القولِ بأنها تَنْتَسِلُ من سَلَفٍ لها من جِنْسٍ آخَرَ، وهو ما يُعرف بـ«great chain of being».

وقد كتب (مارك ردلي)[1] المتخصِّصُ في علم الحيوانِ، وصاحبُ الكتابِ المدرسيِّ المعروف «التطوّر»، والذي أشرفَ على أطروحته للدكتوراه (داوكنز): «الحقيقةُ البسيطةُ المتمثّلةُ في أنّ الأنواع يمكن تصنيفُها هرميًّا إلى أجناسٍ وفصائلَ، وما إلى ذلك، ليست حُجّةً للتطوّرِ. من الممكن ترتيبُ أيّ

(١) مارك ردلي Mark Ridley (١٩٥٦ـ): باحثٌ في قسم علم الحيوانِ في جامعة «أوكسفورد».

مجموعةٍ من الأفراد في تسلسلٍ هرميٍّ، سواء كان تباينها تطوريًّا أم لا»[١].

رابعًا: الحديث عن تحدّي الأَرْنَبِ في العصر ما قبل الكمبري قَدَّمَهُ البيولوجيُّ (جون هولدين)، ويُراد منه بيانُ أنّ هناك تسلسلًا تصاعُديًّا واضحًا ومُحْكَمًا من البسيط إلى الأَقَلِّ بساطةً حتّى الأكثر تعقيدًا في تاريخ ظهورِ الأحياء. وليس هذا التحدّي بشيءٍ؛ لأنّه لا يلزم من وجودِ الكائنات على صورةٍ ترتيبيّةٍ أن تكون مُنْتَسَلَةً بعضها من بعض، كما أنّ واقِعَ تاريخ الأحياء يشهدُ بحالاتٍ تُخالِفُ التدرُّجَ التّعقيديّ المزعوم، ؛ فإنّ العَيْنَ ـ مثلًا ـ بدأت مُعقّدةً، وظهرَتْ بعدها كثيرٌ من الأَعْيُنِ البسيطةِ؛ بل إنّ الحياة كُلَّها قد بدأت مُعقّدة، وبقيت كذلك على الصُّورة نفسِها، وأَقْصِدُ بذلك تعقيد الخليّة الأُوْلى التي سَنَتَحَدَّثُ عن عَجَائِبِها في الفصل التالي. كما يَتَحَدَّثُ علماءُ الأحافير عن ما يُعرف بـ«المفارقات الزمنيّة» «Temporal paradox» الخاصّة أساسًا بظهور الطُّيورِ قبل سَلَفِها المزعومِ.

خلاصةُ النَّظَرِ

• النَّظْمُ الحَكِيمُ هو الأَصْلُ في الكونِ؛ لأنه ظاهر صور الأحياء؛ ومن أرادَ أن يُنْكِرَهُ ويَرُدَّ تركيب الكائنات الحيّة ووظيفيّةَ أفرادها إلى العشوائيّةِ؛ فعليهِ الدَّليلُ.

• الاعتراضُ الوحيدُ الجادُّ على برهانِ النَّظْمِ في عالَمِ الأحياءِ هو المذهَبُ التطوّريُّ العشوائيُّ في صياغتِهِ الداروينيّة (الأَحْدث).

• لا يوجد من النّاحية الشّرعيّةِ ـ لا العِلميّةِ ـ ما يمنَعُ من القولِ: إنّ الطُّيورَ والحشراتِ والنّباتَ ـ مثلًا ـ قد تَطَوَّرَتْ عن سَلَفٍ مشترَكٍ.. على خِلافِ التّوراةِ التي تَنُصُّ في الفصلَيْنِ الأَوَّلَيْنِ من سِفْرِ التّكوينِ أنّ كُلَّ جِنْسٍ من الكائنات الحيّةِ قد خُلِقَ مرّةً واحدةً بصورةٍ مباشرةٍ. والإشكالُ الشّرعيُّ إسلاميًّا قائمٌ فقط في تطوّرِ (آدم) عليه السلام عن سَلَفٍ.

• النُّصوصُ الشّرعيّةُ قاطعةٌ أنّ خَلْقَ جميعِ الكائناتِ الحيّةِ أَثَرٌ عن حِكْمةٍ

(١) Mark Ridley, 'Who doubts evolution?,' *New Scientist,* 90, 1981, 832.

وتوجيهٍ؛ والإجماع مُنْعَقِدٌ على أنّ القولَ بالتطوّرِ العشوائيّ (الداروينيّة وغيرها من نظريات التطوّر العشوائيّ) تكذيبٌ لِنُصوصِ الوَحْيِ.

• الخلاف بين الملاحدة والـمُؤَلِّـهَة ليس خلافًا ـ عندَ السِّجالِ وتَصَادُمِ المحاجَجَاتِ ـ بين طَرْحٍ ماديٍّ (=التطوّر) قابلٍ للاختبارِ، وبديلٍ إيمانيٍّ غَيْبِيٍّ غير قابلٍ للامتحانِ، وإنّما هو خلافٌ بين تفسيرٍ عشوائيٍّ لِظَاهِرِ الحِكْمةِ في تركيبِ الكائناتِ الحيّة وعَمَلِها، وآخر يرى أنّ أفضلَ تفسيرٍ لظواهرِ العالَمِ الحَيِّ وُجودُ حِكْمةٍ لِذاتٍ مُرِيْدةٍ ضَبَطَت الأبعادَ الرياضيّةَ والفيزيائيّةَ والكيميائيّةَ... في الأرضِ لِتحقيقِ نوعِ الحياةِ المشهودةِ.

• التطوُّرُ ـ بمعنى: السَّلَف المشترَكُ لكلّ الكائناتِ ـ لا يعارِضُ وجودَ الله باعتراف كبارِ التطوّريّين، وعلى رأْسِهِمْ (داروين). كما أنّه لا يُعارِضُ برهانَ النّظم لأنّ النّظمَ يعارِضُ العشوائيّةَ ولا يعارض مَحْضَ التّطور.

• التطوُّرُ ـ دون حاجةٍ إلى النَّظَرِ في آليّتِهِ ـ لا يمكنه أن يفسّر:

١ ـ عدمَ الانتظامِ الهرميِّ للأحياء جينيًّا (الشَّجرات الجينيّة المتنافِرة).

٢ ـ عدمَ الانتظامِ الهرميِّ للأحياء مورفولوجيًّا (شجرة الحياة كما تبدو في الأحافير).

٣ ـ ظهورَ جيناتٍ وظيفيّةٍ صدفويًّا ضمن المجال الزَّمنيّ الضيّق لظهور الحياة وتنوُّعها.

• سببُ فسادِ القول بالمذهب التطوّريّ من الناحية العلميّة فَشَلُ أَهَمِّ نُبوءاتِه؛ إذ يلزم من القول بالتطوّر من الخليّة الأولى البدائيّةِ إلى منظومة الأحياء الحاليّة أن تشهدَ الأحافير لهذا التدرّج البطيء بوضوح وكثافة في طبقات الأرض، كما أنه يلزم من القولِ بالتطوّر وجود «شجرة حياة» واحدة؛ والشّاهِدُ العلميُّ يُكذِّبُ النُّبُوءَتَيْنِ السابقتَيْنِ. ولا يمكن أن تصِحَّ نظريّة التطوّر إذا فَشِلَ أَهَمُّ ما يَشْهَدُ لها في تاريخ الأرضِ.

• الداروينيّةُ هي القول بالتطوّر العشوائيِّ على أساس الانتخاب الطبيعيِّ من الطّفراتِ العشوائيّةِ المتراكمةِ. وهي دعوى فارغة لا تكاد تهتمُّ بتقديم

تفسيراتٍ تفصيليّة لمظاهر التنوّع والإبداع في عالم الأحياء؛ وهي لذلك لا تَرْقَى أنْ تُسمّى «نظريّةً»؛ لغياب الجانب التفسيريّ فيها على الحقيقة، فضلًا عن أنْ تكون حقيقةً علميّةً.

- الطّفراتُ العشوائيّةُ عاجزةٌ كمًّا وكيفًا عن منحِ الحياةِ المادّة الخام القابلة للتّهذيب. وهي على الحقيقة خصم للتطوّر، وقرين التدهور.
- الانتخابُ الطبيعيُّ أَضْعَفُ من أن يُوَجِّهَ حركةَ الحياة من البكتيريا الأُوْلى إلى المنظومةِ الأحيائيّة الحاليّة.
- لا يسلم دليلٌ علميٌّ واحِدٌ لتطوُّرِ الجنس البشريِّ عن سَلَفٍ من النُّقود القويّةِ؛ بل الشّواهد على وجود فجوةٍ بين جِنْسِنا و«القِرَدَة الجنوبيّة»، وذاك حجّة ضدّ هذا التطوّر المزعوم.
- البحثُ في دعوى الإجماع على صحّة التطوّر كاشِفٌ أنّ شعبيّةَ المذهبِ التطوّريِّ فرعٌ عن النّزعةِ الماديّة المهيمنة على الجامعاتِ ومراكز البحث الغربيّةِ.

مراجع للتوسُّع:

J. P. Moreland, et. al. eds. *Theistic Evolution: A Scientific, Philosophical, and Theological Critique*, Wheaton, Illinois: Crossway, 2017.

Michael Denton, *Evolution: A Theory in Crisis*, London: Burnett, 1985.

Jonathan D. Sarfati, *The greatest Hoax on Earth?: Refuting Dawkins on evolution*, Atlanta, Georgia: Creation Book Publishers, 2014.

Duane T. Gish, *Evolution: The fossils still say no!*, El Cajon, Calif.: Institute for Creation Research, 1995.

Stephen Meyer, *Darwin's Doubt: The Explosive Origin of Animal Life and the Case for Intelligent Design*, WA: HarperCollins, 2014.

الفصل الثالث

برهان النظم الأحيائي، الأدلة

ـ ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١١]

ـ «نحن لا نفتَرِضُ وجودَ التّصميم ممّا لا نعلمه، وإنّما نفتَرِضُه ممّا نَعْلَمُه. نحن لا نفتَرِضُ وجودَ التّصميمِ لأَجْلِ تفسيرِ وجودِ صُندوقٍ أَسْود، وإنّما نفترضه لأجلِ تفسيرِ صندوقٍ مفتوحٍ»[١].

البيولوجيّ (مايكل بيهي)

(العشوائيّة) أو (اللّاعشوائيّة)؛ ذاك هو السُّؤال!

المذهبُ التطوّريُّ في البيولوجيا لا تَعَلُّقَ له بإنكارِ وجودِ اللهِ، ولا بِصِدْقِ برهانِ النَّظْم في عالَم الأحياء؛ فغايةُ ما ينتهي إليه لو صَحَّ ـ جَدَلًا ـ أنّ الكائناتِ الحَيَّةَ لم تَظْهَرْ أَجْنَاسُها الصُّغرى أو الكُبْرى مرّةً واحدةً، وإنّما ظهرَتْ عن طريقِ الانْتِسالِ بعضها من بعض. وهو بذلك لا يتجاوزُ وصفَ ظهورِ الكائناتِ الحيّة، ولا يُفسِّرُهُ؛ على خلافِ برهان النَّظْم المتعلّق بتصوير الكائناتِ الحيّةِ وتزويدها بأسباب البقاء والتَّعاطي مع البيئةِ المحيطةِ بها.

وقد نَبَّهَ على حقيقةِ انفصالِ التطوّر عن الإلحادِ عددٌ من أعلامِ العِلم، ومنهم (بريان جوزيفسن)[٢] ـ عالِمُ الفيزياء الأيرلنديّ الحائز على جائزة

---

(١) Behe, 'Design in the Details,' in *Darwinism, Design, and Public Education*, ed. John Angus Campbell (East Lansing: Michigan State Univ. Press, 2004) p.301.

(٢) بريان جوزيفسن Brian Josephson (١٩٤٠ـ): عالم فيزياء نظريّة وأستاذ الفيزياء في جامعة كمبردج. نال جائزة نوبل لأبحاثه في فيزياء الكمّ.

نوبل ـ، الذي صَرَّحَ أنَّهُ يميلُ بِشدَّةٍ إلى مذهب «التَّصميمِ الذَّكِيّ» في عالَمِ الأَحْيَاءِ في قوله: «واحِد من الأخطاء الكبيرةِ التي يرتَكِبُها الذين يُهاجِمون التَّصميم الذكيَّ عَدُّ التَّطَوُّرِ والإيمان بالله من الأمور التي يَنْفِي أَحَدُها الآخر؛ ولذلك يقولون: إنَّ المرءَ الذي يؤمِنُ بالتَّصميمَ الذَّكِيِّ لا يؤمنُ بالتَّطَوُّرِ، ولكنْ ليس الأمرُ كذلك»[1].

إنّ الذي ينقضُ برهانَ النّظمِ في عالَمِ الأحياءِ إثباتُ أنّ التطوّرَ قد وقعَ بصورة عشوائيّةٍ عمياء؛ فأَخْطاء النَّسْخِ الجينيّ هي التي أَبْدَعَتْ مظاهرَ النَّظْمِ في الكونِ.

ولمناقشة صحّةِ صِدقِ بُرهانِ النّظمِ علينا أن نناقِشَ واقعيّة القولِ بالتفسير العشوائيِّ للحياة؛ أو بعبارةٍ أُخرى علينا أن نَضَعَ الإصبعَ على دقيقِ موضعِ الجَدَلِ واللَّدَدِ، لِـمَنْعِ الملحدِ من التَّفَلُّتِ والهروبِ إلى مباحثَ جانبيّةٍ وافتراضاتٍ وهميّةٍ تَصْرِفُ النَّظَرَ عن أصل الإشكال: **ما النّظمُ الذي لا يَصْدُرُ عن عشوائيّةٍ؟** ذاك هو السُّؤال!

بإمكاننا إثبات مصداقيّة برهانِ النّظم (حتّى لو صَحَّتْ ـ جَدَلًا ـ دعوى التطوّر) بإثبات وجودِ شيءٍ واحدٍ في عالم الأحياء، أيّ شيءٍ، تَعْجَزُ العشوائيّةُ العمياءُ عن إيجادِه، ولا يفسّر وجوده غير وجودِ ذكاءٍ أو حِكْمةٍ؛ إذ إنّه يلزم من وجود الحِكمةِ المتعالية على العشوائيّةِ وجودُ الذّاتِ الحَكِيمةِ الـمُرِيْدَةِ، ولا يلزمُ من ظاهر العشوائيّةِ في بعض مظاهر الوجودِ نقضُ وجود الذّاتِ الحكيمةِ لأنّ اللهَ قد يسمَحُ لِعَدَدٍ من الظّواهر الكونيّةِ أن تسلُكَ طريق العمل الذّاتيِّ لِحِكَمٍ يراها، مما قد نعلم أو لا نعلم، كأنْ يَسْمَحَ بظهور الفيروساتِ والأمراضِ والإعاقاتِ (مفترضين هنا عشوائيّتَها) لِيَخْتَبِرَ صَبْرَ النّاسِ على البلاء، ولِيُعَاقِبَ الظّالمين المعاندين، ولِيُحَفِّزَ أسبابَ التَّراحُم بين البشر، فهي عشوائيّةٌ في شَكْلِهَا الظَّاهِرِ لكنّها تعمل ضمن حكمةٍ أعلى لأَنّ اللهَ يعلم آثارَها ومآلها. قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢].

---

(١) كلامه في لقاء في البرنامج التلفزيوني الشهير (Closer to Truth) مع الصحفيّ (Robert Lawrence Kuhn).
<https://www.closertotruth.com/series/evolution-and-god#video-2473>.

يكفي إثباتُ وجودِ ظاهرةٍ كونيّةٍ واحدةٍ تَعْجَزُ العشوائيّةُ عن تفسيرِها؛ لإثباتِ وجودِ اللهِ وكَشْفِ فسادِ الإلحادِ.

ويبقى السُّؤال عن تحرير حقيقة «**اللَّاعشوائيّة**». . **فما تعريفها؟**

إنّ ضبطَ الفارقِ بين العشوائيّةِ واللَّاعشوائيّةِ بالغُ الأهمية لأنّه بإلغاء الفارق بينهما يمتنِعُ تمييزُ الحِكْمةِ من اللَّغْوِ، والنّظام من الفوضى، والغائيّةِ من العَبَثِ، كما يَؤُولُ ذلك إلى هَدْمِ العِلمِ الطّبيعيِّ لأنه يقومُ على التّمييزِ بين العشوائيّةِ والقانونِ حتّى عند الملاحدةِ الماديّين.

وحقيقةُ الظّاهرة الطبيعيّةِ اللَّاعشوائيّةِ هي: ما لا يقبلُ بطبيعةِ وُجودِه أو تركيبِه الخروجَ إلى الوجودِ الماديِّ بفعلِ حركاتٍ عفويّةٍ أو تفاعلاتٍ عمياءَ.

• مثال ممّا لا يمكن أن يصدرَ عن عشوائيّةٍ بسببِ طبيعةِ وُجودِهِ: «المعلومة» «information»؛ إذ المعلومةُ أثرٌ عن حِكْمةٍ واعيةٍ. وهذا هو جَوْهَرُ المشروعِ الفِكريّ لفيلسوفِ العِلمِ (ستيفن ماير).

• مثال مما يأبى التفسيرَ العشوائيَّ بسبب طبيعةِ تركيبِه: (١) «التعقيدُ غير القابل للتّبسيطِ»، وهو المشروعُ الفكريُّ للبيولوجيِّ (مايكل بيهي). (٢) تَعْجَزُ العشوائيّةُ عن تفسيرِ ظواهر التّنظيم المعقّد الذي يخدم أسبابَ البقاء أو المتعة إذا كان احتمالُ ظهورهِ دون الحدِّ الأقصى للتّفاعلاتِ التي عرفها الكون طُولَ تاريخِه، أي: (١ من ١٠^١٥٠). وذاك هو مشروعُ عالِمِ الرّياضيات الفيلسوفُ (ويليام دمسكي).

فما هي دلائلُ مَظَاهِرِ الحياةِ التي تأبى التّفسيرَ الماديَّ العشوائيَّ وتُلزِمُ العقلَ الاعتقادَ أنّ وراءَها نَظْمًا حَكِيمًا، دون الالتجاء إلى (حُجّة الجهلِ) أو (إلٰهِ الفراغاتِ)؟

الجوابُ ـ إجمالًا، قبل التفصيل ـ: العشوائيّةَ لا يمكنها البتّة أن تفسّر ظهورَ مظاهرَ أَحْيائيّةٍ كثيرةٍ؛ من أهمّها:

١ ـ المعلومةُ.

٢ ـ أَصْلُ الحياةِ.

٣ ـ التَّشْفِيرُ.

٤ ـ وَعْيُ الكائنات الحيّة الدُّنيا .

٥ ـ التّعقيدُ غير القابلِ للتّبسيطِ .

٦ ـ النَّظْمُ الفائضُ عن الحدّ الأَدنى للحاجة المعيشيةِ.

٧ ـ الزَّوجيّةُ وظهورُ التّكاثر الجنسيِّ.

٨ ـ التّماثُلُ عن غير أصلٍ مشترَكٍ (مشكلةُ التّطوُّرُ المتقارب).

٩ ـ اللُّغَةُ.

ويكفي ثبوتُ فَشَلِ العشوائيّةِ في تفسير ظاهرةٍ واحدةٍ من الظّواهِرِ السّابقةِ لإثباتِ بُطلانِ الإلحادِ ووجودِ اللهِ.

ومن المهمِّ التَّنْبِيهُ ـ قبل البدء ـ أنّ البحثَ العِلميَّ في النقاط السّابقة ليس خيارًا بين برهانٍ علميٍّ (عشوائيٍّ) وخيارٍ غَيْبِيٍّ (الإلٰه)، كما هو دأبُ رموزِ الإلحادِ في تصويرهم حقيقةَ الخلاف مع تيّارِ «التّصميم الذكيِّ». . الخيار هنا بين تفسيرَيْنِ عَمَلِيَّيْنِ لا تَعَلُّقَ لهما بالغَيْبِ، وهما العشوائيّةُ، أو نقيضُها اللّاعشوائيّةُ. وأمّا نِسبةُ اللّاعشوائيّةِ إلى فِعْلِ مَنْ يُسمّيه الـمُؤَلِّـهَةُ «الله»، فهو جَدَلٌ فلسفيٌّ لاحَقٌّ لنتائجِ الجَدَلِ العِلميِّ.

ليس التطوّرُ خَصْمَ بُرهانِ النَّظْمِ، وإنّما خَصْمُهُ العشوائيّةُ..

المبحث الأول

نشأة المعلومات

لم ينهزم الدَّراونةُ الملاحدةُ في جَدَلِ التّفسيرِ العشوائيِّ مثل هزيمتهم في معركةِ تفسير أصلِ «المعلومة» «information»؛ فإنّ المعلومةَ قرينةُ العقلِ أو الحِكْمةِ ونقيضُ العشوائيّةِ التي لا تتحرَّكُ في مبدئِها إلى غايةٍ معقولةٍ.

المطلب الأول

الكونُ.. معلومةٌ

ما «المعلومة»؟

يقول عالم الرياضيات الأمريكيُّ (نوربرت وينر)[(١)]: «المعلومة هي المعلومة، لا هي مادّةٌ ولا هي طاقةٌ»[(٢)]. وهي في عالم البيولوجيا ليست الجِينَ، ولا الحَمْضَ النّوويَّ الصّبغيَّ، ولا الحَمْضَ النَّوويَّ الرَّيبوزِيَّ، ولا البروتين.. إنّها وجودٌ آخرُ، وماهيَّةٌ أُخرى غيرُ ماديّةٍ.

المعلومة شيءٌ مفهوميٌّ (conceptual) غير ماديٍّ يؤدّي إلى إنشاء شيءٍ أو التّواصل حولَهُ بين أكثر من طرفٍ، ودون المعلومة يَتَقَلَّصُ الكونُ إلى مادّةٍ ميتةٍ بلا نظامٍ، ودونها لا يمكن لمنظومةٍ فاعلةٍ أن تعملَ.

ومما يُؤْسَفُ له، خَلْطُ البيولوجيّين الدَّراونةُ بين مجال المادّة ومجال

---

(١) نوربرت وينر Norbert Wiener (١٨٩٤ ـ ١٩٦٤م): عالم رياضيات وفيلسوفٌ أمريكيٌّ. دَرَّسَ الرياضيات في «Massachusetts Institute of Technology».

(٢) Cited in: Burgin Mark, *Theory of Information: Fundamentality, Diversity and Unification* (Singapore: World Scientific, 2010), p.3.

المعلومةِ، حتّى قال البيولوجيّ التطوّريُّ (جورج ويليامز)[1]: «لقد فَشِلَ البيولوجيّون التطوّريُّون في اكتشافِ أنّهم يعملون في مجالَيْنِ اثنين غيرِ متجانسَيْنِ: مجالِ المعلومةِ ومجالِ المادَّةِ. لقد تَطَرَّقْتُ إلى هذه المشكلةِ في كتابي (١٩٩٢م) «الانتخاب الطَّبيعيّ: المجالات والمستويات والتحدِّيات». لا يمكن أبدًا الجمعُ بين هذين المجالَيْنِ بأيِّ صورةٍ بالمعنى المستعمَلِ عادةً بعبارة «الاختزاليّة». بإمكانك أنْ تتحدَّثَ عن المجرّاتِ وجُسيماتِ الغُبارِ بالعباراتِ نفسِها لأَنَّ لِكلٍّ منها كثافةً وشِحْنةً وطُولًا وعَرْضًا. لا يمكنك أن تفعل ذلك مع المعلوماتِ والمادّة. ليس للمعلوماتِ كثافةٌ ولا شِحْناتٌ ولا طُولٌ بالمليمتر... الجينُ رِزْمَةٌ من المعلومات وليس شيئًا.. وجزيئاتُ (DNA) هي الواسطة لا الرِّسالة. والمحافظةُ على هذا التّمييزِ بين الواسطة والرّسالةِ أَمْرٌ ضروريٌّ جدًّا لمعرفةٍ سليمةٍ بالتطوّرِ»[2].

في بدء الوجودِ الماديِّ كانت المعلومةُ التي سَمَحَتْ للوجودِ الماديِّ أن يَتَّخِذَ شكلًا معقولًا مفهومًا، ثمّ كانت بدايةُ الحياةِ على الأرضِ حيث اتَّخَذَ الوجودُ الحيُّ صِيَغَ عَمَلٍ مفهومةٍ.. وهذه الصّيغُ هي «المعلومة». ولا يمكن تفسيرُ أعراض الوجود الحيِّ الأوّل بالآليّاتِ العشوائيّةِ؛ لأنّ المعلومةَ أَثَرٌ عن حِكْمةٍ أو ذكاءٍ كما تشهدُ على ذلك جميعُ خبراتنا.

وفي عالَمِ الأحياءِ، لا يمكن تفسيرُ حقيقةِ بناء الخليّةِ، وجِدَارها ونَوَاتها، وآلاتها بغير المعلومةِ؛ فقد وُجِدَتْ بالتّوازي مع بدءِ الحياةِ، ولم تنشأ عن الحياة، ولا عن المادّةِ. ولذلك قال الكيميائيُّ الحاصل على جائزة **نوبل** (مانفرد أيغن)[3] في كتابِهِ «خُطواتٌ نحو الحياة» لِفَهْمِ نشأةِ الحياة ـ من منظورٍ ماديٍّ صِرْفٍ ـ: «مُهِمَّتُنا هي العُثُورُ على خوارزميّةٍ؛ أي: قانونٍ طبيعيٍّ يقودُ

---

(١) جورج ويليامز George Williams (١٩٢٦ ـ ٢٠١٠م): أستاذ البيولوجيا في «State University of New York at Stony Brook».

(٢) George Williams, 'a Package of Information', in *Third Culture: Beyond the Scientific Revolution*, ed. John Brockman (New York: Simon & Schuster, 1996), p.43.

(٣) مانفرد أيغن Manfred Eigen (١٩٢٧ـ): كيميائيّ ألمانيّ. حصل على نوبل في قياس التفاعلات الكيميائيّة السريعة.

إلى أصلِ المعلومات»[1]؛ فالمعلومةُ مشكلةٌ مستقلّةٌ عن المادّةِ، ولا يمكن تفسيرُها بالخَبْطِ العشوائيِّ للأشياءِ.

المطلب الثاني

المعلومةُ والذّكاءُ والحِكْمةُ

كتب عالِمُ الرياضيات الفرنسيُّ (إميل بورل)[2]: أنّنا لو تركنا مجموعةً من القُرُودِ مُدّةً طويلةً من الزَّمَنِ تَرْقُنُ؛ فستخرج من تحت أيديها الأعمالُ الكاملة (لشكسبير)؛ فالزَّمَنُ صانع المعجزات؛ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ!

ويحاول الدَّراونةُ ـ اليوم ـ حَلَّ مُعْضِلةِ العلاقةِ المنكرة بين ظاهرةِ الحياة والعشوائيّةِ بالقول: إنّ «الزَّمنَ كفيلٌ بفعل كلِّ شيءٍ». وبعيدًا عن حقيقة أنّ عُمْرَ الحياةِ على الأرضِ محدودٌ، وعددَ المحاولاتِ ـ لذلك ـ محدودٌ، يبدو مثالُ قرودِ (بورل) بعيدًا عن مُعضلةِ الحياة؛ لأنَّ الحياة معلومةٌ، والمعلومةُ لا تَصْنَعُها المحاولات مهما طالَتْ؛ فهي أَثَرٌ عن ذكاءٍ أو حِكْمةٍ؛ فلا يُبْدِعُ خَلْطُ الحُرُوفِ ورَمْيُها لِتَتَجاوَرَ، واحدةً من المعلّقات العَشْر، ولا الإلياذة. ولذلك قال (بول ديفيس): «**لا يوجد قانونٌ فيزيائيٌّ معروفٌ قادرٌ على إنشاءِ معلوماتٍ من لا شيء**»[3]. وبعبارة أوسعَ على لسان (فرنر غيت)[4] ـ المتخصّصِ في علم المعلوماتِ ـ، وصاحب الكتاب الـمُهِمِّ: «في البدء كانت المعلومةُ»: «لا يوجد قانونٌ طبيعيٌّ معروفٌ تقوم المادة من خلالهِ بإنشاء معلومةٍ، وليس ذلك موجودًا في أيِّ عمليّةٍ فيزيائيّةٍ أو ظاهرةٍ ماديّةٍ معروفةٍ»[5].

ويدور جهدُ فيلسوفِ العلوم (ستيفن ماير) ـ الذي أَكَّدَ على علاقة

---

(١) Manfred Eigen, *Steps Towards Life: A Perspective on Evolution*, trans. Paul Woolley (Oxford: Oxford University Press, 1992), 12.

(٢) إميل بورل Émile Borel (١٨٧١ ـ ١٩٥٦م): عالم رياضيات وسياسي فرنسيّ. عُرف بأبحاثه في نظرية الاحتمالات.

(٣) Paul Davies, 'Life force,' *New Scientist* 163 (2204): 29, 18 September 1999.

(٤) فرنر غيت Werner Gitt (١٩٣٧ـ): ألمانيٌّ. رئيسُ قسمِ تكنولوجيا المعلومات في «German Federal Institute of Physics and Technology».

(٥) Werner Gitt, *In the Beginning Was Information* (New Leaf Publishing Group, 2006), p.80.

المعلومة بالذكاء ضرورةً في كُتُبِه ومقالاته ومناظراته، دون أن يجد عند الملاحدة ردًّا عاقلًا على تقريراتِه ـ حول الأمرِ ذاته. وقد لخّص جوهرَ التحدّي الذي عَرَضَهُ على مدى العقود الثّلاثة الأخيرة في قوله: «إنّ لدينا تجاربَ متكرّرةً حول ذواتٍ عاقلةٍ وواعيةٍ ـ خاصةً أنفسنا ـ تُولِّدُ تعقيدًا مخصوصًا للمعلوماتِ أو تَتَسَبَّبُ فيه، سواءٌ كان تسلسلًا مخصوصًا للشَّفْراتِ أو على شكلِ أنظمةٍ تضمُّ أجزاء، مرتّبةً هرميًّا. . . . إنّ معرفتنا حول تدفُّقِ المعلومات، والقائمة على التجربة تؤكّد أنّ الأنظمةَ التي تضمُّ كميّاتٍ كبيرةً من التّعقيد المخصوص (خاصة الشَّفْراتِ واللُّغة) تنشأ دائمًا من مصدرٍ ذكيّ؛ من عقلٍ أو ذاتٍ شخصيّةٍ (personal agent)»[١].

إنّ جَدَلَ النَّشأةِ ليس مُتَعَلّقًا فقط بوجود المادّةِ في هذا الكون، وإنّما يتجاوَزُ ذلك إلى صياغةِ المادّةِ على صورةٍ تجعلها قادرةً على تشكيلِ الوجود الحيِّ على الأرض. ولذلك كتَبَ عالم البيولوجيا الجزيئية (كومفيلد) الحائز على جائزة **نوبل**: «كثيرًا ما يغمرني شعور الحِكْمةِ اللّامتناهيةِ لله عندما أَعْمَلُ بجدٍّ في دراسةِ الجزيئات المعقّدةِ والدقيقة جدًّا في المختبرِ. . . إنّ المرء لَيَنْدَهِشُ كيف أنّ آليّةً بذاك التعقيد من الممكن أن تعملَ بصورةٍ سليمةٍ أصلًا. . إنّ أَصْغَرَ آليّةٍ صَنَعَها الإنسانُ تحتاجُ إلى مخطّطٍ وصانِعٍ؛ ولذلك فإنّ **تصوُّرَ أنَّ آليّةً أَعْقَد من ذلك عشر مرّاتٍ قد كُوّنَتْ وتطوّرت بنفسها، أمرٌ يتجاوز فَهْمِي بصورةٍ تامّةٍ**»[٢].

والمعلومة التي نتحدّث عنها ليست هي تلك التي يريد الدَّراونةُ صَرْفَ الناس إليها في هذا النّقاش؛ أي: ما يُعرفُ بـ«Shannon information»[٣] والمتعلّقة بمحض إمكان حصولِ سلسلةٍ من الأحداث؛ أيْ: الجانب الكمّيّ المحض للأحداث، مثل طَفْراتٍ تُبَعْثِرُ ترتيبَ نيوكليدات «الحَمْضِ النَّوويّ

---

(١) Stephen C. Meyer, 'The Origin of Biological Information and the Higher Taxonomic Categories,' *Proceedings of the Biological Society of Washington* 117. 2 (2004): 213 - 39.

(٢) E.C Komfield, The Evidence of God in an Expanding Universe, *Look*, January 16, 1962, p.16.

(٣) في ضوء هذه النّظريّة، المعلومةُ هي: كُلُّ ترتيبٍ مُعقّد.

الصِّبْغِيّ» وتُتْلِفُ المعلومات الوظيفيَّةَ التي فيه. وإنّما نحن نَتَحَدَّثُ عن ما يُسمّى بـ«التعقيد المتفرّد» «specified complexity»، وهو مصطلح سَكَّهُ عالِمُ الكيمياء الشّهير المتخصّص في موضوع أصل الحياة (لزلي أُورجل)(١)، وقَصَدَ به التَّمييزَ بين الكائناتِ الحيّةِ والأُخرى غيرِ الحيّةِ. وقد طَوَّرَ هذا المفهومَ عالِمُ الرياضياتِ الفيلسوفُ (ويليام دمسكي) في كتابه «The Design Inference».

المطلب الثالث

التعقيد المتفرّد

يتميَّزُ التّعقيدُ المتفرّدُ بأنّه يقدِّمُ معنًى مفهومًا لشيءٍ يَتَكَوَّنُ من عناصرَ مختلفةٍ مُعقَّدةِ التركيب؛ فهو ليس مجرّد تكرارٍ لأفرادٍ أو جزيئاتٍ، كما هو حال بلُّوراتِ الكريستال حيث تتكرَّرُ الجزيئاتُ بصورةٍ متطابقةٍ، كما أنّه متفرّدٌ، فليس هو مجرّدُ تنوُّعٍ للعناصرِ دون معنًى كما هو في انتظام مجموعةِ حروفٍ بصورةٍ عشوائيّةٍ؛ فهذا الانتظامُ مُعقَّدٌ لكنّه غير متفرّدٍ، فلا معنى له. وهذا يعني: **أنّ التَّعقيدَ المتفرّدَ قائمٌ على وجودِ نظامٍ وترتيبٍ مخصوصٍ للأعضاء أو الرُّموز**(٢). أو كما في المثال الذي قدَّمه (دمسكي)، الحرف (أ) متفرّد لكنّه غير معقّد، والعبارة الطّويلةُ لحروفٍ عشوائيّةِ الانتظام تعقيدٌ غيرُ متفرّدٍ، فيما قصيدةٌ لشكسبير هي من التّعقيد المتفرّد(٣).

تعقيدٌ غير مُتَفَرِّدٍ:	ارحبل تيمالعلا لاأوال
تفرُّدٌ غيرُ مُعَقَّدٍ:	اااااسسس ببب
تعقيدٌ مُتَفَرِّدٌ:	ما الحبُّ إلّا للحبيبِ الأوَّلِ

(١) لزلي أورجل Leslie Orgel (١٩٢٧ ـ ٢٠٠٧م): كيميائيٌّ بريطانيٌّ. درس في عددٍ من الجامعات الأمريكيّةِ وتعاوَنَ مع وكالة ناسا في عددٍ من المشاريع العلميّةِ. تحدّثَ عن «التّعقيد المخصوصِ» في كتابه «أُصول الحياة» للتّمييز بين الكائنات الحيّة والكائنات غير الحيّةِ.

(٢) Casey Luskin, A Response to Dr. Dawkins' "The Information Challenge". <http://www.discovery.org/a/4278>.

(٣) William A. Dembski, *Intelligent Design: The Bridge Between Science and Theology* (Downers Grove, Ill.: IVP Academic, 1999), p. 47.

التمييزُ بين «التعقيد المتفرّد» وكلِّ نوعٍ آخرَ من التّعقيد هو حقيقةٌ يعترف بها المجتمعُ العلميُّ؛ ولذلك قام مشروعُ (SETI)[١] على تَتَبُّعِ كلِّ رسالةٍ من الفَضَاءِ تَدُلُّ على وجودِ كائناتٍ عاقلةٍ ذكيّةٍ، وعلامةُ وجودِ هذه الكائنات التي ينتظرها العلماءُ إلى اليوم هي تلقّي رسالةٍ تتميّزُ **بالتّعقيد المتفرّدِ**.

ليس «التعقيد المتفرّدُ» ـ إذن ـ مجرّد احتمالِ حصولِ شيء معقّدٍ، فحصول شيءٍ ما معقّد ممكنٌ إذا سمح الزَّمَنُ بِتَتَالي الأحداثِ.. وإنّما «التعقيد المتفرّد» وقوعُ حدثٍ ما يتميّزُ بالتّعقيدِ الخاضعِ لِنَمَطٍ غير بسيطٍ (كالتكرار)، كأن تَرِدَكَ رسالةٌ على الهاتفِ تقولُ لك: «يا (فلان) ـ باسمك الحقيقيّ ـ رقم الهاتف هذا (وتذكر الرقم صحيحًا) قد فاز في القُرْعةِ».. فهذا غيرُ أنْ تردك رسالةٌ على الهاتف فيها: «١٣٦٨٩ اا ر ت ى ف ي ننن»؛ فَتَفَرُّدُ تعقيدِ الأُولى لا يَنْتُجُ إلَّا عن ذكاءٍ في حين أنّ الرسالة الثانية تنتج غالبًا عن عشوائيةٍ.

وما الحياة سوى معلومةٍ تتميّزُ بالتعقيد المتفرّدِ ظهرَتْ آثارُها في صورةٍ ماديّةٍ، ولذلك يقول البيولوجيُّ الشّهيرُ، **الملحدُ** (كريغ فنتر): «الحياةُ نظامُ برمجيَّاتٍ للحَمْضِ النَّوويِّ الصِّبْغِيِّ» «life is a DNA software system»[٢].

ولا يمكن للطّفراتِ العشوائيّةِ أن تصنَعَ «معلومةً»؛ إذ إنّ هناك فرقًا بيّنًا بين أن تكون الطّفرةُ نافعةً ـ بسبب فقد «المعلومة» ـ وبين أن تُضيفَ إلى الحوض الجينيّ معلوماتٍ تَتَّسِمُ بالجِدَّةِ لا التّكرار[٣]، وهذا ما عجز الدَّراونةُ

---

(١) The search for extraterrestrial intelligence.

(٢) J. Craig Venter, "The Big Idea: Craig Venter On the Future of Life," The Daily Beast (October 25, 2013), <www.thedailybeast.com/articles/2013/10/25/the-big-idea-craig-venter-the-future-of-life.html>.

(٣) محاولةُ استنقاذ العُقْمِ الداروينيّ بالزَّعْمِ أنَّ تَضَاعُفَ الجينات (Gene-duplication) يحلّ المشكلةَ؛ إذ تؤدّي الطّفراتُ في الجين الجديدِ إلى صناعة جينٍ بوظيفةٍ جديدةٍ، محاولةٌ فاسدةٌ؛ إذ إنّ المعلومات بهذا المعنى لا تَرْفَعُ الرَّصِيدَ الكَيْفِيَّ للجِينِ.

والمشكلةُ الأساسيّةُ في دعوى تحوُّلِ الجينِ إلى وظيفةٍ جديدةٍ هي أنّ الدّراونةَ لم يُقدِّمُوا لذلك تَصَوُّرًا عَمَلِيًّا له تفاصيلُ بعيدًا عن العناوينِ، حتّى اعترفَ ـ حديثًا ـ مجموعةُ علماءَ في مجلّة «Nature» بقولهم: «المبادئُ العامّةُ التي تحكُمُ هذه العمليَّةَ لا تزال مجهولةً إلى حدٍّ كبيرٍ».

Ilan Wapinski, Avi Pfeffer, Nir Friedman & Aviv Regev, "Natural history and evolutionary principles of gene duplication in fungi," Nature, Vol. 449: 54-61 (September 6, 2007.

عن بَذْلِهِ إلى اليوم. وقد فَنَّدَ عالمُ الفيزياء الحيويّة (لي سبتنر)[١] كُلَّ دَعَاوى إضافةِ معلوماتٍ إلى الحوض الجينيّ للكائنات الحيّةِ في كتابه «ليس عن صُدْفةٍ!»[٢].

ومن الظَّريفِ هنا التّذكير بالمقطع الشّهير في الفيلم الوثائقيّ «مِنْ ضِفْدعٍ إلى أَمِيرٍ» «A Frog to a Prince» حيث سَأَلَ المذيعُ (داوكنز) أن يُقدّم له مثالاً واحِدًا على زيادة المعلومات في الحوض الجينيّ للكائنِ الحيِّ بسبب طَفْرةٍ جينيّةٍ أو مسارٍ تطوّريٍّ. وكان رَدّ فِعْلِ (داوكنز) أن رَفَعَ رأسَهُ إلى السَّماء متفكّرًا طويلًا.. ثم لم يُعْطِ جوابًا[٣]!

---

(١) لي سبتنر Lee Spetner (١٩٢٧ـ): عالم فيزياء وفيزياء حيوية أمريكيّ. دَرَّسَ في «Johns Hopkins University».

(٢) Lee Spetner, *Not by Chance* (New York: Judaica Press, 1999), pp.125 - 174.

(٣) Richard Dawkins gets intellectually trounced by clever creationist.
<https://www.youtube.com/watch?v=gSr7S3mPW9I>.

وسنكتفي هنا بالإشارة إلى أشهر ادّعاءَيْنِ للدّراونةِ:

• تجربة تطوُّر الإشريكيّة القولونيّة طويلةِ الأَمَدِ (E. coli long-term evolution experiment): أَشْهَرُ مثالٍ بين العلماءِ الدّراونةِ على نشوء معلوماتٍ جديدةٍ من خلال الطّفراتِ على المستوى الصُّغْرويّ التجربة التي قام بها عالم البيولوجيا الأمريكيُّ (ريتشارد لنسكي) (Richard Lenski)، وهي تتمثّلُ في وضعِ «بكتيريا القولون» «E. coli» على مدى سنواتٍ طويلةٍ (٣٠ ألف جيل) (التقرير سنة ٢٠٠٨م)، وملاحظة الطّفراتِ في البكتيريا القادرة على البقاء حيّةً.. وكانت النتيجةُ أن ظهرَتْ في طائفةٍ منها القدرةُ على هَضْمِ (citrate). وزَعَمَ الدّراونةُ أنّ هذه التجربةَ دليلٌ على ظهورِ جينٍ وظيفيٍ جديدٍ بسببِ تراكُمِ الطّفراتِ.

بعد الضَّجَّةِ الطّويلةِ التي أثارتها تجربةُ (لنسكي)، كَشَفَ فريقُ (لنسكي) في مقالٍ علميٍّ نَشَرَهُ سنة ٢٠١٢م أنّ ما طرأ على البكتيريا ليس ظهورَ جينٍ وظيفيٍّ جديدٍ (=زيادة معلومات كيفيّة)، وإنما هو تحوُّلٌ في تنظيمِ مُشَغِّلِ الحَمْضِ بإعادةِ ترتيبٍ جَعَلَتْهُ قريبًا من مُحَفِّزٍ (promoter) جديدٍ؛ أي: لم تطرأ على البكتيريا أيُّ معلومةٍ جديدةٍ، وإنّما هي طَفْراتٌ ترتيبيّةٌ لا غير.

Blount ZD, Barrick JE, Davidson CJ, Lenski RE (2012-09-27). "Genomic analysis of a key innovation in an experimental Escherichia coli population". *Nature* 489 (7417): 513-518.

فهذه البكتيريا تحمل سابقًا القُدْرَةَ على استهلاكِ (citrate)، غير أنّ وُجودَ الأوكسجين يُعَطِّلُ الجينَ المسؤولَ عن ذلك. فنحن إذنْ لسنا أمام ظهورِ عَمَلٍ وظيفيٍّ جديدٍ، وإنّما أمام ظهور هذه الوظيفةِ في ظروفٍ جديدةٍ.

ولولا تَعَصُّبُ الدّراونةِ لَقَضَتْ هذه التّجربةُ على القولِ بالتطوّر التدريجيّ العشوائيّ لأنَّ عُمْرَ البكتيريا قصيرٌ جدًّا، وقد بَلَغَت التّجربةُ اليومَ ٦٠ ألفَ جيلٍ، بما يقابل بِضعةَ ملايين من التَّنَاسُلِ البشريِّ، =

كُلُّ ظاهرةٍ تَتَمَيَّزُ بأنّها:
١ ـ ممكنٌ من الممكناتِ، فليست هي مما يُحتّم العقلُ وجودَه.
٢ ـ مُعقّدةٌ، فليست مجرّد تكرارٍ بسيطٍ.
٣ ـ مُتفرّدةٌ، فلها دلالةٌ متميّزةٌ في جانبِ المعلومةِ.
هي ظاهرةٌ لا يمكن تفسيرها إلَّا بوجودِ ذاتٍ مُرِيْدَةٍ وحَكِيمةٍ وَرَاءَها.

المطلب الرابع

الحياة.. معلومةٌ قبل المادّةِ

ما هي الحقيقةُ الأُولى لوجودِنا الماديِّ، هل هي المعلومة أم المادّة؟

= ومع ذلك لم يَظْهَرْ جينٌ وظيفيٌّ واحِدٌ جديدٌ. . وهو ما ينفي كُلَّ أَمَلٍ في اختبارِ التاريخِ المبصَرِ لِنُصْرةِ التَّطوُّرِ الصُّغْرويِّ الخَلَّاقِ.

علمًا أنّه قد صدرَتْ منذ أَشْهُرٍ دراسةٌ حديثةٌ أَفْسَدَتْ كُلَّ الضَّجيجِ الذي أُثِيرَ حولَ كامِلِ مشروعِ (لنسكي)؛ إذ بَيَّنَ أُستاذُ البيولوجيا الجزيئيّة في جامعة (أيداهو) (سكوت منيتش) (Scott Minnich) مع مجموعةِ الباحثين معه في مُختبرِهِ أنَّ «التطوُّرَ الوظيفيَّ» الذي وَصَلَ إليه فريق (لنسكي) على هذا المدى الطويلِ جِدًّا من الممكنِ الوُصولُ إليه في في غُضونِ أسابيعَ لا عُقُودٍ إذا بَدَأْنَا التَّجاربَ بظروفٍ أكثر فاعليّةٍ.

(SA Minnich *et al*, ‘Rapid Evolution of Citrate Utilization by Escherichia coli by Direct Selection Requires citT and dctA’ in *J Bacteriol*. 2016 Feb 1; 198 (7): 1022-34).

• مناعَةُ المضادّات الحيويّة: يقول الدّراونةُ: كَشَفَ البحثُ العِلميُّ أنّ البكتيريا التي تتعرّضُ للمضادّات الحيويّةِ التي تَفْتِكُ بها عادةً، يكتسِبُ بعضُها مع الوقت مناعةً ضِدَّ هذه المضادَّاتِ.

وقد رَدَّ علماءُ على هذه الدَّعْوى فَبَيَّنُوا أنَّ البكتيريا لها طريقان لِمُقاومةِ المضادَّاتِ الحيويّة:

الحال الأولى: لا تكتسب هذه المناعة؛ إذ هي تحمِلُ هذه المناعة بدءًا، قبل تَعَرُّضِها للمضادّات الحيويّةِ. وقد اكتشف العلماء مُؤخَّرًا بكتيريا في كَهْفٍ مُنْعَزِلٍ عن العالم منذ ٤ بلايين سنة، في (New Mexico)، وهي مع ذلك تحمل مناعةً من ١٨ مضادّ حيويًّا.

(Pawlowski, Andrew C. *et al*, ‘A diverse intrinsic antibiotic resistome from a cave bacterium’, *Nature Communications* 7, 13803 (2016).

الحال الثانية: البكتيريا تكتسب مناعةً من المضادّاتِ الحيويّةِ بطَفْرةٍ ضارَّةٍ تقوم بإفسادِ إنتاجِ البروتينات.
(Davies., Nomura, ‘The genetics of bacterial ribosomes’, *Ann. Rev. Genet*. 6, 203-234, 1972).

وهذا الأمر وإن أنجى البكتيريا من المضاداتِ الحيويّة إلا أنه يُضْعِفُ قُدرةَ البكتيريا على العَمَلِ أو التكاثُرِ.

ليس في الطريقَيْنِ السابقَيْنِ سبيلٌ لإضافةِ معلوماتٍ جينيّةٍ جديدةٍ للمنظومةِ الأحيائيّةِ.

لقد قيل: إنّ عالم الفيزياء النظريّة البارز (جون ويلر)[1] قد أَنْفَقَ ثُلُثَ عُمْرِهِ الأوّل معتقِدًا أنّ «الوجودَ كُلُّه جزيئاتٌ» (ماديّة القرن ١٩)، والثُّلُثَ الثّاني أنّ «الوجودَ كُلُّه مجالاتٌ (fields) (فيزياء الكم في القرن ٢٠)، والثُّلُثَ الأَخيرَ أنّ «الوجودَ كُلّه معلوماتٌ» (القرن ٢١)[2].

وذاك قريب مما انتهى إليه (جورج والد)[3] الحائز على **نوبل** في الطبّ، الذي قال حاكيًا أَزْمَتَهُ مع الإلحادِ: «لا بُدَّ لي من الاعترافِ أنّه قد بدا لي في الآونةِ الأخيرةِ ـ مع بعض الصّدمةِ في البدايةِ لحساسيّتي العلميّة ـ أنّ. . . العقل، بدلًا من أن يظهر في وقت متأخر من تطور الحياة، وُجِد دائمًا كمبدأ أوّل، مصدر الحقيقة الفيزيائيّة وأعراضها، وأنّ الشيء الذي يتكوّن منه الواقع المادي هو شيء عقلي. إنّ العقل هو الذي يُشكّل الكون المادي الذي يولد الحياة، وفي نهاية المطاف يُطوّر الكائنات التي تدرك وتخلق»[4].

إنّ مظاهرَ التّعقيدِ والحياةِ في الوجودِ المادّيِّ ما هي إلّا أَثَرٌ لِحِكْمةٍ مُتعالِيةٍ مُهَيْمِنةٍ على هذه المادَّةِ؛ ولا يمكن فَهْمُ الوُجودِ الماديِّ إلّا في ضَوْءِ فَهْمِ أَعْراضِهِ، ولا سبيلَ إلى فَهْمِ أعراضِهِ إلّا بإدراكِ غائيَّةِ حَرَكَتِهِ. وتلك الغائيَّةُ فَرْعٌ عن وُجودِ الحِكْمةِ المتعالِيةِ.

---

(١) جون ويلر John Wheeler (١٩١١ ـ ٢٠٠٨م): عالم فيزياء نظرية أمريكيّ. من أَهَمِّ من اعتنوا بدراسةِ نظريّةِ النّسبيّةِ العامّةِ في أمريكا بعد الحرب العالميّةِ الثّانيةِ.

(٢) Physicist Rob Sheldon: What ID is really about:
<http://www.uncommondescent.com/intelligent-design/physicist-rob-sheldon-what-id-is-really-about/>.

(٣) جورج والد George Wald (١٩٠٦ ـ ١٩٩٧م): عالِمُ وظائف أعضاء أمريكيّ. دَرَّسَ البيولوجيا في جامعة «هارفارد».

(٤) George Wald, 1984, 'Life and Mind in the Universe', *International Journal of Quantum Chemistry: Quantum Biology Symposium* 11, 1984: 1 - 15.

المبحث الثاني

نشأةُ الحياةِ

نشأَةُ الحياةِ؛ الموضوعُ الـمُزْعِجُ لِكِبارِ الملاحدةِ؛ حتّى إنّ الماديّين يُصِرُّون ـ عامّةً ـ على استبعادِه من الحديثِ في دلالةِ التطوّرِ على الإلحادِ، رغم أنّه وإن لم يكن ـ في رؤيتهم ـ تطوّرًا بيولوجيًا، إلّا أنّه تطوّرٌ كيميائيٌّ؛ بما يقتضي تفسيرًا عشوائيًا يُنْجِي الملاحدةَ من دلالةِ أصلِ الحياةِ على وجودِ خالقٍ.

وقد اضطرَّ (داوكنز) ـ لذلك ـ أنْ يَفِرَّ إلى غَيْبِيَّاتٍ غيرِ مُبَرْهَنةٍ، دَفْعًا لِلْحَرَجِ العِلميِّ، بقولِه: «ليست عندنا أَدِلَّةٌ تُوَضِّحُ ماهيّةَ الخُطوةِ الأُولى لِصناعةِ الحياة، لكنّنا نَعْلَمُ نوعَ الخطوةِ التي يجب أن تكونَ. إنّها يجب أن تكونَ شيئًا يسمَحُ للانتخابِ الطّبيعيِّ بأن يبدأَ العَمَلَ»[1]. بعبارةٍ أُخرى: نحن نحتاجُ أُصولَ الحياةِ في البدايةِ حتّى تستمِرَّ الحياةُ، ولا نعرف إلى اليومِ كيف من الممكن أنْ تبدأَ أُصولُ الحياةِ!

فما هي الحياةُ؟ وهل تَنْحَازُ طبيعَتُها إلى التّفسيرِ العشوائيِّ أم التّفسير القائِم على الحِكْمةِ؟

المطلب الأول

ما هي الحياة؟

ليس بالإمكانِ تعريفُ الحياةِ بعبارةٍ بسيطةٍ واحدةٍ، وإنّما من الممكنِ بيانُ حقيقتِها من خلالِ ذِكْرِ سَبْعِ خصائصَ تشترك فيها الأنظمةُ الحيّةُ، وهي:

---

(١) Richard Dawkins, *The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution*, p.419.

١ ـ التّنظيمُ الخلويُّ Cellular organization: المخلوقاتُ جميعُها تتكوَّنُ من خليّةٍ واحدةٍ أو أكثر. والخلايا، وهي غالبًا أَصْغَرُ من أن تُرى بالعينِ المجرّدةِ، تُنْجِزُ الأنشطةَ الأساسيّةَ للحياةِ.

٢ ـ التّعقيدُ المنظَّمُ: المخلوقاتُ الحيّةُ جميعُها معقّدةٌ، ولكنّها بالغةُ التّنظيمِ؛ فالجسمُ مكوّنٌ من أنواعٍ مختلفةٍ من الخلايا التي يحتوي كلٌّ منها كثيرًا من التراكيبِ الجزيئيّةِ المعقَّدةِ. إنّ كثيرًا من الأشياءِ غير الحيّةِ معقّدةٌ أيضًا، ولكنّها لا تُظْهِرُ هذه الدَّرَجَةَ من التّعقيدِ المنظَّمِ والمخصوصِ.

٣ ـ الحساسِيَّةُ: تستجيبُ المخلوقاتُ جميعُها لِلمُنَبِّهات؛ فالنّباتات تنمو في اتّجاهِ مصدرِ الضَّوْءِ، وبُؤْبُؤُ العَيْنِ يَتَّسِعُ عندما تدخلُ إلى غرفةٍ مُظْلمةٍ.

٤ ـ النُّموُّ والتَّكاثُرُ: المخلوقاتُ جميعُها قادرةٌ على النّموِّ والتّكاثرِ، وجميعُها يمتلِكُ جزيئاتٍ وراثيّة تنتقِلُ منها إلى نَسْلِها؛ لكي تَضْمَنَ أن يكون النَّسْلُ من النَّوْعِ نفسِهِ.

٥ ـ استخدامُ الطّاقةِ: المخلوقاتُ تأخذ الطّاقةَ وتستعملها لكي تُنْجِزَ أنواعًا مختلفةً من الوظائفِ؛ فَكُلُّ عضلةٍ في الجسمِ تعملُ بقوّةِ الطّاقةِ التي تُحَصِّلُها من الغذاءِ الذي نتناولُه.

٦ ـ الاتّزانُ الدَّاخِلِيُّ Homeostasis: المخلوقاتُ جميعُها تحافِظُ على ظروفِها الداخليّةِ التي هي مختلفةٌ عن بيئَتِها وثابتةٌ نِسبيًّا، وهذا يُدعى الاتّزان الدّاخليَّ.

٧ ـ التكيُّفُ: المخلوقاتُ الحيّةُ جميعُها تتفاعَلُ مع المخلوقاتِ الأُخرى، ومع مكوّناتِ البيئةِ غيرِ الحيّةِ بطرقٍ تُؤَثِّرُ في بقائِها، ونتيجةً لذلك، فإنّ المخلوقاتِ تُظْهِرُ (بطرق كامنةٍ فيها) تَكَيُّفاتٍ لبيئاتِهَا[١].

أَدْخلت العناصرُ السّابقةُ ـ التي تحتاجها الحياةُ في شكلها الخلويّ الأَوّل ـ العلماء في دوّامةِ حَيْرةٍ في سَعْيِهِم لِصناعةِ قصّةٍ ماديّة لنشأةٍ عشوائيّةٍ

---

(١) بيتر ريفن، وآخرون، علم الأحياء، تعريب: سامح التميمي وآخرون (الرياض: العبيكان، ٢٠١٤م)، ٣/١.

للحياةِ. وقد بَلَغَ الخلافُ في اجتهاداتِ العلماءِ في نماذجهم لنشأةِ الحياةِ الأولى مبلغًا عظيمًا؛ حتّى قال (بول ديفيس): إنّها أكْبرُ من كُلِّ خِلافٍ حول أيِّ قضيّةٍ من قضايا البيولوجيا[1].

المطلب الثاني

مُعْضِلَةُ النَّشْأَةِ.. وعُقْمُ الخَيَالِ العِلْمِيِّ

لم يتطرّقْ (داروين) إلى قضيّةِ أصلِ الحياةِ رغمَ أنّ اسم كتابه: «في أصل الأنواع» (!). ولم يُسْعِف التطوّرُ العلميُّ العلماءَ الذين عاشُوا بعد (داروين) بأكثرَ من قرنٍ أن يَجِدُوا حلًّا للمشكلةِ التي عَجِزَ (داروين) أن يقترب منها؛ بل الأمرُ أشدُّ من استمرار حال العجزِ والذُّهولِ أمام مشكلةِ نشأةِ الحياة؛ إذ ـ كما يقول عالِمُ البيولوجيا الشهير (كارل ويز) ـ: «لقد سَقَطَتْ العديدُ من الافتراضاتِ السّاذجةِ أو تَغَيَّرَ مسارُها منذ القرنِ التاسع عشر من خلال الفحصِ النّظريِّ والجهدِ التجريبيّ، وتوجدُ الآن نظريّاتٌ بديلةٌ. باختصارٍ، رغم أنّنا **لا نملك حَلًّا، إلّا أنّه لدينا الآنَ فِكرةٌ عن ضخامةِ المشكلةِ**»[2].

ودعني آخذك وراء الأبوابِ المغلقةِ لتكتشفَ حال «المجتمع العِلميِّ» الذي يُهيمِنُ على رُؤَاهُ الماديُّون. يقول (بول ديفيس): «يشعرُ العديدُ من الباحثين بعدمِ الارتياحِ في شأن التّصريح عَلَنًا أنّ أصلَ الحياةِ لُغْزٌ، رغم أنّهم **يعترفون بحريّةٍ وراءَ الأبوابِ المغلقةِ أنّهم في حَيْرةٍ.** يبدو أنّ هناك سَبَبَينِ لِضِيقِ أنفُسِهم. أوَّلًا: هم يشعرون أنّ ذلك يفتحُ البابَ للمتديّنين الأُصوليّين وتفسيراتِهم الزائفة بطرحهم عن إِلٰهِهِمْ؛ إلٰهِ الثَّغراتِ، ثانيًا: هم يشعرون بالقَلَقِ بأنّ اعترافًا صريحًا بالجَهْلِ سيرفَعُ عنهم الدَّعْمَ الماليَّ، خاصّةً عن أبحاثِ البحثِ عن الحياةِ في الفضاءِ»[3].

---

(١) Paul Davies, *Cosmic Blueprint: New discoveries in nature's creative ability to order the universe* (West Conshohocken, PA: Templeton Foundation Press, 2004), p.115.

(٢) Carl Woese and Gunter Wachtershauser, 'Origin of Life' in Derek E. G. Briggs and Peter R. Crowther, eds., *Paleobiology: A Synthesis* (Oxford: Blackwell Scientific Publications, 1990), p.9.

(٣) Paul Davies, *The Fifth Miracle*, 17 - 18.

بل دعنا ندخلُ مجلسًا ضَمَّ نخبةَ علماءِ العالم عُقِدَ لمناقشةِ أمرِ نشأةِ الحياة؛ فقد اجتمعَ شهر مايو ٢٠٠٢م نخبةُ العلماءِ المهتَمِّين بقضيّةِ البحثِ عن الحياةِ خارجَ الأرضِ من المختصّين في الكيمياء والبيولوجيا والفَلَكِ وأبوابٍ معرفيّةٍ أُخرى، ولم يستطِعْ أيٌّ منهم أن يخبرَ كيفَ بدأت الحياةُ على الأرضِ؛ حتّى قال (كينث نيلزن)[١] ـ المتخصّص في علم البيولوجيا الأرضية ـ: «لا أَحَدَ يفهمُ أصلَ الحياةِ. إذا قالوا لك إنّهم يفهمون أصلَ الحياةِ، فهم ربما يحاولون **خِداعَكَ**»[٢].

ويجنح (ستيوارت كوفمان) إلى لُغَةٍ أعنفَ في التّصريحِ بقوله: إنّ الذي يقول لك إنّه يعلم كيف بدأت الحياةُ، هو في الحقيقةِ «**أحمقٌ أو مخادعٌ**»[٣].

ومن طريفِ ما ذاع في الباب، المقالُ الذي نشَرَهُ أحدُ الصحفيّين العلميّين في مجلّة «Scientific American» ـ ٢٨ فبراير، ٢٠١١م ـ عن مؤتمرٍ علميٍّ نخبويٍّ عن أصلِ الحياةِ، تحت عنوانٍ: «ششششش! لا تخبرْ مَنْ يَرَوْنَ الخَلْقَ الخاصَّ، العِلمُ لا يعرف أَيَّ شيءٍ عن كيفيّةِ بدءِ الحياةِ» «Pssst! Don't tell the creationists, but science doesn't have a clue how life began». وممّا قال فيه: «قبل ٢٠ سنة بالضبط، كَتَبْتُ مقالًا لمجلّة «Scientific American» في شكلِ مُسوّدةٍ، وكان عنوانُه ما ذَكَرْتُهُ في الأعلى. عارضَ محرّرُ المجلّة ذلك؛ ولذلك اخترنا شيئًا أَقَلَّ دراماتيكيّةً: «في البدايةِ. . . : العلماءُ يجدون صعوبةً في الاتّفاق على متى وأينَ ـ والأكثر أهميّة ـ كيف ظهرت الحياةُ في البدءِ لأَوَّلِ مرّةٍ على الأرضِ». ذهب المحرّرُ الآن؛ ولذلك أُتِيحَ لي استخدامُ عنواني القديم، والذي هو **أكثرُ ملائمةً للوَضْعِ اليومَ**»!

---

(١) كينث نيلزن Kenneth Nealson: دكتوراه بيولوجيا دقيقة. له اهتمام خاص بتطوّر الحياة في الكون والحياة المايكروبية في الظروف الطبيعية القاسية.

(٢) خبر هذا المؤتمر نُشر أولًا في الموقع التخصصي (www.space.com)، لكنه لا يعمل الآن. بالإمكان العودة إلى الرابط التالي:

http://www.alaska-channel.com/blog/news/ShowArticle.asp?Id=9&num=192&nav=d.

(٣) Stuart Kauffman, *At Home in the Universe: the search for laws of self-organization and complexity* (New York: Oxford University Press, 1995), p. 31.

وهي الحقيقةُ التي أَخْبَرَ عنها عالم البيولوجيا المختصُّ في التاريخ التطوّريِّ المبكّرِ للأحياءِ (أوجين كونن)[١] في كتابِه «منطِقُ الصُّدْفةِ: طبيعةُ التطوّرِ البيولوجيّ وأصلُه» بقوله: «دراساتُ البحثِ عن أصلِ الحياةِ سِرٌّ «قَذِرٌ» يَنْدُرُ ذِكْرُهُ: . . . مجالُ أصلِ الحياة هو **محضُ إخفاقٍ**؛ نحن إلى الآن لا نملِكُ نموذجًا متناسقًا معقولًا لنشوء الحياة؛ فكيف بسيناريو مُبرهن له»[٢].

المطلب الثالث

أقوى الحلول.. عقيم

المستقرِئُ لكتبِ الماديّين يرى ميلَ الآملين فيهم في الخروجِ بحلٍّ ولو آنيٍّ لمشكلة أصلِ الحياة إلى الزّعم أنّ نظريّةَ (عالم الحَمْض النَّوويّ الرّيبوزيّ) (RNA World) ـ التي تَدَّعِي أنّ بدايةَ الحياةِ كانت بظهور «الحَمْضِ النّوويّ الرّيبوزيّ RNA» ـ بإمكانها فكُّ لُغزِ أصلِ الحياةِ وتطوّرِها المبكِّرِ. وقد بَثُّوا هذه الدَّعْوى في المجالِ الثّقافيِّ الشّعبيِّ، ولكنّ هذا الحَلَّ تُواجِهُهُ مشكلاتٌ كثيرةٌ مثل:

- (RNA) يكاد يكون من الـمُحالِ أن ينشأَ في الماء لِـهَشَاشَتِهِ.
- (RNA) كيانٌ مُعقّدٌ، وليس البدايةَ البسيطةَ التي يحتاجُها المذهبُ الماديُّ التطوّريُّ؛ ولذلك قال البيولوجيُّ التطوّريُّ (شابيرو): «يبدو أنّ تكوّنَ شيءٍ حاملٍ للمعلومات عبر تفاعُلٍ كيميائيٍّ غيرِ موجَّهٍ غيرُ محتملٍ بصورةٍ كبيرةٍ»[٣].
- (RNA) يحتاجُ ظروفًا غير طبيعيّةٍ ومُفْتَعَلة بصورةٍ عاليةٍ لِيَنْسَخَ نفسَهُ[٤].

---

(١) أوجين كونن Eugene Koonin (١٩٥٦ـ): بيولوجيٌّ من أصلٍ روسيٍّ. له عنايةٌ خاصّةٌ بالدّراسات الجينيّة. عضوُ الأكاديميّة الوطنيّة للعلوم.

(٢) Eugene V. Koonin, *The logic of Chance: the nature and origin of biological evolution* (Upper Saddle River, N.J.: Pearson Education, 2012), p.391.

(٣) Robert Shapiro, 'A replicator was not involved in the origin of life', *IUBMB Life*, 49: 173 - 175, 2000.

(٤) ذكر الكيميائيُّ (Steven A. Benner) أنّ الحَمْضَ النّوويّ الريبوزيَّ لا يمكنُ أن يكون قد نَشَأَ على الأرضِ =

• نَسْخُ (RNA) نفسُه دقيقٌ بما لا يسمح للطّفراتِ بالظُّهورِ، والطّفراتُ هي أصلُ وجود كلّ ما يلي في تاريخ تطوّر الحياةِ.

• لم يثبت إلى اليومِ أنّ (RNA) قادرٌ على القيامِ بالوظائفِ الخلويّةِ الأُولى التي يقوم بها اليومَ البروتينُ.

• قال (فرنسوا جاكوب)[1] ـ الحاصل على جائزة نوبل ـ: «من الواضح أنّ ظهورَ حياةٍ قائمةٍ على (RNA) والانتقال إلى عالم قائم على (DNA) يقتضي وجودَ عددٍ مُذْهلٍ من المراحلِ، **كُلُّ مرحلةٍ منها مُسْتَبْعَدَةٌ بصورةٍ أعظمَ من المرحلةِ السّابقةِ لها**»[2].

• هذه الفرضيّةُ لا تَحُلُّ المشكلةَ الأصليّةَ، وهي أصلُ المعلومات والتَّشفير، ولذلك قال (ستيفن ماير) بعد بيان هَشَاشَةِ هذه النظريّةِ: «لم يُقَدِّم المدافعون عن نظريّةِ (عالم الحَمْضِ النّوويِّ الرّيبوزيِّ) أيَّ تقريرٍ عن أصل المعلوماتِ بعيدًا عن الالتجاءِ الغامضِ إلى الصُّدْفةِ»[3]، وأمّا (دوغلاس هوفشتادتر)[4] فقد كَتَبَ ـ بعد أن صَرَّحَ أنّ ظهورَ الحياة بالانتقالِ من الجزيئاتِ البسيطةِ إلى الخلايا الكاملةِ أَمْرٌ يكاد يَتَجَاوَزُ خيالَ الإنسان ـ: «توجدُ نظريّاتٌ مختلفةٌ لتفسيرِ أصلِ الحياةِ، وكُلُّها تحاوِلُ أنْ تَلْتَفَّ باحتيالٍ وراء أَهَمِّ سؤالٍ مركزيٍّ في الأسئلة المركزيّة: كيف نَشَأَت الشَّفْرةُ الجينيّةُ مع آلياتِ تَرْجَمَتِها؟»[5].

والظَّريفُ أَنَّ الإعلام نَشَرَ مُؤَخَّرًا دَعْوى تزعمُ أنّ العلماءَ قد استطاعوا

= عند بدءِ الحياةِ لِعَدَم توفُّرِ الظُّروفِ الكيميائيّةِ لذلك؛ ولذلك ادَّعى أنّ الحَمْضَ النّوويَّ الريبوزيَّ قد نشأ في كوكبِ المرّيخ حيث الظُّروفُ أكثرُ ملاءمةً لذلك، ثم سافرَ هذا الحَمْضُ بعد ذلك إلى الأرضِ!؟
R. Webb, 'Primordial broth of life was a dry Martian cup-a-soup', *New Scientist*. August 29, 2013.

(١) فرنسوا جاكوب Fran5ois Jacob (١٩٢٠ ـ ٢٠١٣م): بيولوجيٌّ فرنسيٌّ متخصّصٌ في عمل الإنزيمات. حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٦٥م مشاركة مع (جاك مونو).

(٢) François Jacob, *Of Flies Mice and Men*, tr. Giselle Weiss (Harvard University Press, 1998), p.21.

(٣) Stephen C. Meyer, *Signature in the Cell: DNA and the Evidence for Intelligent Design* (New York: HarperOne, 2009) p.312.

(٤) دوغلاس هوفشتادتر Douglas Hofstadter (١٩٤٥ـ): أستاذُ عِلْمِ الإدراك أمريكيٌّ. حاصل على جائزة «National Book Awards».

(٥) Douglas Hofstadter, *An Eternal Golden Braid* (London, Penguin, 1979), p. 548.

إنشاءَ الحياةِ من خلالِ خَلْقِ حَمْضٍ نَوويٍّ ريبوزيٍّ، رغم أَنَّ هذه التَّجربةَ[١] قد بدأَتْ بشريطِ حَمْضٍ نوويٍّ ريبوزيٍّ، ولم تَخْلُقْهُ أَوَّلًا، وهو ما يُعارِضُ العشوائيَّةَ الـمُدَّعاة، والأهمُّ من ذلك أنّ أحد اللَّذَيْنِ قاما بهذه التّجربة العلميّةِ صَرَّحَ أَنَّ «الافتراض الأَقْوى هو أَنَّ الحياة لم تبدأ بالحَمْضِ النَّوويّ الرّيبوزيِّ... الانتقالُ إلى عالَم الحَمْضِ النّوويِّ الرّيبوزيِّ، هو مِثْلُ أَصْلِ الحياةِ عُمومًا، محفوفٌ بالشَّكِّ ويعاني من نقصِ البياناتِ التجريبيّةِ»[٢].

ومن أعظمِ مظاهرِ عُقْمِ هذه النظريّةِ المقالُ الذي صدر منذُ أشهرٍ قليلةٍ في المجلّة الرسميّة «للأكاديميّة الوطنيّةِ للعلوم» الأمريكيّة، حيث ذهبَ أصحابُه إلى أنّ ظهورَ (RNA) بصورةٍ عشوائيّةٍ على الأرضِ بعيدٌ جدًّا، ولذلك زَعَمُوا أنّ (RNA) نَشَأَ خارجَ الأَرضِ أَوَّلًا، ثم انتقلَ إلى الأرضِ عن طريقِ الغُبارِ الكونيِّ[٣]!

ولذلك قال (لزلي أُورجل) ـ أحدُ أبرزِ المتخصّصين في أبحاثِ نشأة الحياةِ ـ بعد أن عَرَضَ مُشكلاتِ هذه النّظريّةِ: «سيكون الأمرُ **مُعْجِزةً** لو أَنَّ شَرِيطًا من الحَمْضِ النَّوويِّ الرّيبوزيِّ قد ظَهَرَ [مرّةً واحدةً] في المراحل الأُولى من عُمْرِ الأرضِ» قبلَ أن يُعَقِّبَ ضاحِكًا: «**أَرجُو أَلَّا يكون هناك مؤمِنٌ بالخَلْقِ الخاصِّ بين الجمهورِ**»[٤]. أمّا عالِمُ الكيمياءِ الحيويّةِ (بير لويجي لويزي)[٥] فقد اختصَرَ الكلامَ بقوله: إنّ سيناريو «عالَم الحَمْضِ النّوويِّ الرّيبوزيِّ» «**خَيَالٌ** لا أساسَ له»[٦].. نعم.. لقد عُدْنَا إلى الحديثِ عن الـمُحالاتِ الطّبيعيّةِ و«المعجزات» والخيالاتِ!

نظريّةُ «عالَمِ الحَمْضِ النّوويِّ الرّيبوزيِّ»، أفضلُ الأُطروحاتِ المعروضةِ

---

(١) T. Lincoln and G.Joyce, 'Self-sustained replication of an RNA enzyme,' *Science* 323 (5918): 1229 - 1232, 2009.

(٢) G.Joyce, 'RNA evolution and the origins of life,' *Nature* 338: 217 - 224, 16 March 1989.

(٣) Ben K. D. Pearce, *et. Al.*, 'Origin of the RNA world: The fate of nucleobases in warm little ponds'. <http://www.pnas.org/content/early/2017/09/26/1710339114>.

(٤) Leslie Orgel, "The RNA World and the Origin of Life," lecture, ISSOL 2002.

(٥) بير لويجي لويزي Pier Luigi Luisi (١٩٣٨ـ): أستاذٌ في قسمِ البيولوجيا في جامعة «روما». مدير «Synthetic Biology and Supramolecular Chemistry Laboratory».

(٦) Susan Mazur, *The Origin of Life Circus* (New York: McNally Jackson Books, 2014), p.56.

على السّاحة العلميّةِ، وهي مع ذلك بائسةٌ جدًّا؛ ذاك هو عنوان مقالٍ علميٍّ نُشِرَ منذ بِضْعِ سنواتٍ في مجلّة عالمانيّةٍ: «The RNA world hypothesis: the worst theory of the early evolution of life (except for all the others)»[1].

«لا يحتاج المرء غير أن يفكّر في ضخامة المهمة ليستنتج أن النشوء التلقائي للكائن الحي مستحيل»[2]. (جورج والد) الحائز على نوبل سنة ١٩٦٧م.

اعتراض: أَلَا تَدُلّ كثرةُ نظريّاتِ نشأةِ الحياةِ بصورةٍ عشوائيّةٍ على إمكانها؟

الجواب:

كثرةُ النظريّاتِ وتضاربها الشّديد، وقيامُها على مُقدِّماتٍ مُتباعِدةٍ، حُجّةٌ على هَيْمَنةِ الظَّنِّ والتَّكَلُّفِ على مقدّماتِ البحثِ ومناهِجِهِ. وانحيازُ العلماءِ إلى التّفسيرِ العشوائيِّ الصِّرْفِ مُقدّمةٌ أُولى لِكلّ النّظريّاتِ العِلميّةِ في الغرب لِنشأةِ الحياةِ، وليسَ نتيجةً لها. ومما يفضحُ ذلك قولُ الكيميائيِّ (جورج وايتسايدز)[3] ـ سنة ٢٠٠٧م ـ أثناء تتويجه بأعلى وِسامٍ عِلميٍّ من طرفِ «الجمعيّةِ الكيميائيّةِ الأمريكيّةِ»: «نشأةُ الحياةِ، هذه المشكلةُ هي إحدى أعظمِ المشكلاتِ العلميّةِ. وهي تبدأُ بوضعِ الحياة، ونحن معها، في الكونِ. يؤمنُ جُلُّ الكيميائيّين ـ مثلي تمامًا ـ أنّ الحياة قد ظهرَتْ بصورةٍ عَفَوِيَّةٍ من خليطِ جزيئاتٍ في بدايةِ عُمْرِ الأرضِ. كيف كان ذلك؟ لا علم لنا البَتَّةَ بالجوابِ»[4].

إنّ حقيقة الحال لا تقف عند جهلنا، وإنّما هي أكبر من ذلك؛ فإنّ الكشف عن تعقيد أدنى بنى الحياة قاطع للّجج والجدل؛ ولذلك جاء حديثًا في

---

(١) H. S. Bernhardt, The RNA world hypothesis: the worst theory of the early evolution of life (except for all the others). *Biology Direct* 2012. 7:23.

(٢) G.Wald, 'The Origin of Life,' *Scientific Amer* 191:46, August 1954.

(٣) جورج وايتسايدز George Whitesides (١٩٣٩ـ): أستاذُ الكيمياءِ في جامعة «هارفارد».

(٤) George M. Whitesides, "Revolutions in Chemistry," *Chemical and Engineering News* 85 (3/26/07), pp. 12 - 17.

مقال في مجلة «Progress in Biophysics and Molecular Biology» لمجموعة من العلماء، أنّ مذهب النشأة العشوائية للحياة من اللاحياة قد «تمّ تطويره في وقت كانت فيه الخلايا الحيّة الأقدم تعتبر هياكل بسيطة للغاية يمكن أن تتطور فيما بعد بطريقة داروينية. كان يجب ـ بالطبع ـ أن تُعرض هذه الأفكار للفحص بدقة وأن تُرفض بعد اكتشاف التراكيب الجزيئية المعقدة للغاية في البروتينات والحمض النووي الصبغي، ولكنّ ذلك لم يحدث»[١].

المطلب الرابع

ظهورُ الحياةِ، والسَّيْرُ عَكْسَ القانونِ

مَرَّ معنا سابقًا أنّ القانونَ الثاني للدّيناميكا الحراريّةِ حَاكِمٌ على جميع الطّبيعةِ الماديّة، وأنّه أعظمُ القوانينِ موثوقيّة. وهذا القانونُ يَنُصُّ على أنَّ الطبيعةَ تسيرُ من الحرارةِ إلى البرودةِ ومن النّظامِ إلى الفوضى، في اتّجاهٍ واحدٍ.

ونحن إذا سَلَّمْنا مع الماديّين أنّ الحياةَ ليست أَثَرًا عن سلطانٍ من خارجِ الطّبيعةِ؛ فسنقولُ: إنّ ظهورَ الحياةِ بنظامِها المعقّدِ أَمْرٌ يُخالِفُ ضرورةَ القانونَ الثاني للدّيناميكا الحراريّةِ؛ إذ إنّ الشّواهِدَ العلميّةَ تَدُلُّ على أنّ الأرضَ منذ قرابة ٤ بليون سنةٍ كانت في حالِ فوضى مع قَصْفِ الشُّهُبِ لها وتَبَرُّدِ قِشْرةِ الأرضِ. لقد كان ظهورُ الحياةِ قفزةً عاليةً إلى القمّةِ في النّظامِ على الأرضِ في مخالفةٍ لِسيرِ قانونِ الفوضى.

كيف رَدَّ الدَّراونةُ على هذه النَّكارة البَيِّنَةِ لظهورِ الحياةِ؟

قال الدَّراونةُ: إنّ الأرضَ ليست نظامًا مُغْلقًا على نفسِه؛ وإنّما هي تَتَلَقّى الطّاقةَ من خارجِها. . ولأنّها تستفيدُ من رَصيدِ هذه الطّاقةِ؛ فهي قادرةٌ على أن تُحَوِّلَ الفوضى إلى نظامٍ، في حين أنّ القانونَ الثّاني للدّيناميكا الحراريّة لا يعمل إلّا في الأنظمةِ المغلقةِ.

---

(١) Edward J.Steele, *et al*. Cause of Cambrian Explosion-Terrestrial or Cosmic?, 13 March 2018. <https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0079610718300798>.

وجوابُ الدَّراونةِ لا تَعَلُّقَ له بما نقولُ؛ إذ إنّه يَخْلِطُ بين حَجْمِ الطّاقةِ أو مصدَرِها، وتَحَوُّلِ الطّاقةِ للإفادةِ منها.

الطّاقةُ الخامُ عاجزةٌ بصورةٍ تامّةٍ عن أن تُحَوِّلَ الفوضى إلى نظامٍ، فإنّ البيوتَ التي تَتَعَرَّضُ إلى الشَّمْسِ ليلَ نهار لا تتحوَّلُ إلى قُصورٍ، وسيَّارةُ «بيجو» قديمةٌ يُصَبُّ على سَقْفِها بنزين لا تتحوَّلُ إلى سيارةِ «لموزين».. الطّاقةُ الخامُ لا تُفِيدُ غيرَها في شيءٍ حتّى تُوجَدَ آليّةُ تحويلِ الطّاقةِ الخامِ إلى طاقةٍ قابلةٍ للاستهلاكِ بآليّةٍ ذكيّةٍ؛ ولذلك فالبنزين إذا وُضِعَ في خَزَّانِ السيّارةِ ولم يُهْرَقْ على سَقْفِها فإنّه يجعلها تتحرَّكُ ولا يُفْسِدُ سَقْفَهَا؛ إذ إنّ السيّارةَ مُجَهَّزَةٌ بآليّةٍ تحويلِ البنزين إلى طاقةٍ تَدْعَمُ مُحَرِّكَهَا. وبعبارةِ أَحَدِ الكتبِ المدرسيّةِ الأمريكيّةِ للبيولوجيا: «لقد أَكَّدْنا مرارًا على المشكلات الجوهريّةِ التي تُواجِهُ البيولوجيّين من خلالِ حقيقةِ التنظيمِ المعقّدِ للحياةِ. لقد رأينا أن التنظيمَ يحتاجُ إلى صيانةٍ... مجرّدُ دَفْقِ الطّاقةِ لا يكفي لِتطويرِ النّظامِ والحفاظِ عليه... العملُ المطلوبُ محدَّدٌ، وعليه أن يَتَّبِعَ التَّدقيقاتِ، وهو يحتاجُ إلى **معلوماتٍ** لبيانِ كيفيّةِ التَّصَرُّفِ»[1].

وقد كان مظهرُ الحياةِ الأوّل بحاجةٍ إلى طاقةٍ تُعِينُهُ على التَّضاعُفِ والتّكاثُرِ والنُّمُوِّ والحَرَكةِ والتَّخَلُّصِ من الفضلاتِ. وفي غيابِ آليّةٍ ذكيّةٍ ومُعقّدةٍ للقيام بهذه المهامِّ يمتنع إمكانُ تحويلِ طاقةِ الشمسِ إلى عنصرٍ إيجابيٍّ لا مُدَمّرٍ للحياةِ على الأرض. وهذا الحُكْمُ يجري على كلِّ مظهرٍ في الوجود ينتقلُ من الفوضى إلى النّظام أو من نظامٍ أدنى إلى نظام أعلى (كَتَحَوُّلِ النُّطْفةِ الأَمشاجِ إلى إنسانٍ)؛ فالطّاقةُ لا تنتقِلُ من عنصرٍ مُدَمّرٍ أو مُبَعْثَرٍ إلى مصدرِ نظامٍ أو نَمَاءٍ إلّا بِتَوَفُّرِ شرطَيْنِ؛ برنامجٍ لتوجيهِ النّظامِ أو النموّ (كالمعلومات الجينيّةِ في الإنسان)، وقوّةٍ لتحويلِ الطاقةِ إلى أداةٍ إيجابيّةٍ للنظامِ أو البناءِ[2].

ومن الإشكاليات الأُخرى للطّاقةِ الخامِ عند بداية الحياةِ، الطّبيعيّةُ الهَشَّة

---

(١) George Gaylord Simpson and William Samson Beck, *Life: an Introduction to Biology* (New York: Harcourt, Brace & World, 1965), p.466.

(٢) Henry M. Morris, *Scientific Creationism* (AR: New Leaf Publishing Group, 1974), p.44.

لِـمظاهِرِ الحياةِ الأُولى التي يَفْتَرِضُها دُعاةُ التّطوُّرِ، والتي لا تحتاج طاقةَ الشّمسِ الخام؛ إذ إنّ الأشعّةَ فوقَ البَنَفْسَجيّةِ الواردةَ من الشّمسِ مُدمّرةٌ لأيّ جُزيئاتٍ مُعقّدةِ التركيب على الأرضِ.

المطلب الخامس

الخليّةُ الأُولى البدائيّة، هل هي بدائيّةٌ؟

لقد كانت الخليّةُ زَمَنَ (داروين) مادّةً مُتَجَانِسةً بسيطةَ التّركيبِ، أو بعبارةِ البيولوجيّ الألمانيّ (إرنست هيكل)[1] ـ التي كَتَبَهَا بعد سنةٍ واحدة من وفاة (داروين) ـ ١٨٨٣م ـ: «لا تَتَكَوَّنُ [الخليّة] من أيِّ أعضاءِ البَتَّةَ، وإنما هي مادّةٌ بلا شَكْلٍ، وبسيطةٌ ومتجانِسةٌ. . وتَتَمَثَّلُ في تَكَتُّلٍ كربونيٍّ زُلاليٍّ»[2]. . والخليّةُ اليومَ ـ بعد تطوُّرِ أدواتِ البحثِ في البيولوجيا الجزيئيّة ـ عالَمٌ كبيرٌ مُدهِشٌ مُنْطَوٍ في مساحةٍ مايكروسكوبيّةٍ شديدةِ الضِّيقِ.

إنّنا لو ضخَّمْنَا الخليّةَ ألفَ مليونِ مرّةٍ حتّى يُصبِحَ قُطْرُها ٢٠ كيلومترًا وكأنّها مِنْطادٌ ضَخْمٌ قادِرٌ على تغطيةِ مدينةٍ كبيرةٍ مثل لندن أو نيويورك، فسيبدو لنا حالُ الخليّة أَوْضَحَ في نظامِه وتعقيدِه وتكامُلِ عَمَلِ من يَسْكُنونَهُ. ستبدو لنا ملايينُ الفتحاتِ في جدارِ الخليّةِ، تَفْتَحُ وتُغْلِقُ بحسب حاجة الخليّة لما يُبْقِيها حيَّةً لِتُحَقِّقَ تَوَاصُلَها مع بقيّةِ الخلايا. وداخِلَ الخليّةِ تَنْتَظِمُ الممَرَّاتُ والطُّرُقُ السّريعةُ على صورةٍ بالغةِ التّعقيدِ، منها ما يقودُ إلى بنكِ الذّاكرةِ المركزيّ في نَوَاةِ الخليّةِ، ومنها ما يقودُ إلى مصانعِ تجميعِ وَحْداتِ المعالَجَةِ، وهناك المكتباتُ، والشُّرطةُ، ومصانِعُ الطّاقةِ، وعُمّالُ الصّيانةِ، ونَقَلَةُ البضائِعِ، وآلاتُ النَّسْخِ، والتّرجمةِ. . .[3].

ما الخليّة الأولى البدائيّةُ التي تُحقّقُ الحَدَّ الأدنى من شروطِ الحياةِ والتّكاثُرِ؟

---

(١) إرنست هيكل Ernst Haeckel (١٨٣٤ ـ ١٩١٩): بيولوجيٌّ، وعالِمُ تشريحٍ، ومؤرّخُ علومٍ. يُعَدُّ أَهَمَّ المدافعين عن الدّارونيّة في ألمانيا في عصرِهِ.

(٢) Ernst Haeckel, *The History of Creation*, tr. Ray Lankster (London: Trench, 1883), 1/184.

(٣) Michael Denton, *Evolution: A Theory in Crisis*, p. 328.

جاء في مقالٍ لعالِم الكيمياء الحيويّةِ التطوّريّ (نِك لين)[١] في مجلّة (New Scientist) (٢٠٠٩م) ـ بعد أنْ ذهبَ إلى اختلافِ الخليّةِ اليومَ عن الخليّة الأُوْلى في تفاصيلِ نَسْخِ الحَمْضِ النَّوويِّ الصِّبغيِّ وجدارِ الخليّة ـ: «لا شَكَّ أنّ السَّلَفَ المشترَكَ [للكائناتِ الحيّةِ] كان يملِكُ حَمْضًا نَوويًّا صِبْغِيًّا، وحَمْضًا نوويًّا ريبوزيًّا، وبروتيناتٍ، وشَفْرةً جِيْنيّةً عالميّةً، ورايبوسوماتٍ (مصانع صناعة البروتينات)، وأدينوسين ثلاثيّ الفوسفات، وإنزيمًا لصناعة الأدينوسين، كما كانت تفاصيلُ آليّاتِ قراءةِ الحَمْضِ النّوَويِّ الصّبغيّ وتحويل الجيناتِ إلى بروتيناتٍ موجودةً أيضًا. باختصارٍ، أَقْدَمُ سَلَفٍ مشترَكٍ لكلِّ أنواعِ الحياةِ يبدو **بصورةٍ كبيرةٍ مثلَ الخليّةِ الحديثةِ**»[٢].

وبعبارةِ عالِم الكيمياءِ الحيويّةِ (روبرت ف. جولدبرجر)[٣]: «المفهومُ الشّعبيُّ للخلايا الأُولى كبدايةٍ للأنواع، فَهْمٌ خاطِئٌ. **لم يكن هناك شيءٌ بدائيٌّ وظيفيًّا في هذه الخلايا**. لقد كانت الخليّةُ تحتوي أساسًا على المعدّاتِ الكيميائيّةِ الحيويّةِ نفسِها لنظيراتها الحديثةِ. كيف إذن نَشَأَت الخليّةُ الأُولى؟ **التّعليقُ الوحيدُ الذي لا لَبْسَ فيه في هذه المسألة هو أنّنا لا نَعْلَمُ**»[٤].

الأمرُ في حقيقتِه على درجةٍ عاليةٍ من الوضوحِ في شأن البدايةِ الأولى للحياةِ والخليّةِ؛ حتى قال (جاك مونو) ـ عالِمُ الكيمياءِ الحيويّةِ **الملحد** الحائز على جائزة **نوبل** ـ بعد أنْ بَيَّنَ أنّ خليّةَ أبسطِ الكائناتِ الحيّة (البكتيريا) تعملُ من الناحية الكيميائيّة أساسًا مثل الخليّة البشريّة ـ: «إنّ أبسطَ الخلايا المتاحة لنا للدّراسةِ ليس فيها شيءٌ «بدائيٌّ» «primitive»»[٥].

إننا أمام حقيقتَيْنِ في تَصَادُمٍ تامٍّ مع التّصوّرِ التطوّريِّ الإلحاديِّ؛

---

(١) نك لين Nick Lane (١٩٦٧ـ): أستاذ الكيمياء الحيوية التطوّرية في «University College London».

(٢) Nick Lane, 'Was our oldest ancestor a proton-powered rock?', *New Scientist* 204 (2730): 38 - 42 17 October 2009.

(٣) روبرت ف. جولدبرجر Robert F. Goldberger (١٩٤٤ ـ ٢٠٠٣م): أستاذ الكيمياء الحيوية والفيزياء الحيوية الجزيئية في جامعة «كولومبيا» الأمريكيّة.

(٤) David E. Green and Robert F. Goldberger, *Molecular Insights into the Living Process* (New York: Academic Press, 1967), p.403.

(٥) Jacques Monod, *Chance and Necessity*, p. 134.

أُوْلاهما: أنّ الحياةَ لم تبدأ بسيطةً؛ بل بدأتْ بتعقيدٍ عالٍ جدًّا، والثانية: أنَّ الحياة لم تتطوَّرْ على مستوى القاعدة الأدنى للحياة على مدى بلايين السّنين.

ومن المثير هنا أَنَّهُ قد نُشِرَ مُؤَخّرًا بحثٌ عن قيامِ فريقٍ علميٍّ باستحياءِ بروتينٍ بكتيريٍّ عُمْرُهُ ٣,٥ بلايين سنة لتحديد الطّريقة التي كانت تعمل بها الخلايا في الزَّمَنِ القديم جدًّا مقارنةً بالخلايا الحيّةِ اليومَ، وكانت النتيجةُ المفاجئةُ للتطوّريّين أَنَّ عَمَلَ البروتينات بعد نصفِ بليون سنةٍ من ظهورِ الحياةِ هو نفسُه اليومَ، بلا تَطوُّرٍ[1].

«أنت تحتاج أن تملِكَ جدارَ الخليّةِ، ومنظومةَ الطاقةِ، ومنظومةَ الإصلاح الذاتيِّ، ونظامَ الاستنساخِ ، ووسيلةَ ترجمةِ تفسيرِ الشَّفْرةِ الجينيّةِ المعقّدةِ، ونَسْخها، إلخ، إلخ. وإنَّ منظوماتِ التَّواصلِ المجتمعةِ في العالَم أَقَلُّ تعقيدًا من ذلك بكثيرٍ، ومع ذلك لا يُؤْمِنُ أَحَدٌ أنها نَشَأَتْ بالصُّدْفَةِ»[2]. الكيميائيّ (ستفن غروغوت)[3].

المطلب السادس

معضلة الرصيد الجيني الأدنى

لا يمكن للكائنِ الحيّ أن يعيشَ ويتكاثَرَ دون حدٍّ أدنى من الجيناتِ تُتِيحُ له التّواصُلَ مع بيئتِهِ للاغتذاءِ والتّكاثُرِ. وقد قام عالِمُ الكيمياء الحيويّةِ التطوّريِّ (كريج فنتور) ـ الذي سبق له الكشف عن تفاصيلِ جينوم الإنسانِ ـ مع مجموعةٍ

---

(١) Busch, *et al*. 'Ancestral Tryptophan Synthase Reveals Functional Sophistication of Primordial Enzyme Complexes.' *Cell Chemical Biology*, 2016.
"Bacteria perfected protein complexes more than 3.5 billion years ago." *ScienceDaily*. Science Daily, 9 June 2016.
< https://www.sciencedaily.com/releases/2016/06/160609134243.htm >.

(٢) John F. Ashton, ed., *In Six Days* (Green Forest, AR: Master Books, 2001), 149.

(٣) ستفن غروغوت Stephen Grocott: كيميائيٌّ أمريكيٌّ. عضوُ الجمعيّة الكيميائيّةِ الأمريكيّةِ والمؤسّسة الكيميائيّة الأستراليّة الملكيّة.

من العلماءِ بالبحثِ لمدّة عشرين سنةٍ للتَّوَصُّلِ إلى أقصى حَدٍّ أدنى لكائنٍ حيٍّ ليستوفيَ شروطَ الحياةِ، وأعلنَ الفريقُ نتيجةَ جهدِه منذ أَشْهُرٍ قلائِلَ، وهو أنَّ الحَدَّ الأدنى من الجيناتِ المطلوبةِ لحياةٍ خليّةٍ مستقلَّةٍ عن غيرها وقادرةٍ على النُّمُوِّ السّليم هو ٤٧٣ جينٍ[١]؛ أي: أكثرَ من نصفِ مليونِ حرفٍ نيكلوتيديٍّ بترتيبٍ مخصوصٍ[٢]. وبعيدًا عن أنّ هذا الرّقمَ مَحَلُّ نَظَرٍ لأنّ الفريقَ استَبْعَدَ جيناتٍ لا يعلَمُ وظيفَتَها وأُخرى يبدو أنها غيرُ أساسيّةٍ رغم أنّ ترابُطَ العَمَلِ الجينيِّ قد يَكشِفُ ضروريّتها لعملِ بقيّةِ الجيناتِ، إلَّا أنّه على كُلّ حالٍ كافٍ لِيَهْدِمَ كُلَّ نظريّات التطوّرِ الكيميائيِّ لأصلِ الحياةِ؛ فإنّ هذا العَدَدَ الضَّخْمَ من المعلومات التي صِيْغَتْ في قالبِ تعقيدٍ مخصوصٍ لا يتآلَفُ مع العشوائيّةِ؛ فإنّ احتمالَ الظُّهورِ العشوائيِّ للحدِّ الأدنى من الجيناتِ يفوق ببلايينَ مُبَلْيَنَةٍ عُمْرَ الكونِ، أو بعبارةٍ أُخرى هو يفوقُ بدرجةٍ كبيرةٍ الحدَّ الأقصى للاحتمالاتِ الممكنة في حدود عُمْرِ هذا الكونِ وسَعَتِهِ: ١ من (10^{150})[٣]، وهو ما يُساوي الصِّفْرَ الرياضيّ!

مشكلةُ كثيرٍ من عناصر الخليّة أنّها مع تعقيدِها لا قيمةَ لها إذا لم توجد بعضها مع بعضٍ في الآن نفسِه للقيام بمهمَّتِها؛ ثمّ إنّها هي نفسُها لا تستغني عن الخليّةِ لِتُوْجَدَ؛ فجدارُ الخليّة وغِشاؤُها لا يمكن أن يتكوَّنَا دون بروتيناتٍ و(RNA) و(DNA)، وهذه الجزيئاتُ لا يمكن أن تُحَقِّقَ الاستقرارَ دون وجودِ جدارِ الخليّةِ وغِشائِهَا، ثمّ إنّه لا سبيلَ لبقاء (RNA) و(DNA) دون بروتيناتٍ، ولا سبيلَ لوجود البروتيناتِ دون (RNA) و(DNA)!

---

(١) J. Craig Venter *et al.*, 'Design and synthesis of a minimal bacterial genome', *Science* 25 Mar 2016: Vol. 351, Issue 6280.
<http://science.sciencemag.org/content/351/6280/aad6253>.

(٢) C.M. Fraser, *et al.*, 'The minimal gene complement of Mycoplasma genitalium', *Science* 270 (5235): 397-403, 1995.

(٣) Behe, Dembski and Meyer, *Science and Evidence for Design in the Universe* (San Francisco: Ignatius Press, 2000), p.76.

المطلب السابع

مشكلةُ تعقيدِ (ما تحت الخليّة)

التّعقيدُ في الخليّةِ على نوعَيْنِ؛ كلٌّ منهما خَصْمٌ لِلعشوائيّةِ؛ أَوَّلُهما تعقيدُ تكوين الخليّةِ بترابُطِ عناصِرِها ضِمْنَ منظومةٍ متكاملةٍ يجتهد كلُّ شيءٍ فيها لخدمةِ غايةِ بقاءِ الخليّةِ، وعَمَلِها، وانقسامِها، وحمايَتِها من التَّلَفِ؛ حتّى قال (ويليام ثورب)[١]: «يُشَكِّلُ النَّوعُ الأبسَطُ من الخلايا «آليّةً» أَشَدَّ تعقيدًا ـ بصورةٍ لا تُتَخَيَّلُ ـ من أيِّ آلةٍ تَمَّ التّفكيرُ فيها من طرف الإنسان، فَضْلًا عن صِنَاعَتِها»[٢].

وثاني وَجْهَي التّعقيدِ في الخليّةِ، تعقيدُ العُضَيَّاتِ التي تعملُ لخدمةِ الخليّةِ داخِلَها. ولنأخُذْ عُضَيَّةً واحدةً من عُضَيَّاتِ الخليّةِ مما يجب أن تَتَوفَّرَ عليه الخليّةُ في مرحلةٍ مُبكّرةٍ من تاريخِها التطوّريِّ، وليكن بروتين (cytochrome c) مثلًا. فقد انتهى (هابرت يوكي)[٣] إلى أنّ النّسبةَ الاحتماليّةَ للظُّهور العَفَويِّ لهذا البروتين الصَّغِيرِ في وَسَطٍ غَنِيٍّ بالأحماضِ الأمينيّةِ يبلُغُ تقريبًا (10^{-75})؛ وهو احتمالٌ بالِغُ الضَّعْفِ[٤].

ولننظرُ ـ مثلًا ـ في تفسير نشأة (الرايبوسوم) (ribosome) الذي يُساهِمُ في تصنيعِ البروتينات التي تُمثّلُ لَبِناتِ الخلايا الحيّة؛ فهو موجودٌ في كلِّ الكائناتِ الحيّةِ، كما أنّه ثابتٌ لم يَتَغَيَّرْ مع الزَّمَنِ، مع تعقيدٍ شديدٍ حتى قالَتْ فيه البيولوجيّة (أدا يوناث)[٥] الحائزة على **نوبل** سنة ٢٠٠٩م في الكيمياء عن أبحاثِها في تركيبةِ (الرايبوسوم) وعَمَلِهِ ـ إنَّ عناصِرَهُ الصُّغرى تُظْهِرُ «هندسةً

---

(١) ويليام ثورب William Thorpe (١٩٠٢ ـ ١٩٨٦م): عالِمُ حَيَوانٍ بريطانيٌّ. له اهتمامٌ بالبيولوجيا السُّلوكيّة. عضوُ الجمعيّة الملكيّة البريطانيّة.

(٢) William Thorpe, 'Reductionism in Biology,' in Francisco Ayala and Theodosius Dobzhansky, eds., *Studies in the Philosophy of Biology: Reduction and Related Problems (Berkeley, CA: University of California Press, 1974), 117.*

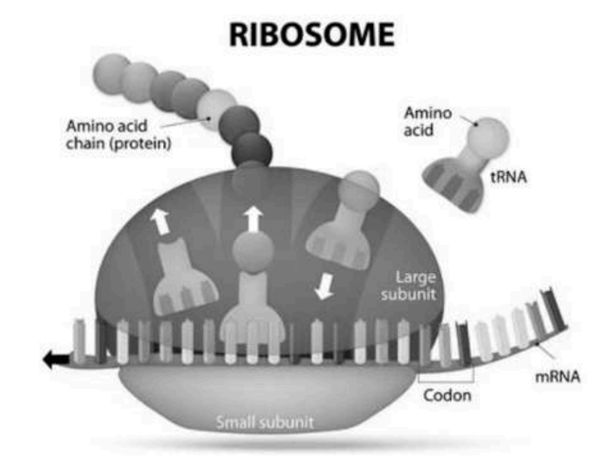
(٣) هابرت يوكي Hubert Yockey (١٩١٦ ـ ٢٠١٦م): فيزيائيٌّ وعالِمُ معلوماتٍ أمريكيٌّ.

(٤) Hubert P. Yockey, *Information Theory, Evolution, and the Origin of Life*, pp.254-255.

(٥) أدا يوناث Ada Yonath (١٩٣٩ـ): مستوطِنةٌ يهوديّةٌ في فلسطين. عضوُ أكاديميّة العلوم الأمريكيّةِ.

ديناميكيّةً مُدهِشةً تَمَّ نَظْمُهَا بإبداعٍ لِتَقُومَ بوظائفها»[1]. فكيف ظهر (الرايبوسوم) مُعقَّدًا على هذه الصُّورةِ العجيبةِ، وهو آلةُ فَكِّ تشفيرٍ ضروريّة للحياةِ التي بدأَتْ مُشفَّرةً ـ بإقرار الدَّراونةِ ـ؟!

(آلة الرايبوسوم RIBOSOME)



كما صُدِمَ علماءُ البيولوجيا الجزيئيّةِ عندما عَلِمُوا أنّ الخليّةَ ملآنة بالمحرّكات، وفي هذا يقول (بروس ألبرتز)[2] ـ الرئيسُ السّابِقُ لـ«الأكاديميّة الوطنيّةِ الأمريكيّةِ للعلوم» ـ: «لقد كُنَّا دائمًا لا نُحْسِنُ تقديرَ حقيقةِ الخلايا. . . . من الممكنِ رُؤيةُ كامِلِ الخليّة على أنّها مصنعٌ يَضُمُّ شبكةً معقّدةً لخطوطِ تجميعٍ مُتعالِقةٍ، كلٌّ منها تَضُمُّ مجموعةً من الآلاتِ البروتينيّةِ الكبيرةِ. . . . لماذا نُسمّي البِنى البروتينيّةَ الكبيرةَ التي تكمُنُ وراءَ عَمَلِ الخليّةِ آلاتٍ بروتينيّةً؟ الجوابُ بِدقّةٍ: أنّها مثل الآلات التي اختُرِعَتْ من طرف الإنسان للتّعاملِ بكفاءة مع العالَم المجهريّ، هذه البِنى البروتينيّةُ تحتوي على أجزاء متحرّكةٍ عاليةِ التّنسيق البَيْنِيِّ»[3].

(1) Ada Yonath, 'Supervisor's Foreword,' in Chen Davidovich, *Targeting Functional Centers of the Ribosome* (Springer-Verlag, 2011), p. vii.

(2) بروس ألبرتز Bruce Alberts (١٩٣٨ـ): عالِمُ كيمياء حيويّة. متخصّصٌ في دراسةِ البروتيناتِ وعلاقتها بتضاعُفِ الكروموسومات عند انقسام الخليّة الحيّةِ.

(3) Bruce Alberts, 'The Cell as a Collection of Protein Machines: Preparing the Next Generation of Molecular Biologists,' *Cell*, 92 (February 8, 1998): 291.

إننا في عالم البيولوجيا نواجِهُ ظاهرةَ تعقيد العُضَيَّاتِ ضمنَ تعقيدِ عَمَلِ الخليةِ ضمن تعقيد الأنسجةِ ضمن تعقيدِ كامِلِ بِنْيَةِ الكائنِ الحيِّ!

المطلب الثامن

أصل الحياة.. وضرورة المعجزة

استنكرَ (أرنست شاين) ـ الحائزُ على **نوبل** للطبّ ـ أيَّ دَعْوى تزعمُ أنّ الحياةَ من الممكن أن تكون قد نشأَتْ بِسَبَبٍ ماديٍّ عشوائيٍّ؛ قائلًا: «أنا أُفَضِّلُ تصديقَ قَصَصِ الأرواحِ الشّرّيرةِ على تصديقِ مثل هذه الظُّنونِ الشّاطحة. لقد قُلْتُ لسنواتٍ: إنّ هذه التخرُّصاتِ حولَ أصلِ الحياةِ لا تقودُ إلى غايةٍ مفيدةٍ؛ إذ إنّ أبسطَ منظومةِ حياةٍ معقدّةٌ للغايةِ لِتُفْهَمَ **بالعباراتِ البدائيّةِ جدًّا** التي استعملها علماء الكيمياءِ في محاولَتِهِمْ تفسيرَ ما لا يمكن تفسيرُهُ ممّا حَدَثَ منذ بلايين السّنين. **لا يمكنُ استبعاد التَّدَخُّلِ الإلٰهيِّ بمثل هذه الأفكار السَّاذجة»**[1].

ويشهدُ على قول (شاين) ضعفُ التفسيراتِ الماديّة المطروحةِ، وقُصُورُها، وتهافُتُها. وإذا طَلَبْتَ دليلًا عَمَليًّا على إفلاسِ المجتمع العلميِّ في تقديمِ تفسيرٍ ماديٍّ بَحْتٍ لأصلِ الحياةِ؛ فاعْلَمْ أنّ هناك جائزةً ماليّةً سَخِيَّةً جدًّا مرصودة من مؤسّسة علميّةٍ ـ تعليميّةٍ (ليس لها ميولٌ دينيّةٌ) اسمها (Origin-of-Life Foundation) لمن يجيب عن مجموعةٍ من الأسئلةِ حول أصلِ الحياة تدورُ حول ظهورِ التّشفير الجينيِّ الذي ظهر في المادة الميتة، والعمل التعاوني المنظّم والمعقّد في صورة الحياة الأولى.

وقد وضعَتْ هذه المؤسّسةُ شروطًا علميّةً صارمةً لقبولِ النماذج المعروضة عليها. ولم تقتصِر المفاجأةُ على أنه لم يَفُزْ أحدٌ بالجائزة رغم إغرائِها للباحثين، وإنّما الأعظمُ من ذلك أنّه لم يَتَقَدَّمْ أحدٌ بنموذجٍ يعتقِدُ أنه يستوفي الشُّروطَ العلميّة الأكاديميّةَ المطلوبةَ؛ ممّا اضطرّ إدارة المؤسّسةِ إلى

---

(١) Cited in: *The Life of Ernst Chain: Penicillin and Beyond*, by Ronald W. Clark (London, Weidenfeld & Nicolson, 1985), 147 - 148.

الإعلانِ عن تعليقِ منحِ الجائزة بعد أن أُعْلِنَ عنها منذ ١٣ سنة في أَهَمِّ المجلّات العلميّةِ (Science) و(Nature). . .»[١]. كما اعترفَتْ إدارةُ المؤسّسة أنّ جميعَ الأدبيّاتِ العلميّةِ لأصل الحياة تَتَجَاهَلُ عَمْدًا أَهَمَّ إشكالٍ، وهو أصلُ المعلومات البيولوجيّةِ الـمُشَفَّرة[٢].

المطلب التاسع

تَضَخُّمُ المشكلةِ

كان العلماءُ إلى مدًى قريبٍ جدًّا على اتّفاقٍ أنّ الحياةَ قد بدأت منذ قرابة ٣,٧ بلايين سنة، لكنّهم فوجِئُوا باكتشافِ حياة مايكروبية منذ ٣,٤ ـ ٣,٥ بلايين سنة، وهو ما يدلُّ على وجودِ منظومةٍ بيئيّةٍ مُبَكّرةٍ جدًّا تسمحُ للحياة بالوجود، حتّى قال عالم الأحافيرِ (ج. ويليام شوف)[٣] في كتابه: «مَهْد الحياةِ: اكتشافُ أَقْدَمِ أَحافيرِ الأرضِ»: «**لم يَتَوَقَّعْ أَحَدٌ** أنّ بدايةَ الحياةِ قد وَقَعَتْ بهذه الصُّورة المبكّرة المذهِلة»[٤].

وما كاد المجتمعُ العلميُّ يستفيقُ من صَدْمَتِهِ حتى اكتشفَ العلُماءُ مُؤَخَّرًا خبرَ صُخُورٍ رُسوبيّةٍ تحتوي كائناتٍ حيَّةٍ (=ما يُسمّى بالسّتروماتوليت Stromatolites) غرب جزيرة (غرينلاند) تعود إلى ٣,٧ بلايين سنة. وهي كائناتٌ مايكروبيّةٌ عاليةُ التَّعقيدِ[٥]! وقد اضطَرَّ هذا الاكتشافُ والذي قبلَهُ العلماءَ إلى تقديمِ ظُهورِ الحياةِ على الأرض إلى ٤ بلايين سنة أو أكثرَ رغم أَنَّ معارِفَنَا عن حالِ الأرضِ قبل ٣,٧ بلايين سنة لا تُؤَهِّلُ الأرضَ لاحتضانِ مظاهر الحياةِ.

---

(١) الإعلان على الموقع الرسمي:

<http://www.us.net/life/rul_late.htm>.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ج. ويليام شوف J. William Schopf (١٩٤١ـ): أستاذُ علوم الأرض في جامعة كاليفورنيا. مدير «مركز التطوّر ودراسة أصل الحياة». له أبحاثٌ كثيرةٌ في المظاهر الأُولى للحياة على الأرض.

(٤) J. William Schopf, *Cradle of Life: The Discovery of Earth's Earliest Fossils* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999), p.3.

(٥) Allen P. Nutman et al., "Rapid Emergence of Life Shown by Discovery of 3,700 - Million-Year-Old Microbial Structures," *Nature*, published electronically August 31, 2016.

المطلب العاشر

مشكلةُ البَيْضَةِ والدَّجَاجَةِ

من المشكلاتِ التي حَيَّرَت العُلماءَ، والتي لا حَلَّ لها إلَّا القولُ بالنَّشأةِ الحَكِيمةِ للحياةِ، مشكلةُ «الدَّجاجةِ والبَيْضَةِ، أَيُّهما أَوَّلًا؟»؛ إذ يَتَوَقَّفُ وُجودُ الشّيءِ (أ) على وجودِ (ب) الذي لا يمكن أن يوجد بَدْءًا دون (أ)؛ فَأَيُّهُما وُجِدَ أَوَّلًا؟!

منْ أَشْهَرِ الأمثلةِ التي يَسوقُها العلماءُ مُشكلةُ (الرايبوسوم)؛ إذ إنّ الخليّةَ لا يمكن أن تعملَ دونه، فهو يقومُ بِفَكِّ تشفيرِ الحَمْضِ النَّوويِّ الصِّبغيِّ، غير أنّه يحتاجُ إلى الحَمْضِ النَّوويِّ الصّبغيّ ليوجد ابتداءً، فَمَنِ الأَسْبَقُ وُجودًا، (الرايبوسومُ) أم (الحَمْضُ النّوويُّ الصّبغيُّ)؟

إنّه السُّؤال الذي حَيَّرَ فيلسوفَ العلوم (كارل بوبر)[1] حتّى قال: «لا سَبيلَ لِتَرجمةِ الشَّفْرةِ إلَّا باستعمالِ مُنتجاتٍ مُعيّنةٍ من تَرْجَمَتِها. يُمثِّلُ هذا الأمرُ حَلْقةً مُفْرغةً، ودائرةً محيّرةً لكُلِّ محاولةٍ لتشكيلِ نموذج أو نظريّةٍ متعلّقةٍ بتكوين الشَّفْرةِ الجِينيّةِ»[2]. ولا شكَّ أنّ ظاهرة التَّعَالُقِ بين كثيرٍ من الأنظمةِ الكيموحيويّة برهانٌ على امتناع تَطَوُّرِ هذه الأنظمةِ، وأنها وُجِدَتْ بِسُلطانِ حِكْمةٍ من خارجِ منظومةِ المادّةِ[3].

وقد ظهرَتْ فرضيّةُ نشأةِ الحياةِ من (RNA) أساسًا لتستَنْقِذَ المادّيِّين من إشكاليّةِ علاقةِ البَيْضَةِ والدَّجَاجةِ في علاقة الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ بما ينتج عنه مما يُنتج حمضًا نوويًا صبغيًا. ولكنّ ذلك لا ينهي سلسلةَ العلائِقِ التَّشابكيّةِ الآنيّةِ داخِلَ الخليّةِ؛ إذ إنّ جدارَ الخليّة ـ مثلًا ـ لا يمكن أن يوجد

---

(١) كارل بوبر Karl Popper (١٩٠٢ ـ ١٩٩٤م): فيلسوفٌ نمساويٌّ له مساهماتٌ بارزةٌ في فلسفة العلوم في القرن العشرين.

(٢) Karl Popper, 'Scientific Reduction and the Essential Incompleteness of All Science', in F. Ayala, and T.Dobzhansky, eds., *Studies in the Philosophy of Biology* (Berkeley: University of California Press, 1974), p. 270

(٣) Fazale Rana, *The Cell's Design, How Chemistry Reveals the Creator's Artistry* (Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2008), p.99.

دون بروتيناتٍ و(DNA) و(RNA)، ولا يمكن لهذه الجزيئات أن تستقِرَّ دون جدارٍ للخليّةِ. .

المطلب الحادي عشر

اعتراض: مخالفة جماعة العلماء

يقول الملحِدُ: أَلَيْسَ العلماءُ اليومَ على اتّفاقٍ على استبعادِ التّفسيرِ غير الماديِّ لنشأةِ الحياةِ؟!

وجوابُنا هو:

أَوَّلًا: سَبَقَ بيانُ فَشَلِ جميعِ الحلولِ المطروحةِ عَمَلِيًّا لنشأةِ الحياةِ، ولذلك لم يَفُزْ أحدٌ بالجائزة المرصودةِ لمن يكشِفُ عن تفسيرٍ علميٍّ جادٍّ لنشأةِ الحياةِ.

ثانيًا: استبعادُ التّفسيرِ فوق الطّبيعيّ لنشأة الحياة لم يكن عن برهانٍ علميٍّ باعتراف الماديّين أنفسِهم، وإنّما هو التزامٌ منهم بالمنهجِ الماديِّ الذي يَحْصُرُ العِلَلَ في المادّةِ وقوانينِها الذاتيّةِ.

ثالثًا: سَبَقَ النَّقْلُ عن أشهرِ هيئةٍ علميّةٍ تُحارِبُ القولَ بالخَلْقِ الإلٰهيِّ بشراسة وتدعَمُ الدّارونيّة بتطرُّفٍ (الأكاديميّة الوطنيّة للعلوم) في كُتَيِّبِهَا: «العِلْمُ والمذهبُ الخَلْقِيِّ» أنّ العديد من العلماء يقولون: إنّ الله قد خَلَقَ الحياةَ الأُولى، وإنّ هذا التّفسير لا يُخالِفُ العِلْمَ؛ وذاك يشهد أنَّ من أنصار «الطبيعانيّة المنهجيّةِ» مَنْ يُحاولون استثناءَ أَصْلِ الحياةِ من صَرَامةِ التّفسير الماديِّ؛ لعظيمِ أَزْمةِ المادّيّين في هذا البابِ.

المطلب الثاني عشر

اعتراض: إلٰهُ الفَجَوات

أليس الحديثُ عن النّشأةِ الإعجازيّةِ للحياة التجاءً إلى مساحة الجَهْلِ في معارِفِنا العلميّةِ اليومَ لتسويغ التّدخُّلِ فوقِ الطبيعيِّ للإلٰهِ؟! أَلَيس هو من بابِ: لأَنَّنا لا نعلَمُ تفسيرَ ذلك اليومَ؛ فوجودُ الإلٰهِ هو تفسيرُه؟!

وجوابنا هو:

أولًا: سبب القول ـ علميًا ـ: إنّ نشأة الحياة حَدَثٌ فوق طبيعيٍّ **تطوّرُ معارفنا حول شروط نشأة الحياة لا جهلنا بسبيل إقامة الحياة**. إنَّ كلّ تَقَدُّم في دراسة نشأة الحياةِ يزيدُنا وعيًا بضخامةِ الشُّروط الماديّةِ الأُوْلى لظهور الحياة، وأَنَّ العَشْوائيّةَ لا يمكن البتَّةَ أن تُفَسِّرَ هذا الأمرَ حتى لو استمرَّت التَّفاعلاتُ العشوائيّةُ بلايين السّنين، خاصّةً أنّ آليّةَ الانتخابِ الطبيعيّ مُعَطَّلةٌ عن العمل والاستفادةِ من حركة الزَّمَنِ في هذه الحال. فنحنُ نقول بالتّفسير غير الماديّ لأنّ يَقِيْنَنَا يزدادُ كُلَّ يومٍ ـ بسبب تراكم المعارف ـ أنّ التّفسير الماديَّ لنشأة الحياةِ انتحارٌ عَقْليٌّ.

ثانيًا: يعترف العِلْمُ بما يُقارِبُ المعجزات، وهي ما يُقارب احتمالُ وقوعِه الصِّفْرَ الرّياضيَّ لِنُشوءِ الشيء عن أسبابٍ طبيعيّةٍ. والثّابت علميًا أنّ نشوءَ الحياةِ بالتّفاعل الكيميائيّ العشوائيّ لا يرتقي فوق الصِّفْرِ الرياضيّ؛ فقد دَلَّلَ (بول ديفيس) أنّ احتمال نشوءِ بروتينٍ أساسيٍّ للحدّ الأدنى للحياة هو ١ من $١٠^{٤٠٠٠٠}$[١]، وأما (هارولد مورووِتز)[٢] فقد ذهب إلى أنّ احتماليةَ ظهور الحياة مع كلِّ العناصر الضروريّة لها بصورةٍ عفويّةٍ من الحساء الأَوَّليِّ المزعوم ١ من $١٠^{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$[٣]، وهو رقم لو كان تحت الصِّفْرِ شيءٌ لَكَانَهُ!

ثالثًا: مشكلتنا مع البحث عن حلٍّ ماديٍّ لنشأة الحياة في المختبرات أنّه يسيرُ في الطريق الغلط، وهو الظنُّ أنّ الحياةَ أَصْلُها مجرّدُ تفاعلاتٍ كيميائيّةٍ، في حين أنّ الحياة صُورةٌ وأثرٌ للمعلومات؛ وهو الأمر الذي نَبَّهَ عليه مقالٌ صدر مؤخّرًا في مجلة (Science) لعالِم كيمياء وباحثةٍ في الفيزياء النَّظرية؛ إذ رَغْمَ ولائهما التّامِّ للحلول الماديّةِ إلّا أنّهما أَقَرَّا أنَّ دراساتِ البحثِ عن أصلِ الحياة محتاجةٌ إلى مراجعةٍ جذريّةٍ؛ إذ هي تسيرُ في غير الطريق الصَّحيح متجاهلةً البحثَ عن أصلِ المعلومات، ومُعْتَنِيةً أساسًا بالحلول الكيميائيّة

---

(١) Paul Davies, *The Fifth Miracle*, pp. 64 - 65.

(٢) هارولد هورووِتز Harold Morowitz (١٩٢٧ ـ ٢٠١٦م): عالم فيزياء حيويّة أمريكيّ. له اهتمام خاص بدراسات نشأة الحياة. درّس البيولوجيا والفلسفة الطبيعية في «George Mason University».

(٣) Hugh Ross, *The Creator and the Cosmos*, pp.139 - 141.

الجامدةِ. فقد قالا: «إنَّ التقدُّمَ سَيَتِمُّ عند تَحَدِّي كُلِّ الشُّروط التاريخيّةِ التي افتُرِضَ أنّها مُهمّةٌ لِنَشْأَةِ الحياةِ... على الباحثين أن يَتَحَدَّوا النَّماذج الحاليّةَ.. بما أنّ الحياةَ ليست فقط نُسَخًا من المعلومات وإنّما هي أيضًا تَسْتَعْمِلُ معلوماتٍ لِتُكَوِّنَ نفسَها، فربّما إذن علينا أنْ نَصِفَ بداية الحياة أنّها «آلاتٌ بسيطةٌ قادرةٌ على بناء آلاتٍ أكثرَ منها تعقيدًا بقليلٍ»»[١].

المطلب الثالث عشر

خلاصة النَّظَرِ، المعجزة

يقدّم لنا (إيليا بريغوجين)[٢] ـ الكيميائيُّ الحاصل على جائزة **نوبل** ـ الاحتمالُ الرياضيُّ لنشأة واقعٍ ماديٍّ حيٍّ؛ بقوله: «احتمالُ نُشوءِ المركّباتِ العُضْويّة والعمليات المنسَّقة بِدِقَّةٍ بالغةٍ والمجسّدة لخصائص الكائنات الحيّة، صِفْرٌ»[٣]... **نحن إذن نَتَحَدَّثُ عن «الصِّفْرِ» بِلُغة الرّياضيات.. وهو ما يكاد[٤] يقابل «المعجزة» بلغة اللّاهوتيّين!**

ولا مَخْرَجَ من هذا العَجْزِ غير الإيمان بالخالق، ولذلك يقول (فرنر أربر)[٥] ـ الحائز على جائزة **نوبل** ـ: «رغم أنني كبيولوجيّ عليّ أن أعترف أنني لا أفهم كيف بدأت الحياة... [إلّا] أنّي أعتقد أنّ الحياة لم تبدأ إلَّا مع وجود خَلِيَّةٍ عامِلةٍ وظيفيًّا... كيف تَجَمَّعَتْ هذه البُنى المعقَّدةُ معًا؟ هذ أَمْرٌ لا يزال مُلْغِزًا بالنّسبة لي. تمثّل لي إمكانية وجود خالقٍ، إلٰهٍ، حَلًّا مُرْضِيًا لهذه المشكلة»[٦].

---

(١) Leroy Cronin and Sara Imari Walker, 'Beyond prebiotic chemistry,' *Science* 03 Jun 2016: Vol. 352, Issue 6290, pp. 1174-1175.

(٢) إيليا بريغوجين Ilya Prigogine (١٩١٧ ـ ٢٠٠٣م): كيميائيّ بلجيكيّ من أصول روسيّة.

(٣) Ilya Prigogine, Gregoire Nicolis and Agnes Babloyants, 'Thermodynamics of Evolution,' (part I). *Physics Today* Vol. 25,1972, November. p. 23.

(٤) لا نقول بالمطابقة؛ لأنّ المعجزة خرق للقانون الطبيعي، وليس ما كان احتماله مستبعدًا بصورة بعيدة جدًّا خارقًا ضرورة لهذا القانون. ومع فهذا، فالاستبعاد الرياضياتي سبب لاستبعاد الأمر احتماليًّا.

(٥) فرنر أربر Werner Arber (١٩٢٩ـ): عالم أحياء دقيقة وجينات سويسري. رأس «Pontifical Academy of Sciences».

(٦) Henry Margenau and Roy Abraham Vargesse, eds. *Cosmos, Bios, Theos*, p.141.

المبحث الثالث

التَّشْفِيرُ

ما هي الطَّبيعة الأبرزُ لِلْجِيْنِ؟

يُجيبُنَا (ريتشارد داوكنز) بقوله: «يَحْمِلُ الحَمْضُ النَّوويُّ الصّبغيُّ معلوماتٍ مماثلةً بصورةٍ كبيرةٍ جدًّا لنوع معلومات الكمبيوتر. وبإمكاننا أن نقيسَ سِعَةَ الجينوم بـ«البيتات» (bits) أيضًا إذا أردنا ذلك. لا يحمل الحمض النوويّ الصبغيّ شَفْرةً ثنائيّةً، وإنّما هي شَفْرةٌ رُباعيّةٌ؛ ففي حين يُمثِّلُ (١) و(٠) وحدةَ المعلومة في برمجة الكمبيوتر، تُمثّل (T) و(A) و(C) و(G) وحدات الجينوم»[١].

ما حقيقة التَّشفيرِ داخل الجين؟

يجيبنا (بول ديفيس) بقوله: «تكمنُ داخلَ كُلّ واحدٍ منّا رسالةٌ. إنّها مكتوبةٌ بشَفْرةٍ قديمةٍ، ضاعَتْ بداياتُها مع الزَّمَنِ. تحتوي الرّسالةُ بعد فَكِّ تشفيرها على تعليماتٍ حول كيفيّةِ صناعة إنسانٍ. . . . لم تُكتب الرّسالةُ بِحِبْرٍ أو حَرْفٍ مطبعيٍّ؛ بل بِذَرَّاتٍ. . . على الرغم من أنّ الحمض النّوويّ الصّبغيّ بناءٌ ماديٌّ إلَّا أنّه يَحْمِلُ في رَحِمِهِ معنًى. إنَّ ترتيب الذَّرَّاتِ على طول الشَّريط الحلزونيّ لحمضِكَ النّوويّ هو الذي يُحدِّدُ مَظْهَرَكَ وحتّى ـ إلى درجة كبيرةٍ ـ كيف تَشْعُرُ وتَتَصَرَّفُ. الحمض هو مُخَطَّطٌ (blueprint)، أو بصورة أَدَقّ خوارزميّة، أو دليل تعليماتٍ لبناء إنسانٍ حيٍّ يَتَنَفَّسُ ويُفَكِّرُ»[٢].

---

(١) Richard Dawkins, *A Devil's Chaplain*, p.95.

(٢) Paul Davies, *The Fifth Miracle*, p. 22

تطرحُ قضيّة التَّشفير إشكالات لا يَحُلُّها الحلُّ الماديُّ العشوائِيّ، ومنها:

المشكلة الأولى: التشفير لغةٌ لها قواعد نحوية وصرفية، ورسالة من جنس المعلومات.. وليس في عالم المادة ما يسمح للغة والمعلومة أن ينبجسا من العدم في انفجار، من غير رحِم. وقد اعترف بالطبيعة اللغوية الكاملة للتشفير عدد من البيولوجيّين غير المتعاطفين مع ما يُعرف «بالتصميم الذكي».

المشكلة الثانية: التشفير يقتضي ـ ضرورة ـ وجود:

أ ـ شَفْرةٍ.

ب ـ مُشفِّر.

ت ـ قواعد تشفير.

ث ـ قواعد لِفَكِّ التَّشفير.

فمن أين جاء كلّ ذلك إذا كان الوجود المادي بلا حكمة ولا غاية؟

هو سؤال أصاب الماديين بالحيرة، ولذلك قال البيولوجيّ التطوّري (جون مينارد)[(١)]: «ربّما يُشَكِّلُ أَصْلُ الشَّفْرةِ [الجِينيّة] أَكْبرَ مُشْكلةٍ مُحيّرةٍ في البيولوجيا التطوّريةِ. آليّةُ التّرجمةِ الحاليّةِ هي في الآن نفسه معقّدةٌ جدًّا، وشائعةٌ جدًّا، وأساسيّةٌ جدًّا حتّى إنّه من الصَّعْبِ تصوُّرُ كيف جاءت إلى الوجود»[(٢)]. كما اعترفَ الملحِدُ العَنِيدُ ـ المحرّرُ العِلميُّ في مجلَّةِ «Nature» ـ (جون مادوكس)[(٣)] بالأزمةِ بقوله: «إنّه إذنْ أَمْرٌ مُخيّبٌ للآمالِ ـ ولكنّه مع ذلك ليس بالأمر المفاجِئ ـ أنّ أَصْلَ الشَّفْرةِ الوراثيّةِ ما يزال غامضًا كما هو أَصْلُ الحياةِ نفسُه»[(٤)].

المشكلة الثالثة: التعقيد والفاعلية العاليان لنظام التشفير في الخليّة بما

---

(١) جون مينارد John Maynard (١٩٢٠ ـ ٢٠٠٤م): عالم أحياء تطورية ووراثة بريطانيّ. رأس «مؤسسة دراسة التطوّر».

(٢) John Maynard Smith and Eors Szathmary, *The Major Transitions in Evolution* (OUP Oxford, 1997), p.81.

(٣) جون مادوكس John Maddox (١٩٢٥ ـ ٢٠٠٩م): فيزيائي بريطانيّ. عضو فخري في «الجمعيّة الملكيّة» البريطانيّة. عمل محررًا في مجلة (Nature) العلمية لمدة ٢٢ سنة. كان عضوًا في جمعيات إلحاديّة مثل «British Humanist Association».

(٤) John Maddox, 'The genetic code by numbers',*Nature* 367:111, 1994.

يتجاوز الحد الأدنى المطلوب لحياة الكائن الحي حتّى إنّه من الممكن تخزين ٢١٥ جيجابايت من المعلومات المشفّرة في جرام واحد من «الحمض النووي الصبغي»[١]؛ وذاك يتعارض مع المفهوم الداروويني الذي لا يعترف بقدرة النظام الطبيعي على تزويد الكائن الحيّ بما يفوق حاجته لتحقيق البقاء.

المشكلة الرابعة: يقرّ الدَّراونة أنّ «الحمض النووي الصبغي» لم يتطوّر منذ ظهوره منذ بلايين السنين بعد ظهوره بصورة عشوائيّة، فهو كما وصفه (فرنسيس كريك): «صدفة متجمّدة» «frozen accident». ولكنّ الدَّراونة عجزوا عن تقديم قصّة تفصيليّة معقولة لظهور الحمض النووي الصبغي الذي لا يشكّ دارويني أنه احتاج إلى مراحل تطوّرية لبلوغ الصورة التي نعرفها اليوم.

---

(١) DNA could store all of the world's data in one room.
<http://www.sciencemag.org/news/2017/03/dna-could-store-all-worlds-data-one-room>.

المبحث الرابع

وعي الكائنات الحيّة الدنيا

الوعي ظاهرة كونية لها صُوَرٌ دنيا غير الصورة العليا التي يحتكرها الإنسانُ في عالم الأحياء. ومن أسباب ظهور الوعي الحاجة إلى تحقيق البقاء بأسباب ذكيّة ومعقّدة، وحسن التعامل مع البيئة المجاورة، وتبادل الخطاب، والتوجيه والتحذير بمنطق مفهوم وسلس. وتلك أمور يقف أمامها فقه «الطّفرات العمياء»، أعمى لا يُبصر، ولا يُحسن تفسيرًا.

وقد كتب البيولوجيّ التطوّري (جيمس شابيرو) مقالًا علميًّا مهمًّا بعنوان «البكتيريا صغيرة لكنّها ليست غبيّة»، حقيقًا بأن يقف المرء أمامه متأمّلًا عجائب الوعي فيما لا عقل له. وقد قال ملخِّصًا هذا البحث: «علّمتني خبرتي على مدى أربعين سنة في علم الوراثة البكتيرية أنّ البكتيريا تمتلك العديد من القدرات المعرفية والحسابية والتطورية التي لا يمكن تصوّرها في العقود الستة الأولى من القرن العشرين. تحليل العمليات الخلوية [المتعلّقة بالخليّة] مثل التمثيل الغذائي، وتنظيم تخليق البروتين، وإصلاح الحمض النووي يثبت أنّ البكتيريا ترصد باستمرار بيئاتها الخارجية والداخلية وتحسب نواتجها الوظيفية على أساس المعلومات التي يقدمها جهازها التحسّسي. وقد كشفت دراسات إعادة التركيب الجيني، والاستذابة، ومقاومة المضادات الحيوية، وبحثي الخاص في العناصر القابلة للنقل، عدة أنظمة بكتيرية واسعة النطاق لتعبئة جزيئات الحمض النووي الصبغي وهندستها.

وقد دفعتني دراسة تطوير المستعمرات وتنظيمها إلى أن أُكبر مدى التعاون الواسع للخلايا في معظم الأنواع البكتيرية. وتُبيّن البحوث المعاصرة

في العديد من المختبرات والمتعلّقة بظاهرة التواصل بين الخلايا والتكافل وتطوّر الأمراض أن البكتيريا تستخدم آليات متطورة للاتصالات الخلَويّة، كما أنّ لديها القدرة على قيادة بيولوجيا الخلية الأساسية من «أعلى» النباتات والحيوانات لتلبية احتياجاتها الخاصة. هذه السلسلة الرائعة من الملاحظات تتطلب منا مراجعة الأفكار الأساسية حول معالجة المعلومات البيولوجيّة والاعتراف بأنّ أصغر الخلايا هي أيضًا كائنات حية»[١].

إنّ طابع العمل الذكيّ صفة ضروريّة لكل ظاهرة يسعى أفرادها من خلال مراحل مترابطة ومتعاضدة إلى الوصول إلى هدف أعلى يراد منه تحقيق منفعة عاجلة وضروريّة ودفع فساد قائم ومهلك، وذاك أمر لا ينكره عاقل سويٌّ لم تنتهك نفسه الوساوس المرضيّة؛ إذ إنّ ردّ هذا **التقسيم والتمهيد والترتيب والترقّي والرجاء والخشية والجهد والأمل** إلى العشوائيّة يلزم منه **إلغاء مفهوم الذكاء والحكمة** بصورة كليّة من الرصيد البياني والمفاهيمي للإنسان.

والناظر في عمل الخليّة يُدرك بوضوح أنّ الغائية حكم كلّ أعمال الخليّة، فهي قاعدة نشاط العُضيّات فيها. ويكفي تناول مثال واحد من أعمال الخليّة لإدراك ذلك.

تعتبر ـ مثلًا ـ عمليات مراجعة النَسخ في «الحمض النووي الصبغي» من غرائب عالم العضيّات في الخليّة؛ إذ إنّ المراجعة والتصحيح لا يمكن عزوهما إلى العشوائيّة ولا ردّهما إلى تطوّر أعمى يقوده الانتخاب الطبيعي، فنحن هنا أمام عمليّة بيولوجيّة تتحرّك بإرادة واعيةٍ لها غاية مرسومة سلفًا؛ تقوم على رصد الخطأ، وإصلاحه، وطلب الصورة النموذجيّة للبناء العضوي. وهي عمليات مدهشة، استغرق الجهد العلمي لكشفها وبيان روعتها دراسات خلويّة دقيقة ومعقّدة.

ومن المهم هنا التذكير أنّ العلماء اليوم على اتّفاق أنّ الحمض النووي

---

(١) James Shapiro, 'Bacteria are small but not stupid: cognition, natural genetic engineering and socio-bacteriology', *Stud Hist Philos Biol Biomed Sci*. 2007 Dec; 38(4):807 - 19.

الصبغي[١] بنيانٌ عرضة للفساد السريع بما يصيبه بأعطاب مهلكة؛ فكيف استطاع الوجود الحيّ الأوّل أن يستمر في الحياة ويتوالد رغم كثرة أسباب هلاكه عند تعرّض الحمض النووي لأيّ عطب؟

جواب السؤال السابق ببساطةٍ في وجودِ آلياتٍ كثيرةٍ، ومتنوعةٍ، ومعقّدةٍ، وذكيّةٍ في الخليّة تقومُ بإصلاحِ ما يُصيب الحَمْضَ النَّوويَّ الصّبغيّ من عَطَبٍ. ولا شكّ أنّ هَشَاشَةَ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ تستدعي وجودَ آلاتِ الإصلاح **منذُ الزّمن الأول لظهور الحياة على الأرض**[٢].

وقد أَثْبَتَ بحثٌ أُجريَ منذ عَقْدَيْنِ من الزّمان أنّ هناك ١٣٠ جينًا في الإنسانِ لإصلاحِ أعطاب الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ، وأنّ المستقبلَ مُنْبِئٌ بالكشف عن مزيدٍ منها[٣]. كما جاء حديثًا في مقالٍ عن تفاعُلِ الخليّة مع ما يصيبها من ضَرَرٍ ـ في واحدةٍ من أهم المجلّات العلميّة المختصّة في دراسة الخليّة ـ: «يتمّ إصلاح الحمْض النّوويّ الصّبغيّ من قِبَلِ مجموعةٍ كبيرةٍ من الأنشطةِ الإنزيميّةِ التي تُعَدِّلُ كيميائيًّا الحَمْضَ النّوويّ الصّبغيّ لإصلاح التَّلَفِ الذي يُصِيبُه، ومنها (nucleases) و(helicases) و(polymerases) و(topoisomerases) و(recombinases) و(ligases) و(glycosylases) و(demethylases) و(kinases) و(phosphateases). لا بُـــــدَّ أن تكون هذه الأدواتُ الخاصّةُ بإصلاحِ الأعطابِ موجودةً كُلُّها لأنّ كُلًّا منها بإمكانهِ أن يَعْبَثَ بسلامةِ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ إذا أُسِيءَ استعمالُه أو سُمِحَ له أن يتعامَلَ مع الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ في غير الوقتِ أو المكانِ المناسبَيْنِ»[٤].

ويشرحُ (جيمس شابيرو) عمليّةَ المراجعةِ بقوله: «كلُّ الخلايا، من البكتيريا إلى الإنسانِ تملك **طائفةً مدهِشةً** من أنظمةِ الإصلاحِ التي تعمل على

---

(١) كذلك الحَمْضُ النَّوويُّ الريبوزيّ RNA.

(٢) يتضاعَفُ الحَمْضُ النّوويُّ الصّبغيُّ بخطأ واحدٍ لكلّ ٣ بلايين نوكليوتيد، في الخليّة، و١ لكلّ ١٠٠ نوكليوتيد في أنبوبِ الاختبار، و١ لكلّ ١٠ ملايين عند إضافة الإنزيمات البروتينية المناسبة إلى أنبوب الاختبار!

(٣) R. D. Wood, *et al.* Human DNA repair genes. *Science* 2001. 291:1284.

(٤) Stephen J. Elledge and Alberto Ciccia, 'The DNA Damage Response: Making It Safe to Play with Knives' in *Molecular Cell* 40(20), October 22, 2010, 179 - 180.

إزالة المصادرِ العَرَضيّةِ والعشوائيّةِ لمصادر الطّفراتِ. توجد مستوياتٌ عديدةٌ لآلياتِ التّدقيقِ تتعرّفُ على الأخطاءِ التي تحدث حَتْمًا خلال تضاعفِ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ وتُلْغِيها... ولنا أن نقولَ بسببِ أنظمةِ التّدقيق والإصلاح هذه: إنّ الخلايا الحيّةَ لا تعدّ ضحايا سلبيّة للقوى العشوائيّةِ للكيمياء والفيزياء. إنّها تُكرِّسُ مصادرَ كبيرةً لحذفِ الاختلافِ الجينيّ العشوائيّ»[1].

وقد نالَ ثلاثةٌ من كبارِ العلماءِ جائزةَ نوبل مشاركةً سنة ٢٠١٥م لاكتشافهم أعماقًا جديدةً لآليّةِ إصلاحِ أعطابِ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ. ونشر موقعُ (BBC) مقالًا جاء فيه عن عَمَلِ الفائز الأوّل بالجائزةِ أنه كان اعتقاد العلماء في السبعينيّات أنّ الحَمْضَ النّوويّ الصّبغيّ جُزيءٌ مستقِرٌّ، لكنّ البروفسور (لندهال)[2] أَثْبَتَ أنّه يَنْحَلُّ بمعدّلٍ سريعٍ مُفاجِئٍ[3].

واكتشفَ (بول مودريتش)[4] ـ الفائز الثاني بالجائزة ـ آلية سمّاها (mismatch repair)؛ إذ تقوم إنزيماتٌ بالبحث عن الأخطاءِ بعد تضاعُفِ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ، وتقوم أُخرى بإصلاحها. وهي آليّةٌ بالغةُ الدقّةِ حتّى إنّ اللّجنةَ المانحةَ لجائزةِ نوبل قالت: إنّها «تستخرجُ تَرَدُّدَ الأخطاءِ أثناءَ نَسْخِ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ إلى درجة ١ من الألفِ».

أمّا ثالِثُ الفائزين بالجائزة ـ (عزيز سنكار)[5] ـ، فقد اكتشفَ وجودَ إنزيماتٍ تقوم بِقَطْعِ جُزءٍ من شريطِ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ المعطوبِ، وإزالَتِهِ، وتبديلِه بآخَرَ صحيحٍ، وهو ما يُسمّى بـ(nucleotide excision repair).

وتتعاظمُ مشكلةُ التّفسيرِ الماديِّ لأنظمةِ إصلاحِ أعطابِ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ في أنّها مُكَوَّنةٌ من الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ؛ فالحَمْضُ النّوويُّ الصّبغيُّ يحتاج الحَمْضَ النّوويَّ الصّبغيَّ لكي لا يَهْلك..

---

(١) James Shapiro, 'A third way,' *Boston Review*, p. 2.

(٢) Lindhal.

(٣) P. Rincon, 'Chemistry Nobel: Lindahl, Modrich and Sancar win for DNA repair,' bbc.com, 7 October 2015. <http://www.bbc.com/news/uk-england-34464580>.

(٤) بول مودريتش Paul Modrich (١٩٤٦ـ): كيميائيّ أمريكيّ. أستاذ الكيمياء الحيوية في «Duke University».

(٥) عزيز سنكار Aziz Sancar (١٩٤٦ـ): عالم كيمياء حيوية وبيولوجيا جزيئية تركي. أستاذ الكيمياء الحيوية والفيزياء الحيويّة في «University of North Carolina School of Medicine».

حقيقةُ هَشَاشَةِ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ، وعَدَمُ استغنائِه عن آليّةِ التّنبُّهِ للخطأ والإصلاحِ والتَّخَلُّصِ من العُضَيِّ الفاسِدِ لا تلتقي مع أمرَيْنِ أساسيَّيْنِ في التّفسيرِ الماديِّ العشوائيِّ للحياةِ:

أ ـ الظُّهورُ العَفَوِيُّ للخليّةِ بعد مسارٍ عشوائيٍّ أَعْمى، فإنَّ جانِبَ التَّوقُّع، والقَصْدِ الإراديِّ، والقُدْرةِ على ابتكارِ حُلولٍ حكيمةٍ ومختصرةٍ ومعقّدةٍ في شبكتها العلائقيّةِ، كُلُّ ذلك لا يَحْمِلُ من دعوى العشوائيّةِ شيئًا، خاصّةً أنَّ هذه الآليَّاتِ ضروريّةٌ لعملِ الخليّةِ الأُوْلَى.

ب ـ حاجةُ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ الضّروريّة والآنيّة للإصلاح تقتضي وجود آليَّةِ الإصلاحِ في الآن نفسِه الذي ظَهَرَ فيه الحَمْضُ النّوويُّ؛ إذ لا يستطيع هذا الحَمْضُ تحقيقَ البقاءِ في ظلِّ ضَعْفِ مقاومتِهِ الذاتيّةِ لعواملِ الفَسَادِ، لكنَّ المذهَبَ العشوائيَّ لا يعترِفُ بالمعجزاتِ، ولِذا يرفضُ الظُّهورَ المفاجِئَ للآلياتِ البيولوجيّةِ المعقدّةِ والمتكاملةِ مَرَّةً واحدةً دون تَدَرُّجٍ، ولا معنى لتدرُّجِ آلياتِ الإصلاحِ قبل ظهورِ المادّةِ التي يَتِمُّ إصلاحُهَا. وقد عَبَّرَ (بول ديفيس) عن هذه الحقيقةِ بقولِه: إنَّ الحساءَ الكَوْنِيَّ الأَوَّلَ عليه أن يواجِهَ عواملَ الفسادِ وَحْدَهُ دون عَوْنٍ من منظومةِ إصلاحٍ؛ فهو بذلك يسيرُ ضِدَّ احتمالاتِ فَشَلٍ ليست فقط كبيرةً، وإنّما هي أيضًا **مُرْهِقةٌ لِلْعَقْلِ**[1]!

وقد اكتُشِفَ مُؤَخَّرًا الدَّوْرُ العظيم لبروتين (TP53) الذي يقوم بتفعيلِ الجيناتِ التي تقومُ بإصلاحِ الخليّةِ. وبَيَّنَ باحثون بلجيكيُّون أَنَّ ٥٠٪ من حالاتِ السَّرطان تَزَامَنَتْ مَعَ وجودِ مُشكلاتٍ في هذا البروتين؛ فَفَقْدُ الخليَّةِ ـ مثلًا ـ هذا البروتين يُحَفِّزُ ظهورَ السَّرطانِ[2]. وهو ما يُؤكّد الحاجةَ الدَّائمةَ إلى جيناتٍ أو بروتيناتٍ تَمْنَعُ هلاكَ الكائنِ الحيِّ بسببِ ما يصيبُ الحَمْضَ النّوويَّ من فسادٍ.

ومن عجائبِ نُظُمِ الحِمايةِ في الخليّةِ ما يَقَعُ للبروتين إذا أَصَابَهُ عَطَبٌ؛

---

(١) Paul Davies, *The Fifth Miracle*, p.93.

(٢) KU Leuven,Cancer-preventing protein finds its own way in our DNA
http://www.eurekalert.org/pub_releases/2016-06/kl-cpf061416.php

إذ يَنْحَلُّ لِيَظْهَرَ حَمْضُهُ الأَمِينيُّ من داخلِه، ثم يتعرَّفُ أَحَدُ الإنزيمات[١] على هذه الأَحماضِ، فيضعُ في البروتينِ المعطوبِ جُزيئًا بروتينيًّا صغيرًا بما يخبر الخليّةَ عن حال هذا البروتين، لِيَتِمَّ بعد ذلك التَّخَلُّصُ منه[٢].

كما كَشَفَ فريقٌ عِلميٌّ عن دورِ جُزيءٍ (UFD2) في حَسْمِ أَمْرِ الحَمْضِ النَّوويِّ الصّبغيِّ، فهو الجزيءُ المسؤولُ عن الاختيارِ بين قرارَيْ إصلاحِ كَسْرِ الحَمْضِ النّوويّ بتوجيهِ الآلاتِ الخلويّةِ للقيامِ بالمهمّة، أو الموتِ الـمُسمّى عِلْمِيًّا بـ(apoptosis)، عِلْمًا أنّ الخليّةَ التي ليس فيها هذا الجزيء تَعْجَزُ عن التَّخَلُّص من مَقْطَعِ الحَمْض النَّوويّ الصّبغيّ المعطوبِ، بما قد يكون سببًا لإصابةِ الإنسانِ بالسَّرَطانِ. يقولُ أَحَدُ هؤلاء العلماءِ: «بعد ثوانٍ من الحادثِ المؤذي، تبدأُ الآليّاتُ في العَمَلِ. بطريقةٍ فِصاميّةٍ تبدأُ الخليّةُ في عمليّة الإصلاح وفي الآن نفسه الإعدادَ لعمليّةِ الموتِ الـمُبرمَجِ. لقد لاحظنا عمليَّةً غير محدّدةٍ تَدْمِجُ إشاراتٍ لعمليّةِ الإصلاحِ الجاري وآليّةِ موتِ الخليّةِ. يُشكِّلُ بروتين يُدْعى (UFD2) تَجَمُّعاتٍ ضخمةً. ويتأكَّدُ من الخيارِ المطلوبِ؛ أَهُوَ في التقدُّم للإصلاحِ أم هو موعِدُ الموتِ»[٣]. إنّنا إذنْ أمامَ جُزيءٍ قادرٍ على اتّخاذِ قراراتٍ مصيريّةٍ في أوقاتٍ حَرِجةٍ تَبَعًا لحساباتٍ عِلْميّةٍ دقيقةٍ.

ومن العجائب أيضًا ما كشفه البحث العلمي مؤخرًا في أمر العلاجات العاجلة إثر تكسّر جدائل الحمض النووي الصبغي؛ إذ تُنشئ الخلية بصورة عاجلة خيوطًا «nuclear actin filaments» لصناعة طرق سريعة إلى حافة النواة. ثم يأتي دور المساعد الطبي، البروتينات «myosins» التي يملك كل منها رجلين ليمشي في هذه الطرق السريعة، فيلتقط الجديلة المكسرة، ويأخذها إلى غرفة العمليات، في المسام في محيط النواة لإتمام مهمة الصيانة[٤].

---

(١) اسمه: E3 ubiquitin ligase.

(٢) Stryer, *Biochemistry*, 794 - 95. (Cited in: Fazale Rana: *The Cell's Design*, pp.120 - 121)

(٣) Leena Ackermann *et al*. 'E4 ligase-specific ubiquitination hubs coordinate DNA double-strand-break repair and apoptosis,' *Nature Structural & Molecular Biology* (2016).

(٤) Christopher P. Caridi, *et al.*, Nuclear F-actin and myosins drive relocalization of heterochromatic breaks, *Nature* 559, 54-60 (2018).

المبحث الخامس

التعقيدُ غير القابل للتّبسيطِ

التّعقيدُ غيرُ القابِلِ للتّبسيطِ Irreducible complexity، برهانٌ عِلْميٌّ جديدٌ شغلَ حَيِّزًا كبيرًا من الجَدَلِ الإيمانيّ الإلحاديّ في العقودِ الأخيرةِ، فما هو أَصْلُهُ؟ وما هي دلالَتُه؟ وهل استطاع الملاحدةُ نَقْضَهُ؟

المطلب الأول

التحدّي الذي ارتضاه الدَّراونةُ

قال (داروين) في كتابِه «في أَصْلِ الأنواعِ»: إنّه «إذا تمَّ إثباتُ وُجود أيّ عُضوٍ مُعقَّدٍ ليس بالإمكان أن يَتَشَكَّلَ من خلالِ تغييراتٍ مُتعدّدةٍ ومُتتالِيةٍ وطفيفةٍ، فَسَتَنْهَارُ نظريَّتِيْ انهيارًا تامًّا»[1].

وقال (داوكنز) لاحقًا ـ مؤيّدًا تحدِّي (داروين) ـ: «لقد أَصابَ القائلون بالمذهبِ الخَلْقِيِّ في أَنَّهُ إذا تَمَّ إثباتُ وجود تعقيدٍ حقيقيٍّ سليمٍ غير قابلٍ للتَّبْسِيطِ، فإنَّ ذلك من شأنِه أنْ يُدمِّرَ نظريَّة داروين»[2].

خلاصةُ ما سبَقَ: الإقرارُ أنَّ وجودَ عُضوٍ يأبى تفسيرُهُ التطوُّرَ البطيءَ التّصاعديَّ، ويقومُ وجودُه على ظهورٍ مفاجِئٍ لا يمكن اختزالُهُ في تَدَرُّجٍ بسيطٍ، يَهْدِمُ أَصْل التّفسير الماديّ العشوائيّ؛ لأنَّ التَّطوُّرَ يقتضي التغيُّرَ السَّلِسَ والبسيطَ ولا يَسْمَحُ بالقَفزاتِ المعقّدةِ الوظيفيّةِ.

---

(١) Charles Darwin, *On the Origin of Species*, p.175.

(٢) Richard Dawkins, *The God Delusion*, p.125.

المطلب الثاني

التحدّي الذي قبله الـمُؤَلِّـهَة

وَجَدَ الـمُؤَلِّـهَةُ في تحدّي (داروين) مَدْخلًا جيّدًا لِنَقْضِ التّفسيرِ العشوائيِّ لعالم الأحياء؛ خاصة أنّ الملاحدةَ يَتَفَلَّتُون من كلِّ اختبارٍ جادٍّ لدعواهم بإضافةِ افتراضاتٍ جديدةٍ تجعل نظريَّتَهُم مَطّاطةً إلى درجةِ اللُّزُوجَةِ؛ فَتَقْبَلُ التّفسيرَ ونَقِيضَهُ.

وقد قَدَّمَ (بيير ـ بول غراسي) ـ رئيسُ أكاديميّة العلوم الفرنسيّةِ ـ مثالَ تَجَلُّطِ الدَّمِ، بُرهانًا على التّعقيدِ غير القابلِ للتبسيطِ[1]. وهو المثال الذي كَرَّرَهُ عالم البيولوجيا الدّقيقة (مايكل بيهي) في كتابِه الخطيرِ «صُندوقُ داروين الأَسود»، مع أمثلةٍ أُخرى. وقد نَحَتَ فيه مصطلحَ «التّعقيدِ غير القابلِ للتّبسيطِ»؛ وهو النّظامُ الواحِدُ الذي يتكوّن من عدّةِ أَجزاء مُتآلفةٍ ومُتقاطعةٍ تُساهِمُ في الوظيفةِ الأساسيّةِ لِعَمَلِهِ. ولا يمكن الوصولُ إليه من خلال الإضافات المتلاحقةِ. فهذا النّظامُ غير قابلٍ للتّبسيطِ لأنّه لا يقبَلُ التطوّرَ والتّحسينَ لِيَصِلَ إلى مستوى أداءِ وظيفتِه الأساسيّةِ؛ فلا بُدَّ أنّه قد نَشَأَ مَرَّةً واحدةً على صُورةٍ مُرَكَّبَةٍ ومُعَقَّدَةٍ[2].

المطلب الثالث

هل هَدَمَ الدَّراونةُ أيقونة (بيهي)؟

اضطرب التيّارُ الدارويني للتّحدّي العِلميّ الذي طَرَحَهُ (بيهي)، بما دَفَعَ رُموزَهُ إلى تحريف تعريف (بيهي) «للتّعقيدِ غير القابل للتّبسيطِ» بالزَّعْمِ أنّه يُقَرِّرُ أنّ هناك أنظمةً حيويّةً تتكوّنُ من أجزاء لا تَعْمَلُ إلَّا ضمن منظومةٍ كُبرى.

وحقيقةُ الأمرِ أنّ التّحدّي الذي طرحَهُ (بيهي) وعامّةُ تيّارِ ما يُعرف «بالتّصميمِ الذّكيّ» يتعلّقُ بوظيفيّةِ مجموعِ المنظومةِ لا وظيفيّةِ الأفرادِ. وهو يُقرّرُ

(١) Pierre-Paul Grasseì, *L'Evolution du Vivant, Matériaux pour une Nouvelle Théorie Transformiste* (Paris: A. Michel, 1973).

(٢) Behe, *Darwin's Black Box*, p.396

أنَّ المنظومةَ غيرَ القابلةِ للتّبسيطِ هي التي لا يمكنُ الوصول إليها بالتدرُّجِ البطيءِ لأنّ هذه المنظومةَ لا يمكن أن تعملَ في غيابِ أيِّ عُضوٍ من أعضائِها[1]، دون أن تكونَ المراحِلُ الانتقاليّةُ إليها، وهي عادةً طويلةٌ جدًّا، تحمِلُ دائمًا طابعًا وظيفيًّا.

تدليسُ الدَّراونةِ لبرهانِ التّعقيدِ غيرِ القابِلِ للتّبسيطِ

التّعقيدُ غيرُ القابلِ للتّبسيطِ عند بيهي	في زَعْمِ الدَّراونةِ
لا يمكن لمراحِلِ التطوّرِ أن تكون وظيفيّةً	لا يمكن لأيِّ عُضوٍ أن يكون وظيفيًّا وَحْدَهُ
إذا حَذَفْنَا أيَّ عُضوٍ منه تَتَعَطَّلُ المنظومةُ بأكمَلِها	إذا حَذَفْنَا أيَّ عُضْوٍ منه يَتَعَطَّلُ جميعُ أفرادِ المنظومةِ
وظيفيّةُ الأفرادِ لا تَدُلُّ على إمكانِ تَطَوُّرِهم إلى إنشاء المنظومةِ الوظيفيّةِ الكُبْرى	وظيفيّةُ الأفرادِ مُمْتَنِعةٌ في غيابِ المنظومةِ.

حَشَدَ الدَّراونةُ كلَّ طاقتِهم لبيانِ إمكانِ تطوّرِ الأمثلةِ التي قَدَّمَها (بيهي) عن أسلافٍ أَقَلَّ تعقيدًا؛ فقدَّمُوا لذلك مقالاتٍ، وبرامجَ وثائقيّة مُوَجَّهة للعامّةِ، بالإضافة إلى استحضارِ هذا الأمر في المناظراتِ والنّزاعِ القَضَائيِّ الشّهير لِـمَنْعِ تدريسِ التّصميمِ الذّكيّ في أمريكا سنة ٢٠٠٥م.

ويقول (بيهي) تعليقًا على اللَّغَطِ الشّديدِ الذي أَثَارَهُ الدَّراونةُ على الأمثلةِ التي يُقدّمها لهذا التّعقيدِ: «لا أَحَدَ في جامعة هارفارد، ولا أَحَدَ في معاهِدِ الصِّحَّةِ الوطنيّةِ الأمريكيّةِ، ولا أيَّ عُضوٍ في الأكاديميّة الوطنيّةِ للعلومِ، ولا أَحَدَ من الفائزين بجائزةِ نوبل.. لا أَحَدَ على الإطلاقِ بإمكانِهِ تقديمُ وَصْفٍ تفصيليٍّ لكيفيّةِ تطوّرِ الأهدابِ[2]، أو الرُّؤْيةِ، أو تَخَثُّرِ الدَّم، أو أيِّ عَمَليّةٍ بيوكيميائيّةٍ مُعقّدةٍ تَطَوَّرَتْ على الطَّريقةِ التي تَدَّعِيها الدّاروينيّةُ»[3].

ويُعَدُّ (سَوْطُ البكتيريا)[4] أبرزَ مثالٍ على التّعقيدِ غير القابل للتّبسيطِ في

---

(١) المصدر السابق، ص٣٩.

(٢) Cilium.

(٣) Michael J. Behe, *Darwin's Black Box*, p.187.

(٤) Bacterial flagellum.

كتابات (بيهي). وهو محرّكٌ يَدُورُ بسرعةٍ عاليةٍ جدًّا لِدَفْعِ البكتيريا عبر محيطِها السَّائلِ، ويتكوّنُ من قرابةِ ٤٠ بروتينًا، وبإمكانهِ الدَّوران ٢٠٠ مرّة في الثّانيةِ..

وقد انتشرَ بين الدَّراونةِ الشّعبيّين القولُ بنقضِ هذا المثال الدّالِّ على التّعقيدِ غير القابلِ للتّبسيطِ من خلال الكشف عن Type III Secretory System (T3SS)) الذي يتكوّنُ من ١٠ بروتينات موجودةٍ أيضًا في (سَوْطِ البكتيريا)؛ فوجودُ بعضِ أجزاءِ (سَوْطِ البكتيريا) في عُضَيَّةٍ في الخليّة يلزم منه ـ عند الدَّراونةِ ـ أنّ هذا السَّوْطَ قد تَطَوَّرَ عنهُ.

لكنّ هذا الاعتراضَ مُعارَضٌ بأَحْدَثِ الدّراسات العلميّةِ التي تُقَرِّرُ أنّ السّيناريو الأقربَ ـ إنْ قلنا بعلاقة هذَيْنِ الجهازَيْنِ بعضهما ببعض ـ هو أنّ (Type III Secretory System (T3SS))[(١)] جاء بعد (سَوْطِ البكتيريا) لا العكس[(٢)]. وهو ما قَرَّرَهُ (سكوت منيتش)[(٣)] المتخصّص العالميُّ في (سَوْطِ البكتيريا). وأَكَّدَهُ بيولوجيّون تطوّريُّون معروفون؛ ومن ذلك قولُ بعضِهم: «يبدو أنّه من المَرْضِيِّ القولُ: إنّ أصلَ منظومةِ (type III secretion)... قد تطوَّرَ من هذا التركيب السَّوْطِيِّ»[(٤)]، وقولُ آخرين: «نحن نقترحُ أنّ الجهازَ السَّوْطِيَّ كان السَّلَفَ التطوّريَّ لمنظوماتِ إفراز (type III secretion)»[(٥)].

ومن أدلّةِ تَأَخُّرِ (T3SS) عن (سَوْطِ البكتيريا) ـ إنْ صَحَّتْ الرّوايةُ التطوريّةُ ابتداءً ـ:

- تركيبُ بروتيناتِ (سَوْط البكتيريا) يحتاجُ آلاتٍ تنظيميّة تعجَزُ العشوائيّةُ

---

(١) وهو مضخة تقوم بنقل البروتينات عبر غشاء خلية البكتيريا.

(٢) انظر مثلًا:

Sophie S. Abby and Eduardo P.C. Rocha, 'An Evolutionary Analysis of the Type III Secretion System' (2012).

<http://www.pasteur.fr/ip/resource/filecenter/document/01s-00004f-0h6/abstract-037.pdf>.

(٣) سكوت منيخ Scott Minnich: أستاذ مساعد للبيولوجيا الدقيقة في جامعة «أيداهو».

(٤) J. Mecsas and Strauss, E.J., Molecular Mechanisms of Bacterial Virulence: Type III Secretion and Pathogenicity Islands, Emerging Infectious Diseases 2(4), October-December 1996; www.cdc.gov/ncidod/EID/vol2-no4/mecsas.htm.

(٥) L. Nguyen *et al.*, 'Phylogenetic analyses of the constituents of Type III protein secretion systems', *J. Mol. Microbiol. Biotechnol.* 2(2):125 - 44, April 2000.

أن تَصْنَعَها لِتَعْقِيدِ تركيبِها الغائيِّ[(١)].

• (T3SS) لا يشارك (سَوْط البكتيريا) إلَّا في عَشْرة بروتيناتٍ. فمن أين جاءت البروتيناتُ الأُخرى التي لا نعلَمُ عنها أيّ حضور فِي عالم الأَحياءِ؟

• روايةُ الانحدارِ بانفصالِ بعضِ أجزاءِ السَّوْطِ البكتيريِّ أَقْرَبُ للتَّصَوُّرِ من الرّوايةِ الارتقائيّةِ التي تُواجِهُ المشكلةَ التطوّريّةَ الكُبْرى، وهي وجودُ مراحلَ وسيطةٍ انتقاليّةٍ، كُلّها يُؤدّي وظيفةً نافعةً حينيّة.

• البكتيريا بحاجةٍ إلى السّباحةِ مستعينةً بِسَوْطِها المتحرّكِ. والبكتيريا أَقْدَمُ الكائناتِ الحيّةِ. في حين لا يمكن لـ (T3SS) أن تعملَ قبل ظهورِ الكائناتِ متعدّدةِ الخلايا.

• يَتَّفِقُ الجميعُ أنّ البيولوجيّ الدارويِنيَّ (كنث ملر) هو أَهَمُّ من رَدَّ نموذجَ التعقيدِ غير القابل للتّبسيط في هذا السَّوْطِ البكتيريِّ وسَفَّهَهُ، إلَّا أنّه في مُناظرةٍ مُتأخّرةٍ مع فيلسوف العلوم (بول نلسون)[(٢)] سنة (٢٠٠٥م) اعترفَ أنّه هو نفسُه لا يَجْزِمُ أيَّ «الآلتَيْنِ» ظَهَرَتْ أَوَّلًا، (T3SS) أم (سَوْط البكتيريا)...[(٣)]!

• وجدَ العلماءُ إشكالاتٍ جادّةً في رَسْمِ شَجَرَةٍ تطوّريّةٍ لأسواطِ البكتيريا؛ إذ إنها مُنْتَشِرةٌ على صورةٍ تمنَعُ أن تكون قد نَشأَتْ عن أَصْلٍ واحدٍ[(٤)]!

الأَهَمُّ مما سبق هو الجوابُ عن السُّؤالَيْنِ التّاليَيْنِ:

١ ـ حتى لو سَلَّمْنَا بوجودِ جميعِ أجزاءِ السَّوْطِ قبل اجتماعِها، يبقى إشكالُ وجودِ منظومةِ تعليماتٍ جينيّةٍ وآلاتٍ بروتينيّةٍ للقيامِ على التّركيبِ المعقّدِ

---

(١) S.Minnich, Bacterial flagella: spinning tails of complexity and co-option, <www.idurc.org/yale-minnich.html, 25 August 2003>.

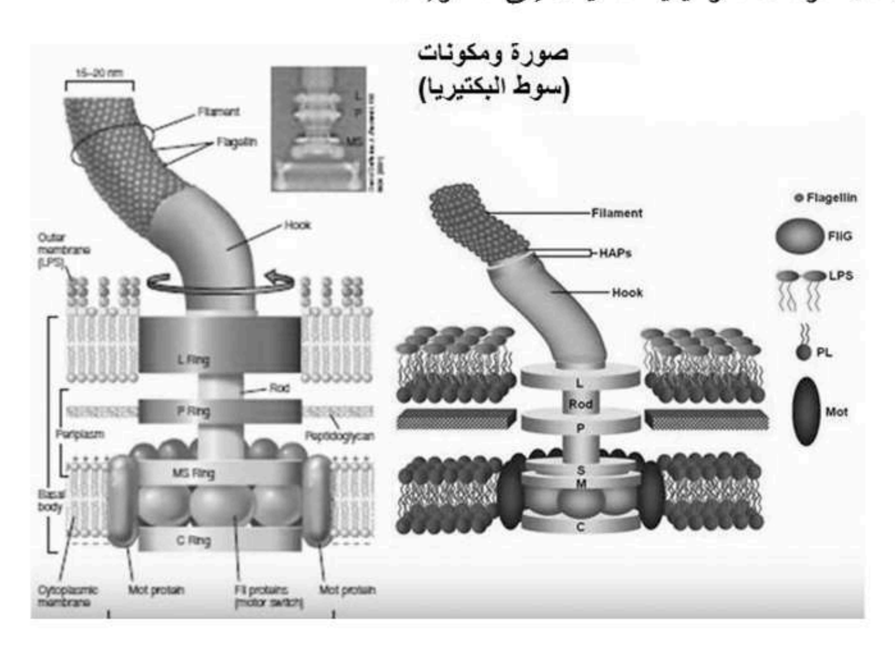
(٢) بول نلسون Paul Nelson (١٩٥٨ـ): متخصّص في فلسفة البيولوجيا. من أهم رموز تيّار «التصميم الذكي».

(٣) <https://www.youtube.com/watch?v=6Ws5LuGZBUs>.
الدقيقة ٤٦: ٣٠: حيث يقول: «I Don't Know!»

(٤) LA Snyder, *et al.*, 'Bacterial flagellar diversity and evolution: seek simplicity and distrust it?,' *Trends Microbiol.* 2009 Jan;17(1):1-5

للسَّوْطِ. فالقضيّةُ الأكبرُ ليست وجودَ البروتيناتِ الضّرورية لِبناءِ السَّوْطِ (وهو أَمرٌ مُشكِلٌ)، وإنّما وجودُ هندسةٍ تنظيميّةٍ وترتيبيّةٍ.

٢ ـ أين هي المراحِلُ الانتقاليّةُ الوظيفيّةُ من العناصِرِ المتفرّقةِ للسَّوْطِ ـ أو المنظومات الوظيفيّة الدُّنْيا ـ إلى السَّوْطِ؟!



المطلب الرابع

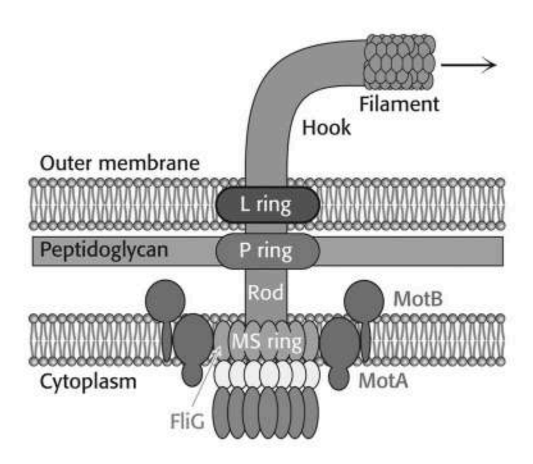
بَطَّارِيَّتُكَ تَتَحَدَّاهُمْ

من الأمثلة الأُخرى للتّعقيدِ غيرِ القابلِ للتّبسيطِ، إنزيمُ (ATP synthase)، وهو مختصٌّ بإنتاج الطّاقةِ للخليّة، ويتكوَّنُ من ٤٠٠٠٠ ذرّةٍ فقط. ويحتاجُ الإنسانُ أن ينتج أكثرَ من نصفِ وَزْنِهِ يوميًّا منه لِيُوَفِّرَ الطّاقةَ التي يحتاجها[١].

إنـزيـمُ (ATP synthase) (آلةٌ) (machine) و(مـحـرّكٌ) (motor)؛ بـل هـو أَصْغَرُ محرّكٍ في الوجودِ معروفٍ اليومَ. وهو على درجةٍ عاليةٍ من التّركيبِ

(١) Hopkins Study Reveals Key Details On How We Get Energy: <https://www.sciencedaily.com/releases/1998/09/980915122233.htm>.

والتّعقيدِ حتى إنّ العالِـمَيْنِ (بوير)[1] و(جون والكر)[2] قد حازا مُنَاصفةً جائزة نوبل سنة ١٩٩٧م بسبب اكتشافِهِما دورانَ إنزيم (F_1-ATPase) الذي يَعْمَلُ ضمن الإنزيم الأَكْبَرِ (ATP synthase). وخطورةُ هذا الإنزيم في الجَدَلِ ضدّ الداروينيّةِ أنّ وَظِيْفِيَّتَهُ تقتضي أنّه كان موجودًا في بداية الحياة؛ إذ لا يمكنُ للحياةِ أن تتطوَّرَ من دونه. وبداية الحياةِ لم تعرف الانتخابَ الطبيعيَّ الذي يُراهِنُ عليه الدَّراونةُ لتفسيرِ كُلِّ منظومةٍ وظيفيّةٍ مُعقدةٍ أو غير مُعقّدةٍ.



المطلب الخامس

العَتَّالُ الذَّكِيُّ

الـمحرّكُ (كـينـيسين ـ kinesin) آلةٌ عتّالةٌ لا يفوقُ حجمُها ٧٠ من ١٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ جزءٍ من المتر الواحد. وهو في رأي الكثيرين أكثرُ المحرّكات ظَرَافةً في شَكْلِهِ، وبراعة في وظيفتِهِ[3]؛ إذ إنّ:

- له ذِراعَيْنِ على الحقيقةِ لا المجاز لِحَمْلِ الأَثْقالِ.

(١) بول بوير Paul Boyer (١٩١٨ـ): عالم كيمياء حيوية أمريكيّ. عضو الأكاديمية الوطنية للعلوم.

(٢) جون والكر John Walker (١٩٤١ـ): كيميائيّ بريطانيّ. مدير «MRC Mitochondrial Biology Unit» في كمبردج.

(٣) أرجو مشاهدة الفيديو التالي لتصوّر تفاصيل هذا الكائن ووظيفته:
<https://www.youtube.com/watch?v=gbycQf1TbM0>.

• له رجلان لِلمَشْي على الحقيقةِ لا المجاز. وهو ينقلُ العُضَيَّاتِ الثّقيلةَ في الخليةِ على الطريقِ السّريعةِ[1].

• يقومُ بتغيير حجمِ خُطواتِهِ تبعًا لثقل الحُمُولةِ.

• تبلغ سُرعتُه مئةَ خُطوةٍ في الثّانيةِ الواحدة، وهو ما يقابِلُ في عالم البَشَرِ ـ إذا قارنّا أَمْرَ السُّرعةِ بالحَجْمِ ـ «جَرْيَ» الإنسانِ بسرعةِ ١٣٠٠ ميلٍ في السّاعةِ!

• يُسلِّمُ بضاعتَهُ إلى عَتَّالٍ آخَرَ في الطّريق لِيُتِمَّ الرّحلةَ الطّويلةَ.

• عنده قدرةٌ على معرفةِ عوائقِ الطّريقِ، وَتَجَاوُزِها. وهو في ذلك يملِكُ منظومةً شبيهةً بـ(GPS) تُؤهّلُه لإعادةِ ترتيبِ سيرِ الرّحلةِ إذا حصل طارئٌ في إعادةِ ترتيبِ خارطةِ الوصولِ إلى مقصِدِهِ.

• يمتلِكُ نظامَ اقتصادٍ عاليًا؛ إذ يعودُ إلى مركزِ الخليّةِ في مجموعاتٍ حفاظًا على الطّاقة، أو يَتَفَكَّكُ لِيَتِمَّ إعادةُ تدوير (recycle) أجزائه[2].

لا تستغني الخليّةُ عن هذا العَتَّالِ لحاجتها إلى نقل العُضَيَّاتِ من مكانٍ إلى آخرَ لاستمرارِ عَمَلِها. وهو يستلِمُ البضاعةَ من (Golgi apparatus) بعد تغليفِها وتحديدِ عنوانِ المستلِمِ. وقد كشفَ البحثُ عن أهميّةِ دورِ هذا العَتَّالِ في عمليّةِ انقسامِ الخليّة. وهو ما يظهر أنّ الحياةَ الأُولى لا تستغني عن عملِه لضمانِ بقاءِ الحياةِ قبلَ ظهورِ الانتخابِ الطبيعيِّ.

يقول (ستفن م. بلوك)[3] ـ رئيسُ جمعيّة الفيزياء الحيويّة الأمريكيّة ـ: «الحركةُ على مستوى الخليّةِ هي السِّمَةُ المميّزة للكائنِ الذي على قيد الحياةِ. والسُّؤالُ الأساسيُّ هو: كيف تعرف الكائناتُ الحيّةُ كيف تتحرّك؟ الجواب:

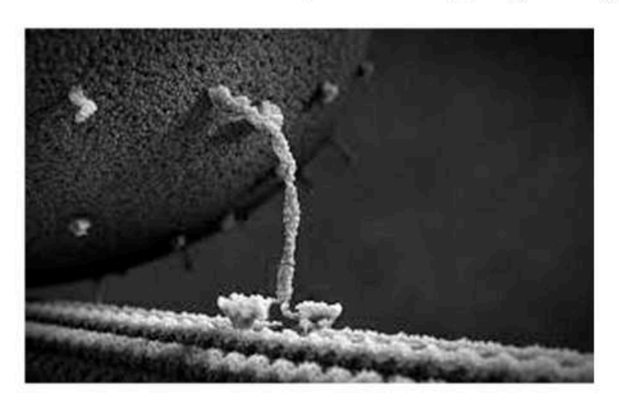
---

(١) هذا فيديو تقريبيّ لِعَمَلِهِ:
<https://www.youtube.com/watch?v=y-uuk4Pr2i8>.

(٢) Jonathan Sarfati, By Design, pp.139-140.

(٣) ستفن م. بلوك Steven M. Block (١٩٥٢ـ): عالم فيزياء حيوية أمريكيّ. عضو الأكاديمية الوطنية للعلوم.

هو أنها تُنشِئُ (كينيسين) وعددًا آخرَ من المحرّكاتِ البروتينيّة الفَعَّالةِ جِدًّا. لو فَشلَ (كينيسين) تمامًا في ذلك؛ لكنتَ فَشِلْتَ في أن تكون جنينًا؛ لأنّ خلاياك ما كانت لتعيش. الأمر على هذه الأهميّة»[١].



(١) Charles L. Asbury, Adrian N. Fehr, Steven M. Block, 'Kinesin Moves by an Asymmetric Hand-Over-Hand Mechanism,' *Stanford News Service*, 12/5/03

المبحث السادس

النّظمُ الفائِضُ عن الحدّ الأَدنى للحاجة المعيشيّة (Overdesign)

يواجِهُ التّفسيرُ الدّاروينيُّ للمنظومةِ الأَحيائيّةِ مُشكلةَ النّظْمِ الفائضِ عن الحاجة؛ إذ تشهَدُ الحياةُ وجودَ طبقاتٍ من الأجهزةِ والوظائفِ التي تربو على حاجةِ البقاءِ ومقاومةِ أسبابِ الفناءِ، وهي زياداتٌ على المطلوبِ في منظومةِ التفسيرِ الماديِّ الدارويني؛ ولذلك لا يمكن تفسيرُها خارجَ إطار «النَّظْمِ الحَكِيم». .

المطلب الأول

فائِضُ الحاجةِ العُضْويِّ

للإنسانِ ثُنائيّةٌ من عددٍ من الأعضاءِ مثل الرئةِ والكَبِدِ، وهناك أعضاء كثيرةٌ جدًّا غيرُ ضروريّةٍ للحياةِ لكنَّها مفيدةٌ لِدَعْمِ عَمَلِ الجِسْم، مثل الطِّحالِ. وقد كشفَ البروفسورُ (جارد دايمند) من جامعةِ كاليفورنيا أنَّ القُدرةَ الوظيفيّةَ للأمعاءِ عند الإنسان ضِعْفُ ما يحتاجُه الإنسانُ لحياةٍ معافاةٍ، وأنّ منظومةَ عملِ الكَبِدِ عندنا ثلاثةُ أضعافِ المطلوبِ، وأنّ قُدرةَ البنكرياس عشرةُ أضعافِ الحدِّ الأدنى لجسمٍ سليمٍ(١).

والنّاظِرُ في الجينومِ يلحظُ جيناتٍ كثيرةً مكرّرةً، وهي تعمل كاحتياطيّ يُلْتَجأُ إليه عند الضّرورةِ. ورغم وجودِ الجيناتِ الاحتياطيّةِ إلَّا أنّها تبقى مُعَطَّلَةً

---

(١) J. Diamond, "Best Size and Number of Human Parts," *Natural History*, 103(6) (1994): 78.

عن العملِ ولا تنتقِلُ من الخُمُولِ السّلبيِّ إلى الفعلِ والتأثير حتى تُعْطَبَ الجيناتُ العاملةُ. وليس في ذلك شيءٌ من طبائعِ العشوائيّةِ التي لا تُخطّط للنّوازلِ والأزماتِ.

كما أنّ الأعضاءَ البشريّةَ التي لها وظائفُ معلومةٌ ضروريّةٌ، تتمتَّعُ أيضًا بملكاتٍ وظيفيّةٍ زائدةٍ عن حاجةِ البقاء؛ وتلك معضلةٌ داروينيّةٌ؛ فإنّنا إن قَبِلْنا ـ جَدَلًا ـ أنّ التفسيرَ الداروينيَّ قادرٌ على تفسيرِ ظهور اليدِ بسببِ الحاجةِ إلى الصَّيْدِ، يبقى أن نُفَسِّرَ قُدرةَ اليدِ على القيامِ بوظائفَ كثيرةٍ جِدًّا تربو على مجرّد رَمْيِ رُمحٍ وذَبْحِ حيوانٍ؛ فالإنسانُ قادر على القيام بأعمالٍ فنيّةٍ كالرَّسْمِ والنَّحْتِ، وأعمالٍ للتكَسُّبِ والاختراعِ كثيرة.

القضيّةُ على الصّحيحِ هي أنّ كلَّ ما في الإنسان يحقّق فوق الكفايةِ، كَمَلَكَاتِ الشَّمِّ، والتّذوّقِ، والكلامِ... والجانبِ العاطفيِّ.

المطلب الثاني

الآلات الدّفاعيةُ والهجوميّةُ للحيواناتِ والنّباتاتِ

تَعُجُّ الطّبيعةُ بنماذجَ غاية في التعقيدِ والتكاملِ عند الحيواناتِ والنباتات لدَفْعِ الأعداء أو السّيطرةِ على الضَّحايا، وهي أعظمُ تعقيدًا مما يُحتاج إليه لتحقيقِ البقاء. وهي في تعقيدِها تبلغ درجةً لا يمكن للتّفسير الداروينيِّ التّرتيبيِّ (Gradualist) البطيءِ أن يشرحَ نُشُوءَها. ومن أشهرِ وسائل الهجومِ والدّفاع ظاهرةُ التَّخَفّي عند الحيواناتِ حتى لا يَتَنَبَّهَ لها أعداؤُها؛ وذلك بأن تَتَّخِذَ شَكْلًا أو لَوْنًا يُماثِلُ ما يحيطُ بها، ومن ذلك تغييرُ الألوان في بعض أنواع الحَبَّارِ، وإخفاءِ الظِّلِّ مع حيوان «Flat-tail horned lizard». ومن النماذج الأخرى التي تجمع بين التعقيد والجَمَالِ:

الخنفساء المتفجّرة (Bombardier Beetle): تمتلك هذه الخنفساءُ القدرةَ على إطلاق مُفَرْقَعاتٍ في مواجهةِ خُصُومِها؛ إذ كشفَ البحثُ المعمليُّ أنّها تقوم بِمَزْجِ مادّتَيْنِ كيميائيَّتَيْنِ (hydrogen peroxide) و(hydroquinone) لصناعة

خليطٍ مؤذي الرّائحةِ. وهي تملكُ مَنْعَ الغازَيْنِ من الاختلاط، ولولا ذلك لانفجَرَتْ، كما أنّها تُخْرِجُ الطّلقات مُتفرّقةً؛ إذ لو أَخْرَجَتْ هذا الغازَ مرّةً واحدةً لَتَفَجَّرَ بَطْنُها.

لسانُ الحِرْباءِ.. وسرعة النّفّاثة: تلتقِطُ الحرباءُ ضَحِيَّتَها بِلِسانها الذي قد يبلغُ طولُه مرّةً ونصف طُولِ الحرباءِ نفسِها. ومن عَجَائِبِهِ سرعتُه العاليةُ؛ إذ يبلغُ (50 g)؛ أي: خمسينَ مَرَّةً ضعفَ السُّرعةِ النّاجمةِ عن الجاذبيّةِ، وهي سُرعةٌ خارقةٌ؛ إذ تبلغُ سرعةُ طائراتِ (جت) الحربيّة (10 g) فقط، مع ارتداءِ قائدِ الطّائرة جِهازًا خاصًّا لذلك. وقد استعملَ باحثون كاميرا دقيقةً جدًّا لتصويرِ جميعِ حركةِ اللِّسانِ؛ فاكتشفوا أنّه على خلافِ السّحليات التي تلتقِطُ بطرف لِسانها اللَّزِجِ ضَحَاياها، فإنّ لِسانَ الحِرْباءِ السَّريعَ يقبِضُ على ضحيَّتِه الكبيرةِ بآليّةٍ أُخرى؛ وهي أنْ تَسْحَبَ الحرباءُ عَضَلَتَيْ الجزءِ الأوسطِ من طرفِ اللِّسانِ قَبْلَ إصابةِ الضَّحِيَّةِ، مُشَكِّلةً شَفَّاطةً مُفرّغةً للهواءِ (suction cup)[1]. والمثيرُ هنا أنّ اللِّسانَ القَذْفِيَّ والطّرفَ العامِلَ كشَفَّاطةٍ لا يعملُ أيٌّ منهما دون الآخر لالتقاطِ الضحيّةِ؛ بما يعني: الحاجة إلى آليّتَيْنِ دقيقَتَيْ التّركيبِ للقيامِ بمهمّةٍ حيّاتيّةٍ ضروريّةٍ[2].

خناق الذّباب Venus flytrap: ينمو هذا النَّباتُ في شمالِ ولاية كاليفورنيا الأمريكيّةِ وجنوبها، وهو لا يعيشُ إلّا في المناطق الرّطبةِ والمشمِسَةِ؛ إذ هو لا يأخذُ جُلَّ غذائِهِ من الأرض وإنما يُحَصِّلُهُ من الْتِهَامِ الحَشَرَاتِ. يقوم النّباتُ بالقَبْضِ على الحَشَرَاتِ التي تَحُطُّ عليه إذا لامَسَتْ شَعْرَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ فقط من شعراتِ فَكَّيْهِ اللَّذَيْنِ يَنْبَعِجانِ لجهةِ الخارجِ قبلَ اصطيادِ الفريسةِ، ثم يَنْبَعِجانِ إلى الدَّاخِلِ إذا تَمَّ اصطِيادُها. ولا يَنْقَبِضُ الفَكَّانِ إذا تحرّكَتْ شعرةٌ واحدةٌ؛ وذلك أنَّ الغُبَارَ قد يُحرّكها لا الفريسةَ، إلّا أن يَتِمَّ تحريكُ الشَّعْرةِ الواحدة مَرَّتَيْنِ في حدودِ عشرين ثانية. وينطبِقُ الفَكَّانِ على الفريسةِ بسرعةٍ لمفاجأةِ الضّحِيَّةِ، وكلّما تحرّكَت الفريسةُ زاد الانقباضُ، ثم يَتِمُّ

---

(١) A. Herrel, *et al.* 'The mechanics of prey prehension in chameleons', *J. Exp. Biol.* 203:3255 - 3263, 2000.

(٢) المصدر السابق.

إفرازُ إنزيماتِ هَضْمٍ لتحويلِ الحَشَرَةِ التي تَمَّ اصطيادُها إلى طعامٍ مُغَذٍّ. ويستغرِقُ الهَضْمُ عشرةَ أيّامٍ، ثم بعد ذلك ينفَتِحُ الفَكّانِ. وإذا انقبَضَ الفَكَّانِ على فريسةٍ وَهْمِيّةٍ، ينفَتِحَانِ بعد أَرْبعٍ وعشرين ساعةً. وتتوافَقُ عمليّةُ انقباضِ الفَكَّيْنِ وسرعةُ ذلك هندسيًّا وحسابيًّا مع حجمِ الفريسةِ؛ لاقتضاء الانقباضِ النّاجِعِ أن يكون سريعًا حتى لا تَفِرَّ الفريسةُ، ولأهميّة أَلَّا تَنْشَغِلَ هذه النَّبْتَةُ بافتراسِ الحَشَرَاتِ الصّغيرةِ غيرِ الـمُفِيدةِ.

لقد أَدْهَشَتْ هذة النَّبْتَةُ العلماءَ حتى قال فيها (داروين): «إنّها واحدةٌ من أَعْظَمِ [النّباتات المفترِسةِ] في العالم»(١).

المطلب الثالث

البناءُ التَّمويهيُّ للكائنات الحية

من أبرزِ نماذج الكائناتِ ذاتِ البِنْيةِ التّمويهيّةِ ما يُعرفُ بالشَّبَحيّاتِ أو العَصَوِيَّاتِ (Phasmatodea)، وهي حَشَرَاتٌ تُشْبِهُ الأَغْصانَ، أو أَوْرَاقَ الأَغْصانِ أو ساقَ النَّباتِ، ولها أَرْجُلٌ صغيرةٌ جدًّا، وهو ما يُوفِّرُ لها القُدرةَ على التّخَفّي وكأنّها جزءٌ من النّبات الموجودِ حولها. ويوجد منها قرابة ٢٠٠٠ نوعٍ.

ومن أشهرِ أنواع (الحَشَرَةِ الوَرَقِيّة) (Leaf insect) حَشَرَاتٌ تعيشُ في الهِنْدِ لها أَجْنِحةٌ على شَكْلِ وَرَقةٍ، ولها بُيوضٌ على شكلِ بُذورِ النّباتِ، وهي تعيشُ جُلَّ يومِها ساكنةً كالنّباتِ!

كما تُدهِشُنا مظاهرُ الطّبيعةِ بالحشراتِ التي تحمِلُ في كلٍّ من جناحَيْها صورةَ نَمْلةٍ بِسِتِّ أَرْجُلٍ، ورأسًا باثْنَيْنِ من الهوائيّاتِ، وصدرًا، وبطنًا مُدَبَّبًا؛ لِتُخِيْفَ أعداءَها..

ويبقى أنّ أفضلَ طريقٍ لبيانِ القدرة التمويهيّةِ العاليةِ لهذه الكائنات النَّظَرُ في صُوَرِها لإدراكِ سذاجةِ الحديث عن العشوائيّةِ في صناعة آلاتِ التَّخَفّي في عالم الحيوانِ.

---

(١) Darwin, *Insectivorous Plants* (Murray, London, 1875).

حَشَرَةٌ على جَناحَيها صُورةُ حَشَرَتَيْنِ



حَشَرَةٌ (Trychopeplus) على شكلِ غُصْنٍ مُوْرِقٍ



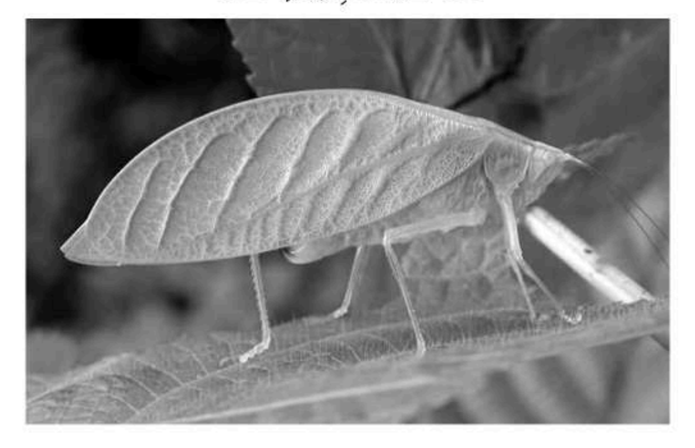
حَشَرَةٌ على شكلِ وَرَقَةٍ جافَّةٍ



حَشَرَةٌ على شكلِ وَرَقَةٍ خَضْراءَ



حَشَرَةٌ على شكلِ وَرَقَةٍ خَضْراءَ



فراشَةُ الوَرَقَةِ الجافَّةِ



حَشَرَةٌ على شكلِ غُصْنِ شَجَرَةٍ



المبحث السابع

الزّوجيّةُ وظهورُ التّكاثُرِ الجِنْسِيِّ

أَبْرَزُ طابعٍ للكونِ في عالَمِ الأحياء وغير الأحياء ما فيه من ثُنائيّةٍ، فمِنْ كُلِّ شَيءٍ زَوْجَانِ، وذاك أَمرٌ عَجِيبٌ في كونٍ نشأ عن انفجارٍ تَبَعْثَرَتْ بعده الطاقةُ في المكان المتوسّع بلا حِكْمةٍ..

المطلب الأول

الزّوجيّةُ، التحدّي القرآنيّ الصُّلْب

أمرُ الزوجيّةِ في عالم الأحياء مُعضلةٌ من وجهَيْنِ، أَوَّلُهما: طابع الزوجيّة نفسُه، وثانيهما: طابعُ التّكاثرِ الجِنْسِيِّ الذي يُعارِضُ مبادئَ التطوّرِ الدارويني.

والزوجيّةُ في القرآنِ من أعظمِ حُجَجِ الحِكْمةِ في الصَّنْعةِ الإلٰهيّةِ، فقد تكرَّرَ الحديثُ عن الزّوجيّةِ التّقابُليّةِ بُرهانًا للنَّظَرِ والتَّدبُّرِ في آياتٍ كثيرةٍ:

• الزّوجيّةُ في عالمِ الإنسانِ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم: ٤٥].

• الزّوجيّةُ في النّباتِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: ٣].

• الزّوجيّةُ في أفرادِ الكَوْنِ عامّةً: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩].

وتطرَحُ مُشكلةُ الثّنائيّةِ التّقابُليّةِ والتّكامُلِيّةِ للكائناتِ الحيّةِ مجموعةً من المشكلات لِـمُنْكِري النَّظْمِ الحَكِيمِ، ومنها:

• مشكلةُ نشأةِ التّقابليّةِ بعد عصرِ التّكاثرِ غير الجنسيّ: سَبَبُها، وآليّتُها، وكيف وُجِدَ الزّوجانِ معًا؛ إذ إنّ تَطَوُّرَ أَحَدِهِما دون الآخَرِ سيقضي عليه بالفَنَاءِ.

• تطوُّرُ الأعضاءِ الجنسيّةِ للذَّكَرِ والأُنثى رغم أنّهما في جَسَدَيْنِ مُنْفَصِلَيْنِ بعضهما عن بعض.

• ظهورُ العمليّةِ التّكاثريّة بتعقيدها الهائلِ جدًّا.

• التكاثرُ غيرِ الجنسيّ الذي كانت عليه الحياةُ في الجزء الأكبرِ من تاريخها أقلُّ تكلفةً للكائنِ الحيِّ، فلِمَ ظهرَتْ كائناتٌ كثيرةٌ معقّدةٌ تتكاثَرُ جنسيًّا رغم أنّ الانتخابَ الطّبيعيَّ ينتقي الأنماط الأَسْهَل للحياة؟

إنّ مشكلةَ التّكاثرِ الجنسيِّ، مُعضلةٌ كُبْرى يُقِرُّ بها أكابرُ الدَّراونةُ حتى قال (غراهام بل)[١]: «الجِنْسُ هو **مَلِكُ المشكلات** في البيولوجيا التطوّريّةِ. ولَعَلَّهُ لم تُثِرْ ظاهرةٌ طبيعّيةٌ أُخرى مثل هذا القَدْرِ من الاهتمامِ، ومن المؤكّد أنه لم يُثِرْ شيءٌ ما أثارَهُ هذا الأمرُ من عظيمِ الالتباسِ. أفكارُ داروين ومِنْدل التي كَشَفَتْ حُلُولًا لِكثيرٍ من الأُمور الغامضةِ، **فَشِلَتْ إلى الآن في ما هو أَكثرُ من إلقاءِ ضَوْءٍ خافتٍ ومُتَهَدِّجٍ على اللُّغْزِ الأَساسيِّ لِلجِنْسِ، مُؤكّدةً غُمُوضَهُ**»[٢].

ويَذْكُرُ الدّاروينيُّ (كارل زمر)[٣] كيف يسيرُ التكاثرُ الجِنْسِيُّ عكسَ الحَرَكَةِ العَفَويّةِ للتّطوّرِ العشوائيِّ، بقولِه: «ليس الجِنْسُ فقط غير ضروريٍّ، وإنّما هو أيضًا يجبُ أن يُعَدَّ وصفةً لكارثةٍ تطوّريّةٍ لأنّه وسيلةٌ غير فعّالةٍ للإنتاج[٤]... والجنسُ يحمِلُ أيضًا مشاقَّ أُخرى... أيُّ مجموعةٍ من الحيواناتِ تُطوِّرُ وسيلةَ تَكَاثُرٍ جنسيّةٍ لا بُدَّ أن يَتِمَّ استبدالها من طرفِ مجموعةٍ تتكاثَرُ بطريقٍ غير

(١) غراهام بل Graham Bell: أستاذ البيولوجيا في «McGill University» في مونريال.

(٢) Graham Bell, *The Masterpiece of Nature: The Evolution of Genetics and Sexuality* (London: Croom Helm, 1983), p.19.

(٣) كارل زمر Carl Zimmer (١٩٦٦ـ): صحفيُّ علومٍ. له مشاركاتٌ في عددٍ من أهمّ المجلّات العلميّة الأمريكيّةِ.

(٤) هذا القولُ ليس بسديدٍ، ولصاحِبِهِ رُؤيةٌ لا تُراعي الحِكْمةَ من تزاوُجِ الذَّكَرِ والأُنثى.

جِنْسيّةٍ. ومع ذلك الجِنْس يسودُ... لماذا نَجَحَ الجِنْسُ رغم كُلِّ عُيُوبِهِ؟»[١].

وهذا (داوكنز) نفسُه يقول في كتابِه الذي أَلَّفَهُ لِبيانِ قُدرةِ العشوائيَّةِ مع الوقت على صناعةِ العَجَائبِ: «تُوجَدُ عِدَّةُ نظريّاتٍ حول سبب ظهورِ الجِنْسِ، وليس منها ما هو مُقْنِعٌ بِحَسْمٍ»[٢].

وبالإضافةِ إلى عَجْزِ العُلماءِ عن فَهْمِ ظهورِ الحاجةِ إلى التكاثرِ الجنسيِّ، يواجه التطوّريُّون مشكلةً أُخرى لا تَقِلُّ إحراجًا عن الأُولى، وهي الغيابُ التامُّ لشواهدِ الانتقالِ من التطوّرِ اللّاجنسيِّ إلى التطوّرِ الجنسيِّ. تقول عالمةُ الجيناتِ (كِم لورز): «تُقَرِّرُ نظرياتُ العلماءِ أنّ كلَّ الحيواناتِ والنّباتِ ثُنائيّةِ الجنسِ أو التي لها جِنْسانِ قد تَطَوَّرَتْ وَفْقًا لمجموعةٍ معيّنةٍ من المراحِلِ. **لم يوجد مثالٌ واحدٌ إلى الآن لِلمَرَاحِلِ الأَبْكَرِ؛ ولذلك فهذه المراحِلُ لم يَتِمَّ إثباتُ أنّها قد وَقَعَتْ**»[٣].

إنّ إشكالات الظاهرة الجنسية التكاملية العصيّة على التفسير العشوائي، والتدرّجي، واسعة جدًّا، ظاهرة في كلّ تفصيل من البناء العضوي للجهاز التناسلي، والعاطفة الجنسية، وقد تناولها كتاب «Darwin's Secret Sex Problem: Exposing Evolution's Fatal Flaw-The Origin of Sex» الصادر هذه السنة بالنظر؛ بحديثه عن الفجوة المحيّرة بين التكاثر غير الجنسي وانفجار الحياة المتكاثرة جنسيًّا؛ فذاك عند مؤلّف الكتاب الخلل القاتل لنظريّة (داروين).

المطلب الثاني

رحلةُ الإنجابِ، رصيدٌ لا ينتهي من العجائِبِ

إنّ ممّا يطمئنُّ إليه العقلُ والقلبُ دون عارضِ رِيْبَةٍ أنَّ كلَّ محاولةٍ للتفكُّرِ الواعي ـ المبرّأ من ضغطِ الأيديولوجيا والأهواء ـ في رحلةِ الإنسانِ من تكوّنِ

(١) Carl Zimmer, *Evolution: The Triumph of an Idea* (Harper Collins, 2010), p.50.

(٢) Dawkins, *Climbing Mount Improbable* (W. W. Norton & Company,1997), p.75.

(٣) Jeanna Bryner,Scientists put sex origin mystery to bed. <http://www.nbcnews.com/id/27927661/ns/technology_and_science-science/t/scientists-put-sex-origin-mystery-bed/#.VzIxyc72bIU>.

الحيوانِ الـمَنَويِّ في الرَّجُلِ والبُوَيْضَةِ في المرأةِ، إلى نهايةِ المسيرة باستهلالِ الجنين من بَطْنِ أُمِّهِ، لا بُدَّ أن تنتهيَ إلى الاستخفافِ بالقُدرةِ الخَلْقِيّةِ للعشوائيّةِ؛ إذ إنّ الإنسانَ يُواجِهُ عيَانًا تفاصيلَ مرهقةً للعقلِ الجاحِدِ والمعانِدِ إذا تَسَلَّحَ بحاسّةِ الاندهاشِ والسُّؤالِ المتكرّرِ: «ولكنْ لماذا يقعُ هذا الأمرُ في كونٍ ماديٍّ أَعْمى؟» و«كيف تَهَيَّأَ هذا الأمرُ رغم أنه لا سبيلَ لِتفسيرِهِ بدعوى الطّفراتِ العشوائيّةِ؛ إذ إننا هنا أَمامَ خُطّةٍ تَغْمُرُها الغائيّةُ؟».

لِنَنْظُرْ في هذه المراحِلِ:

١ ـ الحاجةُ إلى وجودِ ذَكَرٍ وأُنْثى.

٢ ـ الحاجةُ إلى أن يَحْمِلَ الذَّكَرُ رصيدًا بيولوجيًّا مكمّلًا لما عند الأُنثى لِظُهُورِ الجَنِيْنِ.

٣ ـ الحاجةُ إلى أن يُخْتَزَلَ ما عند الرَّجُلِ من معلوماتٍ جِينيّةٍ ورَصِيدٍ بيولوجيٍّ في شيءٍ دقيقٍ جدًّا (الحيوان المنويّ) ـ وَلْنُسَمِّهِ «ح» ـ ليكون قادرًا على التَّلاؤُمِ مع ما عند المرأةِ (البُوَيْضَة) ـ وَلْنُسَمِّهِ «ب»، وهو أيضًا دقيقٌ جدًّا.

٤ ـ الحاجةُ إلى عددٍ كبيرٍ جِدًّا (مليونِيٍّ) من الكائناتِ التي تحمل الرَّصيدَ الجينيَّ الذي سيضاف إلى البويضةِ لِوُعورةِ الطُّرُقِ إلى البُويضةِ مُقارنةً بدقّةِ هذا الكائِنِ (لا يَصِلُ إلى البويضةِ من بين ٢٠ مليونًا أو أكثرَ غيرُ عددٍ قليلٍ من ٢٠ إلى ٢٠٠ حيوانٍ).

٥ ـ الحاجةُ إلى أن تكون في الكائنِ الذَّكَرِيِّ رغبةٌ ما تَدْفَعُهُ بقوّةٍ أقوى منه (غريزيّة) إلى أن يرغبَ في إبلاغ «ح» إلى «ب» (الجِماع) رغم أَنَّهُ لن يَهْلكَ الذَّكَرُ إن لم يفعَلْ ذلكَ.

٦ ـ الحاجةُ إلى تَهَيُّؤِ جَسَدِ الأُنثى لقَبُولِ الكائنِ الأجنبيِّ عنه (الحيوان المنويّ) فلا تَلْفِظُهُ كعادَتِها مَعَ كُلِّ جِسْمٍ أَجْنَبِيٍّ (جهاز المناعة)، وإنّما تُيَسِّرُ له سبيلَ الالتقاءِ.

٧ ـ الحاجة إلى وجود تهيُّؤٍ آليٍّ عند «ح» إلى أن يَقْصِدَ في سَفَرِهِ

الطّويلِ ـ مقارنةً بِحَجْمِهِ ـ «ب»، فلا يَنْصَرِفُ إلى غيرِها، ويُثابِرُ إلى إدراكِها في جَرْيِه أو سِبَاحَتِهِ الطّويلةِ إليها (يسبحُ الحيوانُ المنويُّ بسرعةٍ تُقابِلُ خمسةَ أَضْعافِ حَجْمِهِ في الثّانيةِ، ولو ضَخَّمْنا الحيوان المنويَّ لِيَبْلُغَ حَجْمَ سَمَكةِ السَّلمون، فسيكون مُعَدَّلُ سُرْعَتِهِ قرابة ٥٠٠ ميلٍ في السّاعةِ).

٨ ـ الحاجةُ إلى أن يَعرِفَ «ح» عندما يَصِلَ إلى «ب» أنّ «ب» هي مقصودُه.

٩ ـ الحاجةُ إلى أن يَعرِفَ «ح» كيف يقتَحِمُ جدارَ «ب» الذي يحميها من الغُزاةِ الأَجانِبِ.

١٠ ـ الحاجةُ إلى قُدرةِ «ح» على حماية المادّةِ الجِينيّةِ التي يَضُمُّها في رِحْلَتِهِ الشَّاقَّةِ، ثم قُدْرتُه على أن يُخرِجَ هذه المادّةَ عند لحظة الالتقاءِ مع «ب»، في الوقتِ المناسِبِ.

١١ ـ الحاجةُ إلى وجودِ قابليّةٍ للتّكامُلِ والتّفاعُلِ بين «ح» و«ب» رغم أنّهما يَنْتَميان إلى جِسْمَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

١٢ ـ الحاجةُ إلى قَبُولِ جَسَدِ الأُنْثى نُمُوَّ الجَسِدِ الجديد (الجنين) ـ ولْنُسَمِّهِ «ج» ـ.

١٣ ـ الحاجةُ إلى إفرازِ (ب) ما يمنعُ دُخولَ (ح) ثانٍ فَيُفْشِلَ عمليّة الإخصاب (البويضةُ تُفْرِزُ إنزيمًا يجعلُ غِشاءَها غيرَ قابلٍ للاختراقِ).

١٤ ـ الحاجةُ إلى وجودِ نظامٍ دفاعيٍّ مُعقّدٍ لحمايةِ «ج» من الأخطارِ الدّاخليّةِ في جَسَدِ الأُنثى ومن الأخطارِ الخارجيّةِ في العالَمِ الخارجيِّ.

١٥ ـ الحاجةُ إلى وجودِ آليّةٍ معقّدةٍ لتوفير الطّاقةِ للكائنِ النّامي الجديدِ دون إهلاكِ الأُمِّ.

١٦ ـ الحاجةُ إلى وجودِ آليّةٍ معقّدةٍ لِتَصْرِيفِ فَضَلاتِ الكائِنِ الجديدِ.

١٧ ـ الحاجةُ إلى وجودِ آليّةٍ لِتَوْسِعَةِ المكان لـ«ج» النَّامي كُلَّ يومٍ.

١٨ ـ الحاجةُ إلى وجودِ عاطفةٍ قويّةٍ عند الأُنثى للاحتفاظِ بـ«ج» الذي يُثْقِلُ جَسَدَهَا، ويُزْعِجُ مَنَامَهَا، ويُذْهِبُ بَهَاءَ شَكْلِهَا.

١٩ ـ الحاجةُ إلى وجودِ طريقٍ ممكنٍ لخروجِ «ج» من جَسَدِ الأُنْثى، مع قُدْرَةِ الجَسَدِ أنْ يَسْتَعِيدَ شَكْلَهُ الأَوَّلَ بعد خُروجِه. . .

التفاصيلُ المطلوبةُ أَوْسَعُ بكثيرٍ من النّقاط السّابقة، وغيابُ واحدٍ منها في عالَم الإنسان؛ يعني: فَنَاءَ البشريّةِ جميعًا. . وإنّ العقلَ الذي يفكّرُ بِجِدٍّ في رحلةِ التَّناسُلِ من مَبْدَئِها الأوّلِ، وقيامِها على عَمَلِ جَسَدَيْنِ بينهما انفصالٌ تامٌّ في عالم الطبيعةِ، ثم لا يهتدي، يَشْهَدُ على نفسِه أنّه قد عَطَّلَ مَلَكَةَ السَّيْرِ مع البُرهانِ إلى حيثُ يَقُودُه!

ولو أنّ الإنسانَ فَكَّرَ في حقيقة «الماءِ الـمَهِينِ»، وتركيبِ الحيوان المنويِّ وَحْدَهُ، لأَدْرَكَ أنَّ «أَحْقَرَ» عناصرِ الوجود، آيةٌ من آياتِ النَّظْمِ البديعِ؛ فالحيوانُ المنويُّ الدّقيقُ الذي لا تُدْرِكُ العينُ رؤيتَه، كائنٌ مُعقّدٌ، وآلَةٌ جَبَّارَةٌ، وتركيبٌ دقيقٌ، وشكلٌ أَنِيقٌ. . فهو سفينةٌ مَرِنةٌ تُقِلُّ مادّةً وراثيّةً ثمينةً، فَتَخُوضُ بها لُزُوجاتٍ عدَّةً في سَفَرٍ طَويلٍ قاصدةً بُوَيْضةً دقيقةً وبعيدةً، ولا تَهْنَأُ بفوزٍ حتى تبلُغَ الأمانةُ غايَتَهَا. وهذه السّفينةُ اللّيِّنَةُ تتكوّنُ من عناصرَ كثيرةٍ دقيقةٍ، أَهَمُّها:

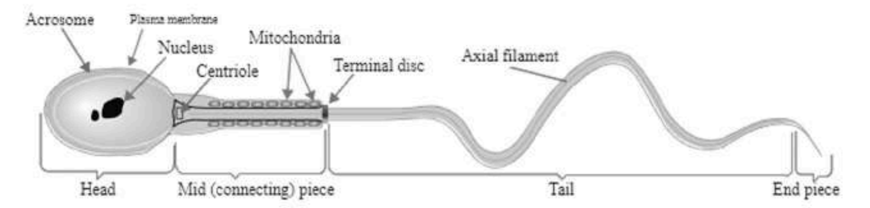
الرأسُ: يَضُمُّ النَّوَاةَ التي فيها الأَمانةُ، وهي المادّةُ الوِراثيّةُ، مَحْمِيَّةً، فلا يُصِيبُها عَطَبٌ أثناءَ الرِّحْلةِ، وتَضُمُّ ٢٣ كروموسومًا فقط رغم أنّ خلايا الإنسانِ السّليمِ تَضُمُّ ضِعْفَ ذلك، وسببُ ذلك أنّ النّصف الثاني لمجموع ٤٦ كروموسومًا موجودٌ في بُوَيْضةِ الأُنْثى. وفي مُقدّمةِ رأسِ الحَيَوانِ المنويّ عُضَيَّةٌ تُنْتِجُ إنزيمَ الهيالويورنيز الذي يَتَوَلَّى الحَفْرَ لِدُخولِ البُويضةِ، بإذابةِ جُزءٍ من غِلافها، ولولاهُ لَعَجِزَ الحيوانُ في آخِرِ رِحْلتِهِ أن يَدْخُلَ البُويضةَ.

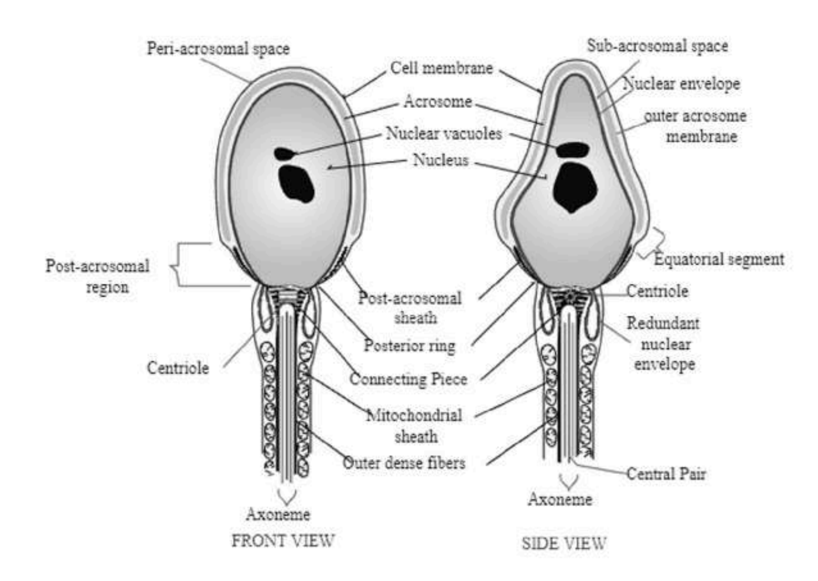
العُنُقُ: فيه جسيمانِ يُساهمان في انقسامِ البويضةِ بعد تَخْصِيبِها، وذاك عَتَادُ ما بَعْدَ الدُّخولِ إلى البُويضةِ. وهو ما يُظْهِرُ التَّجهيزَ الغائيَّ لهذا الحيوانِ قبلَ الإخصابِ؛ فلا يَقْتَصِرُ تكوينُه على ما يُساعِدُهُ على السِّباحةِ.

القِطْعةُ الوُسْطى: تَضُمُّ الميتوكُنْدِريا (Mitochondria) التي تُوفِّرُ للحَيَوانِ المنويِّ زادَهُ من الطّاقةِ في رِحلتِهِ الشّاقّةِ، ولولا الطّاقةُ لما كانت حَرَكَةٌ.

الذَّيْلُ: وهو سَوْطٌ طويلٌ قويٌّ قادرٌ على تحريكِ الحيوانِ المنويِّ وتوجيهِهِ في رحلتِه الـمُضْنِيةِ.

تركيبُ الحيوانِ المنويِّ





ما هي القيمةُ الكبرى لما سَبَقَ من تفصيلٍ؟

يُجيبُكَ (داروين) بقولِه: «إذا أَمْكَنَ إثباتُ أنَّ أيَّ جُزءٍ من بناءِ أيٍّ من الأنواعِ الحيّةِ قد تَمَّ تشكِيلُهُ من أجلِ نَفْعٍ حَصْريٍّ لنوعٍ آخَرَ، فإنّه من شأْنِ ذلك القضاءُ على نَظَرِيَّتِيْ»[1].

الحيوانُ المنويُّ خيرُ مثالٍ على ذلك؛ إذ إنّهُ قد وُجِدَ للخيرِ الحَصْرِيّ لغيرِهِ؛ فما هو إلّا آلةٌ وظيفَتُها نقلُ المادّةِ الوراثيّةِ إلى مكانٍ بعيدٍ مَحْمِيٍّ لإكمالِ بناءِ كائنٍ جديدٍ، أو قُلْ: هو «استشهاديٌّ» يُؤدّيْ وظيفَتَهُ الفدائيّة؛ إذ إنّه بعد دُخولِ البويضةِ يَفْقِدُ الجزءَ الأَكْبَرَ من جَسَدِهِ (الذَّيْل).. وذاك يكفي لهدمِ نظريّةِ (داروين) باعترافِ (داروين) نفسِه لو التزمَ قولَه السّابِقَ!

(١) Darwin, *On the Origin of Species*, p.184.

المبحث الثامن

التّماثُلُ عن غيرِ أَصْلٍ مُشْتركٍ
(مُشكلةُ التَّطوُّرِ المتقارِبِ)

يخبرنا الدَّراونةُ أنّ ما نراهُ من «نَظْمٍ» ليس إلّا وَهْمًا ناتجًا عن جَهْلِنا بقدرةِ الطّفراتِ العشوائيّةِ على توفيرِ المادّةِ الخامِ للأشكالِ والوظائفِ الموهِمةِ بالنّظم. ويزعُمون أنَّ شَجَرَةَ الحياةِ القائمةِ على تقارُبِ بِنَى الحيوانات تُفَسِّرُ هذا التّقاربَ البِنْيَوِيَّ.

وبالنَّظَرِ في الخطابِ العِلميِّ الشّعبيِّ للدَّراونةِ، يستقِرُّ في الذِّهنِ أنّ الكائناتِ الحيّةَ تنقَسِمُ إلى أنواعٍ متمايزةٍ بصورةٍ حادّةٍ؛ إذ لا تتكرَّرُ الأعضاءُ المتطوّرةُ في غير مجموعاتِ الأجناسِ المتطوّرةِ عن سَلَفٍ واحِدٍ.

المطلب الأول

التطوُّرُ المتقاربُ، مَهْرَبُ الدُّوغمائيّين

التطوُّرُ المتقارِبُ (Convergent evolution) هو ظهورُ الخصّيصةِ في أكثرَ من كائِنٍ حيٍّ دون أنْ توجدَ في أَقْربِ سَلَفٍ مشترَكٍ ـ مزعومٍ ـ لهم. وقد أَذْهَلَتْ هذه الظاهرةُ الدَّراونةَ؛ حتّى اضطرُّوا إلى إعطائها هذا الاسمَ، رافضِيْنَ الاعترافَ بِعُقْمِ التَّطوّرِ هنا؛ إذ التّطوّرُ قائمٌ على أنّ التّشابُهَ العُضويَّ بين الكائناتِ الحجّةُ الأكبرُ لوجودِ سَلَفٍ مشتركٍ أَوْرَثَ نَسْلَهُ تلك الصّفاتِ المشتركةَ؛ فكيف كشفَتِ الطّبيعةُ أنّ الصّفاتِ المشتركَةَ قد تَدْخُلُ الطّبيعةَ دون سَلَفٍ مُوَرِّثٍ؟!

يُلَخِّصُ عالم الفيزياءِ الحيويّةِ (لي سبتنر) أزمةَ الدَّراونةِ ـ بعد حديثٍ

شائقٍ عن كثرةِ أنواعِ هذا التطّورِ الـمُدَّعى ـ: «التّطوّرُ المتقارِبُ خديعةُ الدَّراونةِ. لقد اخْتَلَقُوهُ لِيَحْفَظُوا الشَّجَرَةَ التطوّريّةَ من الانهيارِ، لكنْ ليس بإمكانهم بيانُ كيف يقَعُ هذا التّقارب. وكما قال جوزيف كيتنغ (٢٠٠٢م) في سياقٍ آخرَ، فإنّ الأَمْرَ لا يَعْدُو كَوْنَهُ «تفسيرًا زائِفًا»، ومن الممكن أن يخدعَنا أنّنا فَسَّرْنا بعضَ جوانب البيولوجيا، في حين أنّنا في الواقِعِ لم نفعَلْ سوى إطلاقِ اسمٍ جديدٍ على ما نَجْهَلُهُ»[١].

حاول الدَّراونةُ القَفْزَ فوق التّشابُهِ الكبيرِ بين بِنَى الكائناتِ الحيّةِ دون سَلَفٍ مشتركٍ يَحْمِلُ تلك الصّفةَ المشتركةَ؛ فزعَمُوا أنّه نَظَرًا لحاجةِ الكائناتِ إلى التَّأَقْلُم مع طبيعةِ البيئةِ لتحقيقِ البقاءِ؛ فإنّ الانتخابَ الطبيعيَّ يقومُ بتصفيةِ التنوّعِ الأحيائيِّ بما يقودُ إلى حَصْرِ مَسَارِهِ ضمنَ طريقٍ يَؤُولُ إلى ظُهُورِ الأجهزةِ نفسِها في نهايةِ رحلةِ التَّكَيُّفِ.

وتلك دَعْوى مردودةٌ من أَوْجُهٍ؛ منها: أنّ الانتخابَ الطّبيعيَّ مَصْدَرٌ مُكَمِّلٌ للعمليّةِ التطوّريّةِ، وليس هو الذي يُنْتِجُ المادّة الخامَ للبناءِ الحيويِّ؛ ولذلك فإنّ توفيرَ الطّبيعةِ العمياءِ الأسيرةِ في يَدِ الطّفراتِ العشوائيّةِ التي تَتَحَرَّكُ تراكُمِيًّا بِدَافعِ الخَطَأ النَّسْخِيِّ المحضِ لمادّةِ الأَجْهِزَةِ المعقّدةِ، تَكَلُّفٌ بلا بُرهانٍ؛ خاصّةً أنّ العشوائيّةَ تقودُ عالَمَ الأحياءِ إلى نهاياتٍ مُتعدّدةٍ لأَدْنى ظَرْفٍ طارئٍ؛ حتّى قال (جاي جولد): «لا توجدُ بدايةٌ من الممكنِ تحديدُهَا من البَدْءِ، ولا شيءَ من الممكن أن يَحْدُثَ مَرَّةً ثانيةً بالطريقةِ نفسِها؛ لأنَّ كُلَّ مسارٍ يسلكُ عَبْرَ آلافٍ من المراحِلِ غيرِ المتوقّعةِ. غَيِّر أيَّ حَدَثٍ أَوَّل، ولو بقليلٍ، ودون أن تكون لَهُ أهميّةٌ ظاهرةٌ في ذاك الوقت؛ وسيتدفَّقُ التطوُّرُ في طريقٍ مختلِفٍ بصورةٍ مختلِفةٍ جدًّا»[٢].

وما نراه من تَطَابُقٍ أو تَشَابُهٍ عالٍ جدًّا في كائناتٍ، دقيقٌ وغزيرٌ، ويَبْعُدُ بِجِدٍّ في الاحتمالِ الرياضيِّ أن يكونَ حصيلةَ عشوائيّةِ الخَطَأ النَّسْخيِّ في رحلةِ

(١) Lee Spetner, *The Evolution Revolution: Why Thinking People are Rethinking the Theory of Evolution*, p.92.

(٢) Stephen J. Gould, *Wonderful Life: The Burgess Shale and the Nature of History* (New York, NY: W.W. Norton & Company, 1989), 51.

تَطَوُّرٍ قصيرةٍ ـ بالمقياسِ الجيولوجيّ ـ. كما أنّ الطبيعةَ التركيبيّةَ والمعقّدةَ للبِنَى المتقاربةِ تقتضي أن تكونَ الكائناتُ التي انتهى تَطَوُّرُها إلى امتلاكِ الأجهزةِ الحيّةِ ذاتها قد سَلَكَتْ مساراتٍ تطوّريّةً متقاربةً، ولم تَنْتَهِ إلى البِنَاء العُضْويِّ نفسِه من مساراتٍ مختلفةٍ؛ وهو خلاف السّيناريوهات التطوّريّةِ نفسِها.

ثمّ إنّ القولَ بِضَغْطِ الانتخابِ الطّبيعيِّ لتفسيرِ كثيرٍ ممّا نعرفه من نماذج ما يُعرف بـ«التطوّر المتقاربِ» يَنْقُضُهُ أن نَجِدَ هذه النماذج في بيئاتٍ مختلفةٍ لها قوى ضَغْطٍ وحَصْرٍ مختلفةٍ؛ فقد وُجِدَتْ في بلادٍ مُتباعِدةٍ ذاتِ طبائعَ طبوغرافيّةٍ وبيئيّةٍ متباعِدةٍ.

ولَعَلَّ أَفْضَلَ ما يُلخّصُ دعوى «التطوّر المتقارب» قولُ (لي سبتنر): «**لا يوجدُ أيُّ دَعْم تَنْظِيريٍّ للتّقاربِ، وكُلُّ حُجّةٍ قُدّمَتْ لِدَعْمِها هي نِتاجُ الاستدلالِ الدّائريِّ**»[1]؛ فالتطوّرُ المتقارِبُ حقيقةٌ علميّةٌ؛ لأنّه التّفسيرُ الوحيدُ لهذه الظّاهرة من منظورٍ تطوّريٍّ. والمنظورُ التطوّريُّ صحيحٌ؛ لأنّه يُفَسِّرُ التطوّرَ المتقارِبَ؛ فكلٌّ منهما يشهَدُ للآخَرِ، وكلٌّ منهما مَحَلُّ نَظَرٍ وَرِيْبَةٍ.

المطلب الثاني

صَدْمَةُ العُلماءِ

يُبَيِّنُ عالِمُ الإحاثة التطوّريُّ (سيمون كنواي موريس) صَدْمَةَ العُلماءِ بسبب كشفِهِم للتطوّرِ المتقاربِ المكثَّفِ بقولِه: «أصابَتْنِي الدَّهْشةُ بصورةٍ خاصّةٍ ـ أثناء مراجَعَتي المكتباتِ ـ بالنُّعُوتِ التي تُرافِقُ أوصافَ التطوّرِ المتقاربِ. كلماتٌ مثل: «مميّز»، و«مُدهِش»، و«غيرُ مألوفٍ»، وحتّى «مُذهِل»، و«غَرِيب»، كانت شائعةً. تَرَدُّدُ عباراتِ المفاجأة مقترنةً بأوصافِ التّقاربِ يُوحِي بوجود ما يقرب من شعورٍ **عدم الارتياحِ** بسببِ هذه التّشابهات. في الواقع، أَشْعُرُ بصورةٍ عاليةٍ أنّ بعض هؤلاءِ البيولوجيّين يستشعرون **شَبَحَ الغائيّة يُطارِدُهُمْ**»[2].

---

(١) Lee Spetner, *Not by Chance! Shattering the Modern Theory of Evolution*, p.89.

(٢) Simon Conway Morris, *Life's Solution: Inevitable Humans in a Lonely Universe* (Cambridge University Press, 2003), p. 128

وكيف لا يُصدَمُ العُلماء وقد اضطرُّوا إلى القولِ: إنّ العَيْنَ (بتعقيدها) قد «تَطَوَّرَتْ» على الأقَلِّ ٤٠ مرّةً، وربّما بَلَغَتْ مرّاتُ «تَطَوُّرِها» ٦٥ مرّةً[١]. وأنّ ضِفْدَعَ (Rhacophorinae) وضفدعَ (Tomopterninal) قد تَطَوَّرَا على سبيلَيْنِ مختلفَيْنِ رغم أنّه لا يمكن التّمييزُ بينهما من ناحيةِ الشّكلِ؛ إذ أَثْبَتَ تحليلُ (DNA) أنه لا يمكن القولُ بارتباطهما تطوّريًا[٢]. وأنّ خلايا الاستطعام في الثّدييّات والحَشَراتِ تقومُ باستطعامِ الطُّعُومِ الأساسيّةِ (الحلاوَةَ، والمَرَارةَ..) نفسَها، ولها تقريبًا عددُ مستقبلاتِ الطُّعُومِ نفسِها دون مسارٍ تطوُّريٍّ واحدٍ[٣]. كما تطوَّرَت الأغصانُ بصورةٍ مستقلّةٍ في النّبات، وتطوَّرَت النَّباتاتُ لإنتاجِ السُّمُومِ التي تَحْمِيها من آكِلِيْها باستقلالٍ، وتطوَّرَت النّباتاتُ الآكِلَةُ لِلَّحْمِ باستقلالٍ، وتطوَّرَتْ منظومةُ نَقْلِ الماءِ على الوَجْهِ نفسِه في عَدَدٍ من النّبات باستقلالٍ، وتطوَّرَتْ طرائقُ التّقليدِ والتَّخَفِّي في كثيرٍ من الحيوانات بطرائقَ مستقلَّةٍ لتنتهيَ إلى الصُّورة نفسِها...[٤].

إنّ الدَّراونةَ يُحْسِنُون اللَّعِبَ بالعناوين، ويعملون تحتَ شِعارِ: «أعْطِهِ اسْمًا» «give it a name»؛ فإذا كان التَّشابُه يعود إلى وجودِ الصّفةِ في الأَصلِ المشترَكِ ـ المزعوم ـ للنّوعَيْنِ؛ كان «تطوّرًا»، وإذا كان الاشتراك في الصّفة غيرَ موجودٍ في السَّلَفِ المشترَكِ، كان «تطوّرًا متقاربًا»!

---

(١) Land, M. F. and R. D. Fernald (1992) The evolution of eyes. *Annual Review of Neuroscience* 15: 1 - 29.

(٢) Frankly Bossuyt and Michel C. Milinkovitch, "Convergent Adaptive Radiations in Madagascar and Asian Ranid Frogs Reveal Co-Variation Between Larval and Adult Frogs," *Proceedings of the National Academy of Sciences, USA* 97 (2000): 6585 - 6590.

(٣) N.Thorne, C. Chromey, S. Bray, and H. Amrein (2004) 'Taste perception and coding in Drosophila', *Current Biology* 14: 1065 - 1079.

(٤) انظر في أمثلة «التطوّر المتقارب» في الحيوان والنبات...:

George R. McGhee, *Convergent Evolution: Limited Forms Most Beautiful* (Cambridge, MA: MIT Press, 2011).

Simon Conway Morris, *Life's Solution: Inevitable Humans in a Lonely Universe* (Cambridge, UK: Cambridge Univ. Press, 2004).

«اكتشف العلماء في السنوات الأخيرة التقارب تقريبًا في كلّ سِمة من الخصائص التي قد تتخيّلها»[1]. البيولوجي (جونثان لوسوس)[2].

المطلب الثالث

تعدُّدُ أنواعِ التطوّر المتقاربِ

لـمَّا بدأَ علماءُ البيولوجيا الجزيئيّةِ دراسةَ أصول الكيمياء الحيويّةِ تَوَقَّعُوا أن يكونَ التّقاربُ الجزيئيُّ بين الكائنات المتباعدة، نادرًا أو مَعدُومًا[3]؛ غير أنّهم اكتشَفُوا أنّ التّشابُهَ عظيمٌ جدًّا حتّى إنّهم قَسَّمُوا التّقاربَ الجزيئيَّ إلى خمسةِ أنواعٍ مختلفةٍ:

أ ـ التَّقارب الوظيفيّ الذي يَصِفُ الأُصولَ المختلفةَ للوظيفةِ البيوكيميائيّة الموجودةِ في أكثرَ من حالةٍ.

ب ـ التّقارب الآليّ المتعلّق بالظّهورِ الاستقلاليِّ المتعدّدِ لعمليّاتٍ بيوكيميائيّةٍ تستعمِلُ الآليّاتِ الكيميائيّةَ نفسَها.

ت ـ التّقارب الهيكليّ الناتج عن تَبَنّي جُزَيْئَيْنِ حَيَوِيَّيْنِ أو أكثرَ ـ بصورةٍ مستقلّةٍ ـ للهيكلِ ثلاثيّ الأبعادِ نفسِه.

ث ـ التّقارب التَّسَلْسُليّ، وهو يَنْتُجُ عندما تَظْهَرُ بروتيناتٌ أو مواضِعُ في الحَمْضِ النَّوويِّ الصّبغيّ بصورةٍ مستقلّة ولكن بترتيبِ الأحماضِ الأمينيّةِ أو النّيوكليوتيدات نفسِها.

ج ـ التّقارب المنهجيّ والمتمثّل في الظّهور الاستقلاليّ لأنظمةٍ بيوكيميائيّةٍ متطابقةٍ[4].

---

(١) Jonathan B. Losos, *Improbable Destinies: Fate, Chance, and the Future of Evolution* (New York: Riverhead Books, 2017), p.41.

(٢) جوناثن لوسوس Jonathan Losos (١٩٦١ـ): بيولوجي أمريكي. مدير مختبر لوسوس بجامعة هارفارد، وأمين متحف علم الحيوانات الزاحفة في متحف هارفارد لعلم الحيوان المقارن.

(٣) Michael Y. Galperin, D. Roland Walker, and Eugene V. Koonin, "Analogous enzymes: independent inventions in enzyme evolution", *Genome Res* 1998, 8: 779 - 790.

(٤) Doolittle, "Convergent Evolution," 15 - 18 (cited in: Fazale Rana, *The Cell's Design*, p.206).

وقد ذكرَ عالِمُ الكيمياءِ الحيويّةِ (فضل رنا)[١] مئةَ مثالٍ على التطوّرِ المتقاربِ في العالَمِ الصُّغرويِّ للأحياءِ على مستوى الجزيئاتِ الحيويّةِ (biomolecules) وأنظمة الكيمياء الحيويّةِ، مع توثيقِ ذلك من المصادر العلميّة الأكاديميّةِ[٢]. كما أشار إلى بحثٍ لمجموعةِ علماءَ من جامعةِ كمبردج أَثْبَتُوا فيه أنّ إنزيم الببتيداز (peptidase) له أكثرُ من ٦٠ أصلٍ منفصلٍ، وفي كثيرٍ من الأحيان يكون التّقاربُ التّطوريُّ في آليّةِ عَمَلِ الإنزيم وتفاعُلاتِه[٣].

وأمّا أكثرُ أنواع التطوّرِ المتقارِبِ إثارةً وإدهاشًا فهي الواقعةُ على المستوى الكُبْرويِّ حيث نرى تطابقًا أو تشابهًا كبيرًا بين كائناتٍ حيّةٍ لم يحمِلْ أَصْلُها المشترك ـ المزعوم ـ الصفات المشتركة بينها.

مثال أول: الأُذُنُ:

قد تبدو أُذُنُ الفقاريّات بسيطةً، كما أنّ التطوّريّين يتعاملون مع أَصْلِ ظهورِ الآلةِ السّمعيّةِ باستخفافٍ تبسيطيٍّ. وحقيقةُ الحالِ أنّ هذه الآلةَ تعملُ على طريقةٍ معقّدةٍ بدمجِ آليّاتِ استلامٍ وترجمةٍ وتوجيهٍ مُعقّدةٍ ومتكاملةٍ، إذ تَتِمُّ على المراحل التالية:

- تدخُلُ الموجاتُ الصّوتيّةُ الأُذُنَ، ثم تسافِرُ عبر القَنَاةِ السّمعيّةِ.
- تصطَدِمُ بِطَبْلَةِ الأُذُنِ بما يُؤدِّي إلى اهْتِزَازِهَا.
- طبلةُ الأُذُنِ مرتبطةٌ بنظامِ ذِراعٍ من عُظَيْماتٍ ثلاث (المِطْرَقة، السِّنْدان، الرِّكاب) في الأُذُنِ الوُسْطى. ويؤدّي اهتزازُ الطَّبلةِ إلى تحريكِ العظيماتِ التي تنقُلُ الاهتزازاتِ إلى الأُذُنِ الدّاخليّةِ، رافعةً قُوّةَ الذَّبْذَباتِ.

---

(١) فضل رنا Fazale Rana (١٩٦٣ـ): عالم كيمياء حيويّة أمريكيّ. من أعلام المؤلّفين في دلالة العلم على الخالق في أمريكا.

(٢) Fazale Rana, *Origins of Life*, pp.207 - 214.

(٣) Neil D. Rawlings and Alan J. Barrett, 'Evolutionary families of peptidases', *Biochem. J.* (1993) 290, 205 - 218.

• تتحوَّلُ الاهتزازاتُ في القَوْقَعَةِ الممتلئةِ بالسَّوائلِ بسببِ حَرَكَةِ شُعيراتٍ دقيقةٍ إلى نبضاتٍ كَهربائيّةٍ.

• ينقُلُ العَصَبُ السَّمْعِيُّ الإشاراتِ الكهربائيّةَ إلى الدّماغ لترجَمَتِها إلى أصواتٍ[١].

المفاجأَةُ هنا أنّ باحِثِيْنَ من جامعة (بريسل) في بريطانيا قد اكتشفُوا أنّ مبادئَ هذه العمليّةِ المعقّدةِ التي تقتضي في التّفسيرِ الدارويني مراحِلَ طويلةً جدًّا لِتَصِلَ إلى ما هي عليهِ اليومَ، هي نفسُها موجودةٌ في الجُنْدَبِ الذي يعيشُ في أمريكا الجنوبيّة، والمعروف باسم (Copiphora gorgonensis) رغم أنّ أُذُنَهُ لا تَتَجَاوَزُ في حَجْمِهَا حَبَّةَ الأَرز[٢].

ومما يُعاظِمُ في أمر هذه المفاجأة أنّ المجلّة العلميّةَ ـ الماديّةَ ـ الشهيرة (New Scientist) قد قالت عن أُذُنِ الثّدييّات قبل الكَشْفِ عن عمليّةِ السَّمْعِ عند هذا الجُنْدَبِ: «كانت العمليّةُ معقّدةً جدًّا حتّى إنّ **الخبراءَ في الثّدييّاتِ افترضُوا أنّها ـ ضرورةً ـ قد حدَثَتْ مرّةً واحدةً فقط**»[٣]. ولـمَّا اكتشفَ العلماء حفريّةً يُقال: إنّها لإحدى الثّدييّات عُمْرُها ١١٥ مليون سنة، اضطرُّوا إلى القولِ: إنّ ظهورَ الأُذُنِ الوُسْطى المعقّدةِ بِعُظَيْماتِها الثّلاثِ في الثّدييّات هو من «التطوُّر المتقارب»[٤]، ظانِّيْنَ أنَّ التَّقَارُبَ البِنْيَوِيَّ من الممكن أن يُسْعِفَ دَعْواهُم في أمرِ أَحَدِ أعضاء الأُذُنِ.. لكنَّ الكَشْفَ عن هذا الجُنْدَبِ قد جَعَلَ «التَّطوُّرَ المتقارِبَ» لِلجهازِ السَّمْعِيِّ مَحْضَ مُجازفةٍ!

---

(١) يشرح الفيديو التالي بالصُّور المتحرّكة عمليّة السَّمع:
<https://www.youtube.com/watch?v=2r6zL-kIcO4>

(٢) F. Montealegre *et al.*, 'Convergent evolution between insect and mammalian audition', *Science* 338(6109): 968 - 971, 16 November 2012

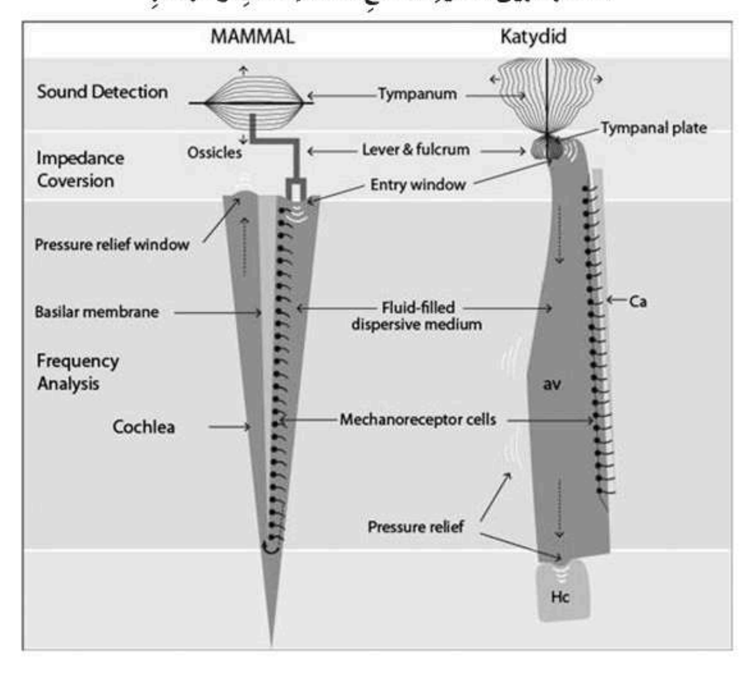
(٣) J. Hecht, 'So good they were invented twice', *New Scientist* 185(2487): 16, 2005

(٤) المصدر السابق.

أذن الإنسان

المطرقة
السندال
القنوات الهلالية
الأعصاب السمعية
القناة الصوتية
القوقعة
الغشاء
صوان الأذن
طبلة الأذن
الركاب
قناة أستاكيوس
الأذن الخارجية
الأذن الداخلية
الأذن الوسطي

التّشابُه بين عمليّةِ السَّمْعِ عند الإنسانِ والجُنْدَبِ



مثالٌ ثانٍ: جهازُ الرَّصْدِ بالصَّدَى:

من أَغْربِ الحالات التي أَحْرَجَت الدَّراونةَ في أدبيَّاتهم، تطابقُ منظومةِ الرَّصْدِ بالصَّدَى (echolocation system) عند الخُفَّاشِ والدُّولفين والحُوتِ (Whales)؛ إذ يقوم الخُفَّاشُ والدُّولفين بإصدارِ موجاتٍ صوتيّةٍ حولهما حتى إذا اصطَدَمَتْ بِجِسمٍ ما ارتدَّتْ إليهما تُخْبِرُ عن وُجودِه. وتعقيدُ هذه الآليّةِ يمتدُّ من الآلةِ الخارجيّةِ للرَّصْدِ إلى عَمَلِ الدّماغ في ترجمةِ ارتدادِ المَوْجَةِ.

وقد اكتشَفَ العُلماءُ أنّ منظومةَ الرَّصْدِ بالصَّدَى في هذه الكائناتِ تعملُ بالطّريقةِ المعقّدة نفسِها رغم أنّ سَلَفَهُم المشتركُ ـ المزعومُ ـ لا يحمِلُ هذه الآليّةَ الرَّصْدِيَّةَ.

والتّشابُهُ ليس قاصِرًا على البِنْيَةِ الظّاهرةِ لِنظامِ الرَّصْدِ، وإنّما يمتدُّ إلى الجانبِ الجزيئيِّ؛ فبروتين (prestin) يربط أيضًا الدُّولفين والحوت والخفافيش، وهو بروتينُ تَحَسُّسٍ، وضروريٌّ لِلسَّمْعِ عامّةً؛ فجزيئاتُ الـ(prestin) في الدُّولفين والحوتِ تَضُمُّ ١٤ حَمْضًا أَمِيْنِيًّا لا يوجَدُ في أيّ (prestin) آخَرَ للثّديّات غير الخُفَّاشِ[١]!

والأَعْجَبُ ـ ربّما ـ مما سبقَ أنّ العلماءَ يَتَحَدَّثُون عن «تَطَوُّرٍ مُتقارِبٍ» للرَّصْدِ بالصَّدَى حتى في جِنْسِ الخَفَافِيشِ نفسِها؛ إذ يقولون: إنَّ نَوْعَيْ (mustached bat) و(horseshoe bat) قد تطوَّرَ كُلٌّ منهما بطريقٍ مُنفصلٍ عن الآخر لِيَنْتَهِيَا إلى المنظومةِ نفسِها، حتى قال (نويلر) (Neuweiler) ـ التطوّريُّ ـ: إنّ هذا التطوّرَ هو أكثرُ الأنواعِ إثارةً[٢].

(١) Yang Liu, *et al.* (2010) Convergent sequence evolution between echolocating bats and dolphins. *Current Biology* 20: 1834 - 1839.

(٢) Neuweiler G. (2003) Evolutionary aspects of bat echolocation. *Journal of Comparative Physiology* A 189: 245 - 256.

المبحث التاسع

اللُّغَةُ

كيف اجْتَمَعَتْ المنظومةُ العصبيّةُ والبيولوجيّةُ في الإنسانِ لتحصيلِ الـمَلَكَةِ اللُّغَوِيَّةِ؟

ذاك هو السُّؤالُ الذي حَيَّرَ التطوّريّين؛ فإنّ ظاهرةَ اللُّغةِ تَتَأَبّى على التفسيرِ الداروينيّ الانتقاليّ التّدريجيّ، لأسبابٍ[1]، منها:

أَوَّلًا: لا يمكن ربطُ ظُهورِ اللُّغةِ بتاريخ الأحياءِ السَّالِفِ لِظُهورِ الإنسانِ؛ ولذلك كَتَبَ عددٌ من عُلماءِ الأنثروبولوجيا التّطوريّين: «لا تُقدِّمُ الدّراساتُ المتعلّقة بالحيواناتِ تقريبًا أيَّ شيءٍ مُوازٍ للتّواصُلِ اللُّغويِّ الإنسانيِّ، ولا شيءَ لِلقُدرةِ البيولوجيّةِ المؤسِّسَة لَهُ... ما تزال الأسئلةُ الأساسيّةُ المتعلّقةُ بأُصولِ قُدْرتِنا اللُّغويّةِ وتَطَوُّرها غامضةً كما كانت من قَبْلُ»[2].

وهو ما أَكَّدَهُ عالم اللُّغويّات الشّهير (ناعوم تشومسكي)[3] بقوله: «تبدو اللُّغةُ الإنسانيّةُ ظاهرةً فريدةً، دون نظيرٍ معتبر في عالم الحيوانِ. إذا كان الأمر كذلك؛ فإنّه لا معنى البَتَّةَ لِطَرْحِ مُشكلةِ تفسيرِ تَطَوُّرِ لُغَةِ الإنسانِ من أَنْظِمةٍ أكثرَ بدائيّة للتّواصُلِ... لا يوجد داعٍ لِتَصَوُّرِ «ثغرات» من الممكن العُبُورُ فوقَها»[4].

---

(١) من أهم الأبحاث في دلالة اللغة على الخلق والنظم:
Jeffery Johnson and Joyclynn Potter, 'The Argument from Language and the Existence of God,' *Journal of Religion* 85/1 (2005), pp. 83-93.

(٢) Marc Hauser, Charles Yang, Robert Berwick, Ian Tattersall, Michael J. Ryan, Jeffrey Watumull, Noam Chomsky and Richard C. Lewontin, 'The mystery of language evolution,' *Frontiers in Psychology*, Vol 5:401 (May 7, 2014)

(٣) ناعوم تشومسكي Noam Chomsky (١٩٢٨ـ): عالم لغويّاتٍ وفيلسوفٌ وناشِطٌ سياسيٌّ أمريكيٌّ شهيرٌ.

(٤) Noam Chomsky, *Language and Mind*, (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), 59.

ثانيًا: اللُّغةُ ظاهرةٌ متميّزةٌ بتعقيدِها غير القابل للتّبسيط؛ إذ هي ليست مجرّدَ إحداثٍ لإصواتٍ مخصوصةٍ أَعْقَدَ من الـمُوَاءِ والصَّهيلِ. . .، وإنّما هي ظاهرةٌ معرفيّةٌ تبدأ بالنّشاطِ العَصَبيّ وتنتهي بالنُّطْقِ. وهي مَلَكَةٌ يمتازُ بها حتّى مَنْ لا يَتَكَلَّم؛ كالمصابين بالصَّمَمِ؛ إذ يملكون القُدْرةَ التّعبيريّةَ اللُّغويّةَ عن طريقِ الرُّموزِ؛ لتوافر منظومةٍ عصبيّةٍ تُتِيحُ لهم البَلاغَ اللُّغويَّ غيرَ الصَّوتيِّ[1].

(١) المصدر السابق.

المبحث العاشر

النَّظْمُ في مواجهةِ نُبُوءاتِ الدّاروينيّةِ

يتَّفِقُ كثير من الممارسين للعلوم اليومَ أَنَّ كُلَّ دعوى عِلْميّةٍ لا تُخْضِعُ نفسَها للاختبارِ العِلْميِّ، لا بدَّ أن تُصَنَّفَ ضمنَ العِلم الـمُزَيَّفِ (pseudo-science)؛ أَيْ: وُجُوبَ خُضُوعِ هذه الدَّعْوى لإمكانِ الدَّحْضِ (falsifiability)[١]. ومن أَهَمِّ سُبُلِ محاولةِ دَحْضِ الدَّعْوى النَّظَرُ في نُبُوءاتها؛ بأن يُقالَ: إذا صَحَّتْ هذه الدَّعْوى؛ فلا بُدَّ أنّه سَيَنْتُجُ عنها كذا في العالم الماديِّ؛ كالقولِ: إذا كانت الأرضُ مُسَطَّحةً، فلا بُدَّ أن تكون لها حدودٌ عند أطرافها.

وقد قَدَّمَت الدّاروينيّةُ عدَّةَ نُبُوءاتٍ تتوافَقُ مع التّفسيرِ العشوائيِّ لنشأةِ الكائناتِ الحيَّةِ، ومنها قولُ البيولوجيُّ (ج. ب. أس. هالدين) سنة ١٩٤٩م إنّه **ليس بإمكانِ التّطوّرِ البَتَّةَ** أنْ يُنْتِجَ «آليّاتٍ مختلفةً، مثلَ **العَجَلَةِ والـمِغْنَاطِيسِ**؛ إذ ستكونُ عديمةَ الفائدةِ حتّى تَصِلَ إلى مرحلةٍ كاملةٍ إلى حَدٍّ ما»[٢].

وقال (داوكنز): «المحرّكُ السَّوْطِيُّ للبكتيريا أُعجوبةُ الطّبيعةِ. إنّه يُقدِّمُ النّموذج الوحيدَ المعروفَ خارجَ التكنولوجيا البشريّة لمحور العَجَلَةِ الدَّوَّارِ الحُرِّ. **أَعْتَقِدُ أَنَّ العَجَلاتِ الكبيرةَ للحيواناتِ الكبيرةِ نماذجُ حقيقيّةٌ للتّعقيدِ غير القابِلِ للتّبسيطِ**، ولَعَلَّها لذلك لا توجدُ في الطّبيعةِ»[٣].

---

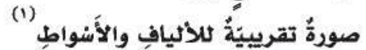
(١) وهي مسألة تحتاج إلى تحرير.

(٢) D. Dewar, L.M. Davies, and J.B.S. Haldane, *Is Evolution a Myth? A Debate between D. Dewar and L.M. Davies vs. J.B.S. Haldane* (London: Watts & Co., 1949) p. 90.

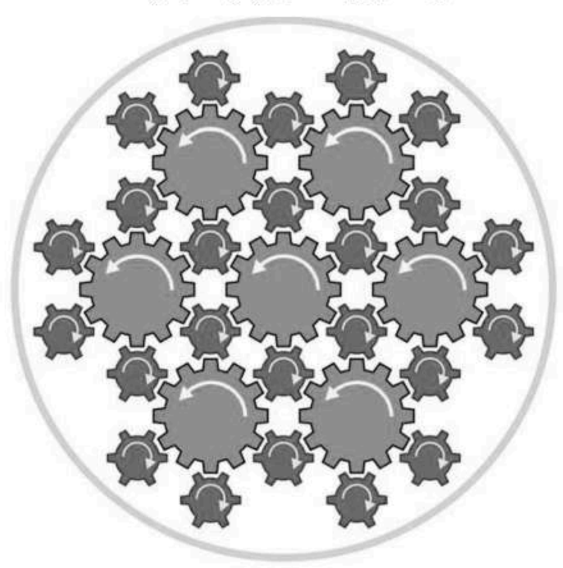
(٣) Dawkins, *The God Delusion*, p.130

يلزم مما سَبَقَ أنَّ ثُبوتَ وُجودِ عَجَلاتٍ/ تُرُوسٍ أو مِغْناطِيس في أجسامِ الكائناتِ الحيّةِ غير المجهريّة مُبْطِلٌ للنّظريّةِ التطوّريّةِ (العشوائيّةِ على الأقلِّ) عند (داوكنز) الملحدِ.

العَجَلاتُ: كَشَفَ العُلماءُ وجودَ محرّكاتٍ على مستوى الخليّةِ تتضمَّنُ أَشكالًا عَجَلِيّةً؛ فقد كشفَ البحثُ العلميُّ وجودَ بكتيريا اسمها (bacterium MO-1)، وهي تملِكُ سبعةَ أَسْواطٍ لا سَوْطًا واحدًا كالذي أشارَ إليه (داوكنز)، ويحيطُ بهذه الأَسْواطِ ٢٤ ليفًا دَقِيقًا (tiny fibres)، في صفيفٍ سُداسِيٍّ، وتدور هذه الأليافُ الدّقيقةُ بصورةٍ مُعاكِسةٍ لِحَرَكَةِ الأَسْواطِ. وبإمكان هذه الأَسْوَاطِ أَنْ تَتَحَرَّكَ في الاتّجاه نفسِه دون تداخُلٍ بينها.



صورةٌ تقريبيّةٌ للألياف والأَسْواطِ[1]



كما كشفَ مجموعةٌ من العلماءِ من جامعة (كمبردج) عن حَشَرَةٍ تَحْمِلُ في بنائِها عَجَلاتٍ بِسِنٍّ، وهي حَشَرَةٌ تعيشُ قافِزةً بين أوراقِ النّباتِ، واسمها (Issus coleoptratus). وتُعِينُ هذه العَجَلاتُ صِغَارَ هذه الحَشَرَةِ على القَفْزِ

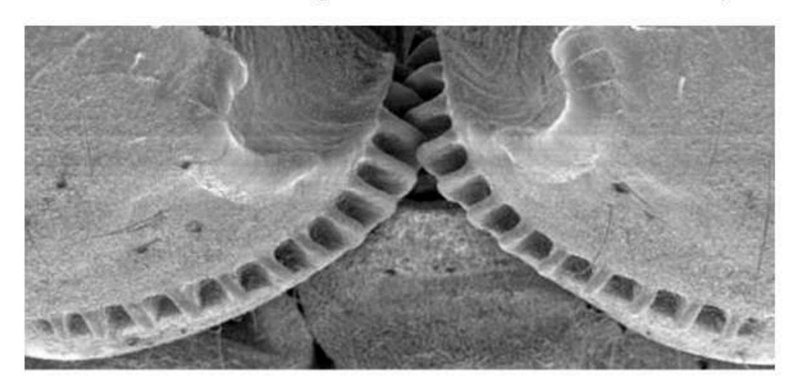
(١) Juanfang Ruan, *at al.* Architecture of a flagellar apparatus in the fast-swimming magnetotactic bacterium MO-1, *Proc Natl Acad Sci U S A*. 2012 December 11; 109(50): 20643 - 20648.

<http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3528567/>.

بعيدًا بصورةٍ متوازنةٍ؛ تعويضًا عن ضَعْفِ عَضَلاتِ أَرْجُلِها للقيام بهذه المهمّة.

وجاء في وصفِ هذه العَجَلاتِ/التُّروسِ أنّها تُشابِهُ بصورةٍ مُذهلةٍ تُرُوسَ الدَّرَّاجاتِ الهوائيّة ومحرّكات السَّيَّاراتِ من ناحيةِ الشَّكْلِ، وتَعَاشُقِها، وترتيبِ حَرَكَتِها، وامتصاصِ الصَّدماتِ[1].

وصَرَّحَ (غريغوري ستون)[2] ـ العُضْوُ في الفريقِ البحثيِّ ـ قائلًا: «نحن نَتَصَوَّرُ التُّرُوسَ عادةً كأشياءَ نراها في المصنوعاتِ الـمُصَمَّمةِ من الإنسان، لكنّنا **وَصَلْنا إلى تلك القَنَاعةِ فقط لأننا لم نَبْحَثْ جيّدًا**»[3]! والحقيقة أَنَّ العَقْلَ التطوّريَّ استبعَدَ هذا الأمرَ من قبل لا لأنَّ العُلماءَ لم يَبْحَثُوا جيّدًا في الطّبيعة، وإنّما لأنّه لم يكن ممكنًا تَصَوُّرُ سيناريو تَدَرُّجِيٍّ له.



الـمِغْنَاطِيسُ: كَشَفَ العِلمُ اليومَ أنَّ السَّلاحِفَ والفراشاتِ الـمَلَكيّةِ[4] تستعمِلُ أجهزةَ الاستِشْعارِ المغناطيسيِّ للمِلاحةِ[5].

---

(١) *sciencedaily.com*, 12 September 2013 <https://www.sciencedaily.com/releases/2013/09/130912143627.htm>.

(٢) غريغوري ستون Gregory Sutton: عالم أمريكيّ متخصّص في الهندسة الحيويّة. أستاذ في جامعة «بريستول».

(٣) *sciencedaily.com*, 12 September 2013.

(٤) Monarch butterflies.

(٥) G.Torr, Magnetic map readers, *Nature Australia* 25(9):7 - 8, Winter 1997; Jules H Poirier, *From darkness to light to flight: monarch -- the miracle butterfly* (El Cajon, Calif.: Institute for Creation Research, 1995).

المبحث الحادي عشر

ملاحدة ينصرون برهان النظم

سنة ٢٠٠٩م، تَرَأَّسَ عالِمُ الإحاثةِ الكبيرُ (جونتر بشلي)[١] في ألمانيا احتفالًا مشهودًا بمرور ١٥٠ عامًا على نشرِ كتاب «في أصل الأنواع» (لداروين)، وقد كان وقتها المشرفَ على قسم محفوظاتِ أحافيرِ الحَشَرَاتِ في مَتْحَفِ التّاريخ الطبيعيّ «Stuttgart Museum of Natural History». ولـمّا أراد (بشلي) وزملاؤه في هذا المعرض أن يُظْهِرُوا تفاهةَ التصوُّرِ الخَلْقيّ ومُخالَفَتَهُ لِصريحِ حقائقِ العِلم، جعلوا أحدَ الأشكالِ المعروضةِ في المعرض ميزانًا في كِفَّةٍ منه كتابُ «في أصل الأنواع»، وقد ثَقُلَتْ جِهَتُه، وفي الجهة المقابلة كِفَّةٌ طائشةٌ فيها رُكامٌ من كُتُبِ أنصار الخَلْقِ الخاصِّ و«التّصميم الذكيِّ».

الظَّريفُ في موقف (جونتر بشلي) أنّه قد حَكَمَ على كُتُبِ خُصُومِ الدَّراونةِ دون قراءتها، وهذا حالُ عامّةٍ من كَتَبُوا مُدافِعين عن التفسير العشوائيِّ لتاريخ عالم الأحياء. ولـمّا قَرَّرَ (بشلي) أن يتحدَّثَ فيما أَنْكَرَهُ، بعلم، بدأَ القراءة بِعَيْنٍ تبحثُ عن الحقِّ دون تَعَصُّبٍ، فَهَالَهُ أنّ كُلَّ ما يعرِفُه عن النَّظْم الحَكِيم يجمعُ بين التَّدليسِ والمغالَطَةِ، وفي ذلك قال: «وقد فاجَأَني أنْ أَكْتَشِفَ أنَّ الحُجَجَ التي وجدتها في تلك الكتب كانت مختلفةً تمامًا عمّا سَمِعْتُهُ من الزُّملاء أو عند مشاهدةِ أَشرطةِ فيديو يوتيوب حين يكون النّقاش حول التّصميم الذكيِّ مقابلَ مذهبِ التطوّر كما في الداروينيّةِ الحديثةِ. وكان لديَّ انطباعٌ أنّ هؤلاء النّاسِ يتعرَّضُون لسوءِ المعاملة؛ فإنّ موقِفَهُم يُساءُ عَرْضُه من جهةٍ، ومن

(١) جونتر بشلي Günter Bechly (١٩٦٣ـ): عالم أحافيرَ وحشراتٍ ألمانيّ.

جهةٍ أُخرى لا تلقى هذه الحُجَجُ قَبُولًا لائِقًا»[1].

اختار (بشلي) ـ الذي نَشَأَ في أُسرةٍ غيرِ مُتَدَيِّنةٍ، ولم يكن يهتمُّ بالأسئلةِ الميتافيزيقيّة ـ أن يجهرَ باقتناعِه بمذهبِ «التّصميم الذّكيّ» سنة ٢٠١٥م، بعد أن حاصَرَتْهُ البراهينُ الحاسمةُ، خاصّةً سوط البكتيريا الذي عَرَضَ صُورتَهُ (بشلي) في ذاك المعرض لبيان تهافُتِ من يُنْكِرُون الداروينيّةَ؛ فقد اكتشَفَ بعد قراءةِ كتاب «الصُّندوقِ الأَسودِ لداروين» أنّ التفسيرَ الداروينيَّ لظهور هذا السَّوْطِ غيرُ عِلميٍّ بصورةٍ جليّةٍ..

لم تكن مفاجأةً لأحدٍ أن يَتَعَرَّضَ (بشلي) بعد خروجِه من دائرةِ العشوائيّين إلى أذًى شديدٍ من اللُّوبِيَّيْنِ الإلحاديّ والدارويني؛ فقد طُرِدَ من وظيفتِه مديرًا لإحدى المؤسّسات البحثيّةِ الألمانيّةِ، وطَلَبَ منه المتحفُ أن يستقيلَ طواعيةً، خاصّةً أنَّ زُملاءَهُ في المتحفِ ما عادوا يرغبون في التَّعاون معهُ.

وكان الكشفُ عن الحَمْضِ النَّوويِّ الذي يخزّن مشروعَ البناء العُضويّ للإنسان على شكلٍ مُشَفَّرٍ، وارتباطُهُ بمجموعةٍ من الآلاتِ المجهريّةِ، وانتظامُ العَمَلِ الجزيئيِّ كُلِّهِ في منظومةٍ معقّدةٍ، سببًا في ثورةٍ علميّةٍ في فهمِ أصلِ التَّشَكُّلِ العُضويِّ للأحياء؛ إذ أَثْبَتَ أنَّ الوجودَ معلومةٌ معقّدةٌ.

وقد وقفَ ثلاثةٌ من أئمّة الإلحاد في القرن العشرين أمامَ الحَمْضِ النّوويّ بانبهارٍ شديدٍ، أَوَّلُهم عالم الكيمياءِ الحيويّةِ (فرنسيس كريك)، مكتشفُ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ، الذي حازَ بسبب هذا الكشفِ جائزةَ نوبل سنة ١٩٦٢م. ويُعَدُّ (كريك) من أشهرِ الملحدين العنيدين الذين يكرّرون دائمًا بُغضَهم للعقائدِ الدينيّةِ، لكنَّهُ صَرَّحَ مع ذلك قائلًا: «ليس بإمكانِ الإنسانِ الصَّادقِ المتسلّحِ بجميعِ المعرفةِ المتاحة لنا الآن إلَّا أنْ يُقِرَّ أنَّ أَصْلَ الحياةِ

---

(١) في فيديو الاحتفاءِ بكتاب (مايكل بيهي): «الصُّندوقُ الأسودُ لداروين». وهذا الفيديو مقتطعٌ منه، وفيه كلامُهُ صوتًا وصورةً:

<https://www.youtube.com/watch?v=fqiXgtDdEwM>.

يبدو في هذه اللَّحظةِ ـ بصورةٍ ما ـ تقريبًا **كمعجزةٍ**؛ إذ الشُّروطُ التي كان يجب استيفاؤها لبدءِ الحياةِ كثيرةٌ جدًّا»[١].

لقد تَمَثَّلَ له البحثُ عن الأصلِ الماديِّ للحياةِ على هذه الأرض لُغْزًا عَصِيًّا على الحَلِّ، حتى قال بصراحةٍ ـ يُحْمَدُ عليها ـ: «كلّ مرّة أَكْتُبُ ورقةً علميّةً عن أصل الحياةِ، أُقْسِمُ أنّني لن أَكْتُبَ أُخرى لأنّ هناك كثيرًا من التَّكَهُّناتِ مع قليلٍ من الحقائقِ»[٢].

المعجزةُ: هي فِعْلُ خالِقٍ له سلطانٌ إلٰهيٌّ على الطّبيعةِ يُجْرِيها على غيرِ القوانينِ الرَّتِيبةِ للمادّةِ، ولا يمكن أنْ يَقْبَلَ عقلُ الملحدِ «مُعْجِزةً إلٰهيّةً»؛ ولذلك اضطرَّ (كريك) إلى الفِرارِ من «المعجزةِ الإلٰهيّةِ» إلى «معجزةِ الكائناتِ الفضائيّةِ!»؛ زاعمًا أنّ كائناتٍ فضائيّةً تنتمي إلى حضارةٍ ماديّةٍ متطوّرةٍ جدًّا، هي التي زَرَعَتْ بِذْرَةَ الحياةِ على الأرضِ، أو ما يُعرف بـ«panspermia»[٣][٤]. وهي نظريّةٌ تُخالِفُ المنطقَ العِلميَّ في تَطَلُّبِ الحقيقةِ؛ إذ إنّ العلماءَ يُخْضِعُون نظريّاتهم «لنصل أوكام»؛ أي: القاعدة التي تُقَرِّرُ أنّه يجب أَلَّا نَسْتَكْثِرَ من الافتراضاتِ دون ضرورةٍ. ولا شكّ أنّ القولَ بإلٰهٍ واحدٍ تَدَخَّلَ لوضعِ الحياةِ على الأرضِ يُقدّم افتراضاتٍ أَقَلّ من تَصَوُّرِ وجودِ كائناتٍ فضائيّةٍ تعيشُ في الكونِ لا نُدرِكُ لها وُجودًا، استطاعَتْ أَنْ تَعْبُرَ إلينا من حيثُ لا ندري ثمّ تختفي، واستطاعَتْ أن تُصَنِّعَ الحياةَ خارجَ الأَرضِ، ثم جاءتْ بها إلينا لِسَببٍ لا نعرفُه، ونَجَحَتْ في تَخَطِّي الموانعِ الماديّةِ التي تمنعُ بقاءَ هذه البذرةِ حيَّةً، ثم رَمَتْ بِذْرَتَها الوحيدةَ، وتَرَكَتْها تعملُ لبلايين السِّنين. . . وهو جواب ـ على كلّ حالٍ ـ لا يَحُلُّ الإشكال، وإنما يَسْحَبُ المشكلةَ الأُولى خُطوةً إلى الوراءِ،

---

(١) Francis Crick, *Life Itself: Its Origin and Nature* (New York: Simon & Schuster, 1981), p.88.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٣.

(٣) من إدغام كلمتين يونانيّتين: (πᾶν)؛ أي: «كلّ»، و«σπέρμα» «أي: «بذرة» = بذورُ الحياةِ في كلّ مكانٍ في الكونِ.

(٤) مالَ (كريك) بعد ذلك إلى نظريّةِ (RNA World)؛ وإن كان قد اعترف أنّ الفجوةَ واسعةٌ جدًّا بين «الحَسَاءِ الأَوَّلِ» و(RNA)

(Francis Crick, "Foreword," p xi-xiv, *The RNA World*, R.F. Gesteland and J.F. Atkins, eds. Cold Spring Harbor Laboratory Press, 1993. p xiii).

لِيَتَحَوَّلَ السُّؤالُ مِنْ: مَنْ خَلَقَ الحياةَ الأُولى على الأرض؟ إلى: مَنْ خَلَقَ مَنْ خَلَقَ الحياةَ الأُولى على الأرضِ؟

ومن الغريبِ أن تَجِدَ موقِفَ (داوكنز) على مقربةٍ من موقِفِ (كريك)؛ فإنّه لـمّا سُئِلَ في لقائِهِ الشّهيرِ مع المذيعِ (بن شتاين) في فيديو (المطرودون) (Expelled): «ما رأْيُكَ في إمكانيّةِ أن يكون المصمِّمُ الذكيُّ جوابَ بعضِ مسائلِ الجيناتِ أو التطوُّرِ؟»، قال: «من الممكن أَنَّهُ في زَمَنٍ مُبكّرٍ، في مكانٍ ما في الكونِ، تطوَّرَتْ حضارةٌ ـ ربّما ـ بسبب آليّاتٍ داروينيّةٍ إلى مستوى تكنولوجيٍّ عالٍ جدًّا جدًّا، وصَمَّمَتْ شَكْلَ حياةٍ بَذَرُوهُ ـ ربّما ـ في هذا الكوكبِ.... وأَعتقِدُ أنّه **بإمكانِكَ أنْ تَجِدَ دليلًا على ذلك إذا نَظَرْتَ إلى تفاصيلِ الكيمياءِ الحيويّةِ، والبيولوجيا الجزيئيّةِ، ربّما تجد إمضاءً لمصمّمٍ ما**»[1]. وهذا الذي قاله (داوكنز) هو الذي نُدَنْدِنُ حولَهُ كثيرًا في هذا الفَصْلِ: دراسةُ الخليّةِ وتكوينها ووظائفها برهانٌ لوجودِ مُصمِّمٍ.. وهو المبحث الذي أَلَّفَ فيه أَهَمُّ مُنَظِّرِيْ مدرسةِ «التّصميمِ الذّكيِّ» كتابه الشّهير «إمضاءٌ في الخليّةِ»[2].

وثالِثُ الملحِدِين المنبهِرِين بالنَّظْمِ الخلويّ، بعد (كريك) و(داوكنز)، الفيلسوفُ الملحِدُ (أنتوني فلو) الذي دافَعَ بشراسةٍ عن الإلحادِ طَوَال القرن العشرين، ودخَلَ في مناظراتٍ شهيرةٍ في ذلك، وكتَبَ تأصيلاتٍ لردِّ الوجودِ الإلٰهيِّ، لكنَّهُ أَقَرَّ مع بداية القرنِ الحادي والعشرين أنّ لهذا الكون إلٰهًا، وقال في أسبابِ ذلك: «لـمّا سُئِلْتُ في هذه النّدوةِ إن كانت الدّراساتُ الأخيرةُ حولَ أصلِ الحياةِ تشيرُ إلى نشاطِ ذكاءٍ خَلّاقٍ، أَجَبْتُ: نَعَمْ، أنا الآن أعتقد أنّها كذلك... تقريبًا هي كذلك بصورةٍ كليّةٍ بسببِ أبحاثِ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ. أعتقِدُ أنّ ما فَعَلَتْهُ مادّةُ الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ أنّها أظهرَتْ من

---

(١) "It could be that at some earlier time, somewhere in the universe, a civilization evolved by probably some kind of Darwinian means to a very, very high level of technology-and designed a form of life that they seeded onto perhaps this planet.... And I suppose it's possible that you might find evidence for that if you look at the details of biochemistry, molecular biology, you might find a signature of some sort of designer''. *Expelled*, DVD, directed by Nathan Frankowski (Premise Media, 2008).

الفيديو موجودٌ على أكثر من صفحة على (اليوتيوب).

(٢) Stephen C Meyer, *Signature in the Cell: DNA and the evidence for intelligent design* (New York: HarperOne, 2009).

خلالِ تعقيدِ التّرتيبِ المطلوبِ ـ والذي لا يكاد يُصدّق ـ لإنتاجِ (الحياة)، أنّ ذكاءً لا بد أنّه قد تَدَخَّلَ للحصولِ على العناصِرِ المتنوّعةِ بصورةٍ مُذْهِلةٍ لتعملَ معًا. إنّه التّعقيدُ العظيمُ لِعَدَدِ العَنَاصِرِ والدّقّةِ الهائلةِ لطرائقِ عَمَلِها المشترَكِ. التقاءُ الأَمْرَيْنِ السَّابِقَيْنِ في الوقتِ المناسِبِ بالصُّدْفَةِ هو ببساطةٍ أَمرٌ مُسْتَبْعَدٌ. إنّ الأمر كلّه متعلّق بضخامة التعقيد الذي تمّ التوصّل إلى النتائج من خلاله، والذي بدا لي على أنّه أشبه بعمل الذكاءِ»[١].

لقد اهتدى كلٌّ من (داوكنز) و(فلو) إلى أنّ الحَمْضَ النّوويّ الصّبغيّ يرفضُ كلَّ تفسيرٍ ماديٍّ قائمٍ على العشوائيّةِ، فاختار الأوَّلَ رَفْضَ الغَيْبِ الإلٰهيِّ وقَبُولَ الغَيْبِ الماديِّ السَّادِرِ، في حين اختار الثّاني الغيبَ المعقولَ بِرَدِّ الأَمْرِ إلى الخالقِ الكاملِ.

كما قادت الخليّةُ الكيميائيَّ والفيزيائيَّ الحائِزَ على **جائزة نوبل** (رِيتشارد سمالي)[٢] إلى تركِ مَذْهبِه اللَّاأَدْرِيّ والإيمانِ بإلٰهٍ في آخر حياتِهِ، قبل أن يُتَوَفَّى بسنواتٍ قليلةٍ. وقد أكَّد أنّ التطوّرَ العِلميَّ على مستوى العُضَيَّاتِ قد قادَهُ إلى الإيمانِ، خاصة أنّه متخصّصٌ في «تقنيةِ الجزيئاتِ مُتَنَاهِيَةِ الصِّغَرِ» «nanotechnology» حيث يجتهد العلماءُ طويلًا لاختراعِ تراكيبَ وآلاتٍ مجهريّةٍ، لكنّهم يكتشفون في ختامِ الأمرِ، وبعد الحسابِ والاختبارِ والصّبْرِ أنّها بسيطةٌ جدًّا، وساذجة جدًّا إذا قِيْسَتْ بآلات الخليّةِ.

وقد كتبَ منذ سنواتٍ قليلةٍ فيلسوفُ العلومِ **الملحدُ** (برادلي مونتون)[٣] كتابه «البحثُ عن اللهِ في العِلْمِ: ملحِدٌ يدافِعُ عن التّصميم الذكيِّ»، ورَدَّ فيه على كثير من شُبُهات الملاحدةِ حول ظاهرةِ النّظم في الكونِ، وأَثْبَتَ فيه أنّ هذه الظاهرةَ لها ما يُحتجّ به وتستحِقّ النَّظَرَ الجادّ، وأنّ هذا البرهان يجعله أقلَّ ثقةً في إلحادِه، وإن كان لم يتابعْه إلى نهايةِ الطّريق. وقد أثار عليهِ هذا الكتابُ الملاحدةَ في أمريكا حتّى إنّه حورب في وظيفته التدريسيّة من طرف زملائه الملاحدة.

---

(١) Antony Flew with Roy Abraham Varghese: *There is a God, How the world's most notorious atheist changed his mind* (New York: HarperOne, 2008), pp74 - 75.

(٢) رك سمالي Richard Smalley (١٩٤٣ ـ ٢٠٠٥م): أستاذُ الكيمياء والفيزياء والفَلَكِ في جامعة «رايس».

(٣) برادلي مونتون Bradley Monton (١٩٧٢ـ): أستاذٌ مساعدٌ للفلسفةِ في جامعة «كولورادو».

المبحث الثاني عشر

نقودٌ واعتراضاتٌ

الاعتراضاتُ على برهانِ النّظم في عالمِ الأَحياءِ تَتَوَزَّعُ بين اعتراضاتٍ علميّةٍ، وأُخرى فلسفيّةٍ، وثالثةٍ لاهوتيّةٍ. وقد اجتهَدَ أصحابها لنقضِ كلِّ سبيلٍ لإثباتِ ظاهرةِ النّظمِ أو دلالاتها الإيمانيّةِ.. فما هي هذه المعارضات؟ وما مبلَغُها من الصّوابِ؟

المطلب الأول

التطوّرُ ليس صُدَفويًا

اعتراض: القول: إنّ التطوّرَ الدارويني قائمٌ على الصُّدْفةِ التي تُسمُّونها عشوائيّةً جَهْلٌ فاضِحٌ منكم بحقيقة التطوّرِ. إنّ التطوّرَ لا يقومُ على الصُّدفةِ البتّةَ، وإنّما قوامُه الانتخابُ الطبيعيُّ؛ وهو عمليّةٌ انتقائيّةٌ حكيمةٌ.

الجواب:

أَوَّلًا: تكرَّرَ هذا الاعتراضُ بصورةٍ مملّةٍ من (داوكنز) في ردودِه على أنصارِ الخَلْقِ الخاصِّ و«التّصميمِ الذكيِّ». وهو قائمٌ على التّدليسِ في تعريفِ أصلِ التطوّر؛ إذ إنّ الانتخابَ الطبيعيَّ عمليّةٌ تكميليّةٌ لما يَنْتُجُ عن الطّفراتِ العشوائيّةِ. فظهورُ المادّةِ الحيّةِ، المعقّدةِ، والمتآلفةِ، ووظيفيّتها في كلِّ مرحلةٍ؛ كلُّ ذلك رهينُ الطّفراتِ العشوائيّةِ.

ثانيًا: اعترفَ عددٌ كبيرٌ من التطوّريّين أنّ الداروينيّةَ منظومةٌ عشوائيّةٌ، ومنهم (جاك مونو) الحائزُ على **جائزة نوبل**؛ فقد كَتَبَ: «الصُّدْفةُ وَحْدَها مصدرُ كُلِّ تجديدٍ، كُلُّ خَلْقٍ في المحيطِ الحيويِّ. **الصُّدْفةُ الصِّرْفةُ**، الصِّرْفةُ

مُطْلَقًا ولكنّها **عمياءُ**، تقعُ في عُمْقِ جُذورِ الصَّرْحِ الهائلِ للتطوّرِ»[١]. . فيما اختارَ البيولوجيُّ التطوريُّ الشّهيرُ (دوجلاس فتوياما)[٢] نِسبةَ الطّبيعةِ الصُّدْفَويَّةِ (العشوائيّةِ) إلى كلٍّ من الطّفراتِ والانتخابِ الطّبيعيِّ[٣].

ومن الطَّريفِ في هذا الباب اعتراضُ (لاري موران) ـ عالم الكيمياء الحيويّةِ الكَنَديُّ الداروينيُّ المعروفُ بعدائِه الشّديد لما يُعرفُ «بالتّصميم الذّكيِّ» ـ على الفيزيائيِّ الملحدِ (لورنس كراوس) لـمَّا زَعَمَ في مُناظرتِه مع (ستيفن ماير) و(دنيس لامورو)[٤] ـ ١٩ مارس ٢٠١٦م ـ أنّ الداروينيّةَ غيرُ عشوائيّةٍ. فقد كتبَ (موران) مقالًا بعنوان: «تحتاجُ أن تعرفَ البيولوجيا إذا كنتَ ستُناظِرُ خَلْقِيًّا يرى التّصميمَ الذّكيَّ»[٥]، وأَنْكَرَ فيه على (كراوس) إنكارَهُ حقيقةَ العشوائيّةِ، واتَّهَمَهُ أنّه كان يَنْقُلُ هذه الدَّعاوى الفاسِدةِ عن (داوكنز)[٦].

ثالثًا: اعترفَ (داوكنز) أنَّ احتمالَ نُشوءِ إنزيمٍ يتكوَّنُ من ١٠٠ حَمْضٍ نَوويٍّ ريبوزيٍّ هو ١ من (20^{100})، وهو عددٌ أكبرُ بكثيرٍ من عدد الجسيماتِ في الكونِ[٧]. ثمَّ عاد فقال: «ليست الداروينيّةُ نظريّةَ صُدْفةٍ عشوائيّةٍ. إنّها نظريّةُ طَفْرةٍ عشوائيّةٍ مع انتخابٍ طبيعيٍّ تراكُميٍّ غيرِ عشوائيٍّ»[٨]. وهي دَعْوى فاسدةٌ؛ لأنّها لا تفسّر ظهورَ الإنزيم الأوَّلِ الذي احتاجَتْهُ البكتيريا الأُولى قبل بداية عملِ الانتخابِ الطّبيعيِّ، بالإضافةِ إلى أنّ الإنزيمَ يمثّلُ منظومةً حيويّةً غير قابلةٍ للتّبسيطِ.

---

(١) Jacques Monod, *Chance and necessity*, p.112.

(٢) دوجلاس فتوياما Douglas Futuyma (١٩٤٢ـ): عالم بيولوجيا تطوّرية أمريكيّ. أستاذ في «Stony Brook University».

(٣) Douglas Futuyma, *Evolutionary Biology*, (Sunderland: Sinauer, 1998) p5,

(٤) دنيس لامورو Denis Lamoureux (١٩٥٤ـ): أستاذُ العلم والدّينِ في جامعة «ألبرتا». داروينيٌّ نصرانيٌّ.

(٥) You need to understand biology if you are going to debate an Intelligent Design Creationist: <http://sandwalk.blogspot.com/2016/03/you-need-to-understand-biology-if-you.html>

(٦) قدّم (موران) هذا التعليق في ردّهِ على تعليقٍ من أحد المعلّقين على مقالِهِ، وليس هو في صُلْبِ المقال.

(٧) Richard Dawkins, *Climbing Mount Improbable*, p.75.

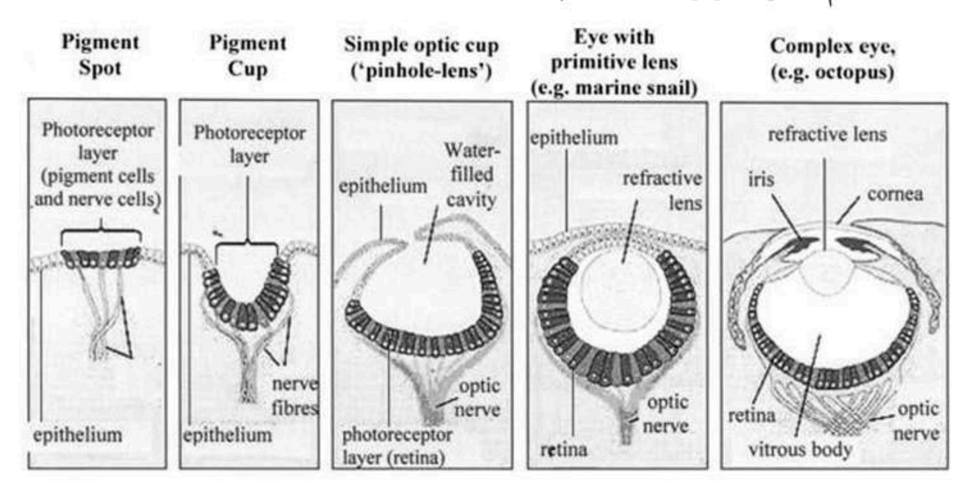
(٨) المصدر السابق.

المطلب الثاني

الداروينيّةُ أَبْطَلَتْ أوهامَ النُّظُمِ، العَيْنُ نموذجًا!

يَستدِلُّ الدَّراونةُ بتفسيرهم لتطوّرِ العَيْنِ من نموذجٍ أوّل بسيطٍ جدًّا إلى النماذج الحاليّةِ المعقّدةِ؛ بُرهانًا على صدقِ مذهبِهم؛ فهم يزعُمون أنّ العَيْنَ قد تطوَّرَتْ وَفْقًا للمراحل التالية:

- منذ ٥٥٠ مليون سنةٍ ظَهَرَت العَيْنُ الأُولى كبقعةٍ حسَّاسةٍ للضَّوءِ يستفيدُ الحيوانُ من حساسِيَّتِها في التّعامُلِ مع مُحيطِه، وإنْ كان مَرْدُودُها ضعيفًا.
- تَقَعَّرَت المنطقةُ الحسَّاسةُ للضّوءِ بما أفادَ في تحديدِ اتّجاه الضّوءِ.
- ضاقَ بعد ذلك ذاك المكان الـمُقَعَّرُ، من أعلى، وامتلأَ بسائلٍ شفّافٍ ولَزِجٍ، وبدأَ الضّوءُ يدخُل من خلال فتحةٍ صغيرةٍ، لِيَمْنَحَ الحيوانَ صُورةً، وإن كانتْ غائمةً.
- ثم ظَهَرَتْ بعد ذلك العَدَسَةُ.
- ثم ظهرَ البُؤْبُؤُ والأعصابُ والعَضَلاتُ...



الجواب:

لا شَكَّ أنّ تطوُّرَ العَيْنِ واحِدٌ من أَظْهَرِ النّماذج المدَّعاةِ للتطوّرِ العشوائيِّ.. غير أنّ الداروينيّةَ قد فَشِلَتْ كُلَّ الفَشَلِ في إثباتِ هذا التطوّرِ، وفي إثباتِ آلَتِهِ العشوائيّةِ. فهذه الدَّعْوى مُعارَضَةٌ بعدَّةِ حقائقَ:

أوّلًا: غيابُ الشّاهدِ الماديِّ على سلسلةِ التطوّراتِ المدّعاة لِلعَيْنِ. وقد جاء في مقالٍ نَشَرَتْهُ مجموعةٌ علميّةٌ داروينيّةٌ من جامعة (Leicester) ـ بَيَّنَتْ فيه أنّ أحدَ الكائناتِ البحريّة العمياءَ اليومَ كان كائنًا مُبْصِرًا منذُ ٣٠٠ مليون سنةٍ (فهو تَدَهْوُرٌ لا تَطَوُّرٌ) ـ: «العَيْنُ بناءٌ مُعقّدٌ، ولا بدّ أنّها قد تطوَّرَتْ عبر تغييراتٍ قصيرةٍ مُتتاليةٍ، ولكنّها **تَغَيُّراتٌ غير محفوظةٍ في الحيواناتِ الحيّةِ، وإلى الآنَ يُعتقدُ أنّ هذه التفاصيلُ التّشريحيّةُ لا يُمكن أن تُحفظَ في الأَحافيرِ**»[1].

السيناريو الدّاروينيُّ قائمٌ على القولِ: إذا كان التطوّرُ العشوائيُّ يحتاج إلى أن يبدأ بسيطًا، ويتطوّرَ تدريجيًّا، فلا حَلَّ عندها إلَّا هذا السيناريو.. فنحنُ أمام إسقاطٍ، لا كَشْفٍ بيولوجيٍّ أو أُحفُوريٍّ.

ويُفاجِئُنا الكشفُ الأُحفُوريُّ مرّةً أُخرى؛ فقد كشفَ علماءُ الأحافيرِ ـ بينما أَخُطُّ هذه الكلماتِ ـ عن أَقْدَمِ عَيْنٍ، وهي تعودُ إلى حيوانٍ عاش ٥٣٠ مليون سنةً مَضَتْ؛ أي: في بداياتِ العَصْرِ الكمبريّ، والخلافُ بينها وبين العَيْنِ المركّبة[2] الحالية ليس كبيرًا، رغمَ تعقيدِ هذه العَيْنِ؛ حتّى قال أَحَدُ الباحثين في جامعة إدنبرة: «من المثيرِ أنّ هذه الأُحفورةَ تُظْهِرُ أنَّ تركيبَ العُيُونِ المركَّبةِ وعَمَلَها **لم يَتَغَيَّرْ إلَّا قليلًا منذُ نصفِ بليونِ سنةٍ**»[3].

ثانيًا: النّموذجُ التطوّريُّ خالٍ من التّفاصيلِ، ومُهْمِلٌ للإشكالاتِ البيوكيميائيّةِ ولِلظُّهورِ المفاجِئِ لعناصِرِ العَيْنِ. نحن هنا لسنا بإزاء نموذجٍ تطوّريٍّ، وإنّما دعوى عامّةٌ مُجرّدةٌ من الدّليلِ العِلميِّ.

ثالثًا: العَيْنُ ليست مجرّدَ كُرَةٍ لاستقبالِ الضّوءِ وعَكْسِ الصُّورةِ، وإنّما هي منظومةٌ غايةٌ في التعقيدِ يدخُلُ فيها الجهازُ العصبيُّ في الدّماغِ؛ فلا معنى

---

(١) Sarah E. Gabbott, 'Pigmented anatomy in Carboniferous cyclostomes and the evolution of the vertebrate eye,' *Proceedings of the Royal Society,Biological Sciences*, 2016; 283 (1836): 20161151.

(٢) compound eye: عَيْنٌ تتكّونُ من عددٍ كبيرٍ ـ وأحيانًا ضخم ـ من العُيَيْناتِ، مثل عين الذُّبابة.

(٣) 530 - million-year-old fossil has look of world's oldest eye, study suggests:
<https://phys.org/news/2017-12-million-year-old-fossil-world-oldest-eye.html>.
Brigitte Schoenemann, *et. al.*, 'Structure and function of a compound eye, more than half a billion years old', *Proceedings of the National Academy of Sciences* (2017).

لتطوُّرِ كُرَةِ العَيْنِ دون تطوُّرِ أعصابِ الدّماغِ ومراكِزِ التَّحَكُّم؛ إذ الدّماغُ أساسٌ في (ترجمة) رسالةِ العَيْنِ.. والتّفسيرُ الداروينيُّ أَبْعَدُ ما يكونُ عن تفسيرِ هذا الأَمْرِ.

رابعًا: العَيْنُ في النّموذج الداروينيّ لا تبدأُ من شيءٍ بسيطٍ من الممكن أن يحدُثَ بفعلِ العشوائيّةِ، وإنما يبدأ هذا الجهازُ بشيءٍ معقّدٍ لا تُقَدِّمُ له الداروينيَةُ تفسيرًا لِنَشْأَتِهِ. وقد اعترفَ بالتّدليسِ الداروينيُّ البيولوجيُّ التطوّريُّ الصّلب (شون ب. كرول)؛ إذ يقولُ لك: «يجب أَلّا تُخْدَعَ بالتركيبِ والمظهرِ البسيطَيْنِ لهذه العُيون. لقد بُنِيَتْ بالاعتماد على عِدَّةِ مُكوّناتٍ تستعملُ في عيونٍ أكثر براعةً»[1].

خامسًا: عَدُّ «السَّائِلِ اللَّزِجِ الشَّفَّافِ» مُجَرَّدَ تَجَمُّعٍ عَفَويٍّ لجسمٍ بسيطٍ، مغالَطَةٌ علميَّةٌ فاسِدةٌ؛ إذ إنَّ كُرةَ العَيْنِ تتكوَّنُ من خلايا شديدةِ التَّعْقيدِ، كما أَنَّ العَدَسَةَ التي ظَهَرَتْ فَجْأَةً لا تقومُ بوظيفتها على الوجْهِ الـمَرْضِيِّ إلَّا إذا كانت دقيقةَ التَّرْكيبِ.

سادسًا: حتى يَصِحَّ تفسيرُ (داروين) لا بُدَّ أن تكون العيونُ الأولى الأَكْثَرَ بدائيّةً، وأَلّا تَظْهَرَ العيونُ المعقّدةُ إلَّا في مرحلةٍ مُتأخّرةٍ. ولا يملك الدَّراونةُ ادّعاءَ ذلك؛ فقد ظَهَرَت الأَعْيُنُ المعقّدةُ جدًّا في أُولى مراحِلِ العَصْرِ الكمبريّ. والتّرتيبُ الزمنيُّ لتطوّرِ عَيْنِ أَيِّ كائنٍ قائمٌ على التَّعَسُّفِ التاريخيِّ لا ترتيبِ الأَحافيرِ تاريخيًّا.

سابعًا: اضطرَّ التطوّريُّون إلى الزَّعْمِ أنَّ العَيْنَ قد تطوَّرَتْ في عالم الأَحياءِ عشراتِ المرّات، لِعَجْزِهِم أن يجدوا لها شَجَرَةً واحدةً تَتَفَرَّعُ أَغْصانُها عنها بصورةٍ سلسة، ولكنَّ ذلك يزيدُ التطوريّين رَهَقًا. يقولُ البيولوجيُّ (فرنك سلِزبري)[2] عن تطوُّرِ العَيْنِ: «إنّ تطوُّرَ مثلِ هذه الأعضاءِ مرّةً واحدةً أمرٌ

(١) Sean B. Carroll, *The Making of the Fittest: DNA and the Ultimate Forensic Record of Evolution*, (W. W. Norton, 2006), p.197.

(٢) فرنك ب. سلِزبري Frank B. Salisbury (١٩٢٦ ـ ٢٠١٥م): أستاذُ البيولوجيا وعلمِ البيئة، ورئيس قسم علم النّبات في جامعة «يوتا». من مؤلّفاتِه الكتابُ المدرسيُّ الشّهيرُ في علم النَّباتِ «Plant Physiology».

عَسِيرٌ، ولذلك فالتفكيرُ في ظُهورها مرّاتٍ كثيرةً طِبْقَ نظريّةِ الداروينيّةِ الجديدةِ يجعلني أَشْعُرُ بالدّوارِ»[1].

ثامنًا: (داروين) نفسُه كان على وَعْيٍ بتهافُتِ تفسيرِه لتطوّر العَيْنِ وتَعَسُّفِهِ، فقد رَدَّ على (أسا غراي) لـمّا أَنْكَرَ عليه ضعفَ عَدَدٍ من دعاويه، ومنها حديثُه عن تطوُّرِ العَيْنِ، بقوله: «وأما ما تَعَلَّقَ بنقاط الضَّعْفِ، فأنا أَتَّفِقُ معكَ. **ولا يزال التّفكيرُ في العَيْنِ إلى اليومِ يُصيبُني بقُشَعْريرةٍ**، ولكنّني عندما أُفَكِّرُ في التدرُّجاتِ الدّقيقةِ، يقول لي عقلي: إنّه عَليَّ أنْ أَتَغَلَّبَ على هذه القُشَعْريرةِ»[2].

خلاصةُ الكلامِ في التطوّرِ المزعومِ لِلعَيْنِ قولُ جرَّاحِ العَيْنِ الشّهيرِ (Ming Wang) الذي أجرى آلافَ العمليّاتِ الجراحيّةِ، وله عشر براءاتِ اختراعٍ: «بإمكاني أَنْ أَقْطَعَ بالشَّهادةِ ـ كطبيبٍ وعالِمٍ ـ لحقيقةِ أنّه من الـمُحالِ أن يُفَسِّرَ الانتخابُ الطّبيعيُّ التّعقيدَ الـمُدهِشَ لِلعَيْنِ»[3].

المطلب الثالث

بُرهانُ النَّظْمِ لا يُحدِّدُ الـمُصَمِّمَ

اعتراض: وجودُ النّظم في عالم الأَحياء يَدُلُّ على وجودِ «قوّةٍ» غير ماديّةٍ تتمتّعُ بالقدرةِ والحِكْمةِ، لكنّه لا يدُلُّ على أنّ هذه «القوّة» هي مَنْ يُسمّيه المسلمون: الله!.. وذاك هو الاعتراضُ الأساسيُّ لـ(كانط) على دليلِ النّظم؛ إذ قال: «.. يمكن إذنْ لِلدّليلِ أن يُثْبِتَ على الأكثرِ مُهندِسًا للعالَم سيظَلُّ دائمًا محدودًا باستعداداتِ المادّةِ التي يَشْتَغِلُ بها، لا خالِقًا للعالَم يُخْضِعُ كُلَّ شيءٍ لِفِكْرتِهِ. وهيهاتَ أن يكفيَ ذلك للمقصدِ الكبيرِ الذي نَصْبُو إليه، والذي هو

---

(1) Frank B. Salisbury, 'Doubts about the Modern Synthetic Theory of Evolution', *The American Biology Teacher*, Vol. 33, No. 6 (Sep., 1971), p.338.
<http://emp.byui.edu/SATTERFIELDB/Rel327/DoubtsRegardingModernSyntheticTheoroy%20of%20Evolution%20Salisbury.pdf>.

(2) Francis Darwin, ed., *The Life and Letters of Charles Darwin* (New York: D. Appleton and Co., 1899), 2/67.

(3) Cited in: Rice Broocks, *God's Not Dead: Evidence for God in an Age of Uncertainty* (Thomas Nelson Publishers, 2015), p.105.

التّدليلُ على كائنٍ أصليٍّ كافٍ لكلِّ شيءٍ»[1].

الجواب:

نحن لسنا هنا بِصَدَدِ قَفْزةٍ ذِهْنيَةٍ غيرِ مُبرَّرةٍ من «النّظم» إلى «اللهِ»!

برهانُ النّظمِ حُجّة لنفيِ العشوائيّةِ في بناءِ عالَمِ الأحياءِ، وانتفاءُ العشوائيّةِ يلزمُ منه مباشرةً الإقرارُ بالتوجيهِ والذّكاء أو الحِكْمةِ، والحِكْمةُ دالّةٌ على ذاتٍ حَكيمةٍ من غيرِ جنسِ المادّةِ لأنّ المادّةَ قاصرةٌ بذاتها عن تفسيرِ نفسِها، فهي المحتاجةُ إلى تفسيرٍ.

برهانُ النّظمِ يدلُّ على وجودِ ذاتٍ ـ لا مجرّد «قوّة!» ـ تمتازُ بالقُدرةِ والعِلمِ العظيمَيْنِ جدًّا، وهي ذاتٌ وليست مجرّد «قوة»؛ لأنّها تملِكُ إرادةً واختيارًا، فهي تفعلُ عن اختيارٍ بعلمٍ وقدرةٍ يعجَزُ العقلُ عن تصوُّرهما لِعَظِيمِ ـ وعجيبِ ـ فِعْلِهَا في عالمِ الأَحياءِ.

وهي ذاتٌ واحدةٌ أَحَدِيَّةٌ لأنّ نظمَ الكونِ متناسِقٌ ومُتناغِمٌ لا يُوحِي بتعدُّد الـمُصَمِّمِيْنَ.

إن النّظمَ البارعَ لكلّ خليّةٍ يشهدُ على وجودِ ذاتٍ بالغةِ العَظَمَةِ تتجاوزُ أبعادَ كَوْنِنا الماديِّ، والنّظمُ بذلك حُجّةٌ للبحثِ عن القديرِ العظيمِ خارجَ الكونِ، خارجَ عالَمِ البيولوجيا، وهنا تُسَلِّمُ البيولوجيا للفلسفةِ سؤالَ البحثِ عن صاحبِ النّظمِ في عالمِ الأَحياءِ.

وما هي الذّاتُ الـمُرِيْدَةُ العَلِيمةُ القادِرةُ التي توجدُ خارجَ العالَمِ الماديِّ غيرُ الذّاتِ الإِلٰهيَّةِ؟!

المطلب الرابع

برهانُ النّظمِ وحُجّةُ «إلٰهِ الفَجَوَات»

اعتراض: برهانكم قائمٌ على «حُجَّةِ الجَهْلِ» «argument from ignorance»؛ أي: إنَكم تزعُمون أنّه إذا عجزَ العِلمُ الآن عن تفسيرِ ظاهرةٍ ماديّةٍ ما؛

---

(١) عمانويل كانت، نقد العقل المحض، تعريب: موسى وهبة (بيروت: مركز الإنماء القومي، د.ت.)، ص٣١١.

فالجوابُ عندها لِزامًا هو: «إنّ اللهَ قد فَعَلَها!»؛ فهذا الإلٰهُ تفسيرٌ للفَجَوات المعرفيّةِ في وَعْيِنا بالعالمِ، ولذلك كلّما تَقَلَّصَتْ هذه الفَجَواتُ انحصرَتْ أَدِلَّةُ وجودِه.

الجواب:

التَّضمينُ الإلحاديُّ: إنكارُ الوجودِ الإلٰهيِّ تحت دعوى رفضِ إلٰه الفَجَواتِ ينبُعُ أساسًا من مقدّمةٍ مُضمَرةٍ في بدء الرُّؤيةِ العلميّةِ في أبعادِها الفلسفيّةِ؛ إذ ينطلِقُ النَّبْشُ العِلميُّ الإلحاديُّ من مُسَلَّمةِ ماديّةِ الكونِ؛ وكُلُّ جوابٍ غيرِ ماديٍّ ضمن البناءِ التفسيريِّ للماديِّين يُعدُّ ضرورةً تفسيرًا مُخادِعًا. والملحِدُ المستعلِنُ باعتراضِ «إلٰه الفَجَوات» ـ لذلك ـ يَحْكُمُ على التّفسيرِ غير الماديِّ ابتداءً أنّه حديثُ فَجَواتٍ.

العِلْمَويَّةُ، مُشكلةٌ وليست حَلًّا: على المستوى المعرفيّ ـ المنهجيّ، يقيم الملحدُ اليومَ ـ عامّة ـ نظرَتَهُ إلى الوجودِ على أساسِ المبدأ «العِلْمويِّ»؛ فالعِلمُ الماديُّ هو السّبيلُ الوحيدُ لِفَهْمِ الكونِ؛ وكُلُّ ما عدا ذلك فَوَهْمٌ. وهي مقدّمةٌ مَحَلُّ إشكالٍ؛ ولا يَصِحُّ أن تكون مقدّمة النَّظَرِ لما سبقَ بيانُه من خَلَلٍ فيها وتناقُضٍ ذاتيٍّ.

إلٰهُ المعلوماتِ: البراهينُ التي سُقْناها سابقًا مَصْدَرُها العِلمُ بالواقع لا الجَهْلُ به؛ فالملاحدةُ أنفسُهم يعترفون أنّ نجاحَ (بيهي) وغيره في إثباتِ التعقيدِ غيرِ القابلِ للتّبسيطِ في بناء الكائناتِ الحيّةِ حُجَّةٌ للنَّظْمِ الحكيمِ الذي نَعزُوهُ إلى اللهِ ـ سبحانه ـ، كما أنّ كُلَّ معارِفِنا وخبراتِنا تشهدُ أنّ المعلوماتِ لا تنشأُ إلَّا من ذكاءٍ أو حِكْمةٍ. نحن إذن نستدلُّ بدءًا لوجودِ الله في عالم الأحياءِ بأدلّةٍ إيجابيّةٍ قائمةٍ على العِلمِ لا الجَهْلِ.

أَعْقَلُ الأقوالِ من بين مذاهبِ المتخالِفين: الرَّاصِدُون لعالَمِ الأَحياءِ ثلاثةُ أَصْنافٍ:

١ ـ أَنْصارُ القراءةِ التّبسيطيّةِ العشوائيّةِ: وهي أساسًا القراءَةُ الدّاروينيّةُ، وأَهْلُها لا يُفَسِّرُون شيئًا عند طلبِ التّفصيلِ، مُكْتَفِينَ بعرضِ العناوين: «لا نَعْرِفُ أصلَ الحياة»، «التطوُّرُ فَعَلَهَا»، «العشوائيّةُ مع الوقتِ تَصْنَعُ

المعجزاتِ». . . وعند محاولةِ التّفسيرِ، تَتَعَارَضُ أقوالُ الدَّراونةِ بصورٍ حادّةٍ لأنّها مذاهِبُ رَغْبَوِيّةٌ تنطلِقُ من مآلاتِ البحثِ لا شواهدِه. . .

٢ ـ أنصارُ القراءةِ الماديّةِ الواعيةِ: ظَهَرَ تيَّارٌ مُتَنَام في عالم البيولوجيّين يعترفُ صراحةً بقصور التّفسيرِ الدارويني لتطوّرِ عالَم الأحياءِ، مع إقرارِهِ أنَّ نَشْأَةَ الحياةِ ـ إلى اليوم ـ لُغْزٌ مَقْفُولٌ وحادثٌ عجيبٌ. ويمثّلُ عالِمُ البيولوجيا الجزيئية (جيمس أ. شبيرو) في كتابِه الصّادرِ منذ سنواتٍ: «التطوُّرُ: رؤيةٌ من القرن الحادي والعشرين»[١] (٢٠١١م) هذا التيّارُ، فهو يُقرّر أنّ الخليّةَ شديدة الذكاءِ في تعامُلِها مع نفسِها ومع ما حولها، وأنّ **التفسيرَ الدارويني تبسيطيٌّ إلى درجةٍ غبيّةٍ**، وأنّ المعلومةَ سِرُّ تنظيم الوجودِ الحيِّ وعَمَلِهِ، لكنَّ (شابيرو) ومن معه يرفضون كُلَّ تفسيرٍ فوقَ طبيعيٍّ؛ لأنّهم ـ باعترافهم ـ عندها يُذْعِنُون بدءًا وقصرًا للتّفسير الماديِّ[٢].

٣ ـ أصحابُ الفريقِ الثّالثِ يَتَّبِعُون الدّليلَ حيث يقودُهم دون حَسْم النّتيجةِ بدءًا؛ فالتّفسيرُ العِلميُّ الصَّوابُ هو الذي يفسّر الظاهرةَ دون إلغاءٍ لِلحَلِّ فوقِ الطّبيعيِّ. وهذا ما ندعُو إليهِ. وقاعدةُ النَّظَرِ عندنا هي ـ كما يقول (بول ديفيس) ـ: «إذا كانت الطبيعةُ ذكيّةً جدًّا لاستغلالِ الآليَّاتِ التي تُدْهِشُنا ببراعَتِها؛ أَفَلَيْسَ ذلك حجّة مقنعة على وجودِ نَظْمٍ. . .؟ إذا كانت خِيرةُ عقولُ البشرِ في العالَمِ غير قادرةٍ على أن تكشِفَ العَمَلَ العميقَ للطبيعةِ إلَّا بمشقَّةٍ، فكيف من الممكن ـ إذن ـ تَصَوُّرُ أنّ هذه الأعمالَ حصيلةُ مَحْضِ أحداثٍ عشوائيّةٍ، أو أَثَرُ صُدْفَةٍ عمياءَ؟!»[٣].

مبدأُ الاستدلالِ بأفضلِ تفسيرٍ: العِلمُ قائمٌ على مبدأ «الاستدلال بأفضلِ تفسيرٍ» «Inference to the Best Explanation»، والاستدلالُ بأفضلِ تفسيرٍ يكونُ بالانتقاءِ الواعي من الخياراتِ المطروحةِ، والخياراتُ المطروحةُ في نقاشِ

---

(١) Evolution: A View from the 21st Century.

(٢) هذا ما صرَّحَ به (شابيرو) بوضوحٍ في تعقيبِه على اتّهام (دامسكي) له أنّه اختارَ موقِفًا وَسَطًا بين «الدّاروينيّةِ» و«التّصميم الذكيّ».
<https://antidarwin.wordpress.com/2013/01/04/is-james-shapiro-a-design-theorist-james-shapiro-replies/>

(٣) Paul Davies, *Superforce*, pp.234 - 236.

الـمُؤَلِّـهَةِ والملاحدةِ لا تخرج عن: العشوائيّةِ والحِكْمةِ الإلٰهيّةِ؛ ولذلك فإنَّ قيامَ القرائنِ القاطعةِ على فَسَادِ البرهانِ العشوائيِّ حُجّةٌ لِصِحَّةِ القولِ: إنّ جَهْلَنا بالسَّبَبِ الماديِّ الـمُقْنِعِ يُلْزِمُنا بالمسيرِ إلى نِسبةِ الأمرِ إلى الحكمةِ الإلٰهيّةِ.

إنّ الأمورَ التي تُظْهِرُ «تعقيدًا مخصوصًا» و«تعقيدًا غير قابل للتّبسيطِ» تُنسبُ دائمًا في تفسيراتنا الشّخصيّةِ وفي تفسيراتِ العُلماءِ إلى الذّكاء أو الحِكْمةِ، وذاك حصيلةُ تجربةٍ تواتَرَتْ أفرادها؛ والمؤلِّهُ يُجْرِي هذا التّفسيرَ في كُلِّ أمرٍ يُظْهِرُ «تعقيدًا مخصوصًا» و«تعقيدًا غير قابل للتّبسيطِ»؛ بما في ذلك مجموعُ أشياءِ الحياةِ؛ فليس هناك من سببٍ لجعلِ الذّكاءِ أو الحكمةِ وراء كلّ شيءٍ باستثناء عالم الأحياءِ. إنّ الـمُتَّهَمَ هنا بالتّناقُضِ هو الملحِدُ الذي يعترف بالذكاءِ في تفسيرِ كُلّ شيءٍ لا يقبَلُ العشوائيّةَ إلّا إذا تَعَلَّقَ الأمرُ بحقيقةٍ من الممكن أن تؤولَ إلى الإقرار بوجودِ إلٰهٍ.

قد يقول معترضٌ: إنَّ البشرَ ـ في قرونِ البداوةِ العلميّةِ ـ قد نَسبُوا إلى السُّلطانِ الإلٰهيِّ المباشرِ تفسير كثيرٍ من الظَّواهرِ الطبيعيّةِ، وقد استطاعَ العلمُ مع تطوّرِهِ الصّاعِدِ من الجَهْلِ إلى المعرفةِ أن يَسُدَّ ثَغْرةَ الجَهْلِ ويبطلَ التّفسيرات الغَيْبيَّةِ للمؤلّهةِ بالكشفِ عن السُّننِ الطّبيعيّةِ التي تَحْكُمُ تلك الظّواهر.

وذاك اعتراضٌ مُتَعَجِّلٌ في فَهْمِ ما نقول؛ إذ إنَّ البرهانَ الذي يقودُ إلى الاقتناعِ بوجود اللهِ لا يقوم على أَحْداثٍ مُتفرّقةٍ، وموجوداتٍ نادرةٍ، وإنّما هو قائمٌ على أصلِ الموجوداتِ الحيّة التي لا تكاد تُحْصى عَدَدًا، فإنَّ دلالَتَها على الحِكْمةِ فاشيةٌ تأبى قَبُول الحَصْرِ؛ ولذلك فسقوطُ نموذج أو عشرة لا يُغيّرُ من أَصْلِ الاستدلالِ شيئًا؛ فإنّ عالَـمًا صَنَعَتْهُ العشوائيّةُ لا بُدَّ أن يحمِلَ بَصْمةَ العشوائيّةِ بوضوح وجلاء، وليس عالَمُ الأَحياءِ كذلك.

الفَجَواتُ، في تَقَلُّصٍ أم تَضَخُّم: يزعمُ الملاحدةُ أنّ توسُّعَ معرفَتِنا بالعالَمِ قَلَّصَ باطّرادِ الدَّورَ التّفسيريَّ لِعَمَلِ الإلٰهِ في الكونِ؛ فمعرفَتُنا بقوانينِ الكونِ تُلغِي باستمرارٍ مساحاتِ الجهلِ في تفسيرِنا للواقِعِ، تلك المساحاتُ التي كان البَشَرُ يَنْسِبُون تفاصيلَ حَرَكَتِها إلى الإلٰهِ.

وذاك ـ في الحقيقة ـ تصويرٌ مُنْكَرٌ لِلفَهْمِ الإسلاميّ للسُّنَنِ الكونيّةِ. النَّصُّ القُرآنيُّ صارخٌ في إقرارهِ بالسُّنن الكونيّةِ التي يُقدِّمُهَا كبرهانٍ على قُدرةِ الله وكَمَالِهِ، مثل الحديثِ عن حَرَكَةِ الأجرامِ، وتكوُّنِ السُّحُبِ ونُزولِ المَطَرِ، وأَثَرِ الماء في نشأةِ الحياةِ.

إنّ النصَّ القرآنيَّ لا يُلغِي السُّننَ الكونيّةَ، وإنّما يجعل حضورَ الفِعْلِ الإلٰهيِّ باديًا بوضوحٍ في عَمَلِ النَّواميسِ الكونيّةِ بصورةٍ دائمةٍ أكثر منه في خَرْقِ هذه السُّننِ بالمعجزات، ولذلك جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر: ٢٨] بعد الحديثِ عن عددٍ من المظاهِرِ الكونيّةِ الشّائعةِ؛ لبيان أنَّ النَّظَرَ في السُّنَنِ الكونيّةِ المتكرّرة السَّبَبُ الأَعْظَمُ لمعرفةِ الله ـ سبحانه ـ.

ثم إنّ معرفَتَنا بالكونِ ـ على التّحقيق ـ لا تزيدُنا إلّا معرفةً بجهلِنا؛ إذ تتوسَّعُ أمامَنَا مساحاتٌ مُظْلِمةٌ لم تكن معروفةً لدينا من قبلُ. كما أنَّ الكشفَ عن مُعَمَّياتِ هذا العالمِ يزيدُ الملحدين رَهَقًا؛ إذ إنّ عالَمَ الخَلِيّةِ كما تمَّ كَشْفُهُ في العقودِ الأخيرةِ قد فَضَحَ سطحيَّةَ التَّناوُلِ الإلحاديِّ لهذا العالَمِ الفَسِيحِ بِعَدِّهِ مادَّةً بسيطةً سَهْلَةَ التَّكوينِ والنَّسْخِ. إنّ العلمَ يَكْشِفُ لنا اليومَ الحاجة الضَّرُوريَّةَ إلى التَّفسير فوقِ الطبيعيّ لنشأةِ الحياةِ ولِتَنَوُّعِ مظاهِرِها؛ فقد أَبانت العَشْوائيَّةُ عن قُصُورٍ قاتلٍ لأحلامِ الماديَّةِ الطبيعانيَّةِ.

> **«العِلْمُ لمْ «يَشْرَحْ» شيئًا؛ فإنّه كُلَّما ازْدادَتْ مَعْرِفَتُنا؛ ازدادَ العالَمُ غَرَابةً، واشتدَّتْ الظُّلْمَةُ المحيطة بنا حُلْكَةً»[1]. (أدلوس هكسلي).**

إلحادُ الفَجَواتِ: ظلَّ العلمُ على مدى قرونٍ خاضعًا لمبدأ البحثِ عن التفسيرِ الأفضلِ، غير أنّه مع سيطرةِ الفِكْرِ الماديِّ على البحثِ العلميِّ، تحوَّلَ

---

(١) Aldous Huxley, *Selected Essays* (Chatto and Windus, 1961), p.23.

العلماءُ عن المبدأ السّابقِ إلى البحثِ عن أفضلِ التّفسيرات الماديّةِ؛ فلا تفسيرَ خارجَ التّفسير الماديِّ الآليِّ. وقد دفعَ هذا التحوُّلُ المنهجيُّ العلماءَ إلى الرَّفْضِ المبدئيِّ لكلّ تفسيرٍ فوقِ طبيعيٍّ؛ حتّى لو فَشِلَتْ جميعُ الحلولِ المطروحةِ وأثبتَتْ عُقْمَها؛ ليبقى الحَلُّ ماديًّا كامنًا في فَجْوةِ الغَيْبِ المنتظَرِ. وهؤلاء على مذهبَيْنِ، منهم من إذا واجَهَ فَشَلَ التفسيراتِ الماديّةِ القائمةِ، عَلَّقَ أَمَلَهُ بكشفٍ يأتي في الغَيْبِ غيرِ المنظورِ، ومنهم من يُعَلِّقُ أَمَلَهُ «بالغَيْبِ المنظُورِ»؛ فيختارُ أَفْضَلَ التّفسيراتِ الفاشِلةِ أَمَلًا أن يصيرَ يومًا ما صادِقًا!

ومن نماذجِ التفكيرِ الرَّغبويِّ لعلماءِ الطّبيعةِ الماديّين الهاربين من الإقرارِ بالتّفسيرِ فوق الطّبيعيِّ المباشِرِ لبعضِ مظاهرِ الحياةِ إلى أحلامِ «الغَيْبِ المنظُورِ»، قولُ الكيميائيّ (روبرت شابيرو) في كتابه الشّهير عن أَصْلِ الحياةِ: إنَّ عددًا من العلماءِ قد يتَّجِهُون إلى الدِّين بعد العَجْزِ عن الكشفِ عن أدلّةٍ حاسمةٍ لتفسيرِ أصلِ الحياةِ، وأمّا هو فسيحاوِلُ أن ينتقيَ من الاحتمالاتِ القائمةِ أَفْضَلَها، حتّى إن كانت كُلُّها ضعيفةً[1].

والأَمرُ في حقيقتِه أعظمُ من ذلك؛ إذ إنّ المذهبَ الدَّاروينيَّ الذي يُمثّلُ الدّعامةَ العلميّةَ الأُولى للإلحادِ في الغربِ قائمٌ على «برهان الجَهْلِ»؛ فعامَّةُ ما يُستدَلُّ به للتطوّرِ وآليّاتِه العشوائيّةِ أَصْلُه جَهْلُ الدَّاروينيِّ أو المجتمعِ العلميِّ في زمنٍ ما بحقيقةِ البِناء العُضْويّ مَحَلِّ النَّظَرِ، وهو ما يَظْهَرُ في الاستدلالِ بـ«الأعضاء الأثريّةِ» مثلًا لإثبات انتسالِ الإنسانِ من شبيهِ القِرْدِ، وهي أعضاء يفتحُ الكشفُ العلميُّ دائمًا أبوابًا جديدةً للعِلْم بوظائِفِها.

(١) Shapiro, *Origins: A Skeptic's Guide to the Creation of Life in the Universe* (London: Penguin, 1988), p.130.

«الزَّعْمُ أنّه مع الزَّمَنِ، سَيُفَسِّرُ العِلْمُ كُلَّ شيءٍ، هو ببساطةٍ صياغَةُ الملحِدِ لإلٰهِ الفَجَواتِ». الفيزيائيّ البريطانيّ (إدجار أندروز)[1].

المطلب الخامس

هيوم، ومعارضةُ قياسِ الحِكْمةِ الإلٰهيّةِ على الذّكاءِ البشريِّ

اعتراض: بَيَّنَ الفيلسوفُ (هيوم)[2] أنّ نسبةَ مظاهرِ الكونِ إلى النَّظْمِ، مجرّدُ وَهْمٍ؛ لأنّ ذلك مجرّد قياسٍ للكونِ على مصنوعاتِ الإنسانِ.

الجواب:

أَوَّلًا: إذا رفَضَ (هيوم) القولَ: إنّ الكونَ مُصمَّمٌ لأننا نَقِيْسُ فِعْلَ اللهِ على فعلِ الإنسانِ؛ فما هو برهانُ النَّظْمِ الذي يرضاه (هيوم)؟ أي: إذا كان واقعُ تركيبِ الكونِ وتصويرِه لا يدلُّ على وجودِ «مُصمّم» لأنّنا نحن البشرَ نقيسُ حالَ الكونِ على مصنوعاتنا؛ فما هو البرهانُ الذي يُقْنِعُ (هيوم) أنّ هذا الكونَ مُصمّمٌ إذا كان اللهُ موجودًا؟ اعتراض (هيوم) في حقيقتِه اغتيالٌ للمذهبِ المخالِفِ لمنع المعارضةِ.

ليس في كلام (هيوم) معيارٌ للنَّظْمِ الإلٰهيِّ؛ ولذلك فهذا الاعتراضُ ينطلِقُ من رفضِ الإقرار بالنّظمِ الإلٰهيّ، ولا ينتهي إليه؛ إذ يرفُضُ الخبرةَ البشريّةَ؛ بل وحتى بداهاتِ التّمييز بين ما هو ثمرةٌ للنّظمِ وما هو ثمرةٌ للعشوائيّةِ.

ثانيًا: هذا الاعتراضُ واقِعٌ في مغالطةِ القَفْزِ إلى النّتيجةِ وإهمالِ مسارِ

---

(١) إدجار أندروز Edgar Andrews (١٩٣٢ـ): فيزيائي إنجليزيّ. أستاذ المواد بجامعة لندن.

(٢) هناك جَدَلٌ واسِعٌ بين المتخصّصين في الفكرِ الهيومي حول موقِفِ هذا الفيلسوفِ من وجودِ اللهِ. وقد ذهبَ عددٌ من الباحثين إلى أنّ (هيوم) لم يرفُضْ وجودَ اللهِ، وإنما شَكَّ في إمكانِ إقامةِ الدّليلِ على ذلك. وفي هذا يقول (نيكولاس كبلدي) (Nicholas Capaldi) ـ المتخصّص في الفِكْرِ الهيومي ـ: «لم يَقُلْ هيومُ في أيٍّ من كتاباتِه إنّه لا يَقْبَلُ وجودَ اللهِ، ولا حتّى أَوْحى بذلك. على العكسِ من ذلك، يقولُ هيومُ في عدّةِ أماكنَ: إنه يَقْبَلُ بوجودِ اللهِ».

Nicholas Capaldi, *David Hume* (Hall & Co, 1975), chapter 9 (Cited in: Peter Williams, *A Faithful Guide to Philosophy*, Milton Keynes: Authentic Media, 2013, p.113)

الاستدلالِ التدرُّجيِّ؛ إذ إنّ برهانَ النّظمِ لا ينطلِقُ من البحث عن «الذّكاءِ/ الحِكْمةِ الإلٰهيّةِ»؛ وإنّما ينطلق من أنّ مظاهِرَ الحياةِ على الأرضِ لا يمكن تفسيرُها إلَّا بواحدٍ من أمرَيْنِ:

- العشوائيّة.
- اللَّاعشوائيّة.

واللَّاعشوائيّةُ ـ ضرورةً ـ: الفِعْلُ الموجَّهُ الذي يَشِفُّ عن إرادةٍ وحِكْمةٍ. وبالنَّظَرِ في الكونِ، وَجَدْنا أنّ عامّةَ مظاهرِ الحياةِ فيه لا يمكن تفسيرُها بالعشوائيّةِ؛ لأنّ طبيعتَها (المعلومات) وتركيبيَّتَها (التّعقيد غير القابل للتّبسيط) واحتماليَّتَها (عُمْر الحياة لا يسمح بِصُدْفِيَّتها) تُنَافِرُ العشوائيّة وتَدُلُّ على القَصْدِ والحِكْمةِ.

ولـمّا كانت هذه الحِكْمةُ التي وراء هذه الظّواهرِ، ليست من صُنْعِ البشرِ، ولا من صُنْعِ بقيّةِ الأحياءِ على الأرضِ، وكانت عظيمةً جدًّا بما يفوقُ الخيالَ البشريَّ؛ رَبَطْناها ببرهانِ الخَلْقِ الذي يَرُدُّ المخلوقاتِ إلى ذاتٍ خارجَ الوجودِ الماديِّ برُمَّتِهِ، وجَمَعْنَا بين برهانِ الخلقِ وبرهانِ النّظمِ؛ لِنَصِلَ إلى أنَّ نَظْمَ الكونِ من صُنْعِ الذّاتِ العظيمةِ العليمةِ القديرةِ التي أَخْرَجَت الكونَ من العَدَمِ إلى الوجودِ.

نحن ـ إذن ـ لم نبدأ بالبحث عمّا يُسمّيه الملحدُ «بالذّكاء الإلٰهيّ»، لِيَتَّهِمَنَا أنّنا نبحثُ عن شيءٍ لا نعرِفُه، وأنّ قياسَنَا لحِكْمةِ الإلٰهِ على ذكاءِ البَشَرِ، مُغالطةٌ.. نحن بدأنا بمفهوم اللَّاعشوائيّةِ/الحِكْمةِ بإطلاق، وحُجَّتُنا برهانُ الخُلْفِ الذي بِنَفْيِ العشوائيّةِ يَقُودُنا إلى إثباتِ الحِكْمةِ الإلٰهيّةِ.

المطلب السادس

التّصميمُ الـمَعِيبُ

اعتراض: كيف يجتمعُ النّظمُ الذكيُّ مع التّصميمِ الـمَعِيبِ؟ إنّنا نرى في عالم الأحياء قُصورًا في الكائناتِ عن مرتبة كمالِ الخلقِ.

الجواب: يَخْلِطُ هذا الاعتراضُ بين مسألَتَيْنِ: قصور المخلوقات عن الكَمَالِ، وعُيوب الخَلْق.

أولًا: قُصورُ المخلوقاتِ عن الكَمَال التَّامِّ: يَعْتَقِدُ المخالِفُ أَنَّ الخَلْقَ الإِلٰهيَّ لا بُدَّ أن يَبْلُغَ الكَمَالَ في الصَّنْعَةِ مُطْلَقًا. وهذا إلزامٌ فاسِدٌ، وسببُ ذلك أَنَّ اللهَ يَخْلُقُ ما يشاء، ويفعلُ ما يريد، وفِعْلُهُ مرتبطٌ بِعِلَّتِهِ، لا بطبيعةِ المخلوقِ، بمعنى: أنّ اللهَ ـ سبحانه ـ قد خَلَقَ الخَلْقَ لتعمير الأرضِ، وخَلَقَ البشرَ للاختبارِ في هذه الحياةِ، ومِنْ لوازِمِ هذه الغايةِ أَلَّا تُخَلَّدَ الكائناتُ، وأَنْ يَعْرِضَ لها المرَضُ والعَطَبُ، ليكون الأَذَى سببًا في الاختبارِ أو الموتِ... ولِذا فطبيعةُ خَلْقِ المخلوقاتِ تقتضي أَلَّا تَبْلُغَ المخلوقاتُ الكَمَالَ التَّامَّ في الصَّنْعَةِ؛ ولذلك فتفسيرُ قولِه تعالى: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ أَنَّهُ سبحانه أَحْسَنَ هذا الخلقَ بما يَفِي بالغايةِ من الخَلْقِ، لا بما يُحقِّقُ للمخلوقاتِ الخلودَ أو يَمْنَعُ عنهم الأذى. ولذلك قال (القرطبي) المفسِّرُ: «﴿أَحْسَنَ﴾؛ أَيْ: أَتْقَنَ وَأَحْكَمَ، فَهُوَ أَحْسَنَ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ لِمَقَاصِدِهِ الَّتِي أُرِيدَ لَهَا»[1].

وبعبارة أوضح، نحن لا نؤمن «بالنَّظْمِ الأَقْصى» «optimal design»؛ فاللهُ ـ سبحانه ـ لم يخلُقْ أشياءَ العالَمِ على صُورةٍ ليس بعدَها زيادةٌ، وإنّما خَلَقَها على **أَحْسَنِ صُورةٍ تُؤَدّي الحكمةَ مِنْ خَلْقِها**؛ فالخَلْقُ المثاليُّ يَقْتَضِي ـ مَثَلًا ـ أَلَّا تَفْجَعَ المخلوقَ حاجةٌ ولا يَقْرَبَهُ مَوْتٌ؛ وذاك يُعارِضُ الحِكْمةَ مِنْ خَلْقِ هذه الأشياءِ في هذا الكونِ الزَّائِلِ؛ حيث قُصورُ المخلوقاتِ عن مَرْتبةِ الكَمَالِ أَثَرٌ لِحِكْمةٍ تُرِيدُ أَنْ تَمْتَحِنَ الإنسانَ بالمرَضِ، وتُقَوِّيَ عزيمَتَهُ بمواجهةِ الآفاتِ، وتُذَكِّرَهُ بالنِّعْمَةِ عند الغفلات...

ثانيًا: عيوبُ الخَلْقِ: الردُّ على هذه الدَّعوى من وجهَيْنِ، واحدٌ فلسفيٌّ وآخرُ عِلميٌّ:

أ ـ الوجهُ الفلسفيُّ: يزعُمُ الملاحدةُ أنّ وجودَ عَيْبٍ في المصنوعات

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م)، ١٥/ ٩٠.

حُجّةٌ للقولِ: إنّها ليست نِتاجَ جهدٍ ذكيٍّ أو حِكْمةٍ. وهي دعوى باطلةٌ؛ فإنّ قُصَارى ما يدلُّ عليه «التّصميم المعِيبُ» ـ إن صحَّ جَدَلًا، ولا يصحّ ـ أنّ وَجْهًا أو أَوْجُهًا من صفاتِ المصنوعِ لم تَدُلَّ على ذكاءِ الصّانع أو أنَّ الصّانِعَ لم يُرِدْ لها أن تبلغَ درجةَ الكَمَالِ أو الدِّقَّةِ أو الوظيفيّةِ.

إنّ السيّاراتِ والهواتفَ والكمبيوتراتِ.. تَدُلُّ ضرورةً على أنّها نِتاجُ عُقولٍ ذكيّةٍ، لكنّها كُلَّها مَعِيبةٌ بقابليّةِ الكَسْرِ وفسادِ برامجِ التّشغيلِ وتَعَطُّلِ آليّةِ الشّحنِ. فهي وإن كانت مَعِيبةً من وجْهٍ إلَّا انّها تَكْشِفُ عن ذكاءِ صانِعِها من الأَوْجُهِ الأُخْرى.

وكما يقول (دمسكي): «لا يعني مجرّد إمكان أن نتخيّلَ دائمًا بعض التحسينِ في التّصميم أنّ البناءَ موضوعَ النَّظَرِ لم يكن مُصَمَّمًا، أو أنّه بالإمكان القيامُ بهذا التّحسينِ، أو أنّ التّحسينَ ـ حتّى إذا كان بالإمكانِ تنفيذُه ـ لن يترتّبَ عليه فسادٌ في مكانٍ آخَرَ»[1].

ثمّ إنّ الأمثلةَ التي يذكرها الملاحدةُ قليلةٌ جدًّا ومكرّرةٌ، ولا تساوي في مجموعِ الأعضاءِ والعُضَيَّاتِ المعروفةِ واحدًا من مليون مليون، فكيف يكون الشُّذوذُ والنُّشوزُ عن الأصل الغامرِ حجّةً للعشوائيّةِ؟!

ب ـ الوجهُ العلميُّ: يزعم الملاحدة من خلال الأمثلةِ المخصوصة التي يسوقونها أنّ هناك عُيُوبًا واضحةً في عمل بعضِ الوظائفِ لا يمكن أن تصدرَ عن عقلٍ ذكيٍّ فضلًا عن أن يكون «إلٰهًا»؛ وهو ما يَدُلُّ على أنّ الكائناتِ الحيّةِ نِتاجَ تطوّرٍ عشوائيٍّ أَعْمى. وهذه العيوبُ تَدُلّ ـ كما يقولون ـ على فسادِ الصُّنْعِ لا على قُصورِهِ عن الكَمَالِ؛ إذ إنّ هذه العيوبَ تُعَطِّلُ الغايةَ من وجودِ المخلوقِ.

وبعيدًا عن حَسْمِ الأمرِ في أنّ «العيوبَ» التي يُشير إليها الملاحدةُ تتعارضُ مع الغايةِ من خَلْقِ الإنسانِ، لا بُدَّ من الإشارةِ إلى أنّ الاستدلالَ

---

(١) William A. Dembski, Intelligent Design is not Optimal Design <https://billdembski.com/documents/2000.02.ayal-response.htm>.

بالأمثلة المكرّرةِ التي يُحيلُ إليها هؤلاءِ مُدانٌ أوّلًا بقيامِهِ على برهانِ الجَهْلِ: «إذا لم أكنْ أَعْلَمُ أَنَّ كَذَا مُتْقَنُ الصُّنْعِ، فهو مَعِيْبٌ!» أو «لا أَعْلَمُ الحِكْمةَ مِنْ خَلْقِ كذا، فوجودُ كذا دالٌّ أنّه لا وجود لخالِقٍ!»، وثانيًا هذه العيوبُ المزعومةُ ـ عند التّدقيقِ ـ حُجّةٌ ضدّ العشوائيّةِ ولصالح النّظمِ الحَكيمِ. ومن أمثلة ذلك:

الحَمْضُ النّوويّ الصّبغيّ الخُرْدَةُ: استمرَّ الدَّراونةُ في العقودِ الأخيرةِ على التأكيدِ أنّ وجودَ نِسبةٍ عاليةٍ جدًّا من الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ الذي لا يُشَفِّر لبروتينات برهانٌ على أنّ هذا الحَمْضَ النّوويّ مجرّدُ خُرْدةٍ لا وظيفةَ لها. ومع تطوُّرِ الدّراسات الجينيّةِ؛ اكتشفَ العلماءُ جنايةَ الداروينيّةِ على العِلم؛ إذ تَبَيَّنَ أنّ من هذا الحَمْضِ النّوويّ ما يقومُ بوظائفَ ضروريّةٍ جدًّا لعملِ الخَليّة، ولتنظيمِ التّناسقِ الأدائيّ للجيناتِ، ولحفظِ الإنسانِ من أمراضِ القلبِ وغيرها. . . . وقائمةُ «الخُرْدةِ» في تَقَلُّصٍ متواصلٍ مع تطوُّرِ آليّاتِ فَهْمِ الجيناتِ وفَحْصِها؛ حتّى قال عالم الجيناتِ ـ التطوّريّ ـ (جيمس شابيرو) والبيولوجيُّ التطوّري (ريتشارد سترنبرج)[1]: «في يومٍ ما، سَنَعُدُّ ما كان يُدعى «الحَمْضَ النّوويّ الصّبغيّ خُرْدةً» مُكوّنًا أساسيًّا «لخبيرٍ» حقيقيٍّ في نَظْمِ التَّحَكُّمِ الخلويّ»[2]. وقد صُدِمَت الجماعةُ العلميّةُ في الغربِ بعد كشفِ البرنامجِ العلميّ (إنكود)[3] أنّ جُلَّ «الحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ» غير التّشفيريّ والتّكراريّ[4] يحتوي على معلوماتٍ تنظيميّةٍ أساسيّةٍ؛ حتّى قال البيولوجيُّ التطوّريُّ **الملحدُ** الشّهيرُ (دان غرور)[5]: «إذا كانت نتائجُ مشروعِ (إنكود) صحيحةً؛ فالتطوُّرُ خَطَأٌ»[6].

---

(١) ريتشارد سترنبرج Richard Sternberg: بيولوجيٌّ أمريكيٌّ، حاصلٌ على دكتوراه في التطوّرِ الجزيئيّ وأخرى في علم الأنظمةِ (البيولوجيا النظريّة).

(٢) Richard Sternberg and James A. Shapiro, "How Repeated Retroelements format genome function," *Cytogenetic and Genome Research*, Vol. 110:108 - 116 (2005).

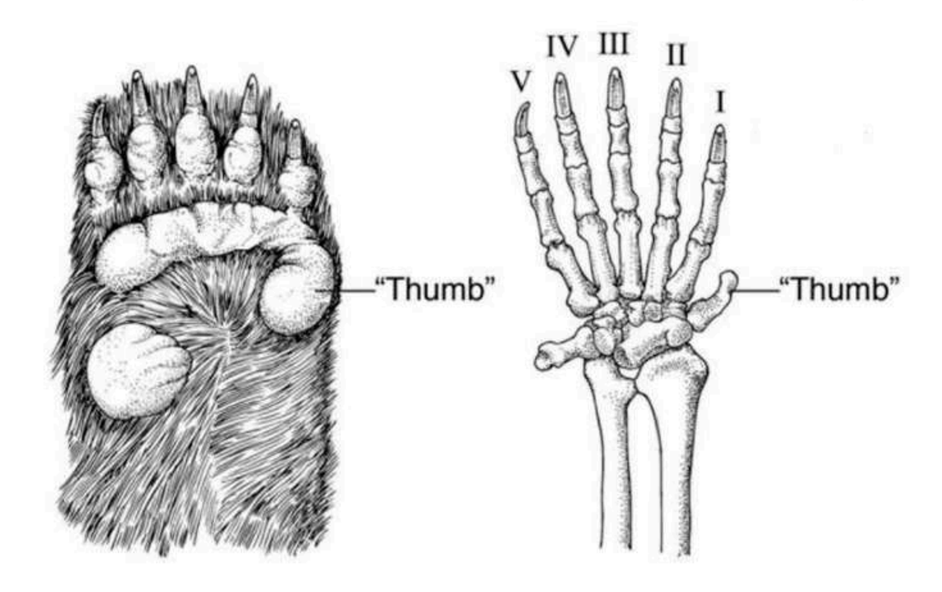
(٣) ENCODE [ENCyclopedia Of Dna Elements].

(٤) Noncoding and repetitive DNA.

(٥) دان غرور Dan Graur (١٩٥٣ـ): عالم متخصّصٌ في التطوّر الجزيئيّ. أستاذُ عِلْمِ الحيوانِ في جامعة تلّ أبيب.

(٦) Dan Graur, 'How to Assemble a Human Genome?' (December 2013). <http://tinyurl.com/mpmxkyw>

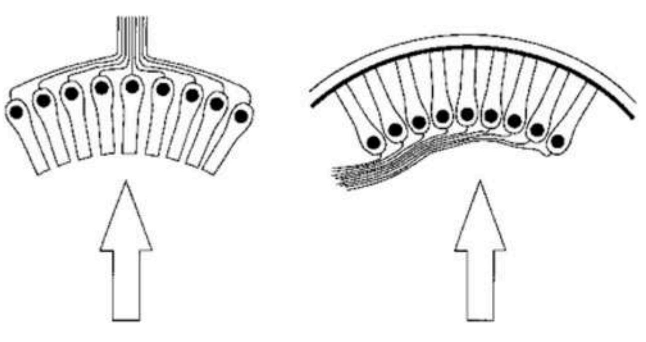
إبهام الباندا: أَشْهَرُ رمزٍ للتّصميم الـمَعِيبِ في الأدبيّاتِ التطوّريّةِ هو الإصبعُ الزّائدُ لحيوانِ الباندا. وقد اختارَ (جاي جولد) لأَحَدِ كُتُبِهِ هذا الاسم «The Panda's Thumb: More Reflections in Natural History (1980)» بيـانًـا لأهميّةِ هذه الظّاهرة في إثباتِ التطّورِ؛ إذ يزعُمُ (جولد) أنّ موقِعَ هذا العَظْم من الـمِعْصَمِ مَعِيبٌ، والأَوْلى أن يكونَ على شكلِ إبهام الإنسانِ المقابِلِ لبقيّةِ الأَصَابعِ.



العَظْمَةُ النّاتئةُ في يدِ الباندا ليستْ علامةً على خَلْقٍ مَعِيبٍ لأصابعَ غيرِ مُرتّبةٍ بصورةٍ ناجعة؛ إذ إنّ الباندا تستعمِلُها ببراعة لِتَقْشِيرِ أعوادِ الخَيْزُرانِ؛ بل أَثْبَتَ علماءُ يابانيّون أنّ هذا «الإبهام» موجودٌ في مكان مثاليٍّ لتأديةِ وظيفتِه، فقد كَتَبُوا ـ بعد أن صَوَّرُوا يد الباندا بالرَّنِينِ المغناطيسيِّ ـ أنّ هذا العظمَ «يُمَكِّنُ الباندا من التَّعاملِ مع الأشياءِ ببراعةٍ كبيرةٍ»، وأنّ الطريقةَ التي تستعمِلُ بها الباندا هذا العَظْمَ النّاتئ لالتقاطِ الأشياءِ «تَجْعَلُهُ **واحدًا من أَحَدِ أَعْظَمِ أَنْظِمةِ التَّعاطي مع الأشياءِ** في تطوُّرِ الثَّدييَّاتِ»(١).

(١) Hideki Endo, Daishiro Yamagiwa, Yoshihiro Hayashi, Hiroshi Koie, Yoshiki Yamaya, Junpei Kimura, 'Role of the giant panda's pseudo-thumb,' *Nature*, Vol: 347:309 - 310, January 28, 1999.

الشَّبَكِيَّةُ الـمَعْكُوسةُ inverted retina: تقع مستقبلاتُ الضّوءِ في العَيْنِ وراءَ الخلايا العُقَديّةِ بما يَتَسَبَّبُ في مناطقَ مُعْتِمةٍ في الرُّؤيةِ، على خلافِ عَيْنِ الأُخْطُبوطِ التي تقع فيها مستقبلاتُ الضّوءِ أمامَ الخلايا العُقديّةِ.



The verted retina　　　The inverted retina

الاعتراضُ بالشبكيّة المعكوسةِ بُرهانًا على التّصميم المعيبِ تَمَّ الردُّ عليه من طرفِ كثيرٍ من العلماءِ، دون أن يَصِيخَ الدَّراونةُ سَمْعًا لِلردِّ؛ ومن ذلك البحثُ الذي نشرَهُ باحثانِ من جامعةِ (Technion-Israel Institute of Technology) حيث أَكَّدَا أنّ شبكيَّةَ عَيْنِ الإنسانِ تُمثّلُ درجةً عاليةً من النّظمِ البارعِ؛ إذ يقومُ العَصَبُ البَصَرِيُّ فوقَ الشّبكيّةِ بجعل **الرؤيةِ أعلى في دِقَّتِها**؛ فقد تَبَيَّنَ أنّ هذا العَصَبَ البصريَّ هو «هَيْكَلٌ **أَمْثَلُ** صُمِّمَ لِلحِفاظِ على حِدَّةِ الصُّورةِ في شبكيّةِ العَيْنِ. إنّه يلعبُ دورًا حاسِمًا في **جَوْدةِ** الرؤيةِ، عند الإنسانِ والأنواعِ الأُخرى»[1].

وماذا لو كان العَصَبُ البَصَرِيُّ عند الإنسان كما يريد (داوكنز) لِيُوافِقَ الكَمَالَ المزعومَ؟ يُجِيبُنا البيولوجيُّ (جورج أيوب)[2] بقوله: إنّ ذلك سَيُعِيقُ الصّورة الطبيعيّةَ لِلتَّدَفُّقِ الطّبيعيِّ للدم؛ إذ سَيُضَايِقُ العَصَبُ العروقَ الدَّمَوِيَّةَ. وانتهى إلى القولِ: «في محاولةِ إزالةِ المنطقةِ الـمُعْتِمةِ، أَنْشَأْنا عِدَّةَ مُشكلاتٍ

(١) Labin, A.M. and Ribak, E.N., Retinal glial cells enhance human vision acuity, *Physical Review Letters* 104, 16 April 2010.
<http://physics.technion.ac.il/~eribak/LabinRibakGlialCells.pdf>.

(٢) جورج أيوب George Ayoub: أستاذ البيولوجيا في «Santa Barbara City College».

وظيفيّةٍ جديدةٍ أَعْظَم جِدَّةً وتحتاج حَلًّا»[١].

العَصَبُ الحَنْجَرِيُّ الرَّاجِعُ Recurrent laryngeal Nerve: يزعم (داوكنز) وبقيّةُ الدَّراونةِ أنّ المسافةَ الطّويلةَ التي يَقْطَعُها العَصَبُ الحَنْجَرِيُّ الراجِعُ من المخِّ إلى الحنجرةِ مُرورًا بالشِّرْيانِ الأَبْهَرِ عند القلبِ تصميمٌ مَعِيبٌ؛ إذ إنّ غايةَ هذا العَصَبِ الوُصولُ إلى الحنجرةِ؛ ولذلك فإنّ الحِكْمةَ تقتضي أن يَصِلَ هذا العَصَبُ مباشرةً من المخِّ إلى الحنجرةِ مباشرةً، خاصّةً أنّ المسافةَ المقطوعةَ في الزَّرَافَةِ ذاتِ العُنُقِ الطّويلِ جدًّا طويلة من دون داعٍ. وسببُ هذا التّصميمِ المعيبِ أنّنا انْحَدَرْنا من السَّمَكِ[٢].



والجوابُ العِلميُّ: هو أنّ العَصَبَ الحَنْجَرِيَّ الرَّاجِعَ يَسْلُكُ طريقًا طويلًا لأنّ غايتَهُ ليست قاصرةً على الوصولِ إلى الحَنْجَرَةِ؛ إذ إنّه يقوم أيضًا بتغذيةِ أَجْزاءٍ من القلبِ وعضلاتِ القَصَبةِ الهوائيّةِ والأَغْشِيةِ المخاطيّةِ والمريءِ[٣].

(١) George Ayoub, "On the Design of the Vertebrate Retina," Origins & Design, vol. 17:1 (Winter) 1996): > www.arn.org/docs/odesign/od171/retina171.htm

(٢) ريتشارد دوكنز، أعظم استعراض فوق الأرض، ٢/ ٢٢٦ ـ ٢٣٥.

(٣) *Gray's Anatomy*, 1980, 40th edition of 2008, pp. 459, 588 - 589.

ويكفي لبيان تهافُتِ هذه الشُّبْهةِ أنَّ قِصَرَ هذا العَصَبِ يُعَدُّ طِبِّيًا عَيْبًا خَلْقِيًا، ويُسمّى: Non-Recurrent' Laryngeal Nerve وهو يُصِيبُ ٠,٦٪ من البشرِ، ويُؤدّي إلى تَضَخُّمٍ شَرْيانيٍّ عند المريضِ، ويرتبِطُ بصعوباتِ التَّنَفُّسِ[1].

المطلب السابع

النَّظْمُ الحكيمُ عِلْمٌ زائِفٌ

اعتراض: مدرسةُ «التّصميم الذكيّ» تُرَوِّجُ لِلعِلْم الزّائفِ لأنّ تفسيرَها يقعُ خارجَ حَدِّ العِلمِ؛ إذ لا يكون نَسَقُ النَّظَرِ البحثيّ عِلْمًا حتّى يستوفيَ شُروطًا مُحدَّدةً صارِمةً؛ مثل القُدْرةِ على التَّنَبُّؤِ، والتّكرارِ والتّجريبِ، وقابليَّتِهِ لِلدَّحْضِ. وليس في منظومةِ «التّصميم الذكيّ» شيءٌ من ذلك..

الجواب:

أولًا: الجَدَلُ بين فلاسفةِ العلومِ حولَ حَدِّ ما هو عِلميٌّ، أو ما يُعرف بـ«The Problem of Demarcation»، لم يَنْتَهِ، ولا تبدو له نهايةٌ؛ لأنَّ كلَّ ضابطٍ يميّزُ بين العِلمِ والزَّيْفِ ينتهي دائمًا إلى إخراجِ بعضِ العُلومِ الثّابتةِ من حَدِّ العِلمِ؛ فمِنْ أَشْهَرِ هذه الضّوابطِ مثلًا قَبُولُ النّظريّةِ للاختبارِ، وهذا الضَّابِطُ لا بُدَّ أنْ يؤُولَ إلى إخراجِ عُلومِ مثل أصلِ نشأةِ الكونِ وعامّةِ مباحثِ الكوسمولوجيا من دائرةِ العلمِ الحقيقيِّ إلى دائرة العِلم الزَّائِفِ[2]؛ ولذلك «أَهْمَلَ جُلُّ فلاسفةِ العلومِ البحثَ عن حَدِّ ما هو عِلميٌّ»[3].

ثانيًا: يَتَشَبَّثُ الملاحدةُ بضابطِ «قابليّة الدَّحْضِ» «Falsifiability» للقول: إنّ «التّصميم الذكيّ» ليس عِلمًا؛ إذ لا سبيل ـ كما يقولون ـ لاختبارِ التّصميمِ

---

(١) Mehmet Uludag, Adnan Isgor, Gürkan Yetkin, Bülent Citgez, Anatomic variations of the non-recurrent inferior laryngeal nerve, in *BMJ Case Reports* 27 March 2009.

= Wolf-Ekkehard Lnnig, The Laryngeal Nerve of the Giraffe: Does it Prove Evolution, <http://www.weloennig.de/LaryngealNerve.pdf>.

(٢) بَحَثَ فيلسوفُ العلومِ (لاري لاودا) في مقالٍ بعنوان «The Demise of the Demarcation Problem» أزمةَ إثباتِ ضابطٍ مُحْكَمٍ لمفهومِ العِلمِ، وكَشَفَ أنّ التّعريفاتِ قد انتهت إلى مجموعةِ تناقضاتٍ.

(٣) Dominic J. Balestra, 'Science and Religion' in *Philosophy of Religion: A Guide to the Subjected*, Brian Davies, ed. (London: Continuumm, 2003), p.350.

الذّكيّ؛ لأنّه دَعْوى بلا نموذج قابلٍ للفَحْصِ أو الاختبارِ المعمليِّ. وعلى هذا الاعتراض تعقيبان، أَوَّلُهما: أنّ النّظمَ الذكيّ قابِلٌ للدَّحْضِ؛ إذ إنّ له نُبوءاتٍ من الممكن اختبارُ صِدْقِها، كنبوءاته عن وظيفيّةِ ما عُرفَ بالحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ الخُرْدَةِ، وثانيهما: أنّ الداروينيّةَ بطبيعتها المطّاطةِ جدًّا هي التي صارت بالفِعْلِ عَصِيَّةً على الدَّحْضِ؛ بإثباتها الأَمْرَ ونَقِيْضَهُ، وتَماهِيْهَا مع الكشفِ العِلميِّ وما يَنْفِيْهِ؛ فلا يَرِدُ اعتراضٌ على هذه النظريّةِ إلّا ويَلِيْنُ منها جانبٌ طَلَبًا للبقاءِ؛ حّتى تَنَازَلَ عددٌ من الدَّراونةِ والتطوريّين عن أَهَمِّ أيقونات التطوّرِ، مثل شَجَرَةِ الحياةِ، والأَصْلِ الأَوَّلِ المشترَكِ لجميع الأحياء، والتطوُّرِ التدرّجيِّ ـ لصالح مذهب القفزات التطوّرية ـ. وقد بَلَغَتْ دُوغمائيّة الدَّراونةِ حَدَّ الاعترافِ بالأزمةِ القاتلةِ ثم الاستخفافِ بها؛ ومن ذلك قولُ البيولوجيِّ التطوّريِّ (فوتوياما)[1]: «لا يوجد البتّة خلافٌ بين علماء البيولوجيا حولَ حقيقةِ حُصولِ التطوّرِ... لكنّ نظريّةَ كيف وَقَعَ التطوّرُ مسألةٌ أُخرى مختلفةٌ تمامًا، وموضوعُها مَحَلُّ نزاعٍ حادٍّ»[2]، كيف يكون التطوّرُ بهذا الوضوح حتّى إنّه يُرفَعُ إلى مرتبةِ «الحقيقة»، ثم تكون آلِيَّتُهُ مُشكلةً إلى هذا المبلغِ؟[3]!

ثالثًا: النّظمُ الذكيُّ هو التفسيرُ العلميُّ الوحيدُ لكثيرٍ من مظاهرِ الحياة، مثل الانفجاراتِ الخَلْقِيّةِ المتكرّرةِ؛ فهو دالٌّ هنا على وجود الإرادةِ والقَصْدِ والغائيّةِ، وهي أُمورٌ تَعْجَزُ التّفسيراتُ الماديّةُ أن تَفِيَ بها.

رابعًا: عِلْمِيَّةُ النَّظْمِ من جنْسِ عِلْمِيّةِ مذهبِ البيولوجيا التطوّريّة؛ فهما داخلان في جِنْسِ «العُلومِ التّاريخية» التي تدرسُ المسائلَ العِلْميّةَ بآليّاتِ البحثِ التاريخيّ التي عُمْدَتُها القَرائِنُ لا الفَحْصُ المباشِرُ؛ إذ تقومُ على «إعادة تركيبِ

---

(١) دوغلاس فوتوياما Douglas Futuyma (١٩٤٢ـ): بيولوجيٌّ أمريكيٌّ شهيرٌ. رئيسُ «جمعيّة دراسةِ التطوّر».

(٢) Douglas J. Futuyma, 'Evolution as Fact and Theory,' *BIOS* 56 (1985): 8.

(٣) وإذا قيل: إنّ دلائلَ التطوّرِ منفصلةٌ عن دلائلِ آليّاتِ التطوّرِ، قُلْنَا: إذا ظهرَ عُقْمُ الآليّةِ لَزِمَ صَرْفُ القرائنِ المزعومة عن الدّلالة على التطوّرِ؛ إذ هي باعترافِ التطوّريّين لا تبلغُ مرتبةَ البرهانِ المباشِرِ، وإنّما هي قرائنُ تربطُ بين حقائقَ متباعِدَةٍ لِسَدِّ الفَجَواتِ الظاهرةِ.

الماضي لتفسيرِ الحاضرِ بالعودة إلى الماضي»[١]؛ فالنّظْمُ الذّكيُّ والبيولوجيا التطوّريّةُ يَعْتَمِدان آليّاتِ النَّظَرِ في السَّبْرِ التّاريخيِّ نفسِها، وقد تَبَنَّى (داروين) نفسُه هذا المسْلَكَ البحثيَّ؛ فقد كتبَ إلى صديقِهِ العالم (أسا جراي): «اخْتَبَرْتُ هذه الفرضيّةَ [الأصلَ المشتركَ للكائناتِ الحيّةِ] بمقارنتها بالعديدِ من الدَّعَاوى الثابتةِ والعامّةِ التي أمكنني دراستها في التّوزيع الجغرافيّ، والتاريخ الجيولوجيِّ، والقَرَابةِ. . . . ويبدو لي أنه إذا افترَضْنَا أنَّ مثل هذه الفرضية كانت لِشَرْحِ هذه الدّعاوى العامّة، فيجب علينا، **وَفْقًا لِلطّريقةِ العامّةِ لِدِراسةِ كُلِّ العُلومِ**، أنْ نَقْبَلَهَا حتى يَتِمَّ التَّوصُلُ إلى فرضيّة أفضل»[٢].

والخلافُ الأساسيُّ بين منهجِ النّظمِ الحكيم و«البيولوجيا التطوّريّةِ» يكمنُ في ضبطِ مساحةِ الحلولِ؛ فالتطوّريّون الماديُّون يحصرونَ الأجوبةَ في التفسيراتِ الماديّةِ، في حين يرى أنصارُ النّظمِ الحكيمِ أنّ التّفسيرَ الأقوى ـ مهما كانت طبيعتُه ـ هو الأَوْلى بالقَبُولِ، دونَ انحسارٍ في القراءاتِ الماديّةِ الصِّرْفةِ؛ فَشِعَارُ تيّارِ التّصميمِ الذكيِّ: متابعةُ الدّليلِ إلى حيثُ يقودُ.

خامسًا: افتراضُ وجودِ المصمّمِ الذي لا يُرَى لا يَقِلُّ عِلْمِيَّةً عن القَفزاتِ التطوّريّةِ التي لم تُوثّق مراحِلُها الوسيطةُ. نحن هنا أمام تفسيرَيْنِ ينتَهِيانِ إلى آليّتَيْنِ غَيْبِيَّتَيْنِ؛ ولذلك فالحُكْمُ لِلقرائِنِ لا الرَّصْدِ المباشرِ.

خلاصة النَّظَرِ:

• عالَمُ الأَحياءِ قاطعٌ بوجودِ إلٰهٍ بديعٍ، حتّى لو سَلَّمْنَا ـ جَدَلًا ـ بِصِحَّةِ المذهب التَّطوّريِّ؛ لِقيامِ براهينَ كثيرةٍ ومتنوّعةٍ على وجودِ نظمٍ حكيمٍ في المنظومةِ الأحيائيّةِ.

• الأَدِلَّةُ على ظاهرةِ النّظمِ في عالَمِ الأَحياءِ كثيرةٌ جدًّا، وتَتَكَثَّفُ بصورةٍ أساسيّةٍ في بدءِ ظهورِ الحياةِ على كوكبِ الأرضِ؛ بظهور المعلومةِ، والحَمْضِ النّوويّ الصّبغيّ، والآلاتِ المجهريّةِ لِلخليّةِ، والخليّةِ نفسِها. . .

(١) Behe, Dembski and Meyer, *Science and Evidence for Design in the Universe*, p.178

(٢) Francis Darwin, ed., *Life and Letters of Charles Darwin* (London: D. Appleton, 1896), 1/437

• الجَدَلُ الحقيقيُّ في الخلافِ مع الملاحدةِ هو في جواب سؤالَيْنِ: (١) هل توجدُ ظواهِرُ في عالَمِ الأَحياءِ لا يمكن للتطوّر أن يُفَسِّرَهَا؟ (٢) هل توجد ظواهرُ في عالم الأحياءِ لا يمكن للعشوائيّةِ أن تُفسّرها؟

• التطوّرُ العشوائيُّ ـ وهو الذي إنْ صَحَّ كان حُجّةً لإبطالِ برهانِ النّظمِ في الأَحياءِ ـ عاجِزٌ عن تفسيرِ:

١ ـ ظهورِ المعلومةِ.

٢ ـ ظهورِ الحياةِ.

٣ ـ التعقيدِ غيرِ القابِلِ للتّبسيطِ.

٤ ـ آلاتِ إصلاحِ الخَلَلِ الوظيفيِّ. . .

وغيرِ ذلك من مظاهرِ الحِكْمةِ في الوجودِ الحيِّ.

• قيامُ البرهانِ على وجودِ ظاهرةٍ واحدةٍ في عالم الأحياءِ لا يمكن تفسيرها عشوائيًّا حُجّةٌ على وجودِ النّظمِ، ووجودُ النّظمِ حُجّةٌ لوجودِ اللهِ.

• النّقاشُ حولَ النّظمِ ليس حول اللهِ أو العشوائيّةِ، وإنّما حولَ النّظم الحَكيمِ أو العشوائيّةِ؛ إذ إنَّ الحديثَ عن اللهِ مرحلةٌ متأخّرةٌ عن إثباتِ النّظمِ وليس مبدأ النَّظَرِ؛ ولذلك فنحن لا نَخْتارُ بين دَعْوى عِلْمِيّةٍ (=العشوائيّة) ودَعْوى غَيْبِيَّةٍ (=وجود الله)، وإنّما نبحثُ في واحدٍ من تفسيرَيْنِ عِلْمِيَّيْنِ: العشوائيّة أو النّظم الحكيم غير العَبَثِيِّ، وهما من جنسِ الدّعاوى القابلةِ للاختبار عِلْميًّا.

• الكشفُ عن تعقيدِ الخليّةِ أقوى حُجّة ضدّ مَنْ يَنْفُونَ الحِكمةَ وراء خَلْقِ الأحياءِ من بين قائمةِ الحُجَجِ الجادّةِ المتاحة اليوم في ظِلِّ تَطَوُّرِ الدّراسات البيولوجيّةِ، وبذلك يلتقي لأَوَّلِ مرّةٍ في التّاريخ عِلْمُ العالَمِ الكُبْرويّ (الكوسمولوجيا) وعِلْمُ العالَمِ الصُّغْرويّ (البيولوجيا الجزيئيّة) لتأكيدِ الحاجةِ إلى وجودِ خالقٍ بديعٍ لظهورِ الكونِ من عَدَمٍ والخليّةِ من مادّةٍ مَيّتةٍ.

مراجع للتوسع:

William A Dembski and Sean McDowell, *Understanding Intelligent Design*, Eugene, Or.: Harvest House Publishers, 2008.

William A. Dembski, ed. *Mere Creation: science, faith & intelligent design*, Estados Unidos: InterVarsity Press, 1998.

Stephen C. Meyer, *Signature in the Cell: DNA and the Evidence for Intelligent Design*, New York: HarperOne, 2009.

William A. Dembski and Jonathan Wells, *The Design of Life: Discovering signs of intelligence in biological systems*, Dallas: Foundation for Thought and Ethics, 2008.

William Dembski, *Being as Communion: A Metaphysics of Information* Burlington, VT: Ashgate Publishing Ltd, 2014.

الفصل الرابع

الجمال الشّفيف

ـ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل: ٦]

ـ «أَفْضَلُ مواجهةٍ لتحدّي الإلحادِ، والعَدَميّةِ التي تقترنُ به عادةً، هي برؤيةٍ أَوْضَحَ للجَمَالِ البَهِيِّ الذي خلَقَهُ اللهُ، لا عن طريقِ مُحاجَجاتٍ عَقْلِيَّةٍ»[١].

اللَّاهوتيُّ (كلارك بنوك)[٢]

الجمال.. إمتاعُ كريمٍ أم وهم بصير؟

الجَمَالُ بوّابةٌ عظيمةٌ للنَّظَرِ العقليِّ الـمُسْتَأْنِسِ برهافَةِ حِسِّ القلبِ. والدَّاخِلُ منه يَتَنَسَّمُ فوائِحَ الإمتاعِ بكلِّ خلايا ذاتِهِ الصّادِيةِ.. وهو برهانٌ يخبرنا أنّ الجَمَالَ لا يلتقي مع ما يُنافِرُ جَلالَهُ، ولا يستأنِسُ بما يُغبِّرُ صَفْحَتَهُ.. فأين يقع الجَمَالُ في أرضِ مُعترَكِ الإيمانِ والإلحادِ؟

يقولُ المؤمنُ باللهِ:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل: ٥، ٦]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦ ـ ٨]، وقال ﷻ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ

---

(١) Clark H. Pinnock, *Most moved mover: a theology of God's openness* (Carlisle: Paternoster Press, 2002), p.2

(٢) كلارك بنوك Clark Pinnock (١٩٣٧ ـ ٢٠١٠م): أستاذ اللاهوت النظامي في «McMaster Divinity College».

لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ [النمل: ٦٠]؛ فالجَمَالُ أَثَرُ خَلْقٍ إلٰهيٍّ وليس مظهرًا اعتباطِيًّا. إنهّ أَثَرٌ عن حقيقةِ الذَّات العَلِيّةِ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْـجَمَالَ**»(١)، والبَهْجَةُ في النَّفْسِ أَثَرٌ عن صَنْعةٍ لها طبيعةٌ خاصّةٌ تنشُرُ السّعادةَ في القلبِ.

يقول صاحب «الظلال» في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]: «هذا الكتاب الكوني [عالم الطبيعة] الجميل الصفحات، العجيب التكوين والتلوين، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول: إنّ العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله:

﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾..

وهذه الصفحات التي قلبها في هذا الكتاب هي بعض صفحاته، والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب. ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية. يعرفونه بآثار صنعته. ويدركونه بآثار قدرته. ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه. ومن ثم يخشونه حقًّا ويتقونه حقًّا، ويعبدونه حقًّا. لا بالشعور الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون. ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر.. وهذه الصفحات نموذج من الكتاب.. والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الأخرى وبدائع التنسيق التي لا يدركها إلا العلماء بهذا الكتاب. العلماء به علمًا وأصلًا. علما يستشعره القلب، ويتحرك به، ويرى به يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون الجميل.

إن عنصر الجمال يبدو مقصودًا قصدًا في تصميم هذا الكون وتنسيقه. ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها. هذه الألوان العجيبة في الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التي

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (ح/ ٩١).

تفوح. ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى الزهرة هي القيام بنقل اللقاح، لتنشأ الثمار. وهكذا تؤدي الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها!.. والجمال في الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه، لأداء الوظيفة التي يقوم بها الجنسان. وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال»[1].

٢ ـ إذا كان الكَوْنُ مادّةً وطاقةً في حال عَبَثٍ دائِبٍ وأَعْمى؛ فالمتوقَّعُ أن لا يوجد جَمَالٌ في الكونِ؛ إذ الجمالُ مُعْطًى كونيٌّ مرتبطٌ بغائيةٍ لإمتاع الذائقة؛ وقد جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧] تأكيدًا لِلصِّلةِ الجوهريّةِ التي تربط لوائِحَ الجَمَالِ بجاذبيّةِ الإمتاعِ.. وليس في العشوائيّةِ ما يمكن أن يربطها بإسبالِ ثوبِ الجَمَالِ الواسِعِ على المادّةِ العابثةِ.

٣ ـ إذا كان الكونُ قد أَوْجَدَهُ إلٰهٌ، فَمِنَ الممكنِ أو الرّاجِحِ:

- أن يكونَ الكونُ جميلًا، تعبيرًا عن قُدرةِ الله العظيمةِ.
- أن يكونَ الكونُ جميلًا، تعبيرًا عن جَمَالِ اللهِ ـ سبحانه ـ.
- أن يكونَ الكونُ جميلًا، لاستثارةِ وَعْيِ الإنسانِ لِوُجودِ الجَمَالِ دلالةً على الخالِقِ.
- أن يكونَ الكونُ جميلًا تعبيرًا عن رَحْمةِ الله الذي يريدُ إمتاعَ خَلْقِهِ في الدُّنْيا.
- أن يكونَ الجمالُ هو الأَصْلُ لا الاستثناء.

يقول الملحِدُ:

الكونُ يحملُ صفاتِ الوجودِ الماديِّ المتوقَّعِ في كونٍ بلا خالقٍ.. لا وجود لجَمَال حقيقيّ في أشياءِ العالَمِ وقوانينِهِ، وإنما غايةُ الأمرِ أنَّ بعضَ الأَنْفُسِ قد تَسْتَمْلِحُ بعضَ مظاهرِ الوجودِ؛ لطبائعِ هذه النُّفُوسِ لا لحقيقةِ واقعِ الظّاهرةِ الطبيعيّةِ.. الكونُ باهِتٌ بلا قِيمةٍ جَمَاليّةٍ أَصيلةٍ فيه، والجَمَالُ وَهْمٌ!

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن (بيروت: دار الشروق، ١٤١٢هـ، ط١٧)، ٥/ ٢٩٤٣

فأيُّ المذهَبَيْنِ أَحَقُّ بالصَّوابِ، وأَحْرَى بالسَّدَادِ؟

صياغة البرهان:

عُرف الحديث في الجمال في زمان (أفلاطون) ـ وقبله ضرورة ـ، غير أنّه استقلّ لنفسه كفنّ فلسفيّ خاص ـ لبيان الأحكام التقويمية التي تميّز الجميل عن القبيح ـ في القرن الثامن عشر مع صدور كتاب «تأمّلات فلسفيّة في موضوعات تتعلّق بالشعر» للفيلسوف الألمانيّ (باومجارتن)[١].

وقد اهتم اللاهوتيّون منذ قرون بالاستدلال بالجمال لإثبات وجود إلٰه، قدير وجميل ورحيم، غير أنّه مع صعود الثقافة النسبيّة في الغرب، ضَعف حضور هذا البرهان في الجدل الإيماني ـ الإلحادي؛ ولذلك استخفّ به (داوكنز)؛ فلم ينفق في نقاشه غير صفحتين فقط من كتابه: «وهم الإلٰه»[٢]، وقد عرضه في صورة «رجل القش»؛ فقد ساقه مشوّهًا، ثمّ رمى عليه سهام النقد الموجعة، وأنهى نظره بقوله: إنّه كلّما فكّر في هذا البرهان ازداد يقينًا بفراغه.

صاغ داوكنز «برهان الجمال» على الصورة الساذجة التالية:

١ ـ هناك أناس يصنعون الجمال: الموسيقى=(بيتهوفن) مثلًا.

٢ ـ الجمال عمل إلٰهي.

٣ ـ إذن الله موجود.

وردّ بقوله: إن موسيقى (بيتهوفن) دالة على وجود (بيتهوفن)، لا على وجود الله!

ورغم ظرافة الردّ، إلّا أنه مخادع؛ إذ لم يعرض لصورة البرهان على الصيغة الأعدل، وهي دلالة جمال المخلوقات (المادة وقوانينها) والقدرة على كشفها والاستمتاع بها على وجود المصوّر (الله).

---

(١) ألكسندر باومجارتن Alexander Baumgarten (١٧١٤ ـ ١٧٦٢م): فيلسوف ألمانيّ. تلميذ (لايبنتس). درّس الفلسفة والآداب. أثّر بصورة بالغة في عصره برؤيته للجمال.

(٢) Richard Dawkins, *The God Delusion*, pp.86 - 87.

إنّ برهان الجمال ـ دليلًا على وجود الله ـ قائمٌ على حقيقتين: وجود الجمال في الكون، ووجود حاسة تذوّق الجمال في الإنسان والحيوان.

وتتقارب صياغات برهان الجمال للدلالة على وجود الله، ولعلّ أوضحها القول:

١ ـ العشوائيّة لا تنتج جمالًا موضوعيًّا.

٢ ـ الكون يضمّ جمالًا موضوعيًّا.

٣ ـ جمال الكون لا يمكن تفسيره بالعشوائيّة.

٤ ـ جمال الكون أثرٌ عن نظم غائي.

«تستثير التجربة الحادة لجمال عظيم توقًا غير مُسمّى لشيء أعظم ممّا من الممكن أن تقدّمه الأرض. تعيد الروعة الأنيقة إيقاظ حاجتنا اللهفى إلى ما هو لانهائيّ، جوعتنا إلى ما هو أكبر مما تملك المادة أن تقدّمه»[(١)]. الكاتب (توماس دباي)[(٢)].

---

(١) Thomas Dubay, *The Evidential Power of Beauty: Science and Theology Meet* (San Francisco: Ignatius Press, 1999), p.56.

(٢) توماس دباي Thomas Dubay (١٩٢١ ـ ٢٠١٠م): قسيس كاثوليكي، درّس في عدد من الجامعات الأمريكيّة.

المبحث الأول

الجمال في عين العلم

يصرّ رموز تيّار الإلحاد الجديد أنّ العلم معيار كلّ شيء؛ فهو شاهد الصدق الذي لا يكذب حتّى في المسائل القِيَميّة؛ وذاك منهم تعنّت في حصر براهين الحق في آلة واحدة تنأى عنها جملة من حقائق الكون.. ونحن مع ذلك نرضى ـ هنا ـ بشهادة العلم في شأن الجمال، في الباب الذي يتداخل فيه العلم والجمال في موضوع الكشف والانكشاف.

المطلب الأول

الجمال والكون الإلحادي، لماذا يتنافران؟

إنّ سطوع الجمال في كلّ شيء في الوجود ـ من الذرّة إلى المجرّة، وفي زرقة سماء الصيف إلى خضرة الربيع، مرورًا بحمرة ورق الخريف وجمال ندف الثلج ـ قد غَيّب عن بعض المجادلين في الله، كثافة الجمال، ووضوحه؛ إذ كيف يهتدي الباحث عن الجمال إلى الجمال في الجمال، إذا لم ير الجمال في أوّل وهلة؟! وقد قيل لأحد الأذكياء: «ما أفضل طريق لإخفاء تفاحة حمراء في غرفة؟» قال: «أن تملأ الغرفة تفاحًا أحمر!».. إنّها غفلة العين أمام الشيء إذا كان هو كلّ شيء...

وكيف لا يغفل أرباب الإلحاد عن الجمال ودلالته إذا كانوا يشكّكون في المسلّمات العقلية، كمبدأ السببية ومبدأ عدم تناقض؟ إنّ تشكيكهم في مبادئ العقل الأوّلية أعظم خطرًا لأنهم بذلك يبطلون كلّ دعوى تنبس بها شفاههم؛ فإنّ من أنكر مبدأ عدم التناقض ـ مثلًا ـ صار كلّ قوله لغوًا لأنّه لا يستطيع أن

ينكر صواب القول المناقض لقوله؛ فقوله ونقيضه لا يتصادمان تنافيًا! فصار إنكار الجمال بذلك أهون حملًا؛ لأنه لا يترتّب عليه ما ترتب على ردّ أوّليات الفكر!

والمتأمّل في كتابات أئمة الإسلام في عرض براهين وجود الله ووحدانيته، يرى أنّ الجمال حجّة بارزة فيها، وملمح ظاهر في كشف طبيعة هذا الكون وحقيقة مخبره، وفضيلة في الخلق تكسوه. قال (ابن القيم): «أما الجمال الظاهر فزينة خصَّ الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: ١]»[1].

ويذهب الشيخ (محمد الغزالي) ـ من المعاصرين ـ إلى أنّ العلم بالجمال بعض حقيقة الإيمان بالله؛ إذ إنّ «الإيمان الذي يصوغه القرآن في النفوس، إنّما من أجل أن يرفع به مستوى الإنسان ليكون ذوّاقًا لما في آفاق الأرض والسماء من نواحي الجمال. ولا يتمّ إيمان الإنسان إلَّا إذا نظر إلى الكون على أنّه هذه الصفحات التي يتجلّى فيها الجمال الإلٰهي والمجد الإلٰهي»[2].

وإذا وجّهت وجهك شطر المكتبة الغربية، وقلّبت في أدراج عصر ما بعد الحداثة، حيث كلّ شيء نسبي، وكلّ ثابت سائل، مائع ـ حتى غدا تعريف الإنسان (بما هو إنسان) مُشْكلًا ـ؛ فستكتشف أنّ الجمال يعيش تحت الحصار. ففي عصر سيولة الفكرة والقيمة، وجنون الفن السريالي، والرسم التكعيبي، وتشوّه معنى القيمة، لا غرابة ألّا يكون للجمال نصيب في الجدل الإيماني ـ الإلحادي إلَّا ما شذّ، رغم أنّه برهان قويّ متين، وعند قوم أعظم البراهين؛ لوضوحه واستواء الخلق في إدراكه.

فما هو الجمال ـ قبلًا ـ؟

يقول (أبو حامد الغزالي): «كلّ شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله

(١) ابن القيم، روضة المحبين (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٢م)، ص٢٢١.

(٢) حوار مع الشيخ (الغزالي) بعنوان «الفن ليس غريبًا عن الإسلام»، مجلّة «نصف الدنيا». ١٠ مارس ١٩٩١م.

اللائق به الممكن له؛ فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال. وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر؛ فالفَرَس الحسن: هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة، وشكل، ولون، وحُسن عدو، وتيسر كرٍّ وفرٍّ عليه. والخطّ الحسن: كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليق به»[1]؛ فالجمال إذن موافقة المظهر للوظيفة... ولكن ما هو «جمال المظهر»؟

جمال المظهر في أوضح عبارة وأكثرها اختصارًا: أنماط متآلفة من النظام[2]؛ فإنّ الفوضى قبحٌ، ولذلك يُدرك عشّاق الجمالِ الجمالَ في تناغم الألوان، وتناظر الأشكال، وتعانق الخطوط، وتردّد الأصوات، وسباحة الأجرام، وهي أمور تثير في النفس بهجة الاستمتاع، وتبعث في العقل تقديرًا إيجابيًّا للمرئيّ.

وطريق اختبار الجمال، معايشته في أشكاله الماديّة أولًا؛ إذ إنّ أقصر طريق لاهتياج عواطف الإنسان ملاقاة حواسه للأعراض؛ فمعرفتنا الحقيقية بالجمال هي معرفة التلاقي؛ وبهذه التجربة المشبِعة للحواس، تتجمّع في الذهن معاني الجمال؛ وإن لم يُحسن المرء ـ أحيانًا ـ التعبير عنها.

وإذا كانت براعة عامة براهين الإيمان تَظهر في أنّها تخاطب العقل ببيان واضح مباشر، وتدفعه إلى الاحتكام إلى البدهيات، فإنّ براعة برهان الجمال في أنّه ـ مع برهان الأخلاق ـ يجمع بين مخاطبة العقل المولع بالقواعد الصارمة الجافة، ومحاورة العاطفة بذائقتها المرهفة الحسّاسة؛ وهو بذلك يعقد بين طرفَي الذات الإنسانية: العقل والروح.

وبرهان الجمال، برهان نفاذٌ يقتحم على القلوب أسوارها، ويحرّك في الوجدان مغاليقه، ويحيط بالنفس من جميع أقطارها؛ فلا تفلت منه إلّا بصناعة

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين (بيروت: دار المعرفة)، ٤/ ٢٩٩.

(٢) Richard Swinburne, *Is There a God*, p.54.

أوهام بصريّة تحيل الوجود إلى ركام ماديّ بارد، غير أنّ نفسَ المعاند تعود إلى الإقرار بمعنى الجمال الموضوعي إذا غادر صاحبها قاعة الامتحان، وأدرك أنّه ليس أمام خيار الإيمان والكفر على منصّة العقائد، مطلقًا لسان الإعجاب والاستحسان لكلّ ما هو جميل في ذاته، وبيته، والأرض التي تضمّه، والسمّاء التي تظلّه.

إنّ الإحساس الجمالي في الإنسان عميق؛ موصول بدواخل النفس ونظام العقل حتّى إنّ الفيلسوفة (إلين دِسنايك)[١] رأت أن يُسمّى جنس «الإنسان العاقل» باسم: «Homo Aestheticus» (الإنسان الجماليّ)؛ إذ الإحساس بالجمال واحد من أعظم المكوّنات النفسيّة للإنسان[٢].

ولا أظنّ الباحث في الدراسات النفسيّة يجد في الإيمان بالخالق أثرًا أعظم من الشعور الغامر بتآلف النفس الإنسانية المركّبة والمعقدة مع هذا الوجود.. تناغمٌ هيّن، سهل، سلس، يطفئ بِنَداه الحيرة والاشتباه، ويبسط الكون كلّه أمام العين؛ فإذا هو سهل منبسط بلا اعوجاج؛ لأنّه يكشف عن نفسه في لوحة جماليّة متعددة الأصباغ والخطوط والخيوط، يصنع اختلافُ ألوانها وأشكالها مناظر ماتعة، لذيذة.

والنفس المؤمنة تجد في طابع الجمال الآخذ بتفاصيل هذا الوجود الحقيقةَ تقتحم أعماق الإنسان دون إزعاج، وأمّا الملحد، فإنّ الجمال قذى في عينيه وكدر في قلبه؛ إذ كيف يجتمع الضدّان: عبث وقصد، وكرم وشحّ، وإدلال وتجهّم..؟!

يقول الواعظ البليغ (تشارلز سبرجيون) في بيان علاقة الإيمان بوجود الله بفيض الجمال في الكون: «خَلق الله الطبيعة ليس فقط لحاجياتنا الأساسيّة، وإنّما أيضًا لاستمتاعنا. إنّه لم يكتفِ بخلق حقول الذُرَة، وإنّما خلق البنفسج

---

(١) إلين دِسنايك Ellen Dissanayke: باحثةٌ أمريكيّةٌ، دَرَّسَتْ في عَدَدٍ من الجامعات الأمريكيّةِ. لها عنايةٌ خاصّةٌ بالجَمَالِ وأثَرِهِ في ثقافة الإنسانِ منذ القِدَمِ.

(٢) Ellen Dissanayake, *Homo Aestheticus: where art comes from and why* (Seattle: Univ. of Washington Press 2010).

وزهر الربيع العطري. الهواء وحده كافٍ لنا للتنفّس، ولكن انظر كيف حُمِّل الهواء بنسائم العطور. الخبز وحده قادر أن يحفظ لنا حياتنا، ولكن لاحظ أمر الفواكه الحلوة التي تَفيض من حضن الطبيعة. ألوان الزهور، جمال المشاهد، تغاريد الطيور، كلّها تُظهر كيف تَفَضَّل الخالق العظيم بإشباع كلّ حاسة في الإنسان. ليس خطيئة أن يستمتع المرء بهذه العطايا من السماء، ولكن سيكون من الحماقة أن يسدّ المرء بالأسداد على روحه أمام سحرها»[١].

إنّ التصوّر الكوني الإيماني يدفع النفس أن ترقب في الكون معاني الجمال والجلال؛ إذ إنّ الجمال تعبير عن معاني الكمال في الذات الإلٰهية، والنفس المؤمنة ترجو ـ لذلك ـ أن ترى في خلق الله مظاهر الجمال التي تعكس بعض الجمال الإلٰهي. قال الإمام (ابن القيم): «ومن أسمائه الحسنى: الجميل، ومن أحقُّ بالجمال ممن خلق كل جمال في الوجود؟! فهو من آثار صنعه؛ فله جمال الذات، وجمال الأوصاف، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء؛ فأسماؤه كلّها حسنى، وصفاته كلّها كمال، وأفعاله كلّها جميلة... فإنّ العبدَ يترقّى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات، فإذا شاهد شيئًا من جمال الأفعال؛ استدلّ به على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات»[٢].

ثم إنّ المؤمن بالله يعلم أنّ كمال الله ظاهر في عظيم رحمته؛ ولذلك يرجو أن يقرّب الربّ الجنّة إلى عباده بتذليل سبل النجاح في امتحان الإيمان. ولعلّ أعظم دليل عليه هو مظهر الجمال في مصنوعاته؛ إذ الجمال دال على وجود الله وكمال كثير من صفاته البادية في رونق الخلق.

ولأنّ الخالق كامل، لا يُغلب على أمره، يدبّر الأمر كيف شاء؛ فإنّ النفس ترجو أن يكون الجمال في هذا الكون مهيمنًا على عالم المادة، وألّا

---

(١) Charles Haddon Spurgeon, Susannah Spurgeon, *C.H. Spurgeon's Autobiography: 1856 - 1878* (London: Passmore and Alabaster, 1899), 3/52.

(٢) ابن القيم، الفوائد (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م)، ص١٨٢.

يكون القبح إلّا الاستثناء؛ بل الاستثناء الدال على القاعدة؛ إذ يدلّ قصور البعض على براعة الباقي، فبضدّها تعرف الأشياء.

وأمّا الملحد ـ المدرك للوازم الإلحاد ـ فيرى أنّ من كمال العقل واستقامة الفكرة وصلاح المعتقد أن يخلوَ الوجود من الجمال؛ لأنّ الجمال فكرة ناشزة عن أصل العبث في كون موجود بلا مبدأ ويسير إلى غير غاية. إنّ آفاق المادة في عينَي الملحد يجب أن تنافر حقيقة الجمال؛ لأنّ الجمال (الموضوعيّ) موصول ضرورةً بالحكمة الأولى والغائية؛ ولذلك فالكون الإلحاديّ قبيح أو ميت بلا دلالة على جمال، وهو لا يغادر أحد مظهرين؛ فوضى عارمة أو تماثل بارد.

الطبيعة جميلة بصورة منتظمة في حين أنّ صنائع الإنسان يندر أن تكون جميلة في غياب القصد الفنيّ.

المطلب الثاني

لجَمَالُ الرّياضيُّ، معيارُ العِلْمِ

يُعدُّ الجَمَالُ في الصياغةِ الرياضيّةِ للكونِ من أبرزِ المعالِمِ الكونيّةِ المنافرةِ للتصوّرِ الإلحاديّ لركاميّةِ المادةِ والطّاقةِ. وقد نَبَّهَ إلى الحقيقةِ الرياضيّةِ البارقةِ للجَمَالِ، الفيلسوفُ اليونانيّ (فيثاغورس) ـ أَحَدُ أعلام الفلسفةِ اليونانيّةِ وأكبرُ علماءِ الرياضيات في تاريخِ اليونانِ القديمِ ـ منذ زمنٍ بعيد..

ويعدُّ تطوّرُ العلومِ الفيزيائيّةِ منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتطوّر فيزياء الكمِّ بِغَوْصِها في عالم ما تحت الذّرّةِ، وتوسّع علم الكوسمولوجيا في فَهْمِ النّسيج الكونيِّ الكُبْرويّ، بابًا عظيمًا لكشفِ معانٍ من الجَمَالِ رائقةٍ في الهندسةِ الرياضيّةِ للوجودِ. وقد أُلّفَتْ في ذلك كتبٌ ومقالاتٌ، من أهمّها كتاب (فرانك ويلكزك)[1] الفيزيائيّ الحائز على جائزة

---

(١) فرانك ويلكزك Frank Wilczek (١٩٥١ـ): عالِمُ فيزياء نظرية أمريكيّ. أُستاذُ الفيزياء في «Massachusetts Institute of Technology».

نوبل سنة ٢٠٠٤م: «سؤالٌ جميلٌ: الكشفُ عن الجَمَالِ العميقِ للطّبيعةِ»[١].
وقد أَكَّدَ فيه حقيقةَ التّنَاظُرِ في الكونِ، وهو المَلْمَحُ الذي انْتَبَهَ إلى غرابتِه كثيرٌ من الفلاسفةِ القدماءِ والفيزيائيّين المعاصرين.

ويخبرنا العلماءُ أنّ من أعظم معالِمِ يَقِينِنَا أنَّ فَهْمَنَا للعالَم موافقٌ لحقيقةِ العالم، أنْ تكون القوانينُ المكتشفةُ مُحلّاةً بطابعِ الجَمَالِ. وذاكَ أمرٌ قد يفاجئُ القارئَ الّذي لم يمارس البحثَ عن النُّظمِ النّاموسيّةِ الحاكمةِ لِبِنْيةِ الكونِ في الأقسامِ العلميّةِ التّخصّصيّةِ، لظنّه أنّ العلمَ الطبيعيَّ قائمٌ على القياسِ المِسْطريِّ لأشياء العالَم، لكنّه أمرٌ معلومٌ مشهورٌ بين العلماء المنظّرين الكبار على اختلاف خلفيّاتهم العقديّةِ والثقافيّةِ.

وفي ذلك يقول الفيزيائيُّ (بول ديفيس): «**الاعتقادُ السّائدُ بين العلماءِ** أنَّ الجَمَالَ هادٍ موثوقٌ للحقيقةِ، وأنّ كثيرًا من التقدُّم الحاصلِ في الفيزياءِ النظريّةِ قد احتاجَ أناقةً رياضيّةً[٢] للنظريّةِ الجديدةِ»[٣]. ويُضيفُ: «أحيانًا عندما تكون الاختباراتُ المعمليّةُ صعبةً، تعدُّ هذه المعاييرُ الجَمَاليّةُ **أكثرَ أَهمّيّةً من التّجربةِ**»[٤].

و(لأينشتاين) عبارةٌ لامعةٌ يقول فيها: «النظريّاتُ الفيزيائيّةُ الوحيدةُ التي نحن على استعدادٍ لقبولها هي النظريّاتُ الجميلةُ» «The only physical theories that we are willing to accept are the beautiful ones»[٥].

أما عالِمُ الفيزياءِ النظريّةِ (جون بولكينجهورن)، فيقول عن جَمَالِ الرياضياتِ التي تحكم عالَمَ الفيزياءِ: «نحن نعيشُ في عالَم يتمتَّعُ نسيجُه الماديُّ بجَمَالٍ عقلانيٍّ شفَّافٍ... **ليس هناك سببٌ مسبقٌ لوجوبِ ظهورِ المعادلاتِ الجميلةِ لتكون مفتاحَ فَهْمِ الطّبيعةِ**... لا يبدو أنَّهُ بالإمكانِ تفسيرُ

---

(١) A Beautiful Question: Finding Nature's Deep Design.

(٢) Mathematical elegance.

(٣) Paul Davies, *The Mind of God*, p175.

(٤) المصدر السابق.

(٥) E. Wigner, 'The Unreasonable Effectiveness of Mathematics in the Natural Sciences,' *Communications in Pure and Applied Mathematics*, vol. 13, No. I (February 1960).

ذلك بِعَدِّهِ صُدْفةً سَعِيدةً»[١].

إنَّ الجَمَالَ جُزءٌ أصيلٌ في بِنْيَةِ الكَوْنِ، لا يَنْفَكُّ عن نَسِيْجِهِ؛ ولذلك يَجِدُ العلماءُ أنفسهم ـ قَهْرًا ـ مُلْزَمِين بأَخْذِهِ بعين الاعتبار عند التعامل مع الوجود بأبعاده الأربعة، الطُّول والعَرْض والعُمْق والزَّمان؛ والجَمالُ بذلك بُعْدٌ خامِسٌ مُسْتَقِلٌّ، أو هو بُعْدٌ كامِنٌ في الْتِحامِ الأَبْعادِ الأَرْبعةِ. ولا يملِكُ العالِمُ بِحِسِّهِ الذي اكْتَسَبَهُ من التَّعاطي مع الطَّبيعة أَنْ يتجاهَلَ من الوجودِ ـ عند دراستِه ـ أَهَمَّ صِفاتِه، أو قُلْ: رُوْحَهُ.

قال (جورج ستانسيو)[٢] و(روبرت أوجروس)[٣]: «كُلُّ أكابِرِ الفيزيائيّينَ... يَتَّفِقُون أَنَّ الجَمَالَ هو المعيار الأَوَّلِيُّ للحقيقةِ العِلْمِيَّةِ»[٤].

المطلب الثالث

الجمال.. أصل العلم

ما أصل طلب العلم بالطبيعة المادية للعالم؟

يجيبنا عالم الرياضيات والفيزياء ـ الشهير ـ (هنري بوانكاري)[٥]: «العالِمُ لا يدرس الطبيعة لأنّه من المفيد القيام بذلك، وإنّما **يدرسها لأنه يستمتع بذلك، ويستمتع بذلك لأنّ الطبيعة جميلة**. لو لم تكن الطبيعة جميلة لما كان من المفيد معرفتها، ولا كانت الحياة تستحق أن تُعاش. أنا لا أتحدث ـ بطبيعة الحال ـ عن الجمال الصادم للحواس المتعلّق بجمال الصفات والمظهر، ولست أحتقر ذاك اللون من الجمال، ولكنّه جمال لا علاقة له

---

(١) Polkinghorne, *Belief in God in an Age of Science* (Harrisburg, Pa.: Trinity Press International, 1998), p.2.

(٢) جورج ستانسيو George Stanciu: عالمُ فيزياءٍ نظريّةَ أمريكيٌّ. عميدُ كليّة «ماجدلين». مهتمٌّ بفيزياء الكَمِّ.

(٣) روبرت أوجروس Robert Augros (١٩٤٣ـ): أستاذُ الفلسفةِ في كليّة القِدّيس «أنسلم». له عنايةٌ خاصّةٌ بمباحث العلمِ والجَمالِ.

(٤) Robert M. Augros and George N Stanciu, *The New Story of Science* (Toronto: Bantam Books, 1986), p.39.

(٥) هنري بوانكاري Henri Poincaré (١٨٥٤ ـ ١٩١٢م): أحد أعلام عصره في علم الرياضيّات. واسع الاهتمامات العلميّة والمساهمات البحثيّة.

بالعلم. ما أعنيه هو أن الجمال الأكثر حميمية هو الذي يَرِدُ من النظام المتناغم لأجزائه، والذي من الممكن للذكاء الخالص أن يرصده»[1].

وما ذكره (بوانكاري)، ليس كلامًا من نَحتِ الشعراء وإنّما هو سبيلٌ معرفيٌّ جاد للعلماء؛ فيحدّثنا (جيمس واطسن)[2] ـ عالم البيولوجيا الحاصل على جائزة **نوبل** ـ مثلًا ـ عن رحلته في الكشف عن تركيب الحمض النووي الصبغي (DNA) مع (فرنسيس كريك)؛ فيذكر أنّ فريقه العلميّ حاول مع فرق أخرى البحث عن شكل الحمض النووي الصبغي، ولم يُرضه شيء مما قيل حتّى وقع في ذهنه الشكل الحلزوني المزدوج، فقال: «... فاجتمعنا في الغداء، ونحن نقول بعضنا لبعض: إنّ شكلًا بهذا الجمال لا بدّ أن يوجد». ولمّا قارن (واطسن) مع بقية العلماء الشكل الذي اهتدوا إليه رياضيًّا، بما أثبتته الأشعة، اكتشفوا أنّ اهتداءهم بالجمال قادهم إلى الحقّ[3].

وقريب من ذلك ما كان مع عالم الفيزياء النظريّة والرياضيات (هيرمان فايل)؛ فقد كان من الذين يصرّحون أنّ غايته من أعماله العلميّة التوفيق بين الجمال والحقيقة، وأنّه إذا بدا له تعارض ظاهري بينهما، أخذ بالجمال على حساب الظواهر العلميّة؛ يقينًا في طابع الجمال في البناء الكوني؛ وشاهدُ ذلك من حياته العلميّة ما كان في أبحاثه الخاصة في نظريّة الجاذبيّة كما دوّنها في مؤلّفه «Raum-Zeit-Materie»[4]؛ فإنّه لم يكن مقتنعًا أنّ نظريّته صحيحة، لكنّه لم يكن يرغب في التخلّي عنها لجمالها؛ فاحتفظ بها لطابع الجمال فيها؛ ثم تبيّن لاحقًا صدق حَدْسِ (فايل)؛ فقد أُلحقت نظريّته بكهروديناميكا الكم[5].

---

(١) "Le savant n'étudie pas la nature parce que cela est utile; il l'étudie parce qu'il y prend plaisir et il y prend plaisir parce qu'elle est belle. Si la nature n'était pas belle, elle ne vaudrait pas la peine d'être connue, la vie ne vaudrait pas la peine d'être vécue. Je ne parle pas ici, bien entendu, de cette beauté qui frappe les sens, de la beauté des qualités et des apparences; non que j'en fasse fi, loin de là, mais elle n'a rien à faire avec la science; je veux parler de cette beauté plus intime qui vient de l'ordre harmonieux des parties, et qu'une intelligence pure peut saisir." Henri Poincaré, *Science et Meìthode* (Paris: Flammarion, 1947), p.15.

(٢) جيمس واطسن James Watson (١٩٢٨ـ): عالم بيولوجيا جزيئية وجينات أمريكيّ.

(٣) James D. Watson, *The Double Helix: A Personal Account of the Discovery of the Structure of DNA* (New York: Atheneum, 1968), p.131.

(٤) «المكان، الزمان، المادة».

(٥) S. Chandrasekhar, *Truth and Beauty: Aesthetics and motivations in science* (Chicago; London: University of =

ويشير العلماءُ عادة إلى أنّ طابع البساطة من أهمِّ معالم فَكِّ نسيجِ الكونِ لِفَهْمِ قوانينِه، والبساطةُ نقيضُ الفوضى. وأَعْجَبُ شيءٍ أن تنشأ البساطة من حَدَثٍ وُصِفَ أنّه انفجارٌ تَبَعْثَرَتْ بعدَهُ طاقةُ الكونِ مع تَمَدُّدِ الكَوْنِ.. وكيف تنشأ البساطة من الفوضى؟ أَلَيْسَت الفوضى مقدِّمةً لفوضى أَعْظَمَ وأَشَدَّ؟!

وفي البسَاطةِ جَمَالٌ وجاذبيّةٌ خافتةٌ وماتعةٌ، ففيها الأَناقةُ والنَّقَاءُ؛ وهي صفة صميميّة في هذا الوجود الشائق، وهي بذلك تُصادِمُ مظاهرَ البَعْثَرَةِ القَلِقَةِ، والتّعقيدِ الـمُزْعِجُ، والزّيادات الشّائهة؛ يقول الفيزيائيّ **الملحدُ** (واينبرج): «توجَدُ البساطةُ [في قوانين الكون]، وهي صفةٌ **جميلةٌ**، ونجدها في القوانين التي تحكُمُ المادّةَ التي تعكس شيئًا كامنًا في البناء المنطقي للكون في مستوى عميق جدًّا»[١].

والصفة الثانية التي تبثّ في جنادل القوانين الطبيعيّة روح الجذب؛ لتجعل ممارسة العلم والشوق إليه ممزوجة بحلاوة الفكر، ما في الكون من تناسق بين أجزائه الكثيرة، والمتنوعة، والمتقابلة أحيانًا، حتّى قال «أينشتاين»: **«دون الإيمان بالتّناغم العميقِ في الكونِ، لا يمكن أن يُوجدَ العِلمُ»**[٢]. ومن أظهرِ أوجهِ التّناغمِ والتّناسقِ، ظاهرةُ التَّنَاظُرِ (symmetry) في الكونِ، والمجرّةِ، والمجموعةِ الشمسيّةِ، والأرضِ، والكائناتِ الحيّةِ، والذّرّةِ؛ حتّى قال الفيزيائيُّ الشهير (فرنر هايزنبرج): «تُشَكِّلُ خصائصُ التَّنَاظُرِ دائمًا **أَهَمَّ السّماتِ الأساسيّةِ** للنّظريّةِ العِلميّةِ»[٣]. فطبيعة التّناسقِ بين أبعاضِ الكونِ تُثِيرُ في النَّفْسِ شعورَ الرّهبةِ والإعجابِ، وتدفَعُ العقلَ لمحاولةِ فهمِ العالم البعيد من خلال العالمِ القريبِ، وتفسيرِ الظواهر المجهولةِ بالظّواهر المعلومة؛ إذ الكونُ مرآةُ بَعْضِهِ.

=Chicago Press, 1990), pp.56 - 66

(١) Steven Weinberg, *Facing Up* (Cambridge; London: Harvard University Press, 2003), p.24

(٢) Albert Einstein and Leopold Infeld, *The Evolution of Physics* (New York: Simon and Schuster, 1938), p. 313

(٣) Werner Heisenberg, *Across the Frontier* (New York: Harper and Row, 1974), p. 167

من أعظم دلائل الخَلْقِ والتَّصميم أن يكون كَوْنُنَا بهذا الجمالِ الدّافِقِ رغم أَنَّهُ نَشَأَ عن مُقدّمةٍ أُوْلى عنيفةٍ تُوصَفُ فيزيائيًّا أنّها «انفجارٌ».

المطلب الرابع

تغريدُ العصافير.. دراسةُ حالةٍ

من أَعْذَبِ مظاهرِ الجَمَالِ في عالم الطّبيعة جَمَالُ تغريد الطُّيور، والتّغريدُ مجموع أصواتٍ مُتَنَاغِمةٍ تبعثُ في النَّفْسِ الانشراحَ والمتعةَ. وقد يبدو الأمر في أوّلِ وَهْلَةٍ محضَ أَصْواتٍ مُتَتَابعةٍ يتفاعَلُ الإنسان معها إيجابيًّا لمجرّد تَرَدُّدِها، غير أنّ أهلَ التخصُّصِ في الأنغام وصناعة الألحان يخبروننا أنّ تعاطُفَنا الذي يَسْتَلِذُّ تغريداتِ الطُّيور سَبَبُهُ أنّ الطُّيُورَ تعتمد تقنياتٍ عالية في ترتيبِ الأصواتِ وتنظيمِها. وقد أَعَدَّ (أوليفييه مسيان)[1] ـ عالِمُ الطُّيور وأَحَدُ أكبرِ الـمُلَحّنِينَ في القرن العشرين ـ قِطَعًا موسيقيّةً على البيانو بعنوان (كتالوج طائر)[2]، وهي قائمةٌ على تغريداتِ مجموعةٍ من الطُّيورِ مثل (alpine chough) و(golden oriole) و(tawny owl) و(rock thrush) و(buzzard) و(reed warbler)...

وكتبَ (مسيان) عن تغريد الطُّيور: «لقد أدركْتُ حقيقةَ أنّ هناك أشياءَ كثيرةً لم يخترعها الإنسان، وأنّ هناك أشياءَ كثيرةً في الطبيعةِ موجودةٌ ببساطة حولنا. والإشكالُ في أمرها أنّ أحدًا لم يَهْتَمَّ بها. يتحدَّثُ البشرُ عن جداولَ (modes) وسُلَّمٍ موسيقيٍّ: الطُّيورُ لديها مَوَازينُ وسائِطَ. هناك الكثيرُ من الحديث عن تقسيمِ فَتَرَاتٍ نَغَمِيَّةٍ صغيرةٍ: الطُّيورُ تُغنّي هذه الفواصل»[3].

تقوم الطُّيورُ بتقديم نوعَيْنِ من الأَصْوات، نداءات وأغانٍ. النداءات قصيرة وبسيطة وغايتها إبلاغ رسائل بسيطة كتقديم رسائل تحذير أو إظهار

(١) أوليفييه مسيان Olivier Messiaen (١٩٠٨ ـ ١٩٩٢م): فرنسيٌّ. عازِفُ أرغن واختصاصيّ عِلْم الطُّيُورِ.

(٢) Catalogue d'Oiseaux.

(٣) Information sheet accompanying the CD by Martin Zehn (Piano), *Catalogue d'oiseaux*, Art Nova Classics, 2000.

الجزع، وأمّا التّغريداتُ فهي أبلغُ من ذلك. ورغم أنّه قد يبدو أنَّ التغريداتِ علاماتٌ موسيقيّةٌ مبعثرةٌ، إلَّا أنّ الموسيقيّين والمختصّين في أصواتِ العصافيرِ يشهدون بضدِّ ذلك.

كما كشفَ المختصُّون في أصواتِ العصافير أنّ هذه الطُّيورَ قادرةٌ على إعادة التّغريدةِ بالنُّوتات نفسِها بعدَ مُدَّةٍ طويلةٍ من تغريدتها الأُولى؛ بل وقادرةٌ على تَعَلُّم تغريداتِ طيورٍ أُخرى. ومن عجائبِ الطُّيور قدرةُ بعضِها على إحداثِ صَوْتَيْنِ مختلفَيْنِ معًا من خلالِ مجموعتَيْنِ من الأغشيّةِ، مثل طائِر هازجةِ البطائِحِ، على خلاف الإنسانِ الذي يملك مجموعةً واحدةً فقط. ويُعتبر اتّصالُ مجموعتَيْنِ من الأَغْشِيَةِ مع الدّماغ بصورةٍ منفصلةٍ، وقُدرةُ الطَّائرِ على تقديم نُوْتَتَيْنِ معًا، عجيبة بيولوجية لا يمكن تفسيرُها وفق نظريةٍ تطوريّةٍ لبناءٍ غير قابلٍ للتّبسيطِ، ولا سبيلَ للانتخابِ الطّبيعيِّ أن يفسّر بُزُوغَهَا التدرُّجِيَّ. كما اعترفَ (و.هـ. ثورب) ـ أحدُ أهمِّ العلماء المختصّين في تغريدِ الطُّيور ـ أنّه «من الصَّعْبِ تَصَوُّر أيِّ سَبَبٍ انتخابيٍّ للنَّقاء العالي لبعض نُوتاتِ العَصَافيرِ»[1].

ومن عجائبِ الطُّيورِ، قُدرتُها على تقديم تغريداتٍ ثنائيّةٍ بين الذَّكَرِ والأُنْثى، أو بين ذكرَيْنِ أو أنْثَيَيْنِ؛ بل وحتى التغريد الرّباعيّ بين أربعةِ طُيورٍ. وهذا التّغريدُ الأوركستريّ لا يُحْسِنُهُ إلَّا المتمرّسون به من البشرِ.

وقد حاول التطوريُّون ردّ ظاهرةِ الغِناء الجميلِ عند الطُّيورِ إلى حاجة الطُّيور إلى الحفاظ على ما تملكه من أرضٍ أو عُشّ، وهو ما يمنع صراعات الطُّيور ويمنحها فُرَصًا معيشيّة كُبرى، ولكنّه تفسيرٌ متهافِتٌ وقاصِرٌ لأنه لا يفسّر ظاهرة جَمَالِ التّغريدة وتعقيدها، ولا وجود حاسّة تذوّق الجَمَال عند الذّكر ومطلوبتِه الأُنثى. ثم إنّ الطّيرَ بإمكانه أن يحفظ عُشَّهُ بصوتِه المفزِعِ بصورةٍ كافيةٍ وناجعة؛ فلِمَ تَرَكَ الأَنْجَعَ إلى الأَبْعَدِ؟!

---

(1) Cited in: S. Burgess, *Hallmarks of design: Evidence of purposeful design and beauty in nature* (Leominster, UK: Day One Publications, 2002), p.113.

المبحث الثاني

الجَمَالُ يَتَحَدَّى الاختزالَ المادِّيَّ

تُلْزِمُ قداسةُ التّفسيرِ المادّيِّ في عامّةِ المنظومات الفكريّة المعاصرةِ أَنْصارَ الفِكْرِ الاختزاليِّ بإِنْكَارَ الوجودِ الموضوعيِّ للجَمَالِ، ورَدِّهِ إلى طبائِعَ نفسيَّةٍ لها جذورٌ أُوْلى في التطوّرِ البيولوجيِّ الأَعْمى على مدى ملايين السِّنين من النَّسْخِ، والخطأ، والتَّصْفِيَةِ، والتَّرَقّي.. فما هو واقِعُ هذا الاعتراضِ، وما مبلغُ إنصافِه للحقّ؟

المطلب الأول

هل الجمال في عَيْنِ الرَّائي أم هو حقيقةٌ موضوعيّةٌ؟

لم يَمْنَعْ ظُهورُ الجَمَالِ في كُلّ أُفُقٍ رَدَّ الملاحدةِ دلالَتَهُ على البديع الجَمِيلِ؛ إذ أَقَرُّوا بظاهر الجَمَالِ، ولكنْ نَسَبُوهُ إلى عين الرَّائي، أو كما يقول المثل الإنجليزيُّ الذَّائع: «الجَمَالُ كامِنٌ في عَيْنِ النَّاظِرِ» «Beauty is in the eye of the beholder»؛ فالجَمَالُ بذلك ليس حقيقةً موضوعيّةً قائمةً خارجَ ذاتِ الرَّائي، وإنّما هو مَحْضُ شُعورٍ خاصٍّ وذَوْقٍ شَخْصيٍّ يعود إلى حصيلةٍ ثقافيّةٍ صَنَعَتْهَا البيئةُ والتربيةُ والبناءُ البيولوجيّ. يقول (هيوم): «ليس الجَمَالُ صِفةَ الأشياءِ نَفْسِها. إنَّهُ يوجد فقط في العَقْلِ الذي يُفَكِّرُ في هذه الأشياء. وكُلُّ عَقْلٍ يَنْظُرُ إلى جَمَالٍ مختلِفٍ»[1]؛ فالجَمَالُ رُؤيةٌ ذاتيّةٌ لا يراها غيرُنَا لأنّنا **نَصْنَعُ شُعورَ الجَمَالِ في ذواتنا ولا نَكْتَشِفُ حقيقته خارجنا**؛ فالجَمَالُ مظهرٌ

(١) David Hume, *On the Standard of Taste, in Essays and Treatises on Several Subjects* (London: T. Cadell, 1784) 1/244 - 245.

علائقيٌّ بين الإنسانِ والشَّيء، وحالٌ نفسيّةٌ خاصّةٌ لا رصيدَ لها خارجَ الذَّوْقِ الذّاتيِّ، ولولا وجودُ الإنسان لم يَكُنْ هناك جَمَالٌ ولا قُبْحٌ، ولا حَقٌّ، ولا باطِلٌ.

تلك نظرةُ «الذّاتيّين» الذين يُنكِرُون أن يكون للجَمَالِ وجودٌ حقيقيٌّ، ولكنّنا نَجِدُ أنفسنا تَصْرُخُ أنّها دعوى منهم مُخاصِمَةٌ للبَدَاهَةِ؛ إذ إنَّ مَنْ يقولُ: إنّ هذه الزَّهْرَةَ جميلةٌ؛ يَصِفُ ما يراهُ، ويتفاعَلُ انطباعيًّا مع حقائقِ موجودٍ خارجيٍّ، ولا يَصِفُ شُعوره بالجَمَالِ.. فالجَمَالُ حقيقةٌ قائمةٌ حتى لو لم يوجد إنسان لِيَلْحَظَهُ، والجَمَالُ أَفْضَلُ من القُبْحِ حتى لو لم يوجد إنسانٌ لِيُعْلِنَ هذا الحُكْمَ.

ولكنْ ما دليل ذلك؟

إنَّ العادةَ التي تَحْكُمُ أفكارَنا ومواقفنا القِيَمِيّةَ كُلَّها هي أنّ الأشياءَ على ما تبدو عليه حتّى يَظْهَرَ خلافُ ذلك، وذاك ما يَصِفُهُ (سوينبرن) بقوله: «إنَّهُ مبدأٌ عقليٌّ أساسيٌّ، وهو الذي أُسَمِّيْهِ «مبدأ المبادرة إلى التَّصديقِ» «the principle of credulity»؛ أي: أَنَّهُ علينا أن نُصدِّقَ أنَّ الأشياء على ما تبدو عليه (بالمعنى المعرفي) حتّى توجد عندنا حُجّة أنّنا مخطئون»[(١)]. ووَعْيُنا بالجَمَالِ يُخبرنا دائمًا أنَّ الجَمَالَ وجودٌ خارجيٌّ مستقِلٌّ بنفسِه عنّا، والانصرافُ عن ذلك يحتاج برهانًا.

إنَّ الجَمَالَ حقيقةُ الوجود الخارجيِّ؛ إذ إنّه يَصْنَعُ من قِطَعِ الوُجودِ المتناثرةِ صورةً كونيّةً رائقةً؛ لينتهيَ بالإنسان إلى حالٍ من المتعة تأثُّرًا بطبيعةِ تناغمُ ما يرى أو يسمعُ. يقول (غوليلمو ماركوني)[(٢)] الحائزُ على **جائزة نوبل** للفيزياء: «الوَحْدَةُ المتناغِمَةُ للقضايا والقوانين تُشَكِّلُ الحقيقةَ؛ الوَحْدةُ المتناغِمةُ من الخُطوطِ والألوانِ والأصواتِ والأفكارِ تُشَكِّلُ الجَمَالَ، في حين أنَّ الانسجامَ بين العواطفِ والإرادةِ يُشكِّلُ الخيرَ، وهو الذي يدعو الإنسانَ

(١) Richard Swinburne, *Is There a God?*, p.115.

(٢) غوليلمو ماركوني Guglielmo Marconi (١٨٧٤ ـ ١٩٣٧م): مخترعٌ إيطاليٌّ. أحد المساهمين في اختراع الراديو والتلجراف اللَّاسلكي.

إلى طلبِ الاكتمالِ ويقودُه إلى البحثِ عن الكَمَالِ المطلَقِ بما يُمثّله من تعبيرٍ نهائيٍّ للخالقِ الأزَلِيِّ والأعْلى»[١].

والجَمَالُ ـ كما يقول (ديفيد بوم) ـ أَحَدُ أكبرِ عُلماءِ فيزياء الكَمِّ في القرن العشرين ـ: ليسَ حالةً ذَوْقيّةً شخصيّةً، وإنّما هو حالٌ ديناميكيّةٌ، فَأَيُّ عملياتٍ متطوّرةٍ تشمل النّظامَ والتركيبَ والكليّاتِ المتناسِقة، هي التي تقتضي منّا استعمالَ لُغةٍ جديدةٍ موضوعيّةٍ تُعبّر عن حقيقة الجَمَالِ؛ إذ إنَّ إدراكَنا للجَمَالِ ليس ذاتيًّا بصورةٍ تامّةٍ[٢].

والواحِدُ منّا حين يرى شيئًا جميلًا، لا يقول ببرودٍ: «هذا الشَّيءُ يُثيرُ في نفسي المتعةَ والنَّشوةَ، وإنْ كان بلا قيمةٍ جَماليّةٍ في ذاتِه!». إنَّ التعليقَ السَّابِقَ لا يَقَعُ في الخَلَدِ ونحن نتأمَّلُ بقلبٍ مُفْعَم بالإعجابِ فراشةً أو طاووسًا أو طائِرَ الطّوقان. إنَّ جوابَنا حاضِرٌ على طرفِ اللِّسانِ إذا سُئِلْنا عن سِرِّ هذا الإعجابِ، وهو الإشارةُ إلى صفاتِ ما نراهُ؛ الشَّكْل، واللَّوْن، والتَّنَاغُم بين المَظْهَرِ والوظيفةِ... إنَّنا لا نشير إلى شُعورنا إلَّا لبيانِ حقيقةِ أَنَّهُ أَثَرٌ لمشاهدةِ الشَّيءِ الجميلِ، ولا نرى وجودَ طابَعِ الجَمَالِ في الشَّيءِ رَهينَ حضورِنا؛ فالجَمَالُ قائمٌ هناك، وهناك كُنَّا لِنَشْهَدَهُ.

كما أنَّ من يستشعِرُ جَمَالَ شيءٍ، لا يُحِسُّ في نفسِه أنّه يندفِعُ إلى هذا الشُّعور بِوَعْيٍ، وإنّما يَدْهَمُهُ هذا النَّبْضُ المفاجِئُ حتّى يَتَمَلَّكَهُ؛ فالوَعْيُ لا يَصْنَعُ الجَمَالَ، وإنّما اكتشافُنا للجَمَالِ هو الذي يُحدِثُ وَعْيَنا بِهِ.

والحقيقةُ التي تَقِفُ فوق الجَدَلِ المتكثِّرِ بالألفاظِ والشُّكوكِ هي أنّنا في حياتنا اليوميّة نَأْبى بصورةٍ قاطعةٍ أن نُصدّقَ الزَّعْمَ أنَّ الأشياءَ لا تتمايَزُ بينها، فَكُلُّها باهتةٌ بلا ذاتيّةٍ معبّرةٍ عن نفسِها، وما تتمايَزُ إلَّا بما تُلْقِيهِ أنظارُنَا إليها من طَيْفٍ ذَوْقيٍّ ذاتيٍّ.. إنّنا نرفُضُ عقيدةَ التَّماثُلِ، ونَكْفُرُ بها من أعماقِنا. وفي ذلك يقولُ أَحَدُ الكُتَّابِ: «أَنَا أُومِنُ أَنَّ الزُّهورَ جميلةٌ على الحقيقةِ، ولِذا

(١) Maria Cristina Marconi, *Mio Marito Guglielmo* (Milano: Rizzoli, 1995), p.260.

(٢) David Bohm, *On Creativity*, Lee Nichol, ed. (London; New York: Routledge, 1998), pp.ix-x.

فَجَمالها له واقِعٌ موضوعيٌّ. إنْ لم يكن الأَمْرُ كذلك؛ فالوَرْدُ عندها لا يملك جَمَالًا أكثرَ واقعيّةً من قِطْعةٍ من الفَحْمِ أو مِسْمارٍ صَدِئٍ. ومع ذلك، لديَّ كُل الأسبابِ التي تجعلني أَعْتقِدُ أنَّ الوَرْدَ أكثرُ جَمَالًا من غيرِه»[1].

إنّ العِلمَ بالجَمَالِ مشروطٌ بملابساتٍ تُظْهِرُ إشراقَهُ أو غيابَ ما يمنعُ العَيْنَ من الإحساسِ بعذوبَتِهِ وإدراك جَمِيلِ مَلْمَحِهِ. وقُصورُ عينِ الرّائي عن إدراكِ جَمَالِ الجميل يُظْهِرُهُ عَجْزُ مَنْ يُعاني عَمَى الألوانِ أنْ يرى بهاءَ لوحةِ فسيفساءَ مُتعدّدةِ الألوان؛ فَعَجْزُهُ عن رؤيةِ بعض لونها يُذْهِبُ بهاءَ كامِلِ الصُّورةِ في ذِهْنِهِ.

إنّ الإحساسَ بالجَمَالِ يحتاجُ نَفْسًا حَسَّاسةً، قابلةً للنَّقْشِ على صفحتها؛ وكُلَّما كانت في القلبِ غِلْظةٌ وشِدَّةٌ عَسُرَ على الجَمَالِ أن يَنْشُرَ على القلبِ نُورَهُ وأنْ يبسُطَ على صَفْحَتِهِ عَسَلَهُ. واللَّذَاذَةُ أَصْلُ الوَعْيِ بالجَمَالِ. ولذلك لا بُدَّ أن نميّز بين وُجودِ القِيْمةِ، والإحساس بها؛ فإنّهما لا يلتقيان ضرورةً؛ واجتماعُهُما رَهينُ توفّرِ الحساسيّة المعرفيّة أو الذَّوقيَّةِ.

وإنَّ السَّبَبَ الأوّلَ لافتقادِ حِسِّ الجَمَالِ، تَضَخُّمُ حِسِّ البَلَادَةِ، وراء الإلفِ والعادة؛ فلا يَهْتَزُّ الرّائي لِمَا أَلِفَهُ، ولا يندهِشُ لما يُحرّكُ الغريبَ أمام روعةِ الجَمَالِ التي تُثِيرُ عادةً الانْبِهار والذُّهول. كما أنّ الإنسان قد يفتقِدُ القُدرةَ على الإحساسِ بالجَمَالِ لأنّه لم يبلُغِ النُّضْجَ العقليَّ والنَّفْسِيَّ لِيَتَحَسَّسَ بأهدابِ الفُضُولِ والكَشْفِ ملامِحَ الجَمَالِ المحرّكةِ للسَّوَاكِنِ؛ فليس إحساسُ الطِّفْلِ أمام جَمَالٍ مُرَكَّبٍ دقيقِ الحواشي كإحساسِ المجتهد في صناعةٍ مثيلٍ له، والمدرِك لمخالفته سُنَنَ المألوفِ.

ومن أَيْسَرِ طُرقِ العلمِ بفسادِ المذهبِ الذاتيِّ للجَمَالِ الحُكْمُ على المظاهرِ الجَمَاليّةِ عند مقارنتها بما لا يزعم أحدٌ جمالَهُ؛ خُذْ مَثَلًا مَظْهرًا من مظاهر الفنِّ الإسلاميِّ، كقُبَّةِ مَسْجِدٍ أَنْدَلُسِيٍّ تَغْمُرُها خطوطٌ مُنْتَظَمةٌ لأشكالٍ هندسيّةٍ متنوّعةٍ على نَمَطٍ مُتَنَاظِرٍ، تَتَوَسَّطُها آياتٌ قرآنيّةٌ ذاتُ خطٍّ تنتهي حروفُه

(١) Antony Latham, *The Naked Emperor: Darwinism Exposed* (London: Janus, 2005), p. 157.

بما يشبهُ أوراقَ الشَّجَرِ، ثم خُذْ ورقةً بيضاءَ، وأَعْطِها لطفل صغير يرسم عليها ما شاء لينتهيَ إلى خطوطٍ متعرّجةٍ لا توحي بشيء. والآن اسألْ نفسَكَ: هل «شَخْبَطَةُ» الطِّفْلِ تُساوي جماليًّا المنظرَ الفنيَّ في قُبَّةِ المسجدِ؟ وهل الفارِقُ بينهما قاصِرٌ على جانبِ الإحساسِ الذاتيِّ فيكَ؟ أم أنَّ هناك فارقًا بين المنظرَيْنِ لطبيعةِ الجَمَالِ في خطوطِ سَقْفِ المسجد يخلو منها الخَطُّ المتعرّجُ لهذا الطِّفْلِ؟! الجوابُ كامنٌ في بداهةِ معرفتنا بالحُكْمِ في مثل هذه المواقفِ.

وقولنا في الجَمَالِ كقولنا في القُبْحِ؛ فإنّنا نَعزُو كثيرًا ممّا نَسْتَقْبِحُهُ إلى اختلالِ شَكْلِهِ، أو سوءِ ترتيبِ أَلْوانِهِ، أو عَدَمِ اتِّساقِ خُطُوطِهِ أو حُدُودِهِ؛ وتلك أوصافٌ في الشيءِ، قائمةٌ به، وليست انعكاسًا لمحض الشُّعورِ على الشَّيء.

وإذا كان الجمالُ صَنْعَةَ الذَّاتِ الرَّائيةِ ـ كما يقول الذّاتيُّون ـ؛ فلِمَ اتَّفَق البشرُ على اختلافِ ثقافاتهم وعصورهم على إكبارِ الجوانبِ الجَمَاليّةِ في أعمالٍ فنيّةٍ قديمةٍ لا تزال تفرِضُ سلطانها على النَّاسِ؟! هل من الممكن رَدُّ هذا الاتّفاقِ إلى مَحْضِ الصُّدفةِ؟! ولكن لِمَ تَتَكَرَّرُ الصُّدفةُ مع هذه الأعمال الشَّهيرة؟! بل هل للصُّدفةِ قدرةٌ تفسيريّةٌ؟!

والحِسُّ الجَمَاليُّ في الإنسان راسخٌ في نفسِه، منذ وَعْيِه بالعالَم؛ فقد دَلَّتْ دراسةٌ لباحثٍ نفسيٍّ من جامعة «إكستر» أنّ في المواليدِ الجُدُدِ الذين لم تتجاوزْ سِنُّهُم الأُسبوعَ وَعْيٌ أصيلٌ بالأشياء الجذَّابةِ، ولذلك يُفَضِّلُون الأشخاص الجميلين[1]؛ فهو وَعْيٌ عميقٌ يَهْتَزُّ بِرَنِينِ الجَمَالِ الخارجيِّ.

ومن مظاهرِ يَقِيْنِنَا بموضوعيّةِ الأَخلاقِ، حرارةُ حديثنا في الحُكْمِ الجَمَاليِّ على ما نرى أو ما نسمعُ؛ إذ إنّنا نُجادِلُ غيرَنا لإقناعِهِ صِدْقَ مَذْهَبِنا في القيمةِ الجَمَالِيّةِ العاليةِ لمظاهرِ الطَّبيعةِ أو النُّقوشِ أو اللَّوحاتِ الزيتيّة التي تُعبِّرُ عن هذه المناظر، وَنَتَّهِمُ مَنْ لا يشاركنا مذهَبَنا أنَّهُ ضعيفُ الإحساسِ بالجَمَالِ ومَرَائِيهِ؛ فالجَمَالُ حقيقةٌ موضوعيّةٌ قائمةٌ خارجَ ذَوَاتِنَا تَدْفَعُنَا قَسْرًا إلى أن نَتَحَمَّسَ دفاعًا عنها أمامَ من يُنْكِرُ ذلك.

---

(١) Dean L. Overman, *A Case for the Existence of God* (Lanham: Rowman & Littlefield, 2009), p.57 - 58.

إنَّ الجَمَالَ ليس مَحْضَ انطباعِ المتعةِ بالتَّواصُلِ مع ظاهِرِ العالَم الماديِّ، وإنّما هو **طابَعُ الإمتاعِ في الشَّيْءِ نفسِه**؛ فطبيعةُ الإمتاعِ أصيلةٌ فيه. وأنْ نُدْرِكَ طبيعةَ الإمتاعِ في هذا الشَّيء أو لا ندركَ ذلك بسببِ آلاتنا الذوقيّةِ أو أَثَرِ الثّقافةِ، لا يُلْغِي أنَّ غيرَنا قد أصابَ في إدراكِ هذه الطَّبيعةِ الذاتيّةِ في الشَّيءِ؛ ولذلك لا يَجِدُ كثيرٌ من النَّاسِ حَرَجًا من إعلان عَجَبِهِمْ، وربّما انْزِعاجهم مِنْ عَدَمِ إعجابنا، وربّما انْبِهارِنَا بِجَمَالِ الغَزَالِ والطَّاووسِ وإشراقَةِ الفَجْرِ.

إنَّ اختلافَ النَّاسِ حول الحُكْمِ الجَمَاليِّ على أشياءَ معيّنةٍ، وتَنَازُعَهُمُ الشَّديدَ في ذلك، وحماسَتَهم لتخطئةِ بعضِهم؛ برهانٌ أنّهم يؤمنون أنّ الجَمَالَ حقيقةٌ قائمةٌ في الشّيءِ، وأنّه ليس مَحْضَ خاطرٍ ذَوْقيٍّ تَفْتَعِلُهُ النَّفْسُ دون حافزٍ خارجيٍّ حقيقيٍّ.

كما أنّنا إذا قلنا في شيء ما: إنّه غيرُ جميلٍ، ثمَّ غيَّرنا مَذْهَبَنا إلى الإقرار بجَمَالِه؛ فإنّنا لا نَرُدُّ ذلك إلى تحوّلٍ ذاتيٍّ خاصٍّ في أنفسنا، وإنّما نَرُدُّه إلى وَعْينا بِقِيَمٍ جَمَالِيّةٍ لم نَنْتَبِهْ إليها عند النَّظْرةِ الأُوْلى؛ فحقيقةُ الجَمَالِ كانت قائمةً في الشَّيء من قبلُ، غير أنَّنا لم نَعِ ذلك إلّا لاحقًا.

«عندما يقول المرءُ إنّ رسمًا ما جميلٌ والآخر قبيحٌ؛ فإنّه يقول شيئًا ما حولَ الرُّسومِ، شيءٌ ما من الممكن تفسيرُه والجدالُ حولَهُ ومناقَشَتُهُ. إنّه أيضًا أمرٌ ما من الممكنِ للنَّاسِ أن يكونوا فيه على صوابٍ أو خطأ»(١). الفيلسوف اللَّاأَدْرِيُّ (أنثوني أوهير)(٢).

ومن دلائلِ موضوعيّةِ الجمال استخدامُنا المشترك لمفاهيمَ جَمَاليّةٍ واحدةٍ، مثلَ أَوْصافِ: جميلٍ، ورائقٍ، ومبهجٍ، وأنيقٍ، وسامٍ، ومُثيرٍ... وما كان أن تكون لدينا فِكْرةٌ مشتركةٌ عن ما تَعْنِيهِ هذه المصطلحاتُ إذا كانت لا

---

(١) Anthony O'Hear, *Beyond Evolution* (Oxford: Clarendon Press; New York: Oxford University Press, 1999), p.128.

(٢) أنثوني أوهير Anthony O'Hear (١٩٤٢ـ): فيلسوفٌ بريطانيٌّ. أستاذُ الفلسفة في جامعة «Buckingham». المدير الفخريّ للمؤسّسة الملكيّة للفلسفة.

تدلُّ على شيءٍ موضوعيٍّ قائم خارج عَنَّا. إنَّ فَهْمَنَا المشترَكَ لمعاني هذه المصطلحاتِ الجَمَاليّة يدلُّ على أنها تَسْتَنِدُ إلى شيءٍ يَتَجَاوَزُ الاستجاباتِ الذَّاتيّةَ..»[1].

ومما يَنْقُضُ الزَّعْمَ أنّ اختلافَ الثقافاتِ في التقديراتِ الجَمَاليّةِ حُجّةٌ لذاتيّة الجَمَالِ، أنّ الثّقافات تؤثّر بعضها في بعض من جهة الذَّوْقِ الجَمَاليّ، أو اكتسابِ الشَّخصِ ذوقًا جَمَاليًّا إضافيًّا إذا غَيَّرَ بيئتَهُ، كاكتسابِ من ينتقِلُ للحياةِ في الصَّحراءِ إحساسًا بِجَمَالِ الجِمَالِ والسَّماءِ والواحةِ الظَّليلةِ... بل لنا أن نقولَ: إنّ اختلافَ الثقافاتِ في المعايير الجماليّة حُجّةٌ لموضوعيّةِ الجَمَالِ لا ضِدّها؛ إذ إنَّ الأُممَ تَتَخَالَفُ لاعتقادِ كُلٍّ منها أَنَّ ما هي عليه يُطابِقُ واقع الأمرِ، كما أنّ ما بين الأمم من اختلافاتٍ في التقديرِ الجَمَاليّ أقلُّ مما بينها من اشتراكٍ واسعٍ. والمشْتَرَكُ الجماليُّ مُحْرِجٌ بصورةٍ بالغةٍ لِمَذْهَبِ الذَّاتيِّين.

ومن الممكن تفسير اختلافَ الأممِ في المعاييرِ الجَمَاليّةِ باختلافِ طبائِع البيئاتِ (صحراء، غابات، سواحل...)، فلا يَضُرُّ ذلك أصلَ الاتّفاق بين البشرِ حول أمورٍ جَمَاليّةٍ كثيرةٍ؛ كجَمَالِ السَّماءِ، والحيواناتِ، والحَشَرَاتِ.. والملاحَظُ هنا أنّه كُلَّما تماثَلَت الظُّروفُ البيئيّةُ والمستوى المعرفيُّ (البداوةُ، الحياةُ الحضريّةُ...)، تماثَلَتْ أُصولُ المعرفةِ الجَمَاليّة وكثيرٌ من فُصولِها.. فَتَمَاثُلُ المستَثِيراتِ ومَلَكاتِ الإحساسِ بالجَمَالِ طريقٌ لاتّحاد الحُكْمِ الجَمَاليِّ، وذاك برهانُ الأَصْلِ الواحِدِ للحِسِّ الجَمَاليِّ وللموضوع الجَمَاليِّ، وهما حُجّةُ موضوعيّةِ الجَمَالِ.

ولا يُمثّل ازدهارُ مفهوم «الجَمَال الذّاتيّ» تهديدًا لحقيقةِ موضوعيّةِ الجَمَالِ؛ إذ إنّ نظريَّةَ الجَمَالِ قد عَرَفَتْ أَزْمَتَها الكُبْرى في زمن بعد الحَدَاثةِ ـ كما يقول (Wladyslaw Tatarkiewicz) في مقالِهِ «نظريّةُ الجَمَالِ العُظْمى

(١) James Spiegel and Steven Cowan, *The Love of Wisdom* (Nashville, Tenn: B&H Academic, 2009), pp. 432 - 433

وانحدارها» ـ مع ظهورِ أزمةِ مفهومِ الحقيقةِ نفسِها[1]. وأزمةُ مفهوم الجَمَالِ ليست خاصّةً بمعنى وجوديٍّ واحدٍ، وإنّما هي أَزْمَةُ كلِّ «حقيقةٍ»؛ فإنَّ عَقْلَ ما بعد الحداثةِ نِسْبِيٌّ حتى النُّخاعِ، يَكْفُرُ بكلِّ ثابتٍ؛ فكلُّ معنى هو في أُصولِهِ وتفاصيلِه رَسْمُ القراءة الذَّاتيّةِ بريشةِ الهوى والـمَيْلِ.

وقد عَبَّرَ الباحثُ العلميُّ (لويس توماس)[2] عن هذه الأزمةِ بقوله: «كيف آلَ الأمرُ بعامّة العلماء اليومَ أنْ يستحيلوا إلى مثل هذا الجُلْمودِ الجامدِ السَّاكنِ، يكتبون أوراقَهُم التَّأَمُّلِيَّةَ الباردة، كما لو كانت هذه التقاريرُ هي الحقائق المتوقَّعَةُ، والعاديَّةُ، والواضحة في هذه المسألة، بدلًا من المسارعة بمغادرة مختبراتهم إلى الشَّوارع مُعْلِنين بصوتٍ عالٍ ابتهاجَهُم بروعة الطّبيعة؟ لن أعرف أبدًا لِمَ هُمْ كذلك»[3].

وقد يعترض معترضٌ على أنصار الجَمَالِ الموضوعيِّ بقوله: إنَّ أذواقَ النَّاسِ تختلف في تقديرِ جَمَالِ الشَّيء، فما يراه قومٌ جَمَالًا قد يراه غيرُهم قُبْحًا، وما يراه القوم اليوم جَمَالًا، قد يَرَوْنَهُ غدًا صورةً باهتةً؛ فَتَغَيُّرُ الأَذْواقِ ـ بذلك ـ واختلافُها حُجّةٌ أنَّ الجَمَالَ لا يوجد إلَّا في عَيْنِ الرَّائي المتأثّر بمجموعةِ قِيمٍ نِسْبيّة لتقديرِ الجَمَالِ وعَدَمِهِ.

إنّ جواب المعترِضِ هو في بيان اللَّبْسِ الحاصلِ في النَّظَرِ إلى الجَمَالِ، وعلاقةِ ذلك بالذَّوْقِ؛ إذ إنّ هذا الاعتراضَ يتعلَّقُ بتقدير الجَمَالِ والإحساس به، ولا يتعلَّقُ بحقيقةِ الجَمَالِ ذاتِه، أو كما يقول (و. ر. سرلي)[4]: «يجب أن نميّز بين أَمْرَيْنِ: القيمة، والوعي بالقيمة؛ إذ إنَّهما لا يتلازمان ضرورةً»[5].

---

(١) Wladyslaw Tatarkiewicz, 'The Great Theory of Beauty and Its Decline', *Journal of Aesthetics and Art Criticism* 31 (1972 - 3): p.169.

(٢) لويس توماس Lewis Thomas (١٩١٣ ـ ١٩٩٣م): باحثٌ علميٌّ أمريكيٌّ. مكتشِفُ إحدى الخصائص المتميّزة لإنزيم «بابابين» الذي يساعد على هضم البروتيناتِ.

(٣) Cited in: Thomas Dubay, *The Evidential Power of Beauty*, pp. 72 - 73

(٤) و. ر. سرلي W.R. Sorley (١٨٥٥ ـ ١٩٣٥م): فيلسوفٌ اسكتلنديٌّ. درّس في جامعة كمبردج. له اهتمامٌ خاصٌّ بالفلسفة الأخلاقيّة.

(٥) W.R. Sorley, *Moral Values and the Idea of God*, p. 124.

ومما يؤكّد وجوب التّمييز بين الجمالِ الموضوعيِّ والوَعْي به، وجودُ حساسيةٍ أعلى للتذوّق الجَمَاليّ عند طائفةٍ مخصوصةٍ من النَّاس ممن لهم عناية بالمظاهر الجماليّة، وهي مَلَكةٌ تمَّ تطويرها عند هذا الفريق ـ بالدّراسة والتجربة ـ حتى استطاعت أن تشعر بقيمة الجَمَال ـ السَّاري في مقاطعِ الخطوطِ والألوانِ والأصواتِ والحركاتِ ـ، وإلزاميّة الانفعال الإيجابيّ في حضرته.

«عندما أتأَمَّلُ انبثاقَ الفَجْرِ؛ يُخيّلُ إليَّ من جَمَالِهِ ورَوْعتِهِ أنَّ الوجودَ في سُكُونِهِ وخُشُوعِهِ نَفْسٌ كُبْرى تَسْتَمِعُ مُصْغيةً إلى كلمةٍ من كلماتِ اللهِ لم تَجِئْ في صوتٍ ولكنْ في نُورٍ»[1]. (الرافعي).

المطلب الثاني

بُرهان الجَمَالِ وأَزمة التَّفسير الدَّاروينيِّ

يُقرِّرُ المذهبُ الداروينيُّ أنّ إكسيرَ الحياةِ ومحرّكَ الوجود الحيِّ موافَقَةُ الكائنِ الحيِّ لطبيعةِ البيئةِ التي يوجدُ فيها بما يضمنُ له أسبابَ التكيُّفِ والانتصارِ على عوامل الفَنَاء؛ ولأَجْلِ ذلك تقفُ الدّاروينيّةُ عاجزةً عن تفسير الظّاهرةِ الجَمَاليّةِ في الوجود الحيّ؛ فإنّ الجَمَالَ في جُلِّ صُوَرِهِ ليس ضمانةً للبقاء في ظِلِّ مفهومِ بقاءِ الأَصْلَحِ. وقد اخترعَ الدَّراونة مفهوم «الانتخابِ الجِنْسِيِّ»[2] لتفسير بقاءِ الصُّورِ الأَجْمَلِ للكائناتِ باختيارِ الأُنْثى لِلذَّكَرِ الأَجْمَلِ، لكنَّ هذا الزَّعْمَ فاقدٌ للأَصْلِ التَّفْسِيريِّ الأَوَّلِ لظاهرةِ التَّذَوُّقِ الجَمَاليِّ لدى إناث الحيوانات؛ فإنَّ حاسَّةَ التذوّقِ هذه تحتاج إلى آليّةٍ تَسْتَفِزُّهَا وتحدِّدُ اختياراتها.. وما هو أَعظمُ من ذلك هو أَنَّ الانتخابَ الجِنسيَّ لا يُفَسِّرُ ظُهورَ الجَميلِ والأَجْمَلِ ابتداءً.

وقد واجَهَ (داروين) مشكلةَ الجَمَالِ في ظاهرةِ بقاء الطَّاووسِ بِجَمَالِهِ

---

(١) الرَّافعي، أوراق الورد (د.ن.، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م)، ص٣٣.

(٢) Sexual selection.

الأَخَّاذِ دون أن تَكْنُسَهُ آلةُ الانتخابِ الطَّبيعيِّ خارج مجال الأحياء بسبب استفزازِ أَلْوانِهِ للكَوَاسِرِ التي تعيش على لحومِ أمثالِه؛ فَزَعَمَ أنَّ أُنْثى الطَّاووسِ تَخْتارُ بِذَائِقَتِهَا الجَمَاليَّةِ أَجْمَلَ الطَّواويسِ؛ ولذلك قاوَمَ الطَّاووسُ عوامِلَ الفَنَاءِ.

وهذا الرَّدُّ قاصِرٌ وساقِطٌ؛ ويَتَمَثَّلُ قُصورُه في أنَّ «الانتخابَ الجِنْسِيَّ» - إن صَحَّ تفسيرًا - يُفَسِّرُ بقاءَ الأَجْمَلِ ولا يُفَسِّرُ ظُهورَ الأَجْمَلِ، وقضيَّتُنا هنا ليست لِمَ عاش الطَّاووسُ الجميلُ؟ وإنّما لِمَ ظهرَ ابتداءً على هذا الشَّكْلِ البديعِ؟ وأمَّا سُقُوطُه فيعود إلى بحثٍ أَجراهُ مجموعةٌ من العلماء في اليابان رأَسَهُم (ماريكو تكهاشي) من جامعة طوكيو، وأثبتوا بعد دراساتٍ وأبحاثٍ متأنيّةٍ لِسَبْعِ سنواتٍ أنَّ إناثَ الطَّاووسِ لا تهتمُّ بِجَمَالِ الذُّكور عند التَّزاوج[1]، بما يُبْطِلُ وَهْمَ (داروين)، ويفتح في نظريَّتِهِ شَرْخًا جديدًا. ثمّ إنّ الحلَّ الذي أوردهُ (داروين) لم يَزِدْهُ إلَّا رَهَقًا؛ فهو قد أعربَ عن انْبِهَارِهِ بوجودِ حاسَّةِ تذوّقِ الجَمَالِ عند أُنْثى الطَّاووسِ[2]، لكنَّهُ لم يُفَسِّرْ لنا أصلَ القُدْرَةِ على تَذَوُّقِ الجَمَالِ في العَجْماواتِ، ولا هو قَدَّمَ داعي غَلَبَةِ الحِسِّ الجَمَاليِّ في الحيوان على ضرورةِ التَّمْويهِ (camouflage) لكي لا تكتشِفَ الحيواناتُ الأخرى هذا الكائنَ فَتَفْتَرِسَهُ، ولا طبيعة التَّعقيدِ الجماليِّ في الرِّيْشِ.

وما قَعَّدَهُ (داروين) يقِفُ ضرورةً ضدّ التّفسيرِ التطوّريِّ لظهور الجَمَالِ؛ فهو القائِلُ: «لا يُمكن للانتخابِ الطَّبيعيِّ أن يُنْتِجَ أيَّ تعديلٍ في نوعٍ حَصْرًا لمصلحةِ نوعٍ آخَرَ»[3]؛ فإنَّ افتراضَ نُمُوِّ الظاهرةِ الجماليّةِ في الطَّبيعةِ لا يَدْعَمُهُ حِرْصُ الكائنِ على تجميلِ نفسِه، ولا حِرْصُ الطَّبيعةِ على تَجْمِيلِه، وإنّما الأمر كما يَزْعُمُ (داروين) رهين مِزاجِ الأُنْثى التي تنتقي الأَجْمَلَ، فتَضْمَن له بذلك البقاء، وما تَرَكَتْهُ مَسَحَ الانتخابُ الطَّبيعيُّ أَثَرَهُ من الأرضِ.

---

(١) M. Takahashi *et al.*, in *Animal Behaviour 75(4):1209-1219, 2008*.

(٢) Darwin, *The Descent of Man*(London: John Murray, 1888), p. 349.

(٣) "Natural selection cannot possibly produce any modification in a species exclusively for the good of another species" Darwin, *On the Origin of Species*, p.183..

إنّ مزاجَ الأُنْثى أَضْعَفُ من أن يَشْرَحَ اتّساعَ مساحةِ الجَمَالِ في عالم الحيوانِ، ولا يُفسّره في بديعِ عالم النَّباتِ، ولا أَثَرَ له في عالم الفيزياء.. وأَحافيرُ عالَمِ الحيوانِ تَشْهَدُ ضِدَّهُ لأنّ طبقاتِ الأرضِ تشهدُ لِطبيعةِ الاستقرارِ في شكلِ الكائناتِ الحيّةِ، خاصّةً تلك التي حَفِظَتْ لنا الأرضُ أَجْزَاءَها الرِّخْوَة؛ فقد عَجِزَتْ ملايينُ السَّنواتِ أنْ تُغَيِّرَ هذه الكائناتِ من الجَمَالِ الأَدْنى إلى ما هو أَعْلى، ولا تَضُمُّ كتبُ البيولوجيا التطوّريةُ صُورًا ـ حتى من وَحْيِ الخيالِ الخصْبِ لمؤلّفيها ـ تَشْرَحُ بإفاضةٍ تَطَوُّرَ الجانبِ الجَمَاليِّ في هذه الكائناتِ.

إنّ الجَمَالَ ـ بهذه الكثافةِ ـ يَقِفُ في مواجهةِ واحدٍ من أهمِّ مبادئ الداروينيّة؛ وهو أنَّ الطّبيعةَ تنحو إلى الاقتصاد في سبيل إيجادِ أيّ شيءٍ ضروريٍّ للبقاء؛ فمطلوبُ التَّطَوُّرِ ـ عند الدَّراونةِ ـ هو في إيجادِ أَجْهزةٍ عُضويّةٍ تُقاوِمُ عوامِلَ الفَنَاءِ، ولكنَّ الطّبيعةَ تكشِفُ لنا توازنًا مُفاجِئًا بين الوظيفيَّةِ والجَمَالِ، و«استنزاف» طاقةِ الوجودِ لأغراضِ الزّينةِ البَحْتَةِ أو «المبالغة» في أَمرِ الزّينة بما يربو على الحاجات الأساسيَّةِ للبقاء، من الأمور التي تُصادِمُ الدَّاروينيّة..

ومن الظَّواهر التي تستعصي على التَّفسيرِ الدَّاروينيّ **كُلِّيَّةً** مظاهِرِ الجَمالِ على المستوى المجهريّ؛ فإنَّ عامِلَ الاصطفاءِ الطَّبيعيّ تَبَعًا لِـمَراحِلِ «الانتخاب الجِنْسِيِّ» لا يمكن أن يُحدِثَ أَثَرًا إيجابيًّا على مستوى ما لا يُدْرَكُ بالعَيْنِ المجرّدة، ولكنَّنا نَعْلَمُ يقينًا أنّ العالَمَ المجهريَّ طافِحٌ بالجَمَالِ الذي يَحْكُمُ بِنْيَتَهُ.

يقول الكيميائيّ (جيمي دافيس) واللَّاهوتيّ (هاري بو): «استعمَلَ العالِمُ الإنجليزيُّ روبرت هوك[١] (١٦٣٥ ـ ١٧٠٣م) المِجْهَرَ لاكتشافِ الطَّبيعةِ. وقد انْبَهَرَ هوك عند ملاحظتِه أَنَّ الطبيعة على المستوى المجهريِّ ليسَتْ فقط فاعلة،

(١) روبرت هوك Robert Hooke من أوائل من استعملوا المجهر الحديث لِغَرَضِ دراسة البيولوجيا. وهو الذي سمّى «الخليّة» بالإنجليزيّة «cell».

وإنّما هي أيضًا جميلةٌ؛ فقد أَبْهَرَتْهُ زخارِفُ قِشْرِ السَّمَكِ وعُيونُ الحَشَراتِ. لقد أَذْهَلَهُ أَنَّهُ تحت الـمِجْهَرِ تبدو صنائِعُ البَشَرِ (مثال: حَدَّ الشَّفْرة) غير مِثاليَّةٍ على خلافِ صنائع اِلطَّبيعة. بالنّسبة لهوك، **هذا الجَمالُ والكَمالُ يُشير إلى مُصَمِّمٍ**»[1].

الجَمَالُ في عالَمِ الـمِجْهَرِيَّاتِ عَصِيٌّ بصورةٍ كُليّةٍ على التَّفسيرِ الدَّارويني.

والتطوُّرُ العشوائيُّ عاجِزٌ أيضًا عن تفسير آليّةِ إدراك الجَمَالِ وتَذَوُّقِهِ في الكائنِ الحيّ؛ فالإنسانُ ـ مثلًا ـ قادرٌ على أن يَحْيَا بِعَينٍ لا ترى الأَلْوانَ، فلماذا اكْتَسَبَ القُدْرةَ على الرُّؤيةِ الملوَّنةِ، عِلْمًا أَنَّ الألوانَ لا حقيقةَ لها خارجًا، فهي تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ موجاتِ الضَّوْءِ المنعَكِسِ منها أو الصَّادِرِ عنها أو تَرَدُّدَاتِهِ؟!

وقد اعترفَ (داروين) بِعَجْزِهِ عن فَهْمِ ظُهورِ الحاسَّةِ الجَمَالِيّةِ في الإنسانِ والحيوانِ، مُتسائِلًا: «كيفَ لِلْحِسِّ الجَمَاليِّ في أَبْسَطِ أَشكالِه (مثل استقبالِ أنواعٍ مخصوصةٍ من المتعةِ من أَلْوانٍ وأشكالٍ وأَصواتٍ مَخْصُوصةٍ) أنْ يَتَطوَّرَ في بادئ الأمر في دماغِ الإنسانِ والحيواناتِ الدُّنيا؟ **ذاك موضوعٌ غامِضٌ جدًّا**»[2].

كما أضافَ إلى سجالِنا اعترافًا خطيرًا، وهو أنَّ دعوى خُصومِه أنّ الجَمَالَ قد وُجِدَ لإمتاعِ الإنسانِ (أو لِمحْضِ التنوُّع) لو صَحَّتْ فإنّها تَهْدِمُ بصورةٍ كليّةٍ نظريَّتَهُ[3].

وقد كان (جون رسكن)[4] ـ الناقدُ الفَنِيُّ وزميل (داروين) أيَّامَ الدِّراسةِ ـ

---

(١) Davis and Poe, *Designer Universe: Intelligent design and the existence of God* (Nashville, Tenn.: Broadman & Holman, 2002), p.215.

(٢) Darwin, *On the Origin of Species*, p.212.

(٣) "Such doctrines, if true, would be absolutely fatal to my theory".

(٤) جون رسكن John Ruskin (١٨١٩ ـ ١٩٠٠): إنجليزيٌّ. أحد أئمّةِ النّقد الفنّيّ في زمانه. واسعُ التّأليف في الأدب والعلم والتّربية والاقتصاد.

أَبْرَزَ مَنْ أَنْكَرَ على (داروين) تفسيرَهُ الماديَّ لظاهِرَتَيْ الجَمَالِ والحِسِّ الجَمَاليّ في عالَمِ الأحياءِ. وهو من الذين دَرَسُوا نظريَّتَهُ في ذلك بعمقٍ، غير أنّه انتهى إلى عُقْمِها الشَّديدِ حتّى في نَظْمِ الأَلْوانِ؛ ولذلك كتب: «لقد انْغَمَسْتُ بنفسي في هذه النظريّة، راجيًا أنْ أَتعَلَّمَ بعضَ قوانينِ الحياةِ الموجودةِ والتي تُنَظِّمُ الوَضْعَ الخاصَّ لِلَّوْنِ، ولكن يبدو أنّه لا توجد قوانينُ من هذا النَّوعِ معروفة»[1].

وقد كان مثالُ ريشِ الطَّاووسِ أَبْرَزَ مَلْمَحٍ جَمَاليٍّ ناضَلَ (رسكن) ـ وهو المختصُّ أكاديميًّا في الفنون الجَمَاليّةِ ـ لإثبات أنّه عَصِيٌّ على التّفسيرِ الدارونيِّ.. والظَّريفُ هنا هو أنّ (داروين) نفسَهُ قد اعترفَ في حديثٍ خاصٍّ بالقول: «مَنْظَرُ ذَيْلِ الطَّاووسِ، كُلَّما تَأَمَّلْتُهُ، تَشَنَّجْتُ»[2]. لقد أَرْهَقَ جَمَالُ هذا الرِّيْشِ (داروين) بشدَّةٍ حتّى قالت النّاقدةُ (هليلينا كرونن)[3]: إنَّ ذيلَ الطَّاووسِ كان يُمثِّلُ لـ(داروين) ذَيْلًا «وعليهِ إِبْرَةُ لَسْعٍ»[4]!

إنّ الداروينيّةَ تقفُ ـ إلى اليوم ـ أمامَ الزّينةِ الجَمَاليّةِ للكائناتِ الحيَّةِ دون قُدرةٍ على المصاوَلَةِ المعرفيّةِ غير الدَّعاوى القاصِرةِ؛ وهو ما اضطرَّ صاحبَيْ كتاب «فلسفةِ الجَمَالِ التَّطوُّريةِ» أن يعترفا أنّ التَّفسيرَ الطَّبيعانيَّ للجَمَالِ «لا يزال في مراحِلِهِ الطُّفوليّة» وأنَّ الحديثَ عن الأرضيّةِ البيولوجيّةِ لم يَنْجَحْ في الوفاء للحقِّ بَعْدُ[5].

---

(١) John Ruskin, *The Eagle's Nest* (London: George Allen, 1905), p.200.

(٢) Darwin to Asa Gray Apr. 3, 1860.

(٣) هلينا كرونن Helena Cronin (١٩٤٢ـ): فيلسوفةٌ، داروينيّةٌ. مديرةُ «مركز فلسفة العلم الطّبيعيّ والاجتماعيّ»، و«مركز داروين» في مدرسة لندن للاقتصاد.

(٤) Barbara Jean Larson and Fae Brauer, eds. *The Art of Evolution: Darwin, Darwinisms, and Visual Culture* (Lebanon: University Press of New England, 2009), p.49.

(٥) Eckart Voland and Karl Grammer, *Evolutionary Aesthetics* (Berlin; London: Springer, 2011), p.4.

إذا كان الجَمَالُ مُبَرْمَجًا بيولوجيًّا بصورةٍ تامّةٍ، مُنْتَخَبًا فقط لِقِيْمَتِهِ في تحقيقِ البقاءِ؛ فمن المدهِشِ ـ إذن ـ أن نرى إعادةَ ظُهورِ الجَمَالِ في العالَمِ الخَفِيِّ للفيزياءِ الأساسيّةِ التي ليس لها اتِّصالٌ مُباشِرٌ بالبيولوجيا. من ناحيةٍ أُخرى، إذا كان الجَمَالُ أكثرَ من مجرَّدِ عَمَلٍ بيولوجيٍّ حَيَويٍّ، وإذا كان التَّقديرُ الجماليُّ لدينا يَنْبُعُ من الاتِّصال بشيءٍ أكثرَ حَزْمًا وأَكْثرَ نَفَاذًا، فمن المؤكَّدِ عندها أنَّ الجَمَالَ حقيقةٌ ذاتُ أهميَّةٍ تدلُّ بصورةٍ كبيرةٍ أنّ القوانينَ الأساسيةَ للكَوْنِ يبدو كأنّها تَعْكِسُ وجودَ هذا «الشَّيء»[1]. الفيزيائيّ (بول ديفيس).

---

(١) Paul Davies, *The Mind of God*, p176.

المبحث الثالث

ملاحِدَةٌ يَنْصُرون برهانَ الجَمَالِ

لِلْجَمَالِ الموضوعيِّ بطبيعة الخَطِّ والحَدِّ واللَّونِ والتَّعقيدِ المتناغمِ لِسانٌ قاهرٌ يَقْتَنِصُ بقوّة الإكراه النَّاعم من اللِّسانِ الإقرارَ الجازم أنّ الجمالَ حقيقةٌ كونيّةٌ قائمةٌ بنفسِها خارجَ مَوَاجِيْدِنَا؛ حتّى اضطرَّ الفيلسوفُ (عمانويل كانط) ـ الذي أَثَّرَ في العقلِ المعاصر بصورةٍ بالغةٍ في إنكارِ الأَدِلَّةِ العقليَّةِ على وجودِ اللهِ ـ أن يقولَ: «شيئان يملآن العَقْلَ بالإعجابِ المتنامي والإجلالِ كُلَّما تابَعَ المرءُ تَأَمّلهَمُاَ بتكرارٍ وحِدَّةٍ: السَّماءُ المرصَّعَةُ بالنُّجوم فَوْقِي والقانونُ الأَخْلاقيُّ في داخِلِي»[1]، وذاك اعترافٌ مُحْكَمٌ بحقيقةِ الجَمَالِ الموضوعيِّ، رغم أَنَّ (كانط) يُصَرِّحُ في أَدَبِيَّاتِهِ التنظيريّة أنَّ الجَمَالَ ذاتِيٌّ، ذَوْقِيٌّ..

ولِلْجَمَالِ سُلطانٌ نافذٌ؛ حتّى رَفَعَهُ طائفةٌ من العُقلاءِ ليكون أَرْفَعَ الأَدِلَّةِ على وجودِ اللهِ؛ فقال الكاتبُ الصحفيُّ (جون رايت)[2] ـ **المتحوِّلُ من الإلحادِ إلى الإيمانِ بالخالقِ** ـ: «إنَّ أقوى برهانٍ ضِدَّ الإلحادِ... ليس هو برهانٌ من الممكن أن يُصاغَ بكلماتٍ؛ إذ هو بُرهانُ الجَمَالِ... إذا كُنْتَ فِعْلًا ترى جَمَالًا حقيقيًّا ونَسِيْتَ في لحظةٍ نَفْسَكَ؛ فاعْلَمْ عندها أَنَّكَ قد انْسَلَخْتَ من نفسِك في شيءٍ أكبرَ. في تلك اللَّحظةِ اللَّازَمَنِيَّةِ من الانقطاعِ المجيدِ، يُدْرِكُ القلبُ أنّ العالَمَ الـمُمِلَّ الذي أَلِفَ الخيانةَ والأَلَمَ والإحباطَ والحَزْمَ ليس هو العالَمَ الوحيدَ هنا، حتى إن كان اللِّسانُ لا يملِكُ أنْ يُعَبِّرَ عن ذلك بكلماتٍ.

---

(١) Immanuel Kant, *Critique of Practical Reason* (Indianapolis: Hackett Publishing Company, 2002), p.203.

(٢) جون س. رايت John C. Wright (١٩٦١ـ): كاتبٌ أمريكيٌّ له عنايةٌ بأدب الخيال العلميّ.

إنَّ الجَمَالَ يُشِيرُ إلى عالَم خارجَ هذا العالَم، عالَم أعلى، بلد الفَرَح حيث لا يوجد الموتُ. إنَّ الجَمَالَ يشيرُ إلى ما هو إلٰهيٌّ. إنَّ اليساريِّين يبغضون هذا البرهانَ؛ إذ إنّه لا يمكن أن يُصاغَ في كلماتٍ؛ ولذلك لا يُمكن أن يُنْقَضَ بكلماتٍ»[1].

إنّه لا سبيل لنقضِ برهانِ الجَمَالِ؛ لأنَّ الجَمَالَ إحساسٌ عَفَوِيٌّ في النَّفْسِ لا يُحْسِنُ اللِّسانُ كَبْحَ صَوْتِه، ولا يملِكُ القلبُ مَنْعَ تَفَجُّرِ دَفْقِهِ؛ فهو يجري مع النَّفَسِ هادِئًا، ويُحرِّكُ المشاعرَ بِلِيْنٍ قاسٍ.. ومن أرادَ أنْ يَرُدَّهُ بِلِسانِ المجادلةِ خَذَلَهُ قَلْبُه عند الامتحانِ أمامَ هَيْبَةِ الإمتاعِ في زِيْنَةِ السَّماءِ والأَرْضِ.

ولعلَّ سُلطانَ التَّفسيرِ الماديِّ لِكِلِّ مظاهرِ الوجودِ يَدْفَعُ المرءَ إلى الظنِّ أنَّ الفلاسفةَ الذين يكتبون في فلسفةِ الجَمَالِ على اتّفاقٍ أنَّ الجَمَالَ اختيارٌ ذَوْقيٌّ مَحْضٌ ليس له حقيقةٌ ذاتيّةٌ في الخارجِ.. والأمرُ ليس كذلك، فهذا الفيلسوفُ (إ. ر. إمّت)[2] ـ وهو ممن يُنْكِرُون موضوعيَّةَ الجَمَالِ ـ يعترفُ قائلًا: «لا يوجد شكٌّ كبيرٌ في أنّ وجهةَ النَّظَرِ [المتعلّقة بالجَمَالِ] والتي تَبَنَّاها بحماسةٍ الفلاسفةُ في الماضي، من أفلاطونَ **فَصَاعِدًا**، هي أنَّ الجَمَالَ حقيقةٌ موضوعيّةٌ؛ أي: إنَّ الجَمَالَ ـ بمعنى ما ـ هو أمرٌ قائمٌ في الوجودِ، وأنَّ كَوْنَ الشَّيءِ جميلًا أم لا متعلِّقٌ بحقيقةِ الوجودِ لا الرَّأيِ أو الذَّوْقِ، وأنَّ أحكامَ النَّاسِ المتعلّقةَ بالجَمَالِ هي حقٌّ أو باطلٌ، صوابٌ أو خَطَأٌ»[3].

وقد أثبتَ إحصاءٌ أُجْرِيَ على عَيِّنةٍ تَضُمُّ ٣٠٠٠ فيلسوفٍ محترفٍ[4]، ٧٢,٨٪ منهم ملاحدةٌ، أنّ ٤١٪ منهم «يَقْبَلُون أو يميلُون» إلى مذهبِ موضوعيّةِ الجَمَالِ، في حين لا «يَقْبَلُ أو يَمِيْلُ» إلى الرُّؤيةِ الذاتيّةِ للجَمَالِ غير ٣٤,٤٪ من هؤلاء الفلاسفةِ[5].

---

(١) John C. Wright, How We've Been Robbed of Beauty by the Left. <http://www.everyjoe.com/2014/07/03/politics/robbed-of-beauty-by-the-left/>.

(٢) إ. ر. إمّت E.R. Emmet: أستاذ الفلسفة في «Winchester College».

(٣) E.R. Emmet, *Learning to Philosophise* (Baltimore: Penguin, 1968), p119.

(٤) Professional philosophers.

(٥) <http://philpapers.org/surveys/results.pl>.

ويُحدّثنا الفيلسوفُ (بيتر كريفت)[1] عن تجربتِه مع الملاحدةِ وبرهانِ الجَمَالِ بقولِه: إنّه كان على علاقةٍ بثلاثةٍ من الملاحدةِ، اثنان منهم أساتذةُ فلسفةٍ في الجامعةِ وثالِثُهم تَحَوَّلَ إلى راهبٍ، وقد **قادَهُمْ بُرهانُ الجَمَالِ إلى تَرْكِ الإلحادِ والكُفْرِ بالدَّهريّةِ الماديّةِ العمياءِ**[2].

ويخبرنا الكيميائيُّ الفيلسوفُ (أليستر ماكجراث) الذي نَشَأَ مُلْحِدًا، قبل أن يتوجَّه إلى الدِّفاعِ عن الإيمانِ والردِّ على أئمّةِ الإلحادِ الجديدِ، عن طفولتِه حيث كان مُغْرمًا بالنَّظَرِ في النُّجومِ والكواكبِ ليلًا؛ حتّى إنّه رَكَّبَ تلسكوبًا صغيرًا للتَّأمُّلِ في السَّماءِ المظلِمةِ.. غير أنّه انتهى أمامَ عَظَمَةِ ما يراه إلى الشُّعورِ بالإحباطِ؛ بسبب عَظَمَةِ الجَمَالِ؛ فقد اكتشفَ أنّ الإنسانَ كائنٌ ضئيلٌ جدًّا أمام هذا الكونِ المهيبِ المترامي الأطرافِ...

مع تَحَوُّلِ (ماكجراث) إلى النَّظَرِ إلى الكون أنّه عالَمٌ مخلوقٌ وليس مجرّدَ حقيقةٍ غاشمةٍ؛ تَغَيَّرَتْ رؤيتُه إلى الجَمَالِ كليّةً. يقول: «فُتِحت أمامي آفاقٌ جديدةٌ. بَقِيَت النُّجومُ ـ طبعًا ـ كما كانت. ومع ذلك تَحَوَّلَتْ رُؤيتي لها عن السَّابق بصورةٍ كليّةٍ... إنّها الآن رَمْزٌ لِلْحِكْمَةِ والعنايَةِ لِرَبٍّ يَعْلَمُ مَنْ أنا ويُحِبُّني»[3].

لقد تَحَوَّلَ الكونُ في عينَي (ماكجراث) إلى لوحةٍ فنيّةٍ بأصباغِها وتناسُقِها الماتعِ. ورأى فيه أثرًا لجَمَالِ الخالقِ؛ فالأَثَرُ يحملُ مِنْ صِفاتِ المؤثّر شيئًا بعد أن كان الكونُ معادلاتٍ رياضيّةً لأبعادٍ ضخمةٍ، وسَعَةً مخيفةً تُثيرُ الشَّهْقةَ.

والإقرارُ بحقيقةِ الجَمَالِ ووضوحِه حاضرٌ عند الملاحدةِ المهتمّين بعالَم الفيزياءِ والبيولوجيا، وإن لم ينتَهُوا ضرورةً إلى الإقرارِ بوجودِ اللهِ. ولنأْخُذْ لذلك شهادةَ ثلاثةٍ من أَشْرسِ الملاحدةِ اليومَ؛ (واينبيرغ) الفيزيائيُّ، و(داوكنز) البيولوجيُّ، و(كراوس) الفيزيائيُّ.

---

(١) بيتر كريفت Peter Kreeft (١٩٣٧ـ): فيلسوفٌ أمريكيٌّ، لِكُتُبِهِ حضورٌ شعبيٌّ واسِعٌ. من أعلام الدّفاعيّين النّصارى في العالم.

(٢) Peter Kreeft, *Heaven,The Heart's Deepest Longing* (San Francisco: Ignatius Press, 1989), p111.

(٣) Alister McGrath, *Glimpsing the Face Of God: The search for meaning in the universe* (Oxford: Lion, 2003), p.55 - 56.

يقول عالِمُ الفيزياءِ **الملحِدُ العَنِيدُ** (ستيفن واينبرغ): «تبدو فعاليةُ الأحكامِ الجَمَاليّةِ مُدْهشةً بصورةٍ كبيرةٍ بالضّبطِ عند تطبيقِ الرياضياتِ البَحْتَةِ في الفيزياءِ.... وقد وُجِدَ أنّ التراكيبَ الرياضيةَ التي اعْتُرِفَ بها من قِبَلِ علماءِ الرياضياتِ أنّهم طَوَّرُوها بسببِ بحثِهم عن شيءٍ من الجَمَالِ هي ذاتُ قيمةٍ عظيمةٍ عند الفيزيائيّين»[1]. وأَضَافَ بعبارةٍ مُفاجئةٍ: «عَلَيَّ أن أَعْتَرِفَ أنّ الطبيعةَ تبدو أحيانًا أَجْملَ ممّا هو ضروريٌّ بَحْتٌ»[2]؛ فالطّبيعةُ تضمُّ من الجَمَالِ ما يفيضُ عن حاجةِ الوجودِ الماديِّ المنظّمِ والحيِّ.

وأمّا (داوكنز)، فقد قال في لقاءٍ أَجْرَتْهُ معه قناةُ (BBC Channel-4) سنة ١٩٩٤م: «العالَمُ والكَوْنُ مكانان في غايةِ الجَمَالِ، وكُلَّما فَهِمْنا الكونَ، بدا لنا بصورةٍ أَجْمَلَ. إنها تجربةٌ مُثيرةٌ للغايةِ أَنْ يُولَدَ المرءُ في هذا الكونِ»[3].

و(داوكنز) نفسُه يعترفُ أنّ الرغبةَ في طلبِ معرفةِ مزيدٍ من حقائقِ الكونِ تبدو جذّابةً بصورةٍ لا سبيلَ لمقاومتِها، وأنَّ الجَمَالَ الذي كَشَفَهُ الكونُ «جَمَالٌ شاعريٌّ»[4]. وقال فيما هو قريبٌ من ذلك ـ في لقاءٍ صحفيٍّ معه ـ: «أَوَدُّ أن أقولَ: إنَّ لديَّ رؤيةً إيجابيّةً جدًّا، وأكادُ أقولُ: شاعِرِيّةً، للكَوْنِ من النّاحيةِ العِلْميّةِ.... الرَّهْبةُ والإعجابُ هما أمران يَشْعُرُ بهما المتديّنون بلا شَكٍّ، ولكنّني أَشْعُرُ بشيءٍ من الغَضَبِ عندما يَزْعُمُ المتديّنون ـ بصورةٍ ضِمْنيّةٍ ـ أنّهم يَحْتَكِرُون هاتَيْنِ العاطفتَيْنِ»[5].

إنَّ جَمَالَ العالَم من ناحيةٍ علميّةٍ قد أَلْزَمَ (داوكنز) أن يقولَ في غفلةٍ من نفسِه اللَّجُوجةِ: «العالَمُ الحقيقيُّ ـ إذا فُهِمَ بطريقٍ عِلْميٍّ ـ **جميلٌ بصورةٍ عميقةٍ** ومثيرٌ بصورةٍ دائمةٍ»[6].

(١) Steven Weinberg, *Dreams of a Final Theory* (London: Vintage Digital, 2010), p.153.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥٠.

(٣) <http://www.lhup.edu/~dsimanek/dawkins.htm>.

(٤) Richard Dawkins, *Unweaving the Rainbow*, p.63.

(٥) رابط اللقاء:
<http://www.thirdworldtraveler.com/Dawkins_Richard/RDawkinsinterview_NPollard.html>

(٦) Richard Dawkins, *A Devil's Chaplain*, p. 42.

والجَمَالُ هو الذي جعلَ الفيزيائيَّ الملحدَ (لورنس كراوس) يقولُ: «توجدُ شاعريّةٌ جديرةٌ بالملاحظةِ في الطَّبيعةِ»[1]... والشاعريّةُ شيءٌ يَقْتَحِمُ على النَّفْسِ أَسْوارَها عَنْوَةً؛ فَيُحَرِّكُها قَسْرًا في طريق الـمُتْعَةِ العقليّةِ والقَلْبِيّةِ.

ما الفارق ـ إذنْ ـ بيننا وبين أَعلامِ الإلحادِ؟

ليست هي ـ إذن ـ المقدّمات، وإنّما هو رَبْطُ الحقائقِ بلوازمِها، والمقدِّماتِ بنتائجِها!

«من وجهةِ نَظَرٍ داروينيّةٍ، يَعْسُرُ بِجِدٍّ تفسيرُ: الحقيقةِ، والخيرِ، والجَمَالِ، واهتمامنا بذلك»[2]. الفيلسوف (أنثوني أوهير)[3].

مختصر النَّظَرِ:

- كلُّ إقرارٍ يتضمَّنُ أنّ الجَمَالَ طابَعٌ لأشياءِ العالَمِ وليس فقط مَوْقِفًا نَفْسِيًّا من أشياءِ العالم، يَلْزَمُ منه الإقرارُ بوجودِ اللهِ.
- يَلْزَمُ من إنكارِ حقيقةِ الجَمَالِ أنَّ أَجْمَلَ شيءٍ في العالم كأَقْبَحِ شيءٍ فيه، فَأْرٌ مُتَعَفِّنٌ كَزَهْرَةِ أوركِيد..
- الجَمَالُ أَصْلٌ لانطلاقةِ العِلْمِ وللكَشْفِ عن القوانينِ الطبيعيّةِ للكونِ.
- الداروينيّةُ عاجزةٌ عن تفسير جَمَالِ عالَمِ الأَحياءِ فَضْلًا عن جَمَالِ عالَمِ الفيزياءِ الذي لا تقاطع معه.
- يعترف (داوكنز) وكثيرٌ من أئمَّةِ الإلحاد أنَّ العالَمَ جميلٌ بما يفوقُ حاجاتِ البقاءِ.

---

(١) Lawrence M Krauss, *The Greatest Story Ever ToldÙ- So Far: Why Are We Here¢* (Atria Books 2017), p.201.

(٢) Anthony O'Hear, *Beyond Evolution*, p214.

(٣) أنثوني أوهير Anthony O'Hear (١٩٤٢ـ): فيلسوفٌ بريطانيٌّ. أستاذُ الفلسفة في جامعة «باكنغام»، والمدير الفخريُّ «للمؤسّسة الملكيّة للفلسفة».

مراجع للتوسُّع:

Thomas Dubay, *The Evidential Power of Beauty: Science and Theology Meet*, San Fransisco, Calif.: Ignatius, 1999.

Benjamin Wiker and Jonathan Witt, *A Meaningful World: How the Arts and Sciences Reveal the Genius of Nature*, Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2006.

Russell Howell, ''Does Mathematical Beauty Pose Problem for Naturalism?'' *Christian Scholar's Review* (2007).

Nancy Pearcey, *Saving Leonardo: A Call to Resist the Secular Assault on Mind*, Nashville, Tennessee: B & H Publishing Group, 2010.

Francis J. Kovach, *Philosophy of Beauty*, Norman: University of Oklahoma Press, 1974.

ملحق

توحيدٌ أم تعدُّدُ آلهةٍ

- ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢]
- «الربُّ إلٰهنا ربٌّ واحِدٌ»

سِفْرُ التَّثْنية ٦/٤، مرقس ١٢/٢٩

بين خيارين: توحيد أم شرك؟

يقول المؤمن بتعدُّدِ الآلهةِ: الإيمانُ بأكثرَ من إلٰهٍ هو المتعيّنُ لأنّه الموافِقُ لتعدُّدِ أَوْجُهِ العَظَمةِ والعطاء في الوجود؛ ولذلك اتَّجَهَتْ عامَّةُ الأمم السَّابقة إلى الإيمان بإلٰهٍ للخِصْبِ، وآخرَ للقُوَّةِ، وغيرهما لِلحُبِّ.. فتعدُّد أوجُهِ الحياة حُجّةٌ لتعدُّدِ الخالِقِينَ...

يقول الموحّد: بل النَّظَرُ في الكون قائدٌ إلى أنّه لا إلٰه له الخلقُ إلَّا واحِدٌ أَحَدٌ؛ فوجود إلٰهٍ واحدٍ مُنْبِئٌ عن وجودٍ ماديٍّ هو نسيجٌ واحد، كما أنّ افتراضَ التعدّدِ يلزم منه سَلْبُ الكمالِ عنه.

الإسلام دين التوحيد النّقيِّ:

يقول الأستاذ (أنور الجندي) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا قيل: إنّ لكلِّ دينٍ طابعًا؛ فإنّ طابع الإسلام هو «التّوحيد»؛ فهو لُبابُه، ومنهجُه، وقَوامُه، والقائمُ المشترك على قِيَمِهِ المختلفة، والعاملُ الأساسيُّ الذي يفصلُ بين الإسلام وبين عديدٍ من المذاهب والفلسفات والعقائد التي تقوم على أساس الوثنيّة أو الإلحاد أو تعدّد

الآلهة أو إنكار الله الحقّ»[1].

التوحيد الإسلامي ـ في جانبه النَّظَريِّ المحضِ ـ إيمانٌ جازِمٌ أنّ لهذا الوجودِ خالقًا واحدًا له الكَمَالُ المطلق، فلا نظيرَ له ولا قريع؛ فوجودُه حَتْمٌ عَقْلًا، ووحدانيّتُه لازمٌ لكمالِهِ، كما تظهر وحدانيته في طبيعة آثاره في الكون.. ومن الشقّ النَّظَرِيِّ تقوم العبادةُ ـ الجانب العمليُّ ـ؛ فلا يَصْرِفُ المسلمُ لغير الله عبادةً، ولا يستسلِمُ استسلامَ طاعةٍ مطلقةٍ لغيره.. وإذا كانت عقيدة المسلم لا تحتكِرُ توحيد الله بأفعالِه، فقد يُشارك غيرُ المسلِم المسلمَ توحيد الخالقيّة، إلَّا أنّ المسلِمَ وَحْدَهُ على الأرضِ مَنْ يُوَحِّدُ اللهَ عبادةً؛ فلا يُوحَّدُ الله بأفعالِ العباد إلّا في الإسلام... وهنا يَأْتَلِفُ توحيدُ الألوهيّة بتوحيد الطاعة والخضوع والعبادة والمحبّة.. وتلك هي فَرَادةُ التوحيد الإسلاميّ...

التوحيد.. فطرة القلب الأولى:

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [النمل: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل: ٦٠].

وقال ﷻ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ [النمل: ٦١].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣﴾ [النمل: ٦٣].

---

(١) أنور الجندي، الشُّبهات والأخطاء الشَّائعة في الفكر الإسلامي (القاهرة: دار الاعتصام، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م)، ص٣٤.

وقال جلّ شأنه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤].

إنّ الإنسان ـ وهو ينظر ـ في نفسه والآفاق ـ لا يجد غير داعي التوحيد في صدره؛ فالوجود الماديّ يتجلّى في وحدةٍ متناسقةٍ أمام ناظِرَيْهِ، ونفسُه لا تجد رجاءها إلّا في عطاءِ ذاتٍ واحدةٍ، ولا يقع في خَلَدِها ـ إذا خُلِّيَتْ إلى نفسها ـ إلّا وجود الواحد الأَحَدِ. هو شُعورُ انجذابٍ وافتقارٍ إلى واحد لا تَتَشَتَّتُ النَّفْسُ معه..

ولذلك كانت عامّةُ الدّيانات الوثنيّة مُوحِّدةً في ربوبيّتها وإنْ تعدَّدَتْ فيها المعبودات؛ فالإنسان يُدرِكُ وجودَ خالقٍ واحدٍ، وإنْ عَبَدَ معه غيرَهُ؛ وهو ما كشَفَهُ عالم الأنثروبولوجيا (فِيلهلم شمت)[1] في مؤلَّفِه الضَّخْم «أَصْل فِكرة الله»[2]؛ إذ بيّن أنّ الدّين البدائيَّ عند جميع القبائل تقريبًا قد بدأ بعبادة إلٰهٍ واحدٍ، هو إلٰهُ السَّماءِ.

لم يكن (شمت) بِدْعًا فيما قال فقد سَبَقَهُ عددٌ من الباحثين الجادّين؛ إذ أثبتَ (لانج) عقيدةَ «الإلٰه الأعلى» عند القبائل الأكثر بدائيّة في أستراليا وإفريقيا وأمريكا، وهو ما أَثْبَتَهُ كلٌّ من (شريدر) عند الأجناس الآريّة القديمة، و(بروكلمان) عند السّاميين قبل الإسلام، و(لاروي) و(كاترفاج) عند أقزام أواسط إفريقيا[3].

ورغم أنّنا نوافق من قال: إنّ إثبات حقيقة الدّينِ الأوّلِ أمرٌ مُتعذّرٌ حَسْمُهُ بالأدلّة الماديّة لامتناعِ العِلْمِ بتاريخ التديّن، وتطوُّرِ مَنْ كانوا «بدائيّين»؛ إلّا أنّ:

- تعايُشَ التوحيد مع الشِّركِ في أقدم من نعرف من القبائل المسّماة «بدائيّة».
- النُّزوعَ الماديَّ في الإنسان.

(١) فلهلم شمت Wilhelm Schmidt (١٨٦٨ ـ ١٩٥٤م): لغوي وأنثروبولوجي وباحث في تاريخ الدين.

(٢) Der Ursprung der Gottesidee.

(٣) دراز، الدين، بحوث ممهّدة لدراسة تاريخ الأديان، ص١٠٧ ـ ١٠٨

• ضعفَ حاسّة التجريد عند الإنسان، خاصة عند العامة.

• معرفتَنا المباشرة بتحوّلِ عقائد توحيديّة إلى عقائدَ شِرْكيّة في الألفيّات الثلاث الأخيرة.

• كُمُونَ التّوحيد في أوضح العقائد الشِّرْكِيَّةِ كعقائد الهنود...

كلّ ما سبق يجعل البرهان المادي على أصالة التوحيد لا التّنديد أربى في ميزان البحث التّاريخيّ. وهو ما قرّره الخبر القرآنيّ.

التوحيد والامتناع العقلي للشريك:

من أوضح البراهين العقليّة وأقدمها دلالة على امتناع تعدّد الآلهة، ما يلزم من وجود إلٰهَيْنِ من محالات؛ إذ إنّ وجودَ إلٰهَيْنِ يقتضي احتمالَ اختلافِ إرادتهما. ونحن إِثْرَ ذلك أمام احتمالاتٍ ثلاثٍ:

١ ـ أن يَتِمَّ ما أرادا، وذاك مُحالٌ لامتناعِ تَحَقُّقِ الشَّيْءِ وضِدِّهِ؛ فلو أراد أحدُهُما خَلْقَ العالَمِ وأراد الثاني أَلَّا يتمّ هذا الخلق؛ سيتَعَذَّرُ أن يُوجَدَ العالَمُ وأَلَّا يُوجَدَ، وذاك مُحالٌ لاقتضاء ذلك اجتماعَ المتناقِضَيْنِ.

٢ ـ أَلَّا يَتِمَّ ما أرادا؛ وذاك مُمْتَنِعٌ؛ لأنّ المتناقِضَيْنِ لا يرتفعان، فلا بُدَّ أن يجريَ أَحَدُهما.

٣ ـ أَنْ يَتِمَّ مُرادُ أحدِهما بالغَلَبة، ولا يمضيَ أمرُ الآخر، والذّات التي لا تمضي إرادتها لا تَسْتَحِقُّ مُسَمَّى الإله؛ إذ إنّ الإلٰهَ هو الذي لا يَنْقُضُ سُلطانَهُ شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء.

وملخّص ما سبق قول (الباقلانيّ): «وليس يجوزُ أن يكون صانع العالَم اثنين، ولا أكثرَ من ذلك، والدَّليلُ على ذلك أن الاثنين يَصِحُّ أن يختلِفا، ويُوجِدَ أحدُهما ضِدَّ مُرادِ الآخَرِ؛ فلو اختلفا، وأراد أحدُهما إحياءَ جِسْمٍ، وأراد الآخَرُ إماتَتَهُ، لَوَجَبَ أن يَلْحَقَهُما العَجْزُ، أو واحدًا منهما؛ لأنه مُحالٌ أن يَتِمَّ ما يُريدان جميعًا لِتضادِّ مُرادَيْهِما. فوجَبَ أن لا يَتِمَّا، أو يَتِمَّ مُراد أحدِهِما، فَيَلْحَقَ مَنْ لم يَتِمَّ مُرادُه العَجْزُ. أو لا يَتِمَّ مُرادُهُما، فيلحَقَهُما العَجْزُ. والعَجْزُ من سمات الحَدَثِ، والقديمُ الإلٰهُ لا يجوز أن

يكون عاجزًا»[1].

فإن قيل: ماذا لو كان الإلٰهان في اتّفاقٍ تامٍّ، أَلَا ينفي ذلك دلالة هذا البرهان على التوحيد؟

وجوابُه: أنّ اتفاق الإلٰهين الفِعْليّ لا ينفي إمكان اختلافِهِما تقديرًا. وحَسْمُ الخِلاف الممكنِ بينهما ينتهي ضرورةً إلى ما قَرَّرْناهُ سالِفًا عند الاختلاف الفعليّ.

ثم إنّ اتّفاق الإلٰهين على إرادة أمرٍ ما وإمضائه يلزم منه أنهما يشتركان في فِعْلِ الفِعْلِ نفسه، وهذا يعني: اشتراكَهُما في التّأثير، ويلزم من ذلك نقصهما لحاجتهما إلى الاشتراكِ، وأمّا إن كان فِعْلُ أَحَدِهما العِلَّةَ الوحيدةَ للفِعْلِ كانت إرادةُ الثاني بلا أَثَرٍ، وهو ما يَنْقُضُ أُلوهيّة الثاني.

قال (ابن تيميّة): «فكلٌّ من المشتركَيْنِ في مفعولٍ فَأَحَدُهُما مُفْتَقِرٌ إلى الآخَرِ في وجودِ ذلك المفعول، محتاجٌ إليه فيه، وإلَّا لم يكونا مشتركَيْنِ؛ لأن كُلًّا منهما إمَّا أن يكون مُسْتَقِلًّا بالفِعْلِ مُنْفَرِدًا به أو لا يكون:

أ ـ وإن كان مُسْتَقِلًّا به مُنْفَرِدًا به امْتَنَعَ أن يكون له فيه شريكٌ أو مُعاوِنٌ.

ـ فإن لم يَكُنْ مُسْتَقِلًّا مُنْفَرِدًا به لم يكن المفعول به وَحْدَهُ؛ بل به وبالآخر، ولم يكن هو وحده كافيًا في وجود ذلك المفعول؛ بل كان محتاجًا إلى الآخر في وجود ذلك المفعول، مُفْتَقِرًا إليه فيهِ»[2].

ومفهومُ وجود إلٰهَيْنِ فاسِدٌ في ذاتِه؛ لأنّ وجود إلٰهيْنِ يقتضي تمايُزَهُما بأن يكون لأحدِهِما من الصِّفات ما ليس لغيره، وهو ما يَمْنَعُ تعدُّد كمالاتهما.

التوحيد والمنظومة الكونيّة المتناسقة:

الكون الماديُّ دليلُنا الأوسع إلى معرفة أَصْلِ وجودِه. والنَّاظرُ في هذا الوجود لا يجد فيه غير الانتظامِ على صورةٍ واحدةٍ مُعْجِبةٍ لا يُداخِلُها اضطرابٌ

---

(١) الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص٤٥.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٠/٩٧.

ولا تشويشٌ. ووَحْدَةُ قانون العالمِ الطّبيعيّ هي التي تُحَفِّزُ علماءَ الفيزياء للبحث عن قانونٍ يُوَحِّدُ شبكةَ القوانين الفيزيائيّة للكونِ، أو ما يُعرف بـ«نظريّة كلّ شيءٍ» « Theory of everything» والتي تُخْتَصَرُ في حروف «TOE». إنّها لوحةٌ واحدةٌ تَعَدَّدَتْ خيوطُها وألوانُها، غير أنّها تَأْتَلِفُ في كيانٍ واحدٍ.

إنّ الخروج عن داعي التوحيد إلى طلب الشركاء في صُنْعِ العالمِ وتنظيمه يَطْلُبُ بُرْهانًا، ولا يوجد في هذا الكون برهانٌ من نظامِه يستدعي القول بإلٰهيْنِ اثنيْنِ أو أكثرَ؛ فإنَّ طبائع الحركةِ والتّصميمِ والجمالِ مصبوغةٌ بصِبْغةٍ واحدةٍ بإجماع علماءِ الطّبيعةِ.

التوحيد ونَصْل أوكام:

يقول الفيلسوف (ستفن ت. ديفز)[1]: «إذا كان هناك أكثرُ من مُصمِّمٍ، فكم سيكون عددُهم؟ ولماذا يتعاونون؟ لا نحتاج إلى طرح هذين السُّؤالَيْنِ إذا كان هناك مُصمِّمٌ واحِدٌ»[2].

القول بإلٰهٍ واحدٍ خالق ومُصوّرٍ هو الجوابُ الأسهل والأوضحُ، وهو يقوم على مقدّماتٍ قليلةٍ وبسيطةٍ. والخروج من هذا الحلِّ إلى القول بتعدّدِ الآلهة يقتضي مقدّماتٍ أطولَ، وافتراضاتٍ أوسعَ، ولذلك فهو جوابٌ مرفوضٌ لأنّه يُعارِضُ قاعدة «نَصْل أوكام» التي تحكمُ جُملةَ تفكيرِنا في طَلَبِ تفسيرِ أشياءِ الوجودِ؛ إذ تَنُصُّ على أنّه عند تَعَارُضِ التَّفسيرات، يُختارُ منها ما كان أَقَلَّ افتراضاتٍ.

التثليث، أزمة العقل والنقل:

ذهبت الكنيسةُ بعد زمنِ المسيحِ بمدّةٍ إلى القول بعقيدة التّثليث؛ وهي عقيدةٌ صريحةٌ في تقريرها وجودُ ثلاثةِ آلهةٍ مُنْفصلةٍ عن بعضها، تَدْخُلُ في مجموعها تحت اسمِ «الإلٰهِ الواحدِ».. ولم تعرف الكنيسةُ مِحْنةً في تاريخها

---

(١) ستفن ديفز Stephan Davis (١٩٤٠ـ): فيلسوفٌ أمريكيٌّ له عناية خاصة بفلسفة الدِّينِ.

(٢) Stephen T. Davis, *God, Reason and Theistic Proofs* (Edinburgh: University Press, 1997), p.103.

أَعْظَمَ من محنةِ مُخالفةِ العقلِ لمفهومِ التّثليثِ؛ فإنّ العَقْلَ يرفضُ ـ بداهةً ـ أن يكون الواحدُ ثلاثةً، والشَّكُّ في بداهات الحسابِ من نواقض العقلِ. ورغم اختراعِ الكنيسةِ لمصطلح «أُقْنُوم» «ܩܢܘܡܐ» "ὑπόστασις" للقول: إنّ الأَقَانيم الثلاثة هي ذاتٌ إلٰهيّةٌ واحدة؛ إلا أَنَّ الأُقْنُومَ هو نفسُه ذاتٌ؛ ولذلك تَتَحَدَّثُ أدبِيَّاتُ اللَّاهُوتِ الإنجليزيّة عن الأُقْنُومِ على أنّه «ذاتٌ» «person» دون مُوَارَبَةٍ.

وتبدو كلُّ محاولات عَقْلَنَةِ التَّثْليثِ صريحةً في عَبَثِها؛ إذ هي تُقَرِّرُ كلامًا فَجًّا في تَنَاقُضِهِ، مُباشِرًا في رَفْضِهِ لِبَدَاهاتِ الحساب، ومن ذلك قول قِدّيس الكنيسة (إبيفانيوس): «لا يوجد ثلاثةُ آلهةٍ؛ بل إلٰهٌ واحِدٌ حقيقيٌّ؛ لأنّ الابنَ الوحيدَ المولودَ هو واحدٌ من واحِدٍ، وواحِدٌ أيضًا هو الرُّوحُ القُدُسُ الذي هو واحِدٌ من واحِدٍ؛ أي: ثالوثٌ في وَحْدةٍ، وهو إلٰهٌ واحِدٌ: آبٌ وابنٌ وروحٌ قُدُس»[1]. هل الواحِدُ المنبثِقُ من واحِدٍ إذا جُمِعَ إلى مَنْ انْبَثَقَ عنه يكون معه واحدًا رغم تمايُزِهما تمايُزَ الوالِدِ وما وَلَدَ؟!

وقد حاول أنصارُ مذهبِ السَّبليّة Sabellianism منذ القرن الثّالث الخروجَ من هذا المأزق الرياضيّ؛ فزعَمُوا أنّ الأقانيمَ ليست ذواتًا مُتعاصِرةً؛ وإنّما هي مراحِلُ مُتَتاليةٌ؛ فالإلٰهُ كان أبًا وتَحَوَّلَ إِثْرَ ذلك إلى ابنٍ، ثمّ روحٍ قُدُسٍ. وقد اندثرَتْ هذه الفرقةُ بعد أن أُدِيْنَتْ بالهرطقة في القرون الأُولى، كما أنّ دعواها تُخالِفُ ـ ضرورةً ـ النُّصوص المقدَّسة؛ فإنّ الأناجيلَ صريحةٌ في تَعَاصُرِ حالَيْ الأُبُوَّةِ والبُنُوَّةِ؛ ومن ذلك ما جاء في إنجيل متّى ٣/١٦ ـ ١٧: «فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ اللهِ نَازِلًا مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ، وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلًا: هٰذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ».

ويُقِرُّ كثيرٌ من اللَّاهوتيّين بالإشكالِ العقليّ الكبير في القول بالتَّثْليثِ، ومن ذلك قولُ اللَّاهوتيّ (ملارد إريكسون)[2]: «تُقَدِّمُ هذه العقيدةُ من عدّة

---

(١) نقله: توماس ف. تورانس، الإيمان بالثّالوث ـ الفكر اللَّاهوتيّ الكتابيّ للكنيسة الجامعة في القرون الأولى، تعريب: عماد إسكندر (القاهرة: مكتبة باناريون، ٢٠٠٧م)، ص٣٥٧.

أوجهِ مفارقاتٍ غريبةً «strange paradoxes»[1]. ويكفي للعلم بأَزْمَةِ النّصرانية مع مفهوم التثليث أنّ عددًا من اللّاهوتيّين النّصارى قد انتهَوْا تحت مقامِعِ لاعقلانيَّةِ التثليثِ إلى القول: إنّ على المؤمن أن يتعايَشَ مع التّناقضات والمفارقات Paradoxes[2]؛ فلا سبيل لإبطالهما داخل التصوّر الإيماني النصرانيّ إذا التزمَ الإنسان التفكير المنطقيَّ؛ بل الأعجبُ أنّ بعض المفكّرين النّصارى يذهب إلى أنّ المفارقاتِ عنصرٌ ضروريٌّ للإيمان؛ فقد زَعَمَ (دونالد بلوتش)[3] أنّ «حقيقة الإيمان لا يمكن أن تُتَرْجَمَ إلى نسَقٍ مُتناسِقٍ نهائيٍّ ينفي الأسرارَ والمفارقات في الإيمان»[4]. وهو بذلك يخلِطُ بين محارات العقول ومحالاتها؛ فإنّ العقلَ قد يَعْجزُ عن فَهْم بعض حقائقِ الغَيْبِ لأنّه محدودٌ لا يحيط بكلّ شيءٍ عِلْمًا، وذلك لا يمنع وَصْفَ إيمانِهِ أنّه إيمانٌ عقلِيٌّ، ولكنّ الإيمانَ المغموسَ في المفارقات والتّناقضات حُجّةٌ على العَقْلِ؛ ولازِمُهُ إنشاءُ ثنائيّةٍ مُتضادّةٍ لا بُدَّ أن يَنْحازَ المرءُ فيها إلى أَحَدِ طَرَفَيْها؛ إمّا الإيمان أو العقل؟!

وأمّا من الناحية النقليّة، فإننا لا نَجِدُ ذِكْرًا لِلتَّثْليثِ في الأسفار السَّابقة للمسيح، والتي يُؤمِنُ بِقَدَاسَتِها النّصارى، إذ لم تردْ في الكتاب كُلِّهِ عبارةٌ صريحةٌ في التَّثْليثِ، كعبارة «ثالوث» و«تثليث»، «أُلوهيّة الآب والابن والرُّوح القُدُس»، أو «الآلهةُ ثلاثةُ أَقَانِيم». والأمر نفسُه واضحٌ في الأَسْفارِ النّصرانيّة. ولذلك جاء في موسوعة «The HarperCollins Encyclopedia of Catholicism»: «**يَتَّفِقُ النُّقَّادُ عامّةً** أنّه لا تُوجَدُ عقيدة تَثْلِيثٍ في العهد القديم

---

(١) ملارد إريكسون Millard Erickson (١٩٣٢ـ): قسّيسٌ معمدانيٌّ وأستاذ اللّاهوت في «Baylor University». يُعدّ اليوم من أبرز اللّاهوتيّين الإنجيليّين.

(٢) Millard J. Erickson, *God in Three Persons: a contemporary interpretation of the Trinity* (Grand Rapids, MI: Baker Books House, 1995), p.11.

(٣) See Roger Hazelton, 'The Nature of Christian Paradox', *Theology Today* 6 (1949), pp.324 - 335; Vermon C. Grounds, 'The Postulate of Paradox'. *Bulletin of the Evangelical Theological Society* 7 (1964), pp.13 - 41; John V. Dahms, 'How Reliable is Logic?' *Journal of the Evangelical Theological Society* 21.4 (1978), 369 - 80.

(٤) دونالد بلوتش Donald Bloesch (١٩٢٨ ـ ٢٠١٠م): قسّيسٌ ولاهوتيٌّ أمريكيٌّ معروف.

(٥) Donald Bloesch, *Essentials of Evangelical Theology* (CA: Harper & Row, 1978), 1/18.

ولا في العهد الجديد»[١].

والنّصُّ الوحيد الصّريح[٢] في ذلك في ١ يوحنا ٥/٧: «فَإِنَّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ فِي السَّمَاءِ هُمْ ثَلَاثَةٌ: الآبُ، وَالْكَلِمَةُ، وَالرُّوحُ الْقُدُسُ. وَهؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ هُمْ وَاحِدٌ» ينتهي عند جميع النُّسخِ اليونانيّة قبل القرن الخامس عشر عند «هُمْ ثَلَاثَةٌ». وقد حَذَفَت الزّيادةَ عامّةُ التَّرجماتِ الحديثة مثل «The International Version» و«The New American Bible» و«The New Revised Standard Version» . . .

نص١ يوحنا ٥/٧ دون الزيادة

المخطوطة الفاتيكانية (القرن الرابع)

ΕϹΤΙΝΗΑΛΗΘΕΙΑΟΤΙ
ΤΡΕΙϹΕΙϹΙΝΟΙΜΑΡΤΥΡΟΥ
ΤΕϹ ΤΟΠΝΕΥΜΑ ΚΑΙ
ΤΟ ΫΔΩΡ ΚΑΙΤΟΑΙΜΑ
ΚΑΙΟΙΤΡΕΙϹΕΙϹΤΟΕΝΕΙϹΙ
ΕΙΤΗΝΜΑΡΤΥΡΙΑΝΤΩΝ
ΑΝΘΡΩΠΩΝΛΑΜΒΑΝΟΜΕ

(١) Richard McBrien, ed. *The HarperCollins Encyclopedia of Catholicism* (New York HarperCollins, 1995), p.564

(٢) يستدلّ النصارى لعقيدة التثليث أيضًا بما نُسب إلى المسيح في آخر إنجيل متّى ٢٨/١٩: «فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ». وهذا استدلال معيب من وجهين:

الوجه الأول: هذا النص ليس صريحًا في إثبات عقيدة الآلهة المثلّثة، وما بمثلِ هذه العبارات يُعبّر الوحي عن أصول الدين. وإنّما المعنى المباشر للنصّ هو دعوة التلاميذ إلى تعميد الناس بصيغة تعظّم الله ويسوع والملَك المعظّم، رسول الربّ الروح القدس. وذاك أشبه بما تبدأ به المحاكم مراسيم =

المخطوطة السِّينائيّة (القرن الرابع)

ΠΝΑ ΕϹΤΙΝ Η ΑΛΗ
ΘΕΙΑ ΟΤΙ ΟΙ ΤΡΕΙϹ Ε
ϹΙΝ ΟΙ ΜΑΡΤΥΡΟΥ
ΤΕϹ ΤΟ ΠΝΑ ΚΑΙ ΤΟ Υ
ΔΩΡ ΚΑΙ ΤΟ ΑΙΜΑ
ΚΑΙ ΟΙ ΤΡΕΙϹ ΕΙϹ ΤΟ
ΕΝ ΕΙϹΙΝ ΕΙ ΤΗΝ ΜΑΡ
ΤΥΡΙΑΝ ΤΟΥ ΘΥ ΛΑΜ
ΒΑΝΟΜΕΝ Η ΜΑΡ
ΤΥΡΙΑ ΤΟΥ ΘΥ ΜΕΙΖ
ΕϹΤΙΝ ΟΤΙ ΑΥΤΗ ΕϹ

= القضاء باسم الله والشعب، أو اسم الله والملك؛ فالأمر من جنس ما نعرف عن أصول المراسيم الهامة (الدينيّة وغيرها). وليس في نص متّى ١٩/٢٨ أدنى شيء من التصريح بمعاني الألوهيّة للابن والروح القدس. وأصول الدين لا تُبنى على المعاني البعيدة للنصوص المقدّسة.

الوجه الثاني: يَطعن عامة النقّاد في أصالة نص متّى ١٩/٢٨ لأنّ الكنيسة الأولى لم تكن تعُمّد باسم الآب والابن والروح القدس، وإنّما كانت تُعمّد فقط باسم يسوع، ولذلك جاء في معجم الكتاب المقدس «The Anchor Bible Dictionary» (١/ ٥٨٥): «وفقًا **لإجماع علمي واسع**، ليس [هذا القول] **قولًا** صحيح النسبة إلى يسوع». ودليل ذلك من العهد الجديد نفسه الذي لا يذكر أبدًا التعميد بغير اسم يسوع وحده:

أعمال الرسل ٢/٣٨: «فَقَالَ لَهُمْ بُطْرُسُ: «تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا».

أعمال الرسل ٨/١٦: «لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ حَلَّ بَعْدُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعْتَمِدِينَ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ».

أعمال الرسل ١٠/٤٨: «وَأَمَرَ أَنْ يَعْتَمِدُوا بِاسْمِ الرَّبِّ».

أعمال الرسل ١٩/٥: «فَلَمَّا سَمِعُوا اعْتَمَدُوا بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ».

المخطوطة السَّكَندريّة (القرن الخامس)

وتستمدُّ عقيدةُ التَّثْليثِ في التَّشكيل الاعتقادي عند الآباء مَنْطِقِيَّتَها من التَّصَوُّرِ الأفلاطونيِّ الذي قَدَّمَ الخلفيّة الفلسفيّة لِتَأْلِيهِ الابنِ من خلال الحديث عن الفصلِ التّامِّ بين الإلٰهِ الأَزَليِّ والخَلْقِ المُـحْدَثِ؛ مما استدعى وجود الوَسَاطةِ التي تَصِلُ المطلقَ بالمحدود، وهي (الكلمة) (اللُّوغوس) (λογος)؛ فكانت هذه الثنائيّة هي التي قَرَّبَت المسافةَ بين الكنيسةِ وعقائد الوثنيّين الـمُثَلِّثِيْنَ؛ ولذلك قال اللّاهوتيُّ (أندروز نورتن)[1]: «من الممكن تَتَبُّعُ هذه العقيدة، واكتشافُ مصدرِها، ولكن ليس في الوَحْيِ المسيحيِّ، وإنّما في الفلسفة الأفلاطونيّة التي كانت الفلسفةَ السائدةَ على مدى الفترات الأُولى بعد ظهور النصرانيّة، وهي التي كان جميع كبار الكُتّابِ النّصارى ـ الآباء كما يُسمَّوْنَ ـ، تلاميذها، بدرجة كبيرةٍ أو صغيرةٍ»[2].

لقد قَدَّمَت الفلسفةُ الأفلاطونيّةُ (المسوّغ) الفلسفيّ لهذه العقيدة، أمّا المصدر المباشر الذي شَكَّلَ الـمَعِيْنَ الذي أَخَذَت منه الكنيسةُ هذا المفهوم العقديّ، فهو التصوّر الوثنيّ الذّائِعُ بين الأمم القديمة عن الثّالوثِ الإلٰهيّ الذي يعلو قُبَّةَ الإيمان الجماعيِّ.

قال القسّيسُ المؤرّخ (توماس موريس) في كتابه عن تراثِ الهند «Indian Antiquities» الذي استغرق سبعة مجلّدات: «هذا الموضوع الكبير والمهِمُّ،

---

(١) أندروز نورتن Andrews Norton (١٧٨٦ ـ ١٨٥٣م): لاهوتيٌّ أمريكيٌّ. من أئمّة التيّار النصرانيّ التوحيديّ في القرن التاسع عشر.

(٢) Andrews Norton, *A Statement of Reasons for not Believing the Doctrines of Trinitarians, Concerning the Nature of God and the Person of Christ* (Boston: American Unitarian Association, 1870), p.94

يستغرق جُزءًا ضخمًا من هذا الكتاب، ولهفَتِي على تهيئةِ الرّأي العامّ لِتَقَبُّلِهِ، وجُهودِي التي بذَلْتُها لتوضيح مسألةٍ لاهوتيّةٍ بالغةِ الغُمُوضِ، أَغْرَيَاني بأنْ أُنَبِّهَ القارئَ النَّزيهَ إلى أنَّ الآثار المنظورة لهذه العقيدة قد أصبحتْ واضحةً تمام الوُضوحِ، ليس فحسب في المبادئ الثّلاثة للّاهوتِ الكِلدانيّ، وفي مثرا الفارسيّ ثُلاثيِّ الشَّكْلِ، وفي الثَّالوثِ براهما وفشنو وشيفا في الهند ـ الذي أُعْلِنَ بوضوحٍ في الـ«جيتا» قبل ميلاد أفلاطون بخمسمائةِ عامٍ؛ بل وكذلك في ثالوثِ الرُّوحِ الإلٰهيَّةِ (Numen Triplex) في اليابان، وفي الكتَابةِ المنقوشةِ على ظهر الميدالية الشّهيرة التي عُثِرَ عليها في صحراء سيبيريا «إلى الإلٰهِ الثّالوثيّ» التي يمكن مشاهَدَتُها في يومِنا هذا في المقصورةِ الإمبراطوريّةِ الفخمةِ في سان بطرسبرج، وفي التّانجا تانجا، أو الثلاثة في واحد، عند سكان أمريكا الجنوبيّة، وأخيرًا ـ دون الإشارة إلى بقاياها في اليونان ـ في رَمْزِ الجَنَاحِ والكُرةِ والثُّعبان، المنقوشِ على معظمِ المعابِدِ القديمة في صَعِيدِ مِصْرَ»[1].

ونجد في مقابل ذلك التوحيدَ الصَّريحَ في العهدِ القديم (التَّوراة)؛ فهو أَوَّلُ الوصايا العَشْرِ لبني إسرائيل: «لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي» (خروج ٢٠/ ٣)، وتكرَّرَ مضمونُه مرّاتٍ كثيرةً في أسفارِ العهدِ القديم: «الرَّبُّ إلٰهنا ربٌّ واحِدٌ» (تثنية ٦/ ٤) و«لأَنِّي أَنَا اللهُ وَلَيْسَ آخَرُ» (إشعياء ٤٦/ ٩). . .

وقد تكرَّرَت الدَّعوةُ إلى التوحيدِ صريحةً في العهدِ الجديدِ (الإنجيل)؛ فقد قال المسيحُ: «إنَّ أَوَّلَ كُلِّ الوصايا. . . الربُّ إلهنا ربٌّ واحِدٌ» (مرقس ١٢/ ٢٩)، وقال: «أَنْتَ الإلٰهُ الحقيقيُّ وَحْدَكَ» (يوحنا ١٧/ ٣)، وقال: «لِلرَّبِّ إلٰهكَ تَسْجُدُ وإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ» (متّى ٤/ ١٠).

(١) Thomas Maurice, *Indian Antiquities* (London: W. Richardson, 1800), 1/126-127.

الختام في كلمات

ما الدَّليلُ على وجودِ اللهِ؟

دليلُ ذلك كُلُّ شيءٍ؛ ما هو دانٍ منك، وما غاب وراءَ آفاقِ بَصَرِكَ.. نَفْسُك وما حولَكَ.. ما يُظِلُّكَ وما يُقِلُّكَ.. ما يُشْبِعُكَ، وما يُمْتِعُكَ.. كلُّ شيءٍ بما هو شيء، وأَعراضُ الشّيءِ التي في الشّيءِ.. فقط اِخْلَعْ عِصابةَ الأُلفةِ عن عَيْنَيْكَ، وانظُرْ إلى كلِّ شيءٍ أنّه شيءٌ جديدٌ.. انْدَهِشْ! وانْتَبِهْ! وسترى الوجودَ يَنْطِقُ طَلَبًا لِتفسيرٍ..

وجودُ الوجودِ يطلبُ تفسيرًا...

أَعْراضُ الوُجودِ تَطْلُبُ تفسيرًا...

مفهومُ الإنسانِ ـ لأنّه شيءٌ أَرْقى من رُكامِ الذَّرَّاتِ ـ يطلبُ تفسيرًا...

* * *

إنّ الطريقَ إلى جوابِ السُّؤالِ عن وجودِ اللهِ ليس في البحثِ عن كائنٍ مُتَخَفٍّ وراءَ الآفاقِ، لا يُعْلَمُ خَبَرُهُ إلَّا بمواريثِ الأساطيرِ عن ملاحِمِهِ ـ كما هو مُعْتَقَدُ كثيرٍ من وَثَنِيِّي الرُّومانِ واليونانِ القدماءِ ـ... وإنّما هو البحثُ في تفسيرِ الوجودِ وأَعْراضِهِ، والإنسانِ وحقيقتِه..

ولن ينتهيَ الباحثُ عن الحقِّ إلى أَنَّ للوجودِ معنى، وللحياة قِيْمةً، وللعَقْلِ قُدْرةً، وللخُلُقِ سُلْطانًا، وللجَمَالِ مَظْهرًا... إلَّا إذا آمَنَ باللهِ.

وأَمَّا مَنْ اختارَ أَلَّا يُؤمِنَ باللهِ بعد قراءةِ هذا الكتابِ ـ وهو قِطْفٌ يسيرٌ

من جَنَانِ البراهينِ، وإلماعَةٌ في عُجالةٍ ـ، وأَصَرَّ على أن يمضيَ في طريقِ الرَّفْضِ. . فلنْ أَطْلُبَ منه سوى شيءٍ واحدٍ، بلسانٍ جازمٍ: عِشْ إلحادَكَ ـ إن استَطَعْتَ ـ!

قد خَرَجْنا عن طورِ النَّقْدِ الفِكْريّ ـ إذن ـ، وانتهيتَ إلى طورِ النَّفْيِ المطلَقِ، وغَلَّقْتَ دون رأيِكَ الأبوابَ. . فَأَرني في نفسِكَ التي أُومِنُ أنّها لا يمكنُ البَتَّةَ أن تعيشَ مُلْحِدةً، إن كانت تملِكُ تَنَفُّسَ الإلحادِ الكُلِّيِّ فِكْرةً، والتزامَهُ فِعْلًا. . !

عِشْ مُلْحِدًا في باب فَهْمِ الكَوْنِ، ومعرفةِ قيمةِ الإنسانِ، وحقيقةِ العَقْلِ الدَّاروينيّ، والأخلاقِ والجمالِ الذاتِيَّيْنِ. . ! عِشْ مُلْحِدًا، كما يجبُ أن يكون الملحِدُ، ولو يومًا واحدًا. . !

لن تستطيعَ ذلك ساعةً. . سَتَقْهَرُكَ فِطْرَتُكَ. . وتَكْتَشِفُ أَنَّ أفكارَكَ مِزَعٌ من المتناقضاتِ، بين رَفْضٍ صريحٍ، وإقرارٍ خَفِيٍّ. . تصديقٍ بالمادِيَّةِ العمياءِ، واستغراقٍ في لوازمِ الإيمانِ. . جَدِّدْ عَزْمَكَ على الصِّدْقِ في الإلحادِ. . وسَتَعْجَزُ مَرَّةً أُخْرى!

وعندما تنتهي إلى أَنَّ الإلحادَ فكرةٌ لا تُعاشُ، وأَنَّ الملحِدَ الصَّمِيميَّ خُرافةٌ كخرافةِ العَنْقاءِ؛ أَعِدْ قراءةَ هذا الكتابِ بِعَيْنِ مَنْ يَطْلُبُ الحَقَّ بقلبٍ هادئٍ، راضٍ بمآلاتِ البَحْثِ. .

* * *

هذا الكتابُ لا يدعو الملحِدَ واللَّاأَدْرِيَّ إلى الانتقالِ إلى الإيمانِ. . وإنّما يدعوهما إلى التَّصالحِ مع النَّفْسِ، والعيشِ برؤيةٍ كونيَّةٍ واحدةٍ لا تَتَضَادّ أَبْعاضُها. . وذلك باكتشافِ الإيمانِ الكامنِ في حقيقةِ العقلِ والقلبِ. .

* * *

البحثُ في التّوحيدِ، أَمْرُهُ هَيِّنٌ بعد العِلْمِ بوجودِ اللهِ؛ فإنَّ كُلَّ دليلٍ لوجودِ العَلِيِّ العظيمِ، برهانٌ ـ في ذاتِه ـ على وحدانيّتِه. .

كلمة في الختام

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾

[إبراهيم: ١٠]

المصادر والمراجع

(لم نُورِدْ في هذا الثَّبَتِ المقالاتِ العلميّة، واكتَفَيْنَا بالكُتُبِ)

الكتب العربية:

١ ـ إبراهيم، أحمد، **اختراق عقل**، الرياض: مركز دلائل، ١٤٣٧هـ.

٢ ـ الآجُريّ، **الشريعة**، تحقيق: عبد الله الدّميجي، الرّياض: دار الوطن، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٣ ـ ابن الأنباريّ، **الدَّاعي إلى الإسلام**، تحقيق: سيد باغجوان، بيروت، دار البشائر، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

٤ ـ أنور الجندي، أنور، **الشُّبهات والأخطاء الشَّائعة في الفكر الإسلامي**، القاهرة: دار الاعتصام، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٥ ـ باركر، باري، **السَّفَر في الزمان الكونيّ**، تعريب: مصطفى محمود سليمان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٦ ـ بدر، عادل محمود، **برهان الإمكان والوجوب بين ابن سينا وصدر الدّين الشّيرازي**، اللَّاذقيّة: دار الحوار، ٢٠٠٦م.

٧ ـ بدوي، عبد الرحمٰن، **مدخل جديد إلى الفلسفة**، الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٥م.

٨ ـ ابن بطة، **الإبانة الكبرى**، تحقيق: يوسف الوابل، الرياض: دار الراية، ١٤١٨هـ.

٩ ـ تورانس، توماس ف. **الإيمان بالثّالوث ـ الفكر اللَّاهوتيّ الكتابيّ للكنيسة الجامعة في القرون الأولى**، تعريب: عماد إسكندر، القاهرة: مكتبة باناريون، ٢٠٠٧م.

١٠ ـ ابن تيمية، **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**، تحقيق: عبد العزيز العسكر وآخرون، الرياض: دار العاصمة، ١٩٩٩م.

١١ ـ ابن تيمية، **الفتوى الحمويَّة الكبرى**، تحقيق: حمد التويجري، الرياض: دار الصّميعي، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٢ ـ ابن تيمية، **النُّبُوَّات**، الرياض: أضواء السلف، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٣ ـ ابن تيمية، **بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية**، تحقيق: موسى الدويش، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٨هـ.

١٤ ـ ابن تيمية، **دَرْءُ تَعَارُضِ العَقْلِ والنَّقْل**، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام سعود، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٥ ـ ابن تيمية، **شرح الأصبهانيَّة**، تحقيق: محمد السعوي، الرياض: دار المنهاج، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠١٠م.

١٦ ـ ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عامر الجزّار وأنور الباز، المنصورة: دار الوفاء، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٧ ـ ابن تيمية، **نقض المنطق**، القاهرة: مطبعة السُّنَّة، ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

١٨ ـ الثَّعْلبيّ، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق: ابن عاشور، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٩ ـ ابن حَجَر، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد الرحمٰن البرَّاك، الرياض: دار طيبة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٠ ـ ابن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق: عبد الرحمٰن عميرة ومحمد إبراهيم نصير، بيروت: دار الجيل، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٢١ ـ ابن حزم، **مراتب الإجماع**، تحقيق: حسن أحمد إسبر، بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٢ ـ دراز، محمد عبد الله، **الدين، بحوثٌ مُمَهِّدةٌ لدراسة تاريخ الأديان**، الكويت: دار القلم، د.ت.

٢٣ ـ دوكنز، ريتشارد، **أعظم استعراضٍ فوق الأرض**، ترجمة وتقديم: مصطفى إبراهيم فهمي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣م.

٢٤ ـ دينتون، مايكل، **قدر الطبيعة**، تعريب: موسى إدريس وآخرون، الرياض: مركز براهين، ٢٠١٦م.

٢٥ ـ الذَّهَبيّ، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عبد السلام التدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٦ ـ ابن رشد، **الكشف عن مناهج الأدلة**، تحقيق: محمد عابد الجابري، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨م.
٢٧ ـ أبو ريدة، **رسائل الكنديّ الفلسفية**، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٠م.
٢٨ ـ ريفن، بيتر، وآخرون، **علم الأحياء**، ترجمة: سامح التميمي وآخرون، الرياض: العبيكان، ٢٠١٤م.
٢٩ ـ الزُّحيليّ، محمد مصطفى، **وظيفة الدين في الحياة**، طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
٣٠ ـ زكريا، فؤاد، **نظرية المعرفة**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.
٣١ ـ ابن سينا، **المبدأ والمعاد**، تحقيق: عبد الله نوراني، طهران: مؤسسة مطالعات الإسلام، ١٩٨٤م.
٣٢ ـ السّيوطي، **الحاوي للفتاوي**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.
٣٣ ـ الطّبري، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، د.ت.
٣٤ ـ الطّبري، **تفسير الطبري**، تحقيق: مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، دار هجر، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
٣٥ ـ عبد الظّاهر، حسن عيسى عبد، وآخرون، **بحوث في الثقافة الإسلامية**، الدوحة: دار الحكمة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
٣٦ ـ العَقَّاد، عباس محمود، **الله**، **موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٠م.
٣٧ ـ الغزاليّ، **إحياء علوم الدين**، القاهرة: دار إحياء الكتب العلميّة، د.ت.
٣٨ ـ فرج، مرتضى، **أفي الله شك؟** بيروت: الانتشار العربي، ٢٠١٣م.
٣٩ ـ القاسميّ، محمد جمال الدين، **دلائل التوحيد**، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م.
٤٠ ـ القرطبيّ، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.
٤١ ـ ابن القيّم، **الفوائد**، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.
٤٢ ـ ابن القَيِّم، **روضة المحبين**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.

٤٣ ـ ابن القَيّم، **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
٤٤ ـ ابن القَيّم، **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، تحقيق: محمّد علي قطب، بيروت: دار الأرقم، ٢٠١٦م.
٤٥ ـ ابن القَيّم، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.
٤٦ ـ كانت، عمانويل، **نقد العقل المحض**، تعريب: موسى وهبة، بيروت: مركز الإنماء القومي، د.ت.
٤٧ ـ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي السلامة، الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
٤٨ ـ الكنانيّ، **الحيدة والاعتذار في الردّ على مَنْ قال بخلق القرآن**، تحقيق: علي الفقيهي، المدينة المنورة: مكتبة العلم والحكم، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
٤٩ ـ اللالكائيّ، **شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة**، تحقيق: أحمد الغامدي، دار طيبة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.
٥٠ ـ ابن منده، **كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد**، تحقيق: علي الفقيهي، المدينة المنورة: ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
٥١ ـ موريسون، كريسي، تعريب: محمود صالح الفلكيّ، **العلم يدعو للإيمان**، بيروت: دار حي القلم، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.
٥٢ ـ نيتشه، **ما وراء الخير والشرّ**، تعريب: جيزيلا فالور، بيروت: دار الغروب، ١٩٩٥م.
٥٣ ـ نيتشه، **هكذا تكلّم زرادشت**، تعريب: فيليكس فارس، بيروت المكتبة الثقافية.
٥٤ ـ يحيى، هارون، **التضحية عند الحيوان**، نسخة إلكترونية.
٥٥ ـ يلماز، عرفان، **التطوّر نظريّة علميّة أم أيديولوجيا**، تعريب: رشا حسن ووليد علي أبو شعير، القاهرة: دار النيل، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

الكتب الإنجليزيّة:

1- Adler: M.J. *What Man has Made of Man*, Ungar, New York.
2- Aldous: Huxley. *Selected Essays*, London: Chatto and Windus, 1961.
3- Alexander: Victoria. *The Biologist's Mistress: Rethinking self-organization in art, literature, and nature,* Litchfield Park, AZ: Emergent Publications, 2011.

4- Altizer: Thomas J. J. *The Gospel of Christian Atheism*, Philadelphia: The Westminster Press, 1966.

5- Ashton: John F. *In Six Days*, Green Forest, AR: Master Books, 2001.

6- Atkins: Peter. *On Being: A scientist's exploration of the great questions of existence*, New York: Oxford University Press, 2011.

7- Atkins: Peter. *On Being: A scientist's exploration of the great questions of existence*, OUP Oxford, 2011.

8- Attenborough: David. *Life on Earth*, Glasgow: William Collins Sons & Co. Ltd, 1979.

9- Augros: Robert M. and Stanciu: George N., *The New story of science*, Toronto: Bantam Books, 1986.

10- Baggini: Julian. *Atheism: A Very Short Introduction*, Oxford University Press, 2003.

11- Bahnsen: Greg. *Always Ready Directions for defending the faith*, Tex.: Covenant Media Foundation, 1996.

12- Balfour: Arthur. *The Foundations of Belief: Notes Introductory to the Study of Theology*, New York: Longmans, 1918.

13- Barrow: John and Tipler: Frank. *The Anthropic Cosmological Principle*, Oxford: Clarendon Press, 1986.

14- Barth. *The Creation in the Light of Modern Science*, Jerusalem Post Press, Jerusalem, 1966.

15- Bell: Graham. *The Masterpiece of Nature: The Evolution of Genetics and Sexuality*, London: Croom Helm, 1983.

16- Berger: Peter. *The Desecularization of the World: Resurgent Religion and World Politics*, Grand Rapids, MI: Wm. B. Eerdmans, 1999.

17- Bloesch: Donald, *Essentials of Evangelical Theology*, CA: Harper & Row, 1978.

18- Bohm: David: ed. *On Creativity*, London; New York: Routledge, 1998.

19- Born: Max. *The Natural Philosophy of Cause and Chance*, Oxford: 1949.

20- Bradley: Francis. *The Principles of Logic*, London: K. Paul, Trench, 1883.

21- Brierley: Justin. *Unbelievable?*, London: SPCK, Society for Promoting Christian Knowledge, 2017.

22- Brockman: John, ed. *Third Culture: Beyond the Scientific Revolution*, New York: Simon & Schuster, 1996.

23- Broocks: Rice. *God's Not Dead: Evidence for God in an Age of Uncertainty*, Thomas Nelson Publishers, 2015.

24- Budziszewski: J. *Written on the Heart: The Case for Natural Law*, Downers Grove: InterVarsity, 1997.

25- Bunnin: Nicholas and Eric: Tsui-James, eds. *The Blackwell Companion to Philosophy*, John Wiley & Sons, 2003.

26- Bunt: Edwin A., ed. *The English Philosophers from Bacon to Mill,* New York: Random House, 1939.

27- Burgess: S. *Hallmarks of design: Evidence of purposeful design and beauty in nature*, Leominster, UK: Day One Publications, 2002.

28- Burgin: Mark. *Theory of Information: Fundamentality, Diversity and Unification*, Singapore: World Scientific, 2010.

29- Campbell: John Angus and Stephen C., eds. *Darwinism, Design, and Public Education*, East Lansing: Michigan State Univ. Press, 2004.

30- Camus. *The Fall*, New York: Random House, 1956.

31- Camus. *The Rebel*, New York: Alfred Knopf, 1956.

32- Cannavo: Salvator. *Quantum Theory: A Philosopher's Overview*, Albany, State University of New York Press, 2009.

33- Carroll: Sean B. *The Making of the Fittest: DNA and the ultimate forensic record of evolution*, W. W. Norton, 2006.

34- Cave: Peter. *Humanism*, Oxford: OneWorld, 2009.

35- Chesterton: Gilbert Keith. *Varied Types*, New York: Dodd, 1908.

36- Chomsky: Noam. *Language and Mind*, Cambridge: Cambridge University Press, 2006.

37- Clark: R. W. *The Life of Ernst Chain: Penicillin and Beyond*, New York: St. Martin's Press, 1985.

38- Clarke: Samuel. *A Demonstration of the being and Attributes of God*, London: W. Botham, 1725.

39- Collins: Francis. *The Language of God: A Scientist Presents Evidence for Belief*, New York: Free Press, 2006.

40- Conway: Daniel W., Groff: Peter S. eds. *Nietzsche: The world as will to power*, London, Routledge 1998.

41- Copan: Paul. *Is God a Moral Monster?*, Michigan: Baker Books, 2011.

42- Corey: Michael Anthony. *God and the New Cosmology: The Anthropic Design Argument*, Lanham, Md.: Rowman & Littlefield, 1993.

43- Cornwell: John. ed. *Nature's Imagination: The frontiers of scientific vision*, Oxford, Oxford University Press, 1995.

44- Craig: William Lane and Moreland: J. P., eds. *The Blackwell Companion to Natural Theology*, Oxford Wiley-Blackwell, 2012.

45- Craig: William Lane. *On Guard: Defending Your Faith with Reason and Precision*, CO: David C Cook, 2010.

46- Craig: William Lane. *Reasonable Faith*, Wheaton: Good News Publishers/ Crossway Books 2008.

47- Craig: William Lane. *The Existence of God and the Beginning of the Universe*, San Bernardino, CA: Here's Life, 1979.

48- Crick: Francis. *Astonishing Hypothesis*, New York: Scribner, 1994.

49- Crick: Francis. *Life Itself: Its origin and nature*, New York: Simon & Schuster, 1981.

50- Crick: Francis. *What Mad Pursuit: A Personal View of Scientific Discovery*, London: Sloan Foundation Science, 1988.

51- Darwin. *Insectivorous Plants*, Murray, London, 1875.

52- Darwin: Charles. *The Origin of Species*, New York: P. F. Collier & Son, 1909.

53- Darwin: Francis. *Life and Letters of Charles Darwin*, London: D. Appleton, 1896.

54- Davidson: William, Leslie. *Theism as Grounded in Human Nature*, London: Longmans, Green, 1893.

55- Davies: Paul: *Superforce*, New York: Simon & Schuster, 1984.

56- Davies: Paul. *The Mind of God*, London, Simon and Schuster, 1992.

57- Davies: Paul. *About Time: Einstein's Unfinished Revolution*, New York: Simon & Schuster, 1995.

58- Davies: Paul. *Cosmic Blueprint: New Discoveries in Nature's Creative Ability to Order the Universe*, West Conshohocken, PA: Templeton Foundation Press, 2004.

59- Davies: Paul. *God and the New Physics*, Penguin Books Ltd., 1990.

60- Davies: Paul. *Goldilocks Engima: Why Is the Universe Just Right for Life?*, New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2008.

61- Davies: Paul. *The Accidental Universe*, New York: Cambridge University Press, 1982.

62- Davies: Paul. *The Fifth Miracle: The Search for the Origin and Meaning of Life*, Orion productions, 1999.

63- Davis: Stephen T. *God, Reason and Theistic Proofs*, Edinburgh: University Press, 1997.

64- Dawes: Gregory W. *Theism and Explanation*, London; New York: Taylor & Francis, 2009.

65- Dawkins: Richard. *Climbing Mount Improbable*, W. W. Norton & Company, 1997.

66- Dawkins: Richard. *A Devil's Chaplain: Selected Writings*, London: Phoenix, 2004.

67- Dawkins: Richard. *River Out of Eden: A Darwinian View of Life*, New York: Basic Books, 2008.

68- Dawkins: Richard. *The Blind Watchmaker*, London: WW Norton & Company, 1986.

69- Dawkins: Richard. *The God Delusion*, London: Bantam Press, 2006.

70- Dawkins: Richard. *The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution*, London: Transworld Publishers, 2009.

71- Dawkins: Richard. *The selfish Gene*, Oxford: Oxford University Press, 1989.

72- Dawkins: Richard. *Unweaving the Rainbow*, Boston: Houghton Mifflin Harcourt, 1998.

73- Day: Vox. *The Irrational Atheist*, Dallas, Tex.: BenBella Books, 2008.

74- De Duve, Christian. *Life Evolving*, Oxford: Oxford University Press, 2002.

75- Dembski: Behe and Meyer. *Science and Evidence for Design in the Universe*, San Francisco: Ignatius Press, 2000.

76- Dembski: William A. *Intelligent Design: The Bridge Between Science and Theology*, Downers Grove, Ill.: IVP Academic, 1999.

77- Dembski: William and Witt: Jonathan. *Intelligent Design Uncensored*, InterVarsity Press, 2010.

78- Dembski: William, Kushiner: James. *Signs of Intelligence: Understanding Intelligent Design*, Grand Rapids, Mich.: Brazos Press, 2001.

79- Denton: Michael. *Evolution: A Theory in Crisis*, London: Burnett Books, 1985.

80- Noz: M. and Suh Kim: Youn., eds. *Special Relativity and Quantum Theory, eds, Springer Science & Business Media, 2012.*

81- Dissanayake: Ellen. *Homo Aestheticus: Where art comes from and why*, Seattle: Univ. of Washington Press 2010.

82- Does: Anthony J. *Blurry Daydream: When faith feels like make believe*, IN: WestBow, 2017.

83- Doug: Sharp, Bergman: Jerry. *Persuaded by the Evidence*, Kindle edition.

84- Dubay: Thomas. *The Evidential Power of Beauty: Science and Theology Meet*, San Francisco: Ignatius Press, 1999.

85- Duncan: Ronald. and Weston-Smith: Miranda. eds *The Encyclopaedia of Ignorance*, Oxford; New York: Pergamon Press, 1977.

86- Eddington: Arthur. *The Nature of the Physical World*, New York: Macmillan, 1928.

87- Eigen: Manfred. *Steps Towards Life: A Perspective on Evolution*, trans. Paul Woolley, Oxford: Oxford University Press, 1992.

88- Einstein: Albert and Infeld. Leopold: *The Evolution of Physics*, New York: Simon and Schuster, 1938.

89- Einstein: Albert. *Letters to Solovine*, New York: Philosophical library, 1987.

90- Eldredge: Niles and Tattersall: Ian. *The Myths of Human Evolution*, New York: Columbia University Press, 1982.

91- Eldredge: Niles. *Time Frames: The Rethinking of Darwinian Evolution and the Theory of Punctuated Equilibria*, New York NY: Simon & Schuster, 1985.

92- Erickson: Millard J., *God in Three Persons: a contemporary interpretation of the Trinity*, Grand Rapids, MI: Baker Books House, 1995.

93- F. Bertola and U. Curi, eds. *The Anthropic Principle*, Cambridge, England: Cambridge University Press, 1993.

94- Feser: Edward. *Five Proofs of the Existence of God*, San Francisco Ignatius Press, 2017.

95- Feser: Edward. *Scholastic Metaphysics, A Contemporary Introduction*, Heusenstamm: Editiones Scholasticae, 2014.

96- Feynman: Richard. *The Meaning of It All: Thoughts of a Citizen-Scientist*, New York: BasicBooks, 1998.

97- Flew: Antony. *God and Philosophy*, Amherst, N.Y.: Prometheus, 2005.

98- Flew: Antony with Varghese: Roy Abraham. *There is a God, How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind*, New York: HarperOne, 2008.

99- Fodor: Jerry and Piattelli-Palmarini: Massimo. *What Darwin Got Wrong*, New York: Farrar, Straus, and Giroux, 2010.

100- Frede: Michael and Charles: David, ed. *Aristotle's Metaphysics Lambda*, Oxford: Oxford University Press, 2000.

101- Freedman: Russell. *How Animals Defend Their Young*, Dutton New York, 1978.
102- Futuyma: Douglas. *Evolutionary Biology*, Sunderland: Sinauer, 1998.
103- Garrigou-Lagrange. *God: His Existence and His Nature; A Thomistic Solution of Certain Agnostic Antinomies*, St. Louis: B. Herder, 1939.
104- Gauger: Ann, Axe: Douglas and Luskin: Casey. *Science and Human Origins*, Seattle, Wash.: Discovery Institute Press, 2012.
105- Geisler: Norman L. *Baker Encyclopedia of Christian Apologetics*, Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2002.
106- Geisler: Norman L., Turek: Frank. *I Don't Have Enough Faith to Be an Atheist*, Wheaton, Ill.: Crossway Books, 2007.
107- Gitt: Werner. *In the Beginning Was Information*, New Leaf Publishing Group, 2006.
108- Gonzalez: Guillermo and Richards Jay W. *The Privileged Planet, How Our Place in The Cosmos is Designed for Discovery*, Regnery Publishing 2004.
109- Gordon: Bruce L. and Dembski: William A., eds. *The Nature of Nature: Examining the Role of Naturalism in Science*, Wilmington, DE: ISI, 2011.
110- Gould: Stephen J. *Wonderful Life: The Burgess Shale and the Nature of History*, New York, NY: W.W. Norton & Company, 1989.
111- Gould: Stephen Jay. *The Panda's Thumb: More Reflections in Natural History*, New York: W. W. Norton & Company, 1980.
112- Grassé: Pierre-Paul. *Evolution of Living Organisms*, New York: Academic Press, 1977.
113- Gray: John, *The Silence of Animals*, New York: Farrar, Straus & Giroux, 2013.
114- Gray: John. *Straw Dogs: Thoughts on Humans and Other Animals*, New York: Farrar, Straus and Giroux, 2007.
115- Green: David E. and Goldberger: Robert F. *Molecular Insights into the Living Process*, New York: Academic Press, 1967.
116- Grieg: J., ed. *The Letters of David Hume*, Oxford: Clarendon Press, 1932.
117- Groothuis: Douglas R. *Christian Apologetics: A comprehensive case for biblical faith*, Downers Grove, Ill.: IVP Academic; Nottingham, England: Apollos, 2011.
118- Guttenplan: Samuel. ed. *A Companion to Philosophy of Mind*, Oxford: Blackwell, 1994.
119- Haeckel: Ernst. *The History of Creation*, tr. Ray Lankster, London: Trench, 1883.

120- Haldane: J.B.S. *Possible Worlds*, Transaction Publishers, New Brunswick, NJ, 2009.

121- Hamlyn: D. W. *The Theory of Knowledge*, London, Macmillan, 1970.

122- Harold: Franklin M. *The Way of the Cell: molecules, organisms and the order of life*, Oxford University Press, New York, 2001.

123- Harris: Marvin. *The Rise of Anthropological Theory: A History of Theories of Culture*, New York: Thomas Y. Crowell Company, 1971.

124- Harris: Sam. *Free Will*, New York: Free Press, 2012.

125- Harris: Sam. *The End of Faith: Religion, Terror, and the Future of Reason*, London: Simon & Schuster, 2006.

126- Harris: Sam. *The Moral Landscape: How Science Can Determine Human Values*, New York: Free Press, 2010.

127- Hasker: William. *Metaphysics*, Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1983.

128- Hawking: Stephen and Mlodinow: Leonard. *A Briefer History of Time*, New York: Bantam Books, 2005.

129- Hawking: Stephen and Mlodinow: Leonard. *The Grand Design*, New York: Bantam Books, 2010.

130- Hawking: Stephen. *A Brief History of Time*, New York: Bantam Books, 1996.

131- Hawking: Stephen. *The Theory of Everything: The origin and fate of the universe*, Beverly Hills, CA: New Millennium Press, 2002.

132- Heeren: Fred. *Show Me God*, Wheeling, Illinois, Searchlight Publications, 1995.

133- Heidegger: Martin. *An Introduction to Metaphysics*, New York: Anchor Books, 1961.

134- Heil: John. *Philosophy of Mind: A Contemporary Introduction*, London: Routledge, 1998.

135- Heisenberg: Werner. *Across the Frontier*, New York: Harper and Row, 1974.

136- Hindson: Ed and Caner: Ergun, eds. *The Popular Encyclopedia of Apologetics*, Eugene, Or.: Harvest House Publishers, 2008.

137- Hodgman: Stephen Alexander. *Moses and the Philosophers*, Ferguson bros. & Company, 1881.

138- Hofstadter: Douglas. *An Eternal Golden Braid*, London, Penguin, 1979.

139- Hooper: Walter., ed. *C. S. Lewis, Christian Reflections, Grand Rapids: Eerdmans, 1967.*

140- Hospers: John. *An Introduction to Philosophical Analysis*, Routledge & Kegan Paul: London, 1967.

141- Houghton: John T. *The Search for God: Can Science Help*, Vancouver: Regent College Pub., 2007.

142- Hoyle: Fred. *Home is Where the Wind Blows: Chapters from a Cosmologist's Life*, Oxford: Oxford University Press, 1997.

143- Huchingson. James. ed. *Religion and the Natural Sciences: The range of engagement*, Eugene, Or.: Wipf & Stock, 2005.

144- Hume: David. *Essays, Literary, Moral, and Political*, London: Alex. Murray, 1870.

145- Hume: David. *On the Standard of Taste, in Essays and Treatises on Several Subjects*, London: T. Cadell, 1784.

146- Huxley: Adlous. *Complete Essays: 1936-1938*, Chicago, Ill.: Ivan R. Dee, 2001.

147- Jacob: Francois. *Of Flies Mice and Men*, tr. Giselle Weiss, Harvard University Press, 1998.

148- Janet: Paul. *Final Causes*, trans. William Affleck, Edinburgh: T. & T. Clark, 1878.

149- Jastrow: Robert. *God and the Astronomers*. New York: Norton, 1992.

150- Jinn: Bo. *Illogical Atheism*, Nashville: Thomas Nelson, 2015.

151- Joad: C.E.M. *Guide to Modern Thought*, London: Faber and Faber, 1933.

152- Joyce: George Hayward. *Principles of Natural Theology*, Longmans, Green & co., 1923.

153- Kaku: Michio. *Parallel Worlds*, London: Penguin, 2006.

154- Kant: Immanuel. *Critique of Practical Reason*, Indianapolis: Hackett Publishing Company, 2002.

155- Kant: Immanuel. *Critique of Pure Reason*, tr. Norman Kemp Smith, New York: Springer, 2016.

156- Kauffman: Stuart. *At Home in the Universe: The search for laws of self-organization and complexity*, New York: Oxford University Press, 1995.

157- Keller: Timothy J. *The Reason for God: Belief in an Age of Skepticism*, New York: Penguin, 2008.

158- Koonin: Eugene V. *The logic of Chance: the nature and origin of biological evolution*, Upper Saddle River, N.J.: Pearson Education, 2012.

159- Krauss: Lawrence M. *A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing*, New York: Free Press, 2012

160- Krauss: Lawrence M. *The Greatest Story Ever Told-So Far: Why Are We Here?*, Atria Books 2017.

161- Kreeft: Peter and Tacelli: Ronald K., *Pocket Handbook of Christian Apologetics*, Downers Grove, Illinois: InterVarsity Press, 2003.

162- Kreeft: Peter. *Heaven, The Heart's Deepest Longing*, San Francisco: Ignatius Press, 1989.

163- Kreeft: Peter. *Three Philosophies of Life*, San Francisco Ignatius Press 1989.

164- Kuhn: Thomas. *The Structure of Scientific Revolutions*, University of Chicago Press, 1970.

165- Larson: Barbara Jean and Brauer. Fae, eds. *The Art of Evolution: Darwin, Darwinisms, and Visual Culture*, Lebanon: University Press of New England, 2009.

166- Latham: Antony. *The Naked Emperor: Darwinism Exposed*, London: Janus, 2005.

167- Laughlin: Robert. *A Different Universe: Reinventing Physics from the Bottom Down*, New York, Basic Books, 2005.

168- Lear: J. *Aristotle: The Desire to Understand*, Cambridge: Cambridge University Press, 1988.

169- Leibniz: Gottfried. *Leibniz: Philosophical Essays*, tr. Roger Ariew and Daniel Garber, Indianapolis: Hackett, 2015.

170- Leibniz: Gottfried. *The Monadology and Other Philosophical Writings*, tr. Robert Latta, Oxford: Clarendon Press, 1898.

171- Lennox: John C. *God's Undertaker: Has Science Buried God?*, Oxford: Lion Hudson, 2007.

172- Lennox: John C. *Gunning for God: Why the New Atheists are Missing the Target*, Oxford: Lion, 2011.

173- Leslie: John. *Universes*, London and New York: Routledge, 1989.

174- Lewis: C. S. *Miracles*, New York: HarperOne, 1996.

175- Lewis: C.S. *Mere Christianity, The Complete C. S. Lewis Signature Classics*, San Francisco, Calif.: HarperSanFrancisco, 2002.

176- MacDonald: George. *The Curate's Awakening*, Minneapolis: Bethany House, 1985.

177- Mackie: J.L. *The Miracle of Theism*, Oxford University Press, 1982.

178- Mann: William. ed. *The Blackwell Guide to the Philosophy of Religion*, Oxford: Blackwell, 2005.

179- Manson: Neal A., ed. *God and Design: The Teleological Argument and Modern Science*, ed., New York: Routledge, 2003.

180- Manson: Neil A. *God and Design: The Teleological Argument and Modern Science*, London; New York: Routledge, 2003.

181- Margenau: Henry and Varghese: Roy Abraham, eds. *Cosmos, Bios, Theos*, La Salle, Ill.: Open Court, 1992.

182- Margulis: Lynn and Sagan: Dorion. *Acquiring Genomes: A Theory of the Origins of the Species* New York: Basic Books, 2003.

183- Martin: Michael, ed. The Cambridge Companion to Atheism, New York: Cambridge University Press, 2007.

184- Maurice: Thomas, *Indian Antiquities*, London: W. Richardson, 1800.

185- Mazur: Susan. *The Origin of Life Circus*, New York: McNally Jackson Books, 2014.

186- McDowell: Josh and Sean. *Evidence That Demands a Verdict: Life-Changing Truth for a Skeptical World*, Nashville, Tennessee: Thomas Nelson, 2017.

187- McGhee: George R. *Convergent Evolution: Limited Forms Most Beautiful*, Cambridge, MA: MIT Press, 2011.

188- McGrath: Alister. *Intellectuals Don't Need God and Other Modern Myths*, Grand Rapids, Mich.: ZondervanPublishingHouse, 1993.

189- McGrath: Alister. *The Twilight of Atheism*, London: Rider & Co, 2005.

190- McKeon: Richard: trans. *The Basic Works of Aristotle*, New York: Random House, 1941.

191- Medawar: Peter. *Advice to a Young Scientist*, London, Harper and Row, 1979.

192- Metaxes: Eric. *Miracles: What They Are, Why They Happen, and How They Can Change Your Life*, New York: Plume, 2014.

193- Meyer: Stephen C. *Signature in the Cell: DNA and the Evidence for Intelligent Design*, New York: HarperOne, 2009.

194- Meyer: Stephen. *Darwin's Doubt: The Explosive Origin of Animal Life and the Case* for *Intelligent Design*, WA: HarperCollins, 2014.

195- Miller, Corey and Gould, Paul: eds. *Is Faith in God Reasonable?: Debates in Philosophy, Science, and Rhetoric*, New York: Routledge, 2014.

196- Millikan: Robert. *Science and Religion*, New Haven: Yale University Press, 1930.

197- Monod: Jacques. *Chance and necessity*, London: Fontana, 1974.

198- Monton: Bradley. *Seeking God in Science: an atheist defends intelligent design*, Toronto Broadview Press, 2010.

199- Moreland: J. P. *et. al.* eds. *Theistic Evolution: A Scientific, Philosophical, and Theological Critique*, Wheaton, Illinois: Crossway, 2017.

200- Moreland: J. P. *Scaling the Secular City*, Grand Rapids: Baker Book House, 1987.

201- Morris: Christopher G., ed. *Academic Press Dictionary of Science and Technology,* C.A., Academic Press, 1992.

202- Morris: Henry M. *Scientific Creationism*, AR: New Leaf Publishing Group, Jan 1, 1974.

203- Morris: Simon Conway. *Life's Solution: Inevitable Humans in a Lonely Universe*, Cambridge, UK: Cambridge Univ. Press, 2004.

204- Murray: Michael J. ed., *Reason for the Hope Within*, Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1999.

205- Nagel: Thomas. *Secular Philosophy and the Religious Temperament: Essays 2002-2008*, Oxford; New York: Oxford University Press, 2010.

206- Nagel: Thomas. *The Last Word*, Oxford: Oxford University Press, 2009.

207- Nagel: Thomas. *The View from Nowhere*, New York: Oxford University Press, 1986.

208- Nagel: Thomas: *Mind and Cosmos: why the materialist neo-darwinian conception of nature is almost certainly false,* New York: Oxford University Press, 2012.

209- National Academy of Sciences, *Teaching about Evolution and the Nature of Science*, Washington, DC: National Academy Press, 1998.

210- Needham: Joseph. *The Grand Titration*, London: G. Allen & Unwin, 1969.

211- Nielsen: Kai. *Reason and Practice: a modern introduction to philosophy*, New York: Harper & Row, 1971.

212- Nietzsche, Friedrich. *The Antichrist*. tr. H. L. Mencken, New York: A. A. Knopf, 1920.

213- Nietzsche. Friedrich. *Twilight of the Idols*, Oxford: Oxford University Press, 2008.

214- Nietzsche: Friedrich. *The Gay Science*, tr. Josefine Nauckhoff, Cambridge: University Press, 2001.

215- Nietzsche: Friedrich. *Untimely Meditations*, Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1997.

216- Nietzsche: Friedrich. *The Gay Science*, tr. Josefine Nauckhoff, Cambridge: University Press, 2001.

217- Nietzsche: Friedrich. *Thus Spake Zarathustra*, tr. Alexander Tille, London: Macmillan, 1896.

218- Norton: Andrews, *A Statement of Reasons for not Believing the Doctrines of Trinitarians, Concerning the Nature of God and the Person of Christ*, Boston: American Unitarian Association, 1870.

219- O'Hear: Anthony. *Beyond Evolution*, Oxford: Clarendon Press; New York: Oxford University Press, 1999.

220- Paley: William. *Natural Theology or Evidences of the Existence and Attributes of the Deity*, Philadelphia, John Morgan, 1809.

221- Pascal: Blaise. *Pensées and Other Writings*, trans. H. Levi, New York: Oxford University Press, 2008.

222- Pearcey: Nancy *Finding Truth: 5 Principles for Unmasking Atheism, Secularism, and Other God Substitutes*, Colorado Springs, CO: David C. Cook, 2015.

223- Pearcey: Nancy. *Saving Leonardo: A Call to Resist the Secular Assault on Mind, Morals, & Meaning*, Nashville, Tennessee: B & H Publishing Group, 2010.

224- Penrose: Roger. *Shadows of the Mind*, New York: Oxford University Press, 1994.

225- Penrose: Roger. *The Emperor's New Mind*, New York: Oxford University Press.

226- Penz: Fran5ois, Radick: Gregory. and Howell Robert: *Space: In Science, Art and Society*, Cambridge: Cambridge University Press, 2004.

227- Pinnock: Clark H. *Most moved mover: a theology of God's openness*, Carlisle: Paternoster Press, 2002.

228- Planck: Max. *Where Is Science Going?*, New York: W.W. Norton, 1932.

229- Plantinga: Alvin and Wolterstorff: Nicholas, eds. *Faith and Rationality*, Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1983.

230- Plantinga: Alvin. *Warrant and Proper Function and Warranted Christian Belief*, New York: Oxford University Press, 2000.

231- Plantinga: Alvin. *Where the Conflict Really Lies: Science, Religion, and Naturalism*, New York: Oxford UP, 2011.

232- Polkinghorne. *Belief in God in An Age of Science*, Harrisburg, Pa.: Trinity Press International, 1998.

233- Polkinghorne. *Quarks, Chaos & Christianity*, New York: Crossroad Pub., 2005.

234- Polkinghorne: John C. *Science and Creation: The Search for Understanding*, Templeton Foundation Press, 2006.

235- Polkinghorne: John. *Science and theology*, London: SPCK; Minneapolis: Fortress Press, 1998.

236- Poplin: Mary. *Is Reality Secular?*, Downers Grove, IL: InterVarsity, 2014.

237- Popper: Karl. *The Open Universe: An Argument for Indeterminism*, Psychology Press, 1988.

238- Potter: Michael K. *Bertrand Russell's Ethics*, London; New York: Continuum, 2006.

239- Psillos: Stathis and Curd, Martin, eds. *The Routledge Companion to the Philosophy of Science*, London: Routledge, 2008.

240- Raines: John. *Marx on Religion*, Philadelphia: Temple University Press, 2002.

241- Rana: Fazale and Ross: Hugh. *Origins of life*, Covina, CA: RTB Press, 2013.

242- Rana: Fazale and Ross: Hugh. *Who Was Adam?: A creation model approach to the origin of man*, Covina, CA: RTB Press, 2015.

243- Rea: Michael, Pojman: Louis eds. *Philosophy of Religion: An Anthology,* Stamford, CT: Cengage Learning, 2015.

244- Rees: Martin. *Just Six Numbers: The Deep Forces That Shape the Universe*, London: Weidenfeld & Nicolson, 2015.

245- Reid: Thomas. *Essays on the Intellectual Powers of Man*, J. Bartlett, 1852.

246- Reid: Thomas. *An Inquiry into the Human Mind, on the Principles of Common Sense,* Edinburgh: Bell & Bradfute, 1810.

247- Reppert: Victor. *C. S. Lewis's Dangerous Idea: In Defense of the Argument from Reason*, Downers Grove, Illinois: InterVarsity Press, 2003.

248- Rosenberg: Alexander. *The Atheist's Guide to Reality: enjoying life without illusions*, New York: W.W. Norton, 2011.

249- Ross: Hugh. *A Matter of Days: Resolving a Creation Controversy*, Covina, CA: RTB Press, 2015.

250- Ross: Hugh. *Creation as Science: A Testable Model Approach to End the Creation/evolution Wars*, Colorado Springs, CO: NavPress, 2006.

251- Ross: Hugh. *More Than a Theory, Revealing a Testable Model for Creation*, Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2009.

252- Ross: Hugh. *The Creator and the Cosmos*, Colorado Springs, CO: Nav-Press, 1995.

253- Rossiter: Wayne D. *Shadow of Oz: Theistic Evolution and the Absent God*, Eugene, Oregon: Pickwick Publications, 2015.

254- Ruse: Michael. *Can a Darwinian Be a Christian? The Relationship Between Science and Religion*, Cambridge: Cambridge University Press, 2001.

255- Ruse: Michael. *Defining Darwin: Essays on the History and Philosophy of Evolution*, Amherst New York, Prometheus Books, 2009.

256- Ruskin: John. *The Eagle's Nest*, London: George Allen, 1905.

257- Russell: Bertrand. *Last Philosophical Testament: 1943-68*, London; New York: Routledge, 1997.

258- Russell: Bertrand. *Autobiography*, London: Routledge, 1998.

259- Russell: Bertrand. *History of Western Philosophy*, New York: Simon and Schuster, 2008.

260- Russell: Bertrand. *Why I Am Not a Christian: And Other Essays on Religion and Related Subjects*, Simon and Schuster, 1957.

261- Sagan: Carl. *Cosmos*, Ballantine, 2013.

262- Sarfati: Jonathan. *The Greatest Hoax on Earth? Refuting Dawkins on evolution*, Kindle edition.

263- Sartre: Jean-Paul. *Jean-Paul Sartre: Basic Writings*, Psychology Press, 2001.

264- Sartre: Jean-Paul. *Existentialism Is a Humanism*, New Haven, Conn: Yale University Press, 2007.

265- Schopenhauer: Arthur. *A Series of Essays by Arthur Schopenhauer*, P. Eckler, 1915.

266- Schopenhauer: Arthur. *The World as Will and Representation*, tr. E. F. J. Payne, New York: Dover, 2012.

267- Schopf: J. William: *Cradle of Life: The Discovery of Earth's Earliest Fossils*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999.

268- Schultz: Glen. *Kingdom Education*, Nashville, TN: LifeWay, 1998.

269- Shapiro: *Origins. A Skeptic's Guide to the Creation of Life in the Universe*, London: Penguin, 1988.

270- Shermer: Michael. *How We Believe: Science, Skepticism, and the Search for God*, New York: Freeman, 2000.

271- Siegel: H. *Relativism Refuted: A critique of contemporary epistemological relativism*, Dordrecht: D. Reidel, 1987.

272- Simpson: George Gaylord and Samson: Beck William. *Life: An Introduction to Biology*, New York: Harcourt, Brace & World, 1965.

273- Singh: Sunil. *Pi of Life: The Hidden Happiness of Mathematics*, Rowman & Littlefield, 2017.

274- Sire: W., James. *Why Should Anyone Believe Anything at All?*, Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1994.

275- Smart: J. J. C. and Haldane: J. J. *Atheism and Theism*, Oxford Blackwell, 1996.

276- Smolin: Lee. *The Trouble with Physics*, London: Penguin, 2008.

277- Sorley: William Ritchie. *Moral Values and the Idea of God*, New York: Macmillan, 1921.

278- Spetner: Lee M. *Not by Chance! Shattering the Modern Theory of Evolution*, Brooklyn, N.Y.: Judaica Press, 1997.

279- Spiegel: James and Cowan: Steven: *The Love of Wisdom*, Nashville, Tenn: B&H Academic, 2009.

280- Spitzer: Robert. *The Soul's Upward Yearning: Clues to Our Transcendent Nature from Experience and Reason*, San Francisco, California Ignatius Press, 2015.

281- Sproul: R. C. *The Consequences of Ideas: Understanding the concepts that shaped our world*, Wheaton, IL: Crossway Books, 2000.

282- Stace: W.T. *A Critical History of Greek Philosophy*, London: Macmillan and Co., 1934.

283- Stanley: Steven M. *The New Evolutionary Timetable*, New York: Basic Books, 1981.

284- Stewart: Robert B., ed. *God and Cosmology: William Lane Craig and Sean Carroll in Dialogue*, Fortress Press, 2016.

285- Stewart: Robert B., ed. *The Future of Atheism*, Minneapolis: Fortress Press, 2008.

286- Stewart: Robert ed. *Intelligent Design: William A. Dembski & Michael Ruse in Dialogue*, Minneapolis, Minn.: Fortress Press, 2008.

287- Stokes: Mitch. *How to Be an Atheist Why Many Skeptics Aren't Skeptical Enough*, Wheaton: Crossway, 2016.

288- Strobel: Lee. *The Case for Faith*, Michigan: Zondervan, 2000.

289- Swinburne: Richard. *Is There a God*, Oxford: Oxford University Press, 1996.

290- Taylor: Charles. *A Secular Age*, Cambridge: Harvard University Press, 2007.

291- Taylor: Richard. *Metaphysics*, Prentice Hall, 1992.

292- Taylor: Richard. *Virtue Ethics: An Introduction*, Prometheus Books, 2002.

293- Til: Cornelius Van. *A Survey of Christian Epistemology*, NJ: Presbyterian and Reformed, 1969.

294- Trinklein: Frederick E. *The God of Science*, Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1971.

295- Turek: Frank. *Stealing from God: Why atheists need God to make their case*, Colorado Springs, CO: NavPress, 2015.

296- Vaguine: Victor. *Prologue to Super Quantum Mechanics*, Dallas, TX: ConsReality Press, 2012.

297- Varghese. *Wonder of the World*, Fountain Hills, Ariz.: Tyr Publ., 2004.

298- Varghese: Roy Abraham. ed. *Intellectuals Speak out about God*, Chicago, Ill.: Regnery Gateway, 1984.

299- Vilenkin: Alexander. *Many Worlds in One: The Search for Other Universes*, New York: Hill and Wang, A division of Farrar, Straus and Giroux, 2006.

300- Voland: Eckart and Grammer: Karl, *Evolutionary Aesthetics*, Berlin; London: Springer, 2011.

301- Waldie: Lance. *A Christian Apologetic for Christian Apologists*, Lulu Com, 2013.

302- Ward: Keith. *God, Chance and Necessity*, Oxford: One World Publications, 1996.

303- Ward: Peter D. and Brownlee: Donald. *Rare Earth: Why Complex Life is Uncommon in the Universe*, New York: Copernicus, 2000.

304- Watson: James D. *The Double Helix: A Personal Account of the Discovery of the Structure of DNA*, New York: Atheneum, 1968.

305- Weinberg: Steven. *Dreams of a Final Theory*, London: Vintage Digital, 2010.

306- Weinberg: Steven. *Facing Up*, Cambridge; London: Harvard University Press, 2003.

307- Willard: Dallas. *Knowing Christ Today: Why We Can Trust Spiritual Knowledge*, New York: HarperOne, 2009.

308- Williams: Peter. *A Faithful Guide to Philosophy*, Milton Keynes: Authentic Media, 2013.

309- Wylen: Gordon Van. *Thermodynamics*, New York: John Wiley & Sons, 1959.

310- Yancey: Philip. *Disappointment with God*, Grand Rapids, Michigan: Zondervan, 1988.

311- Yockey: Hubert. *Information Theory and Molecular biology*, Cambridge: Cambridge University Press, 1922.

312- Zacharias: Ravi. *The Real Face of Atheism*, Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2004.

313- Zimmer: Carl. *Evolution: The Triumph of an Idea*, Harper Collins, 2010.

الكتب الفرنسيّة:

1- Camus: Albert. *Oeuvres Complètes d'Albert Camus*, Club de l'honnête homme, 1983.

2- Camus: Albert. *Le Mythe de Sisyphe*, Paris: 1942.

3- Comte: Auguste. *Système de Politique Positive*, Paris: Divers, 1895.

4- Grasse: Pierre-Paul. *L'évolution du Vivant, Matériaux pour une Nouvelle Théorie Transformiste*, Paris: A. Michel, 1973.

5- Poincaré: Henri. *Science et Méthode*, Paris: Flammarion, 1947.

6- Sabatier: Auguste: *Esquisse d'une philosophie de la religion d'apres la psychologie et l'histoire*, Paris, 1897.

7- Voltaire: *OEuvres complètes de Voltaire*, ed. Louis Moland, Paris: Garnier, 1877-1885.